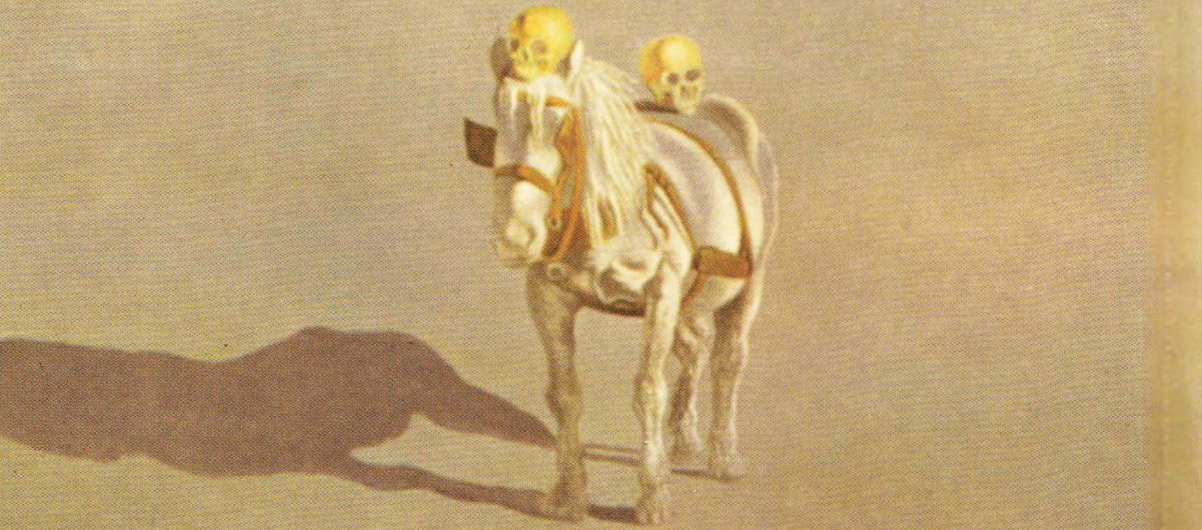
توماس مان

الجبل السحري



ترجمة: علي عبدالأمير صالح

منشورات الجمل

رواية

توماس مان، **الجبـل الســحـري**، رواية

توماس مان

الجبل السحري

رواية

ترجمة: علي عبدالأمير صالح

منشورات الجمل

وُلِد علي عبد الأمير صالح في مدينة الكوت - واسط عام ١٩٥٥. يمارس كتابة القصة القصيرة والرواية والترجمة منذ منتصف سبعينات القرن الماضي. نال جائزة الدولة في الترجمة سنة ٢٠٠٠. من ترجماته المنشورة: **غراهام غرين**: حفلة القنبلة، رواية - بغداد ١٩٨٩؛ **جيمس بولدوين**: قل لي كم مضى على رحيل القطار، رواية، القاهرة ٢٠٠٣؛ **أنابيس نن**: دلتا فينوس، رواية، دمشق ٢٠٠٧. من أعماله المنشورة: **الهولندي الطائر**، قصص قصيرة، دمشق ٢٠٠٠؛ **أرابيسك**، رواية، عمّان ٢٠٠٩؛ **خميلة الأجنة**، رواية، بيروت ٢٠٠٩.

توماس مان: **الجبل السحري**، رواية
ترجمة: علي عبدالأمير صالح، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Thomas Mann: *Der Zauberberg*, Roman 1924

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: info@al-kamel.de

الكاتب والرواية

يُعد الروائي والقاص الألماني توماس مان واحداً من أبرز أعلام الأدب الألماني في القرن العشرين. ولد هذا الكاتب في مدينة لوبيك وعاش من العام ١٨٧٥ الى العام ١٩٥٥.

كان توماس مان فناناً عبقرياً في اللغة، يعطي البرهان على أن في الإمكان استخدام اللغة للتغلب على الأمور ومن ثم لتوضيحها. وتتجلى عبقرية توماس مان في تعابيره الرصينة المصونة في جمل هادئة متينة البنيان، دقيقة التكوين، بكلمات هادفة مختارة بعناية فائقة، لا تجد لأي منها، آثاراً سلبيةً جانبيةً، ليستْ من أصل المقصود بها، ومن فوقها غلالة من روح التهكم، لا تكاد تراها، إنما تحس بوجودها احساس الواثق، مثل طبقة رقيقة جداً من مسحوق السكر الناعم يتذوقه لسانك مع الحلوى.. من دون أن تبصره عينك فوقها.. ولا غرابة أن يعده الكاتب الألماني فريدريك نوربيرج «أحد الكتّاب الساخرين العمالقة الذين عرفهم تاريخ الأدب الألماني كله».

قضى الكاتب حياته مهتماً بالمشاكل البشرية، وباحثاً عن معانٍ إنسانية.. وقد لقيتْ كتاباته صدىً في نفوس المستنيرين المؤمنين بمسؤولية الكلمة المكتوبة. ان أدب توماس مان غزير عميق يبعث في نفس قارئه تأملات وتساؤلات كثيرة، ويثير في نفس مَنْ يود الكتابة عنه كثيراً من الموضوعات التي يجب أن يتناولها.

قال مان في إحدى خطبه: «أنا لا أؤمن بتلك النظرية التي لا ترى في الفن إلا متعةً نزجي به وقت فراغنا.» ثم يضيف قائلاً: «وإذا كانت الإنسانية

ترغب رغبةً أكيدةً في الاحتفاظ بحريتها وكرامتها، فإن عليها ألا تقف موقفاً محايداً من المشاكل الإجتماعية والسياسية، والفنان هو أكثر البشر إنسانية، ولهذا فإن من واجبه أن يرفع صوته عالياً مدافعاً عنها، هاباً لنصرتها، عندما تهددها قوى الجهل والبطش والبربرية.»

يعد بعضهم عناية مان الكبرى بالشكل والاسلوب والأداء الفني ضرباً من الكتابة الكلاسيكية الرائعة في دقة بنيانها وروعة اسلوبها. وليس مرد هذه العناية ليس هرب الفنان من المشكلات التي تجابهه، بل تعتمد في الدرجة الأولى على شعور أخلاقي يحدو بالفنان نحو طلب الكمال في الكتابة والدقة في التعبير عن أفكاره. ان الكتابة لدى توماس مان، كما يعكسها أبطاله وكتاباته نفسها، هي إلتزام خلقي قبل كل شيء.

إن أبطال توماس مان الشبان كلهم يعشقون الموسيقى والأدب ويشعرون، نتيجة لذلك، بضيق البيئة التي ينمون فيها، فهم لذلك يأملون في الخروج منها والهرب. ولكنهم جميعاً يشعرون بحنين دائم. وان هذه النفوس الفتية كلها لتمتاز بأنها نفوس معقدة يضنيها قلق ميتافيزيقي، بينما نرى أن المجتمع يفرض عليها العزلة والوحدة. ان هناك هوةً تفصل بين هذه النفوس وبين الناس العاديين، السعيدين بالحياة، ولكن حنيناً كثيفاً يدفع بهم الى أن يشاركوا الناس أفراحهم وأعيادهم. ومن هنا كان تشاؤمهم وبرمهم بالحياة. ذلك بأن ألمهم الكبير ليس نتيجة خطيئة فردية بل مرده الى البنيان العام للوضع البشري.

تأثر توماس مان بشوبنهاور ونيتشه أعمق التأثر وكان لهما دور كبير جداً في تكوينه الفكري والثقافي. فلقد تبنى فلسفة متشائمة ترى ان الحياة رهيبة وان العالم سيء، وتتغنى بالموت وبسحر العدم. كما أن حب توماس مان للموسيقى نتيجة تأثره واعجابه بالموسيقار الكبير فاجنر قد جعل معظم رواياته تعنى بالموسيقى والموسيقيين. كما ان معظم أبطاله أُناس يفكرون ويطيلون التفكير في شتى المشاكل التي تُطرح أمامهم وتمتلئ كل روايات مان بهذه الحوارات الطويلة العميقة التي تدور بين الأبطال وتمس أعمق المشاكل الإنسانية والفكرية.

مُنح توماس مان سنة ١٩١٩ درجة الدكتوراه الفخرية في الفلسفة من جامعة بون، وحصل سنة ١٩٢٩ على جائزة نوبل للآداب. كما مُنح سنة ١٩٣٥ مع ألبرت آينشتاين درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة هارفرد.

كان توماس مان إبناً لأحد أعضاء مجلس شيوخ مدينة لوبيك. وفي ذلك الجو البورجوازي الراقي نشأ.. فرسم بعض شخصياته وبيئته في رواية «عائلة برودنبروك». واشتغل وهو ابن الثامنة عشرة في مكتب شركة للتأمين ضد الحرائق، وأصبح فيما بعد صحفياً. وما إن بلغ الثانية والعشرين بعد سنة ١٨٩٧، حتى قام برحلةٍ الى إيطاليا، فبدأ بكتابة «عائلة برودنبروك» أثناءها، وجمع فيها العديد من الصور الواقعية من بيئة أسرته نفسها.

هاجر توماس مان سنة ١٩٣٣ من بلده، بعد ان سيطرت النازية على سدة الحكم في ألمانيا، فعاش خمسة أعوام في سويسرا أولاً ثم انتقل الى الولايات المتحدة الأمريكية.. ثم عاد الى أوربا العام ١٩٥٢ وعاش في سويسرا، ولكنه لم ينقطع عن زيارة جمهورية ألمانيا الإتحادية.

من قصصه ورواياته المهمة: «الموت في البندقية»، «الدكتور فاوستوس»، «لوته في فايمار»، «يوسف واخوته» (بأربعة أجزاء)، «طونيو كروجر»، «البطة السوداء»، «فيلكس كرول»، «ماريو والساحر»، فضلاً عن «آل برودنبروك» و«الجبل السحري».

إن روايات مان وقصصه، حالها حال الفنون المعاصرة الجيدة، لم يخططْ لها أن تخاطِب قوانا العقلية مباشرةً أو حاجاتنا الغريزية من أجل إعطاء أحكام أخلاقية، لقد خُطط لها أن تخاطب ذكاءنا وتحسسنا بالتناقض الإنساني الظاهري. فبدون هذه المزايا من المحتمل ألا نسيء قراءة أعمال مان حسب، بل القسم الأكبر من الأدب المعاصر الصادق.

إن المقاطع التي اشتهرت من «الجبل السحري» حول جو المصح الإستشفائي فيه، ومدى الصدق في تصويره والتعبير عنه، لم يكن من باب المصادفة ولا الخيال، بل كان نموذجه الواقعي، عندما كتب هو عن مصح في «دافو» بسويسرا، أمضت زوجته كاتيا فيه بعض الوقت، بسبب إصابة مرضية خفيفة في رئتيها آنذاك. لقد اكتسب توماس مان هناك، انطباعات عن

الجو والبيئة، انعكست من بعد الى أقصى درجات التفصيل والدقة في كتابه.

قال الناقد الأدبي المعروف مارسيل رايش ـ رانيكي عن رواية «الجبل السحري» التي نشرها توماس مان بعد نحو ربع قرن من نشر «آل برودنبروك»: «انها قمة لم يصل اليها أحد من قبل في تاريخ الأدب والفكر والثقافة بألمانيا. وذلك ما تكلم به الكثيرون هنا وهناك في العالم. فقد نجح مان فعلاً في أن يجعل هذه الحقيقة تذيع في العالم لتصل الى بلده من جديد».

المترجم

كلمة أولى

إن قصة هانز كاستورب التي سوف نعلنها هنا، ليس لمصلحته الخاصة، ذلك ان القارئ اللبيب سيتعرف فيه الى شاب ساذج مع انه سار، بل من أجل القصة ذاتها، التي تبدو لنا جديرةً بالسرد بصورةٍ كبيرة ـ مع اننا نحتاج الى أن نتذكر، لأجل هانز كاستورب، ان قصته، وليست كل قصة تحدث لكل شخص ـ هذه القصة، نقول، تعود الى العهد البعيد؛ كانتْ، قبل الآن، إن صح التعبير، محجوبةً بالقالب التاريخي، وبصورةٍ لا يرقى إليها الشك يلزم تقديمها بصيغة الفعل الدالة على زمانه والأفضل ملاءمةً لحكايةٍ من عمق الماضي.

ينبغي ألا يكون ذلك عائقاً أمام قصةٍ من القصص، بل على العكس. بما ان القصص يجب أن تكون في الماضي، إذاً كلما كان الماضي أبعد فذلك أفضل، هكذا يبدو الأمر، أفضل لها في ميزتها كقصص، وأفضل له، راويها، الساحر البارع لأزمنة الماضي كلها. تقف هذه القصة، فضلاً عن ذلك، كما تفعل هي اليوم: مع البشر، ليس بينهم على الإطلاق كتّاب الحكايات: فقصتنا أكبر سناً من سنواتها؛ لا يمكن قياس عمرها بطول الأيام، ولا بثقل الزمن على رأسها، الزمن المحسوب بعدد مرات شروق الشمس أو أفولها. وباختصار، إن درجة قِدمها لا صلة لها البتة مع مر الزمن ـ وهو تصريح يلمح فيه المؤلف بصورةٍ مقصودة الى الطبيعة الثنائية الغريبة والمشكوك فيها لذلك العنصر المحيّر.

لكننا لن نخفي عن قصد قضيةً جليةً. إن (الماضوية) المبالَغ بها لقصتنا

تُعزى الى كونها تجري قبل العهد الذي حطمتْ فيه أزمة معينة طريقها (أي القصة) عبر الحياة وال وعي، وخلّفت وراءها هوةٍ سحيقةً. تجري قصتنا ـ أو بالأحرى، كي نتفادى بصورةٍ مدروسةٍ صيغة الفعل الدالة على الحاضر، جرتْ، ولابد انها جرتْ في زمنٍ بعيد، في سالف الأيام، أيام العالم قبل الحرب العظمى[1]، ففي بدايتها كانت قد بدأتْ أشياء كثيرة بحيث انها مع ذلك لم تتركْ البداية إلا ما ندر. نعم، وقعتْ القصة قبل ذلك الزمن، مع ذلك ليس قبله بوقت طويل جداً. أليست (ماضوية) الماضي الأعمق فكراً، الأكمل، الأكثر اسطورية، الماضي الذي يسبق الحاضر مباشرةً هي التي تتدنى؟ زد على ذلك، ان لقصتنا، وعلى وفق طبيعتها الخاصة، شيء أسطوري يبرز الى العيان بين حين وحين.

سوف نرويها بتفصيلٍ تام، بشموليةٍ كاملةٍ، وبتفصيل دقيق ـ فمتى تبدو قصة ما طويلةً جداً أو قصيرة جداً بسبب الزمن الحقيقي أو المدى الذي شغلته؟ نحن لا نخشى أن تُطلق علينا صفة الموسوَس، ميالين كما نحن عليه الى الرأي القائل ان ما هو مُضنٍ هو وحده الذي يمكن أن يغدو ممتعاً حقاً.

الراوي، إذاً، لن يفرغ من قصة هانزنا كلها في دقيقةٍ واحدة. ان أيام الاسبوع السبعة لن تكون كافيةً، لا، ولا حتى سبعة شهور. الأفضل ألا نكشف أوراقنا في وقتٍ مبكر جداً فنوّضح كم هو الزمن القاتل الذي يجب أن يمر فوق رأسه بينما هو جالس دائراً في قوقعته. يجب أن تكون سبع سنواتٍ لا سمح الله!

والآن نبدأ.

(١) المقصود هنا الحرب الكونية الأولى، لأن المؤلف لم يتوقع حدوث حرب كونية ثانية، فروايتنا هذه كُتِبَتْ العام ١٩٢٤ ـ المترجم.

الفصل الأول

الوصول

في منتصف الصيف، كان شاب متواضع مسافرا من موطنه هامبورغ الى دافو ـ بلاتز في إقليم غريسونز، في زيارةٍ تمتد لثلاثة أسابيع.

والرحلة من هامبورغ الى دافو في الواقع، طويلة بشكل بالغ، إذا ما قيست بإقامة قصيرة جداً. وهي رحلة تجتاز كل تضاريس البلد؛ ترتقي التلال، وتنزل الوديان، تهبط من السهل الواسع المرتفع لجنوبي ألمانيا الى شاطئ بحيرة كونستانس، تعبر فوق أمواجها الواثبة، وتمر بالمستنقعات التي ساد الإعتقاد يوماً ما انها عميقة جداً.

في هذه النقطة، الطريق الذي كان حتى الآن ممتداً فوق الخطوط الرئيسة للسكة الحديد، ينقطع. ثمة توقفات وإجراءات رسمية. في رورشاخ، في الأراضي السويسرية، تأخذ القطار ثانيةً، ولكنه لا يصل بك أبعد من لاندكوارت، وهي محطة ألبية (نسبة الى الألب) صغيرة، حيث ينبغي لك أن تبدل قطارك. هنا، بعد انتظار طويل ومذرو بالرياح في بقعةٍ خاليةٍ من السحر، تركب قطاراً ضيقاً؛ وحين يبدأ المحرك الصغير إنما الفعال بالدوران، يبدأ الجزء المثير من الرحلة، صعود شديد الإنحدار ومستمر، بحيث يبدو لا نهائياً. ذلك ان محطة لاندكوارت تقع على ارتفاع واطيء نسبياً، أما الآن فالطريق الوحشي والصخري يندفع قُدماً بصورةٍ كئيبة في جبال الألب الشاهقة ذاتها.

هانز كاستورب جلس وحيداً في مقصورته ذات الأثاث المنجّد بقماش رمادي اللون، بحقيبته اليدوية المصنوعة من جلد التمساح، والتي هي في الأصل هدية من خاله والوصي عليه القنصل تاينابيل ـ دعنا ننته من المقدمات فوراً ـ ودثار سفره الغليظ، ومعطفه الشتوي يتأرجح على كلابها. كانت النافذة الى الأسفل، وقد أمست بعد الظهيرة باردة باعتدال، وهو، نتاج سريع العطب للحياة المحمية، رفع ياقة معطفه الصيفي حديث الطراز والمبطن بالحرير. على المقعد بالقرب منه وُضع كتاب بغلاف ورقي حمل عنوان «بواخر المحيط»؛ في وقت أبكر من الرحلة، تأمله الشاب بين مدةٍ وأخرى، لكنه الآن تُرِك مهملاً، ونَفَس المحرّك اللاهث، المتدفق الى الداخل، لوّث غلافه بذراتٍ من السخام.

رحلة يومين فصلتْ الشاب ـ كان ما يزال يافعاً جداً كي يغرس جذوره بقوةٍ في الحياة ـ عن عالمه الخاص، عن كل ما فكر به كواجباته الخاصة، شؤونه، اهتماماته وتوقعاته؛ أبعد بكثير عما حلم به حين جلس في العربة في طريقه الى المحطة. المدى، متقلباً ودائراً بينه وبين الأرض البوار في موطنه، استحوذ وهيمن على السلطات التي ننسبها عموماً الى الزمن. من ساعةٍ الى ساعة أحدث فيه المدى تغييراً، كالتغييرات التي أحدثها الزمن، إلا انه كان أكثر لفتاً للنظر بشكلٍ من الأشكال. المدى، كالزمن، يولّد النسيان؛ لكنه يفعل هذا من خلال تحريرنا كلنا من بيئتنا، وإعادة حالتنا البدائية المستقلة إلينا. أجل، بوسعه، أيضاً، في إغماضة عين، أن يصنع شيئاً خارقاً. الزمن، نقول، هو نهر النسيان، غير ان تغيير الجو نشقة مشابهة، وإذا كان يعمل بصورةٍ أقل شمولية، فهو يفعل ذلك بسرعة أكبر.

هكذا كانت تجربة الشاب هانز كاستورب. لم يكن يعني أن يأخذ رحلته مأخذاً جدياً أو يسلّم نفسه بعمق إليها؛ بل ان يفرغ منها بسرعة، طالما لزمه أن يقوم بها، وأن يعود كما ذهب، وأن يستأنف حياته في النقطة التي، في هذه اللحظة، لزمه أن يضعها. أمس فقط كان هو مطوّقاً بالحلقة المألوفة لأفكاره، ومستغرقاً تماماً في مسألتين: الإمتحان الذي اجتازه تواً، ودخوله الوشيك في شركة تندر وفيلمز، بنائي السفن، وصاهري المعادن

والميكانيكيين. بنفاد صبر كبير مدفون ومحسوس في مزاجه الخاص، أسقط من الحساب الأسابيع الثلاثة المقبلة؛ أما الآن فيبدو كما لو ان الظروف الحالية تتطلب انتباهاً كاملاً من جانبه، ولن تكون أبداً شيئاً يأخذه بلا مبالاة واستخفاف.

هذه تم نقلها عالياً الى مناطقٍ لم يأخذ فيها نفساً من قبل، وحيث عرف ان ظروفاً حياتية غير إعتيادية سادت فيها، ظروفاً لا يمكن وصفها إلا بكونها متناثرة أو غير كافية ـ بدأت تؤثر فيه، وتملأه بقلق معين. المنزل والعيش المنتظم ليسا مطروحين وراءه حسب، بل متغلغلين في أغوار روحه، وواصل هو إمتطاءهما. متوازناً بينهما وبين المجهول، ساءل نفسه كيف سيستطيع الرحيل. أغلب الظن ان ذلك كان طيشاً منه، هو المولود على ارتفاع أقدام قلائل فوق سطح البحر، أن يأتي مباشرةً الى المرتفعات الشاهقة هذه، من دون أن يتوقف يوماً واحداً في الأقل، أو نحو ذلك، في نقطةٍ ما بين المكانين. تمنى لو انه شارف على نهاية رحلته؛ فما أن يصل هناك حتى يكون في مستطاعه أن يبدأ حياته، مثلما يبدأها في أي مكان آخر، ولن يعود يتذكر هذا الصعود المستمر للوضع المتنافر الذي ألفى نفسه فيه. تطلع الى الخارج. شق القطار طريقه متمعجاً على طول الممر الضيق؛ كان بوسعه رؤية العربات الأمامية والمحرك المرهق يلفظ كتلاً ضخمة من الدخان البني، الأسود، والمخضر، التي ما تلبث أن تتبدد. هدر الماء في الهاويات الواقعة على اليمين؛ فيما على اليسار، بين الصخور، أشجار تنوب داكنة اللون ارتفعتْ صوب سماء رمادية كالحجر. مرَّ القطار عبر أنفاق سودٍ كالقار، وحين أتى ضوء النهار ثانيةً كشف فجواتٍ واسعةً، تستكن في أعماقها قرى. ومن جديد لف الظلام الممر؛ وتلووا هم على طول ممرات ضيقة، بآثار من الثلج ظاهرة في الشقوق والصدوع. كانت هناك توقفات عند محطات بهيئة أكواخ حقيرة؛ وتوقفات أُخرى عند محطات أكثر أهمية، غادرها القطار في الإتجاه المعاكس، جاعلاً المرء يضيّع نقاط البوصلة. سلسلة متعاقبة فخمة من المشاهد انفتحتْ أمام العين المروَّعة، مشاهد العالم الجليل، المليء بالصور دائمة التغيير، للقمم الشاهقة، خلالها تمايل طريقهم وتلوَّى على

نفسه: مشاهد من خلال مجازات ضيقة تظهر وتختفي مع كل انعطافة جديدة للدرب. فكّر هانز كاستورب انهم حتماً كانوا فوق منطقة أشجار الظل. وربما أيضاً فوق منطقة الطيور الغريدة، حيث شعر فوقها بذلك الإحساس بإفقار الحياة والذي أورثه نوبةً خفيفة من الدوار والغثيان وجعله يضع يده على عينيه على مدى ثوانٍ قلائل. مرتْ النوبة. أدرك هو انهم توقفوا عن الصعود. تم بلوغ مضيق بين قمتين جبليتين؛ والقطار جعل يتدحرج برفق على طول قاع الوادي المنبسط.

كان الوقت نحو الثامنة مساءً، وما زال النهار ينشر ضياءه في الأرجاء. كانت ثمة بحيرة مرئية في المنظر الطبيعي البعيد، مياهها رمادية اللون، وشطآنها كُسِيَتْ بغابات التنوب السود التي تسلقتْ المرتفعات المحيطة، أُوهنت، وأفسحتْ مجالاً لصخور جرداء يطويها السديم. توقفوا عند محطةٍ صغيرة. هانز كاستورب سمعهم يصرخون بالإسم: انها «دافو ـ دورف». حالاً سيبلغ نهاية رحلته. وبغتةً، وعلى مقربةٍ منه، سمع صوتاً، صوت هامبورغ المشجع لإبن خالته يواكيم زيمسين قائلاً: «هالو، ها قد وصلت! أخرج من هنا!» وحدّق عبر النافذة فرأى ابن خالته نفسه، واقفاً في الأسفل على الرصيف، يرتدي معطفاً إيرلندياً فضفاضاً بني اللون، حاسر الرأس، يبدو أكثر نشاطاً مما كان عليه خلال سنوات حياته الماضية. ضحك وقال ثانيةً: «هيا أخرج، هذا حسن!».

«لكنني لم أصل بعد!» قال هانز كاستورب، مبهوتاً، وهو ما يزال جالساً.

«أوه، نعم، وصلتْ. هي ذي القرية. انها أقرب الى المصح من هنا. عندي عربة. إعطنا حاجياتك.»

وضاحكاً، مضطرباً، بفعل اهتياج الوصول واللقاء، ناول هانز كاستورب الحقيبة، المعطف، اللفة مع العصا والمظلة، وأخيراً «بواخر المحيط» عبر النافذة. ثم اجتاز المجاز الضيق راكضاً ونطّ فوق الرصيف مرحباً بإبن خالته كما ينبغي. جرى اللقاء من دون حماسة، كما لو كان لقاءً بين رجلين يمتازان بفتور وتحفظ تقليديين. من الغريب القول ان ابني الخالتين كانا يتجنبان دوماً

مناداة أحدهما الآخر بإسمه الأول، ببساطة يُعزى سبب ذلك الى انهما كانا خائفين من الكشف عن المزيد من مشاعرهما. وبما انهما لا يستطيعان مخاطبة أحدهما الآخر بإسميهما الأخيرين، فقد قصرا نفسيهما، بعُرف رسمي، بصيغة أنتَ.

رجل يرتدي بزّةً ويعتمر قبعةً مزركشةً بشريط زيني تطلع إليهما بينما كانا يصافح أحدهما الآخر، بسرعة، لم يكن لقاؤهما خالياً من الحرج، الشاب زيمسين وقف بوضع عسكري، وكعبا حذائيه متلاصقان. ثم تقدم الرجل الى الأمام وسأل عن تذكرة أمتعة هانز كاستورب؛ كان هو بواب مصح بيرغهوف العالمي، وراح يجلب صندوق الثياب الكبير العائد للنزيل من المحطة الأخرى بينما كان الرجلان النبيلان يحثان الخطى مباشرةً لتناول طعام العشاء. كان هذا الرجل يعرج بصورةٍ لافتة للنظر؛ وهكذا، وبطريقةٍ فضولية، أول شيء تحدث به هانز كاستورب الى ابن خالته هو: «ذلك الرجل، هل هو جندي حرب؟ ما الذي يجعله يعرج هكذا؟»

«جندي حرب! لا خوف!» قال يواكيم، بشيء من المرارة. «انه مصاب في ركبته ـ أو بالأحرى، يشكو منها ـ رفعوا له عظم الرضفة.»

هانز كاستورب فكّر بسرعةٍ في نفسه.

«هذه هي المسالة إذاً» قال، وبينما هو يتمشى أدار رأسه وألقى نظرةً سريعةً الى الوراء. «لكنك لا تستطيع أن تقنعني بأنك ما تزال تشكو من حالةٍ أشبه بحالة الرجل! ياه، تبدو كما لو أنكَ أتيتَ تواً من المناورات العسكرية!» وألقى نظرة جانبية على ابن خالته.

كان يواكيم أطول وأعرض منه، صورةً للنشاط الشبابي، مما يؤهله لإرتداء بزة نظامية. كان من الطراز داكن البشرة الذي لا يندر أن يجود به بلده ذو السكان الشقر، وكانت بشرته السمراء مسفوعةً وشبيهةً بالبرونز. بعينيه السوداوين، الواسعتين وشاربيه الصغيرين الداكنين فوق الفم الممتلىء والمرسوم بعناية، كان بالإمكان أن يغدو وسيماً لو لم تكن إذناه بارزتين، وحتى زمن معين كانتا مشكلته الوحيدة في الحياة. الآن، على أي حال، لديه مشاكل أُخر.

مضى هانز كاستورب يقول: «ستعود معي الى البيت، أليس كذلك؟ لا أرى سبباً لبقائك هنا.»

«أعود معكَ الى البيت؟» سأله ابن خالته، وأدار مقلتي عينيه وأخذ يلقي عليه نظرةً فاحصة. كانت عيناه وديعتين على الدوام، غير ان التعب وبعض الحزن بدءا يلوحان عليهما خلال الشهور الخمسة المنصرمة.

«متى؟»

«ياه، خلال ثلاثة أسابيع.»

«أوه، نعم، في ظنك انك على وشك العودة الى البيت»، أجاب يواكيم، ثم أضاف: «انتظر قليلاً. وصلتَ تواً. ثلاثة أسابيع لا تشكل شيئاً على الإطلاق، بالنسبة لنا هنا في الأعالي. تبدو زمناً طويلاً بالنسبة لك، لأنك أتيتَ الى هنا زائراً، وثلاثة أسابيع هي كل ما يتسع لك من وقت. تأقلم أولاً ـ هذا ليس بالأمر الهين، سترى ذلك. والطقس ليس الشيء الغريب الوحيد في الموضوع بالنسبة لنا. سترى أشياء لم تحلم بها أبداً ـ انتظر فقط. بالنسبة لي ـ لن يكون إبحاراً سلساً كما تظن، أنت الذي تحسب انك [عائد الى البيت في غضون ثلاثة أسابيع]. هذا هو صنف الأفكار التي دارت في رأسك حين كنت هناك في الأسفل. نعم، أنا أسمر البشرة، أعرف هذا، لكنه في الغالب إحتراق الثلج. هذا لا يعني الشيء الكثير، مثلما يقول بيرنز دوماً؛ أخبرني في المعاينة المنتظمة الأخيرة انه سيستغرق نصف سنة أخرى، بالتأكيد.»

«نصف سنة؟ هل جُننتَ؟» صاح هانز كاستورب. كانا قد صعدا الى الكبريلة[1] الواقفة في الساحة المرصوفة بالحجر أمام المحطة الشبيهة بالسقيفة، وحين انطلق الجوادان البنيان، انتفض بسخط على الوسائد الصلبة. «نصف سنة! أنت هنا منذ نصف سنة! مَنْ الذي يتوفر لديه هذا المتسع من الوقت ليقضيه ـ»

---

(١) الكبريلة cabriolet: مركبة ذات عجلتين وسطح جلدي يُطوى يقودها جواد واحد أو جوادان ـ المترجم.

«أوه، الزمن ـ!» قال يواكيم، وهز رأسه بصورة متكررة، قبالته مباشرةً، من غير أن يعير السخط الصادق لإبن خالته أي قدر من الاهتمام. «هنا يتركون للمرء مطلق الحرية فيما يتعلق بأفكاره حول الزمن. لن تصدّق ذلك. ثلاثة أسابيع بالنسبة لهم يوم واحد لا غير. سوف تفهم ذلك لاحقاً»، قال يواكيم، وأضاف: «إن أفكار المرء سرعان ما تتغير.»

نظر اليه هانز كاستورب بجدية بينما كانت العربة تنطلق بهما. «لكن يبدو لي أنك اكتسبتَ شفاءً رائعاً»، قال هازاً رأسه.

«أنت تعتقد ذلك فعلاً، أليس كذلك؟» رد عليه يواكيم؛ «أنا أيضاً أعتقد ذلك». رفع جذعه وجلس باستقامة أكثر على الوسائد، لكنه استرخى من جديد. «نعم، أنا في حالٍ أفضلٍ»، شرح له وأضاف: «لكنني لم أتماثل للشفاء بعد. في الفص الأيسر، الذي كانت فيه أصوات غير سوية أثناء التنفس، وهي الآن أمست أصواتا خشنةً، هذا شيء لا بأس به، إنما في الجزء السفلي ما تزال الأصوات خشنةً جداً، وثمة أصوات غير سوية في الفسحة بين الضلعين الثاني والثالث.»

«كم أصبحتَ مدركاً»، قال هانز كاستورب.

«إدراك من النوع الممتاز! يشهد الله انني أرغب بأن ينز إدراكي من جسمي أثناء الخدمة»، أجاب يواكيم. «لكنني ما زلتُ أملك بلغماً»، قال مع هزة كتف عديمة الإكتراث نوعاً وعنيفة في وقت واحد، ولاءمته إنما بنحو سيء. ثم عرض لإبن خالته شيئاً كان يحمله في الجيب الجانبي لمعطفه، الملاصق لـ هانز كاستورب. كانت قنينة مسطحة، مقوسة من الزجاج المزرق، ذات غطاء معدني.

«معظمنا هنا في الأعالي يحملها معه»، قال وأعادها الى جيبه بدفعة قوية.

«هذه القنينة لها حتى لقب؛ وجعلوا منها نكتةً. أنت تتطلع الى المنظر الطبيعي؟»

كان هانز كاستورب يفعل ذلك. قال: «منظر جميل ورائع!»

«أتظن ذلك؟» سأل يواكيم.

كانت العربة قد سارت بهما الى حيز باستقامة محور الوادي، عبر شارع معبّد بصورة غير منتظمة يتبع خط سكة الحديد؛ ثم، استدارت يساراً، فعبرا المسالك الضيقة ومجرىً مائياً، وها هما الجوادان الآن يجتازان خبباً طريقاً عاماً رُفع باعتدال صوب منحدرات مشجرة. أمامهم بزغ سهل منخفض، ناتئ أشبه بمرج، فوقه، مواجهاً ناحية الجنوب الغربي، انتصب بناء عالٍ، ذو قبة، وشرفات عديدة بدت مسامية من مسافة معينة، كما لو كانت اسفنجة. في هذا البناء بدأت تظهر الأضواء. بسرعة أمسى المكان مظلماً. اللون الوردي الباهت الذي أفعم السماوات المظلمة بالحيوية مدةً وجيزة تلاشى الآن، وسادت فترة السوداوية الانتقالية، عديمة اللون، عديمة النشاط، التي تأتي قبيل هجوم جيوش الليل. الوادي المزدحم، الممتد والمتعرج نوعاً ما، بدأ الآن يُظهر أضواءً في كل مكان، ليس في الوسط فقط، إنما هنا وهناك على المنحدرات في كلتا الجهتين، بخاصة في الناحية اليمنى البارزة، التي ارتفعت فوقها البنايات في تكوينٍ أشبه بصف منازل. الدروب تصعد المروج المنحدرة في ناحية اليسار وتضيّع نفسها في السواد غير الواضح لغابة الصنوبر. خلفهم، حيث ضاق الوادي الى مدخله، سلاسل الجبال الأبعد أظهرت زرقةً ضعيفة اردوازية. هبت ريح، وجعلت برد المساء المعتدل محسوساً.

«لا، إذا تكلمنا صراحةً، أنا لا أجد المنظر طاغياً جداً»، قال هانز كاستورب. «أين هي أنهار الجليد، وذرى الثلج، والمرتفعات الهائلة التي سمعتُ عنها؟ يبدو لي ان هذه الأشياء ليست شاهقة جداً.»

«أوه، بلى»، أجاب يواكيم. «يمكنك رؤية خط الشجرة في كل مكان تقريباً، انه مُعلَّم بشكلٍ حاد جداً؛ أشجار التنوب هجرت المكان، وبعد ذلك ليس ثمة شيء على الإطلاق سوى الصخور الجرداء. وهناك في الأعالي الى يمين (الشوارزهورن)، تلك القمة الشبيهة بالسن، ثمة نهر جليد ـ ألا يمكنك رؤية الزرقة؟ هو ليس كبيراً جداً، لكنه نهر جليد بنحو مقبول، (السكليتا). (بيز ميشيل) و(تنزينهورن) يقعان في الممر الجبلي ـ لا يمكنك رؤيتهما من هنا ـ فيهما ثلج على مدار السنة.»

«ثلج سرمدي»، قال هانز كاستورب.

«ثلج سرمدي، إن شئت. نعم. هذه الأنهار كلها شاهقة جداً. لكننا نحن أنفسنا على ارتفاع مرعب: ألف وستمائة متر فوق مستوى سطح البحر. لهذا السبب لا تبدو القمم أعلى.»

«نعم، أي صعود ذاك! بوسعي أن أخبرك أنني كنت خائفاً حتى الموت. ألف وستمائة متر ـ هذا يزيد على خمسة آلاف قدم، على ما أظن. لم يسبق لي أن كنتُ في مثل هذا الإرتفاع طوال حياتي كلها.» وأخذ هانز كاستورب نفساً عميقاً تجريبياً من الهواء الغريب. كان هواءً نقياً منعشاً، وهذا هو كل شيء. لم يكن فيه عطر، ولا اطمئنان، ولا رطوبة؛ كان سهل الاستنشاق؛ ولم يحمل له تداعي الأفكار.

«هواء مدهش»، قال بأدب.

«نعم، المناخ شهير. غير ان المكان لا يبدو في أحسن أحواله هذه الليلة. في بعض الأحيان يترك المكان انطباعاً أفضل بكثير ـ خاصة حين يكون هناك ثلج. لكنك ربما تمرض من النظر اليه. كلنا في هذه الأعالي نُغذى بشكلٍ مرعب، يمكنك أن تتخيل ذلك»، قال يواكيم، ولوى فمه بتعبير ينم عن اشمئزاز لا يمت اليه بصلة شأنه شأن هزة الكتف. بدا قوله ذاك سريع الانفعال، وغير متجانس.

فقال هانز كاستورب: «لك طريقة غريبة جداً في التكلم.»

«صحيح؟» قال يواكيم، قلقاً، والتفت لينظر الى ابن خالته.

«أوه، لا، بطبيعة الحال أنا لا أعني فعلاً انك تملك هذه الطريقة ـ في ظني انها بدت لي كذلك لحظةً من الزمن»، سارع هانز كاستورب ليؤكد له. ان تعبير «كلنا في هذه الأعالي» الذي ردده يواكيم مرات عدة، هو الذي أدهشه بعض الشيء كونه غريباً، ومنحه احساساً مضطرباً.

«كما ترى، مصحنا أعلى من القرية»، استطرد يواكيم. «أعلى منها بخمسين متر. في النشرة كتب بأنه أعلى بمائة متر، لكن في الواقع انها خمسون فقط. أعلى المصحات هو مصح (شاتزالب) ـ لا يمكنك رؤيته من هنا. يلزمهم أن ينزلوا جثثهم على زلاجات في فصل الشتاء لأن الطرق تغلق خلاله.»

«جثثهم؟ أوه، فهمت. تخيل!» قال هانز كاستورب. وفجأةً إنفجر ضاحكاً، شرع يضحك ضحكةً شديدةً، يتعذر كبتها، هزته هزاً كاملاً وشوهت وجهه، الذي كان متيبساً بفعل الريح الباردة، الى أن بدأ الضحك يؤذيه تقريباً.

«على زلاجات! وبوسعك أن تخبرني بذلك بهدوء أعصاب! لا بد أنك أصبحتَ ساخراً جداً خلال هذه الشهور الخمسة.»

«لا أبداً»، أجاب يواكيم هازاً كتفيه من جديد. «لِمَ لا؟ الأمر سيان بالنسبة لهم، أليس كذلك؟ لكننا ربما غدونا ساخرين هنا في الأعالي. بيرنز نفسه إنسان ساخر ـ لكنه شخص متمرس وهائل، انه طالب جامعة ألمانية سابق. يقولون انه جراح لامع الذكاء. أنا واثق انك ستحبه. كروكوفسكي مساعده ـ هو من الصنف الذكي بصورة مفرطة. تطرقوا الى فعالياته بصورة خاصة في النشرة. انه يحلل نفوس المرضى.»

«انه ماذا؟ يحلل نفوس ـ يا له من شيء مقرف!» صاح هانز كاستورب؛ وتغلب عليه مرحه الصاخب بكل ما في الكلمة من معنى. لم يستطع التوقف. كان التحليل النفسي هو اللمسة الفنية الأخيرة. ضحك ضحكاً شديداً بحيث ان الدموع جرتْ على خديه؛ رفع يديه الى وجهه وهزه الضحك هزاً. يواكيم هو الآخر ضحك من أعماقه ـ يبدو ان هذا الضحك كان نافعاً له؛ وهكذا وبروح معنوية عالية، ترجل الشابان من العربة، التي إرتفعت ببطء الطريق الخاص شديد الانحدار والملتوي وأودعتهما قبالة مدخل مصح بيرغهوف العالمي.

رقم ٣٤

الى يمينهما حين دخلا، بين الباب الرئيس والباب الداخلي، كان كوخ البواب. وهو موظف من الطراز الفرنسي، يرتدي البزة الرمادية نفسها لرجل المحطة، كان جالساً الى جهاز الهاتف، يقرأ الصحيفة. خرج من كوخه وقادهما عبر الأروقة حسنة الإضاءة، التي تقع على يسارها حجرات

الاستقبال. هانز كاستورب حدّق الى الداخل بينما كان ماراً من هناك، لكن الحجرات كانت خالية. أين هم النزلاء إذاً، سأل، ورد ابن خالته: «في الاستراحة ـ العلاج. غادرتُ الليلة لأخرج وألتقيك. بخلاف ذلك، أكون دوماً في الأعلى في شرفتي، بعد تناول العشاء.»

كاد هانز كاستورب أن ينفجر ثانيةً. «ماذا! تضطجع في شرفتك ليلاً، في الرطوبة؟» سأل بصوت راعش.

«أجل، هي ذي القاعدة. من الثامنة مساءً وحتى العاشرة. إنما تعال وشاهد غرفتك الآن، واغتسل.»

دخلا المصعد ـ كان من النوع الكهربائي، الرجل الفرنسي هو الذي يشغله. وبينما كانا يصعدان، كان هانز كاستورب يجفف دموعه.

«الضحك أرهقني تماماً»، قال، وتنفس من فمه: «أخبرتني بأشياء جنونية كثيرة جداً ـ التحليل النفسي هو القشة الأخيرة. أعتقد أنني استرحتُ قليلاً من الرحلة. وقدماي باردتان ـ هل قدماك كذلك؟ بيد ان وجهي يشتعل، انه غير سار حقاً. هل نأكل الآن؟ أشعر بالجوع. هل الطعام مقبول هنا في الأعالي؟»

سارا من دون ضوضاء فوق حصيرة جوز الهند التي تغطي المجاز الضيق، الذي كان مضاءً بالمصابيح الكهربائية ذوات الظلات الزجاجية البيض الموضوعة في السقف. كانت الجدران تومض بطلاء مينا شديد البياض. لمحا ممرضة بقبعة بيضاء وعوينات طبية معلقة بحبل يمتد خلف أذنيها. لها مظهر ممرضة بروتستانتية ـ أي، انها تعمل من دون كفاءة حقيقية ويرهقها القلق والملل. وبينما كانا يمران عبر المجاز، رأى هانز كاستورب، إضافةً الى اثنين من الأبواب المطلية بالبياض، والمرقمة، أوعية مثيرة للفضول، ذوات مظهر منتفخ، أشبه بالبالونات، بأعناق قصيرة. لم يفكر، لحظتها، أن يسأل ما هي.

«ها قد وصلت»، قال يواكيم. «أنا في الغرفة التالية على اليمين. في الناحية الثانية لديك الروسيان، انهما صاخبان ومزعجان، ويتعذر إصلاحهما. حسن، ما رأيك بها؟»

كان هناك بابان، خارجي وداخلي، مع كلاليب ثياب في الحيز الكائن

بينهما. أشعل يواكيم ضوء السقف، وفي تألقه المتذبذب بدت الحجرة مريحة ومبهجة، ذات أثاث أبيض عملي، جدران بيض قابلة للغسل، مشمع أرضية نظيف، ستائر كتان بيض مطرزة بابتهاج على وفق ذوق حديث. الباب ظل مفتوحاً؛ بوسع المرء أن يرى أضواء الوادي ويسمع موسيقى راقصة بعيدة. يواكيم الطيب وضع مزهرية على خزانةٍ ذات أدراج ـ زهور زرق شبيهة بالأجراس وبعض الألفية، التي وجدها بنفسه بين المجموعة الثانية من الحشائش على المنحدرات.

«شيء جيد جداً منك»، قال هانز كاستورب. «يا لها من حجرة جميلة! يمكنني أن أقضي فيها مسروراً اسبوعين كاملين.»

«امرأة أمريكية الجنسية ماتت فيها قبل يومين»، قال يواكيم.

«بيرنز أخبرني بأنهم سيخرجون جثمانها قبل مجيئك الى المصح، ومن المحتمل أن تكون غرفتها من نصيبك. كان خطيبها معها، وهو ضابط بريطاني في سلك البحرية، لكنه لا يتصرف بصورة لائقة. كان من دأبه أن يأتي الى المجاز باكياً، كصبي صغير. كان يدعك وجنتيه بـ (كريم) بارد، لأنه حلق ذقنه تواً والدموع وخزته. في الليلة قبل الأخيرة عانت هي من نزفين دمويين شديدين، وهكذا كانت نهايتها. لكنها رحلتْ منذ صباح أمس، وبعد أن أخرجوا جثمانها من هنا بالطبع عفّروا الغرفة بصورة كاملة بالفورمالين، وهو المحلول اللازم استخدامه في مثل هذه الحالات.»

تقبّل هانز كاستورب هذه المعلومة بمزاجٍ مرح، إنما نصف ذاهل. كان واقفاً هناك بكمين مطويين أمام حوض غسل اليدين الفسيح، كانت حنفياته تلمع في الضوء الكهربائي، لا يكاد ينظر الى السرير المعدن الأبيض ذي الغطاء الجديد.

«عفروها، إيه؟ هذا شيء رائع.» قال بصورة ثرثارة وخرقاء نوعاً، بينما كان يغسل كفيه ويجففهما. «فورمال ديهايد H_2CO؛ نعم، هذا كافٍ جداً للبكتيريا، مهما كانت قوية. لكنها نتانة صارخة. بطبيعة الحال، الإصحاح التام شيء ضروري بكل ما في الكلمة من معنى.» كان يتحدث بلهجة هامبورغ أوضح مما يتحدث بها ابن خالته، الذي تخلى عنها منذ أيام

الدراسة. هانز كاستورب واصل حديثه مثرثراً. «ما كنتُ أود قوله هو ان ضباط البحرية ربما يستخدمون ماكينة حلاقة، فبهذه الأدوات يوجع المرء نفسه بصورةٍ أسهل مما تفعله شفرة حادة جداً ـ في الأقل، هذه هي خبرتي، وأنا أستخدم كلتا الطريقتين بالتناوب. حسن، والماء المالح بطبيعة الحال يجعل البشرة الحساسة تستشعر الوخز، ولهذا فقد اكتسب عادة، أو طقس دعك بشرته بالكريم البارد. لا أرى غرابةً في ذلك. . .» ثرثر قائلاً: ان بحوزته مائتا ماريا مانسينس (علامة السيجار الذي يدخنه) في صندوق ثيابه، كان موظفو الجمارك لطيفين جداً، ووهبوا ابن خالته تحايا أُناس عديدين من بلده. «ألا يدفئون الحجرات هنا؟» توقف فجأةً عن الحديث ليطرح هذا السؤال، وأسرع ليضع يديه على المشعاع[٢].

«لا، انهم يبقوننا بردانين»، أجاب يواكيم. «لابد أن المناخ كان مختلفاً كثيراً عما هو عليه الآن حين شغلوا التدفئة في آب.»

«آب، آب!» قال هانز كاستورب. «لكنني بردان، بردان بصورة مقيتة؛ أعني في جسدي، لأن وجهي يشتعل بشكل مروّع ـ تحسسه!»

كان هذا الطلب غريباً تماماً بالنسبة لطبيعة الشاب ـ بالقدر الذي جعله هو نفسه يتأثر بنحو كريه حين سمع طلبه هذا. يواكيم لم يسعف طلبه، لكنه قال حصراً: «هذا يُعزى الى الهواء ـ هذا لا يعني شيئاً البتة؛ بيرنز نفسه وجهه أرجواني طوال النهار. بعض الناس لن يعتادوه أبداً. هيا معي الآن، هيا، ألا ينبغي لنا أن نتناول طعاماً.»

في الخارج شاهدا الممرضة ثانيةً، كانت تتعقبهما بعينين قصيرتي البصر وفضوليتين. لكن في الطبقة الأولى توقف هانز كاستورب بغتةً، ثبت في موضعه بفعل صوت مروّع آتٍ من مسافة قريبة في منعطف ما في المجاز. لم يكن صوتاً مرتفعاً، بل كان رهيباً بصورة جلية، بحيث اعتلى العبوس وجه هانز كاستورب إشمئزازاً ونظر بعينين مفتوحتين على وسعهما الى ابن خالته. كان سعالاً، سعال رجل؛ لكنه سعال لم يسمع هانز كاستورب له مثيلاً،

---

(٢) المشعاع radiator: شبكة من الأنابيب تُستخدم للتدفئة المركزية ـ المترجم.

ومقارنةً به فإن كل ما سواه من السعال هو دليل عظيم وصحي على الحياة: سعال لا يمكن أن يقتنع به المرء، ولا يهب الراحة، وهو حتى لا يأتي في نوبات، بل كان مجرد تدفق ضعيف ومرعب لعصارات الإنحلال العضوي.

«نعم»، قال يواكيم. «تلك حالة سيئة. هو ارستقراطي نمساوي، كما تعرف، انه إنسان رائع. ولد فارساً، خيّالاً نبيلاً. والآن أمسى حاله هكذا. لكنه ما يزال قادراً على الحركة والمشي بالرغم من مرضه الشديد.»

وحين سارا، حاضر هانز كاستورب بإلحاح في موضوع سعال الفارس النبيل.

«لا بد لك أن تعرف»، قال هو، «أنني لم يسبق لي أبداً أن سمعت صوتاً كهذا. انه جديد عليّ تماماً، ومن الطبيعي أن يترك فيَّ إنطباعاً كبيراً. ثمة نوعان من السعال، جاف ولين، والناس يقولون دوماً ان السعال اللين أفضل من السعال الآخر، الشبيه بالنباح. حين أُصبت بالخناق(٣) في شبابي.» (قال فعلاً [في شبابي]!)، «نبحت كذئب، وما زلتُ أذكر كيف سر الجميع حين أمسى السعال ليناً. أما سعال كهذا ـ لم أكن أعرف ان ثمة سعالاً كهذا! هو ليس بالسعال الآدمي مطلقاً. هو ليس بالجاف ومع ذلك هو ليس باللين ـ فهذه أبعد ما تكون عن الكلمة الصحيحة له. يبدو كما لو أن بوسع المرء أن ينعم فيه النظر مباشرةً حين يسعل، ويرى أي نوع من السعال هو: مادة لزجة بكل ما في الكلمة من معنى ومخاطي ـ»

«أوه»، قال يواكيم، «أسمع هذا الكلام يومياً، ولا حاجة بك لأن تصفه لي.»

غير ان هانز كاستورب لم يستطع أن يتجاوز السعال الذي سمعه. دأب على التكرار بأن بمستطاعه فحص أعضاء الفارس النبيل الحيوية؛ وحين وصلا المطعم كانت عيناه اللتان أتعبهما السفر تلتمعان ببريق مُستثار.

---

(٣) الخناق croup: التهاب في الحنجرة يتميز بالسعال وضيق التنفس ـ المترجم.

في المطعم

كان جو المطعم فاتناً، وكان مجهزاً تجهيراً ممتازاً وحسن الإضاءة. تقع حجرة المطعم الى يمين الردهة، قبالة الأبهاء (جمع بهو)، وكان، كما شرح يواكيم، يُستخدم بشكل رئيس من قبل الواصلين الجدد، والنزلاء الذين يتناولون طعامهم خارج ساعات الوجبات المعهودة أو الزائرين المضيفًّين. لكنه أيضاً يقدم خدماته لمآدب أعياد الميلاد، حفلات التوديع، وحتى الاحتفال بتقرير مبشر بالخير بعد فحص عام. جرت هنا في المطعم مناسبات مفعمةً بالحياة والنشاط، قال يواكيم، وكانت الشمبانيا تسيل بسخاء. الآن، ليس ثمة أحد غير امرأة وحيدة في الثلاثينات من عمرها، تطالع كتاباً وتهمهم؛ دأبت على التربيت برفق بوسطى كفها اليسرى على قماش المائدة. بعد ان اتخذ الشابان مجلسهما، غيّرت موضعها، بحيث أصبح ظهرها إليهما. شرح يواكيم بصوت خفيض ان تلك المرأة تعاني من الخجل إضافة الى المرض، وتتناول كل وجباتها الغذائية في المطعم، مع كتابٍ ما. يقال انها دخلت أول مصح للتدرن الرئوي حين كانت فتاة في ميعة الصبا، ومنذ ذلك الحين لم تعد تحيا في العالم الخارجي.

«إذاً مقارنةً بها، أنت مجرد مبتدئ، بشهورك الخمسة؛ وستبقى كذلك إذا أمضيتَ هنا سنة أخرى»، قال هانز كاستورب لإبن خالته؛ حيث تناول يواكيم، الذي اكتسب حديثاً عادة هز الكتفين، لائحة الأطعمة والمشروبات.

جلسا الى المائدة المرتفعة عند النافذة، ألطف بقعة في الحجرة، يواجه أحدهما الآخر قبالة الستائر كريمية اللون، وجهاهما مضاءان بمصباح المائدة ذي الظلة الحمراء. شبك هانز كاستورب يديه المغسولتين منذ وقت قصير ودعكهما معاً بتوقع مقبول ـ وهي عادة خاصة به يمارسها حين يجلس الى مائدة طعام، ربما لأن أجداده كانوا يتلون صلاة المائدة قبل تناول اللحم. قدمت لهما الطعام والشراب خادمة ودية في ثوب خارجي فضفاض أسود ومئزر أبيض. كان لها صوت لطيف آتٍ من الحنجرة، ووجهها العريض له لون دالٍ على الصحة بصورة لا يرقى اليها الشك. وللهوه العظيم، فهم هانز

كاستورب ان النادلات هنا يُطلق عليهن: «فتيات حجرة الطعام». طلبا زجاجة (غررواد لاروسا)، وأعادها هانز كاستورب بغية تدفئتها. كان الطعام ممتازاً: حساء من نبات الهليون (الأسبراكس)، طماطم محشوة، لحم مشوي مع الخضار، وحلوى معدّة إعداداً جيداً، جبن، وفواكه. أكل هانز كاستورب بحماسة، مع أن شهيته لم تكن قوية جداً كما ظن. لكنه يأكل على الدوام كثيراً، تعبيراً عن احترام خالص للذات، حتى حين لا يكون جائعاً.

عامل يواكيم وجبة الطعام بقليل من الاحترام. كان متعباً من الطبخ، قال؛ الجميع هنا، في الأعالي، وعلى جاري عادتهم يتذمرون من الطعام. إذا ما توجّب على المرء أن يبقى هنا بين الفينة والفينة ـ! لكن، من الناحية الأخرى، تناول النبيذ باستمتاع شديد، ولا أقول حماسة؛ وبصورة متكررة، مع انه، متجنباً بحذر اللغة العاطفية، عبّر عن فرحه لأن له شخص ما هنا يستطيع أن يتحاور معه حواراً منطقياً بعض الشيء.

«نعم. جيد جداً انك أتيت»، قال، وأظهر صوته الرقيق شعوراً ما. «ينبغي لي القول انه حقاً حدث مهم بالنسبة لي ـ مؤكد انه تغيير، على أي حال، كسر للرتابة المستمرة.»

«لكن الزمن يجب أن يمضي مسرعاً، حين يحيا المرء هنا في الأعالي»، كان ذلك رأي هانز كاستورب.

«مسرعاً وبطيئاً، كما تفهمه»، أجاب يواكيم. «أقول لك، انه لا يمضي على الإطلاق. لا يمكنك أن تسميه زمناً ـ والعيش هنا لا يمكنك أن تدعوه عيشاً!» قال مع هزة رأس وتناول كأسه ثانيةً.

هانز كاستورب جرع كأسه أيضاً، مع ان وجهه كان كالنار. كان ما يزال يشعر بالبرد، وشعر بتململ غريب في أطرافه. شعور مُرضٍ ومعكر في الوقت نفسه. كانت كلماته تقع الواحدة فوق الأخرى، كان يتكلم عادةً بشكل خاطئ، وكان يتغاضى عن كلماته بموجة استنكار. يواكيم هو الآخر كان في حالة دعابة مفعمة بالحياة، وتواصل حوارهما بمزاج أكثر حرية وأكثر مرحاً بعد ان نهضتْ السيدة المهمهمة والمربتة فجأةً وغادرت المطعم. كانا يومئان بشوكتيهما أثناء تناولهما الطعام، يومئان برأسيهما، ويهزان أكتافهما، ويتحدثان

بينما يكون فم كل منهما مليئ بالطعام. كان يواكيم يود سماع الأخبار عن هامبورغ، وانتقل بالحديث الى موضوع التنظيم المقترح لـ(الإلبة).

قال هانز كاستورب: «عهد جديد. عهد جديد بالنسبة لتطوير صناعة الشحن بالسفن. أنت لا تستطيع المغالاة في تقديرها. وضعنا ميزانية بخمسين مليون للإنفاق الفوري وربما تثق من كوننا نعرف ما نحن بصدده.»

مع ذلك وبرغم الأهمية التي يعلقها على التحسين المتخيّل، قفز مبتعداً عن هذا الموضوع وطلب من يواكيم أن يخبره المزيد عن الحياة «هنا في الأعالي»، وعن النزلاء ـ الأمر الذي فعله الأخير من غير تردد، وكان مسروراً جداً لأنه قادر على أن يبوح بسريرة نفسه. توجّب عليه أن يكرر قصة الجثث المرسلة الى الأسفل بوساطة الزلاجات، ويؤكد حقيقتها. استولت على هانز كاستورب نوبة أخرى من الضحك، ابن خالته قهقه أيضاً، باستمتاع نابع من القلب، وروى أشياءً أخرى مضحكة كي يضيف وقوداً الى مرحهما. كانت ثمة امرأة تجلس الى طاولته، تدعى السيدة شتور، زوجة موسيقي من (كانشتات)، كانت حالتها المرضية خطيرةً نوعاً، هي أكثر المخلوقات التي رآها في حياته جهلاً. كانت تقول «مريض» عندما تريد قول «مرض»، تقولها بجد، وتسمي كروكوفسكي «المتاعد». وعليك أن تتقبل ذلك من دون أن يفتر ثغرك عن ابتسامة. هي من الطراز المولع بالقيل والقال ـ أغلب الناس، هنا في الأعالي، على هذه الشاكلة ـ ونشرت الشائعات قبل بضعة أيام ان سيدة أخرى، تدعى سيدة (ألتيس)، احتفظت لنفسها بـ steriletto(٤). «هذا ما أسمته، أليس هذا أمراً مضحكاً جداً؟» ترنحا في كرسييهما، دفعا نفسيهما بقوة الى الوراء وضحكا ضحكاً شديداً، بحيث اهتز جسداهما؛ وشرعا يفوقان في وقت واحد تقريباً.

بين الفينة والفينة يكفهر وجه يواكيم ويتذكر قدره.

«أجل، نحن نجلس هنا ونضحك»، قال بوجهٍ تعلوه إمارات الأسى

---

(٤) وردت في النص بالإيطالية steriletto: والمقصود هنا آلة جعل المرء عقيماً، أي آلة الإخصاء ـ المترجم.

والاكتئاب، كلماته انقطعت بفعل ارتفاع وانخفاض الحجاب الحاجز العائد له بنحو إيقاعي. «نحن نقعد هنا ونضحك، لكن لا أحد يقول لي متى يمكنني مغادرة هذا المكان. حين يقول بيرنز نصف سنة، فعليك أن تقرر ان المدة ستكون أطول. هذا شيء عسير، أليس كذلك؟ ـ يمكنك أن تخبرني إن كنت لا تظن ان الأمر عسير جداً عليّ. لقد تقبلتُ ذلك سابقاً، يمكنني أن أجري فحوصاتي الشهر المقبل. والآن عليّ أن أهذي بينما المحرار الطبي في فمي، وأحصي الغلطات المضحكة لهذه السيدة الجاهلة شتور، وأراقب الزمن يفلت مني. ان فترة السنةً شيء بالغ الأهمية بالنسبة لعمرنا. هناك في الأسفل، يجتاز المرء تغييرات كثيرة جداً، ويحقق تقدماً كبيراً جداً، في بحر عام واحد فقط. وعليّ أن أركد هنا في الأعالي ـ نعم، أن أركد كبركة صغيرة جداً ونتنة؛ هو ليس بالتشبيه المضبوط جداً.»

من الغريب القول، ان رد هانز كاستورب الوحيد على هذا كله هو سؤاله عما إذا كان بالمستطاع الحصول على الجعة الثقيلة الداكنة هنا في الأعالي؛ حين نظر اليه يواكيم، بنوع من الدهشة، أدرك ان ابن خالته قد سيطر عليه النعاس، وكان فعلاً يحني رأسه نعاساً.

«لكنك ستنام!» قال يواكيم. «هيا، آن وقت ذهابنا الى الفراش.»

«لا يمكنك أن تسميه وقتاً»، قال هانز كاستورب، بلسان ثقيل. مضى مع ابن خالته، محني الجذع ومتصلب الركبتين، كرجلٍ هدّه الإعياء. على أية حال، في المجاز الذي ينيره ضوء ضعيف، استجمع قوته بوضوح لدى سماعه ابن خالته يقول: «هو ذا كروكوفسكي جالس هنا. أحسب أن عليّ أن أقدمك اليه بإيجاز قدر الإمكان.»

كان كروكوفسكي جالساً عند الضوء الساطع لموقد إحدى غرف الاستقبال، قريباً من الأبواب المجهزة بمصاريع القابلة للطيّ. كان يقرأ صحيفةً، فنهض حين اقترب الشابان.

يواكيم، بوضع عسكري، وكعبا حذائيه ملتصقان معاً، قال: «حضرة الطبيب، هلاّ سمحت لي أن أقدم إليك ابن خالتي كاستورب من هامبورغ؟ وصل تواً».

رحب الدكتور كروكوفسكي بنزيل المصح الجديد بحماسة قوية وجذلة، وهو الذي يمكننا القول ان كل الرسميات معه كانت زائدة، إذ ينبغي أن تحل محلها الثقة المتبادلة المرحة. كان في نحو الخامسة والثلاثين، عريض المنكبين، وبدين، أقصر بكثير من الشابين الواقفين قبالته، لذا توجب عليه أن يميل رأسه الى الخلف كي يتطلع في وجهيهما. كان شاحباً بصورة غير مألوفة، ذا شحوب شفاف، نعم، شحوب فوسفوري، أبرزه التوقد القاتم لعينيه، سواد حاجبيه، ولحيته الطويلة الكاملة نوعاً، التي تنتهي في نقطتين، والتي كشفت الآن بعض الخيوط البيض. كان يرتدي بذلةً فضفاضةً سوداء مزدوجة الصدر[٥] باليةً نوعاً، وينتعل حذائين أسودين بفتحات أشبه بخفين فوق جوربين صوفيين رماديين، وياقة لينة مطوية (فيما مضى رأى هانز كاستورب مصوراً فوتوغرافياً من دانزك يرتدي مثيلاً لها، ولم يرَ غيره يفعل ذلك)، أضفتْ على مظهر الدكتور كروكوفسكي طابعاً خاصاً بستوديو التصوير الفوتوغرافي. باسماً بدفء وكاشفاً عن أسنانه الصفر في لحيته، صافح الشاب، وقال بصوت الجهير الأول[٦] بهذيان غريب نوعاً: «أهلاً بك بيننا، سيد كاستورب! عسى أن تتأقلم بسرعة وتشعر كأنك في بيتك بيننا! هل لي ان أسأل ما إذا أتيت مريضاً؟».

كان من المؤثر ان نرى المجهود الذي بذله هانز كاستورب كي يسيطر على نعاسه وان يكون مؤدباً. أزعجه أن يكون بهذا الشكل السيء، وبوعي الشباب، قرأ علامات التسلية المتسامحة في دفء سلوك المساعد. رد ذاكراً الامتحانات وزيارته التي تستغرق ثلاثة أسابيع، واختتم حديثه بالقول انه والحمد لله يتمتع بصحة تامة.

«حقاً؟» سأل كروكوفسكي، وأمال رأسه الى الجانب ساخراً. اتسعت ابتسامته. «أنت، إذاً، حالة جديرة بالدراسة. أنا، شخصياً، لم ألتقِ في

(٥) مزدوجة الصدر double breasted: ذات صدر ينطوي جانب منه على جزء من الآخر مع صفين من الأزرار- المترجم.

(٦) الجهير الأول baritone: صوت رجالي أعلى من الجهيَر وأدنى من الصادح - المترجم.

حياتي كلها إنساناً معافى تماماً. ما هي الامتحانات التي اجتزتها تواً، إذا سمحتَ لي أن أطرح هذا السؤال؟».

«أنا، مهندس حضرة الطبيب»، قال هانز كاستورب بوقار متواضع.

«آه، مهندس!» تراجعت ابتسامة الدكتور كروكوفسكي إذا جاز التعبير، وفقدت لحظةً شيئاً من دفئها اللطيف. «مهنة رائعة. وهكذا أنت لن تحتاج أدنى اهتمام طوال مدة مكوثك هنا، جسدياً كان أم نفسياً؟».

«أوه، لا، شكراً جزيلاً»، قال هانز كاستورب، وارتد الى الوراء خطوة واحدة تقريباً حين قال ذلك.

وقتذاك انفجرت ابتسامة الدكتور كروكوفسكي منتصرةً، هز يد الشاب من جديد وصاح بانتعاش: «حسن، نمْ جيداً، سيد كاستورب، وتمتع بغنى صحتك التامة، نم جيداً والى اللقاء!». وبكلامه هذا صرف ابني الخالتين وعاد الى صحيفته.

وبسبب توقف المصعد عن الحركة، صعدا درجات السلّم؛ وفي صمت، بوغتا بعض الشيء بلقائهما غير المتوقع بالدكتور كروكوفسكي. مضى يواكيم مع ابن خالته الى رقم أربعة وثلاثين، حيث أودع البواب الأعرج أمتعة الواصل الجديد. تكلما طوال ربع ساعة أخرى بينما كان هانز كاستورب يفرغ حاجيات الليل والحمام من صندوق ثيابه، مدخناً أثناء ذلك سيجارة كبيرة غير حادة. سيكون السيجار كبيراً جداً عليه هذا المساء ـ وهي حقيقة تركتْ فيه انطباعاً كونها غريبة وشاذة.

«يبدو ذا شخصية متميزة»، قال، نافخاً الدخان من فمه. «انه شاحب كالشمع. لكن يا سلام، أي خف بشع هذا الذي يرتديه! جوارب صوف رمادية وذينك الخفين هل كان مزعجاً فعلاً بالنتيجة، على ما تعتقد؟»

«إنه سريع الغضب نوعاً»، اعترف يواكيم. «ما كان ينبغي لك أن ترفض المعالجة بفظاظة شديدة، في الأقل المعالجة النفسية. هو لا يود ان يقلع الناس عنها. لم يستطع أن يضع ثقته فيّ لأنني لا أمحضه ثقةً كافيةً. لكنني بين الحين والحين أسرد له حلماً رأيته في منامي، فيكون له شيء يحلله.»

«مؤكد انني سببتُ له الازعاج»، قال هانز كاستورب نكداً، فقد أزعجه

أن يظهر إساءة. حين واتته هذه الفكرة، بسرعة داهمه سأمه بقوة متجددة.
«طابت ليلتك؛ أكاد أقع من النعاس.»
«في الثامنة صباحاً سآتي لآخذك الى الفطور»، قال يواكيم وانصرف.
أخذ هانز كاستورب فقط حماماً ليلياً سريعاً. ما إن أطفأ الضوء الملاصق لسريره حتى تغلب عليه النوم؛ لكنه استيقظ ثانيةً؛ متذكراً بأنه في ذلك السرير، قبل يومين، مات شخص ما. «تلك ليست أول مرة على أية حال»، قال في سريرته، كما لو كانت هذه الفكرة تعيد الطمأنينة الى نفسه. «انه فراش احتضار مألوف، فراش احتضار شائع» وراح في سبات عميق.
ما أن غفا، على أية حال، حتى بدأ يحلم، والأحلام توالت واحداً إثر آخر حتى صباح اليوم التالي. قبل كل شيء رأى ابن خالته، يواكيم زيمسين، في وضع غريب، مشوش، على زلاجة، راكباً في طريق شديد الانحدار. كان شاحباً شحوباً فسفورياً كالدكتور كروكوفسكي، وأمامه يجلس الراكب النبيل ويوجّه الزلاجة. كان الراكب النبيل غامضاً مثل شخص تسمع سعاله لكنك لا تراه.
«الأمر سيان بالنسبة لنا هنا في الأعالي»، علق يواكيم المشوش، ومن ثم فانه هو وليس الراكب النبيل مَنْ كان يسعل بتلك الطريقة اللينة المرعبة. نشج هانز كاستورب بمرارة لدى سماعه، ومن ثم إدراكه أنه يتوجب عليه أن يسرع الى الصيدلي للحصول على كريم بارد. غير ان السيدة إلتيس، وبأنفٍ بارز بشع، كانت جالسة على حافة الطريق بيدها شيء ما، لابد أنها آلة الـ steriletto خاصتها لكن اتضح انها لم تكن سوى شفرة حلاقة. جعل هذا هانز كاستورب يتحول من البكاء الى الضحك، وهكذا كانت العواطف المختلفة تتقاذفه الى الخلف والأمام، الى أن دخل الفجر عبر باب شرفته نصف المفتوح وأيقظه.

الفصل الثاني

عن حوض التعميد، وعن الجد في زيّه الثنائي

احتفظ هانز كاستورب بذكريات شاحبةٍ فقط عن بيته الأبوي. لا يكاد يعرف أباه وأمه؛ فكلاهما فارق الحياة في المدة الوجيزة بين عيد ميلاده الخامس والسابع. أمه، في البدء وبصورةٍ مفاجئة تماماً، ماتت عشية ولادةٍ ما، بسبب إنسداد شرياني أعقب التهاب العصب ما أدى وبحسب الدكتور هيده كايند إلى توقف فوري لعمل القلب. كانت تضحك، جالسةً في السرير، كما لو أنها خمدت بفعل الضحك، إنما الواقع يعزى الى كونها قد فارقت الحياة. الأب، هرمان كاستورب لم يستطع فهم فقدانه لها. كان شديد التعلق بزوجته، ولم يكن هو من طراز الرجال الأشداء، ولم يصحُ من موتها الفاجع أبداً. أمسى عليل الروح، وانكمش على نفسه؛ دماغه المشلول جعله يتخبط في مهنته، لذا مُنيت شركة كاستورب وابنه بخسائر مالية ضخمة؛ وفي الربيع التالي، بينما كان يتفحص مستودعات البضائع في محطة رسو السفن المذروة بالريح أُصيب بالتهاب الرئتين. كانت الحمى كبيرة جداً على قلبه الضعيف، وفي غضون خمسة أيام، بالرغم من عناية الدكتور هيده كايند كلها، انتقل الى العالم الآخر. شيع الى مثواه الأخير من قبل حشد من الناس المحترمين، ولحق بزوجته في مدفن عائلة كاستورب، وهو موقع ساحر في فناء كنيسة القديسة كاترين، على مرأى من (الحدائق النباتية).

جده عضو مجلس الشيوخ عاش معه مدةً قصيرةً، ثم مات هو الآخر،

بطريقة مماثلة بسبب التهاب الرئتين. كان كرب وفاته موجعاً، على خلاف ابنه، هانز لورنز كاستورب. كان رجلاً قوي البنية، وذا جذور راسخة في الحياة. قبل وفاته، على مدى سنة ونصف، الجد آوى هانز كاستورب اللطيم في منزله، وهو قصر يقوم في أرضٍ ضيقة تقع في (الاسبلانيده)، شيد في مطلع القرن الماضي، على وفق الطراز الكلاسيكي ـ الشمالي في العمارة. كان مطلياً بلون الجو الكئيب، وله أعمدة[1] على ناحيتي باب المدخل، التي يمكن الوصول اليها عبر خمس درجات سلّم، اضافة الى الروضة[2]، التي كانت لها نوافذ تصل الى الأرض ومزودة بحواجز من قضبان متصالبة من الحديد الصب، كانت هناك طبقتان علويتان.

في الروضة كان هناك بشكل رئيس حجرات استقبال، وغرفة طعام لطيفة جداً ومبهجة، ذات جدران مزخرفة بالجص. نوافذها الثلاث مكسوة بستائر بلون النبيذ، تطل على الحديقة الخلفية. في هذه الحجرة، يومياً، في الرابعة، وعلى مدى ثمانية عشر شهراً، كان الجد والحفيد يتناولان غداءهما معاً، يخدمهما على المائدة العجوز فييته الذي كان له قرطان في شحمتي أذنيه وأزرار فضية في بزة الخادم التي يرتديها، ومنديل رقبة من الباتيسته[3] كمنديل سيده، الذي كان يدفن فيه ذقنه الحليق مثلما يفعل هانز لورنز كاستورب. كان الجد يقول له (أنتَ) ويخاطبه باللهجة المحلية ـ من دون قصد ساخر إذ انه لا يميل الى هذه الأشياء، بل كان في تمام الجدية، كانت تلك عادة مستديمة له في التعامل مع الناس الإعتياديين، المستخدمين في المستودع، سعاة البريد، سائقي العربات، والخدم. كان هانز كاستورب يحب سماع تلك اللهجة، ويحب أكثر سماع رد فييته، بالعامية الدارجة أيضاً، منحنياً بينما هو يخدمهما على المائدة ومتحدثاً في أذن سيده اليسرى، ذلك ان عضو

---

(١) في النص الإنجليزي pilasters وهي جمع pilaster: وهو عمود مستطيل ذو تاج وقاعدة ناتئ بعض الشيء من جدار ـ المترجم.

(٢) في النص parterre (بالفرنسية)، وهي حديقة تفصل بين أحواض الزرع فيها ممرات ومماش ـ المترجم.

(٣) الباتيسته batiste: قماش قطني أو كتاني رقيق ـ المترجم.

مجلس الشيوخ بوسعه ان يسمع أفضل بكثير في تلك الناحية. العجوز يصغي ويوميء برأسه ويتابع الأكل، جالساً بانتصاب بين المائدة والظهر العالي لكرسي الماهوغاني(٤)، ونادراً ما ينحني على طبقه. وحفيده، على العكس منه، يراقب صامتاً، بتركيز عميق غير واعٍ، يديّ الجد الجميلتين، النحيفتين، البيضاوين، والهرمتين. بأظافرهما المدببة، وفي السبابة اليمنى، الخاتم الأخضر المنقوش(٥) ذو القمة، يراقب الحركات الصغيرة الرشيقة المتمرسة التي ترتب بها اليدان لقمة اللحم، الخضار، والبطاطا على طرف شوكته، ومع ميلان طفيف للرأس ينقلها الى فمه. بعدئذ ينظر هانز كاستورب الى يديه هو، وحركاتها التي ما تزال غير بارعة، ويرى فيهما الأمل الذي يؤذن بيومٍ يحمل فيه سكينه وشوكته ويستخدمهما كما يفعل جده.

ثانيةً، يسائل نفسه ما إذا كان قادراً على أن يدفن ذقنه في منديل رقبة آخر أشبه بالمنديل الذي يملأ الحيز الواسع في داخل ياقة جده غير الإعتيادية، ذات النهايات الحادة التي تمس برفق خدّي العجوز. ارتاب في إمكانية تحقيق أمنيته هذه. عليه أن يكون هرماً كجده كي يستطيع فعل ذلك؛ في هذه الأيام، فما عداه هو وخادمه العجوز فييته، لا أحد، في مناطق بعيدة وواسعة، يرتدي مثل هذه الياقات ومناديل الرقبة. انه شيء مؤسف حقاً؛ كان هانز كاستورب الصغير يحب الكيفية التي يستكن فيها ذقن جده في الطوق العالي ذي البياض الثلجي. حتى حين نما، تذكّره بسعادة، شيء ما في أعماق كينونته استجاب له.

حين يفرغان من تناول الغداء، يطويان منديلي المائدة ويضعانهما في حلقتيهما الفضيتين ـ وهي مسألة لم يستطع أن يبلي فيها هانز كاستورب بلاءً حسناً، لأنهما كانتا بحجم أغطية موائد صغيرة، ثم ينهض عضو مجلس الشيوخ من كرسيه، الذي يبعده فييته الى الوراء، ويمضي بخطواتٍ متثاقلة

(٤) الماهوغاني mahogany: خشب صلب بُني ضارب الى الحمرة يُصنع منه الاثاث الفاخر ـ المترجم.

(٥) الخاتم المنقوش seal ring: خاتم مزدان بنقش بحيث يمكن استخدامه كختم ـ المترجم.

ويدخل «مكتبه» كي يأخذ سيجاراً. وغالباً يتبعه الحفيد الى المكتب.

كان لا بد من وجود هذا المكتب نظراً لخصوصية ترتيب الطابق السفلي ـ أي، ان حجرة الطعام خطط لها أن تكون بثلاث نوافذ بدلاً من إثنتين، وتحتل كل عرض المنزل، والتي تترك حيزاً لقاعتي استقبال فقط، بدلاً من القاعات الثلاث المألوفة، وتمنح لإحداهما، بزوايا قائمة مع حجرة الطعام، وبنافذةٍ واحدة على الشارع، عمقاً غير متجانس أبداً. هكذا، ربع الطول أُقتطع من هذه الحجرة تقريباً، وتحولتْ الى حجرة خصوصية صغيرة. كانت قطعة من حجرة، ذات منور؛ يدخلها الشفق، فيها أثاث قليل، كانت هناك خزانة مكشوفة الرفوف، يقف فوقها صندوق سيجار عضو مجلس الشيوخ، وطاولة ورق، جرارها يضم ورق (الهويست)، عملات رمزية تُستخدم في القمار، ألواح تأشير صغيرة بأسنان صغيرة جداً تُفتح وتُغلق بقعقعة، لوح إردوازي وقلم رصاص خاص به، ومباسم سيجار ورقية، وأشياء أخرى تخلب اللب؛ وفي الختام، في الزاوية، علبة مفرطة الزخرفة من خشب الصندل ذات حرير أصفر يمتد وراء أبوابها الزجاجية.

«جدي»، يقول هانز كاستورب الصغير، واقفاً على أطراف أصابع قدميه كي يصل الى أذن العجوز، «من فضلك أرني حوض التعميد.»

والجد، الذي كان قد سحب حافات سترته الكشمير السوداء الطويلة الى الأعلى وتناول حفنة المفاتيح من جيب سرواله، ليفتح حالاً باب العلبة الزجاجية، حيث انتشرت روائح غريبة ومرضية لإحساس الصبي. في داخلها كل ضروب الأشياء المهجورة والفاتنة: زوج من الشمعدانات الفضية المتفرعة، بارومتر مكسور في علبة خشب ذات نحت مجازي، ألبوم الصور الدغرية[٦]، صندوق من خشب الأرز خاص بالأشربة المسكرة، جواد تركي صغير مضحك في حبال حرير متدلية، تحتها جسم صلب بداخله آلات ميكانيكية. حين تعبئه، يكون قادراً على الوثب هنا وهناك فوق سطح

(٦) الصور الدغرية daguerreotypes: طريقة قديمة في التصوير الفوتوغرافي على ألواح فضية ـ المترجم.

المنضدة، لكنه لم يُصلَّح منذ أمد طويل. هناك أيضاً نموذج قديم وجذاب لسفينة؛ وفي الأسفل تماماً مصيدة للجرذان. لكن الجد يتناول من أحد الرفوف الوسطية طبقاً فضياً مستديراً فقدَ بريقه تماماً، مع صينية مماثلة من الفضة، وعرضهما كليهما للصبي، رفع كلاً منهما على انفراد وقلّبهما في راحتيه بينما هو يروي القصة التي رواها له مراتٍ كثيرة قبلاً.

الطبق والطست، كما يفهم المرء، وكما سمع الصغير مرة أخرى، لم يكونا أصلاً معاً؛ غير أن الجد قال، إنهما أُستخدما معاً منذ حوالي مائة سنة خلت، أو منذ الزمن الذي صنع فيه الطست. كان الأخير جميلاً جداً ذا شكل بسيط ورائع، صنع على وفق الذوق البسيط لمطلع القرن التاسع عشر. كان الطست يستقر منبسطاً وصلباً، على قاعدة مستديرة، وكان مطلياً من الداخل بالذهب في يومٍ من الأيام، غير أن الطلاء بهت لونه وتحوّل الى وميض أصفر. كانت زخرفته الوحيدة هي إكليل زهر بسيط من الورود وأوراق مسننة حول حافاته. أما بشأن الطبق فيمكننا التعرف على قدمه الأبعد في داخله: نقش هناك التاريخ ١٦٣٠ بالأرقام الزخرفية مؤطراً بخطوط منقوشة بالمداواة منجزة على وفق «النوع الحديث» لتلك الحقبة الزمنية، صور زخرفية منمقة نزوية وزخارف عربية تشبه شيئاً ما بين النجمة والزهرة. في ظهر الطبق، ومحفورة بكتابات متنوعة، كانت أسماء مالكيه المتعاقبين السبعة، وتاريخ امتلاك كل واحد منهم له. العجوز قرأ أسماءهم لحفيده، مؤشراً بسبابة ذات خاتم. كان هناك اسم والد هانز كاستورب، واسم الجد نفسه، واسم الجد الأكبر، ثم جاءت كلمة «الأكبر» مرتين، ثلاثاً، أربع مرات، من فم الرجل العجوز، بينما كان الولد الصغير مصغياً، رأسه مائل الى أحد الجانبين، عيناه مليئتان بالأفكار، مع انهما مثبتتان وغامضتان أيضاً، انفرجت الشفتان الطفوليتان، نصف مروّعتين، نصف نعسانتين ـ تلك الأكبر ـ الأكبر ـ الأكبر ـ الأكبر ـ يا للصوت العميق الذي تملكه، كيف أفصحت هي عن ضمور الزمن، مع ذلك كم بدت هي تعبيراً عن الصلة العالقة بالبال بصور ممتازة بين الحاضر، حياته الخاصة، وبين عمق الماضي! كل ذلك، كما كشف وجهه، ترك انطباعاً عميقاً. عندما كان يصغي الى الأكبر ـ الأكبر ـ الأكبر، بدا له كما

لو انه يشم الهواء معتدل البرودة، الأرضي، لعقد كنيسة القديس ميخائيل أو عقد كنيسة القديسة كاثرين، نَفَس مناطق يؤمها المرء حاملاً قبعته في يده، الرأس مطأطأ بتبجيل، ماشياً على نحوٍ ملتوٍ على أطراف أصابع القدمين، بدا، أيضاً، كما لو انه يسمع السكون البعيد المدّخر لتلك الأمكنة ذوات الأصداء. شعور ديني امتزج في عقله مع أفكار عن الموت وإحساس بالتاريخ، بينما كان يصغي الى المقطع اللفظي الكئيب؛ كان هذا مصدر رضا يفوق الوصف ـ الواقع، ربما كان ذلك من أجل سماع الصوت الذي يتوسل إليه عادةً بغية رؤية حوض التعميد.

أعاد الجد الإناء على الصينية، وسمح للصبي أن ينظر الى داخله الناعم الذهبي الباهت، الذي أدركه الضوء المنسكب من نافذةٍ في السقف.

«نعم»، قال، «عما قريب ستكون قد مرت ثمانية أعوام منذ أن حملناك فوقه، والماء جرى فيه من تعميدك. لاسين، فندلفت كنيسة القديس يعقوب، سكبه في يد راعي أبرشيتنا الطيب بوغنهاغن، وسال الماء فوق الشعر القصير في قمة رأسك ومن ثم سقط في الحوض. كنا قد دفأناه، كي لا يخيفك أو يجعلك تبكي، أنت لم تبكِ، بكيتَ قبل التعميد، مع ذلك، كان صوت بكائك قوياً بحيث ان بوغنهاغن لم يستطع إنجاز خدمته إلا بصعوبة، لكنك انقطعت عن البكاء حين أحسست بالماء ـ وذلك، دعنا نتمنَّ، كان خالياً من الاحترام للقربان المقدس. بعد مرور بضعة أيام سيكون قد مرَّ أربعة وأربعون عاماً منذ ان كان والدك المبارك وليداً عند جرن المعمودية، وفوق رأسه جرى الماء وانهمر في الحوض. جرى ذلك هنا في هذا البيت، حيث ولد، أمام شباك حجرة الطعام الأوسط، وراعي الأبرشية العجوز هيزيكييل، كان ما يزال حياً. كان هو الرجل الذي كاد الفرنسيون يطلقون عليه النار حين كان يافعاً لأنه بشّر ضد إحراقهم ونهبهم. كان مع الله طوال هذه السنوات العديدة، ثم، قبل خمسة وسبعين سنة خلت، كنتُ الصغير الذي وضعوا رأسه فوق هذا الحوض نفسه؛ جرى ذلك في حجرة الطعام أيضاً، وقال القس البروتستانتي الكلمات ذاتها التي قيلت حين تم تعميدك وتعميد والدك، وجرى الماء الصافي، الدافئ فوق رأسي بالطريقة نفسها بالضبط ـ لم يكن

هناك شعر أكثر مما هو عليه الآن ـ وانهمر في الطاس المعدني كما انهمر بعد جريانه على رأسك.»

رفع الصغير بصره الى رأس جده الضيق الأشيب، المنحني فوق الحوض كما انحنى عليه في الوقت الذي وصفه. شعور مألوف هيمن على الطفل: إحساس غريب؛ غامض، مقلق: يتعلق بالتغيير في غمرة البقاء، يتعلق بالزمن كونه جارياً ومستمراً، يتعلق بالتكرار في الاستمرارية ـ كانت تلك أحاسيس شعر بها قبلاً في مناسبات مماثلة، ومن جديد تنبأ بها واشتاق إليها معاً، كلما عُرض عليه شيء ذو قيمة ينتقل الى الوريث كجزء لا يتجزأ من الإرث.

كان يدرك خلال سنوات شبابه ان صورة جده كانت مطبوعة بعمق وجلاء في عقله، بمغزى يبز مغزى صورتي والديه. من الجائز أن ترتكز هذه الحقيقة على العاطفة والتشابه الجسدي، لأن الحفيد كان يشبه جده، بقدرٍ ما، هكذا، كونه يافعاً متورّداً، بالزغب فوق ذقنه ربما يشبه الرجل السبعيني المقصور والمصاب بالتهاب المفاصل الربوي. مع ذلك ربما يشي ذلك بأكثر مما هو حقيقي فعلاً، ألا وهو ان الجد كان الشخصية الحقيقية، الصورة الحية للعائلة.

قبل رحيل هانز لورنز كاستورب بوقتٍ طويل، شخصه والأشياء التي خضع لها كفت عن كونها ممثلةً لعصره. كان رجلاً نبيلاً مسيحياً ونموذجاً، للإيمان (البروتستانتي)، لصفة العقل المحافِظة بقوة، كونه قانعاً بعناد بحق الارستقراطية في الحكم كما لو كان ولد في القرن الرابع عشر، حين بدأتْ الطبقات العمالية تتقدم بوجه المقاومة العنيفة للنبالة الحرة وتنتزع منها مكاناً وصوتاً في مجالس المدينة القديمة. انه قليل الفائدة لما هو حديث. سنواته الحافلة بالنشاط انتهت في عقدٍ من النمو السريع والجيشانات المتكررة، عقد من التقدم بفعل المسيرات الإجبارية، التي خلقت حاجات ملحة مستمرة للقدرة الشعبية على العمل والتضحية بالذات في سبيل الآخرين. كاستورب العجوز، مؤكد لم يكن له دور أو نصيب، في النصر اللامع للروح الحديثة التي أعقبت ذلك. لم تكن غلطته، كان يوافق على أساليب الأسلاف

والأعراف القديمة أكثر من الخطط الهدامة في توسيع المرفأ، أو الخطط الكافرة والهرائية (نسبة الى الهراء) من أجل حاضرة أعظم. وضع الفرامل قيد الاستعمال؛ برى الأشياء كلها كلما كان ذلك ممكناً؛ وإذا تُرك الأمر لمشيئته، فإن الإدارة كانت ستستمر في إرتداء الزي عتيق الطراز، الرعوي نفسه كما كان يفعل المكتب، في زمنه.

هكذا، خلال سنوات حياته وبعدها، كانت تلك هي الصورة التي قدّمها العجوز لعيون زملائه المواطنين؛ وبحسب الأصول، للنظرة المحدِّقة الطفولية لـ هانز كاستورب الصغير، الذي لم يكن يعرف شيئاً عن أمور الدنيا، والذي كانت أحكامه اللاصورية، ضعيفة التمييز، هي بالأحرى ثمرة الإدراكات المفعمة بالحياة حصراً. مع ذلك، استمرت هي في الحياة التالية، شأنها شأن عناصر صورةٍ لذكرى يعيها المرء بصورةٍ واعية تماماً، والتي تحدّتْ التعبير أو التحليل، بيد انها كانت إيجابية فيما يتعلق بذلك كله. نكرر القول ان التعاطف الطبيعي كان هنا في حالة نشاط أيضاً، الرباط العائلي المحكم والحميمية الكاملة كانا يقفزان فوق الذرية التي تتخللهما.

كان كاستورب عضو مجلس الشيوخ طويلاً وهزيلاً. الأعوام أحنتْ ظهره وعنقه، لكنه حاول أن يعادل التقوس بوساطة الضغط في اتجاه آخر، يلوي فمه بوقار مثابر، مع أن الشفتين كانتا منكمشتين على اللثتين العاريتين، كونه فقدَ أسنانه كلها، وكان يضع الأسنان الكاذبة لغرض تناول الطعام فقط. هذا الوضع أيضاً هو الذي ساعد في ترسيخ إهتزاز أولي للرأس، ومنحه هيئة من أُمسك بزمامه، وجعله يسند ذقنه على منديل العنق بأسلوب فطري جداً بالنسبة لذائقة هانز كاستورب الصغير.

كان يهوى علبة السعوط خاصته ـ كانت من عظم ظهر السلحفاة، طويلة بعض الشيء ومطعمة بالذهب ـ وبسبب استخدامه للسعوط، كان يستخدم منديل جيب أحمر اللون، زاويته تتدلى دوماً من جيب سترته الخلفي، إذا أضافت نقطة الضعف هذه لمسةً طريفةً لمظهره، فإن المظهر، على أية حال، كان فقط ذا إهمال طفيف أو انحراف عن القاعدة يرجع الى العمر، التي يسمح بها طول الأيام إما بصورةٍ واعية ومرحة، أو بطريقة أخرى تأتي

بقطارها من دون أن يكون الضحية عارفاً بها. إذا كان ذلك نقيصة، فهي النقيصة الوحيدة التي لاحظتها عين الطفل الثاقبة في المظهر الخارجي لجده. غير أن المظهر اليومي للعجوز لم يكن هو مظهره الحقيقي أو الأصيل، إما لطفل السنوات السبع، وإما لذكرى الرجل البالغ في الأعوام اللاحقة. كان ذلك مختلفاً، أكثر جمالاً وأكثر واقعيةً؛ كان ذلك هو الجد كما ظهر في صورة وجهه المرسومة بالحجم الطبيعي، كانت معلقةً يوماً في منزل والديّ هانز كاستورب، وانتقلت معه الى (الإسبلانيده) عند وفاتهما، وهي الآن معلقة فوق الكنبة الكبيرة الحمراء ذات الساتان في قاعة الإستقبال.

تظهر الصورة المرسومة هانز لورنز كاستورب في زيه الرسمي عضواً لمجلس الشيوخ: الرداء المدني الرزين، وحتى الورع، لقرنٍ ماضٍ جلبته معها دولة ديمقراطية مؤكدة لذاتها ومغامرة معاً طوال سنوات عدة وبقي في الاستخدام الاحتفالي كي يجعل الحاضر ماضياً والماضي حاضراً، وان يشهد على الاستمرارية الأبدية للأشياء، والصدى الدقيق لإمضائه التجاري. عضو مجلس الشيوخ كاستورب يقف بكامل طوله على أرضٍ من القرميد الأحمر، على وفق قواعد الرسم المنظوري المؤلف من عمود وقوس مدبب. كان ذقنه متدلياً، فمه مسحوب للأسفل، عيناه الزرقاوان المستغرقتان في التفكير، وتحتهما تتجلى قنوات الدمع، مصوبتان الى المنظر البعيد. كان يرتدي سترة سوداء، ذات فصال كامل كالثوب، تصل أسفل ركبتيه، مع زركشة عريضة من الفراء حول الحافة كلها؛ كان الكمّان الفوقيان عريضين ومنتفخين ومزركشين بالفراء أيضاً، بينما دونهما يأتي الكمان التحتانيان الضيقان من القماش غير المزخرف، من ثم طرفا الردنين المصنوعين من الدانتيلا، اللذين يغطيان الكفين حتى مفاصل الأصابع. كانت الساقان الهرمتان، الرشيقتان مكسوتين بجوربي حرير أسودين؛ الحذاءان لهما إبزيمان فضيان. لكن حول رقبته كان هناك طوق رقبة مكشكش عريض ومنشى، مضغوط من الأمام ومنتفخ من الجانبين، تحته، من أجل تدبير وسيم، ثمة جابوط(٧) محزز برز

(٧) جابوط jabot: قطعة من قماش يتخذ منها الرجل زينة للعنق ـ المترجم.

فوق الصدرة. تحت ذراعه يحمل القبعة عتيقة الطراز، عريضة الحافات، تضيق الى نقطة مستدقة الطرف في قمتها.

كان رسماً ممتازاً، أنجزه فنان ذو سمة مميزة، بأسلوب الأستاذ القديم[٨] الذي يناسب الموضوع ويذكرنا كثيراً بالرسوم الاسبانية، والهولندية ونهايات القرون الوسطى. كان الصغير هانز كاستورب ينظر اليه عادة من دون طبعاً أية معلومات بالفن، إنما بادراك أكبر، وحتى متقد. مرة واحدة فقط، ومدة لحظة واحدة حسب رأى جده كما صُوِّر هنا، لمناسبة موكب الى الـ(راتهاوس)[٩]. لكنه لم يستطع أن يقاوم إحساساً بأن هذا الشيء المعروض كان هو الجد الأصيل، الحقيقي، وان جد كل يوم ـ الثانوي حصراً ـ غير المرتاح كلياً هو نوع من جد مؤقت ـ إن صح التعبير ـ فقد كان واضحاً أن الإنحرافات والخصوصيات المعروضة بوساطة مظهره اليومي كانت ناجمة عن التكيف غير التام، وربما حتى غير الناجح؛ كانت تلك الآثار التي لا يمكن استئصالها تماماً لمظهر الجد الخالص والأصيل. ان الياقة العالية والطوق، في سبيل المثال، كانا عتيقي الطراز؛ وهي صفة من غير الممكن أن تُستعمل لذلك الصنف الرائع من الملابس الخارجية التي كان ممثلها الوقتي: أعني طوق الرقبة المكشكش. يصح القول أيضاً على القبعة العالية السوداء غير المألوفة التي يرتديها الجد، مع جزئها العلوي الشبيه بالجرس، التي انسجمت معها الحافات العريضة من اللباد في الرسم، بدرجةٍ عالية فقط من الواقعية؛ وكذلك يصح القول على السترة السوداء الفضفاضة والتي تبلغ الركبتين، التي كانت نموذجها البدائي وأصلها بالنسبة لـ هانز كاستورب الكساء الإحتفالي المزين بالدانتيلا والفراء.

وهكذا كان فرحاً من أعماق قلبه أنه لا بد أن يكون الجد الأصيل، الكامل، هو المضطجع هناك متألقاً ذلك اليوم حين أقبل ليودعه الوداع

---

(٨) في النص الإنجليزي old masterish نسبة الى old master وهو أحد أساطين فن الرسم التزييني في القرنين (١٦) و(١٧) وأوائل القرن (١٨) ـ المترجم.

(٩) الراتهاوس Rathaus (بالألمانية): دار البلدية ـ المترجم.

الأخير. كان ذلك في الغرفة التي اعتادا الجلوس فيها الى المائدة يواجه كل منهما الآخر؛ والآن، في الوسط، كان هانز لورنز كاستورب مستلقياً في نعشٍ. قاوم هو الهجوم على رئتيه، قاوم طويلاً وبعنف، بالرغم من كبريائه المصطنعة كونه في منزله، في حيوية اليوم فقط بفضل طاقاته في التكيف. لا يكاد المرء يعرف ما إذا نجح أم خسر في صراعه مع المرض؛ لكن على أية حال، هو ذا مسجى هناك، بتعبير جدّي إنما قانع، في تابوتٍ مكشوف لكي يراه الناس قبل دفنه. كان المرض قد غيره، أنفه بدا حاد الطرف ورفيعاً؛ كان نصف جسده السفلي مخفياً بغطاء سرير يستقر فوقه غصن غار؛ كان الرأس مرفوعاً للأعلى بفعل وسادة الحرير، بحيث ان ذقنه استقر بصورة جميلة في الانتفاخ الأمامي لطوق العنق المكشكش. بين اليدين، نصف المحجوبتين بطرفي كميهما الدانتيلا، أصابعهما الميتة، الباردة بصورة جلية مرتبة بفن كي يحاكيا الحياة، أُقحم صليب عاج. بدا كما لو أنه يتفرس فيه، من تحت جفنيه المسبلين، بنظرات ثابتة.

أغلب الظن أن هانز كاستورب شاهد جده مراتٍ عدة في بداية مرضه الأخير هذا، وليس قرب نهايته. وفروا عليه مشهد الصراع، أكثر الصراعات سهولةً تلك التي في الليل خاصة؛ فقد أحس به فقط من خلال الجو المشحون بإفراط في المنزل، ومن خلال عيني العجوز فيبته الحمراوين، ومجيء الأطباء وذهابهم. ما جناه واقفاً الآن عند النعش في حجرة الطعام، هو ان جده قد تغلّب أخيراً وشكلياً على هيئته المؤقتة واتخذ طوال الوقت مظهره الحقيقي والكافي. وكانت تلك نتيجة مُرضية، مع ان العجوز فيبته كان ينتحب ويهز رأسه باستمرار، وهانز كاستورب نفسه انتحب، كما فعل لمرأى الأم التي حُرم منها بغتةً، ولمرأى الأب، بعدها بوقتٍ قصير، وبقي بدوره ساكناً وغريباً أمام عينيِّ الصبي الصغير.

وهكذا للمرة الثالثة في مدةٍ زمنية قصيرة جداً وفي سنوات غِرة كهذه عبث الموت بروح وحواس ـ لكن بشكل رئيس حواس ـ الصغير. لم يعد المشهد غريباً، كان مألوفاً له قبلاً، وفي تلك الحوادث الأبكر، فقط بدرجة

أكبر، حمّل نفسه بحضور الموت سيماءً موثوقاً بها، تحلى بضبط النفس التام، من دون إبداء أي ضعف عصبي، إن لم نقل أي اكتئاب طبيعي. لم يكن يعي النتيجة العملية التي سيعنيها الفقدان لحياته الخاصة مستقبلاً، أو بطريقة أخرى بلا مبالاة طفولية كان هو واثقاً بصورةٍ غريزية بأنه ستتم رعايته بصورةٍ ما، وهكذا، عند النعش، كشف رباطة جأشه غير المدركة ويقظته المستقلة في الملاحظة كليهما، وقد أُضيف إليهما، في هذه الحادثة الثالثة، إحساس وتعبير الخبرة الفنية. وشيء ما أكثر منه، وهو اختلاف خاص، مبكر النضج: بدا كما لو انه لم يعد يفكر بالدموع ـ إما الانفجار المألوف للحزن أو العدوى الآتية من حزن الآخرين ـ كرد فعل طبيعي. خلال ثلاثة أو أربعة شهور بعد وفاة أبيه نسي كل ما يتعلق بالموت؛ لكنه الآن تذكّره من جديد، وكل انطباعات تلك المرة عادت صحيحةً، عاجلةً، حادةً في غرابتها المبهمة.

مرغمةً على النظام مصوغة في كلمات، ستكون شيئاً ما أشبه بما يلي. بشكلٍ من الأشكال كان الموت حالةً مقدسةً، كئيبةً، روحيةً، يسيطر عليها جمالٌ حِدادي محدد. وبشكل آخر كان مختلفاً تماماً. كان بالضبط شيئاً مناقضاً، كان جسدياً جداً، كان مادياً، ليس بمستطاعنا تسميته مقدساً، أو كئيباً، أو جميلاً ـ ولا حتى حِدادياً. ان الجانب الوقور، الروحي عبّر عن نفسه في الرقود الاحتفالي في حالة الجثة، في الغار ذي الورق المروحي ووفرة الأزاهير، التي رمزتْ كلها لسلام الباري والمملكة السماوية، كما فعل بصورةٍ جلية أكثر صليب العاج المقحم بين الأصابع الميتة لمَنْ كان، مرةً، جَداً، والتمثال النصفي لـ يسوع الناصري المصنوع بيديّ (بوروالدسين) عند رأس النعش، مع شمعدانات زينية متفرعة وشاهقة في كلا الجانبين. هذه الأخيرة هي التي أكسبت المشهد جواً كنسياً. هذه الترتيبات كلها كان لها تبرير أكثر دقة في الحقيقة القائلة ان الجد يرتدي الآن والى الأبد زيه الحقيقي والمناسب. وفوق وأعلى سبب الوجود ذاك كان لهم شيء آخر، من النوع الأكثر دنيوية، الذي كان هانز كاستورب يدركه بصورة جلية، مع انه لم يعترف بذلك بكلمات كثيرةً جداً. إحداها وكلها، ولكن الأزهار خصيصاً،

وأكثر من هذه خاصةً حشد نباتات مسك الروم[١٠]، كانت هناك لتلطيف المظهر الآخر للموت، الجانب الذي لم يكن جميلاً ولا حزيناً بالضبط، بل كان غير ملائم نوعاً ـ جانبه الجسدي، الوضيع، كي يتم إغفاله ويمنع المرء من أن يكون واعياً به.

هذا الجانب الآخر للموت هو الذي جعل الجد نفسه يبدو غاية في الغرابة، وهو لا يشبه الجد مطلقاً، بل أشبه بدمية شمع بالحجم الطبيعي، وضعها الموت بدلاً عنه كي تكون مركز كل هذا المشهد اللافت للنظر والورع والمبجل. هو الذي يرقد هناك ـ أو الأصح تلك الراقدة هناك ـ لم تكن هي الجد نفسه، بل صَدَفة، مصنوعة، كما أدرك هانز كاستورب، ليس من الشمع، بل من مادتها الخاصة، ومن هذه المادة فقط. هنا، بالضبط، يكمن ما لم يكن ملائما. لم تكن حزينةً إلا نادراً ـ طالما ان الأشياء ليست تلك التي لها شأن مع البدن ومعه فقط. هانز كاستورب الصغير أَجَلَّ تلك المادة، الصفراء كالشمع، وذات الحبيبات الدقيقة كالجبن، التي صُنعت منها الصورة بالحجم الطبيعي، صُنع وجه ويدا ما كان سابقاً جده. استقرت ذبابة على الحاجب الساكن وشرعت تحرك خرطومها الى الأعلى والأسفل. طردها العجوز فييته بإحتراس، محاذراً ألا يمس جبين الميت، متصعناً هيئة ملائمة لشرود الذهن ـ للغموض المتعمد، إذا صح التعبير ـ كما لو إنه لم يكن يلاحظ ولن يلاحظ ما كان يفعله. هذا التصحيح للسلوك له وبصورة واضحة علاقة بالحقيقة القائلة ان الجد لم يعد الآن شيئاً سوى جثة. غير ان الذبابة، بعد طيران دائري، جاءت لتستقر على أصابع الجد، بالقرب من صليب العاج. وهانز كاستورب يراقب، ظاناً بأنه اكتشف، بصورةٍ أكثر جلاءً من أي وقت مضى، زفيراً مألوفاً، غريباً، كان زفيراً ضعيفاً، مع ذلك هو زفير دبق بصورة غريبة ـ وقد إحمر لدى اكتشافه ان ذلك الزفير جعله يفكر في زميل مدرسة سابق، كان يتجنبه طلاب صفه لأنه عانى من صفة جسدية غير سارة ـ ولغرض التخلص من الزفير كانت هناك نباتات مسك الروم، التي، بكل

(١٠) مسك الروم tuberose: نبات من النرجسيات ـ المترجم.

خصبها المحبب وقوة عطرها، أخفقتْ مع ذلك في التغلب عليه.

وقف ثلاث مرات عند نعش جده. مرةً وحدهما هو والعجوز فبيته، ومرةً مع خال الأم تاينابيل، تاجر الخمر، وخاليه جيمس وبيتر؛ والمرة الثالثة والأخيرة حين جاءت مجموعة من مستخدمي المرفأ في ثياب الأحد لغرض توديع رئيس مؤسسة كاستورب وابنه التجارية الوداع الأخير. ثم أتت الجنازة. كانت الحجرة تغص بالناس، والقس بوغنهاغن من كنيسة القديس ميخائيل، وهو نفسه الذي عمَّد هانز الصغير، وألقى خطبةً مملةً، مرتدياً طوق رقبة مكشكشاً. كان ودوداً جداً مع الغلام حين انطلقا معاً متجهين صوب المقبرة، في أول عربة خلف النعش. وهكذا ينتهي عهد آخر من حياة هانز كاستورب، ومن جديد انتقل الى بيت جديد والى بيئة جديدة، للمرة الثانية في حياته قليلة التجارب.

في منزل عائلة تاينابيل وعن الوضع المعنوي للصغير هانز

لم يكن التغيير خسارةً له؛ لأنه دخل بيت وصيّه المعين القنصل تاينابيل، حيث لم يكن يطلب شيئاً. مؤكد ان هذا حقيقي قدر تعلق الأمر بحاجاته الجسمانية، من دون أن نستثني ناحية الوصاية الآمنة لمصالحه ـ والتي كان ما يزال يافعاً جداً كي يعرف أي شيء عنها. ذلك ان القنصل تاينابيل، خال أم هانز المتوفاة، كان الشخص المنتدب لتصفية ممتلكات كاستورب؛ عرض الملك للبيع، واطّلع بمسؤولية تحويل شركة كاستورب وابنه، مستوردان ومصدران، الى نقد، وحقق من خلالها مالاً يبلغ أربعمائة ألف مارك، هو إرث الصغير هانز. وظّف القنصل تاينابيل المبلغ كأمانات مالية، وأخذ لنفسه اثنين بالمائة من الفائدة كل فصل من السنة، من دون أن يحرمه من الإحساس بالقرابة.

يقع منزل تاينابيل عند سفح حديقةٍ في هارفستيهودر شتراسه، تطل

نوافذه على قطعة أرض من المرج لا تعاني فيه أصغر عشبة ضارة من الازدهار، وبعدها على تخوم عمومية مزروعة بالورد، ومن ثم على النهر. يمضي القنصل على قدميه كل صباح الى عمله في (المدينة القديمة) ـ مع انه يملك أكثر من عربة جيدة ـ من أجل القيام ببعض التمارين البدنية، فقد كان يعاني غالباً من احتقان دماغي. يعود في الطريق نفسه في الخامسة عصراً، وحينذاك تتغدى أسرة تاينابيل، باحتفالية وافية ومناسبة. كان رجلاً سميناً، وكانت بزاته دوماً من أفضل الأقمشة الإنجليزية؛ كانت عيناه بزرقة الماء وبارزتين خلف نظاراته ذات الإطارات الذهبية، كان أنفه أحمر اللون، ولحيته المربعة رمادية؛ وكان يلبس صفيحة معدنية براقة في الخنصر القصير والغليظ لكفه اليسرى. كان قد مرّ دهر طويل على رحيل زوجته. كان له ابنان، بيتر وجيمس، أحدهما كان في سلك البحرية ونادراً ما يكون في البيت، أما الآخر فيشغل منصباً في محل تجارة الخمر الذي يديره والده، وكان قدره أن يرث المهنة. كانت مسؤولية تدبير المنزل قد اضطلعت بها، طوال سنوات عدة، ابنه صائغ ذهب من (ألتونا)، تدعى شالين، كانت ترتدي كشاكش بيضاً منشاة عند رسغيها المبرومين، الممتلئين. كان عملها أن تكون المائدة، صباحاً ومساءً، محملةً بوفرة باللحوم الباردة، السرطانات والسلمون، وسمك الجريث وصدر وزة مدخّن، مع صلصة الطماطم للحم المشوي. كانت تراقب بيقظة النّدل المستخدمين حين يقيم القنصل تاينابيل مأدبة غداء للنبلاء، وهي التي، بقدر تعلق الأمر بعملها، حلت محل الأم بالنسبة للصغير هانز كاستورب.

وهكذا نما هو؛ في مناخ رديء، بين أنياب الريح والسديم، نما، إذا صح التعبير، في معطف أصفر واقٍ من المطر، وعموماً، كان ينمو بقوة. كان يعاني دوماً من فقر دم بسيط، هكذا قال الدكتور هايده كايند، وكان يرغمه على شرب كأس جعة ثقيلة داكنة (برتر) بعد الفطور الثالث يومياً، بعد عودته من المدرسة الى البيت. هذا، كما يعرف الجميع، شراب مغذٍ ـ عدّه الدكتور هايده كايند صانعاً للدم ـ ومؤكد وجده هانز كاستورب مهدئاً لمزاجه النفسي ومشجعاً على نزعته، التي كان خاله تاينابيل يدعوها بـ«التكاسل»: أي

انه يجلس محدقاً في الفراغ، فكه متدلٍ لا يفكر في أدنى شيء على الإطلاق. ولكنه على العموم كان سليماً جسمانياً وعقلياً، ويلعب التنس ويقود زورق تجذيف بقدرة كافية؛ مع انه في الواقع لم يكن يروق له استعمال المجاذيف مثل الجلوس في أمسيات الصيف على مصطبة المنزل ـ المعدّية في أوهلنهورست، مع شراب جيد أمامه وصوت الموسيقى ينداح في أذنيه، بينما هو يراقب الزوارق المضاءة، والبجعات التي انعكست صورها في الماء الصافي. إصغِ إليه وهو يتحدث، رزيناً وحساساً، بصوتٍ خفيض نوعاً، ورتيب، إصغِ الى كلامه الذي تشوبه اللهجة الدارجة؛ ولاحظه في لياقته الشقراء، برأسه ذي الشكل الحسن، الذي كان يتحلى بسمةٍ كلاسيكية معينة، وطريقته الهادئة، المتراخية في المشي، وهي ثمرة الغرور الفطري، الموروث، وغير المقصود تماماً ـ ستقسم ان هذا الصغير هانز كاستورب كان نتاجاً شرعياً وأصيلاً للتربة التي ترعرع فيها، وبصورة لافتة للنظر في المنزل الكائن في محيطه. فما إن يطرح على نفسه سؤالاً كهذا، حتى يجد جواباً له لا يرتاب فيه ثانيةً واحدة.

نعم، كان هو بكل ما في الكلمة من معنى في محيطه المناسب له في جو هذه المدينة الساحلية العظيمة: هذا الجو العبق بالروائح القوية، المؤلف من حياة جيدة، وتجارة بمقادير قليلة طوّقتْ زوايا الأرض الأربع. كان ذلك نَفَس منخري والده، وكان الإبن يستنشقه بإذعان عميق وإحساس بالسعادة. الأشياء المزفورة من الماء، الفحم، والقار، الرائحة النافذة في المنخرين الآتية من الأكوام المكدسة للمنتوجات الإستعمارية؛ الرافعات البخارية الضخمة عند رصيف تحميل السفن أو تفريغها، تقلّد هدوء، وذكاء وقوة الأفيال الهائلة خلال عملها، بينما هي ترفع أطنان الأكياس، البالات، الصناديق، الرواقيد (جمع راقود)(١١) والدامجانات(١٢) من أحشاء السفن المسافرة بحراً وتنقلها الى قطارات وموازين في الانتظار؛ رجال الأعمال

---

(١١) راقود vat: وعاء ضخم للسوائل يستخدم للتكرير ـ المترجم.

(١٢) الدامجانة carboy: زجاجة كبيرة مكسوة بوقاء من الخيزران ـ المترجم.

بمعاطف مطاط صفر كمعطفه، يتدفقون بأعداد كبيرة الى (البورصة) في منتصف النهار، حيث يوجد، عادةً، كما عرف هو، عمل نشيط، وجيد، ومن الجائز أن يقوّي المرء سمعته من غير إعطاء مهلة كافية لأخذ الحيطة والاستعداد من خلال دعوات لمآدب غداء ـ كل ذلك أحسه، رآه، سمعه، وعرفه. فضلاً عن ذلك كله، كان هناك الحقل الذي استأثر فيما بعد باهتمامه الخاص: فوضى أحواض صنع السفن، الأجسام العملاقة للسفن الضخمة، سفن آسيوية وأفريقية تعمل على خط مواصلات نظامي، مضطجعة في الحوض الجاف، عاريةً من عارضة رئيسة تمتد على طول قعر السفينة وخالية أيضاً من الداسر، مسندة بوساطة دعامات بسمُك جذوع الأشجار، تضطجع هناك بعجز رهيب، تعج بأعداد كبيرة من البشر الشبيهين بالأقزام، يخدشون، يبيّضون، يقرعون؛ كانت هناك مساند بناء السفن أو إنزالها، ذات السقوف، مغطاة بأكاليل من السديم الشبيه بالدخان، حاملةً الهياكل الشاهقة للسفن البارزة للعيان، بينها يتحرك المهندسون، في أيديهم مخططات وموازين تحميل، يعطون التوجهات للعمال. هذه كلها كانت مشاهد مألوفة لـ هانز كاستورب بدءاً من سنوات شبابه وما تلا ذلك، توقظ في داخله هو فقط الأحاسيس المستساغة، المألوفة الخاصة بـ (الانتماء)، التي كانت إمتياز أعوامه. أحاسيس كهذه ستبلغ ذروتها حين يجلس عصر يوم أحد مع جيمس تاينابيل أو مع ابن خالته يواكيم زيمسين في المقصورة الواقعة في (ألستر)، يتناول الفطور المؤلف من اللحم الساخن واللحم المدخن، مع كأسٍ من الخمر البرتغالي المعتق؛ أو حين يفرغ من تناول الطعام، يتكئ في كرسيه، ويسلّم نفسه الى سيجاره. ففي ذلك المكان خاصة كان هو مخلصاً لمثاله، وكان يهوى الحياة الخصبة، ومع ذلك فإن رقة قوامه وهيئة التهذيب الزائد ما زالتا معلقتين بالمسرات الغريزية للحياة تعلق الرضيع الشره بثدي أمه.

بصورةٍ مريحة، لا تخلو من الوقار، حمل عبء التهذيب الذي وهبته الطبقة العليا الحاكمة في المدينة التجارية لأولادها. كان هو نظيفاً شأنه شأن طفل يلقى رعاية جيدة، ويرتدي ثياباً يخيطها خياط يثق به شبان محيطه الاجتماعي ثقةً كبيرة. كانت شالين تعتني عنايةً جميلةً بالخامة الصغيرة التي

يرتديها، خامة الكتان المعلّم باهتمام، التي كانت مودعة في خزانة الثياب ذات الأدراج بحسب الطريقة الإنجليزية. حين درس بعيداً عن البيت، كان يرسل بانتظام ثيابه المعدة للغسل كي يتم غسلها ورتقها، وكان يردد دوماً، ان خارج هامبورغ ما من أحد في المملكة يعرف كيف يكوي الملابس. ان لطخةً غير مستساغة في طرف كم قميص من قمصانه الأنيقة تملؤه بالانزعاج الشديد. يداه، مع أنهما ليستا ارستقراطيتي الشكل بصورةٍ خاصة، كان يُعنى بهما جيداً، جلدهما طري، وكان يلبس خاتم بلاتين فضلاً عن الخاتم المنقوش الذي ورثه من جده. كانت أسنانه رقيقة نوعاً وفيها عيوب وله عدد من حشوات الذهب.

واقفاً وماشياً، كان يبرز بعض الشيء بطنه، الذي لا يكاد يترك انطباعاً رياضياً، غير ان طريقة جلوسه الى مائدةٍ ما أبعد ما تكون عن الاعتراضات التافهة. جالساً باستقامة شديدة، كان يدير نصف جسده العلوي كي يتحدث الى جاره (بهدوء، طبعاً، ومع طبق لحم صغير) وكان يبقي كوعيه في وضع جيد حينما يمزق قطعة لحم الدجاج، أو برشاقة، بالأداة المجهزة، يسحب اللحم الوردي من محارة سرطان بحري. مطلبه الأول بعد وجبه الطعام كان السلطانية ـ الإصبع الحاوية على الماء المعطر، طلبه الثاني هو السيجارة الروسية ـ التي لا يدفع عنها رسماً كونها سلعة أجنبية، لأن له طريقة مناسبة في الحصول عليها مهربة. بعد السيجارة السيجار، كان يفضل علامة (بريمن) التجارية، المسمى ماريا مانسيني، الذي سنسمع عنه هنا كثيراً فيما بعد؛ المادة المخدرة العطرة الممزوجة بهدوء مع القهوة. حافظ هانز كاستورب على ذخيرته من التبغ من التأثيرات الضارة للتدفئة البخارية بوضعها في السرداب، حيث يلجأ كل صباح الى ملء علبته بمخزونه لذلك اليوم. كان لا يميل فطرياً الى تناول الزبد المقدّم في قطعة بدلاً من كرات صغيرة مخددة.

سيكون مفهوماً أننا عنينا بقول كل شيء من الجائز أن يقال في صالح هانز كاستورب، مع ذلك من دون إثارة الغثيان، من دون أن نجعله أفضل أو أسوأ، مما كان عليه. لم يكن عبقرياً ولا غبياً، وإذا تجنبنا، في وصفنا له، استعمال كلمة (متوسط)، فذلك لأسباب لا صلة لها البتة بذكائه، ويشق أن

تجد لها علاقة بشخصيته البسيطة عموماً، بل نوعاً ما من غير اعتبار لنصيبه في الحياة، الذي نميل الى إعطائه أهمية معينة فوق الاعتبارات الشخصية أو أبعد منها. كان ذكاؤه ثابتاً من دون توتر غير ضروري ناجم عن الحاجات الملحة خلال دروس ثانوية (ريال) الألمانية ـ التوتر، الواقع، كان شيئاً ينفر منه بصورة واضحة تماماً، مهما كانت الظروف أو هدف مجهوده؛ ليس خوفاً من إيذاء نفسه، بل لأنه إيجابياً لا يرى سبباً، أو، بصورة أدق، لا يرى سبباً إيجابياً، للإجهاد. هذا، إذاً، ربما، هو السبب الذي جعلنا لا نميل الى أن ندعوه متوسطاً: وانه، بصورةٍ أو بأخرى، كان يدرك جيداً الحاجة الى سببٍ كهذا.

إن المرء لا يحيا فقط حياته الشخصية، كونه فرداً، ولكنه أيضاً، بصورة واعية أو غير واعية، يحيا حياة عهده ومعاصريه. ربما يعد القواعد العامة، غير الشخصية لوجوده مستقرة بصورة مؤكدة ويعدها صحيحة، ويكون بعيداً عن اتخاذ موقف حرج تجاهها كما كان بطلنا الطيب هانز كاستورب فعلاً كذلك؛ مع ذلك انه شيء ممكن تصوره تماماً انه ربما يكون برغم ذلك واعياً بصورةٍ غامضة بنقائص عهده ويجدها ضارةً بسعادته الأخلاقية. كل ضروب الأهداف، الغايات، الآمال، التنبؤات الشخصية ترفرف أمام عينيّ المرء، ومن بينها يستمد دافعاً للطموح والإنجاز. الآن، إذا كانت الحياة حوله، إذا ما بدا زمنه هو، مهما كان محفَزاً من الخارج، في قاعٍ خالٍ من قوتٍ كهذا ضروري لطموحاته؛ إذا ما ميزه بصورة شخصية كونهُ فاقداً للأمل، عديم الرؤية، عاجزاً، يعارض فقط بالصمت الأجوف كل الأسئلة التي يطرحها المرء، بصورة واعية أو غير واعية، مع ذلك يطرحها بصورة ما، كونها المعنى الأخير، المطلق، المختصر في كل جهوده وفعالياته؛ بعدها، في حالةٍ كهذه، نوع معين من عرج الشخصية يحدث حتماً، كلما كان محتوماً أكثر تكون استقامة الشخصية التي نحن بصددها أكثر؛ نوع من الشلل، إذا صح التعبير، الذي ربما يمتد من جزئه الروحي والأخلاقي الى جزئه الجسدي والعضوي. في عصرٍ ما لا يعطي جواباً مقنعاً للسؤال السرمدي: «لماذا؟» «لأية غاية؟»، ان رجلاً قادراً على تأدية عمل ما فوق وأعلى من

المعدل واليسير المتوقع يجب تزويده إما بالعزلة الأخلاقية والاخلاص وهو شيء نادر في الواقع وذو طراز بطولي، وإما بطريقة أخرى يجب تزويده بحيوية قوية بنحو استثنائي. هانز كاستورب لم يكن يملك هذه ولا تلك، ولهذا ينبغي لنا أن نعده متوسطاً بالمعنى الجدير بالاحترام التام.

كل ما قلناه الآن له صلة بالحالة الروحية للشاب ليس خلال سنوات دراسته، ولكن أيضاً في السنوات التي أعقبتها، بعد أن وقع اختياره على المهنة المدنية. خلال انتقاله من صف مدرسي الى آخر، كان يتوجب عليه بين الفينة والفينة أن يأخذ المواد الدراسية مرةً ثانية. لكن في الأغلب منشأه، تربيته الجيدة، وكذلك موهبته الجيدة بالرغم من انها غير متقدة في الرياضيات جعلته يتقدم؛ وحين تسلّم شهادته المدرسية للسنة الأولى، قرر أن يستمر في الدراسة، قبل كل شيء، لا بد من القول، لأنه هكذا يطيل وضعاً إعتاد عليه، حيث لا يتوجب فيه اتخاذ قرارات محددة، ويكون له فيه متسع من الوقت كي يفكر ملياً في القضايا ويقرر ماذا يريد أن يفعل حقاً، وهو الأمر الذي كان لا يعرفه بعد ان وصل الى أعلى صف مدرسي. وحتى حين تم إقراره أخيراً ـ أن نقول حين قرر هانز كاستورب أخيراً سيكون ذلك مبالغة ـ كان يشعر انه ربما تم إقراره أيضاً بطريقة أخرى.

كثيراً جداً، على أية حال، كان ذلك حقيقياً، فقد أحب هو السفن دوماً. إبان سنوات صباه كان يملأ صفحات دفتره المدرسي برسوم مراكب بثلاثة صوار لصيد السمك، مراكب شراعية ذوات قمرتين، ومراكب لنقل الخضار. حين كان في الخامسة عشرة، كان له مقعد أمامي في طقس تعميد الباخرة الجديدة ذات مروحتين للدفع الموسومة (هانسا). راقبها وهي تغادر مسند إنزال السفن عند (بلوم) و(فوس)، وفيما بعد أنجز رسماً مائياً مفرحاً للسفينة الجميلة، نفذه بعناية كبيرة بالتفاصيل، وبمعالجة رقيقة وبارعة للموج المتدفق الأخضر كالزجاج. القنصل تاينابيل علّق الرسم في مكتبه الخاص، وأخبره شخص ما انه يكشف موهبةً، وان الفنان ربما يتطور الى رسام بحري جيد ـ وهو تعليق كان بوسع القنصل أن يكرره بأمان للقاصر الموضوع تحت وصايته، الأمر الذي جعل هانز كاستورب يضحك ببهجة، ولا شيء غير

الضحك، من دون أن يجعل نفسه يفكر لحظة في مسألة بدء نشاط غريب الأطوار لا يكاد يكسب منه ما يسد رمقه.

«كما تعرف، أنتَ لا تملك ثروةً كبيرة»، يقول له خاله[١٣] تاينابيل. «جيمس وبيتر سيحصلان على معظم ما أملكه؛ أي ان ثروتي تبقى في المهنة، وبيتر سوف يسحب حصته. ما يعود لك جرى توظيفه جيداً، ويجعلك في وضع آمن. ولكنها ليست دعابة أن تعيش اليوم على فائدتك، ما لم يملك المرء في الأقل خمسة أضعاف ما تملكه؛ وإذا أردتَ أن تكون شخصاً ما هنا في هذه المدينة وان تحيا بالطريقة التي نشأت فيها، عليك أن تكسب مالاً أكثر كي تودعه معه، إنتبهتَ الى كلماتي، يا بني.»

هانز كاستورب أصغى إلي تلك الكلمات. كان يتطلع الى مهنةٍ مناسبة في نظره وفي نظر أنداده. وحين اختار ذات مرة ـ حدث ذلك لدى طلب من فيلمز العجوز من شركة توندر وفيلمز، الذي قال للقنصل تاينابيل عند مائدة ورق (الهويست) يوم السبت، انه يجب على الشاب كاستورب أن يدرس صناعة السفن؛ ستكون فكرة سديدة، وسيكون بمستطاعه دخول مكتبه وسيتولى هو مراقبته ـ حين اختار ذات مرة، فكر في مهنته تفكيراً سامياً جداً. كانت مهنته تلك، للعلم، مهنة معقدة بصورة مربكة ومرهقة، ولكن مع ذلك كانت مهنة من الطراز الأول، سليمة جداً، ومهمة جداً. وبالتأكيد، كونه سلمي المزاج فضّل لها ابن خالته زيمسين، ابن أخت أمه غير الشقيقة، الذي كان يعقد العزم على أن يصبح ضابطاً. لكن يواكيم زيمسين كان ضعيف الصدر نوعاً، ولذلك السبب فان مهنة تجعله يبقى في العراء، ولا يوجد فيها توتر أو إرهاق نفسي، ربما ستكون شيئاً مناسباً له، هكذا فكر هانز كاستورب بكياسة ولطف بسيطين. كان يضمر احتراماً أعظم للعمل ـ مع انه شخصياً يحس انه يتعب بسرعة.

وهنا نعود الى اقتراحنا الذي ذكرناه قبل بضع صفحات: الفكرة القائلة ان التأثير السلبي المفروض على الحياة الشخصية للفرد في الأوقات التي

(١٣) نقصد هنا خال أمه، وسيتكرر ذلك في الصفحات اللاحقة ـ المترجم.

يعيشها ربما تمتد الى نظامه الجسدي. كان هانز كاستورب يحترم العمل ـ كيف لا يكن له الاحترام؟ سيكون ذلك شيئاً غير طبيعي. العمل بالنسبة له، بطبيعة الحال، الخاصية الأكثر جدارة بالاحترام في الحياة؛ حين تهبط إليه، ليس ثمة شيء آخر جدير بالإجلال. انه القاعدة التي يقف عندها المرء أو يهوي، الحقيقة المطلقة للزمن، ان العمل، إذا صح التعبير، مبرره الخاص. وهكذا كان احترامه له ديني الطابع، و، على حد معرفته، كاملاً. لكنها مسألة أخرى، ما إذا أحبه؛ وهذا ما لم يستطع فعله، مهما كان احترامه عظيماً، لسبب بسيط ألا وهو ان العمل لا ينسجم معه. ان مهنة تتطلب عناية فائقة ستؤثر في أعصابه، وترهقه، بصراحة تامة إعترف قائلاً انه يفضل أن يكون وقته حراً، وغير محمل بالعبء الثقيل لمجهودٍ ما، ويتمدد فسيحاً أمامه، وألا يكون مقسماً بالعوائق، ينبغي للمرء أن يصر على أسنانه متغلباً عليها، الواحد إثر الآخر. هذه الآراء المتضاربة حول موضوع العمل يجب، إذا ما ما تحدثنا بصرامة، التوفيق بينها. هل من الممكن، إذا كان قادراً على الإيمان بالعمل كقيمة إيجابية، كقاعدة لتبرير الذات، أن يؤمن به في أعماق روحه، حتى من دون أن يكون هو نفسه واعياً بفعله هذا، وان يكون جسده فضلاً عن روحه ـ في البدء الروح وخلالها الجسد أيضاً ـ قادراً على تكريس نفسه لمهمته بمزيد من الإبتهاج والإخلاص، هل سيكون قادراً على أن يجد السلام في ذلك؟ هنا ثانيةً تُطرح مسألة توسط هانز كاستورب، أو الأكثر من التوسط، التي لن نعطي بشأنها جواباً صارماً. ذلك اننا لا نرفع المعنويات مثل مادح الشاب، ونفضل ترك المجال للرأي الآخر: أي، ان عمله وقف الى حدٍ ما بطريق استمتاعه الواضح بسيجاره المفضل: «ماريا مانسيني».

لم يكن ميالاً للخدمة العسكرية. كان متمرداً عليها، ووجد طرائق كثيرةً في خلق المصاعب. وربما، أيضاً، ان ضابط الهيئة الطبية الدكتور (ايبردنغ)، الذي زاره في هارفيستيهودر شتراسه، سمع من القنصل تاينابيل، في سياق حديثهما، ان كاستورب الناشئ سيغادر المنزل للبدء بدراسته التقنية، ويجد في الدعوة الى القوات المسلحة انقطاعاً حساساً جداً عن مهماته.

عاملاً ببطء وبشكل مدروس ـ حافظ على عادته المهدئة في تناول

وجبات فطور جعة (البرتر) عندما كان بعيداً عن البيت ـ ملأ دماغه بعلم الهندسة التحليلية والوصفية، حساب التفاضل، الميكانيك، الإسقاط، علم توازن الموائع وضغطها (الهيدروستاتيكا)؛ حَسِبَ الإزاحة المليئة والفارغة، الإستقرار، قلامة اللحظة، والمركز البيني[١٤]، وغالباً يصيبه غثيان شديد بسببها. رسومه التقنية، مخططاته التمهيدية وتصاميمه للهياكل، خطوط الماء[١٥] والإسقاطات الطولية، لم تكن جيدة مثل التمثيل الصوري للـ(هانسا) في البحار العالية؛ لكن حيثما كانت في موقع تستدعي فيه الإدراكات الحسية كي تفيد الشخص المفكر، حيثما كان قادراً على الاغتسال في الظلال والاستلقاء فوق المقاطع العرضية في الألوان التقليدية، هناك كشف هانز كاستورب عن براعة عظمى.

حين يأتي الى البيت أثناء العطل، نظيفاً جداً، أنيق الهندام، بشارب أحمر ـ أشقر صغير لازم وجهه الارستقراطي اليافع، والنعسان، واضح انه (في طريقه) الى أن يتبوأ مركزاً مهماً في الحياة، تطلع الناس إليه، الناس المهتمون بقضايا المجتمع وجعلوا من معرفة كل شيء عن العائلة والعلاقات الاجتماعية شغلهم الشاغل ـ وهذا في حالة المدينة المستقلة، يعني معظم السكان ـ أنعم فيه النظر أنداده المواطنون، وسألوا أنفسهم أي دور شعبي قُدّر للناشئ كاستورب أن يشغله. كانت له تقاليد، كانت سمعته قديمة وجيدة، عليهم بالتأكيد أن يحسبوا حسابه ذات يوم، كونه عنصراً سياسياً. ذات يوم سيحتل مقعداً في (مجلس النواب) أو (هيئة المدراء)، سيساعد هو في سن القوانين، سيشغل مكتباً جديراً بالاحترام ويشارك في أعباء السلطة العليا. سينتمي الى الفرع التنفيذي، ربما، أو (المالية) أو (وكالة البناء). سيكون صوته مسموعاً، ويحسب صوته في الانتخاب. سيكون ممتعاً أن نرى أي حزب سيختار. كانت المظاهر خادعة، لكنه لا يبدو رجلاً بوسع الديمقراطيين أن يدخلوه في حسابهم؛ وكان شبهه لجده شيئاً لا تخطئه

---

(١٤) المركز البيني meta centre: مركز ثقل الجزء غير المغمور من جسم طاف ـ المترجم.

(١٥) خط الماء (مفردها) water line: واحد من عدة خطوط على جانب السفينة يظهر العمق الذي تبلغه عندما تكون فارغة وعندما تكون محملة جزئياً أو كلياً ـ المترجم.

العين. هل سيحذو حذوه، ويكون تابعاً لجده، وعنصراً محافظاً؟ كان ذلك شيئاً محتملاً تماماً ـ والعكس صحيح أيضاً. كان هو مهندساً، درس بناء السفن؛ من الناحية التقنية، على اتصال مع التجارة العالمية. كان من الجائز أن يكون مبذراً متهوراً، متطرفاً، مدمراً غير بارع في رسم البنايات القديمة والأشياء الجميلة في المناظر الطبيعية. كان من الجائز أن يكون محرِّراً من الأغلال، غير متسم بالاحترام كأمريكي؛ ربما كان يفضل خصاماً قاسياً مع العُرف من أجل تطوير محترم للمصادر الطبيعية، ربما ينزع الى إقحام الدولة في التجريب الطائش. كل ذلك كان بالمستطاع تصوّره. هل كان يجري في دمه الإحساس بأن (سيادتهم) في مجلس الشيوخ، حيث قدم أمامهم حارسان عند الـ (راتهاوس) سلاحهما، يميلون الى معرفة أفضل في الاحتمالات كلها؛ أم يناصر هو المعارضة في (مجلس النواب)؟ في عينيه الزرقاوين، تحت حاجبيهما الضاربين للحمرة ـ البنيين، لم يقرأ أنداده المواطنون جواباً لأسئلتهم الفضولية. وربما لا يعرف جواباً على أي منها، هو نفسه، هانز كاستورب، هذه الصفحة التي ما تزال غير مكتوبة.

حين قام بالرحلة التي قابلناه فيها، كان في سنته الثالثة والعشرين. كان قد أمضى أربعة فصول دراسية[١٦] في معهد دانتزك للعلوم التقنية، وأربعة فصول أخر في الكليات التقنية في (برونشفيج) و(كارلسروه)، وقد اجتاز مسبقاً امتحانه النهائي الأول، بصورة محترمة تماماً، إن لم نقل بدون أي جعجعة منبعثة من أبواق. والآن يستعد لدخول شركة توندر وفيلمز، غلاماً ممهناً متطوعاً، كي يحصل على تدريبه العملي في أحواض صنع السفن أو اصلاحها.

لكن عند هذه النقطة اتخذت حياته الإنعطافة الآتية. كان يلزمه أن يعمل بجد وثبات لغرض خوض الامتحان، وجاء الى البيت أكثر شحوباً من رجلٍ أشقر، متورد من طرازه. عنفه الدكتور هايده كايند، وأصر على تغيير الجو؛ تغييراً تاماً، ليس إقامة قصيرة الأمد في (نوردرني) أو (فيك) أو (فور)، فذلك

---

(١٦) الفصل الدراسي semester: نصف سنة دراسية ـ المترجم.

لن يصلح الأمور هذه المرة، قال؛ إذا ما أرادوا نصيحته، يجب أن يذهب هانز كاستورب أسابيع قلائل الى الجبال العالية قبل أن يشرع في عمله في أحواض صنع السفن.

القنصل تاينابيل أخبر ابن بنت أخته وربيبه أنه وافق على الخطة، فقط في حالة افتراقهما خلال فصل الصيف، ذلك ان الجياد الوحشية لا تستطيع أن تسحبه الى الجبال العالية. وهي ليست مناسبة له؛ فهو يحتاج الى ضغط جوي معقول، وربما سيصاب جراء ذلك بنوبة. أحسن هانز كاستورب صنيعاً حين قرر الذهاب وحيداً ـ دعه يقم بزيارةٍ الى ابن خالته زيمسين.

كان ذلك اقتراحاً جلياً. كان يواكيم زيمسين عليلاً ـ ليس عليلاً مثل هانز كاستورب، بل عليلاً بجدية تامة، عليلاً بدرجة خطيرة. كان هناك، الواقع، فزع عظيم. كان دوماً معرضاً للنزلة[١٧] المصحوبة بالحمى، وذات يوم بصق فعلاً دماً، حينذاك تم نقله بسرعة الى (دافو)، رأساً على عقب، بسبب محنته وبلواه الكبيرتين، ذلك انه وصل وقتذاك الى مكان يقع قاب قوسين من هدف كل آماله. طوال فصول دراسية عدة أذعن لرغبة أسرته ودرس القانون؛ ثم استجاب الى حافز داخلي لا يقاوم، غيّر رأيه، وقدم نفسه ليكون ضابطاً في البحرية، وتم قبوله. وعلى مدى الشهور الخمسة المنصرمة، مكث في مصح بيرغهوف العالمي (يديره الطبيب هوفرات بيرنز). وكان يشعر بالملل والضجر، كما كتب في البطاقات البريدية المرسلة الى أهله. إذا ما أراد هانز كاستورب القيام بانعطافة جيدة قبيل التحاقه بمنصبه في شركة توندر وفيلمز، فما هو الشيء الأكثر طبيعية من وجوب صعوده الى دافو وأن يصاحب ابن خالته المسكين ردحاً من الزمن ـ سيكون ذلك شيئاً مقبولاً لكليهما.

كان الوقت منتصف الصيف قبل أن يعقد العزم على الذهاب. الوقت الآن الأسبوع الأخير من شهر تموز (يوليو).

غادر من أجل إقامة أمدها ثلاثة أسابيع.

---

(١٧) النزلة Catarrh: التهاب القناة التنفسية المصحوب بإفرازات مفرطة ـ المترجم.

الفصل الثالث

سحب الحجاب

كان مرهقاً تماماً، وخاف من الاستغراق في النوم؛ لكنه نهض من فراشه أبكر نوعاً من المألوف. وكان له وفرة من وقت الفراغ، يستطيع خلالها القيام بطقسه المعتاد في الاستحمام الصباحي، يلعب فيه حوض الاستحمام المطاط، طاسة خشب تحتوي صابون الخزامى الأخضر، والفرشاة الصغيرة الملحقة بها الأدوار الرئيسة. كان له حتى الوقت لإفراغ محتويات حقائبه والحركة هنا وهناك. حين كسا خديه برغوة الصابون العطرة ومرر فوقهما الشفرة المصفحة بالفضة لـ«ماكينة الحلاقة» خاصته، تذكّر أحلامه المشوشة وهز رأسه بتساهل بإزاء هذا الهراء الكبير، مع الشعور المتفوق الذي يهيمن على الرجل حين يحلق ذقنه في الضوء الصافي للعقل. لم يكن يشعر تماماً بالارتياح، مع ذلك كان له إحساس بانتعاش الصباح.

بخدين مكسوين بالمسحوق، بسرواله التحتاني المصنوع من الخيوط الاسكتلندية وخفيه المغربيين الأحمرين، مشى بخطوات واسعة في الشرفة، مجففاً يديه. كانت الشرفة تمتد عبر الدار ومقسمة الى حجيرات صغيرة مستقلة بوساطة حواجز زجاج معتمة لا تصل تماماً الى الدرابزين. كان الصباح معتدل البرودة وغائماً. آثار ضباب تستقر بلا حراك أمام المرتفعات في هذه الجهة وتلك، في حين ان كتل غيم هائلة، رمادية وبيضاً، تتدلى فوق القمم البعيدة. رقع وأشرطة من الزرقة بدت هنا وهناك؛ بين الفينة والفينة

أضاءت ومضة من أشعة الشمس القرية الكائنة في الوادي، الى ان تلألأت بياض بإزاء المنحدرات الداكنة المكسوة بالتنوب. في مكان ما ثمة موسيقى، على الأرجح في الفندق نفسه، حيث كانت هناك حفلة موسيقية ليلة أمس. ترددت النغمات الملطفة لترنيمة ما؛ وبعد توقف قصير الأمد أتى لحن عسكري. كان هانز كاستورب يحب الموسيقى من كل قلبه، كانت تؤثر فيه بالطريقة ذاتها التي تفعلها جعة (البرتر) التي يحتسيها عند كل فطور، كان لها تأثير مسكِّن قوي، وتغريه بالنوم الخفيف. أصغى مسروراً، رأسه مائل الى أحد الجانبين، وعيناه محتقنتان قليلاً بالدم.

كان بوسعه أن يشاهد الى الأسفل منه الطريق الملتوي المؤدي الى المصح، الذي جاء منه الليلة الماضية. بين الحشائش الندية للحديقة المستطيلة والمائلة وسط الشارع برزت زهور الجنطايا نجمية الشكل وقصيرة السيقان. كان جزء من الأرض المستوية مسيجاً لأجل حديقة ما، ذات مزاهر، دروب حصى، وكهف صناعي تحت شجرة تنوب فضية بجلال. ثمة مبنى فخم، ذو كراسٍ محنية الى الوراء وسقف مغلون، مفتوح ناحية الجنوب، بالقرب منه انتصبت سارية علم، مطلية بلون محمر ـ بني، فوقها يرفرف علم حر بين الفينة والفينة على حبله. كان علماً مزخرفاً، أخضر وأبيض، مع شعار مهنة الطبابة(١)، رمز الشفاء، في الوسط.

كانت ثمة امرأة تتمشى في الحديقة، سيدة عجوز، ذات وجه كئيب ومأساوي. كانت مجللة بالسواد، حجاب أسود ملتف حول شعرها الأشعث الرمادي ـ الأسود، ذات جبين متغضن وعينين فاحمتي السواد تحتهما تجاعيد جلدية متدلية، كانت تمشي بخطواتٍ سريعة، قلقة على طول دروب الحديقة، تنظر أمامها مباشرة، ركبتاها محنيتان قليلاً، ذراعاها منحدرتان بتيبس الى الأسفل. الوجه الهرم في شحوبه الجنوبي، ذو الفم الكبير الملتوي في اشمئزاز مسحوب الى إحدى الناحيتين، ذكّر هانز كاستورب برسم لوجه

(١) شعار مهنة الطبابة caduceus: صولجان تلتف عليه حيتان وفي أعلاه جناحان ـ المترجم.

ممثلة تراجيدية ذائعة الصيت. غريب أن ترى كيف ان المرأة الشاحبة، المجللة بالسواد تناغم بصورة غير واقعية خطواتها الطويلة الحزينة مع موسيقى اللحن العسكري.

خفض بصره إليها بتعاطف كئيب، بدا له ان الشبح الحزين سوّد شروق الصباح. ولكن في اللحظة ذاتها أدرك هو شيئاً آخر، شيئاً مسموعاً: أصوات ضجيج تتغلغل الى مسمعه من الحجرة الواقعة على يسار حجرته الخاصة، التي كان يشغلها، كما قال يواكيم، الروسيان. أحس ثانيةً بتناقض ما؛ هذه الأصوات تلائم الانتعاش المرح للصباح أكثر من المشهد الحزين في الحديقة الكائنة في الأسفل ـ بدتْ الأصوات وكأنها تلوّث الهواء، تجعله سميكاً، ولزجاً. تذكر هانز كاستورب انه سمع أصواتاً مشابهة مساء أمس، مع ان ارهاقه منعه من الانتباه إليها: كفاح، لهاث، قهقهة، الطبيعة الكريهة لها لم تستطع أن تبقى طويلاً مخفية عن الشاب، فحاول بودٍ أن يفرض عليها معنىً عديم الضرر. أغلب الظن شيء أكثر أو ذو طبيعة غير جيدة كان يجري حالياً، شيء ما نعطيه أسماءً مختلفة، نسميه الآن: صفاء الروح، الذي يبدو غير ممتع؛ ثانيةً عند ذلك الاسم الوقور، الجميل للطهارة، ومع ذلك ثانية يستخف بها كونها نفاقاً، كونها «كره مواجهة الحقائق»؛ وحتى أن نعزوها الى إحساس مبهم بالرهبة والتقوى ـ وفي الحقيقة، شيء ما من هذه كلها كان في وجه هانز كاستورب وطريقة وقوفه بينما كان يصغي. بدا كأنه يتمرن على غموض متعمد مناسب، وكأنه يسحب الحجاب عقلياً فوق هذه الأصوات التي سمعها؛ وكأنه يقول لنفسه ان الشرف منعه من أخذ أي علم بها، أو حتى سمعها بأية حال ـ منحه مظهراً خارجياً باللياقة لم يكن فطرياً تماماً، مع انه كان يعرف كيف يتظاهر به في مناسبة ما.

بهذه السحنة، إذاً، انسحب عائداً من الشرفة الى غرفته، كي لا يصغي الى الحوادث بالرغم من كل القهقهات المرافقة لها، كانت بشكل جلي جادةً تماماً وحتى مرعبة. لكن من داخل غرفته كان باستطاعته سماع الضوضاء بوضوح أكثر. بدا كما لو انه يسمع مطاردة في الغرفة؛ سقط كرسي؛ شخص ما تم اللحاق به والقبض عليه، تلا ذلك تقبيل صاخب ـ والموسيقى في

الأسفل تبدّلتْ الى فالس، ألحان رائجة رافقت مقاطعها الموسيقية الشجية المبتذلة المشهد الخفي. وقف هانز كاستورب، المنديل في يده، وأصغى استعداداً لإصدار حكمه الأفضل. وبدأ يحمر من خلال المسحوق؛ فكل ما كان يراه قادماً منذ البدء جاء الآن، واللعبة بلغت فعلاً نهايتها الوحشية. «يا ستار!» فكّر. ابتعد وخلق أكبر ضجة ممكنة بينما كان ينهي استحمامه. «حسن، في الأقل انهما متزوجان، بقدر تعلق الأمر بما يجري»، خاطب نفسه. «لكن في وضح النهار ـ انه شيء لا يحتمل! وليلة أمس، أيضاً، أنا متأكد. لكنهما بالطبع عليلان، أو في الأقل أحدهما، وإلا ما كانا هنا ـ ربما يكون هذا بعض العذر. ان الجزء المخزي من الأمر، يكمن في كون الجدران خفيفة جداً، بحيث ان المرء لا يستطيع منع نفسه من سماع كل شيء. ببساطة إنه شيء لا يُطاق. بطبيعة الحال، المكان وبصورة مخجلة مبني بنحو رخيص تعوزه المتانة. ترى ماذا لو رأيتهما، أو حتى أُقدّم إليهما؟ ببساطة لا أستطيع تحمل ذلك!». هنا لاحظ هانز كاستورب بدهشة ان التورّد الذي علا خده الحليق منذ لحظات لم يخمدْ، ولم تهبط الحرارة المرتفعة التي رافقته: توهج وجهه بالحرارة الجافة ذاتها التي داهمته مساء أمس. تخلص منها بالنوم، غير ان التورد جعلها تبدأ من جديد. بسبب اكتشافه هذا لم يحس بودٍ أكبر نحو الزوجين الرهيبين في الحجرة الملاصقة؛ الواقع، أبرز هو شفتيه وتمتم بكلمةٍ تنم عن الإزدراء في اتجاههما، بينما كان يسعى الى تبريد وجهه الساخن بغمره في الماء البارد ـ وجعله يتوهج أكثر. أحس بالانزعاج؛ اهتز صوته برداءة طبع حين رد على طرقة ابن خالته على الجدار؛ وبدا لـ يواكيم عند دخوله أي شيء عدا كونه رجلاً منتعشاً ومنشطاً بفعل نوم الليل الهانيء.

فطور

«صباح الخير»، قال يواكيم. «طيب، كانت تلك ليلتك الأولى هنا في الأعالي. كيف وجدتها؟».

كان يرتدي ثياب الخروج، ملابس رياضية وجزمتين متينتين، ويحمل

معطفه الإيرلندي الفضفاض على ذراعه. الخطوط المحيطية للقنينة المسطحة يمكن رؤيتها في الجيب الجانبي. وكما في الأمس، كان حاسر الرأس.

«شكراً»، رد هانز كاستورب، «كانت ليلة جيدة بصورة كافية، لا أستطيع أن أصدر حكماً حتى الآن. شاهدتُ أحلاماً مشوشة من الأنواع كلها، ويبدو ان هذه البناية تملك وضعاً غير مؤاتٍ كونها مسامية ـ الصوت ينفذ مباشرةً. هذا شيء مزعج. ـ من هي تلك المرأة الداكنة هناك في الأسفل، في الحديقة؟».

عرف يواكيم حالاً من تلك التي عناها.

«أوه»، قال، «تلك هي [الاثنان كلاهما][٢]. نحن نسميها بذلك هنا في الأعالي، لأنه الشيء الوحيد الذي تقوله. هي مكسيكية، كما تعرف؛ لا تعرف كلمةً من اللغة الألمانية ويندر أن تعرف شيئاً من الفرنسية، بل مجرد قصاصات قليلة. هي تقيم هنا منذ خمسة أسابيع مع ابنها الأكبر، حالته ميئوس منها، ولن يمهله المرض طويلاً. مرضه شديد، يمكنك أن تقول، انه مسلول بكل ما في الكلمة من معنى. يقول بيرنز ان حالته أشبه بالتيفوس ـ انه مرض مرعب في ما يتعلق به. طيب، قبل أسبوعين جاء الابن الثاني، كي يرى شقيقه قبل النهاية ـ انه شاب وسيم أشبه بلوحة فنية، كلاهما كذلك، بعيون أشبه بفحمات حية، يمكنني أن أقول إنهما هيّجا أبراج الحمام. كان يسعل قليلاً في الأسفل، لكن مع ذلك بطريقة حيوية تماماً. حسن، ما إن وصل الى هنا في الأعالي حتى ارتفعت حرارته، حمى عالية، كما تعرف، ١٠٣,١ فهرنهايت. وضعوه في السرير ـ وإذا ما نهض ثانيةً، يقول بيرنز، فسيكون ذلك حظاً سعيداً أكثر مما هو تدبير جيد. لكنه جاء في الوقت المناسب، على أية حال، يقول بيرنز ـ حسن، ومنذ ذلك الحين الأم تتجول ـ عندما لا تجلس معهما ـ وإذا ما تحدثتَ إليها، ترد عليك بالقول: [الاثنان كلاهما!] هي لا تستطيع أن تضيف شيئاً آخر، وحالياً ما من أحد هنا في الأعالي يفهم الإسبانية.»

---

(٢) الاثنان كلاهما Tours-les-deux: وردت بالفرنسية في النص الإنجليزي ـ المترجم.

«هكذا، إذاً»، قال هانز كاستورب. «هل تعتقد، انها ستقول تينك الكلمتين لي حين أتعرّف إليها؟ أعني سيكون ذلك أمراً غريباً ـ مضحكاً وعجيباً في الوقت نفسه.» بدتْ عيناه كما كانتا يوم أمس، كان يشعر بهما حارتين وثقيلتين، كما لو أنهما مرهقتان من النحيب، ومع ذلك هما براقتان أيضاً، بالوميض الذي اضطرم فيهما أمس لدى سماع صوت ذلك السعال الغريب والجديد، الصادر عن الراكب النبيل. كان له إحساس انه لا صلة له بيوم أمس منذ استيقاظه، والآن فقط إلتقط الخيوط ثانيةً في المكان الذي وضعها فيه. أخبر ابن خالته انه جاهز، رش قطراتٍ قليلة من ماء الخزامى على منديله بينما كان يتكلم ويربت به على وجهه، على الجبين، وتحت العينين. «إذا أردتَ، يمكننا الذهاب الى الفطور، الاثنان كلاهما»، ضحك بتهور. يواكيم نظر إليه ببرود، ثم ابتسم ابتسامته المبهمة المكونة من مزيج السوداوية والسخرية ـ أو هكذا بدت، لأنه لم يظهر نفسه بطريقة أخرى.

بعد ان نظر الى ذخيرته من السيجار تناول هانز كاستورب معطفه وعصاه، وتناول، أيضاً، بجرأة نسبية، قبعته، كان شديد الثقة بنفسه وبوضعه في الحياة كي يغير أساليبه ويكتسب أخرى جديدة خلال زيارةٍ تستغرق ثلاثة أسابيع حصراً ـ وخرجا ونزلا درجات السلّم. في المجاز أشار يواكيم الى هذا الباب وذاك وذكر أسماء شاغلي الحجرات ـ كانت هناك أسماء ألمانية، ولكن أيضاً كل أنواع الأسماء الأجنبية ـ مع تعليقات موجزة حول شاغليها وخطورة حالاتهم المرضية.

التقيا أُناساً عائدين تواً من الفطور، وحين كان يواكيم يلقي عليهم تحية الصباح، كان هانز كاستورب يرفع قبعته بكياسة. كان متوتراً وعصبي المزاج مثل أي شاب يوشك أن يقدّم نفسه للغرباء ـ حين أدرك أن عينيه ثقيلتان وأن وجهه أحمر. الإدراك الأخير، على أي حال، كان حقيقياً فقط الى حدٍ ما، لأنه كان شاحباً بعض الشيء.

«قبل أن أنسى الأمر»، قال بصورة مفاجئة، «يمكنك أن تقدمني الى السيدة في الحديقة إن شئت. ستقول لي حتماً: [الاثنان كلاهما]، ولن أهتم بذلك، كوني مهيئاً، وأعرف ماذا يعني ذلك ـ أعرف كيف أتحكم بتعابير

وجهي. لكنني لا أرغب بالتعرّف الى الزوجين الروسيين، هل تسمع؟ أنا لا أرغب بذلك فعلاً. هما نوعان سيئا السلوك. إذا توجب عليّ أن أسكن ثلاثة أسابيع لصقهما، من دون اجراء أي ترتيبات، في الأقل لا أحتاج الى معرفتهما. لي تبريراتي الخاصة، وأرفض ذلك ببساطة وجلاء.»

«جيد جداً»، قال يواكيم. «هل أزعجاك؟ نعم، هما متهوران تقريباً؛ غير متحضرين، أخبرتك بذلك من قبل. انه يأتي الى المائدة بسترة جلد، بالية جداً، إني أتعجب كيف أن بيرنز لم يقم الدنيا ويقعدها. وهي ليست أنظف المخلوقات في هذا العالم، بقبعتها الريش. يمكنك أن تريح نفسك، إنهما يجلسان الى المائدة الروسية [السيئة]، بعيداً جداً عنا ـ ثمة مائدة روسية [جيدة]، أيضاً، كما تعرف، حيث يجلس الروس الأجمل ـ وليس ثمة فرصة كبيرة لك للإتصال بهم، حتى إذا أردتَ ذلك. التعارف هنا ليس يسيراً جداً، ويعزى هذا جزئياً الى حقيقة وجود عدد كبير من الغرباء. أنا شخصياً، وطوال مدة مكوثي هنا لا أعرف سوى عدد قليل منهم.»

«أي واحد منهما عليل؟» سأل هانز كاستورب. «هو أم هي؟»

«الرجل على ما أظن. نعم، الرجل فقط»، أجاب يواكيم، بشرود ذهن. مرا بين حوامل القبعات والمعاطف، ودخلا حجرة الطعام المضيئة، ذات العقد الواطئ، حيث كان هناك طنين أصوات، قعقعة صحون، وركض نادلات ذهاباً وإياباً يحملن أباريق تُصدر بخاراً.

كانت هناك سبع موائد، كلها عدا اثنتين مصطفتين بالطول، في الحجرة. كانت جيدة الحجم، تتسع كل واحدة منها لجلوس عشرة أشخاص، مع ان الموائد لم تكن كلها ممتلئة حالياً. بشكل منحرف، قطعا خطواتٍ قلائل ووقفا عند مكانيهما؛ كان هانز كاستورب عند طرف مائدةٍ بين المائدتين اللتين اصطفتا بالعرض. منتصباً خلف كرسيه، إنحنى بتيبس إنما بود لكل رفيق مائدة تباعاً، بينما كان يواكيم يقدمه برسمية؛ لا يكاد يراهم، ومن دون أن تخترق أسماؤهم مخه. لم يلفت انتباهه سوى اسم واحد وشخص واحد ـ السيدة شتور، التي رآها بوجهها الأحمر وشعرها الرمادي ـ الأشقر الدهني. وبينما هو يتطلع إليها كان بوسعه أن يثق تماماً بسوء استعمال الألفاظ الذي

حدثه يواكيم عنه. لم تكن سحنتها تعبّر عن شيء سوى سوء الطبع والجهل. جلس، ملاحظاً خلال جلوسه ان الفطور المبكر يؤخذ هنا في الأعالي مأخذاً جدياً.

كانت هناك قدور مربى وعسل، طسوت رز وعصيدة دقيق الشوفان، صحون لحم بارد وبيض مخلوط؛ وفرة من الزبد، جبن أصفر ذو ثقوب صغيرة يقطر رطوبةً تحت ناقوس زجاج. طاسة فواكه طازجة ومجففة انتصبت وسط المائدة. سألت نادلة بالأسود والأبيض هانز كاستورب ما إذا كان يرغب بشرب القهوة، الكاكاو أم الشاي. كانت صغيرة الحجم أشبه بطفلة، ذات وجه طويل، مسن بعض الشيء ـ قزمة، أدرك هو بإجفال. نظر الى ابن خالته، الذي عبّر بهز كتفيه وحاجبيه عن عدم إكتراثه، كما لو كان يقول: «حسن، وماذا يضر ذلك؟» لذا كيّف نفسه بأكبر سرعة ممكنة مع حقيقة كونه يُخدم من قبل قزمة، ووضع اعتباراً معيناً في صوته حين طلب الشاي. بعدها راح يتناول الرز مع القرفة والسكر، عيناه شرعتا تطوفان فوق المائدة المليئة بأطعمة مغرية أُخر، وفوق النزلاء الجالسين الى الموائد الست الباقية، رفاق يواكيم وزملاؤه الضحايا، الذين كانوا كلهم مصابين بعدوى داخلية، وهم الآن يجلسون هناك يتناولون فطورهم.

كانت حجرة الطعام قد صُممتْ على وفق ذلك الطراز الحديث الذي يعرف كيف يمنح فقط اللمسة الصحيحة للتفرد لشيء هو في الواقع بسيط جداً. كانت قليلة الارتفاع نوعاً مقارنةً بطولها، ومفتوحة بنوافذ ناتئة كبيرة ومقوسة على نوع من حجرة انتظار تحيط بها، حيث وضعت فيها موائد طعام. كانت الأعمدة مغطاة من النصف العلوي بخشبٍ مصقول بدا شبيهاً بخشب الصندل، الجزء العلوي منه مطلي بالمينا البيضاء، مثل السقف والنصف العلوي من الجدران. كانت الأعمدة مروسمة بأشرطة ذات ألوان زاهية بتصاميم بسيطة ونابضة بالحيوية، كانت مكررة، فوق عوارض السقف المقنطر. كانت الحجرة مفعمة ببهجة إضافية بفعل الثريات الكهربائية العديدة في النحاس الأصفر البراق، مكونة من ثلاث حلقات وُضعتْ أفقياً الواحدة فوق الأخرى ومحمولة معاً بوساطة معدن رقيق محبوك، الحلقة الأدنى

ملصقة مع كرات من الزجاج الحليبي الشبيهة بالأقمار الصغيرة. كانت هناك أربعة أبواب زجاج، اثنان منها في الجدار المقابل، ينفتحان على الشرفة، الباب الثالث في قاع الحجرة الى اليسار، يفضي الى الردهة الأمامية، وباب رابع، ذلك الذي دخل منه هانز كاستورب من خلال مجاز، حيث جعله يواكيم يهبط سلّماً يختلف عن الذي نزلاه مساء أمس.

كانت الى يمينه امرأة قبيحة المنظر ترتدي السواد، يلوح على خديها احمرار باهت، بشرتها ملساء كبشرة انسان عجوز. بدت له أشبه بخياطة أو خياطة ملابس نسائية في المنزل، أوحت له هذه الفكرة حقيقة انها تناولت فقط القهوة والأرغفة المدهونة بالزبدة كوجبة فطور؛ لأنه منذ طفولته كان يربط ذهنياً ودائماً بين خياطات الملابس النسائية مع القهوة وأرغفة الخبز المدهونة بالزبدة. الى يساره جلست عانس إنجليزية، متقدمة في السن أيضاً، قبيحة جداً، ذات أصابع متجمدة، ذابلة المظهر. كانت جالسة تقرأ الخطابات المرسلة إليها من بلدها؛ كانت ـ الرسائل ـ مكتوبة بخط رشيق. تشرب شاياً بلون الدم. كان يواكيم يجلس لصقها، ومن ثم السيدة شتور ببلوزة صوف من نسيج اسكتلندي مربع النقش أو متصالبه. كانت تحتفظ بيدها اليسرى ملتوية في قبضة قرب خدها بينما تتناول طعامها، وتسحب شفتها العليا بعيداً عن أسنانها الطويلة، الضيقة الشبيهة بالقوارض حين تتحدث، تسعى بشكل جلي الى إعطاء انطباع بالثقافة والتهذيب. جلس شاب ذو شاربين خفيفين جنبها من الناحية الأبعد. كان التعبير البادي على وجهه كمَنْ يتذوق شيئاً سيىء الطعم في فمه، وكان يأكل من غير كلام. دخل بعد ان اتخذ هانز كاستورب مجلسه، وكان ذقنه غائضاً في صدره؛ وجلس هكذا، حتى من دون أن يرفع رأسه محيياً الجالسين الى المائدة، بدا من خلال طريقة جلوسه بدون تردد انه يتجنب التعرّف الى النزيل الجديد. كان، في الأرجح، عليلاً جداً كي يفكر أو يعتني بالمظاهر، أو حتى أن يولي ما يحيط به أي قدر من الإهتمام. قبالته جلست لمدة قصيرة فتاة شديدة النحول، شقراء بعض الشيء، أفرغت قنينة من اللبن المصفى في طبقها، غرفته بوساطة ملعقة وانصرفت.

لم يكن الحوار الدائر عند المائدة حيوياً. تحدث يواكيم بأدب مع السيدة شتور مستفهماً عن حالتها وسمع بقلقٍ مناسب أنها غير مقنعة. كانت تشكو الاسترخاء. «أشعر انني مسترخية جداً»، قالت بتشدق وبسلوك هجين، ومتكلف. وان حرارتها ٩٩,١ فهرنهايت حين نهضت من نومها صبيحة ذلك اليوم ـ فكم يحتمل أن تبلغ حرارتها عصراً؟ خياطة الملابس النسائية اعترفت بأن حرارتها هي أيضاً ٩٩,١ فهرنهايت، ولكنها على العكس كانت تشعر بأنها مستثارة، متوترة، وقلقة، كما لو ان حادثاً مهماً يكاد يحدث، والذي لم يكن هو بالتأكيد الحالة، كان الإهتياج جسدياً خالصاً، من غير أي خلفيات عاطفية. فكّر هانز كاستورب مع نفسه انها لا يمكن أن تكون خياطة للسيدات بأي حال من الأحوال؛ هي تتحدث بشكل مضبوط جداً وحتى بحذلقة. وجد اهتياجها، أو بالأحرى التعبير عنه، غير ملائم بعض الشيء، لا بل عدوانياً تقريباً، في مخلوقة عطوف ضئيلة مثلها. سألها هي والسيدة شتور، الواحدة بعد الأخرى، كم مضى على مكوثها هنا في الأعالي، فاكتشف أن إحداهما أمضت خمسة شهور، والأخرى سبعة شهور بحسب ما هو مدون في سجلهما. ثم جنّد إنجليزيته كي يسأل جارته الى اليمين عن نوع الشاي الذي كانت تحتسيه (كان مصنوعاً من ثمر الورد البري)، وما إذا كان مذاقه جيداً، الأمر الذي أكدته بحماسة نسبية؛ ثم راقب الناس غادين رائحين في الحجرة؛ الفطور الأول، كما اتضح، لا يعد وجبة نظامية، بأي معنى دقيق.

كان يتوجس خيفةً بعض الشيء من الانطباعات غير السارة، لكنه وجد نفسه محبطاً بصورة مقبولة. كانت الحجرة نابضة بالحيوية، لا يراود المرء أدنى شعور بأنه في مكانٍ للمعاناة. شبان مسفوعون بالشمس، من كلا الجنسين، أقبلوا مدندنين، تحدثوا الى النادلات وانقضوا على الأطعمة بشهية قوية. كان هناك أُناس أكبر سناً، أزواج، عائلة كاملة مع الأطفال، يتحدثون الروسية، وصبيان يافعون. كانت النساء يرتدين بشكل رئيس (ستراً) ضيقة من الصوف أو الحرير ـ ما يسمى بالكنزات الصوفية الغليظة ـ بيضاء أو ملونة، بياقات قلابة وجيوب جانبية؛ وقفن بأيادٍ غاصت عميقاً في هذه الجيوب، ويتحدثن ـ بدا ذلك مشهداً جميلاً جداً. عند بعض الموائد كانت الصور

الفوتوغرافية تُسلّم باليد ـ تصوير فوتوغرافي غير محترف، لا ريب ـ وعند مائدة أخرى يتم تبادل طوابع. كان الكلام يدور عن المناخ، عن كيف نام إنسان ما، عن الشيء الذي «قاسه في فمه» إنسان ما عند النهوض من النوم. تقريباً بدا الجميع في مزاجٍ نفسي رائق، أغلب الظن ليس له أسباب أخر عدا كونهم في مجموعة وافرة وليس لهم هموم مباشرة. هنا وهناك، الواقع، جلس شخص ما يريح رأسه على يده ويحدق أمامه. تركوه يحدّق، من دون أن يلتفتوا إليه.

بغتةً جفل هانز كاستورب غاضباً. أُغلق باب بعنف ـ كان الباب الذي الى اليسار، المؤدي الى الردهة، وجعله شخص ما يخمد منغلقاً، أو حتى ضربه بعنف، الأمر الذي كرهه بشدة، لم يكن قادراً على تحمله. سواء من خلال تربيته، أو بسبب الخاصية الطبيعية، كان يشمئز من اغلاق الأبواب بعنف، وكان بوسعه ضرب الشخص المذنب. في هذه الحالة، كان الباب مزوداً في الأعلى بألواح زجاج صغيرة، فازدادت الصدمة برنينها وقعقعتها. «أوه، تعال»، فكّر بغيظ، «أي نوع من اللامبالاة اللعينة هذه؟» إنما في الوقت نفسه وجهتْ له الخياطة ملاحظة، ولم يكن له الوقت ليرى من كان الآثم. أخاديد عميقة غضنت حاجبيه الأشقرين، وتلوّت قسمات وجهه حين التفت ليرد على جارته.

سأل يواكيم ما إذا خرج الأطباء. نعم، أجاب أحدهم، كانوا هناك في ما مضى وغادروا الحجرة في وقت دخول ابني الخالتين. بعدئذ من الأفضل عدم الانتظار، فكر يواكيم. ان فرصة تقديم ابن خالته ستأتي حتماً خلال ساعات النهار. لكنهما عند الباب التقيا مصادفةً بـ هوفرات بيرنز، بينما كان يدخل بخطواتٍ مسرعة يتبعه الدكتور كروكوفسكي.

«مرحباً بكما! إحذرا أيها النبيلان! ربما سيكون ذلك قاسياً على مشاعرنا كلها!»، تكلم بلهجة سكسونية[٣] فقيرة راسخة، واضحة ومتشدقة. «أوه، أنتَ هنا إذاً»، خاطب هانز كاستورب، الذي قدمه يواكيم، واقفاً بكعبين

(٣) سكسونية Saxon: نسبة الى أبناء سكسونيا في ألمانيا الحديثة ـ المترجم.

متلاصقين، «حسن، تسرني رؤيتك». مد الى الشاب يداً بحجم مجرفة. كان أطول من الدكتور كروكوفسكي تقريباً بثلاثة رؤوس؛ كان رجلاً ناتئ العظام، شعره أبيض تماماً، عنقه بارز، كانت عيناه الزرقاوان الكبيرتان، الجاحظتان، المحتقنتان بالدم، مخضلتين بالدمع؛ كان له أنف أفطس، وشارب صغير مقصوص قصاً قصيراً، أحدث خطاً معقوفاً لأن شفته العليا كانت مسحوبة الى الأعلى في جهة ما. ما قاله يواكيم عن خديه كان دقيقاً تماماً؛ كانا أرجوانيين حقاً، ويبرز رأسه بشكل مبهرج بإزاء معطف الجراح الأبيض الذي يرتديه، سمق[٤] ذو حزام يصل أسفل الركبتين، تحته ظهر سروال مخطط وقدمان ضخمتان في جزمتين صفراوين باليتين نوعاً برباطين. كان الدكتور كروكوفسكي أيضاً بزيه المهني؛ غير ان سمقه من قماش أسود لامع خيط ليبدو أشبه بقميص، ذا شريطين مطاطيين عند الرسغين. كان يتكشف عن تباين صارخ مع شحوب بشرته. كان سلوكه يوحي بأنه حاضر بوصفه مساعداً؛ لم يشارك في الترحيب، غير أن تعبيراً معيناً في زاويتي فمه أظهر حقيقة إحساسه بإجهاد مركزه الثانوي.

«ابنا خالتين؟»، سأل هوفرات، محركاً يده من أحد الشابين الى الآخر ونظر إليهما بعينيه المحتقنتين بالدم. «هل سيتبع هو الطبول مثلك؟»[٥]، خاطب يواكيم، هازاً رأسه باتجاه هانز كاستورب. «لا سمح الله، إيه؟ كان بوسعي أن أقرر حالما رأيتك» ـ جعل يوجه كلامه الآن الى الشاب مباشرة ـ «انك شخص علماني، فيك شيء حضاري ومريح، وليس مثل عريفنا ذي السيف الضالع[٦] المخشخش هنا! أراهن انك ستكون مريضاً أفضل منه، كما تعرف. يمكنني أن أقرر ذلك من خلال النظر الى الناس، ما إذا سيكونون مرضى جيدين أم لا، هذا يحتاج الى موهبة، كل شيء يحتاج الى موهبة. هذا التابع الوفي هنا ليس له ذرة منها. ربما يظهر شيئاً منها في موضع

---

(٤) سمق smock: ثوب خارجي فضفاض يُرتدى لوقاية الملابس من الاتساخ ـ المترجم.

(٥) يقصد المؤلف: هل سيكون عسكرياً مثلك؟ ـ المترجم.

(٦) السيف الضالع sabre: سيف وحيد الحد أعقف قليلاً يستخدمه الفرسان ـ المترجم.

الاستعراض، لست أعرف البتة، لكنه ليس جيداً بوصفه عليلاً. هل تصدق انه يود دوماً أن ينصرف! انه يضايقني طوال الوقت، هو ببساطة لا يستطيع أن ينتظر ريثما ينزل الى الأسفل ويُسلخ حياً. .هو ذا العناد مخصص لك! ألا تمنحنا حتى مدة نصف سنة تافهة! ومع ذلك فالظروف هنا في الأعالي جيدة جداً؛ أتركها لك إن لم تكن كذلك، زيمسين، ماذا؟... حسن، ابن خالتك سوف يقدرنا، حتى إذا لم تفعل. سيحصل منها على بعض الهزل. ليس ثمة نقص في سوق السيدات هنا، أيضاً؛ عندنا أكثر الإناث سحراً. في الأقل، بعضهن رائعات المظهر. إنما ينبغي لك أن تكون ذا لون أفضل، كما تعرف، إن أردت إرضاء الجنس الناعم. [ان الشجرة الذهبية للحياة خضراء]، كما يقول الشاعر، لكنه، مع ذلك، لون بائس بالنسبة للمزاج. أنت، بطبيعة الحال، مُصاب بفقر الدم كلياً»، توقف عن الكلام فجأة، ومن دون ضجة إضافية رفع سبابته ووسطاه وسحب جفن هانز كاستورب الى الأسفل.
«بالضبط! مصاب بفقر الدم كلياً، كما قلت. أنت تعرف ان فكرتك لم تكن سيئة فيما يتعلق بجعلك بلدتك هامبورغ تتدبر أمرها بنفسها ردحاً من الزمن. هي مؤسسة اجتماعية كبرى، هامبورغ ـ ببساطة تجد متعةً بالغةً في الرطوبة ـ ترسل إلينا طارئاً ريّاناً كل عام. ولكنني إذا اغتنمت الفرصة كي أعطيك فائدة فكرتي الضعيفة ـ فكرة مجانية، أنت تفهم ما أعنيه، مجانية تماماً ـ سأقترح ان تفعل ما يفعله ابن خالتك، خلال إقامتك هنا في الأعالي. إنك لا تستطيع أن تحدث أثراً مطلوباً أفضل من أن تتصرف حالياً كما لو انك مصاب بسل رئوي خفيف، ويزداد وزنك قليلاً. ان أيض البروتين في أجسامنا هنا في الأعالي مسألة لافتة للنظر. مع ان عملية الاحتراق تتضاعف، إلا ان الجسم في الوقت نفسه يزداد وزنه ـ حسن، زيمسين، نمتَ نوماً هانئاً، ماذا؟.. رائع! إذاً واصل تمارينك الرياضية في الهواء الطلق ـ لكن ليس لأكثر من نصف ساعة، سمعت؟ وبعدها إلصق سيجارك الزئبقي[(٧)] في، وجهك، وكن طيباً ودوّن ذلك، زيمسين! ذاك غلام حي الضمير! يوم السبت سأنظر الى

(٧) يقصد المؤلف هنا: المحرار الزئبقي ـ المترجم.

المنحنى. ابن خالتك خير له أن يقيس حرارته أيضاً. القياس لن يلحق الأذى بأي شخص. صباح الخير، أيها النبلاء. وقتاً طيباً، صباح الخير ـ صباح الخير» ـ التحق به كركوفسكي بينما هو يمشي بوقار عبر الردهة، مؤرجحاً ذراعيه بحيث كانت راحتاه متجهتين للخلف، وطرح سؤاله يميناً وشمالاً عما إذا كان النوم جيداً، السؤال الذي أجيب عنه في الجوانب كلها بالإيجاب.

مزاح. القربان الأخير. مرح مقطوع

«رجل لطيف جداً»، قال هانز كاستورب، وبعد إيماءة رأس ودية للبواب الأعرج، الذي كان يفرز الرسائل في كوخه، مرا باتجاه الهواء الطلق. يقع المدخل الرئيس الى الجهة الجنوبية ـ الغربية للمبنى الأبيض، جزؤه الوسطي أعلى بطبقة واحدة من الأجنحة، ومتوج ببرج تزييني صغير ذي سقف قصير إردوازي اللون. أنتَ لا تنتهي من هذا الجانب الى الحديقة المسيجة، بل تكون حالاً في العراء، على مرأى من مروج الجبال الشاهقة، المنقطة بأشجار تنوب وحيدة متوسطة الحجم، وأشجار صنوبر ملتوية ومتوقفة عن النمو. الطريق الذي سلكاه ـ كان الطريق الوحيد الذي بوسعهما سلوكه، خارج الطريق الخاص النازل الى الوادي ـ ارتفع بصعود معتدل الى اليسار، خلف المصح، الى ما وراء المطبخ والمكاتب المحلية، حيث تنتصب براميل قمامة ضخمة عند منطقة قضبان السكة الحديد. من ثم تفضي في الإتجاه نفسه وعلى مسافة قصيرة نوعاً، ثم ينعطف انعطافة حادة الى اليمين ويرتقي بصورة أسرع على طول المنحدرات متباعدة الشجر. كان درباً ضارباً للحمرة، راسخاً ومع ذلك هو رطب تحت الأقدام، مع جلاميد هنا وهناك على طول الحافة. كان إبنا الخالتين وحيدين على الدرب: النزلاء الذين انتهوا من تناول فطورهم بعدهما بوقت غير طويل تعقبوا بصعوبة آثار أقدامهما، وثمة مجموعات من الآخرين، ممن كانوا عائدين، اقتربوا منهما بمشية بطيئة لأناس يهبطون منحدراً حاداً.

«رجل لطيف جداً»، كرر هانز كاستورب. «له طريقة لبقة في الكلام،

استمتعتُ بالإصغاء اليه. [السيجار الزئبقي] كان ممتازاً الى أبعد الحدود، فهمتُ ذلك فوراً ـ لكنني سأشعل سيجاراً حقيقياً»، قال بعد توقف قصير، «لا أطيق الصمود أكثر. لم أستطع الحصول على تبغ مناسب منذ الأمس بعد الغداء. اسمح لي دقيقة». فتح صندوق السيارة الجلد خاصته، بمونوغرامها[٨] الفضي، وسحب ماريا مانسيني، نموذجاً جميلاً للطبقة الأولى، مسطحاً من جهة واحدة على وفق ما يريده هو بشكل خاص؛ قطع الطرق بصورة مائلة مستخدماً أداة صغيرة حادة يحملها في سلسلة ساعة الجيب، ثم، أشعل لهباً صغيراً بجهاز جيبه، نفخ بتركيز على السيجار الطويل، غير الحاد الى أن غدا مشتعلاً. «هو ذا!» قال. «الآن، قدر تعلق الأمر بي، يمكننا مواصلة التمارين البدنية. أنت لا تدخن ـ هذا، بالطبع، تعبير عن العناد التام.»

«أنا لا أدخن مطلقاً»، أجاب يواكيم؛ «لماذا يتعين عليّ البدء بالتدخين هنا في الأعالي؟».

«لا أفهم ذلك»، قال هانز كاستورب. «لا أستطيع أن أفهم كيف يستطيع أي إنسان الإمتناع عن التدخين ـ فذلك يحرم المرء من أفضل أجزاء الحياة، إذا صح التعبير ـ أو في الأقل يحرمه من متعة ممتازة. حين أفيق من نومي صباحاً، أشعر بالسعادة لفكرة كوني قادراً على التدخين طوال اليوم، وحين أتناول طعامي، أتشوق الى التدخين بعد الأكل؛ يمكنني أن أقول تقريباً أنني آكل فقط من أجل أن أكون قادراً على التدخين ـ مع ان هذا بشكل من الأشكال نوع من المبالغة. بيد ان يوماً بلا تبغ سيكون يوماً عديم النكهة، مبتذلاً، وعديم الجدوى، بقدر تعلق الأمر بي. إذا توجّب عليّ أن أقول لنفسي غداً: [لا تدخين اليوم] ـ أعتقد أنني لن أجد الجرأة على الاستيقاظ ـ قسماً بشرفي، سأبقى طريح الفراش. لكن حين يكون في فم المرء سيجار جيد ـ بالطبع يجب أن لا يكون له سحب جانبي أو لا يسحب جيداً، فذلك

(٨) مونوغرام monogram: علامة ترمز الى شخص ما وتتألف من أحرف اسمه الأوُل مرقومة على نحو متشابك ـ المترجم.

شيء يثير السخط الى أبعد حد ـ لكن مع سيجار جيد في فمه يكون المرء في أمان كامل، لا شيء يستطيع أن يمسه ـ حرفياً. ذلك أشبه ما يكون بالاستلقاء على شاطئ الرمل: حين تستلقي على شاطئ الرمل، ياه، أنتَ تستلقي على شاطئ الرمل، أليس كذلك؟ ـ أنت لن تحتاج الى شيء آخر البتة، في مجرى العمل أو التسلية. ـ الناس يدخنون في كل أنحاء العالم، شكراً للطيبة؛ ليس ثمة مكان يستطيع المرء الذهاب إليه، في حدود علمي، لم تستطع هذه العادة اختراقه. حتى البعثات الاستكشافية الى القطبين كيّفتْ نفسها مع تجهيزات التبغ كي تساعدهم في مواصلة نشاطهم بالرغم من العقبات. كنتُ أشعر دوماً برعشة التعاطف حين أقرأ ذلك. بوسعك أن تكون تعيساً جداً: أنا أيضاً ربما أشعر بأنني بائس تماماً، في سبيل المثال؛ لكنني أستطيع دوماً أن أتحمل ذلك إذا كان بحوزتي تبغي.»

«لكن»، قال يواكيم، «انه بالأحرى ترهل عقلي من جانبك أن تكون معتمداً جداً عليه. بيرنز على حق، أنت إنسان متحضر حقاً. أجرؤ على القول، انه قصد بذلك نوعاً من الإطراء؛ غير ان الحقيقة هي، انك إنسان متحضر ـ لا سبيل الى معالجته. لكن بعدئذ، أنت معافى، يمكنك أن تفعل ما تشاء»، أضاف، واتخذت عيناه هيئتهما المرهقتين.

«نعم، معافى عدا فقر الدم»، قال هانز كاستورب. «ذلك بالتأكيد من الكتف مباشرةً، أخبرني هو بأنني أبدو أخضر. لكنه شيء حقيقي ـ لاحظتُ نفسي أنني أبدو أخضر مقارنة بكم أنتم هنا في الأعالي، مع ان ذلك لم يخطر ببالي في بلدتي الكائنة في الأسفل. شيء جميل منه ان يمنحني نصيحةً مجانية كتلك ـ [sine pecunia] كما عبّر. يسعدني كثيراً أن أتعهد القيام بما يقول هو، وأن أحيا كما تحيا أنت. على أية حال، كيف يلزمني أن أحيا بطريقة أخرى بينما أنا هنا في الأعالي؟ ولن يضرني ذلك فتيلاً، افترض ان وزني ازداد هنا، عندئذ، باسم الله، ستعترف قائلاً، بأن ذلك سيبدو مثيراً للاشمئزاز نوعاً.»

سعل يواكيم سعالاً خفيفاً بين الفينة والفينة بينما كانا يتمشيان، يبدو ان صعود التل يسبب له الإجهاد والتوتر. حين سعل للمرة الثالثة، توقف عن

المسير وظل بلا حراك وبدا التقطيب على محياه. «واصل مسيرك»، قال. - أسرع هانز كاستورب الى فعل ذلك، من دون أن يلتفت حوله. ثم أبطأ خطواته، وفي الختام كاد يتوقف، حين بدا له انه قطع حتماً مسافةً جيدة أمام يواكيم. لكنه لم ينظر من حوله.

مجموعة من النزلاء من كلا الجنسين اقتربت منه. شاهدهم يأتون على طول الدرب المستوي في منتصف المنحدر نوعاً، هم الآن يتمشون ببطء نازلين التل متجهين إليه مباشرة؛ سمع أصواتهم. كانوا ستة أو سبعة أشخاص من فئات عمرية مختلفة: بعضهم في ريعان الشباب، وآخرون أكبر منهم سناً بعض الشيء. ألقى عليهم نظرات فاحصة، جانبية، بينما كان يمشي برأس منكس، مفكراً في يواكيم. كانوا مسفوعين بالشمس وحاسري الرؤوس، النساء يرتدين كنزات صوفية غليظة، الرجال في الغالب من دون معاطف أو حتى عصي مشي، كلهم أشبه بأُناس خرجوا بصورة غير مقصودة من أجل جولة قصيرة في الهواء الطلق. ان هبوط التل لا يستلزم مجهوداً عضلياً سانداً، بل يتطلب فقط عملية مقبولة في استعمال الفرملة كي لا ينتهي المرء بالركض والتعثر والسقوط رأساً على عقب؛ في الحقيقة انه ليس أكثر من أن تسمح لنفسك بالسير؛ وهكذا فإن مشية هؤلاء الناس تتسم بحرية استثنائية في الحركة فضلاً عن كونها طائشة، وربطت نفسها مع مظهر المجموعة لتجعل المرء يود أن يكون واحداً من عناصرها الحيوية.

اقتربوا منه كثيراً، رأى وجوههم بوضوح. كلا، لم يكونوا كلهم سمر البشرة: سيدتان، على العكس، كانتا شاحبتين بصورة جلية، إحداهما هزيلة كشريحة خشب، ولها بشرة بيضاء كالعاج؛ الثانية أقصر وأكثر بدانةً، وجهها مشوه بالنمش. تطلعوا إليه كلهم، وابتسموا ابتسامات وقحة. فتاة يافعة طويلة القامة ترتدي كنزة صوفية غليظة خضراء اللون، بشعر غير معقوص وعينين مضحكتين، نصف مفتوحتين، مرتْ بـ هانز كاستورب ماسةً إياه مساً خفيفاً بذراعها. وحين فعلتْ ذلك صفرتْ ـ أوه، مستحيل! نعم، فعلتْ ذلك؛ ليس بفمها، لأنها لم تجعد شفتيها، بل احتفظت بهما مغلقتين بثبات. أصدرتْ صفيراً من مكان ما في داخلها. ونظرت إليه بعينيها المضحكتين،

نصف المغمضتين ـ كان صفيراً استثنائياً، كريهاً، خشناً وثاقباً، مع ذلك فهو غير رنان، نغمة موسيقية استمرت طويلاً، وانتهت أخيراً، مثل صوت تلك الخنازير المطاط التي نشتريها من المعارض، التي تطلق هواءً بصوتٍ باكٍ حين تنطوي. الصوت انطلق، بصورةٍ يتعذر تفسيرها، من صدرها ـ ومن ثم، مع مجموعتها، تجاوزته.

وقف هانز كاستورب وراح ينظر. في غضون لحظة التفت من حوله، مدركاً جيداً، ان الشيء الكريه كان حتماً نكتة، (شغلة) مخططاً لها؛ لأنه رأى من فوق كتفه انهم كانوا يقهقهون بعدما مروا به، وان شاباً بطيء الحركة، غليظ الشفتين، كانت سترته مقلوبة بطريقةٍ غير لائقة له، بحيث كان بوسعه أن يضع كلتا يديه في جيبي سرواله، أدار رأسه وضحك بطريقة غير متحفظة. دنا يواكيم. كان قد حيى المجموعة بطريقته المألوفة بالحرص على الشكليات، متوقفاً تقريباً عن المشي ومنحنياً بكعبين متلاصقين؛ والآن وصل باعتدال الى ابن خالته.

«لماذا يبدو وجهك هكذا؟» سأل.

«صفرتْ هي»، أجاب هانز كاستورب. «أصدرت صفيراً من داخلها خلال مرورها بي. بالله عليك، هلاّ شرحت لي كيف فعلتْ ذلك؟».

«أوه!»، قال يواكيم، وضحك بصورةٍ مقتضبة تنطوي على فظاظة. «هراء، لم تصدر الصفير من داخلها. تلك هي هيرمينه كليفيلد، انها تصفر باسترواحها الصدري[٩].»

«بماذا؟» سأل هانز كاستورب. أحس انه منفعل، من غير أن يعرف السبب. كان صوته بين الضحك والبكاء حين أضاف قائلاً: «لا يمكنك أن تظنني أفهم لغتك الغريبة.»

«أوه، هيا»، قال يواكيم. «يمكنني أن أفسرها لك خلال مسيرتنا. يبدو انك ثبت في موضعك! إنها عملية جراحية، يجرونها عادةً هنا في الأعالي.

---

(٩) الاسترواح الصدري pneumo thorax: وجود الهواء أو الغاز في التجويف الغشائي الجنبي ـ المترجم.

بيرنز البارع المواظب فيها. حين تكون إحدى الرئتين متأثرة كثيراً، تفهم، والأخرى معافاة تقريباً، يجعلون الرئة السيئة تتوقف عن العمل مدةً قصيرةً، كي يعطوها راحة. بكلمة أخرى، يعملون شقاً هنا، في مكانٍ ما في الجانب، لا أعرف الموضع بالضبط، غير ان بيرنز يعرفه أيما معرفة. ثم يملئونك بالغاز ـ النيتروجين، كما تعرف ـ وهذا يجعل الجزء الجبني من الرئة خارج العملية. الغاز لا يدوم طويلاً، بطبيعة الحال؛ بل يجب تجديده كل أسبوعين؛ يملئونك من جديد، إن صح التعبير. الآن، إذا استمر ذلك عاماً أو عامين، وسارت الأمور سيراً حسناً، فإن الرئة تتماثل للشفاء. ليس دائماً، بالطبع؛ إنها (شغلة) خطيرة. لكنهم يقولون أنهم حققوا فيها نسب نجاح عالية. أولئك الناس الذين رأيتهم الآن أجريت لهم كلهم هذه العملية. تلك هي السيدة إلتيس، ذات النمش، أما الهزيلة والشاحبة فتلك هي الآنسة ليوي، التي توجّب عليها، كما تعرف، أن تلازم الفراش زمناً طويلاً. هم كوّنوا مجموعة، بطبيعة الحال، لأن شيئاً مثل الاسترواح الصدري يوحّد الناس. إنهم يطلقون على أنفسهم تسمية: نادي نصف الرئة؛ الجميع يعرفونهم بهذا الاسم. وهيرمينه كليفيلد هي مفخرة النادي، لأنها قادرة على أن تصفر برئتيها. إنها موهبة خاصة، بأي حال كل إنسان يستطيع أن يفعل ذلك. لا أستطيع أن أخبرك كيف يمكن القيام بذلك، وهي نفسها لا تقدر أن تصفه لك بالضبط. ولكنها حين تسير بسرعة نوعاً، يمكنها أن تجعل رئتيها تصفران، وبالطبع تفعل هي هذا كي تلقي الرعب في أفئدة الناس، وبخاصة حين يكونون جديدين على المكان. كذلك، أعتقد انها تستهلك النيتروجين حين تفعل ذلك؛ إذ يجب إعادة ملئها مرةً بالأسبوع.»

بعدها ضحك هانز كاستورب. إن استثارته، بينما كان يواكيم يتحدث، اختارت الضحك بدلاً من البكاء، متنفساً لها؛ وقهقه بينما كان يمشي، يده على عينيه، كتفاه محنيتان، مهزوزاً بفعل سلسلة من القهقهات الخافتة الملطِفة. «هل هم متحدون؟» سأل حالما تمكن من التكلم. بدا صوته ضعيفاً وباكياً مع الضحك المكبوت. «هل لهم قوانين داخلية؟ انه شيء مؤسف أن لا تكون عضواً في ناديهم، يمكنك أن تدخلني إليه ضيفاً ـ زميلاً بنصف رئة ـ

يلزمك أن تطلب من بيرنز أن يجعلك خارج الخدمة الفعلية، حينذاك ربما يكون بوسعك أن تتعلم كيف تصفر أنت أيضاً؛ لا بد انه شيء يستطيع المرء أن يتعلمه ـ حسن، ذلك أكثر الأشياء التي سمعتها طوال حياتي كلها غرابة»، أنهى حديثه، مطلقاً تنهدة عميقة. «أستميحك عُذراً لأنني تحدثت عنه هكذا، لكنهم يبدون مبتهجين به؛ أصدقاؤك الغازيون هؤلاء. الطريقة التي جاءوا بها ـ والتفكير بأن ذاك كان نادي نصف الرئة. كانت تصفر لي باستمرار ـ لا بد أنها مجنونة! كانت تلك وقاحة مطلقة ـ هلاّ أخبرتني لماذا يتصرفون هم بهذه الوقاحة التامة؟».

بحث يواكيم عن جواب. «أستغفر الله»، قال، «إنهم جد أحرار ـ أعني، إنهم يافعون جداً، والزمن لا شيء بالنسبة لهم، وثم إنهم من الجائز أن يلفظوا أنفاسهم ـ ربما ـ لماذا يتعين عليهم أن يرسموا إمارات الأسى والاكتئاب على وجوههم؟ في بعض الأحيان أفكّر ان المرض والموت ليسا أمرين جديين على الإطلاق، إنهما مجرد تسكع وإضاعة للوقت؛ الحياة جدية فقط في الأسفل. سوف يتسنى لك أن تفهم ذلك بعد مدة قصيرة، لكن ليس قبل أن تمضي بعض الوقت هنا في الأعالي.»

«أكيد، أكيد»، قال هانز كاستورب. «أكيد إنني سأفهم. أشعر الآن بولع كبير بالحياة هنا في الأعالي، وحين يكون المرء مولعاً، يأتي الفهم لاحقاً. ـ لكن ما هي قضيتي ـ ان مذاقه غير جيد»، قال، وأخرج سيجاره من فمه كي ينظر إليه. «كنتُ أسأل نفسي طوال هذا الوقت ما هي القضية، والآن أرى إنها ماريا. ان مذاقها أشبه بالورق المعجن[١٠]، أؤكد لك هذا ـ بالضبط مثلما يشعر المرء حين يكون عنده سوء هضم. لا أقدر أن أفهم هذا. أكلت أكثر من المعتاد في وجبة الفطور، لكن هذا لا يمكن أن يكون السبب، فقد اعتادت ماريا أن تكون ذات مذاق جيد بصورة خاصة بعد وجبة كافية جداً. هل تعتقد أن السبب يرجع الى كوني أمضيتُ ليلةً مقلقة؟ أغلب الظن إنني

---

(١٠) الورق المعجن popier-mache (بالفرنسية في النص الإنجليزي): مادة صلبة مصنوعة من عجينة الورق ممزوجة بالغراء وغيره من المواد الدبقة ـ المترجم.

بهذه الطريقة أمسيتُ مشوشاً. الآن، لا أستطيع حقاً أن ألصقها»، قال بعد محاولة أخرى. «كل سحبة هي خيبة أمل، لا معنى لإرغامها.» وبعد لحظة تردد قذف السيجار الى أسفل المنحدر، بين الأغصان الرئيسة الندية لشجر الصنوبر. «هل تعرف ما هو السبب الذي يدور بخلدي؟» سأل. «أشعر إنني مقتنع بأن ذلك مرتبط بالحرارة اللعينة التي أحس بها طوال الوقت في وجهي. عانيتُ منها منذ صعودي الى هنا. أشعر كما لو أنني كنتُ متورداً طوال الوقت، ليأخذها الشيطان! هل شعرت بشيء شبيه بهذا في بداية مجيئك؟».

«نعم»، قال يواكيم. «في البدء كنتُ شاذ الأطوار نوعاً. لا تفكر فيها كثيراً جداً. أخبرتك قبلاً انه ليس بالأمر الهين أن يعوّد المرء نفسه على الحياة هنا في الأعالي. لكنك ستتحسن بعد مدة وجيزة. أنظر، تلك المصطبة في مكان جميل. دعنا نجلس قليلاً ومن ثم نعود الى المصح. لا بد لي أن آخذ علاجي.»

أمسى الدرب مستوياً. أضحى الآن يتجه صوب دافو ـ بلاتز، في ثلث الجبل، واحتفظ برؤية مستمرة، بين أشجار الصنوبر الشاهقة، المتباعدة، المذروة بالرياح، للقرية الصغيرة في الأسفل، تومض ببياض في الجو الرائق. المصطبة التي جلسا عليها تتكئ على جدار شاهق لجانب الجبل، وبالقرب منهما ينبوع في مجرى خشب مكشوف يمضي مقرقراً ومطلقاً رشاشاً صوب الوادي.

كان يواكيم يعلّم ابن خالته أسماء جبال الألب المكللة بالسديم التي بدت وكأنها تطوّق الوادي جنوبياً، مشيراً إليها واحداً إثر الآخر بالعصا الألبية[١١]. لكن هانز كاستورب لم يلقِ على الجبال إلا نظرة زائلة. كان يجلس محني الظهر، يرسم أشكالاً هندسية على الأرض مستعملا الحلقة المعدنية في عصاه ذات سناد الفضة التي تُستخدم للمشي في المدينة غالباً. كانت هناك أشياء أُخر يود معرفتها.

---

(١١) العصا الألبية alpenstock: عصا طويلة في أسفلها حديدة مستدقة الرأس يستعان بها على تسلق الجبال ـ المترجم.

«ما أردتُ سؤالك عنه»، بدأ كلامه. «الحالة المرضية في حجرتي انتهت بالوفاة قبيل وصولي الى هنا، هل كانت هناك وفيات عديدة خلال مدة إقامتك في المصح؟».

«وفيات عديدة، بالتأكيد»، أجاب يواكيم. «لكنها وفيات تم التصرف معها بكتمان، أنت تفهم ما أعنيه؛ أنت لا تسمع شيئاً عنها، أو ربما تسمع عنها بالمصادفة فيما بعد، كل شيء يتم الإبقاء عليه بسرية تامة حين تكون هناك حالة وفاة، احتراماً لمشاعر المرضى الآخرين، خاصة السيدات، اللاتي، ربما تداهمهن وبكل سهولة صدمة عصبية. أنت لا تلاحظها، حتى إذا ما مات شخص يسكن الغرفة الملاصقة لغرفتك. يجلبون التابوت في الصباح الباكر، حين تكون أنت نائماً، والإنسان الذي نحن بصدده يتم أخذه بعيداً في وقتٍ مناسب أيضاً ـ مثلاً، بينما نحن نتناول طعامنا.»

«هِمممْ»، قال هانز كاستورب، وواصل الرسم. «فهمت. ذلك الشيء إذاً يجري خلف الكواليس.»

«أجل ـ في الأغلب. لكن منذ عهد قريب ـ دعني أفكر، انتظر لحظةً، ربما كان ذلك في الأرجح منذ ثمانية أسابيع خلَتْ ـ».

«إذاً أنت لا تستطيع أن تقول منذ عهد قريب»، إنقض عليه هانز كاستورب انقضاضاً حاداً.

«ماذا؟ حسن، ليس منذ عهد قريب، إذاً، طالما انك دقيق جداً. حاولتُ فقط أن احسب. حسن، إذاً، في وقت مضى، جرى ذلك، لمحتُ شيئاً من خلف الكواليس ـ بالمصادفة بكل معنى الكلمة ـ وأنا أتذكره كما لو كان بالأمس. جرى ذلك حين أتوا بالقربان المقدس الى هوجوس الصغيرة، بربارة هوجوس ـ كانت كاثوليكية ـ القربان الأخير، كما تعرف، مسح المحتضِر بالزيت المقدس. كانت ما تزال على قيد الحياة حين وصلتْ الى هنا في الأعالي أول مرة، وكان بوسعها أن تكون مرحة وصاخبة بشكل طائش، دائمة الضحك، كطفلة صغيرة. لكن بعد ذلك تردت حالتها المرضية بسرعة، ولم تعد تنهض من فراشها. باب حجرتها يبعد ثلاثة أبواب عن باب حجرتي ـ وبعدها وصل والداها، والآن جاءها القس. جرى ذلك عندما كان

الجميع يشربون شايهم، وما من أحد على الإطلاق في الممرات. لكنني كنت قد ذهبت لأنام قيلولتي واستغرقتُ في النوم، لم أسمع الجرس القرصي وتأخرتُ عنه ربع ساعة. وهكذا عند اللحظة الحاسمة لم أكن في الموضع الذي كان فيه الآخرون، لكن خلف الكواليس، كما أسميتها أنت؛ حين سرتُ على طول المجاز، قابلتُهم وجهاً لوجه، بثيابهم المخرمة، مع الصليب في الأمام، صليب ذهبي مع المنارات ـ جعلني أفكر في التاج بجلاجل[١٢] الذي يسيرون معه، أمام المجندين الجدد.»

«أيّ مفارقة هذه؟» سأل هانز كاستورب بصرامة.

«بدت أشبه بذلك لي ـ لم أتمالك نفسي عن التفكير بها. لكن إصغ إليّ. أقبلوا نحوي، سائرين، خطى سريعة، ثلاثة منهم، إن لم تخني الذاكرة: الرجل ذو الصليب، القس ذو العوينات على أنفه، وغلام يحمل مبخرة تؤرجح بالسلاسل. كان القس يضم القربان المقدس الى صدره، كان مغطى، وكان رأسه مائلاً الى أحد الجانبين وبدا طاهراً تماماً ـ انه (قدس الأقداس) خاصتهم، بطبيعة الحال.»

«بالضبط»، قال هانز كاستورب. «ولهذا السبب أتعجب من المقارنة التي عقدتها.»

«نعم، لكن انتظر قليلاً ـ لو كنتَ هناك، ما كان يخطر ببالك أي نوع من التعابير سيظهر على وجهك حين تتذكر الحادثة فيما بعد. انه شيء يسبب لك الكوابيس.»

«كيف؟».

«إسمع: أسأل نفسي كيف يتعين عليّ أن أتصرف، في ظروف كهذه. ليس لي قبعة كي أنزعها ـ».

«هو ذا، فهمت، ألا ينبغي لك لبسها؟» قاطعه هانز كاستورب ثانيةً. «أدركت الآن، يجب على المرء أن يرتدي قبعة. بالطبع لاحظت ان ما من

---

(١٢) تاج بجلاجل: وردت بالألمانية schellenbaum والتي تعني أيضاً شجرة الجرس ـ المترجم.

أحد بينكم هنا في الأعالي يلبس قبعة؛ لكن يلزمك أن تفعل، كي يكون هناك شيء ما تخلعه حين يكون من المناسب فعل ذلك. حسن، لكن ماذا جرى بعدها؟»

«وقفتُ مستنداً الى الجدار»، واصل يواكيم حديثه، «بأكثر ما أستطيع من الاحترام، وانحنيتُ قليلاً حين وصلوا إليّ ـ كان ذلك عند باب هوجوس الصغيرة، حجرة رقم ثمانية وعشرون، بدا القس مسروراً لأنني ألقيتُ التحية، عبّر عن شكره بكياسة وخلع قبعته. لكنهم في الوقت نفسه توقفوا عن المسير، والمساعد الذي يحمل المبخرة طرق، ورفع المزلاج، وفسح المجال للأرفع منه منزلةَ بالدخول. حاول أن تتخيل مشاعري، وكم كنت خائفاً! لحظة وضع الكاهن قدمه على العتبة، بدأت جلبة في الداخل، زعيق لم تسمع له مثيلاً طوال حياتك كلها، عويل استمر ثلاث أو أربع مرات، ثم انبثقت صرخة ـ استمر الصراخ من دون توقف، بأعلى صوت جهوري لها: آآآآه! صراخ مليء بالرعب والعصيان، والكرب، و. . . حسن، شيء لا يوصف أبداً. وبين تلك الصرخات جاءت توسلات قاسية. ثم فجأة أمست الأصوات كلها غير رنانة ومكتومة، كما لو ان الأرض انشقت وابتلعتها، أو كما لو ان الأصوات كانت آتية من سرداب.»

التفت هانز كاستورب منفعلاً كي يواجه ابن خالته. «هل كانت تلك الهوجوس التي تصرخ؟»، سأل فجأة. «وكيف تعني ـ آتية من سرداب؟».

«كانت هي قد زحفت تحت الأغطية؟»، قال يواكيم. «تخيّل احساسي آنذاك! وقف القس عند العتبة وتحدث بلهجة مسكنة، يمكنني الآن أن أرى كيف كان يبرز رأسه ويسحبه من جديد خلال حديثه. حامل الصليب والمساعد ترددا، ولم يتمكنا من الدخول. كان بوسعي أن أرى بينهما ما في الحجرة. كانت حجرة كحجرتك وحجرتي، السرير عند الحائط الجانبي يسار الباب، والناس واقفون عند رأس السرير، الأقارب طبعاً، الوالدان، يتحدثون بأصوات مسكنة عند السرير، حيث لا يمكنك أن ترى شيئاً سوى كتلة عديمة الشكل تتضرع وتحتج بفزع وترفس بقدميها.»

«قلت ترفس؟».

«ترفس بكل قوتها. غير ان ذلك لم ينفعها قيد أنملة، كان ينبغي لها أن تتناول القربان المقدس. مضى القس إليها، ودخل الإثنان الآخران الحجرة، وأُغلق الباب. لكنني في البدء رأيت رأس هوجوس الصغيرة ينبثق لحظة، كومة من الشعر الأشقر، ونظرتْ الى القس بعينين محدقتين، كانتا بلا لون، وبعدها إندست باكية تحت الملاءة من جديد.»

«وتقول لي كل هذا الآن أول مرة؟»، قال هانز كاستورب، بعد وقفة قصيرة. «لا أستطيع أن أفهم كيف وُفقتَ في عدم التحدث عنها مساء أمس. لكن، يا ستار، لا بد أنها امتلكت القوة في الدفاع عن نفسها بتلك الطريقة. ذلك يتطلب قوة. كان يتوجب عليهم ألا يأتوا بالقس قبل أن يكون المرء ضعيفاً جداً.»

«كانت هي ضعيفة»، رد يواكيم. ـ «أوه ثمة أشياء كثيرة جديرة بأن تروى، المرء ليس له الوقت الكافي للالتقاط والاختيار. كانت ضعيفة بدرجة كافية! انه الرعب وحده الذي منحها هذه القوة الكبيرة جداً. كانت في حالةٍ رهيبة حين أدركت انها ستموت؛ وهي التي كانت في ميعة الصبا؛ كانت تلك، على أية حال، حالة يمكن اغتفارها. لكن الرجال البالغين يتصرفون كذلك أيضاً، غالباً، وهذا بالطبع ناجم عن ضعفهم الباعث على الأسى. يعرف بيرنز كيف يعالجهم، يتخذ هو الأسلوب الصحيح في حالات كهذه.»

«أي نوع من الأساليب؟» سأل هانز كاستورب بحاجبين متغضنين.

«[لا تتصرف هكذا]، يقول لهم»، أجاب يواكيم. «في الأقل، هذا ما قاله لشخص ما منذ عهد قريب ـ سمعنا ذلك من المديرة، التي كانت حاضرة وساعدت في الإمساك بالرجل. كان واحداً من الذين يثورون بانتظام عند النهاية، وهم ببساطة لن يموتوا. لذا أقنعه بيرنز باتخاذ اتجاه معاكس. [أسدِ لي معروفاً بأن لا تتصرف هكذا]، قال له؛ والمريض أمسى هادئاً تماماً ومات بالهدوء الذي يرضيك.»

صفع هانز كاستورب فخذه، وارتد الى الوراء متكئاً على المصطبة، متطلعاً الى السماء.

«أقول، ذاك شاهق الى حدٍ ما»، صاح. «يذهب إليه هكذا، ويخبره

ببساطة ألا يتصرف بتلك الطريقة! لرجلٍ يحتضر! مع ذلك ان رجلاً محتضراً له شيء بشكل ما ـ شيء مقدس. لا يستطيع المرء أن يكون هادئاً تماماً، هكذا ـ ان رجلاً محتضراً هو حالة مقدسة، على ما أظن!».

«أنا لا أنكر هذا»، قال يواكيم. «لكن حين يتصرف المرء بتلك الدرجة من الضعف. .»

«لا»، أصر هانز كاستورب، بعنفٍ غير متناسب مع المقاومة التي واجهها، «أصر على القول ان رجلاً محتضراً هو أسمى من أي رجل يتحرك هنا وهناك ويضحك ويكسب عيشه ويأكل ثلاث وجبات طعام يومياً. انه شيء غير جيد بدرجة كافية. .»، ارتعش صوته. «انه ليس جيداً بدرجة كافية لإمرئ ـ بهدوء ـ بهدوء فقط ـ». تثاقلت كلماته في نوبة ضحك ألمّت به وتغلبت عليه، ضحك يوم أمس، ضحك عميق، لا متناهٍ، يهز الجسد، ضحك أغمض عينيه وجعل الدموع تنبجس من تحت أجفانهما.

«شش!» قال يواكيم، فجأة. «اهدأ»، همس ووكز ابن خالته المرح والصاخب بصورةٍ يتعذر ضبطها في جنبه. راح هانز كاستورب ينظر من خلال العبرات.

رجل غريب كان يقترب منهما من جهة اليسار، رجلٍ داكن البشرة، ذو مشية جميلة، وشاربين أسودين مفتولين، يرتدي سروالاً ذا مربعات بألوان فاتحة. تبادل مع يواكيم تحية الصباح بنبرات مقبولة ودقيقة، وبعدها لبث واقفاً أمامهما بوضعٍ مطمئن، مستنداً الى خيزرانته، متقاطع الساقين.

الشيطان(١٣)

يشق علينا أن نحدد عمره، أغلب الظن انه بين الثلاثين والأربعين، مع انه يعطي انطباعاً بالشباب، إلا ان شعر فوديه كان منثوراً بالفضة وخفيفاً جداً فوق رأسه. خليجان أصلعان يمتدان على طول الفرق الضيق الهزيل، وزادا

(١٣) ورد العنوان باللغة الإيطالية: satana ـ المترجم.

في ارتفاع جبهته. ملابسه، سروال مهلهل بمربعات مصفرة فاتحة، وسترة طيار، جد طويلة، مزدوجة الصدر، ذات طيات صدر عريضة جداً، لم تدعي أيَّ قدرٍ من الأناقة، وياقته المنتصبة، مدورة الزوايا، كانت خشنة الحافات بسبب كثرة الغسل. ربطة عنقه السوداء بدت بالية، ولم يكن يرتدي أزراراً لكميّ قميصه، كما رأى هانز كاستورب حالاً من الطريقة الرخوة التي يتدلى بهما كما قميصه حول الرسغين. بالرغم من ذلك، عرف ان أمامه رجلاً نبيلاً: التواضع المطمئن، وحتى الفاتن والتعبير المهذب للغريب لا يتركان مجالاً للشك في ذلك. مع ذلك، بهذا المزيج من رداءة الملابس والكياسة، بالعينين السوداوين، والشاربين المتموجين برقة، تَذكّر هانز كاستورب بصورةٍ لا تقاوم موسيقيين أجانب اعتادوا المجيء الى هامبورغ في عيد الميلاد (الكريسماس) كي يعزفوا موسيقاهم في الشوارع أمام أبواب الناس. كان بوسعه رؤيتهم يديرون عيونهم المخملية هنا وهناك مادين قبعاتهم الخفيفة لقطع النقد المقذوفة من النوافذ. «عازف أرغن يدوي»، فكّر. لذا لم ينذهل من الاسم الذي سمعه، حين نهض يواكيم من المصطبة وقدّمه بشيء من الارتباك «ابن خالتي كاستورب، السيد سيتيمبريني.»

نهض هانز كاستورب في الوقت نفسه، ما تزال تلوح على وجهه بقايا انفجار مرحه وصخبه. غير ان الإيطالي وبكياسةٍ أمرهما ألا يزعجا نفسيهما، وجعلهما يجلسان ثانية، بينما حافظ هو على تواضعه الخاص المطمئن أمامهما. ابتسم، واقفاً هناك، متطلعاً الى إبني الخالتين، وبخاصة الى هانز كاستورب؛ ابتسامته جميلة، هازئة تقريبا وغامضة وهشة في زاوية واحدة من الفم، في النقطة التي ينحرف فيها شاربه الكامل انحرافه الجميل الى الأعلى. كان لابتسامته تلك تأثير استثنائي على ابني الخالتين: أجبرتهما نوعاً على اليقظة العقلية والوضوح، وصحّت هانز كاستورب المصاب بالدوار في طرفة عين، وجعلته خجلاً.

قال سيتيمبريني: «أنتما في مزاج رائق ـ وعقل أيضاً، عقل ممتاز. يا له من صباح رائع! سماء زرقاء، شمس باسمة» ـ بحركةٍ مطمئنة وملائمة لذراعه رفع يداً صغيرةً مصفرة البشرة الى السماء، وأرسل في إثرها نظرةً مفعمةً

بالحياة الى الأعلى ـ «يكاد المرء ينسى في أي بقعة من العالم هو.»

كان يتحدث من دون لهجة معينة، النطق الصحيح وحده الذي كشف الأجنبي. بدت شفتاه وكأنهما تشعران بنشوة خاصة في تشكيل الكلمات. كان الإصغاء إليه شيئاً سائغاً جداً. «أتمنى أن تكون رحلتك الى هنا سارة؟» التفت الى هانز كاستورب. «وهل تعرف مصيرك الآن ـ أعني هل أُجري لك الطقس الحِدادي للفحص الأول؟» وهنا، إذا ما كان يتوقع فعلاً رداً كان عليه أن يتوقف عن الكلام؛ طرح سؤاله، واستعد هانز كاستورب للإجابة. لكنه مضى قائلاً: «هل فررت بسهولة؟ يستطيع المرء أن يضع ـ» وهنا توقف عن الكلام ثانيةً، والهشاشة في زاوية فمه أضحت أكثر هشاشةً ـ «أكثر من تفسير لضحكك، بكم شهراً صرعك مينوس ورادامانثوس خاصتنا؟»(١٤) المقطع العامي بدا مضحكاً في شفتيه. «هل أخمن؟ ستة شهور؟ تسعة؟ تعرف اننا أحرار مع الزمن هنا في الأعالي ـ».

ضحك هانز كاستورب، مندهشاً، وفي الوقت ذاته أجهد عقله كي يتذكر من كانا هذان مينوس ورادامانثوس. أجاب: «لا، البتة ـ لا، حقيقة، لقد خضعتَ لسوء الفهم، سيد سبتيم ـ».

«سيتيمبريني»، صحح الإيطالي، بجلاء وتوكيد، وبينما هو يتكلم انحنى بهزء.

«سيد سيتيمبريني ـ استميحك عذراً. كلا، أنت على خطأ. الواقع لستُ مريضاً. جئتُ فقط لزيارة ابن خالتي زيمسين أسابيع قلائل، وسأستفيد من الفرصة لأنال قسطاً من الراحة ـ».

«معافى؟ أنت لا تعنيها؟ إذاً لست واحداً منا؟ أنت صحيح الجسم، أنت هنا مجرد ضيف، مثل أوديسيوس في مملكة الظلال؟ أنت جريء فعلاً، وبالتالي تهبط الى هذه الأعماق المأهولة بالأموات الخاوين والعاطلين عن العمل ـ».

---

(١٤) مينوس: ابن زيوس وأوروبا، أصبح أحد حكام العالم السفلي، شقيق رادامانثوس.
رادامانثوس: حاكم العالم السفلي في الميثولوجيا الأغريقية ـ والقصد هنا كم شهراً أرغماك على البقاء هنا في الأعالي ـ المترجم.

«أهبط، سيد سيتيمبريني؟ أنا أعترض. صعدتُ نحو خمسة آلاف قدم كي أصل الى هنا ـ».

«يتراءى لك ذلك. بشرفي، كان وهماً»، قال الإيطالي، بتلويحة يد حاسمة. «نحن غائصون هنا بدرجة كافية، أليس كذلك، حضرة الملازم؟» قال لـ يواكيم، الذي سُرّ كثيراً بهذا الأسلوب في المخاطبة، فكر في إخفاء رضاه، وأجاب بتأمل: «أعتقد أننا صرنا وحيدي الجانب نوعاً. لكننا يمكن أن نستجمع قوانا، في ما بعد، إذا ما حاولنا.»

«في الأقل، تستطيع أنت. أنا متيقن ـ أنت رجل مستقيم»، قال سيتيمبريني. «نعم، نعم، نعم»، قال، مكرراً الكلمة ثلاث مرات بـ(م) حادة، ملتفتاً الى هانز كاستورب ثانية حين تكلم، وبعدها، بالطريقة المدروسة ذاتها، قرق[١٥] ثلاث مرات بأن وضع لسانه على لهاته. «فاهم، فاهم، فاهم»، قال ثانية، مانحاً حرف الميم الصوت الحاد ذاته كالسابق. تفرس في وجه القادم الجديد بنظراتٍ ثابتة وبعدها، أضحى نابضاً بالحيوية من جديد، مضى قائلاً: «إذاً أتيتَ بملء إرادتك الحرة إلينا نحن الغائرين، قاصداً من وراء ذلك منحنا سعادة مرافقتك مدةً وجيزةً من الزمن؟ هذا شيء مبهج. وأي مصطلح خطر ببالك كي تسمي به إقامتك هذه؟ لا أعني مصطلحاً دقيقاً. أنا مهتم حصراً بمعرفة كم ستطول الإقامة المؤقتة لإنسان ما عندما يحدد هو نفسه وليس رادامانثوس مدة الإقامة.»

«ثلاثة أسابيع»، قال هانز كاستورب، بفخر بعض الشيء، حين أدرك انه أصبح موضع حسد.

«يا سلام! ثلاثة أسابيع! هل سمعتَ، حضرة الملازم؟ ألا يبدو لك شيئاً وقحاً أن تسمع شخصاً يقول: [أنا أقيم مدة ثلاثة أسابيع وبعدها أرحل ثانية]؟ نحن، هنا في الأعالي، لم نتعرف الى وحدة زمنية كهذه مثل الأسبوع ـ إذا سُمح لي بأن أحيطك علماً، سيدي العزيز. ان أصغر الوحدات الزمنية عندنا هي الشهر. نحن نحسب على وفق المقياس الكبير ـ هذا امتياز نملكه نحن

---

(١٥) قرق cluck: صوت الدجاجة حين تدعو صغارها خاصة ـ المترجم.

الأشباح. نحن نملك امتيازات أُخر، كلها من النوع ذاته. هلاّ سمحتَ لي أن أسألك عن المهنة التي تمارسها في الأسفل؟ أو، الأصح، لأية مهنة تهيئ نفسك؟ أنت تدرك أننا لا نضع حدوداً لعطشنا الى المعلومات ـ حب الاستطلاع هو أحد حقوق الأشباح المكتسبة بفعل تقادم الزمن.»

«أرجوك لا تذكرها»، قال هانز كاستورب. وأخبره بمهنته.

«بنّاء سفن! عظيم!» هتف سيتيمبريني. «أؤكد لك، اني أجد ذلك عظيماً ـ مع ان مواهبي الخاصة تكمن في اتجاه مختلف تماماً.»

«السيد سيتيمبريني أديب»، أوضح يواكيم، بخجل نوعا. «كتب بيانات نعي كاردوتشي للصحف الألمانية ـ كاردوتشي، كما تعلم.» أمسى أكثر خجلاً؛ ذلك ان ابن خالته نظر إليه في دهشة، كما لو كان يقول له: «كاردوتشي؟ ماذا تعرف عنه؟ أنا أراهن انك لا تعرف عنه أكثر مني.»

«نعم»، قال الإيطالي، وهو يومئ برأسه. «كان لي الشرف أن أخبر مواطني بلدكم بقصة شاعرنا العظيم والملحد، حين شارفت حياته على الانتهاء. أنا أعرفه، ويمكنني أن أحسب نفسي واحداً من طلابه. جلستُ عند قدميه في بولونيا. أنا أشكره على أي ثقافة يمكنني أن أسميها خاصة بي ـ وعلى أي فرح حياة أيضاً. لكننا كنا نتحدث عنك. بنّاء سفن! هل تعرف انك سموت كثيراً في نظري؟ أنت تمثل الآن، في نظري، عالم العمل والعبقرية العملية.»

«سيد سيتيمبريني، أنا مجرد تلميذ حتى الآن، بدأت تواً.»

«أكيد. البداية هي العسيرة دوماً. غير ان العمل كله شاق، أليس هو الذي يستحق هذا الاسم؟».

«هذا شيء حقيقي، الله أعلم ـ أو الشيطان أعلم»، قال هانز كاستورب، وجاءت الكلمات من قلبه.

ارتفع حاجبا سيتيمبريني.

«أوه»، قال، «إذاً أنت تدعو الشيطان ليشهد هذا الرأي ـ الشيطان يجسّد، إبليس نفسه؟ أتعرف ان أستاذي العظيم كتب له ترنيمة؟».

«معذرة»، قال هانز كاستورب، «ترنيمة للشيطان؟».

«للشيطان نفسه ولا أحد غيره. انه شيء يُغنى في مسقط رأسي، في المناسبات البهيجة. [أيتها العافية، أيها الشيطان، أيتها الثورة، أيتها الروح الانتقادية!][١٦] إنها أغنية عظيمة. لكنك نادراً ما يخطر ببالك شيطان كاردوتشي حين تتحدث؛ فهو على علاقات طيبة مع العمل الشاق، في حين ان شيطانك، الذي يخاف العمل ويكرهه كما يكره السم الزعاف، فهو على الأغلب الشيطان الذي قيل لنا انه يتوجب علينا ألا نمد له حتى إصبعاً صغيراً.»

كل هذا ترك انطباعاً شديد الغرابة في بطلنا الطيب هانز كاستورب. لم يكن يعرف الإيطالية، وبقية الأشياء بدت له غير مريحة إطلاقاً، وذكرته بعِظات الكنيسة أيام الآحاد، مع انها أُلقيتْ عرضاً، بنبرةٍ خفيفة، وحتى مازحة. نظر الى ابن خالته، الذي كان يحدّق بنظرات ثابتة الى الأسفل؛ وبعدها قال: «أخذت كلماتي حرفياً، سيد سيتيمبريني. أؤكد لك، أنني حين تكلمتُ عن الشيطان، كان ذلك طريقة كلام لا غير.»

«لا بد للمرء أن يمتلك بعض المرح»، قال سيتيمبريني، ناظراً الى أمام، بسيماء كئيبة. ثم استعاد حالته الطبيعية، عاد بمهارة الى موضوعهم السابق، واستطرد قائلاً بمرح: «على أية حال، لعلي على صواب في استنتاجي من كلماتك ان المهنة التي اعتنقتها عسيرة ومشرِّفة في آن. بالنسبة لي، أنا إنساني، رجل إنساني، a homo humanus ليس لي براعة آلية، مهما كان إجلالي مخلصاً لها. غير أنني قادر على الفهم ان نظرية حرفتك تتطلب عقلاً واضحاً وقوياً، وان ممارستها تتطلب أشياءً لا تقل عما يحتاجه الإنسان الكامل. ألستُ محقاً؟».

«مؤكد، أنت على صواب، يمكنني أن أتفق معك دوماً في هذا المجال»، رد هانز كاستورب. وبصورة لا واعية بذل مجهوداً للإجابة بفصاحة. «ان المتطلبات التي يحتاجها اليوم إنسان في مهنتي هي بكل بساطة

---

(١٦) وردت بالإيطالية: o salute, o satana, o ribellione, o forza vindice della ragione. ـ المترجم.

ضخمة. يفضل أن لا نملك فكرةً واضحةً جداً عن حجمها، فربما تسلب جرأة الإنسان: كلا، هذه ليست نكتة. وإذا لم يكن الإنسان أقوى المخلوقات في العالم ـ شيء حقيقي انني هنا في زيارة فقط؛ لكنني لستُ قوياً جداً، ولستُ قادراً على التأكيد فعلاً أن عملي يناسبني جيداً بصورة مدهشة جداً. سيكون من الأكثر واقعية القول ان عملي هذا يجردني نوعاً من قوتي. أشعر فقط بأنني سليم جسمياً وعقلياً حين لا أعمل شيئاً على الإطلاق.»

«كما أنت عليه الآن، مثلاً؟»

«الآن؟ أوه، الآن أنا حديث العهد هنا في الأعالي، ما زلتُ مرتبكاً بعض الشيء ـ يمكنك أن تتخيل.»

«آه ـ مرتبكاً.»

«نعم، ولم أنمْ جيداً جداً، والفطور المبكر كان وطيداً فعلاً. ـ اعتدتُ على فطور معتدل، غير ان هذا دسم جداً بعض الشيء لدمي، كما يقال، باختصار، ينتابني إحساس بالظلم ـ ولسببٍ أو آخر، لم يكن لسيجاري هذا الصباح المذاق الصحيح، كان، في الواقع، شيئاً لم يحدث لي من قبل، أو يحدث لي فقط حين أكون متوعك الصحة بصورة خطيرة ـ واليوم بدا لي مذاق السيجار أشبه بمذاق الجلد. توجّب عليّ أن أرميه بعيداً، لا جدوى من إجباره. هل أنت مدخن، إذا سمحت لي بطرح هذا السؤال؟ كلا؟ إذاً أنت لا تتصور الضيق وخيبة الأمل اللذين يشعر بهما شخص ما مثلي اعتاد التدخين بدءاً من شبابه حتى الآن، وشهد فيه سعادةً كبيرة.»

«أنا عديم الخبرة في هذا المجال»، أجاب سيتيمبريني، «بيد أنني أجد أن نقص تجربتي هذا ليس بالأمر المهم. شخصيات كثيرة جداً، أنيقة، ناكرة لذاتها أحجمت عن ذلك. كاردوتشي لم تكن به حاجة لممارستها. لكنك ستكتشف أن رادامانثوسنا شخصية من العشيرة. انه نصير متحمس لرذيلتك.»

«رذيلة، سيد سيتيمبريني؟»

«لِمَ لا؟ على المرء أن يسمي الأشياء بأسمائها الصحيحة؛ فالحياة بذلك تصبح أكثر غنىً وأكثر نبلاً. أنا أيضاً لي رذائلي.»

«إذاً هوفرات بيرنز خبير؟ رجل رائع».

«تجده هكذا؟ إذاً تعرفتَ اليه قبل الآن؟»

«أجل، الآن، حين خرجنا من المصح. كانت تلك تقريباً أشبه بزيارة مهنية ـ لكن زيارة مجانية، كما تعرف ـ sine pecunia ـ أدرك هو فوراً أنني مصاب بفقر الدم. نصحني أن أتبع نظام ابن خالتي بكل ما في الكلمة من معنى: أن أستلقي كثيراً في الشرفة ـ لا بل حتى قال أن عليّ أن أقيس حرارتي.»

«هل قال ذلك حقاً؟» هتف سيتيمبريني. «ممتاز!» قهقه ورد رأسه الى الوراء. «كيف هو حال تلك الأوبرا العائدة لك؟ [صياد الطيور البرية الجريء في داخلي تراه أنت، أبداً يضحك بجذل!] هذا شيء مسلٍ جداً! وستعمل بنصيحته؟ بالطبع، لِمَ لا تعمل بها؟ انه شخصية شريرة رادامانثوسنا! [أبداً يضحك] ـ حتى إذا كان الضحك إجبارياً نوعاً أحياناً. انه يميل الى السوداوية، كما تعرف. عيبه لا يتلاءم معي ـ بالطبع، بخلاف ذلك لن يكون عيباً. التدخين يسبب له نوبات الكآبة؛ لهذا السبب فإن سيدتنا المديرة المحترمة تتولى مسؤولية تجهيزه بالتبغ، وتوزع له حصصه يومياً. يحدث أحياناً أن يستسلم للإغراء كي يسرق حصته ويصاب بعدها بنوبةٍ من السوداوية. باختصار، هو شخصية قلقة. هل تعرفتَ الى مديرتك أيضاً؟ كلا؟ لقد ارتكبتَ خطأ. عليك أن تعالج هذا الأمر في أقرب فرصة ممكنة. سيدي العزيز، هي تنحدر من سلالة فون ميليندونك النبيلة. وهي تتميز عن فينوس ميديسي بالحقيقة القائلة انه بينما كان للآلهة صدر، كان لها هي صليب.»

«آه، ها، ها! ـ ممتاز!» ضحك هانز كاستورب.

«اسمها التنصيري[17] أدرياتيكا.»

«أدرياتيكا!» صاح هانز كاستورب. «شيء لا يقدر بثمن! أدرياتيكا فون ميليندونك! أليس هذا رائعاً! يبدو كما لو انها ميتة من زمن طويل جداً. انه حقيقة اسم ينتمي للقرون الوسطى.»

«سيدي العزيز»، أجابه سيتيمبريني، «هنا في الأعالي ثمة أشياء كثيرة

---

(١٧) اسم التنصير christian name: الاسم الأول الذي يسبق اسم الأسرة ـ المترجم.

تنتمي حقاً للقرون الوسطى، كما وصفتها. أنا شخصياً مقتنع ان رادامانثوس كان قد حفزه كلياً الشعور الفني حين صنع هذا الرأس المتحجر المشرف على [حجرة الرعب] العائدة له. تعرف انه فنان، بالمناسبة. انه يرسم بالزيت. لِمَ لا؟ ليس هناك قانون يمنع ذلك ـ كل امرئ يستطيع أن يرسم ما يشاء. السيدة أدرياتيكا تخبر كل مَنْ يصغي إليها، ناهيك عن أولئك الذين لا يصغون، أن ميليندونك كانت رئيسة دير للراهبات في بون الواقعة على الراين، في القرن الثالث عشر. لم يمضِ وقت طويل بعدها حين رأت هي نفسها ضوء النهار.»

«هاها! ياه، سيد سيتيمبريني، أجد انك إنسان ساخر!».

«إنسان ساخر؟ تعني انني ماكر؟ حسن، نعم، ربما أنا ماكر بعض الشيء»، قال سيتيمبريني. «ان معاناتي العظمى تكمن في ان قدري هو أن أستخدم مكري على مثل هذه الأشياء غير المهمة. أتمنى، حضرة المهندس، ألا يكون عندك شيء ضد الخبث؟ في نظري انه أقوى سهام العقل الموجهة ضد قوى الظلام والقبح. المكر، عزيزي، هو الروح المنشطة للنقد؛ والنقد هو بداية التقدم والتنوير.» وشرع يتكلم عن بترارك[١٨]، الذي سمّاه أبا الروح الحديثة.

«أعتقد»، قال يواكيم مستغرقاً في التفكير، «ان علينا أن نذهب لنستلقي.»

كان الأديب يتحدث بمصاحبةٍ من الإيماءات الجميلة، ختم إحداها الآن في اتجاه يواكيم وقال: «ملازمنا يصر على الخدمة. دعونا نذهب معاً، فطريقنا واحد: [الدرب الذي على اليمين هو الذي سيؤدي الى ردهات (ديس) الأعظم] ـ آه، فيرجيل، فيرجيل! لا أحد يتفوق عليه! أنا مؤمن بالتقدم، بالتأكيد، أيها النبيلان، لكن فيرجيل ـ انه ضليع في النعت بحيث لن يستطيع مجاراته أي إنسان معاصر». وفي طريقهما صوب المسكن ألقى شعراً لاتينياً بلفظ إيطالي؛ قاطع نفسه، على أية حال، حين رأى فتاةً يافعة تتجه

(١٨) بترارك Petrarch (١٣٠٤ ـ ١٣٧٤): عالم وشاعر إيطالي. يُعد أحد أبرز رواد عصر النهضة الأوربية ـ المترجم

نحوهم ـ فتاة من القرية، كما بدا أول مرة، وكان جمالها، على أي حال، لافتاً للنظر ـ ابتسم لها وجعل يرمقها بنظرات غرامية قائلة: «أو لا، لا، حلوة، حلوة، حلوة!» سقسق. «جميلة، جميلة، جميلة! [إذاً تعال قبلني مئة وعشرين قبلة]» اقتبس[١٩]، حين مروا بها، وقبّل كفه من وراء ظهر الفتاة المسكينة المرتبكة.

«يا له من ثرثار متبطل»، فكّر هانز كارستورث. ظلت هذه الفكرة راسخة في باله، بعد ان صحا الإيطالي من نوبة التودد للنساء التي هيمنت عليه وشرع يسخر من جديد. كانت ملاحظاته الانتقادية موجهة بشكل رئيس الى السيد هوفرات بيرنز: سخر من حجم قدميه، ومن اللقب الذي تلقاه من أميرٍ ما كان يعاني من تدرن الدماغ. ما يزال الجيران كلهم يتحدثون عن السلوكيات المخزية لتلك الشخصية الملكية، غير ان رادامانثوس أغمض عينه ـ في الواقع، كلتا عينيه، وكان فعلاً هوفرات في كل تصرفاته. هل كان النبيلان يعرفان أن هوفرات هو الذي اخترع فصل الصيف؟ هو نفسه مَنْ اخترع الفصل، ولا أحد سواه. لابد للمرء أن يسدد للشيطان دينه. في وقتٍ من الأوقات فقط أكثر الناس إخلاصاً هو الذي قضى فصل الصيف في الوادي السحيق. ثم أدرك ظريفنا، بعينه المعصومة، ان هذا الاستخفاف كان ببساطة نتيجة إجحاف قليل الحظ. كانت فكرته، بقدر تعلق الأمر بمصحه، هي ان علاج الصيف ليس فقط غير مفضل مقارنة بعلاج الشتاء، بل هو على العكس، ذو قيمة عظمى، الواقع لا غنى عنه. وعرف هو كيف ينشر هذه النظرية، وكيف يوصلها الى آذان الناس؛ كتب مقالاتٍ عن هذا الموضوع وروج له في الصحافة ـ ومنذ ذلك الحين أمسى فصل الصيف مزدهراً كفصل الشتاء.

«عبقرية!» قال سيتيمبريني. «حدس!» ومضى ينتقد أصحاب المصحات الأخر في المنطقة، مادحاً مواهبهم في كسب المال بسخرية كاوية. كان هناك

---

(١٩) هذا الاقتباس من شكسبير.. يقول النص الإنجليزي:
Then come kiss me sweet and twenty ـ اجتهدنا في ترجمته كما في أعلاه ـ المترجم.

البروفيسور كافكا. سنوياً، في اللحظة الحرجة، حين يبدأ الجليد بالذوبان، ويطلب مرضى عديدون إذناً بالانصراف من أجل الرحيل، بغتةً يجد نفسه مرغماً على السفر بعيداً مدة أسبوع، ويعد بمعالجة الطلبات كلها لدى عودته. ثم يمكث بعيداً عنهم مدة ستة أسابيع، بينما يكون البائسون المساكين في انتظاره، في حين، تستمر قوائمهم، وبصورة عرضية، في الازدياد. ذات مرة طُلب من كافكا الذهاب الى (فايومه) لغرض استشارة طبية، لكنه لم يذهب إلا بعد أن ضمن خمسة آلاف فرنك سويسري؛ وهكذا ضاع أسبوعان في المحادثات التمهيدية. وبعدها ذهب، ولكن بعد وصول الرجل العظيم بيوم واحد، مات المريض. أكد الدكتور سالزمان أن كافكا لا يعتني بنظافة محقنة الزرق تحت الجلد، وكانت العدوى تصيب مرضاه، منتقلة من مريض الى آخر. وقال أيضاً انه يرتدي نعلين مطاطيين، وأن مريضه المتوفى ربما لن يسمعه. من ناحية أخرى، قال الدكتور كافكا أن مرضى الدكتور سالزمان تم تشجيعهم على احتساء كميات كبيرة من العنب ـ لفائدة دخل الدكتور سالزمان، وإنهم كانوا يموتون كالذباب، ليس بسبب السل الرئوي ولكن بسبب تليّف الكبد.

وهكذا مضى هو، هانز كاستورب ضحك بمتعة بهيجة على هذا التدفق المرتجل والمثمر للافتراء. الواقع، كان لهواً عظيماً أن يتم الإصغاء اليه، كان بليغاً جداً، مصوراً بدقة، متحرراً تماماً من أي أثر للهجة العامية. جاءت الكلمات، رشيقةً، واضحةً، وكما لو أنها منحوتة حديثاً، من شفتيه المتحركتين، تذوق مقاطعه المحكمة، المتقنة، اللاذعة ذات نكهة لذيذة واضحة ومعدية، وبدا ذكياً جداً وهادئاً بحيث لا يمكن أن يفوته التكلم عنها.

«لك طريقة مسلية جداً في التحدث، سيد سيتيمبريني»، قال هانز كاستورب. «جد نابضة بالحيوية، جد ـ لا أعرف كيف أصف خصائصها.»

«طيّعة؟» أجاب الإيطالي، وهوّى نفسه بمنديله، مع ان الطقس كان أبعد ما يكون عن الدفء. «تلك هي ربما الكلمة التي تفتش عنها. تعني أن لي طريقة مطواعة في التكلم. لكن أنظر!» صاح، «ماذا تشاهد عيناي؟ حاكميّ مناطقنا الجهنمية! يا له من مشهد!»

كان السائرون قد خلفوا وراءهم انعطافة الدرب. سواء شكراً لحديث سيتيمبريني، الحقيقة كانوا يسيرون نازلين التل، أو كانوا أقرب الى المصح مما ظن هانز كاستورب ـ لأن الدرب يكون دائماً أطول في أول مرة نقطعه فيها ـ على أي حال، تمت العودة في زمن قصير بصورة مذهلة. كان سيتيمبريني على صواب، وكان الطبيبان هما اللذان يسيران على طول الحيز الخالي الكائن خلف البناية، هوفرات في الأمام، بثوب خارجي فضفاض (سمق) أبيض، عنقه بارز ويداه تتحركان أشبه بمجذافين، في أعقابه الدكتور كروكوفسكي بقميص أسود، وقد بدا خجولاً أكثر. ذلك ان الآداب الطبية أجبرته على السير خلف رئيسه حين يقومان بجولتيهما معاً.

«آه، كروكوفسكي»، هتف سيتيمبريني. «هو ذا يسير ـ هو الذي يعرف كل الأسرار الدفينة في صدور نسائنا ـ أرجوك لاحظ الرمزية الدقيقة لملابسه: انه يرتدي السواد كي يوضح لنا ان حقل نشاطه المناسب هو الليل. وضع الرجل فكرةً واحدةً في رأسه، وتلك هي الفكرة البذيئة. كيف حدث، أيها المهندس، إننا لم نتكلم عنه حتى الآن؟ هل تعرفتَ إليه؟»

رد هانز كاستورب بالإيجاب.

«حسن؟ أنا أعتقد بأنك تحبه، أيضاً.»

«لا أدري، حقاً، سيد سيتيميريني. رأيته فقط بالمصادفة. وأنا لست عجولاً جداً في إصدار أحكامي. أميل الى النظر الى الناس قائلاً: [إذاً هذا أنت، أليس كذلك؟ جيد جداً]».

«هذه لا مبالاة منك. يلزمك أن تصدر الحكم. لهذه الغاية مُنحتَ العينين والإدراك. شعرتَ انني تحدثت بخبث، الآن. لو كنتُ فعلتُ ذلك، أغلب الظن، ان هذا لا يخلو من رغبة في التعليم. نحن الإنسانيون كلنا نملك شهوةً الى التعليم. الفلسفة الإنسانية والمدرسون ـ هناك صلة تاريخية بينهما، تستند الى حقيقة سايكولوجية مفادها ان مهمة المدرس يجب ألا ـ لا تستطيع أن ـ تؤخذ عن الإنساني، ذلك ان تعاليم جمال الإنسان وسموه ترتكز على يديه. ان القس، الذي ينتحل لنفسه بغير حق، في ظروفٍ مقلقة وغير إنسانية، مهمة إرشاد الشباب، قد صُرِف من الخدمة، منذ ذلك الحين،

سيديّ العزيزين، لم يظهر الى الوجود معلم من طراز خاص. إن مدرسة النحو الإنساني ـ ربما تسميني رجعياً، أيها المهندس، لكن نظرياً، عموماً، تفهم، أنا أبقى نصيرا ـ».

في المصعد واصل إسهابه في هذا الموضوع، ولم يكف عن الخوض فيه إلا حين خرج ابنا الخالتين من المصعد عند وصولهم الطبقة الثانية. أما هو فقد مضى الى الثالثة، حيث كان له، قال يواكيم، حجرة سرية صغيرة.

«أعتقد أن ليس بحوزته مال كثير»، قال هانز كاستورب، وهو يدخل حجرة يواكيم، التي بدت شبيهة جداً بحجرته.

«لا، لا أظن ذلك»، رد يواكيم، «أو يملك مبلغاً يجعل إقامته ممكنة. كان والده أديباً أيضاً، كما تعرف، وأعتقد، أن جده كذلك.»

«نعم، بطبيعة الحال»، قال هانز كاستورب. «هل هو مريض بصورة خطيرة؟»

«ليس بصورة خطيرة، بحدود علمي، لكن مرضه عنيد، يعاوده في كل مرة. هو يشكو منه من سنوات عدة، ويذهب وسطها، لكنه ما يلبث أن يعود حالاً.»

«يا للرجل المسكين! يبدو قوياً في عمله بصورة مفرطة! ثرثار بشكل كبير جداً، ينتقل من موضوع الى آخر بسهولة بالغة. مع ذلك بدا لي كريهاً نوعاً مع تلك الفتاة. نفرتُ منه تماماً، لحظتها. لكنه حين تحدث عن السمو الإنساني، بعدها، كان ذلك شيئاً عظيماً، بدا أشبه بخطاب. هل أدركتَ حقيقته؟»

جمباز فكري

جاء جواب يواكيم معوقاً ومشوشاً. أخرج محراراً طبياً صغيراً من حقيبته المصنوعة من جلد أحمر، والمبطنة بالمخمل، الموضوعة على طاولته، ووضع الحافة المليئة بالزئبق تحت لسانه في الناحية اليسرى، بحيث برزت الآلة الزجاجية للأعلى وبصورةٍ مائلة خارج فمه. ثم خلع ملابسه وارتدى ثياب البيت، انتعل حذاءين وسترة مزركشة بشريط زيني، تناول استمارة

مطبوعة وقلم رصاص من طاولته، وكتاباً أيضاً، علم النحو الروسي ـ لأنه كان يدرس الروسية ظاناً بأن ذلك سيكون ذا فائدة له في القوات المسلحة ـ وهكذا، مزوداً بلوازمه، اتخذ مجلسه في كرسي الاستلقاء في شرفته، رامياً دثاره من وبر الجمل بخفة فوق قدميه.

نادراً ما يحتاج المرء إليه. خلال ربع الساعة الأخير أمست طبقة الغيم أخف شيئاً فشيئاً، والآن اخترقت أشعة الشمس مزق الغيم ونشرتْ دفئاً أشبه بدفء الصيف، كانت أشعتها باهرة جداً، بحيث ان يواكيم حمى رأسه بستار من الكتان الأبيض الذي كان مربوطاً الى ذراع كرسيه، ومزوداً بجهاز بواسطته يمكن تثبيته بحسب موقع الشمس. مدح هانز كاستورب هذا الاختراع. كان يريد انتظار نتيجة قياس يواكيم لحرارته، وخلال ذلك نظر في ما حوله كي يرى كيف صُنعتْ الأشياء: لاحظ كيس النوم المبطن بالفرو الواقف بإزاء الجدار في زاوية الشرفة[٢٠]، يستخدمه يواكيم في الأيام الباردة؛ وخفض بصره ناظراً الى الحديقة في الأسفل، متكئاً بمرفقيه على الدرابزين. كان رواق الاستراحة العمومي مأهولاً بالمرضى المستلقين في كراسيهم، يقرئون، يكتبون، أو يتحاورون. كان بوسعه رؤية جزء فقط من الداخل، نحو خمسة أو ستة كراسٍ.

«كم يستمر ذلك؟» سأل ملتفتاً حوله.

رفع يواكيم سبعة أصابع.

«سبع دقائق! لكن لا بد إنها انقضت الآن!»

هز يواكيم رأسه. بعدها بقليل أخرج المحرار الطبي من فمه، نظر إليه، وقال: «نعم، حين تراقب الزمن، تجد انه يجري ببطء كبير. أحب قياس حرارتي كثيراً، أربع مرات يومياً؛ لأنك عندئذ تعرف ماذا تساوي الدقيقة ـ أو الدقائق السبع ـ فعلاً، هنا في هذا المكان المرتفع، حيث تطير بسرعة أيام الأسبوع السبعة بالطريقة التي تطير بها الآن!»

---

(٢٠) في النص loggia (بالإيطالية): رواق بجانبين مفتوحين أو جانب واحد مفتوح، مساحة مغطاة ومبلطة ومفتوحة الجوانب مجاورة لدار بشكل شرفة أو سقيفة ـ المترجم.

«تقول [فعلاً]»، أجاب هانز كاستورب. جلس رامياً ساقاً واحدة فوق الدرابزين، وبدت عيناه محتقنتين بالدم. «ومع ذلك، الزمن ليس [واقعياً]. حين يبدو لك الزمن طويلاً، إذاً هو طويل؛ عندما يبدو ذلك قصيراً، ياه، إذاً هو قصير. لكن كم يطول هو، أو يقصر، فهذا ما لا يعرفه أحد.» لم يكن من عادته أن يتفلسف، على أية حال شعر هو بشكلٍ ما بحافزٍ لفعل ذلك.

خالفه يواكيم. «كيف هذا؟ ـ نحن نقيس الزمن. لهذا الغرض نمتلك ساعات اليد والجيب والتقاويم السنوية؛ وحين يطير شهر، يا سلام، إذاً طار هو فعلاً، بالنسبة لك، وبالنسبة لي، ولنا كلنا.»

«مهلاً»، قال هانز كاستورب. رفع سبابته، قريباً من عينيه المتعبتين. «ان دقيقةً، إذاً، هي طويلة بالنسبة لك حين تقيس حرارتك؟»

«إن دقيقة من الزمن طويلة ـ إنها تدوم طويلاً ـ طالما إنها تأخذ عقرب الثواني في ساعتي كي يكمل دورةً.»

«لكنها تستغرق طولاً مختلفاً من الزمن ـ بالنسبة لوعينا! وفي الواقع ـ أنا أقول عادّاً إياه مسألة حقيقية»، كرر، وضغط سبابته بقوة على أنفه بحيث حنى طرفه تماماً، «انه حركة، أليس كذلك، حركة في المسافة؟ انتظر لحظة! هذا يعني أننا نقيس الزمن بالمسافة. غير ان هذا ليس أفضل من قياس المسافة بالزمن، وهو الشيء الذي لا يفعله إلا الناس غير العلميين. يستغرق الذهاب من هامبورغ الى دافو عشرين ساعة ـ بالقطار، طبعاً. كم يستغرق ذلك مشياً على الأقدام؟ وفي العقل، كم يستغرق ذلك؟ ولا حتى ثانية!»

«أقول»، قال يواكيم، «ما هي قضيتك؟ يبدو لي انه نبت في رأسك أن تكون معنا هنا في الأعالي!»

«أسكت! أنا صافي الذهن اليوم. طيب، إذاً، ما هو الزمن؟»، سأل هانز كاستورب، وحنى طرف أنفه أكثر بحيث أضحى أبيض وخالياً من الدم. «هل يمكنك أن تجيبني؟ المسافة ندركها بأعضائنا، بحاستي النظر واللمس. جيد. لكن ما هو عضونا الذي ندرك به الزمن ـ أخبرني إذا استطعت. رأيتَ، لصقتَ هناك. لكن كيف يمكننا أن نقيس شيئاً لا نعرف عنه فعلاً أي شيء، ولا حتى خاصيةً واحدةً من خصائصه؟ نقول عن الزمن انه يمضي. جيد

جداً، دعه يمر. لكن كي نكون قادرين على قياسه ـ انتظر لحظة: كي يكون قابلاً للقياس، يجب أن يجري بانتظام، لكن مَنْ ذا الذي قال انه فعل ذلك؟ بقدر تعلق الأمر بوعينا انه لا يفعل ذلك، يخيل لنا فقط انه يفعل، من أجل الملاءمة، وان وحداتنا التي نستخدمها للقياس هي اعتباطية الى حد بعيد، محض اصطلاحات».

«جيد»، قال يواكيم. «إذاً أغلب الظن انه مجرد اصطلاح أن يكون لي خمس درجات زيادة هنا في محراري الطبي. ولكن بالرغم من تلك الخطوط عليّ أن أهذي هنا بدلاً من أن ألتحق بزملائي، وهي حقيقة مثيرة للاشمئزاز.»

«هل بلغت حرارتك ٩٩,٣ درجة فهرنهايت؟»

«بدأت تنخفض الآن.» ودوّن القياس في جدول حرارته. «الليلة أمس كانت نحو مائة درجة فهرنهايت ـ ليلة وصولك الى المصح. ان زيارة شخص ما تجعلها ترتفع دوماً. لكنه شيء جيد، مع ذلك.»

«سأذهب الآن»، قال هانز كاستورب. «ما زالت في رأسي أفكار عظيمة عن الزمن ـ أفكار معقدة تماماً، إذا جاز لي أن أقول. لكنني لن أستثيرك بها الآن، فعندك أصلاً زيادة في درجات الحرارة. سأحفظها كلها، وأعود إليها سأحفظها في ما بعد، بعد الفطور ربما. سوف تناديني عندما يحل وقت الفطور، على ما أظن. سأذهب الآن وأستلقي، لن يؤذيني ذلك، شكراً للطيبة.» مع هذا الكلام دار حول الحاجز الزجاجي داخلاً الى شرفته، حيث انتصب كرسي الاستلقاء والمنضدة الجانبية العائدان له. تناول «بواخر المحيط» ونسيجه مربع النقش، الجميل، الناعم، باللونين الأحمر الداكن والأخضر من حجرته، الذي وضع سابقاً في نظام تام، وجلس.

توجب عليه حالاً أن يهيئ ستار الشمس الصغير، حين إستلقى على كرسيه أمست الحرارة لا تطاق. غير انه كان مرتاحاً بصورة غير مألوفة، قرر هو، بقناعةٍ واضحة. طوال تجربته في الحياة لا يذكر هو كرسياً مريحاً مُرضياً جداً كهذا. الهيكل ـ عتيق الطراز نوعاً، ربما، مجرد مسألة ذوق، لأن الكرسي كان جديداً بشكل جلي ـ مصنوع من الخشب الصقيل الأحمر ـ البني، وكان الفراش مكسواً بنسيج قطني ناعم؛ أو بالأحرى، لم يكن فراشاً،

بل ثلاث وسائد سميكة، تمتد من القدم الى أعلى ظهر الكرسي. فضلاً عن ذلك كانت هناك لفة الرأس، لم تكن صلبة جداً، ولا لينةً جداً، ذات شرشف كتان مطرز، مثبتة بحبل الى الكرسي، ومناسبة بشكل مدهش للعنق. أسند هانز كاستورب مرفقه على السطح العريض الناعم لذراع الكرسي، جعل يفتح عينيه ويغمضهما بسرعة، وأراح نفسه. المنظر الطبيعي قاس نوعاً ومتناثر، مع انه مشمس على نحو ساطع، بدا أشبه برسم مؤطر حين ينظر إليه من قوس الشرفة. نظر إليه هانز كاستورب مستغرقاً في التفكير. على حين غرة فكّر في شيء ما، وقال بصوتٍ عالٍ في السكون المهيمن: «كانت تلك قزمة، أليس كذلك، تلك التي كانت تخدمنا عند مائدة الفطور؟»

«شش»، قال يواكيم. «لا تتكلم بصوت مرتفع، نعم، قزمة لماذا؟»

«لا شيء. لم نأتِ على ذكرها.»[٢١]

استغرق في التفكير. كانت الساعة العاشرة حين استلقى في كرسيه. مرت ساعة. كانت ساعة اعتيادية، ليست بالطويلة، ولا بالقصيرة. عند انتهائها رن جرس عبر المصح والحديقة، من بُعد في البدء، ثم من قرب، ومن بُعد ثانيةً.

«فطور»، قال يواكيم وكان بالمستطاع سماعه وهو ينهض من كرسيه.

هانز كاستورب هو الآخر انتهى من علاجه الحالي ومضى الى حجرته كي يرتب حاله قليلاً. التقى ابنا الخالتين في المجاز وهبطا درجات السلّم.

قال هانز كاستورب: «حسن، الاستلقاء شيء عظيم. أي نوع من الكراسي هي؟ إذا كانت متوفرة هنا، سأشتري واحداً وآخذه معي الى هامبورغ؛ ان الاستلقاء عليها شيء سماوي. أم انك تعتقد انها صنعت وفق تصميم بيرنز؟»

يواكيم لا يعرف. دخلا حجرة الطعام، حيث كانت وجبة الطعام ثانيةً في نشاط كامل.

---

(٢١) يقصد المؤلف هنا: لم نُشرْ إليها في حديثنا، أو لم نتطرق إليها ـ المترجم.

عند كل مكان انتصبتْ كأس كبيرة، أغلب الظن نصف لتر من الحليب؛ ومضت الحجرة بيضاء به.

«لا»، قال هانز كاستورب، حين احتل مقعده ثانيةً بين الخياطة والمرأة الإنجليزية، وبسط منديل المائدة بطواعية، مع انه ما يزال مثقلاً بالوجبة الأبكر؛ «لا، ليساعدني الله، لا أستطيع أن أتحمل الحليب، ومن بين كل الأشياء الأخرى الآن! ألا توجد جعة البرتر؟» خصص نفسه للقزمة، وصاغ سؤاله بكياسةٍ غاية في اللطف، لكن وا أسفاه، لا توجد ولا قطرة منها. وعدت بجلب بيرة كولمباخر، وفعلت ذلك. كانت بيرة ثخينة، داكنة وبنية مزبدة، كانت بديلاً ممتازاً للبرتر. شربها هانز كاستورب بظمأ في كأس نصف اللتر، وأكل شيئاً من اللحم البارد والخبز المحمص. كانت هناك أيضاً عصيدة شوفان ومزيد من الزبد والفاكهة. جعل عيناه تستقران عليها، لكنه غير قادر على تناول المزيد. ونظر الى النزلاء أيضاً؛ بدأت المجاميع تفسح المجال له، والأفراد يقفون له.

كانت مائدته مشغولة، عدا المكان في رأسها، الذي كان، كما عرف، «مكان الطبيب». لأن الطبيبين، عندما يسمح لهما العمل، يتناولان طعامهما عند المائدة العمومية، يجلسان تباعاً عند كل واحدة من الموائد السبع؛ عند كل واحدة منها موقع واحد شاغر. لكن الآن لا يوجد أي من الطبيبين، هما يجريان العمليات الجراحية، هكذا قيل. دخل المطعم من جديد الشاب ذو الشاربين، خفض ذقنه مرةً والى الأبد على صدره، وجلس، بسيمائه المستغرقة في التفكير، والمرهقة بالهم. كانت الشقراء نوعاً والهزيلة في مقعدها، تغرف بالملعقة اللبن المصفى كما لو انه مادتها الغذائية الوحيدة. لصقها ظهرت عجوز ضئيلة البدن نابضة بالحيوية، وكانت تخاطب الشاب الصامت بالروسية، كان ينظر إليها باضطراب، ويرد عليها بإيماءة من رأسه فقط، يبدو كما لو ان في فمه شيء سيىء الطعم. قبالته، في الناحية المقابلة للسيدة العجوز، كانت هناك شابة أخرى، جميلة، ذات بشرة منورة وثديين مكتنزين، شعر كستنائي متموج بشكل مقبول، وعينين طفوليتين مدورتين

بنيتين، وياقوتة صغيرة على كفها المحببة الى القلب. كانت دائمة الضحك، وتتحدث الروسية. عرف هانز كاستورب ان اسمها ماروسيا. والأكثر من ذلك لاحظ أنها حين كانت تقهقه وتتكلم، كان يواكيم يجلس مركّزاً نظره على طبقه.

لاح سيتيمبريني من خلال الباب الجانبي، وبارماً شاربيه، مشى بخطى سريعة الى مكانه في طرف المائدة الواقعة بشكل منحرف أمام المائدة التي جلس إليها هانز كاستورب. انفجر زملاء مائدته ضاحكين عندما جلس؛ لعله قال شيئاً جارحاً. ميز هانز كاستورب أعضاء «نادي نصف الرئة». هيرمينه كليفيلد، ثقيلة العينين، اندست في موقعها عند المائدة أمام أحد أبواب الشرفة، متحدثةً بينما هي تفعل ذلك الى الشاب غليظ الشفتين الذي لبس سترته ذات الطراز غير الملائم التي لفتت انتباه هانز كاستورب. ليوي ذات اللون العاجي وإلتيس البدينة المنمشة جلستا جنباً الى جنب الى طاولة تقع بزوايا قائمة مع هانز كاستورب ـ لم يكن يعرف أحداً من زملاء مائدتهما.

«ها هما جاراك»، قال يواكيم بصوتٍ خافت لابن خالته، منحنياً الى الأمام حين قال ذلك. مر الزوجان بجانب هانز كاستورب ذاهبين الى المائدة الأخيرة على اليمين، المائدة الروسية «السيئة»، بصورةٍ جلية، حيث جلست عائلة بكاملها، أحد أفرادها غلام قبيح جداً، يلتهم كمياتٍ هائلة من العصيدة. كان الرجل ذا تناسبات هزيلة، ذا وجه رمادي، غائر الخدين. كان يرتدي سترة جلد بنية اللون؛ في قدميه جزمتان غير متقنتي الصنع من اللباد بإبزيمين. زوجته، مثله، قصيرة ونحيلة، تتمشى بخطوات رشيقة بجزمتيها الجلد الروسيتين الصغيرتين جداً بالكعبين العاليين، تتمايل الريشات في قبعتها. لبست حول عنقها لفاعاً طويلاً زغباً متسخاً من الريش. تطلع إليهما هانز كاستورب بنظراتٍ لا ترحم، غريبة تماماً عن طبعه المألوف ـ كان يعي وحشية نظراته، مع ذلك في الوقت نفسه كان واعياً باستمتاعه بتلك الصفة. شعر بأن عينيه كلتيهما ثقيلتين وتتفرسان. في تلك اللحظة ضُرب باب الزجاج على اليسار بعنف منغلقاً، مع خشخشة الزجاج ورنينه؛ لم يجفل كما حدث

في أول مرة؛ بل ظهرت على محياه تكشيرة اشمئزاز كسول فقط؛ حين أراد أن يدير رأسه، وجد ان هذا المجهود كبير جداً عليه ـ كان فعلاً لا يستحق ذلك. وهكذا، ولثاني مرة، لم يكن قادراً على تركيز نظره على الشخص الذي اقترف ذنب التصرف بتلك الطريقة الطائشة مع الباب.

الحقيقة كانت بيرة الصباح، كقاعدة، فقط مشوِشة باعتدال لإدراك الشاب، هذه المرة خدرته وجننته تماماً. شعر كأنه تلقى ضربةً على رأسه. كان جفناه ثقيلين كالرصاص؛ لسانه لم يستطع أن يعبّر عن أفكاره البسيطة حين حاول، تعبيراً عن الأدب، أن يتحدث الى المرأة الإنجليزية. ولكي يغير اتجاه نظراته كان مرغماً على مقاومة نفور عظيم، وفضلاً عن ذلك كله، الاشتعال البغيض في وجهه بلغ الدرجة ذاتها التي بلغها يوم أمس، شعر بخديه متنفختين ودافئتين، كان يتنفس بصعوبة، وقلبه خفق بشكل غير رنان، كمطرقة ملفوفة بقطعة قماش. إذا كانت هذه الأحاسيس كلها لم تسبب له قدراً كبيراً من المعاناة، فذلك يرجع الى انه يشعر برأسه كما لو انه استنشق نشقات قليلة من الكلوروفورم. رأى كما لو في المنام ان الدكتور كروكوفسكي ظهر عند الفطور واتخذ موقعاً مقابلاً له؛ الطبيب، على أي حال، جعل ينظر، في عينيه نظرات حادة متكررة، بينما هو يتحدث بالروسية مع السيدتين الجالستين على يمينه. الشابتان ـ ماروسيا المنوِّرة، والنحيلة آكلة اللبن المصفى ـ تخفضان بصرهما بدمائة خلق خلال حديث الطبيب. هانز كاستورب لم يستطع، طبعاً، أن يتحمل وضعاً لا يوفر له الكرامة. في الصمت، بما ان لسانه رفض مهنته، استعمل فقط سكينه وشوكته بلياقة خاصة. حين أومأ له ابن خالته برأسه ونهض، قام هو أيضاً، انحنى بصورة عمياء لبقية الجالسين الى الطاولة، وبخطوات حذرة تبع يواكيم الى الخارج.

«متى نستلقي ثانيةً؟» سأل حين غادرا المصح. «انه أفضل الأشياء هنا في الأعالي، بقدر ما استطعت رؤيته. أتمنى العودة ثانية الى كرسيي المريح. هل نتمشى مسافةً طويلة؟»

كلمة كبيرة جداً

«لا»، رد يواكيم. «غير مسموح لي أن أمضي بعيداً. في هذه المدة أنزل دوماً الى الأسفل، عبر القرية حتى الـ (بلاتز) إذا كان لي متسع من الوقت. هناك حوانيت وناس، وبوسع المرء أن يشتري ما يحتاجه. لا تقلق، سنرتاح ساعةً أخرى قبل الغداء، وبعده سنرتاح أيضاً حتى الرابعة عصراً.»

سلكا الطريق الخاص في شروق الشمس، اجتازا المجرى المائي والمجاز الضيق، فواجها قمم الجبل في الجانب الغربي من الوادي: قمة شياهورن الصغيرة، البرج الأخضر، والدورفبيرج ـ ذكر يواكيم أسماء القمم. مقبرة دافو ـ دورف ذات الجدار الصغير تقع هناك، عند ارتفاع معين؛ أشار إليها يواكيم بعصاه. وصلا الطريق العام، الذي كان يمتد على طول المنحدر المزود بالمصاطب أعلى من قاع الوادي بطبقة واحدة.

كان اسم القرية مغلوطاً نوعاً إذا ما تحدثنا عنها، طالما انه لم يبقَ شيء غير الكلمة. كان المنتجع الصحي قد ابتلعها، ممتداً أكثر فأكثر صوب مدخل الوادي، الى أن يتغلغل ذلك الجزء من القرية الصغيرة الذي كان يدعى (دورف) بشكل غير محسوس في الـ (بلاتز). فنادق وفنادق عائلية، مجهزة بوفرة بشرفات مغطاة، بلكونات، وأروقة استلقاء، تقع على جانبي طريقهما، وثمة، أيضاً، مساكن خاصة بحجرات متوفرة للإيجار. كانت هنا وهناك بنايات جديدة، لكن توجد أيضاً مساحات مكشوفة، تتيح رؤية مروج الوادي.

هانز كاستورب، تائقاً لانغماسه الذاتي المألوف والمعتاد، أشعل مرةً أخرى سيجاراً؛ شكراً ربما للبيرة التي احتساها قبل الآن، أفلح بين حين وآخر في أخذ نشقة من النكهة التي تاق إليها، والتي منحته ارتياحاً لا يوصف. لكن بين الفينة والفينة، ولكن بصورةٍ ضعيفة فقط؛ كان التقبّل القلق لوضعه يرهق أعصابه، وساد بشكل جلي الطعم الجلدي الكريه. غير قادر على ترويض نفسه على عقمه، كافح مدة قصيرة كي يستعيد المتعة التي أفلتت منه تماماً، أو بطريقة أخرى سخرت منه بحضورها الوجيز، وختاماً، مرهقاً وشاعراً بالاشمئزاز، رمى السيجار بعيداً. برغم كونه مخدراً أحس بأنه مجبر

على أن يكون مؤدباً، وأن يحاور، ولهذه الغاية حاول أن يتذكر تلك الأفكار الرائعة التي امتلكها سابقاً، المتعلقة بموضوع الزمن. وا أسفاه، فر من رأسه، «الكل المركّب» الخاص بها، ولم يترك أي أثر له: في موضوع الزمن لم تجد فكرة واحدة، مهما كانت قليلة الأهمية، مستقراً لها في رأسه. لذا، شرع يتحدث في مسائل عادية تتعلق بالجسم. ما قاله بدا غريب الأطوار بشكل كافٍ في فمه.

«متى نقيس حرارتنا ثانيةً؟» سأل. «بعد الأكل؟ نعم، ذلك وقت جيد. حين يكون الكائن الحي في أوج نشاطه، لا بد أن يظهر نفسه. لا بد أن بيرنز كان يمزح حين أخبرني أن عليّ أن أقيس حرارتي ـ سيتيمبريني ضحك حين سمع بالفكرة، مثلما يضحك على أي شيء آخر؛ الواقع لا معنى لذلك. أنا لا أملك حتى محراراً.»

«حسن»، قال يواكيم. «هذا أقل الصعوبات التي يمكن أن تواجهها. بوسعك أن تجد واحداً في أي مكان ـ إنهم يبيعون المحارير الطبية في كل الحوانيت تقريباً.»

«لِمَ يجب عليّ أن أقيس حرارتي؟ كلا، الاستلقاء هو الشيء الذي يلزمني فعله. سأقوم به بسعادة بالغة؛ ولكن قياس الحرارة سيكون كبيراً جداً نوعاً على ضيف، سأتركه لكم أنتم البقية. لو كنت أعرف فقط»، استطرد قائلاً، ووضع يده كعاشق على قلبه، «لو كنتُ أعرف فقط لماذا عندي خفقان القلب طوال الوقت ـ انه شيء مقلق جداً، أفكر فيه على الدوام. الإنسان، كما تعرف، يعاني عادةً من خفقان القلب حين يكون خائفاً، أو حين يتطلع الى سعادة كبرى. ولكن حين يخفق القلب بعنف وقوة وحده، من دون أي سبب، من دون معنى، من غير إكراه، إذا صح التعبير، أشعر كأن ذلك شيء خارق للطبيعة، تفهمني، كما لو ان الجسم يسير على وفق مشيته الخاصة من غير اهتمام بالروح، كجسد ميت، انه فقط ليس ميتاً فعلاً ـ ليس ثمة شيء من هذا النوع، طبعاً ـ لكنه يحيا وجوداً ناشطاً جداً كله على مسؤوليته، ينمي الشعر والأظافر وينجز عملاً مليئاً بالحيوية في الخط الفيزياوي والكيمياوي، هكذا قيل لي ـ».

«أي ضرب من الكلام ذاك؟» قال يواكيم، بتوبيخ جاد. «[ينجز عملاً مليئاً بالحيوية!]» وربما استذكر هو التوبيخات التي استنزلها على رأسه في وقت أبكر من ذلك اليوم.

«إنها حقيقة ـ انه مليء جداً بالحيوية! لماذا اعترضتَ على ذلك؟»، سأل هانز كاستورب. «حدث وان ذكرتُ ذلك. عنيت فقط انه شيء مقلق وغير مقبول أن يعمل الجسم كما لو ان لا صلة له بالروح، وأن يتظاهر بكبرياء مصطنعة كهذه ـ والتي أعني بها هذه الخفقانات التي لا معنى لها. تحاول باستمرار أن تجد تفسيراً لها، وأن تجد عاطفة تُعزى إليها، إحساس بالسعادة أو الألم، والذي سيبررها، إذا جاز التعبير. على الأقل، هذا هو الذي حدث معي ـ لكنني لا أستطيع سوى التحدث عن نفسي.»

«نعم، نعم»، قال يواكيم، متنهداً. «أعتقد انه الشيء نفسه، حين يكون عندك حمى ـ تكون هناك أحداث حيوية جداً في الجسم آنذاك أيضاً، إذا ما تحدثتُ بطريقتك؛ وببساطة يحاول المرء بصورة لا إرادية أن يجد عاطفةً تفسر، أو حتى تفسر جزئياً الأحداث. لكننا نتحدث في شيء كريه جداً»، قال، صوته مرتعش قليلاً، وتوقف عن الكلام فجأةً؛ في حين ان هانز كاستورب هز كتفيه ـ بتلك الإيماءة نفسها، الواقع، التي أثارت استياءه، أمس، حين صدرت من ابن خالته.

سارا مسافةً قصيرة صامتين، الى أن سأل يواكيم: «حسن، كيف رأيتَ الناس هنا في الأعالي؟ أعني أولئك الجالسين الى مائدتنا.»

تصنّع هانز كاستورب سيماءً حصيفة. «أوو» قال تعبيراً عن عدم ارتياحه، «لم أجدهم مسلين جداً. بعض الأشخاص الجالسين الى الموائد الأخرى يبدون أفضل منهم، قد يبدون كذلك ظاهرياً فقط. السيدة شتور يلزمها أن تغسل شعرها بـ (الشامبو)، فهو دهني جداً. ومايوركا تلك ـ مهما كان اسمها ـ بدت لي سخيفة بعض الشيء. انها تواصل القهقهة ودس المنديل في فمها.»

ضحك يواكيم بصوت عالٍ على الاسم المحرّف الذي نطق به ابن خالته.

«مايوركا عاصمة»[٢٢]، قال. «اسمها ماروسيا، إذا سمحتَ لي ـ هو اسم ماري نفسه. نعم، الواقع، هي غير مؤدبة على الإطلاق، ومع ذلك، لها كل الأسباب كي تكون جدية. حالتها على أية حال هينة.»

«مَنْ يظن ذلك؟» قال هانز كاستورب. «تبدو هي سليمة الجسم والعقل. ان مشكلة الصدر هي آخر الأشياء التي يمكن للمرء أن يتهمها بها.» حاول أن يلفت انتباه ابن خالته، ورأى وجه يواكيم المسفوع بالشمس قد غدا كله مليئاً بالبقع، كما تبدو الطلعة الملوحة بالشمس حين يغادرها الدم فجأة؛ كان فمه أيضاً مجعداً بصورة جديرة بالشفقة، وحمل تعبيراً بعث قشعريرة خوف يتعذر تعريفها في هانز كاستورب وجعلته يسرع في تغيير الموضوع. وبعجل استفهم عن أشخاص آخرين من زملاء مائدتهما وحاول نسيان ماروسيا والتعبير الذي بدا على محيا يواكيم، ونجح في مسعاه حالياً.

المرأة الإنجليزية التي كانت تحتسي شاي الورد هي الآنسة روبنسون. الخياطة لم تكن خياطة بل مدرّسة في مدرسة ثانوية رسمية فرنسية في كونيغسبيرغ ـ وهذا يفسر دقة كلامها. كان اسمها الآنسة انجيلهارت. أما ما يتعلق باسم العجوز ضئيلة البدن المليئة بالحيوية، فلم يكن يواكيم يعرفه، طوال مدة مكوثه هنا في الأعالي. كل ما عرفه عنها انها كانت خالة أم الشابة التي كانت تأكل اللبن المصفى، وتسكن معها في المصح بصورة دائمة. كانت أسوأ حالة عند مائدتهما هو الدكتور بلومينكول، ليو بلومينكول، من أوديسا، الشاب ذو الشاربين والسيماء المستغرقة في التفكير والمرهقة بالهم. كان هنا من سنوات طوال.

هما الآن يتمشيان على رصيف المدينة، واضح انه الشارع الرئيس لمركز عالمي. التقوا نزلاء المعالجة، كان هؤلاء يتجولون هنا وهناك، معظمهم من الشبيبة: شبان أنيقون بملابس رياضية، حاسرو الرؤوس؛ نساء بتنورات بيض، حاسرات الرؤوس أيضاً. يسمع المرء الروسية والإنجليزية. حوانيت

(٢٢) مايوركا Majurka: تدعى بالعربية (مايورقة).. وهي كبرى جزر الباليار الاسبانية. مركز سياحي ـ المترجم.

ذات واجهات زاهية في جهتي الطريق، وهانز كاستورب، فضوله يقاوم إرهاقه العميق، أرغم نفسه على أن ينعم النظر في داخلها، ووقف زمناً طويلاً أمام حانوت موّن ملابس رجالية حديثة الطراز، ليقرر ما إذا كان عرضها فعلاً بمستوى الجودة.

وصلا قاعة مستديرة ذات شرفات خارجية مغطاة، حيث كانت فرقة موسيقية تقدم حفلة موسيقية. كان هذا الـ (كورهاوس). كان شبان طويلو السيقان، حليقو الذقون، يلعبون التنس في ملاعب عديدة، يرتدون سراويل مكوية بدقة وأحذية بنعال مطاطية، أذرعهم عارية حتى المرافق، وفتيات مسفوعات بالشمس يلبسن ثياباً نسائية بيضاء اللون، يركضن ويقفزن عالياً في الهواء المشمس في محاولة منهن لضرب الكرة البيضاء. الملاعب المعتنى بها جيداً بدت وكأنها مكسوة بالطحين. جلس ابنا الخالتين على مصطبة خالية كي يراقبا اللعبة وينتقداها.

«أنت لا تلعب هنا، صحيح؟» سأل هانز كاستورب.

«لا يُسمح لي باللعب»، أجاب يواكيم. «علينا أن نستلقي ـ لا شيء غير الاستلقاء. يقول سيتيمبريني اننا نعيش أفقياً ـ انه يسمينا بالأفقيين؛ تلك واحدة من نكاته الفاسدة. أولئك أُناس أصحاء، هناك ـ وإلا فإنهم يكسرون القواعد. لكنهم لا يلعبون بجدية كبيرة على أي حال، انهم يلعبون من أجل الزي. بقدر تعلق الأمر بكسر القواعد، هناك أشياء أُخر ممنوعة عدا التنس التي يلعبونها الآن ـ البوكر و(الخيول الصغيرة) في هذا الفندق وذاك. في مصحنا يوجد إشعار يتعلق بهذا؛ من المفروض أن يكون أكثر الأشياء ضرراً بصحتنا. مع ذلك، ثمة أُناس يتسللون خلسة من حجراتهم بعد الزيارات المسائية للأطباء ويأتون الى هنا للعب القمار. ذلك الأمير الذي أعطى لبيرنز لقبه فعل ذلك دوماً، هكذا يقولون.»

لم يكد هانز كاستورب يصغي. كان فمه مفتوحاً، لأنه لم يكن قادراً على التنفس من طريق الأنف من دون شم؛ أحس بعدم ارتياح غير واضح ان قلبه يقرع من دون موعد مع الموسيقى، وبهذا الإحساس الخليط من

الضوضاء والفوضى كان على وشك أن ينام نوماً خفيفاً حين اقترح يواكيم أن يعودا الى المسكن.

عادا تقريباً صامتين. تعثر هانز كاستورب مرة أو مرتين في الشارع المستوي وكشر عن أسنانه بحزن حين هز رأسه. أخذهما الرجل الأعرج بالمصعد الى طبقتهما. افترقا مع «أراك لاحقاً» موجزة عند الباب رقم أربعة وثلاثين؛ أرشد هانز كاستورب نفسه عبر الغرفة الى الشرفة، حيث غلبه النعاس حالما أصبح فوق الكرسي المركّب(٢٣)، ومن دون أن ينقلب مرة الى وضع أكثر راحةً، راح في نوم خفيف متبلد الحس، قطعه الوجيب السريع لقلبه المضطرب.

طبعاً، أنثى!

كم طال ذلك لا يستطيع أن يقرر. عندما حانت اللحظة، رن الجرس القرصي. لكنه لم يكن الجرس القرصي لوجبة الطعام، بل جرس التهيؤ، كما عرف هانز كاستورب، وهكذا ظل راقداً الى أن تصاعد اللحن المعدني وتلاشى للمرة الثانية. حين جاء يواكيم ليأخذه، كان هانز كاستورب يود تغيير ملابسه، لكن يواكيم هذا لم يسمح له. كان يكره ويشمئز من عدم الالتزام بالشكليات سأل: هل يكون هو قادراً على النهوض، وأن يغدو قوياً بما فيه الكفاية من أجل الخدمة العسكرية، إذا كان ضعيفاً جداً بحيث لا يستطيع ملاحظة ساعات تناول الطعام؟ في حين كان هو، طبعاً، معافى تماماً، وهانز كاستورب لا يستطيع سوى التصريح بأنه غير عليل على الإطلاق، بل فقط نعسان بشكل مطلق وتام. قصر نفسه على غسل يديه؛ وبعدها ولثالث مرة هبطا معاً الى حجرة الطعام.

تدفق النزلاء عبر المدخلين كليهما، بل دخلوا حتى عبر باب الشرفة المفتوح. حالاً جلسوا جميعاً الى موائدهم العديدة حتى بدوا وكأنهم لم

---

(٢٣) الكرسي المركّب deck chair: كرسي طويل قابل للطي ـ المترجم.

يقوموا منها. هكذا في الأقل كان انطباع هانز كاستورب ـ انطباع حالم وغير عقلاني، طبعاً، لكنه انطباع لم يستطع عقله المشوش أن يتخلص منه لحظةً، انطباع وجد فيه قدراً من الارتياح، بحيث انه مرات عدة خلال وجبة الطعام حاول استدعاءه ثانية ونجح تماماً في استنساخ الوهم. السيدة العجوز المبتهجة استمرت في التحدث بلسانها شبه المائع مخاطبة بإلحاح وبإطالة مضجرة الدكتور بلومينكول المرهق بالهم، قبالتها بصورة مائلة، ابنة بنت أختها النحيلة الواقع أخيراً راحت تأكل شيئاً آخر إضافة الى اللبن المصفى، أي، (الكريم) الثخين لحساء الشعير، الذي كان يسلّم باليد من شخص الى آخر في صحون حساء من قبل النادلات. ومنه أخذت ملء ملاعق قليلة وتركت الباقي. ماروسيا الجميلة قهقهتْ، وبعدئذ دست منديلها طيب المذاق في فمها ـ كان يفوح برائحة البرتقال. الآنسة روبنسون تقرأ الرسائل ذاتها، بكتابة اليد الرشيقة نفسها، التي قرأتها عند الفطور. كما هو واضح لم تكن تعرف كلمة واحدة من الألمانية، ولم تكن لها أدنى رغبة في تعلمها. يواكيم، الفارس الشهم، قال لها شيئاً بالإنجليزية، أجابت عنه بكلمة ذات مقطع واحد من دون أن تتوقف عن المضغ، وعادت ثانية الى صمتها. السيدة شتور جالسة هناك ببلوزتها الصوف، أعلمت الجالسين الى مائدتها قائلة أنها فُحصت عصر ذلك اليوم؛ وروت لهم مسائل شخصية، ساحبة بتكلف شفتها العليا عن أسنانها الشبيهة بالقوارض. كانت هناك أصوات خرخرة[٢٤] تُسمع في الجهة العليا اليمنى، وتحت لوح الكتف اليسرى كان التنفس ما يزال محدوداً جداً؛ قال «الرجل العجوز» ان عليها المكوث خمسة شهور أُخر. بدا مألوفاً جداً أن يسمعها النزلاء وهي تشير بذلك الى السيد هوفرات بيرنز. والأكثر من ذلك، أعربت عن شعورها بالأذى لأن «الرجل العجوز» لم يجلس الى مائدتها اليوم، إذ كان يجب عليه بحق أن يجلس إذا ما أخذهم "a la tournee" ـ التي من المحتمل عنت بها تباعاً ـ بدلاً من الذهاب الى المنضدة التالية ثانية. (هناك، الواقع،

(٢٤) خرخرة rhonchi جمع ronchus (باليونانية): وتعني صوت غير سوي يصحب التنفس ـ المترجم.

كان جالساً فعلاً، يداه الضخمتان مطويتان أمام مكانه). ولكن بالطبع كانت تلك منضدة السيدة سالومون، السيدة سالومون السمينة من امستردام، التي تأتي دوماً مرتدية فستاناً مقوراً الى المائدة حتى في أيام الأسبوع، وهو مشهد كان «الرجل العجوز» يهوى رؤيته، مع انه من ناحيتها هي ـ السيدة شتور ـ لم تكن تفهم السبب، طالما انه قادر على رؤية كل ما يريده من السيدة سالومون في كل فحص. وروت، بهمس مستثار، انه ليلة أمس، في رواق الاستراحة العمومي تحت السقف، أطفأ شخص ما الضوء، لأسباب أسمتها بكونها «واضحة». «الرجل العجوز» رأى هذا، وثار بحيث كان بوسعك سماع صياحه في أرجاء المبنى كلها. لم يكتشف هو المجرم، بالطبع، لكنك لن تحتاج الى دراسة جامعية كي تخمن ان الفاعل هو النقيب ميكلوسيش من بوخارست، ففيما يتعلق به، حين يكون في مجتمع من النساء، لن يكون الأمر خفياً بدرجة كافية: رجل لا يملك أدنى قدر من التهذيب، مع انه يلبس مشداً للخصر والردفين ـ و، بطبعه، كان ببساطة حيواناً مفترساً ـ حيواناً مفترساً بكل معنى الكلمة، كررت السيدة شتور، بهمس مكبوت، لاحت على جبينها وشفتها العليا حبيبات عرق. كانت علاقاته مع السيدة القنصل ـ الجنرال فورمبرانت من فيينا معروفة في كل مكان في دورف وبلاتز ـ انه شيء تافه أن تتحدث عن هذين الآثمين بسرية. لم يكن النقيب يكتفي بدخول حجرة نوم السيدة القنصل ـ الجنرال عندما تكون ما تزال في سريرها، ويبقى هناك خلال مدة استحمامها؛ الخميس الماضي لم يغادر حجرة السيدة فورمبرانت حتى الرابعة فجراً؛ عرفوا بذلك من الممرضة التي كانت ترعى الناشئ فرانز في رقم تسعة عشر ـ لم تكن عملية الإسترواح الصدري التي أُجريت له ناجحة. كانت هي، في ارتباكها، قد أخطأت حجرتها، اندفعت فجأة داخلة حجرة السيد باروانت، محامي دورتموند. في الختام أبدت السيدة شتور رأيها بعض الوقت في حسنات مؤسسة «كونية»[٢٥] هناك في القرية الواقعة في الأسفل، حيث اشترت

(٢٥) كونية cosmic: السيدة شتور تقصد مؤسسة تجميلية cosmetic ـ فهي كثيرة الأخطاء ـ المترجم.

غرغرتها. كان يواكيم يخفض عينيه ملقياً نظرات متحجرة على طبقه.

كانت الوجبة قد أُعدت بصورة كاملة، فضلاً عن كونها وفيرة. آخذين الحساء الشهي بنظر الاعتبار، كانت الوجبة تتألف ليس أقل من ستة أصناف من الطعام. بعد السمك يأتي طبق لحم ممتاز، مع التوابل، ثم طعام مؤلف من الخضار وحدها، ثم دجاج مشوي، نقانق، ليست أدنى منزلة من نقانق أمس، وأخيراً الجبن والفاكهة. كل طبق يُعطى مرتين وليس عبثاً. عند الموائد السبع كلها ملئوا أطباقهم وراحوا يأكلون: كانوا يأكلون كالذئاب؛ أبدوا شرهاً تُسر رؤيته، وليس ثمة شيء آخر عنه، وهو مظهر غريب تقريباً إن لم نقل مثير للاشمئزاز. لم يكن الأشخاص الجذلون وحدهم الذين هاجموا الطعام بتلك الطريقة ـ أولئك الذين كانوا يثرثون خلال تناولهم الطعام ويرمون كريات الخبز على أحدهم الآخر. لا، الشهية ذاتها أُظهرت بوضوح من قبل الأشخاص الصامتين، الكئيبين على حدٍ سواء، أولئك الذين كانوا خلال التوقفات القصيرة بين صنوف الطعام المقدمة بالتتابع يسندون رؤوسهم على أياديهم وينظرون أمامهم. ناشئ نصف ناضج عند المائدة المجاورة على اليسار، من المفروض أن يكون طالب مدرسة، رسغاه برزا من كمي سترته، يضع عوينات سميكة، دائرية العدسات، رقق كل الطعام المكدس على طبقه وحوّله الى نوع من الهريس، ثم انحنى عليه وجعل يزدرده؛ كان يمد منديل مائدته خلف عويناته بين الفينة والفينة ويجفف عينيه ـ هل كان يجفف العرق أم الدمع، هذا ما لا يستطيع المرء أن يجزم فيه القول.

كانت هناك حادثتان خلال مجرى وجبة الطعام لاحظهما هانز كاستورب، بقدر ما كانت تسمح به حالته. إحداهما ضرب الباب الزجاج بعنف، وهي الحادثة التي وقعت خلال تناولهم السمك. هز هانز كاستورب كتفيه مُسخَطاً وقرر بغضب ان عليه هذه المرة حقاً أن يكتشف مَنْ هو الفاعل. لم يقل ذلك في قرارة نفسه، بل صاغت شفتاه الكلمات: «لا بد أن أكتشف»، همس بجدٍ مبالغ به. الآنسة روبنسون والمدرّسة كلتاهما نظرتا إليه في دهشة. أدار النصف العلوي من جسمه الى اليسار وفتح عينيه الزرقاوين المحتقنتين بالدم.

كانت سيدة تلك التي اجتازت الغرفة؛ امرأة أو بالأحرى فتاة، متوسطة الطول، بكنزة صوف غليظة بيضاء، وتنورة ملونة، شعرها الأشقر ـ الضارب للحمرة ملفوف في جدائل حول رأسها. رأى هانز كاستورب صورة وجهها في نظرة خاطفة. تحركت، في مقارنة غريبة مع ضوضاء دخولها، من دون صوت تقريباً، مارةً بخطوات إنزلاقية مميزة، رأسها مدفوع قليلاً الى الأمام، الى موقعها عند المائدة الأبعد على اليسار، الواقعة بزوايا قائمة مع باب الشرفة: كانت تلك، الواقع، المائدة الروسية «الجيدة». بينما هي تمشي، كانت تبقي يدها في أعماق جيب سترتها الضيقة؛ أما اليد الأخرى فكانت ترفعها الى مؤخرة رأسها وترتب بها جدائل شعرها. تطلع هانز كاستورب الى هذه اليد. كان شديد الانتباه فطرياً وانتقادياً لهذه الميزة، وكان من دأبه حين يتعرف الى شخص جديد أن يوجه انتباهه الى يده أولاً. لم تكن يدها تشبه بصورة مميزة يد امرأة، هذه اليد التي ترتب الضفائر؛ لم تكن معتنى بها جيداً ومحافظاً عليها جيداً مثل أيدي النساء في الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه هانز كاستورب. عريضة نوعاً، ذات أصابع قصيرة وبدينة، كان فيها شيء بدائي وطفولي، شيء، الواقع، يمت بصلة لطالبة مدرسة. الأظافر، كما هو واضح، لم تكن تعرف شيئاً عن فن مُقلّمة الأظافر، كانت مقصوصة بإسلوب تلميذة مدرسة يصلح لمجرد «تمشية الحال»، وبدا جلد الجانب تقريباً كما لو انها مارست تلك العادة الطفولية في عض الأصابع. غير ان هانز كاستورب أحس بذلك ولم يشاهده، بسبب المسافة التي كانت تفصله عنها. الفتاة المتقاعسة حَيّت زملاء مائدتها بإيماءة رأس، واتخذت موقعها في الجانب الداخلي من المائدة جاعلة ظهرها باتجاه الغرفة، متاخمة الدكتور كروكوفسكي الذي كان يجلس عند رأس المنضدة. حين فعلت ذلك، أدارت رأسها، واليد ما تزال مرفوعة اليه، صوب حجرة الطعام وألقت على الجالسين نظرة عامة؛ كانت لـ هانز كاستورب فرصة للملاحظة الزائلة بأن عظام وجنتيها عريضة وان عينيها ضيقتان. ـ ذكرى غامضة لشيء ما، لشخص ما، أثارته قليلاً وبصورة زائلة بينما كان ينظر إليها.

«طبعاً، أنثى!» فكر، أو بالأحرى قال مهمهماً، بحيث ان المدرّسة

الآنسة انجيلهارت، فهمت كلامه. المسكينة العانس العجوز ابتسمت بعاطفة.

«تلك هي مدام شوشا»، قالت. «هي جد طائشة. إنسانة رائعة.» وأمسى التورد الناعم في خديها أكثر دكنةً ـ ويحصل هذا كلما تحدثت.

«فرنسية؟» سأل هانز كاستورب بتجهم.

«لا، انها روسية»، جاء الرد. «زوجها في الأرجح فرنسي، أو من أصل فرنسي، لستُ متيقنةً من ذلك.»

سأل هانز كاستورب، وهو ما يزال مستثاراً، ما إذا كان زوجها هو ـ أشار الى رجل نبيل ذي كتفين منحنيتين جلس الى المائدة الروسية «الجيدة».

«أوه، لا»، أجابت المدرّسة، «هو غير موجود هنا؛ لم يأتِ الى هنا أبداً، لا أحد يعرفه.»

«يلزمها أن تتعلم كيف تغلق الباب»، قال هانز كاستورب. «هي دوماً تجعله ينصفق منغلقاً. هذا نموذج للتنشئة السيئة.»

وتقبلت المدرسة باعتدال هذا التوبيخ كما لو انها هي نفسها كانت المذنبة، ولم يكن هناك المزيد من الكلام عن مدام شوشا.

أما الحادثة الثانية فهي الغياب المؤقت للدكتور بلومينكول عن الحجرة ـ ولا شيء أكثر. الاشمئزاز المعتدل المعقول البادي على وجهه تعمق بصورة مفاجئة، نظر بثبات أكثر حزناً في الفراغ، ثم بطريقة غير بارزة للعيان حرك كرسيه الى الوراء وخرج. في حين كشفت التنشئة الأساسية السيئة للسيدة شتور نفسها في أكثر الأضواء وضوحاً، أغلب الظن كان ذلك نابعاً من الاقتناع السوقي بالحقيقة التي مفادها انها كانت أقل مرضاً من الدكتور بلومينكول. أرفقت خروجه بتعليقات نصف مشفقة ونصف راشحة بالازدراء.

«إنسان مسكين»، قالت. «حالاً سيلفظ أنفاسه الأخيرة. يلزمه أن يذهب للتحدث مع [رايته الزرقاء][٢٦].»

ببلادة حس تامة، من دون اشمئزاز، أوردت العبارة الغريبة ـ هانز

(٢٦) الراية الزرقاء Blue Peter: راية زرقاء تُرفع عند إقلاع السفينة التجارية. هذه الراية يكون في وسطها مربع، وتُرفع على السارية الأمامية ـ المترجم.

كاستورب أحس بمزيج من المقت والرغبة في الضحك. في الوقت الحاضر عاد الدكتور بلومينكول بالطريقة غير البارزة للعيان ذاتها، اتخذ موقعه، وشرع يتناول الطعام. هو أيضاً أكل كثيراً، طبقين من كل صنف، دوماً في صمت، بالسيماء الكئيبة ومشغولة البال ذاتها.

هكذا بلغت وجبة منتصف النهار نهايتها. شكراً للخدمة الحاذقة ـ كانت القزمة عند مائدة هانز كاستورب واحدة من أسرع النادلات في تلبية طلبات الضيوف ـ استمرت الوجبة نحو ساعة من الزمن. متنفساً بمشقة، غير واثق تماماً من كيفية صعوده درجات السلّم، استلقى هانز كاستورب مرة أخرى في كرسيه الممتاز في شرفته؛ بعد هذه الوجبة كانت هناك الاستراحة ـ العلاج حتى حلول وقت شرب الشاي ـ وهو الوقت الأكثر أهمية والمرتبط بقوة بمدة الراحة في النهار. بين جدران الزجاج المعتمة التي تفصله عن جهة يواكيم، ومن الناحية الأخرى عن الزوجين الروسيين، اضطجع وجعل يحلم بتكاسل، كان قلبه يقرع بعنف، متنفساً من طريق الفم. باستخدامه لمنديله اكتشف انه ملطخ بالدم الأحمر، لكنه لم يكن يملك القدرة الكافية على التفكير في هذه الحقيقة، مع انه كان مستسلماً بعض الشيء للقلق على نفسه، وكان بطبعه ميالاً الى وسواس المرض. مرة أخرى أشعل سيجار ماريا مانسيني، وهذه المرة دخنه حتى النهاية، بغض النظر عن مذاقه. مصاباً بالدوار ومغتماً، فكّر، كما لو في حلم، في الأحاسيس الغريبة التي شعر بها منذ مجيئه الى هنا في الأعالي. اهتز صدره مرتين أو ثلاثاً بضحك داخلي على التعبير المروّع الذي استخدمته تلك الإنسانة الجاهلة، السيدة شتور.

السيد ألبين

تحت، في الحديقة، العلم الغريب بشعار الطبابة رفع نفسه المرة تلو المرة في نسمة الريح. كانت السماء مرة أخرى ملبدة بالغيوم بالتساوي. الشمس غابت، وأضحى الهواء معتدل البرودة بصورة قاسية. بدا رواق الاستراحة العمومي ممتلئاً، الكلام والضحك مستمران في الأسفل. «سيد

ألبين، أتوسل إليك، اطرح سكينك جانباً؛ ضعها في جيبك، ستقع لك حادثة بسببه»، تضرع إليه صوت عالٍ غير واثق. ثم: «عزيزي سيد ألبين، في سبيل الله، حافظ على أعصابنا، وابعد تلك الأداة القاتلة عن أنظارنا»، قاطع صوت ثانٍ.

رجل أشقر في مقتبل العمر، يضع سيجارةً في فمه، جالساً في الكرسي المريح الخارجي، أجاب بوقاحة: «لا تفكرن في ذلك! أنا متأكد أن النساء ليس لهن الجرأة على منعي من تسلية نفسي قليلاً! اشتريتُ تلك السكين في كلكتا، من ساحر أعمى. كان بوسعه أن يبتلعها، ويجعل غلامه يحفر الأرض ليستخرجها على مبعدة خمسين خطوة عن المكان الذي تقف فيه. انظرن إليها ـ إنها أمضى من شفرة. ما عليكن إلا أن تمسن نصلها؛ إنها تتغلغل الى لحمكن كما لو إنها تقطع زبداً. انتظرن لحظة، سأريكن إياها عن كثب». ووقف السيد ألبين. علت صرخة. «أو بالأحرى»، قال، «سأجلب مسدسي؛ سيكون ذلك مسلياً أكثر. أداة صغيرة مثيرة ـ مفيدة أيضاً. ترسل طلقاً نارياً عبر أي شيء. ـ سأذهب لآتي به.»

«لا، لا، لا تفعل، من فضلك لا تفعل، سيد ألبين!» في صيحة عالية من أصوات عديدة. غير ان السيد ألبين كان قد خرج ليصعد الى غرفته: يافعاً جداً، طويلاً وهزيلاً، ذا وجه طفولي متورد وشريطان صغيران من سبلة جنبية قريبان من أذنيه.

«سيد ألبين»، صاح صوت امرأة من الداخل، «خذ معطفك بدلاً منه، والبسه؛ افعل ذلك لمجرد إرضائي! طوال ستة أسابيع كنتَ طريح الفراش بسبب التهاب الرئتين، والآن تجلس هنا من دون معطف، وأنت حتى لا تغطي نفسك، وتدخن السجائر! إنها [عناية إلهية] مغرية؛ قسماً بشرفي، سيد ألبين!»

فقط ضحك بهزء حين مضى، وفي غضون دقائق قلائل عاد مع المسدس بيده. المغفلات الحمقاوات أطلقن أصواتاً عالية حادة اسوأ من ذي قبل، وبدت بعضهن كما لو انهن سيثبن من كراسيهن، لففن بطانياتهن حولهن، وفررن.

«انظرن كم هو صغير ولامع»، قال السيد ألبين. «لكنني حين أضغط

عليه هنا، عندئذ يلدغ.» صيحة عالية أخرى. «بالطبع، انه محشو ـ تماماً»، واصل حديثه. «في هذا القرص هنا توجد ست خرطوشات. انه يستدير ثقباً واحداً عند كل إطلاقة. لكنني لا أحتفظ به من أجل المزاح حسب»، قال ملاحظاً ان الإحساس قد تناقص تدريجياً. جعل المسدس ينزلق في جيب صدره، جلس ثانية، قذف ساقاً فوق أخرى، وأشعل سيجارة جديدة. «بالتأكيد ليس من أجل المزاح»، كرر، وعصر شفتيه.

«لأجل ماذا ـ إذاً ـ لأجل ماذا؟» سألن، كانت أصواتهن راعشة. «رهيب!» ندت صرخة مباغتة، وأومأ السيد ألبين برأسه.

«أرى انكن بدأتن تفهمن»، قال. «الواقع، انكن على صواب، هو ذا الهدف الذي من أجله احتفظ بالمسدس»، مضى يقول بحيوية، مستنشقاً، برغم التهاب الرئتين الحديث، كتلة من الدخان وزافراً إياها ببطء ثانية. «أنا أحتفظ به في الاستعداد لليوم الذي لا أستطيع أن أتحمل فيه هذه المهزلة أكثر، ويكون لي الشرف أن أودعكن بإجلال. انه شيء في غاية البساطة. درستُ المسألة بإمعان، وأعرف بالضبط كيف أقوم بها.» علت صرخة أخرى لدى سماع تلك الكلمة. «أنا ألغي منطقة القلب، الهدف هناك غير مناسب تماماً. أفضل أن أمحق شعوري في وسطه تماماً بإدخال جسمي الغريب الصغير الفاتن مباشرة الى هذا العضو المشوق» ـ أشار السيد ألبين بسبابته الى بقعة في رأسه ذات شعر أشقر مقصوص قصاً قصيراً. «أنتِ تسددين هنا ـ» سحب المسدس المطلي بالنيكل من جيبه مرة أخرى وقرع بالماسورة على جمجمته ـ «هنا بالضبط، فوق الشريان، حتى من دون مرآة الشيء بسيط ـ».

علت عاصفة من الاحتجاج المتوسل، الممتزج مع النشيج الكئيب. «سيد ألبين، سيد ألبين، ضعه جانباً، أبعده عن صدغك، انه شيء مرعب أن يراك المرء! سيد ألبين، أنت ما تزال شاباً، سوف تتحسن صحتك، ستعود الى العالم، الجميع يحبونك! إنما إلبس معطفك واستلقِ، غطِ نفسك، تابع علاجك. لا تطرد أستاذ الاستحمام في المرة القادمة حين يأتي ليدعك جسمك بالكحول. وتوقف عن تدخين السجائر ـ سيد ألبين، نحن نناشدك، من أجل شبابك، من أجل حياتك النفيسة!».

غير ان السيد ألبين كان عنيداً. «كلا، كلا»، قال، «إتركنني وحدي، أنا على ما يرام، شكراً. لم أرفض طلباً لامرأة على الإطلاق، لكنكن تدركن انه شيء غير جيد محاولة التدخل في مصير إنسان ما. أنا في عامي الثالث هنا في الأعالي. أنا مشمئز من هذا المكان، إنهم يغذونني جيداً، لم أعد قادراً على لعب المباراة ـ هل تلمنني على ذلك؟ أنا أجلس أمامكن، أيتها السيدات، حالتي غير قابلة للشفاء؛ هوفرات نفسه لم يعد يبذل جهداً كي يدعي بأنني لستُ قابلاً للشفاء. امنحنني الحرية فهي الشيء الوحيد الذي أستطيع الحصول عليه من هذا الوضع. في المدرسة، حين يستقر الرأي على عدم نجاح طالب ما الى المرحلة الدراسية التالية، يتوقف هو فقط في مكانه؛ لا أحد يوجه إليه أسئلة أخرى، لا يتوجب عليه أن يقوم بأي عمل إضافي. حالتي أشبه بذلك؛ أنا في تلك الحالة السعيدة الآن. لا أحتاج الى عمل شيء آخر، لا أعذ، يمكنني أن أضحك على كل شيء. هل ترغبن ببعض الشوكولاته؟ خذن شيئاً منها، لا، لن تسرقنني، بحوزتي أكداس منها في حجرتي، ثمان علب، وسبعة ألواح من غالا ـ بيتر وأربعة أرطال من لنت. سيدات المصح أعطينني إياها حين كنتُ مصاباً بالتهاب الرئتين ـ».

من مكانٍ ما سمع صوتاً جهيراً، آمراً بالتزام الهدوء. أطلق السيد ألبين ضحكة قصيرة، ضحكة مرهقة، مرتعشة؛ ثم ساد السكون في رواق الإستراحة، سكون أشبه بسكون حلم زال نهائياً، سكون خيال اختفى الى الأبد. بعدها تصاعدت الأصوات من جديد، بدت غريبة في السكون. هانز كاستورب أصغى الى أن خمدت تماماً. كان له مفهوم شخصي غامض مفاده ان السيد ألبين كان رجلاً أحمق، مع ذلك لا يقدر أن يقاوم شعوراً بالحسد منه. بالأخص، ان مقارنة أيام المدرسة تركت انطباعاً فيه؛ هو نفسه لصق في التسلسل الثاني قبل الأخير وتذكّر هذا الموقع جيداً، بطبيعة الحال لم يكن يخجل منه كما ان ذلك لم يكن يخلو من الجانب المضحك. تذكّر هو، بالأخص، الإحساس المقبول بأنه ضائع ومخذول تماماً، والذي معه، في الربع الرابع، تخلى عن الركض ـ كان بوسعه «أن يضحك على كل شيء». كانت أفكاره غامضة ومشوشة، من الصعب تعريفها، لكن في الظاهر بدت

له، مع ان الشرف قد يمتلك بعض الحسنات، إلا ان العار يملك جملة حسنات وهي ليست أدنى منزلة: حسنات، حتى، إنها كانت تقريباً بلا حدود في مداها. حاول أن يضع نفسه في مكان السيد ألبين ويرى كيف يتوجب أن يشعر المرء حين يتخلص أخيراً من عبء الحياة المحترمة وان يتحرر من العوالم اللانهائية للعار؛ وارتعد الشاب بسبب الموجة الوحشية للحلاوة التي اكتسحته لدى هذه الفكرة ودفعت قلبه المرهق الى مزيد من سرعة الخطو.

الشيطان يقدم اقتراحات تمس شرفنا

بعد مدة قصيرة فقد وعيه. كانت الثالثة والنصف في ساعته اليدوية حين أيقظته أصوات آتية من وراء حاجز الزجاج في الناحية اليسرى. الدكتور كروكوفسكي في هذه الساعة يقوم بجولاته على المرضى وحيداً، وكان يتكلم بالروسية مع الزوجين الفظين في الشرفة المجاورة، سائلاً الزوج عن صحته، كما بدا، ومعايناً جدول حرارته. لم يكمل، على أية حال، طريقه عبر الشرفات، بل إلتف حول حاجز هانز كاستورب، ماراً على طول المجاز وداخلاً حجرة يواكيم من الباب. شعر هانز كاستورب ببعض الاستياء لأن كروكوفسكي دار حوله وتركه ـ حتى ان الحديث الخصوصي مع الرجل النبيل كان شيئاً لا يشتاق إليه أبداً. بالطبع كان هو معافى، لم يكن هو من ضمن النزلاء الآخرين؛ هنا في الأعالي، فكّر ملياً، ان الرجل السليم المعافى هو الذي لا يُحصى، هو الذي لا ينال الانتباه ـ وجد الشاب هذا الأمر مزعجاً الى حد بعيد.

مكث الدكتور كروكوفسكي عند يواكيم دقيقتين أو ثلاثاً؛ ثم مر بصف الشرفات، وسمع هانز كاستورب ابن خالته يقول انه آن أوان النهوض والاستعداد لشرب الشاي.

«حسن»، أجاب، ونهض. لكنه مصاب بالدوار جراء الاستلقاء الطويل، وان النوم الخفيف غير المنعش جعل وجهه يشتعل من جديد، مع ذلك شعر بالقشعريرة، أغلب الظن لأنه لم يكن مغطى جيداً جداً خلال استلقائه.

غسل عينيه ويديه، مشط شعره، رتب ثيابه، والتقى يواكيم خارجاً في المجاز.

«هل سمعت سيد ألبين ذلك؟»، سأله، بينما هما ينزلان درجات السلّم.

«ينبغي لي أن أقول نعم»، أجاب ابن خالته. «هذا الرجل يجب تأديبه ـ فقد أفسد مدة الاستراحة كلها بثرثرته، وأثار السيدات بحيث أخّر شفاءهن أسابيع عديدة. انه نموذج للعصيان الفاضح. لكن مَنْ هناك كي يشجبه؟ على العكس، هذا النوع من الأشياء يقدم تسلية مرحباً بها.»

«هل تعتقد انه سيفعلها حقيقة ـ أن يطلق النار على نفسه؟ إنها [مسألة بسيطة جداً]، إذا ما استخدمنا كلماته.»

«أوه»، أجاب يواكيم، «المسألة ليست مستحيلة هكذا، إنها شيء يدعو للأسف. أشياء كهذه تحدث هنا في الأعالي. قبل مجيئي بشهرين شنق طالب جامعي أمضى هنا مدة طويلة نفسه في الغابة تحت بعد فحص عام. كانوا ما يزالون يتحدثون عنه كثيراً في الأيام المبكرة لمجيئي.»

هانز كاستورب فغر فاه بتأثر. «حسن»، أعلن «أنا بالتأكيد أبعد ما أكون عن الإحساس بكوني سليماً هنا في الأعالي. لا أستطيع أن أقول أنني سليم. في اعتقادي انه من الممكن جداً أن لا أكون قادراً على البقاء، أي أنني يجب أن أرحل ـ أنت لن تمتعض من هذه الفكرة، أليس كذلك؟»

«ترحل؟ ماذا دهاك؟» صاح يواكيم. «هراء. أتيتَ تواً. لا تستطيع أن تطلق حكماً من أول يوم!»أ

«استغفر الله، أما يزال هو اليوم الأول فقط؟ يبدو لي انني هنا في الأعالي منذ أمد بعيد.. دهور.»

«لا تبدأ بالتفلسف ثانيةً حول الزمن»، قال يواكيم. «أربكتني تماماً هذا الصباح.»

«لا، لا تقلق، نسيتُ كل ما يتعلق به»، رد هانز كاستورب. «[الكل المركّب] بأسره. فقدتُ كل صفاء الذهن الذي كنت أملكه ـ ذهب كله. حسن، حان وقت الشاي إذاً.»

«نعم؛ وبعد شرب الشاي سنتمشى حتى المصطبة ثانية، كما في الصباح.»

«مثلما تقول. أتمنى فقط أن لا نلتقي سيتيمبريني من جديد. أنا غير مستعد للمزيد من الحوار المثقف. يمكنني أن أخبرك بذلك سلفاً.»

عند وقت الشاي تم تقديم كل الأشربة التي يمكن تقديمها عند تلك الوجبة. الآنسة روبنسون شربت ثانية شرابها المخمر المصنوع من ثمر الورد البري، حفيدة الأخت غرفت لبنها المصفى بالملعقة. كان هناك حليب، شاي، قهوة، شوكولاته، وحتى مرق؛ وفي كل دورة كان النزلاء، المستيقفون حديثاً من استرخاء استغرق نحو ساعتين بعد غدائهم الثقيل، مشغولين بنشر الزبد على شرائح كبيرة من كيك الزبيب.

هانز كاستورب اختار الشاي، وغمس فيه البقسماط[٢٧]، وتذوق أيضاً شيئاً من مربى الفاكهة. تأمل كيك الزبيب بعين راغبة، لكنه واقعياً ارتعد لدى فكرة تناول حتى ولو قطعة صغيرة منه. مرةً أخرى جلس هنا في مكانه، في هذه الحجرة المعقودة بزخارفها الزاهية إنما البسيطة، وبموائدها السبع. كانت تلك المرة الرابعة. في ما بعد، وعند الساعة السابعة مساء، جلس هنا من جديد للمرة الخامسة، وكانت تلك وجبة العشاء. في المدة الفاصلة الموجزة والعابثة قام ابنا الخالتين بجولة حتى المصطبة في جانب الجبل، جنب المجرى المائي الصغير. كان الدرب مليئاً بالمرضى؛ كان من دأب هانز كاستورب أن يرفع قبعته للعديد منهم. تبع ذلك آخر مدة للاستراحة في الشرفة، كانت هناك مدة فاصلة شاردة وخالية أمدها ساعة ونصف.

لبس ثيابه بضمير حي استعداداً لوجبة المساء، وجالساً في مكانه بين الآنسة روبنسون والمدرّسة، تناول: حساءً يحتوي على رقاقات من الخضر، لحماً محمصاً ومشوياً مع الملحقات المناسبة، قطعتين من (التارت)[٢٨]

(٢٧) البقسماط Zweiback (باليونانية): ضرب من الخبز يقطع الى شرائح ثم يُحمص في الفرن ـ المترجم.

(٢٨) الترتة tart: كعكة محشوة بالمربى أو الفاكهة المطبوخة ـ المترجم.

المصنوعة من المعكرون[٢٩]، (كريم) الزبدة، الشوكولاته، مربى ومرزبانية[٣٠]، وأخيراً جبناً ممتازاً وخبز الأرز[٣١]. كما في السابق، طلب زجاجة (كولمباخر). لكن، في الوقت الذي كان قد أفرغ فيه نصف كأسه الطويلة، أدرك بصورة جلية وبينة ان السرير هو أفضل مكان له. هدر رأسه، كان جفناه كالرصاص، وجعل قلبه يقرع كمجموعة من النقاريات، وشرع يعذب نفسه بالشك الذي مفاده ان ماروسيا الجميلة، التي كانت منحنية فوق طبقها مغطية وجهها باليد التي لبستْ فيها خاتم الياقوت، كانت تضحك عليه ـ مع انه بذل مجهوداً هائلاً بأن لا يدع فرصةً للضحك. من مسافة بعيدة سمع السيدة شتور تقول، أو تؤكد، شيئاً بدا له هراءً تاماً، بحيث انه كان واعياً بشك يائس في ما إذا سمع بصورة صحيحة، أو ما إذا حوّل كلامها الى هراء في عقله المشوش. كانت تؤكد انها تعرف كيف تصنع ثمان وعشرين صلصة مختلفة تقدم مع السمك؛ وسوف تخاطر بسمعتها بسبب هذه الحقيقة، مع ان زوجها حذرها بعدم التكلم عنها: «لا تتكلمي عن ذلك»، قال لها؛ «لن يصدقها أحد، أو، إذا ما صدقوها، فإنهم ببساطة سيضحكون عليك!» ومع ذلك تقولها هي، تقولها مرة وللجميع، بأنها قادرة على صنع ثمان وعشرين صلصة سمك. بدتْ كلها، لبطلنا هانز كاستورب مجنونةً جداً بحيث أنها غير جديرة بالقول، أمسك جبينه بيده، وباندهاله نسي تماماً فأكل لقمة من خبز الأرز وما زال أمامه أن يمضغ cheshire ويبلعه. حين نهض من المائدة، كان ما يزال في فمه.

خرجا من باب الزجاج الأيسر، ذلك الباب القاتل الذي كان يُضرب بعنف دوماً، والمفضي مباشرة الى الرواق الأمامي. كل النزلاء تقريباً مضوا في الطريق نفسه، بدا بعد وجبة العشاء، ان قدراً معيناً من الإتصال الاجتماعي قد جرى في الرواق وفي الأبهاء المجاورة. معظم المرضى وقفوا

(٢٩) المعكرون macaroon: حلوى من مسحوق اللوز والسكر وزلال البيض ـ المترجم.

(٣٠) مرزبانية marzipan: خبز من مسحوق اللوز والسكر وزلال البيض ـ المترجم.

(٣١) خبز الأرز pumpernickel: خبز خشن حامض بعض الشيء يُعد من أرز غير منخول ـ المترجم.

في مجاميع صغيرة يتحادثون في غير كلفة. بدأت الألعاب عند منضدتين طويلتين خضراوين: عند الأولى دومينو؛ وعند الثانية، البريدج، وعند هذه المنضدة الشبيبة وحدهم الذين كانوا يلعبون الورق، بينهم هرمينه كليفيلد والسيد ألبين. في البهو الأول كانت هناك تسليات بصرية مُلهية: أولاً مجسام، وراء عدساته يدخل المرء صورة فوتوغرافية ـ مثلاً، كانت هناك صورة لجندول فينيسي ـ وعند النظر من خلال المِجسام، ترى الصورة بارزة في المدى، نابضة بالحيوية، مع انها فاقدة الدم؛ كان هناك أيضاً مشكال ـ تضع عينك على العدسة وتدير قليلاً عجلة ما، فترى كل أنواع النجوم والزخارف العربية زاهية الألوان ترقص وتتقذف أمامها بالتغير السريع للسحر. كانت الثالثة طبل دوار تدخل فيه شريطاً من فيلم سينمائي وتنظر من خلال الفتحات بينما هو يدور، وترى طحاناً يتصارع مع منظف مداخن، معلماً يضرب غلاماً، بهلواناً واثباً ورجلاً وامرأة من الريف يرقصان رقصة فولكلورية. هانز كاستورب، ويداه باردتان على ركبتيه، نظر طويلاً في كل واحدة من هذه الاختراعات. توقف مدة وجيزة عند منضدة الورق، حيث جلس السيد ألبين، غير القابل للشفاء، زوايا فمه مسحوبة الى الأسفل، يمسك الورق بسيماء متكبرة لرجل دنيوي. في ركنٍ ما جلس الدكتور كروكوفسكي، مستغرقاً في حوار منعش وحماسي مع نصف حلقة من السيدات، بينهن السيدة شتور، السيدة ألتيس والآنسة ليوي. شاغلو المائدة الروسية «الجيدة» انسحبوا الى بهو صغير مجاور، مفصول عن حجرة القمار بوساطة ستر، حيث شكلوا زمرة صغيرة ومنفصلة، تتكون، إضافة الى مدام شوشا، من شاب ضعيف البنية، أشقر اللحية ذي صدر غائر ومقلتين جاحظتين؛ شابة سمراء بشكل واضح، ذات وجه مضحك وأصيل، قرطان من الذهب، وشعر هائج شبيه بالصوف؛ بجانب هؤلاء الدكتور بلومينكول، الذي انضم الى حلقتهم، وشابان آخران بأكتاف محنية. كانت مدام شوشا ترتدي ثوباً نسائياً أزرق اللون ذا ياقة بيضاء من الدانتيلا. جلست هي، قلب مجموعتها، على الكنبة خلف الطاولة المستديرة، عند قاع البهو الصغير، وجهها ملتفت صوب حجرة الورق. هانز كاستورب الذي لم يكن بوسعه

النظر الى الإنسانة الفظة من دون استهجان، قال لنفسه: «إنها تذكّرني بشيء ما، لكنني لا أستطيع أن أقرر ما هو.»

رجل طويل في الثلاثينيات من عمره، أصلع الرأس، عزف مارش الزفاف[٣٢] من «حلم ليلة منتصف صيف»[٣٣] ثلاث مرات من غير انقطاع، على البيانو الصغير البني، وبإلحاح من بعض السيدات، بدأ يعزف القطعة اللحنية للمرة الرابعة، محدّقاً بعمق وصمت في عيونهن، الواحدة تلو الأخرى.

«هل تسمح لي، حضرة المهندس، أن أسألك عن صحتك؟» سأل سيتيمبريني، الذي كان يتسكع وسط النزلاء الآخرين، يداه في جيبيه، وها هو ذا يظهر نفسه أمام هانز كاستورب. كان ما يزال يرتدي سترة الطيار والسروال ذا المربعات. ابتسم خلال حديثه، وشعر هانز كاستورب من جديد بالمظهر الرزين لتلك الالتفاتة الجميلة والساخرة للشفة الكائنة تحت الشاربين الأسودين المتموجين. نظر ببلاهة بعض الشيء الى الإيطالي، بفمٍ رخو وعينين بأوردة حمر.

«أوه، هذا أنتَ!» قال. «النبيل الذي التقيناه هذا الصباح خلال مسيرتنا ـ-عند تلك المصطبة هناك ـ قرب الـ ـ نعم، عرفتك فوراً. هل تصدق»، مضى يقول، مع كونه واعياً بأن ما يقوله شيء أخرق، «هل تصدق، إنني حسبتك عازف أرغن يدوي حين رأيتك أول مرة؟ بالطبع، هذا هراء تام»، أضاف، وهو يرى تعبيراً متسائلاً بفتور على محيا سيتيمبريني. «شيء أحمق تماماً. لا أستطيع أن أفهم كيف تسنى لي ـ».

«لا تزعج نفسك، أنا لا أبالي»، رد سيتيمبريني، بعد أن ألقى على الشاب نظرة ثابتة وقتية مركّزة.

---

(٣٢) مارش الزفاف wedding march: لحن يُعزف في موكب العرس ـ المترجم.

(٣٣) حلم ليلة منتصف صيف Midsummer Night's Dream: مسرحية من تأليف وليم شكسبير، ألف بها مندلسون مقطوعة موسيقية في سنة ١٨٢٦، وموسيقى ثانوية بضمنها مارش الزفاف سنة ١٨٤٢. موسيقى ثانوية للمسرحية كُتبت أيضاً من قبل أورف ـ المترجم.

«طيب، وكيف أمضيت يومك، أول يوم من إقامتك المؤقتة في هذا المنتجع الخليع؟».

«شكراً جزيلاً ـ على وفق القواعد»، أجاب هانز كاستورب. «غلبتْ عليه الصفة [الأفقية]؛ كما سمعت انك تفضل اطلاق هذه التسمية عليه.»

ابتسم ستيمبريني. «ربما اغتنمتُ الفرصة للتعبير عن نفسي بتلك الطريقة»، قال. «طيب، ووجدته مسلياً، هذا النمط من الوجود؟»

«مسلياً أو غبياً، يمكنك أن تختار أي الاثنين»، أجاب هانز كاستورب. «ليس من اليسير جداً، دوماً، أن تقرر أيهما. على أي حال، لم أكن ضجراً؛ هناك حوادث حيوية جداً هنا في الأعالي. أشياء كثيرة جديدة وغير اعتيادية تسمعها وتراها ـ ومع ذلك، بطريقة أخرى، يبدو كما لو أنني هنا من زمن طويل، بدلاً من يوم واحد فقط ـ كما إنني غدوتُ أكبر سناً وأكثر حكمةً منذ مجيئي ـ هذه هي الكيفية التي أشعر بها.»

«أكثر حكمة، أيضاً؟» سأل سيتيمبريني، ورفع حاجبيه. «هل تسمح لي أن أسألك كم يبلغ عمرك؟».

وانظر، هانز كاستورب لا يستطيع أن يقول: في تلك اللحظة لم يكن يعرف كم يبلغ عمره، بالرغم من الجهود الشاقة، وحتى اليائسة التي بذلها في التفكير في نفسه. من أجل كسب الوقت جعل السؤال يتكرر، ومن ثم أجاب: «أنا؟ كم يبلغ عمري؟ في سنتي الرابعة والعشرين، بالطبع. سأبلغ قريباً الرابعة والعشرين. أستميحك عذراً، لكنني متعب جداً»، مضى قائلاً. «ليست [متعب] هي الكلمة المناسبة. أتدري كيف تكون الأمور عندما تحلم، وتعلم انك تحلم، وتحاول أن تستيقظ ولا تقدر؟ هذه هي على وجه الدقة الكيفية التي أشعر بها. لا بد أن حرارتي مرتفعة؛ وإلا أنا ببساطة لا أستطيع أن أفسرها. تصوّر، ان قدمي باردتان حتى الركبتين. إذا ما جاز لي القول، ان ركبتيّ المرء غير قدميه ـ اعذرني، أنا مشوش بالكامل، ولا عجب، آخذاً بعين الاعتبار إنهم كانوا يصفرون لي عند الصباح مع الإ ـ الإ ـ ستروراح الصدري، وفي العصر تعين عليّ أن أصغي الى السيد ألبين هذا ـ أفقياً، فوق هذا كله! يبدو لي أنني لم أعد قادراً بعد الآن على أن أثق بحواسي الخمس،

وعليّ أن أعترف ان هذا يزعجني أكثر من قدميّ الباردتين والحرارة التي في وجهي. قل لي صراحةً: هل تعتقد ان بمستطاع السيدة شتور أن تصنع ثمانية وعشرين صلصة سمك مختلفة؟ لا أعني ما إذا كانت قادرة حقاً على صنعها. أعتبر هذا شيئاً مستحيلاً ـ أعني إذا قالت هي عند المائدة تواً إنها قادرة على صنعها، أم أنني تصورت فقط إنها فعلت ـ هذا هو كل ما وددتُ معرفته.»

سيتيمبريني نظر إليه. بدا عليه انه لم يكن يصغي. ثانية كانت عيناه تبصران، كانتا تنظران نظرات ثابتة، وقال: «نعم، نعم، نعم» و«فاهم، فاهم، فاهم»، كل كلمة قالها ثلاث مرات، كما فعل في الصباح، في نبرةٍ معبّرة، ساخرة، ومنح صوتاً حاداً لحروف الميم.

«أربعاً وعشرين؟» سأل بعد مدة وجيزة.

«لا، ثمانية وعشرين»، قال هانز كاستورب. «ثمانية وعشرين صلصة سمك. ليست صلصات عامة، بل صلصات خاصة بالسمك ـ هذا هو الجانب الهائل في المسألة.»

«حضرة المهندس» قال سيتيمبريني بحدة، وبغضب تقريباً. «استرد قوتك وتوقف عن قول هذا الهراء المشوّش. لا أعرف شيئاً عن هذا الموضوع، ولا أرغب بمعرفة شيء عنه. أنت في سنتك الرابعة والعشرين، قلت ذلك؟ هِمم. اسمح لي أن أطرح سؤالاً آخر، أو بالأحرى، إذا تكرمتَ بالسماح لي، أن أقترح. طالما ان إقامتك معنا في الأعالي لا تبدو مفضية الى شيء ما، بما انك لا تشعر بالارتياح، لا جسدياً ولا، ما لم أخطئ، عقلياً، كيف ستكون الأمور إذا ما أنكرتَ إمكانية الكبر على هذه البقعة ـ باختصار، ماذا لو انك حزمت حقائبك الليلة وتهيأت للمغادرة صباحاً في أول قطار مناسب؟»

«تعني إنني يجب أن أرحل؟» سأل هانز كاستورب؛ «في الوقت الذي ما كدت أصل فيه؟ لا، لِمَ ينبغي لي أن أحكم من أول يوم؟».

حدث، خلال كلامه، أن وجه نظره الى الحجرة التالية، ورأى وجه السيدة شوشا الكامل، بعينيه الضيقتين وعظام وجنتيه العريضتين. «ما هو الشيء، يا ترى، ما هو أو مَنْ هو الذي ذكرتني به؟» غير ان عقله المرهق، بالرغم من الجهد الذي بذله، رفض إعطاء أي جواب.

«بطبيعة الحال»، استطرد قائلاً، «حقيقي ليس من اليسير لي أن أتأقلم هنا في الأعالي. غير ان هذا شيء متوقع. أنا أخجل من أن أتنازل بسرعة وأرحل هكذا، لمجرد إنني شعرت بوعكة صحية وبأنني محموم على مدى أيام قلائل. سأشعر بأنني جبان تماماً. سيكون ذهابي شيئاً عديم المعنى، أنت نفسك اعترفتَ بهذا، أليس كذلك؟».

تكلم بإلحاح مفاجئ، هازاً كتفيه باهتياج ـ بدا عليه انه يرغب بأن يجعل الإيطالي يسحب اقتراحه.

«أنا أكن كل الإجلال الى العقل» أجاب سيتيمبريني. «أكن الإجلال الى البسالة أيضاً. ما تقوله يبدو جيداً؛ من العسير أن نضع ضده كل ما هو مقنع. أنا نفسي رأيت حالات جميلة للتأقلم. هناك الآنسة كنيفر، أوتيلييه كنيفر، العام الماضي. هي تنحدر من عائلة كريمة ـ هي إبنة موظف حكومي مهم. أمضت هنا نحو عام ونصف وبدأت تشعر بأنها في بيتها حين استعادت عافيتها تماماً ـ يحدث، هنا في الأعالي؛ يتماثل الناس للشفاء غالباً ـ لم تستطع تحمل الرحيل. توسلتْ الى هوفرات أن يسمح لها بالبقاء؛ لم تستطع المغادرة ولم تغادر؛ هذا المصح كان بيتها، كانت سعيدة هنا. غير ان المكان كان ممتلئاً، كانوا يريدون حجرتها، وهكذا ذهبت كل توسلاتها سدىً؛ أصروا على إطلاق سراحها معافاة. كانت أوتيلييه تعاني من حمى عالية، كان منحني درجات حرارتها عالياً جداً. لكنهم اكتشفوها وقد استبدلت محرارها الاعتيادي. بـ [ممرضة صامتة]. لم تتعرف الى هذا المصطلح بعد؛ انه محرار بلا أرقام، يقيسه الطبيب على وفق قاعدة صغيرة، ويرسم المنحني بنفسه. أوتيلييه، سيدي العزيز، كانت حرارتها ٩٨,٤ درجة فهرنهايت، كانت طبيعية. ثم مضت لتستحم في البحيرة ـ كان الوقت مطلع أيار (مايو)، كان عندنا صقيع ليلاً؛ لم يكن الماء بارداً كالثلج على وجه الدقة، قل درجات قلائل أعلى. بقيت بعض الوقت في الماء، ساعيةً الى التقاط مرضٍ ما أو غيره ـ للأسف، كانت هي، وظلت، سليمة تماماً. غادرت في كربٍ ويأس، كانت تصم أذنيها لكل المواساة التي كان يقدمها إليها أبواها. [ما الذي أفعله هناك؟] كانت تهتف باستمرار. [هذا بيتي!] لم أسمع ماذا جرى لها ـ لكنك

لا تصغي، أيها المهندس. ما لم أكن على خطأ كبير، ببساطة لأن قدميك ما زالتا تكلفانك جهداً. أيها الملازم!» وجه كلامه الى يواكيم، الذي كان آتياً الآن. «خذ ابن خالتك واجعله ينام في سريره. انه يوحّد فضيلتي الشجاعة واللطف ـ لكنه الآن فقط سكران قليلاً.»

«لا، حقاً، فهمتُ كل ما قلته»، احتج هانز كاستورب. «[الممرضة الصامتة] هو محرار طبي زئبقي بلا أرقام ـ رأيت، استوعبت كل شيء.»

لكنه دخل المصعد مع يواكيم ومرضى آخرين أيضاً، ذلك ان المرح وتناول الطعام والشراب مع الأصدقاء لذلك المساء قد انتهى، افترق النزلاء ليبحثوا في الأروقة والشرفات عن علاج المساء. دخل هانز كاستورب حجرة ابن خالته. أرض المجاز، مع قطعتها الطويلة المصنوعة من حصير جوز الهند الضيق، انتفخت تحت قدميه، لكن هذه بغض النظر عن تفردها، لم تكن غير سارة. جلس في كرسي يواكيم الكبير المورّد ذي المسندين ـ يوجد واحد مثله في حجرته هو ـ وأشعل سيجاره ماريا مانسيني. كان طعمه أشبه بطعم الغراء، طعم الفحم، طعم أي شيء آخر عدا الطعم الذي يجب أن يكون عليه. مع ذلك واصل التدخين، بينما كان يراقب يواكيم وهو يستعد لعلاجه، لبس سترة البيت، ثم معطفاً قديماً، ثم، متسلحاً بمصباحه الليلي والكتاب الأول لتعلّم الروسية، مضى الى الشرفة. أشعل المصباح، استلقى ومحراره في فمه، وبدأ، ببراعة يدوية مدهشة، يلف نفسه ببطانيتي وبر الجمل اللتين كانتا منشورتين على كرسيه. نظر هانز كاستورب باعجاب مخلص الى براعته. رمى البطانيتين فوقه، الواحدة تلو الأخرى: أولاً من الجهة اليسرى، على طولهما حتى كتفيه، ثم من القدمين صعوداً، ثم الجهة اليمنى، بحيث كوّن، حين انتهى، رزمة متضامة محكمة، برز منها رأسه وكتفاه وذراعاه لا غير.

«يا للحذق الذي فعلتَ به ذلك!» قال هانز كاستورب.

«هي ذي الخبرة التي اكتسبتها»، أجاب يواكيم، قابضاً على المحرار بين أسنانه كي يتكلم. «سوف تتعلم. غداً ينبغي لنا بالتأكيد أن نحصل لك على زوج من البطانيات. يمكنك استخدامهما في ما بعد في البيت، وهنا في الأعالي لا غنى لك عنهما، وخاصة ليس عندك كيس النوم.»

«لن أستلقي في الشرفة »، أعلن هانز كاستورب. «يمكنني أن أخبرك بذلك حالاً. يبدو لي ذلك شيئاً غريباً تماماً. كل شيء له حدوده. يلزمني أن أرسم الحد الفاصل في مكانٍ ما، طالما إنني هنا حقاً في زيارة. سأجلس هنا مدة قصيرة وأدخن سيجاري بالطريقة الاعتيادية. طعمه كريه، لكنني أعرف انه جيد، وسيكون نافعاً لي اليوم. الوقت يقترب من التاسعة ـ لا بل الساعة هي التاسعة تماماً، وهذا شيء يدعو للأسف، ولكن حين تبلغ التاسعة والنصف، يكون الوقت قد تأخر بشكلٍ كافٍ بالنسبة لرجل ينبغي له الذهاب الى السرير في الأقل بصورة نصف مقبولة.»

اجتاحته رجفة، ثم اجتاحته رجفات عديدة، الواحدة بعد الأخرى. قفز هانز كاستورب من مكانه وهرع الى المحرار المعلق على الجدار، كما لو انه يمسكه بالجرم المشهود. بحسب الزئبق، كانت حرارة الغرفة خمسين درجة فهرنهايت. قبض على المشعاع بإحكام؛ كان بارداً وخامداً. تمتم بشيء غير مترابط، الواقع انه عمل مخزٍ أن لا تكون هناك تدفئة حتى في شهر آب (أغسطس). ليست المسألة اسم الشهر، بل الحرارة التي يمتلكها، بحيث انه كان حقاً بارداً ككلب. مع ذلك كان وجهه يشتعل. جلس، وقف ثانية، وبطلب متمتم للإذن تناول غطاء سرير يواكيم ونشره فوق جسده بينما هو جالس في الكرسي. وهكذا بقي، حاراً وبارداً بالتناوب، معذباً نفسه بسيجاره المقرف. أنهكته موجة من البؤس، بدا له انه لم يحدث في حياته قط أن شعر بكونه بائساً جداً كما شعر الآن.

«ببساطة أشعر إنني بائس» تمتم. وبغتةً أثارته رعشة غير اعتيادية ونابضة بالحياة من السعادة والقلق، كان واعياً جداً بها، بحيث جلس بلا حراك ينتظر مجيئها ثانية. لم تأت ـ البؤس وحده الذي بقي. وقف أخيراً، رمى غطاء يواكيم على السرير، ونطق بشيء ما بدا أشبه بـ (ليلة هانئة): «لا تجمد نفسك حتى الموت؛ نادني ثانية في الصباح»، بصعوبة بالغة صاغت شفتاه الكلمات؛ ثم ترنح على طول المجاز المؤدي الى حجرته.

غنى لنفسه بينما كان يخلع ملابسه ـ بالتأكيد ليس تعبيراً عن زيادة في الابتهاج. آلياً من دون العناية التي كانت حقاً من حقوقهم، قام بكل الحركات

التي تكمل طقس استحمامه الليلي، سكب الغرغرة الوردية وتغرغر بحذر، غسل يديه بصابونه الأرجواني اللطيف والممتاز، وجذب قميص نومه الطويل من الباتيسته[٣٤] بحرفي H.C المطرزين على جيب الصدر[٣٥]. ثم استلقى وأطفأ النور وجعل رأسه الحار والمضطرب يهوي على وسادة موت المرأة الأمريكية.

خيل إليه انه سينام حالاً، إنما كان مخطئاً. أجفانه، التي لم يكن قادراً على رفعها، ترفض الآن الإغماض؛ كانت ترتعش مفتوحة بتمرد كلما أغمضها. حدّث نفسه انه لم يكن وقت نومه الاعتيادي؛ وانه خلال النهار أغلب الظن استراح كثيراً. بدا ان شخصاً ما كان يقرع سجادة خارج المبنى ـ وهو أمر غير محتمل جداً، وثبت انه لم يكن كذلك، كان ذلك وجيب قلبه الذي سمعه، خارج نفسه تماماً وبعيداً في الليل، بالضبط كما لو ان شخصاً ما كان يقرع سجادة بقارع من الأماليد المجدولة.

لم تكن قد اظلمتْ تماماً في الحجرة؛ الضوء المنبعث من المصابيح الصغيرة في الشرفات، مصباح يواكيم، مصباح شرفة الزوجين الروسيين، تسلل عبر باب الشرفة المفتوح. بينما كان هانز كاستورب مستلقياً هناك على ظهره يغمض عينيه ويفتحهما بسرعة، استذكر انطباعاً بين الجمهرة الذين لاقاهم ذلك اليوم، ملاحظة كان قد استنتجها، وبعدها مع الإنكماش والهشاشة حاول نسيانها. كانت تلك هي السيماء البادية على وجه يواكيم حين تحدثا عن ماروسيا ومميزاتها الجسدية ـ كان تشوهاً وجهياً حزيناً بصورة غريبة، وشحوباً مبقعاً على وجنتيه اللتين سمّرتهما الشمس. رأى هانز كاستورب وفهم ماذا عنت تلك السيماء، رأى وفهم باسلوب حديث جداً، ودي جداً، حميم جداً، بحيث ان قارع السجاد في الخارج ضاعف من جديد سرعة وقسوة ضرباته وطمس تقريباً صوت سريناد[٣٦] المساء تحت في

---

(٣٤) يمكننا أن نتصور هذا القميص الطويل شبيهاً بالدشداشة العراقية أو الجلابية المصرية أو ما شاكلهما ـ المترجم.

(٣٥) الحرفان H.C هما الحرفان الأوليان من اسم هانز كاستورب بالإنجليزية ـ المترجم.

(٣٦) السيرناد serenade: لحن يُعزف أو يغنى ليلاً في الهواء الطلق ـ المترجم.

(البلاتز) ـ فقد كانت هناك ثانية حفلة موسيقية في الفندق نفسه كما في السابق، وكانوا يعزفون لحناً منظماً بإتساق وغير ممتع أتى عبر العتمة. صفّر هانز كاستورب فاصلة موسيقية منه بصوت هامس ـ في ميسور المرء أن يصفر همساً ـ وقاس الوقت بقدميه الباردتين[٣٧] تحت منفضة الريش.

كانت تلك، بالطبع، الطريقة الصحيحة في عدم النوم، الآن لم يشعر هو بأدنى قدر من الميل للنوم. بما انه فهم في ذلك الإدراك الجديد، الذكي لماذا تغير لون يواكيم، العالم كله بدا له قد تغير، شعر بأنه مخترق للمرة الثانية بذلك الإحساس المتعلق بالسعادة المسرفة وبالقلق. وانتظر، متوقعاً شيئاً ما، من دون أن يسأل نفسه ما هو. لكنه حين سمع جيرانه على اليمين واليسار يختتمون علاجهم المسائي ويدخلون حجراتهم من جديد كي يستبدلوا الأفقي الخارجي بالأفقي الداخلي، عبّر عن قناعته بأنه في الأقل هذا المساء سوف يحافظ الزوجان البربريان على الهدوء.

«يمكنني بالتأكيد أن أخلد الى النوم من غير أن أكون منزعجاً؛ سوف يسلكان سلوكاً حسناً»، قال. لكنهما لم يفعلا، ولم يكن هانز كاستورب مخلصاً في قناعته بأنهما سيكونان كذلك. من ناحيته، الحقيقة، لن يفهم ذلك لو أنهما سلكا سلوكاً حسناً. على الرغم من ذلك، بينما هو يصغي، انغمس في تعابير صامتة عن الدهشة المطلقة.

«لا يُسمع لهما صوت»، همس. «شيء لا يُصدق ـ مَنْ كان يصدق؟» وبين علامات التعجب هذه اشترك من جديد في الموسيقى غير الممتعة التي كانت ترتفع بإلحاح من (البلاتز).

في ما بعد مضى لينام. لكن مع النوم عادت الأحلام المشوشة، حتى إنها كانت مشوشة أكثر من أحلام الليلة الأولى ـ التي كان يقفز خلالها مفزوعاً، أو يلاحق فيها وهماً مشوشاً. بدا له انه رأى هوفرات بيرنز يقطع درب الحديقة، بركبتين منحنيتين وذراعين تتدليان أمامه بصلابة، مكيفاً

---

(٣٧) يقيس الوقت beat time: (في الموسيقى) بأداء حركات نظامية باليدين أو القدمين الخ ـ المترجم.

خطواته الواسعة والمعزولة ظاهرياً بعض الشيء مع وقت موسيقى (المارش) البعيدة. حين توقف قليلاً أمام هانز كاستورب، رأى الأخير انه كان يضع عوينات بعدسات سميكة ومدورة. كان يطلق مختلف صنوف السفاسف. «رجل مدني، بالطبع»، قال، ومن دون أن يقول من إذنك، سحب جفن هانز كاستورب الى الأسفل بسبابة وابهام يده الضخمة. «رجل مدني محترم، كما رأيت حالاً. إنما لا يخلو من الموهبة، لا يخلو أبداً من موهبة في الأكسدة بدرجة عالية. لن يضن علينا بسنة واحدة، لن يضن علينا، سنة واحدة قصيرة فقط من الخدمة هنا في الأعالي. حسن، مرحباً ـ حباً! أيها النبلاء، واصلوا التمرين»، صاح، ووضع سبابتيه الهائلتين في فمه، أطلق صفيراً مسلياً بصورة خاصة، بحيث، من الجهات المقابلة الآنسة روبنسون والمدرّسة، أصغر بكثير من حجميهما الطبيعي، جاءتا طائرتين خلال الهواء وأجلستا نفسيهما يمنةً ويسرة على كتفي هوفرات، كما كانتا تجلسان الى يمين ويسار هانز كاستورب في حجرة الطعام. وانصرف هوفرات على عجل، ماسحاً عينيه خلف نظاراته بمنديل مائدة ـ لكن ما إذا كان قد مسح دموعه أم عرقه فهذا ما لا نستطيع أن نجزم فيه القول.

ثم بدا للحالم انه كان في فناء المدرسة، حيث أمضى طوال سنوات عديدة الفرص بين الحصص الدراسية، وكان يستعير قلم رصاص من مدام شوشا، التي بدا انها كانت هناك أيضاً. أعطته قلماً أحمر بنصف الطول الكامل في حامل فضة، وحذرته بصوت مقبول، أجش أن يعيده إليها بعد انتهاء الساعة الدراسية. حين نظرت إليه ـ بعينيها الزرقاوين ـ الضيقتين فوق عظمي الوجنتين العريضتين ـ انتزع نفسه بعنف من حلمه، لأنه الآن امتلكه سريعاً وقصد أن يمسك به، ذلك الأمر المتعلق بأي شيء ومن ذكرته هي بصورة حيوية تماماً. بسرعة ثبت هذه الحادثة غير المتوقعة في عقله، كي تكون راسخة حتى يوم غد. ثم هزمه مرة أخرى النوم والحلم، ورأى نفسه يهرب من الدكتور كروكوفسكي، الذي كان باقياً في انتظاره كي يجري تحليلاً نفسياً له. فرّ من الطبيب، غير ان قدميه كانتا ثقيلتين حتى الإرهاق؛ ماراً

بحواجز الزجاج، على طول الشرفات، داخلاً في الحديقة، في عمله اليائس حاول أن يتسلق سارية العلم الحمراء ـ البنية ـ واستيقظ غارقاً بالعرق لحظة قبض عليه المطارّد من ساق سرواله.

لم يكد يهدأ حين استدعاه النوم الخفيف مرة أخرى. تغير محتوى حلمه تماماً، ووقف محاولاً أن يدفع سيتيمبريني بالمنكب بعيداً عن البقعة التي كانا يقفان فيها، الإيطالي يبتسم بطريقته الماكرة، الساخرة، تحت الشاربين الكاملين المعقوفين للأعلى ـ تلك الابتسامة على وجه الدقة هي التي وجدها هانز كاستورب مؤذية جداً. «أنت شيء مزعج» سمع نفسه يقول بوضوح. «انصرف، أنت مجرد عازف أرغن يدوي، وأنتَ في الطريق هنا». غير ان سيتيمبريني لم يسمح لنفسه أن يتزحزح؛ كان هانز كاستورب ما يزال واقفاً مفكراً في ما ينبغي فعله حين يُمنح بصورةٍ غير متوقعة تبصراً رائعاً في الطبيعة الحقيقية للزمن؛ ثبت انها لم تكن سوى «أخت صامتة»، عمود زئبق من غير درجات، يُستخدم من قبل أولئك الذين يريدون خداع الآخرين. استيقظ وفي باله فكرة مفادها ان عليه حتماً إخبار يواكيم باكتشافه هذا في الغد.

في مغامرات كهذه، بين اكتشافات كهذه، ينقضي الليل بتثاقل. هيرمينه كليفيلد، فضلاً عن السيد ألبين والنقيب ميكلوسيش، لعبوا أدواراً رائعة ـ الأخير حمل بالقوة السيدة شتور خلال نوبة غضبه الشديد، التي طُعنت تماماً بوساطة رمح من قبل المحامي باراوانت. حلم خاص واحد، على أية حال، رآه هانز كاستورب مرتين خلال الليل، في كلتا المرتين بالشكل نفسه تماماً، كانت المرة الثانية قرب الصبح. جلس في حجرة الطعام ذات الموائد السبع عندما أتى الضجيج الهائل للزجاج حين أُغلق باب الشرفة بعنف، ودخلت مدام شوشا بكنزتها الصوفية الغليظة البيضاء، إحدى يديها في جيبها، الأخرى عند مؤخرة رأسها. لكن بدلاً من الذهاب الى المائدة الروسية «الجيدة»، الأنثى الغليظة انزلقت من دون ضجيج الى جانب هانز كاستورب ومن غير كلمة مدت له يدها ـ ليس ظاهر اليد بل الراحة ـ كي يطبع عليها قبلة. هانز كاستورب قبّل تلك اليد، التي لم تكن معتنى بها جيداً، بل

عريضة بعض الشيء، ذات أصابع قصيرة وسمينة، الجلد المجاور للأظافر اخشوشن. وعند ذاك اكتسحه من جديد، من الرأس الى القدم، الإحساس بالحلاوة الطائشة الذي شعر به أول مرة حين حاول أن يتخيل نفسه متحرراً من عبء السمعة الحسنة، وتذوق السعادات اللامحدودة للعار. هذا الشعور خبره ثانيةً في حلمه، أقوى ألف مرة فقط مما هو عليه في ساعة يقظته.

الفصل الرابع

صفقات ضرورية

«هل انتهى صيفك الآن؟» بسخرية سأل هانز كاستورب ابن خالته، في اليوم الثالث.

حصل تبدل عنيف للمشهد.

في اليوم الثاني الحافل للزائر هنا في الأعالي، سادت أكثر حالات الصيف سطوعاً. فوق القمم الصغيرة المرتفعة الشبيهة بالرماح لأشجار التنوب ومضت السماء بأعمق زرقة، القرية الواقعة في أسفل الوادي توهجت بيضاء في الحرارة، وكان الهواء مشبعاً بالصوت، نصف المبتهج، نصف الكئيب لأجراس الأبقار التي تطوف المنحدرات، قاطعةً الأجزاء العلوية من حشائش المرج القصيرة المدفأة بالشمس. في الفطور المبكر ظهرت السيدات في (بلوزات) داخلية، بعضها ذوات أكمام زينية، لم تلائمهن كلهن بالتساوي. في الأخص لم يكن الردن ملائماً للسيدة شتور، كان جلد ذراعيها مسامياً جداً، واضح ان هذا الطراز لم يكن لها. الذكور أيضاً بوسائل شتى علموا بالمناخ الجميل: لبسوا بارتياح سترات الموهير[1] وبدلات الكتان ـ يواكيم زيمسين ارتدى سروالاً أبيض من الفلانيلة[2] مع سترته الزرقاء، وبلباسه هذا بدا عسكرياً أكثر من أي وقت مضى.

---

(١) الموهير mohair: نسيج من وبر معزاة انقرة الحريري الطوي ـ المترجم.

(٢) الفلانيلة flannel: نسيج صوفي ناعم ـ المترجم.

أما بشأن سيتيمبريني؛ فقد أعرب أكثر من مرة عن رغبته في التغيير. «يا إلهي، كم حارة هي الشمس!» قال، بينما كان هو وإبنا الخالتين يتمشون متنزهين نازلين الى القرية بعد الغداء. «أرى انه كان يلزمني أن أرتدي ثياباً أخف». مع ذلك بعد هذا التعبير الصريح عن رغباته، استمر بالظهور في سرواله ذي المربعات وسترة الطيار ذات طيات الصدر العريضة. ربما كانت هاتان القطعتان هما كل الملابس التي بوسعه أن يتباهى بها.

لكن في اليوم الثالث بدا كما لو ان الطبيعة خضعت لتبدل مفاجئ؛ كل شيء انقلب رأساً على عقب. لم يكن هانز كاستورب يصدق عينيه. حدث هذا حين كانوا مستلقين في شرفاتهم، بعد نحو عشرين دقيقة من وجبة منتصف النهار. بسرعة أخفت الشمس طلعتها، سحب قبيحة بلون الخث(٣) زحفت فوق القمة الجنوبية ـ الغربية، وريح آتية من جهة غريبة، تخترق برودتها الجسم حتى النخاع، كما لو انها آتية من منطقة جليدية مجهولة، جرت عبر الوادي فجأةً، هبط الزئبق في المحرار ـ تم الحصول على نظام جديد.

«ثلج»، قال صوت يواكيم، خلف حاجز الزجاج.

«ماذا تعني، ثلج؟» سأله هانز كاستورب. «أنت لا تقصد القول ان الثلج سيهطل الآن؟»

«بالتأكيد»، أجاب يواكيم. «نحن نعرف تلك الريح. حين تأتي، فذلك يعني التزلج.»

«هراء! » قال هانز كاستورب. «إن لم تخني الذاكرة، انه مطلع آب.»

غير أن يواكيم، الضليع في علامات المنطقة، عرف عمَّ يتكلم. ذلك أنه خلال دقائق قلائل، رافقها قصف الرعد المتكرر، هبتْ عاصفة ثلجية شديدة، عسيرة جداً، بحيث بدا المنظر الطبيعي كما لو كان ملتفاً بدخان أبيض، ومن القرية والوادي لم يظهر أي شيء للعيان.

هطل الثلج طوال العصر. تغيرت حرارة الطقس. استفاد يواكيم من

---

(٣) الخث turf: نسيج نباتي نصف متفحم يتكون بتحلل النباتات تحللاً جزئياً في الماء ـ المترجم.

كيس الفرو خاصته، ولم يمنعه ذلك من خدمة العلاج؛ غير ان هانز كاستورب لاذ في حجرته، دفع كرسياً الى الأنابيب الحارة، ومكث هناك، ناظراً بهزات رأس عديدة الى القباحة في الخارج. عند الصباح التالي توقفتْ العاصفة. أظهر المحرار درجات قلائل فوق الانجماد، غير ان الثلج تمدد بعمق قدم، ونشر منظر طبيعي شتائي تماماً نفسه أمام عينيّ هانز كاستورب المندهشتين. أطفأوا التدفئة. كانت حرارة الغرفة ٤٥ درجة فهرنهايت.

«هل انتهى صيفك الآن؟» سأل هانز كاستورب ابن خالته بسخرية مُرة.

«لا تستطيع قول ذلك»، أجاب يواكيم العملي. «ربما يكون لنا مع ذلك، طقس صيفي جميل. حتى في أيلول جائز جداً. الحقيقة، الفصول هنا غير متميزة جداً عن أحدها الآخر؛ أنها تصب معاً، إن صح التعبير، ولا تلتزم بالتقويم. الشمس في الشتاء تكون عادةً قوية جداً بحيث تخلع سترتك، وينز منك العرق حين تتمشى. وفي الصيف ـ طيب، رأيتَ بنفسك! ومن ثم الثلج، الذي يضرب حسابات المرء كلها عرض الحائط. الثلج يهطل في كانون الثاني، لكن في أيار يهطل ثلج ليس بالقليل جداً، وكما لاحظتَ، يهطل في آب أيضاً. على العموم، بوسع المرء أن يقول أن ليس ثمة شهر من دون ثلج؛ يمكنك أن تعد هذه قاعدة. باختصار ثمة أيام شتائية وأيام صيفية، أيام ربيعية وخريفية؛ أما الفصول النظامية فلا وجود لها هنا في الأعالي.»

«إنها مسألة مختلطة تماماً»، قال هانز كاستورب. بمعطفٍ وكلوشين(٤) ذهب هو وابن خالته الى القرية في الأسفل، ليشتري لنفسه بطانيات للعلاج في الهواء الطلق، فقد تبين ان نسيجه مربع النقش لم يكن كافياً. وحالياً حتى فكّر ملياً في شراء كيس فراء أيضاً لكنه تخلى عن الفكرة، الواقع، شعر باشمئزاز من الفكرة.

«لا، لا»، قال، «سنكتفي بالبطانيات. سأستخدمها حتى هناك في الأسفل، وكل إنسان له بطانيات؛ ليس فيها شيء غريب أو مثير. لكن كيس

---

(٤) الكلوش gallosh: حذاء فوقي مطاطي يلبس فوق الحذاء العادي، يدعى بالعامية العراقية: كلاش ـ المترجم.

الفراء خاص جداً بكل معنى الكلمة ـ إذا اشتريتُ واحداً، فذلك يعني كما لو أنني سأستقر هنا، كما لو أنني أسكن هنا، فهمت ما أعنيه؟ لا، حالياً سنكتفي بهذا؛ فالأمر لا يستأهل مطلقاً أن أشتري كيساً للأسابيع القلائل التي أقضيها هنا في الأعالي.»

وافق يواكيم، ونالا بطانيتين من وبر الجمل مثل بطانيته، في مخزن رائع وذي سلع جيدة في الجانب الإنجليزي. كانتا بطانيتين باللون الطبيعي، طويلتين، عريضتين وناعمتين بصورة مبهجة، وتوجب إرسالهما فوراً الى مصح بيرغهوف العالمي، حجرة ٣٤: هانز كاستورب كان يتطلع الى استخدامهما عصر ذلك اليوم.

كان هذا، طبعاً، بعد الفطور الثاني، فعدا ذلك لا يسمح البرنامج اليومي بالوقت الكافي للذهاب الى (البلاتز). الدنيا تمطر الآن، والثلج في الشوارع تحوّل الى وحل رقيق القوام يتطاير خلال مشيهم. أدركوا سيتيمبريني في الطريق، وهو يصعد الى المصح تحت مظلة، حاسر الرأس. بدا الإيطالي شاحباً؛ كان مزاجه حزيناً بشكل جلي. في مقاطع منتخبة جيداً، منطوقة بوضوح، شكا من البرد والرطوبة اللذين عانى منهما بصورة مريرة جداً. لو أنهم فقط يدفئون المبنى! غير ان السلطات الحاكمة، في بخلها، تطفئ النار حال توقف هطول الثلج ـ قاعدة حمقاء، إهانة لذكاء الإنسان. رفض هانز كاستورب الافتراض القائل ان الحرارة المعتدلة هي جزء من نظام العلاج السائد؛ قُصد بها بالتأكيد عدم تدليل المرضى. غير ان سيتيمبريني أجاب بسخرية منغصة. أوه، بالطبع، نظام العلاج السائد! تلك القواعد المهيبة التي لا تنتهك حرمتها! كان هانز كاستورب محقاً في الإشارة إليها، كما فعل، حابساً أنفاسه. مع ذلك كان شيئاً مثيراً بعض الشيء (بالطبع فقط بالمعنى الأكثر لطفاً) ان القواعد الأكثر إجلالاً في النظام هي على وجه الدقة تلك التي تنسجم مع المصالح المالية لمالكي المؤسسة؛ بينما، من الناحية الثانية، تلك القواعد التي أقل فائدة فيميلون الى إغماض العين عنها. ضحك ابنا الخالتين، وشرع سيتيمبريني يتحدث عن والده المتوفى، الذي خطر بباله خلال الحديث عن الحجرات المدفأة.

«كان والدي»، قال ببطء، بنبرات طافحة بالطاعة البنوية للوالدين، «كان والدي رجلاً منظماً تنظيماً دقيقاً جداً، حساساً جسداً وروحاً. كم كان مغرماً بمكتبه الدافئ الصغير جداً! في الشتاء لابد أن يحصل على عشرين درجة روميرˆ(٥) هناك، بوساطة فرن صغير متوهج بالحرارة. حين تدخله من المجاز في يوم بارد ورطب، أو حين تهب الريح الشمالية الباردة القارسة من الجبال، يبسط دفء المكتب نفسه حولك كشال، بحيث ان عينيك من فرط السعادة تمتلئان بالدمع. كانت الحجرة الصغيرة تزدحم بالكتب والمخطوطات، بعضها ذات قيمة عالية؛ وقف بينها، عند مكتبه الضيق، بقميص نومه الأزرق من الفلانيلة، وكرس نفسه لخدمة الآداب. كان صغير الجسم، رقيق البنية، أقصر مني بطول رأس ـ تخيّل! ـ لكن مع خصلات وافرة من الشعر الأشيب عند صدغيه، وأنف ـ كم كان طويلاً ومدبباً! ويا له من روماني، صديقيّ! هو واحد من أبرز كتّاب عصره، وله تضلّع في لغتنا، وصاحب أسلوب في اللاتينية لم يعد له وجود. ـ آه [رجل مثقف]، بحسب رأي بوكاشيو! من مؤسسات جامعية بعيدة وكبيرة يأتون للنقاش معه ـ احدهم من هابارانداا، الآخر من كراكوف ـ يأتون الى مدينتنا بادوا، خصيصاً ليعربوا عن تقديرهم له، ويستقبلهم هو بود جليل. كان هو شاعراً مميزاً أيضاً، يؤلف حكاياته المتمهلة بأكثر أنواع النثر التوسكاني[٦] أناقةً ـ كان هو أستاذ الاصطلاحات الرقيقة»، قال سيتيمبريني، مدحرجاً مقاطعه اللفظية الوطنية بتلذذ أكبر على لسانه، ومديراً رأسه من جانب الى جانب. «كان يمهد خميلته بحسب خطة فيرجيل الخاصة[٧] ـ وكل ما قاله كان معقولاً وجميلاً. إنما دافئاً، دافئاً يجب أن يكون المناخ في حجرته الصغيرة، وإلا سيرتعش من البرد، وبوسعه أن ينتحب غاضباً إذا ما تركوه يتجمد. وتخيل الآن، حضرة المهندس، وأنت أيها الملازم، ماذا يتوجب عليّ، أنا، ابن والدي، ان أعاني في هذه الأرض

---

(٥) رومير Reaumur: (١٦٨٣ ـ ١٧٥٧): فيزيائي فرنسي. اشتهر باختراع ميزان الحرارة المعروف باسمه. قسمه الى (١٨٠) درجة بدلاً من مائة ـ المترجم.

(٦) التوسكاني tuscan: نسبة الى توسكانيا في أواسط إيطاليا ـ المترجم.

(٧) المقصود هنا حقل الشعر، لأن فيرجيل كبير الشعراء الرومان ـ المترجم.

الملعونة والبربرية، حيث حتى في ذروة الصيف يرتجف الجسد برداً، والروح تُعذب ويُحط من قدرها بفعل المشاهد التي تراها ـ أوه، هذا شيء عسير! يا لصنوف البشر من حولنا! الشيطان المسعور هوفرات، كروكوفسكي ـ» تظاهر سيتيمبريني بأنه يتلعثم بالاسم ـ «كروكوفسكي، كاهن الاعتراف ـ الأب، الذي يكرهني لأنني أمتلك قدراً كبيراً جداً من الكرامة الإنسانية كي أستسلم لممارساته البابوية ـ وعند مائدتي؟ أي صنف من المجتمع هذا، الذي في كنفه، أنا مرغم على تناول طعامي؟ الى يميني يجلس صانع البيرة من هاله ـ اسمه ماغنوس ـ ذو شارب أشبه بحزمة قش. [لا تحدثني عن الأدب] يقول هو. [ما الذي يقدمه؟ لا شيء غير الشخصيات الجميلة؟ ما الذي أفعله بالشخصيات الجميلة؟ أنا رجل عملي، وفي حياتي اتصلتُ بأُناس نادرين بكل ما في الكلمة من معنى.] هذا هو رأيه في الأدب ـ شخصيات جميلة! يا أم الرب! زوجته تجلس هناك قبالته، تفقد وزنها طوال الوقت، وتغوص أكثر فأكثر في البلاهة. انه عار فاحش.»

كان هانز كاستورب ويواكيم قد صمتا موافقين على كلام سيتيمبريني: وجدا أسلوبه متسماً بالشكوى وتحريضياً، إن لم يجداه أيضاً مسلياً بدرجة كبيرة و(طيّعاً) في حدته اللفظية وميله. قهقه هانز كاستورب ببهجة على تشبيه (حزمة قش)، مثلما ضحك على (شخصيات جميلة) ـ أو بالأحرى، على الطريقة المضحكة، اليائسة التي تحدث بها سيتيمبريني عنهما.

ثم قال: «استغفر الله، نعم، المجتمع مختلط دوماً في مكان كهذا، على ما أظن. لا يسمح للمرء أن يختار زملاء مائدته ـ هذا يؤدي الى ما تعرفه الطيبة وحدها! عند مائدتنا هناك إمرأة من الصنف ذاته، السيدة شتور ـ أعتقد انك تعرفها؟ ينبغي لي القول إنها جاهلة بشكل شنيع ـ في بعض الأحيان حين تثرثر، لا يعرف المرء أين يصوب نظراته. لكنها تعاني كثيراً من حرارتها، ومن الاسترخاء الذي تشعر به، أنا متأسف فهي حالة خفيفة بأية حال. يبدو لي هذا شيئاً غريباً جداً: عليلة وغبية في آن ـ لا أعرف على وجه الدقة كيف أعبّر عن هذا، لكنه يمنحني شعوراً خاصاً جداً، حين يكون الشخص غبياً جداً، ومن ثم مريضاً أيضاً. لا بد أن يكون ذلك أكثر الأشياء سوداوية في

الحياة. لا يعرف المرء ماذا يستنتج منه؛ يود المرء أن يشعر باحترام مناسب للمرض، بالطبع ـ مع ذلك ينطوي المرض على شيء من النبل، إذا شئت. ولكن حين يأتي غباء كهذا في ذروته ـ هي تقول [كوني] حين تقصد [تجميلي][٨]، وما شاكل من أغلاط بلهاء ـ لا يدري المرء ما إذا يضحك أم يبكي. انه مأزق اعتيادي للمشاعر الإنسانية ـ أنا أجده أكثر بؤساً مما أستطيع القول. ما أعنيه هو، انه ليس متناغماً مع نفسه، انه غير متماسك؛ لا أستطيع أن أعتاد الفكرة. يعد المرء دوماً الإنسان الغبي كونه سليماً تماماً واعتيادياً، أما المرض فيجعل المرء مهذباً وذكياً وغير اعتيادي. في الأقل كقاعدة ـ أو أنني لا أعرف، ربما أقول أكثر مما أتحمل»، أنهى حديثه. «هذا فقط لأنه سبق وأن تحدثنا عنه» ـ توقف عن الكلام في حالة ارتباك.

يواكيم أيضاً بدا غير مرتاح بعض الشيء، ورفع سيتيمبريني حاجبيه ولم يقل كلمة، تلوح عليه سيماء انتظار نهاية حديثه بأدب. كان، الواقع، قد توقف حتى يفضي هانز كاستورب بمكنون صدره تماماً قبل أن يجيب هو. لكنه قال الآن: «تعرف، حضرة المهندس! أنت تكشف موهبةً غير متوقعة على الإطلاق في الفلسفة! بحسب نظريتك، لا بد أنت نفسك أكثر مرضاً مما تبدو عليه، يتملكك المرح بشكل واضح جداً. لكن، إذا سمحت لي أن أقول، لا أستطيع أن أؤيد استنتاجاتك؛ ينبغي لي أن أرفضها؛ نظريتي تخالفها خلافاً مطلقاً. أنا، كما ترى، متعصب نوعاً ما أكثر من أي سمة أخرى في الأشياء المتعلقة بالفكر؛ سألام كمتحذلق مفضلاً ذلك على معاناتي في أن أتخطى من غير اعتراض وجهة نظر بدت لي متعذراً الدفاع عنها كوجهة نظرك هذه.»

«لكن، سيد سيتيمبريني، أنا ـ».

«إســ ـ مح لي. أعرف ما تريد قوله: ان وجهات النظر التي تصورها ليست، مع أهميتها، خاصتك؛ وانه حدث فقط ان وجدتها بالمصادفة من بين كل وجهات النظر المتيسرة، إن صح التعبير، في الهواء، فقد جربتها، من

(٨) وردت في النص الإنجليزي كلمتا (cosmic) و(cosmetic).. والفارق بينهما كبير جداً، مثلما نقول شتان ما بين الثرى والثريا ـ المترجم.

دون مسؤولية شخصية. إنها تلائم زمن حياتك، وهكذا كي تتجنب القناعات الثابتة للرجل الناضج، وكي تقوم بالتجارب مع مختلف وجهات النظر. Placet experiri»، اقتبس معطياً اللفظ الإيطالي لحرف C «ذلك قول جيد. لكن ما يزعجني هو ان تجربتك ستفضي بك الى هذا الاتجاه حسب. أشك في ما إذا كانت مسألة مصادفة صرف. أنا أخشى من وجود ميل عام، ينذر بالتبلور الى ميزة شخصية، ما لم يقم المرء بثورة مسلحة ضده. لذا، أشعر انه من صميم واجبي، أن أصححك. قلتَ ان المشهد الذي يتمشى فيه الغباء والمرض معاً يداً بيد لا بد أن يكون أكثر مشاهد الحياة سوداوية. أؤيدك، أؤيدك في ذلك. أنا أيضاً أفضل إنساناً مريضاً ذكياً على أبله مسلول. لكنني اختلف معك حيث عددت اتحاد المرض مع الغباء نوعاً من التنافر الجمالي، خطأ في الذوق من جانب الطبيعة، [مأزقاً للمشاعر الإنسانية]، كما طاب لك أن تعبّر. حين اعترفتَ بأنك تعد المرض شيئاً جد مهذب، جد ـ ماذا أسميته؟ ـ ينطوي على [شيء من النبل] ـ [لا يتناسب] مع الغباء. ذلك هو التعبير الذي استخدمته. طيب، أنا أقول كلا! المرض لا ينطوي على شيء مهذب، ولا على شيء نبيل. ان مفهوماً كهذا مرضيّ بحد ذاته، أو في الأقل يميل الى ذلك. ربما الأفضل لي أن أثير ارتيابك فيه إذا ما قلتُ لك كم هو قديم جداً وقبيح هذا المفهوم. جاء إلينا من ماضٍ يغلي بالخرافة، انحطت فيه فكرة الإنسانية وأُفسدت متحولةً الى مجرد كاريكاتير؛ ماضٍ مليء بالمخاوف، تُعد فيه الرفاهية والتناغم أمرين مشبوهين ومنبعثين من الشيطان، في حين ان السقم يساوي الممر السالك الى الفردوس. العقل والتنوير، كلاهما تخلص من أكثر أنواع هذه العتمة دكنةً، العتمة التي استوطنتْ روح الإنسان ـ ليس كلياً، فحتى الآن ما يزال الصراع جارياً. غير ان هذا الصراع، سيديّ العزيزين، يعني العمل، العمل الأرضي، العمل من أجل الأرض، من أجل الشرف وخير الجنس البشري؛ وبذلك الصراع الذي يكتسب يومياً عزماً وتصميماً من جديد، قوى العقل والتنوير سوف تحرر الإنسانية كلها في خاتمة المطاف وتقودها في طريق التقدم والحضارة الى ضياء أكثر سطوعاً، أكثر لطفاً، وأكثر صفاءً.»

«ليباركك الله»، فكّر هانز كاستورب، برعب خجول. «يا لها من محاضرة أخلاقية! كيف، إني أتساءل، استطعتُ أن استنزل كل ذلك على رأسي؟ ينبغي لي القول، إنني وجدتها مضجرة نوعاً. ولماذا تكلم كثيراً جداً عن العمل طوال الوقت؟ انه موضوعه الثابت، يفكر المرء انه ليس بالموضوع وثيق الصلة جداً هنا في الأعالي.» قال بصوت عالٍ: «يا لكلامك الجميل، سيد سيتيمبريني! ما تقوله جدير بالاستماع - وليس بالوسع أن يكون الكلام أكثر - أكثر طواعيةً في التعبير، على ما أعتقد.»

«الارتداد عن الطريق القويم»، واصل سيتيمبريني حديثه، بينما هو يرفع مظلته بعيداً فوق رأس عابر سبيل، «الارتداد الروحي عن الطريق القويم في اتجاه ذلك العصر المظلم والمعذِّب، ذلك، صدّقني، أيها المهندس، مرض - مرض دُرِس قبلاً بصورة كافية، خُلعتْ عليه عديد الأسماء، أحدها من علم المصطلحات الفنية الخاصة بعلم الجمال وعلم النفس، وثانٍ من حقل السياسة - هذه الأسماء كلها مصطلحات أكاديمية ليستْ دقيقة جداً، والتي سأوفرها عليك. لكن بما انه في الحياة الروحية الأشياء كلها ذات علاقات متبادلة مع بعضها، كل شيء ينمو من الآخر، وبما ان المرء قد لا يستطيع أن يمد إصبعه الصغير الى الشيطان، مخافة أن يأخذ اليد كلها، وبعد ذلك مباشرة الإنسان كله؛ بما انه، من ناحية ثانية، القاعدة الصحيحة لا يمكن أن تنتج سوى نتائج صحيحة، مهما كان الطرف الذي يبدأ به المرء - وهكذا فإن المرض، بعيداً عن كونه شيئاً مهذباً جداً، وجديراً بالتبجيل، حين يرافق الغباء، هو، بحد ذاته، انحطاط للجنس البشري، انحطاط: فهمه موجع وكريه. ربما، تتم، في الحالة الفردية، معالجته مع مراعاة لمشاعر الآخرين وظروفهم؛ ولكن كي نعرب عن تقديرنا له فهو - لاحظ كلماتي - ضلال، وبداية التشوش الفكري. هذه المرأة التي ذكرتها لي - ستعذرني إذا لم أكلف نفسي بتذكر اسمها - آه، شكراً، السيدة شتور - ليست كذلك، يبدو لي، حالة هذه المرأة المثيرة للسخرية التي تضع المشاعر الإنسانية في المأزق الذي أشرت إليه. انها عليلة، وذات تفكير ضيق الأفق؛ حالتها المرضية ميؤوس منها، والمسألة بسيطة. لم يبقَ شيء سوى الأسف وهز الكتفين تعبيراً عن

اللامبالاة. الورطة، سيدي العزيز، المأساة، تبدأ حيث تكون الطبيعة فظة بدرجة كافية بحيث تمزق الشخصية، تحطم تناغمها من خلال حبس روح نبيلة ومتوهجة في داخل جسد غير مهيأ لضغوط الحياة. هل سمعتَ بـ ليوباردي، ايها المهندس، أو أنت، أيها الملازم؟ هو شاعر شقي من بلدي، رجل معوّق، مريض، ولد بروح عظيمة، وكانت مكابداته مخزية باستمرار وتجري ببطء الى أعماق السخرية ـ مناحاتها ترغم القلب على الإستماع.»

وبدأ سيتيمبريني يروي بالإيطالية، جاعلاً المقاطع اللفظية الجميلة تذوب فوق لسانه، بينما هو يغمض عينيه ويؤرجح رأسه من جانب الى جانب، غافلاً ان مستمعيه لم يفهما مقطعاً لفظياً واحداً. واضح انه فعل كل ذلك من أجل أن يؤثر في رفيقيه بذكراه وتلفظه.

«ولكنكما لا تفهمان؛ أنتما تسمعان الكلمات، مع ذلك أنتما لا تمسكان بمضمونها الفاجع. سيديّ العزيزين، هل يمكنكما أن تدركا ماذا يعني حين أقول لكما ان غرام امرأةٍ ما حكم على ليوباردي أن يتخلى عنه؛ هذا الغرام في المقام الأول هو الذي جعله غير قادر على تحاشي إزدياد المرارة في روحه؟ الشهرة والفضيلة كانتا بالنسبة له مجرد خيالين. الطبيعة طاقة شريرة ـ وهكذا كانت هي، غبية وشريرة في آن، أنا أتفق معه في تلك المسألة ـ والأنكى من ذلك أُصيب باليأس، شيء مرعب أن نقول هذا، الأنكى من ذلك يئس هو من العلم والتقدم! هنا، أيها المهندس، تكمن المأساة الحقيقية. هنا يكمن مأزقك، [مأزق المشاعر البشرية]، وليس في حالة امرأتك البائسة التي لا أستطيع أن أرهق ذاكرتي بإسمها. لا تكلمني في سبيل الله، عن التأثيرات المشرِّفة للمعاناة الجسدية! ان روحاً بلا جسد هي روح غير آدمية ومرعبة كجسد بلا روح ـ مع ان الحالة الأخيرة هي القاعدة والسابقة هي الاستثناء. ان الجسد، كقاعدة، هو الذي يزدهر بإفراط، وهو الذي يسحب كل شيء إليه، وهو الذي يغتصب المكان المهيمن ويعيش بصورة كريهة متحرراً من عبودية الروح. ان الإنسان هو قبل كل شيء عاجز هو جسد (بالكامل)، هنا تكمن مسألة لا إنسانيته والحط من قدره. في معظم الحالات هو أفضل بقليل من جثة ـ».

«شيء مضحك»، قال يواكيم، منحنياً الى الأمام كي ينظر الى ابن خالته، في الجانب الأبعد من السيد سيتيمبريني. «قلتَ شيئاً من هذا القبيل قبل مدة وجيزة.»

«حقاً؟» قال هانز كاستورب. «أجل، ربما يكون شيء من هذا القبيل قد خطر في بالي.»

سكت سيتيمبريني لخطوات قلائل. ثم إنبرى قائلاً: «هذا شيء حسن جداً. هذا شيء حسن جداً إذا كان ذلك حقيقياً. أنا أبعد ما أكون عن الإدعاء بشرح فلسفة أصيلة ـ هذه ليست مهنتي. إذا كان مهندسنا هنا قد توصل الى ملاحظات منسجمة مع ملاحظاتي، فهذا يؤكد فقط حدسي بأنه مفكر هاوٍ وحتى الوقت الحاضر، وكما هي عادة الشاب الموهوب، ما يزال يجرّب بمختلف وجهات النظر. ان الشاب ذا الموهبة ليس صفحة غير مكتوبة، انه بالأحرى صفحة دُونتْ فوقها قبلاً الكتابات كلها، بحبر عاطفي، الكتابة الجيدة والرديئة معاً، ان مهمة معلم المدرسة هو أن يظهر الجيدة، وأن يزيل السيئة الى الأبد، بالوسائل المعروفة لمهنته ـ عقدتما صفقات؟» سأل بنبرة أخف.

«لا»، قال هانز كاستورب. «ذلك لا شيء غير ـ»

«طلبنا زوجاً من البطانيات لإبن خالتي»، أجاب يواكيم بلا مبالاة.

«من أجل علاج العصر ـ المناخ أصبح بارداً بإفراط؛ ويفترض بي أن أفعل ما يفعله الرومان هنا في الأعالي»[٩]، قال هانز كاستورب، ضاحكاً وناظراً الى الأرض.

«آه ها! بطانيات ـ العلاج»، قال سيتيمبريني. «نعم، نعم. الواقع placet experiri»، كرر، بتلفظه الإيطالي، وغادر، ذلك ان حوارهم قد أوصلهم الى باب المصح، حيث ألقوا التحية على البواب الأعرج في كوخه. انحرف سيتيمبريني الى واحدة من غرف الجلوس، كي يقرأ الصحف قبل

(٩) هنا إشارة الى المثل الإنجليزي القائل: «عندما تكون في روما تصرف كما يتصرف الرومان» ـ المترجم.

وجبة الغداء. واضح انه عنى أن يتغيب عن مدة الإستراحة الثانية.

«باركنا واحفظنا!» قال هانز كاستورب لـ يواكيم، حين وقفا في المصعد. «يا له من معلم! قال هو نفسه ان له [لهفة الى التعليم]. على المرء أن يحترس معه، وأن لا يقول له المرء أكثر مما يعني، وإلا دوخك حالاً بتعاليمه كلها. ومع ذلك، كلامه جدير بالإستماع، انه يتحدث حديثاً شيقاً، الكلمات تأتي قافزة من فمه رشيقة جداً وفاتحة للشهية ـ لحظة أصغي إليه، تتراءى لي صورة أرغفة خبز طازجة حارة.»

ضحك يواكيم. «الأفضل عدم إخباره بذلك. أنا متيقن من انه سيكون منزعجاً جداً، لدى سماعه عن تلك الصورة التي استدعتها كلماته في عقلك.»

«أتعتقد هذا؟ أنا لستُ متيقناً جداً من ذلك. لي انطباع انه لا يتحدث إلينا من أجل تنويرنا، (ان الأمر ليس بهذه البساطة وليس لمجرد ذلك)؛ أغلب الظن هذا فقط باعث ثانوي. الباعث المهم، أنا متأكد، هو الكلام نفسه، الطريقة التي يجعل بها الكلمات تتدحرج خارجة من فمه، مرنة جداً، أشبه بكرات مطاط كثيرة! انه يشعر ببالغ السرور حين تلاحظ التأثير، أعتقد ان ماغنوس، صانع البيرة، كان غبياً بعض الشيء، على أية حال، مع [شخصياته الجميلة]؛ لكنني أعتقد ان سيتيمبريني ربما قال فعلاً ما هي المسألة في الأدب. لم أرغب بطرح السؤال، مخافة أن أضع قدمي في حقل الأدب؛ ليس لي تصور واضح عنه، وهذه أول مرة أعرف فيها أديباً. لكن إذا لم تكن الشخصيات الجميلة، إذاً، واضح، لابد أن تكون الكلمات الجميلة، وهذا هو الإنطباع الذي خرجت به من كوني في مجتمع سيتيمبريني. يا للمفردات! ويستعمل كلمة (الفضيلة) هكذا، من دون أدنى قدر من الإرتباك. ماذا تستنتج من ذلك؟ لم أؤوي الكلمة في فمي طوال سنوات حياتي؛ في المدرسة حين يقول الكتاب [فضيلة]، نقول دوماً [بسالة]، أو شيئاً من هذا القبيل. ان الإستماع إليه يحرّك في داخلي إحساساً غريباً. ويستبد بي الغضب حين أسمعه يوبخ، عن البرد، وعن بيرنز، والسيدة ماغنوس لأنها تفقد وزنها باستمرار، وعن كل شيء. انه معارض بالفطرة، أدركتُ ذلك حالاً، معارض

حتى للنظام الحالي؛ وهذا يمنحني دوماً الإنطباع بأن الفرد قد أُفسد ـ لا أطيق ذلك.»

«أنت تقول ذلك»، أجاب يواكيم آخذاً كل شيء بنظر الإعتبار، «ومع هذا يمتلك هو نوعاً من الغرور بالنفس بما يترك إنطباعاً مختلفاً بكل معنى الكلمة: غرور إنسان يضمر احتراماً عظيماً لنفسه، أو للإنسانية عموماً؛ وأنا أحب هذه الصفة فيه؛ في اعتقادي هذه الميزة لها جانب جيد.»

«أنت على صواب، في تلك المسألة»، أجاب هانز كاستورب. «بل هو صارم؛ انه يجعل المرء يشعر بقليل من عدم الإرتياح، كما لو انك ـ طيب، هل ينبغي لي القول كما لو انه يأخذك لإداء مهمة؟ هذه ليست طريقة سيئة جداً لوصفها، هل تصدقني إذا قلت: انه لم يكن مسروراً على الإطلاق بشرائي البطانيتين؟ عنده شيء ما ضدها، وأسهب في مسألة شرائهما كثيراً.»

«أوه، لا»، قال يواكيم بعد أن فكر ملياً، ببعض الدهشة. «كيف وقف ضدها؟ لا أظن ذلك.» وبعدها، المحرار في فمه، مع الكيس والرزمة، مضى ليستلقي، بينما شرع هانز كاستورب حالاً يغتسل ويبدل ثيابه إستعداداً لوجبة الغداء التي سيكون موعدها في أقل من ساعة.

هامش حول الإحساس بالزمن

حين صعدا الى الأدوار العليا بعد وجبة الطعام، الرزمة الحاوية على البطانيتين كانت موضوعة على كرسي في حجرة هانز كاستورب؛ وعصر ذلك اليوم استفاد منهما أول مرة. يواكيم المجرِّب علَّمه الطريقة التي يدثر بها نفسه، كما هي مطبقة عملياً في المصح؛ الجميع يمارسونها، وكل قادم جديد يلزمه تعلمها. أولاً تُبسط البطانيتان الواحدة بعد الأخرى، على الكرسي، بحيث يتدلى جزء كبير منهما عند القدم. ثم تجلس أنت وتبدأ بلف البطانية الداخلية حول نفسك: بالطول أولاً، من الجانبين، حتى الكتفين، ومن ثم من القدمين صعوداً، تنحني بينما أنت جالس وتقبض على الطرف المطوي، أولاً من جهة واحدة وبعدها من الجهة الأخرى، عليك أن تحاذر كي تجعلها

منطبقة باتقان على طول الجسم، وكي تضمن أكبر قدر ممكن من الملس والإستواء. ثم تفعل الشيء ذاته بالضبط مع البطانية الخارجية ـ انها أكثر صعوبة بعض الشيء عند ممارستها، ومبتدؤنا قلما تأوه حين إنحنى ونشر ذراعيه كي يتمرن على المسكات التي أراها إياه ابن خالته. فقط أيادٍ متمرسة قلائل، قال يواكيم، بمستطاعها أن تستخدم كلتا البطانيتين حالاً، تزجها في موضعها بثلاث حركات واثقة بنفسها. كانت هذه براعة نادرة ويُحسد عليها، لا تعزى فقط الى سنوات طويلة من المران، بل الى موهبة خاصة أيضاً. توجّب على هانز كاستورب أن يضحك على هذا، مستلقياً في كرسيه، بعضلات موجعة؛ يواكيم لم يرَ حالاً شيئاً مضحكاً في ما قاله، ونظر إليه بارتياب، لكنه في الختام ضحك أيضاً.

«لا شيء»، قال يواكيم، حين رقد هانز كاستورب أخيراً عديم الأطراف واسطوانياً في كرسيه، مع اللفة اللدنة عند مؤخرة عنقه، التي بُليت تماماً بفعل كل هذه التمارين الجمبازية؛ «لا شيء يستطيع أن يمسّك الآن، حتى إذا كانت درجة الحرارة عشرة تحت الصفر.» انسحب وراء الحاجز، كي يدثر نفسه أيضاً.

إرتاب هانز كاستورب في درجة عشرة تحت الصفر؛ كان يشعر الآن بالبرد بصورة واضحة. إرتجف مرات عدة بينما كان راقداً يتطلع عبر القوس الخشب الى الرطوبة المبخِرة، المقطرة في الخارج، التي تبدو على وشك التحول الى ثلج. غريب انه مع تلك الرطوبة كلها كانت وجنتاه ما تزالان تشتعلان بحرارة جافة، كما لو كان جالساً في حجرة مدفأة أكثر مما ينبغي. شعر بأنه مرهق بصورة مضحكة بسبب تمرين إرتداء دثاريه الغليظين؛ الواقع، حين أمسك بـ«بواخر المحيط» ليقرأه، إهتز الكتاب في يديه. مؤكد انه لم يكن أهلاً لذلك ـ وكان مصاباً بفقر الدم التام، كما قال هوفرات، لهذا السبب، لا ريب، كان عُرضةً للبرد. لكن هذه الأحاسيس غير السارة كانت قد فاقتها أهمية الراحة العظمى لوضعه، الصفات غير القابلة للتحليل، الغامضة تقريباً لكرسي الإستلقاء خاصته، الذي إستحسنه حتى في أول تجربه له معه، والتي (أي الصفات) أكدت نفسها في أكثر الطرق فرحاً كلما لجأ إليه

من جديد. سواء بسبب صفة التنجيد، ميلان ظهر الكرسي، العرض والإرتفاع المناسبان تماماً للمسندين، أم فقط بسبب المتانة المناسبة للفة العنق، كانت النتيجة أن ليس ثمة ترتيباً مريحاً أكثر للأطراف المسترخية يمكن تخيله أكثر من ذلك الذي يوفره هذا الكرسي الممتاز. اهتز قلب هانز كاستورب طرباً في الحقيقة المباركة ان ثمة ساعتين فارغتين وهادئتين بصورة مطمئنة ما تزالان أمامه، مكرستين بحسب قواعد الدار لعلاج النهار الرئيس؛ شعر بأنه، مع انه لم يكن سوى ضيف هنا في الأعالي ـ أنسب التدبيرات. فقد كان بطبعه ومزاجه خاملاً، بوسعه أن يجلس بلا عمل ساعات من دون انقطاع، وكان يحب، كما نعرف، أن يرى الزمن رحباً أمامه، كي لا يراوده الإحساس بأن مروره يتم التخلص منه، إبادته، أو أكله بفعل النشاط الإعتيادي. في الساعة الرابعة تناول شاي العصر، مع الكيك والمربى. أعقب ذلك حركة قليلة في الهواء الطلق، ثم الاستراحة من جديد، ثم العشاء ـ والذي، ككل أوقات وجبات الطعام، منح حافزاً معيناً للعين والدماغ، وإحساساً معيناً بالتوتر؛ وبعده النظر بحذر في واحدة من اللعب البصرية أو غيرها، المجسام، المشكال، العارضة السينمائية. ربما من المبالغة القول ان هانز كاستورب قد اعتاد الحياة هنا في الأعالي، لكنه في الأقل اكتسب الوتيرة اليومية في أطراف أصابعه.

ثمة، على أية حال، شيء خاص يتعلق بعملية تعويد المرء في مكان جديد، ان التوافق الذي يقتضي عادة جهداً والتعويد، الذي يتعهد به المرء من أجل التعويد ذاته، وعن سابق تصور وتصميم يكسره تماماً حالما يكتمل، أو بعد وقت غير طويل، ويعود الى حالته السابقة. إنها مدة فاصلة، أُدخلت، بهدف التجديد، في مغزى شؤون الحياة الرئيسة؛ هدفها راحة الكائن الحي، الذي يكون مشغولاً بصورة دائمة بمهمته في تجديد ذاته والذي (أي الكائن) كان في خطر، وتقريباً قيد الصنع، كونه أُفسد، أُبطيء، أُوهن، بفعل الرتابة غير المشوّقة، المفككة لسياقه اليومي. لكن ما سبب هذا الإسترخاء، هذا الإبطاء اللذين يحدثان حين يقوم المرء بالشيء نفسه على مدى وقت طويل جداً؟ انه ليس الإجهاد أو الإنهاك الجسدي أو العقلي، فلو كانت الحالة

كذلك، إذاً فإن الراحة التامة ستكون هي المجدد الأفضل. انه بالأحرى شيء نفسي، يعني هذا ان الإدراك الحسي للزمن يميل، خلال أوقات الإنتظام غير المنقطعة، الى الضمور؛ ان الإدراك الحسي للزمن مرتبط ارتباطاً وثيقاً بوعي الحياة، بحيث ان أحدهما قد لا يضعف من دون أن يعاني الآخر من الإتلاف المحسوس. هناك مفاهيم خاطئة عديدة يؤمن بها تتعلق بطبيعة الضجر. عموماً يُعتقد بأن التمتع، وجدّة محتوى الزمن هما اللذان «يجعلان الزمن ينقضي»؛ أي، يقصرانه؛ في حين ان الرتابة والفراغ يكبحان ويعوقان جريانه. هذا الأمر حقيقي مع بعض التحفظات. الفراغ، الرتابة، لهما، في الواقع، سمة جعل اللحظة والساعة تتباطئان أكثر مما ينبغي وجعلهما مملتين. لكنهما قادران على تقصير الوحدات الزمنية الأكبر، الكبيرة جداً وتبديدهما، الى درجة تصل الى تقليصهما الى لا شيء على الاطلاق. وبالعكس، المحتوى المليء والممتع بمستطاعه أن يضع أجنحة للساعة واليوم، مع ذلك سوف يضفي على المرور العام للزمن ثقلاً، عرضاً، وصلابةً تجعل السنوات الزاخرة بالأحداث تجري أبطأ بكثير من تلك السنوات الفقيرة، الجرداء، الخاوية التي تمر عليها الريح وتنقضي هي. وهكذا ان ما نسميه ضجراً هو بالأحرى تقصير غير طبيعي للوقت الناتج عن الرتابة. ان المديات الهائلة للزمن التي مرت في انتظام غير مقطوع تميل الى التقلص بطريقة تجعل القلب يتوقف عن الخفقان خوفاً، حين يكون يوم ما شبيهاً بباقي الأيام كلها، عندئذ تكون الأيام كلها أشبه بيوم واحد؛ ان الإنتظام التام يجعل أطول حياة تبدو قصيرة، كما لو انها سُرِقتْ منا من غير قصد. ان التعوّد سكون أو إجهاد لحاسة الزمن، وهو الأمر الذي يفسر لنا لماذا تمر الأعوام المبكرة ببطء، بينما الحياة المتأخرة تدفع نفسها أسرع فأسرع في مسارها. نحن ندرك أن إدخال أوقات التغيير والجدة هي الوسيلة الوحيدة التي نستطيع بواسطتها أن ننعش إحساسنا بالزمن، نقويه، نؤخره، ونعيد إليه الشباب، وبذلك نجدد إدراكنا الحسي بالحياة نفسها. هذا هو غرض تغييراتنا للجو والمشهد، وغرض إقاماتنا المؤقتة في منتجعات العلاج والإستحمام؛ انه سر طاقة الشفاء في التغيير والحدث العرضي.. في أيامنا الأولى في مكانٍ جديد، يكون للزمن جريان

نشيط، أي، جريان عريض وكاسح، يستمر نحو ستة أو ثمانية أيام. بعدها، حين «يعتاد المرء المكان»، الإنكماش التدريجي يجعل نفسه محسوساً. ان الشخص الذي يتشبث أو، بتعبير أفضل، يريد أن يتشبث بالحياة، سوف يرتعد لرؤية كيف ان الأيام تمسي خفيفة وأخف، كيف انها تنطلق مسرعة كالورق الميت، حتى الاسبوع الأخير، الاسبوع الرابع تقريباً، أغلب الظن، هو قصير الأجل بصورة غريبة، وسريع الزوال. من ناحية أخرى، ان تسارع الإحساس بالزمن سوف يجري الى ما بعد المدة الفاصلة ويؤكد نفسه من جديد بعد العودة الى اسلوب الحياة الإعتيادية: ان الأيام الأولى في البيت بعد العطلة يعيشها المرء بجريان أعرض، وبصورة منعشة ونشيطة ـ ولكن فقط الأيام القليلة الأوائل، ذلك ان المرء يكيّف نفسه بسرعة للقاعدة أكثر مما يكيفها للإستثناء؛ وإذا ما كان الإحساس بالزمن قد ضعف قبلاً بفعل العمر أو ـ وهذا دليل على قلة الحيوية ـ لم يكن قد تطور بشكل جيد جداً، يتكاسل المرء عائداً الى الحياة الماضية، وبعد أربع ـ و ـ عشرين ساعة يبدو كما لو انه لم يكن بعيداً، والرحلة لم تكن سوى سهراً في الليل.

قدمنا هذه الملاحظات هنا فقط لأن شابنا هانز كاستورب كانت له ملاحظات شبيهة بها في رأسه عندما، بعد أيام قلائل، قال لإبن خالته، ناظراً إليه بعينيه المحتقنتين بالدم نظرات ثابتة: «لن أكف عن أن أجده أمراً غريباً ان الزمن يبدو كأنه يجري ببطء شديد في مكانٍ جديد. أعني ـ بطبيعة الحال انها ليست مسألة كوني ضجراً؛ على العكس، يمكنني القول انني ضُيفتُ ضيافةً ملكية. لكنني حين أعود بنظري الى الوراء ـ في إستعادة للأحداث الماضية، أي، أنت تفهم ما أعنيه ـ يبدو لي انني كنت هنا في الأعالي، الطيبة وحدها تعرف كم طال ذلك؛ يبدو لي انها الأبدية منذ وقت وصولي، ولا أفهم تماماً انني كنت هناك، وقلتَ لي: [أخرج من هنا!] ـ ألا تتذكر؟ ـ هذا لا علاقة له على الإطلاق بالمنطق، أو بالطرق الإعتيادية لقياس الزمن؛ انها مجرد مسألة شعور. مؤكد ان ذلك سيكون هراءً بالنسبة لي لو قلتُ: [أشعر كما لو انني هنا في الأعالي منذ شهرين] ـ سيكون ذلك كلاماً سخيفاً. كل ما أستطيع قوله هو إنه زمن [طويل جدا]».

«نعم»، أجاب يواكيم، المحرار في فمه، «أنا أفيد منه أيضاً؛ بينما أنت تقيم هنا، أستطيع أن أتشبث بك، إن صح التعبير.»

ضحك هانز كاستورب، لدى سماعه ابن خالته يتكلم هكذا، ببساطة تامة، من دون تفسير.

إنه يمارس فرنسيته

لا، مع ذلك، كان هو بأية حال، حتى الآن، قد تكيف مع محيطه. لم يتكيف بحميمية مع المعالم الخاصة بالحياة كما تعاش هنا في الأعالي ـ الحميمية يستحيل إحرازها في أيام قليلة جداً، التي، كما كان واعياً بذلك، لا بل أخبر يواكيم بها، لم يكن يأمل اكتسابها خلال مدة بقائه التي تستغرق ثلاثة أسابيع، ولا في تكيف نظامه الجسدي مع الأحوال الجوية السائدة. لأن هذا التكيف كان شاقاً بصورة مريرة؛ شاقاً جداً، في الواقع، بحيث بدا له كما لو انه لن يكتب له النجاح.

كان الروتين اليومي مترابطاً بإتساق ووضوح، منظماً بعناية؛ ويجاري المرء الآخرين في ما يفعلونه و، باستسلام المرء للإتجاه العام، يغدو حاذقاً حالاً. بعدها، في الحقيقة، في بحر اسبوع، وكذلك خلال أجزاء أكبر من الزمن، يكتشف المرء وجود اختلافات منتظمة معينة للبرنامج، تظهر نفسها، مرة في كل حين، ويظهر الإختلاف الثاني أحياناً فقط بعد أن يكرر الإختلاف الأول نفسه. ولكن حتى ظواهر الحياة اليومية تملك أشياءً كثيرةً لم يزل هانز كاستورب بحاجة الى تعلمها: وجوه وحقائق لاحظها قبلاً يجب دراستها بدقة، الجديد منها يجب تشربها بتقبّل شاب.

تلك الأوعية ببطونها الكبيرة، في سبيل المثال، وأعناقها القصيرة، التي لاحظها أول مساء بينما كان واقفاً في المجازات أمام بعض الأبواب. كانت تحتوي على الأوكسجين، سأل، وأعلمه يواكيم. كان ذلك الأوكسجين الخالص، الوعاء الواحد بسعر ست فرنكات. الغاز الذي يحيي يُعطى الى الذين يعانون سكرات الموت في محاولةٍ أخيرة لإثارة قوّتهم أو تعزيزها. انهم

يسحبون الأوكسجين عبر انبوب. ذلك انه خلف تلك الأبواب التي توضع تلك الأوعية فيها يرقد الهالكون ـ الـ moribundi ـ كما سمّاهم السيد هوفرات بيرنز حين صادفه هانز كاستورب ذات يوم في الدور الأول. أرجواني الخدين، بسمقه الأبيض، كان يجذّف على طول المجاز، ثم نزلا درجات السلّم معاً.

«طيب، وكيف صحتك، أنت أيها المشاهد اللامبالي، أنت؟» قال بيرنز. «هل نجد إستحساناً في عينك الإنتقادية، ماذا؟ شكراً جزيلاً لك، نعم، نعم، موسمنا الصيفي، انه ليس سيئاً جداً، ثمة شيء يقال عنه. أنفقتُ مالاً قليلاً من حسابي الخاص لأروّج له. لكن مع الأسف لن تكون هنا في الشتاء ـ أنت تمكث هنا ثمانية أسابيع فقط، سمعت ذلك؟ آه، ثلاثة؟ هذا ليس سوى نهاية اسبوع! هذا لن يكفيك حتى لخلع قبعتك. أوه، حسن، مثل ما تعتقد أنت. انه شيء يدعو للأسف فعلاً أن لا تكون هنا في الشتاء المقبل؛ هذا عندما تأتي الرؤوس»، قال بهزل، «الرؤوس العالمية، تحت في [البلاتز]؛ انهم لا يأتون إلا في الشتاء ـ ينبغي لك أن تراهم، لأجل تربيتك فقط. انهم محلقون منتظمون. ينبغي لك أن ترى القفزات التي يقومون بها بزلاجاتهم. ومن ثم السيدات! يا إلهي، السيدات! طيور الجنة، أقول لك، يأتين بانتظام للمغامرة حصراً. طيب، عليّ أن أدخل هنا، الى مريضي الهالك، رقم سبعة وعشرين. المرحلة الأخيرة، كما تعرف ـ بعيداً عن المركز. خمس دزينات إخفاقات تامة من الأوكسجين أخذها معاً، أمس واليوم، السكير! لكنه سيذهب الى مثواه الأخير عند منتصف النهار. حسن، عزيزي رويتر»، قال وهو يدخل، «ماذا تقول ـ هل نكسر عنق زجاجة أخرى؟» تلاشى صوته حين أغلق الباب. غير ان هانز كاستورب ألقى نظرة خاطفة على خلفية الحجرة، حيث هجعت فوق الوسادة الصورة الجانبية الشمعية لشاب ذي لحية ذقن صغيرة، الذي أدار ببطء مقلتيه الكبيرتين نحو الباب المفتوح.

كان هذا أول إنسان هالك رآه هانز كاستورب في حياته؛ ذلك ان أباه وأمه، وجده أيضاً ماتوا، إن صح التعبير، خلف ظهره. كم هو مليء

بالجلال والسمو رأس الشاب، ذي اللحية الصغيرة المتجهة للأعلى، ذلك الرأس الهاجع على وسادته! كم هي ناطقة نظرة تينك العينين الكبيرتين بشكل غير طبيعي اللتين إستدارتا ببطء ناحية الباب! هانز كاستورب، وهو ما يزال مستغرقاً تماماً في تلك النظرة الخاطفة، حاول بشكل غريزي أن يجعل عينيه كبيرتين، ومحدقتين ببطء، ومليئتين بالمعنى كعينيّ الرجل الهالك! مشى وهو يفعل ذلك، نحو درجات السلّم، وصادف امرأةً خرجت من غرفة وراءه وأدركته عند منبسط السلم. لم يعرف اول وهلة انها كانت مدام شوشا؛ هي، من ناحيتها، ابتسمت للعينين اللتين كان ينظر بهما إليها، وضعت يديها على ضفائرها عند مؤخرة رأسها، ومرتْ أمامه نازلة درجات السلم، من دون صوت، طريةً، برأسها البارز بعض الشيء.

كانت تعارفاته نادرة جداً في هذه الأيام المبكرة، وحتى بعد ذلك بوقت طويل. لم يكن الروتين اليومي مؤاتياً. كان هانز كاستورب، أيضاً، ذا مزاج منكفئ، يشعر انه يشبه بالضبط الـ«مشاهد اللامبالي»، كما سماه هوفرات بيرنز، وكان قانعاً عموماً برفقة ابن خالته يواكيم وحواره. ممرضة المجاز، الواقع، واصلت مد عنقها وراءهما، الى ان يواكيم، الذي كان يحابيها بحوارٍ قصير بين الفينة والفينة، قدّم ابن خالته. كانت ترتدي شريط نظارتها الأنفية مثبتاً خلف أذنيها، وتحدثت بتكلف مفرط. في التعارف الأقرب، الحقيقة، يأخذ المرء انطباعاً بأن عقلها عانى من العذاب الشديد للضجر المستمر. كان يشق التخلص منها، كانت تبدي كرباً واضحاً كلما أعطى الحوار علامات من الأسى؛ حين بدا إبنا الخالتين على وشك الذهاب في حال سبيلهما، حاولت أن تستبقيهما بسيلٍ من الكلمات، وبالنظرات والإبتسامات اليائسة، الى أن، للأسف الشديد، أحجما عن الذهاب. كانت تتكلم كيفما اتفق، عن أبيها، الذي كان محامياً، وابن عمها الذي كان طبيباً ـ واضح كانت تراودها فكرة تقديم نفسها بشكل جيد وترك انطباع فيهما بشأن أصلها المثقف. مسؤوليتها الآن، قالت، هي العناية بإبن صانع دمى كوبورغ، يدعى روتبين، داهم المرض القناة المعوية للشاب فرتز. كان هذا أمراً عسيراً لكل المعنيين بالأمر؛ النبلاء بوسعهم أن يفهموا كم كان ذلك شاقاً، ذلك ان المرء الآتي

من محيط مثقف وله رقة الإحساس الذي تتمتع به الطبقات العليا. لا يستطيع المرء أن يدير ظهره دقيقة. قبل مدة وجيزة خرجت هي بضع دقائق ـ للحصول على مسحوق للأسنان، الواقع؛ انها حين عادت، كان مريضها جالساً في سريره، وأمامه كأس الستاوت(١٠)، السلامي(١١)، إسفين سميك من خبز الشوفان، و(طرشي). كل هذه الأطعمة اللذيذة السرية بعثتها عائلته كي تهبه القوة. في اليوم التالي، بطبيعة الحال، كان ميتاً أكثر مما هو حي. كان هو نفسه يعجّل في نهايته المحتومة. إنما كانت تلك نعمة له، راحة مباركة له. بالنسبة لها، سستر بيرتا، على أية حال ـ التي كان اسمها الحقيقي ألفريدا شيلدكنيشت، كان ذلك يعني لها الشيء القليل أو لا شيء على الإطلاق؛ سوف تذهب الى حالة أخرى، في مرحلة مرضية أقل أو أكثر استفحالاً، إما هنا أو في مكان آخر؛ هكذا كان المشهد المفتوح أمامها ـ وليس ثمة مشهداً آخر.

نعم، قال هانز كاستورب، كانت مهنتها صعبة، لكنها مقنعة، على ما أظن.

طبعاً، أجابت، كانت كذلك. مقنعة إنما عسيرة جداً.

طيب، تمنياتنا المفعمة بالإحترام والمودة للمريض ـ وحاول إبنا الخالتين المغادرة.

لكنها تشبثت بهما، بالكلمات والنظرات، بحيث كان من المؤلم أن نراها، وهي تبذل قصارى جهدها كي تستبقيهما مدة أطول قليلاً ـ فمن الفظاظة أن لا يتلطفا عليها بدقائق قلائل أُخر. «انه نائم»، قالت. «انه لا يحتاجني. خرجتُ الى هنا لمدة ثانية أو نحو ذلك.» راحت تشكو من هوفرات بيرنز، الذي كان سلوكه معها خليعاً جداً بكل ما في الكلمة من معنى، فيما يتعلق بأصلها. كانت تفضل الدكتور كروكوفسكي عليه كثيراً، وجدته مفعماً بالروح. ثم عادت الى أبيها وابن عمها، وقدراتها العقلية

(١٠) الستاوت Stout: جعة قوية داكنة ـ المترجم.

(١١) السلامي Salami: سجق إيطالي كثير التوابل ـ المترجم.

المرهقة. بلا جدوى كافحت لإستبقاء الشابين، جعلت صوتها يرتفع الى أن كاد يصبح زعيقاً حين رأتهما يتحركان. فرا منها أخيراً وذهبا؛ تابعت هي النظر خلفهما مدةً وجيزةً، جسدها محني للأمام، نظرتها المحدقة بدت شرهة جداً كما لو انها سوف تمصهما بكل معنى الكلمة الى الوراء بعينيها. تلوّى صدرها بتنهدٍ حين استدارت على عقبيها ودخلت حجرة مريضها.

تعرّف هانز كاستورب الى شخص آخر في هذه الأيام: السيدة المكسيكية الشاحبة، المجللة بالسواد، التي رآها في الحديقة، كان لقبها (الإثنان كلاهما). حدث أن سمع من شفتيها الصيغة الفاجعة؛ وكونه مستعداً، حافظ على سلوك مناسب وكان مقتنعاً بنفسه في ما بعد. إلتقاها إبنا الخالتين قبالة الباب الأمامي، حين كانا يبدآن مشيهما الذي نُصحا بممارسته بعد الفطور المبكر. كانت تراوح متململة هناك، بخطاها الموزونة، ساقاها منحنيتان عند مفصلي الركبتين، ملتفةً بشالٍ كشميري أسود، وبوشاح أسود يلف شعرها الفضي المضطرب ومربوط تحت ذقنها، وجهها الهرم، ذو الفم الكبير المتمعج، يومض شاحباً شحوب الموتى بالمغايرة مع حِدادها. يواكيم، حاسر الرأس كالعادة، حياها بانحناءة شكرته عليها ببطء، الأخاديد تعمقت في جبينها الضيق بينما كانت تنظر إليه. بعدها، وهي ترى وجهاً جديداً، توقفت عن السير البطيء وانتظرت، نكست رأسها برفق عندما أقبلا إليها؛ واضح انها وجدت انه من الأهمية أن تعرف ما إذا كان الغريب قد تعرّف الى حالتها المحزنة، وأن تسمع ماذا يقول عنها. قدَّم يواكيم ابن خالته. سحبت يدها خارج شالها وناولتها له، يداً معروقة، هزيلة، ضاربة الى الإصفرار، بخواتم عديدة، بينما واصلت التحديق في وجهه.

ثم جاءت كلماتها الفرنسية: «كلهم، سيد»، قالت «كلهم، تعرفهم.»

«أعرفه، مدام»، أجاب هانز كاستورب بلطف. «وأسفتُ عليه كثيراً.»

كانت تجاعيد الجلد الرخوة تحت عينيها السوداوين كالكهرمان أكبر وأعمق مما كانت عليه في أي وقت مضى. زفرت رائحة خفيفة أشبه برائحة أزاهير ذابلة. شعور معتدل وكئيب باغت قلبه.

«شكراً»، قالت، بتلفظ محلول مقوقئ، منسجم بشكل غريب مع هيئتها الموهنة. تدلى فمها الكبير بصورة فاجعة عند زاوية واحدة. سحبت يدها ثانية تحت غطائها، أمالت رأسها، وانصرفت.

غير ان هانز كاستورب قال عندما سارا معاً: «رأيت، لم أعزُ الأمر أي قدر من الاهتمام، تصرفتُ معها تصرفاً لائقاً جداً؛ أفعل ذلك دوماً مع أُناس كهؤلاء؛ أفهم غريزياً كيف أنسجم معهم ـ ألا تعتقد ذلك؟ لا بل يخيل لي، عموماً، انني أنسجم مع الحزانى أفضل من انسجامي مع الفرحين ـ الطيبة تعرف السبب. ربما لأنني يتيم، فقدت والديّ مبكراً، ولكن حين يكون الناس وقورين جداً، أو كئيبين، أو حين يتوفى شخص ما، هذا كله لن يورثني الغم أو يربكني؛ أشعر انني في المحيط الملائم لي تماما، أكثر مما أشعر به عندما تجري الأمور على عجلات مشحمة. فكرتُ مؤخراً انه شيء تافه جداً من النساء هنا في الأعالي أن يبدين حزنهن بطريقة صارخة كما يفعلن في ما يتعلق بالموت والأشياء المتعلقة بالموت، بحيث انهن يبذلن قصارى جهدهن كي يقين أنفسهن من التماس معه، ويأتين بالـ (أوخارست) في أوقات وجبات الطعام، وما شاكل. أنا أسمي ذلك ضعفاً منهن. ألا تحب مشهد تابوت؟ أنا أحب رؤيته. أنا أعده قطعةً مليحةً من الاثاث، حتى وهو خالٍ؛ حين يرقد إنسان ما فيه، يكون عندئذ، بنظري، مهيباً حقاً. المآتم لها صفة مهذّبة جداً؛ أفكر دوماً ان على المرء أن يقصد مأتماً بدلاً من الكنيسة حين يشعر بحاجته الى أن يكون سامياً. الناس يرتدون ثياباً سوداً جيدة، ويخلعون قبعاتهم ويتطلعون الى التابوت، ويتصرفون برزانة وتبجيل، ولا يجرؤ شخص ما على صنع مزحة سيئة، كما يفعل الناس عادةً في الحياة الإعتيادية. انه أمر جيد للناس أن يكونوا وقورين، وهو شيء نادر جداً. سألتُ نفسي غالباً ما إذا كان يلزمني أن أغدو كاهناً ـ بطريقة ما لن تكون هذه المهنة غير مناسبة لي ـ آمل أن لا أكون قد ارتكبت خطأً في فرنسيتي؟»

«كلا»، أجاب يواكيم، [أسفتُ عليه كثيراً]. كانت صحيحة تماماً قدر تعلق الأمر في ما مضت إليه.

اختلافات منتظمة في الروتين اليومي بدأت تكشف عن نفسها. كان الأول هو الأحد، الأحد مع فرقة موسيقية فوق الدكة، التي، كما ظهر، كانت تعزف هناك مرة كل اسبوعين. وصل هانز كاستورب في النصف الأخير في واحدة من هذه الأوقات الزمنية. أقبل يوم الثلاثاء، وهكذا فان الأحد هو يومه الخامس هنا في الأعالي ـ يوم قورنت ميزته الشبيهة بالربيع مع التغير الأخير غير الإعتيادي والعودة الى الشتاء. كان يوماً معتدلاً ومنعشاً، سحب ناصعة البياض تلوح في سماء شاحبة الزرقة، وإشراق لطيف فوق الوادي والمنحدرات والذي أظهر مرة أخرى الخضرة التامة للفصل، ذلك ان الثلج الحديث كان مقدراً له أن يذوب بسرعة.

كل الأشخاص، كان واضحاً، بذلوا جهوداً عظيمة لملاحظة الأحد وتمييزه عن بقية أيام الاسبوع، الإدارة والنزلاء يناصر أحدهم الآخر في مساعيهم للوصول الى هذه الغاية. في الفطور المبكر كان هناك كيك البذور[١٢]، وكل نزيل له أمام موضعه كأس صغيرة ذات أزاهير قلائل، قرنفل جبلي وحتى ورود ألبية، دسها النبلاء في عروات سترهم. المحامي باراوانت من دورتموند لبس سترة رجالية سوداء تبلغ الركبتين مع صدرة مرقطة، وكان تبرج النساء مهرجانياً بصورة مناسبة، وشفافاً. ظهرت السيدة شوشا في فستان دانتيلا هفهاف يناسب حفلة نهارية، ذي أكمام مكشوفة. حين دخلت والباب الزجاج أحدث ضجة عالية خلال انغلاقه وراءها، توقفت ثانية مواجهة الحجرة وبرشاقة إذا صح التعبير قدمت نفسها قبل ان تنزلق الى مائدتها. كان الفستان مناسباً لها تماماً بحيث ان جارة هانز كاستورب مدرّسة دانزك، كانت مفتونة كلياً. وحتى الزوجان البربريان عند المائدة الروسية (السيئة) انتبها لليوم: استبدل الزوج سترته الجلد بسترة قصيرة، وجزمتي اللباد بحذاءي جلد؛ أما الزوجة فمع انها كانت ما تزال ترتدي لفاع الريش المتسخ، لبست بلوزة حرير

(١٢) seed cake كعكة محلاة تحوي بذوراً عطرة ـ المترجم.

خضراء مع كشكش رقبة. جعّد هانز كاستورب حاجبيه حين رأى الروسيين، واحمر خجلاً ـ بدا، ما دام هو في الأعالي، انه يتورد بسهولة بالغة.

مباشرة بعد الفطور الثاني بدأت الحفلة الموسيقية فوق الدكة؛ كانت هناك كل أنواع الأبواق وآلات النفخ، وكانوا يعزفون عليها بالتناوب بصورة مرحة وبأنغام متواصلة، حتى وقت الغداء تقريباً. الإستراحة الصباحية، خلال الحفلة الموسيقية، لم تكن إجبارية. نزلاء قلائل متعوا أنفسهم بهذه المتعة البالغة للآذان، وفي الوقت نفسه كانوا مستلقين في شرفاتهم؛ في ردهة الإستراحة في الحديقة شُغلتْ كراسٍ قليلة. غير ان الأغلبية كانوا جالسين الى الموائد الصغيرة البيض فوق الرصيف المحجوب، في حين ان الأشخاص الأكثر طيشاً، وجدوا الجلوس في الكراسي أمراً متزمتاً جداً، خيموا على الدرجات الحجرية التي تنحدر مؤدية الى الحديقة، حيث برهنوا حالياً على جذلهم. كان هؤلاء هم المرضى اليافعون من كلا الجنسين، يعرف هانز كاستورب الآن أسماء معظمهم أو وجوههم. كانت هناك هيرمينه كليفيلد، والسيد ألبين ـ الذي كان يحمل علبة كبيرة مورّدة من الشوكولاته، ويقدمها الى النزلاء كلهم، أما هو فلم يكن يأكل واحدة، بل كان بسيماء كريمة وأبوية، يدخن سيجائر ذات أطراف ذهبية؛ وكان هناك الشاب ذو الشفتين الغليظتين المنتسب الى نادي نصف الرئة، الآنسة ليوي النحيفة عاجية اللون، الشاب الأشقر ـ الرمادي الذي يرد على اسم راسموسين ويرفع يديه بعلو الصدر، برسغين مسترخيين، كزعنفتي حوت؛ السيدة سالومون من امستردام، امرأة ذات بنية جسدية ممتلئة، في ثوب نسائي أحمر، ضمت نفسها الى مجموعة الشبان والشابات؛ الشاب الطويل ذو الشعر الخفيف الذي كان بوسعه عزف «حلم ليلة منتصف صيف» كان جالساً على درجة وراءهما، يشبك ذراعيه حول ركبتيه العظميتين، ويحدق أمامه في مؤخرة عنقها المسفوعة بالشمس. كانت هناك الفتاة اليونانية ذات الشعر الأحمر، هي الأخرى من أصل غير معروف، ذات وجه أشبه بوجه التابير[١٣]؛ الشاب

(١٣) التابير tapir: حيوان أميركي استوائي شبيه بالخنزير ـ المترجم.

الشره ذو النظارتين السميكتين، وثمة ناشيء آخر بعمر خمسة عشر أو ستة عشر عاماً، ذو نظارة أحادية الزجاجة مثبتة في عينه، كان يرفع خنصره، ذا الإظفر الطويل بصورة غير طبيعية الشبيه بملعقة ملح، الى فمه حين يسعل، وكان بصورة واضحة حماراً من الدرجة الأولى ـ هؤلاء، وآخرون غيرهم.

الشخص ذو ظفر الإصبع، روى عنه يواكيم بصوت منخفض، كانت حالته خفيفة حين أقبل الى المصح. لم يكن له حمى وقد أُرسل كإجراء وقائي، من قبل أبيه، الذي كان طبيباً. نصحه هوفرات بالبقاء مدة ثلاثة شهور. انقضت الشهور الثلاثة، وها هو ذا الآن مصاب بالحمى وحرارته تتراوح بين ١٠٠ ـ ١٠٠,٥ درجة فهرنهايت وهو معتل الصحة بشكل خطير. لكنه عاش حياة عريضة وبالفطرة السليمة كلها، بحيث أمسى بحاجة ماسة الى أن يُلكم على أذنيه.

ابنا الخالتين جلسا وحدهما الى مائدة، بعيدين بعض الشيء عن الآخرين، فقد كان هانز كاستورب يدخن وكانت معه بيرته الداكنة التي جلبها من فطوره. بين الفينة والفينة يمنحه سيجاره سعادة قليلة. بليداً، كالعادة، بفعل البيرة والموسيقى، جلس ورأسه مائل الى أحد الجانبين وفمه مفتوح قليلاً، يراقب المشهد المرح المنتجعي (نسبة الى المنتجع)، مؤمناً، ليس كتأثير مزعج، بل بالأحرى معمقاً التفرد العام، ومضيفاً عليه عنصراً عقلياً مثيراً آخر، بحقيقة ان كل هؤلاء الناس كانوا مصابين داخلياً بضعف لا يقاوم، ومعظمهم كانوا محمومين. كانوا يجلسون الى الموائد الصغيرة يحتسون عصير الليمون المحلى الفوَّار؛ أما المجموعة التي على الدرجات، فكان أفرادها يصورون أحدهم الآخر فوتوغرافياً. يتبادلون بينهم طوابع بريدية. الفتاة اليونانية ذات الشعر الأحمر ترسم تخطيطاً لوجه السيد راسموسين على إضمامة من ورق الرسم، لكنها لم تسمح له برؤيته. تتلفت الى هذه الناحية وتلك، ضاحكة بفم مفتوح على وسعه، كاشفة أسنانها العريضة المتباعدة ـ مرّ وقت طويل قبل ان يختطف الشاب التخطيط منها. هيرمينه كليفيلد جثمت على درجتها، عيناها نصف مفتوحتين، تقيس الوقت مع الموسيقى بتحريك يدها الممسكة بصحيفة مطوية، سمحت للسيد ألبين بأن يثبت باقة أزهار على

مقدمة بلوزتها. الشاب ذو الشفتين الشهوانيتين، الجالس عند قدميّ السيدة سالومون، يرفع رأسه كي يتحدث إليها، بينما خلفهما يوجه عازف البيانو خفيف الشعر نظراته الثابتة الى قفاها.

أقبل الطبيبان وانضما الى نزلاء العلاج، هوفرات بيرنز بسمقه الأبيض، وكروكوفسكي بسمقه الأسود. مرّا بمحاذاة صف الموائد، هوفرات يسقط مزحةً عند كل شخص تقريباً، عمت في أعقابه موجة مرح؛ وهكذا عند الدرجات بين الشبيبة، الاناث منهم احتشدن حالاً بصورة غير مباشرة وبالإيماءات حول الدكتور كروكوفسكي، بينما كان هوفرات يضفي شرفاً على وقت الإستراحة بالقيام بـ (عمل مثير) مستخدماً أربطة حذائيه أمام أعين النبلاء. أراح قدماً ضخمة على درجةٍ ما، حل الأربطة، أمسك بها بتقنية متمرسة بيد واحدة، ومن دون استخدام اليد الأخرى، عقفها ثانية بالعرض، بسرعة وخفة بحيث اندهش المشاهدون، وحاول بعضهم تقليده لكن بلا طائل.

بعدها بوقت قصير ظهر سيتيمبريني على الدكة. أقبل من حجرة الطعام متكئاً على عصاه، مرتدياً كعادته سترة الطيار والسروال الأصفر ذا المربعات، ينظر في ما حوله بسيمائه الإنتقادية، اليقظة، الرائعة، واقترب من مائدة إبني الخالتين. «برافو!»، قال، وطلب السماح له بالجلوس معهما.

«بيرة، تبغ، وموسيقى»، استطرد قائلاً. «أنظر الى الوطن! أنا أبتهج حين أراك في محيطك الملائم، أيها المهندس ـ يبدو ان لك إحساساً بالجو القومي. هل لي أن أستدفئ بأشعة شمس سعادتك؟»

بدا هانز كاستورب عابساً ـ اتخذت ملامحه ذلك التعبير حال وقعت عيناه على الإيطالي. قال: «تأخرت عن الحفلة الموسيقية، سيد سيتمبريني؛ لا بد انها شارفت على الإنتهاء. أنت لا تبالي بالموسيقى؟»

«ليس بحسب النظام»، أجاب سيتمبريني. «ليس بحسب التقويم الاسبوعي. ليس حين تتبخر من نضد الفرض وتتصدق بها عليّ السلطات من أجل تحسين حالتي الصحية. أنا أتشبث بحريتي ـ أو بالأحرى بذرات الحرية والكرامة الشخصية التي بقيت لأمثالنا. في ما يتعلق بهذه المسائل ألعب دور

الضيف، كما تفعل أنت هنا في الأعالي: آتي مدة ربع ساعة وأذهب ـ هذا يمنحني وهم الإستقلال. ذلك أكثر من وهم لم أطالب به ـ هو كافٍ إذا طاب لي! الأمر مختلف مع ابن خالتك. بالنسبة له كل شيء يعود الى الخدمة ـ ذلك هو الضوء، أليس هو، أيها الملازم الذي تنظر به إليها؟ آه، نعم، أعرف، أنت تملك خاصية التشبث بكبريائك، حتى في حالة الرق. خاصية مربكة، لا يفهمها الجميع في أوروبا. الموسيقى؟ كنت تسألني ما إذا أدعي كوني هاوياً للموسيقى؟ طيب، حين تقول هاوياً» (لا يستطيع هانز كاستورب أن يتذكر انه قال شيئاً من هذا القبيل)، «هذه الكلمة أغلب الظن لم يُسأ اختيارها؛ لها إيحاء طفيف بالسطحية ـ نعم، جيد جداً، أنا هاوي موسيقى ـ هذا لا يعني انني أعوّل عليها الشيء الكثير، هي ليست كما أحب وأبجل (الكلمة)، حاملة الروح، أداة المحراث والشفرة الوامضة للتقدم ـ الموسيقى؟ انها الفن نصف الواضح، المشكوك فيه، اللامسؤول، الجامد. ربما تعترض قائلاً ان بوسعها أن تكون واضحة حين تريد ذلك. لكن الطبيعة تستطيع أن تكون هكذا، وكذلك يستطيع غدير من الغدران ـ ما نفع ذلك لنا؟ ذلك ليس وضوحاً حقيقياً، انه وضوح حالم، خالٍ من المعنى، لا مسؤول، من دون نتائج ولهذا فهو خطير، لأنه يغرر المرء بالرضا الناعم عن النفس ـ دع الموسيقى تلعب دورها الأسمى، انها بتلك الطريقة لا تثير إلا العواطف، في حين ان ما يعنينا هو إيقاظ العقل. الموسيقى بالنسبة للجميع حركة ظهور بحد ذاتها ـ مع ذلك، بسبب هذا كله ـ أنا أشك في كونها تصوفاً. دعني أصُغْ فكرتي بطريقة المبالغة: ان نفوري من الموسيقى يستند الى خلفيات سياسية.»

لم يستطع هانز كاستورب أن يحجم عن صفع ركبتيه حين هتف انه لم يحدث في حياته كلها أن سمع شيئاً كهذا.

«أرجوك، في ما يتعلق بهذه المسألة، لا ترفض تضييفها»، قال سيتيمبريني باسماً. «الموسيقى، كونها المحرّض الأخير لروح البشر، لا تُثمن ـ هي قوة تسحب الى الأمام والأعلى الروح التي تجدها مهيأة لخدماتها. لكن الأدب يجب أن يفوقها أهمية. بالموسيقى وحدها لن يتقدم العالم الى أمام أكثر. الموسيقى وحدها خطر. بالنسبة لك، شخصياً، أيها المهندس، هي

بلا أدنى شك خطيرة. رأيتُ ذلك في وجهك حين أتيت الى هنا.»

ضحك هانز كاستورب.

«أوه، لا ينبغي لك أن تنظر في وجهي، سيد سيتمبريني. أنت لا تصدّق كيف يضعني هذا الجو على النار. ان التأقلم أصعب. مما ظننتُ.»

«أخشى أن تكون قد خدعتَ نفسك.»

«كيف؟ أعرف في الأقل، كم أنا حار الى حد بعيد ومرهق طوال الوقت.»

«يبدو لي اننا يجب أن نكون شاكرين للإدارة على الحفلة الموسيقية»، قال يواكيم بتأمل. «أنا لا أعارضك، سيد سيتيمبريني، لأنك نظرت الى المسألة من وجهة نظر أعلى، إذا صح التعبير، كمؤلف. لكنني أجد ان على المرء أن يكون شاكراً، هنا في الأعالي، لشيء من الموسيقى. أنا بعيد جداً عن كوني مولعاً بالموسيقى بشكل خاص، وثم ان المقطوعات الموسيقية التي يعزفونها ليست مهذّبة على وجه الدقة، هي ليست كلاسيكية ولا حديثة، بل موسيقى ـ فرقة عادية. مع ذلك، انه تغيير سار. يستغرق ساعتين بطريقة مقبولة جداً؛ أعني انه يقتطعهما، ويملأهما، وهكذا فثمة شيء خاص بهما، بالمقارنة مع الأيام، الساعات، والأسابيع التي تنطلق بخفة ورشاقة لا يشبهها شيء على الإطلاق. ترى جزءاً متواضعاً من الحفلة الموسيقية يستمر سبع دقائق ربما، وتلك الدقائق السبع تساوي شيئاً ما؛ ولها بداية ونهاية، انها تصمد، انها لا تنزلق بسهولة شديدة الى الدورة الزمنية النظامية الرتيبة وتضيع. فضلاً عن ذلك هي منقسمة ثانية بوساطة حركات القطعة الموسيقية التي يعزفونها، وهذه بدورها منقسمة الى ضربات، وهكذا يكون هنالك شيء ما يجري دوماً، وكل لحظة لها معنى ما، شيء ما يمكنك أن تمسك به، في حين عادةً ـ لا أعرف ما إذا جعلتُ نفسي ـ».

«برافو!» هتف سيتيمبريني. «برافو، أيها الملازم! أنت تصف جيداً جداً في الواقع جانباً من الموسيقى له قيمة أخلاقية لا سبيل الى الشك فيها: أي، ان طريقتها المعززة للحياة بصورة خاصة في قياس الزمن تضفي حذراً روحياً وقيمةً لمروره. الموسيقى تعجل الزمن، انها تأخذنا سريعاً الى أجمل متع

الزمن؛ انها تعجل ـ ومن هنا فهي تمتلك قيمة أخلاقية. الفن له قيمة أخلاقية بقدر ما هو يعجل. ولكن ماذا يحصل إذا فعلت العكس؟ ماذا لو جعلتنا متبلدي الحس، أرسلتنا الى النوم، وعملت ضد النشاط والتقدم؟ الموسيقى بوسعها أن تفعل ذلك أيضاً، انها يد متمرسة في استخدام المخدرات. لكن المخدر، سيديّ العزيزين، هو هدية الشيطان؛ صُنع من أجل السبات، الكسل، التراخي الوضيع، والركود. ثمة شيء مشبوه في الموسيقى، أيها النبيلان. أنا أشدد على القول انها، بطبيعتها، مريبة. لا أبالغ إذا قلتُ حالاً انها مشبوهة سياسياً.»

استمر في هذا المزاج، وكان هانز كاستورب يصغي من دون أن يتابع بدقة، أولاً بسبب إرهاقه، وثانياً لأن انتباهه قد تشتت بفعل حوادث الشبيبة الطائشين على الدرجات. هل خدعته عيناه أم ان الفتاة ذات الوجه التابيري كانت منهمكة فعلاً في خياطة زر للناشئ ذي النظارة أحادية الزجاجة ـ، في الواقع، في شريط ركبة بنطلونه القصير الواسع المرموم عند الركبة؟ كانت تتنفس تنفس المصابين بالربو بينما هي تخيط، وكان هو يسعل ويرفع خنصره، ذا الاظفر الشبيه بملعقة الملح، الى فمه. بطبيعة الحال كانا مريضين ـ لكن، مع ذلك، هؤلاء الشبيبة هنا في الأعالي لهم معايير اجتماعية خاصة! عزفت الفرقة موسيقى البولكا.

هيبه

هكذا مر الأحد. كان العصر موسوماً برحلاتٍ بالمركبات قامت بها مجموعات مختلفة؛ مرات عدة بعد الشاي اجتازت بنشاط عربة وجوادان الطريق المتمعج وتوقفت أمام المدخل كي تستقبل مستأجريها ـ كان، معظمهم، نساءً روسيات.

«الروس يتنقلون بالعربات كثيراً»، قال يواكيم لـ هانز كاستورب، حين وقفا قبالة المدخل وسليا نفسيهما بمراقبة العربات وهي تأتي. «سوف يذهبن الى كلاواديل، أو الى وادي فلويلا أو الى أبعد من ذلك: كلوسترز. تلك هي

الأهداف الاعتيادية. ربما نقوم نحن أيضاً برحلة بالمركبة خلال وجودك هنا في الأعالي، إن شئت. لكن حالياً عليك أن تقوم بأشياء كافية كي تعتاد الأمور، ولا تحتاج الى تسلية أكثر.»

الأمر الذي وافق عليه هانز كاستورب. كانت له سيجارة في فمه، ويداه في جيبي سرواله، ووقف هكذا يراقب السيدة الروسية العجوز الحيوية والضئيلة، بينما هي، مع حفيدة أختها الهزيلة وسيدتين أُخريين، يتخذن مجلسهن في مقاعد عربة ما. كانت السيدتان مدام شوشا وماروسيا. مدام شوشا لبست معطفاً فضفاضاً خفيفاً ذا حزام في الخلف، ولكنها لم تضع قبعة على رأسها. جلست جنب المرأة الكهلة في بدن العربة، بينما اتخذت الشابتان موقعيهما في الخلف. الأربع كلهن كن في مزاج حيوي وثرثرن من دون انقطاع بألسنتهن الناعمة اللافقارية. ثرثرن حول سقف العربة، الذي كان يصعب عليهن أن يكن تحته، حول الفاكهة الروسية المسكَّرة المجففة التي جلبتها لهن خالة الأم كي يمضغنها بصوت طاحن، في صندوق خشب صغير مبطن بقطن وورق مخرّم، وكانت هذه الفاكهة قد سُلمتْ إليهن باليد. ـ ميز هانز كاستورب بولع صوت السيدة شوشا الأجش نوعاً. كما هي العادة كلما وقعت عيناه على تلك الإنسانة الطائشة، التشابه أكد نفسه من جديد وحيره مدة وجيزة ومن ثم تكشف له في حلم. غير ان ضحكة ماروسيا، تعبير عينيها البنيتين، المدورتين، وهما تنظران ببراءة من فوق المنديل الصغير الذي وضعته فوق فمها، ومن فوق الصدر الممتلئ الذي حتى الآن يوجعها وجعاً شديداً في الداخل، هذه كلها ذكرته بشيء آخر، شيء ما منحه رعشة مباغتة وجعله ينظر باحتراس الى ابن خالته من دون أن يدير رأسه. لا، شكراً للطيبة، يواكيم لم يغدو مرقشاً، كما في المرة السابقة؛ لم تكن شفتاه مضغوطتين بصورة مؤلمة جداً. لكنه كان يتطلع الى ماروسيا، وطريقة وقوفه، والتعبير الظاهر في عينيه، كانا أي شيء عدا كونهما عسكريين. الواقع تلك النظرة المستغرقة والمشتاقة يمكن فقط تمييزها بكونها مدنية بشكل نموذجي. على أية حال، استرد رباطة جأشه بسرعة واختلس نظرة الى هانز كاستورب، الذي كان له الوقت الكافي ليتحاشاها، بأن أزاغ عينيه ورنا ببصره

الى السماء. شعر ان قلبه يطلق نقرة مفاجئة ـ من دون إيقاع أو مبرر، طوعاً، كما تعوّد أن يفعل هنا في الأعالي.

لم يكن الأحد إستثنائياً أكثر، عدا، ربما، وجبات الطعام، التي، بما انه ليس بالمستطاع أن تكون أكثر وفرةً مما هي عليه الآن، تكشفت عن تحسينات أعظم في ألوان الطعام المقدمة للنزلاء. في الغداء كان هناك طبق من لحم الدجاج المطبوخ البارد في صلصة، مزين بجراد البحر (الروبيان) وكرز منزوع النوى، مع الحلوى الجليدية[١٤] جاءت المعجنات مقدمة في سلال من غزل السكر[١٥]، فضلاً عن الأناناس الطازج. في المساء بعد ان احتسى بيرته، شعر هانز كاستورب ان أطرافه أمست أثقل من ذي قبل، وانه بردان أكثر وأكثر إرهاقاً عما كان عليه يوم أمس؛ قرابة الساعة التاسعة ودع ابن خالته متمنياً له ليلة هانئة، سحب منفضة الريش خاصته الى ذقنه ونام كالميت.

لكن في الغد، أول إثنين يقضيه النزيل هنا في الأعالي، جاء تغيير آخر يتكرر بانتظام في الروتين اليومي: المحاضرات، يلقي إحداها الدكتور كروكوفسكي بين إثنين وإثنين صباحاً في حجرة الطعام، أمام كل السكان البالغين في المصح، عدا «الهالكين» وأولئك الذين لا يستطيعون فهم اللغة. (الكورس)، عرف هانز كاستورب من ابن خالته، مؤلف من سلسلة من المحاضرات العلمية ـ المبسطة، تحت العنوان العام: «الغرام قوة مساعدة في المرض». هذه التسليات المثقِفة جرت بعد الفطور الثاني؛ لم يكن مسموحاً، كرر يواكيم، بالتغيب عن حضورها ـ أو، في الأقل، الغياب عنها يُقابل بالتجهم. وهكذا كانت جسارة كبيرة من سيتيمبريني، الذي كان له بالتأكيد تضلع أكبر في اللغة مقارنة بأي شخص آخر، ليس فقط في عدم الحضور، بل بأن ينعت التسلية بأكثر المصطلحات استخفافاً. أما بالنسبة لـ هانز كاستورب، فقد قرر حضورها من غير تردد، بالدرجة الأولى تعبيراً عن

---

(١٤) الحلوى الجليدية ice: حلوى متجلدة تحتوي على عصير فاكهة، وبخاصة حلوى متجلدة لا تشتمل على حليب ـ المترجم.

(١٥) غزل السكر spun sugar: حلوى تعد من سكر على صورة خيوط، تدعى بالعامية العراقية: شعر البنات ـ المترجم.

كياسته، ولكن أيضاً مع فضول غير خفي لسماع ما يقال فيها. قبل الساعة المحددة، على أية حال، فعل شيئاً منحرفاً وطائشاً، برهن على كونه سيئاً له أكثر مما يحدس المرء: مضى في نزهة وحيدة طويلة على القدمين. «الآن إصغ إليّ» كانت أولى كلماته، حين دخل يواكيم حجرته ذلك الصباح. «برأيي ان الأمور لا يمكن أن تجري معي على هذه الوتيرة. نلتُ كفايتي من الأفقي حالياً؛ ان دم المرء يكاد ينام. بالطبع الأمر يختلف معك؛ فأنتَ مريض، وليست لي أية نية في إغوائك. لكنني أروم التمشي مسافة جيدة بعد الفطور، إن لم تمانع، التمشي فقط عشوائياً على مدى ساعتين. سوف أُقحم كميةً صغيرةً من شيء ما في جيبي من أجل الفطور الثاني؛ ثم يلزمني أن أكون مستقلاً بسلوكي. سنرى ما إذا لم أكن شاباً مختلفاً جداً حين أعود ثانية.»

وافق يواكيم بحرارة، حين رأى ابن خالته مصراً في رغبته وخطته. «لكن لا تفرط في التمشي»، قال؛ «هذه نصيحتي. الشيء ليس نفسه هنا في الأعالي كما هو في البيت. ويحتم عليك أن تؤوب في الوقت المحدد من أجل المحاضرة.»

الواقع، كان لـ هانز كاستورب سبب آخر غير السبب الجسدي لقراره الحالي. ان رأسه الذي حمي أكثر مما ينبغي، المذاق السيء السائد في فمه، الخفقان المتقطع لقلبه، كلها، أو هكذا شعر هو، كانت أشياءً أقل شراً لازمت عملية التأقلم مقارنة بأشياء مثل حوادث الزوجين الروسيين في الحجرة المجاورة، حديث السيدة شتور البلهاء والمبتلاة عند المائدة، السعال اللين لراكب ـ الفرس النبيل المسموع يومياً في المجاز، ملكات السيد البين الكلامية، الإنطباع الذي أخذه عن سلوك الشبيبة المرضى حوله وأخلاقهم، التعبير الظاهر على محيا يواكيم حين نظر الى ماروسيا ـ هذه الملاحظات ومائة غيرها جعلته يحس انه من الأفضل له أن يهرب برهةً من محيط بيرغهوف، وأن يستنشق الهواء بعمق ويملأ به رئتيه، وأن يقوم ببعض التمارين المناسبة ـ وبعدها، حين يشعر بالإرهاق ليلاً، سوف يعرف في الأقل السبب. إستأذن يواكيم بالإنصراف في مزاج حب المغامرة، حين

إرتدى ابن خالته ملابسه، بعد الفطور، من أجل الجولة المعهودة الى المصطبة عند المجرى المائي؛ ثم، مؤرجحاً عصا المشي خاصته، إنطلق في طريقه الخاص.

كان الوقت زهاء التاسعة من صباح معتدل البرودة، ذي سماء محجوبة. بحسب برنامج ما، عبّ هانز كاستورب نشقات هواء الصباح النقي، الهواء المنعش، الخفيف الذي يكون إستنشاقه يسيراً جداً، الذي لا يحمل ذرةً من الرطوبة، الذي كان من دون أشياء ملازمة، من دون محتوى. عبر الجدول والطريق الضيق المؤدي الى الشارع، ذي البنايات المبعثرة؛ لكنه تركه ثانيةً واخترق حالاً درب مرج ما، الذي استمر فقط مسافة قصيرة في الأرض المستوية ومن ثم مال بانحدار شديد الى اليمين. التسلق أبهج فؤاد هانز كاستورب، صدره إتسع، دفع قبعته الى جبينه بالجزء الأعقف من عصاه؛ ولأنه إرتفع مسافة معينة تطلع الى الوراء، مشاهداً في البعد البحيرة الشبيهة بالمرآة التي مرّ بها خلال رحلته الى هنا، وشرع يغني.

أنشد تلك الأغاني التي حفظها بقيادته هو، كل أنواع الأغاني الشعبية القصيرة البسيطة الوجدانية، من منتجات أغاني البالاد(١٦) القومية وكتب الأغاني المخصصة للطلبة، إحداها تقول:

دع شعراء الحب والخمر كلهم
عن الفضيلة دوماً تنشد التسبيحات،

غنى بنعومة في بادئ الأمر، بنبرة مهمهِمة، ثم بنبرة أعلى، وختاماً بأعلى صوته. كان جهيره الأول يفتقر الى المرونة، مع ذلك اليوم وجده جيداً، وأنشد بحماسة متعاظمة. حين وجد انه إختار للبداية صوتاً عالياً جداً، تحوّل الى صوتٍ عالي الطبقة بصورة إصطناعية، وحتى ذلك الصوت راقه. حين تركته ذاكرته في مركز حرج، ساعد نفسه بالتوجه الى اللحن مهما كانت الكلمات والمقاطع اللفظية التي عنتْ في باله، غافلاً المعنى، مطلقاً إياها كما لو كان مغني أوبرا، بشفتين مقوستين وبحرف راء قوي صادر عن اللهاة. بل

---

(١٦) البالاد ballad: أغنية شعبية وبخاصة: أغنية راقصة عاطفية ـ المترجم.

بدأ يرتجل الكلمات والموسيقى معاً، مرافقاً تأديته للأغنية مع إيماءات مسرحية. انه إرهاق كبير أن تغني وتصعد في الوقت نفسه، واكتشف هانز كاستورب ان تنفسه بدأ ينقص شيئاً فشيئاً. مع ذلك بسبب سعادته الغريبة بالفكرة، بسبب ابتهاجه بالغناء، أخرج صوته عنوة وتابع الغناء، مع لهاثات عدة من أجل التنفس، الى أن تعذر عليه الاستمرار، وخرّ، بلا نَفَس، نصف أعمى، مع شرارات ملونة أمام عينيه ونبضات متسارعة، تحت صنوبرة ثابتة. شعوره غير السوي بالقوة تراجع فجأة الى كآبة هيمنت عليه؛ وقع فريسة اكتئاب على شفير اليأس.

حين نهض على قدميه ثانية كي يتابع سيره، بعد ان شفيت أعصابه بصورة مقبولة، اكتشف ان عنقه يرتعش، الواقع كان رأسه يهتز بالطريقة ذاتها الآن، في عمره، التي إهتز بها رأس العجوز هانز لورنز كاستورب مرة. الظاهرة أعادت بطراوة كبيرة الى ذهنه ذكرى جده المتوفى التي، بعيداً عن كونها كريهة بالنسبة له، وجد سعادة في إفادة نفسه من تلك الطريقة المتذكرة والجليلة في إسناد الذقن، التي بواسطتها كان جده ميالاً للسيطرة على إهتزاز رأسه، والتي استجاب لها الغلام بتلك العاطفة الباطنية.

صعد الى موقع أعلى في الدرب المتعرّج، مجذوباً من قبل صوت أجراس الأبقار، ووصل أخيراً الى القطيع، الذي كان يرعى قرب كوخ ذي سقف مثقل بالأحجار. دنا منه رجلان ملتحيان، يحملان فأسين على كتفيهما، إبتعدا عنه مسافة قصيرة، «شكراً جزيلاً لكم، وليكن الله معكم»، قال أحدهما للآخر، بصوت عميق صادر عن الحنجرة، حوّل فأسه الى الكتف الأخرى، وبدءا يشقان طريقهما عبر أغصان صنوبر مطقطقة الى الوادي. بدت الكلمات غريبةً في هذه البقعة المنعزلة: أتت شبيهة بالحلم الى وعي هانز كاستورب، الذي كان مرهقاً ومخدراً. أعاد الكلمات، برقة، ساعياً الى استخراج المقاطع اللفظية الحنجرية، الرسمية والريفية للغة الجبل، بينما كان يتسلق مدىً آخر أعلى، فوق الكوخ. فكر في أن يصل إرتفاعاً تكون فيه الأشجار مهجورة، لكنه حين نظر الى ساعته قاوم هذه الفكرة.

سلك الدرب الأيسر المتجه صوب القرية. كان الدرب مستوياً على مدى

مسافة قصيرة، ثم أفضى الى طريق منحدر، بين أشجار صنوبر طويلة الجذوع، حيث، وهو يمضي، شرع يغني من جديد، بشكل تجريبي، وبالرغم من حقيقة ان ركبتيه إرتعشتا أكثر مما كانتا عليه أثناء الصعود. عند إنبثاقه من الغابة توقف، مفتوناً بسحر المنظر الطبيعي الصغير المطوَّق أمامه، المشهد المؤلف من عناصر مسالمة وسامية معاً.

جاء الجدول الجبلي متدفقاً في قاعه الضحل، الحجري عبر المنحدر الأيمن، تدفق مزبداً فوق الجلاميد المزوّدة بالمصاطب، الواقعة في دربه، ثم جرى بهدوء أكثر صوب الوادي، مقطوعاً عند هذه النقطة بجسر مشاة خشب، مسيّج، رائع المنظر. كانت الأرض في كل الأرجاء المحيطة زرقاء مع البراعم الشبيهة بالأجراس لنبات كثيف، نام بغزارة. أشجار التنوب داكنة اللون النامية نمواً ضخماً أيضاً إنتصبت في قاع الوهد[١٧] وتسلقت جوانبه الى القمة. إحداها، مدت جذورها في أرض الضفة شديدة الإنحدار عند جانب السيل، دفعت نفسها بانحراف الى الصورة، بتأثير غريب. البقعة البعيدة والمحبوبة كلها كانت مغلفة بعزلة رنانة بفعل ضجيج المياه المندفعة. لاحظ هانز كاستورب مصطبة انتصبت فوق الضفة الأبعد من الجدول.

إجتاز جسر المشاة وجلس كي يمتع نفسه برؤية الشلال المزبّد، المندفع والصوت الرعوي لثرثرته الرتيبة والمتغيرة. ذلك ان هانز كاستورب كان يحب صوت المياه المندفعة كحبه للموسيقى ـ لا بل ربما أكثر. لكنه ما ان جلس حتى باغته نزيف من الأنف، والذي حدث بصورة مفاجئة جداً، بحيث لم يكن له الوقت الكافي لحماية ثيابه من التلوث. كان النزف عنيفاً ومتواصلاً، استغرق إيقافه قرابة نصف ساعة من الذهاب والإياب من المصطبة الى الغدير، مستنشقاً الماء عبر منخرية، غاسلاً منديله برفق ومستلقياً باستقامة على ظهره فوق المقعد الخشب مع قطعة القماش المبللة على أنفه. هجع هناك، بعد ان توقف النزف أخيراً، ركبتاه مرفوعتان، يداه مطويتان خلف رأسه، عيناه مغمضتان، وأذناه مليئتان بهدير الماء. لم يستحوذ عليه شعور

---

(١٧) الوهد ravine: وادٍ صغير ضيق شديد الإنحدار ـ المترجم.

غير مستساغ، كان لإراقة الدم تأثير مهدئ، لكنه وجد نفسه في حالة غير إعتيادية من نقصان الحيوية، بحيث انه حين زفر الهواء، لم يشعره بالحاجة الى إستنشاقه ثانية، ورقد هناك بلا حراك، من أجل فسحة من نبضات قلب عديدة هادئة، قبل ان يأخذ نفساً بطيئاً وسطحياً.

بصورة مفاجئة تماماً وجد نفسه في الماضي البعيد جداً، متنقلاً الى مشهد عاد إليه في حلم ما قبل ليالٍ عدة، إستدعته انطباعات معينة كوّنها عن الأيام القليلة الأخيرة. لكن بقوة شديدة، بلا مقاومة، نحو إبطال الزمن والمكان، كان هو مستغرقاً في الماضي، قد يقول المرء انه جسد بلا حياة يرقد هنا على مصطبة عند جانب النهر، في حين ان هانز كاستورب الحقيقي كان يتحرك في ذلك الزمن والمكان البعيدين جداً ـ في وضع كان بالنسبة له، بالرغم من صبيانيته، نابضاً بالجسارة والمغامرة.

حدث ذلك حين كان غلاماً في الثالثة عشرة، يرتدي سروالاً قصيراً حتى الركبتين، في الصف الثالث الإبتدائي من المدرسة. وقف في فناء المدرسة يتحدث مع غلام آخر في عمره، من صف أعلى. بدأت المحاورة بصورة اعتباطية نوعاً، من قبله هو، بدا متعاملاً مع موضوع محدد بشكل ضيق ذي طبيعة عملية، لا يمكن إطالته بأية حال؛ مع ذلك منحه قناعةً عظمى. جرى ذلك في الفرصة بين الدرسين الأخيرين، مادة التاريخ وساعة الرسم؛ كان الطلاب يتمشون جيئة وذهاباً، أو يقفون بهيئة مجاميع، أو يمضون الوقت متبطلين بإزاء الدعامات المكسوة بطبقة رقيقة صقيلة لجدار بناية ـ المدرسة. همهمة الأصوات ملأت الساحة المرصوفة بالقرميد الأحمر، التي كانت مفصولة عن الشارع بجدار متوّج بألواح خشب متداخلة ومزوّد ببوابتي دخول. تمت المراقبة من قبل مدرس يعتمر قبعة مترهلة(١٨)، الذي كان يمضغ بصوت طاحن (سندويتشة) لحم الفخذ في ذلك الحين.

الغلام الذي تكلم معه هانز كاستورب يدعى هيبه، بريبسلاف هيبه. ان خصوصية هذا الاسم المحدد تكمن في ان عليك أن تتلفظه كما لو انه يتم

(١٨) القبعة المترهلة slouch hat: قبعة عريضة الحافة مسترخيتها ـ المترجم.

تهجئته بشيبسلاف؛ وكان تفرد التسمية مناسباً لمظهر الطالب، الذي كان في الواقع غريباً جداً. كان هيبه ابن عالِم وبروفيسور التاريخ في المدرسة الثانوية الألمانية. كان هو، بالنتيجة، طالباً نموذجياً مشهوراً، ومع انه لم يكن أكبر من هانز كاستورب كثيراً، إلا أنه كان متقدماً عليه بصف واحد. كان آتياً من مكلينبورغ وكان في شخصه بشكل واضح نتاج مزيج قديم من السلالات، تطعيم السلالة الألمانية بالسلافية، أو العكس. حقيقةً، رأسه المدور ذو شعر قصير أشقر؛ غير ان عينيه كانتا رماديتين ـ زرقاوين، أو زرقاوين ـ رماديتين ـ لونهما غير محدد، غامض، مثل لون سلسلة جبال نائية جداً ـ وشكلهما ضيق وغريب؛ وكانتا أيضاً، إذا ما توخينا الدقة، مائلتين قليلاً، تحتهما مباشرة عظام وجنتين بارزة ولافتة للنظر. كان وجهاً من طراز، أبعد ما يكون عن الشذوذ، كان وجهاً مقبولاً بصورة واضحة، مع انه كان غريباً بدرجة كافية كي يكسب له لقب «القرغيزي» بين زملائه. كان هيبه يرتدي سروالاً طويلاً، وسترة زرقاء مطوّقة بيسر من الخلف ومغلقة حتى الحنجرة، كانت ياقتها مبيضة دوماً برقائق قلائل من قشرة الرأس.

الآن، المسألة هي ان هانز كاستورب، على مدى زمن طويل، كان ينظر باستمرار الى بريبيسلاف؛ وقد اختاره من بين الحشد كلهم، الذين يعرفهم والذين لا يعرفهم، في ساحة المدرسة، كان مولعاً به، يتابعه بنظراته ـ هل نقول انه كان معجباً به؟ ـ على أية حال كان يلاحظه بعاطفة خاصة. حتى في طريقه الى المدرسة كان يتطلع بسعادة لمراقبة «القرغيزي»، بين زملائه، يراه يتكلم ويقهقه، يميز صوته عن أصوات الآخرين كونه أجش ومحجباً بشكل مُرضٍ. حتماً لم يكن هناك سبب كاف لتفضيله، ما لم يعزى ذلك الى اسم هيبه غير المتمدن، شخصيته كونه طالباً نموذجياً، هذه الميزة الأخيرة كانت، بطبيعة الحال، غير واردة ـ أو الى العينين «القرغيزيتين»، اللتين كان بوسع نظرتهما الرمادية ـ الزرقاء أن تذوب غالباً في لغز من العتمة حين يدركها المرء وهي تتأمل شزراً؛ أي شي كان، أو لا شيء على الإطلاق، هانز كاستورب لم يكن يزعج نفسه قيد أنملة بتبرير مشاعره، أو حتى بالسؤال عن الاسم المناسب الذي يمكن أن يُطلق عليها. ذلك ان، بما انه لا «يعرف»

هيبه، العلاقة لا يمكن أن تكون علاقة صداقة. لكن في المقام الأول لم تكن هناك أدنى حاجة الى تسميتها بأي شيء؛ لن تكون هي موضوعاً للمناقشة؛ سيكون ذلك في غير محله، ولم تكن له رغبة فيها؛ وثانياً، ان إعطاء الشيء، أي شيء، اسماً يتضمن، إن لم يكن حكماً عابراً بشأنه، ففي الأقل تعريفاً به؛ أي، تصنيفه بين ما هو مألوف وعادي في حين ان هانز كاستورب تغلغلت فيه قناعة غير واعية ان العنصر الخيّر الداخلي من هذا النوع كان يجب، قبل كل شيء، ان يحمى من التعريف والتصنيف.

ولكن سواء كان قائماً على أساس قوي أو ضعيف، ومهما كان بعيداً عن كونه موضوعاً للنقاش، أو حتى بعيداً عن كونه قد لامس عقل هانز كاستورب، مشاعره هذه إزدهرت هناك بقوة عظيمة، كما فعلت هي على مدى عام كامل تقريباً الآن - أو عام كامل إذا ما استطاع المرء تقريباً أن يحدد الوقت، ذلك ان من العسير أن يكون المرء دقيقاً في ما يتعلق ببداياتها (أي المشاعر). طوال عام كامل تقريباً، إذاً، حمل مشاعره سراً، الأمر الذي يدل على اخلاص شخصيته وجلدها، حين يفكر المرء ملياً كم هو حيز زمني عظيم: العام في ذلك العمر. لكن، وا أسفاه، كل وصف للخصائص من هذا النوع يتضمن حكماً أخلاقياً، سواء مؤاتٍ أو غير مؤاتٍ - مع انه، ليكن في علمك، كل صفة شخصية لها جانباها. وهكذا فإن «اخلاص» هانز كاستورب - والذي بشأنه، هكذا قيل، لم يكن ميالاً، للتباهي بنفسه - يكمن، بصورة مكشوفة، في بطئه المزاجي، بلادته، وسكونه، ميل جوهري للشعور بالاحترام نحو حالات البقاء والثبات؛ وكلما كان الاحترام أكبر يطول بقاؤها أكثر. كان يميل للإيمان ببقاء حالة معينة أو ظروف خاصة وجد فيها نفسه حالياً؛ يقدرها بسبب تلك الخاصية، ولم يكن يعقد العزم على التغيير. وهكذا اعتاد على علاقته الصامتة والبعيدة مع بريبسلاف هيبه، وعدها سمةً منتظمة لحياته؛ أحب العواطف التي أتت بها في قطارها، الحيرة في ما إذا كان محتملاً أن يلتقيه ذلك اليوم، ما إذا سيمر بريبسلاف بالقرب منه، أو حتى ينظر اليه؛ أحب القناعة الرزينة وغير المصحوبة بكلمات التي منحها سره، أحب حتى خيبات الأمل غير المنفصلة عنه - أعظمها غياب بريبسلاف

عن المدرسة. حين جرى ذلك أمست ساحة المدرسة صحراءً، واليوم افتقد الى السحر كله، الأمل وحده هو الذي بقي.

المسألة استمرت عاماً كاملاً حتى تلك اللحظة الجريئة والمتأوجة؛ والتي بعدها، شكراً لجَلَد روح هانز كاستورب، استمرت لحظةً أخرى. ثم انتهت. وحقيقة انه لم يعد يلاحظ ارتخاء الآصرة التي ربطته بـ بريبسلاف وتبددها كما لاحظ من قبل بداياتها. وفضلاً عن ذلك، كنتيجة لتبوء والده منصباً آخر، بريبسلاف ترك المدرسة والمدينة؛ غير ان هذا كان سيّان بالنسبة لـ هانز كاستورب؛ فقد نسيه قبل أن يغادر. يستطيع المرء القول ان صورة «القرغيزي» إنسلت خارجة من السديم الى حياة هانز كاستورب وشيئاً فشيئاً أضحت حية وملموسة هناك، حتى تلك اللحظة التي امتازت بالقرب الأعظم والمادية، في ساحة المدرسة؛ وقفتْ هنيهةً هكذا في الطليعة، ثم تراجعتْ ببطء، وتبددت من جديد وسط السديم من دون ألم الفراق.

لكن تلك اللحظة، ذلك الموقف الجريء، المغامر، الذي وجد فيه هانز كاستورب نفسه منقولاً إليه بعد تلك السنوات كلها، الحوار ـ حوار حقيقي مع بريبسلاف هيبه ـ الذي جرى هكذا. كان درس الرسم هو الحصة التالية ووجد هانز كاستورب نفسه من غير قلم رصاص. زملاؤه في الصف يحتاجون أقلامهم، لكنه يعرف هذا وذاك من الطلاب الآخرين، الذين ربما يطلب منهم إعارةً. مع ذلك وجد ان بريبسلاف هو أقرب الواقفين إليه، على أية حال، وان عليه، سراً، أن يطلب منه إعارته قلم رصاص؛ وبحافز فرح لكينونته كلها قرر أن يغتنم الفرصة ـ هكذا أسماها هو ـ ويطلب قلم رصاص من بريبسلاف. كان فعله ذاك شيئاً غريباً نوعاً، طالما انه لم يكن، حقيقة، «يعرف» بريبسلاف أبداً؛ غير ان هذا الجانب من المسألة غاب عن باله خلال تهوره، أو اختار هو أن يتجاهله. إذاً وقف هناك قبالة بريبسلاف هيبه، بين الحشد الصاخب الذي ملأ ساحة المدرسة المرصوفة بالقرميد؛ وقال له: «من فضلك، أيمكنك أن تعيرني قلم رصاص؟» بريبسلاف نظر إليه، بعينيه «القرغيزيتين» أعلى عظام الوجنتين البارزة، وتكلم، بصوته الأجش بصورة مستساغة، من دون تعجب، أو، في الأقل، من دون أن يبدي أي قدر من التعجب.

«بكل سرور»، قال. «لكن ينبغي لك حتماً أن تعيده إليّ بعد الحصة الدراسية.» وسحب قلمه الرصاص من جيبه، قلم رصاص فضي ذو حلقة، يديره المرء لولبياً كي يجعل قلم الرصاص الأحمر يبرز. عرض له الآلية البسيطة، وكلا رأسيهما انحنى فوق القلم معاً.

«كن حذراً لئلا تكسره»، أضاف.

ما الذي جعله يقول ذلك؟ كما لو ان هانز كاستورب كان ينوي استعماله باهمال أو أن يحتفظ به بعد الساعة الدراسية!

تطلع كل منهما الى الآخر، وابتسما معاً؛ وكما لو انه لم يتبقَ شيء آخر يقولانه، أدارا، أولاً أكتافهما، ومن ثم ظهريهما، ومضى كل منهما في طريقه.

هذا هو كل ما جرى. لكن لم يشعر هانز كاستورب في حياته كلها بالإطمئنان الكبير كما أحس به في ساعة الرسم هذه، وهو يرسم بقلم بريبسلاف هيبه، من المتوقع حالاً أن يعيده ويضعه في يد مالكه ـ الأمر الذي حدث كنتيجة طبيعية لما جرى قبلاً. أخذ حريته في بري قلم الرصاص قليلاً، ودلل ثلاث رقاقات حمر عاماً كاملاً تقريباً، في جرار داخلي في مكتبه ـ ما من أحد يراها يحدس الأهمية التي تملكها. كانت عودة القلم من أبسط الرسميات، بحسب ما يحلو لـ هانز كاستورب ـ في الواقع، افتخر بنفسه كثيراً بسببها، في الحالة المزهوة التي نتجت عن صداقته الحميمة لـ هيبه.

«هو ذا»، قال. «وشكراً جزيلاً».

لم يقلْ بريبسلاف شيئاً البتة، بسرعة جرّب اللولب ودس قلم الرصاص في جيبه.

لم يتكلما مع بعضهما ثانية؛ لكن هذه المرة، شكراً لمغامرة هانز كاستورب، تكلما.

فتح عينيه بقوة، مذهولاً من أعماق النشوة التي غاص فيها. «كنتُ أحلم»، فكر. «أجل، كان ذاك بريبسلاف. مر وقت طويل منذ ان فكرتُ فيه. اني أتساءل ماذا جرى لرقاقات قلم الرصاص. مكتبي في عليّة بمنزل الخال تاينابيل؛ لا بد انها ما تزال هناك حتى الآن، في الجرار الداخلي

الخلفي الصغير. لم أخرجها من هناك، لم أفكر بها كثيراً كي أرميها بعيداً! كان ذاك بريبسلاف بالتأكيد، هو نفسه. لم يكن يخطر ببالي أبداً انني قادر على تذكره بهذا الوضوح. كما يبدو هو شبيهاً بها بصورة لافتة للنظر ـ شبيهاً بهذه الفتاة هنا في الأعالي! هل هذا هو سبب ولعي بها؟ أم ان هذا هو سبب ولعي به؟ يا له من هراء! على أية حال، عليّ أن أغذ الخطى، وبسرعة شديدة أيضاً.» لكنه هجع لحظة أخرى، متأملاً، ومستذكراً، قبل أن ينهض. «إذاً شكراً جزيلاً لكم وليكن الله معكم»، قال ـ ترقرقت الدموع في عينيه بينما كان يبتسم. ومع هذا كان بوسعه أن ينطلق، لكنه بدلاً من ذلك جلس فجأةً من جديد وقبعته وعصاه في يده، كونه أُرغم على الإدراك ان ركبتيه لن تساعداه. «مرحباً»، فكر، «هذا لن ينفع. مفروض بي أن أعود الى حجرة الطعام في الحادية عشرة تحديداً، من أجل المحاضرة. ان التمشي هنا في الأعالي شيء غاية في الجمال ـ لكن يظهر انه لا يخلو من الصعوبة. طيب، طيب، لا أستطيع التوقف هنا. لا بد انني تيبست من الإستلقاء؛ سأتحسن حين أتحرك». حاول ثانية أن يقف على ساقيه، ولم يفلح إلا بعد مجهود عظيم.

غير ان الرجوع الى المسكن كان باعثاً على الأسى حقيقة، بعد الإبتهاج الذي رافقه حين بدأ رحلته. كان عليه أن يستريح مرات عدة خلال طريق الإياب، شاعراً ان اللون يتراجع عن وجهه، وينبجس العرق البارد على جبينه؛ النبضات الوحشية لقلبه سلبتْ أنفاسه. وهكذا بوجع شق طريقه مكافحاً نازلاً الدرب المتمعج ووصل القاع في المنطقة المجاورة لـ كورهاوس. لكن هنا بات واضحاً ان قواه لن تستطيع أن تصمد في المدى بينه وبين مصح بيرغهوف؛ وعلى وفق ذلك، وبما انه لا يوجد ترام ولم يرَ عربات للأجرة، إستوقف سائقاً كان ذاهباً الى (دورف) يحمل صناديق فارغة وطلب منه السماح له بالصعود الى مركبته. ظهراً لظهر مع الرجل، ساقاه متدليتان من طرفيهما، متأرجحاً ومنكساً رأسه بفعل الإرهاق وارتجاج العربة، ينظر إليه المارة بدهشة وتعاطف، وصل الى تقاطع سكك الحديد، حيث ترجل من المركبة ودفع ثمن الركوب، سواء مبلغ كبير أو صغير لم يكن يبالي

بذلك، وأسرع من غير توانٍ عبر الطريق الخاص المؤدي الى مبنى المصح.

«اسرع، سيد»، قال البواب الفرنسي. «محاضرة السيد كروكوفسكي، بدأت تواً». طرح هانز كاستورب القبعة والعصا على الحامل وحشر نفسه باحتراسٍ شديد، لسانه بين أسنانه، عبر الباب الزجاج المفتوح جزئياً المفضي الى حجرة الطعام، حيث جلس مجتمع العلاج بهيئة صفوف في مقاعدهم، وفي الجانب الأيمن الضيق من الحجرة، خلف طاولةٍ مغطاة مزينة بزجاجة ماء، كان الدكتور كروكوفسكي، بسترته السوداء التي تبلغ الركبتين، واقفاً يعطي محاضرته.

تحليل

لحسن الحظ كان هناك مقعد شاغر في الركن، قرب الباب. إندس فيه واتخذ هيئة مَنْ كان هنا من البداية. بدا جمهور المستمعين، معلقاً باستغراق بشفتي الدكتور كروكوفسكي، لم يعر هانز كاستورب أي اهتمام. هذا حسن. لأنه بدا شاحباً شحوب الموتى. وجهه أبيض كملاءة سرير، سترته مبقعة بالدم.. ربما كان قاتلاً تهرب من جريمته. أدارت السيدة الجالسة أمامه، في الواقع، رأسها حين جلس هو، وقاسته بعينين ضيقتين. باحساس ساخط ميز مدام شوشا. ليأخذها الشيطان ـ ألا يمكنه أن ينعم بلحظة سلام؟ فكر بذلك؛ وكونه بلغ هدفه، كان بوسعه أن يجلس هنا ويستريح قليلاً؛ وها هي ذي الآن تحت أنفه. في ظروف أُخر كان يمكنه أن يجد قربها منه ساراً نوعاً أكثر من النواحي الأُخر؟ لكن الآن، ولأنه شعر بالانهاك والإرهاق، ماذا تكون بالنسبة له؟ لا تستطيع هي سوى أن ترسم حاجات جديدة لقلبه وتمنعه من أن يأخذ نفساً طويلاً خلال المحاضرة كلها. بعينيّ بريبسلاف نفسيهما نظرت إليه، والى بقع الدم على سترته؛ كانت نظرتها جريئة نوعاً وعديمة الشفقة أيضاً، شأنها شأن نظرة امرأة تجعل الأبواب تنصفق وراءها. كم كانت طريقة جلوسها سيئة! هي ليست على غرار السيدات في محيط هانز كاستورب الإجتماعي، اللواتي جلسن منتصبات الى موائدهن، أدرن رؤوسهن نحو

أزواجهن وسادتهن، وتكلمن بلياقة رقيقة بنحو متكلف. السيدة شوشا جلست باسترخاء تام، بكتفين منحنيتين وظهر مقوس؛ وكذلك مدت رأسها للأمام، الى أن برزت الفقرة في أسفل عنقها فوق التقويره المدورة لبلوزتها البيضاء. كان بريبسلاف يبقي رأسه هكذا. لكنه كان طالباً نموذجياً وكان يتمتع بمظاهر الحفاوة والتكريم (لم يكن هذا السبب الذي جعل هانز كاستورب يستعير منه قلم الرصاص)، في حين كان واضحاً جداً ان جلسة السيدة شوشا السيئة، إغلاقها الباب بعنف، ومباشرة نظرتها كلها كانت لها علاقة وطيدة بحالتها الجسدية؛ نعم، وكانت تعبّر كذلك عن نقيصة الكبت تلك التي إستمتع بها السيد ألبين الشاب، والتي لم تكن مشرِّفة على الإطلاق، مع انها كانت تمتلك حسنات لا نهائية هي ملكها وحدها.

أفكار هانز كاستورب، حين جلس ونظر الى ظهر السيدة شوشا الرخو، بدأت تصبح غير واضحة؛ لم تعد أفكاراً على الإطلاق وبدأت تغدو حلم يقظة، تشدق فيه الدكتور كروكوفسكي بالجهير الأول، مع الرنين الناعم لحرف الراء، آتياً كما لو من مكان قصي. غير ان سكون الحجرة، الإنتباه العميق الذي استغرق فيه بقية المستمعين كان لهما تأثير في إيقاظه هو أيضاً. نظر من حوله. بالقرب منه جلس عازف البيانو خفيف الشعر، برأس محني وذراعين مطويتين، يصغي بفم مفتوح. أبعد منه بعض الشيء كانت هناك الآنسة إنجيلهارت، ذات العينين الحادتين، والبقعة الحمراء الباهتة على كل خد؛ شاهد هانز كاستورب اللهب الرائع ذاته على وجوه السيدات الأخريات ـ على وجه السيدة سالومون، وجه السيدة ماغنوس، التي كانت زوجة صانع البيرة والتي جعلت تفقد الوزن باستمرار. السيدة شتور جلست في مكان ما وراءه، إرتسم على وجهها تعبير السذاجة الناشئة عن الجهل، الواقع شيء موجع أن تلاحظه؛ في حين ان ليوي ذات البشرة الشبيهة بالعاج، تتكئ في كرسيها بعينين نصف مغمضتين، يداها تهجعان مفتوحتين في حجرها، بدت أشبه بجثة لولا ان صدرها كان يعلو وينخفض بتلك الأنفاس العميقة والإيقاعية بحيث ذكرت هانز كاستورب بتمثال شمعي يدوي رآه مرةً. نزلاء كثيرون كانت أيديهم منحنية خلف آذانهم؛ وكذلك احتفظ بعضهم بيده في

الهواء في منتصف الطريق الى هناك، كما لو انها أُعتقلتْ في منتصف الطريق الى الإيماءة بفعل قوة تركيزهم. المحامي باراوانت، الرجل المسفوع بالشمس الذي يبدو كأنه يملك قوة ثور، حتى نقر أذنه بسبابته كي يجعلها تسمع بصورة أفضل، ثم أدارها ثانية كي تلتقط الكلمات المنسابة من شفتي الدكتور كروكوفسكي.

وماذا كان الدكتور كروكوفسكي يقول؟ ماذا كان خط تفكيره؟ إستجمع هانز كاستورب سلامة عقله كي يكتشف، لم يفلح مباشرة، على أية حال، طالما انه لم يسمع البداية وأضاع المزيد حين كان يتأمل ظهر السيدة شوشا المرتخي. كان محور حديثه عن قوة ما ـ القوة التي ـ باختصار، كان عن قوة الحب. أجل، طبعاً؛ كان الموضوع قد صُرِّح به قبلاً في العنوان العام للكورس كله. الأكثر من ذلك، فإن هذا هو الحقل الخاص بالدكتور كروكوفسكي؛ فعن أي شيء آخر ينبغي له أن يتحدث؟ كان شيئاً غريباً بعض الشيء، للعلم، أن يصغي المرء الى محاضرة في هذا الموضوع، في حين ان كورسات هانز كاستورب في الماضي تعاملت فقط مع مسائل مثل النقل بالأجهزة والأدوات في بناء السفن. لا، في الواقع، كيف يستطيع المرء أن يناقش موضوعاً يتمتع بهذه الطبيعة الرقيقة والخاصة، في وضح النهار، أمام جمهور مستمعين من الصنوف كلها؟ الدكتور كروكوفسكي فعل ذلك بتبني خليط من المصطلحات، ما بين الشعرية جزئيا وتلك الواسعة المعرفة؛ لكنها كانت مصطلحات علمية بصورة لا ترحم. طريقة الإلقاء الراعشة والرتيبة، تركت انطباعاً في الشاب هانز كاستورب كونها غير مناسبة، لكنها ربما كانت السبب الذي جعل السيدات يحمررن خجلاً والرجال ينقرون آذانهم كي يجعلوها تسمع بصورة أفضل. في الأخص ان المتكلم استخدم كلمة (حب) بمعنى غامض بعض الشيء، بحيث انك لن تكون متأكداً تماماً من بيت القصيد، أو ما إذا كان يشير الى جانبه المقدس، أم جانبه العاطفي والجسدي ـ وهذا الشك يمنح المرء نوعاً شعور المصاب بدوار البحر. لم يحدث أبداً طوال حياته كلها أن سمع الكلمة تطلق مرات كثيرة جداً من غير انقطاع كما كان يسمعها الآن. حين فكر، بدا له كما لو انه لم يأخذها في فمه، ولا

حتى سمع بها من فم غريب. ربما لا تكون هذه هي المسألة، لكن سواء كانت أم لم تكن، الكلمة لم تبدُ له انها تستحق هذا التكرار الدائم. الكلمة المراوغة ذات المقطع الواحد، ذات الحروف اللسانية والشفاهية، والحرف اللين الشبيه بثغاء الخروف بينها ـ جاءت لتبدو كريهة بصورة أكيدة؛ أوحت بحليب مخفف، أو أي شيء آخر شاحب وخالٍ من الطعم؛ وأكثر من ذلك في ما يتعلق بالطبيعة البشرية التي كان يقدمها الدكتور كروكوفسكي للرجال الأقوياء. إذ كان جلياً انه حين يبدأها المرء بتلك الطريقة، في وسع المرء أن يمضي شوطاً بعيداً من دون أن يصدم أحداً. لم يكن هو يروم التلميح، ببراعة رائعة، الى قضايا معينة كانت معروفة للجميع، بل الى القضايا التي كان معظم الناس يرومون التغاضي عنها بصمت. وضع هو حداً للأوهام، كان قد نوَّر بطريقة لا ترحم، بقسوة دمر كل الإيمان بوقار الشعر الأشيب وبراءة الطفل الرضيع. وكان يلبس، مع سترته السوداء التي تبلغ الركبتين، ياقة قميص نومه الفضفاض، خفيه، وجواربه الصوف رمادية اللون. وبلبسه هذا، ترك انطباعاً أُخروياً(١٩)، بصورة عميقة؛ مع انه في الوقت نفسه لم يكن مرعباً أبداً للشاب هانز كاستورب. عزز مقولاته بوفرةٍ من الصور والنوادر المأخوذة من الكتب ودفاتر ملحوظات مفككة موضوعة على المنضدة التي أمامه؛ ومرات عدة اقتبس الأشعار أيضاً. وناقش بعض المظاهر المرعبة لقوة الحب، بعض الإختلافات غير الإعتيادية، الموجعة، الغريبة، التي أبدتها للعيان الظاهرة الملوكية بين حين وآخر. كانت هي، قال، أكثر غرائز الإنسان تقلباً، وعدم الجدارة بالثقة، وأكثرها ميلاً الى جوهرها في الخطأ والإفساد المميت. حيث لا يوجد فيها ما يثير الدهشة. ذلك ان هذه القوة الجبارة لا تتكون من حافز وحيد، فذلك من طبيعتها المعقدة؛ هي مكونة من أجزاء أساسية والتي، مهما كانت منطقية في التكوين، كانت، لو أخذنا كل جزء على حدة، إفساداً غريباً. لكن ـ تابع الدكتور كروكوفسكي ـ بما اننا نرفض، وبحق، نستدل على فساد الكل من

(١٩) أُخروي otherworldly: ذو علاقة بعالم غير العالم الواقعي ـ المترجم.

خلال فساد أجزائه، نحن مساقون الى أن ندعي، بشأن فساد الأجزاء الرئيسة، بعض الأجزاء في الأقل، فربما ليس كلها، ندعي وجود المبرر الذي يصاحب نتاجها المتحد. نحن مساقون بقوة المنطق الغريبة الى هذا الإستنتاج؛ الدكتور كروكوفسكي توسل الى مستمعيه، كونهم قد توصلوا إليه، أن يمسكوا به بسرعة. الآن كانت هناك علاجات نفسية، قوى تعمل في الإتجاه الآخر، غرائز تميل الى الإمتثال والنظامية ـ كان يود تقريباً أن يميزها بكونها بورجوازية؛ وهذه العوامل المؤثرة كان لها تأثير دمج الأجزاء الرئيسة المنحرفة الى كُلٍ فعال لا عيب فيه: نتيجة مألوفة وسارة، التي، أضاف الدكتور كروكوفسكي بنوع من الإزدراء، كانت هكذا، ليس لها علاقة إضافية مع المفكر والطبيب. لكن مع الناحية الثانية، توجد هناك حالات لا يتم فيها الحصول على هذه النتيجة، لا يمكن ولا ينبغي الحصول عليها؛ ومَنْ الذي، سأل الدكتور كروكوفسكي، يجرؤ على القول ان هذه الحالات لا تكوّن، من الناحية النفسية، طرازاً أعلى، ومقصوراً أكثر؟ ذلك انه في هذه الحالات المجموعتان المتعارضتان من الغرائز ـ القوة المكرِهة للحب، ومجموع الحوافز التي تستحث في الإتجاه الآخر، ذكر هو بينها بنحو خاص الحياء والإشمئزاز ـ كلاهما أظهر علواً وعمقاً إستثنائياً وشاذاً حين تم قياسه على وفق المعايير البورجوازية الإعتيادية، وان الصراع بينها الذي جرى في لجج الروح منع الغريزة الآثمة من بلوغ تلك الحالة الآمنة، المحمية، والمتحضرة التي تستطيع بمفردها أن تحل مصاعبها بالتآلفات الموصوفة علاجاً للحياة الغرامية كما خبرها الإنسان العادي. هذا الصراع الدائر بين قوتي الحب والعفة ـ ذلك ان هذا الصراع هو ما كان قد بلغته حقاً ـ ماذا كانت نتيجته؟ إنتهى، في الظاهر، بانتصار العفة. الحب أُخمد، قُيّد بالعتمة والسلاسل، بفعل الخوف، بفعل التمسك بالتقاليد، الكره، أو توق المرء الهياب لأن يكون نقياً طاهراً. مطالبات العفة المشوشة والهائجة لم يسمح لها بأن ترتقي الى مستوى الوعي أو أن تنتهي الى الإثبات في أي شيء كقوتها التامة أو تعدد أشكالها. غير ان نصر العفة هذا كان فقط انتصاراً ظاهرياً،

إنتصاراً بيروسياً[٢٠]، ذلك ان مطالبات الحب لا يمكن أن تُعطَل أو تُقوّى من قبل وسائل من هذا النوع. الحب الذي أُخمد لم يمت؛ انه حي، انه يعمل من أجل الإنجاز في الأعماق الأكثر عتمة والأكثر سرية للكينونة. انه ينبجس خلال تحريم العفة، انه ينبثق ـ ربما في شكل متغير جداً، بحيث لا يمكن تمييزه. ولكن ماذا كان هذا الشكل، هذا القناع، الذي يظهر فيه من جديد الحب المقموع غير المرخص؟ الدكتور كروكوفسكي طرح السؤال، ونظر في وجوه الطوابير المصغية كما لو كان، بكثير من الجد، يتوقع جواباً. لكن توجب عليه أن يجيب بنفسه، هو الذي كان قد تحدث بأشياء كثيرة أخرى حتى الآن. لا أحد عرف الجواب عداه، وكما إتضح فقد أجاب. الواقع، أنه بعينيه المتوهجتين، وبلحيته السوداء التي تبرز بالمغايرة الشحوب الشمعي لوجهه، وبخفيّ الناسك وجوارب الصوف الرمادية خاصته، بدا كأنه يرمز بشخصه الى ذلك الصراع القائم بين الحب والعفة الذي كان ثيمة حديثه. في الأقل هكذا فكّر هانز كاستورب، ومع الآخرين انتظر بتشويق أعظم كي يسمع بأي هيئة سيظهر من جديد الحب الذي دُفن تحت السطح. السيدات لم يكدن يتنفسن. المحامي باراوانت خشخش إذنه من جديد. فربما تجدها اللحظة الحرجة مفتوحة وسريعة الى تلقي الأفكار. وأجاب الدكتور كروكوفسكي عن سؤاله، وقال: «بهيئة مرض. ان أعراض مرض ما ليست سوى تجلٍ متنكر لقوة الحب؛ *والمرض كله مجرد حب متحوَّل*.»

وهكذا عرفوا الآن ـ على الرغم من أنهم لم يكونوا مؤهلين للفكرة التي سمعوها. صدرت تنهدة من الحشد، وعبّر المحامي باراوانت بإيماءة ثقيلة عن استحسانه حين واصل كروكوفسكي تطوير ثيمته. هانز كاستورب بدوره جلس برأس محني، محاولاً أن يفكر ملياً في ما قيل ويختبر فهمه له. لكنه يفتقر الى التجربة الواسعة في مثل هذه التمارين وأصبح عاجزاً أكثر عن الجهد العقلي بفعل التأثير غير السار للمسيرة التي قام بها. أفكاره انسحبت ثانية لدى رؤية ظهر السيدة شوشا، وذراعها، التي كانت ترفع وتحني نفسها،

(٢٠) الانتصار البيروسي pyrrhic victory: انتصار يُنتزع بثمن باهظ جداً ـ المترجم.

أمام عينيّ هانز كاستورب وقريباً منها، بحيث كان بوسع اليد أن تمسك بجدائل الشعر.

شعر بعدم الإرتياح بسبب كون يدها قريبة جداً من عينه، وكونه مرغماً على النظر اليها سواء أراد أم لا، وكونه يتأملها بكل عيوبها ونقائصها الآدمية، كما لو كان يتأملها تحت عدسة مكبرة. لا، ليس ثمة شيء ارستقراطي في هذه اليد القصيرة والغليظة، الشبيهة بيد طالبة مدرسة، ذات الأظافر المقصوصة بصورة سيئة. وكان كذلك غير متأكد تماماً من ان نهايات الأصابع نظيفة بصورة كاملة، والجلد المحيط بالأظافر كان معضوضاً بشكل جلي. هانز كاستورب قطب حاجبيه؛ غير ان عينيه ظلتا ثابتتين على ظهر مدام شوشا، بينما كان يستذكر بصورة غامضة ما قاله الدكتور كروكوفسكي، حول التأثيرات المتضادة ذات الطبيعة البورجوازية، التي وضعت نفسها ضد قوة الحب. ـ الذراع، في انحناءتها الرقيقة نحو الأعلى، كانت أفضل من اليد؛ كانت مكسوة نادراً، ذلك ان قماش الكم كان أخف من قماش البلوزة، إذ كان من أخف أنواع الشاش، الذي كان له تأثير إعارة الذراع نوعاً من الإشعاع المظلل، جاعلاً إياها أجمل مما يمكن أن تبدو عليه. كانت ممتلئة ورشيقة في وقت واحد ـ في الأرجح معتدلة البرودة إذا ما مسها المرء. لا، فيما يتعلق بالذراع، لا تنطبق عليها فكرة التأثيرات البورجوازية المتضادة.

استغرق هانز كاستورب في التفكير، نظراته ما تزال موجهة نحو ذراع السيدة شوشا. يا لطريقة لبس النساء! انهن يظهرن أعناقهن وأثداءهن، هن يغيرن الشكل الخارجي لأذرعهن من خلال حجبها في «نسيج كاذب»[٢١]؛ هن يفعلن ذلك، في كل أنحاء العالم، كي يوقظن رغباتنا. يا إلهي، كم الحياة جميلة! وان الأشياء العادية المقبولة كهذه هي التي تجعلها جميلةً ـ انه شيء عادي ان تكسو النساء أنفسهن بثياب مغرية، انها حقيقة معروفة جيداً ومميزة لا ندركها بصورة واعية، لكننا نتمتع بها من دون تفكير. ومع ذلك

(٢١) النسيج الكاذب illusion: نسيج شبكي رقيق جداً يصنع من حرير ويتخذ منه حجاب المرأة أو غيره ـ المترجم.

كانت له قناعة داخلية بأن علينا أن نفكر بها، وأن علينا أن ندرك يا لها من ترتيب مبارك، عجيب تقريباً. ذلك انها كلها ذات غاية وهدف، وبتصميم محدد سُمِحَ للنساء بأن يكسون أنفسهن باغراء لا يقاوَم: من أجل الذرية، من أجل تخليد الأجناس البشرية. بالطبع. لكن افترض ان امرأة تعاني من مرض باطني، وهي غير مؤهلة للأمومة ـ ماذا بشأنها؟ ما معنى لبسها لأكمام الشاش وجذب إنتباه الذكر الى أعضاء جسدها إذا كانت هذه فعلاً غير سليمة؟ واضح أن ليس ثمة معنى، يجب عده شيئاً لا أخلاقياً، ولذلك ينبغي منعه. ذلك ان شغف رجل ما بإمرأة تعاني من مرض باطني ليس له معنى أكثر من.. حسن، من الشغف الذي استحوذ على هانز كاستورب، شغفه بـ بريبسلاف هيبه. كانت المقارنة حمقاء؛ أيقظت ذكريات من الأفضل نسيانها؛ لم يكن يعني أن يقوم بها، بل أتت الى رأسه من غير دعوة. لكن عند هذه النقطة انقطعت تأملاته، لأن الدكتور كروكوفسكي رفع صوته وهكذا خطف الانتباه مرة أخرى الى شخصه. كان واقفاً هناك خلف طاولته، ذراعاه ممدودتان ورأسه مائل الى أحد الجانبين ـ تقريباً بالرغم من السترة السوداء التي تبلغ الركبتين، بدا شبيهاً بالمسيح على الصليب.

في نهاية محاضرته بدا ان الدكتور كروكوفسكي يعمل دعاية للتحليل النفسي؛ بذراعين مفتوحتين دعا الجميع بلا إستثناء للمجي إليه. «تعالوا إليّ»، كان يقول، مع انه لم يقلها بتينك الكلمتين، «تعالوا إليّ، كلكم أنتم أيها السئمون والمثقلون بالهموم.» ولم يدع مجالاً للشك في قناعته بأن كل أولئك الحاضرين (كانوا) ضجرين ومثقلين بالهموم. تحدث عن معاناة سرية، عن الخجل والحزن، عن القوة المجدِدة لما يتعلق بالتحليل النفسي. أيد جلب الضوء الى العقل غير الواعي وشرح كيف يُمسخ الشذوذ الى عاطفة واعية؛ حثهم على التحلي بالثقة؛ ووعدهم بالإرتياح. ثم جعل ذراعيه تسقطان، رفع رأسه، جمع دفاتر ملحوظاته وانصرف من باب الممر، رأسه في الهواء، يحمل حزمة أوراقه بطريقة معلم مدرسة، بيده اليسرى، ضاماً إياها الى كتفه.

نهض مستمعوه، دفعوا كراسيهم الى الوراء، وبتؤدة شرعوا يتحركون الى الباب نفسه، كما لو انهم يجتمعون حوله من الجهات كلها، من دون إرادة، بتردد مع ذلك بالإجماع، كالحشد خلف المزماري(٢٢) الأبقع. وقف هانز كاستورب في السيل من دون حراك، يده على ظهر كرسيه. أنا مجرد ضيف هنا في الأعالي. الحمد لله، أنا معافى، تلك (الشغلة) لا علاقة لها بي؛ ربما لن أكون هنا في موعد المحاضرة التالية. راقب السيدة شوشا وهي تخرج، تنزلق من الباب، رأسها مدفوع للأمام. هل أخضعت نفسها للتحليل النفسي، تساءل. وشرع قلبه يضرب محدثاً صوتاً مكتوماً. لم يلحظ يواكيم، وهو يأتي إليه بين المقاعد، وجفل حين تكلم ابن خالته.

«وصلتَ هنا في الدقيقة الأخيرة»، قال يواكيم: «هل ذهبتَ بعيداً جداً؟ كيف كانت نزهتك؟»

«أوه، غاية في الجمال»، أجاب هانز كاستورب. «أجل. قطعت مسافة طويلة بعض الشيء. لكن ينبغي لي أن أعترف، كانت بالنسبة لي أقل جودة مما ظننتُ. لن أكررها في الوقت الحاضر.»

لم يسأله يواكيم عن رأيه في المحاضرة؛ وهانز كاستورب نفسه لم يُبد أي رأي فيها. باتفاق مشترك، تركا الموضوع معلقاً، وقتذاك وفي ما بعد على حد سواء.

شكوك واعتبارات

كان الثلاثاء هو اليوم الأخير من اسبوع بطلنا هنا في الأعالي، وعلى وفق ذلك وجد قائمةً حسابه الاسبوعية في حجرته بعد عودته من مسيرته الصباحية. كانت وثيقةً واضحةً ونظامية، في مظروف أخضر، مع صورة لمبنى بيرغهوف في الأعلى، ومقتطفات من النشرة التمهيدية نُقلت في عمود ضيق في الجانب الأيسر من الورقة. «المعالجة بالتحليل النفسي بأحدث

(٢٢) المزماري piper: العازف على مزمار وبخاصة على مزمار القربة ـ المترجم.

الأساليب»، هذه الجملة استدعت الإنتباه إليها بوساطة كلماتها المتباعدة. مفردات القائمة، المدوّنة بكتابة يد خطاط، بلغت مائة وثمانين فرنك بالضبط: ثمان فرنكات باليوم أجرة غرفة النوم، إثنى عشر فرنك يومياً عن ثمن وجبات الطعام وعناية الأطباء، رسم الدخول عشرون، تعفير الحجرة عشر فرنكات، وبعض التكاليف الصغيرة عن الكي، البيرة، العشاء المتأخر للأمسية الأولى. هكذا حددت الخلاصة الأسعار.

راجع هانز كاستورب القائمة مع يواكيم ولم يجد ما يعترض عليه. «بالطبع أنا لم أستفد من الخدمة الطبية»، قال، «لكن تلك مسألة تتعلق بي شخصياً. انها محسوبة ضمن أجرة (البنسيون)، ولا أتوقع منهم أن يقوموا بحسم أي مبلغ؛ كيف يستطيعون فعل ذلك؟ فيما يتعلق بالتعفير، لا بد لهم أن يحققوا منه ربحاً صافياً، ما كان لهم أن يستخدموا مادة الفورمالديهايد H_2CO، ما يساوي عشر فرنكات من أجل تدخين غرفة السيدة الأمريكية. ولكن على العموم أجد القائمة رخيصة أكثر من كونها غالية الثمن، إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار ما يقدمونه لنا.» وقبل الفطور الثاني نزلا الى الإدارة كي يسدد هانز كاستورب دينه.

كانت الإدارة في الدور الأرضي. تصل إليها بعد مرورك بالرواق، الغرفة الخصوصية، المطابخ، والمكاتب المنزلية، لن تخطئ الباب، كان له ستار من الخزف الصيني. استحوذ على هانز كاستورب ولع بهذه النظرة الخاطفة في الجانب التجاري للمؤسسة. كانت هناك غرفة مكتب صغيرة ومرتبة، مع كاتبة طابعة مشغولة بآلتها وثلاثة كتبة محنيون فوق مكاتبهم. في غرفة مكتب ملاصقة ثمة رجل يبدو أشبه برئيس أو مدير كان يعمل عند مكتب وسط الغرفة؛ كان يلقي نظرة هادئة وحذرة على الزبونين من فوق نظارتيه. كانت قضيتهما قد أُنجزت بسرعة عند شباك أمين الصندوق، تم صرف ورقة نقدية، تم تسلم مبلغ من المال، تم إعطاء إيصال بالقائمة، حافظ إبنا الخالتين خلال هذه التعاملات على السلوك الوقور، الحذر، المُرهِب تقريباً إذ قاده احترام الشاب الألماني للسلطة الى اتخاذه بوجود أقلام الحبر، الحبر، والورق، أو أي شيء آخر يحمل الى عقله طابعاً رسمياً. لكن في الطريق الى الفطور،

وفي ما بعد خلال ساعات اليوم، تحدثا عن إدارة مصح بيرغهوف، ويواكيم، كونه نزيلاً، أجاب عن أسئلة ابن خالته.

لم يكن هوفرات بيرنز مالك المؤسسة وصاحبها، مع انه أعطى انطباعاً بذلك. فوقه وخلفه وقفت سلطات غير مرئية، أظهرتْ، الى حدٍ ما، وجودها في غرفة المكتب التي زاراها تواً. تتألف هذه السلطات من رئيس إشرافي وشركة مساهمة ـ فيها لا يعد شيئاً سيئاً أن تملك أسهماً، بحسب يواكيم، طالما ان أعضاءها يتقاسمون الأرباح السخية سنوياً. كان هوفرات تابعاً، ممثلاً وحسب، موظفاً، زميلاً لسلطات أعلى؛ الأول والأعلى منزلة، بطبيعة الحال، وروح المؤسسة، ذا تأثير واضح عليها وعلى الإدارة نفسها ـ مع انه بالطبع كونه الطبيب الإداري كان في حل من الإنشغالات كلها ذات الجانب التجاري. مولود في الشمال الغربي من ألمانيا، وكان معروفاً للجميع انه حين تسنم منصبه، منذ سنوات خلت، كان قد فعل عكس رغبته وخططه السابقة تماماً. أقبل الى هنا بسبب زوجته ـ التي كانت جثتها قد دفنت في فناء كنيسة القرية منذ أمد طويل، فناء الكنيسة الرائع لـ دورف دافو، التي تقع في أعلى المنحدر الأيمن، القريب جداً من مدخل الوادي. كانت امرأة فاتنة، إذا ما حكمنا من خلال صورتها، مع انها كانت ذات عينين كبيرتين جداً وواهنة المظهر. صورها تنتصب هنا وهناك في كل مكان من منزل هوفرات؛ وهناك بورتريهات مرسومة بالزيت بيد الزوج الهاوية معلقة على الجدران. طفلان، ولد وبنت، ولدا؛ بعدها جلبوها هنا في الأعالي، الجسم الهش كان مبتلى بالحمى؛ خلال بضعة شهور إكتملت عملية الهزال. بيرنز، قيل، كان يعبدها. أثرت فيه الصدمة أيما تأثير، وأمسى كئيباً وشديد الغرابة؛ الناس شاهدوه يوميء، يضحك، ويكلم نفسه، في الشارع. لم يعد الى مكانه الأصلي، بل بقي حيث هو ـ جزئياً، لا ريب، لأنه لم يستطع أن ينتزع نفسه من قبرها، ولكن أيضاً لسبب أقل وجدانية كان هو نفسه في حالة صحية سيئة و، برأيه المهني الخاص، (منتمياً) فعلاً الى هذا المكان. استقر به الحال واحداً من الأطباء الذين كانوا رفاقاً في المعاناة مع المرضى الذين يشملونهم برعايتهم؛ والذين لم يكونوا بمنأى عن المرض المذكور، حاربوها (أي

المعاناة) بدرع الحماية الذاتية، لكن هم أنفسهم حملوا علامتها ـ كانت حالة غريبة الأطوار، معزولة، وكان لها جانبها الجيد فضلاً عن جانبها السيىء. التعاطف بين الطبيب والمريض شيء مرغوب فيه بالتأكيد. وربما تبدو الحالة بحيث ان الشخص الذي يكابد وحده الذي يمكن أن يغدو دليل المعاناة ومشافيها. ومع ذلك ـ هل يستطيع شخص عُدَّ بين عبيد سلطة ما أن يكتسب السيطرة الروحية عليها؟ هل يستطيع أن يحرر الآخرين مَنْ كان هو نفسه غير حر؟ الطبيب المتوعك يبقى مفارقة بالنسبة للعقل العادي، ظاهرة مشكوكاً فيها. ألا يمكن أن تنزع معرفته العلمية الى أن تكون بعيدة عن الوضوح ومشوشة بفعل مشاركته، بدلاً من أن تُغنى وتقوى أخلاقياً؟ هو لا يستطيع مواجهة مرض ما بعداء ثاقب الفكر لها؛ انه طرف متحيز، موقعه الوظيفي مريب. بالتحفظ المناسب كله لا بد أن يوجه سؤال ما إذا يستطيع رجل ينتمي هو نفسه الى المتوعكين أن يستسلم الى معالجة الآخرين أو عنايتهم كما يستسلم رجل ينعم بالصحة التامة.

عبّر هانز كاستورب عن بعض هذه الشكوك والتأملات، بينما كان هو ويواكيم منهمكين في القيل والقال عن مصح بيرغهوف ورئيسه المهني. غير ان يواكيم رد قائلاً ان ما من أحد يعرف ما إذا كان هوفرات ما يزال مريضاً ـ أغلب الظن مر وقت طويل منذ ان تمت معالجته. مرت دهور منذ أن بدأ عمله هنا أول مرة، باستقلال في البداية، وحيازته المبكرة على صيت له كونه متسمعاً[٢٣] موهوباً بصورة إستثنائية، وكونه جراحاً حاذقاً. بعدها حرره مصح بيرغهوف من الخطر؛ بعد وقت قصير جداً ستكون قد مرت عشرة أعوام منذ أن رافق المصح بصورة حميمة. كانت إقامته الخصوصية في طرف الجناح الشمالي ـ الغربي للمبنى (لم يكن الدكتور كروكوفسكي يبعد عنه كثيراً)، وتلك السيدة ذات النسب النبيل، الممرضة ومديرة المؤسسة، التي جعل منها سيتيمبريني إضحوكة تامة، والتي لم يرها هانز كاستورب إلا لماماً، أشرفت على الأسرة الصغيرة. كان هوفرات من نواحٍ أُخر وحيداً، ذلك ان ابنه كان

(٢٣) المتسمع ausculator: فاحص الصدر بالتسمع (بوساطة السماعة الطبية) ـ المترجم.

في الجامعة وابنته تزوجت قبلاً، من محام في أحد الأقاليم الفرنسية. الشاب بيرنز يزور والده غالباً أيام العطل؛ فعل ذلك مرة خلال مدة استقرار يواكيم هنا في الأعالي. النساء روى هو، إستحوذت عليهن الإثارة؛ إرتفعت درجات حرارتهن، غيرتهن أدت الى مشاحنات وخصومات في رواق الإستراحة، وزيادة في عدد زياراتهن الى المكتب الخاص بالدكتور كروكوفسكي.

كانت للمساعد ساعات مكتبية، يقضيها في حجرة خاصة، والتي كانت، فضلاً عن حجرات الفحص الواسعة، المختبر، حجرات العمليات الجراحية واستوديو الأشعة السينية، في الدور التحتاني[٢٤] حسن الإضاءة للمبنى. نحن نسميه الدور التحتاني، ذلك ان الدرجات الحجرية النازلة إليه من الدور الأرضي أعطت إنطباعاً بأنه كان كذلك ـ كان انطباعاً خاطئاً، ذلك ان الدور الأرضي ليس وحده مرتفع بعض الشيء، بل ان البناية كلها إنتصبتْ على جانب التل، في ارتفاع معين من الجبل، والحجرات «التحتانية» هذه كانت تقابل واجهة المبنى، وتطل على الحدائق والوادي، وهي حالة دُحضتْ الى حدٍ ما بحقيقة الدرجات النازلة إليها. يهبط المرء، كما يظن، من الدور الأرضي، ليكتشف بنفسه في الأسفل انه ما يزال فيه، أو عملياً يبدو الأمر هكذا.

سلّى هانز كاستورب نفسه بهذا الوهم حين رافق ابن خالته عصر يوم من الأيام الى «أستاذ الإستحمام»، أغلب الظن ليزن يواكيم نفسه. ذكاء سريري ونظافة يسودان في هذه البقعة. كان كل شيء أبيض كالبياض؛ الأبواب تومض بمينا بيضاء؛ الباب المفضي الى حجرة استقبال الدكتور كروكوفسكي، ذات بطاقة زيارة الطبيب المثبتة عليها، يتم الوصول إليها بدرجتين إضافيتين من جهة المجاز، وهو ما منح الحجرة الواقعة خلفها سيماء كونها أرحب ومنعزلة أكثر عن الحجرات الأخريات. يقع هذا الباب عند نهاية المجاز، الى يمينك حين تهبط الى الأسفل. ألقى عليه هانز كاستورب نظرات ثابتة بينما

(٢٤) الدور التحتاني basement: جزء من البناية يقع تحت الأرض كلياً أو جزئياً ـ المترجم.

كان يذرع المكان جيئةً وذهاباً في انتظار ابن خالته. شاهد امرأة تخرج، واصلة جديدة، لم يكن يعرف اسمها: سيدة ضئيلة البدن، وأنيقة، ذات لفات شعر على جبينها، وقرطين من ذهب. كانت تحني جسدها بينما هي ترتقي درجات السلّم، وتمسك ثوبها النسائي بيدٍ واحدة ذات خاتم، بينما باليد الأخرى كانت تضغط منديلها الصغير جداً الى شفتيها و، كانت محدودبة بالكامل، تحدق فوقه في لا شيء بعينين كبيرتين ذاهلتين شديدتي الزرقة. أسرعت بخطى رشيقة سريعة وصغيرة، كانت تنورتها التحتانية تخشخش، الى درجات السلم، توقفت قليلاً بصورة مباغتة كما لو أن شيئاً ما قد جرى لها، ثم صعدتْ بخطى رشيقة وسريعة، واختفت عن الأنظار، وهي ما تزال محدودبة الظهر وتضع منديلها على فمها.

خلفها، حين فتحت باب غرفة المكتب، كان المكان أكثر عتمةً من المجاز الأبيض. واضح ان الإضاءة الساطعة لهذه المناطق السفلية لا تمتد أبعد من ذلك؛ لاحظ هانز كاستورب ان غسقاً مظللاً، شفقاً عميقاً كان يسود في مختلى الدكتور كروكوفسكي.

حديث المائدة

لاحظ الشاب هانز كاستورب ان الإرتعاش السلفي[(٢٥)] الذي حدث له بفعل مسيرته الصباحية الطائشة استمر في إزعاجه ـ وجده الى حدٍ ما إرباكاً عندما كان في حجرة الطعام. تقريباً كشيء إعتيادي الآن، يبدأ رأسه بالإهتزاز عند المائدة؛ وجد هذا شيئاً يتعذر منعه ويشق إخفاؤه. جرّب حيلاً مختلفة كي يخفي ضعفه، ذلك انه لم يكن قادراً على الإستمرار في إسناد ذقنه الى ياقته؛ كان يبقي رأسه في حالة نشاط، يديره ذات اليمين وذات الشمال خلال الحوار، أو يثبت نفسه بقوة الى المائدة بساعده الأيسر عندما كان يحمل ملء ملعقة حساءً الى فمه، ويسند رأسه بيده. خلال أوقات التوقف القصيرة كان

(٢٥) السلفي ancestral: ذو علاقة بالأسلاف أو مستمد منهم ـ المترجم.

كذلك يريح مرفقه على الطاولة، مع ان هذا بنظره سلوك ينم عن التنشئة السيئة، والذي لا يتم التغاضي عنه في أي مجتمع عدا المجتمع المنحل والشاذ الذي وجد نفسه فيه الآن. غير ان الضعف كان مُرهِقاً أيضاً ومضى شوطاً بعيداً في إفساد أوقات تناوله الطعام، والتي استمر بطريقة أخرى في عدّها مسلية ومليئة بالأحداث الشائقة.

غير ان الحقيقة كانت ـ هانز كاستورب كان يعي ذلك تماماً ـ ان المظهر الأخرق الذي كافح ضده لم يكن حصراً جسدياً في أصله، ولا يعزى كلياً الى الجو هنا في الأعالي والى الجهود التي بذلها جسمه كي يكيف نفسه. بل كان التعبير الخارجي لتحفزه الداخلي، وأثر مباشرة في تلك الأحداث والتسليات عينها.

كانت مدام شوشا تأتي بشكل ثابت تقريباً متأخرة الى وجبات الطعام. حتى قدومها، لم يكن هانز كاستورب قادراً على أن يجلس أو أن يبقي قدميه بلا حراك، لكن تعين عليه أن ينتظر قلقاً إرتطام باب الزجاج؛ كان يعرف ان صوت الإرتطام سيجعله يجفل وأن وجهه كله سيغدو بارداً، وهذا ما حدث بانتظام. في بادئ الأمر هز رأسه من حوله حانقاً وتابع الآثمة بعينين غاضبتين الى أن اتخذت مجلسها عند المائدة الروسية «الجيدة». ربما تمتم أيضاً نعتاً بذيئاً بين أسنانه، صرخة احتجاج غاضبة. لكنه الآن إنحنى فقط فوق طبقه، عض شفتيه، أو أدار رأسه بتعمد. بدا له ان الغضب لم يعد في الموضع الصحيح؛ وكان له أيضاً إحساس غامض بأنه مسؤول جزئياً، وانه يشاركها اللوم أمام الآخرين. باختصار، لم يعد حقيقياً جداً القول انه كان يخجل من السيدة شوشا كخجله من أجلها ـ إحساس إستبقاه جيداً في سريرته، ذلك ان أحداً في الحجرة لم ينزعج من سوء سلوك السيدة شوشا أو من حساسية هانز كاستورب تجاهه ـ ربما عدا المدرّسة، الآنسة إنجيلهارت، الجالسة الى يمينه.

هذه الإنسانة المسكينة أدركت، شكراً لحساسيته في مسألة الأبواب المغلقة بعنف، ان موقفاً عاطفياً معيناً تجاه المرأة الروسية أفلح في أن يستوطن في عقل جارها الشاب. والأكثر من ذلك، ان خلفيات الموقف

استمرت لحظة صغيرة مقارنة مع حقيقة وجوده؛ وختاماً، فإن لا مبالاته الكاذبة ـ المزعومة بصورة رديئة جداً، ذلك ان هانز كاستورب لم يكن يملك موهبة التمثيل ولم يسبق له أن تدرب عليه ـ لم تكن تعني نقصاناً في الولع، بل على العكس تشير الى ان المسألة كانت تمر في طور أعلى. كانت الآنسة إنجيلهارت من ناحيتها بلا آمال أو طموحات. لهذا انطلقت هي في حماسة مفرطة بالهجوم على السيدة شوشا ـ وكشيء إستثنائي تماماً رأى هانز كاستورب كيف كانت إنجيلهارت تحثه عليه (أي الهجوم) ـ ليس في وقت واحد، أغلب الظن، بل في غضون زمن ما ـ أدرك حقيقته وشعر كذلك بالإشمئزاز منه، من دون أن يكون راغباً في أن تغريه إنجيلهارت بسلوك سبيل الضلال وأن تحتال عليه.

«ضربة عنيفة ـ ضجة مدوية!» قالت العانس الهرمة. «تلك [هي]. ما من حاجة للنظر كي تقرر مَنْ هو الداخل تواً. بالطبع، هي ذي الآن تذهب ـ كهريرة الى صحن فنجان من الحليب ـ كم هي جميلة! أتمنى أن نستبدل أمكنتنا، كي تستطيع أن تتطلع إليها قدر ما تريد. طبيعي أنت لا تبالي بأن تدير رأسك باستمرار. . ذلك يشبع غرورها كثيراً جداً. انها تحيي زملاء مائدتها ـ حقيقة ينبغي لك أن تنظر، ان رؤيتها شيء منعش جداً! حين تبتسم وتتكلم كما هي فاعلة الآن، تظهر غمازة في أحد خديها، لكن ليس دوماً، بل فقط حين تشاء هي ذلك. يا لها من امرأة محبوبة! هي طفلة مدللة، ولهذا فهي غاية في الطيش. ان نساءً مثلها جديرات بالحب، سواء شاء المرء أم أبى؛ انهن يثرنك بتهورهن، غير ان هذا مجرد سبب إضافي للوقوع في شِباك غرامهن؛ انك تشعر بفرح كبير حين تجد نفسك مهتماً بهن رغماً عنك.»

كانت تهمس، من وراء يدها لإذنه فقط؛ التورّد الذي كسا خدها الناعم الهرم دل على إرتفاع في درجة الحرارة، وإن إيحائية كلامها اخترقت هانز كاستورب حتى النخاع. أحس بالارتياح لدى سماعه إنسان آخر يؤكد رأيه ان مدام شوشا كانت إنسانة ساحرة. كان هو رجلاً في مقتبل العمر لا يستطيع أن يتخذ قرارات مستقلة جداً، وسرّه أن يُشجع في أحاسيس معينة كان يضمرها في داخله، كان المنطق والضمير متحدين معاً في التقطيب بوجهها.

لكن الآنسة أنجيلهارت، مهما كان مبلغ رغبتها في ذلك، لم يكن في وسعها أن تخبره عملياً بشيء ما عن السيدة شوشا. فهي لم تكن تعرف عنها أكثر مما يعرفه المصح كله، وان حواره معها أثمر عن نتيجة عملية صغيرة. هي لم تكن أيضاً تعرف المرأة لكي تتحدث إليها، وليس بمستطاعها أن تتباهى بتعارف اعتيادي واحد معها. ان ميزتها الوحيدة ذات الأهمية هي انها كانت تسكن في كونيغسبيرغ، ليس بعيداً جداً عن الحدود الروسية؛ وانها تعرف نبذاً قليلة من اللغة الروسية. كانت هذه علامات فارقة ضئيلة لا غير، مع ذلك كان هانز كاستورب مهيئاً لأن يرى فيها شيئاً يشبه صلة شخصية واسعة مع السيدة شوشا.

«أرى أنها لا تلبس خاتماً، أقصد خاتم الزواج»، قال. «لماذا هي كذلك؟ انها امرأة متزوجة، أعتقد انك أخبرتني بذلك قبلاً؟».

كانت مُدرسة الثانوية مشوشة أيما تشوش، بدا انها شعرت بكونها مُساقة الى مركز حرج وجعلت تفتش في تلافيف دماغها عن الكلمات المناسبة للبدء بالحديث ثانية، لهذا شعرت بكونها مسؤولة جداً عن السيدة شوشا.

«لا تعلّق أهمية على ذلك»، قالت أخيراً. «أنا متيقنة من كونها متزوجة. هذا أمر لا يرقى إليه الشك. بطبيعة الحال أعرف بعض الأجانب يستخدمون كلمة [مدام] حين يتقدم بهم العمر، بقصد الاحترام الأكبر الذي يكنه الناس للمرأة المتزوجة. لكن الحال هنا مختلفة. الجميع يعرفون ان لها حقيقةً زوج، في مكان ما في روسيا. اسمها العذري لم يكن فرنسياً بل روسياً، شيئاً ما يشبه [انوف] أو [أوكوف] ـ أعرفه، لكنني نسيته. سأسأل عنه إذا أردت، لا بد أن أشخاصاً عديدين هنا يعرفونه. لا، هي لا تلبس خاتماً، لاحظتُ ذلك بنفسي. ياه، لعلها تجد ان ذلك يجعل يدها تبدو عريضة جداً. أو انها تعتقد انه شيء بورجوازي جداً وعائلي أن تلبس خاتم زواج من الذهب الخالص. ربما كان بوسعها أن تحمل أيضاً سلة بهيئة مفتاح. لا، ترعرعت هي على خطوط أوسع من ذلك.. الروسيات كلهن يتمتعن بشيء من حرية الإرادة والتبجح. وعندئذ، خاتم الزواج يبدو مبتذلاً جداً؛ انه كريه نوعاً! انه رمز للإمتلاك، انه يقول دوماً: [إرفع يدك عني]؛ انه يحوّل كل امرأة الى

راهبة. لن أندهش البتة إذا ما كانت السيدة شوشا تفكر بهذا النحو. ان امرأة بارعة الجمال مثلها، في عنفوان الشباب ـ لماذا تلجأ هي، في كل مرة تعطي فيها يدها الى رجلٍ كي يطبع عليها قبلة، الى إخباره حالاً انها مرتبطة بزوج؟».

«أستغفر الله»، فكر هانز كاستورب، «كيف تتكلم هي باستمرار!» تفرس في وجهها، مفزوعاً تماماً. لكنها قاومت نظرته بنظرتها المرتبكة، نصف الخائفة. صمت كلاهما بعض الوقت وحاولا أن ينقذا نفسيهما. تناول هانز كاستورب غداءه وأسند ذقنه.

ختاماً قال: «وماذا عن زوجها؟ ألا يشعر بالقلق عليها؟ ألا يزورها هنا في الأعالي؟ أتعرفين ماذا يعمل؟»

«إنه موظف. موظف في الحكومة الروسية، في مقاطعة بعيدة، داغستان، كما تعرف، تقع هي وراء القوقاز، صدر أمره في العمل هناك. لا، كما أخبرتك، ما من أحد رآه هنا في الأعالي. وهذه المرة مرت عليها هنا مدة ثلاثة شهور.»

«كانت هنا قبلاً، إذاً؟»

«هذه ثالث مرة. وبين هذه المرات تذهب هي الى أمكنة أخرى.. مصحات أخرى. لكنها هي التي تزور زوجها غالباً؛ ليس دائماً، مرة في السنة وزيارتها لا تستغرق سوى وقت قصير. يمكنك أن تقول انهما يعيشان منفصلين، وتقوم هي بزيارته بين حين وآخر.»

«حسن، بالطبع، هي عليلة ـ».

«نعم، بالطبع ـ لكن ليست عليلةً [جداً]. ليست مريضة جداً كي تمضي حياتها كلها في المصحات وبمعزلٍ عن زوجها. لا بد ان هناك أسباباً أخرى لطريقة الحياة هذه. الجميع هنا في الأعالي يحسبون ان هناك حتماً أسباباً ما. أغلب الظن هي لا ترغب بالسكن هناك في داغستان، في الناحية الثانية من القوقاز؛ لا غرابة في ذلك ـ لأن داغستان مكان غير مأهول وبعيد! لكن لا بد ان هناك شيئاً ما يتعلق بالرجل أيضاً، إذا كانت هي لا تطيق البقاء معه. له اسم فرنسي، لكنه بأية حال موظف روسي، وهذا نموذج غاية في الفظاظة،

أؤكد لك. رأيتُ مرة واحداً من الموظفين الروس، ذا لحية رمادية كالحديد ووجه أحمر ـ كلهم فاسدون بصورة مرعبة، ويحتسون كميات من الفودكا، كما تعرف. انهم يتناولون شيئاً قليلاً من طعامٍ ما، من أجل التظاهر فقط، فطر بحري، بعض الكافيار، ويشربون بإفراط ويُسمون ذلك وجبة خفيفة.»

«أنتِ تلقين مسؤولية كل شيء عليه»، قال هانز كاستورب. «لكننا لا نستطيع أن نعرف ما إذا لم تكن هي المسؤولة عن عدم عيشهما معاً. يتوجب على المرء أن يكون عادلاً. حين أتطلع إليها وأرى الطريقة غير المهذبة التي تتصرف بها فيما يتعلق بإغلاق الباب ـ أؤكد لكِ انها ليست ملاكاً؛ إسمحي لي أن أقول ذلك. أنا لا أثق بسلوكها في الخارج. لكنك متحيزة جداً. الانحياز إليها أعمى بصيرتك تماماً.»

كان هذا هو الخط الذي كان يسلكه أحياناً. بمكر غريب على طبيعته كان يكتشف ان الهجومات العنيفة لمدرسة الثانوية على مدام شوشا لم تكن من النوع الذي يعرف تماماً بوجودها، بل كانت ظاهرة مستقلة، من النوع الطريف والمسلي، وهذا ما جعله هو، هانز كاستورب، حراً في مضايقته العانس الهرمة، شاعراً ان أعلى كاهليه غير ملتويين. كان لا يخشى شيئاً في هذا الموقف، كونه واثقاً من ان شريكته سوف توافق على كل ما يقوله، مهما كانت الإشارة بعيدة عن الهدف.

«صباح الخير»، حياها. «أتمنى أن تكوني قد نعمتِ بنوم هانئ ورأيت أحلاماً ساحرة مثلك؟ سيدة ماري، على العكس تماماً ـ أو مهمّا كان اسمها! أقسم بشرفي، على المرء أن يتكلم عنها، كي يجعلك تحمرين خجلاً! فقدتِ صوابك فيما يتعلق بها ـ أنتِ لا تستطيعين إنكار ذلك.»

ومُدرسة الثانوية، التي كانت قد توردت فعلاً وثبتت رأسها فوق الكوب، تغمغم من زاوية فمها اليسرى: «عار عليك، هانز كاستورب! انه فعلاً سلوك شائن منك أن تحرجني بهذه الطريقة. الجميع يدركون اننا نتحدث عنها وانك قلت شيئاً تجعلني أحمر خجلاً.»

كانت مباراة إستثنائية لعب فيها كلاهما؛ كل امرىء يعي تماماً انهما كذبا ونافقا، كل امرىء يعي ان هانز كاستورب ضايق المدرّسة لمجرد أن تكون

قادرة على التحدث عن السيدة شوشا. ألفى سعادةً مَرضية ومفرطة في تبديد الوقت هكذا مع الآنسة إنجيلهارت، وهي من ناحيتها بادلته العواطف، أولاً تعبيراً عن غريزة طبيعية كي تكون وسيطاً في العلاقة الغرامية، وثانياً كي ترغم هانز كاستورب، وهو ما خططت له فعلاً، على ان يقع ضحية لجمال السيدة شوشا؛ وختاماً لأنها شعرت بفرح مَرضي في دفعه الى مضايقتها وجعلها تحمر خجلاً. كان يعرف جيداً، وكانت هي تعرف جيداً، كل شيء عن أحدهما الآخر وعن نفسيهما؛ كل منهما يعرف ان الآخر يعرف وان الموقف كله كان مريباً وتقريباً مشكوكاً فيه. المواقف المريبة والمشكوك فيها كانت، عموماً، كريهةً لذائقة هانز كاستورب، والموقف الحالي ليس إستثناءً. شعر بالاشمئزاز، مع هذا، من أجل ذلك كله مضى للصيد في هذه المياه العكرة، مهدئاً وعيه بالتوكيد لنفسه انه هنا في الأعالي في زيارة وانه سيغادر عاجلاً. أبدى رأيه في جمال الشابة بسيماء خبير، انها «متصابية»، وانها تبدو أصغر سناً وأجمل حين ترى (أو ترين) وجهها بالكامل مقارنة بصورته الجانبية؛ وان عينيها متباعدتان كثيراً، وانها تظهر بهيئة تجعل المرء يشتاق الى أشياء كثيرة في شخصها؛ وان ذراعيها، من الناحية الأخرى، كانتا جميلتين وناعمتي المظهر. شعر ان رأسه يهتز بينما كان يتكلم، حاول أن يكبح الإرتعاش، وأدرك أن ليس مدرسة الثانوية وحدها ينبغي أن ترى جهوده؛ بل، بإشمئزاز عميق، كان رأسها هي أيضاً يهتز فعلاً! لكنه تابع حديثه. كان قد دعا السيدة شوشا عمداً: السيدة ماري، كي يستطيع هو أن يطرح مسألة اسمها؛ لذا قال الآن: «في اعتقادي ان اسمها ليس ماري بتاتاً؛ هل تعرفين ما هو؟ أعني الاسم الممنوح لها؟ لا بد إنكِ تعرفينه، كونك متيمة جداً بها!»

فكرت مُدرسة الثانوية. «انتظر نصف دقيقة»، قالت. «عرفته، حالاً. هل كان تاتيانا؟ لا ـ ولا ناتاشا. ناتاشا شوشا؟ لا، ليس هذا اسمها. انتظر، تذكرته ـ اسمها افدوتيا. أو في الأقل شيء ما يشبهه كثيراً. لم يكن اسمها كاتيينكا أو نينوتشكا، أنا متأكدة من ذلك. لا أستطيع أن أتذكره تماماً، الآن. ولكنني يقيناً استطيع أن أتذكره إذا ما كنتَ تود معرفته.»

وفي اليوم التالي عرفت الاسم فعلاً، ولفظته في اللحظة التي أغلقت بها

باب الزجاج بعنف. كان اسم السيدة شوشا هو كلاوديا.

لم يستطع هانز كاستورب أن يدركه أول الأمر. كان عليه أن يطلب منها أن تكرر الاسم، وأن تتهجاه أيضاً، قبل أن يفهمه. ثم لفظه مرتين أو ثلاثاً، أدار عينيه المحتقنتين بالدم الى جهة السيدة شوشا، من أجل، إذا جاز التعبير، أن يجرب ما إذا كان الاسم يناسبها.

«كلاوديا»، قال: «أجل، ربما يكون هو؛ انه يناسبها تماماً.» لم يستطع إخفاء سعادته في درجة الحميمية التي تحققت هكذا، ومن الآن فصاعداً سيشير دوماً الى السيدة شوشا بـ كلاوديا. «يبدو ان صاحبتك كلاوديا تصنع حبوب الخبز. هذا ليس بالأمر الرائع جداً، على ما أظن.»

«هذا يعتمد على مَنْ يفعل ذلك»، تجيب مدرّسة الثانوية. «كلاوديا يليق بها.»

أجل، لا ريب ان أوقات وجبات الطعام في الردهة ذات الموائد السبع كان لها سحر خاص لـ هانز كاستورب. كان يكره أن ينتهي وقت وجبة الطعام، وكانت سلواه هو انه عاجلاً، في غضون ساعتين أو ثلاث، سيعود الى هنا من جديد. بينما كان جالساً هناك، يبدو عليه كما لو انه لم ينهض من مكانه. وماذا عن الوقت الفاصل بين وجبات الطعام؟ كان لا شيء. جولة قصيرة الى مجرى الماء أو البلاتز، استراحة صغيرة في شرفته: ما من عبء كبير، ما من إنقطاع خطير. ليس هناك شغف ما أو مجهود ما ينبغي له أن يتطلع إليه، حيث لم يكن من اليسير جداً أن يغفل ذلك بشجاعة. المجهود ليس قاعدة في حياة مصح بيرغهوف جيدة التنظيم. هانز كاستورب، حين ينهض من إحدى وجبات الطعام، كان بمستطاعه مباشرةً من خلال الحدس أن يبدأ بالتمتع بالوجبة التالية. إذاً، في الواقع، لم يكن التمتع سطحياً جداً، سارة جداً وجلية هي الكلمة المناسبة للعواطف التي يتطلع بها الى لقاء آخر مع الشقراء المبتلاة. القارئ، من الناحية الأخرى، يجد على الأغلب ان صفات كهذه وحدها فقط الملائمة لوصف شخصية هانز كاستورب أو عواطفه. لكننا نقترح ان شاباً يتمتع بوعي جيد التنظيم وإحساس بالسلامة البدنية والعقلية، ببساطة، لا يستطيع أن [يتمتع بـ] قرب السيدة شوشا.

الواقع، نحن ـ الذين ينبغي أن نعرف بالتأكيد ـ نود تأكيد انه هو نفسه سوف ينكر أي تعبير كهذا إذا ما أقترح له.

إنه تفصيل صغير، مع ذلك يستحق الذكر، ذلك انه بدأ يشعر بالاستياء من طرق معينة في التعبير عن ذاته. كان يتجول بذلك التورد الجاف على وجهه ويدندن باستمرار بصوت هامس ـ كونه في حالةٍ عقلية حين تروق له الموسيقى بصورة خاصة. دندن أغنية قصيرة بسيطة سمعها لا يدري أين ـ في أمسية فرقة موسيقية أو حفلة موسيقية خيرية ـ غناها شخص يمتاز بصوت سوبرانو؛ جاءت الآن الى ذاكرته، مطارحة غرام، ذهبت الى القول:

كلمة واحدة من شفتيك الحلوتين
يمكنها أن تهزني بغرابة

وكاد أن يتابع منشداً:

أندستْ في ثنايا فؤادي
وملأتني النشوة..

لكنه عوضاً عن ذلك توقف عن الغناء، هازاً كتفيه تعبيراً عن الإزدراء. «بلهاء!» قال، وبغتةً وجد الأغنية القصيرة البسيطة اللطيفة تافهة بكل ما في الكلمة من معنى، ضعيفة، وعاطفية. تخلى عنها برزانة رجالية، مع إحساسه بالأسف. كانت من النوع الذي يقنع شاباً «وهب قلبه»، كما نقول، وهبه بالكامل، بصورةٍ حقيقية، وبنوايا محددة تماماً، لوزة صغيرة معافاة في الأرض المستوية وهكذا من الجائز أن يكون مبرءاً من الإثم فيما يتعلق بتسليم نفسه الى أحاسيسه المتزمتة والسارة، مع كل النتائج التي تترتب عليها. لكن بالنسبة له وبالنسبة لعلاقاته مع مدام شوشا (نحن غير مسؤولين عن كلمة [علاقات]؛ انها الكلمة التي استعملها هانز كاستورب، ولسنا نحن)، هذه الأغاني لا صلة لها بالأحاسيس. «سخيفة!» قال بصورة مختصرة مفيدة، ووضع أنفه في الهواء. ولكن بعد أن ردد هذا الحكم الجمالي إستلقى صامتاً في كرسيه المركّب، من دون أن يفكر في شيء أكثر ملاءمة كي ينشده بدلاً عنها.

كان ثمة شيء واحد سرّه: حين إستلقى ليصغي الى نبضات قلبه ـ

عضوه الجسدي، المسموعة بصورة جلية في الصمت المطلوب لمدة الاستراحة، كان ينبض بصوت عالٍ وبصورة نهائية، كما فعل منذ مجيئه، الصوت لم يعد يزعجه. إذ لم يعد الآن بحاجة الى الإحساس ان قلبه ينبض طوعاً، من دون شعور أو سبب أو أي صلة بعضوه غير الجسدي. كان بمستطاعه القول، من دون أن يمط الحقيقة، ان علاقة كهذه موجودة الآن، أو انها أُحدثت ببساطة: كان يعي انه شعر بعاطفة تتوافق مع نشاط قلبه. إنه يحتاج فقط الى التفكير في مدام شوشا ـ وكان قد فكر بها ـ وعجباً، شعر في قرارة نفسه أن العاطفة مناسبة لنبضات قلبه.

هواجس متـزايدة. عن الجدّين، ورحلة بالزورق في الشفق

كان المناخ سيئاً. في ما يتعلق بهذا كان هانز كاستورب غير محظوظ خلال الأجل القصير لزيارته. لم يهطل الثلج، بل انهمر المطر طوال اليوم، كأن مطراً غزيراً كريهاً؛ سديم كثيف لف الوادي، في حين ان العواصف الكهربائية ـ ظاهرة خرقاء ولا مبرر لها، آخذين بنظر الاعتبار انها كانت باردة جداً بحيث ان التدفئة شُغلت ـ طافت وارتدت بصورة كريهة عبر الوادي.

«سيء جداً»، قال يواكيم. «أعتقد اننا ربما نتناول غداءنا ونصعد الى شاتزالب، أو الى شيء من هذا القبيل. ولكن يبدو ان هذا لن يحدث. دعنا نأمل ان الاسبوع المقبل سيكون أفضل.»

غير ان هانز كاستورب رد عليه قائلاً: «ليكن كذلك. أنا لستُ متلهفاً للقيام بأي شيء حالياً. نزهتي الأولى لم تتكلل بنجاح كبير. أجد ان خيراً لي أن أحيا يومي كما هو عليه، من دون أي تغيير كبير جداً. أنا أترك مثل هذه الأشياء للناس الذين مكثوا هنا في الأعالي سنوات طوال. ما نفع التغيير لي أنا الذي أمكث هنا مدة ثلاثة أسابيع؟».

الواقع، انه وجد ان وقته يمضي جيداً، كما هو عليه. مهما كانت آماله، سوف تنتهي بالتحقيق، ـ أو بطريقة أخرى لن تتحقق ـ هنا في هذا المكان وليس في أي شاتزالب. الزمن لا يتمسك بيديه بقوة ـ بدأ يشعر إلى حد ما، بأن خاتمة بقائه باتت وشيكةً جداً. الاسبوع الثاني شارف على الانتهاء؛ وعاجلا، سيكون ثلثا عطلته قد إنصرما؛ وعليه التفكير بحزم الحقائب ما أن يبدأ الأسبوع الثالث. ان إنعاش إحساسه بالزمن مر عليه زمن طويل منذ ان أمسى شيئاً من الماضي؛ الأيام اندفعت سريعاً ـ أجل، اندفعت إجمالاً، مع انه في الوقت نفسه كل يوم منفرد تمدد شيئاً فشيئاً كي يحمل الآمال والمخاوف المزدحمة والسرية التي ملأته الى درجة الفيضان. آ. . الزمن شيء محير، ويشق تفسير جوهره!

هل ينبغي لنا أن نضع اسماً أوضح لتلك التجارب الداخلية التي، وعلى حد سواء، أرهقت ووهبت أجنحة لأيام هانز كاستورب؟ كلنا نعرفها؛ ان تفاهتها العاطفية استطاعت أن تتحول الى نموذج. لم تتخذ مساراً مختلفاً مع ان أصولها كانت من النوع الذي جعل الأغنية السخيفة التي أطلق عليها هو حكمه الجمالي القاسي: ملائمة.

غير جائز ان مدام شوشا لم تكن تعرف شيئاً عن الخيوط التي كانت تحاك بينها وبين مائدة ما. الواقع، هانز كاستورب لا ريب، كان يصمم بصورة مقصودة على ان يجعلها تعرف شيئاً ما، أو حتى أشياء كثيرة. نقول (بصورة مقصودة) لأن عينيه كانتا مفتوحتين، كان يعي ان المنطق والإحساس الجيد كانا ضد هذا الأمر. ولكن حين يكون الإنسان في حالة هانز كاستورب ـ أو الحالة التي كان قد بدأ يعيشها ـ كان يهفو، قبل كل شيء، الى أن يجعل المرأة التي حلم بها تدرك انه يحلم، دع المنطق والفطرة يقولان ما يشاءان عكس ذلك. هكذا خُلقنا.

وهكذا، بعد ان حدث ذلك مرتين أو ثلاثاً ان مدام شوشا، مدفوعةً بالمصادفة أو الجاذبية المغناطيسية، إلتفتت ونظرتْ ناحية مائدة هانز كاستورب وكانت تجد في كل مرة بأن عينيه ثابتتين عليها، إلتفتت مرة رابعة

بشكل مقصود ـ وإلتقت عينيه من جديد. في المرة الخامسة لم تضبطه بالجرم المشهود؛ إذ لم يكن في موقعه. مع ذلك مباشرةً شعر ان عينيها تقعان عليه، إلتفت، وحدّق بغيرة شديدة بحيث ابتسمت وأشاحت بنظراتها عنه. نشوة ـ وهاجس ـ ملآه حينما شاهد تلك الإبتسامة. هل كانت تعده طفلاً؟ حسن، ينبغي لها أن تراقب. ألقى نظرة من حوله كي يجري تحسينات على الوضع. في المرة السادسة، حين أحس، إكتشف بالحدس، صوت داخلي همس له، انها كانت تنظر، تظاهر بالإستغراق في تأمل مثير للإشمئزاز امرأة مليئة بالبثور توقفت عن التكلم مع خالة الأم. تشبث بمسدساته على مدى دقيقتين أو ثلاث، الى أن تأكد ان العينين «القرغيزيتين» إنسحبتا ـ فصل عجيب من تمثيل مسرحي، ليس من الجائز فقط بل بوضوح ان السيدة شوشا صممت على مواصلته حتى النهاية لأنها تأثرت بلطف وضبط هانز كاستورب لنفسه. ثم جاءت الحادثة التالية. السيدة شوشا، بين ألوان الطعام، باهمال تلفتت من حولها ومسحت حجرة الطعام بنظراتها. كان هانز كاستورب متيقظاً؛ إلتقت نظراتهما، نظرت إليه وعلى محياها تعبير ساخر بنحو غامض، أما هو فلاح عليه تصميم جعله يكز على أسنانه. وبينما كانا ينظران، إنزلق منديل المائدة خاصتها من حضنها وكاد يقع على الأرض. تناولته بعصبية وشعر هو بالحركة في أطرافه كلها، بحيث انه نهض الى النصف من كرسيه وكاد يثب بوحشية كي يسدي لها يد العون مجتازاً الياردات الثمان والمائدة التي تقع بينهما ـ كما لو ان كارثة رهيبة لا بد أن تنشأ إذا ما لامس منديل المائدة الأرض. أمسكت به في الوقت المناسب؛ ثم، وهي ما تزال محنية، ماسكة إياه من الزاوية، ومقطبة الجبين ومغتاظة بوضوح بسبب الحادث المؤسف، الذي يبدو انها حملته مسؤولية وقوعه، تطلعت إليه مرة أخرى ورأته بحاجبيه المرتفعين، جالساً هناك متوازناً كما لو كان نابضاً! ومن جديد ابتسمت وأشاحت بنظراتها.

كان هانز كاستورب في السماء السابعة خلال هذه الحادثة غير المتوقعة. حقيقة، كان عليه أن يدفع ثمنها: على مدى يومين كاملين ـ أي، على مدى السقف الزمني لوجبات الطعام العشر، السيدة شوشا لم تتطلع الى ناحيته.

وكذلك قطعت عادتها في التردد عند دخولها، كي تلقي نظرة عامة على حجرة الطعام، وتقدم- إذا جاز التعبير- نفسها لها (أي للحجرة). ذلك شيء يصعب تحمله؛ مع هذا بما ان ذلك حصل يقيناً بسببه، فقد حافظ على العلاقة بينهما، ولو انه اقتصر على ناحيته السلبية. كان ذلك شيئاً ما.

أدرك هو كم كان يواكيم محقاً حين قال انه يصعب أن يتعرف المرء الى الناس هنا، عدا زملاء مائدته. بعد وجبة طعام المساء تكون هناك ساعة مختصرة لعلاقاتٍ اجتماعية من نوعٍ ما. لكنها تنكمش عادة الى عشرين دقيقة؛ ودائماً تمضي مدام شوشا الوقت، طال أم قصر، مع محيطها الإجتماعي في الصالون الصغير. أصدقاؤها هم الرجل ذو الصدر المجوّف، الفتاة كثيرة النزوات ذات الشعر الأجعد، الدكتور بلومينكول الصامت، والشاب ذو الكتفين المنحنيتين. المائدة الروسية «الجيدة» كانت، كما بدا، إستولت على الحجرة لتستخدمها وحدها؟؟؟؟. الأكثر من ذلك، كان يواكيم يلح دوماً على الإنسحاب المبكر. وبرر ذلك بضرورة أن يقضيا وقتاً كاملاً في العلاج المسائي ـ لكن كانت هناك في الأغلب أسباب لإنضباطه، أسباب لم يعلنها، غير ان ابن خالته كان يحدسها ويحترمها. كنا وبخنا هانز كاستورب كونه «عنيداً»؛ لكن يقيناً، مهما كان الهدف الذي كانت تقوده إليه أمنياته، لم يكن ذلك يتعلق بالإتصال الإجتماعي مع مدام شوشا. إنتصر، عموماً، في الظروف التي عملت ضد هذا اللقاء. العلاقة بينه وبين الشابة الروسية، آصرة مشدودة لكنها رقيقة، نتاج نظراته المواظبة، كانت من نوع ما وراء العلاقة الإجتماعية. لم تستلزم أي تعهدات، مع ان بمستطاعها أن تستلزم. كان بوسعها أن تستمر، في عقله، جنباً الى جنب مع درجة عالية من النفور من أي تقارب اجتماعي. كان هناك شيء واحد لصديقنا الشاب كي يعتبر «كلاوديا» سبب نبضات قلبه؛ ولكنه شيء آخر بالنسبة لحفيد هانز لورنز كاستورب، شيء يتعلق باهتزاز إقتناعه الداخلي الأكيد. فهذه الغريبة صافقة الباب، قاضمة الأصابع، صانعة حبوب الخبز. والتي كانت تتصرف بشكل سيىء جداً، وتعيش بمعزل عن زوجها، وتنطلق مسرعة من منتجع الى منتجع من دون خاتم في إصبعها، ان هذه الغريبة، وبصورةٍ لا سبيل الى الشك فيها،

لم تكن هي المخلوقة التي يمكن أن يسعى لمصادقتها؛ كلا، فضلاً عن العلاقة السرية التي أشرنا إليها. ان خليجاً عميقاً شطر حياتيهما؛ شعَرَ، عَرفَ، انه لم يكن بصدد الدفاع عنها بوجه أي سلطة إجتماعية محددة. كان هانز كاستورب، وهذا هو طبعه، بعيداً تماماً عن التكبر، مع ذلك ان تكبراً أوسع، التفاخر بالطبقة الإجتماعية والعُرف، إنتصب مكتوباً على جبينه وفي عينيه ناعستي المنظر، وعبّر عن نفسه في قناعته بتفوقه، الذي استحوذ عليه حين قاس الوضع الإجتماعي للسيدة شوشا. كان هذا هو الأمر الذي لم يستطع، ولم يود، أن يتخلص منه. بغرابة كافية، أمسى أولاً واعياً بصورة حيوية بقناعته في اليوم الذي سمع فيه السيدة شوشا تتحدث بلغته. كانت واقفة في حجرة الطعام بعد إحدى وجبات الطعام، يداها في جيبي كنزتها الصوفية الغليظة، كافحت بنحو ساحر من أجل التحدث بالألمانية مع مريض آخر، أغلب الظن أحد الأشخاص الذين تعرفت إليهم في ردهة الإستراحة. شعر هانز كاستورب بإثارة غير مألوفة ـ لم يسبق له ان كان فخوراً بلغته الأم ـ مع ذلك في الوقت نفسه خبر هو إغواءً بأن يقدم زهوه قرباناً على مذبح شعور مختلف تماماً ـ النشوة التي ملأته لدى سماعه صوت تلعثمها ـ الجميل وتشوهات كلامه.

باختصار، تخيل هو هذه العلاقة الغرامية قصيرة الأجل الإستهلالية بينه وبين إنسانة طائشة هي أحد أفراد مجتمع مصح بيرغهوف. تخيل العلاقة على أنها ليست اكثر من مغامرةٍ من مغامرات العطل. أمام محكمة المنطق، الضمير، والفطرة السليمة، لا يمكن المطالبة بأن تكون هذه المغامرة مسموعة؛ فالسيدة شوشا امرأة عليلة، واهنة، مصابة بالحمى، ملوثة من الداخل، حالتها الجسدية لها علاقة قوية مع الحياة المشكوك فيها التي عاشتها، وكذلك مع إضمارات هانز كاستورب الغريزية. كلا، ببساطة لم يحدث أن نشد عشرتها؛ بينما الآخرون ـ حسن، مهما آل إليه الأمر، سينتهي بطريقة أو بأخرى في بحر عشرة أيام، حين يباشر هو عمله في شركة توندر وفيلمز.

في هذه الآونة، على أية حال، بدأ يعيش في ومن أجل العواطف التي

أيقظتها في داخله المريضة الجميلة: صعود القلق ونزوله، تحقيق عمل ما أو خيبة الأمل، هذه كلها سمات حالة كهذه. إنتهى الى أن يعد هذه المشاعر كونها المعنى الحقيقي لإقامته ومحتواها؛ مزاجه اعتمد كلياً على نتيجتها. كل الظروف الحياتية هنا في الأعالي تدعم تطورها. ذلك ان البرنامج اليومي الذي لا تنتهك حرمته لَمَّ شمل الإثنين باستمرار. حقاً، غرفة السيدة شوشا كانت في طبقة مختلفة عن طبقته، وكانت هي تقوم بعلاجها، كما قالت مدرّسة الثانوية، في ردهة الاستراحة العمومية فوق السقف (في المكان نفسه الذي أطفأ فيه الكابتن ميكلوسيش الأنوار مؤخراً). لكن كانت هناك وجبات الطعام الخمس، وبالإضافة إليها، فرص لا محدودة خلال الوقائع اليومية التي ليس فقط انهما قد يلتقيان خلالها، بل وقد لا يستطيعان عمليا، تجنب هكذا لقاء. فكّر هانز كاستورب، بأن أمرا كهذا شيء حسن جداً. لذا كانت الحقيقة هي انه كان له شيء قليل يفعله بين فرصة ما والتي تليها، عدا التفكير في الفرص ذاتها. وجده، في الواقع، شيئاً لاهثاً تقريباً أن يكون هكذا، إذا صح التعبير، مسجوناً بالفرصة.

لم تمنعه من استخدام كل ضروب الحيل في تحسين الوضع. وكانت ساحرته تأتي متأخرة بشكل منتظم الى وجبات الطعام؛ فعل هو الشيء ذاته، بقصد أن يكمن لها. كان يتوانى في حمّامه، ولا يكون جاهزاً حين يقرع يواكيم الباب، ويجعل ابن خالته يسبقه ـ سوف يلحقه. سوف ينتظر الى أن تنذره بديهته الملائمة لحالته بحلول اللحظة المناسبة؛ عندئذ يسرع نازلاً، ليس بوساطة سلّمه الذي ألف نزوله، ولكن بواسطة السلّم الواقع في نهاية المجاز، الذي يجعله يجتاز باباً معيناً ـ رقم سبعة ـ في الطبقة الأولى. كل لحظة من الطريق، كل درجة من درجات السلّم، منحت فرصة؛ بين لحظة وأخرى قد ينفتح الباب ـ وعملياً حدث ذلك عادة. تنزلق هي خارجةً، من دون ضوضاء، الباب يُغلق وراءها بعنف، تنزلق هي الى درجات السلّم، تسبقه في النزول، ويدها مرفوعة الى ضفائر شعرها ـ أو بطريقة أخرى يكون هو قبلها، يشعر بنظراتها في ظهره، ويخبر ارتعاشة كما لو كان مصدرها نملة تزحف هناك. كان سلوكه، بطبيعة الحال، يعود الى شخص غافل عن

وجودها، يعيش حياة حرة ومستقلة: يدفن يديه في جيوبه؛ يمشي مزهواً، يسعل سعالاً غير ضروري البتة، ويضرب على صدره.. يفعل أي شيء كي يُظهر لا مبالاته التامة.

حادثتان أدخلتا فضلاً عن ذلك المزيد من التحسينات. كان قد جلس الى المائدة، تحسس نفسه بكلتا يديه، وقال مع عرض جميل للإثارة: «ياه نسيتُ منديلي. هذا يعني ان عليّ أن أهرول عائداً من جديد كي آتي به.» ويقفل راجعاً، بهدف ان من الجائز أن يلتقي الاثنان، هو وهي، خلال الطريق، بما ان ذلك يمنح خفقاناً أقوى مما إذا كانت هي تتمشى أمامه أو خلفه. أول مرة نفذ فيها هذه المناورة، قاسته هي بنظراتها من مسافة معينة، ألقت عليه نظرة شاملة من الرأس الى القدم، كانت في منتهى الجرأة ومن دون أن يخضب الإحمرار وجهها. وحين دنت منه، تنحت عنه بعدم إكتراث، وتجاوزته. وهكذا خرج هو قليلاً جداً عن المسار. ثاني مرة تطلعت في وجهه من دون أن تجفل، بصورةٍ بغيضة نوعاً، وكذلك أدارت رأسها حين تلاقيا وهما الآتيان من جهتين مختلفتين، كي تتبعه بنظراتها ـ كانت نظرتها تخترق شابنا المسكين كالسكين. لا حاجة بنا الى أن نشفق عليه؛ أليس هذا كله بسبب فعلته هو؟ غير ان اللقاء غير المتوقع كان موجعاً آنذاك وحتى أكثر إيلاماً في ما بعد ـ فقط بإستعادة الأحداث الماضية والتأمل فيها تكشف له حقيقة ما جرى. لم يرَ وجه السيدة شوشا عن كثب، لم يره بشكل جلي بتفاصيله كلها. كان بوسعه أن يعد الشعرات الصغيرات جداً التي إنتصبت خارج الضفيرة التي كانت ملتفة حول رأسها ـ كانت شعيرات شُقر ـ ضاربة الى الحمرة، ذات بريق معدني. ليس أكثر من عرض يد أو نحو ذلك كانت المسافة بين وجهه ووجهها، الذي كان خطه الكفافي وملامحه، مع كونهما فريدين، مألوفين له بقدر ما يستطيع أن يتذكر، وخاطبت روحه بطريقة لا يستطيع أن يفعل مثلها أي شيء آخر في العالم. كان وجهاً غير إعتيادي، ومليئاً بالميزة (ذلك ان غير الإعتيادي وحده الذي يبدو لنا انه يملك ميزة)؛ ان غموضه وغرابته يدلان على الشمال المجهول، وكان يثير الفضول لأن تناسباته وخصائصه كانت تقريباً من النوع الذي لا يمكن تحديده بسهولة

بالغة. كان قراره[٢٦]، أغلب الظن، التركيب العظمي المرتفع لعظام الخد البارزة؛ بدت (أي العظام) كما لو كانت تضغط العينين ـ اللتين كانتا متباعدتين بصورة غير مألوفة وبنحو غير اعتيادي في مستوى واحد مع الوجه ـ وتعصرهما في موضع مائل تقريباً؛ بينما في الوقت نفسه بدت العظام مسؤولة عن التقعر الهين للخد، وهذا، بدوره، يفضي الى قوس كامل للشفتين الناتئتين نوعاً. ثم كانت هناك العينان نفسهما: العينان «القرغيزيتان» الضيقتان، اللتان كان شكلهما فوق ذلك بالنسبة لـ هانز كاستورب سحراً بسيطاً واللتان كان لونهما هو الرمادي ـ الأزرق أو الأزرق ـ الرمادي للجبال البعيدة؛ كان لهما خاصية النظرة الجانبية التي لا ترى شيئاً، كانت نظرة بوسعها أن تذيبهما غالباً بلون الغموض والعتمة ـ عينا كلاوديا، اللتان تطلعتا ببغض شديد في وجهه هو، واللتان كانتا تشبهان الى أبعد حد عينيّ بريبسلاف هيبه في الشكل، التعبير، واللون بحيث كانتا تخيفانه بكل ما في الكلمة من معنى. (تشبهان) ليست هي الكلمة: كانتا العينين نفسهما. كذلك، عرض الجزء العلوي من الوجه، الأنف المسطح، كل شيء، حتى النضارة في البشرة البيضاء، اللون الدال على الصحة للخد ـ الذي كان في حالة السيدة شوشا، كما هو عند أشخاص كثيرين، يتظاهر حصراً بالعافية وكان تأثيراً سطحياً للعلاج في الهواء الطلق ـ كل شيء كان بريبسلاف بالضبط، وهو لن ينظر الى هانز كاستورب نظرة مختلفة إذا ما إلتقيا من جديد كما في الماضي في فناء ـ ساحة المدرسة.

كان ذلك مذهلاً الى أبعد حد. إرتعش هانز كاستورب عند اللقاء غير المتوقع، مع ذلك إكتشف قلقاً متزايداً كالذي أحسه حين عرف كم هو ضيق القرب المكاني الذي طوق الاثنين: هو والروسية الشقراء. ان يظهر بريبسلاف هيبه الذي نسيه من زمن طويل بهيئة السيدة شوشا وان يتطلع إليه بتينك العينين «القرغيزيتين» ـ هذا كان يجب أن يسجن، ليس مع فرصة ما،

(٢٦) القرار keynote: استخدم المؤلف هنا مصطلحاً موسيقياً. والقرار هو النوتة الأهم في السلّم الموسيقي والنوتات الأُخر تؤدي وظيفتها بحسب علاقة ما معه ـ المترجم.

لكن مع الشيء المحتوم، مع الذي لا مفر منه، الى الدرجة التي يملؤه فيها بالعواطف المتضاربة. كان وضعاً حافلاً بالأمل، مع ذلك كان مثقلاً بالفزع ـ منح صديقنا الشاب إحساساً بالعجز، وحفز غريزةً مبهمةً كي يفتش عن أو يتلمس طريقه بحثاً عن مساعدة أو مشورة. واحداً بعد الآخر دعا ذهنياً أفراداً مختلفين، فربما تفيده فكرة أي واحد منهم كنوعٍ معين من الدعم العقلي.

كان هناك يواكيم الطيب، المستقيم، الصلب كصخرة ـ الذي، مع ذلك، كانت عيناه في هذه الشهور المنصرمة أصبحتا تحملان مثل هذا الظل المأساوي، الذي لم يألف هز كتفيه بلا مبالاة، كما يفعل عادة الآن. يواكيم، ذو «راية الإقلاع» في جيبه، كما كانت السيدة شتور تدعو الإناء. حين فكّر هانز كاستورب بوجهها الصارم، نكد المزاج سرت رعشة في أوصاله. نعم، كان هناك يواكيم ـ الذي كان يلازم هوفرات بيرنز باستمرار كي يدعه يغادر وينزل الى الخدمة التي طال توقه إليها في «السهل» ـ «الأرض المنبسطة»، كما يسمى العالم المعافى، الطبيعي هنا في الأعالي، مع ظل ضعيف لكنه محسوس من الإزدراء. يواكيم أتم المعالجة باخلاص، بهدف انه ربما يصل في وقت أبكر الى هدفه ويوفر بعض الوقت الذي يطرحه جانباً بصورة وحشية «المقيمون هنا في الأعالي»؛ أتمها من غير ريب من أجل الشفاء العاجل ـ ولكن أيضاً، اكتشف هانز كاستورب، من أجل المعالجة نفسها، التي، مع ذلك، كانت خدمة، كأي خدمة أخرى، ولم تكن واجباً واجباً، حيثما أُنجزت؟ بشكل ثابت دأب يواكيم على صعود درجات السلّم بعد ربع ساعة فقط يمضيها في قاعات الإستقبال؛ دقته العسكرية هذه كانت بمنزلة دعامة للإرتخاء المدني لإبن خالته، الذي كان بطريقة أخرى يود أن يتوانى بلا فائدة في الأسفل، يراقب بعناية المجموعة في الصالون الصغير. غير ان هانز كاستورب كان مقتنعاً ان هناك سبباً آخر وخاصاً يجعل يواكيم ينسحب مبكراً جداً؛ كان قد عرفه من تلك المرة التي شاهد فيها وجه ابن خالته يكتسب شحوباً مرقشاً، ويتخذ فمه الإنحراف الحزين. فهم تماماً. لأن ماروسيا كانت هناك دوماً في المساء ـ ماروسيا العاشقة للضحك، ذات الياقوتة الصغيرة على يدها الفاتنة، المنديل المعطر برائحة البرتقال، والصدر المنتفخ، الملوث من

الداخل ـ أدرك هانز كاستورب ان وجودها هو الذي يقصي يواكيم، بالضبط لأنه كان يجذبه إليها بقوة شديدة، وبصورة مخيفة. هل كان يواكيم «مسجوناً» جداً ـ وحتى أسوأ منه، ذلك انه كان يجلس خمس مرات يومياً الى المائدة ذاتها مع ماروسيا، ومنديلها المعطر بشذا البرتقال؟ مهما كان الجواب، واضح ان يواكيم كان مشغول البال بمشاكله الخاصة؛ ان التفكير فيه لن يمنح ابن خالته أي دعم عقلي. ذلك ان اتخاذه الهرب اليومي ملاذاً كان سمعةً حسنةً له؛ لكن فراره الإلزامي لم يكن إلا ليعيد طمأنة هانز كاستورب، الذي بدأ يشعر ان مثال يواكيم الحسن في الخدمة العلاجية المخلصة والإطلاع الذي كان يدين به الى تجربة ابن خالتِهِ ربما كان لهما أيضاً جانبهما السيء.

هانز كاستورب لم يكن هنا مدة ثلاثة أسابيع. لكن يبدو الزمن أطول؛ وان الروتين اليومي الذي لاحظه يواكيم بورع شديد، شرع يتخذ، في نظره، صفة القداسة. عندما، من وجهة نظر «المقيمين هنا في الأعالي»، فكر في الحياة كما هي معاشة أسفل منه، هناك في الأرض المنبسطة، بدت له الى حدٍ ما غريبة وغير طبيعية. غدا ماهراً في استعمال بطانياته وطريقة صنع حزمة مناسبة، نوع من مومياء، من نفسه، حين يستلقي في الشرفة في الأيام الباردة. كان هو تقريباً حاذقاً مثل يواكيم ـ ومع ذلك، هناك في الأسفل، ما من أحد عرف البتة بهذه الطريقة أو ممارستها! يا لها من طريقة غريبة، فكّر هو؛ مع ذلك في اللحظة ذاتها شك في نفسه لأنه وجدها غريبة ـ وهنا عبق ثانية ذلك الإحساس المضطرب في تلمّس طريقه نحو الدعم.

فكّر بـ هوفرات بيرنز ونصيحته المهنية، الممنوحة «مجاناً»، ان عليه، بينما هو هنا في الأعالي، أن ينظم حياته كالمرضى الآخرين، وكذلك قياس درجة حرارته. فكّر بـ سيتيمبريني، وكيف انه ضحك على النصيحة ذاتها، واقتبس شيئاً ما من «الفلوت السحري»[٢٧]. هل يمنحه التفكير في أحد هذين الشخصين أي قدر من الدعم العقلي؟ كان هوفرات بيرنز رجلاً ذا شعر

---

(٢٧) الفلوت السحري The Magic Flute: أوبرا من تأليف موزارت، أُنتجت في فيينا العام ١٧٩١. كفل الفلوت مرور البطل عبر الخطر الى التنوير ـ المترجم.

أبيض، كبير السن بدرجة كافية ليكون والد هانز كاستورب. كان رئيس المؤسسة، السلطة الأعلى. وانها السلطة الأبوية التي يشعر الشاب الآن بالحاجة المضطربة إليها. لكن لا، لن تنفعه: هو لا يستطيع أن يفكر بـ هوفرات بحسن الظن الطفولي بالناس. الطبيب دفن زوجته هنا في الأعالي، وأوهنه الحزن كثيراً حتى كاد يفقد صوابه؛ ثم أقام هنا، كي يكون على مقربة من قبرها ولأنه هو نفسه كان مصاباً نوعاً ما بالعدوى. هل إستعاد عافيته ثانية؟ هل كان يعقد العزم باخلاص على جعل مرضاه أصحاء، كي يستطيعوا العودة الى الخدمة في العالم تحت؟ كان لوجنتيه لون أرجواني، ويبدو محموماً. ربما كان ذلك ناجم عن تأثير الجو هنا في الأعالي، هانز كاستورب، من دون حمى، بقدر ما يستطيع أن يحكم من دون محرار طبي، أحس بالحرارة الجافة ذاتها في وجهه، بين حين وآخر. بطبيعة الحال، حين يسمع المرء كلام هوفرات، يستنتج بسهولة انه محموم. ثمة شيء غير سليم فيه؛ وضعه كله بدا إعتيادياً جداً ونابضاً بالحيوية، ولكنه عموماً مرغم، خاصة حين يفكر المرء في الوجنتين الأرجوانيتين والعينين الدامعتين اللتين تبدوان كأنهما ما تزالان تنتحبان على زوجته. تذكّر هانز كاستورب ما قاله سيتيمبريني عن عيوب هوفرات وكآبته المزمنة ـ ربما كان ذلك رأي حقود، ربما كان ذلك مجرد كلام فارغ. لكنه لم يجده مقوياً أو مشجعاً له للتفكير في هوفرات بيرنز.

ثم كان هناك سيتيمبريني نفسه، بالطبع. المعارض المزمن، المتبجح، «الرجل الإنساني»، كما كان يسمي نفسه. هانز كاستورب فكّر فيه جيداً، بموهبته في الثرثرة، محاضرته المنمقة حول الجمع بين الغباء والمرض، وكيف انه، هانز كاستورب، تولى مهمة تسمية ذلك «أزمة للعقل الإنساني». ماذا عنه؟ هل كانت فكرته على أي حال مؤثرة؟ تذكر هانز كاستورب كيف انه مرات عدة، في الأحلام النابضة بالحيوية بنحو إستثنائي التي زارت نومه في هذا الموقع، كان قد إستحوذ عليه الإستياء من البسمة الساخرة والخبيثة التي تجعد شفة الإيطالي تحت الشارب المتهدل؛ كيف شجبه بلفظ جارح حين ظنه عازف أرغن يدوي، وحاول أن يدفعه بعيداً لأنه كان شخصاً

مزعجاً. لكن ذلك جرى في أحلامه ـ هانز كاستورب اليقظ لم يكن هكذا، بل كان شخصاً يتمتع بحرية قليلة جداً؛ ولـم يكن نفوراً، أيضاً، على العموم، كي يجرّب تأثير هذا الطراز الإنساني غير المألوف في نفسه، هذا الطراز بميله الانتقادي وفطنته بالرغم من الحقيقة القائلة انه وجد الإيطالي مولعاً بالإنتقاد ومهذراً معاً. ومع ذلك، سيتيمبريني سمى نفسه معلماً، واضح انه كان متلهفاً لممارسة تأثير ما؛ وهانز كاستورب، بدوره، كان يتوق تماماً الى أن يؤثر فيه ـ مع انه بالطبع، ليس الى الحد الذي يجعله يحزم صندوق ثيابه ويغادر قبل أوانه، كما اقترح سيتيمبريني بجدية تامة. "placet experiri"، فكر مع نفسه، باسماً. هو يعرف كثيراً من اللاتينية، من دون أن يسمي نفسه رجلاً إنسانياً[٢٨]. كانت النتيجة انه ظل يراقب سيتيمبريني بعناية، أصغى بقوة وانتقاد الى ما كان يجب أن يقوله حين إلتقيا خلال جولتيهما الموصوفتين لهما علاجاً الى المصطبة الواقعة عند جانب الجبل أو نزولاً الى البلاتز، أو حيثما أو كلما سنحت لهما الفرصة. كانت هناك مناسبات أُخر أيضاً، مثلاً، عند نهاية وجبة الطعام ينهض سيتيمبريني من المائدة قبل أي شخص آخر ويمشي الهوينى بين الموائد السبع، بسرواله المخطط، عود نبش الأسنان بين شفتيه، الى حيث يجلس إبنا الخالتين. فعل ذلك من غير اعتبار للقانون والعُرف، واقفاً هناك بوضع جميل، بساقيه المتقاطعتين، يتكلم ويومئ بعود تنظيف الأسنان. أو يسحب كرسياً ويجلس عند زاوية المنضدة، بين هانز كاستورب ومدرّسة الثانوية، أو بين هانز كاستورب والآنسة روبنسون، ويتطلع إليهم وهم يتناولون حلوى (البودنغ)، التي يبدو انه إمتنع عن أكلها.

«هلاّ سمحتم لي بالدخول الى هذه الحلقة المسحورة؟» يقول، يصافح ابني الخالتين، ويحيي البقية بانحناءة شاملة. «صانع البيرة خاصتي هناك ـ ناهيك عن النظرة اليائسة لصانعة البيرة! ـ لكن، الواقع، سيد ماغنوس هذا! الآن فقط كان يعطي محاضرة حول علم النفس الشعبي. هل أخبركم ماذا قال؟ [وطن الأسلاف، حقيقة، انه ثكنة هائلة. ولكنه مع ذلك يمتلك طاقة

---

(٢٨) رجلاً إنسانياً: باللاتينية في النص homo humanus ـ المترجم.

صلبة كبيرة، انه أصيل. لن أغيره من أجل التصرفات الحسنة للبقية منهم. ما نفع التصرفات الحسنة لي إذا ما كانوا يخدعونني من كل حدب وصوب؟] والمزيد من الكلام من النوع ذاته. طفح الكيل. صبري كان ينفد. وقبالتي إنسانة مسكينة بورود فناء الكنيسة تزهر في وجنتيها، عذراء هرمة من سيبيبورغن، تواصل الحديث بلا انقطاع عن زوج أختها، وهو رجل لا أحد منا يعرفه أو يرغب بمعرفته. لم أستطع تحمل المزيد، نفضتُ غبارهم عن قدميّ، هربت منهم.»

«رفعتَ عَلَمك ولذتَ بالفرار»، إنبرت السيدة شتور قائلةً. «بالـ. . ضبط»، صاح سيتيمبريني. «فررتُ مع عَلمي. آ، يا له من مقطع مناسب! أرى انني أتيت الى المكان الصحيح؛ ما من أحد في غير هذا المكان يعرف كيف يصوغ المقاطع هكذا ـ هل تسمحين لي، سيدة شتور، أن أسأل عن حالتك الصحية؟».

كان شيئاً كريهاً أن ترى السيدة شتور تهندم نفسها. «أرض طيبة!»، قالت. «حالتي كما هي دوماً، أنت تعرف بنفسك: خطوتان للأمام وثلاث للوراء. حين تبقى هنا خمسة شهور يبرز الرجل العجوز ويبقيك ستة شهور أُخر. ذلك يشبه عذاب تانتالوس(٢٩): تنطلق شاقاً طريقك ظاناً بأنك ستصل القمة ـ».

«آ، يا له من شيء مبهج منك، أن تمنحي العجوز المسكين تانتالوس مهنة جديدة، وتجعلينه يدحرج الصخرة صعوداً من أجل قطعة نقد صغيرة! أنا أدعو ذلك إحساناً حقيقياً. . . لكن ما هذه التقارير الخطيرة التي سمعتها عنك، سيدة شتور؟ هناك حكايات تنتشر ـ حكايات عن ثنائيات، أجسام نجمية الشكل، وما شابه. حتى الآن لم أصدقها ـ لكن آخر القصص هذه حيرتني، أعترف بذلك.»

---

(٢٩) تانتالوس Tantalus ويكتب أيضاً Tantale: ملك ليديا الاسطوري. فشى سر الآلهة للبشر فعوقب في الجحيم حيث يعاني الجوع والعطش بينما هو عائم في الماء والأغصان المثقلة بالثمر تتدلى فوق رأسه ـ المترجم.

«أعرف انك تهزأ بي.»

«ولا لحظة، أتوسل إليكِ أن تريحي عقلي في ما يتعلق بهذا الجانب الغامض من حياتك؛ بعدها سيكون هناك وقت للمزاح. ليلة أمس، بين التاسعة والنصف والعاشرة، كنتُ أمارس تمريناً صغيراً في الحديقة؛ رفعتُ بصري ناظراً الى صف الشرفات؛ كان ضوء غرفتك يومض خلال العتمة؛ كنت تؤدين علاجك، حسبما يمليه عليك الواجب والمنطق.[آه]، فكرت، [هناك تستلقي مريضتنا الساحرة، مطيعة قواعد المصح، من أجل عودة مبكرة الى ذراعي زوجها الذي ينتظرها.] ـ والآن ماذا أسمع؟ انهم رأوك خلال تلك الساعة في الكورهاوس، في «سينما الصور المتحركة» (أعطى سيتيمبريني الكلمة[٣٠] لفظها الإيطالي، مع اللهجة في المقطع الرابع) «وفي ما بعد في المقهى، كنتِ تستمتعين بالبنش[٣١] والقبلات و..».

السيدة شتور تملصتْ وقهقهتْ في منديل المائدة خاصتها، لكزت يواكيم والدكتور بلومينكول الصامت في أضلاعه، غمزتْ بعينها بحسن ظن حيي بالناس، وبكل معنى الكلمة قدمت عرضاً كاملاً للرضا الذاتي الأحمق. كان من دأبها أن تترك الضوء مشتعلاً في شرفتها وتنسل للبحث عن الإلهاء في الحي الكائن في الأسفل. زوجها، في غضون ذلك، في كانشتات، ينتظر رجوعها. لم تكن هي المريضة الوحيدة التي مارست هذه الازدواجية.

وتابع سيتيمبريني حديثه قائلاً: «وانكِ كنت تستمتعين بتلك القبلات صحبة ـ مَنْ، هل تتذكرين؟ صحبة الكابتن ميكلوسيش القادم من بوخارست. هم يقولون إنه يرتدي مشداً للخصر والردفين.. لكن هذا ليس هو الموضوع. أناشدكِ، مدام، أن تخبريني! هل عندك إزدواجية؟ أليس جزءك الدنيوي هو الذي يستلقي هناك وحيداً في الشرفة، بينما روحك تعربد في الأسفل، مع الكابتن ميكلوسيش وقبلاته؟»

---

(٣٠) الكلمة هي cincmatografo وترجمتها العربية سينما الصور المتحركة ـ المترجم

(٣١) البنش punch: شراب مسكر، أو شراب غازي مؤلف من عصيري فاكهة أو أكثر مع سكر وماء ـ المترجم.

السيدة شتور تلوّت وشمخت بأنفها كما لو كانت تُدغدغ.

«يسأل المرء نفسه، أليست الطريقة الأخرى هي الأفضل»؛ واصل سيتيمبريني كلامه؛ «أي أن تستمتعي بالقبلات وحدك، وتستمتعي بالإستراحة ـ العلاج مع الكابتن ميكلوسيش..».

«تيهي!» السيدة شتور ضحكت ضحكةً نصف مكبوتة.

«هل سمعت السيدات والسادة آخر الأنباء؟» الإيطالي مضى قائلاً، من دون أن يتوقف لإلتقاط النفس. «شخص ما طار مع ـ من قبل الشيطان. أو، إذا ما تكلمنا حرفياً، من قبل أمه ـ وهي امرأة شديدة التصميم، كنتُ مفتوناً بها تماماً. كان ذلك الشاب شنيرمان، أنطون شنيرمان، الذي كان جالساً الى طاولة المدموزيل كليفيلد. كما ترون، مكانه خالٍ. عاجلاً سيُشعل مكانه من جديد، لست مبالياً بذلك ـ غير ان انطون بعيد عن اليابسة، على أجنحة الريح، في طرفة عين، كان يسبح في عالم آخر قبل أن يعرف أين كان هو. كان في السادسة عشرة وكان هنا في الأعالي منذ عام ونصف وبقي له ستة شهور. لكن كيف حصل هذا؟ مَنْ يعرف؟ أغلب الظن قال أحدهم كلمة صغيرة بطريقة عرضية الى المدام أمه؛ على أية حال، علمت بأفعاله، وانه مضى الى حفلة سكر وعربدة مع الآخرين. تظهر هي من دون اعلان في المشهد، أطول مني بثلاثة رؤوس، بيضاء الشعر وغاضبة جداً، تأخذ السيد انطون مع لكمتين على الأذن، تسحبه من ياقته، وتضعه في القطار. [إذا ما ذهب الى الكلاب]، تقول هي، [في وسعه أن يفعلها بشكل جيد هناك في الأسفل]. وذهبا بعيداً.»

الجميع على مرمى السمع قهقهوا؛ السيد سيتيمبريني كانت له طريقة مضحكة في سرد القصص. بالرغم من موقفه الراشح بالإزدراء تجاه مجتمع المكان، كان يعرف دوماً كل ما يدور من أحداث ووقائع. كان يعرف اسم كل مريض وظروفه. كان يعرف كذا وكذا عن المريض الفلاني الذي أُجريت له عملية إستئصال ضلع من أضلاعه؛ وانه عرف من أفضل سلطة انه بدءاً من الخريف الماضي ولاحقاً لن يسمح بدخول أي شخص تبلغ درجة حرارته

أكثر من ١٠١,٣ فهرنهايت الى المؤسسة. أخبرهم كيف انه ليلة أمس الكلب الصغير العائد لـ مدام كاباتسولياس القادمة من (ميتلين) داس على زر الإشارة الكهربائية في اللوحة الليلية لسيدته وأحدث إهتياجاً كبيراً وركضاً الى هنا وهناك ـ خاصة لأنهم وجدوا ان مدام كاباتسولياس ليست وحدها لكن برفقة مخمن الضرائب دوستموند الآتي من فريدريخشتاغين. حتى الدكتور بلومينكول أُضطر الى الضحك. ماروسيا الحسناء إختنقت تقريباً بمنديلها المعطر بالبرتقال، والسيدة شتور ضجت بالضحك، ممسكة ثدييها بكلتا يديها.

لكن لإبنيّ الخالتين تحدث لودوفيكو سيتيمبريني عن نفسه وحياته المبكرة؛ سواء خلال جولاتهم التي قاموا بها معاً، أو في الصالون أثناء المساء، أو ربما، في حجرة الطعام ذاتها، بعد تناول وجبة الطعام، حين يكون أغلب المرضى قد غادروا الحجرة ويجلس الثلاثة معاً عند طرف طاولتهم بينما تكون النادلات منشغلات برفع الأطباق عن الموائد، وهانز كاستورب يدخن سيكاره ماريا مانسيني، الذي إستعاد في الاسبوع الثالث شيئاً من نكهته. كان نزاعاً الى إنتقاد ما سمعه، وشعر عادةً بالنفور؛ مع ذلك كان يصغي بتفتح الى حديث الإيطالي، ذلك انه فتح لفهمه عالماً جديداً وغريباً بكل ما في الكلمتين من معنى.

تكلم سيتيمبريني عن جدّه، وهو محام من ميلانو، وهو إضافة الى ذلك محب لوطنه ومتحمس في الدفاع عنه؛ وكان نوعاً ما مهيجاً جماهيرياً في القضايا السياسية، وخطيباً وصحفياً كذلك. هو أيضاً، كحفيده، كان دوماً يتخذ موقف المعارضة؛ مع انه كان قادراً على تأدية دوره على مسرح أوسع من مسرح لودوفيكو. أشار الأخير ببعض المرارة الى أن فعالياته الخاصة اقتصرت على أن يضايق بالإكثار من الأسئلة والتحديات وينتقد بقسوة حماقات نزلاء مصح بيرغهوف العالمي وسهولة انقيادهم نحو الإثم، وأن يحتج ضدهم باسم الروح الإنسانية الحرة والفرحة. غير ان جده كان له دور في تشكيل الحكومات؛ كان قد تآمر ضد النمسا و[الحلف المقدس]، الأمر

الذي مزّق وطنه ومن ثم أبقاه في نير ثقيل من العبودية؛ كان عضواً متحمساً في جمعيات سرية منتشرة في أرجاء إيطاليا كلها ـ carbonaro[٣٢]، فسر سيتيمبريني، لكنه خفض صوته فجأةً، كما لو انه كان ما يزال خطيراً اطلاق هذه الكلمة. الواقع، من خلال سرد حفيده، أخذ المستمعان صورةً عن الشخصية الغامضة والعاصفة، عن زعيم فتنة، عن داعية سياسي، وعن متآمر، بالرغم من جهودهم كلها، لم يفلحا تماماً في إخفاء شعور من الإرتياب وحتى المقت. صحيح، كانت الظروف غير إعتيادية. وما سمعاه كان قد حدث من زمن طويل، مائة سنة تقريباً. كان ذلك تاريخ، وكانا حسنا الإطلاع نظرياً ـ خاصة من التاريخ الموغل في القِدم ـ على الشخصية التقليدية لكاره الطاغية والمحرِّر، كالذي سمعا عنه الآن ـ مع انهما لم يحلما بأن يشاء القدر فيتصلان معه إتصالاً إنسانياً حقيقياً، كهذا! جد سيتيمبريني، كما قيل لهما، جمع مع حماسته التآمرية حباً عميقاً لوطنه، الذي كان حلمه أن يراه حراً وموحداً؛ الواقع، من هذا الإتحاد نفسه، وكنتيجة طبيعية، نشاطاته الثورية تدفقت ـ وكم بدا غريباً هذا المزج بين التمرد والوطنية لإبنيّ الخالتين، اللذين كان في عقلهما ان إحساساً دائماً بالنظام على قدم المساواة مع حبهما للوطن! لكنهما إعترفا بنحو خاص، مع ذلك، بأنه في تلك الآونة، وفي ذلك الموقف، ربما كان جائزاً بصورة ممكن تخيلها أن التمرد يجب أن يقترن بالفضيلة المدنية، وان القبول بالقانون من غير اعتراض يبيت مع اللامبالاة الكسولة تجاه الصالح العام.

بيد ان الجد جيوزيبي لم يكن وطنياً إيطالياً حسب. كان مواطناً زميلاً وأخاً في السلاح لأي شعب يكافح من أجل حرياته. وهكذا بعد فشل مؤامرة ما دُبرت في تورين من أجل إسقاط الحكومة العسكرية والمدنية، مؤامرة كان قد تورط فيها كثيراً، كاد مرتزقة ميترنيخ أن يلقوا القبض عليه، وأمضى زمن نفيه يناضل وينزف دماً، أولاً في اسبانيا من أجل قضية نظام حكم دستوري،

---

(٣٢) carbonaro (بالإيطالية). وقاد فحم نباتي. والمقصود هنا مهيج جماهيري.. وهي (الكلمة) التي يُشار إليها في السطر التالي ـ المترجم.

وبعدها في اليونان من أجل استقلال الشعب اليوناني. في اليونان رأى والد سيتيمبريني النور ـ وربما لهذا السبب يعزى كونه إنسانياً ومحباً للعصور القديمة. كانت أمه من أصل ألماني؛ تزوجها سيتيمبريني في سويسرا وأخذها معه خلال رحلته الحافلة بالمغامرات. سُمِح له، بعد عشرة أعوام من النفي، بالعودة الى ميلانو، حيث زاول مهنته، وخصص كل دقيقة من يومه للعمل، بالصوت والقلم، شعراً ونثراً، من أجل قيام الجمهورية المتحدة، ومن أجل إيقاف البرامج المدمِرة المتسمة بالحماسة الديكتاتورية، التي أُعلنت فيها بأوضح شكل مسألة توحيد الشعب المحرَّر وتحقيق السعادة العظيمة للجميع. ثمة تفصيل ذكره الحفيد ترك إنطباعاً عميقاً في هانز كاستورب ألا وهو: ان الجد جيوزيبي، حتى يوم مماته، كان يرتدي السواد ـ رمزاً، قال هو، لحداده على حالة وطن الأسلاف، الذي ضعف بفعل البؤس والعبودية. هانز كاستورب، بهذا الجزء من المعلومة، فكّر بجده هو، كما حدث مرة أو مرتين قبل وخلال سرد سيتيمبريني. جده أيضاً، بقدر ما يتذكر حفيده، كان يرتدي الملابس السود. ولكن يا للسبب المختلف! كان هانز لورنز كاستورب يرتدي الطراز القديم الطريف كي يظهر توحده مع زمن مضى وحاجته الضرورية الى التعاطف مع الحاضر؛ لبسه حتى أواخر أيامه، حين عاد ميتاً الى صورته الحقيقية والكافية ـ بطوق الرقبة المكشكش المنشى. أكيد كان هذان نوعان من الأجداد مختلفان بشكل مذهل! هانز كاستورب فكر ملياً، عيناه ثابتتان في نظرة محدقة، هازاً رأسه بحذر بطريقة يمكن أن تعد أيضاً كونها علامة الإعجاب بـ جيوزيبي سيتيمبريني أو العكس تماماً. أحجم بصورة جديرة بالإحترام عن إعطاء رأي في ما لم يفهمه، لكنه ببساطة قدّم ملاحظة عقلية عن المقارنة واكتفى بذلك. كان بمستطاعه رؤية الرأس الضيق لـ هانز لورنز العجوز، بينما هو محني ومستغرق في التفكير فوق الإطار الذهبي الشاحب لحوض التعميد، رمز الإنقضاء والبقاء، رمز الإستمرارية من خلال التغيير. كان فمه مفتوحاً؛ كان هانز كاستورب يعرف الكلمات أكبر ـ أكبر ـ أكبر التي كادت تنبعث منه، المقاطع الكئيبة التي كانت تذكره دوماً بأمكنة سار فيها المرء منكس الرأس وبمشية مبجلة. ومن ثم شاهد جيوزيبي

سيتيمبريني، مع العلم مثلث الألوان بيده، يلوح بسيفه الضالع ونافثاً نذراً الى (السماء) مع نظرة محدّقة غامضة يرنو بها الى الأعلى، بينما هو يقتحم ذرى الطغيان على رأس جمهرة محبي الحرية. حسن، فكّر، كل واحد منهما له جانب جميل ورائع ـ بذل مجهوداً أعظم كي يكون عادلاً، لأنه عرف نفسه كونه نصيراً[٣٣]، على أساس شخصي أو شخصي بعض الشيء. ذلك أن الجد سيتيمبريني حارب من أجل نيل الحقوق السياسية؛ في حين أن الجد الآخر ـ أو أجداده ـ كانوا أصلاً يملكون الحقوق كلها، وان الأوغاد أخذوهم بعيداً عنه، خلال القرون، من خلال العنف أو الخداع في القضايا القانونية. وهكذا كلا الجدين كانا يرتديان ثياب الحداد، الأول في شمال أوروبا والثاني في جنوبها، وكلاهما بالفكرة نفسها؛ أي، وضع بون شاسع بينهما وبين الحاضر الرديء. ولكن بينما لبسها الأول رمزاً لتبجيله الورع للماضي وللموتى، اللذين شعر بانتمائه بكل كيانه إليهما، لبسها الآخر علامة للتمرد، باسم التقدم، وبروح عدائية نحو الماضي. نعم، كان هذان عالمين مختلفين. كما قال السيد سيتيمبريني، ووقف هانز كاستورب، إن صح التعبير، بينهما وألقى نظرته الإنتقادية على هذا، وعلى ذلك، أعادا الى عقله الواعي مشهداً من حياته الماضية. رأى نفسه يجذف في بحيرة في هولشتاين، في أمسية من أمسيات أواخر الصيف؛ كانت الشمس قد أفلتْ، والقمر الذي كان بدراً تقريباً يرتفع فوق الأجمات التي تحف البحيرة. كان يجذف وحيداً وببطء في المياه الساكنة، متطلعاً ذات اليمين وذات الشمال الى مشهد رائع كأي حلم من الأحلام. غرباً كان النهار ما يزال عريضاً، ذا هواء ثابت وكامد؛ لكن في الشرق أمعن هو النظر في منظر طبيعي مُضاء بنور القمر، مجدول بسحر السديم المتصاعد والمقنع بصورة مساوية لإحساسه الحائر. المزج الغريب استمر نحو ربع ساعة قصيرة قبل أن يستقر التوازن أخيراً في صالح الليل والقمر؛ طوال ذلك الوقت كله كانت عينا هانز كاستورب المندهشتين تتنقلان

(٣٣) النصير partisan: عضو في قيادة غير نظامية مهمتها إزعاج العدو بشن الغارات المتكررة عليه ـ المترجم.

بذهول نابض بالحيوية من مشهد الى مشهد. من النهار الى الليل وثانية الى النهار. الصورة عادت إليه الآن.

في الوقت نفسه عبرت الفكرة عقله، تلك الفكرة مفادها أن المحامي سيتيمبريني لا يكاد يكون محامياً، إذا ما أخذنا بنظر الإعتبار المهن الأخرى ودائرة نشاطاته الواسعة. أكد حفيده بجزم، على أية حال، ووجد هانز كاستورب ذلك أمراً موثوقاً، ان الجد كان من طفولته المبكرة حتى آخر يوم من حياته مُلهَماً بالمبدأ الرئيس للعدالة. بطلنا، الذي كان ثقيل الرأس تماماً والذي كان مشغولاً عضوياً بوجبة طعام مصح بيرغهوف ذات الألوان الستة التي تناولها تواً، بذل مجهوداً ليفهم ماذا عنى سيتيمبريني حين دعا هذا المبدأ «مصدر ومَعين الحرية والتقدم». التقدم، حتى الآن، كانت له صلة، في عقل هانز كاستورب، مع أشياء مثل تطور القرن التاسع عشر في مجال الرافعات وعدة الرفع. ولذا كان مسروراً بمعرفة ان جد سيتيمبريني لم يقلل من شأن أهمية هذه المسائل. بطبيعة الحال، جده هو أيضاً لم يستخف بها. كان الإيطالي يكن إجلالاً لبلد مستمعيه الاثنين، ذلك ان اختراعات البارود ـ الذي بواسطته رُمي درع الإقطاعية في كومة الخردة ـ والآلة الطابعة، التي جعلت الإنتشار الديمقراطي للأفكار، وانتشار الأفكار الديمقراطية، اللذين كانا شيئاً واحداً: ممكناً. بسبب هذه الهبات الجيدة مدح ألمانيا؛ مدحها بسبب ماضيها، لكنه كافأ بلده بغصن غار، لأنه أول مَنْ نشر شعار الحرية، الثقافة، التنوير، في زمنٍ كانت فيه البلدان الأُخر كلها ملتفة في عتمة الخرافة والعبودية. مع ذلك في إضمار الإجلال المطلوب، كما في لقائهما الأول، عند المصطبة الواقعة عند المجرى المائي، للتجارة والتكنولوجيا (الحقل الخاص بـ هانز كاستورب)، سيتيمبريني ظاهرياً فعل هذا ليس من أجل هذه القوى نفسها، ولكن واضح بشأن أهميتها في مجال التطور الأخلاقي للجنس البشري. أشار لهذه الأهمية، إنتمى هو الى القوى بابتهاج. قال بأن التقدم التقني، أخضع الطبيعة شيئاً فشيئاً، من خلال تطوير الطرقات والتلغرافات، وتقليل الفروقات المناخية؛ ومن خلال وسائل الإتصال التي أبدعها التقدم والتي أثبتت نفسها كونها أكثر العوامل المعوّل عليها في مهمة تقريب شعوب

الأرض، وجعلهم يتعارفون بعضهم على بعض، وتشييد الجسور من أجل التوصل الى تسوية ما، وإزالة الإجحاف؛ وأخيراً تحقيق الأخوة الكونية للإنسان. الإنسانية إنبثقت من أعماق الخوف، الظلام، والضغينة؛ لكنها كانت تبزغ، كانت تتحرك قُدُماً والى الأعلى، نحو هدف الشعور بالصداقة والتنوير، هدف الصلاح والإبتهاج؛ وفي هذا الدرب، قال، كانت الوسائل الصناعية هي المركبة التي أفضت الى التقدم الأعظم. بيد ان هذا كله ترك إنطباعاً مشوشاً في هانز كاستورب. السيد سيتيمبريني بدا انه يجمع في نَفَس واحد صنوفاً في عقل الشاب كانت حتى الآن متباعدة عن بعضها الآخر كالقطبين، في سبيل المثال، التكنولوجيا والأخلاق! حقيقةً، أدلى بمقولة مفادها ان المسيح كان أول مَنْ صرّح بمبدأ المساواة والوحدة، وان الآلة الطابعة نشرت التعاليم، وأن الثورة الفرنسية، أخيراً، رفعتها الى قانون! هذه الصيغ كلها وجدها صديقنا الشاب المسكين مشوشة جداً، نادراً ما كان يعرف السبب ـ مع ان الشعور كان محدداً بصورة كافية في وعيه التام، ومع ان السيد سيتيمبريني صاغ فكره بأوضح الجمل وأكثرها كمالاً. مرة واحدة، مضى الإيطالي يقول، مرة واحدة في حياته، وحدث ذلك إبان سنوات الرجولة المبكرة، عرف جده ما هو الشعور بالفرح العميق. كان ذلك في ثورة تموز (يوليو) الباريسية. وراح يعلن للملأ بلا إستثناء انه ذات يوم سيضع الناس تلك الأيام الثلاثة جنباً الى جنب مع أيام الخليقة الستة، وسيجلبونها بالطريقة نفسها. صعق هانز كاستورب تماماً ـ بصورة لا إرادية صفع الطاولة بيده. كي نقارن تلك الأيام الصيفية الثلاثة لسنة ١٨٣٠، حين اتخذ الباريسيون لأنفسهم دستوراً جديداً، مع الستة التي فصل فيها الباري اليابسة عن الماء وخلق الأنوار في قبة السماء إضافة الى الأزاهير، الأشجار، والأسماك، وكل الأشياء الحية الأخر ـ بدا له ذلك شيئاً مبالغاً فيه. تكلم عنه في ما بعد مع ابن خالته يواكيم، وقدم تعبيراً واضحاً عن فكرته بقوله انه كان فعلاً لا يطاق، بحيث انه هو، هانز كاستورب، وجده كريهاً تماماً.

لكنه ما يزال متفتح العقل ـ في الأقل بالمعنى الذي إستمتع فيه بالتجربة التي قام بها ـ كبت الإعتراضات التي أثارها إحساسه بالسلامة الجسمية

والعقلية ضد المشروع السيتيمبريني للأشياء. كبتها إستناداً الى النظرية القائلة ان ما بدا له تحريضاً على العصيان يبدو لشخص آخر شجاعة باسلة؛ وما أسماه هو ذوقاً سيئاً ربما لم يكن، في ذلك الزمن والظرف القديم جداً، سوى عرض للإسرافات النبيلة، فضلا عن أنه ذات طبيعة رفيعة مثلاً، حين سمى الجد سيتيمبريني المتاريس «عرش الشعب»، وتحدث عن «تخصيص رمح المواطن على مذبح الإنسانية».

عرف هانز كاستورب ـ من دون أن يصوغ ذلك في كلمات كثيرة جداً ـ لماذا أعار السيد سيتيمبريني أذناً صاغية. جزئياً، كان هذا نابعاً من إحساسه بالواجب؛ مع انه أيضاً نابع من مزاج العطلة في أخذ الأمور على علاتها، من دون رفض شيء، من خلال الإدراك انه في يوم ما أو نحو ذلك سوف ينشر جناحيه ويطير عائداً الى النظام المعهود للأشياء. نعم، عرف، بصورة عامة، ان تلقينات العقل التي أصغى إليها؛ ولكي نكون دقيقين، ان تلقينات العقل لم تكن يسيرة على الإطلاق ـ بينما كان يجلس مصغياً للإيطالي، لافاً ساقاً على ساق، يسحب الأنفاس من سيجاره ماريا مانسيني، أو حين كان ثلاثتهم يتسلقون التل من الحي الإنجليزي.

مبدآن، بحسب النظرية السيتيمبرينية في نشأة الكون، كانا في نزاع سرمدي من أجل الإستيلاء على العالم، هما: القوة والعدالة، الإستبداد والحرية، الخرافة والمعرفة؛ قانون البقاء وقانون التغيير، قانون التخمر المتواصل المتولد في التقدم. ربما يستطيع المرء أن يسمي الأول المبدأ الآسيوي، الثاني المبدأ الأوروبي؛ ذلك ان أوروبا كانت مسرح الثورة، منطقة الحصافة العقلية والنشاط التحولي؛ في حين جسّد (الشرق) مفهوم السكون والجمود. ليس ثمة شك في مسألة مَنْ من الاثنين سينتصر في خاتمة المطاف: انها قوة التنوير، تلك القوة التي خُلقت من أجل التقدم والتطور العقلي. ذلك ان التقدم الإنساني إختطف معه المزيد والمزيد من الناس خلال مساره المثير للاعجاب؛ كما إنتزع المزيد والمزيد من الأراضي في أوروبا نفسها وبدأ يضغط باتجاه آسيا. بقيت أشياء كثيرة ينبغي القيام بها، جهود جليلة ما زالت مطلوبة من الأشخاص الذين تسلموا النور. بعدئذ سيأتي النهار

فقط حين تتحطم العروش وتتفتت الأديان البالية، في تلك البلدان المتبقية من أوروبا التي لم تستمتع قبلاً ببركات حركة التنوير الفلسفية للقرن الثامن عشر، ولا حتى ببركات جيشان مثل جيشي العام ١٧٨٩. لكن النهار سيطلع، قال سيتيمبريني، بابتسامته الرقيقة؛ سيأتي، كرر، إن لم يأتِ على أجنحة اليمام، إذاً على قوادم النسور؛ وسينبلج الفجر على أوروبا، فجر الأخوة الكونية، باسم العدالة، العلم، والعقل الإنساني. وسيجلب في قطاره (حلفاً مقدساً)[٣٤] جديداً، حلف الشعوب الديمقراطية في أوروبا، المعارض لـ (الحلف المقدس) الآخر، لسان حال الأمراء ومجالس الوزراء سيء السمعة الى حد بعيد، الذي عده الجد جيوزيبي شخصياً عدوه اللدود؛ وخلاصة القول، سوف يجلب في قطاره جمهورية العالم. لكن قبل أن يحدث هذا، المبدأ الآسيوي يجب مواجهته وتدميره في معقله ومركزه الحيوي؛ أي، في فيينا. النمسا يجب تدميرها، تدميرها وتقطيع أوصالها، أولاً كي نأخذ ثأر الماضي، وثانياً كي نحيا في ظل القانون الجديد للعدالة مع الحقيقة في الأرض.

هانز كاستورب لم يكترث بالنزعة الأخيرة هذه في التدفق الجهوري لكلمات السيد سيتيمبريني. إرتاب فيها، بدت له شديدة الشبه بعداء شخصي أو قومي. في ما يتعلق بـ يواكيم زيمسين، كلما وقع الإيطالي في هذا المزاج، كان يعبس ويدير رأسه، أو يحاول تغيير الموضوع قائلاً ان وقت الإستراحة ـ العلاج قد حان. حتى هانز كاستورب لم يكن يشعر بأنه مرغم على الإصغاء حين يتخذ الحوار هذه السبل الملتوية؛ بجلاء كانت هذه السبل خارج الحدود التي يقع ضمنها وعيه الذي حثه على الإستفادة من كلمات السيد سيتيمبريني. مع ذلك كان وعيه ما يزال يحثه على مواصلة الجهد، بجلاءٍ تام بحيث إنه عادةً، كلما حانت فرصة، كان يدعو الإيطالي الى أن يتحدث في موضوع آرائه.

---

(٣٤) الحلف المقدس Holly Alliance: وقعته روسيا والنمسا وبروسيا العام ١٨١٥، وغايته مقاومة الحركات القومية والتحررية التي بدأت تظهر في إيطاليا وألمانيا وأوروبا الوسطى، تحت تأثير الثورة الفرنسية ـ المترجم.

تلك الآراء، المثل العليا، وجهود الإرادة الطموحة كانت، قال سيتيمبريني، تنتقل من جيل الى جيل في عائلته. ورثها هو. الجد، الابن، الحفيد، كل بدوره، كرسوا لها حيواتهم كلها وطاقاتهم الروحية كلها. الأب بطريقته الخاصة فعل كذلك ليس أقل من الجد جيوزيبي. حقاً، لم يكن هو محرضاً سياسياً أو مقاتلاً فعالاً في قضية الحرية، بل عالِماً هادئاً وحساساً، إنسانياً جالساً الى طاولة الكتابة خاصته. ولكن ما هي، على أية حال، الحركة الإنسانية، إن لم تكن حب البشر، وفوق ذلك أيضاً النشاط السياسي، التمرد ضد كل ما ينزع الى تدنيس أو إفساد فهمنا للطبيعة البشرية؟ كان متهماً بالمبالغة في أهمية الشكل. لكن هو الذي أعز جمال الشكل فعل هذا لأنه عزز النبل الإنساني، في حين ان القرون الوسطى، بمقارنة لافتة للنظر، غاصت ليس في عداء وهمي للروح الإنسانية وحسب، ولكن أيضاً في اللا صورية المخزية. من البداية دافع عن حق الإنسان في إهتماماته الدنيوية، حقه في التفكير والفرح في الحياة، وشدد على القول ان بوسعنا أن نترك السماء بسلام كي تعتني بنفسها، الحركة الإنسانية ـ ألم يكن بروميثيوس[٣٥] أول الإنسانيين، ألم يكن هو مطابقاً لـ (الشيطان) الذي ترنم به كاردوتشي؟ آ، ليت إبنا الخالتين سمعا فقط العدو ـ الرئيس للكنيسة، في بولونيا، يصب قناني سخريته فوق العاطفية[٣٦] المسيحية للرومانسية! فوق Inni Sacri مانزوني[٣٧] فوق شعر الظلال ـ و ـ ضياء القمر، شعر الحركة الرومانسية، التي قارنها بـ «لونا، راهبة السماء الشاحبة»! يا سلام، كان الإصغاء الى ذلك شيئاً مبهجاً! وينبغي لهما أن يسمعا كاردوتشي وهو يفسر دانتي، يمجده كونه

(٣٥) بروميثيوس Prometheus: إله النار عند اليونان. جبل من التراب إنساناً ومنحه روحاً اختطفها من الصاعقة فأثار السماء ـ المترجم.

(٣٦) العاطفية sentimentalism: النزعة الى التأثر بالعاطفة دون العقل ـ المترجم

(٣٧) مانزوني Manzoni: شاعر وروائي إيطالي (١٧٨٥ ـ ١٨٧٣). النسخة المنقحة من روايته الرومانسية "Promessi Sposi" أثرت بقوة في ترسيخ (التوسكانية) كلغة إيطالية أدبية. ـ المترجم.

مواطن دولة ـ المدينة[٣٨] العظيمة، الذي تكلم جهاراً ضد الزهد ورفض الحياة، وكان مؤيداً لمأثرة تحول العالم وإصلاحه! لم تكن الشخصية المريضة والمعلِّمة لأسرار الدين لـ (بياتريس) هي التي مجدها الشاعر تحت اسم «السيدة النبيلة والرحيمة»، يقيناً كانت هي زوجته، التي مثلت في القصيدة مبدأ المعرفة العالمية والحياة العملية اليومية.

وهكذا حدث أن سمع هانز كاستورب شيئاً عن دانتي، ويقيناً من شفتي المرجِع. لم يكن ميالاً كثيراً جداً الى تصديق كل ما قاله سيتيمبريني تصديقاً تاماً؛ عده مدعياً كبيراً في ذلك الشأن. مع ذلك كان مفهوماً مسلياً، في ما يتعلق بـ دانتي هذا المواطن اليقظ للعاصمة العظيمة. والآن شرع سيتيمبريني يتكلم عن نفسه، ويفسر كيف ان ميول أجداده المباشرين، الميول السياسية من جده، الميول الإنسانية من والده، اتحدتْ معاً في شخصه هو كي تنتج الكاتب والأديب المستقل. ذلك ان الأدب هو مع ذلك لا شيء سوى الجمع بين الفلسفة الإنسانية وعلم السياسة؛ إتحاد مباشر حيث ان الفلسفة الإنسانية نفسها كانت علم السياسة وعلم السياسة الفلسفة الإنسانية. بذل هانز كاستورب قصارى جهوده في ما يتعلق بهذه النقطة ليصغي ويفهم، على أمل أن يفهم أخيراً كنه تكوّن الجهل التام لـ (ماغنوس) صانع البيرة، واكتشف ماذا كان الأدب حقيقة، فوق ووراء «الشخصيات الجميلة». سيتيمبريني سأل مستمعيه ما إذا سمعا بـ برونيتو، برونيتو لاتيني، الكاتب العدل الفلورنسي، الذي في نحو العام ١٢٥٠ ألف كتاباً في موضوع الفضائل والرذائل. هو الذي شحذ حصافة الفلورنسيين، علّمهم فن اللغة، وكيف يقودون دولتهم على وفق قواعد علم السياسة.

«هي ذي حصلتما عليها، أيها النبيلان، هي ذي حصلتما عليها!» صاح سيتيمبريني بحماسة، وأسهب في مسألة عبادة «الكلمة»، وفن البلاغة، التي أسماها انتصار النبوغ الإنساني. ذلك ان الكلمة هي مفخرة الجنس البشري،

---

(٣٨) دولة المدينة city-state: دولة ذات سيادة مؤلفة من مدينة مستقلة والمناطق الخاضعة لسلطانها المباشر (كأثينا القديمة) ـ المترجم.

هي وحدها وهبت السمو الى الحياة. لم تكن الفلسفة الإنسانية مرتبطة فقط بالكلمة، والأدب، بل أيضاً الطبيعة البشرية ذاتها، سمو الإنسان القديم جداً واحترام الإنسان لذاته [«سمعتَ، أليس كذلك»، قال هانز كاستورب في ما بعد لإبن خالته، «سمعته حين قال ان الأدب هو مسألة كلمات جميلة؟ حددتها مباشرة.»]، واستناداً الى ذلك علم السياسة أيضاً مرتبط مع الكلمة. أو، بالأحرى، يستند الى العلاقة المباشرة بالإتحاد، الوحدة القائمة بين الطبيعة البشرية والأدب، ذلك ان الكلمة الجميلة تنجب عملاً جميلاً.

«قبل مائتي عام خلت»، قال سيتيمبريني، «كان عندكم شاعر في بلدكم، مهذار عجوز كبير ترك ذخيرة عظيمة بكتابة يد جيدة لأنه كان يظن انها لا بد أن تحدث اسلوباً جيداً. كان عليه أن يمضي خطوة أخرى أبعد ويقول ان الاسلوب الجيد يفضي الى الأعمال الجيدة»، أضاف سيتيمبريني. ذلك ان الكتابة الجيدة هي تقريباً التفكير الجيد نفسه، وان التفكير الجيد هو الشيء الأقرب للعمل الجيد. كل التهذيب الخلقي، كل الكمال الخلقي مشتقان من روح الأدب، من روح السمو الإنساني، التي كانت الروح المحركة للطبيعة البشرية وعلم السياسة على حد سواء. نعم، هي كلها شيء واحد، قوة واحدة، فكرة واحدة، وبالمستطاع فهمها كلها بكلمة مفردة واحدة. هذه الكلمة؟ آ، كانت أصلاً مألوفة لآذانهم؛ مع ذلك كان يراهن ان ابني الخالتين لم يحدث قبلاً أن إلتقطا معناها وفخامتها بشكل صحيح: الكلمة هي ـ الحضارة! وحين أطلقها سيتيمبريني، قذف يده اليمنى الصغيرة صفراء الجلد في الهواء بقوة، كما لو كان يقترح شرب النخب.

حسن، كل ما وجده الشاب هانز كاستورب يستأهل الإستماع إليه، لم يكن الإستماع غامراً على وجه الدقة، يتعلق بقيمة تجريبية بصورة عامة، لكنها مع ذلك تستأهل الإستماع إليها. قال أكثر من ذلك الى يواكيم زيمسين في ما بعد، غير ان يواكيم كان يحتفظ بالمحرار الطبي في فمه ولم يستطع الرد على ابن خالته؛ ولم يستطع الإجابة بعد ان أُتيحت له الفرصة في ما بعد، حينما، عند إخراجه (أي المحرار)، قرأ الرقم ودوّنه في دفتر ملحوظاته. غير ان هانز كاستورب بودٍ أدرك وجهة نظر سيتيمبريني واختبر بها

تجاربه الداخلية الذاتية؛ ومنها الفحص الذاتي فظهر بالدرجة الأولى ان الرجل اليقظ له أفضلية على الرجل النائم أو الحالم. ذلك انه بينما كان هانز كاستورب النائم قد إنتقد غير مرة عازف الأرغن اليدوي في الشوارع في حضوره وبذل أقصى ما أمكنه ليبعده لأنه شعر به شخصاً مزعجاً، هانز كاستورب اليقظ أعاره أذناً صاغية وبذل مجهوداً مخلصاً ليقلل المعارضة التي أثارتها في نفسه باستمرار آراء وتصورات معلمه الخاص. ذلك انه لا يمكن الإنكار بأنه كانت هناك معارضة شديدة؛ بعضها كتلك التي لا بد انه شعر بها دوماً من البداية، البقية التي إنبثقت من الموقف الخاص ومن التجارب التي كانت جزئياً بديلة وجزيئاً سرية وشخصية بين «أولئك المقيمين هنا في الأعالي».

يا له من مخلوق هو الإنسان، كيف يخدعه عقله بلا جدوى! كم هو سهل بالنسبة له أن يفكر انه يسمع، حتى بصوت الواجب، الإجازة الرسمية نحو العاطفة! إستمع هانز كاستورب الى السيد سيتيمبريني تعبيراً عن الإحساس بالواجب والإنصاف، بفكرة الإستماع الى كلا الجانبين؛ مع أفضل النوايا اختبر وجهات نظر الأخير في موضوع الجمهورية، العقل، والاسلوب الجميل. كان متفتحاً تماماً. وطوال ذلك الوقت كان قد وجده مباحاً أكثر فأكثر أن يطلق العنان الحر لأفكاره وأحلامه في إتجاه آخر ومعاكس تماماً. الواقع، كي نمنح تعبيراً لكل ما نشك به أو نتنبأ، نعتقد انه ليس من المستبعد ان هانز كاستورب أصغى الى حديث السيد سيتيمبريني كي ينال من عقله الخاص تدليلاً بخلاف ذلك ربما لم يكن وشيكاً. لكن ما هو ـ أو مَنْ الذي ـ سحب الجانب الآخر من قوس الميزان، حين أوزن مقابل الوطنية، الآداب الرفيعة[٣٩]، وسمو الإنسان؟ كانت كلاوديا شوشا، ذات العينين «القرغيزيتين»، «المسترخية»، والملوثة من الداخل؛ حين فكّر بها [مع ان التفكير كلمة تافهة جداً كي تشخص الحافز الذي حوّل كينونته كلها في

(٣٩) الآداب الرفيعة belles-lettres: الأدب بوصفه فناً جميلاً، وبخاصة المقالات والنقد أو التأملات الفلسفية التي تكون من النوع الأدبي الإجمالي الصرف ـ المترجم.

اتجاهها]، بدا كما لو كان جالساً ثانية في زورقه في بحيرة تقع في هولشتاين، متطلعاً بعينين مندهشتين من ضوء النهار الكامد للساحل الغربي الى السديم وأشعة القمر التي غلفت السماء الشرقية.

المحـرار الطبـي

إمتد اسبوع هانز كاستورب هنا من الثلاثاء الى الثلاثاء، لأنه في يوم ثلاثاء وصل. قبل يومين أو ثلاثة، هبط الى المكتب ودفع قائمته الاسبوعية الثانية، حساب معتدل يقارب مائة وستين فرنك، معتدل وزهيد بصورة كافية، حتى إذا لم نأخذ بالحسبان طبيعة بعض مزايا إقامته هنا في الأعالي - مزايا بالغة النفاسة بحد ذاتها، مع انها للسبب نفسه لا يمكن تضمينها في القائمة - وحتى من دون احتساب الأشياء الإضافية كالحفلة الموسيقية التي تتم إقامتها كل اسبوعين ومحاضرات الدكتور كروكوفسكي، والتي يمكن تضمينها بصورة يمكن تخيلها. ان مبلغ المائة والستين فرنك مثّل ببساطة وكلية حسن الضيافة الحقيقية المقدمة من قبل مصح بيرغهوف العالمي لـ هانز كاستورب: مسكنه المريح ووجبات طعامه الضخمة الخمس.

«هو ليس بالحساب الكبير، هو رخيص نوعاً»، قال النزيل للساكن القديم. «لا تستطيع أن تشكو من كونك مطالباً بدفع ثمن باهظ هنا في الأعالي. تحتاج نحو ستمائة وخمسين فرنك في الشهر للطعام والسكن، ويضمنها المعالجة. دعنا نفترض انك تنفق ثلاثين فرنك إضافية عن البقاشيش، إذا كنت كريماً وتريد أن تحيط بك وجوه ودودة. عندئذ يصبح الحساب ستمائة وثمانين. جيد. طبعاً أعرف ان هناك أجوراً ثابتة وأنواعاً من التكاليف الصغيرة: مواد الحمّام، التبغ، ركوب العربات، والرحلات القصيرة بين حين وحين ومن ثم قائمة مشتريات الأحذية أو الثياب. جيد جداً. لكن هذه كلها لن تجعل الرقم يرتفع الى ألف فرنك، قل ما تشاء. لن يرتفع حتى الى ثمنمائة. لن يصبح المبلغ عشرة آلاف فرنك سنوياً. أكيد ليس أكثر من ذلك. هذه هي تكاليفك.»

«علم الحساب العقلي عندك جيد جداً»، قال يواكيم. «لم أعرف انك ماهر هكذا في حل المسائل الحسابية في رأسك. وكم أنت رحب الأفق بحيث تستطيع أن تحسب التكاليف في السنة! تعلمتَ شيئاً ما منذ أن أصبحتَ هنا في الأعالي. لكن رقمك عالٍ جداً. أنا لا أدخن ومؤكد انني لا أتوقع شراء أي بذلة خلال وجودي هنا، شكراً.»

«إذاً ستكون التكاليف أقل»، أجاب هانز كاستورب، مرتبكاً بعض الشيء. لِمَ حقاً، توجب عليه أن يضمن التبغ والملابس الجديدة في حسابه لتكاليف يواكيم.. انه شيء محيّر. لكن في ما يتعلق بالبقية، عرضه الذكي في علم الحساب كان ببساطة قد ذر رماداً كثيراً في عينيّ ابن خالته؛ لأنه هنا، كما في أي مكان آخر، كانت نشاطاته العقلية بطيئة نوعاً ما أكثر مما هي سريعة، والحقيقة هي ان حساباً سابقاً بالورقة وقلم الرصاص يكمن وراء براعته الحالية. ذات ليلة في شرفته (ذلك انه أدى أيضاً العلاج المسائي خارج المبنى الآن، أسوة ببقية النزلاء) خطرت بباله فكرة مفاجئة ونهض من كرسيه المريح كي يأخذ قلم رصاص وورقة. نتيجة لحساب بسيط بالأرقام؛ إستنتج ان ابن خالته أو إذا ما تكلمنا عموماً، ان مريضاً في مصح بيرغهوف ـ يحتاج إثنى عشر ألف فرنك في السنة لتغطية المبلغ الكلي لمصروفاته. وهكذا سلّى نفسه من خلال تأسيس حقيقة مفادها انه هو، هانز كاستورب، يقدر، بسِعَة، أن يسكن هنا في الأعالي، إذا ما شاء، كونه رجلاً يبلغ دخله السنوي ثمانية عشر أو تسعة عشر ألف فرنك.

دفع، كما أسلفنا، قائمته الاسبوعية الثانية قبل ثلاثة أيام، وعلى وفق ذلك وجد نفسه وسط الاسبوع الثالث والأخير لإقامته المحددة. الأحد القادم كما قال لنفسه ولإبن خالته، سيشهد عزف حفلة موسيقية أخرى من تلك الحفلات التي تقام كل اسبوعين، ويوم الاثنين ستكون هناك محاضرة أخرى للدكتور كروكوفسكي؛ وبعدها، الثلاثاء أو الأربعاء، سيرحل، وسيُترك يواكيم هنا في الأعالي وحيداً ـ يواكيم المسكين، الذي يأمره بالبقاء رادامانثوس الله أعلم كم من الشهور الأُخر! كانت غلالة حزن ترتسم على عينيه السوداوين اللطيفتين كلما تم التطرق الى رحيل هانز كاستورب الذي اقترب سريعاً. أين،

بحق السماء، ذهبت العطلة؟ مرت سريعاً، طارت ـ وتركت المرء يسائل نفسه كيف. مع ذلك، ان ثلاثة أسابيع، واحد وعشرين يوماً، مدة زمنية كبيرة، طويلة جداً، في الأقل، للمرء ليرى النهاية عند البداية. والآن، بغتةً، لم يبقَ منها سوى ثلاثة أو أربعة أيام تعيسة، أي لا شيء يستحق الذكر. حقيقةً، سوف تشمل المحاضرة والحفلة الموسيقية، ذينك التغييرين المتكررين في البرنامج الاسبوعي، وربما تتحرك هكذا مثقلة بمزيد من البطء. ولكن من الناحية الأخرى، سوف يكون هو مشغولاً بحزم الأمتعة ومغادرة المصح. ان ثلاثة أسابيع هنا في الأعالي شيء جيد كأنه لا شيء على الإطلاق، هكذا قال له الجميع في البداية. ان أصغر وحدة زمنية هي الشهر، هكذا قال سيتيمبريني، وبما ان إقامة هانز كاستورب كانت أقل من ذلك، فهي تعادل لا شيء؛ انها «زيارة نهاية الاسبوع»، كما إصطلح على تسميتها هوفرات بيرنز. هل ان الطيران السريع للزمن هنا في الأعالي له علاقة بالإحتراف العضوي ذي المعدل المتسارع بانتظام؟ على أية حال، هنا كانت فكرة مواسية لـ يواكيم خلال شهوره الخمسة المتبقية ـ إذا ما تعين عليه فعلاً أن يمكث خمسة فقط. غير ان هانز كاستورب شعر انه خلال هذه الاسابيع الثلاثة كان يجدر بهما أن يعيرا اهتماماً أكثر، وأن يراقبا بصورة أفضل، كما فعل يواكيم في قياساته اليومية، التي بدت خلالها الدقائق السبع كأنها مدة زمنية كبيرة تماماً. حَزِن هانز كاستورب على ابن خالته، قرأ في عينيه ألمه بسبب الرحيل الوشيك. شعر بأقوى عاطفة ممكنة لدى التفكير ان الشاب المسكين ينبغي له البقاء هنا في الأعالي حين يكون هو نفسه في الأسفل، في الأرض المنبسطة، يساعد في توحيد الاسم من خلال التطور في مجال التجارة والاتصالات. كان أسفه أحياناً نابضاً بالحيوية بحيث يكون قادراً على إحراق صدره ويورثه الشك في ما إذا كانت ستواتيه الشجاعة، عندما يحين الأوان، كي يترك يواكيم وحيداً؛ وان هذه المعاناة التي تحملها نيابةً عن الآخر ربما كانت السبب الذي جعله هو نفسه يشير أقل فأقل الى رحيله وشيك الحدوث. يواكيم نفسه هو الذي عاد إليه؛ ذلك ان هانز كاستورب كانت تحركه حساسية وكياسة فطريتان، وبدا راغباً بنسيانه حتى اللحظة الأخيرة.

«في الأقل»، قال يواكيم أكثر من مرة خلال الأيام هذه، «دعنا نأمل ان الإقامة هنا في الأعالي حسنت حالتك، وانك سوف تشعر بالفائدة حين تكون في مدينتك ثانية.»

«سوف أهدي تحياتك الى الجميع»، أجاب هانز كاستورب، «وأقول انك راجع في بحر خمسة شهور كحد أقصى. حسنت حالتي؟ الإقامة هنا في الأعالي حسنت حالتي؟ أرغب أن يكون اعتقادي هكذا؛ لا بد ان تحسناً قد طرأ عليَّ، حتى خلال هذا الزمن القصير. أخذتُ انطباعات جمة جديدة، جديدة بكل ما في الكلمة من معنى؛ محفِزة جداً، لكنني شعرت أيضاً بقدر كبير من الإجهاد، الجسدي والعقلي. لم أشعر البتة بأنني قد تأقلمت فعلاً ـ هذا الأمر تؤكد سيكون الخطوة الضرورية الأولى نحو التحسن. ماريا، شكراً للطيبة، هي نفسها القديمة؛ على مدى أيام معدودات الآن، كنتُ قادراً على نيل النكهة. غير ان منديلي ما يزال يغدو أحمر من حين الى حين عندما أستخدمه ـ وهذه الحرارة اللعينة في وجهي، وهذه الخفقانات البلهاء، يبدو انها ستظل تلازمني حتى الدقيقة الأخيرة. كلا، يبدو انني لا أستطيع التحدث عن كوني تأقلمت ـ كيف أستطيع، فوق ذلك، في وقت قصير جداً؟ يستغرق ذلك وقتاً أطول للتغلب على تبدل المناخ وكي تكيف نفسك تماماً للظروف غير الإعتيادية، بحيث ان شفاءً حقيقياً يمكن أن يبدأ وآخذ أنا بالسمنة. هذا شيء سيء جداً. مؤكد انها غلطة ألا أمنح نفسي وقتاً أكثر ـ لأنني بالطبع أستطيع أن أحصل عليه. لي إحساس انني ما إن أكون في منزلي ثانيةً سأحتاج الى النوم ثلاثة أسابيع من غير انقطاع كي أرتاح من الإستراحة التي نلتها! يكشف لك هذا كم أشعر بالتعب غالباً والآن، كي أتوج الذروة، أُصبتُ بهذه النزلة ـ».

بدا، الواقع، كما لو ان هانز كاستورب سوف يعود الى مدينته وقد إستحوذ عليه زكام من الدرجة الأولى. أدركه، أغلب الظن، في الإستراحة ـ العلاج، وثانيةً أغلب الظن، في الإستراحة ـ العلاج أثناء المساء، التي أداها تقريباً على مدى اسبوع حتى الآن في الشرفة، بالرغم من الفترة الطويلة للمناخ البارد والرطب. كان يعي ان مناخاً من هذا النوع لا يُعد سيئاً جداً،

ان تصوراً كهذا لا وجود له هنا في الأعالي، حيث أكثر المناخات التي يمكن تصورها قسوة تمضي من دون أن يلتفت إليها أحد ولن تسبب رعباً لأي فرد. مع التكيفية البسيطة للشباب، التي توائم نفسها مع أي بيئة، شرع هانز كاستورب يقلّد هذه اللامبالاة. ربما تمطر مطراً غزيراً، غير ان الجو لا يفترض أن يكون أكثر رطوبةً بسبب ذلك ـ ولا يكون كذلك، في الإحتمالات كلها، ذلك ان الحرارة الجافة في وجهه استمرت، كما لو انها نجمت عن شرب الخمر، أو عن الجلوس في حجرة دافئة أكثر مما ينبغي. ومهما أمسى الجو بارداً، لن تصبح المشعاعات ساخنة ما لم يهطل الثلج، وهكذا لا جدوى من اللجوء الى حجرة النوم، طالما ان البقاء في الشرفة شيء مريح جداً، حين يضطجع المرء في كرسي ممتاز، ملتفاً في عباءة (غالباً ذات أكمام) وبطانيتين جيدتين من وبر البعير تُلبسان على وفق الشعيرة. شيء مريح جداً؟ كان أكثر من ذلك بصورة لا تُضاهى. كان، برأي هانز كاستورب المقنع، حالة حياة تروقه أكثر من أي شيء آخر في كل تجاربه السابقة، بقدر ما يتذكر. لم يعتزم أن يكون مستشاراً في رأي كهذا يليق بأي carbonaro أو كاتب في الوجود، مهما كان عدد النكات الخبيثة والمريبة التي صنعها في موضوع «الأفقي». خاصة وأنه كان يحب البقاء في الشرفة مساءً، عندما كان مع مصباحه الصغير على الحامل بجانبه وسيجاره ماريا الذي إفتقده طويلاً واستعاده الآن مشتعلاً بين شفتيه يستمتع بالميزات التي لا توصف لكرسي الإستلقاء خاصته. حقاً، شعر بأنفه يتجمد، وبيديه الممسكتين بكتابه ـ كان ما يزال يطالع «بواخر المحيط» ـ تحمران وتتشنجان جراء البرد. تطلع عبر قوس الشرفة خاصته الى الوادي الذي شرع يظلم، المرصع بالأضواء التي إتخذت شكل العناقيد أو المبعثرة التي بدت كلها أشبه بالجواهر، وأصغى الى الموسيقى التي كانت تنجرف الى الأعلى كل مساء على مدى حوالي ساعة. كانت هناك حفلة موسيقية في الأسفل، وكان في وسعه سماع، اختيارات أوبرية(٤٠) مألوفة وملطفةً بصورة محببة بفعل

---

(٤٠) أوبرية operatic: ذو علاقة بالأوبر ـ المترجم.

المسافة، نتفاً من كارمن(٤١)، التروبادور(٤٢)، الرامي ذو الطلقات السحرية(٤٣)؛ أو فالسات رشيقة، حسنة البناء، مارشات مفعمة بالحيوية، بحيث انه لم يستطع أن يتمالك نفسه عن مواصلة اداء حركات توقيعية برأسه، وموسيقى المازوركا المرحة. مازوركا؟ لا، كان اسمها ماروسيا، ماروسيا ذات الياقوتة الصغيرة. وفي الشرفة الملاصقة، وراء الجدار السميك للزجاج الحليبي، يضطجع يواكيم، الذي تبادل معه هانز كاستورب كلمة بين حين وحين، بنبرة صوت واطئة، من غير اعتبار للأفقيين الآخريين. كان يواكيم أيضاً في شرفته كما هو هانز كاستورب في شرفته، مع كونه غير موسيقي على الإطلاق، لم يكن بوسعه أن ينال السعادة ذاتها في الحفلات الموسيقية. سيء جداً! كان في الأرجح يدرس الكتاب التمهيدي لتعلم الروسية بدلاً من ذلك. غير ان هانز كاستورب سمح لـ«بواخر المحيط» أن يسقط على الغطاء ومنح نفسه للموسيقى؛ فكّر برضا باطني في العمق الشفاف للخيال الموسيقي المبدع المليء بالشخصية الفردية والسحر التي (أي الموسيقى) لم يفكر بها بشيء غير العداء لسيتيمبريني وللأشياء المزعجة التي قالها عنها، وكونها مشبوهة سياسياً هو أسوأ الأشياء كلها، وأفضل من ذلك بعض الشيء ملاحظة الجد جيوزيبي عن ثورة تموز (يوليو) والأيام الستة للخليقة.

يواكيم، مع انه لا يستطيع أن يشارك في سعادة هانز كاستورب في الموسيقى، ولا في الرضا اللاذع الذي موّنته ماريا، يستلقي مستكناً بنحو مريح كإبن خالته. شارف اليوم على الإنتهاء. بالنسبة للزمن كل شيء آيل للإنتهاء؛ لن يكون هناك إرهاق نفسي، ولا إجهاد على عضلات القلب. لكن على حد سواء كان ثمة ضمان ان غداً ستبدأ من جديد الأشياء كلها، كل

---

(٤١) كارمن Carmen: أنجح أوبرات بيزيه. أخرجت في باريس العام ١٨٧٥. العنوان مستمد من اسم البطلة وهي غجرية تعمل في معمل للسكائر ـ المترجم.

(٤٢) التروبادور: أوبرا من تأليف فيردي أخرجت في روما العام ١٨٥٣ ـ المترجم.

(٤٣) الرامي ذو الطلقات السحرية: أوبرا لـ فيبر، أخرجت في برلين العام ١٨٢١، بالألمانية Der Freischutz ـ المترجم.

الإحتمالات الإيجابية التي وهبها النَسب ونظام المسكن. وهذا المزج المُرضي للراحة والأمل الواثق من نفسه، مع الموسيقى والسحر المستعاد لـ ماريا، جعل العلاج المسائي حالة مساوية تقريباً للسعادة القصوى بالنسبة للشاب هانز كاستورب.

هذه كلها لم تمنع النزيل والمبتدئ من الإصابة بزكام شديد، أما في الإستراحة ـ العلاج مساءً أو في أي مكان آخر شعر ببداية النزلة؛ مع ضيق في الجيب الهوائي الكائن في الجبهة، والتهاب في اللهاة؛ لم يكن بمستطاعه التنفس بيسر عبر الممر الذي وفرته الطبيعة؛ وبينما هو يشق طريقه بجهد، كان الهوء البارد يخترق موجعاً ومسبباً سعالاً مستمراً. اتخذ صوته طوال الليل الصفة النغمية لجهير[٤٤] غير رنان وهو أسوأ شيء بالنسبة للمشروب القوي. وبحسب ما قاله، لم يغمض له جفن، وحنجرته جعلته يثب كل خمس دقائق من وسادته.

«شيء مغيظ جداً»، قال يواكيم، «وغير سار أبداً. أنواع الزكام المختلفة، كما تعرف، لا تؤخذ بالحسبان على الإطلاق، هنا في الأعالي. السلطات لا تعترف بوجودها؛ الموقف الرسمي هو ان جفاف الجو يمنع حدوثها تماماً. إذا كنتَ مريضاً، فإنك حتماً تتشاجر مع بيرنز، إذا ذهبت إليه وقلت انك مصاب بالزكام. غير ان الأمر مختلف نوعاً مع ضيف ـ لك الحق أن تصاب بالزكام إذا ما شئت. سيكون أمراً جيداً إذا إستطعنا أن نوقف النزلة. ثمة أشياء يمكن القيام بها، هناك في الأسفل، لكن هنا.. أشك في ما إذا سيوليها أحد ما الإهتمام الكافي. ليس من المستحسن أن يقع المرء مريضاً هنا في الأعالي، فأنت لن تلحظ المرض البتة. انها قصة قديمة ـ لكنك ستسمعها في خاتمة المطاف. حين كنتُ حديث العهد هنا في الأعالي، كانت هناك سيدة تعاني من أذنها على مدى اسبوع كامل وأخبرت الجميع بمبلغ معاناتها. بيرنز أخيراً نظر إليها. [هوّني عليك، مدام]، قال، [هي ليست مسلولة]. كانت تلك نهاية المسألة! حسن، لا بد لنا أن نرى ما

---

(٤٤) الجهير bass: صوت عميق وخفيض ـ المترجم.

الذي نستطيع فعله. سوف أكلم أستاذ الإستحَمام في ساعةٍ مبكرة من صباح الغد، حين يقبل الى حجرتي. عندئذ سوف تمر الأمور عبر قنواتها الإعتيادية وأغلب الظن سيسفر عنها شيء ما.»

وهكذا يواكيم، والقنوات الإعتيادية برهنا على كونهما موثوقين. يوم الجمعة، بعد ان رجع هانز كاستورب من جولته الصباحية، كان هناك قرع على بابه، ومُنح هو سعادة التعرف شخصياً الى الآنسة فون ميليندونك ـ السيدة المدير، كما كانت تُدعى. حتى الآن كان قد شاهد هذه المرأة المشغولة أكثر من اللازم فقط من بُعد، تقطع المجاز من غرفة مريض الى غرفة مريض آخر، أو حين دخلت فجأة على مدى دقيقة واحدة في حجرة الطعام وكان يعي صوتها الأجش لكنه الآن كان هدف زيارتها. نزلته هي التي أتت بها. قرعت قرعة قصيرة، عظمية، دخلت تقريباً قبل أن يقول لها تفضلي بالدخول، وبعدها، عند العتبة، إنحنت لتتيقن من رقم الغرفة.

«أربعة وثلاثين»، تكلمت بصوت خفيض أجش. «صحيح. حسن أيها الألماني الشاب، قيل لي انك مصاب بالزكام[٤٥]. أي لغة تتكلم؟ أوه، فهمت، أنت ضيف الشاب زيمسين. هم يتوقعون حضوري في صالة العمليات. ثمة شخص يجب إعطاءه الكلوروفورم، تناول هو سلطة البازلاء تواً. عليّ أن أراقب كل زاوية من زوايا المصح. حسن، أيها الألماني الشاب، عندك زكام؟»

فوجئ هانز كاستورب بهذا النوع من المخاطبة، بفم سيدة ذات نسب عريق. في كلامها السريع كانت قد لفظت كلماتها بنحو غير واضح، طوال الوقت وبلا إنقطاع تحرك رأسها في ما حولها بحركة دائرية، الأنف يتشمم في الهواء ـ حركة حيوان حبيس وقع ضحية. يدها اليمنى المنمشة، مضمومة بارتخاء والإبهام متجه الى الأعلى، مدتها أمامها ولوحت بها جيئةً وذهاباً على الرسغ كما لو كانت تقول: «تعال، أسرعْ، لا تصغِ الى ما أقوله، لكن قل لي

(٤٥) الجملة الأخيرة تتكرر ثلاث مرات في النص: بالفرنسية، والإيطالية، والإنجليزية، آثرنا عدم تكرارها ـ المترجم.

ماذا عندك ودعني أنتهي من الأمر!» كانت في عقدها الرابع، معوّقة النمو، من دون شكل أو وسامة، مكسوة بثوب مئزري للأطفال من غير كمين وذي حزام ببياض سريري، مع صليب من العقيق الأحمر على صدرها. شعر خفيف، محمر لاح تحت القلنسوة البيضاء لمهنتها؛ كانت عيناها زرقاوين مائيتين، ذواتي أجفان ملتهبة، وإحداهما، كلمسة أخيرة، كانت لها شحاذ العين في مرحلة متطورة في الركن. كانت نظراتهما غير ثابتة ومضطربة. كان أنفها مرفوعاً للأعلى، وفمها أشبه بفم ضفدع، ومجهز بالإضافة الى ذلك بشفة سفلى ملتوية وناتئة، والتي كانت تستخدمها كالمجرفة كي تطلق كلماتها. هانز كاستورب تطلع إليها، وكل الود المتواضع وحَسِن الظن بالناس المجبول عليه نطق في عينيه.

«أي نوع من الزكام هو، إيه؟» كررت المديرة. بدت كأنها تسعى الى تركيز نظراتها المحدقة وجعلها ثاقبة؛ لكنها زاغت جانباً. «نحن لا نبالي بهذه الضروب من الزكام. هل إستهدفتك؟ ابن خالتك تعرّض لها أيضاً، أليس كذلك؟ كم يبلغ سنك؟ أربع وعشرين؟ نعم، انه العمر. إذاً أتيت الى هنا في الأعالي وأصبت بالزكام؟ ينبغي أن لا يكون هنا في الأعالي أي كلام عن ضروب الزكام؛ ذلك النوع من الثرثرة ينتمي الى الأسفل.» كان مخيفاً رؤية الكيفية التي تجرف بها كلماتها الى الخارج بوساطة شفتها السفلى.

«لديك نزلة شُعبية جميلة نوعا، هذا واضح ـ» من جديد بذلت ذلك المجهود المثير للفضول كي تخترقه بنظرتها المحدقة، وثانيةً لم تستطع أن تبقيها ثابتة. «لكن النزلات لا يسببها الزكام، هي تنجم عن عدوى، يكتسبها المرء من خلال وجوده في حالة إستعداد لتقبل العدوى. وهكذا، فالمسألة هي، هل نتعامل نحن مع عدوى عديمة الضرر أم مع شيء أكثر خطورة؟ كل ما هو عدا ذلك محض ثرثرة. جائز ان تقبلك للعدوى يميل الى النوع عديم الضرر»، مضتْ تقول، ونظرت إليه بشحاذ العين الناضج أكثر مما ينبغي، لا يدري كيف. «هنا، سأعطيك معقماً بسيطاً.. ربما يكون نافعاً لك»، وتناولت علبة صغيرة من حقيبة جلدية تتدلى من حزامها. كانت تلك مادة (فورمامنت). «لكنك تبدو محمراً ـ كما لو كنت محموماً.» لم تتوقف عن

محاولة تركيز النظر عليه، ودوماً تنزلق العينان الى أحد الجانبين. «هل قستَ حرارتك؟»

رد بالسلب.

«لِمَ لا؟» سألتْ، وشفتها الناتئة تدلت في الهواء بعد أن أنهت حديثها.

لم يحر جواباً. الشاب المسكين ما يزال يافعاً؛ لم يتخلص أبداً من حياته الصبياني. جلس، إذا صح القول، على مصطبته، من دون أن يعرف الرد ولاذ بالخرس.

«أغلب الظن انك لا تقوم بأخذ حرارتك؟»

«أوه، نعم، أيتها السيدة المدير، عندما تكون عندي حمى.»

«طفلي العزيز، المرء يأخذها في المرحلة الأولى ليرى ما إذا كانت عنده حمى. وبحسب قولك، ليس عندك حمى الآن؟»

«لا أستطيع الجزم، أيتها السيدة المدير. لا أقدر حقاً أن أميز الإختلاف. منذ مجيئي الى هنا في الأعالي، أحسست بأنني حار نوعاً ومرتجف.»

«أها! وأين هو محرارك الطبي؟»

«ليس بحوزتي محرار، أيتها السيدة المدير. لماذا يتعين عليّ إمتلاكه، لستُ مريضاً؛ أنا هنا في الأعالي في زيارة لا غير.»

«هراء! هل بعثتَ بطلبي لأنك لم تكن عليلاً؟»

«كلا»، ضحك بأدب، «أرسلتُ في طلبك لأنني أخذت قليلاً ـ»

«من البرد. رأينا دوماً مثل هذه الأنواع من البرد. هنا أيها الألماني الشاب». قالت، ونقبت ثانية في حقيبتها. أخرجت علبتين جلديتين طويلتين بعض الشيء، واحدة حمراء وواحدة سوداء، ووضعتهما فوق الطاولة. «هذه ثمنها ثلاث فرنكات وخمسين، الأخرى ثمنها خمس فرنكات. التي سعرها خمس فرنكات أفضل، بالطبع. سوف تبقى معك طول العمر إذا ما إعتنيتَ بها.»

باسماً أخذ العلبة الحمراء وفتحها. الآلة الزجاجية ترقد في الداخل أشبه بجوهرة، تنطبق بشكل محكم في أخدودها المخملي الأحمر. كانت

الدرجات مُعلّمةً بخطوط حمر، العشرات بخطوط سود، الأرقام كانت بالأحمر وكانت النهاية الضيقة مليئة بزئبق متألق. كان العمود واقفاً تحت مستوى حرارة الجسم.

كان هانز كاستورب يعرف ما هو مناسب له ولتنشئته. «سآخذ هذه»، قال، حتى من دون أن ينظر الى الأخرى. «التي سعرها خمس فرنكات. هي لي ـ».

«إذاً حُلتْ المسألة»، نعبت المديرة. «أرى انك لا تبخل في ما يتعلق بالصفقات المهمة. لا مسوّغ للسرعة، سوف تأتي في القائمة. أعطني إياه. سوف نقذفه الآن» ـ تناولت المحرار الطبي من يده وقذفته بسرعة بالغة مرات عدة في الهواء، الى أن أصبح عمود الزئبق تحت درجة (٩٥) فهرنهايت. «سوف يرتفع من جديد!» قالت. «هذا هو شيؤك المكتسب الجديد. تعرف كيف نستخدمه هنا في الأعالي؟ تحت اللسان مباشرة، سبع دقائق، أربع مرات يومياً، وسد الشفتين جيداً فوقه. حسن، أيها الألماني الشاب، يلزمني أن أنصرف حالاً. حظاً سعيداً» وأمست عند الباب.

تراجع هانز كاستورب عنها، ثم توقف عند الطاولة، متطلعاً من الباب الذي تلاشت منه عن الأنظار الى الآلة التي تركتها. «إذاً هذه»، فكّر، «هي المديرة فون ميليندونك. سيتيمبريني لا يكترث بها، ومؤكد لها جانب كريه. شحاذ العين غير جميل، لكنها بطبيعة الحال لا تملكه طوال الوقت. ولكن لماذا تدعوني [الألماني الشاب] هكذا؟ يبدو لي ان هذا شيء فظ ومبتذل. إذاً باعتني محراراً طبياً ـ في ظني انها تحتفظ دوماً بمحرار واحد أو محرارين في جيبها. يجب أن تكون متوفرة في كل مكان هنا، قال يواكيم، حتى في الحوانيت التي قلّما تتوقع وجودها. إنما لم تكن بي حاجة الى تجشم عناء شرائه؛ بل سقط في حضني.» أخرج الشيء من علبته، نظر إليه، وسار بقلق في الحجرة جيئة وذهاباً. قلبه ينبض بقوة وسرعة. تطلع الى باب الشرفة المفتوح، ودرس مسألة البحث عن مشورة من يواكيم، لكنه فكر بنحو أفضل في الموضوع وتوقف ثانية عند الطاولة. نظف حنجرته بالتنحنح؛ ثم سعل. «أجل»، قال، «يلزمني أن أعرف ما إذا كانت عندي الحمى التي ترافق

الزكام». بسرعة وضع المحرار في فمه، الزئبق تحت اللسان، بحيث ان الآلة إلتصقت بصورة مائلة الى الأعلى خارج شفتيه. أغلق شفتيه بثبات، بحيث لم يكن ثمة مجال لدخول الهواء. ثم نظر الى ساعة معصمه. كان الوقت قد تجاوز النصف ساعة بست دقائق. وشرع ينتظر إنقضاء الدقائق السبع.

«لا ثانية أطول»، فكّر، «ولا ثانية أقصر. يمكنهم أن يعتمدوا عليّ في كلا الإتجاهين. لا حاجة بهم لأن يعطونني [ممرضة صامتة]، مثل أوتيلييه كنيفر التي حدثنا عنها سيتيمبريني.» تمشى في الغرفة ضاغطاً على المحرار بلسانه.

زحف الزمن ببطء؛ المدة المحددة بدت لا نهائية. حين نظر الى ساعته، انقضت دقيقتان ونصف، وخاف من كون الدقائق السبع أكثر من طويلة. فعل ألف شيء. رفع أشياءً في الغرفة ووضعها في أمكنتها من جديد، سار الى الشرفة ـ إلتزم الحذركي لا ينتبه ابن خالته لوجوده ـ ونظر الى المنظر الطبيعي لهذا الوادي المرتفع، الذي أمسى مألوفاً جداً له في أشكاله كلها، بقرونه، بذراه وجدرانه، بالجناح البارز لـ«بريمبول»، الذي كانت قمته تنحدر بشدة الى الوادي في الأسفل، جوانبه مغطاة بالشجيرات الكالحة النامية تحت الأشجار الكبيرة، بتشكيلاته في الجانب الأيمن للوادي، التي لم تكن أسماؤها مألوفة أقل من باقي الأسماء، وهناك الـ (ألتينفاند)، الذي بدا من هذه النقطة قريباً من الوادي من ناحية الجنوب. خفض بصره متطلعاً الى مزاهر الحديقة ودروبها، الغار الطبيعي والتنوب الفضي؛ أصاخ السمع الى الدمدمة التي تصاعدت من ردهة الإستراحة؛ ورجع الى حجرته؛ موطناً المحرار تحت لسانه. بعدها، بحركة من ذراعه التي سحبت الكم عن رسغه، قرَّب الساعد من عينيه ووجد انه بوساطة الدفع والدسر، السحب والجذب، إستطاع أن يتخلص من ست دقائق كاملة. الدقيقة الأخيرة أمضاها واقفاً وسط الحجرة ـ لكن عندئذ، لسوء الحظ، جعل أفكاره تتيه وتنحدر في «نوم خفيف»، بحيث ان الثواني الستين جرت على أجنحة الريح؛ وحين نظر من جديد، كانت الدقيقة الثامنة قد تجاوزت ربعها الأول. «هذا لا يهم البتة، بقدر تعلق الأمر بالنتيجة»، فكر، وإنتزع الآلة من فمه، وحدق فيها بارتباك.

لم يكن حالاً الأكثر ذكاءً. وميض الزئبق تلاشى مع انعكاس الغلاف الزجاجي، حيث إرتطم به الضوء، ولم يكن بوسعه أن يقرر ما إذا كان الزئبق قد صعد العمود بامتداده كله، أم انه لم يكن هناك أي زئبق على الإطلاق. قرّب الآلة من عينيه، أدارها هنا وهناك ـ بلا جدوى. لكن في النهاية دورة محظوظة أعطته منظراً أوضح؛ بسرعة كبح يده وحشّد فهمه كله. الزئبق، الواقع، إرتفع ثانية، كما قالت السيدة المديرة. كان العمود قد إستطال بشكل محسوس؛ وقف عند خطوط سود فوق المستوى الطبيعي. كانت حرارة هانز كاستورب ٩٩,٦ درجة فهرنهايت.

تسع وتسعون درجة وستة أعشار الدرجة في وضح النهار، بين العاشرة والنصف والحادية عشرة إلا ربعاً صباحاً. كانت تلك عالية جداً؛ كانت تلك «حرارة». كانت حمى ناتجة عن عدوى كان جسمه تواقاً إليها. المسألة الآن هي، أي نوع من العدوى؟ ٩٩,٦ درجة فهرنهايت ـ لماذا لم يعد يواكيم يعاني من الحمى، ولا حتى أي شخص آخر هنا في الأعالي، عدا المحتضرين وطريحي الفراش. لا الآنسة كليفيلد باسترواحها الصدري، ولا ـ ولا المدام شوشا. طبيعي، في حالته الوضع يختلف تماماً، أكيد لا؛ كان عنده ما كان يدعى في مدينته زكام محموم. لكن التمييز ليس من النوع اليسير الذي يستطيع المرء القيام به. إرتاب هانز كاستورب في ما إذا كانت الحمى تأتي فقط حين يقبل الزكام، وشعر بالندم لأنه لم يستشر محراراً في البداية، حين اقترح هوفرات ذلك. الآن بوسعه أن يفهم ان هذه كانت نصيحة معقولة؛ كان سيتيمبريني على خطأ حين سخر منها ـ سيتيمبريني بـ«جمهوريته» وبـ«الاسلوب الجميل» خاصته. هانز كاستورب إشمئز من الجمهورية والاسلوب الجميل واحتقرهما حين وقف هناك مستشيراً محراره الطبي؛ استمر في إضاعة العلامة وإدارة الآلة بهذا الإتجاه وذاك كي يعثر عليها ثانية. نعم، سجلت الآلة ٩٩,٦ درجة ـ وجرى هذا في الجزء المبكر من النهار!

كان قلقاً تماماً. سار على طول الحجرة مرتين أو ثلاثاً، المحرار محمول أفقياً في يده، كي لا يهزهزه ويجعله يشير الى درجة مختلفة. ثم وضعه بحذر

على حامل المغسلة، ودخل بمعطفه وبطانيتيه الشرفة. بعد ان جلس، رمى الأغطية حول جسده، بيد متمرسة، أولاً من جانب واحد، ثم من الجانب الآخر، واضطجع بلا حراك، وانتظر ريثما يحل الوقت الذي يأخذه فيه يواكيم الى الفطور الثاني. بين الفينة والفينة كان يبتسم ـ بالضبط بدا كما لو انه يبتسم لشخص ما. وبين حين وحين كان صدره يرتفع عندما يأخذ نَفَسه ويستولي عليه سعاله الشُعبي.

ألفاه يواكيم ما يزال مستلقياً حين دخل في الساعة الحادية عشرة، لدى سماعه صوت جرس الفطور الثاني.

«حسن؟» سأل بدهشة، مقترباً من كرسي ابن خالته.

جلس هانز كاستورب برهةً من دون جواب، ناظراً الى أمام. ثم قال: «حسن، آخر الأنباء ان عندي حرارة طفيفة.»

«ماذا تعني؟» سأل يواكيم. «هل تشعر بأنك محموم؟»

ثانيةً جعله هانز كاستورب ينتظر قليلاً جوابه، ثم أفصح عن نفسه بمرح كما يأتي: «محموم، يا زميلي العزيز، شعرتُ منذ زمن بعيد ـ طوال الوقت الذي كنت فيه هنا في الأعالي، حقيقةً. لكن حالياً لم تعد هي عاطفة وهمية، بل مسألة حقيقية. أخذتُ حرارتي.»

«أخذتَ حرارتك؟ بأية طريقة؟» هتف يواكيم، مفزوعاً.

«بمحرار طبي، طبعاً»، أجاب هانز كاستورب، مع مسحة ساخرة في صوته. «السيدة المديرة باعتني واحداً. لا أعرف لماذا يلزمها أن تدعوني الألماني الشاب. واضح ان سلوكها ليس كما ينبغي. لكنها لم تضيع الوقت في بيعها محرار ممتاز لي؛ إذا ما أردتَ أن تقنع نفسك، تستطيع فعل ذلك؛ انه هناك على حامل المغسلة. انها فقط حرارة بسيطة.»

إستدار يواكيم على عقبه ودخل حجرة النوم. حين عاد أدراجه، قال بتردد: «نعم. انها ٩٩,٥٥ درجة فهرنهايت.»

«إذاً نزلتْ قليلاً»، أجاب ابن خالته على عجل. «كانت ستة بالعشرة.»

«لكن لا يمكنك أن تسمي ذلك حمى طفيفة»، قال يواكيم. «أكيد ليس بسبب العصر. هذه [كيف حالك] مناسبة!» ووقف بجانب ابن خالته كما

يقف المرء أمام [كيف حالك]، واضعاً ذراعيه على خاصرته، ورأسه منكس الى الأسفل. «يلزمك الذهاب الى الفراش.»

كان جواب هانز كاستورب جاهزاً. «لا أفهم»، قال، «لماذا يتعين عليّ الذهاب الى السرير حين تكون حرارتي ٩٩,٦ درجة. عندما تكونون أنتم البقية، الذين ليس لديكم الآن حرارة أقل من حرارتي، قادرين على الجري هنا وهناك كيفما تشاءون.»

«لكن هذا الأمر مختلف»، قال يواكيم. «حماك شديدة وعديمة الأذى، وهي نتيجة برد.»

«أولاً»، قال هانز كاستورب، متكلماً بوقار مقسماً ملاحظاته الى أصناف. «لا أفهم لماذا، مع حرارة غير مؤذية ـ مفترضاً حالياً، ان ثمة شيئاً كهذا ـ على المرء أن يلازم سريره، في حين مع حرارة مؤذية أنت لا تحتاج الى ملازمة الفراش. وثانياً، أقول لك ان الحمى لم تجعلني أكثر حرارة مما كنت عليه قبلاً. نظريتي هي ان ٩٩,٦ درجة هي ٩٩,٦ درجة. إذا استطعت أن تتجول بهذه الدرجة، فأنا أيضاً أستطيع.»

«لكن توجّب عليّ أن أرقد في فراشي مدة أربعة أسابيع في بداية مجيئي الى هنا»، إعترض يواكيم، «ولم يسمحوا لي بالنهوض من السرير إلا حين أمسى واضحاً أن حرارتي استمرت حتى بعد رقودي في الفراش.»

ابتسم هانز كاستورب. «حسن و ـ؟» سأل. «أعتقد ان الأمر كان مختلفاً معك. يبدو لي انك تناقض نفسك؛ في البداية قلت ان حالتينا مختلفتان؛ بعدها قلت انهما متشابهتان. يبدو لي ان هذه محض ثرثرة.»

قام يواكيم بدورة كاملة. وحين إستدار ثانية، بانَ محياه الملوح بالشمس أكثر دكنة.

«لا»، قال، «لم أقل انهما متشابهتان؛ أصبحتَ مشوش الذهن. أعني فقط ان عندك برد خطير جداً. يمكنني سماعه في صوتك، يجب عليك الذهاب الى الفراش، كي تختصر المسألة، إذا قصدت العودة الى البيت الاسبوع المقبل. لكن إذا كنت لا تريد ـ أقصد الذهاب الى الفراش ـ لماذا لا

تريد. أنا لا أفرض عليك أمراً. على أي حال، دعنا نذهب الى الفطور. أسرع. لقد تأخرنا الآن.»

«الآن ـ أوه» قال هانز كاستورب، ورفع أغطيته عن جسده. ولج حجرته كي يسرع الى تمشيط شعره، ونظر يواكيم ثانية الى المحرار فوق حامل المغسلة. راقبه هانز كاستورب. هبطا بصمت، واتخذا موقعيهما في حجرة الطعام، التي كانت، كعادتها في ساعة كهذه، تومض بيضاء بالحليب.

النادلة القزمة جلبت لـ هانز كاستورب بيرته المفضلة كولمباخر، كالعادة، لكنه قطب حاجبيه وأشار عليها أن ترفع القنينة. لن يشرب البيرة اليوم؛ لن يحتسي شيئاً على الإطلاق، أو في الحد الأقصى جرعة ماء لا غير. كان إنتباه زملاء مائدته لافتاً للنظر، كانوا يريدون معرفة سبب تغير مزاجه. قال هانز كاستورب ان لديه حمى خفيفة ـ الواقع الحد الأدنى: ٩٩,٦ درجة فهرنهايت.

عندئذ يا للصورة المضحكة التي ظهروا بها! هزوا أصابعهم مشيرين إليه، غمزوا بأعينهم بصورة ماكرة، أمالوا رؤوسهم جانباً، عقفوا سباباتهم بجانب آذانهم وهزوها بحركة إيمائية توحي بسرورهم عند إكتشافهم له، هو الذي لعب دور البريء حتى الآن.

«أها»، قالت مُدرسة الثانوية، التورد يتعاظم في خدها العتيق، «أية فضيحة هذه؟»

و«أها، أها!» قالت السيدة شتور أيضاً، وقربت إصبعها القصير والبدين من أنفها القصير والبدين. «إذاً ضيفنا المحترم عنده بعض المرارة[٤٦] أيضاً! فلان ـ علان في الزورق نفسه مع بقيتنا بالرغم من كل شيء!»

حتى خالة الأم، حين سافرت الأنباء الى طرف مائدتها، ألقت عليه نظرة ذات معنى وابتسمت؛ الجميلة ماروسيا، التي قلما نظرت إليه حتى الآن، إنحنت قليلاً وتطلعت إليه، بعينيها المدورتين البنيتين، رافعة منديلها الى

---

(٤٦) السيدة شتور تقصد بعض الحرارة ـ النص الإنجليزي أورد خطأً مشابهاً. ذلك ان المومأ إليها ترتكب أخطاء خلال حديثها ـ المترجم.

شفتيها ـ وهزت إصبعها أيضاً. السيدة شتور همست الأخبار الى الدكتور بلومينكول، الذي لم يكن بوسعه فعل شيء عدا الإنضمام الى اللعبة، حتى من دون أن ينظر الى هانز كاستورب. فقط الآنسة روبنسون ظلت جالسة كدأبها ولم تشارك في ما كان يدور. بقي يواكيم يتطلع الى قماش المائدة.

إنتباه النزلاء الكبير أشبع غرور هانز كاستورب، لكنه شعر بذلك التواضع المطلوب منه للتنصل من إنتباههم. «لا، لا»، قال. «كلكم مخطئون، حماي أقل الأشياء إيذاءً في العالم؛ ببساطة عندي زكام، عيناي تفيضان بالدمع، صدري مقطوع. سعلتُ نصف الليل، انه، بطبيعة الحال، شيء بغيض تماماً.» ـ لكنهم لم يصغوا إليه؛ قهقهوا وجعلوا أيديهم ترفرف باتجاهه.

«أجل، طبعاً، نعرف كل شيء عنه ـ نحن نعرف أنواع الزكام هذه؛ انها كلها هراء خادع ـ لا تستطيع أن تخدعنا!» وبالإجماع تحدّوا هانز كاستورب في إجراء فحص فوري. الأخبار هيجتهم. خلال وجبة الطعام كانت مائدتهم أكثر الموائد السبع حيوية. السيدة شتور أُصيبت تقريباً بالهستيريا. بدا وجهها البرم قرمزياً فوق كشكش رقبتها، ولاحت أوردة أرجوانية متناهية الصغر في وجنتيها. راحت تقول كم هو فاتن أن يسعل المرء. انها قناعة راسخة، حين تشعر بوخز خفيف في صدرك، في الأعماق، ويبدأ بالنمو شيئاً فشيئاً، كي يصل الى ما ورائه، ويصل إليه فعلاً، إذا صح التعبير. العطاس يشبه ذلك تماماً. تداهمك الرغبة في العطاس الى أن تغدو ببساطة غير قادر على تحمله مدة أطول؛ تبدو وكأنك تترنح سكراً؛ وتأخذ نفسين، ثم يحدث العطاس، وتنسى كل ما عداه في نعيم الإحساس. غالباً يكرر الإنفجار نفسه مرتين أو ثلاث مرات. هذا نوع من السعادة تمنحك إياه الحياة مجاناً. ثمة نوع آخر وهو سعادة خدش التقرحات في يديك أو قدميك في فصل الربيع، حين تسبب لك حكة رائعة جداً؛ تشعر بسعادة جهنمية في هرش جلدك الى أن ينبثق الدم، وإذا حدث أن تطلعت الى محياك في المرآة ستنذهل من رؤية وجهك الشبحي.

الإنسانة الفظة أبهجت المائدة بهذه التفاصيل المثيرة للإشمئزاز خلال

وجبة الطعام الموجزة لكن الكافية. حين إنتهت الوجبة، سار إبنا الخالتين الى البلاتز، بدا يواكيم مشغول البال، وكان هانز كاستورب كان في حالة كرب بسبب الزكام ونظف حنجرته ذات الصوت الخشن متنحنحاً باستمرار.

في طريق الإياب الى المصح قال يواكيم: «سأقدم لك اقتراحاً. غداً، بعد وجبة منتصف النهار، يكون موعد فحصي الشهري الإعتيادي. هو ليس بالفحص العام؛ بيرنز فقط يتسمع قليلاً بالسماعة الطبية وكروكوفسكي يسجل بعض الملاحظات. يمكنك أن تأتي معي وتطلب منهما أن يصغيا إليك قليلاً. انه شيء منافٍ للعقل تماماً ـ إذا كنت في البيت، ستبعث في طلب هيده كايند، وهنا في الأعالي، مع طبيبين اختصاصيين في المصح، تجري أنت هنا وهناك من دون أن تعرف أين أصبحت، ولا كم هي خطيرة حالتك الصحية، وإذا لم يكن الأفضل لك الذهاب الى السرير.»

«جيد جداً»، قال هانز كاستورب. «انه كما تقول، بالطبع. يمكنني أن أفعل ذلك. ان رؤية فحص طبي ستكون ممتعة حتماً.»

هكذا تم الإتفاق بينهما، وحدث انهما قبل وصولهما المصح، إلتقيا هوفرات نفسه، وإغتنما الفرصة ليخبراه بطلبهما حالاً.

خرج بيرنز من المدخل المسقوف، طويلاً ومنحنياً، قبعة مستديرة سوداء فوق مؤخرة رأسه، سيجار في فمه؛ ذا خدين أرجوانيين، وعينين دامعتين، في ذروة فعالياته المهنية. كان قد جاء تواً من صالة العمليات، هكذا قال، وهو في طريقه الى عمله الخاص في القرية.

«صباح الخير، أيها النبيلان، صباح الخير»، قال. «دوماً في رحلة عاجلة، ايه؟ كيف هي الأمور في العالم الواسع؟ أقبلتُ تواً من نزاع غير متكافئ مع المنشار والمبضع ـ شيء عظيم، كما تعرفان إستئصال الأضلاع. خمسين بالمائة من الحالات جرت العادة أن نتركها على الطاولة. حالياً نقوم بالعمل بصورة أفضل؛ مع ذلك انها خطة جيدة أن نحدد علة الوفاة سلفاً. الشاب اليوم عرف كيف يختار النكتة ـ هيأ نفسه الى قتال جيد على مدى دقيقة أو نحو ذلك. ـ شيء مجنون، الصدر البشري أُصيب بكامله؛ لين، كما تعرف، لا يمكن الإمساك بشيء ـ تشوش بسيط في الآراء، إذا جاز

التعبير. حسن، حسن ـ وكيف هي دستورياتكم؟ عمليات الأيض المبرأة من الخطيئة تعمل بصورة جيدة، تؤدي واجباتها على مرأى من الرب؟ التمشي يكون أفضل مع الصحبة، زيمسين، أيها الرفيق القديم، ماذا؟ مرحباً، مَنْ تنادي، السيد السائح؟» إستدار فجأةً الى هانز كاستورب. «الصياح علانية مناوئ للقواعد المتبعة هنا ـ ربما يجفلون كلهم!»

«انه زكامي فقط، سيد هوفرات»، رد هانز كاستورب. «لا أدري كيف فعلته، لكنني ببساطة لدي نزلة لا تقدر بثمن. انها هنا في صدري، وأنا أسعل كثيراً أيضاً.»

«حقاً!» قال بيرنز. «يجدر بك أن تستشير طبيباً موثوقاً.»

قهقه إبنا الخالتين، ورد يواكيم، عقبا حذائيه متلاصقان: «اننا عازمان تواً، سيد هوفرات. غداً سيكون موعد معاينتي، ونريد أن نطلب منك إذا ما تلطفت علينا أن تفحص ابن خالتي أيضاً. المسألة هي ما إذا سيكون في حالة جيدة بدرجة كافية بحيث يستطيع السفر الثلاثاء المقبل.»

«آ، نعم»، قال بيرنز. «في خدمتك. بكل السرور في الحياة. كان يجدر بك أن تفحص قبل وقت طويل. منذ مجيئك الى هنا في الأعالي، لِمَ لم تفحص؟ غير ان المرء لا يريد أن يبدو سبّاقاً. جيد جداً إذاً، غداً في الثانية ـ مباشرة بعد الطعام.»

«كذلك عندي حرارة طفيفة»، أضاف هانز كاستورب قائلاً.

«لا تقل لي ذلك!» صاح بيرنز. «أظنك تعتقد انك تنقل لي أخباراً؟ هل تحسب أن ليس لي عينان في رأسي؟».

أشار بسبابته الضخمة الى عينيه الجاحظتين، المحتقنتين بالدم، الدامعتين. «حسن، وكم تبلغ؟».

هانز كاستورب ذكر الرقم بكياسة.

«صدر النهار[٤٧]، ايه؟ هِم، هذا لا بأس به. لا بأس به أبداً، بالنسبة لمبتدئ ـ يتمتع بموهبة ظاهرة. جيد جداً، كلاكما، غداً في الثانية. لي

---

(٤٧) صدر النهار forenoon: من الصباح الى الظهيرة ـ المترجم.

الشرف الكبير أن أقوم بفحصكما كلاكما. حسن، وداعاً ـ متعا نفسيكما!» مشى بخطى قصيرة مترنحة نازلاً التل، ركبتاه محنيتان، مخلفاً وراءه علماً خفاقاً طويلاً من دخان سيجاره.

«حسن، حُلتْ المسألة مثلما أردت»، قال هانز كاستورب. «ما كان بوسعنا أن نحرز تقدماً أوفر حظاً من هذا، وأنا مستعد للفحص. لن يكون بمستطاعه أن يفعل أكثر من ذلك، بطبيعة الحال ـ ربما يصف لي شراباً نافعاً لأمراض الجهاز التنفسي، أو قطع كراميل صغيرة مفيدة للسعال. على أي حال، شيء جيد أن تلقى بعض التشجيع حين تشعر بالطريقة التي أشعر بها الآن. لكن بحق السماء ما الذي يجعله يثرثر هكذا؟ في البدء أذهلني كلامه المضحك، لكنني على المدى الطويل لا أستطيع القول انني أحب حديثه ذاك. [عمليات الأيض المبرأة من الخطيئة] ـ أي كلام خالٍ من المعنى هذا؟ لو فهمتُ ماذا يعني بـ [الأيض]، انه لا شيء غير علم وظائف الأعضاء، وعندما تكلم عن كونه مبرأ من الخطيئة ـ أنا أسمي هذا شيئاً غير متسم بالإحترام. أنا حتى لا أستمتع برؤيته يدخن؛ انه شيء يضايقني، لأنني أعرف انه شيء غير جيد له ويورثه الكآبة. قال سيتيمبريني ان مرحه متكلف، وعلى المرء أن يعترف ان لـ سيتيمبريني آراءه الخاصة ويعرف عمَّ يتكلم. أغلب الظن ينبغي لي أن أملك آراءً خاصةً بي، كما قال هو، وأنا لا أتقبل الأمور على علاتها، كما أنا فاعل الآن. لكن في بعض الأحيان يبدأ المرء بامتلاك فكرة ويشعر بسخط مبرر أخلاقياً وما الى ذلك، ومن ثم يأتي شيء ما لا علاقة له بالأحكام والنقد، وبعدها ينتهي كل شيء مع صرامتك، وتشعر بالإشمئزاز من الجمهورية والإسلوب الجميل ـ».

ثرثر من دون ترابط، لم يفصح عما ينوي قوله. ألقى عليه ابن خالته نظرة جانبية لا غير، ثم أدار ظهره مع «وداعاً» وكلاهما ذهب الى شرفته.

«كم هي؟» سأل يواكيم برقة، بعد مدة وجيزة ـ كما لو انه رأى هانز كاستورب يستشير محراره.

وأجاب الأخير بلا مبالاة: «لا جديد.»

الواقع ما إن دخل حتى تناول مباشرة شيئه المكتسب الجديد من حامل المغسلة وقذفه مراتٍ عدة عبر الهواء، كي يمحو التسجيل الصباحي. ثم دلف الى الشرفة بسيجاره الزجاجي في فمه كالمتمرس. لكن خلافاً لبعض التوقعات المبالغ بها نوعاً، لم يرتفع الزئبق أكثر من السابق ـ مع ان هانز كاستورب أبقى الآلة تحت لسانه ثماني دقائق بغية الحصول على قياس جيد. ولكن مع ذلك، ٩٩,٦ درجة فهرنهايت كانت حتى لا يرقى إليها الشك، مع انها لم تكن أعلى من التسجيل الأبكر. عصراً ارتفع العمود الوامض حتى بلغ ٩٩,٧ درجة، لكنه نزل الى ٩٩,٥ درجة مساءً، حين كان المريض متعباً بسبب إهتياج اليوم. الصباح التالي أشار المحرار الى ٩٩,٦ درجة، صعد خلال الصباح الى المستوى نفسه كما في السابق. وهكذا جاءت ساعة وجبة الطعام الرئيسة في اليوم، آتية بالفحص في أعقابها.

تذكّر هانز كاستورب في ما بعد ان مدام شوشا كانت ترتدي في ذلك اليوم بلوزة صوفية غليظة ذهبية ـ صفراء، ذات أزرار كبيرة وجيوب مطرزة. كانت بلوزة جديدة، في الأقل بالنسبة لـ هانز كاستورب، وحين شرعت تدخل، ببطء كالعادة، توقفت لحظةً وبالطريقة التي عرفها جيداً، قدمت نفسها الى الحجرة. ثم تزحلقت الى مكانها عند المائدة، إنزلقت برشاقة إليه، وأخذت تأكل وتثرثر لزملاء مائدتها. هذا كله يجري يومياً، خمس مرات في اليوم هانز كاستورب لاحظه عادة، أو أغلب الظن بصورة أكثر من الإعتيادي، متطلعاً الى المائدة الروسية «الجيدة». الى ما وراء سيتيمبريني، بينما هو جالس الى المائدة التي بالعرض بينهما. رأى إستدارة وجهها خلال الحوار، العنق الرشيق، الظهر المحدودب. السيدة شوشا، بدورها، لم تلتفت حولها مرة واحدة أثناء وجبة الطعام كلها. ولكن حين تم تسليم الحلوى باليد، والساعة الكبيرة المعلقة فوق الجدار الذي يعلو المائدة الروسية «السيئة» دقت معلنةً الثانية، حدث فعلاً، ويا لدهشة هانز كاستورب وحيرته، وبالضبط حين دقت الساعة الجدارية واحد، اثنان، ان المريضة الشقراء أدارت رأسها ولوت قليلاً جسدها ونظرت من فوق كتفها بصراحة وبحدة الى مائدة هانز كاستورب. وليس الى مائدته حسب. لا، نظرت إليه، بصورة

جلية وشخصية، بابتسامة حول الشفتين المسدودتين، وعينا بريبسلاف الضيقتان كأنهما تقولان: «حسن، حان الوقت: هل أنت ذاهب؟» والعينان قالتا أنت، فتلك هي لغة العيون، حتى حين يستخدم اللسان صيغة تخاطب أكثر رسمية. الواقعة صدمت هانز كاستورب وحيّرته حتى أعماق صيرورته. لم يستطع الوثوق بحواسه، وفي البداية حدق بأقصى حد من البهجة في وجه السيدة شوشا، ثم، رافعاً عينيه، تطلع في الفراغ الكائن فوق قمة رأسها. هل من الجائز انها عرفت انه سيتم فحصه في الساعة الثانية؟ بدا الأمر شبيهاً بذلك؛ بيد ان هذا كان مستحيلاً مثل الفرضية القائلة انها لا بد أن تكون عارفة بالفكرة التي خطرت بباله في الدقيقة الأخيرة؛ أي، انه من الجائز أيضاً أن يرسل كلمة الى هوفرات، من خلال يواكيم، مخبراً إياه ان زكامه قد تحسن، وانه يعتبر الفحص الطبي شيئاً غير ضروري. هذه الفكرة قدمت نفسها له في ضوء مؤاتٍ، لكنها الآن ذوت تحت تلك البسمة اللاذعة، تحولت إحساساً بشعاً باللاجدوى. بعدها بثانية، وضع يواكيم منديل المائدة المطوي خاصته بجانب طبقه، مومئاً لإبن خالته بأن رفع حاجبيه، وبانحناءة للمجموعة نهض من المائدة. حيث هانز كاستورب، المضطرب داخلياً، مع انه خارجياً ثابت الخطوة والمشية نهض أيضاً، شاعراً بتلك النظرة والبسمة فوق ظهره، تبع ابن خالته يواكيم خارج الحجرة.

منذ صباح الأمس لم يتكلما في ما عُرِض أمامهما، وبصمت الآن اجتازا المجاز معاً. يواكيم غذ خطاه، فقد تجاوز الوقت الساعة المحددة، وان هوفرات بيرنز يشدد على دقة المواعيد. اجتازا باب المكتب وهبطا الدرجات المغطاة بمشمع الأرضية الى «الطبقة الواقعة تحت الأرض». طرق يواكيم الباب المواجه لهما، كان يحمل ترساً من الخزف الصيني مع كلمتي «حجرة الإستشارة».

«أدخل»، صاح بيرنز، مشدداً على الكلمة. كان واقفاً وسط الغرفة، بثوبه الخارجي الفضفاض الأبيض، حاملاً السماعة الطبية السوداء بيده وضارباً فخذه بها ضرباً خفيفاً.

«الزمن، الزمن»، قال هو، موجهاً نظرته الجاحظة الى الساعة المعلقة

على الحائط. «قليل من زياده السرعة، يا سيد. لسنا هنا ببساطة ولمجرد راحة النبيلين الجديرين بالإحترام.»

كان الدكتور كروكوفسكي جالساً الى طاولة كتابة ذات أنبوبين لقلمي حبر، تقع عند النافذة. كان يرتدي قميصه الأسود المألوف من صوف الألبكة[٤٨]، مبرزاً بالمغايرة شحوب وجهه؛ مرفقاه يستريحان على الطاولة، في إحدى يديه قلم حبر، وبيده الأخرى يمس لحيته بأصابعه؛ في حين أمامه وضعت أوراق عديدة، لعلها وثائق تخص المرضى الذين من المزمع فحصهم. نظر الى إبني الخالتين وهما يدخلان، غير انه حدق إليهما بنظرة كسولة لشخص حاضر فقط بوصفه مساعداً.

«حسن، ناولنا بطاقة تقريرك»، رد هوفرات على إعتذارات يواكيم، وأخذ بطاقة الحرارة من يده. تفحصها، بينما كان المريض يستعجل في خلع قطع ملابسه العلوية حتى الخصر وعلّقها على الحامل عند الباب. لم يقلق أحد على هانز كاستورب. كان يتطلع مدة وجيزة واقفاً، ثم أجلس نفسه في كرسي مريح عتيق الطراز مع حزمة شرّابات فوق المسندين، جنب طاولة صغيرة مع إبريق زجاجي فوقها. خزانات كتب تكسو الجدران، مليئة بالكراسات والكتب الطبية عريضة القفا. ليس ثمة قطع أثاث أخرى، عدا الكرسي الطويل المعدّل والمغطى بالقماش الزيتي. كان له منديل مائدة ورقي منشور فوق الوسادة.

«سبعة بالعشرة، تسعة بالعشرة، ثمانية بالعشرة»، قال بيرنز وهو يلقي نظرة خاطفة على البطاقة الأسبوعية، حيث دُونتْ نتائج «قياسات» يواكيم خمس مرات يومياً. «ما تزال مشتعلاً كثيراً، عزيزي زيمسين. لا أستطيع القول بالضبط انك غدوت أكثر قوة مؤخراً» ـ ما قصده بـ [مؤخراً] خلال الأسابيع الأربعة المنصرمة. ـ «لستَ خالياً من العدوى»، قال. «طيب، هذا لن يحدث بين عشية وضحاها، فلسنا سحرة.»

---

(٤٨) الألبكة alpaca: حيوان ثديي جنوب أمريكي شبيه بالخروف طويل الصوف ناعمه ـ المترجم.

أومأ يواكيم برأسه وهز كتفيه العاريتين. أحجم عن القول انه أمضى هنا في الأعالي مدة طويلة جداً.

«ماذا عن الآلام الموضعية الحادة في السرّة اليمنى[٤٩]، حيث بدت حادة جداً؟ أفضل؟ ايه؟ حسن، تعال إليّ، دعني أضربك قليلاً هنا وهناك.» وبدأ التسمع بالسماعة الطبية.

كان هوفرات واقفاً بانحناءة الى الوراء، قدماه متباعدتان كثيراً، سماعته الطبية تحت ذراعه، وبدأ يضرب ضرباً خفيفاً من الرسغ مستخدماً الوسطى القوية ليده اليمنى كمطرقة، واليسرى كسند. قرع أولاً عالياً فوق لوح كتف يواكيم عند جانب الظهر، فوق وتحت ـ يواكيم المدرّب جيداً يرفع ذراعه كي يسمح لطبيبه المعالج بالضرب الخفيف تحت الأبط. ثم تكررت العملية في الجانب الأيسر؛ ثم أمر هوفرات: «إستدر!» وشرع يضرب الصدر ضرباً خفيفاً؛ في البداية بجانب عظم الترقوة، بعدها فوق وأعلى الصدر، يميناً ويساراً. حين قرع بحسب قناعته، بدأ يصغي، واضعاً سماعته الطبية على صدر يواكيم وظهره، ووضع الجزء السمعي على أذنه. ثم تعين على يواكيم أن يتنفس بعمق ويسعل ـ الأمر الذي بدا مرهقاً له، فقد غدا مقطوع النفس، وتخضلت عيناه بالعبرات. وكل ما سمعه هوفرات أعلنه بمقاطع جافة، تقنية الى مساعده الجالس الى طاولة الكتابة، بطريقة أرغمت هانز كاستورب على تذكر الحوادث في محل الخياط حين يقيسك من أجل خياطة بدلة رجلٌ نبيل مهيأ بشكل لائق، واضعاً الشريط حول جذعك وأطرافك ويتلو بصوتٍ عالٍ الأرقام بالترتيب المبجل من قبل العُرف للمساعد كي يدونها في دفتره. «طفيف»، «قلّ»، أملى هوفرات بيرنز. «حويصلي»، وعندئذ ثانية «حويصلي» (الظاهر كان ذلك شيئاً جيداً). «أجش»، قال وقطّب. «أجش جداً». «خرخرة». والدكتور كروكوفسكي دونها كلها في دفتره، مثل مساعد الخياط تماماً.

---

(٤٩) السرّة hilum: استخدم المؤلف مصطلحاً تشريحياً. المقصود هنا المنخفض الكائن عند نقطة دخول الأوعية الدموية الى الرئة اليمنى ـ المترجم.

تابع هانز كاستورب الحوادث برأسٍ مائل الى أحد الجانبين، مستغرقاً في تأمل جذع ابن خالته. الأضلاع ـ حمداً لله، كان يملكها كلها! ـ إنبثقت تحت الجلد المتوتر بينما كان يأخذ إستنشاقات عميقة وبطنه ينخفض. عاين هانز كاستورب ذلك الجسد الفتي، الرشيق، البرونزي ـ الضارب الى الإصفرار، مع شعر أسود على طول عظم القص والذراعين القويتين. في أحد الرسغين كان يواكيم يلبس سواراً من ذهب. «تلكما ذراعا رياضي»، فكر هانز كاستورب. «لم أتدرب كثيراً على ألعاب الجمباز، لكنه أحبها كثيراً، وهذا يفسر جزئياً رغبته في أن يكون جندياً. كان دوماً ميالاً أكثر مني الى الأشياء الخاصة بالجسد ـ أو ميالاً بطريقة مختلفة. كنت دوماً مدنياً وأهتم أكثر بالحمامات الساخنة والأكل والشرب الجيدين، بينما إنصرف هو الى الجهود الرجالية. والآن أصبح جسده في الطليعة بمعنى من المعاني وجعل من نفسه مهماً ومستقلاً عن بقيته ـ أي، من خلال المرض. كان كله [مشتعلاً] من الداخل ولم يكن بوسعه أن يتخلص من العدوى وأن يصبح معافى، المسكين يواكيم، بغض النظر عن مبلغ رغبته في أن ينزل الى الوادي وأن يغدو جندياً. ومع ذلك أنظر كم بدا مُظهَراً، كصورة في كتاب، أبولو بيلفيدير[٥٠] نظامي، عدا الشعر. غير ان المرض جعله متوعكاً من الداخل ومحموماً من الخارج؛ المرض يجعل البشر جسديين أكثر، انه يحولهم جثثاً لا غير» ـ فكرته هذه أجفلته، وتطلع بسرعة الى يواكيم بنظرة تساؤل، سافرت من البدن العاري صعوداً الى العينين السوداوين الكبيرتين اللطيفتين. برزت فيهما العبرات، بسبب الجهد المبذول في التنفس والسعال الإجباريين، وحدقتا بتعبير حزين في الفراغ بينما كان الفحص متواصلاً.

لكن في الأخير وصل هوفرات النهاية. «جيد جداً، زيمسين»، قال. «كل شيء مُرتب، على قدر المستطاع. المرة القادمة» [سيكون ذلك في بحر أربعة أسابيع] «مؤكد سنرى تحسناً أكثر.»

---

(٥٠) أبولو بيلفيدير Apollo Belvedre: (في الميثولوجيا الاغريقية) إله الفنون والنبوءة والطب والضوء، وحامي القطعان والأسراب: هو في الفن مثال للجمال الذكوري الشاب، كما في متحف الفاتيكان ـ المترجم.

«وسيد هوفرات، كم سيطول ذلك على ما تعتقد ـ».

«وهكذا ستزعجني ثانيةً؟ كيف تتوقع أن تنقل العدوى الى أصحابك هناك في الأسفل، بالحالة المشتعلة التي أنت فيها؟ قلت لك يوماً ما يمكنك أن تسميها نصف سنة؛ عليك أن تحسب المدة من ذلك الوقت إن شئت، لكنك يجب أن تعدها الحد الأدنى. تحلَّ بقليل من الأدب الإعتيادي! انها حياة لائقة بشكل كافٍ هنا في الأعالي، بالرغم من كل شيء؛ هي ليست سجن المحكوم، ولا مستعمرة عقاب سيبيرية! أم لعلك تظنها كذلك؟ جيد جداً، زيمسين، انتهينا منك! في المرة التالية! اخطُ بحيوية!» مد ذراعه وسلّم السماعة الطبية الى الدكتور كروكوفسكي، الذي نهض وبدأ ضرباً خفيفاً زائداً عن العدد المطلوب فوق جسم يواكيم.

وثب هانز كاستورب. مركّزاً نظراته على هوفرات، واقفاً هناك بقدمين متباعدتين وفم مفتوح، غارقاً في التفكير، بدأ الشاب بأقصى سرعة يستعد للفحص، وكانت النتيجة ان ألغى غرضه الخاص وتلكأ في خلع قميصة. لكنه أخيراً وقف هناك، أشقر، أبيض البشرة، وضيق الصدر، أمام هوفرات بيرنز. مقارنة بـ يواكيم، بدا مدني الطراز بصورة جلية.

هوفرات، الذي كان ما يزال غارقاً في أفكاره، جعله يقف. الدكتور كروكوفسكي فرغ من عمله وجلس، ويواكيم كان يلبس ثيابه قبل أن يقرر بيرنز أخيراً أن ينتبه.

«أوه ـ هو!» قال، «هذا أنتَ، أليس كذلك؟» أمسكَ بـ هانز كاستورب من زنده بيده الضخمة، دفعه بعيداً، وسدد إليه نظرة ثاقبة ـ ليس الى وجهه كما ينظر الإنسان الى إنسان آخر، ولكن الى جسده؛ أداره، كما يدير المرء شيئاً غير حي، وتطلع الى ظهره. «هِمم»، قال، «حسن، سنرى.» وراح يضرب ضرباً خفيفاً كالسابق.

قرع على كل أنحاء جسده، كما فعل مع يواكيم، ومرات عدة رجع وقرع من جديد. وعلى مدى مدة وجيزة، من أجل المقارنة، قرع بالترتيب على الجانب الأيسر قرب عظم الترقوة، وبعدئذ الى الأسفل بعض الشيء.

«سمعتَ ذاك؟» سأل هو الدكتور كروكوفسكي. والآخر، جالساً الى طاولة على مبعدة خمس خطوات، أومأ برأسه علامة الإيجاب. أغرق رأسه في صدره بسيماء جادة، وبرزت أطراف شعيرات سبلته النامية. «إستنشق بعمق! إسعل!» أمر هوفرات، الذي تناول السماعة الطبية ثانية؛ وعمل هانز كاستورب بجد على مدى ثمان أو عشر دقائق، بينما كان هوفرات يرهف السمع. لم ينبس ببنت شفة، بل ببساطة وضع الآلة هنا وهناك وأصاخ السمع بعناية خاصة في الأمكنة التي قرعها طويلاً. ثم دس السماعة الطبية تحت ذراعه، وضع يديه على ظهره، ونظر الى الأرض بينه وبين هانز كاستورب.

«نعم، كاستورب»، قال ـ كانت تلك أول مرة ينادي الشاب ببساطة بإسمه الأخير. «سارت الأمور تقريباً على وفق ما ظننت. كانت لي شكوكي ـ بوسعي أن أخبرك الآن ـ من اليوم الأول الذي نلتُ فيه الشرف الذي لا أستحقه بالتعرف إليك؛ كان لي حدس قوي جداً كونك واحداً منا وانك سوف تكتشف ذلك، أسوة بالعديدين الذين أقبلوا الى هنا في الأعالي بقصد اللهو وجعلوا يتجولون هنا وهناك وأنوفهم مرفوعة في الهواء، كي يكتشفوا فقط، ذات يوم جميل، بأن الأفضل لهم ـ وليس فقط أفضل، إنتبه الى هذا ـ أن يمددوا إقامتهم، بصرف النظر تماماً عن جمال المكان.»

تورد هانز كاستورب؛ يواكيم، خلال تزريره حمالة السروال، كفَّ عن عمله واقفاً، وأرهف السمع.

«لك ابن خالة رقيق وعاطفي»، تابع هوفرات، أومأ برأسه ناحية يواكيم ووازن نفسه على عقبيه. «عاجلاً، نأمل، أن نكون قادرين على القول انه [كان عليلاً]؛ لكن حتى حين يصل الى هذا الموقع البعيد، سيبقى أمراً واقعياً أن نقول انه «كان عليلاً» ـ والحقيقة ـ من السبب الى النتيجة كما يقول الفلاسفة ـ تلقي ضوءاً معيناً على ذاتك، عزيزي كاستورب.»

«لكنه ابن خالتي[٥١]، سيد هوفرات.»

---

(٥١) ابن خالتي step cousin: المقصود هنا ابن خالته التي تنحدر من أم غير أم هانز كاستورب مع ان والديهما واحد ـ المترجم.

«تف! أنت لا تريد أن تتبرأ منه، صحيح؟ حتى إذا ابن خالتك غير الأصلية، فبينكما آصرة الدم. من أي ناحية؟».

«الوالدتين، سيد هوفرات. انه ابن ـ».

«وأمك ـ هل هي جميلة الى حدٍ ما؟»

«لا، في عداد الأموات. توفت عندما كنتُ صغيراً.»

«وما هو سبب الوفاة؟»

«خثرة دموية، سيد هوفرات.»

«خثرة دموية، ايه؟ حسن، حدث ذلك قبل زمن بعيد. ووالدك؟»

«مات بذات الرئة»، قال هانز كاستورب؛ «وجدي أيضاً»، أضاف قائلاً.

«كلاهما، ايه؟ جيد. هذا يكفي بالنسبة لأسلافك. الآن عنك ـ كنتَ دوماً تعاني نوعاً من فقر الدم، أليس كذلك؟ لكنك لا تتعب بسهولة عند بذل مجهود بدني أو عقلي. أم انك تتعب ـ ماذا؟ خفقان كثير؟ مؤخراً فقط؟ جيد. وسيل قوي نحو مشكلة النزلة الشُعبية، والإلتهاب القصبي؟ ـ هل كنت تعرف انك مصاب بالعدوى قبل الآن؟»

«أنا؟»

«نعم ـ أنت ـ كنت شخصياً في بالي. هل بوسعك أن تسمع أي اختلاف؟» ضرب هوفرات ضرباً خفيفاً بالترتيب فوق جانب هانز كاستورب الأيسر، في الجزء العلوي أولاً وبعدها في السفلي.

«يبدو الصوت غير واضح الى حدٍ ما هناك»، قال هانز كاستورب.

«ممتاز. ينبغي لك أن تكون اختصاصياً. هذا عدم وضوح، وعدم الوضوحات كهذه سببها الأمكنة القديمة التي حدث فيها التليف. الندوب، كما تعلم. أنت مريض قديم، كاستورب، ولكننا لن نلقي اللوم على أحد لأنك لم تُكتشف. التشخيص المبكر عسير جداً ـ بالأخص بالنسبة لزملائي هناك في الأسفل؛ لن أقول اننا نملك آذاناً أفضل ـ مع ان الممارسة المنظمة تفعل شيئاً ما. لكن الجو يساعدنا، يساعدنا في الإستماع، إذا فهمتَ ما أعنيه، هذا الجو الرقيق، الجاف هنا في الأعالي.»

«أكيد، بالطبع»، قال هانز كاستورب.

«جيد جداً، كاستورب. والآن إصغ، ايها الشاب، الى كلماتي الحكيمة. إذا كانت هذه هي مشكلتك كلها، إذا كانت حالتك تقتصر على عدم الوضوح والندوب في مزمار القربة خاصتك في ذلك الموقع، سأعيدك الى الآلهة الحارسة لبيتك ولن أزعج بالي أكثر بشأنك. لكن إذا بقيت الأمور في هذا الوضع، وبحسب ما وجدناه، وطالما انك الآن هنا في الأعالي ـ حسن، ليس هناك فائدة من نزولك، لأنك سترجع حتماً الى هنا من جديد.»

شعر هانز كاستورب بالدم يندفع عائداً الى قلبه؛ قرع الأخير بعنف؛ ويواكيم ما يزال واقفاً ويداه فوق الأزرار الخلفية، يرسل نظراته الى الأرض.

«وإضافة الى عدم الوضوح»، قال هوفرات، «عندك في الناحية العليا اليسرى تنفس أجش هو قصبي تقريباً ولا ريب آتٍ من مكان جديد. لن أسميه بؤرة تليّن، لكنها بالتأكيد بقعة ندية، وإذا نزلتَ الى الأسفل وشرعت تواصل نشاطك رغم العقبات، ياه، سيكون الفص كله قد أُلحق به الأذى قبل أن تنتبه الى ذلك.»

لبث هانز كاستورب جامداً بلا حراك. إرتعش فمه بخوف، وكان قرع قلبه على الأضلاع واضحاً للعيان. تطلع الى يواكيم، لكنه لم يستطع اللقاء بعين ابن خالته؛ ثم تطلع من جديد في سحنة هوفرات، بخديه الأزرقين، وعينيه الزرقاوين، الجاحظتين، وبشاربه الصغير المعقوف.

«من أجل برهان مستقل»، استطرد بيرنز. «عندنا حرارتك التي تبلغ ٩٩,٦ درجة فهرنهايت عند الساعة العاشرة صباحاً، وهذا يتطابق تماماً مع الأعراض التي كشفها لنا التسمع بالسماعة الطبية.»

«ظننتُ» قال هانز كاستورب، «ان الحرارة جاءت من الزكام الذي أُصبت به».

«والزكام»، رد هوفرات، «من أين أتى؟ إسمع، كاستورب، دعني أقل لك شيئاً، وانتبه الى كلماتي ـ على قدر ما أستطيع القول، أنت تملك كل التلافيف الدماغية التي يحتاجها جسم الإنسان. الآن: جوّنا هنا في الأعالي

نافع للمرض ـ أقصد انه جيد في مناوءته للمرض، فهمتني ـ أنت تعتقد هذا، أليس كذلك؟ حسن، هذا شيء واقعي. لكنه أيضاً جيد للمرض، انه يبدأ بتعجيله، فهو يُحدث ثورة في الجسم كله؛ انه يأتي بالضعف المستتر الى السطح ويجعله يبرز للعيان فجأةً. نزلتك الشُعبية، من حسن حظك، هي بروز للعيان من ذلك الطراز. لا أستطيع القول ما إذا كنت محموماً هناك في الأسفل، لكنها مؤكد فكرتي انك كنت محموماً من يومك الأول هنا في الأعالي، وليس حصراً منذ إصابتك بالنزلة.»

«نعم»، قال هانز كاستورب، «أعتقد هذا أيضاً.»

«كنتَ على الأرجح مشوشاً منذ البداية، بحسب اعتقادي»، أكد له هوفرات. «كانت تلك السموم القابلة للذوبان التي تنفثها البكتريا، لها تأثير أشبه بمسكر في الجهاز العصبي المركزي وتعطيك تورد حمى الدق[٥٢]. الآن، كاستورب، سوف نبقيك في الفراش وسنرى ما إذا كان أسبوعان من الراحة سيجعلانك تصحو. ليحدث ما يحدث. سنأخذ صورة شعاعية ملائمة لك ـ سوف تتمتع برؤية ما يجري في أحشاء بدنك. لكنني أقول لك صراحة، ان حالةً كحالتك لن تتحسن بين ليلة وضحاها؛ هي ليست مسألة العلاجات العجائبية التي تقرأ عنها في الإعلانات. فكرتُ عندما وضعتُ عيني عليك أول مرة بأنك ستكون مريضاً أفضل من ابن خالتك، بموهبة أفضل في المرض من قائد اللواء هنا، الذي يريد أن ينصرف مباشرة ما إن تنزل حرارته درجتين بالعشرة. كما لو ان «إستلقِ» ليست كلمة أمر جيدة مثل «إنهض». ان واجب المواطن الأول هو أن يكون هادئاً، وان نفاد الصبر لن ينفع الفرد، أي فرد، فتيلاً. الآن، كاستورب، حاذر ألا تخذلني وتكذّب معرفتي بالطبيعة البشرية! اذهب، الآن، مع المطبخ[٥٣] بداخلك ـ سُرْ!».

بذلك أنهى هوفرات بيرنز الحوار وجلس الى طاولة الكتابة؛ هذا الرجل

(٥٢) تورد حمى الدق hectic flush: أي تورد حمى السل الرئوي ـ المترجم.

(٥٣) المطبخ caboose: مطبخ على ظهر السفينة ـ استخدم المؤلف هذا التعبير دلالة على الحرارة المرتفعة، ولكون هانز كاستورب مهندس بناء السفن ـ المترجم.

ذو المهن العديدة بدأ يشغل وقته بالكتابة حتى مجيء المريض الثاني. غير ان السيد كروكوفسكي نهض من مكانه وسار بخطى واسعة الى هانز كاستورب. أمال رأسه الى الوراء والجانب معاً، واضعاً يداً واحدة على كتف الشاب، باسماً بإخلاص شديد بحيث ان الأسنان المصفرة بانت في لحيته، وصافحه بحرارة.

الفصل الخامس

حساء أبدي

والآن تواجهنا ظاهرة قد يكون للمؤلف فيها تعليق جيد، ما لم يقم القارئ، بذلك بدلاً منه. وصفنا لإقامة هانز كاستورب في الأسابيع الثلاثة الأول مع «أولئك الساكنين هنا في الأعالي» ـ الواحد والعشرين يوماً من منتصف الصيف، الذي لا بد أن تكون زيارته، بقدر ما تستطيع العين البشرية رؤيته، مقتصرة عليها ـ إستغرقت في الإخبار كميةً من الزمان والمكان بشكل يطابق تماماً توقعات المؤلف نصف المعترف بها؛ بينما سردنا لأسابيعه الثلاثة التالية لن تكلفنا سطوراً كثيرةً، أو حتى كلمات ودقائق، كما فعلت الأسابيع الثلاثة الأبكر التي كلفتنا: صفحات، رزم ورق، ساعات، وأيام عمل. نحن ندرك أن الأسابيع الثلاثة التالية سوف تنقضي وتمر بطرفة عين.

الأمر الذي يبدو مدهشاً؛ مع ذلك بالترتيب، ومطابقاً للقوانين التي تحكم سرد القصص، والإصغاء إليها. ذلك انه وفق هذه القوانين يبدو لنا الزمن طويلاً تماماً، أو قصيراً تماماً، وانه يتسع أو يتقلص بالضبط بالطريقة، والى الحد، الذي فعله مع الشاب هانز كاستورب، بطلنا، الذي تجده قصتنا الآن وقد زارته صفعة غيرمتوقعة مطلقاً من يد القدر. انه شيء حسن أيضاً في هذه المسألة أن نهيئ القارئ الكريم للمزيد من الأشياء المدهشة، وللمزيد من الظواهر الأخرى، التي تحتوي على العنصر الغامض للزمن، الذي سوف يجابهنا إذا ما واصلنا صحبتنا لبطلنا.

حالياً نحتاج فقط أن نستذكر الطيران السريع للزمن ـ حتى طيران مدة زمنية مهمة تماماً ـ الذي قضيناه في الفراش حين كنا عليلين. الأيام كلها لا شيء عدا كونها اليوم ذاته يكرر نفسه ـ او الأصح، بما انه دوماً اليوم نفسه، فمن الخطأ التحدث عن التكرار؛ حاضر مستمر، تماثل، أبدية ـ ان كلماتٍ كهذه تنقل الفكرة بصورة أفضل. انهم يجلبون لك حساء منتصف النهار خاصتك، كما جلبوه لك أمس وسوف يجلبونه غداً، وهو يأتي إليك ـ ولكن متى وكيف أنت لا تدري، أنت تشعر بالدوار التام لدى رؤية الحساء وهم يأتون به ـ وانك تفقد حاستك في تمييز الزمن، وان وحداته تجري معاً، تختفي؟ وما يتكشف لك كونه المغزى الحقيقي للزمن هو حصراً الحاضر عديم الأبعاد الذي يجلبون فيه أبداً الحساء إليك. ولكن بهذا الصدد سيكون متناقضاً ظاهرياً الحديث عن الزمن كونه يمر ببطء؛ ومفارقة، في ما يتعلق ببطل كهذا، سوف نتجنبها.

هانز كاستورب، إذاً، مضى الى السرير عصر يوم السبت، كما أمر هوفرات بيرنز، السلطة العليا في عالمنا الصغير. هناك رقد، بقميص نومه مع الحروف الأول من اسمه مطرزة على الجيب، شابكاً يديه خلف رأسه، في سريره الأبيض النظيف، سرير موت المرأة الأمريكية وعلى الأرجح أشخاص آخرين؛ يضطجع هناك بعينيه الزرقاوين حسنتي الظن بالناس، اللتين أمستا كامدتين بعض الشيء بسبب الزكام، يوجه نظراتها الى السقف، ومتأملاً تفرد مصيره. نحن لا نقصد انه لو لم يكن مصاباً بالزكام فإن نظرته المحدقة، ستكون أكثر جلاءً أو محددة الهدف أكثر. لا، كما كانت عليه، ان نظرته تعكس كالمرآة بالضبط حالته الداخلية، وهي، مهما كانت بساطتها، مليئة بالأفكار المقلقة، المشوشة، الملتبسة، وغير الساذجة. ذلك انه بينما يرقد، كان يهزه عميقاً من الداخل إنفجار مسعور للضحك المنتصر، في حين يتوقف قلبه بفعل كرب حدس مفرط لم يعرف له مثيلاً من قبل؛ ثانية، يشعر هو برعدة خوف من النوع الذي يغيّب اللون عن وجنتيه، ومن ثم هناك الوعي نفسه الذي ضرب بعنف، في كل خفقانات قلبه بينما هو ينبض بإزاء أضلاعه.

في ذلك اليوم الأول تركه يواكيم يرتاح، متجنباً النقاشات كلها. دخل

مرتين أو ثلاث مرات بحذر حجرة العليل، أومأ برأسه للمريض، وسأل ما إذا كان يريد منه فعل شيء معين. كان من السهل عليه أن يفهم ويحترم تكتم هانز كاستورب ـ الأكثر من ذلك انه يشاركه التكتم، وحتى إحساسه بأن وضعه أكثر صعوبةً من وضع الآخر.

ولكن عصر الأحد، حين رجع من جولته على القدمين التي كانت أول مرة على مدى أسابيع عدة منفردة، لم يعودا قادرين على تأجيل الموضوع مدة أطول؛ لابد لهما أن يتشاورا معاً في ما يتعلق بالخطوة الضرورية المقبلة.

جلس عند السرير وقال بتنهدة: «نعم، انه شيء غير حسن؛ علينا أن نأتي بفعل ما ـ هم يتوقعون مجيئك في مدينتك تحت.»

«ليس بعد»، رد هانز كاستورب.

«لا، لكن في الأيام القليلة المقبلة، الأربعاء أو الخميس.»

«أوه، انهم لا يتوقعونني بالضبط في يوم محدد»، قال هانز كاستورب. «لهم أشياء كثيرة يفعلونها غير عد الأيام حتى رجوعي. سأكون هناك حين أصل هناك والخال تاينابيل سيقول: [ها قد أتيت ثانية] والخال جيمس سيقول: [حسن، هل استمتعت بوقتك؟] وإذا لم أصل، سيمر بعض الوقت قبل أن ينتبهوا الى ذلك، كن واثقاً من ذلك. بالطبع، بعد ردح من الزمن علينا أن نجعلهم يعرفون.»

«يمكنك أن تدرك كم هو شيء كريه بالنسبة لي»، قال يواكيم، متنهداً من جديد. «ماذا سيجري الآن؟ أنا أشعر بطريقة ما كوني مسؤولاً. أتيت الى هنا في الأعالي بقصد زيارتي، إستقبلتك ضيفاً، وها أنت ذا، ومَنْ يدري متى تستطيع الرحيل وتستعيد موقعك هناك في الأسفل؟ عليك أن تفهم كم هو موجع ذلك بالنسبة لي.»

«لحظة من فضلك»، قال هانز كاستورب، من دون أن يغير وضع يديه المشبكتين وراء عنقه. «مؤكد انه شيء غير معقول بالنسبة لك أن ترهق بالك بهذا الأمر. هل أتيتُ الى هنا في الأعالي لغرض زيارتك؟ حسن، بالطبع بطريقةٍ ما فعلتُ ذلك؛ لكن بالرغم من كل شيء، السبب الجوهري هو ان

أنعم بالراحة التي وصفها لي هيده كايند. حسن، والآن يظهر انني أحتاج مزيداً من الراحة أكثر مما حلم هو أو أي واحد منا. لست أول مَنْ فكر بالقيام بزيارة خاطفة هنا في الأعالي فتظهر له الأمور بشكل مختلف تماماً. تذكر الابن الثاني لـ [الاثنين كليهما]، وكيف إنقلبت عليه المسألة ـ لا أدري ما إذا كان لا يزال حياً أم لا، ربما أخذوه بعيداً الآن، بينما كنا جالسين الى مائدة الطعام. ان كوني مصاباً بالعدوى بعض الشيء هو بالطبع شيء عجيب بالنسبة لي؛ ينبغي لي أن أعتاد فكرة كوني مريضاً وواحداً منكم، بدلاً من كوني ضيفاً فقط. ومع ذلك بشكلٍ من الأشكال لم أندهش إلا قليلاً، لأنني لم أكن في صحة تامة، وحين أفكر كيف كان والداي يافعين حين ماتا، أدرك انه شيء طبيعي ألا أكون قوياً بوضوح! لا نقدر أن ننكر انك تملك ضعفاً بتلك الطريقة؛ نحن لا نتردد بشأنها، حتى إذا كانت جيدة كما لو انها شفيت الآن، ومن السهل القول انها متوارثة في العائلة، كما إقترح بيرنز. على أية حال، أنا راقد هنا منذ الأمس أفكر في الأمور كلها، سائلاً نفسي ماذا كان موقفي، كيف شعرت تجاه الأشياء كلها، تجاه الحياة، كما تعرف، والحاجات التي تمليها عليك. نوع من الجدية، ضرب من الكراهية نحو الطرائق الخشنة والمليئة بالضوضاء، كانا دوماً جزءاً من طبيعتي؛ كنا نتكلم عن ذلك مؤخراً، وقلت انني في بعض الأحيان كنتُ أتمنى أن أغدو كاهناً، لأنني شديد الولع بالأشياء الحزينة والمهذبة ـ غطاء النعش الأسود، كما تعرف، مع صليب فضة فوقه، أو R.I.P ـ ليرقد بسلام، كما تعرف، يبدو لي هذا أجمل التعابير ـ أحبه أكثر من [كان شخصاً حسن الخصال]، فهذا التعبير ببساطة فظ. أظن ان هذا كله متأتٍ من حقيقة كوني أملك ضعفاً أنا نفسي، وقد شعرتُ دوماً بأنني أتكيف مع المرض ـ بالكيفية التي أشعر بها الآن. لكن كون الأشياء كما هي عليه، أجد انه من حسن الحظ انني أتيت هنا، وانه تم فحصي. مؤكد لا حاجة بك لأن توبخ نفسك. سمعتَ ما قاله: إذا قيض لي أن أنزل الى الأسفل وأستمر في ممارسة نشاطي كما كنتُ عليه، سيكون الفص كله قد أُلحق به الأذى قبل أن أنتبه الى ذلك.»

«لا يمكنك أن تقول ذلك»، قال يواكيم. «هذا الأمر وحده لا يمكنك أن

تقوله. هم يقولون انه كانت لك أمكنة، لم يلحظها أحد وشفيت من تلقاء نفسها، ولم تترك شيئاً سوى عدم وضوحات قليلة وتافهة. ربما كان الشيء نفسه مع البقعة الندية التي من المفروض أن تملكها الآن، إذا لم تكن أتيت الى هنا في الأعالي أبداً. لا يستطيع المرء أن يعرف.»

«لا، في حدود العِلم، لا نقدر. لكن لذلك السبب فقط، ليس لنا الحق في أن نفترض الأسوأ ـ مثلاً ما يتعلق بالمدة الزمنية التي يلزمني البقاء فيها هنا. تقول أن لا أحد يعرف متى أكون حراً كي ألتحق بالمسفن؛ لكنك قلتها بإحساس متشائم، هذا أجده سابقاً لأوانه، طالما اننا لا نستطيع أن نعرف. بيرنز لم يضع حداً؛ انه حكيم الى حد بعيد، وهو لا يلعب دور النبي. هناك الأشعة السينية واللوح الفوتوغرافي اللذان لم نحصل عليهما حتى الآن وبعدهما نعرف الحقائق بصورة مؤكدة؛ مَنْ يدري ما إذا كانت الحقائق ستكشف شيئاً يستحق الحديث عنه، وما إذا لن تفارقني الحمى قبل ذلك، وما إذا أستطيع أن أقول لك وداعاً. أنا مع عدم إستباق الأمور وطلب إستغاثة كاذبة من الأسرة هناك في الأسفل. يكفي تماماً في الوقت الحاضر إذا ما كتبنا قائلين ـ أستطيع أن أفعل ذلك بنفسي بقلم الحبر إذا ما جلستُ قليلاً ـ بأنني مصاب بزكام شديد وأعاني من الحمى، وانني طريح الفراش، ولا يجدر بي السفر حالياً. وهلم جراً.»

«جيد»، قال يواكيم. «يمكننا أن نفعل ذلك حالياً. وبالنسبة للمسائل الأخرى بوسعنا أن ننتظر ونرى.»

«ما هي تلك المسائل؟».

«لا تكن عديم الشعور بالمسؤولية! أتيتَ فقط لمدة ثلاثة أسابيع، وجلبتَ صندوق باخرة. سوف تحتاج الى ملابس داخلية، وثياب كتانية وملابس شتائية ـ والمزيد مما يلبس في القدمين. وعلى أية حال، أنت تريد أن يبعثوا لك مالاً.»

«إذا»، قال هانز كاستورب، «إذا إحتجتُ إليه.»

«حسن جداً، سننتظر ونرى. ولكن ينبغي لنا ألا ـ» كان يواكيم يذرع الحجرة جيئة وذهاباً خلال حديثه. «ينبغي لنا أن لا نتصرف كالنعامات. أنا

هنا منذ زمن طويل جداً لا أعرف كيف تسير الأمور. حين يقول بيرنز ان هناك مكاناً أجش، تقريباً خرخرة ـ أوه حسن، بالطبع، يمكننا أن ننتظر ونرى.»

هناك، حالياً إستقرت المسألة؛ التغييرات الاسبوعية ونصف الشهرية لليوم الاعتيادي بدأت. هانز كاستورب بوسعه أن يشارك فيها حتى في وضعه الحالي، إن لم يكن مباشرة، إذاً من خلال التقارير التي يقدمها يواكيم حين يأتي ويجلس جنب سريره طوال خمس عشرة دقيقة.

صينية فطور الأحد خاصته زُينت بإناء زهور؛ ولم يغفلوا إرسال حصته من معجنات الأحد. بعد الغداء تصاعدت أصوات الإتصال الإجتماعي من الدكة في الأسفل، مع صوت البوق والصرخات الطويلة الحادة للمزامير. بدأت الحفلة الموسيقية التي تقام كل اسبوعين. خلال تواصلها دخل يواكيم، وجلس عند باب الشرفة المفتوح؛ ابن خالته نصف متكئ في سريره، رأسه مائل الى أحد الجانبين، وعينان تسبحان في متعة زائفة بينما هو يرهف السمع للإيقاعات المتزايدة، ومنح هزة كتف خاطفة مجازية، رداً على ثرثرة سيتيمبريني عن كون الموسيقى «مشبوهة سياسياً».

كما أسلفنا، كان يواكيم يحيطه علماً بمشاهد وأحداث حياة المصح. هل هناك، سأل، تبرجات تُجرى إكراماً للنهار، حفلات نهارية بالدانتيلا أو ما شاكل؟ ـ مع انه بالنسبة للحفلات النهارية بالدانتيلا كان المناخ بارداً جداً. سواء كان هناك أُناس يذهبون بالمركبات (الواقع أن بعض الرحلات قام بها بعضهم، بينهم نادي نصف الرئة والذين ذهبوا على نحو جماعي الى كلاواديل). في اليوم التالي، الاثنين، طلب أن يسمع كل شيء عن محاضرة الدكتور كروكوفسكي، حين جاء يواكيم منها وتأمل ابن خالته في طريقه الى الإستراحة ـ العلاج. يواكيم لم يكن راغباً بالحديث، بدا غير ميال لتقديم تقرير ما. كان يترك الموضوع، كما حدث بعد المحاضرة السابقة، لو أن هانز كاستورب لم يصر، ويطالب بسماع التفاصيل.

«أنا راقد هنا»، قال «أدفع أجور السكن والطعام كاملة. أنا مؤهل للحصول على كل ما يدور هنا.» تذكر يوم الاثنين قبل اسبوعين خلت،

ومسيرته الفردية التي سببت له بعض المتاعب؛ وسلّم نفسه الى الفكرة القائلة ان تلك المسيرة هي التي أحدثت ثورة في جسمه وجلبت الى السطح العدوى المستترة. «ولكن يا لطريقة الكلام الجليلة والرزينة التي يتحدث بها الناس في هذه المنطقة»، قال، «أعني الناس الإعتياديين؛ كلام أشبه بالشعر. [إذاً شكراً جزيلاً لكم، وليكن الله في عونكم]»، كرر، مانحاً الكلمات ترنيم الحطاب. «سمعتُ ذلك في الغابات، وسوف أظل أتذكرها طوال حياتي. عليك أن ترفق شيئاً كهذا مع ذكرياتٍ وانطباعاتٍ أخرى، كما تعرف، وانك لن تنساها ما دمت حياً! ـ حسن، إذاً كروكوفسكي قدم ثانية موضوعه عن الحب، أن يفعل ذلك؟ ما الذي قاله عن الحب اليوم؟».

«أوه، لا شيء خاص. أنت تعرف من تلك المرة كيف يتحدث هو.»

«ولكن ما هو الشيء الجديد الذي قدمه؟».

«لا شيء مختلف ـ أوه، حسن، المادة اليوم كيمياء خالصة»، تلطف يواكيم بصورة غير مقصودة كي ينوّر ابن خالته. بدا وكأن هناك نوع من التسمم، عدوى ذاتية للكائنات الحية، هكذا قال الدكتور كروكوفسكي؛ ان سبب هذا هو تفسخ مادة ذات طبيعة ما تزال مجهولة لنا، لكنها موجودة في كل مكان من الجسم؛ وان نتاجات هذا التفسخ عملت كالمسكر على المراكز العصبية للحبل الشوكي، ويكون لها تأثير أشبه بتأثير بعض السموم، كالمورفين، أو الكوكايين، حين تُدخل بالطريقة الاعتيادية من الخارج.

«وهكذا حصلت على تورد حمى الدق»، قال هانز كاستورب. «لكن هذا يستحق الإستماع فعلاً. شيء لا يعرفه المرء! لا بد انه ببساطة وضع جزءاً من شيء فوق شيء آخر. عليك أن تنتظر، في يوم قريب سوف يكتشف هو ما هي هذه المادة الموجودة في كل أنحاء الجسم والتي تنفث السموم القابلة للذوبان والتي يكون لها مفعول المخدر في الجهاز العصبي؛ عندئذ سيكون قادراً على أن يشوشنا كلنا أكثر من أي وقت مضى. أغلب الظن في الماضي كانوا قادرين على فعل هذا الشيء نفسه. حين أصغيتُ إليه، فكرت ان ثمة بعض الحقيقة في الاسطورة القديمة عن جرعات الحب المسمومة وما الى ذلك ـ هل أنت ذاهب؟»

«أجل»، قال يواكيم، «يلزمني أن أستلقي. المنحني خاصتي إرتفع منذ الأمس. كان لقضيتك تأثير فيّ.»

كان ذلك الأحد، والاثنين. المساء والصباح كوّنا اليوم الثالث لإقامة هانز كاستورب المؤقتة في «مطبخ السفينة». كان يوماً من غير علامة فارقة، يوماً عادياً من ايام الاسبوع، ذلك الثلاثاء ـ لكن بالرغم من كل شيء، كان هذا يوم وصوله المكان، كان هنا نحو ثلاثة أسابيع، وتطلب الوقت سرعة في العمل، عليه أن يبعث رسالةً الى الأهل ويخبر خاله بحال الأمور، حتى ولو بصورة عاجلة ومن دون إشارة الى جوهرها الحقيقي. أقحم لحافه الداخلي وراء ظهره، وكتب على ورق الملاحظات الخاص بالمؤسسة، بفحوى ان مغادرته سوف تتأخر بعد الموعد المحدد. كان في الفراش مع زكام مصحوب بالحمى، الذي رفض هوفرات بيرنز ـ حي الضمير كعهدنا به ـ أن يأخذه باستخفاف، مصراً على عده مرتبطاً إرتباطاً مباشراً مع تكوينه وحالته الصحية العامة هو، هانز كاستورب. ما إن رآه الطبيب حتى أدرك مباشرة انه من غير ريب مصاب بفقر الدم، وصدق الأمر تماماً، بدا كما لو ان الحد الذي وضعه أصلاً لإقامته لم يكن يُعد من قبل السلطات طويلاً بدرجة كافية من أجل شفاء تام. سوف يكتب ثانية حالما يستطيع. هذا الرأي، فكر هانز كاستورب، ليس بالكبير جداً ولا بالصغير جداً، ومهما كانت القضية، ستقنعهم الرسالة مدة وجيزة من الزمن. الرسالة أُعطيت الى الخادم، مع تعليمات بأن يأخذها مباشرة الى المحطة كي ترسل في أبكر قطار ممكن، بدلاً من أن ترسل بالبريد بالطريقة الإعتيادية في صندوق بريد المصح، فتتأخر كنتيجة طبيعية لذلك.

شابنا المغامر شعر بارتياح كبير حين وضع المسائل في نظام جيد كهذا ـ إذا كانت أمور كثيرة، بطريقة مماثلة، أزعجته بفعل سعاله وثقل رأسه الناجمين عن نزلته ـ والآن شرع يعيش كل يوم كما هو عليه ـ يحيا يوماً لا يختلف أبداً، والذي كان ينقسم دوماً الى أجزاء عديدة، بانتظامه الثابت، لا يمكننا أن نقول عنه انه يمضي سريعاً جداً أو يمر ببطء شديد على العقارب. في الصباح يضرب أستاذ الإستحمام الباب محدثاً صوتاً مكتوماً ويدخل ـ

شخص عصبي المزاج يدعى تورنهير، كماه مطويان الى الأعلى، وله أوردة كبيرة بارزة في ساعديه، وكلام مقرقر، ومعوق. خاطب هانز كاستورب، كما يفعل مع المرضى كلهم، برقم حجرته، ودعكه بالكحول. لم يمر وقت طويلٍ على مغادرته حتى ظهر يواكيم مرتدياً ثيابه، كي يسلّم على ابن خالته، سائلاً إياه عن درجة حرارته في الساعة السابعة، ويبلغه بدرجة حرارته هو. بينما كان يتناول فطوره في الأسفل، هانز كاستورب فعل الشيء نفسه في الأعلى، لحافه السفلي محشور خلف ظهره، مستمتعاً بالشهية الجيدة التي يحدثها التغيير. لم ينزعج إلا قليلاً بالنشاط الصاخب والدخول الجدي للطبيبين، اللذين في هذه الساعة يقومان بجولة متسارعة في رواق الطعام وحجرات طريحي الفراش والمحتضرين. هانز كاستورب، بفم مليء بالمربى، أعلن انه نام «بصورة رائعة»، ونظر من وراء حافة الكأس الى هوفرات، الذي كان متكئاً بقبضتيه على الطاولة التي في الوسط، وبعجالة ألقى نظرةً عابرةً على جدول الحرارة. كلا الطبيبين تمنى له صباحاً سعيداً، وأجاب هو بتشدق لا مبالٍ حين انصرفا من حجرته. ثم أشعل سيجارة، وشاهد يواكيم عائداً من جولته الصباحية، تقريباً قبل أن يعرف بمغادرته. ثانية تجاذبا أطراف الحديث عن هذا وذاك من الأمور، مضى يواكيم ليستلقي حتى الفطور الثاني، وبدت المدة الفاصلة قصيرةً جداً بحيث انه حتى أكثر البشر غباءً لن يشعر بالملل. هانز كاستورب، الواقع، كان له طعام كثير كي يفكر في أحداث الأسابيع الثلاثة المنصرمة، أشياء كثيرة جديرة بالتأمل في حالته الحاضرة وما يمكن أن يسفر عنها، بحيث ان مجلدين من دورية مصورة من مكتبة مصح بيرغهوف يرقدان على طاولته الليلية، إذ لم تعد به حاجة للجوء إليهما.

لم يكن ثمة اختلاف في الساعة الموجزة التي أمضاها يواكيم في مسيرته المألوفة نازلاً الى البلاتز. جاء بعدها الى هانز كاستورب، أخبره بكل شيء ممتع رآه، وجلس أو وقف دقائق معدودات عند سرير المريض قبل ان ينسحب الى شرفته الخاصة من أجل استراحة منتصف النهار. وكم استغرق ذلك؟ ثانيةً، ساعة موجزة فقط. بدا لـ هانز كاستورب انه لم يكن هادئ

الأعصاب كي يحادث قليلاً أفكاره بصورة حميمة، يداه مطويتان خلف رأسه ومصوباً نظراته الى السقف، قبل أن يئز الجرس القرصي في المبنى، داعياً كل الناس غير طريحي الفراش أو المحتضرين ليستعدوا للوجبة الرئيسة في اليوم.

هبط يواكيم الى الأسفل، و«حساء منتصف النهار» جيء به، «الحساء» بالمعنى الرمزي حصراً، آخذين بنظر الاعتبار ما يحتوي عليه. لم يُخصص لـ هانز كاستورب طعام خاص بالمرضى. انه يرقد هناك ويدفع أجور الطعام والسكن كاملةً، وما جلبوا له في ذلك الحاضر المستمر لتلك الساعة من ساعات منتصف النهار كان بأية حال حساءً، كانت تلك الألوان الستة لغداء مصح بيرغهوف، بكل وفرته، من دون أن يتركوا شيئاً. حتى في أيام الاسبوع عدا الأحد كانت هذه وجبة سخية؛ في أيام الآحاد كانت مأدبة مهرجان و«مبهرجة»، أعدها رئيس طهاة عالمي في مطابخ المؤسسة، والتي كانت على وجه الدقة مطابخ فندق أوروبي من الدرجة الممتازة. ان «فتاة غرفة الطعام» التي كان واجبها تقديم الطعام والشراب لطريحي الفراش جلبته له في قدور الطبخ اللذيذة تحت أغطية ـ صحون من صفائح النيكل. صنعت طاولة عاجزة، أعجوبة ذات توازن وحيد الساق، كيفتها عبر سريره، واستمتع هانز كاستورب بالطعام والشراب مثل ابن الخياط في حكاية الجان.

حين يفرغ من الأكل، يعود يواكيم، ومن الجائز أن يكون الوقت قد تأخر حتى الثانية والنصف قبل أن يدخل الأخير الى شرفته، ويهيمن سكون مدة الإستراحة الرئيسة على مصح بيرغهوف. ليس تماماً، ربما؛ ربما يكون الأقرب الى الحقيقة أن نقول الثانية والربع، لكن أرباع الساعات الزائدة هذه خارج الأعداد المدورة[1] لا تُحتسب، بل يتم ابتلاعها من دون أن تؤخذ بالاعتبار، في الأمكنة التي يحتسب فيها الزمن بوحدات كبيرة ـ في رحلات

(١) الأعداد المدورة round figures: الأعداد الذي يعبّر عنها بالعشرات أو الألوف أو نحوهما. فمثلاً نصف ساعة تُكتب (٣٠) وفيه عدد مدور، أما ربع ساعة (١٥) فليس فيه عدد مدور ـ المترجم.

قطار طويلة تستغرق ساعات عديدة، أو حيثما كان الإنسان في حالة من الشك الفارغ، تتركز فيها كينونة المرء كلها على جر الزمن وراءه. الثانية والربع سوف تمضي الى الثانية والنصف، وتمضي حتى الى الثالثة، إستناداً الى نظرية ان الوقت سائر الآن إليها. ان الدقائق الثلاثين تعد نوعاً من البداية نحو الساعة الكاملة من الثالثة الى الرابعة، وتخصم سراً. بهذه الطريقة المدة الزمنية لمدة الإستراحة الرئيسة قُلصت أخيراً الى ما لا يزيد على ساعة؛ وحتى هذه الساعة شذبت في نهايتها الأخيرة، حُذفت، إذا صح التعبير. الدكتور كروكوفسكي لعب دور الفاصلة العليا[٢].

أجل، هذه الأيام حين يقوم الدكتور كروكوفسكي بجولته المستقلة عصراً، لا يقوم بدورة حول هانز كاستورب؛ شابنا لم يعد فترة فاصلة وفجوة، بل عُدَّ أسوة بالآخرين، هو أيضاً كان مريضاً. سُئل، ولم يتم تجاهله، كما كانت الحال طويلاً، الأمر الذي سبب له إزعاجاً خفيفاً ومخفياً لكنه يتكرر يومياً. يوم الاثنين فقط أظهر الدكتور كروكوفسكي نفسه أول مرة في الحجرة ـ أظهر هي الكلمة المناسبة الوحيدة للظاهرة كما أدركها هانز كاستورب بإجفال لا إرادي. رقد في نصف ـ أو ربع ـ هجوع، وأضحى واعياً ان (المساعد) كان بجانبه، لم يدخل من الباب، بل اقترب من الخارج. جولته في هذا الوقت لم تتم عبر المجاز، بل على طول الشرفات، وقد دخل من الباب المفتوح للشرفة بفحوى انه كان طائراً في الهواء. هناك وقف بجانب سرير هانز كاستورب، بكل شحوبه وسواده، عريض المنكبين، وقصيراً وثخيناً، شفتاه منفرجتان في بسمة رجالية كشفت أسنانه الصفر من خلال لحيته ـ الفاصلة العليا!

«يبدو انك ذُهلت برؤيتي، سيد كاستورب»، قال، بصوت جهير ـ أول معتدل، متشدقاً، متأثراً نوعاً بصورة لا يرقى إليها الشك: منح حرف (الراء) صوتاً غريباً صادراً عن سقف الفم، ليس متموجاً، بل ملفوظاً بصدمة لسان

(٢) الفاصلة العليا apostrophe: علامة (') التي تفيد الحذف أو الإضافة أو الجمع باللغة الإنجليزية ـ المترجم.

وحيدة على الأسنان الأمامية العليا. «لكنني أؤدي فقط واجبي اللطيف، في رؤية سعادتك. علاقاتك معنا دخلت طوراً جديداً. فجأة أمسى الضيف رفيقاً». مريضه أُصيب بالذعر بعض الشيء لدى سماعه كلمة (رفيق) ـ «مَنْ كان يظن ذلك؟» مزح بود. «مَنْ كان يظن انه في ذلك المساء حين كان لي الشرف أن أتعرف إليك، وأجبتَ على إفتراضي الخاطئ ـ كان خاطئاً وقتذاك ـ موضحاً انك كنت في أتم الصحة والعافية؟ أعتقد انني أعربتُ عن بعض الريبة، لكنني أؤكد لك انني لم أعنيها بذلك المعنى. لن أتظاهر بكوني حاد البصر أكثر مما أنا عليه فعلاً. لم أكن أفكر ببقعة ندية. ملاحظتي تقتصر على المعنى العمومي، المعنى الفلسفي، كالشك في ما إذا كان، بأية حال، التصوران الإنسان والصحة التامة، متناغمين تماماً الواحد مع الآخر. حتى اليوم، بعد الفحص، أعترف انني شخصياً، وهذا ما أتميز به عن رئيسي المحترم، لا أستطيع أن أعد البقعة الندية العامل الأهم في المسألة. انها، بالنسبة لي، ظاهرة ثانوية ـ العضوي هو دوماً ثانوي ـ».

جرَّ هانز كاستورب نفساً قصيراً.

«ـ وهكذا فإن نزلتك، في نظري، ظاهرة في المرتبة الثالثة»، إستنتج الدكتور كروكوفسكي بصورة وديعة جداً. «كيف هذا؟ ان الراحة في الفراش ستكون مؤثرة لا ريب، في ما يتعلق بهذا الأمر. ماذا قستَ اليوم؟» ومن تلك المرة فصاعداً كانت زيارة المساعد في مفتاح نداء مهني اعتيادي، واستمرت هكذا خلال الأيام والأسابيع التالية. الدكتور كروكوفسكي يدخل من باب الشرفة المفتوح في الرابعة إلا ربعاً أو أبكر من ذلك، يحيي المريض بسرعة رجالية، يوجه اليه الأسئلة المهنية المألوفة، ربما مع بعض اللمسات الشخصية، مزحة أو مزحتان ـ وإذا كان لهذه كلها عبير خفيف لموضع الشك فيها، مع ذلك يقدر المرء أن يعتاد حتى على موضع الشك، شريطة أن يبقى في حدود معينة. لم يمضِ وقت طويل حتى نسي هانز كاستورب كل إحساس ربما راوده عن زيارات الدكتور كروكوفسكي. اتخذت هذه مكانها في برنامج اليوم الإعتيادي، وأجرت، إذا جاز التعبير، حذفاً في النهاية الأخيرة لمدة الإستراحة الرئيسة.

المساعد يرجع على طول الشرفات عند الساعة الرابعة أو نحو ذلك، أي عند منتصف العصر. نعم، هكذا، فجأةً، قبل ان يدركها المرء، جرى ذلك، في ساعة متأخرة من العصر، وتتعمق بثبات وسكون نحو الشفق. قبل ان يتم الإنتهاء من شرب الشاي، فوق في الأعلى وتحت في الأسفل، كان الوقت يقارب الساعة الخامسة؛ وفي الوقت الذي يعود فيه يواكيم من جولته اليومية الثالثة ويطل فيه على ابن خالته، يكون الوقت قد اقترب بصورة كافية من السادسة وبذلك تتقلص مدة الإستراحة الباقية الى ما لا يزيد عن الساعة ـ المحسوبة دوماً بالأرقام المدورة. انها مسألة يسيرة أن يتم قتل ذلك الوقت الكبير، إذا كان للمرء أفكار في رأسه، وفضلاً عن ذلك orbis pictus كاملة على الطاولة.

يواكيم، في طريقه الى وجبة المساء، توقف كي يقول وداعاً. جُلبت صينية هانز كاستورب. كان الوادي قد إمتلأ بالظل منذ زمن طويل، وأعتم بسرعة بينما كان يتناول طعامه. حين فرغ من الأكل، إتكأ للوراء على لحافه السفلي، والطاولة السحرية فرغت أمامه، وأنعم النظر في الغسق المتزايد شيئاً فشيئاً، غسق اليوم، مع ذلك لا يمكن تمييزه عن غسق الأمس أو الاسبوع الماضي. كان الوقت مساءً ـ وكان الوقت صباحاً منذ لحظات. النهار يقصر بنحو كاذب، يتجزأ الى قطع صغيرة، يتجعد حرفياً بين يديه ويتقلص الى لا شيء: قالها لنفسه بإجفال ـ أو، بأية حال، قالها على الأقل؛ إذ ان هز الكتفين بلا مبالاة شيء غريب لرجل في مثل سنه. بدا له انه منذ بداية الوقت كان مستلقياً وبادياً بهذه الصورة.

ذات يوم ـ كانت نحو عشرة أيام أو إثنا عشر يوماً قد إنصرم منذ أن لازم هانز كاستورب الفراش ـ كان هناك قرع على بابه في هذه الساعة قبل أن يؤوب يواكيم من الغداء ونصف الساعة الإجتماعية. عندما قال هانز كاستورب «أدخل»، فُتح الباب، وظهر لودوفيكو سيتيمبريني ـ وعجيباً، غرقت الغرفة حالاً بالضياء. ذلك ان الحركة الأولى للزائر، بينما كان ما يزال على العتبة، كانت إشعال الضوء الكهربائي، الذي ملأ الغرفة بمثل لمح البصر بتألق متذبذب، وانعكس من السقف الوامض الأبيض وقطع الأثاث.

كان الإيطالي هو الشخص الوحيد بين النزلاء الذي سأل هانز كاستورب عنه خصيصاً في هذه الأيام. يواكيم الواقع، حين يقف أو يجلس قرب ابن خالته على مدى عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة ـ ويحدث ذلك عشر مرات أثناء اليوم ـ يروي كل ما كان ممتعاً أو مختلفاً في الحياة اليومية للمجتمع؛ وأسئلة هانز كاستورب، كلما طرح أياً منها، كانت ذات طبيعة عامة. كان المنفي يريد معرفة ما إذا كان هناك نزلاء جدد، أو ما إذا غابت بعض الوجوه الأليفة؛ بدا ان ما يرضيه هو الأمر الأول الذي حصل فعلاً. كان ثمة قادم جديد، شاب غائر الخدين، أخضر البشرة، مُنح مكاناً عند المائدة المجاورة الى يمين السيدة التيس وليوي عاجية البشرة. ربما تطلع هانز كاستورب بأمل ولهفة الى سعادة رؤيته. إذاً لم يرحل أحد؟ أجاب يواكيم بنفي جاف، مصوباً نظراته الى الأرض. لكن ينبغي له الإجابة عن هذا السؤال يومياً أو نحو ذلك، الى أن أصبح متململاً وسعى الى الإجابة مرةً واحدةً بقوله، انه بحدود علمه، لا أحد ينوي المغادرة ـ لا أحد يبارح هذا المكان، هنا في الأعالي، الحقيقة.

غير ان هانز كاستورب سأل عن سيتيمبريني بالإسم، وود سماع «رأيه في الموضوع». أي موضوع؟ «ياه، بخصوص ملازمتي للفراش ومن المفروض أن أكون عليلاً.» سيتيمبريني، ظهر، انه أبدى رأيه في الموضوع، مع انه كان رأياً موجزاً. في اليوم نفسه الذي اختفى فيه هانز كاستورب عن الأنظار حدث أن إكتشف مكان وجود يواكيم، واضح انه كان يستعد لسماع ان الضيف قد غادر، وحين فهم التفسير أجاب فقط بالإيطالية: أولاً: «هو ذا!» ومن ثم «مسكين!» ـ كان ينوي القول: «هو ذا أنت، أيها الشاب المسكين!» ـ لم تكن ثمة حاجة الى المزيد من اللغة الإيطالية كي يفتخر إبنا الخالتين بكونهما يدركان المعنى الذي أُطلقت به الكلمات. «لماذا [مسكين]؟» استفهم هانز كاستورب. «انه يقيم هنا في الأعالي بأدبه المتكون من علم السياسة والفلسفة الإنسانية وانه لا يلائم الشؤون الإعتيادية للحياة. هو لا يحتاج الى أن ينظر إليّ باستياء ويأسف عليّ بتلك الطريقة، سوف أهبط الى الأرض المستوية قبل أن يفعل ذلك.»

والآن السيد سيتيمبريني واقف هنا في الحجرة التي أُضيئت بغتةً ـ هانز كاستورب الذي رفع نفسه على مرفقه وإستدار ناظراً بدهشة الى الباب، ميّزه وتورّد. كان سيتيمبريني يرتدي، كدأبه، سترته السميكة ذات طيات الصدر العريضة، والياقة المقلوبة المتهرئة، وسرواله ذا المربعات. طالما انه جاء من العشاء، كان يحمل بيده عود نبش الأسنان المعهود. زاوية فمه، تحت القوس الجميل لشاربه، أظهرت البسمة الجميلة، الصريحة، الإنتقادية المألوفة.

«مساء الخير، حضرة المهندس! هل يُسمح لي بأن أطل عليك؟ إذا الجواب نعم، أحتاج ضياءً ـ سوف تعذرني إذا قمتُ بذلك بنفسي ـ» ولوّح بيده الصغيرة باتجاه مصباح السقف. «أنت غارق في التفكير، لا أنوي مضايقتك. ان الميل نحو الإستغراق في التأمل يقيناً أمر طبيعي في ظل هذه الظروف، وإن نويتَ الكلام، فعندك ابن خالتك. كما ترى، أنا أعي تماماً كوني زائداً. لكن مع ذلك ـ نحن نسكن هنا قريبين من بعضنا، التعاطف ينبثق بين الإنسان والإنسان، التعاطف العقلي والوجداني ـ مر اسبوع كامل من دون أن نراك. بدأت أعتقد أنك غادرتَ، حينما رأيت مكانك شاغراً في حجرة الطعام تحت. أخبرني الملازم بصورة أفضل ـ أم يتعين علينا أن نقول أسوأ، إن لم يبدُ ذلك شيئاً غير مهذب؟ حسن، وكيف صحتك؟ كيف تشعر؟ آمل ألا تكون مثبط العزيمة كثيراً جداً؟»

«آه، هذا أنت، سيد سيتيمبريني! يا لمودتك! حجرة الطعام ـ أوه، أقول، ذلك جيد! دوماً في مزحاتك ـ لكن تفضل أجلس. أنت لن تزعجني قيد أنملة. كنتُ مستلقياً هناك متأملاً ـ لا، متأملاً كلمة مبالغ بها. كنت ببساطة كسولاً جداً كي أشعل الضوء. شكراً جزيلاً لك، أنا ذاتياً جيد كما في حالتي الطبيعية، وزكامي أفضل بكثير جراء الرقود في الفراش. لكنه كان حالةً ثانويةً، هكذا يقول لي الجميع. حرارتي ما زالت ليس كما ينبغي، تتراوح بين ٩٩,٥ و٩٩,٧ درجة فهرنهايت، طوال الوقت.»

«تأخذ حرارتك بانتظام؟»

«نعم، ست مرات يومياً، كالبقية منكم. أعذرني، ما زلتُ أضحك على

تسميتك ردهة طعامنا حجرة الطعام. هكذا يسمونها في الدير، أليس كذلك؟ مع ذلك، ثمة بعض الشبه ـ لم أكن في الدير يوماً، لكنني أتصور انها شبيهة بذلك بعض الشيء. ولي [المقياس] في أطراف أصابعي، وألاحظه باخلاص.»

«كما ينبغي لأخ ورع أن يفعل. بوسع المرء أن يقول ان مدة ترهبنك قاربت نهايتها وانك حددت نذور رهبانيتك. تهاني الرسمية. قلت أيضاً ردهة طعام[نا]. لكن، من دون أن أعني ان أهين وقارك الرجولي، انك تذكرني براهبة شابة أكثر من راهب، راهبة مقصوصة ـ حديثاً ونظامية، خطيبة بريئة للمسيح، ذات عينين كبيرتين، أشبه بعيني شهيد. رأيتُ مثل هذه الحملان، هنا وهناك في أنحاء مختلفة من العالم؛ ليس من دون مدخل ـ مدخل معين من رقة الشعور. أجل، ابن خالتك أخبرني عن الأمر. إذاً تم فحصك على أية حال، في الساعة الحادية عشرة.»

«منذ أن كنتُ محموماً ـ بطبيعة الحال، سيد سيتيمبريني. ماذا تريد؟ لو كنت في بلدي، لتوجب عليّ أن أستشير طبيباً. وهنا، عند المنبع والمعين إذا جاز القول، مع إختصاصيين في المصح ـ سيكون أمراً غريباً جداً ـ».

«بالطبع، بالطبع. وأنت أخذت حرارتك، أيضاً، قبل ان يطلبوا منك فعل ذلك. لكنهم نصحوا بها، من البداية. وميليندونك دست لك المحرار الطبي؟»

«دست لي ـ؟ ما إن حانت الفرصة، حتى اشتريت واحداً منها.»

«فهمت. تعامل لا عيب فيه. وكم شهراً صرعك الرئيس؟ يا للسماء، طرحت عليك هذا السؤال قبلاً! هل تذكر؟ كنتَ أتيتَ تواً. أجبت بتلك الثقة العالية بالنفس ـ»

«بالطبع، أتذكر. كانت لي تجارب جديدة منذ ذلك الوقت، لكنني أتذكر ذلك كما لو جرى بالأمس. كنت مسلياً جداً وتحدثت عن بيرنز كونه حاكم المناطق السفلى ـ راداميس، كانت؟ لا، مهلاً، ذلك شيء آخر.»

«رادامانثوس؟ نعم. ربما أسميته كذلك. متأسف لأنني لا أتذكر كل مقطع حدث ان تلفظت به شفتاي.»

«رادامانثوس، طبعاً. مينوس ورادامانثوس. وتحدثت إلينا عن كاردوتشي في الوقت نفسه ـ»

«معذرة، يا صديقي الشاب العزيز، سوف، إذا تفضلت، نتركه. الاسم، حالياً، يبدو غريباً جداً على لسانك.»

«هذا جيد أيضاً»، قهقه هانز كاستورب. «لكنني فهمتُ الشيء الكثير عنه من خلالك. ـ نعم، في ذلك الوقت، لم يكن لي مثقال ذرة من الريبة. أجبت عن سؤالك بأنني هنا مدة ثلاثة أسابيع، لم أكن أعرف شيئاً مختلفاً. كانت الفتاة كليفيلد تصفر عليّ باسترواحها الصدري، لم أكن أعرف أين أنا. غير انني كنت أشعر بالحمى حتى آنذاك ـ ذلك ان المناخ هنا في الأعالي ليس جيداً حسب في مناوءته للمرض، كما تعرف، انه كذلك جيد له، انه يأتي به في بعض الأحيان الى السطح ـ وهذه بالطبع خطوة ضرورية في المعالجة.»

«فرضية مغرية. وأخبركَ أيضاً هوفرات بيرنز عن المرأة الألمانية ـ الروسية التي كانت عندنا السنة الماضية ـ لا، السنة قبل الماضية ـ مدة خمسة شهور؟ لم يفعل؟ يلزمه أن يفعل. امرأة رائعة الجمال، ذات أصل روسي ـ الماني، متزوجة، أمّ في مقتبل العمر. أتت من أحد أقاليم البلطيق ـ كسولة، مصابة بفقر الدم، لكنها ربما تعاني أيضاً من مشكلة أكثر خطورة. أمضت شهراً هنا وشكت من كونها تشعر بالمرض طوال الوقت. أخبروها أن تصبر. وانصرم شهر آخر، واصلت هي التأكيد على انها في الواقع بدلاً من أن تتحسن صارت أسوأ. لفتوا نظرها الى ان الطبيب وحده يستطيع أن يقدر حالتها ـ هي نفسها وحدها تعرف كيف تشعر هي؛ الأمر الذي لا يهم بالنسبة لهم. كانوا مقتنعين بحالة رئتها. جيد. لم تقلْ المزيد، إستمرت في العلاج؛ وكانت تفقد المزيد من وزنها اسبوعاً بعد اسبوع. الشهر الرابع غابت عن الوعي خلال الفحص. هذا لا يعني شيئاً البتة، يقول بيرنز، رئتها في حالة مقنعة تماماً. لكن بحلول الشهر الخامس لم تصبح قادرة على الحركة والمشي، تذهب الى السرير وتكتب رسالة الى زوجها، المقيم في أحد أقاليم البلطيق؛ تسلم بيرنز خطاباً منه كتب على مظروفه «شخصي» و«عاجل» بكتابة يد قوية جداً ـ رأيته بنفسي. نعم، يقول بيرنز ويهز كتفيه بلا مبالاة، يبدو انها

يقيناً لا تستطيع أن تحتمل المناخ هنا في الأعالي. كانت المرأة خارجة عن طورها. كان يلزمه أن يخبرها من قبل، شعرت بذلك منذ البداية، أعلنت ـ قتلوها على رؤوس الأشهاد ـ دعنا نأمل انها استعادت قوتها حين رجعت الى بعلها.»

«اوه، هذا شيء جيد، بل جيد جداً! أنت تروي القصص بشكل ممتاز، سيد سيتيمبريني؛ كل كلمة من كلماتك طيعة جداً. وتلك القصة المتعلقة بالفتاة التي ذهبت لتستحم في البحيرة، تلك التي أعطوها [الممرضة الصامتة] كي تأخذ بها حرارتها ـ ضحكتُ دوماً على هذه القصة، ضحكت كثيراً مع نفسي. أجل، يا للأشياء الغريبة التي تحدث في هذا العالم. الإنسان يعيش ويتعلم. غير ان حالتي ما زالت مشكوكاً فيها تماماً. يفترض ان هوفرات اكتشف ضعفاً تافهاً، أمكنة تعرضتُ فيها الى العدوى منذ أمد طويل، سمعتهما يقولان ذلك حين كانا يضربانني ضرباً خفيفاً، وبعض المناطق الطازجة بوسعه أن يسمعها الآن ـ الطازجة، يا لها من كلمة مضحكة حين نستخدمها في هذا الخصوص! ولكن حتى الآن هناك العلامات الصوتية، اليقين التشخيصي الحقيقي نستطيع الوصول إليه فقط حين يتم فحصي ثانية، حين يتم إجراء الأشعة السينية والتصوير الفوتوغرافي. عندئذ ستكون لدينا معرفة حقيقية.»

«أتعتقد ذلك؟ أتعرف ان الشريحة الفوتوغرافية تظهر عادة بقعاً تُعد تجاويفاً عندما لا تكون هناك أية تجاويف على الإطلاق؟ وانها، غالباً، لا تظهر بقعاً مع انه يوجد شيء ما هناك؟ العذراء ـ الشريحة الفوتوغرافية! كان هنا في الأعالي شاب مهتم بجمع القطع النقدية والميداليات والأوراق المالية، يعاني من الحمى، وبما انه محموم كانت هناك تجاويف رؤيتها واضحة للعيان في الشريحة. كان بوسعهم أيضاً سماعها. عالجوه كونه مصاباً بالسل الرئوي، ولقي حتفه. فحص الجثة بعد الوفاة أظهر ان رئته كانت سليمة؛ سبب الوفاة كان بكتيريا مكورة من هذا النوع أو ذاك.»

«آه، رفقاً، سيد سيتيمبريني. انك تحدثني الآن عن فحوصات الجثث بعد الوفاة. أؤكد لك، انني لم أصل بعد الى هذا الحد.»

«حضرة المهندس، أنت تضحكني.»

«وأنت بصراحة عيّاب وشكوكي، ينبغي لي القول. أنت لا تؤمن حتى بالعلم. هل يمكنك أن ترى البقع على شريحتك، سيد سيتيمبريني؟»

«أجل، أظهرتْ بعض البقع.»

«انت أيضاً عليل فعلاً؟»

«نعم، أنا لسوء الحظ عليل بعض الشيء»، رد سيتيمبريني، وخفض رأسه. كان هناك توقف قصير، سعل خلاله سعالاً قليلاً. هانز كاستورب، من سريره، نظر الى ضيفه، الذي أجبره هو على السكوت. لاح له انه بسؤاليه البسيطين فند نظرية سيتيمبريني كلها، وحتى الجمهورية والأسلوب الجميل. ولم يفعل من جانبه أي شيء كي يستأنف الحوار.

بعد مدة وجيزة قوّم سيتيمبريني نفسه ببسمة.

«قل لي، أيها المهندس»، قال، «كيف تلقت أسرتك الأخبار؟»

«أي أخبار تعني؟ تلك المتعلقة بتأخر عودتي؟ أوه، أسرتي تتكون، كما تعرف من ثلاثة أخوال، خال الأم وولديه، هما أشبه ما يكونان بإبني خالي. عدا ذلك من الأسرة ليس لي أحد، فقد غدوتُ يتيم الأبوين حين كنتُ صغيراً جداً. في ما يتعلق بالكيفية التي استقبلوا بها الأنباء ـ انهم لا يعرفون أكثر أو أقل مني. في بادئ الأمر، حين توجب عليّ الذهاب الى الفراش، كتبتُ ان عندي زكام شديد، ولا أستطيع السفر. أمس، بما ان المدة بدت طويلة نسبياً على أية حال، كتبتُ ثانيةً، قائلاً ان نزلتي خطفت إنتباه هوفرات بيرنز الى حالة صدري، وأصر على بقائي الى أن يتضح له ما هي حالتي بالضبط. كن متيقناً انهم استقبلوها بهدوء ـ هي لن تقلقهم.»

«وموقعك الوظيفي؟ تكلمت عن ميدان النشاط العملي، حيث كنت تنوي قريباً المباشرة بإداء واجبات معينة.»

«نعم، كغلام ممهن متطوع. طلبت منهم أن يعذروني عن العمل حالياً. لا ينبغي لك أن تتخيل بأنهم أصيبوا بالقنوط بسبب إرتدادي. بوسعهم أن يواصلوا نشاطهم بصورة غير محددة من غير مساعد.»

«جيد. كل شيء مرتب، إذاً، في ذلك الإتجاه. إتزان تام على طول

الخط. انها سلالة رابطة الجأش من الناس في الجزء الذي تسكنه من بلدك، هل هي غير ذلك؟ لكنها فعالة، يقيناً؟».

«أوه، نعم، فعالة جداً»، قال هانز كاستورب. كان يختبر ذهنياً طبع مسقط رأسه، ووجد ان محاوره قد ميزه بصورة دقيقة. «رابطو الجأش وفعالون، نعم، ينبغي لي أن أقول انهم كذلك.»

«أعتقد»، تابع سيتيمبريني، «إذا طالت مدة مكوثك، ينبغي لنا أن نتعرف الى خالك ـ أعني خال أمك ـ أم لا ينبغي لنا؟ انه بلا ريب سيأتي ليتيقن من حالتك الصحية.»

«هذا مستحيل»، هتف هانز كاستورب. «هذه حالة لا يمكن تصورها. الجياد البرية لا تستطيع أن تجره الى هنا في الأعالي. خالي مصاب بداء السكتة، فاهم، هو تقريباً لا يملك تحملاً على الإطلاق. كلا، عليه أن يملك ضغطاً جوياً معقولاً، سيكون الوضع أسوأ بالنسبة له هنا في الأعالي من سيدتك تلك القادمة من المقاطعات البلطيقية ـ سيكون في وضع مروِّع.»

«أُصبتُ بخيبة أمل. ومصاب بداء السكتة؟ الطاقة والفعالية ليس لهما نفع في ظل تلك الظروف. خالك رجل ثري، أعتقد؟ كلكم أغنياء بطريقتكم الخاصة؟»

ابتسم هانز كاستورب لتعميمات السيد سيتيمبريني الأدبية. وثانيةً من سريره البعيد، ألقى نظرةً مجازيةً على الدنيا التي أُنتزع منها. استدعى ذكريات، بذل مجهوداً كي يصدر حكماً موضوعياً، ووجد ان المسافة تمكنه من فعل ذلك.

أجاب: «واحد ثري. أو بطريقة أخرى واحد غير ثري. وإذا لم يكن ثرياً، فهذا أسوأ. أنا نفسي لست مليونيراً، لكن ما أملكه مضمون لي، بحوزتي ما يكفي العيش عليه وأكون مستقلاً. لكن دعك من الملاحظات الشخصية المعادية ـ طيب، إذا قلتَ يجب على المرء أن يكون موسراً، فإنني أتفق معك. إن لم تكن غنياً، وإذا كففت عن كونك غنياً، إذاً الويل لك. [أوه، هو؟] سوف يقولون عن هذا الشخص أو ذاك. [هو لا يملك شروى نقير، أليس كذلك؟] انهم يقولون ذلك حرفياً، ويقطبون وجوههم؛ سمعتهم

يقولون ذلك، وأدرك الآن ان حديثهم ترك فيّ إنطباعاً ـ الأمر الذي ما كان له أن يحدث، بطبيعة الحال، ما لم يصدمني كونه حديثاً غريباً. أم انك لا تظن ان ذلك يمكن أن ينتج؟ لا، أنا لا أعتقد انك، مثلاً، كونك رجلاً إنسانياً، يمكن أن تشعر بارتياح كبير هناك في الأسفل؛ انه يصدمني دوماً كونه شديد الغرابة، كما أرى الآن، انني مولود في ذلك المكان وبالنسبة لي لم أعانِ منه. إذا لم يقدم المرء أفضل وأعز الخمور في وجباته، الناس لن يذهبوا إليه، وتبقى بناته في عاتقه. هم على هذه الشاكلة. أنا أستلقي هنا وأنظر الى الأمر من هذه المسافة، أنا أجده فظاً جداً. ماذا كانت الكلمتان اللتان إستخدمتهما؟ رابطة الجأش و ـ فعالة. هذا شيء جيد جداً. لكن ماذا يعني؟ انه يعني صلب، بارد. وماذا تعنيان صلب وبارد؟ انهما تعنيان فظ. انه جو فظ هناك في الأسفل، فظ وعديم الشفقة. حين تستلقي هنا وتنظر إليه، من بُعد، يجعلك ترتعد.»

سيتيمبريني أرهف السمع وأومأ برأسه، أومأ برأسه بعد ان وصل هانز كاستورب، حالياً، الى نهاية نطقه ولزم الصمت.

ثم أخذ نفساً وقال: «لن أسعى الى أن ألطف الأشكال الخاصة التي إتخذتها فظاظة الحياة الطبيعية في موطنك ـ الكل سيان، ذلك ان توبيخ الفظاظة يستند الى خلفيات وجدانية نسبياً. أنت لا تستطيع أن تصرعها، حين تكون في ذلك الجو، مخافة أن تكون مثيراً للسخرية في نظرك أنت نفسك. أنت تترك الأمر للعالات (جمع عالة) أن تفعل ذلك، وهذا شيء صحيح. ذلك ان ما تفعله الآن يحمل شهادة لإقصاء معين، الذي أحس بأنني متأسف لرؤيته يزداد؛ طالما ان المرء الذي وقع في عادة صنعه يكون في حالة خطر كونه غافلاً عن الحياة، عن طريقة الحياة التي ولد من أجلها. هل تعرف، أيها المهندس، ما الذي أعنيه بأن يكون غافلاً عن الحياة؟ أنا، أنا أعرف هذا، أراه هنا يومياً. ستة شهور كحدٍ أقصى بعد ان يصلوا هنا، هؤلاء الشبيبة ـ ومعظمهم شبيبة مَنْ يأتون الى هنا ـ يفقدون كل فكرة خطرت ببالهم، عدا الغزل والحرارة. وإذا بقوا عاماً كاملاً، سوف يفقدون قدرتهم على فهم أي فرد آخر؛ سيجدون أي فرد آخر [فظاً]، أو بصورة أدق، جاهلاً وغير كاف.

أنتَ مولع بالحكاية ـ يمكنني أن أشبع ميلك. بوسعي أن أخبرك عن شابٍ أعرفه، زوج وابن، أمضى هنا في الأعالي أحد عشر شهراً. هو يكبرك قليلاً، نعم، أكبر منك بعض الشيء. جعلوه يذهب الى بيته، مؤقتاً، طالما انه تحسن كثيراً؛ عاد الى أحضان عائلته ـ ليس اخواله، فاهم، بل زوجته وأمه. كان يهجع طوال اليوم والمحرار الطبي في فمه، ليس له ولع بأي شيء آخر. [أنتِ لا تفهمين] قال هو. [لا أحد يفهم الأمر إن لم يسكن هناك في الأعالي. هنا في الأسفل الفهم الرئيس مفقود.] في الختام الأم هي التي حسمت الأمر. [ارجع]، قالت، [لم تعد بنا حاجة إليك بعد الآن]. وعاد. عاد الى [بيته] ـ أنت تعرف، أليس كذلك، انهم يسمون هذا المكان البيت حين يسكنون هنا مرة؟ كان مقصياً تماماً عن زوجته الشابة، كانت تفتقر الى الفهم الرئيس، وتخلت عن محاولة نيله. فقد نبت في رأسها انه سيجد زوجةً هنا في الأعالي وانه قادر على فعل ذلك، وسوف يقطع علاقته بها.»

بدا هانز كاستورب نصف مصغٍ. واصل التحديق في الإشراق الساطع لحجرته البيضاء، كما لو انه يحدق في فضاء بعيد.

قهقه بصورةٍ متأخرة عن الوقت المعتاد، وقال: «أسماه البيت؟ هذا شيء وجداني، كما تقول. أنت تعرف قصصاً لا حصر لها. ما زلتُ أفكر في ما قلناه عن الصلابة والفظاظة؛ الفكرة نفسها خطرت ببالي مراتٍ عدة في هذه الأيام. أنت تعرف، ان على المرء أن يكون قليل الإحساس كي يجده أمراً طبيعياً، طريقتهم في التفكير والحديث هناك في الأسفل، ان مسألة [هل بحوزته أي مبلغ من المال؟] ووجوههم المقطبة حين يقولون ذلك. هذا لن يبدو لي أمراً طبيعياً، مع انني لستُ [رجلاً إنسانياً]. بوسعي أن أرى، الآن أنظر الى الوراء، ذلك انني أُصدم به دوماً. أغلب الظن هذا له علاقة بميلي الى المرض، مع انني لم أكن أعرف عنه في الوقت المحدد ـ تلك الأمكنة القديمة التي سمعتُ عنها في يومٍ مضى. والآن بيرنز وجد مكاناً طازجاً. ذلك، ينبغي لي القول، كان أعجوبة بالنسبة لي ـ ومع ذلك، بشكلٍ من الأشكال، لا أعرف انها كانت كذلك، على أية حال. لم أشعر بنفسي صلداً كصخرة من قبل، ووالداي، كلاهما، فارق الحياة وهما في ريعان الشباب ـ

ذلك انني كنت يتيم الأبوين منذ صباي حتى الآن، كما تعرف ـ».

رسم السيد سيتيمبريني إيماءةً وحيدةً، برأسه، يده، وكتفيه. بصورة دمثة، وكيّسة، كانت إيماءته تقول: «حسن، وماذا يعني؟».

«أنت مؤلف»، قال هانز كاستورب، «أديب. من اليسير لك أن تفهم شيئاً كهذا؛ يمكنك أن تشعر كيف انه في ظل تلك الظروف لا يمكن أن يكون المرء خشن الطباع كي يجد ذلك النوع من الفظاظة طبيعياً تماماً، فظاظة الناس الإعتياديين، الذين يواصلون الضحك وجمع المال وملأ بطونهم. ـ لا أدري ما إذا كنتُ أعبّر عن نفسي ـ».

إنحنى سيتيمبريني. «تعني»، قاطعه، «ان التماس المبكر والمتكرر مع الموت نمى فيك ميلاً جعلك حساساً للقسوة والفجاجة، دعنا نقول الملاحظات الساخرة لحياتنا اليومية، الدنيوية.»

«بالضبط!» صاح هانز كاستورب، بحماسة صادقة. «أنت عبّرتَ عنها الى حد الكمال، سيد سيتيمبريني. التماس مع الموت! كنتُ متأكداً من انك، كونك أديباً ـ».

سيتيمبريني مد يده، جعل رأسه يميل الى أحد الجانبين، وأغمض عينيه. كانت إيماءة لطيفة وجميلة، إلتماساً للصمت وللمزيد من الإستماع. حافظ عليها لثوان معدودات، حتى بعد ان توقف هانز كاستورب عن الكلام وكان ينتظر قلقاً ما سوف يأتي. لكنه في الختام فتح عينيه السوداوين، عيني عازف الأرغن اليدوي في الشوارع، وانبرى قائلاً: «اسمح لي، اسمح لي، أيها المهندس، أن أقول لك، واسمح لي أن أقنعك بأمرٍ ما، ان الطريقة الوحيدة المعقولة النبيلة ـ وسوف أضيف بجلاء، ان الطريقة الدينية الوحيدة للتفكير في الموت هي انه جزء لا يتجزأ من الحياة؛ ان ننظر إليه، بالفهم والعواطف، كونه الحالة المنيعة للحياة. انه شيء معاكس تماماً لما هو معقول، ونبيل، وديني أن نفصل الموت بأي شكل من الأشكال عن الحياة، أو أن نجعله يلعب دوراً ضدها. الأسلاف في غابر الأزمان زخرفوا التوابيت الحجرية برموز الحياة والإنجاب، وحتى بالرموز الفاحشة؛ في أديان العصور القديمة المقدس والفاحش يدفنان عادة جنباً الى جنب. أولئك الناس كانوا

يعرفون كيف يؤدون الإحترام للموت. ذلك ان الموت يستأهل الإحترام، كونه مهد الحياة، كونه، رحم الولادة الثانية. حين يقطع عن الحياة، يغدو شبحاً، شيئاً مشوهاً، وأسوأ من ذلك. ذلك ان الموت، كونه طاقة مستقلة، هو طاقة شهوانية، جاذبيته الفاسدة أخلاقياً قوية في الواقع، أن تشعر بأنك منجذب إليه، أن تشعر بالتعاطف معه، هو بلا أدنى ريب على الإطلاق الضلال الأكثر شناعة الذي تكون روح الإنسان ميالةً إليه.»

سيتيمبريني كف عن الكلام. إنتهى بهذا التعميم، وجعله الخاتمة المحددة لحديثه. تكلم بمزاج غاية في الجدية وبأية حال بقصد تحادثي؛ وحتى أحجم عن منح هانز كاستورب الفرصة للرد، بل ببساطة خفض صوته عند هذه النقطة وختم ملاحظاته. جلس الآن وشفتاه مغلقتان، يداه مطويتان في حجره، إحدى الساقين بسروالها ذي المربعات مقذوفة فوق الأخرى، يؤرجح قدمه قليلاً، التي كان ينظر إليها بتعبير متزمت.

هانز كاستورب هو الآخر حافظ على الصمت. كان متكئاً الى الوراء في منفضته الريش، مديراً رأسه الى الجدار، ويقرع بأطراف أصابعه على غطاء السرير. شعر بأنه مقوّم، موبخ، مصحَّح؛ في صمته ليس ثمة مثقال ذرة من العناد الطفولي. استمر التوقف القصير بعض الوقت.

في الختام رفع السيد سيتيمبريني رأسه، وقال ببسمة: «أنتَ، أيها المهندس، على الأرجح، تتذكر انه كان لنا حوار مشابه من قبل ـ يجوز للمرء أن يقول الحوار نفسه. كنا نتكلم عن المرض والغباء ـ أظن اننا كنا نقوم بجولة على الأقدام ـ ووجدتَ الجمع بينهما مفارقة، على أساس تبجيلك للسقم. دعوتُ ذلك التبجيل هلوسةً كئيبةً لوثت سمعة الفكر البشري؛ وقد سررتُ حين وجدتك راغباً في التفكير في حجتي. تحدثنا عن الحيادية والتردد العقلي للشباب، عن حرية اختياره، عن ميله للعبث بكل وجهات النظر الممكنة، وان المرء لا يلزمه ـ أو انه لا يحتاج الى ـ أن يعد هذه التجارب العملية إختيارات نهائية ومحددة. هل تسمح لي» ـ إبتسم السيد سيتيمبريني وانحنى الى الأمام وهو جالس، قدماه على الأرض قريبتان من بعضهما، يداه بين ركبتيه، رأسه ممدود ومائل قليلاً الى أحد الجانبين ـ «هل

تسمح لي» ـ وكان في صوته رعشة ضعيفة جداً ـ «ان أكون بجانبك في محاولاتك وتجاربك، وأن أمارس تأثيراً تصحيحياً حين يظهر هناك خطر لدى تبنيك فرضية مهلكة؟».

«ياه، مؤكد، سيد سيتيمبريني» ـ عجّل هانز كاستورب في التخلي عن موقفه القسري وحتى العنيد، توقف عن القرع على غطاء السرير، وإستدار الى ضيفه بمودة، وكذلك بأسف عميق. «هذا لطف غير معهود منك ـ يلزمني أن أسأل نفسي ما إذا كنتَ حقاً ـ أي، إن كان هناك شيء ـ».

«مجاناً، بالطبع»، إقتبس السيد سيتيمبريني، وهو ينهض. «لا، أستطيع أن أجعل من نفسي متفوقاً!» ضحك كلاهما. فُتح الباب الخارجي، في اللحظة التالية فتح الباب الداخلي أيضاً. كان ذاك يواكيم، عائداً من «الرفقة». حين شاهد الإيطالي تورّد، كما فعل هانز كاستورب؛ اللون البرونزي العميق لوجهه تعمق بدرجة لونية أخرى.

«أوه، عندك زائر»، قال، «كم جميل لك هذا! أخروني، جعلوني أحد لاعبي [البريدج]. انهم يسمونها البريدج»، قال، هازاً رأسه، «كما يفعلون في الخارج، بيد انها كانت حقاً شيئاً مختلفاً تماماً. ربحتُ خمس ماركات ـ».

«هذا وحده لن يغدو عيباً فيك»، ضحك هانز كاستورب. «أهِم. السيد سيتيمبريني أزجى لي الوقت بالتسلية ـ لا، هذا ليس التعبير الملائم، مع ان لعبتك البريدج الزائفة ربما يناسبها هذا التعبير تماماً. السيد سيتيمبريني ملأ الوقت لي، ومنحه مغزىً، بينما إذا إندلعت بيننا لعبة البريدج الزائفة، يشعر أي رجل محترم ان عليه أن يشق طريقه مكافحاً. ومع ذلك كي تنال إمتياز الإصغاء الى السيد سيتيمبريني، والإفادة من نصيحته السديدة، كدتُ أود تقريباً المحافظة على حرارتي، وان أمكث معك هنا في الأعالي الى أجل غير مسمى. عليهم أن يعطونني [ممرضة صامتة] كي أقيس بها حرارتي.»

«أكرر، أيها المهندس، أنت مُضحِك»، قال الإيطالي. ودعهما وداعاً جميلاً وانصرف. وحيداً مع ابن خالته، أطلق هانز كاستورب تنهدة.

«أوه، يا له من معلّم مدرسة!» قال. «معلم إنساني، بالطبع. هو لا

يكف عن تقويمك[٣] ـ أولاً من خلال الحكاية، وبعدها من خلال الأفكار التجريدية. والأشياء التي يتسنى للمرء أن يتكلم عنها معه، أشياء لم يخطر ببالك أبداً انك ستتحدث عنها، أو حتى فهمها! وإذا ما قيض لي أن ألتقي به هناك في الأسفل»، أضاف «ما كنتُ لأفهم شيئاً على الإطلاق.»

عند هذه الساعة يبقى يواكيم معه مدةً وجيزةً، مضحياً بنصف أو بثلاثة أرباع الساعة من علاجه المسائي. في بعض الأحيان يلعبان الشطرنج على طاولة هانز كاستورب السحرية؛ جلب يواكيم مجموعة كاملة من بيادق الشطرنج من الأسفل. ثم يأخذ أغطيته ويلج الشرفة، المحرار الطبي في فمه، وهانز كاستورب هو الآخر يأخذ حرارته آخر مرة، بينما الموسيقى الناعمة، قريبة أو بعيدة، تتسلل صاعدة من الوادي المظلم. العلاج إنتهى في العاشرة. سمع يواكيم، سمع الزوجين من المائدة الروسية «السيئة»؛ إنقلب على جنبه ودعا النوم.

كان الليل النصف الأصعب من اليوم، ذلك ان هانز كاستورب كان يفيق من نومه بين الفينة والفينة، ويمضي ساعات غير قليلة يقظاً؛ إما لأن حرارته غير الطبيعية نسبياً تجعله مستثاراً، أو لأن سلوكه الأفقي في الحياة يسلب جزءاً من قدرته على، أو رغبته في، النوم. كي تعوّض عن قصرها، ساعات نومه كانت مفعمةً بالحيوية بوساطة الأحلام المتنوعة والنابضة جداً بالحياة، التي كان بوسعه تأملها عند الإستيقاظ. وإذا كانت ساعات النهار قصيرة بفعل تقسيمها الى أجزاء صغيرة، فإن الرتابة غير الواضحة للساعات الزاحفة لليل هي التي كانت تفعل فعلها بالتأثير المشابه. بعدها حين يأتي الفجر، يجده أمراً مسلياً أن يراقب اللون الرمادي التدريجي، الظهور البطيء للحجرة والأشياء الموجودة فيها، كما لو انه يتم من خلال سحب الحُجُب، أن يرى النهار يتوقد في الخارج، بنار داخنة من غير لهب أو بوهج حيوي؛ وكانت دوماً أعجوبة حين أتت اللحظة ثانية وضربة أستاذ الإستحمام ذات الصوت المكتوم على بابه تعلن لـ هانز كاستورب ان البرنامج اليومي لم يجلب تقويماً

(٣) تقويمك setting you right: أي وضعك في الطريق القويم ـ المترجم.

معه خلال إجازته، ولم يكن يجد نفسه متيقناً من التاريخ. بين حين وحين كان يسأل ابن خالته؛ الذي، بدوره، لم يكن دوماً متأكداً هو الآخر. حقيقة، أيام الآحاد، بخاصة تلك التي يتم فيها إقامة الحفلات الموسيقية كل اسبوعين ـ انها الحفلة الثانية التي يمضيها هانز كاستورب وهو في هذا الوضع ـ تمنحه نقطة ثابتة. كانا متيقنين تماماً، انهما شيئاً فشيئاً بدءا يتقدمان في شهر ايلول (سبتمبر)، ويكادان يقتربان من منتصفه. منذ ان أوى الى الفراش، المناخ البارد والغائم أفسح المجال الى سلسلة متوالية من أيام منتصف الصيف المدهشة. كل صباح يظهر يواكيم مكسواً بسروال أبيض من الفلانيلة(٤) ليحيي ابن خالته، ويشعر هانز كاستورب بوخزة الندم، يتضافر فيها القلب والعضلات اليافعة معاً، على ضياع كل هذا المناخ الرائع. تمتم انه كان «عاراً»، لكنه أضاف كي يواسي نفسه انه حتى إذا كان تسنى له أن يغادر الفراش فهو لن يعرف كيف يستفيد منه، طالما بدا له انه لا يفي بالغرض كي يجهد نفسه كثيراً. وباب الشرفة المفتوح على وسعه قدَّم له بعض النصيب من الوميض الدافئ في الخارج.

ولكن قريباً من نهاية مدته المحددة للإستلقاء، تغير المناخ من جديد. أمسى سديمياً وبارداً خلال الليل، واختفى الوادي بتفجيرات من الثلج الندي، وملأت الحرارة الجافة للمشعاع الغرفة. هكذا كان اليوم الذي ذكّر فيه هانز كاستورب الطبيبَ، في جولته الصباحية، قائلاً له ان الأسابيع الثلاثة إنتهت، وطلب منه السماح له بمغادرة الفراش.

«يا للشيطان ـ أنت لا تعنيها!» قال بيرنز. «حان الوقت، صحيح؟ دعنا نرَ: نعم، أنت على صواب ـ يا ستار، يا للسرعة التي كبرنا بها! الأمور لم تتغير كثيراً معك، في غضون ذلك. حالتك كانت طبيعية يوم أمس؟ نعم، حتى السادسة عصراً. حسن، كاستورب، لن أضن عليك بالمجتمع الإنساني بعد الآن. إنتهى الأمر، يا رجل، وواصل جولاتك ـ في الحدود المقضية، بالطبع. سوف نأخذ صورة لأحشائك ـ نأخذ ملاحظة عنها»، قال بينما كان

---

(٤) الفلانيلة flannel: نسيج صوفي ناعم ـ المترجم.

يخرج هازاً ابهامه الضخمة هزاً عنيفاً من فوق كتفه نحو هانز كاستورب، وناظراً الى المساعد. الشاحب، بعينيه الزرقاوين، الدامعتين، المحتقنتين بالدم. ترك هانز كاستورب «مطبخ السفينة».

بالكلوشين، وبياقته المرفوعة للأعلى، رافق ابن خالته مرةً أخرىً الى المصطبة الواقعة عند المجرى المائي ذهاباً وإياباً. خلال الطريق طرح سؤالاً يتعلق بالمدة الزمنية التي ربما سيجعله هوفرات يستلقي فيها لو انه لم يُذكَر بها. ويواكيم، الذي بدا قلقاً، فتح فمه كي يطلق مقطعاً لفظياً وحيداً متشائماً، نشر يديه بإيماءة معبّرة، وأقر بعجزه عن الإجابة.

تنـوير مفاجئ

انصرم اسبوع كامل قبل أن يتسلم هانز كاستورب، من خلال المديرة فون ميليندونك، الدعوة بإظهار نفسه في مختبر الأشعة السينية. لم يكن يود إستعجال الأمور. كان مصح بيرغهوف مكاناً مزدحماً، الأطباء والمساعدون مشغولون طوال الوقت بالعمل. نزلاء جدد دخلوا المصح حديثاً: طالبان روسيان بشعر كث وبلوزين أسودين مغلقين الى الحنجرة، لا يظهران أثراً للكتان؛ ألمانيان: زوجة وزوج، مُنحا مكانين لهما عند مائدة سيتيمبريني، ومكسيكي أحدب، أرعب زملاء مائدته بنوبات مخيفة من الربو، حين كان يمسك جاره، رجلاً كان أم امرأة، بمسكةٍ فولاذية أشبه بملزمة (فخة)، ويسحبه، إذا صح القول، مكافحاً وصارخاً طلباً للمساعدة، الى دائرة خطره العظيم. حجرة الطعام كانت مليئة تقريباً، مع ان فصل الشتاء لن يبدأ حقيقة حتى تشرين الأول (اكتوبر) وحالة هانز كاستورب لم تكن بتلك الدرجة من الشدة، بحيث تتطلب أي قدر من الإنتباه. السيدة شتور، بسبب حماقتها التامة وتنشئتها السيئة، كانت أسوأ منه بصورة لا يرقى إليها الشك ـ ناهيك عن الدكتور بلومينكول. لا بد للمرء أن يفقد الحصافة كلها كي يتصرف بصورة غير خجولة؛ في منزلة هانز كاستورب ـ بخاصة طالما ان الحصافة كانت في جو المصح. لم تكن الحالات المعتدلة ذات أهمية عظمى، هذا ما

سمعه مراراً. كانت تلك حالات يتكلمون عنها باستخفاف، ينظرون إليها بإرتياب، ليس من قبل الحالات الأكثر خطورة والخطيرة جداً، بل حتى من قبل إحداها الأخرى. منطقياً، بالطبع، كل حالة معتدلة كانت مساقةً هكذا لأن تفكر بنفسها باستخفاف، مع ذلك حافظت هي على احترامها لنفسها بوساطة دمجها مع العام، كونها طبيعية وإنسانية.

«أوه»، يقولون، عن هذا المريض أو ذاك، «ليس فيه شيء ناقص كثيراً. ما كان ينبغي له أن يكون هنا في الأعالي، ليس له تجاويف على الإطلاق. هكذا كانت الروح ـ كانت ارستقراطية في معناها الخاص، وهانز كاستورب أذعن لها، تعبيراً عن احترام فطري للقانون والنظام من كل نوع. كان طبيعياً بالنسبة له أن يطيع المثل الذي يأمرنا، حين تكون في روما، تصرف كما يتصرف الرومان. والواقع المسافرون يكشفون عن تنشئة وضيعة حين يسخرون من عادات ومعايير مضيفيهم، في ما يتعلق بالميزات التي تضفي شرفاً على مالكيها. ثمة أنواع وضروب شتى. حتى نحو يواكيم شعر هانز كاستورب بإذعان معين ـ ليس لأنه الساكن الأقدم، وكونه مرشده ودليله السياحي في هذا المحيط الجديد، ولأن حالته كانت بلا أدنى شك الأكثر خطورةً بين الاثنتين. واستناداً الى هذا الوضع، كان من اليسير لنا أن نفهم ان كل مريض يميل الى أن يقوم بأكثر ما يستطيع في ما يتعلق بحالته الخاصة، وحتى يضخم خطورتها، بحيث تنتمي الى الارستقراطية، أو تدنو منها قدر الإمكان. لذا هانز كاستورب، حين سئل عند مائدة الطعام، ربما كان يضيف اثنين بالعشرة الى درجة حرارته، ولم يتمالك نفسه من الإحساس بإشباع غروره حين هزوا أصابعهم نحوه وأسموه محتالاً ماكراً. ولكن حتى حين رتبها قليلاً، بقي هو عضواً من أعضاء المراتب الدنيا، كان موقف الحياء المتواضع فيه هو الشيء الوحيد الصحيح والسليم.

شغل حياة أسابيعه الثلاثة الأول، تلك الحياة العادية، النظامية، المنظمة تنظيماً جيداً مع يواكيم، ومرت كضربة خفيفة كما لو انه لم يهجرها أبداً. كان الإنقطاع، في الواقع، عديم الأهمية، كما رأى هو حين إستأنف جلوسه الى المائدة. يواكيم، الذي كان يؤكد بصورة مدروسة على مناسبات كهذه، زين

مكانه بقليل من الأزاهير؛ لكن لم تكن ثمة مراسم عظيمة فيما يتعلق بتحايا النزلاء الآخرين، هؤلاء كانوا تقريباً كما يمكن أن يكونوا بعد فراق ثلاث ساعات بدلاً من ثلاثة أسابيع. هذا لا يرجع الى عدم الإكتراث بشخصيته البسيطة والعاطفية، ولا الى الإنهماك بحالتهم الجسدية المستغرقة للإنتباه؛ بل فقط لأنهم فعلاً لم يكونوا واعين بالمدة الفاصلة. وهانز كاستورب يمكنه بسهولة أن يحذو حذوهم في هذا؛ طالما انه جالس هناك في مكانه عند طرف المائدة، بين مدرّسة الثانوية والآنسة روبنسون، بدا كما لو انه جلس هنا منذ مدة لا تزيد على يوم أمس كحد أقصى.

لو، حتى عند مائدته، ان نهاية إيوائه في الفراش لم تسبب حركة ضئيلة، فكيف كان بالوسع ملاحظتها في بقية أنحاء حجرة الطعام؟ وبكل ما في الكلمة من معنى ما من أحد إنتبه إليها عدا سيتيمبريني، الذي تمشى عند خاتمة وجبة الطعام كي يتبادل معه التحايا النابضة بالحيوية. هانز كاستورب، الواقع، كان بمستطاعه أن يخلق إضماراً عقلياً، من الجائز أن يكون مبرراً أو لا يكون: حدّث نفسه ان كلاوديا شوشا لاحظت عودته، فما إن قامت هي بدخولها البطيء، وجعلت الباب الزجاجي يرتطم بقوة وراءها، حتى إستقرت عيناها الضيقتان عليه ـ اللتان قابلتا عينيه ـ وانها حتى بعد أن جلست، التفتت ونظرت إليه، باسمةً من فوق كتفها، كما فعلت قبل ثلاثة أسابيع، يوم فحصه. كانت الحركة صريحةً جداً، لا مبالية جداً ـ لا مبالية به وبالنزلاء الآخرين ـ بحيث انه لم يكن يعرف ما إذا يتوجب عليه أن يكون بسببها في حالة من النشوة أم يلزمه أن يعتبرها علامة إزدراء فيستشيط غضباً. وعلى أية حال، تقلص فؤاده تحت هذه النظرة المحدقة، التي بصورة واضحة جداً ومُسكِرة جداً دحضت نقص العلاقات الإجتماعية القائمة بينه وبين المريضة الشقراء. تقلص بصورة موجعة نسبياً لحظة إنصفق الباب بقوة، ذلك انه كان يتطلع الى تلك اللحظة بأنفاس وفيرة وسريعة.

لا بد من القول ان عواطف هانز كاستورب نحو مريضة المائدة الروسية «الجيدة» حققت تقدماً جلياً خلال مدة رقاده في الفراش. ان العاطفة التي كان يضمرها في عقله وقلبه البسيط لهذه المخلوقة متوسطة الحجم ذات المشية

الانزلاقية والعينين «القرغيزيتين»، كانت في الواقع قد بلغت مرحلة كونها «عاشقة» ـ سوف نجعل الكلمة تصمد، مع انها إذا توخينا الدقة، مفهوم ينتمي لـ«هناك في الأسفل»، كلمة الأراضي المنبسطة، قادرة على أن تسبب الاعتقاد الخاطئ: أي، ان الأغنية القصيرة البسيطة واللطيفة التي مطلعها: «كلمة واحد من شفتيكِ الحلوتين» كانت الى حدٍ ما ملائمة لحالته. صورتها رفرفت قبالته في تلك الساعات المبكرة حين كان يضطجع يقظاً يراقب الفجر وهو يكشف النقاب عن حجرة نومه؛ أو عند المساء حين تزداد كثافة الشفق. كانت حاضرة بشكل قوي ليلة دخل سيتيمبريني بغتة حجرته وأشعل النور؛ وهي السبب الذي جعله يحمر خجلاً أمام نظر الرجل المؤمن بالفلسفة الإنسانية. في كل ساعة من ساعات نهاره المُنقص فكر فيها: بفمها، بعظام وجنتيها، عينيها، اللتين كان لونهما، شكلهما وموقعهما قد استحوذا على روحه؛ بظهرها المنحني، بوضع رأسها، بفقرتها العنقية فوق حلقة بلوزتها، بذراعيها اللتين جمّلهما غطاء الشاش الخفيف. ساعاته، وقد استحوذت عليها هذه الأفكار، انطلقت بسرعة مفرطة فوق قدمين صامتتين؛ إذا ما أخفينا الحقيقة، فإننا فعلنا ذلك تعبيراً عن تعاطفنا مع الإضطراب العظيم لوعيه، الذي إمتزج مع الفرح المروِّع الذي أفصحت عنه رؤاه. أجل شعر بالرعب والفزع معاً؛ شعر بحدس غامض، لا نهائي، مجنون بصورة مطلقة ومتهور، بكرب مجهول بسبب الفرح أورث بعض الأحيان فؤاد الشاب حزناً شديداً، فؤاده الحقيقي، الجسدي، بحيث كان يضع يداً في المنطقة المجاورة لذلك العضو، في حين يرفع الأخرى الى جبينه ويبقيها ستاراً أمام عينيه، هامساً: «آه، يا إلهي!»

ذلك انه وراء ذلك الجبين كانت ثمة أفكار ـ أو أنصاف أفكار ـ منحت الرؤى حلاوتها المحفوفة بالمخاطر. أفكار لها علاقة بطيش المدام شوشا وحماستها، حالتها العليلة، إبراز أعضائها الجسدية وتوكيدها بفعل المرض و(جسدنة)، إذا صح التعبير، كيانها كله بتأثير المرض ـ تأثير، كان عليه هو، هانز كاستورب، برأي الطبيب، ان يتقاسمه الآن. أدرك هو خلفيات تهورها، لا مبالاتها التامة في البسمة والنظرة بحقيقة عدم وجود علاقة إجتماعية بينهما،

وانهما حتى الآن لا يعرف أحدهما الآخر؛ بدا الأمر كما لو انهما لا ينتميان الى نظام إجتماعي، كما لو انه ليس من الضروري أبداً أن يكلم أي واحد منهما الآخر! على وجه الدقة هذا هو الأمر الذي كان يخيف هانز كاستورب؛ ذلك انه كان خائفا؛ بالإحساس نفسه حين، في حجرة الاستشارة، نظر مذعوراً الى جسد يواكيم العاري وجعل يصعد نظراته الى عينيّ ابن خالته ـ حينذاك فقط دوافع خوفه كانت شفقةً وهمّاً، بينما هنا يجري شيء مختلف تماماً.

لكن الآن حياة مصح بيرغهوف، تلك الكينونة المؤاتية بنحو مدهش والمنظمة تنظيماً جيداً، أمست مرة أخرى في نشاط تام على مسرحها الضيق. هانز كاستورب بينما كان ينتظر فحصه بالأشعة السينية، واصل إستمتاعه بسيرها المنظم، مع ابن خالته الطيب يواكيم، وان يعيشها، ساعةً بساعة، كما فعل من قبل بالضبط. لم تكن ثمة مسألة نافعة لشابنا غير رفقة ابن خالته. فمع ان رفقة يواكيم لم تكن سوى عِشرة في المعاناة، مع ذلك كان هو يعاني، إذا صح القول، بانسجام مع آداب المعاشرة العسكرية؛ كذلك، مع انها كانت بطريقة غير واعية، الى درجة إيجاد قناعة في الخدمة العلاجية، كي تحل محل الخدمة هناك في الأسفل وجعلها مهنة مؤقتة. لم يكن هانز كاستورب غبياً جداً، بحيث لا يدرك هذا كله، مع ذلك في الوقت نفسه كان يعي تأثيرها التصحيحي والمقيد على مزاجه الأكثر مدنية. ربما كانت هذه العِشرة، أمثولتها والسطوة التي تفرضها، هي التي صدته عن إتخاذ خطوات علنية والقيام بمشاريع متهورة. ذلك انه رأى كل ما يتوجب على يواكيم أن يتحمله من الهجومات اليومية للجو المعطر بالبرتقال، ممتزجاً مع عوامل عديدة، مثل العينين البنيتين، المدورتين، الياقوتة الصغيرة، مقدار كبير من ضحك لا مبرر له، وثديين يروقان للعينين الخارجيتين. الإحترام والإدراك الجيد اللذان جعلا يواكيم يتجنب هذه الغوايات التي أمسكت بـ هانز كاستورب، جعلته تحت سيطرتها، ومنعته من «إستعارة قلم الرصاص» إذا جاز التعبير ـ من صاحب العين الضيقة، وهو الشيء الذي كان هو بطريقة أخرى من خلال ما عرفناه عنه، مستعداً لفعله في الأرجح.

يواكيم لم يتكلم أبداً عن ماروسيا المحبة للضحك، وهكذا لم يكن هانز كاستورب قادراً على ذكر كلاوديا شوشا. توصل الى هذا بوساطة صلته المختلسة مع مدرّسة الثانوية الجالسة الى المائدة، حين يجلس مسنداً ذقنه وفق طريقة العجوز هانز لورنز، ويتهم العانس بضعفها حيال الفاتنة المريضة، الى أن يتوهج وجهها بصورة أكيدة. ألح عليها في اكتشاف حقائق جديدة وممتعة عن المسائل الشخصية لـ مدام شوشا، أصلها، زوجها، عمرها، خصوصيات مرضها. أراد أن يعرف ما إذا كان لها أطفال. أوه، لا، لم يكن لها طفل؛ ماذا تفعل امرأة مثلها بالأطفال؟ أغلب الظن كانت ممنوعة منعاً باتاً من أن يكون لها حتى طفل واحد، وإذا ما أنجبت، فأي نوع من الأطفال سيكونون؟ كان هانز كاستورب مرغماً على الإذعان. والآن ربما كان الوقت ساعة متأخرة من النهار، طرد المسألة من باله بموضوعية إستثنائية. الصورة الجانبية لـ مدام شوشا، من حين الى حين، بدت له واضحة بعض الشيء. لا بد انها فوق الثلاثين. الآنسة انجيلهارت رفضت الفكرة بإزدراء. ثلاثين؟ في أسوأ الأحوال لا يزيد عمرها على ثمانية وعشرين. منعت جارها من استخدام هذه الكلمات عن الصورة الجانبية لـ كلاوديا. كانت تلك أكثر الصور الجانبية رقةً، حلاوةً، نضارة، في العالم بأسره، وفي الوقت نفسه شائقة ـ بالطبع لم تكن الصورة الجانبية لأي آنسة صبيانية سليمة الجسم. كي تعاقبه، مضت تقول انها عرفت أن السيدة شوشا ضيفت زائراً، شخصاً ريفياً يسكن في الأسفل، في البلاتز. كانت تستقبله في أوقات العصر في حجرة نومها.

كانت تلك رمية جيدة. تبدل وجه هانز كاستورب بالرغم منه؛ حاول أن يرد قائلاً: «حسن، حسن! أنتِ لا تعنين هذا!» إلا ان الكلمات بدت متكلفة. كان غير قادر على التعامل بسهولة مع وجود هذا الزميل ـ الريفي لـ السيدة شوشا، مهما أراد أن يتظاهر بفعل ذلك، وعاد إليها[٥] المرة تلو المرة، وشفتاه ترتعشان. شاب؟ شاب وجميل المنظر، على وفق الإعتبارات كلها، أجابت مدرّسة الثانوية؛ لم تكن قادرة على قول ذلك من خلال ملاحظتها

---

(٥) أي عاد الى الكلمات ـ المترجم.

هي. هل كان مريضاً؟ حالة بسيطة فقط، على الأكثر. «دعينا نأمل» قال هانز كاستورب بازدراء، «انه ينشر ملابس كتانية أكثر من الإثنين الآخرين، عند المائدة الروسية [السيئة]». الآنسة انجيلهارت، بقصد إيذائه قالت بأنها قادرة على أن تثبت صحة ذلك. إستسلم واعترف قائلاً بأنها مسألة جديرة بالإهتمام. بإلحاح كلفها بمهمة اكتشاف كل ما تقدر عليه عن هذا الشاب الذي جاء ومضى بين البلاتز وحجرة السيدة شوشا. بعد مضي أيام قليلة جلبت له، ليس معلومات حول الشاب الروسي، بل قطعة طازجة ومرعبة من الأنباء. عرفت هي ان كلاوديا شوشا رُسمتْ لها صورة شخصية (بورتريه)، وسألت هانز كاستورب ما إذا عرف بهذا أيضاً. إذا لم يكن عارفاً بذلك، فعليه أن يتيقن من كونها رُسمت عند أفضل سلطة. كانت تجلس بعض الوقت، أمام شخص هنا في المصح، وهذا الشخص كان ـ هوفرات! نعم السيد هوفرات بيرنز، لا أقل، وكان يستقبلها لهذا الغرض كل يوم تقريباً في منزله الخاص.

هذا النبأ أثر في هانز كاستورب حتى أكثر من النبأ الآخر. إختلق نكاتٍ إجبارية عدة حوله. يا سلام، مؤكد، كان هوفرات معروفاً بأنه يشغل نفسه بممارسة الرسم بالزيت. لِمَ لا؟ لم تكن تلك جريمة، كل امرىء حر في ممارسة الرسم. والجلسات جرت في منزل الأرمل الخاص ـ كان يأمل في الأقل، أن تكون الآنسة فون ميليندونك حاضرة هناك! رفضت مدرّسة الثانوية فكرة كون المديرة مشغولة جداً في الأرجح. ما من أحد يمكن أن يكون مشغولاً أكثر من الطبيب، أجاب هانز كاستورب بقسوة. بدت الملاحظة حاسمة، لكنه كان أبعد ما يكون عن جعل الموضوع منتهياً. شغل نفسه بأسئلة: تتعلق بالصورة، كم كان حجمها، وما إذا كانت تقتصر على الرأس أم تصل الى حد الركبتين؛ وبساعات الجلسة ـ إلا ان الآنسة انجيلهارت لم تستطع أن ترضيه بهذه الخصوصيات، وكان عليها أن تصده الى أن تكون قادرة على صياغة سؤال آخر.

كانت حرارة هانزكاستورب قد بلغت ٩٩,٧ نتيجة هذا الإتصال. الزيارات التي رحبت بها السيدة شوشا ضايقته أقل بكثير من تلك التي قامت

بها هي. ان حياتها الشخصية والخاصة ـ بغض النظر عما يجري فيها ـ شرعت تغدو مصدر كرب وقلق؛ كم كانت أقوى، إذاً، مشاعره حين سمع تلك الأشياء المشكوك فيها حول الكيفية التي تقضي فيها وقتها! إذا ما تكلمنا كلاماً عمومياً، كان شيئاً ممكناً بكل معنى الكلمة ان علاقاتها بالزائر الروسي كانت لها صفة نزيهة وعديمة الضرر. غير ان هانزكاستورب كان على مدى وقت معين الآن ميالاً الى رفض التفسيرات عديمة الضرر والنزيهة كونها صفة «الثرثار»، كما لم يكن قادراً على النظر بأي ضوء آخر في هذا الرسم الزيتي، الذي عُد آصرة شغف بين أرمل ذي مفردات غليظة، وأنثى يافعة وضيقة العينين، ورقيقة الخطوات. ان الميل الذي أظهره هوفرات في إختياره لموديل كان شبيهاً جداً بميل هانزكاستورب إليه كي يضع ثقته العظيمة في الصفة النزيهة للعلاقة الغرامية، وان التفكير في خدي هوفرات الأرجوانيين وعينيه المحتقنتين بالدم، الجاحظتين قوّيا شكوكيته.

ثمة ملاحظة قام بها خلال هذه الأيام، طوعاً وبمحض المصادفة، كان لها تأثير مختلف عليه، مع ان ما رآه هنا ثانية أكد ميله الخاص. هناك جلس، الى المائدة ذاتها مع السيدة سالومون وطالب المدرسة الشره ذي النظارتين، يسار ابن خالته، قرب الباب الجانبي، جلس مريض كان، هكذا سمع هانز كاستورب، مواطن من مانهايم. كان في نحو الثلاثين من العمر؛ كان شعره خفيفاً، أسنانه رديئة، وكانت له طريقة كلام تنم عن الإستخفاف بالذات. كان هو مَنْ يعزف على البيانو في الأمسيات، عادة مارش الزفاف من «حلم ليلة منتصف الصيف». قيل انه ورع جداً ـ كان «أولئك المقيمين هنا في الأعالي» عادةً هكذا. كل أحد يمضي للخدمة تحت في البلاتز، وفي الاستراحة ـ العلاج يقرأ كتباً تعبدية ذوات كأس القربان أو سعفة نخلة على الغلاف الأمامي. عينا هذا الرجل، هكذا لاحظ هانز كاستورب ذات يوم، سافرت في الطريق نفسه الذي سافرت فيه عيناه هو: علقت بشخص مدام شوشا الرشيق باخلاص جبان وعنيد. ما إن لاحظ هانز كاستورب هذا، لم يستطع أن يمتنع عن توثيقها المرة تلو المرة. رآه واقفاً، ذات مساء، في حجرة الورق، بين النزلاء الآخرين، مستغرقاً في النظر الى المخلوقة المحبوبة،

فاسدة الأخلاق الجالسة على الكنبة في الصالون الصغير، المنهمكة في حديث مع تمارا كثيرة النزوات، ذات الشعر الزغب، ومع الدكتور بلومينكول، ومع الشبان والشابات محنيي الظهور، بالصدور ذوات التجاويف الذين كانوا زملاء مائدتها. رآه يشيح بوجهه جانباً، ثم أدار رأسه، بتعبير جدير بالشفقة لشفته العليا، وأدار عينيه فوق كتفه ناظراً الى ناحيتها. شاهده يحمر خجلاً، ولم يرفع بصره، لكنه بعدئذ نظر بلهفة كنظرته مع صوت إرتطام الباب الزجاجي، وانزلاق السيدة شوشا الى مكانها. وأكثر من مرة رأى كيف كان الشاب المسكين يجد له موضعاً، بعد وجبة الطعام، بين المائدة الروسية «الجيدة» وباب الخروج، بقصد انها ربما تمر بالقرب منه، إلا انها لم تنظرْ إليه، ولم تفكرْ به، بينما كان هو يلتهمها عن كثب بعينين مليئتين بالحزن حتى آخر ذرة في أعماقهما.

اكتشافه هذا أثر في الشاب هانز كاستورب تأثيراً غير قليل، مع ان النظرة الكئيبة والمفترسة للمانهايمي لم تقلق راحته مثل التفكير بعلاقة كلاوديا شوشا الخاصة مع هوفرات بيرنز، وهو رجل أرفع منه منزلة في العمر، الشخصية، والمركز الإجتماعي. لم تكن كلاوديا مولعة بالمانهايمي ـ لو انها شُغفت به، ما كان ليغيب ذلك عن إدراك هانز كاستورب؛ في هذه الحالة لم يكن ذاك سهم الغيرة الذي شعر به يخز روحه. لكنه كان يملك كل الأحاسيس التي يعرفها سُكر العاطفة، حين ترى حالتها الخاصة مضاعفة في العالم الخارجي، والتي تكون مزيجاً غريباً جداً من الإشمئزاز والشعور بالصحبة. كي نستكشف ونفتح كل لفافات عواطفه فإن ذلك سوف يأخذنا شوطاً بعيداً جداً؛ ويكفينا القول ان ملاحظته للمانهايمي وهبت صديقنا الشاب المسكين ما يكفي للتفكير والمعاناة.

بهذه الطريقة تصرم الاسبوع الذي سبق فحصه بالأشعة السينية. لم يكن يعرف ان مدةً طويلةً جداً قد مرت. لكنه ذات صباح عند الفطور المبكر تسلّم أمراً من خلال المديرة (كان لها شحاذ عين[٦] طازج، وهذا فإن هذا المرض

(٦) شحاذ العين stye: يدعى بالعامية العراقية: جنيجل ـ المترجم.

المزمن غير المؤذي مع انه مشوّه للوجه كان بنيوياً بشكل جلي) بأن يظهر نفسه في مختبر الأشعة عصر ذلك اليوم؛ ولاحظ، حين تسنى له التفكير في الموضوع، ان اسبوعاً كاملاً قد مرَّ. هو وابن خالته ينبغي لهما أن يذهبا معاً، نصف ساعة قبل الشاي، هذه الفرصة ستتيح لـ يواكيم أن يتم تصويره ثانية بالأشعة السينية، طالما ان الصورة القديمة أصبحت الآن عتيقة.

إختصرا مدة الإستراحة الرئيسة ثلاثين دقيقة. حالما دقت الساعة معلنة الثالثة والنصف، هبطا درجات السلّم، الى ما يسمى الدور التحتاني، وجلسا في حجرة الانتظار الصغيرة بين حجرة الإستشارة والمختبر. كان يواكيم هادئاً تماماً، فهذه التجربة ليست جديدةً عليه، أما هانز كاستورب فقد كان يترقبها بصورة محمومة نسبياً، طالما ان أحداً، حتى الوقت الحاضر، لم يكن قد رأى أحشاءه الداخلية. لم يكونا وحدهما. كان هناك مرضى آخرون جالسين حين دخلا، مع مجلات مصورة ممزقة في أحضانهم، وكانوا كلهم ينتظرون معاً: شاب سويدي، ذو تناسبات بطولية، الذي جلس الى مائدة سيتيمبريني، سمع أحدهم يقول عنه، حين دخل، في نيسان (ابريل) الماضي، انه كان عليلاً جداً، بحيث انهم تقريباً رفضوا قبوله غير انه كان قد إزداد وزنه حوالي ست أحجار[7]، وكان على وشك أن يصرف من المصح مكتسباً الشفاء التام. كانت هناك أيضاً أم من المائدة الروسية «السيئة»، كانت هي حالة باعثة على الأسى، مع إبنها الصبي طويل الأنف، القبيح، المدعو ساشا والذي كانت حالته جديرة بالرثاء أكثر من أمه. كان هؤلاء الثلاثة ينتظرون مدة أطول من إبني الخالتين وهكذا سوف يدخلون قبلهما ـ واضح انه كان هناك توقف مفاجئ من نوع خاص في المختبر، وكان هناك شاي بارد على البطاقات.

كانوا مشغولين هناك في الداخل. يمكن سماع صوت هوفرات، وهو يعطي التوجيهات. كان الوقت قد تجاوز منتصف الساعة حين فتح الباب المساعد التقني كي يسمح بدخول العملاق الروسي ومعبود الحظ. واضح ان

(٧) أحجار جمع حجر stone: وهو وحدة وزن بريطانية تعادل (١٤) رطلاً ـ المترجم.

المريض الذي سبقه خرج من باب آخر. لكن الآن سارت الأمور بنحو أسرع. بعد مدة لا تزيد على عشر دقائق سمعا الإسكندنافي يخطو خطوات واسعة عبر المجاز، مشية تدل على الإعتراف بالجميل للمؤسسة وللمنتجع الصحي؛ وأُدخلت الأم الروسية مع ابنها ساشا. في كلتا المرتين، حين فتح الباب، لاحظ هانز كاستورب ان حجرة الأشعة السينية كانت نصف معتمة، كان يسود هناك شفق إصطناعي، كما في حجرة الدكتور كروكوفسكي الخاصة بالتحليل النفسي. كانت الشبابيك محجوبة عن الأنظار، ضوء النهار مُنع من الدخول، وكان هناك مصباحان كهربائيان مشتعلان. ولكن حين دخل ساشا ووالدته، وهانز كاستورب تابعهما بنظراته، فُتح باب المجاز، ودخل المريض التالي حجرة الانتظار ـ كانت، بالطبع، قد جاءت في وقت مبكر جداً، برغم التأخير في المختبر. كانت تلك مدام شوشا.

كانت كلاوديا شوشا هي التي ظهرت فجأةً في حجرة الإنتظار الصغيرة. ميزها هانز كاستورب، بعينين محدقتين، وشعر بوضوح ان الدم غادر وجنتيه. إرتخى فكه، فمه كان على وشك أن ينحدر مفتوحاً. كان دخولها قد حدث بصورة عرضية جداً، غير متوقعة تماماً، لم تكن هناك، ومن ثم، جرى ذلك فجأةً، هي ذي هناك، تقاسم هذا المكان الضيق مع إبني الخالتين. أسرع يواكيم بإلقاء نظرة خاطفة على هانز كاستورب، في ما بعد لم يخفض بصره حسب، بل رفع ثانية الصحيفة المصورة التي كان قد طرحها جانباً، ودفن وجهه فيها. هانز كاستورب لم يستطع أن يتخذ قراراً في ان يحذو حذوه. إحمر إحمراراً شديداً، بعد شحوبه المباغت، وشرع قلبه يخفق بقوة.

اتخذت السيدة شوشا مجلسها قرب باب المختبر، في كرسي وثير مستدير ذي ذراعين قصيرتين وثخينتين وأثريتين إذا جاز التعبير. اتكأت الى الوراء، لفت برشاقة ساقاً على ساق، وجعلت تنظر في الفراغ. كانت تعرف ان الشابين ينظران إليها، وعيناها، عينا بريبيسلاف، حوّلتا أنظارهما بصورة عصبية، وجعلتا تنظران شزراً. كانت ترتدي كنزة صوفية غليظة بيضاء وتنورة زرقاء، وكان بحوزتها كتاب من مكتبة الإستعارة في حضنها. كانت تقرع برقة بنعل القدم المستقرة فوق الأرض.

وبعد دقيقة ونصف غيّرت وضعها؛ أجالت النظر في ما حولها، نهضت، بسيماء امرأة تجهل الشيء الذي ينبغي لها فعله أو المكان الذي يلزمها الذهاب إليه ـ وبدأت تتكلم. كانت تسأل عن شيء ما، وجهت سؤالاً الى يواكيم، مع انه كان جالساً هناك مستغرقاً على ما يبدو في مطالعة جريدته، بينما لم يكن هانز كاستورب يفعل شيئاً على الإطلاق. صاغت الكلمات بشفتيها ومنحتها صوتاً منبعثاً من حنجرتها البيضاء؛ كان ذلك الصوت، لم يكن عميقاً، بل بحدة طفيفة جداً، وأجش بصورة مُرضية، الذي عرفه هانز كاستورب ـ كان يعرفه من زمن بعيد جداً ومع ذلك سمعه في وقت متأخر جداً، قائلاً: «بكل سرور، عليك فقط أن تعيده إليّ بعد الدرس». تلك الكلمات نُطقت بوضوح وسلاسة؛ أما هذه الكلمات فجاءت مترددة نوعاً ومكسّرة، المتكلمة لم يكن لها حق فطري فيها، بل استعارتها حسب، كما سمعها هانز كاستورب تفعل ذلك من قبل، حين جرب الإحساس المكون من مزيج من التفوق والنشوة الذي وصفناه آنفاً. إحدى يديها في جيب كنزتها الصوفية، الأخرى عند مؤخرة رأسها، سألت السيدة شوشا قائلة: «هل لي أن أسألك عن الوقت المحدد لفحصك بالأشعة؟».

ويواكيم، بنظرةٍ سريعة الى ابن خالته، أجاب، كعبا قدميه متلاصقان أثناء جلوسه: «موعدي هو الثالثة والنصف.»

تكلمت ثانية: «موعدي هو الرابعة إلا ربعاً. ما هذا إذاً ـ الوقت يقترب من الرابعة. بعض الأشخاص دخلوا تواً، ألم يدخلوا؟»

«بلى، اثنان. كانا قبلنا. يبدو ان هناك بعض التأخير، كل شيء تأخر نصف ساعة.»

«هذا شيء غير مقبول»، قالت، وبعصبية مست شعرها.

«نسبياً»، أجاب يواكيم. «نحن ننتظر هنا منذ نصف ساعة تقريباً.»

هكذا تحاورا، وكان هانز كاستورب يرهف السمع كما لو انه في حلم. أن يتحدث ابن خالته الى السيدة شوشا هو الشيء نفسه تقريباً كما لو حدثها هو ـ ومع ذلك كم هو مختلف بكل ما في الكلمة من معنى! تلك الكلمة «نسبياً» تحدثه، بدت غريبة وفظة، إن لم تكن أسوأ من ذلك، في ضوء

الظروف المحيطة بهم. التفكير بأن يواكيم قادر على التحدث إليها بتلك الطريقة ـ والتفكير بأنه قادر أن يكلمها بأية حال! وعلى الأرجح تباهى بنفسه على كلمته الوقحة «نسبياً» ـ تباهى بها كثيراً مثلما تباهى هانز كاستورب أمام يواكيم وسيتيمبريني حين سُئل كم سيطول مكوثه في المصح، وكان يرد قائلاً: «ثلاثة أسابيع». الى يواكيم، مع انه كان يضع الصحيفة أمام أنفه، وجهت سؤالها، لأنه الساكن الأقدم بالطبع، الذي كانت تعرفه بالرؤية منذ مدة أطول؛ ولكن ربما يرجع هذا أيضاً الى سبب آخر، لأنهما ربما يلتقيان على علاقة متمسكة بالعرف ويتحاوران حواراً عادياً بكلمات واضحة، لأنه ما من شيء وحشي، غامض ومرعب، يفرض سيطرته بين الاثنين. لو ان مخلوقة بنية العينين، ذات خاتم من الياقوت وعطر البرتقال، جلست هنا منتظرةً معهما، آنذاك سيؤدي هانز كاستورب دوره، ويقود المحاورة قائلاً: «نسبياً» ـ في وضوح وتجرد عواطفه. «نعم، مدام، أكيد هو شيء غير سائغ نسبياً»، كان بوسعه أن يقول، وربما يستل منديله أيضاً من جيب الصدر متباهياً وينفخ أنفه. «صبراً، ان حالتنا ليست أفضل من حالتك». كم سيكون يواكيم مندهشاً من لباقته ـ لكنه لم يكن يرغب بجد أن يحل محل هانز كاستورب. لا، وهانز كاستورب لم يكن غيوراً من يواكيم لأنه كان قادراً على التحدث الى السيدة شوشا. كان مقتنعاً انه يلزمها أن توجه كلامها الى ابن خالته؛ يبدو انها ميزت الوضع كما حدث ـ قلبه شرع يخفق بقوة.

بعد معاملة يواكيم المتعجرفة لـ مدام شوشا ـ التي بدا خلالها ان هانز كاستورب يستمتع بشيء يشبه كثيراً الحقد الطفيف الذي يكنه ابن خالته لزميلتهما المريضة الشقراء، حقد لا يتمالك نفسه من الضحك بإزائه، بالرغم من الاضطراب في عقله ـ «كلاوديا» حاولت أن تدور في الغرفة ذهاباً وإياباً. بعدها، حين ألفت المكان ضيقاً جداً، تناولت صحيفة مصورة، وعادت الى الكرسي الوثير ذي الذراعين الأثريتين. هانز كاستورب تطلع إليها، ذقنه في ياقته، كجده ـ كان منظراً مضحكاً أن تراه وقد بدا شبيهاً جداً بالرجل العجوز. السيدة شوشا لفت ساقاً على ساق من جديد، وركبتها، وحتى الخط الرشيق الكامل للفخذ، ظهرا تحت تنورتها الزرقاء. ومع أنها متوسطة

القامة، بقوام مناسب ومبهج تماماً، في نظر هانز كاستورب ـ لكنها كانت أيضاً طويلة الساقين نسبياً، وضيقة الوركين. كانت تجلس مائلة الى الأمام، وساعداها المعقودان مسندين الى ركبتها، كتفاها منحنيتان، وظهرها مقوس، بحيث نتأ عظم ـ الرقبة بشكل بارز، وقد ظهرت حدود العمود الفقري كله تقريباً تحت الكنزة الصوفية الضيقة. ثدياها، اللذان لم يكونا عاليين ومبهجين للحواس كثديي ماروسيا، بل كانا صغيرين وعذراوين، كانا مضغوطين معاً من كلا الجانبين. تذكّر هانز كاستورب، على حين غرة، انها كانت جالسة هنا بانتظار فحصها بالأشعة السينية. هوفرات رسمها، نسخ مظهرها الخارجي بالزيت والألوان فوق قماش (الكنفا). والآن، في الحجرة المضاءة بالشفق، سوف يوجه إليها الأشعة التي ستكشف له أحشاء جسدها الداخلية. حين خطرت هذه الفكرة ببال هانز كاستورب، أدار رأسه جانباً واتخذ سيماء مستقلة بصورة متزمتة؛ نوع من الغموض المتعمد حسن المظهر قدم نفسه له كونه الموقف الصحيح الوحيد بحضور فكرة كهذه.

الانتظار معاً في الحجرة الصغيرة لم يدمْ طويلاً. واضح انهم قدموا غفراناً قصير الأمد نوعاً لـ ساشا وأمه هناك، في سعيهم للتعويض عن الوقت الضائع. التقني في سمقه الأبيض ظهر مرةً أخرى. وقف يواكيم وأعاد الصحيفة الى الطاولة، وهانز كاستورب، ليس من دون تردد داخلي، تبعه الى الباب المفتوح. كان يكافح بوساوس فروسية، وكذلك بالإغراء في أن يهيئ نفسه بالرغم من كل شيء، ليكوّن علاقات طيبة متمسكة بالعرف مع السيدة شوشا، أن يتحدث إليها ويبدي لها التصدّرية[٨] ـ بالفرنسية، إذا إستطاع أن يتدبر الأمر. بسرعة سعى الى أن يجند الكلمات، وتركيب الجملة. لكنه لم يكن يعرف ما إذا كانت مثل هذه المجاملات تتم ممارستها هنا في الأعالي؛ ربما كان النظام الرسمي أكثر فعالية من قواعد الفروسية. ينبغي لـ يواكيم أن يعرف، وطالما انه لم يحرك ساكناً كي يذعن للجنس،

(٨) التصدّرية precedence: حق التصدر والتقدم على الآخرين، والمقصود هنا أن يبدي إستعداده لأن تدخل قبله الى الطبيب ـ المترجم.

مع ان هانز كاستورب نظر إليه متوسلاً، الأخير تبع ابن خالته ماراً بالسيدة شوشا، التي رفعت بصرها فقط من وضعها المنحني بينما هما يدخلان من الباب الى المختبر.

سيطرت عليه كثيراً جداً وقائع الدقائق العشر الأخيرة، وما تركه وراءه، ذلك انه تعين على عقله أن يمر حالاً مع جسده فوق عتبة مختبر الأشعة السينية. لم يرَ شيئاً، أو رآه بصورة غير واضحة، في الحجرة المضاءة إصطناعياً؛ هو ما يزال يسمع صوت السيدة شوشا المحجوب بطريقة مُرضية، الذي قالت فيه: «ما هذا إذاً؟... بعض الأشخاص دخلوا تواً... هذا شيء غير مقبول» ـ صوتها ما يزال يرتعش بحلاوة فوق ظهره. رأى شكل ركبتها تحت تنورتها القماشية، رأى عظم رقبتها، تحت خصلات شعرها القصير الأشقر ـ الضارب الى الحمرة التي لم تكن قد جُمعت في الضفائر ـ ومن جديد سرت الرعشة في ظهره. ثم رأى هوفرات بيرنز، مديراً ظهره إليهما، واقفاً أمام نوع من فجوة مبنية في داخل جدار، يتطلع الى شريحة سوداء كان يحملها بذراع ممدودة صوب ضوء معتم في السقف. مرا به ودخلا الحجرة، يتبعهما المساعد كي ينجز مسألتهما بسرعة. كان المكان يفوح برائحة غريبة جداً، كان الجو يمتلئ بنوعٍ من الأوزون المبتذل. الهيكل المبني في الجدار، الذي يبرز بين نافذتين سوداوين ـ متدليتين، شطر الحجرة الى نصفين غير متساويين. هانز كاستورب بوسعه أن يميز الجهاز الجسدي. عدسات، لوحات مفاتيح الكهرباء، آلات قياس ضخمة، صندوق أشبه بكاميرا على حامل يسير على دواليب، ثمة صور فوتوغرافية موجبة زجاجية موضوعة في الجدران. يشق القول ما إذا كان هذا ستوديو تصوير فوتوغرافي، حجرة داكنة، أم انه ورشة مخترع ومطبخ عرافات تقني.

بدأ يواكيم، من دون ضوضاء كبيرة، في تعرية الجزء العلوي. المساعد، شاب ربع القامة، متورد الخدين، ابن البلد بسمق أبيض، حث هانز كاستورب كي يحذو حذو ابن خالته. مضى الوقت سريعاً، وحان دوره. حين خلع هانز كاستورب صدرته، خرج بيرنز من التجويف الأصغر حيث كان واقفاً في التجويف الأكبر.

«مرحباً». قال. «ها هما ديوسكيوري[٩]، كاستور وبولوكس. إذا شعرتما بأي ميل نحو النحيب، من فضلكما إكبتاه. مهلاً، سوف نصوركما أنتما الإثنين. أتوقع، كاستورب، انك تشعر بشيء من العصبية بشأن كشف كيانك الداخلي لأبصارنا؟ لا تكن مرعوباً، نحن نحافظ على اللياقات كلها. أنظر، هل رأيتَ معرض الرسوم خاصتي؟» قاد هانز كاستورب من ذراعه أمام صفوف الشرائح السود فوق الحائط، وأشعل ضوءاً خلفها. رأى هانز كاستورب أعضاءاً عديدة: أيدي، أقدام، رضف، عظام أفخاذ وعظام سيقان، أذرع، وأحواض. غير ان الشكل المكور الحي لهذه الأجزاء من جسم الإنسان كان غير واضح ومبهم، أشبه بغلاف شاحب وسديمي، برزت فيه النواة الواضحة ـ الهيكل العظمي.

«شيء مسلٍ جداً» قال هانز كاستورب.

«أكيد مسلٍ بدرجة كافية»، أجاب هوفرات. «درس ـ مُدرَك بالحواس مفيد للشاب. ان تشريح الأشعة السينية، كما تعرف، هو انتصار العصر. هناك ذراع أنثى، يمكنك أن تقول ذلك من خلال رقتها. تلك الذراع هي التي تطوقك بها خليلتك حين تعاشرها.» ضحك، وشفته العليا مع الشارب القصير ارتفعت الى الأعلى قليلاً نحو أحد الجانبين. الصور تلاشت. لفت هانز كاستورب إنتباهه الى التحضيرات الجارية لفحص يواكيم بالأشعة السينية.

تم ذلك أمام ذلك البناء الذي كان هوفرات بيرنز واقفاً في الناحية الثانية منه حين دخلا. إتخذ يواكيم مكانه على مصطبة أشبه بمصطبة صانع الأحذية، أمام لوح طوّقه بذراعيه وضغط صدره عليه، بينما حسّنَ المساعد الوضع، دلك ظهره، ووضع يديه أكثر الى الأمام. ثم مضى وراء الكاميرا، ووقف كما يقف المصور الفوتوغرافي، الساقان متباعدتان، ومحني الظهر، كي ينظر الى الداخل. عبّر عن قناعته، وعاد الى يواكيم، محذراً إياه من ان يأخذ نفساً وأن يقطعه الى أن ينتهي كل شيء. تمدد ظهر يواكيم المكوّر وظل

---

(٩) ديوسكيوري Dioscuri: إبنا زيوس (في الميثولوجيا الاغريقية). وهو لقب يطلق على كاستور Castor وبوليديوسيس Polydeuces أو Pollux ـ المترجم.

هكذا؛ المساعد عند لوحة مفتاح الكهرباء، سحب المقبض. الآن، على مدى ثانيتين، طاقات مخيفة كانت قيد العمل ـ تيارات من آلاف، من مئات الآلاف من الفولتات[١٠]، بدا هانز كاستورب انه يتذكر ـ التي كانت ضرورية لإختراق المادة الصلبة. لا تكاد تقتصر على غرفة مكتبها، حاولت أن تفر عبر منافذ أخرى: كانت هناك انفجارات أشبه بطلقات مسدس، شرارات زرق في جهاز القياس؛ بروق طويلة فرقعت على طول الجدران. في مكانٍ ما في الحجرة ظهر ضوء أحمر، كعين متوعدة، وزجاجة في مؤخرة يواكيم إمتلأت بالخضرة. بعدئذ هدأ كل شيء، إختفت الظواهر، ويواكيم نفث زفيره بتنهدة. إنتهى الأمر.

«الحدث الجانح التالي»، قال هوفرات، ولكز هانز كاستورب بمرفقه. «لا تتظاهر بأنك في منتهى التعب. ستنال نسخة مجانية، كاستورب؛ بعدئذ سيكون بميسورك أن تظهر أسرار صدرك على الجدار لأطفالك وأحفادك كي يشاهدوها بعيونهم!»

نزل يواكيم، التقني أبدل الشريحة. هوفرات بيرنز شخصياً أرشد المبتدئ، كيف يجلس ويثبت نفسه.

«ضع ذراعيك حوله»، قال. «طوّق اللوح ـ تخيله شيئاً آخر، إذا شئت. اضغط صدرك عليه، كما لو انه ملأك بالنشوة. هكذا اسحب نفساً عميقاً. إمتنع عن التنفس!» أمر. «الآن، من فضلك!» هانز كاستورب إنتظر، عيناه تطرفان، رئتاه توسعتا. وراءه أفلتت العاصفة: فرقعت، برقت، تفجرت بعنف مفاجئ ـ وسكنت. العدسة نظرتْ في داخله.

نزل، دائخاً، حائراً، على الرغم من انه لم يكن حساساً جسدياً للإختراق حتى في أدنى درجاته.

«غلام طيب»، قال هوفرات. «الآن سوف نرى». يواكيم المجرِّب تحرك الى باب الدخول واتخذ موقعه عند حامل؛ وراءه الهيكل الشامخ للجهاز؛ ذي بصلة نصف مملوءة بالماء، وأنابيب تقطير؛ أمامه بعلو الصدر،

(١٠) الفولتات جمع فولت volt: وهو وحدة القوة المحركة الكهربائية ـ المترجم.

يتدلى حجاب مؤطر على بكرات. الى يساره، بين لوح مفتاح الكهرباء وآلات معينة، كانت هناك كرة حمراء. هوفرات، ركب (ستولاً) يقع أمام الحجاب مباعداً ما بين رجليه، أشعل الضياء. تلاشى ضوء السقف، والتوهج الأحمر وحده أضاء المكان. ثم أطفأ رئيس المؤسسة هذا أيضاً، بحركة سريعة، وغلّف المختبر ظلام كثيف.

«علينا أولاً أن نعوّد عيوننا»، سمع هوفرات يقول ذلك، في العتمة. «علينا أن نحصل على بؤبؤين واسعين، كبؤبؤي القط، كي نرى ما نروم رؤيته. أنت تفهمني، ان بصرنا اليومي لن يكون جيداً بما فيه الكفاية لأغراضنا الخاصة. علينا أن نطرد ضوء النهار الساطع وصوره الجميلة من عقولنا.»

«هذا شيء طبيعي»، قال هانز كاستورب. كان واقفاً بجانب كتف هوفرات، وأغمض عينيه، طالما ان الظلمة كانت عميقة جداً بحيث انه لم يعد مهماً أن يفتح عينيه أو يغمضهما. «أولاً علينا أن نغسل عيوننا بالظلام كي نشاهد ما نود مشاهدته. هذا واضح وأنا أجده صحيحاً تماماً ومناسباً، الواقع، علينا أن نستجمع قوانا قليلاً، سلفاً - في صلاة صامتة، إذا جاز القول. أنا واقف هنا وعيناي مغمضتان، ولي إحساس نعسان سار جداً. لكن ما هذه الرائحة التي أشمها؟».

«أوكسجين»، قال هوفرات. «ما تلاحظه في الجوهر هو الأوكسجين. انه نتاج جوي لعاصفتنا الرعدية الخاصة الصغيرة، كما تعرف. افتح عينيك!» أمر. «السحر يكاد يبدأ» أسرع هانز كاستورب الى الإذعان.

سمعوا مفتاحاً كهربائياً يوصل. ثمة محرك بدأ بالعمل. وغنى بصورة جهنمية بصوت يتعالى شيئاً فشيئاً، الى ان تحكم فيه وثبته مفتاح كهربائي آخر. إرتجت الأرض باهتزاز منتظم. الضوء الصغير الأحمر، العمودي على السقف، نظر بوعيد إليهما. في مكان ما ومض برق. وبوميض حليبي ظهر شباك ضوء من العتمة: كان ذاك الحجاب المربع المتدلي، الذي أمامه ركب هوفرات بيرنز (ستوله)، مباعداً ما بين ساقيه مُسنداً عليهما قبضتيه، أنفه عديم الحس قريب من لوح الزجاج، الذي أعطاه فكرة عن النظام الداخلي للإنسان، أي إنسان.

«هل تراه، أيها الشاب؟» سأل. كان هانز كاستورب يحني رأسه فوق كتفه، لكنه بعدها رفع رأسه من جديد كي يتطلع الى البقعة التي يفترض ان عينيّ يواكيم كانتا تنظران إليها في العتمة، يلوح عليهما التعبير الرقيق، الحزين الذي حملتاه خلال فحص الآخر. «هل لي؟» سأل.

«بالطبع»، رد يواكيم برحابة صدر، في العتمة. وإزاء خفق الأرض، وفرقعة القوى التي قيد العمل وطقطقتها، حدق هانز كاستورب خلال الشباك المضاء، حدّق في الهيكل العظمي الخالي لـ يواكيم زيمسين. عظم القص والعمود الفقري إنحدرا معاً في خط وحيد داكن. الهيكل الأمامي للأضلاع تقاطع مع الهيكل الأكثر شحوباً للظهر. فوق، عظما الترقوة تفرعا في كلا الجانبين وهيكل الكتف، مع المفصل وبداية ذراع يواكيم، ظهرت كلها واضحةً وعاريةً خلال الغلاف الخفيف للجسد. كان التجويف الصدري فاتح اللون، غير ان الأوعية الدموية كانت واضحة للعيان، بهيئة بقع داكنة، ظل مسوّد.

«صورة واضحة»، قال هوفرات، «نحول مقبول تماماً، هذا هو الشاب العسكري. لي كروش هنا ـ أنت لا تستطيع أن تدرك حقيقتها، أنت لا تكاد تميز شيئاً. الأشعة مع ذلك أُكتشفت وهي تخترق طبقات الدهون هذه. هذا عمل دقيق ونظيف. هل ترى الحجاب الحاجز؟» سأل، وأشار بإصبعه الى القوس الداكن في الشباك، الذي إرتفع وهبط. «هل ترى الإنتفاخات هنا في الجانب الأيسر، النتوءات الصغيرة؟ ذلك هو إلتهاب غشاء الجنب الذي أُصيب به حين كان غلاماً في الخامسة عشرة. تنفس بعمق»، أمر. «أعمق! بعمق، قلت لك!» وارتفع حجاب حاجز يواكيم مرتجفاً، أعلى ما أمكنه؛ الأجزاء العلوية من الرئتين كان بالوسع رؤيتها وهي تتضح، غير ان هوفرات لم يكن قانعاً. «ليست جيدة بدرجة كافية»، قال. «هل يمكنك مشاهدة الغدد اللمفاوية[١١]، هل يمكنك رؤية الإلتصاقات؟ أنظر الى التجاويف هنا، من

---

(١١) الغدد اللمفاوية hilus glands: الغدد اللمفاوية الواقعة عند منطقة السرّة في كلتا الرئتين ـ أنظر الهامش (٤٩) ـ المترجم.

هنا تأتي السموم التي تشوشه.» غير ان إنتباه هانز كاستورب كان قد خطفه شيء ما أشبه بكيس، بشكل حيواني غريب، واضح بنحو غامض خلف العمود الوسطي، أو أقرب الى الناحية اليمنى منه ـ يمين المشاهد. كان الكيس يتمدد وينقبض بانتظام أشبه إلى حد ما بطريقة سباحة قنديل بحر.

«أنظر الى قلبه» ورفع هوفرات يده الضخمة ثانية من فخذه وأشار بسبابته الى الظل النابض. أستغفر الله، انه القلب، انه القلب المُحب للشرف العائد لـ يواكيم، ذاك الذي رآه هانز كاستورب! «إني أتطلع الى قلبك»، قال بصوت مكبوت.

«استمر»، أجاب يواكيم من جديد؛ لعله إبتسم بأدبٍ هناك في الظلام. بيد ان هوفرات أخبره ان يتحلى بالهدوء وألا يُبدي أي قدر من الحساسية. بيرنز درس البقع والخطوط، والفسطون[١٢] الأسود في الحيز الكائن بين الأضلاع؛ في حين تطلع هانز كاستورب من دون ملل الى المظهر المقبور والمسكن العظمي لـ يواكيم، شعار الموت الأعجف هذا، هذه السِقالات التي يُعلّق عليها اللحم الميت. «أجل، أجل! فاهم! فاهم، فاهم!» قال مراراً. «يا إلهي؛ فاهم، فاهم!» سمع عن امرأة، رحلت عن العالم منذ أمد طويل ترتبط بآل تاينابيل برابطة نسب، كانت قد مُنحت موهبةً خطيرةً أو لعلها أُصيبت بها، والتي كانت تحملها بكل تواضع: وهي، ان الهياكل العظمية لأولئك الأشخاص الموشكين على الموت تتراءى لها. وهكذا منح هانز كاستورب الآن امتياز رؤية يواكيم الطيب، ولكن بمساعدة وتحت رعاية العلم الجسدي؛ وبموافقة شخصية من ابن خالته، وهكذا كانت شرعيةً تماماً ومن دون دلالة مخيفة. مع ذلك هيمنت عليه عاطفة معينة مع المصير الكئيب لقريبه المستبصر. تأثر تأثيراً بالغاً بما رآه ـ أو بصورة أدق، بالحقيقة التي رآها ـ وشعر باهتياجات الشك المضطرب، في ما إذا كان أمراً مسموحاً به فعلاً، وبريئاً، أن يقف هنا في الظلام المبطط والمفرقع وأن يحدق بهذه الطريقة؛

(١٢) الفسطون festoon: حبل من الزهور أو أشرطة أو أعلام متدلٍ بين نقطتين على سبيل الزينة؛ هنا إستعارة مجازية ـ المترجم.

ان تلهفه الى أن يرتكب العمل الطائش تضارب في صدره مع عاطفة دينية ومع مشاعر القلق.

لكن بعد دقائق قلائل وقف هو نفسه في المشهرة[١٣]، وسط العاصفة الكهربائية، بينما يواكيم، جسده أُغلق إغلاقاً تاماً من جديد، إرتدى ثيابه. ثانية حدّق هوفرات خلال الزجاج الحليبي، هذه المرة في داخل هانز كاستورب؛ ومن خلال أنصاف أقواله، ومقاطعه اللفظية المكسرة وانفجارات توبيخه، إستنتج الشاب ان ما رآه توافق مع توقعاته. كان لطيفاً جداً حين سمح للمريض، بحسب طلبه، أن ينظر الى يده من خلال الحاجب. ورأى هانز كاستورب، بالضبط ما توجب عليه أن يتوقعه، لكن ما لا يسمح للمرء برؤيته، وما لم يفكر بأنه يمكن أن يتلطفوا عليه برؤيته: دقق النظر في قبره هو. عملية التدمير أُحبطت بفعل طاقات أشعة الضوء، الجسد الذي تمشى به تفسخ، أُبيد، أُذيب في سديم شاغر، وهناك بداخله كان الهيكل العظمي ليده الذي إتخذ شكلاً جميلاً، الخاتم المنقوش الذي ورثه عن جده يتدلى مرتخياً وأسودَ في مفصل الخاتم ـ جسم مادي، صلب، بواسطته يزين المرء الجسم الذي شاء القدر أن يتلاشى تحته، حين إنتقل الى جسد آخر بوسعه أن يلبسه طوال مدة وجيزة لا غير. بعيني جدته الكبرى تاينابيل، العينان الثاقبتان، النبوئيتان، حدق الى هذا الجزء المألوف من بدنه، ولأول مرة في حياته أدرك انه سوف يرحل عن عالم الأحياء. ومع هذه الفكرة إكتسى وجهه بالتعبير الذي يرتسم عليه عادة حين كان يستمع الى الموسيقى: تعبير بليد نوعاً، نعسان، وورع، فمه نصف مفتوح، رأسه مائل الى كتفه.

قال هوفرات: «شبحي، ماذا؟ نعم، واضح ان فيه شيء شبحي.»

قُطع التيار. الأرض كفت عن الإرتجاج، والبروق توقفت عن العمل، والشباك السحري أُطفئ في العتمة. ظهر ضوء السقف. بينما كان هانز كاستورب يرتدي ثيابه بعجالة، أعطى هوفرات الشابين نتائج ملاحظاته، بلغة

---

(١٣) المشهرة pillory: آلة خشبية للتعذيب تُدخل فيها يد المجرم ورأسه إبتغاء التشهير به ـ المترجم.

غير تقنية، بسبب فكريهما العاديين. في حالة هانز كاستورب، بدا ان فحص العين أكد فحص الإذن بطريقة تضيف مجداً للعلم. رأى هوفرات البقع القديمة وكذلك الطازجة، و«الخيوط المجدولة» تمتد من الأنابيب القصبية بعيداً نوعاً داخل العضو نفسه ـ «خيوط مجدولة» ذات «عقد صغيرة». هانز كاستورب سيكون قادراً على رؤية نفسه في ما بعد في الصورة الفوتوغرافية الموجبة[١٤] التي سيهبونها له وتصبح ملكاً له. كانت كلمة الأمر: إهدأ، صبراً، إنضباط ذاتي رجولي، قِسْ، كُلْ، إستلقِ، إنتظرْ، واشرب شاياً. غادرا، هانز كاستورب، خرج وراء يواكيم، ناظراً من فوق كتفه. بإرشادٍ من التقني؛ كانت السيدة شوشا تدخل المختبر.

حرية

كيف يبدو ذلك الآن لشابنا هانز كاستورب؟ هل كانت الأسابيع السبعة التي، بصورةٍ واضحة ومن دون ظل من الشك، أمضاها هنا في الأعالي، مجرد سبعة أيام؟ أم، على العكس، هل بدت هي أطول بكثير مما كانت عليه في الواقع؟ سأل نفسه، سراً، وكذلك من خلال سؤاله يواكيم؛ لكنه لم يستطع أن يقرر. أغلب الظن ان كلا الأمرين كان صحيحاً: حين يعود بذاكرته الى الوراء، يبدو له الزمن طويلاً بصورة غير طبيعية وقصيراً بصورة غير طبيعية، أو بالأحرى يبدو أي شيء عدا ما كان عليه فعلاً ـ وبقولنا هذا نفترض ان الزمن ظاهرة طبيعية، ومن المسلّم به أن نضم معه مفهوم الفعلية.

على أية حال تشرين الأول (أكتوبر) على الأبواب، ربما يدخل أي يوم. هانز كاستورب بوسعه أن يحسب بيسر، وإستنتج النتيجة ذاتها من خلال تحاوره مع زملائه المرضى. «هل تعرفان انه في بحر خمسة أيام ستحل غُرّة الشهر ثانية؟»، سمع هرمينه كليفيلد تقول الى إثنين من رفاقها، الطالب راسموسين والشاب غليظ الشفتين الذي كان اسمه غانسير. كان ذلك بعد

(١٤) الصورة الفوتوغرافية الموجبة: في النص الإنجليزي diapositive ـ المترجم.

وجبة الغداء، وكان النزلاء يمضون الوقت بطريقة متمهلة مثرثرين في حجرة الطعام، مع ان الجو كان مثقلاً بروائح أطعمة الوجبة التي قُدمت تواً، بدلاً من أن يشتركوا في الاستراحة ـ العلاج لما بعد الظهر. «الأول من تشرين الأول، رأيته في التقويم الذي في المكتب. انه ثاني أول اكتوبر أمضيه في منتجع المتعة هذا. طيب، الصيف انصرم، طالما انه كان هناك صيف، أي ـ لقد كان حقيقة حيلة، كالحياة عموماً.» هزت رأسها، أرسلت تنهدة من رئتها الوحيدة، ودوّرت عينيها الغبيتين والبليدتي الحس نحو السقف. «إبتهج، راسموسين»، قالت وصفعت رفيقها على كتفه المنحنية. «إروِ لنا مزحاً قليلة!»

«لا أعرف كثيراً منها»، أجاب، وجعل يديه تتدليان بحرية كزعنفة السمكة أمام صدره، «وتلك التي أعرفها لا أستطيع أن أرويها، أنا متعب جداً طوال الوقت.»

«ولا حتى الكلب، أي كلب؟»، قال غانسير من خلال أسنانه، «[يريد أن يعمر طويلاً] ـ إذا تعين عليه أن يعيش هكذا».

ضحكوا وهزوا أكتافهم.

كان سيتيمبريني واقفاً على مقربة منهم، عود نبش الأسنان بين شفتيه. حين خرجوا قال لـ هانز كاستورب: «لا تصدقهم، أيها المهندس، لا تصدقهم حين يدمدمون. كلهم يفعلون هذا، بلا إستثناء، اعتادوا العيش هنا في الأعالي. هم يعيشون حياة متحررة من الإلتزام وعديمة الجدوى، ويتصورون أنفسهم مؤهلين للشفقة، ومبرءين من الإثم على مرارتهم، تهكمهم، وطبعهم الساخر. [منتجع المتعة هذا]، قالت. هل هو فعلاً منتجع متعة؟ في رأيي المتواضع انه كذلك، وبمعنى مشكوك فيه جداً، أيضاً. إذاً الحياة [حيلة] هنا في الأعالي في منتجع الملذات الحسية هذا! لكن دعهم ينزلوا الى هناك في الأسفل وسيكون سلوكهم الحياتي من النوع الذي لن يترك شكاً بأنهم يعتزمون العودة من جديد. التهكم، حقاً! صُن نفسك، أيها المهندس، من ذلك النوع من التهكم الذي يزدهر هنا في الأعالي، صُنْ نفسك بكل معنى الكلمة من تبني موقفهم الفكري حيثما لا يكون التهكم وسيلة مباشرة وكلاسيكية في فن الخطابة، لا يكون ملتبساً ولا حتى لحظة

واحدة بالنسبة للعقل السليم، انه يؤدي الى الفسوق، يغدو عائقاً أمام الحضارة، يغدو تجارة غير نظيفة مع قوى الرجعية، الرذيلة، والمذهب المادي. طالما ان الجو الذي نحيا فيه مؤات جداً بشكل جلي لمثل هذه الأورام الميزمية(١٥)، ويمكنني أن آمل، أو الأصح، ينبغي لي أن أخاف، أن تفهم ما أعنيه.»

في الواقع كلمات الإيطالي كانت من النوع بحيث ان الأسابيع السبعة الماضية، هناك في الأرض المنبسطة، ستكون صوتاً عقيماً بالنسبة لأذني هانز كاستورب. غير ان بقاءه هنا في الأعالي جعل عقله متفتحاً لها: متفتحاً بمعنى انه أدركها بعقله، إن لم يفهمها بعواطفه، وهذا يعني شيئاً أكثر. فمع كونه، جوهرياً، سعيداً لأن سيتيمبريني بعد كل ما مضى، استمر يحدثه، ينصحه، يرشده، ساعياً الى أن يرسخ تأثيراً في عقله، مع ذلك فهمه بلغ حداً بحيث كان نزاعاً الى انتقاد كلمات الإيطالي، وفي بعض الأحيان، بلغ حداً، امتنع عن الموافقة. «تصوّر» حدّث نفسه، «يتكلم عن التهكم كما يتكلم عن الموسيقى، سوف يقول لنا تواً ان التهكم مشبوه سياسياً ـ أي من اللحظة التي يكف فيها التهكم عن كونه [وسيلة مباشرة وكلاسيكية في فن الخطابة]. لكن التهكم الذي [لم يكن ملتبساً ولا حتى لحظة واحدة] ـ أي ضرب من التهكم سيكون هذا، أود أن أسأل، إذا تسنى لي أن أكون شجاعاً جداً كي أدلو بدلوي؟ سيكون عندئذ قطعة من الحذلقة المملة!» إذاً غليظ هو الشباب غير الناضج! يأخذ كل ما يمنح له، ويعض اليد التي تطعمه.

لكن بدا شيئاً خطيراً جداً أن يصوغ معارضته في كلمات. قصر نفسه في التعليق على ما قاله السيد سيتيمبريني عن هيرمينه كليفيلد، والذي وجده كلاماً غير نبيل ـ أو الأصح، كانت له أسبابه كي يرغب بأن يجده كذلك.

«لكن الفتاة عليلة»، قال. «هي مريضة بشكل خطير، بلا أدنى شك. لها الأعذار كلها كي تغدو متشائمة. ماذا تتوقع منها؟».

«المرض واليأس» قال سيتيمبريني، «هما عادة شكلان من الفسوق.»

---

(١٥) الميزمية miasmic: من الميزم وهو بخار عفن منبعث من مستنقع إلخ ـ المترجم.

«وليوباردي»[١٦]، فكّر هانز كاستورب، «الذي يئس مؤكداً من العلم والتقدم؟ ومعلمنا نفسه؟ هو مصاب بالعدوى أيضاً ويواصل العودة الى هنا، وكاردوتشي سيكون له مزحة عنه.»

بصوتٍ عالٍ قال: «أنت جيد! الفتاة قد ترقد في فراشها وتموت يوماً ما، وتسمي ذلك فسوقاً! عليك أن تجعل كلامك أوضح قليلاً. لو قلتَ ان المرض هو غالباً نتيجة منطقية للفسوق، ربما سيكون ذلك في الأقل شيئاً معقولاً.»

«معقولاً جداً في الواقع!» قال سيتيمبريني. «عجباً! إذا توقفتُ عند ذاك هل ستكون مقتنعاً؟»

«أو إذا قلت أن المرض قد يصلح ذريعة للفسوق - سيكون ذلك صحيحاً، أيضاً.»

«شكراً جزيلاً!»

«أما المرض [شكل] من أشكال الفسوق؟ أي انه لا ينشأ من الفسوق، بل هو نفسه فسوق. يبدو لي هذا مفارقة.»

«أتوسل إليك، أيها المهندس، لا تنسب إليّ أي شيء من هذا القبيل. أنا أحتقر المفارقات، أكرهها. كل ما قلته لك عن التهكم يمكنني أن أقوله من جديد عن المفارقات، ومزيداً منه. المفارقة هي الزهرة السامة للتصوف، هي السطح متقزح اللون للعقل المتعفن، أعظم أنواع الفسوق قاطبةً! فضلاً عن ذلك، ألاحظ أنكَ مرةً أخرى تدافع عن المرض -»

«كلا؛ ما تقوله يسترعي إهتمامي. انه يذكّرني بأشياء يقولها الدكتور كروكوفسكي في محاضرات الإثنين. هو أيضاً يفسر المرض العضوي كونه ظاهرة ثانوية.»

«هذا المثالي الخالص لا يكاد يقول ذلك.»

«ما عندك ضده؟»

---

(١٦) ليوباردي: شاعر غنائي إيطالي (١٧٩٨ - ١٨٣٧). كتاباته النثرية والأدبية تسودها الكآبة. اسمه الأصلي الكونت جياكومو ليوباردي - المترجم.

«ذاك فقط.»

«هل أنت ضد التحليل النفسي؟»

«ليس دائماً ـ أنا معه وضده، كلاهما بالتناوب.»

«كيف يسعني أن أفهم ذلك؟»

«التحليل كأداة تنوير وحضارة شيء جيد، طالما انه يهشم القناعات المنافية للعقل، يقوم بدور مذيب للإنحيازات الطبيعية، ويضعف السطوة؛ جيد، بكلمات أُخر، في كونه يحرر، ينقي، يهذب، يجعل العبيد مستعدين للحرية. لكنه سيء، سيء جداً، بما انه يقف عائقاً في طريق النشاط، لا يستطيع أن يكيف القوى الحيوية، يبتر الحياة من جذورها. التحليل يمكن أن يكون مسألة غير فاتحة للشهية إطلاقاً، بالقدر نفسه الذي يكون فيه الموت، ومعه يمكن أن ينتمي ـ متحالفاً مع القبر وتشريحه الكريه.»

«أيها الأسد، أنت جيد الزئير»، هانز كاستورب لم يتمالك نفسه من التفكير، كما كان يفعل عادة حين يلفظ السيد سيتيمبريني نفسه شيئاً تعليمياً. بصوتٍ عالٍ قال فقط: «هذي الأيام توجب علينا أن نخضع الى تشريح الأشعة السينية، تحت في الدور التحتاني ـ بيرنز أسماه كذلك، حين أخذ لنا الأشعة السينية.»

«أوه، إذاً أنجرتَ هذه المرحلة أيضاً؟ حسن؟»

«رأيت الهيكل العظمي ليدي»، قال هانز كاستورب وحاول أن يسترجع الشعور الذي تعاظم في داخله حين رأى يده. «هل طلبت منهم أن يروك يدك؟»

«كلا، ليس لي مثقال ذرة من الاهتمام بهيكلي العظمي. لكن ماذا كان رأي الطبيب؟»

«رأى [خيوطاً مجدولة] ـ خيوطاً مجدولة مع عقد صغيرة.»

«الوغد!»

«سمعتك تدعو هوفرات بيرنز بهذه الصفة من قبل، سيد سيتيمبريني. ماذا تعني بها؟»

«أؤكد لك ان النعت أُختير بصورة مدروسة.»

«لا، سيد سيتيمبريني؛ في هذه المسألة أجدك غير عادل. أعترف بأن للرجل عيوبه؛ اسلوبه في الكلام يغدو غير مقبول على المدى البعيد، ثمة شيء إجباري فيه، بخاصة حين يتذكر المرء انه يشعر بحزن هائل يجثم على صدره بسبب رحيل زوجته هنا في الأعالي. لكن يا له من رجل جدير بالاحترام والتقدير، بالرغم من كل شيء، هو المحسن للإنسانية المعذبة! التقيتُ به ذات يوم آتياً من عملية جراحية، استئصال جزئي للأضلاع، مسألة حياة وموت، كما تعرف. ذلك اللقاء ترك فيّ انطباعاً كبيراً، أن أراه آتياً بعد لحظات من عمل رائع يتطلب براعة، يكون فيه الرئيس. كان ما يزال دافئاً بسببه وأشعل سيجاراً كمكافأة. حسدته.»

«هذا شيء تستحق عليه الثناء. طيب، وعقوبتك؟»[17]

«لم يحدد وقتاً معيناً لها.»

«هذا شيء جيد أيضاً. والآن دعنا نلجأ الى علاجنا، أيها المهندس. كلٌّ الى مكانه.»

إفترقا عند باب غرفة رقم أربعة وثلاثين.

«أنتَ ذاهب الى السقف الآن، سيد سيتيمبريني؟ لا بد ان الأمر سيكون أكثر لهواً حين يستلقي المرء مع جماعة مما هو وحده. هل تتكلم معهم؟ هل هم أُناس لطيفون؟»

«أوه، هم ليسوا سوى بارثيين وسكيثيين.»

«تعني روساً؟». «روساً، ذكوراً وإناثاً»، قال سيتيمبريني، وإمتدت زاوية فمه قليلاً. «وداعاً، أيها المهندس.»

قال ذلك بخبث مُدبر، لا ريب. دخل هانز كاستورب حجرته مشوش الذهن. هل كان سيتيمبريني يعي حالته؟ في الأرجح، كان كالمعلم، كان يتجسس عليه، وكان يرى الى أية ناحية تتجه عيناه. كان هانز كاستورب غاضباً مع الإيطالي وكذلك مع نفسه، لأنه بسبب قلة ضبطه لنفسه شجع

---

(١٧) عقوبة sentence: المقصود هنا الحكم القضائي بالعقوبة الذي حدده رادامانثوس (أي الدكتور هوفرات بيرنز)، أي البقاء ـ المترجم.

التهجم. أخذ مواد الكتابة خاصته كي يحملها الى الشرفة ـ فقد أصبح الأمر الآن عديم النفع؛ رسالة البيت، الرسالة الثالثة، لا بد من كتابتها ـ وبينما هو يفعل ذلك إستمر في تحريك غضبه، متمتماً لنفسه حول هذا المتبجح ومفرمة المنطق، الذي يتدخل في أمور لا تعنيه، ويسقسق للفتيات في الشارع. شعر بأنه غير راغب في مجهود الكتابة، عازف الأرغن في الشوارع جعله ينفر من الكتابة تماماً، بتلميحه. لكن مهما كانت مشاعره، لا بد له من ملابس شتوية، مال، ألبسة قدم، ألبسة كتان ـ باختصار، كل ما يحتمل أن يجلبه معه، لو عرف انه آتٍ، ليس لمدة ثلاثة أسابيع صيفية قصيرة، بل مدة مكوث غير محددة والتي من المؤكد انها ستدوم كي تشمل شطراً من الشتاء ـ أو بالأحرى، إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار الإنطباعات الشخصية المتعلقة بالزمن السائدة هنا في الأعالي، ستدوم الشتاء كله، في الأرجح. هذا هو الشيء الذي ينبغي له أن يخبرهم به في البيت، حتى لو كان ذلك محض احتمال؛ يتوجب عليه أن يحكي القصة كلها، وأن لا يختلق، بعد الآن، الحجج لهم أو له.

بهذا المزاج، إذاً، كتب، متمرناً على الطريقة التي رأى يواكيم يتمرن عليها مراراً؛ بقلم حبر، في كرسيه المركب، يسحب ركبتيه الى الأعلى واضعاً حقيبة الأوراق والوثائق فوقهما. كتب على ورق الرسائل الخاص بالمؤسسة، التي احتفظ بذخيرة منها في جرار طاولته، الى جيمس تاينابيل، الذي يعد أقرب الأخوال الثلاثة إليه، وطلب منه أن يوصل الأنباء الى (القنصل). تكلم عن مصادفة غير سعيدة، عن شكوك ثبت انها مسوّغة، عن الرأي الطبي بأن الأفضل له البقاء في مكانه بعض الوقت، ربما الشتاء كله، طالما ان الحالات المرضية الشبيهة بحالته برهنت على كونها مستعصية أكثر من تلك التي بدأت بصورة مرعبة ومن المستحسن بصورة جلية أن نلاحق العدوى بنحو فعال وأن نستأصلها مرة والى الأبد. من وجهة النظر هذه، يعتقد هو، انها كانت حادثة سعيدة جداً. بحيث صادف أن أقبل هنا، وأن يُحث على الخضوع للفحص، فبخلاف ذلك كان سيبقى جاهلاً بعض الوقت بحالته، ويُخبر بها في ما بعد وبصورةٍ أكثر رعباً. في ما يتعلق بطول المدة

الزمنية التي ربما يحتاجها للعلاج، ينبغي لهم أن لا يندهشوا لسماع ان الشتاء كله ربما سينقضي بسهولة قبل عودته ـ باختصار، انه ربما لن يأتي قبل يواكيم. ان الأفكار المتعلقة بالزمن مختلفة هنا في الأعالي عن تلك التي يُؤمن بها عادة عن طول البقاء في الموضع كثير الينابيع المعدنية، أو في منتجعات العلاج العادية. ان أصغر وحدة زمنية، إذا جاز التعبير، هي الشهر، وان الشهر الواحد هو تقريباً ليس زمناً على الإطلاق.

كان الطقس بارداً، جلس بمعطفه، مع بطانية حول جسده، وكانت يداه باردتين. في بعض الأحيان يرفع بصره عن الورقة التي كان يغطيها بهذه المقاطع اللفظية المعقولة والمدرَكة، ناظراً الى المنظر الطبيعي الذي أمسى الآن مألوفاً جداً والذي لم يعد يراه: هذا الوادي الممتد بسلسلته المتراجعة من القمم عند المدخل ـ بدت شاحبة وزجاجية اليوم ـ بقاعه الساطع وكثيف السكان، الذي تلألأ حين أشرقت الشمس عليه وعلى منحدراته المكسوة بالغابات أو المرجية، التي تأتي منها أصوات أجراس ـ الأبقار. كتب براحةٍ متنامية، وساءل نفسه لماذا كان مرعوباً من الكتابة. ذلك انه بينما كان يكتب شعر أن لا شيء يمكن أن يكون أوضح من تقديمه للمسألة، وان هذا، لا ريب، سوف يُرحب به بإدراك تام في البيت. ان شاباً من طبقته وبظروفه نفسها يعمل لذاته حين يبدو ذلك مستحسناً؛ يغتنم فرصة التسهيلات التي كانت موجودة خصيصاً له ولأمثاله. لذا كان الأمر مناسباً. لو انه سافر الى البيت، سوف يجعلونه يعود من جديد حين يسمعون تقريره. طلب منهم أن يبعثوا له الأشياء التي يحتاجها. وفي الختام طلب منهم إرسال المال: ان صكاً شهرياً بثمنمائة مارك سوف يغطي النفقات كلها.

وقّع اسمه. إنتهى الأمر. الرسالة الأخيرة هذه كانت شاملة، غطت الحالة؛ ليس بوفق مفاهيم الزمن في الأسفل، ولكن بوفق تلك التي تم الحصول عليها هنا في الأعالي؛ أكدت هي [حرية] هانز كاستورب. كانت هذه كلمته هو، وإن لم يُعبّرْ عنها؛ لم يكن قد صاغ المقاطع اللفظية حتى في عقله، لكنه شعر بالمغزى الكامل لمعناها، حيث حدث له أن عرفه خلال بقائه هنا في الأعالي ـ مغزى ليس له علاقة بالمغزى السيتيمبريني ـ واهتز

صدره بذلك الرعب المستثار، الذي اكتسحه كالموجة، كما فعل ذلك من قبل.

كان رأسه حاراً بفعل الدم الذي تدفق إليه بينما هو يكتب، واحترق خداه. تناول المحرار من حامل المصباح خاصته وقاس حرارته، كما لو أراد أن يغتنم الفرصة. الزئبق ارتفع الى مائة درجة فهرنهايت.

«أنظر الى ذلك»، فكّر في قرارة نفسه؛ وأضاف حاشيةً لرسالته: «يجهدني نوعاً، مع ذلك، أن أكتب هذا. حرارتي بلغت مائة درجة فهرنهايت. أفهم ان عليّ أن أكون غاية في الهدوء، حالياً. عليكم أن تعذروني إن لم أكتب لكم باستمرار.» ثم إضطجع، ورفع يده ناحية المصباح الكهربائي، راحته الى الخارج، بينما كان يرفعها خلف حجاب المصباح. بيد ان نور النهار لم يتجاوزْ خطها الحياتي، بل بدت أكثر واقعية وغير شفافة مقارنةً بخلفيتها المكونة من الفراغ الساطع، حافاتها الخارجية وحدها كانت مضاءة بلون وردي. هذه هي يده الحية، التي اعتاد رؤيتها، استعمالها، غسلها ـ وليست تلك السِقالات الغريبة التي شاهدها عبر الحاجز. القبر الخاص بالتحليل النفسي الذي كان مفتوحاً آنذاك أُغلق من جديد.

نـزوات الـزئبق

بدأ تشرين الأول (أكتوبر) كالشهور الأخرى: دخولها، بحد ذاته، مسألة غير متباهية وصامتة، من دون علامات وصفات مميزة خارجية؛ كانت، إذا صح القول، تنسل بنعومة، وما لم تستمر أنتَ بالمراقبة عن كثب، تفلت من ملاحظتك تماماً. الزمن ليس له أقسام كي يسجل مروره، ليس ثمة عاصفة رعدية أو دوي أبواق كي يعلن بدء شهر جديد من شهور السنة. حتى حين يبدأ قرن جديد نحن الموتى وحدنا الذين نقرع الأجراس ونطلق النار من المسدسات.

بالنسبة لـ هانز كاستورب اليوم الأول من تشرين الأول (أكتوبر) واليوم الأخير من أيلول (سبتمبر) كانا متشابهين كحبتي بازلاء، كلاهما كان بارداً

وغير ودي بدرجة متساوية، والأيام التي تلتهما كانت الشيء نفسه. في الإستراحة ـ العلاج يستخدم المرء معطفه وكلتا البطانيتين من وبر الجمل، ليس فقط في المساء، بل في وقت النهار. الأصابع التي حملت الكتاب كانت متيبسة وندية، مهما كانت الوجنتان محترقتين، وكان يواكيم مغوياً بشدة للجوء الى كيسه الفرو، لكنه قاوم، كي لا يدلل نفسه هكذا في وقت مبكر من الفصل.

بعد ذلك بأيامٍ معدودات؛ على أية حال ـ أي، بين بداية الشهر ومنتصفه ـ وقع تغيير آخر: صيف ثانٍ بدأ، بإشراق جديد. مدائح أكتوبر الجبلي هذا، التي سمعها هانز كاستورب، لم تُغنَ عبثاً. فطوال اسبوعين ونصف تقريباً بهاءات النعيم كلها سادت الوادي والجبل، كل يوم بزَّ الآخر بالزرقة والصحو، والشمس اشتعلت بتلك القوة المباشرة بحيث شعر الجميع انهم مرغمون على أن يرتدوا أخف الملابس، أسماق الموصلين وسراويل الكتان طُرحت جانباً الآن. مظلات (الكنفا) الخفيفة المكيفة الخالية من المقابض كانت مطلوبة جداً، وثُبتت بوساطة وسائلها البارعة المكونة من الثقوب والأوتاد الى أذرع كراسي الاستلقاء؛ وحتى انهم شعروا بأن حمايتها كانت غير كافية مقابل سطوع منتصف النهار.

«أنا مسرور بكوني ما أزال هنا، من أجل هذا»، قال هانز كاستورب لإبن خالته. «كان المناخ رهيباً في بعض الأحيان، والآن يبدو كما لو ان الشتاء أصبح وراءنا، وإننا نتطلع فقط الى مناخ جديد». كان على حق. الواقع لم تكن هناك علامات كثيرة تشير الى الحالة الحقيقية للتقويم؛ وحتى تلك الموجودة لم تكن لتسحر العين. ناهيك عن أشجار البلوط القليلة التي كانت مزروعة في البلاتز، حيث استطاعت أن تعيش، وطرحت أوراقها بجزع قبل هذا الأوان، المنطقة كلها لم تكن تحمل أي أشجار نفضية كي تمنح المنظر الطبيعي مظهراً خريفياً؛ فقط جار الماء[١٨] الألبي الهجين، الذي يجدد ابره الناعمة كما لو كانت أوراقاً، أبدى صلعاً شتائياً. الأشجار الأخرى

---

(١٨) جار الماء alder: شجر حرجي يألف الماء ـ المترجم.

للمنطقة، سواء الباسقة أو معوقة النمو كانت أشجار صنوبر وتنوب دائمة الخضرة، لا تقهرها هجومات هذا الشتاء غير المنتظم، الذي من الجائز أن يبعثر عواصفه الثلجية خلال شهور السنة كلها: اللون الأحمر ـ الصدئ ذو الدرجات اللونية العديدة الذي يكسو الغابة وحده الذي أعطى ملاحظة بالرغم من أشعة الشمس المتوهجة، بسنة منتهية. مع ذلك، إذا نظرنا عن كثب، كانت هناك أزاهير برية، تنطق، مع انه برقة، أيضاً، بالمغزى ذاته؛ سحلب المرج، الحوضية الكثيفة لم تعودا في ريعانهما، فقط الجنطيانا وزعفران الخريف المتواضع اللذان يشهدان على الضراوة الداخلية للجو المُسخَن ظاهرياً، التي بوسعها أن تتغلغل الى عظم الإنسان وهو جالس، كالقشعريرة في الحمى، مع ان المرء يتوهج خارجياً من الحرارة الملتهبة للشمس.

هانز كاستورب لا يملك حساباً داخلياً للزمن، كما يفعل الرجل الذي يدخره، يلاحظ مروره، يقسّم ويحصي ويصنف وحداته. لم يلتفت الى الدخول الصامت للشهر العاشر، لكنه أُحتجز بوساطة إغرائه للحواس، هذه الحرارة المتوهجة التي أخفت الصقيع في داخلها وتحتها. كان إحساساً، لا يكن له مثيل بالدرجة ذاتها، لم يألفه من قبل ابداً، وقد حثه على التشبيه المطبخي الذي أخبر به يواكيم، إذ قال عنه «أومليت في مفاجأة»[١٩]، وهو يحمل ثلجاً مخفياً داخل الرغوة الحارة للبيض المخفوق. كان من دأبه أن يدلي بتعليقات كهذه، متحدثاً بطيش وهذر، كما يفعل المرء حين يصاب بقشعريرة الحمى. لكن بين حين وآخر كان يلتزم الصمت؛ لا ينبغي لنا أن نقول انه كان منهمكاً في شؤونه الذاتية، ذلك ان إنتباهه في الأرجح كان موجهاً الى الخارج، مع انه تركز على مسألة واحدة. بطريقة أخرى، سواء تعلق ذلك بالعالم الحي أو غير الحي، سبح حوله في سديم ـ سديم من صنعه هو، ولا ريب ان فسره هوفرات بيرنز والدكتور كروكوفسكي كونه نتاج السموم القابلة للذوبان، كما فعل المرتبك نفسه أيضاً، مع انه لا يمتلك أدنى طاقة أو حتى رغبة في أن يخلّص نفسه من الحالة التي أحدثتها السموم.

---

(١٩) omlete en surprice ـ بالفرنسية في النص الإنجليزي ـ المترجم.

فتلك هي حالة سُكر، يكون المرء ممسوساً بها، تحت تأثيرها لا يشمئز من شيء أكثر من التفكير بالرزانة. انها تؤكد نفسها ضد الانطباعات التي يمكن أن تضعف قوتها، فهي لن تقبل بها، بل تصدها كلها. كان هانز كاستورب واعياً، وقد تكلم أيضاً عن هذه الحقيقة، ان الصورة الجانبية لـ مدام شوشا لم تكن مسألتها القوية، وانها لم تعد فتيةً تماماً، بل هي حتى واضحة قليلاً. والنتيجة المنطقية؟ تجنب هو النظر إليها في صورتها الجانبية، وحرفياً أغمض عينيه حين لمح ذلك المنظر منها، حتى ولو من مسافة معينة؛ فقد كان ذلك يوجعه. لماذا؟ ألم يقفز العقل كي يغتنم اللحظة المؤاتية ليؤكد نفسه؟ ولكن ماذا كان سؤالنا؟ أمسى هو شاحباً مع النشوة حينما، مغويةً بوساطة المناخ الساطع، ظهرت عند الفطور الثاني في فستان الدانتيلا الأبيض الخاص بحفلة صباحية الذي جعلها تبدو ساحرة جداً ـ ظهرت متأخرة، رافقتها الضربة العنيفة للباب، باسمةً، ذراعاها مرفوعتان بوضع جميل، وقدمت نفسها هكذا الى حجرة الطعام قبل أن تنزلق الى مقعدها. لكنه لم يبتهج كثيراً جداً لأنها بدت فاتنة جداً، بل لأن سحرها أضاف الى السُكر الحلو في عقله، السُكر الذي أراد أن يكون، الذي إهتم فقط أن يكون، مسوَّغاً ومغذى.

إن أساس طريقة تفكير لودوفيكو سيتيمبريني ربما يُميز بكونه فسوقاً، كونه «شكلاً من أشكال الفسوق»، نقصاً معيناً في النية الطيبة. هانز كاستورب يفكر في بعض الأحيان في الأشياء الأدبية التي قالها الإيطالي عن المرض واليأس ـ والتي ألفاها مبهمة، أو في الأقل زعم لنفسه انه وجدها كذلك. تطلع الى كلاوديا شوشا ـ الى إرتخاء عنقها، وضع رأسها؛ شاهدها تأتي متأخرة كالعادة الى المائدة، من دون سبب أو عذر، فذلك ينم حسب عن نقص النظام والطاقة المنضبطة ـ رأى النقص نفسه حين كانت تسمح لكل باب تمر خلاله أن ينغلق بضربة قوية، حين كانت تشكل كريات الخبز عند المائدة، حين كانت تقضم أصابعها؛ وكان له شك، لم يصغه في كلمات، انها لو كانت مريضة ـ وكانت هي كذلك، عصية على الشفاء في الأرجح، طالما انها كانت هنا في الأعالي دوماً ومن زمن بعيد ـ كان مرضها في جزء

عريض منه، إن لم يكن كلياً، أخلاقياً: كما قال سيتيمبريني، ليس أساس ولا النتيجة المنطقية لـ«إرتخاء»ها، بل هو على وجه الدقة الشيء نفسه. تذكّر الإيماءة الراشحة بالإزدراء للمؤمن بالفلسفة الإنسانية حين تحدث عن «البارثيين والسكيثيين» الذين كان مرغماً على إداء الراحة ـ العلاج بصحبتهم. كانت إيماءة لا تدل على الإحتقار المدروس، بل على الإحتقار الطبيعي والغريزي؛ وذلك الإحساس كان مفهوماً تماماً بالنسبة لـ هانز كاستورب. ألم يحدث مرة، هو الذي كان يجلس منتصباً جداً الى مائدة ما، ان إشمئز من واحتقر ضرب الأبواب بقوة، ولم، ولم يجرب قضم أصابعه، لأنه من أجل تلك الغاية كانت ماريا هي البديل، ألم يحدث مرةً أن استولى عليه إستياء عميق بسبب السلوك الفظ للسيدة شوشا، وشعر بإحساس لا يُقهر بالتفوق حين سمع ضيقة العينين تحاول أن تتكلم لغته الأم؟

إن أحاسيسه في الآونة الحالية، على أية حال، نحت جانباً أياً من هذه العواطف؛ فالآن أمسى الإيطالي هو موضوع إنزعاجه، لأنه، في جهله، تحدث عن البارثيين والسكيثيين ولم يكن قد قصد بذلك الأشخاص الجالسين الى المائدة الروسية «السيئة». الطلبة كثيفو الشعر الذين لا يملكون ملابس كتانية، الذين جلسوا هناك يتجادلون باستمرار بلغتهم غير المألوفة، التي كانت كما هو واضح اللغة الوحيدة التي يعرفونها، والتي، بصفتها الرقيقة، اللافقارية، ذكّرتْ هانز كاستورب بالصدر الخالي من الأضلاع الذي وصفه له هوفرات بيرنز. حقيقة، ان تصرفات وعادات أولئك الناس ربما توقظ تواً مشاعر الإشمئزاز في فؤاد أي شخص يؤمن بالفلسفة الإنسانية. كانوا يأكلون بسكاكينهم، وبصورة لا يصح ذكرها يوسخون واجهات بلوزاتهم. شدد سيتيمبريني على القول ان أحدهم، وهو طالب طب جيد في تدريبه، كان جاهلاً تماماً باللغة اللاتينية، بحيث انه لم يكن يعرف ماذا تعني كلمة Vaccum[٢٠]. أما ما يتعلق بالزوج والزوجة في رقم اثنين وثلاثين، فالتجربة الشخصية لـ هانز كاستورب معهما كانت من النوع الذي جعل إشاعة السيدة

(٢٠) vaccum (باللاتينية): فراغ أو خواء ـ المترجم.

شتور معقولة، وهي انه حين دخل أستاذ الإستحمام حجرتهما صباحاً لغرض إجراء التدليك المعهود، إستقبلاه وهما مستلقيين في الفراش.

هذا كله ربما يكون حقيقياً جداً. لكن مع ذلك، الفارق بين «الجيد» و«السيء» كان جلياً، لم يكن موجوداً للاشيء. هانز كاستورب أقنع نفسه انه شعر فقط بالإزدراء نحو أي داعية للجمهورية ولـ «الأسلوب الجميل» الذي شرع وأنفه في الهواء، وبهدوء ـ بهدوء خاص، مع انه في الوقت نفسه كان محموماً ومشوشاً معاً ـ شرع يكتل أعضاء كلتا المائدتين معاً تحت لقب الباريثيين والسكيثيين، هانز كاستورب فهم جيداً جداً المعنى الذي استخدمه فيه، بما انه بدأ يفهم العلاقة بين مرض السيدة شوشا وبين «إرتخاء»ها. ولكن كما عبّر يوماً لـ يواكيم: يبدأ المرء بأن يكون غاضباً ومشمئزاً، ومن ثم فجأة «شيء مختلف تماماً يدخل» «ليس له علاقة بالحكم الأخلاقي»، وهذا يعتمد على صرامتك؛ فأنت ببساطة لست مطلعاً أتم الإطلاع على التأثيرات التعليمية، مهما كانت جمهورية، ومهما كانت فصيحة. لكننا، مرغمون على أن نسأل، أغلب الظن ثانية بروح لودوفيكو سيتيمبريني، أي ضرب من التجارب المشكوك فيها هو هذا، الذي يشل حكم الإنسان، أي إنسان، تسلبه تماماً من حق المطالبة به، أو حتى تجعله يتخلى عن ذلك الحق، ويجرب بفعله هذا الإنغماس في الإبتهاج الغامر؟ نحن لا نسأل عن اسمها ـ فذلك يعرفه الجميع. سؤالنا بالأحرى يشير الى صفتها الأخلاقية؛ ونحن نعترف اننا لا نتوقع أي جواب واثقاً جداً من نفسه. وفي حالة هانز كاستورب كانت طبيعتها واضحة الى الحد الذي لم يمتنع فيه عن إستخدام حكمه فقط، بل بدأ يجربه من ناحيته وعلى ثوبه الخاص المميت. حاول، مثلاً، أن يجرب شعوره حين يجلس الى طاولة ما وظهره كله مُسترخٍ، واكتشف ان ذلك يمنح إرتياحاً محسوساً للعضلات الحوضية. ثانيةً، ذاتَ يوم، بدلاً من أن يغلق الباب وراءه بصورة حريصة على الشكليات، جعله ينغلق بضربة عنيفة، وهذا أيضاً وجده ملائماً ومقبولاً؛ توافق هذا مع هز الكتفين الذي استقبله به يواكيم في المحطة، والذي كان شيئاً اعتيادياً جداً بين أولئك الساكنين هنا في الأعالي.

بإيجاز، كان مسافرنا غارقاً حتى أذنيه في غرام كلاوديا شوشا ـ ربما نستمر في استخدام التعبير الموجز، طالما اننا الآن تحاشينا أي سوء فهم محتمل بسببه. لقد رأينا ان جوهر عاطفته كان شيئاً يتعدى المزاج الرقيق والحزين لتلك الأغنية القصيرة والبسيطة التي تُقتبس عادةً: الأصح كان تنويعاً وحشياً ومتشرداً على العود الملتاع، كان مزيجاً من الصقيع والنار، كحالة مريض محموم، أو أشبه بجو تشرين الأول (أكتوبر) في هذه المرتفعات الشاهقة. الواقع ما كان ينقصه، فعلاً، هو الجسر العاطفي بين الطرفين. من ناحية كانت هناك رغبته الجنسية التي تركزت، بفورية جعلت الشاب شاحباً ومُربكاً، على ركبة السيدة شوشا، خط فخذها، عنقها، عظم رقبتها، ذراعيها اللتين تضغطان معاً نهديها الصغيرين ـ باختصار، تركزت على جسدها، جسدها الكسول، المبرز، المضخم بفعل المرض وأمست ضعفين على جسدها. ومن الناحية الثانية، كان ثمة شيء زائل جداً وغامض جداً؛ فكرة، لا، حلم، الحلم المرعب، المغري بنحو لا محدود لشابٍ كانت أسئلته غير المنطوقة، غير الواعية عن الكون بلا جواب عدا الصمت العميق. لنا ذلك القدر من الحق الذي يملكه الشخص الأقرب الى أفكارنا الخاصة حول القصة التي نحن بصددها؛ وسوف نجازف هنا بالحدس ان الشاب هانز كاستورب لم يتجاوز الحدود المثبتة أصلاً لبقائه إذا كان لشخصه البسيط ثمة تفسير يُتلطف به، من أعماق زمنه، تفسير مقنع ومعقول لمعنى حياة الإنسان وهدفها.

في ما يتعلق بالبقية، ان حالته الملتاعة وهبته الفرح كله والكرب كله المناسبين لها في العالم بأسره. الكرب شديد، كان له، كأي كرب عنصر غنغريني؛ انه يحطم الجهاز العصبي الى الحد الذي يحرم فيه المرء من النَفَس، وبوسعه أن يستقطر الدمع من عينيّ الإنسان البالغ. في ما يتعلق بالأفراح، كي ننصفها، كانت متنوعة، وليست ثاقبة أقل من الكرب، مع ان فرصتها ربما كانت تافهةً حقيقةً. تقريباً كل لحظة من يوم مصح بيرغهوف ربما تولّد سعادةً واحدةً. في سبيل المثال، وهو على وشك دخول حجرة الطعام، يدرك هانز كاستورب هدف أحلامه الماضية ـ وهي تجربة واضحة وبسيطة سلفاً، لكنها ساخرة داخلياً الى درجة ذرف العبرات. إلتقت عيونهم

عن كثب، عيناه وعيناها الرماديتان ـ الخضراوان، صاحبتا الشكل والموضع الشرقيين نسبياً إخترقتاه حتى النخاع. لم يكن قادراً على الفكرة المترابطة، لكنه تراجع بنحو غير واعٍ كي يعطيها الأسبقية بالمرور من خلال الباب. بنصف بسمة، بكلمة «ميرسي» نصف مسموعة، تقبلت كياسته وتجاوزته داخلة الغرفة. يقف هناك في كنف هالة شخصيتها وهي تمسه مساً رفيقاً، معتوهاً بسعادة اللقاء غير المتوقع، وبالكلمة التي أطلقها فمها مباشرة الى أذنه. يتبعها، يتحرك بتردد الى مائدته، ويعي وهو غارق في كرسيه، أن كلاوديا، وهي تتخذ مكانها أيضاً، إلتفتت لتنظر إليه. يعتقد هو انها تحمل تعبيراً كما لو انها تفكر في لقائهما غير المتوقع عند الباب. أوه، يا لها من مغامرةٍ لا تُصدق! أوه يا له من فرح، نشوة، عنفوان لا محدود! آه، لا، هذا السُكر بالسعادة الرائعة لم يستطع أن يجربه هانز كاستورب لدى رؤيته أي وزة صغيرة معافاة هناك في الأسفل في الأرض المستوية، التي من الجائز، بهدوء، بنحو لائق، وبنوايا محددة جداً، أن يكون قد «وهبها فؤاده»، وخصص لها العواطف الموصوفة في الأغنية. حيى مدرّسة الثانوية بمرح محموم ـ كانت قد رأت كل شيء، وكان خدها الغائر الهرم يحمل علامته الغسقية ـ ومن ثم أمطر الآنسة روبنسون بحوار إنجليزي، كان حواراً أخرق بحيث، هي التي لم تكن ضليعة في أمور الوجد، ارتدت باعتدال، وقاسته بعينين مرتابتين.

مرةً أخرى، بينما كانوا يجلسون الى وجبة المساء، الأشعة الصافية للشمس الآفلة سقطت على المائدة الروسية «الجيدة». كانت الستائر قد أُسدلت فوق النافذة وباب الشرفة، لكن في موضعٍ ما كان ثمة شق صغير، وخلاله وجد الوميض الأحمر طريقه، لم يكن حاراً، بل باهراً، وسقط على محيّا السيدة شوشا، لهذا سترت سحنتها بيدها بينما كانت تجلس متحدثة مع الرجل الريفي المقعر الجالس الى يمينها. كان وميضاً مزعجاً إنما لم يكن خطيراً، لم يتضايق أحد منه، أغلب الظن حتى الشقراء لم تنزعج منه. لكن عبر حجرة الطعام هانز كاستورب يراه ـ كان ساكناً طوال مدة وجيزة، شأنه شأن الآخرين. هو يفحص الوضع، يتعقب مسار شعاع الضوء، يعزم على

معرفة المكان الذي يدخل منه. يأتي من النافذة الناتئة في زاوية الجهة اليمنى، بين باب الشرفة والمائدة الروسية «السيئة»، على مبعدة مسافة جيدة من موضع السيدة شوشا، وعلى بُعد المسافة ذاتها عن موضع هانز كاستورب. من دون كلمة نهض عن كرسيه. منديل المائدة في يده، يتمشى بين الموائد، يسحب الستائر كريمية اللون بحيث تتراكب جيداً فوق إحداها الأخرى، أقنع نفسه من خلال نظرة محدقة من فوق كتفه بأن الشعاع الآتي من الشمس الغاربة قد مُنع من الدخول واستراحت السيدة شوشا، وبسيماء إتزان كامل رجع الى مكانه. شاب سريع الملاحظة، آلى على نفسه أن يقوم بكياسةٍ ضرورية أهملها الآخرون. لكن قلةً منهم فقط لاحظوا فعلته؛ السيدة شوشا، على أية حال، أحست فوراً بالإرتياح، إلتفتت، وظلت في هذا الوضع الى أن عاد هانز كاستورب الى مكانه، وجلس، متطلعاً إليها، حين شكرته، ببسمة ودية، مندهشة بعض الشيء، وبإنحناءة كانت أقرب ما تكون الى دفع الرأس الى الأمام مما هي ميلان للنصف العلوي من الجسم. عبّر عن شكره بإنحناءة مماثلة. توقف قلبه بسكون تام، بدا كما لو انه لم يعد يخفق. فقط حين إنتهى كل شيء بدأ قلبه بالخفقان من جديد، ودق، وآنذاك فقط أمسى واعياً ان يواكيم كان يصوّب نظراته مباشرة الى طبقه. في ما بعد، أيضاً، أدرك ان السيدة شتور قد لكزت الدكتور بلومينكول في جنبه، ونظرا في ما حولهما الى زملاء مائدتهما والى زملاء الموائد الأخرى، محاولين أن يلفتا أنظارهم.

هذه الملاحظات كلها عادية تماماً؛ لكن الملاحظة العادية تغدو لافتة للنظر حيث تنبجس من تربةٍ لافتةٍ. كانت هناك أوقات من التوتر وأوقات حين استرخى التوتر القائم بينهما بنحو مفيد ـ مع ان، ربما، التوتر القائم بينهما كان أقل مما هو في مخيلة هانز كاستورب المحمومة، فإلى أي مدى كانت مدام شوشا متأثرةً لا نستطيع سوى أن نخمن ذلك. في هذه الأيام ذات المناخ الجميل أغلب النزلاء يلجؤون الى الشرفة، بعد وجبة منتصف النهار، ويقفون في مجاميع، يشمسون أنفسهم، طوال ربع ساعة أو نحو ذلك، في مشهد يشبه كثيراً مشهد أوقات العصر في أيام الآحاد عندما تقام الحفلات

الموسيقية كل اسبوعين. كل هؤلاء الشبيبة، عاطلون تماماً عن العمل، أُتخموا بالطعام المؤلف من اللحم والحلوى؛ وبلا إستثناء محمومين ـ ثرثروا وقهقهوا، إنهمكوا في المغازلات، ورنوا بعيون الغرام. السيدة سالومون الآتية من أمستردام تجلس على الدرابزين، تضغط عليه بقوة من جهة اليمين ركبتا غانسير غليظ الشفتين، ومن اليسار ركبتا المعبود السويدي ـ الذي، كما يبدو، تماثل للشفاء تماماً، لكنه يطيل علاجه مدةً صغيرةً قبل ذهابه الى البيت. السيدة ألتيس كانت أرملة في الظاهر، ذلك انها تمتعت مؤخراً وحسب بزيارة «خطيب» ـ شخص كئيب، وضيع المنظر، لم يكن وجوده يمنعها من قبول ملاطفات الكابتن ميكلوسيش، ذي الأنف المعقوف، والعينين شديدتي الإحمرار، هو ذو الشاربين الكبيرين المشمعين والصدر المنتفخ. أشخاص جدد ظهروا على الدكة: سيدات من قوميات مختلفة من ردهات الإستراحة العمومية، وواصلون جدد منذ الأول من تشرين الأول (أكتوبر)، الذين لم يكد هانز كاستورب يعرف أسماءهم. وبعدها كان هناك فرسان من نوع السيد ألبين، فتيان في السابعة عشرة يلبسون النظارات أحادية الزجاجة، وشاب هولندي متورد الوجه، يرتدي عوينات له هوس بجمع الطوابع البريدية؛ بعض اليونانيين ذوو شعر مدهون بمرهم عطري وعيون شبيهة باللوز؛ نزعوا الى أن ينتشروا عند مائدة ما؛ وشابان شديدا التأنق كانا يلقبان بـ ماكس وموريتز، وكانت لهما شهرة عظمى كونهما ينتهكان الحدود. المكسيكي ذو المظهر الأحدب، الذي أعاره جهله بأي لغة عدا لغته الأم تعبيراً وجيهاً لرجل أطرش، أخذ صوراً فوتوغرافية لا حصر لها، ساحباً حاملاً ثلاثي القوائم من نقطة الى أخرى على الدكة. في بعض الأحيان يظهر هوفرات، ويمارس «عمله البارع» مع أشرطة جزمته. وفي مكانٍ ما في خضم الحشد يختبئ متوحداً الناذر نفسه للدين الآتي من مانهايم؛ هانز كاستورب يراقب باشمئزاز ليرى عينيه الكبيرتين الحزينتين وهما تسلكان طريقهما السري.

لكن لنعد، بوساطة المثل، الى بعض هذه التوترات والإجتهادات التي كانت حالة هانز كاستورب عُرضةً لها. كان شابنا جالساً على كرسي حديقة

مطلي بالدهان، ظهره الى الحائط، يتحدث مع ابن خالته، الذي أجبره هو، ضد إرادته، أن يأتي الى الخارج؛ أمامه، السيدة شوشا واقفة عند الدرابزين تدخن مع زملاء مائدتها. تحدث في صالحها؛ أدارت ظهرها. يواكيم لم يروِ ظمأه للحوار؛ لا بد انه يحتاج الى تعارف ما ـ مع مَنْ؟ لا يوجد غير هرمينه كليفيلد. وجه كلمةً غير مقصودة الى تلك السيدة الشابة، ثم قدّم نفسه وابن خالته بالاسم، وسحبا كرسياً آخر كي يواصلوا اللعبة. هل كانت تعرف، سأل، في أي شيطان من الرعب ألقته، في لقائهما غير المتوقع الأول، حين صفرت له تلك الـ «أهلاً وسهلاً» المشجعة؟ لم يكن ليبالي باعترافها انها بذلك حققت هدفها؛ شعر هو كما لو ان شخصاً ما ضربه على رأسه ـ ربما تسأل ابن خالته! كان يسمي ذلك إساءة، مخيفة المسافرين غير المؤذين بتلك الطريقة، مصفرّة لهم بإسترواحها الصدري! وهلم جرا وهكذا. يواكيم، كان واعياً تماماً بالدور الذي فُرض عليه، جلس وعيناه في الأرض؛ حتى الآنسة كليفيلد شيئاً فشيئاً أدركت من عين هانز كاستورب الذاهلة والتائهة، انها صُيّرتْ أداةً، وبسبب ذلك شعرت بالإشمئزاز. ومع ذلك، الفتى المسكين مضى يبتسم ابتسامات متكلفة ويشكل المقاطع اللفظية ويغير طبقة صوته، الى أن أفلح أخيراً وبشكل فعال في جعل السيدة شوشا تلتفت وتنظر في وجهه. ولكن فقط على مدى لحظة واحدة. عيناها، عينا بريبسلاف، انزلقتا بسرعة نازلة الى هيئته، بينما كان جالساً هناك يضع ركبة فوق الأخرى، بلا مبالاة مدروسة كان لها تأثير الإزدراء؛ توقفتا زمناً فوق جزمتيه الصفراوين، ومن ثم بإهمال، ربما مع ابتسامة في أعماقهما، إنسحبتا.

كانت تلك ضربة مُرة، مُرة. تحدث هانز كاستورب طوال مدة وجيزة، بصورة محمومة. بعدها، متيماً داخلياً بقوة تلك النظرة على جزمتيه، لزم الصمت تقريباً في منتصف كلمة ما، وانحدر تدريجياً الى إكتئاب عميق. الآنسة كليفيلد، ضجرة ومنزعجة، ذهبت في حال سبيلها. لاحظ يواكيم، ليس من دون إنزعاج، انهما ربما يصعدان الى الإستراحة ـ العلاج الآن. وأجابت روح كسيرة بصوت واهن انهما من الجائز أن يفعلا.

هانز كاستورب عانى كرباً جديداً بالشفقة طوال يومين. لم يحدث شيء

خلال ذلك الزمن ليكون بلسماً لجرحه الأليم. ماذا كانت تعني بنظرتها؟ لماذا، بإسم العقل، أصابته باحتقارها؟ هل كانت تعده مجرد شاب معافى مغفل من الأرض المنبسطة في الأسفل، والذي كان تفتحه بصورة مؤكدة من النوع غير المؤذي؛ شاباً ساذجاً، اعتيادياً، يجول هنا وهناك ضاحكاً ويكسب قوته اليومي ويملأ بطنه حتى التخمة؛ طالباً نموذجياً في مدرسة الحياة، من دون فهم لأي شيء عدا الحسنات المملة لسيرة جديرة بالإحترام؟ هل كان هو، سأل نفسه، مجرد سائح وضيف (الأسابيع الثلاثة) ذو نزوات، أم كان رجلاً أدى مهنته بصدد بقعة ندية، عضواً من أعضاء الجماعة، واحداً من أولئك المقيمين هنا في الأعالي، له رصيد شهرين ـ ألم يرتفع عمود زئبقه مساء أمس الى مائة درجة فهرنهايت؟ آه، هنا، حتى هنا، تقع القطرة المُرة التي جعلت كأسه يفيض: الزئبق كف عن الإرتفاع! الكآبة المخيفة لهذه الأيام كان لها تأثير مثبط، مُصحي، موهِن على جسم هانز كاستورب، الذي، ويا لغمه العميق، عرض نفسه في درجة مخفضةٍ من الحمى، لا تكاد ترتفع عن الحالة الطبيعية. كانت له التجربة الفظة في أن يبرهن لنفسه ان كربه كله، إكتئابه كله، ليس لهما نتيجة غير أن يبعداه أكثر عن كلاوديا وعما كان ضرورياً في حياتها.

اليوم الثالث جلب الإنعتاق المقدس. كان ذلك في وقت مبكر من صباح اكتوبري (نسبة الى أكتوبر) رائع الى حد إستثنائي، صباح مشمس وطازج. كانت المروج مكسوة بريش الطيور الفضي ـ الرمادي. الشمس والقمر الذي دخل في المحاق كلاهما يتدلى عالياً في سماء صافية. إبنا الخالتين كانا في الخارج في وقت أبكر من المعتاد، قاصدين أن يُجلا المناخ من خلال إطالة مسيرتهما الصباحية مسافة أبعد من الحدود الموصوفة لهما، ومواصلة المشي في درب الغابة وراء المصطبة الواقعة عند المجرى المائي. منحنى يواكيم، أيضاً، أظهر مؤخراً انخفاضاً ساراً؛ وعلى أثر ذلك اقترح هذه الجولة المخالفة للقواعد والمنعشة، وهانز كاستورب لم يقل لا.

«يبدو اننا تماثلنا للشفاء» قال، «ليس عندنا حرارة، خاليان من العدوى، في الواقع ناضجان للعودة الى العالم من جديد. لماذا لا نقوم بمحاولتنا؟»

بدءآ جولتهما بعصوَي المشي وحاسري الرأسين ـ فبسبب «مهنته» هانز كاستورب كيّف نفسه للطقس السائد، بالرغم من التوكيد الأصيل لتقاليده ذات العقل المعارض. لكنهما لم يغطيا بعد المرتقى الأولي للدرب الضارب الى الإحمرار، بل وصلا فقط تقريباً الى تلك النقطة حيث إلتقى المبتدئ مرةً الطاقم الهوائي لقاءً غير متوقع، حين شاهدا على مبعدة مسافة معينة أمامهما، السيدة شوشا تصعد على مهل، مجللة بالبياض، بكنزة صوفية بيضاء وتنورة بيضاء من الفلانيلة، وحذاءين أبيضين. شعرها الأحمر ـ الأشقر ومض في شمس الصباح. كي نكون دقيقين، هانز كاستورب رآها، يواكيم وعى وجودها من خلال إحساس غير مُرضي بأنه سُحب وجُرَّ من قبل ابن خالته، الذي إنطلق يخطو خطوات سريعة، بعد ان كاد يتوقف فجأة على الدرب. يواكيم ألفى الإكراه مزعجاً الى أقصى حد. نفَسَه أمسى أقصر، شرع يسعل، هانز كاستورب، عيناه على هدفه، وجهازه التنفسي ظاهرياً في وضع رائع، أعار إنتباهاً قليلاً؛ ويواكيم، وقد ميز الموقف وحيثياته، زوّى ما بين حاجبيه وجارى خطوة بخطوةٍ، شاعراً ان من المستحيل أن يدع ابن خالته يمضي وحده.

الصباح المحبب الى القلب جعل هانز كاستورب مفعماً بالحيوية والنشاط. وروحه، في مدة الكآبة السوداء تلك، إستجمعت سراً طاقتها. شعر بحدس مؤكد انه آن الأوان لوضع حد للتحريم. غذَّ الخطى، ساحباً يواكيم اللاهث والممانع في موكبه، وكانا في الواقع قد تجاوزا السيدة شوشا، عند النقطة التي أصبح فيها الدرب مستوياً وإستدارا يميناً على طول الهضبة الصغيرة المحرّجة. هنا خفف الشاب من سرعة مشيه، كي لا ينقطع نفسه خلال مجهوده في تحقيق غرضه. وراء منعطف الدرب مباشرة، بين جبلٍ وجرف، حيث إنسل ضوء الشمس عبر الأغصان الرئيسة لشجر التنوب الذي بلون الصدأ، الواقع أن المعجزة حدثت هناك، بحيث أن هانز كاستورب، على يسار يواكيم، أدرك الشقراء الهشة، أمسى جنبها بمشية رجالية، ومن ثم، في اللحظة التي أمسى فيها بجانبها، الى يمينها، حياها بإمالة دالة على الإحترام العميق من رأسه الحاسر، وتمتم «صباح الخير»

وردت هي بإنحناءة ودية ولم تُبدِ ذرةً واحدة من الدهشة، ثم قالت «صباح الخير» بلغة هانز كاستورب الأم وابتسمت بعينيها. وهذا كله كان شيئاً مختلفاً، شيئاً مختلفاً بصورة جوهرية ومقدسة عن تلك النظرة التي تطلعت بها الى جزمتيه ـ كانت تلك هدية قدر، انعطافة منقطعة النظير في الأمور، سعادة بعيدة جداً عن الإدراك، كانت الإنعتاق المقدس.

منتشياً بتلك الكلمة، النظرة، والبسمة، نصف معميٍّ بسعادته التي لا معنى لها، جعل هانز كاستورب يمشي على قدمين مجنحتين، حاثاً يواكيم الذي أساء معاملته على الإسراع معه، يواكيم لم ينبس ببنت شفة، وأشاح بوجهه ناظراً الى الموضع شديد الإنحدار. كانت مناورة من نوع عديم الضمير تقريباً؛ في نظر يواكيم، كما عرف هانز كاستورب جيداً، كانت شديدة الشبه بالخيانة. مع ذلك لم تكن الشيء نفسه كإستعارة قلم رصاص يعود لإنسان غريب تماماً؛ بوسع المرء أن يقول انه شيء ينم عن سوء التربية أن يتجاوز المرء امرأة سكن معها طوال شهور عدة تحت سقف واحد من دون أن يلقي تحيةً عليها. كانا أيضاً قد تحاورا معها، تلك المرة في حجرة الإنتظار. لذلك لم يكن يواكيم قادراً على قول شيء ما؛ غير ان هانز كاستورب كان يعرف سبباً آخر جعل ابن خالته المحب للإحترام يسير صامتاً برأس مشاح جانباً، بينما كان هو نفسه سعيداً بدرجة قصوى، فرحاً كل الفرح، بنجاح مناورته. ما من رجل هناك في الأرض المنبسطة في الأسفل «منح فؤاده» الى أوزةٍ صغيرة عادية معافاة، كان ناجحاً في طلب اليد للزواج، وجرّب كل المسرات التقليدية والتوقعية المناسبة لحالته، لا يستطيع رجل كهذا أن يغدو أكثر سعادة، لا، ولا حتى نصف سعيد، مثل هانز كاستورب الآن بسبب هذا الإبتهاج المؤقت الذي إنتزعه إنتزاعاً. ـ وهكذا، بعد برهة من الزمن، ربت على كتف ابن خالته باخلاص وبادره بالقول: «مرحباً، ما بك؟ أليس طقس اليوم رائعاً الى حد إستثنائي؟ دعنا ننزل الى (الكورهاوس) في ما بعد، ستكون هناك في الأغلب موسيقى. ربما سيعزفون تلك المقطوعة من (كارمن). ـ ما هي المسألة؟ هل تغلغل شيء ما تحت جلدك؟»

«لا»، أجاب يواكيم. «لكنك تبدو حاراً جداً، أخشى أن يكون المنحني خاصتك قد ارتفع من جديد.»[٢١]

نعم، ارتفع. التحية التي تبادلها مع كلاوديا شوشا تغلبت على الكآبة المميتة التي هيمنت عليه من قبل، ففي العمق كان الوعي بذلك هو مصدر ومبعث سرور هانز كاستورب. نعم، نعم، كان يواكيم على حق، الزئبق إرتفع من جديد: حين إستشاره هانز كاستورب، لدى عودتهما من الجولة الصباحية، كان قد صعد الى درجة ١٠٠,٤ فهرنهايت.

موسوعي

إذا كانت بعض التلميحات من جانب السيد سيتيمبريني قد أغاظت هانز كاستورب، فالإنزعاج هذا لم يكن مبرراً أبداً، وكذلك شعوره بأن مدرّسة الثانوية كانت تتجسس عليه. ان رجلاً أعمى لا بد أن رأى كيف جرت الأمور مع الشاب؛ هو نفسه لم يفعل شيئاً ليخفي حالته، ان بساطة معينة فطرية ورفيعة منعته من فعل ذلك. كان يميل بالأحرى الى أن يظهر مشاعره بشكل صريح، بالمقارنة ـ إذا شئت، بالمقارنة التي في صالحه ـ مع الناذر نفسه للدين من مانهايم، بشعره الخفيف وسحنته الماكرة. لكننا عموماً نؤكد على الحقيقة القائلة ان الناس في حالة هانز كاستورب بانتظام يشعرون بتوقٍ شديد الى البوح الذاتي[٢٢]، وبدافعٍ للإعتراف بما يختلج في نفوسهم من لواعج، وباستغراق أعمى مع النفس، وبعطش الى امتلاك عالم عواطفهم الخاصة، وهو الشيء الأكثر كرهاً للمتفرج الوقور، والأقل إحساساً، حصافة، أو يأملون ان المسألة كلها تكمن في هذا.

كيف يستمر الناس في هذه الحالة في خداع أنفسهم شيء يشق تعريفه؛ لكن يبدو انهم لا يقدرون أن يفعلوا أو يتركوا من غير فعل أي شيء لن يكون

---

(٢١) المقصود هنا منحني (curve) الحرارة ـ المترجم.

(٢٢) البوح الذاتي Self-revelation: بوح المرء بأفكاره ومشاعره، وبخاصة من غير تعمد أو قصد ـ المترجم.

له ذلك التأثير ـ بصورة مضاعفة، إذاً، في مجتمعٍ كمجتمع مصح بيرغهوف، حيث، كما وصفه سيتيمبريني ذو العقل الإنتقاديّ ذات مرة، الناس تتملكهم فكرتان، وفكرتان لا غير: الحرارة ـ ومن ثم الحرارة ثانية. بالحرارة الثانية كان يعني الاستغراق في مسائل معينة، في سبيل المثال، المسألة التي كانت تسلي بها السيدة القنصل ـ الجنرال فورمبرانت من فيينا نفسها بسبب إرتداد الكابتن ميكلوسيش باراوانت من دورتموند، أو كليهما. الجميع يعرفون ان العلاقة بين المحامي والسيدة سالومون من امستردام بعد ان استمرت شهوراً عدة، انقطعت بموافقة الطرفين، وان السيدة سالومون أطاعت نزعة زمن حياتها وعاشرت الفتى الغر. غانسر غليظ الشفتين من مائدة هرمينه كليفيلد أمسى الآن تحت جناحها، وقد اتخذته «مُلكاً وصوناً»، كما عبّرت السيدة شتور بلغة قانونية لا تخلو مع ذلك من حدة الذهن ـ وهكذا كان المحامي باراوانت حراً في إما أن يتشاجر أو أن يتفق مع السويدي على وصال السيدة القنصل ـ الجنرال، إذ بدا له ذلك مستحسناً.

هذه المسائل إذاً ـ التي لعب فيها، بالطبع، المرور على طول الشرفات في نهاية الحواجز الزجاجية دوراً كبيراً ـ كانت ذائعة في مجتمع مصح بيرغهوف، بخاصة بين الشباب النشيطين. إحتلت عقول الناس، كانت خاصية بارزة للحياة هنا في الأعالي ـ وحتى في قولنا هذا نحن بعيدون جداً عن التعريف الدقيق لها. هانز كاستورب، في ما يخص هذا الموضوع، تسلم انطباعاً استثنائياً: وهو ان ثمة حقيقة جوهرية من حقائق الحياة، خوّلت العالم فوق ليكون ذا أهمية عظمى، وكانت موضوعاً خصباً للتلميح المستمر، في الجد والهزل معاً، وان هذه الحقيقة الجوهرية من حقائق الحياة حملت هنا في الأعالي توكيداً متغيراً تماماً. كانت عظيمة الأهمية مع أهمية جديدة، كانت لها نبرة، قيمة، أهمية جديدة كل الجدة ـ الأمر الذي وضع الحقيقة ذاتها في ضوءٍ ما كي يجعلها تبدو مرعبةً أكثر مما كانت عليه من قبل. حتى هذه النقطة، كلما أشرنا الى أي من التصرفات المشكوك فيها في بيرغهوف، فقد فعلنا ذلك في ما يمكن أن يبدو نبرة خفيفة وهازلة؛ هذا لا يخلو من إنحياز لفكرتنا الحقيقية في ما يتعلق بالطيش، أو بطريقة أخرى، فيما يتعلق

بالتصرفات، وبالأسباب الغامضة المألوفة وحدها التي تحفز الناس الآخرين على أن يتخذوا الطريقة ذاتها. لكن في الواقع، تلك النبرة كانت غير مألوفة في عالمنا الحالي مما هي عليه في أي مكان آخر من العالم. هانز كاستورب عدَّ نفسه عارفاً جيداً بالموضوع الذي أسميناه آنفاً «حقيقة من حقائق الحياة»، والذي كان في كل زمان ومكان هدفاً أثيراً لرماح السخرية. وربما كان على صواب في اعتقاده هذا. أما الآن فقد وجد ان المعرفة التي كان يمتلكها في الأرض المنبسطة في الأسفل غير كافية أبداً، وانه كان فعلاً في حالة من الجهل البسيط. ذلك ان عواطفه الشخصية في زمن مكوثه هنا في الأعالي ـ التي كنا نشعر بالألم ونحن ننوّر القارئ الكريم بطبيعتها، والتي كانت من الشدة كي تنتزع من الشاب تلك الصرخة «أوه، يا إلهي!» ـ فتحت عينيه، جعلته قادراً على سماع وفهم المفتاح[٢٣] الوحشي، المرهِق، المجهول، والمتقن الذي وضعت فيه كل «القضايا» هنا في الأعالي. هذا لا يعني، حتى هنا في الأعالي، انهم لا يصنعون النكات حول هذا الموضوع. لكن هنا في الأعالي، أكثر بكثير مما هو تحت في الأسفل، بدت النكات في غير محلها. تجعل أسنان المرء تصطك، وتقطع نَفَسه، كشفت خططها الحقيقية بصورة جلية تماماً، تنكر رقيق وواضح لانفعال شديد مخفي ـ أو بالأحرى، انفعال شديد يستحيل إخفاءه. هانز كاستورب يتذكّر جيداً الشحوب المرقش لجلد يواكيم حينما، للمرة الأولى والوحيدة، لمّح الى المفاتن الجسدية لـ ماروسيا بالنبرة الخفيفة التي ربما تظاهر بها في مدينته. تذكّر الإنسحاب البارد للدم من سحنته، عندما سحب الستارة كي يحمي مدام شوشا من الشمس؛ كان يعرف انه رأى النظرة ذاتها على وجوه أُخر هنا في الأعالي، رآها قبل ومنذ ذلك الحين ـ لاحظها عادة في أزواج، في سبيل المثال، على وجهي السيدة سالومون والشاب غانسر، في بداية تلك العلاقة بينهما التي وصفتها السيدة شتور بفرح غامر. هانز كاستورب، نقول، تذكر ذلك كله، وأدرك انه في ظل هذه الظروف لم يكن فقط عسيراً جداً عليه أن لا «يكشف خططه الحقيقية»،

---

(٢٣) المقصود هنا مفتاح الرموز key ـ المترجم.

بل ان المجهود لم يكن ليستحق أوجاعه. بكلمات أُخرى، ليست وحدها البساطة النبيلة التي أضفت عليه الشرف، بل أيضاً ثمة شيء عاطفي موجود في الجو حثه على أن لا يكون عنيفاً مع عواطفه أو أن يخفي سراً من أسرار حالته.

كان يواكيم، كما نعرف، قد تحدث مبكراً عن صعوبة التعارفات الشخصية هنا في الأعالي. هذا نابع بشكل رئيس من الحقيقة القائلة ان إبني الخالتين كوّنا مجموعةً مصغرةً جداً من نفسيهما، في مجتمع المنتجع؛ ولكن أيضاً بسبب أن يواكيم البطولي لا يعقد العزم على شيء غير الشفاء العاجل، ومن هنا رفض على وفق هذا المبدأ أي تماس مباشر أو أي علاقات إجتماعية أخرى مع زملائه المعذبين. ان موقفه هذا منع ابن خالته من كشف مشاعره بمزيد من الصراحة للعالم عموماً. مع ذلك، حل مساء عندما رأى يواكيم ابن خالته مركز مجموعة مؤلفة من هيرمينه كليفيلد، غانسر، راسموسين، والشاب ذي النظارات أحادية الزجاجة وإظفر اليد، يتحدث حديثاً مرتجلاً عن موضوع بنية وجه السيدة شوشا الخاصة والغريبة جداً، وكشف خططه الحقيقية بصوته غير المستقر وبالبريق المستثار لعينيه، الى ان أخذ مستمعوه يتبادلون النظرات في ما بينهم، لكز أحدهم الآخر وضحكوا ضحكات مكبوتة.

كان هذا شيئاً مؤلماً بالنسبة لـ يواكيم؛ غير ان موضوع مرحهم بدا لا مبالياً بكشفه لخططه الحقيقية؛ لعله شعر ان حالته إذا أُخفيت ولم تؤخذ بنظر الإعتبار، فإنها لن تصل الى أي إثبات. لعله يعتمد، على أية حال، على فهم عام لها، وفي ما يتعلق بالمكر المحتوم الذي يرافقها، اعتبر ذلك شيئاً أكيداً. الناس، ليس أولئك الجالسين الى مائدته حسب، بل أولئك الجالسين الى الموائد المجاورة أيضاً، تمتعوا برؤيته يتورد ويكسوه الشحوب حين ضُرِب الباب الزجاجي بعنف. وحتى هذا سرّه؛ كان ذلك أشبه ببرهان خارجي وتوكيد على خوفه الباطني، الذي بدا محسوباً كي يعزز علاقته الغرامية، ويشجع أمانيه المبهمة وعديمة المعنى. وهذا ما جعله أيضاً سعيداً. وصل الأمر إلى ان الناس وقفوا فعلاً في مجموعات كي يراقبوا الشاب المتيّم ـ بعد الغداء، على الدكة، أو في عصر يوم أحد أمام كوخ الحمال، حين يتم توزيع

الرسائل، ذلك انها في ذلك اليوم لا تُحمل الى حجرات المرضى. كان معروفاً على العموم بكونه مضى شوطاً بعيداً جداً، سكراناً مثل لورد ولم يكترث مَنْ الذي عرف بذلك. السيدة شتور، الآنسة إنجيلهارت، هرمينه كليفيلد وصديقتها الفتاة بالوجه التابيري، السيد ألبين، الشاب ذو إظفر اليد، وربما نزلاء آخرون ـ يقفون معاً ويراقبونه؛ زوايا أفواههم مسحوبة الى الأسفل، يضحكون باعتدال، بينما هو، المخلوق المسكين، وجهه متوهج بالحرارة التي من الأول لم تغادره، الفارس النبيل إضطرم سعاله، يحدق بعينه المتألقة، يبتسم ببؤس وباهتياج شديد، في إتجاه معين.

كان حقاً شيئاً رائعاً من السيد سيتيمبريني، في ظل هذه الظروف، أن يصعد الى هانز كاستورب، ويشركه في محاورة، ويسأله عن حالته الصحية. لكنه أمر مشكوك فيه ما إذا كان الشاب يعرف كيف يقيّم ويكون شاكراً لمثل هذا العمل الخيري وهذا التحرر من التحيز. عصر يوم أحد كان النزلاء يحتشدون حول كوخ الحمال، مادين أيديهم لتسلّم الرسائل. كان يواكيم بين أولئك الواقفين في الطليعة؛ غير ان هانز كاستورب كان واقفاً في المؤخرة، يحتال، بحسب الطراز الذي وصفناه، من أجل الحصول على نظرة من كلاوديا شوشا. كانت واقفة على مسافة قريبة، بين مجموعة من زملاء مائدتها، تنتظر ريثما يخف الازدحام حول الكوخ. كانت ساعةً اختلط فيها المرضى كلهم، ساعة غنية بالفرصة، ولهذا السبب كانت ساعةً محبوبة من قبل شابنا. الاسبوع الماضي، وقف عند النافذة قريباً جداً من مدام شوشا بحيث انها احتكت به، وبعدها، بانحناءة صغيرة، قالت: «معذرة». بينما هو، بحضور فعال للعقل الذي شكر عليه طالعه، رد قائلاً: «لا شيء، مدام.»

يا له من نظام إداري مزعج، فكّر هو، بحيث يجب أن يكون هناك توزيع منتظم عصر الأحد للرسائل! قد يقول المرء انه أمضى الاسبوع في إنتظار تسليم الاسبوع المقبل. والانتظار يعني الإسراع في الطليعة، يعني التفكير في الوقت واللحظة الحالية ليس كنعمة، بل كعائق؛ انه يعني جعل محتواها الحقيقي عديم القيمة وعقيماً، من خلال إهمالها فكرياً. الانتظار، نقول، طويل. ربما تقول انه أيضاً ـ أو بصورة أدق ـ قصير، طالما انه

إستغرق كل مديات الزمن من دون أن نحياها أو نستفيد منها بتلك الطريقة. لعلنا نشبه الشخص الذي يحيا على التوقع برجل شره، يخمر جهازه الهضمي كمياتٍ من الطعام من دون أن يحوّله الى أي شيء ذي قيمة أو تغذية مفيدة لجسمه. ربما نبالغ قليلاً فنقول انه، طالما ان الطعام غير المهضوم لا يجعل المرء أكثر قوة، زمناً كهذا أمضاه في الانتظار لن يجعله أكبر سناً. لكن عملياً، بطبيعة الحال، ليس هناك شيء كالإنتظار الخالص والصرف.

حسن، الاسبوع أُلتهم نوعاً، وجاءت مرة ثانية الساعة المخصصة لتسليم بريد عصر الأحد، كانت شديدة الشبه بساعات الآحاد المنصرمة من دون أي اختلاف على ما يبدو. يا للفرص المثيرة التي وهبتها تلك الساعة، يا لإحتمالات النجاح التي أُخفيت ضمنها والمتعلقة بإقامة علاقات اجتماعية مع السيدة شوشا! احتمالات جعلت فؤاد الشاب هانز كاستورب يثب ويتقلص، سمع ذلك من دون أن تسفر عن عمل؛ ذلك انه تقف ضد عملها هذا عوائق معينة تمتاز بطبيعة جزئياً عسكرية، وجزئياً مدنية. بكلمات أخرى، كانت هي جزئياً ثمرة حضور يواكيم، جزئياً نتيجة الوخزات الأخلاقية لضمير هانز كاستورب؛ لكن أيضاً، جزئياً، إرتكزت على حدسه الأكيد بأن العلاقات الإجتماعية مع السيدة شوشا، العلاقات المتمسكة بالعُرف، التي ينحني فيها المرء ويخاطبها بكلمة (مدام)، ويتحدث معها بالفرنسية قدر الإمكان، لم تكن الشيء المقصود أبداً، لم تكن ضرورية ولا مستحسنة. وقف وشاهد ضحكتها وهي تتكلم، بالضبط مثلما كان بريبسلاف هيبه يقهقه وهو يتكلم، تلك المرة في فناء المدرسة: فتحت فمها واسعاً بعض الشيء، وعيناها المائلتان، الرماديتان ـ الخضراوان تضيقان نفسيهما الى لوزتين فوق عظام وجنتيها. كان ذلك، للعلم، غير «جميل»، لكن حين يكون المرء عاشقاً مدنفاً، الحكم الجمالي يُعد صغيراً كالحكم الأخلاقي.

«أنتَ تتوقع رسائل رسمية مهمة[٢٤]، حضرة المهندس؟»

شخص واحد فقط بمستطاعه أن يتكلم هكذا ـ وهو معكّر طمأنينة هانز

---

(٢٤) رسالة رسمية مهمة dispatch: يحملها موفد دبلوماسي أو ضابط عسكري ـ المترجم.

كاستورب. الشاب جفل والتفت الى السيد سيتيمبريني، الذي كان واقفاً هناك مبتسماً البسمة الجميلة الإنسانية ذاتها التي إرتسمت على ملامحه حين حيى القادم الجديد، عند المصطبة الواقعة عند المجرى المائي. الآن، كما في تلك المرة، جرحت البسمة مشاعر هانز كاستورب. نحن نعرف كم مرة، في أحلامه، حاول أن يُبعد عازف الأرغن اليدوي في الشوارع كونه عنصراً مزعجاً لطمأنينته؛ غير ان الرجل اليقظان معنوي أكثر من الرجل النائم، وكما في السابق، رؤية تلك البسمة لم يكن لها فقط تأثير مسبب للصحو على هانز كاستورب، بل منحته إحساساً بالعرفان بالجميل، كما لو انها إستجابت لحاجته.

«رسائل رسمية مهمة، سيد سيتيمبريني؟ أستغفر الله، لست سفيراً! عسى أن تكون هناك بطاقة بريدية لأحدنا. ابن خالتي يسأل عن ذلك.»

«ذلك الشيطان على العصوين هناك سلّمني بطاقتي الآن»، قال السيد سيتيمبريني، ومد يده الى الجيب الجانبي لسترة الطيار المحتومة خاصته. «مسألة شائقة، يلزمني أن أعترف، ذات أهمية أدبية وإجتماعية. تدور حول منشور موسوعي، إذ عدّني أحد المعاهد الإنسانية جديراً بالمشاركة فيه. عمل جميل، باختصار ـ» قاطع السيد سيتيمبريني نفسه. «لكن ماذا عنك؟» سأل. «كيف تسير أمورك؟ مثلاً، الى أي مرحلة وصلت عملية التأقلم؟ لم تمضِ معنا وقتاً طويلاً جداً ولهذا ما يزال المرء يطرح السؤال.»

«شكراً، سيد سيتيمبريني. ما تزال صعبة، على ما يبدو. في الأرجح سوف تتحقق، حتى اليوم الأخير. ابن خالتي أخبرني حين أتيت أن أُناساً عديدين لم يعتادوا الإقامة هنا. لكن المرء يعتاد عاجلاً أم آجلاً على عدم الإعتياد.»

«عملية معقدة»، ضحك الإيطالي. «طريقة غريبة الأطوار في الإستقرار في مكانٍ ما. لكن بطبيعة الحال الشباب قادر على كل شيء. انه لا يعتاد الأمور، بل يرسخ الجذور.»

«وعلى أية حال، هذا المكان ليس قرية سيبيرية صغيرة أُتخذت مكاناً للعقاب.»

«كلا. آه، لك ميل الى التشبيه الشرقي. هذا شيء طبيعي بدرجة كافية. آسيا تطوقنا ـ أينما إستقرت نظرات المرء يجد ملامح تتارية.» ألقى سيتيمبريني نظرة حذرة من فوق كتفه. «جنكيزخان»، قال. «ذئاب السهوب، جليد، فودكا، السوط المستخدم للجلد، شلوسلبورغ، روسيا المقدسة. ينبغي لهم أن ينصبوا مذبحاً لـ بالاس[٢٥] هنا في المجاز ـ كي يدفعوا أذى سحر الشيطان. أنظر هناك ـ هناك أصناف من أيفان إيفانوفتش من دون صدر قميص، هم في خلاف مع المحامي باراوانت. كلاهما يريد أن يكون في الصف الأمامي كي يتسلم رسائله. لا أستطيع القول أيهما الى اليمين، لكن، من ناحيتي، المحامي باراوانت يكافح تحت رعاية الإلاهة. هو حمار، بالطبع؛ لكنه في الأقل يعرف شيئاً من اللاتينية.»

ضحك هانز كاستورب ـ وهذا شيء لم يفعله السيد سيتيمبريني أبداً ـ لا يستطيع المرء أن يتخيله يضحك باخلاص؛ هو لا يقدر أن يزيد على التجعيد الجميل المتحفظ لزاوية فمه. تطلع الى الشاب الضاحك، وسأله الآن: «هل تسلمت صورتك الفوتوغرافية الموجبة؟»

«تسلمتها»، أكد هانز كاستورب باهتمام. «تسلمتها يومذاك. هي ذي»، وفتش عنها في جيب الصدر بباطن سترته.

«آه، أنت تحملها في علبة. كشهادة، إذا صح القول. نوع من بطاقة العضوية. جيد جداً. دعني أشاهدها.» والسيد سيتيمبريني رفعها قبالة الضوء، بين سبابة يده اليسرى وابهامها؛ لوحاً زجاجياً صغيراً مؤطراً بأشرطة من الورق الأسود. كانت الإيماءة شائعة هنا في الأعالي، عادةً يراها المرء. وجهه، ذو العينين السوداوين أشبه باللوزتين، أظهر تكشيرة طفيفة حين فعل ذلك، لكن ما إذا حدث هذا لغرض الرؤية بمزيد من الوضوح أم لأسباب أخرى، هذا ما لم يسمحْ بأن يكشفه لنا.

«أجل، أجل»، قال بعد برهة. «هي ذي بطاقتك التعريفية. شكراً جزيلاً لك»، وأعاد اللوح الى هانز كاستورب من وراء كتفه، من دون أن ينظر إليه.

---

(٢٥) بالاس Pallas Athene: إلاهة الحكمة عند الاغريق ـ المترجم.

«هل رأيت الخيوط المجدولة؟»، سأل هانز كاستورب. «والعقد الصغيرة؟»

«أنت تعرف»، أجابه السيد سيتيمبريني بتروٍّ شديد، «رأيي في هذه النتاجات. تعرف أيضاً ان تلك البقع والظلال هناك هي في الأعم الأغلب (فيزيولوجية) المنشأ. رأيتُ مائة صورة من هذا النوع، كلها تشبه صورتك هذه؛ الحكم في ما إذا قدمتْ هي دليلاً محدداً أم لا متروك تقريباً الى تمييز الشخص الذي ينظر إليها. أنا أتكلم كرجل علماني، إنما علماني ذو سنوات من الخبرة الطويلة.»

«هل تبدو صورتك أنت أسوأ من هذه؟»

«أسوأ بعض الشيء. أنا أعي، أن أسيادنا وأساتذتنا لا يسندون أي تشخيص الى دليل هذه اللُّعَب وحدها. إذاً أنت تروم أن تقضي معنا الشتاء هنا في الأعالي؟»

«نعم ـ الله أعلم ـ بدأتُ أعتاد فكرة عدم العودة حتى وقت رجوع ابن خالتي.»

«تعتاد، هي ذي، على عدم الإعتياد ـ صغتَ ذلك بذكاء. أتمنى أن تكون تسلمت تجهيزات من البيت ـ ملابس شتوية، أحذية متينة؟»

«كل شيء ـ كل شيء بحسب النظام المناسب. أبلغتُ أقاربي، ومدبرة منزلنا بعثتْ كل شيء بوساطة توزيع البضائع بالقطار. سأبدو أنيقاً الآن.»

«شعرتُ بالارتياح. لكن مهلاً ـ أنت بحاجة الى كيس، كيس فراء! ما الذي يجول في خواطرنا؟ هذا الصيف المتأخر غادر ـ قد يتحول الى شتاء في غضون ساعة. ستمضي أكثر شهور السنة برداً هنا في الأعالي.»

«نعم، كيس النوم»، قال هانز كاستورب. «ذلك شيء ضروري، على ما أظن. خطر ببالي ان علينا النزول الى البلاتز في واحدٍ من هذه الأيام عاجلاً لشراء واحد. لن يحتاج المرء الشيء ثانية، بطبيعة الحال ـ ولكن حتى لو إستخدمه طوال خمسة شهور أو ستة إذاً هو مفيد على مدى ردحٍ من الزمن.»

«هو كذلك، هو كذلك. ـ أيها المهندس»، قال السيد سيتيمبريني

بصوت خفيض، دنا من الشاب وهو يخاطبه، «ألا تعرف ان ثمة شيئاً مرعباً في الطريقة التي ترفس بها الشهور؟ مرعب لأنه غير طبيعي، غير منسجم مع شخصيتك؛ هذا يرجع فحسب الى سهولة زمن حياتك. آه، السهولة المميتة للشباب! انه يأس المعلم، بسبب نزوعها الى عرض نفسها في الإتجاه الخاطئ. أتوسل إليك، يا صديقي الشاب، ألا تتبنى المقاطع اللفظية الجارية هنا في الأعالي، بل تحدّث بلغة الحضارة الأوروبية الفطرية بالنسبة لك. هنا في الأعالي الشيء الكثير جداً من آسيا. انه شيء لا يخلو من المعنى ان المكان مليء بالأجناس الموسكوفية والمغولية. هؤلاء القوم ـ»، السيد سيتيمبريني حرّك ذقنه فوق كتفه ـ «لا تتآلف معهم، لا تعرّض نفسك لعدوى أفكارهم؛ بالأحرى ضع نفسك ضدهم، قاوم طبيعتك، ان طبيعتك الأسمى مناوئة لهم؛ تشبث بكل شيء هو بالنسبة لك مقدس بالطبيعة والعُرف؛ كإبنٍ لـ (الغرب) الإلهي، كإبن للحضارة: وعلى سبيل المثال، الزمن. هذا التبديد البربري للزمن يجري على وفق الطراز الآسيوي؛ ربما هذا هو السبب الذي يجعل أبناء الشرق يشعرون كما لو انهم في البيت هنا في الأعالي. ألم تلحظ ان الروسي حين يقول أربع ساعات، يعني ما نعنيه حين نقول ساعة واحدة. من السهل أن نفهم ان تهور هؤلاء القوم في ما يتعلق بالزمن ربما له علاقة بمفهوم المساحة المناسب لقوم هذه الأرض اللا محدودة. مساحة شاسعة، زمن طويل ـ هم يقولون، في الواقع، انهم أمة لها زمن وبوسعها أن تنتظر. نحن الأوروبيين، لا نقدر. لنا وقت قليل مثل قارتنا العظيمة والمترابطة بإتساق التي لها مساحة قليلة، علينا أن نكون اقتصاديين في الزمن والمساحة، علينا أن نوفر الإثنين، أيها المهندس! خذ مدننا العظيمة، مراكز الحضارة وبؤرها، بوتقات الفكر! مثلما تزداد قيمة الأرض هناك وتغدو المساحة ثمينة أكثر فأكثر، كذلك، بالدرجة نفسها يغدو الزمن هكذا. «إستمتع بيومك الحاضر!» تلك أغنية مقيم في مدينة عظيمة. الزمن هبة الباري، مُنحت للإنسان عسى أن يستخدمَها ـ يستخدمها، أيها المهندس، لخدمة تقدم البشرية.»

أياً كانت الصعوبة، صعوبة المقاطع اللفظية، بالنسبة للهاة السيد

سيتيمبريني، كان يطلقها بوضوح، بصوتٍ عذب، بوسع المرء أن يقول بطواعية، كانت منعشة حقاً. هانز كاستورب لم يحر جواباً سوى الإنحناءة القصيرة، الثابتة، المرتبكة لطالب مدرسة ينال تأنيباً قاسياً. ما الذي يسعه القول؟ السيد سيتيمبريني أعطى محاضرة خاصة، تقريباً همسها في أذنه، مولياً ظهره لبقية الحشد في الغرفة، كانت بطبيعتها جد ثاقبة، جد لا إجتماعية، لا يأنسها المرء إلا قليلاً جداً، ان مدح بلاغتها حسب يبدو أمراً قليل الذوق. المرء لا يقول لمعلم مدرسة انه أظهر نفسه بشكل جيد. هانز كاستورب، في الواقع، فعل هذا مرة أو مرتين في الأيام المبكرة لتعارفهما، لعل هذا نابع من غريزة تهدف للمحافظة على التوازن الإجتماعي؛ غير ان تعابير المؤمن بالفلسفة الإنسانية لم يسبق لها من قبل ان وصلت مثل هذه الذروة التعليمية. لا تستطيع أن تفعل شيئاً حيالها غير القبول بالنصح، شاعراً بالارتباك كما لو كنت صبي مدرسة بسبب هذا الدرس الأخلاقي. والأكثر من ذلك، يستطيع المرء أن يفهم من تعبير السيد سيتيمبريني انه لم ينهِ سلسلة أفكاره. هو ما يزال واقفاً قريباً جداً من هانز كاستورب، بحيث ان الشاب كان مُكرهاً على الانحناء الى الوراء قليلاً؛ وعيناه السوداوان تحدقان بثبات في وجه الآخر.

«أنت تعاني، أيها المهندس»، مضى يقول. «أنت تشبه واحداً ذاهلاً ـ مَنْ الذي يطيق رؤية ذلك؟ لكن موقفك نحو المعاناة يمكن أن يكون موقفاً أوروبياً؛ يجب أن لا يكون شرقياً، الذي في تنازله الرقيق يميل بيسر شديد الى البحث عن هذه النقطة. ان الموقف الشرقي نحو المعاناة هو موقف الأسف والصبر اللا محدود ـ يجب أن لا يكون موقفنا، ولا يمكن أن يكون موقفك! ـ أنظر ـ كنا نتكلم عما جلبه البريد لنا، أنظر الى هذه! أو الأفضل، تعال معي، هنا غير ممكن ـ دعنا ننسحب، وسوف أكشف لك بعض القضايا ـ تعال معي!» وهو يستدير، جرَّ هانز كاستورب، ومن ثم دخلا واحدةً من حجرات الاستقبال الصغيرة، الأولى الى اليمين، المجاورة للمجاز، كانت خالية. كانت مؤثثة كحجرة قراءة وكتابة، ذات جدران مكسوة بألواح زينية متصلة من خشب البلوط وسقف معقود مشرق، خزانات كتب، طاولة وسطية

مغطاة بالصحف في حوامل ومحاطة بمقاعد، وملحقات كتابة مرتبة في الشبابيك الناتئة (المشربيات). السيد سيتيمبريني تقدم الى أن وصل جوار أحد الشبابيك، يتبعه هانز كاستورب. الباب بقي مفتوحاً.

فتش الإيطالي في الجيب الجانبي المنتفخ لسترة الطيار خاصته، ومنه سحب بيد عنيفة رزمةً من الورق في مظروف كبير سابقاً. محتوياته ـ أشياء مطبوعة مختلفة، وصفحة كتابة ـ مرر أصابعه تحت عين هانز كاستورب.

«هذه المقالات» قال، «تحمل دمغة، هي بالفرنسية، العصبة العالمية من أجل تنظيم التقدم. حصلتُ عليها من لوغانو، حيث يوجد مكتب لفرع العصبة. أنت تسأل عن مبادئها، عن هدفها؟ سوف أعرفها لك، بكلمتين. ان العصبة من أجل تنظيم التقدم تستدل من النظرية الداروينية المفهوم الفلسفي القائل ان أعمق البواعث الطبيعية في الإنسان يكمن في اتجاه تحقيق الذات. من هذا ينتج منطقياً ان كل البشر الذين يسعون الى إرضاء هذا الباعث لا بد أن يصبحوا عمالاً مشاركين في قضية التقدم البشري. كثيرون هم الذين إستجابوا للنداء؛ هناك أعضاء كثيرون جداً، في فرنسا، إيطاليا، اسبانيا، تركيا، وفي ألمانيا نفسها. أنا نفسي لي الشرف أن يكون اسمي مكتوباً في القائمة. تم صياغة برنامج شامل ومنجز بطريقة علمية، يضم كل المشاريع من أجل التقدم البشري التي يمكن تصورها حالياً. نحن ندرس مسألة صحتنا كجنس بشري، وطرق مقارعة الفساد الذي يعد ظاهرة مؤسفة ملازمة لتصنيعنا المتزايد. العصبة تتخيل تأسيس جامعات للشعب، حل الصراع الطبقي بوساطة كل أنواع التحسينات الاجتماعية التي زكت نفسها لهذا الغرض، وفي الختام القضاء على صراعات الأمم، إلغاء الحرب من خلال تطوير القانون الدولي. أنت تفهم ان الأهداف التي توجه إليها العصبة جهودها هي أهداف طموح وواسعة المدى. مجلات دورية عالمية عديدة شاهد على نشاطاتها ـ مجلات نقدية شهرية، تحوي مقالات بثلاث أو أربع لغات في موضوع التحول التقدمي للبشرية المتحضرة. مجاميع محلية عديدة تأسست في بلدان مختلفة؛ يُتوقع انها ستمارس تأثيراً مثقِفاً ومنوِّراً من خلال أمسيات الحوار وطقوس الأحد المناسبة. إضافة الى ذلك كله، ستبذل العصبة أقصى جهودها

كي تساعد مادياً، من خلال تدابيرها، الحزب السياسي المعني بالتقدم في البلدان كلها. تابعتني، أيها المهندس؟»

«تماماً»، رد هانز كاستورب، باندفاع. كان له، حين تحدث، شعور إنسان يجد نفسه يزل، لكنه الآن يكافح كي يثبت قدميه.

السيد سيتيمبريني بدا مقتنعاً. «يخيل لي ان هذه الأفكار جديدة ومدهشة بالنسبة لك؟».

«نعم، أعترف ان هذه أول مرة أسمع فيها بهذه ـ هذه المحاولات.»

«آه»، غمغم سيتيمبريني، «آه، ليتك سمعتها قبل الآن! لكن مع ذلك لم تتأخر عليك كثيراً أغلب الظن. هذه المجلات الدورية ـ تريد حتماً أن تعرف ماذا تقول؟ اسمع. الربيع الماضي، عُقد اجتماع رسمي للعصبة، في برشلونة. أنت تعرف كل المعرفة ان تلك المدينة تتباهى بصلتها الخاصة تماماً بالآراء السياسية التقدمية. إستمر المؤتمر اسبوعاً كاملاً، وتخللته مآدب ومهرجانات. أردتُ الذهاب ـ أستغفر الله، إشتقتُ الى أن أكون هناك وأشارك في المشاورات غير ان هذا النذل الحقير هوفرات منعني تحت طائلة العقوبة بالموت، لذا ـ حسناً، كنتُ خائفاً من الموت، ولم أذهب. كنتُ قانطاً، كما يمكنك أن تتصور، بسبب المكيدة التي لعبتها معي صحتي غير الجديرة بالثقة. لا شيء أكثر إيلاماً من أن تمنعنا طبيعتنا الجسدية، أو الحيوانية، من أن نكون في خدمة الفكر. قناعتي، هكذا، بسبب الرسالة الخطية هذه من لوغانو غاية في الحيوية. أنت تحب معرفة ماذا تقول الرسالة؟ بوسعي أن أتصور. لكن أولاً، لا بد من شروحات موجزة: ان العصبة من أجل تنظيم التقدم، واعية بمهمتها في تعزيز سعادة الإنسان ـ بكلمات أُخر، في مقارعة معاناة الإنسان عبر الوسائل الإجتماعية المتاحة، بهدف إزالتها نهائياً بكل ما في الكلمة من معنى؛ واعية أيضاً بالحقيقة التي مفادها ان هذه المهمة النبيلة لا يمكن تحقيقها إلا بمساعدة علم الإجتماع، الذي غايته وهدفه (الدولة) الكاملة؛ العصبة في ندوة، عُقدت في برشلونة، قررت نشر سلسلة من المجلدات تحمل العنوان العام: «علم إجتماع المعاناة». لا بد أن يكون هدف السلسلة تبويب معاناة الإنسان على وفق أصناف وفئات، والبحث

فيها بشكل نظامي وشامل. قد تسأل ما فائدة التبويب، التنظيم، الترتيب المنهجي؟ أنا أجيبك: النظام والوضوح هما الخطوتان الأوليتان نحو التمكن من موضوع ما ـ العدو الحقيقي هو المجهول. علينا أن نقود الجنس البشري خارج الدرجات البدائية للخوف والبلاهة المريضة، وأن نضع أقدامه على درب النشاط الواعي. علينا أن ننوّره بمسألتين: الأولى، ان تأثيرات معينة تغدو لاغية حين يميزها المرء أولاً وبعدها يزيل أسبابها؛ والثانية، إن معظم معاناة الإنسان ناجمة عن مرض النظام الإجتماعي. جيد جداً؛ هذا هو هدف علم الأمراض الإجتماعي. سيصدر في نحو عشرين مجلداً من القطع الأكبر، يعالج كل صنوف المعاناة البشرية، من الخاصة جداً والحميمة الى النزاعات الجماعية الكبيرة النابعة من المصالح المتضاربة للطبقات الإجتماعية والأمم؛ سوف، بإختصار، يقدم العناصر الكيمياوية التي ينتج مزيجها بنسب مختلفة عن المحن كلها التي ورثها جسدنا الإنساني. المنشور سوف يتخذ في الأحوال كلها كرامة وسعادة الإنسان مبدأً له، ويسعى الى أن يبين التدابير والمعالجات المدروسة لإزالة سبب أي إنحراف أخلاقي. اختصاصيون، أطباء، أطباء نفسانيون، واقتصاديون أوروبيون مشهورون سوف يشاركون في تأليف موسوعة المعاناة هذه، ومكتب التحرير العام في لوغانو سيكون بمنزلة المستودع كي يجمع المقالات كلها التي ستتدفق إليه. يمكنني أن أقرأ في عينيك السؤال عن نصيبي في هذه النشاطات كلها. إسمعني حتى النهاية. هذا العمل العظيم لن يهمل الناقد الرفيع[٢٦] بقدر ما يتعامل هو بالمعاناة الإنسانية: ثمة مجلد خُطَّ والذي سوف يضم مجموعة نصوص وتحليلاً موجزاً لهذه التحف من الأدب العالمي إذ تصبح هي موضوع بحث من خلال وصف هذا النوع أو ذاك من الصراع ـ من أجل مواساة وتدريس المعاناة. هذه، إذاً، هي المهمة التي عُهد بها الى خادمك المتواضع، في الرسالة التي تراها هنا.»

«أنت لا تعني ذلك، سيد سيتيمبريني! إسمح لي أن أقدم لك تهانيَّ القلبية! هذا تكليف عظيم، يقع في مسارك، على ما أعتقد. لا عجب إن

(٢٦) الناقد الرفيع belletrist: أنظر هامش الآداب الرفيعة ـ المترجم.

فكرت العصبة بك! وأي سعادة تلك التي شعرتَ بها حتماً وأنت تمد يد العون في إزالة المعاناة البشرية!»

«انه عمل واسع المدى»، قال السيد سيتيمبريني، مستغرقاً في التفكير، «وهو يستلزم تفكيراً كبيراً وقراءة واسعة خاصة»، أضاف، ونظرته بدت كأنها تضيع نفسها في إتساع مهمته، «بما ان الأدب أُختير بنحو نظامي لوصف المعاناة، وحتى التحف من الدرجة الثانية والثالثة تعالجها بشكل أو بآخر. ولكن ما الضير؟ الأكثر هو الأفضل! مهما كان العمل شاملاً، سيكون في الأقصل ذا طبيعة تتيح لي أن أتدبره، إذا كانت هناك ضرورات، حتى في هذا المكان اللعين ـ مع انني آمل ألا أحتاج الى البقاء مدة طويلة كافية كي أوصله الى نهاية ما. ذاك شيء»، قال، مقترباً أكثر من هانز كاستورب، وخفض صوته الى همس تقريباً، «ذاك الشيء يصعب علينا أن نقوله عن الواجبات التي ألقتها الطبيعة على عاتقك، أيها المهندس! هذا هو الشيء الذي وددت أن أوضحه، هذه هي كلمة التحذير التي كنتُ أحاول أن أطلقها. أنت تعرف أيَّ إعجاب أشعر به نحو مهنتك. لكنها عملية، وليست حرفة فكرية، أنت في مهنة مختلفة عن مهنتي، ذلك انك تستطيع أن تمارسها في العالم ـ هناك فقط تستطيع أن تكون أوروبياً حقيقياً، هناك فقط تستطيع أن تحارب المعاناة بفعالية، تغتنم الزمن، تعزز التقدم، بأسلحتك الخاصة وبطريقتك الخاصة. إذا كنتُ قد أخبرتك بالمهمة التي كانت من حصتي، فهذا لمجرد أن أذكرك، فقط لأذكّرك بنفسك، فقط لأوضح بعض المفاهيم الخاصة بك التي بدأت الأحوال الجوية هنا في الأعالي تحجبها بالغيوم بنحو جلي. أنا أنبهك إليها: حافظ على إستقامتك الأخلاقية، حافظ على إحترامك لذاتك، لا تتراجع أمام المجهول. اهرب من بالوعة الخطيئة هذه، جزيرة سيرسي[٢٧] هذه، طالما انك لست أوديسيوس بدرجة كافية كي تستطيع أن تسكن فيها بأمان. سوف

(٢٧) سيرسي Circe: ربة الغناء والسحر ذات الشعر الكهرماني، تقيم عند جزيرة ايايا ـ أنظر «الأوديسة لشاعر الخلود هوميروس» تأليف دريني خشبة ـ دار العودة، ١٩٨٦، ص ٩٧ ـ المترجم.

تمشي على أطرافك الأربعة كلها ـ الآن أنت تميل الى أطرافك الأمامية، وحالياً ستبدأ بالقباع[٢٨] ـ حذار!»

الإنساني أطلق هذه التحذيرات بالصوت الواطئ نفسه، هازاً رأسه بصورة مؤثرة. أنهى حديثه بحاجبين مجعدين وعينين متجهتين الى الأرض. ان الرد عليه بلا مبالاة أو بهزء، كما فعل هانز كاستورب مرة، أمر غير وارد. الشاب فكر في ذلك الإحتمال طوال ثانية، واقفاً بأجفان مسبلة. ثم رفع كتفيه وتكلم بصوت ليس أعلى من صوت السيد سيتيمبريني. «ما الذي يلزمني فعله؟»

«ما أخبرتك به.»

«تعني ـ أن أرحل بعيداً.»

السيد سيتيمبريني لزم الصمت.

«ما قصدتُ قوله هو أن أغادر قاصداً البيت؟»

«كانت هذه هي النصيحة التي أعطيتك إياها، في أول مساء، أيها المهندس.»

«أجل ـ وبعدها كنتُ حراً في فعل ذلك، مع انه بدا لي شيئاً سخيفاً أن أستسلم لمجرد ان الجو هنا في الأعالي أزعجني قليلاً. لكن الحال الآن اختلف بعض الشيء: تم فحصي، وهوفرات بيرنز أخبرني بكلمات كثيرة جداً ان ذهابي الى البيت شيء غير مستحسن، عندئذ يتوجب عليّ العودة من جديد؛ وإذا ما بقيتُ هناك سيتلف الفص بأكمله قبل أن أنتبه للأمر.»

«أعرف هذا؛ والآن عندك الدليل في جيبك.»

«تقول ذلك بسخرية شديدة ـ بالنوع المناسب من السخرية، بالطبع، بحيث لا يمكن إساءة فهمه لحظة واحدة، الاسلوب المباشر والكلاسيكي لفن الخطابة ـ تعرف، انني أتذكر الأشياء التي تقولها. لكن هل تعني انك، بعد أن رأيت هذه الصورة الفوتوغرافية، بعد الأشعة السينية وتشخيص بيرنز، أخذت على نفسك عهداً أن تنصحني بالعودة الى البيت؟».

---

(٢٨) القباع grunt: صوت الخنزير ـ المترجم.

تردد سيتيمبريني على مدى ثانية. ثم قوّم جذعه وسدد نظرات عينيه السوداوين مباشرة الى وجه هانز كاستورب. أجاب، بتوكيد لا يخلو تماماً من التأثير المسرحي: «نعم، أيها المهندس، أخذتُ على نفسي عهداً.»

غير ان وقفة هانز كاستورب تصلبت أيضاً. وقف وكعبا حذائيه متلاصقان، ونظر بدوره الى السيد سيتيمبريني مباشرة. هذه المرة كانت مبارزة. هانز كاستورب احتفظ بموقعه. التأثيرات من مكانٍ ليس بالبعيد جداً منحته القوة. هنا يوجد معلم مدرسة ـ لكن هناك امرأة ذات عينين ضيقتين. لم يعتذر عن كلماته، لم يتوسل الى السيد سيتيمبريني أن لا يعدها إساءة، أجاب قائلاً: «إذاً أنت حذر من أجل نفسك أكثر من حذرك من أجل الآخرين. أنت لم تقصد برشلونة معاكساً أوامر الطبيب. كنت خائفاً من الموت وبقيت هنا في الأعالي.»

بدرجةٍ معينةٍ كان وضع السيد سيتيمبريني مهزوزاً بنحوٍ لا يُنكر؛ بسمته، وهو يجيب، كانت متكلفة نوعاً.

«أعرف كيف أثمن جواباً جاهزاً ـ مع ان منطقك فيه نكهة من السفسطة. انه يثير إشمئزازي أن أدخل اللوائح بنوع من المنافسة الشائعة جداً هنا في الأعالي؛ بطريقة أخرى ربما أرد قائلاً ان حالتي أخطر بكثير من حالتك ـ أخطر بكثير، الحقيقة، ذلك انه بوساطة الوسائل الإصطناعية فقط، تقريباً بوساطة خداع الذات المقصود، أستطيع أن أُبقي حياً أمل مغادرة هذا المكان وأن ألقي نظرة على العالم في الأسفل قبل أن أنتقل الى دنيا الأموات. في اللحظة التي لن يعود فيها ذلك الأمل قادراً على البقاء بصورة مقبولة مدة أطول، في تلك اللحظة سوف أدير ظهري لهذه المؤسسة، وأستأجر غرفةً خاصةً في مكانٍ ما في الوادي. سيكون ذلك وضعاً كئيباً؛ لكن طالما ان دنيا أعمالي هي الأكثر تحرراً من القيود، الأقل مادية في العالم، التغيير لن يقدر أن يثنيني عن مقاومة قوى المرض وخدمة قضية الجنس البشري، حتى آخر نفس فيّ. الإختلاف بيننا، في هذا الشأن، لفتُّ نظرك إليه الآن. أيها المهندس، لست من الطراز الذي يدافع عن حقه بشكل أفضل هنا في الأعالي. أدركتُ ذلك في لقائنا الأول. لمتني لأنني لم أقصد

برشلونة. خضعتُ للمنع، كي لا أدمر نفسي مبكراً. لكنني فعلتُ ذلك بأكثر التحفظات تشدداً؛ روحي احتجت بزهو وكرب ضد أوامر جسدي المحطم. سواء عاش ذلك الاحتجاج في داخلك، طالما انك تذعن لأوامر أصحاب سلطتنا ـ سواء كان ذلك ليس الجسد، يقيناً، الجسد وميوله الشريرة، الذي أعرته أذناً جاهزة ـ».

«ماذا عندك ضد الجسد؟» قاطعه هانز كاستورب بغتةً، وتطلع إليه بعينين زرقاوين واسعتين، كان بياضهما معرّقاً بالدم. كان مصاباً بالدوار بسبب طيشه الخاص وأظهر قدراً كبيراً منه. ـ ما الذي أقوله؟ فكّر. أنا غير قادر على فهم الموضوع. لكنني لن أستسلم؛ الآن بدأتُ، لن أعطيه الكلمة الأخيرة إذا كنتُ أستطيع أن أتحمله. بطبيعة الحال سينالها هو في أية حال، لكن لا بأس، سأحقق معظمه حين أستطيع ذلك. ـ أسهب في رفضه: «لكنك إنساني أم انك لستَ كذلك؟ ما الذي تستطيع قوله ضد الجسد؟»

بسمة سيتيمبريني هذه المرة لم تكن متكلفة، ودالة على الثقة. «[ماذا عندك ضد التحليل؟]» إقتبس ورأسه مائل الى أحد الجانبين. «[هل أنت كاره للتحليل؟] ستجدني دوماً مهيأً لإجابتك، أيها المهندس»، قال، مع إنحناءة وحركة جارفة الى الأسفل من اليد، «خاصة حين تكون مقاومتك جريئة؛ وأنت تتجنب الضربة ليس من دون أناقة. إنساني ـ نعم، أنا إنساني. أنت لا تستطيع أن تقنعني بالميول الزهدية. أنا أؤكد، شرِّف وأحبب الجسد، مثلما أحتج أنا أؤكد، شرِّف، واحبب الشكل، الجمال، الحرية، الابتهاج، متعة الحياة. أنا أصوّر العالم، ولع هذه الحياة، ضد إرتداد وإنكار وجداني، الكلاسيكية ضد الرومانسية. أعتقد ان موقفي جلي. لكن هناك قوة واحدة، قاعدة واحدة، تحكم موافقتي الأعمق، إخلاصي وحبي الأسمى والأكمل؛ وهذه القوة، هذه القاعدة، هي الفكر. بالرغم من كرهي الكبير لسماع ذلك المفهوم المتعلق بالهراء والترهات الذي يدعوه الناس [الروح] كونها تلعب دوراً ضد الجسد، مع ذلك، في داخل تضاد الجسد والعقل، الجسد هو الشر، القاعدة الشيطانية، ذلك لأن الجسد هو الطبيعة، والطبيعة ـ في محيط، أكرر، تضادها مع العقل، ومع الرشد ـ شريرة، مبهمة وشريرة.

[أنت إنساني؟] مهما كلف الأمر أنا إنساني، لأنني صديق للجنس البشري، مثل بروميثيوس، عاشق البشرية والنبل البشري. ذلك النبل مُدرَك بالعقل، بالرشد، وهكذا سوف توجه إليّ، عبثاً، اللوم الخاص بالغموض المسيحي المتعمد ـ».

تردد هانز كاستورب.

«سوف»، إعترض السيد سيتيمبريني، «توجه هذا اللوم عبثاً، لو ان الزهو الإنساني تعلم يوماً أن يشعركأنها حط من القدر وخزي الحقيقة القائلة ان الفكر مكبل مع الجسد ومع الطبيعة. هل تعرف ان إفلوطين العظيم قيل انه قدم ملاحظة مفادها انه كان يخجل من كونه يملك جسداً؟» سأل سيتيمبريني. بدا متلهفاً للرد، وكان هانز كاستورب مجبراً على الاعتراف بأن هذه أول مرة يسمع بتلك المعلومة.

«عرفنا بها من خلال بورفوريوس[٢٩]. ملاحظة سخيفة ومنافية للعقل، إن شئت. غير ان المنافي للعقل هو الجدير بالإحترام عقلياً، ولا شيء يمكن أن يكون جديراً بالشفقة أكثر من لوم السخف، الذي تم وضعه مقابل العقل بوصفه يؤكد منزلته مقابل الطبيعة، ويرفض أن يتنازل أمامها. هل سمعت، أيها المهندس، بالهزة الأرضية في لشبونة؟».

«هزة أرضية؟ كلا ـ لم أرَ صحفاً هنا في الأعالي ـ».

«أسأتَ فهمي. بالمناسبة: دعني أقل انه شيء يدعو للرثاء، شيء دال على روح هذا المكان، بحيث انك أهملتَ قراءة الصحف. لكنك أسأت فهمي، ان الاضطراب العنيف للطبيعة الذي أشرتُ اليه لم يكن حديثاً، بل جرى قبل حوالي مائة وخمسين سنة خلت.»

«فهمت. أوه، مهلاً ـ سمعتُ بها. قرأتُ ان غوته قال لخادمه، تلك الليلة في حجرة نومه ـ».

«لا، لم تكن تلك التي أتحدث عنها»، قاطعه سيتيمبريني، مغمضاً

---

(٢٩) بورفوريوس Porphyrius (٢٣٤ ـ ٣٠٥م): فيلسوف يوناني يعتبر أحد أبرز ممثلي الفلسفة الافلاطونية المحدثة ـ المترجم.

عينيه، وهازاً يده الصغيرة الشاحبة في الهواء. «فضلاً عن ذلك، خلطت بين كارثتين. خطرت ببالك الهزة الأرضية في مسينا[٣٠]. في بالي تلك التي زارت ليشبونة في العام ١٧٥٥.»

«معذرة».

«حسن، تلك الكارثة أغضبت فولتير.»

«أغضبت؟ هي تلك ـ ماذا تعني بها؟».

«تمردَ. نعم، رفض قبول القدر والحقيقة الوحشيين. رفضت روحه أن تتنازل أمامهما. إحتج بإسم العقل والفكر على ذلك التقصير الفاضح للطبيعة، الذي لأجله تم التضحية بآلاف الحيوات البشرية، وثلاثة أرباع مدينة مزدهرة. أنت مندهش؟ تبتسم؟ ربما من حقك أن تندهش؛ أما أن تبتسم، إسمح لي أن أقول لك ان هذا في غير محله. كان موقف فولتير يليق بسليل أولئك الغاليين[٣١] القدامى الذين أطلقوا سهامهم على السماء. هو ذا، أيها المهندس، أنت تملك الحقد الذي يشعر به الفكر نحو الطبيعة، إرتيابه الفخور، إلحاحه القوي في حقه في إنتقادها وانتقاد قوتها الشريرة، الناكرة للرشد. الطبيعة قوة؛ وانه شيء وضيع أن نخضع للقوة، أن نتنازل أمامها ـ أن نتنازل، أي، باطنياً. وهناك أيضاً لديك الموقف الإنساني الذي لن يخاطر أبداً في توريط نفسه في التناقضات، ولن يخاطر أبداً في الإرتداد نحو النفاق[٣٢] الكنسي، حين يرى في الجسم خصماً، ممثلاً للقاعدة الشريرة. التناقض الذي يخيل إليك انك تراه هو في الواقع دائماً الشيء نفسه. [ماذا عندك ضد التحليل؟] لا شيء ـ حين يخدم هو قضية التنوير، الحرية، التقدم. كل شيء حين يعمه الذوق الراقي للقبر. وهكذا أيضاً بالنسبة للجسد. علينا أن نجلّ الجسد وندعمه حين يكون هو مسألة تحرير، مسألة

(٣٠) مسينا Messina: ميناء في الشمال الشرقي من صقلية.. ضربته هزة أرضية في العام ١٩٠٨ فحطمت المدينة وتسببت في مقتل الآلاف من البشر ـ المترجم.

(٣١) الغاليون Gauls: سكان بلاد الغال وهم الأجداد القدامى للفرنسيين، ويدعون أيضاً السلتيين ـ المترجم.

(٣٢) النفاق hypocrisy: التظاهر الكاذب بالفضيلة والدين ـ المترجم.

جمال، مسألة حرية الفكر، مسألة الإبتهاج، مسألة الرغبة. يلزمنا أن نزدريه عندما يضع نفسه كونه قاعدة الجاذبية والقصور الذاتي، حين يعترض سبيل الحركة نحو الضوء، يجدر بنا أن نحتقره عندما يمثل قاعدة المرض والموت، عندما يكون جوهره الخاص هو جوهر الفساد، جوهر الإنحلال، جوهر الفجور، والعار.»

هذه الكلمات الأخيرة أطلقها سيتيمبريني واقفاً بالقرب من هانز كاستورب، بعجالة شديدة ومن دون تناغم، كما لو أراد أن يضع نهاية للموضوع. العون كان قريباً من الشاب: يواكيم دخل حجرة القراءة، مع بطاقتين بريديتيين في يده. الإيطالي توقف فجأةً؛ والبراعة التي غيّر بها نبرته الى نبرة بإسلوب إجتماعي مناسب وأخف لم تغب عن ملاحظة تلميذه ـ إذا صح تعبير هانز كاستورب هذا.

«هو ذا أنت، أيها الملازم! هل كنت تبحث عن ابن خالتك؟ يلزمني أن أعتذر؛ إنشغلنا بالحوار ـ إذا لم أكن مخطئاً، كان لنا كذلك اختلاف طفيف في الرأي. هو ليس بالعقلاني السيء، ابن خالتك، وهو بكل معنى الكلمة خصم وضيع في المناقشة ـ حين يأخذ الفكرة العامة.»

Humaniora

هانز كاستورب ويواكيم زيمسين، بسروالين أبيضين وسترتين فضفاضتين زرقاوين، كانا جالسين في الحديقة بعد الغداء. كان ذاك يوم آخر من تلك الأيام الممجدة كثيراً من تشرين الأول (أكتوبر): ساطع من دون أن يكون ثقيلاً، حاراً ومع ذلك مع نكهة مميزة في الجو. كانت السماء فوق الوادي زرقاء جنوبية عميقة والمراعي أسفلها، مع دروب الماشية تقطعها من جانب الى جانب، ما زالت خضراً زاهيةً. من المنحدرات المخددة يأتي صوت أجراس الأبقار؛ رنين الأجراس السلمي، البسيط، الشجي أتى طافياً متواصلاً عبر الأثير الهادئ، الخفيف، الخالي، معززاً مزاج الوقار الذي يخيم على قمم الوادي.

كان ابنا الخالتين جالسين على مصطبة عند نهاية الحديقة، أمام نصف دائرة مكونة من أشجار تنوب فتية. الفضاء الصغير المفتوح تمدد عند الناحية الشمالية ـ الغربية من المنصة المسيجة، التي إارتفعت نحو خمسين ياردة فوق الوادي، وكونت قواعد مبنى مصح بيرغهوف. كانا صامتين. كان هانز كاستورب يدخن. كان أيضاً يتجادل سراً مع يواكيم الذي لم يكن يروم الإنضمام الى المجتمع في الشرفة بعد وجبة الغداء، وجرّ ابن خالته ضد إرادته الى سكون وعزلة الحديقة، الى أن يحين الوقت الذي يذهبان فيه الى شرفتيهما. كان سلوكه ذاك أشبه بسلوك طاغية ـ وإذا ما ناقشنا الأمر، لم يكونا توأمين سياميين، من الجائز لهما أن ينفصلا، إذا ما أخذتهما ميولهما في إتجاهين متعاكسين. هانز كاستورب لم يكن هنا في الأعالي لغرض مصاحبة يواكيم، كان هو نفسه مريضاً. وهكذا تذمر، كان يطيق أن يتذمر، ألم يكن له ماريا؟ جلس، يداه في جيوب سترته الفضفاضة، قدماه في حذائين بنيين ممددتان أمامه، وقابضاً على السيجار الطويل الضارب الى الرمادي بين شفتيه، على وجه الدقة وسط فمه، منحنياً بعض الشيء. كان السيجار في المراحل الأولى للإتلاف، لم يتخلص بعد من الرماد المتجمع عند طرفه غير المستدق؛ كانت نكهته مُرضية بنحو خاص بعد الوجبة عسيرة الهضم التي إستمتع بتناولها تواً. لعل من الحقيقي القول انه من نواح أخرى التعوّد على الحياة هنا في الأعالي يتكون بشكل رئيس من التعود علَى عدم التعود عليها. ولكن فيما يتعلق بكيمياء هضمه، كانت أعصاب غشائه المخاطي، الذي كان مجففاً وواهناً، ميالة الى النزف، بدا ان عملية التكيف أتمت نفسها. ذلك انه بصورة غير مُدركة بالحس، خلال هذه الاسابيع التسعة أو العشرة، قناعته الأساسية بتلك (الماركة) الممتازة من المنبه النباتي أو المخدر تم تجديدها كلياً. إبتهج إبتهاجاً عظيماً بوظيفته الجسدية التي إستعادها ثانية، قناعته العقلية رفعت القناعة الجسدية. خلال رقاده في الفراش وفر تجهيزاً قوامه مائتا سيجاراً كان قد جلبها معه، وبعضها ما زالت باقية؛ ولكن في الوقت نفسه مع ألبسته الشتائية المرسلة من الأسفل، وصلت خمسمائة أخرى من صنع (بريمن)، والتي طلبها من خلال شالين للتأكد تماماً

من عدم إنتهاء صلاحيتها. جاءت في علب صغيرة جداً جميلة مصقولة، مطلية بالذهب مع كرة، ميداليات عدة، وبناية معرض ذات عَلَم يعوم فوقها.

حين جلسا، أنظر، ها قد جاء هوفرات عبر الحديقة. كان قد تناول وجبة منتصف النهار، في ردهة الطعام اليوم، طاوياً يديه الضخمتين أمام مكانه عند مائدة السيدة سالومون. بعدها ربما كان فوق الدكة، يدلي بملاحظته الشخصية المناسبة لكل شخص، في الأرجح يعرض مهارته مع أشرطة جزمتيه لأولئك النزلاء الذين لم يروها من قبل. الآن جاء متكاسلاً عبر الحديقة، مرتدياً سترة خطافية[٣٣] ذات مربعات، بدلاً من سمقه، وقبعته المتيبسة على مؤخرة رأسه. هو أيضاً كان له سيجار في فمه، سيجار شديد السواد، كان ينفث منه سحباً بيضاً هائلة من الدخان. رأسه ووجهه، بالوجنتين الأرجوانيتين المحميتين أكثر مما ينبغي، بالأنف الأفطس، بالعينين الزرقاوين الدامعتين، والشارب الصغير المقصوص، لاحا صغيرين بالمقارنة مع الهيئة النحيلة، الملتوية نوعاً والمحدودبة، ومع اليدين الضخمتين والقدمين الكبيرتين. كان عصبي المزاج؛ جفل بنحو جليّ عندما رأى إبني الخالتين، وبدا محرجاً بشأن ضرورة تجاوزهما. لكنه حياهما بطرازه الرائع والصريح المألوف، مع «أنظر، أنظر، تايموثيوس!»[٣٤] أراد أن يستحضر البركات المألوفة على عمليات أيضهما، بينما رفض هو أن يقوما من مقعديهما، كما أرادا أن يفعلا إجلالاً له.

«إجلسا، إجلسا. لا رسميات مع رجل بسيط مثلي. انه شيء في غير محله أيضاً، كونكما مريضيّ، كلاكما. لا ضرورة لذلك. لا اعتراض على الوضع الراهن»، ولبث واقفاً أمامهما، قابضاً على السيجار بين سبابة يده اليمنى الضخمة ووسطاها.

---

(٣٣) سترة خطافية tail coat: سترة رسمية طويلة مشقوقة الذيل كذيل الخطاف أو السنونو، تسمى أيضاً الفراك ـ المترجم.

(٣٤) تايموثيوس Timotheus: موسيقي وشاعر أغريقي (٤٤٦ ـ ٣٥١ق.م)، عاش في مدينة ميلاتوس Miletus ـ المترجم.

«كيف هي ورقة الكرنب خاصتك، كاستورب؟ دعني أرَ، أنا خبير. ذاك رماد جيد ـ أي حسناء سمراء هذه التي بحوزتك؟»

«ماريا مانسيني، عقبة ما بعد الأكل، بريمن، سيد هوفرات. تكلف شيئاً قليلاً أو لا شيء، تسعة عشر فنغ بالألوان العادية ـ لكن الباقة منها لا تستطيع أن تدفع ثمنها دوماً. غلاف[٣٥] سومطرة ـ هافانا، كما ترى. أنا مشدود إليها. انها مزيج معتدل، ذات أريج قوي، لكنه فاتر على اللسان. ملائمة لأن تبقي رمادها مدةً طويلةً، أنا لن أتخلص منه أكثر من مرتين. لها نزواتها، بالطبع، ماريا لها نزواتها؛ لكن فحصها يجب أن يكون شاملاً جداً إذ انها لا تختلف كثيراً، ونَفَسها يتشابه تماماً. هل لي أن أعطيك واحدةً؟».

«شكراً، يمكننا أن نبادل سيجارينا» وسحبا علبتيهما.

«ثمة سيجار من الطراز الأول لك»، قال هوفرات، وهو يعرض علامته التجارية. «مزاج خاص، كما تعرف. سيجار كثير العصارة، يَهِبكَ الشجاعة. سانت فيلكس ـ البرازيل ـ أنا أتشبث دوماً بهذا النوع. ان [انصرف، عناية بليدة] المألوفة تحرق كالبراندي، لها شيء متوعد قرب النهاية. لكنك بحاجة الى أن تمارس شيئاً من الإحتراس ـ أنت لا تستطيع أن تشعل سيجارك من سيجار آخر، كما تعرف ـ أكثر مما يتحمل أي شخص. على أية حال، لقمة ملء الفم أفضل من أي عدد من اللقيمات.»

دوّرا شيئيهما الخصوصيين المعروضين بين أصابعهما، تحسسا هيئتي السيجارين الرشيقتين بأصابع أشبه بأصابع خبيرين، أو هكذا يظن المرء، صفة عضوية للحياة، بأضلاعهما المكونة بوساطة الحافات القطرية المتوازية للغلاف المسامي المرتفع هنا وهناك، الأوردة المكشوفة التي بدت كأنها تنبض، عدم الإستواءات الصغيرة في سطح الجلد، لعب الضوء على السطوح المستوية والحافات.

هانز كاستورب صوّرها: «إن سيجاراً كهذا شيء حيّ. انه يتنفس. حقيقة. ذات مرة، في البيت، خطرت ببالي فكرة أن أحفظ ماريا في علبة

---

(٣٥) غلاف wrapper: ورقة تبغ يغلف بها السيجار ـ المترجم.

صفيح محكمة السد كي أحميها من الرطوبة. هل تصدق، ماتت هي! في بحر اسبوع هلكت ـ لم يتبقَ منها غير الجثث الجلدية.»

تبادلا خبراتهما حول أفضل طريقة لحفظ السيجارات (جمع سيجار) ـ خاصة المستوردة منها. هوفرات أحبها، لم يدخن شيئاً سوى سيجارات هافانا الثقيلة، لكنها لم تناسبه. أخبر هانز كاستورب عن سيجارين صغيرين من نوع هنري كليز تأثر بهما تأثراً عميقاً، في رفقة مسائية، وكادا يورداه موارد الهلاك.

«دخنتهما مع قهوتي»، قال، «ولم أفكر بشيء على الإطلاق. لكن بعد برهة أذهلني أن أتساءل كيف شعرت ـ واكتشفت انه شيء لا مثيل له على الأرض. لم أعرف كيف وصلت البيت ـ ما إن صرتُ هناك، حسن، هذه المرة، ولدي، قلتُ في قرارة نفسي، أنت هالك لا محالة. القدمان والساقان كالثلج، كما تعرف، ترشحان بالعرق البارد، أمست بيضاً كقماش المائدة، القلب يتوق دوماً نحو الأفضل ـ تارةً خيط من نبضة، وطوراً يخفق بقوة كالمطرقة السقاطة. تفكير إستثنائي. كنتُ متيقناً من انني سوف أمشي بخطى قصيرة قلقة كخطى الأطفال ـ هذا هو التعبير الذي خطر ببالي، لأنني وقتذاك شعرت بأنني مبتهج كغلام الرمل(٣٦). ليس لأنني لم أكن جباناً أيضاً، لأنني كنت ـ كنتُ جباناً كبيراً أزرق بكيانه كله. مع ذلك، الجبن والسعادة العظيمة لم يكونا وحيدين بشكل مشترك، الجميع يعرفون ذلك. خذ شاباً سينال فتاة أول مرة في حياته؛ انه جبان أيضاً، وكذلك خليلته، ومع ذلك كلاهما ببساطة يذوب بسعادة عظيمة. كنتُ على وشك أن أذوب أيضاً ـ صدري إنتفخ بالزهو، وهناك أصبحت، في مرحلة المشي بخطى قصيرة قلقة؛ غير ان ميليندونك لازمتني وأقنعتني انها كانت فكرة جديرة بالإزدراء. أعطتني حقنة كافور، وضعت كمادات الثلج ودعكت جلدي ـ وهاأنذا أمامك، مُنقذاً من الخطر لأجل الإنسانية.»

---

(٣٦) غلام الرمل sand boy: حشرة من حشرات كثيرة قفازة (كبرغوث الرمل) تكثر في الشواطئ الرملية ـ المترجم.

اغرورقت عينا هوفرات الزرقاوان الجاحظتان بالدموع وهو يروي هذه القصة. هانز كاستورب، مستريحاً مريضاً، رفع بصره إليه، على وجهه تعبير غرّر بالنشاط العقلي.

«تمارس الرسم غالباً، أليس كذلك، سيد هوفرات؟» سأل فجأةً.

تظاهر هوفرات بالترنح الى الوراء. «ما الأمر بحق الشيطان! ما هذا الذي تفاجئني به، أيها الشاب؟».

«أستمحيك عذراً. حدث أن سمعتُ أحداً يقول ذلك، وخطر ببالي الآن.»

«حسن، إذاً، لن أتجشم عناء تكذيب الأمر. نحن كلنا مخلوقات مسكينة. أعترف ان شيئاً كهذا حدث Anch io sone pittore، كما اعتاد الاسبان أن يقولوا.»

«منظر طبيعي؟» سأله هانز كاستورب بإيجاز بارع، وقد بدت عليه سيماء خبير، الظروف غررت به كي يتخذ هذا الاسلوب.

«قدر ما تشاء»، أجاب هوفرات، تبجح تعبيراً عن وعيه الغريب بالذات. «منظر طبيعي، حياة ساكنة، حيوانات ـ ان رجلاً مثلي ينكمش بلا سبب.»

«ألا توجد صور شخصية؟»

«طرحتُ أيضاً صورة شخصية واحدة أو نحو ذلك. أتريد أن تعطيني أمراً؟»

«ها! ها! لا، لكنه سيكون لطفاً كبيراً منك أن ترينا بعض صورك بين حين وآخر ـ نريد أن نستمتع بها.»

نظر يواكيم بإنشداد الى ابن خالته، لكنه عندئذ أسرع ليضيف توكيداته انه سيكون حقيقة لطفاً كبيراً من هوفرات.

كان هوفرات مفتوناً بالإطراء. إحمر بسرور، دموعه بدت هذه المرة فعلاً على وشك الانهمار.

«بكل سرور»، هتف. «حالاً إذا أردتما. هيا، تعالا معي، سوف أعد لنا قهوة تركية في عريني.»

جرَّ كلا الشابين من المصطبة وسار بينهما يداً بيد، عبر الدرب المفروش بالحصى، الذي كان يؤدي، كما كانا يعرفان، الى مأواه الخاص في الجناح الشمالي ـ الغربي من البناية.

«أنا أيضاً أمارس الرسم قليلاً كنوعٍ من الهواية»، شرح هانز كاستورب.

«لا تقل ذلك! أنت تجيد الرسم بالزيت؟»

«أوه، لا، لم أتعدَ الألوان المائية أو ما شاكل. أرسم سفينة، قطعة بحرية، جهود صبيانية. لكنني مولع بالرسم، وهكذا أخذتُ حريتي ـ»

يواكيم بنحو خاص شعر بالإرتياح وتنوّر بهذا التفسير لحب الإستطلاع المروع لإبن خالته؛ الحقيقة ان هانز كاستورب اقترح رؤية الرسوم لأجله هو أكثر مما هو لأجل هوفرات. وصلا المدخل، وهو أبسط بكثير من المدخل المؤثر في الطريق الخاص، بمشاكيه (جمع مشكاة) الجانبية. درجتان مقوستان تؤديان الى باب البيت البلوطي، الذي فتح هوفرات بمفتاح المزلاج من حزمته الثقيلة. إرتعشت يده، واضح انه كان في حالة عصبية. دخلوا حجرة انتظار ذات حوامل ثياب، حيث علّق بيرنز قبعته المستديرة السوداء على كلاّب، وبعدها دخلوا مجازاً قصيراً، مفصولاً بوساطة باب زجاج عن باقي البناية الرئيسة. في جهتي هذا المجاز تقع حجرات المسكن الصغير الخاص. بيرنز نادى خادماً وأعطاه أمراً؛ ثم بمصاحبة سريعة لملاحظات غريبة الأطوار أدخلهما عبر باب الى اليمين.

شاهدا حجرتين مؤثثتين على وفق الذوق العادي لأبناء الطبقة الوسطى، تواجهان الوادي وتنفتح إحداهما على الأخرى عبر مدخل تتدلى فوقه ستائر. كانت إحداهما حجرة طعام «ألمانية قديمة»، الأخرى غرفة معيشة وعمل، ذات سجاجيد صوف، رفوف كتب وكنبة، وطاولة كتابة يتدلى فوقها سيفان متقاطعان وقبعة تلميذ. الى الوراء كانت هناك غرفة تدخين خصوصية تركية. كانت رسوم في كل مكان، وهي بريشة هوفرات. النزيلان ذهبا إليها حال دخولهما، كانا مستعدين للإطراء بكياسة. كانت هناك صور شخصية (بورتريهات) عديدة لزوجته الراحلة، بالزيت؛ وكذلك، صور فوتوغرافية لها

منتصبةً على طاولة الكتابة. كانت امرأة شقراء نحيلة، مبهمة، رُسمت بثياب هفهافة، يداها، رؤوس أصابعهما مضفورة برشاقة، على كتفها اليسرى، وعيناها إما مصوبتان الى السماء أو بطريقة أخرى تحدقان في الأرض، تظللهما أهداب طويلة، كيفة، بارزة بشكل منحرف. ولا مرة ظهرت الراحلة وهي تتطلع أمامها مباشرة الى المشاهد. كانت اللوحات الأُخر بشكل رئيس مناظر طبيعية جبلية، جبال مكسوة بالثلج وجبال بخضرة الصيف، جبال مكللة بالسديم، جبال خطوطها الخارجية الجافة، الحادة إنفصلت بإزاء سماء عميقة الزرقة ـ هذه الرسوم ظاهرياً نُفذتْ تحت تأثير سيجانتيني(٣٧). ثم كانت هناك أكواخ رعاة البقر، وماشية ذوات لغود، واقفة أو مستلقية في مراعٍ مبهجة مغمورة بالشمس. كانت هناك دجاجة منتوفة الريش، برقبتها الطويلة المجدولة تتدلى من طاولة بين محيط من الخضار. كانت هناك نماذج من الأزهار، أوضاع مختلفة لفلاحي الجبال، وهلم جرا ـ كلها مرسومة بروح هواية ناشطة، الألوان ضُربت بعنف على قماش (الكانفا)، وعادة تبدو كما لو انها عُصرتْ خارج الأنبوب. لا بد انها إستغرقت وقتاً طويلاً كي تجف ـ لكنها كانت غالباً مؤثرة من خلال طريقة إصلاح العيوب الأُخر.

سارا كما لو انهما يسيران على طول جدران معرضٍ ما، يرافقهما سيد المصح، الذي كان بين حين وحين يعطي اسماً لموضوعٍ أو آخر، لكنه بشكل رئيس كان صامتاً، بالإرتباك الفخور للفنان، متذوقاً متعة النظر الى أعماله بعيون الغرباء. كانت الصورة الشخصية لـ كلاوديا شوشا معلقة على جدار نافذة حجرة المعيشة ـ بحث هانز كاستورب بدقة عنها بنظرة خاطفة حال دخوله، مع ان الشبه لم يكن سوى شبه بعيد. بقصد تجنب النقطة، أخر مرافقيه في حجرة الطعام، حيث كان ميالاً لأن يعجب بنظرة خاطفة خضراء طازجة الى وادي سيربي، بأنهار الجليد الزرقاء كالثلج في الخلفية. بعدها انتقل طوعاً الى الحجرة الخصوصية التركية، ونظراً الى كل ما يستحق العرض

---

(٣٧) سيجانتيني Segantini (جيوفاني) (١٨٥٨ ـ ١٨٩٩م): رسام إيطالي عُني برسم المناظر الطبيعية الألبية ـ المترجم.

فيها، متمتماً بالمدائح؛ ومن ثم عاد ثانية الى حجرة المعيشة، بادئاً بجدار المدخل ودعا يواكيم الى أن يؤيد مدائحه. لكنه في الختام إستدار بإجفال مدروس، قائلاً: «لكن أكيد ذاك وجه أليف؟».

«هل ميزتها؟» هوفرات أراد أن يعرف.

«مستحيل أن أخطئها. السيدة التي تجلس الى المائدة الروسية [الجيدة]، ذات الاسم الفرنسي ـ».

«مضبوط! شوشا. شيء سار انك فكرت بأن الصورة تشبهها.»

«إذا تكلمنا»، كذّب هانز كاستورب. فعل ذلك بسبب النفاق أكثر مما هو بسبب الوعي ذلك انه، في ظاهر الأشياء، توجب عليه أن لا يكون قادراً على تمييزها. يواكيم ما كان بوسعه أن يفعل كذلك ـ يواكيم الطيب، الذي رأى المسألة كلها في ضوئها الحقيقي بعد ان ألقى هانز كاستورب الكاذب النظرة الأولى عليها؛ رأى كيف أخفيت الحقيقة عن عينيه، وبادراكٍ مدمدم إنكب على النظر الى الرسم. ابن خالته عاقبه بأن لا يختلط بالمجتمع بعد وجبة الغداء.

كانت صورة بارتفاع نصفي، نصف جانبية، أصغر نوعاً من الحجم الإعتيادي، بإطار عريض ذي حافة مائلة، أسود اللون، مذهب من الداخل بزخرفة خرزية. العنق والثديان كانا عاريين أو محجوبين بستار خفيف فضفاض ملقى حول الكتفين. ظهرت السيدة شوشا عشرة أعوام أكبر من عمرها الحقيقي، كما يبدو ذلك عادة في رسم الهاوي حين يعكف الفنان على جعل شخصية ما درساً لمجرد التمرّن على تقنية معينة. كان هناك لون آخر كثير جداً فوق الوجه كله، الأنف كان مرسوماً بصورة سيئة، لون الشعر مرسوم بنحو رديء وبعجالة، لون تبني بإفراط؛ الفم كان مشوهاً، السحر الخاص للملامح لم يُمسك به أو في الأقل لم يوضح، أفسده تضخيم العناصر المنفردة للقسمات. عموماً كان إنجازاً غير متقن الى حدٍ ما، وفقط له علاقة بعيدة بالأصل. غير ان هانز كاستورب لم يكن معنياً بدرجة التشابه، العلاقة بين امرأة (الكانفا) وبين شخص السيدة شوشا كانت حميمة بدرجة

كافية بالنسبة إليه. الرسم يوهم بأنه يمثلها، في هذه الحجرات نفسها التي جلست فيها من أجل أن يرسمها هوفرات، هذا هو كل ما إحتاج إليه؛ كرر بتأثر واضح: «الصورة تشبهها تماماً!».

«أوه، لا»، إعترف هوفرات. «انه نموذج عمل غير بارع. لن أشبع غروري إذا ما رسمتها بشكل مضبوط تماماً، مع انه كانت لنا، على ما أعتقد، عشرون جلسة. ماذا تستطيع أن تفعل بوجه غريب كوجهها؟ لعلك تظن انه من السهل القبض عليها، بعظام خديها الشبيهين بخديّ شخص من القطب الشمالي، وعينيها كصدعين في رغيف خبز. نعم، ثمة شيء خاص بها ـ إذا ما قبضتَ على التفصيل بشكل صحيح، سوف تفسد الطاقم. لغز العنقاء[٣٨]. هل تعرفها؟ لعل من الأفضل أن نرسمها من الذاكرة بدلاً من أن نجلسها قبالتنا. هل قلتَ انك تعرفها؟».

«كلا؛ أعرفها معرفة سطحية حسب، بالطريقة التي يعرف بها المرء الناس هنا في الأعالي.»

«حسن، أنا أعرفها تحت جلدها ـ تحت بشرتها؛ فاهم: ضغط الدم، شد النسيج، الدورة اللمفاوية، والأشياء التي من هذا النوع. عندي سبب قوي لذلك. الصعوبة تكمن في المظهر الخارجي. هل لاحظتَ مشيتها؟ إنها تنسل خلسةً. انها من طراز خاص، هذا واضح على وجهها ـ خذ العينين، مثلاً، ناهيك عن المظهر العام، مع ان هذا دقيق أيضاً. لا أعني لونهما، أنا أتكلم عن فصالهما، والطريقة التي تجلسان بهما في الوجه. ستقول ان حز العين مفصّل بطريقة مائلة، لكن هذا في الظاهر حسب. ما يخدعك هو ثنية موق العين[٣٩]، إختلاف عِرقي، يتألف من قمة من غشاء يمتد من قصبة الأنف الى الجفن، وينحدر الى داخل زاوية العين. إذا ما أخذتَ إصبعك ومددت الجلد عند قاعدة الأنف، تبدو العين مستقيمة كعيوننا. إذا قمتَ

(٣٨) العنقاء sphinix: كائن خرافي في الميثولوجيا الاغريقية له جسم أسد ورأس امرأة وصدرها ـ المترجم.

(٣٩) ثنية موق العين: بالإنجليزية epicanthus ـ المترجم.

بمراوغة صغيرة ـ لكن في الحقيقة، ثنية موق العين يمكن أن تُعزى الى عضو أثاري رجعي[٤٠] ـ إنها كبح تطوّري.»

«هذا هو الأمر إذاً»، قال هانز كاستورب. «لم أكن أعرف ذلك. كنتُ أسائل نفسي زمناً طويلاً ما هذا الشيء الذي يحيط العينين.»

«خيلاء»، قال هوفرات، «وإغاظة روح. ببساطة إذا رسمتها بنحو مائل ستخسر. يلزمك أن تجعل الإنحراف بالطريقة نفسها التي فعلتها الطبيعة، عليك أن تضيف وهماً الى وهم ـ ولهذا عليك أن تعرف عن طية موق العين. ما يعرفه المرء يصبح عادة ملائماً للإستعمال. الآن أنظر الى الجلد ـ البشرة. هل وجدت انني إستطعت أن أجعله نابضاً بالحياة أم لا؟».

«بصورة هائلة»، قال هانز كاستورب. «ببساطة تمكنتَ بنحو هائل. لم أرَ جلداً رُسِم بصورة جيدة كما في هذه اللوحة. يمكنك أن ترى بوضوح المسامات.» ومرر طرف يده برشاقة فوق العنق العاري والكتفين العاريتين، جلدها، خاصة إذا ما قورن باللون الأحمر المبالغ به للوجه، كان شديد البياض، كما لو انها نادراً ما تكون مكشوفة. سواء كان هذا التأثير مقصوداً أم لا، كان موحياً الى حدٍ ما.

ومع ذلك كان مديح هانز كاستورب مستحقاً. الوميض الشاحب لهذا الصدر الضعيف، مع انه لم يكن هزيلاً، كان يضيع نفسه في الظلال المزرقة للغطاء الخفيف، كان شبيهاً جداً بالأصل. واضح انه رُسِمَ بإحساسٍ ما، ضرب من الحلاوة ينبعث منه، مع ذلك كان الفنان ناجحاً في منحه واقعية علمية ودقة أيضاً. ان خشونة نسيج (الكنفا)، الظاهرة من خلال الصبغ، أُستخدمت ببراعة كي توحي بعدم الإستواء الطبيعي للجلد ـ يظهر هذا خاصة في المنطقة المجاورة لعظمي الترقوة الرقيقين. شامة صغيرة جداً، في المنطقة التي يبدأ بها الثديان بالإنقسام، رُسمت بعناية، وعلى سطحيهما المدورين يفكر المرء بأن يتتبع الأوردة الزرق الرقيقة. بدا كما لو ان رعشة إحساس

---

(٤٠) رجعي atavistic: يمثل عودةً الى صفات الأسلاف التي ابتعدت عنها الأنسال السابقة ـ المترجم.

مدركة نادراً تحت عين المشاهد كانت تمر فوق هذا اللحم العاري، كما لو ان بوسع المرء أن يرى العَرَق، البخار غير المرئي الذي طرحته الحياة في الداخل؛ كما لو ان المرء إذا ما ضغط شفتيه على هذا السطح، ربما سيشم، ليس رائحة الصبغ والمثبِت، بل عبير الجسد البشري. هكذا، في الأقل، كانت انطباعات هانز كاستورب، التي نستنسخها هنا ـ وكان هو، بالطبع، في حالة سريعة التأثر بنحو خاص. لكن مع ذلك انه شيء حقيقي أن بورتريه السيدة شوشا كان الى حد بعيد نموذج الرسم الأكثر تأثيراً في الغرفة.

تأرجح هوفرات بيرنز الى الأمام والخلف على عقبي قدميه والنتوئين المستديرين عند قاعدتي إبهاميهما، يداه في جيبي سرواله، بينما هو ينظر الى عمله صحبة إبني الخالتين.

«مبتهج»، قال. «مبتهج لأنني أجد إستحساناً في عيني زميل. لو عرف المرء شيئاً قليلاً عما يجري تحت البشرة، هذا حتى لن يسبب له أذىً. بكلمات أخرى، إذا كان قادراً على أن يرسم ما تحت السطح بقليل، وتكون له علاقة أخرى مع الطبيعة غير العلاقة العاطفية فقط، إذا صح القول. ان فناناً يمارس مهنة الطب، خبيراً في علم وظائف الأعضاء وخبيراً في علم التشريح من ناحية، وله طريقته الخاصة في التفكير ببواطن الأشياء ـ هذا كله يصبح ملائماً للإستعمال كذلك، انه يمنحك (الخطوة)، قل ما تشاء. ان بذلة عيد الميلاد تلك مصورة بعِلم، انها شيء صحيح تماماً، بوسعك فحصها تحت المجهر. يمكنك رؤية ليس الطبقتين القرنية والمخاطية للبشرة، لكنني أوحيتُ بالأدمة الواقعة تحتها، بالغدد الدهنية والعرقية، الأوعية الدموية والدّرينات ـ ومن ثم تحتها هناك طبقة الشحم، مواد التنجيد، كما تعرف، مليئة بالقنوات الدهنية، أساس الشكل الأنثوي المحبب الى القلب. ما يخطر ببالك وأنت تعمل يسري في يدك ويكون له تأثيره ـ انه لا يكمن هناك حقاً، ومع ذلك بطريقة ما أو غيرها هو كذلك، وهذا هو الذي يمنح التأثير النابض بالحياة.»

هذا كله كان كالوقود يُصب على نار هانز كاستورب. تورّد جبينه، عيناه تلألأتا بصورة جميلة، كان له الشيء الكثير من الكلام لا يدري من أين يبدأ. في المقام الأول، كان في باله ان يرفع صورة السيدة شوشا من جدار النافذة،

حيث كانت معلقة نوعاً ما في الظل، ويضعها في مكان أفضل؛ ثم، كان تواقاً الى تأييد ملاحظات هوفرات عن بنية الجلد، التي أثارت إهتمامه بقوة؛ وأخيراً، أراد أن يدلي بملاحظاته هو، وهي ملاحظات ذات طبيعة عامة وفلسفية، أثارت إنتباهه بدرجة لا تقل قوة عن ملاحظات هوفرات.

واضعاً يديه فوق الرسم كي يحله، بدأ حديثه بلهفة: «نعم، نعم حقيقة، ذاك شيء غاية في الأهمية. ما أود قوله هو ـ أعني، قلتَ، سيد هوفرات، إذا فهمتُ بشكل صحيح، قلتَ [له علاقة أخرى]. قلت انه شيء جيد حين تكون هناك علاقة أخرى فضلاً عن العلاقة العاطفية ـ هذه هي الكلمة التي إستخدمتها ـ أي، الفنية؛ بإيجاز، حين ينظر المرء الى شيء ما من وجهة نظر أخرى، وجهة نظر طبية، في سبيل المثال. هذا يوضح المسألة بشكل هائل، كما تعرف ـ معذرة، سيد هوفرات، لكن ما أعنيه انه شيء مضبوط جداً وصائب بدقة، لأنها بالرغم من كل شيء ليست مسألة علاقات مختلفة جوهرياً أو وجهات نظر متباينة أساساً، ولكن حقيقة مجرد تغييرات لشيء واحد، انها مجرد تظليلات له، إذا جاز التعبير، أعني: تغييرات للاهتمام الشامل الواحد؛ الباعث الفني نفسه هو جزء منه ومظهر له أيضاً، إذا جاز لي أن أقول هذا. نعم، إن أذنتَ لي، سأنزل هذه الصورة، أكيد ليس ثمة ضياء في هذا المكان الذي عُلقت فيه، إسمح لي أن أحملها الى الكنبة، سنرى ما إذا لم تظهر كلياً ـ ما أعنيه بالقول: ما هو الشأن الرئيس لدراسة الطب؟ لا أعرف عنه شيئاً البتة، بالطبع ـ لكن بالرغم من كل شيء أليس شأنه الرئيس هو البشرية؟ وفلسفة التشريع ـ صنع القوانين، النطق بالحُكم، شأنها الرئيس البشرية أيضاً. وفقه اللغة، الذي يرتبط دوماً بمهنة التعليم؟ واللاهوت الذي يعنى برعاية الأرواح، مهمة الراعي الكنسي؟ هذه كلها لها علاقة بالبشر، كلها على درجة واحدة من الأهمية، الاهتمام الرئيس نفسه، الاهتمام بالبشر. بكلمات ما، انها المهن الإنسانية، وإذا ما أردتَ أن تتخصص فيها عليك أن تدرس اللغات الموغلة في القِدم بوساطة مؤسسة وقفية، من أجل التدريب الشكلي، كما يقولون. أغلب الظن انك مندهش من حديثي عنها بهذه الطريقة، كوني مجرد إنسان عملي وأميل الى الجانب التقني. غير انني كنت

أفكر بهذه المسائل مؤخراً في الاستراحة ـ العلاج، ووجدتها مدهشة؛ وجدت انه ببساطة تنظيم لا يثمن للأشياء، وان الشكلي، فكرة الشكل، فكرة الشكل الجميل، تكمن في صميم كل مهنة من المهن الإنسانية. تمنحها ذلك النبل، أعتقد، ذلك النوع من النزاهة، والاحساس، أيضاً، و ـ و ـ الكياسة ـ تخلق منها نوعاً من المغامرة الفروسية. أي ـ أعتقد انني أظهر نفسي بصورة مضحكة، لكن ـ بوسعك أن تفهم كيف ان الأشياء العقلية وحب الجمال متلازمان، وانهما كانا دوماً حقيقةً شيئاً واحداً والشيء نفسه ـ بتعبير آخر، العلم والفن؛ وان مهنة كونك فناناً تنتمي بصورة مؤكدة الى الآخرين، كنوع من القدرة الخامسة، لأنها أيضاً مهنة إنسانية، نوع من الاهتمام الإنساني، طالما ان أهم موضوعاتها أو شؤونها هو الإنسان ـ سوف تتفق معي في ما يتعلق بهذه النقطة. حين جربت في هذا المجال إبان سنوات صباي، لم أرسم شيئاً سوى السفن والماء، بالطبع. لكن مع ذلك، في نظري ان أكثر فروع الرسم إمتاعاً كان وسيبقى: البورتريه، لأن الإنسان هو موضوعها المباشر ـ لهذا سألتُ حالاً ما إذا كانت لك أي إسهامات في هذا المجال. أليس هذا مكاناً أفضل بكثير لتعلق فيه؟»

كلاهما، بيرنز وبما لا يقل عن يواكيم، نظر إليه مندهشاً ـ ألا يخجل هو من هذه المحاضرة المشوشة، المرتجلة؟ لكن لا، هانز كاستورب كان مشغول البال بدرجة كبيرة كي يشعر بالخجل. حمل الرسم الى جدار الكنبة، وأراد أن يعرف إذا لم ينل ضوءاً أفضل بكثير. حينذاك فقط جلب الخادم صينية، مع ماء ساخن، ومصباح كحولي، وأكواب قهوة.

أخذهما بيرنز الى الغرفة الخصوصية قائلاً: «إذاً أنت لا بد أن تكون أكثر ولعاً بالنحت، أصلاً، من الرسم. على ما أظن. نعم، طبعاً، الرسم ينال ضوءاً أكثر على هذا الجدار، إذا كنت تعتقد انه يتحمل هذا الضوء. أنا أعتقد هذا، لأن النحت يهتم بشكل خاص وشامل بالناحية الإنسانية. إنما ينبغي لنا أن لا ندع الماء يغلي.»

«صحيح تماماً، النحت»، قال هانز كاستورب، بينما هما يمضيان. نسي أن يعلق أو يضع الصورة التي كان يمسك بها، لكنه حملها معه بمشقة الى

الحجرة المجاورة. «يقيناً فينوس الاغريقية أو أي رياضي أغريقي أكثر إنسانية، حقيقة، أغلب الظن النحت هو الأكثر إنسانية بين الفنون كلها، إذا تسنى للمرء أن يفكر به!»

«حسن، بقدر تعلق الأمر بالصغيرة شوشا، انها موضوع أفضل للرسم منه للنحت. فيدياس[٤١]، أو ذاك الرجل الآخر الذي لإسمه نهاية فسيفسفائية، سوف يدسان أنفيهما في طراز أسارير وجهها ـ هالو، الى أين أنت ذاهب مع فخذ الخنزير؟»

«اعذرني، سوف أجعلها تتكئ على قدم كرسيي، سيكون هذا أفضل كثيراً في الوقت الحاضر. النحاتون الاغريق لم يزعجوا أنفسهم بالرأس والوجه، كان ولعهم أكثر بالجسد، في ظني هذه هي إنسانيتهم. ولدانة شكل الأنثى ـ إذاً ذاك هو الدهن، أهو غير ذلك؟»

«ذاك هو الدهن»، قال هوفرات بإيجاز. فتح خزانة معلقة، وتناول منها مستلزمات إعداد القهوة: طاحونة تركية اسطوانية، قِدر ذو مقبض طويل، وعاء ثنائي للسكر والقهوة المطحونة، كلها من النحاس الأصفر. «البالماتين، الإستيارين، الأوليين»[٤٢]، مضى يقول، جعل يهيل حبات البن اليابسة من علبة صفيح الى الطاحونة، التي راح يديرها. «كما ترى أنا أقوم بإعدادها كلها بنفسي، تكون نكهتها جيدة جداً. ـ هل ظننت انها طعام الآلهة؟»

«لا، بالطبع عرفت ذلك. فقد يبدو غريباً أن نسمعها بهذه الطريقة»، قال هانز كاستورب.

كانوا يستريحون في الزاوية بين الباب والنافذة، عند طاولة خفيضة[٤٣] خيزران حملت صينية صفر شرقية، وضع عليها بيرنز طاحونة البن، بين أدوات التدخين. كان يواكيم يلي بيرنز فوق المتكأ، غارقاً بالوسائد؛ جلس هانز كاستورب في كرسي جلد ذي مسندين على عجلات في قوائمه، وهو

---

(٤١) فيدياس Phidias (٥٠٠؟ ق.م ـ ٤٣١؟ ق.م): نحات يوناني. عهد إليه بيريكليس بتجميل أثينا ـ المترجم.

(٤٢) البالماتين، الإستيارين، الأوليين: مواد كيمياوية ـ المترجم.

(٤٣) ورد الاسم بالفرنسية tabouret ويدعى بالعامية العراقية طابورية ـ المترجم.

الذي أسند إليه صورة السيدة شوشا. تحت أقدامهم سجادة بألوان بهيجة. غرف هوفرات البن والسكر وصبهما في القِدر ذي المقبض الطويل، أضاف الماء، وجعل الشراب المخمر يغلي على لهب المصباح. زبّد الشراب بلون بني في الأكواب الصغيرة بأشكال البصل، وبرهن من خلال التذوق على كونه قوياً وحلواً.

«خاصتك أيضاً»، قال بيرنز. «[لدانتك] ـ طالما ان لك شيء منها ـ هي الوهن أيضاً، مع انه طبعاً ليس بالقدر نفسه الذي تملكه الأنثى. عندنا الدهن يشكل فقط خمسة بالمائة من وزن الجسم، عند الإناث واحد الى ستة عشر من الوزن الكلي. من دون التركيب الخلوي تحت جلدنا، لا نكون شيئاً سوى أورام فطرية. انه يختفي مع مر الزمن، ومن ثم تأتي التجاعيد غير الجمالية في الجوخ. الطبقة تكون الأثخن في صدر الأنثى وبطنها، في الجزء الأمامي من الفخذين، في كل مكان، باختصار، حيث يوجد شيء قليل يمكن للقلب واليد أن يمسكا به. أخمصا القدمين سمينان وسريعا التأثر بالدغدغة.»

أدار هانز كاستورب طاحونة البن الاسطوانية بين يديه. كانت كبقية الطقم، هندية أو فارسية بدلاً من كونها تركية؛ طراز النقش فيها كشف ذلك، ذات سطح براق للشكل البارز على الخلفية التي جُعلتْ باهتة بنحو مقصود. تطلع الى التصميم الفني، من دون أن يرى حالاً ماذا كان. حين فعل، تورّد لا شعورياً.

«أجل، هذا طقم لرجال نبلاء غير متزوجين»، قال بيرنز. «أنا أحتفظ به في خزانة مقفلة، فاهم، ملكة مطبخي ربما تؤذي عينيها وهي تنظر إليه. أيها النبيلان، لن أسبب لكما أي أذى، أتعهد بذلك. هذا الطقم أعطتني إياه مريضة، أميرة مصرية شرفتنا ذات مرة بمكوثها هنا عاماً كاملاً أو نحو ذلك. كما ترى الشكل يكرر نفسه على الطقم كله. خبيث بدرجة كافية، ماذا؟»

«أجل انه إستثنائي جداً»، أجاب هانز كاستورب. «ها ها! لا، لن يزعجني هذا. لكن يستطيع المرء أن يأخذ الأمر مأخذاً جدياً بشكل تام، ينظر إليه بوقار، في الواقع ـ حينذاك فقط يكون في غير محله نوعاً على طاحونة

بن. قيل ان الأسلاف القدامى إستخدموا مثل هذه الرسومات المتكررة على توابيتهم الحجرية. المقدس والفاحش كانا تقريباً الشيء نفسه بالنسبة لهم.»

«يمكنني القول ان الأميرة كانت أقرب الى الصنف الثاني»، قال بيرنز. «على أي حال ما تزال تبعث لي أروع السيجائر، رائعة بدرجة إستثنائية، كما تعرف، يتم إقتناؤها فقط في مناسبات الدرجة الأولى.» إلتقط العلبة مبهرجة الألوان من الخزانة وناولها لهما. سحب يواكيم عقبيه الى بعضهما بينما كان يتسلم سيجارته. هانز كاستورب خدم نفسه متناولاً سيجارة، كانت كبيرة وثخينة بطريقة غير اعتيادية، عليها عنقاء ذهبية. شرع يدخن ـ كانت رائعة، كما قال بيرنز.

«اخبرنا المزيد عن الجلد»، توسل الى هوفرات؛ «أي، إذا تلطفت علينا.» وضع صورة السيدة شوشا على ركبته، وكان يتطلع إليها، متكئاً الى الخلف في كرسيه، السيجارة بين شفتيه. «ليس عن طبقة الدهن، نحن نعرف عن ذلك الآن. عن الجلد البشري عموماً، الذي تعرف كيف ترسمه بصورة جيدة جداً.»

«عن الجلد. أنت مولع بعلم وظائف الأعضاء؟»

«جداً. نعم، أشعر دوماً بمقدار كبير من الولع به. الجسد البشري ـ نعم، لي دوماً ميل غير مألوف إليه. في بعض الأحيان أسائل نفسي ما إذا توجّب عليّ أن لا أكون طبيباً ـ لن تكون هذه فكرة سيئة، بنحو ما. لأنك إذا كنت مولعاً بالجسد، لا بد أن تكون مولعاً بالمرض ـ مولعاً بنحو خاص، أليس كذلك؟ لكن هذا لا يهم، كان بوسعي أن أكون في مهن عديدة ـ كاهناً، على سبيل المثال.»

«حقاً؟»

«نعم، غالباً تخطر ببالي فكرة مفادها ان عليّ أن أكون بلا ريب في محيطي الملائم هناك.»

«كيف حدث أن أصبحت مهندساً، إذاً؟»

«حدث لي أن ـ كانت تقريباً ظروف خارجية قد قررت المسألة.»

«حسن، عن الجلد. ماذا تريد أن تسمع عن غلافك الحسي؟ أنت

تعرف، أليس كذلك، انه دماغك الخارجي. من الناحية الأونتوجينية(٤٤) هو ذلك الجهاز نفسه الخاص بالمراكز المسماة بالعليا هناك في الأعالي في قحفك؟ ان الجهاز العصبي المركزي ما هو إلا تعديل لطبقة الجلد الخارجية: بين الحيوانات الأدنى الفارق بين المركزي والمحيطي لا وجود له، انها تشم وتتذوق بوساطة جلودها، انه العضو الحسي الوحيد الذي تمتلكه. لا بد أن يكون جميلاً نوعاً ما ـ إذا إستطعت ان تضع نفسك في مكانها. من ناحية أخرى، في شكلين مختلفين تماماً للكائن الحي كالإختلاف بيننا نحن الإثنين، الجلد هوى من منزلته الرفيعة؛ توجّب عليه أن يقصر نفسه على الإحساس بالدغدغة؛ أي، أن يكون ببساطة جهازاً وقائياً وجهاز تسجيل ـ إنما متيقظ بصورة مفرطة لكل شيء يحاول أن يقترب كثيراً جداً من الجسم. انه كذلك ينشر المجسات ـ شعرات الجسد التي هي مجرد خلايا جلدية متصلبة ـ وتكتشف اقتراب أي شيء كان، قبل أن يُمس الجلد نفسه. بيني وبينك، من الممكن تماماً ان هذه الوظيفة الوقائية والدماغية للجلد تمتد الى وراء ما هو جسدي. هل تعرف ما الذي يجعلك تغدو أحمر أو شاحباً؟».

«لا أعرف على وجه الدقة.»

«حسن، ولا حتى نحن. [على وجه الدقة]، كي نكون صريحين ـ في الأقل، بقدر تعلق الأمر بالإحمرار. المسألة ليست واضحة تماماً، ذلك ان العضلات المعوّقة التي يفترض انها تبدأ بالعمل بفعل الأعصاب المحركة للأوعية الدموية لم يتم توضيحها بعد في ما يتعلق بالأوعية الدموية. كيف يضخم الديك عِرفه حقاً، أو أي واحد من الأمثلة الأخرى المشهورة التي تحدث، هذا ما يزال مبهماً، خاصة حيثما تكون مسألة التأثيرات العاطفية في حالة نشاط. نحن نفترض ان هناك رابطة بين القشرة الخارجية للمخ وبين مركز الأوعية الدموية في النخاع. ان حوافزاً معينة ـ على سبيل المثال، دعنا نقول، كأن تكون مرتبكاً بدرجة شديدة، تحرض الرابطة، والأعصاب التي تسيطر على وظيفة الأوعية الدموية قرب الوجه، فتتوسع وتمتلئ، وتغدو

---

(٤٤) الأونتوجينية ontogenesis: تاريخ تطور الكائن الفرد ـ المترجم.

سحنتك أشبه بديك تركي، وجهك كله ينتفخ بالدم لذا لا تستطيع أن ترى بعينيك. من الناحية الأخرى، افترض انك في ترقب، ان شيئاً ما سيحدث ـ ربما يكون شيئاً جميلاً بشكل هائل، لست أبالي البتة ـ الأوعية الدموية التي تغذي الجلد تتقلص، يغدو هو شاحباً وبارداً وغائراً، تبدو أنت أشبه بالرجل الميت، محجرا عينين كبيران بلون الرصاص وأنف شاحب. غير ان العاطفة تجعل فؤادك يضرب محدثاً صوتاً مكتوماً كفؤاد إنسان سليم.»

«هكذا يحدث إذاً»، قال هانز كاستورب.

«بصورة مشابهة لذلك. تلك هي ردود أفعال، كما تعرف. غير ان طبيعة ردود الأفعال والإنعكاسات اللاإرادية هي التي تكون سبباً في حدوثها؛ بدأنا نظن، نحن الإختصاصيين بعلم وظائف الأعضاء، ان الظواهر المرافقة للعاطفة هي في الحقيقة عمليات دفاعية، إنعكاسات لا إرادية وقائية للجسم. القشعريرة[٤٥]، الآن. هل تعرف كيف تصيبك القشعريرة؟»

«معذرة، ليس لي صورة واضحة جداً عن هذا الأمر أيضاً.»

«تلك حيلة صغيرة للغدد الدهنية، التي تفرز المادة الدهنية، الزلالية التي تزيت جلدنا وتبقيه طرياً، ويسرك أن تلمسه. ليس فاتحة جداً للشهية، ربما، لكن من دونها سيكون الجلد ذاوياً جداً ومشقوقاً. من دون الكولسترول، يشق علينا أن نتخيل أبداً مس الجلد البشري. هذه الغدد الدهنية لها عضلات مقلّصة قليلة تعمل عليها، وحين تفعل ذلك، عندئذ يكون حالك أشبه بحال الشاب حين صبت عليه الأميرة دلواً مليئاً بسمك المنوّة[٤٦]. جلدك يغدو كمبرد، وإذا كان المنبه قوياً جداً، تنتصب قنوات الشعر أيضاً، شعر رأسك ينتصب والشعرات الصغيرات في جسمك، تغدو كالأشواك الحادة فوق جسم النيص[٤٧] الشكس ـ وبوسعك القول، تغدو كالشاب في القصة، انك الآن تعرف كيف ترتجف وترتعد.»

«أوه»، قال هانز كاستورب، «الآن أعرف كيف. أنا أرتعش بسهولة

---

(٤٥) القشعريرة goose flesh: إنكماش الجلد من برد أو خوف إلخ ـ المترجم.

(٤٦) المنوّة minnows: سمك أوروبي صغير ـ المترجم.

(٤٧) النيص porcupine: حيوان شائك من القوارض ـ المترجم.

نوعاً، في كل ضروب الإثارات. فقط ما يدهشني هو ان الغدد تنتصب لأسباب متباينة تماماً. انك تشعر بالقشعريرة حين تسمع قلم رصاص يُمرر فوق لوح زجاج؛ ولكن حين تسمع موسيقى جميلة بنحو خاص فجأة تكتشف ان جسمك يقشعر أيضاً، وحين مُنحتُ التثبيت الديني وتناولتُ عشائي الرباني الأول، تملكتني القشعريرة الواحدة بعد الأخرى، بدا لي كما لو ان الوخز والدغدغة لن يفارقاني أبداً. تصور تلك العضلات الصغيرة تعمل لأسباب متباينة تماماً!»

«أوه»، قال بيرنز، «دغدغة الدغدغة. الجسم لن يمنح مغزىً لمحتوى المنبه. ربما يكون سمك المنوّة، ربما يكون الروح القدس، الغدد الدهنية تنتصب في الحالتين معاً.»

هانز كاستورب نظر الى الصورة فوق ركبته.

«سيد هوفرات»، قال، «أردت العودة الى شيء ما قلتُه منذ لحظة خلت، حول الفعاليات الباطنية، النشاط اللمفاوي، وذلك النوع من الأشياء. أخبرنا عنه ـ خاصة عن الجهاز اللمفاوي، انه يثير إهتمامي بشكل هائل.»

«أنا أصدقك»، أجاب بيرنز. «اللمف هو الأكثر نقاءً، الأكثر سريةً، الأكثر جوهرية من بين عصارات الجسم. أجرؤ على القول ان في بالك فكرة غامضة حين طرحتَ هذا السؤال. الناس يتحدثون عن الدم، عن أسرار تكوينه، وكم هو سائل إستثنائي. غير ان اللمف هو عصارة العصارات، الجوهر المطلق، فاهم، دم الآلهة، حليب ـ الدم، زبدة الزبدة، الواقع، بعد غذاء دهني يبدو هو شبيهاً بالحليب.» ومضى في اسلوبه الحيوي والغريب، كي يشبع رغبة هانز كاستورب. وفي البدء صور خصائص الدم، مصل يتألف من الدهن، الزلال، الحديد، السكر والملح، قرمزي اللون كستارة المسرح، نتاج التنفس والهضم، مشبع بالغازات، محمل بالمواد الفائضة، والذي يُضخ بدرجة حرارة ٩٨,٤ فهرنهايت من القلب عبر الأوعية الدموية، ويحافظ على الأيض والحرارة الجسدية في كل أنحاء الجسم ـ بتعبير آخر، الحياة الحلوة نفسها. لكنه، قال، الدم لا يمس خلايا الجسم مساً مباشراً. ما يحدث هو ان الضغط الذي يُضخ به يجعل خلاصته الحليبية تنز عبر الأوعية الدموية،

وهكذا تصل الى الأنسجة، وتملأ كل صدع وشق صغير جداً، وتجعل النسيج المطاطي يتضخم. تضخم الأنسجة هذا، أو الانتفاخ، يدفع اللمف بقوة مطردة بعد أن يكون قد أطعم الخلايا بصورة جيدة وتبادل المواد معها، الى vasa lymphatica، أي الأوعية اللمفاوية، وهكذا يعود ثانية الى الدم، بمعدل لتر ونصف يومياً. تابع حديثه عن الأنابيب اللمفاوية والأوعية الماصة؛ وصف إفراز حليب الأم، الذي يجمع اللمف من الساقين، البطن، والصدر، ذراع واحدة، وجانب واحد من الرأس؛ وصف المرشحات ذوات التراكيب الدقيقة جداً المسماة الغدد اللمفاوية الموجودة في نقاط معينة في الجهاز اللمفاوي، في العنق، الابط، ومفصل المرفق، التجويف الكائن أسفل الركبة، وأجزاء رخوة وجوهرية أخرى من الجسم.

«قد تحدث إنتفاخات في هذه المواضع»، فسر بيرنز. «إزدياد العناصر الليفية في الغدد اللمفاوية، دعنا نقل، في الرضفة أو مفصل الذراع، أورام إستسقائية هنا وهناك، ونحن نسند تشخيصنا عليها ـ دوماً يكون لها سبب ما، مع انه لا يكون دوماً جيداً جداً. في مثل هذه الحالات يكون هناك أكثر من إشتباه بوجود إحتقان سُلّي في الأوعية اللمفاوية.»

لزم هانز كاستورب الصمت بعض الوقت.

«نعم»، قال، ومن ثم بصوت خفيض: «حقيقة، ربما كان بوسعي أن أكون طبيباً. أما تدفق حليب الأم ـ لمف الساقين ـ ذلك كله يثير اهتمامي بدرجة، بدرجة كبيرة جداً. ما هو البدن؟» إنفجر بنحو حماسي الى حد الإفراط. «ما هو الجسد؟ ما هي الكينونة الفيزيائية للإنسان؟ من أي شيء يتكون هو؟ أخبرنا بهذا عصر اليوم، سيد هوفرات، قل لنا بالضبط، ومرة والى الأبد، كي نستطيع أن نعرف!»

«من الماء»، أجاب بيرنز. «إذاً أنت مولع بالكيمياء العضوية أيضاً؟ الجسم البشري يتكون، جزؤه الأعظم، من الماء. الأجزاء الصلبة لا تشكل سوى خمسة وعشرين بالمائة من الكل، ومن تلك العشرين البياض الإعتيادي للبيض، البروتين، إذا أردت أن تستخدم كلمة أكثر ملاءمة. فضلاً عن ذلك، قليل من الدهن وقليل من الملح، هذا تقريباً كل شيء.»

«لكن بياض البيض ـ ما هو؟»

«مواد أولية مختلفة: كاربون، هيدروجين، نيتروجين، أوكسجين، كبريت. غالباً فسفور. فضولك العلمي يتفوق على نفسه. بعض أنواع الزلال تشكل مركبات مع الكاربوهيدرات؛ أي، سكّر العنب والنشا. في الشيخوخة يغدو الجسم متيناً، هذا لأن الكولاجين يزداد في الأنسجة الرابطة ـ الكالسيوم، كما تعرف، هو أهم مكونات العظام والغضاريف. ماذا بعد يلزمني أن أخبرك به؟ في بلازما العضلة لدينا زلال يدعى فايبرين، حين يحدث الموت، يتخثر في النسيج العضلي، ويسبب تيبس الجسد.»

«صحيح ـ أوه، فهمت، تيبس الجسد»، قال هانز كاستورب بفرح.

«جيد جداً، جيد جداً. وبعدها يأتي التحليل العام ـ تشريح القبر.»

«نعم، بالطبع. لكن يا لجودة صياغتك! الحركة تصبح عامة، أنت تتدفق، إذا صح التعبير ـ تذكر ذلك الماء كله! المكونات المتبقية غير مستقرة بتاتاً؛ من دون حياة، هي تتحلل بوساطة التعفن الى مركبات أبسط، لا عضوية.»

«الإنحلال، التعفن»، قال هانز كاستورب. «هو الشيء نفسه كالإحتراق: الإتحاد مع الأوكسجين ـ ألستُ مصيباً؟»

«تماماً. تأكسد.»

«والحياة؟»

«تأكسد أيضاً. الشيء نفسه. نعم، أيها الشاب، الحياة أيضاً هي بشكل رئيس أكسدة الزلال الخلوي، الذي يهبنا تلك الحرارة الجسدية الجميلة، التي نملك منها أحياناً أكثر مما نحتاج. يووه، الحياة تتكون في الموت، لا فائدة من فرم المادة ـ الهدم العضوي، كما أسماه رجل فرنسي بطيشه الفطري. تفوح منه رائحة كتلك، أيضاً. إذا لم نفكر هكذا، سوف يُحرَّف حكمنا.»

«وإذا كان الإنسان مولعاً بالحياة، يلزم المرء أن يكون مولعاً بنحو خاص بالموت، أليس كذلك؟».

«أوه، حسن، مع ذلك، هناك نوع من الإختلاف. الحياة هي الحياة التي تحافظ على الشكل من خلال تغيير المادة.»

«لماذا يجب أن يبقى الشكل؟» قال هانز كاستورب.

«لماذا؟ أيها الشاب، ما تقوله الآن يبدو بعيداً عما هو إنساني.»

«الشكل هو شيء تافه.»

«حسن، أنت يقيناً في شكل عظيم اليوم ـ أنت تتمرد بانتظام. إنما ينبغي لي أن أنسحب الآن»، قال هوفرات. «بدأتُ أشعر بالكآبة»، ووضع يده الضخمة فوق عينيه. «أنا أشعر بها تأتي إليّ. كما تريان، شربتُ القهوة معكما، يبدو لي ان طعمها جيد، وعلى حين غرة يبدو لي انني أكاد أغدو كئيباً. أيها النبيلان يلزمكما أن تعذراني. كانت فرصة إضافية، إستمتعتُ بها بلا حدود ـ».

وثب ابنا الخالتين. وبخا نفسيهما لأنهما أرهقا صبر هوفرات مدة طويلة جداً. إحتج احتجاجاً مناسباً. أسرع هانز كاستورب ليحمل بورتريه السيدة شوشا الى الحجرة التالية وعلّقه مرةً أخرى على الجدار. لم يكونا بحاجة الى أن يقطعا الحديقة من جديد كي يصلا الى مسكنيهما الخاصين؛ ذلك ان بيرنز أرشدهما عبر البناية، ورافقهما الى باب الزجاج الفاصل. في المزاج الذي حدث له بصورة غير متوقعة على الإطلاق، طرفت عيناه الجاحظتان، وبرز عظم رقبته، كلا الإثنين أكثر من أي وقت مضى؛ شفته العليا، بالشارب الأحادي الجانب، المقصوص، إتخذت تعبيراً نكداً.

بينما كانا يجتازان الأروقة قال هانز كاستورب لابن خالته: «تعترف ان فكرتي كانت جيدة.»

«كان تغييراً، في الأقل»، أجاب يواكيم. «ويقيناً اغتنمتَ فرصتك في أن تعرب عن رؤاك في مواضيع جيدة عدة. كان ذلك شيئاً معقداً نسبياً بالنسبة لي. انه وقت محرج الآن بالنسبة لممارسة الإستراحة ـ العلاج، يجب أن يكون عندنا عشرين دقيقة في الأقل قبل الشاي. لعلك تظن انه شيء تافه أن نعير إهتماماً كبيراً جداً لها، الآن عليك أن تكيف نفسك على التمرد. لكنك لا تحتاجها كثيراً مثلي، على أية حال.»

والآن جاء، كان لا بد أن يأتي، ما لم يخطر ببال هانز كاستورب انه سيجربه: شتاء المكان، شتاء هذه المرتفعات الشاهقة. كان يواكيم يعرفه قبل الآن: كان عاملاً بطاقته كلها حين وصل السنة الماضية ـ غير ان هانز كاستورب شعر بالفزع منه بعض الشيء، مهما كان شعوره بكونه مكسواً بشكل جيد. يواكيم سعى الى إعادة طمأنته.

«يجب أن لا تتصوره مروّعاً أكثر مما هو فعلاً»، قال، «هو ليس قطبيشمالياً[48] حقيقةً. سوف تشعر ببرد أقل، على الرغم من جفاف الجو وغياب الرياح. انه الشيء المتعلق بتغير درجة الحرارة فوق حد الضباب الفاصل؛ إكتشفوا مؤخراً ان الجو يغدو أكثر دفئاً في الأمكنة العليا، وهو شيء لم يكونوا يعرفوه قبلاً. ينبغي لي القول ان الجو يصبح أكثر برودة حين ينهمر المطر. لكنك تملك كيس نومك، وانهم يشغلون التدفئة حين يتوجب عليهم تماماً فعل ذلك.»

والواقع لن يكون هناك أي حديث عن العنف أو المفاجآت؛ حل الشتاء بإعتدال، في البدء لم يكن مختلفاً عن أيام عدة شاهدوها في أوج الصيف. كانت الرياح جنوبية على مدى يومين كاملين، الشمس صمدت، بدا الوادي منكمشاً، الجدران الجانبية عند فمه بدت قريبة وجرداء. أقبلت السحب، خلف بيزميشيل وتينزينهورن، وإندفعت بسرعة صوب الشمال ـ الشرقي. إنهمر مطر غزير. ثم أضحى مطراً قاسياً، رمادياً ـ مبيضاً، ممتزجاً مع رقائق الثلج ـ وفي الحال أمسى كله ثلجاً، أمسى الوادي مليئاً بالثلج الخفيف؛ إستمر واستمر، إنخفضت درجة الحرارة بدرجة ملحوظة، بحيث ان الثلج المتساقط لم يكن يذوب تماماً، بل بقي يكسو الوادي بثوبٍ أبيض رطب ورث، مقارنةً به بدت سوداً أشجار الصنوبر في المنحدرات. في حجرة الطعام كانت المشعاعات فاترة. كان هذا في بداية تشرين الثاني (نوفمبر) ـ

---

(٤٨) قطبيشمالي arctic: ذو علاقة بالقطب المنجمد الشمالي ـ المترجم.

عيد الموتى[٤٩] ـ ولم يكن فيه أي جدّة. في آب (اغسطس) كان الوضع هكذا أيضاً؛ مضى زمن طويل منذ ان كانوا يعدون سقوط الثلج إمتيازاً للشتاء. آثار بيض تبقى بعد كل عاصفة في شقوق راتيكون الصخرية، السلسلة الجبلية التي بدت وكأنها تحرس نهاية الوادي، والأملاك البعيدة الواقعة في ناحية الجنوب كانت دوماً مغطاة بالثلج. إلا ان العاصفة وانخفاض درجة الحرارة استمرا معاً. سماء رمادية شاحبة تتدلى واطئة فوق الوادي؛ بدت وكأنها تذوب في رقائق الثلج وتسقط بلا صوت وبلا إنقطاع، الى أن يشعر المرء تقريباً بأنه مضطرب. أصبح الطقس أبرد في غضون تلك الساعة. جاء الصباح حين سجل المحرار في حجرة هانز كاستورب درجة حرارة ٤٤ فهرنهايت، في الصباح التالي أصبحت فقط ٤٠ فهرنهايت. كانت تلك باردة. بقيت درجة الحرارة ضمن الحدود، لكنها إستمرت. في الليل حصل الإنجماد؛ الآن يحصل الإنجماد نهاراً أيضاً، وعلى مدار اليوم؛ وكان الثلج يهطل باستمرار مع أوقات انقطاع قصيرة، خلال اليوم الرابع، الخامس، والسابع. الثلج إزداد بسرعة، أصبح شيئاً مزعجاً. الممرات جُرفت حتى المصطبة عند المجرى المائي، وفي الطريق الخاص حتى الوادي؛ غير ان هذه كانت ضيقة جداً، بحيث تستطيع فقط أن تمشي بطابور واحد، وإذا ما إلتقيتَ أحداً، عليك أن تتنحى عن الرصيف وتغوص حالاً حتى ركبتيك في الثلج. حادلة حجر يجرها حصان، مع رجل عند رسنه، تحدل على مدار اليوم جيئة وذهاباً الشوارع المؤدية الى المصح، في حين ان مركبة عمومية فرنسية صفراء اللون على بكرات، بدت أشبه بمركبة بريد كبيرة عتيقة الطراز، تسافر باستمرار بين القرية والمصح، بجرافة ثلج ثُبتت في مقدمتها، تجرف الكتل البيض جانباً. العالم، هذا العالم الضيق، المتغطرس، المنعزل هنا في الأعالي، بدا الآن متهادياً جداً ومنجداً في الواقع: لا عمود ولا قائمة إلا وارتدى (أو ارتدت) قبعته البيضاء؛ الدرجات المؤدية الى مدخل مصح

(٤٩) عيد الموتى All Souls Day: يصادف في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) ـ المترجم.

بيرغهوف تحولت الى مستوى مائل؛ وسائد ثقيلة، بأشكال مضحكة جداً، أثقلت أغصان أشجار التنوب الاسكتلندية، بين حين وحين تنزلق وسادة وتولّد غيمة من الغبار الأبيض الذروري خلال سقوطها. كانت المرتفعات تقريباً تهجع مكسوة بالثلج بكثافة، مناطقها السفلى قاسية مع الأشياء النامية دائمة الخضرة، أجزاؤها العليا، وراء النطاق الشجري(٥٠)، مكسوة برقة حتى قممها متعددة الأشكال. كان الجو مظلماً، الشمس ليست سوى شبح شاحب خلف حجاب. مع ذلك تألق معكوس باعتدال جاء من الثلج، وميض حليبي صار ضوؤه منظراً طبيعياً وبشرياً معاً، مع ان هؤلاء الأخيرين أظهروا أنوفاً حمراً تحت قبعاتهم الصوفية البيض أو بهيجة الألوان.

في حجرة الطعام بداية الشتاء ـ «موسم» المنطقة ـ كانت موضوع الحوار الدائر عند الموائد السبع كلها. قيل ان سائحين ورياضيين كثر وصلوا وأقاموا في فنادق الدورف والبلاتز. قُدّر إرتفاع الثلج المكدس بقدمين، وقيل ان متانته مثالية للتزلج. طريق الزلاجات الذي يمتد من المنحدر الشمالي ـ الغربي لـ الشاتزالث الى الوادي، كان يُعمل فيه بحماسة، ومن الجائز أن يفتح في الأيام القليلة القادمة، ما لم يُربك ذوبان ما الحسابات كلها. الجميع تطلعوا بلهفة الى فعاليات هؤلاء البشر الأصحاء هناك في الأسفل ـ تطلعوا الى الألعاب الرياضية والسباقات، التي كان حضورها ممنوعاً، ولكن عدداً من المرضى قرروا مشاهدتها، بالتغيب عن الراحة ـ العلاج والتسلل خارج مصح بيرغهوف. هانز كاستورب سمع عن رياضةٍ جديدة آتية من اسكندنافيا، تدعى: «التزحلق السحبي» تتألف من سباقات يُسحب المشاركون فيها بوساطة أحصنة بينما يكونون واقفين في زلاجاتهم. من أجل رؤية هذه الرياضة مرضى كثيرون قرروا أن ينسلوا من المنتجع. ـ كان هناك حديث أيضاً عن عيد الميلاد (الكريسماس).

عيد الميلاد! هانز كاستورب لم يفكر به حتى مرة واحدة. للعلم، بمرحٍ

(٥٠) النطاق الشجري timber line: الحد الذي لا ينمو الشجر بعده في الجبال والمناطق القطبية بسبب البرد ـ المترجم.

قال، وكتب، ان عليه أن يقضي الشتاء هنا في الأعالي مع يواكيم، بسبب ما إكتشفه الأطباء بخصوص حالته الصحية. لكنه الآن جفل لمعرفة ان عيد الميلاد سيكون ضمن البرنامج ـ أغلب الظن لأنه (ومع ذلك ليس تماماً لأنه) لم يُمضِ موسم عيد الميلاد في أي مكانٍ عدا حضن أسرته. حسن، إذا كان يتوجب عليه؛ فلا يمكنه سوى أن يصبر. لم يعد طفلاً؛ يواكيم بدا عليه انه لا يبالي، أو بطريقة أخرى كان قد كيّف نفسه من دون تذمر مع الشيء المتوقع؛ وعلى أية حال، قال لنفسه، وفكّر بكل الأمكنة والحالات التي تم فيها الإحتفال بعيد الميلاد قبل الآن!

مع ذلك بدا له انه شيء سابق لأوانه نوعاً أن يبدأ التفكير بعيد الميلاد حتى قبل موسم أيام الأحد الأربعة السابقة للميلاد، ستة أسابيع في الأقل قبل العطلة! حقيقة، ان مدة فاصلة كهذه كان من السهل أن يهملها النزلاء في ردهة الطعام: كانت عملية عقلية أظهر فيها هانز كاستورب بعض البراعة، مع انه لم يتعلم ممارستها بالإسلوب الجليل، كما فعل المقيمون الأقدم منه. عيد الميلاد، كباقي العطل خلال السنة، أفادهم كمركز إرتكاز، أو كعصا قفز، يستطيعون بوساطته أن يثبوا فوق مساحات خالية متخللة. كانوا يعانون من الحمى جميعاً، تسارع أيضهم؛ عملياتهم البدنية أبرزتْ، أُثيرتْ ـ لعل هذا كله يُعزى الى اسلوب البيع بالجملة الذي كان بوسعهم أن يقذفوا به الزمن وراء ظهورهم. ما كان ليندهش كثيراً لسماعهم وهم يقللون من أهمية عطلة عيد الميلاد أيضاً، ويأخذون حالاً بالحديث عن السنة الميلادية الجديدة وعيد المرفع. لكن لا، لم يكونوا نزويين جداً وغير مستقرين كما هم عليه الآن، في حجرة الطعام في مصح بيرغهوف. عيد الميلاد منحهم فترة توقف، ومنحهم كذلك مادة للقلق ولإجهاد العقل. كان من العُرف أن تقدم هدية الى هوفرات عشية عيد الميلاد، حيث يُجمع مبلغ من المال بين النزلاء، وتكون هذه الهدية موضوعاً للكثير من التروي. عُقد اجتماع. السنة الماضية، هكذا قال المقيمون القدامى، قدموا له صندوق ثياب للسفر؛ هذه المرة تم التفكير بـ طاولة عمليات جراحية جديدة، حامل لوحة الرسم، سترة فراء، كرسي هزاز، سماعة طبية عاج مزخرفة بطريقة الحفر والتنزيل. سُئِل سيتيمبريني عن

اقتراحاته، فاقترح أن يقدموا لـ هوفرات عملاً موسوعياً أُنجز حديثاً يدعى «علم إجتماع المعاناة»؛ لكنه وجد شخصاً واحداً فقط يؤيده، وهو تاجر كتب كان جالساً الى مائدة هرمينه كليفيلد. باختصار، لم يتم التوصل الى قرارٍ ما. كانت هناك صعوبة في التوصل الى اتفاق مع النزلاء الروس، إذ حصل إختلاف في الأفكار. أعلن الموسكوفيون عن تفضيلهم فكرة تقديم هدية مستقلة من قبل كل نزيل. واستبد الغضب الشديد بالسيدة شتور أياماً معدودات بسبب قرض قدره عشر فرنكات كانت قدمته بصورة غير مستحسنة للسيدة إلتيس في الإجتماع و«نسيتْ» الأخيرة أن تعيده. كانت قد «نسيته». ظلال المعنى التي كانت السيدة شتور تنوي أن تنقلها في هذه الكلمة كانت عديدة ومختلفة، غير انها قاطبة عبرت عن الانكار التام لفقدان ذاكرة السيدة إلتيس، الذي، كما ظهر، كان برهاناً ضد تلميحات ونخسات السيدة شتور التي اعترفت صراحة انها قدمته (أي القرض) كمساعدة. مرات عديدة أعلنت انها سوف تتخلى عن حقها في القرض، وتجعل المال هدية للسيدة إلتيس. «سوف أدفع عنها وعني»، قالت. «عندئذ تنانيري ستكون منظفة!» لكنها في الختام إكتشفت بالمصادفة خطة أخرى وأبلغتها لزملاء مائدتها، ويا لسرورهم العظيم: كانت قد إتخذت (التدبير) بأن حولت قرض الفرنكات العشر الى شكل جديد وأدخلته في القائمة الاسبوعية للسيدة إلتيس. وهكذا المدينة المعارضة فاقتها دهاءً[٥١]، وفي الأقل تم تسوية هذا الجانب من المسألة.

توقف سقوط الثلج، وبدأت السماء تصفو. كتل السُحُب الرمادية ـ الزرق تفرقت كي تفسح مجالاً لمقادير ضئيلة من الشمس، التي منحت أشعتها ظلاً مزرقاً للمشهد. ثم أصبح المناخ معتدلاً بكل ما في الكلمة من معنى؛ صقيع ساطع وصلب وإشراق شتائي مستقر سادا في منتصف تشرين الثاني (نوفمبر). قوس الشرفة أطر بانوراما بهية لغابة مكسوة بذرور الثلج، وممرات ووهاد مملوءة برقة، وديان بيض مضاءة بالشمس، وسماء زرقاء مشعة فوق كل شيء. في المساء، حين ظهر القمر الذي كان بدراً تقريباً،

(٥١) outwitted: أي ان السيدة شتور فاقت السيدة إلتيس دهاءً ـ المترجم.

وقع العالم في بهاء مفتون، عجيب. أشبه بالكريستال والماس تألقت بعيدةً ورحبةً، الغابة قامت سوداء جداً وبيضاء، جهة السماء حيث لم يكن القمر يبدو قاتم السواد، كانت مطرزة بالنجوم. على السطح الوامض للثلج، ظلال، قوية جداً، حادة جداً، ومعلّمة الحدود بجلاء بحيث بدت، تقريباً، حقيقية أكثر من الأشياء نفسها، ظلال ترامت من المنازل، الأشجار، أعمدة التلغراف. بعد ساعة من الغروب أو نحو ذلك كانت هناك نحو أربع عشرة درجة من الصقيع. العالم بدا مسحوراً في نقاء جليدي، عيوبه الأرضية حُجبت؛ هجع ثابتاً في غشية مسحورة، أشبه بالموت.

مكث هانز كاستورب حتى ساعةٍ متأخرة من الليل في شرفته فوق مشهد الشتاء المحجوب ـ مدةً أطول بكثير من يواكيم، الذي إنسحب عند العاشرة أو ما يزيد عنها بقليل. كرسيه الممتاز، بالحشية المقطعية ولفة العنق، سحبه قريباً من الدرابزين المتوسد بالثلج؛ في متناول يده الطاولة ذات مصباح القراءة المنوّر، كدس من الكتب، وكأس من الحليب الكريمي، «حليب المساء» الذي يُؤتى به الى كل حجرة من حجرات النزلاء في تمام الساعة التاسعة. هانز كاستورب وضع وابلاً من الكونياك في كأسه، كي يجعله سائغاً أكثر. كان الآن قد أفاد نفسه من كل سبل الحماية من البرد، من التجهيزات الكاملة: رقد محجوباً حتى صدره في كيس النوم المزرر الذي ناله في واحدٍ من المخازن المؤثثة جيداً في البلاتز، مع بطانيتي وبر الجمل مطويتين فوقه بحسب الطقس. إرتدى بذلته الشتائية، مع سترة صوف قصيرة فوقها، قبعة صوف، جزمتي لباد، وقفازين ببطانتين سميكتين، اللذين، على أية حال، لم يستطيعا أن يحولا دون تيبس أصابعه.

ما الذي أبقاه حتى هذا الوقت المتأخر.. عادةً حتى منتصف الليل ووراءه، بعد أن يترك الزوجان الروسيان «السيئان» مقصورتهما بكثير، كان جزئياً سحر ليل الشتاء الذي، حتى الحادية عشرة، تذبذبت فيه الألحان المتصاعدة للموسيقى الآتية من قريب أو بعيد. والأكثر من ذلك يُعزى الى الكسل والإهتياج، كلاهما معاً، وفي مزيجهما: الكسل الجسماني، الإرهاق الجسدي الذي يبغض أي فكرة متعلقة بالحركة؛ والإهتياج العقلي،

الاستغراق الناشط لأفكاره في دراسات جديدة وفاتنة كان الشاب قد باشر العمل فيها، والتي جعلت دماغه لا يعرف الراحة. المناخ أثر فيه، جسمه تحفز بفعل البرد؛ جعل يأكل بشكل هائل، ملتهماً وجبات طعام مصح بيرغهوف، حيث الإوز المشوي يتبع لحم البقر المشوي، مع شهية مصح بيرغهوف المألوفة، التي كانت عادة في الشتاء أضخم مما هي عليه في الصيف. وفي الوقت نفسه كان له توق شديد سرمدي الى النوم؛ خلال ساعات النهار، إضافة الى الأمسيات المنوّرة بضوء القمر، كان يغلبه النعاس وهو يطالع كتبه، وثم، بعد غياب عن الوعي يستغرق دقائق قليلة، يلجأ ثانية الى البحث. الحديث يرهقه. كان ميالاً أكثر مما هي عادته الى الكلام السريع، غير المكبوت، وحتى الطائش؛ لكنه إذا تكلم، مع يواكيم، حين يذهبان في جولتيهما الثلجيتين على الأقدام، كان عرضةً لأن يستبد به الدوار والإرتعاش، فيشعر بالدوخان والترنح، ويصعد الدم الى رأسه. مُنحني حرارته إرتفع منذ إقتراب الشتاء، وهوفرات بيرنز أشار مصادفةً الى شيء ما عن الحقن، كانت هذه تُعطى في حالات الحرارة العالية العنيدة، وكان يواكيم وثلثا النزلاء قد أخذوها. أما هو نفسه فقد شعر بأنه متيقن من أن الزيادة في حرارة الجسم لها علاقة بالنشاط العقلي والإهتياج اللذين جعلاه يبقى في كرسيه على الشرفة حتى وقت متأخر من الليل المتألق الصقيعي. القراءة التي جعلته يتأخر كثيراً أوحت لعقله بهذا التفسير.

ليس ثمة حتى قراءة قليلة، في ردهات الإستراحة والشرفات الخصوصية العائدة لمصح بيرغهوف العالمي؛ والقراءة عموماً، وعلى أي حال، يقوم بها القادمون الجدد و«أولئك الذين يقضون أوقات قصيرةً» ذلك ان المرضى المستقرين شهوراً أو سنوات تعلموا من زمن طويل أن يقتلوا وقتهم من دون مجهود عقلي أو وسائل اللهو بوساطة براعة عقلية معينة حدث ان امتلكوها. وكذلك عدّوه سلوكاً سمجاً للمبتدئين إذا ما غرّيت نفسك بكتابٍ ما. كان يكفي أن يكون لك كتاب في حضنك أو على طاولتك الصغيرة، في حالة الحاجة للقراءة. ان مجموعة الكتب المتوفرة في المؤسسة كانت تضخيماً للمطبوعات التي يجدها المرء في حجرة انتظار طبيب الأسنان، بلغات عدة،

حافلة بالصور، وتُقدّم مجاناً. تبادل النزلاء بينهم مجلدات من مكتبة الإعارة الكائنة في الأسفل، في البلاتز؛ بين حين وحين يكون هناك كتاب يتزاحم عليه الجميع، حتى المقيمون القدامى المتنازلون يمدون أيديهم بلهفة سيئة الإخفاء. حالياً هناك مجلد ذو غلاف من الورق الرخيص، قدّمه السيد ألبين، يحمل عنوان: «فن الغواية»: وهو ترجمة حرفية عن الفرنسية، حافظت حتى على بناء الجمل في تلك اللغة، وهكذا اكتسبت أناقة التقديم وحدّته. كانت مادة الكتاب شرح لفلسفة العاطفة الحسية، أُوضحت بروح مبتهجة لرجل يمتاز بالوثنية الدنيوية. السيدة شتور طالعته مبكراً وأعلنت انه ببساطة كتاب ساحر. السيدة ماغنوس، نفسها التي فقدت قدرتها على إحتمال الزلال، أبدت قولها بلا تحفظ. زوجها صانع البيرة مع انه إستفاد شخصياً من القراءة، لكنه أسف لأن زوجته قامت بذلك، معتبرا أن مثل هذه القراءة تفسد النساء وتمنحهن أفكاراً غير محتشمة. ملاحظاته هذه لم تزد ولا ذرة تداول المجلد. سيدتان من ردهة الاستراحة السفلية، السيدة ريديش، زوجة قطب(٥٢) صناعي بولندي، والسيدة هيسينفيلد، أرملة من برلين، الواصلتان حديثا، أي منذ تشرين الأول (اكتوبر)، طالبتا بالكتاب في الوقت نفسه، ونشأت حادثة داعية للأسف بعد الغداء، أجل، أكثر من داعية للأسف، ذلك انه كان هناك مشهد عنيف، سمعه هانز كاستورب بالمصادفة، في شرفته في الأعلى. إنتهى بتشنجات الهستيريا من جانب إحدى المرأتين ـ لعلها كانت السيدة ريديتش، ولكن بالقدر نفسه من الجائز أن تكون السيدة هيسينفيلد ـ وانطلقت خارجةً عن طورها الى حجرتها الخاصة. شبيبة المكان استولوا على البحث قبل أولئك الأكبر منهم سناً؛ دارسين إياه جزئياً بهيئة مجموعات، بعد العشاء، في حجراتهم المختلفة، هانز كاستورب نفسه شاهد الشاب ذا إظفر اليد يسلّمه الى فرانزخين أوبردانك في حجرة الطعام، وهي وافدة جديدة وحالتها خفيفة طبياً، وهي امرأة شابة ذات شعر كتاني جلبتها أمها تواً الى المصح.

ربما تكون هناك إستثناءات؛ ربما يكون هناك أولئك الذين وظفوا

---

(٥٢) القطب magnate: شخص ذو مكانة أو سلطة أو تفوق في حقل ما ـ المترجم.

ساعات الإستراحة ـ العلاج بصنعة عقلانية جدية نوعاً، دراسة معينة مفيدة ممكن تصورها، إما بوساطة ملامسة الحياة في الأراضي المنخفضة، أو كي يمنحوا وزناً وعمقاً للساعة المنصرمة، فربما لا تكون زمناً خالصاً ولا أي شيء غير ذلك. أغلب الظن هنا وهناك ثمة واحد ـ ناهيك، بالطبع، عن ذكر السيد سيتيمبريني، بحماسته لإزالة المعاناة البشرية، أو يواكيم بكتاب تعلّم الروسية خاصته، نعم، ربما يكون هناك واحد، أو اثنان، منهمكان هكذا، إن لم يكونا بين نزلاء حجرة الطعام، الأمر الذي يبدو غير مرجح تماماً، إذاً بين طريحي الفراش والهالكين. كان هانز كاستورب ميالاً الى الإيمان به. هو نفسه، بعد أن تشرّب كل ما إستطاع ان يمنحه إياه «بواخر المحيط»، طلب كتباً معينة من البيت، بعضها تتعلق بمهنته، ووصلت إليه مع ملابسه الشتوية: الهندسة العلمية، تكنيك بناء السفن، وما شاكل. غير ان هذه المجلات بقيت الآن مهملة لصالح كتب مدرسية أخرى تنتمي الى حقل مختلف تماماً، اهتمام إستحوذ على الشاب: علم التشريح، علم وظائف الأعضاء، علم الأحياء، أعمال بالألمانية، بالفرنسية والإنجليزية، أُرسلت الى مصح بيرغهوف من قبل تاجر كتب في القرية، بنحوٍ جلي لأن هانز كاستورب كان قد طلبها، وهذا هو واقع الحال. كان قد قام بذلك بفعل حافزه الذاتي، من دون أن يخبر أحداً، في جولة وحيدة قام بها ماشياً الى البلاتز بينما كان يواكيم منشغلاً بالوزن الاسبوعي أو بالحقنة. ابن خالته إندهش حين رأى الكتب بين يديّ هانز كاستورب. كانت غالية الثمن، كشأن الكتب العلمية دوماً: كانت الأسعار معلّمة على الأغلفة الورقية وعلى داخل الأغلفة الأمامية. سأل يواكيم لماذا، إذا كان ابن خالته يروم قراءة مثل تلك الكتب، لم يستعرها من هوفرات، الذي كان يقيناً يمتلك مواداً أُحسن اختيارها. أجاب الشاب انه شيء مختلف أن يقرأ المرء كتاباً هو ملكه الشخصي؛ فمن جانبه، كان يجب أن يؤشر على الكتب ويضع خطوطاً تحت الفقرات بقلم الرصاص. كان بوسع يواكيم أن يسمع، ساعات بلا انقطاع، الضوضاء الناتجة عن سكين الورق وهي تمر خلال الأوراق غير المقصوصة.

كانت المجلدات ثقيلة، غير ملائمة للإستعمال. هانز كاستورب يسندها

على صدره أو بطنه حين يرقد؛ كانت ثقيلة، لكنه لم يبالِ. مضطجعاً هناك، فمه نصف مفتوح، كان يجعل عينه تنزلق على الورقة العلمية، التي سقط عليها الضوء من مصباحه ذي الظُلة الحمراء، مع انه كان بوسعه أن يقرأ، إذا شاء، مستغلا ضوء القمر وحده. كان يطالع، متتبعاً السطور من أعلى الصفحة الى أسفلها برأسه، الى أن، في أسفل الصفحة، يغوص ذقنه في صدره ـ وفي هذا الوضع يتوقف القارئ قليلاً أو متأملاً في نصف سبات، قبل أن يرفع عينيه الى الصفحة التالية. كان يسبر المادة العلمية بعمق. بينما يتخذ القمر طريقه المحدد فوق الاشراقات البلورية لوادي الجبل، قرأ عن مادة متعضية[٥٣]، عن صفات البروتوبلازم، تلك المادة الحساسة التي تحافظ على نفسها في تقلب إستثنائي بين البناء والهدم؛ عن هيئة نشأت عن شيء بدائي، لكنه موجود دوماً، شيء أولي؛ قرأ بولعٍ مفروض عليه عن الحياة، وأسرارها المقدسة والبذيئة.

ما هي الحياة؟ لا أحد يعرف. كانت هي بلا ريب تعي نفسها، مبكراً جداً طالما انها حياة، لكنها لم تكن تعرف كنهها. الوعي، كما صوّر بوساطة الحساسية للمنبه، كان بصورة لا يرقى إليها الشك، الى درجة ما، موجوداً في أدنى مراحل الحياة وأقلها تطوراً، انه شيء محال أن نثبّت أول ظهور للعمليات الواعية عند أي نقطة في تاريخ الفرد أو السلالة، محال أن نجعل الوعي متوقفاً على شيء آخر، مثلاً، وجود الجهاز العصبي. الأنواع الحيوانية الأدنى ليس لها جهاز عصبي، ولا حتى دماغ؛ مع ذلك لا أحد يستطيع أن يغامر فينكر قدرتها على الإستجابة للمنبهات. بوسع المرء أن يعطل الحياة مؤقتاً؛ ليس حصراً أعضاء حسية معينة، ليس فقط ردود الأفعال العصبية، بل الحياة نفسها. بمستطاع المرء ان يوقف مؤقتاً التأثر بالإحساس في أي شكل من أشكال المادة الحية في النبات كما في المملكة الحيوانية؛ بوسع المرء أن يخدر البويضات والحيوانات المنوية بالكلوروفورم $CHCl_3$، الكلورو هيدرِيْت، أو المورفين. الوعي، إذاً، هو ببساطة وظيفة مادة عُضيتْ الى كائن

(٥٣) متعضية organized: من يتعضى: أي يجعله ذا بنية عضوية ـ المترجم.

حي، وظيفة بحيث انها في أعلى مظاهرها تتخلى عن تجسدها لفكرة ما في شخص معين، وتغدو مجهوداً لإستكشاف وتفسير الظاهرة التي عرضتها ـ وهو مشروع حياتي مفعم بالأمل ـ يائس من أجل تحقيق معرفة الذات، وهو مشروع ذو إرتداد طبيعي ـ وعبثاً، في حالة، طالما انها غير قادرة على أن تكون موطدة العزم في المعرفة، ولا حتى في الحياة، حين يكون كل شيء قد قيل، في حالة إذا أصغتْ الى نفسها.

ما هي الحياة؟ لا أحد يعرف. لا أحد يعرف النقطة الحقيقية التي تثب منها، أين تضيء نفسها. لا شيء في حقل الحياة يبدو غير مخلوق، أو مخلوقاً بصورة غير كافية، من تلك النقطة فصاعداً؛ لكن الحياة نفسها بدت من دون سابقة. إذا كان ثمة شيء ما يمكن أن يقال عنها، فهو هذا: لا بد أن تكون هي متطورة كثيراً جداً، بنيوياً، ذلك أن لا شيء حتى ذلك الذي له علاقة بعيدة بها كان موجوداً في العالم غير العضوي. بين الأمُوبا (amoeba) متقلبة الأشكال والحيوان الفقاري الفرق طفيف، غير جوهري، إذا ما قورن بالفرق بين كائن حي وتلك الطبيعة التي لا تستحق حتى أن تُسمى ميتة، لأنها غير عضوية. ذلك ان الموت هو فقط النقيض المنطقي للحياة؛ لكن بين الحياة والطبيعة اللاحية ينشق خليج كافح البحث عبثاً من أجل إقامة جسر عليه. حاولوا إغلاقه بالفرضيات التي إبتلعها هذا الخليج من دون أن يغدو أقل عمقاً أو سعة. ساعين الى أداة توصيل، تنازلوا الى الإفتراض المنافي للعقل للمادة الحية عديمة البنية، الكائنات اللا عضوية، التي إندفعت كالسهم جماعياً في محلول الزلال، كالبلورات في أم السوائل؛ مع ذلك الإختلاف العضوي بقي حالاً حالةً وتعبيراً للحياة كلها. بوسع المرء أن يشير الى انه ليس ثمة شكل للحياة لا يدين بوجوده الى الإنجاب من قبل الوالدين. كانوا قد إصطادوا الوحل البدائي من عمق البحر، وعظيماً كان الإبتهاج ـ غير ان نهاية هذا كله كانت عاراً وتشوشاً. فقد إتضح انهم أخطأوا في راسب سلفات الكالسيوم فظنوه بروتوبلازم. لكن حينذاك، كي يتجنبوا التردد أمام إعجوبة ما ـ ذلك ان الحياة التي تبني نفسها خارج، وتنهار خربةً في، النوع نفسه من المادة كطبيعة لا عضوية، تكون، يحدث هذا تلقائياً، خارقةً ـ كانوا مساقين

للإيمان بذرية تلقائية ـ أي، في إنبثاق العضوي من اللا عضوي ـ الأمر الذي كان شبيهاً جداً بمعجزة. هكذا إستمروا، إخترعوا مراحل وسطية وانتقالات، مفترضين وجود كائنات بقيت أدنى من كائنات معروفة حتى الآن، لكنها هي نفسها كان لها كأسلافها جهود طبيعية أكثر بدائية من أجل تحقيق الحياة: أنواع بدائية لم يستطع أحد أن يشاهدها أبداً، لأنها كلها كانت أصغر من الحجم الميكروسكوبي، وقبل وجودها الإفتراضي، يحدث حتماً تكوّن مركبات البروتين.

ما هي الحياة إذاً؟ انها الدفء، الدفء الذي يولّده عدم الإستقرار الحافظ للشكل، حمى المادة، التي رافقت الخراب والإصلاح اللا منقطعين لجزيئات الزلال التي كانت معقدة بصورة بغيضة جداً، بارعة بصورة بغيضة جداً في التركيب. انها الوجود غير المحتمل وجوده، الخاص بالموازنة نصف الحلوة، نصف الموجعة، أو الموازنة النادرة، في هذه العملية المحدودة وشديدة النشاط المتعلقة بالخراب والتجديد، الخاصة بمسألة الوجود. هي ليست مادة، وهي ليست روحاً، ولكن شيئاً ما بين الاثنين، ظاهرة تنقلها المادة، كقوس قزح في الشلال، وكاللهب. مع ذلك لِمَ لا تكون مادية ـ انها حساسة الى درجة الرغبة والإشمئزاز، وقاحة المادة تصبح مدركة لنفسها، الشكل الفياض للكينونة. هي نشاط سري ومتحمس في الطهارة المنجمدة للقضية الكلية؛ انها بذاءة مسروقة وشهوانية للمص والإفراز؛ زفير لغاز الكاربونيك أسيد وشوائب مادية ذوات أصل وتركيب غامضين. انها تبرعم، تفتح، بناء الشكل (الذي أصبح ممكناً بفعل رجحان عدم إستقراره، مع ذلك تُسيطر عليه قوانين النمو المتوارثة في داخله)، لشيء ما يتخمرِ من الماء، الزلال، الملح والدهون، الذي يسمى الجسد، والذي يصبح شكلاً، شيئاً جميلاً، صورة نبيلة، ومع ذلك طوال الوقت جوهر الحِسية والرغبة. ذلك ان هذا الشكل والشيء الجميل لا يحتويان على الروح، ومثل شكل النحت وجماله، لا يُنقلان بوساطة مادة حيادية ومتلِفة للروح، والتي تستطيع بنقاء تام أن تجعل الشيء الجميل ممكن إدراكه من قبل الحواس. بالأحرى يُنقل ويتخذ شكلاً ما بوساطة شهوانية المادة التي تم

إيقاظها نسبياً، المادة العضوية، الميتة ـ الحية نفسها، الجسد الذي تفوح منه رائحة كريهة.

بينما هو راقد هناك فوق الوادي المتألق، ملتفاً بالدفء الجسدي الذي وفره له الفرو والصوف، في الليل الصقيعي المضاء بالسطوع الآتي من نجمة عديمة الحياة، صورة الحياة عرضت نفسها للشاب هانز كاستورب. رفرفت أمامه، في مكانٍ ما في الفضاء، بعيداً عن متناول يده، مع ذلك قريباً من إحساسه؛ هذا الجسم، هذه الهيئة المبيضة بصورة شفافة، تطلق أنواعاً مختلفة من الزفير، رطبة وندية؛ الجلد بكل عيوبه وشوائبه الفطرية، ببقعه، ببثوره، ولطخاته، أشيائه الشاذة؛ مناطقه القرنية، الشبيهة بالحراشف، مغطاة بأمواج ناعمة وثنيات زغب بدائي. إتكأتْ هناك، برزتْ للعيان إزاء الموت البارد للعالم البليد، في محيطها الضبابي الخاص، استرخت، الرأس متوَّج بشيء فاتر، قرني، ومصبوغ، الذي كأن نمواً لجلده؛ اليدان مشبكتان عند مؤخرة العنق. خفضت بصرها إليه تحت الجفنين المسبلين، ناظرةً إليه بعينين بدتا مائلتين بفعل الإختلاف العِرقي في تكوين الجفن. شفتاها نصف مفتوحتين، وكذلك ملفوفتان قليلاً. كانت تسند ثقلها على ساق واحدة، عظم الحوض برز بنحو حاد تحت اللحم، بينما الأخرى، مسترخيةً، آوتْ ركبتها المحنية بعض الشيء الى باطن الساق الساندة، ووازنتْ القدم فقط على الأصابع. هكذا إتكأت، لجأت الى الإبتسام، واضعة مرفقيها الوامضين على خاصرتها، في التناسق الزوجي لأطرافها وجذعها. الظلال اللاذعة، التي تصدر بخاراً، للإبطين توافقت بمثلث مبهم مع العتمة العانية[٥٤]، كما فعلت العينان مع فتحة الفم الحمراء، الطلائية، والأزاهير الحمر للثدي مع السرّة الواقعة عمودياً الى الأسفل. تحت الحافز العائد لعضو مركزي وللأعصاب الحركية الناشئة في النخاع الشوكي، الصدر والبطن يعملان، التجويف البريتوني يتمدد وينقبض، النَفَس، يسخن ويترطب بوساطة الغشاء المخاطي للقناة التنفسية، يتشبع بالإفرازات، يخرج من بين الشفتين، بعد ان يكون (أي

(٥٤) العانية pubic: الخاصة بالعانة ـ المترجم.

النَفَس) قد ربط أوكسجينه مع هيموغلوبين الدم في الخلايا الهوائية للرئتين. ذلك ان هانز كاستورب كان قد فهم هذا الجسم الحي، في التناسق الغامض لهيكله المغذى بالدم، الذي اخترقته الأعصاب، الأوردة، الشرايين والأوعية الدموية، بشبكته الداخلية المكونة من العظام ـ عظام أنبوبية مليئة بالنخاع، عظام لوحية، الفقرات ـ التي بالإضافة الى الكالسيوم نشأت من النسيج الهلامي الأصيل وأصبحت قويةً بدرجة كافية كي تسند ثقل الجسم؛ مع العُليبات والتجاويف المزيتة جيداً، أربطة وغضاريف مفاصلها، عضلاتها التي تزيد على المئتين، أعضاؤها المركزية التي تفيد للتغذية والتنفس، لتسجيل ونقل المنبهات، أغشيتها الوقائية، تجاويفها مصلية القوام، غددها مليئة بالإفرازات؛ مع جهاز الأوعية والأخاديد ذوات السطح الداخلي شديد التعقيد، تتصل من خلال فتحات الجسم مع العالم الخارجي ـ فهم هو ان هذه الأنا وحدة حية ذات نظام عالٍ جداً، بعيدة حقاً عن أشكال الحياة البسيطة جداً التي تتنفس، تستَقبل الغذاء، وكذلك فكر، بالسطح الكلي لأجسامها. كان يعرف انها مبنية من عدد ضخم من تلك الكائنات الحية الصغيرة، التي منشؤها في كائن واحد؛ والتي تضاعف عددها بوساطة الإنقسام المتكرر، كيفتْ نفسها مع الإستخدامات والوظائف المختلفة تماماً، فصلت، ميزت نفسها، أطلقت أنواعاً كانت حال ونتيجة نموها.

هذا الجسد، إذاً، الذي رفرف أمامه، هذه الأنا الفردية والحية، هي عدد هائل من الأشخاص المتنفسين والمغذين أنفسهم، والذين من خلال التكوين العضوي والتكيف مع غايات خاصة إفترقوا الى حدٍ ما بفرديتهم الجوهرية، حريتهم وبداهتهم الحية، أصبحوا عناصر تشريحية بحيث ان وظائف بعضها أصبحت محددة بالحساسية لـ الضوء، الصوت، اللمس، الدفء؛ العناصر الأخرى فقط فهمت كيف تغير شكلها أو تنتج إفرازات هضمية من خلال التقلص؛ عناصر ثانية، كانت متطورة وفعالة لغاية واحدة لا غيرها ألا وهي الوقاية، الإسناد، نقل عصارات الجسم، أو الاخصاب. ثمة تحويرات لهذه التعددية العضوية المتحدة كي تكوّن الأنا العليا: حالات حيث العدد الوافر من الكينونات التابعة تجمعت فقط بطريقة رخوة ومشكوك فيها كي تكوّن

وحدة حية أعلى. دفن الطالب نفسه في ظاهرة مستعمرات الخلية؛ قرأ عن أنصاف كائنات حية، الطحالب، خلاياها الوحيدة، مطوقة بغلاف من الهُلام (الجيلاتين)، عادة بعيدة الواحدة عن الأخرى، مع ذلك كانت تكوينات من خلايا عدة، التي، إذا ما سُئلت، لا تعرف ما إذا صُنفت كمستعمرة من كائنات ذات خلية واحدة، أم كائن بوحدة واحدة، وفي حملها شهادة، تتذبذب بطريقة غريبة بين الأنا والنحن. الطبيعة هنا قدمت مرحلة وسط، بين الوحدة الإجتماعية الرفيعة بين الأشخاص الأوليين اللا محدودين كي يكوّنوا أنسجة أنا الأعلى وأعضائه، والوجود الفردي الحر لهذه الأنواع الأبسط؛ الكائن الحي متعدد الخلايا هو فقط مرحلة في العملية الدورية، التي هي مسار الحياة ذاتها، دوران دوري من إنجاب الى إنجاب. ان فصل الإخصاب، الإلتحام الجنسي بين جسمين خلويين، يقف عند بداية بناء كل فرد متعدد الخلايا، كما يقف عند بداية كل صف من الذريات ذوات الأنواع الإبتدائية الفردية، ويُعاد الى نفسه. ذلك ان هذا الفصل تنجزه أنواع عديدة ليست بها حاجة لأن تتضاعف بوساطة التكاثر؛ الى أن تأتي لحظة حين تجد الذريات المنتَجَة بطريقة غير جنسية نفسها مرة أخرى مقيدة بتجديد الوظيفة الرابطة، وتصبح الدائرة كاملة. هكذا هي الحالة المتعددة للجسم الحي، المنبثق من اتحاد خليتين أبويتين، إتحاد ذريات ذوات منشأ غير جنسي لوحدات الخلية؛ نموه يعني إزدياد عددها، والدائرة التولدية تصبح كاملة من جديد عندما ترسخ الخلايا الجنسية، وهي عناصر متطورة بصورة خاصة من أجل الإخصاب، نفسها وتجد الطريق الى إلتحام جديد تقود إليه الجسم الحي كرةً أخرى.

مغامرنا الشاب، أسند مجلداً خاصاً بعلم الأجنة على حفرة بطنه، تابع تطور الكائن الحي من اللحظة التي يشق فيها الحيوان المنوي، الأول بين جمهرة من زملائه، طريقه قُدماً بوساطة حركة مهمازية لجزئه الخلفي، يضرب بجزئه الأمامي على الغلاف الهلامي للبويضة، ويشق طريقه الى إستحكام الجنين، الذي يتقوس بروتوبلازم الجزء الخارجي من البويضة ضد إقترابه. ليس ثمة عمل بارع أو شيء منافٍ للعقل ممكن تصورهما لا يسر

الطبيعة أن تقترفهما بوساطة التغيير في هذه الطريقة الثابتة. في بعض الحيوانات، يكون الذكر طفيلي في أمعاء الأنثى. في حيوانات أخرى، يمد الأب الذكر ذراعه في داخل مريء الأنثى كي يودع المني في داخلها؛ التي بعدها، معضوضة ومبصوقاً عليها، تفر وحدها على أصابعها، ويا لتشوش العلماء، على مدى زمن طويل أعطوها أسماء أغريقية ولاتينية كنوع مستقل من الكائنات الحية. هانز كاستورب أعطى أذناً صاغية الى الصراع العلمي بين علماء البويضات وعلماء الحييوينات: أعضاء المجموعة الأولى يؤكدون ان البويضة بحد ذاتها هي الضفدع، الكلب، الإنسان: الصغير الكامل، أما العنصر الذكري فهو مجرد المحرّض على نموه؛ في حين ان المجموعة الثانية ترى في الحيوانات المنوية، كونها تملك رأساً، ذراعين، وساقين، الشكل المحسن للكائن الحي المشار إليه، الذي تقوم البويضة تجاهه فقط بوظيفة «مغذية في وليمة الجسم الحي». وفي الختام إتفقوا على أن يمنحوا مكافآت متساوية للبويضة والحيمن، كلاهما، على أية حال، انبثقا من خلايا تناسلية تعوزها أصلاً الخصائص المميزة. فهم ان الكائن الحي وحيد الخلية للبيضة المخصبة في نقطة تحولها الى كائن متعدد الخلايا، بوساطة الحز والإنقسام؛ فهم أجسام الخلايا تلحق نفسها بقشور الغشاء المخاطي؛ فهم الحويصلة الجرثومية في البويضة، البلاستولة[٥٥]، ترص نفسها كي تكوّن كأساً أو حفرة أشبه بالحوض، وتبدأ بوظيفتي تسلّم الطعام وهضمه. تلك هي الجسترولة[٥٦]، الحيوان وحيد الخلية، الشكل البدائي للحياة الحيوانية كلها، الشكل البدائي للشيء الجميل الذي يحمل لحماً. طبقتاه الطلائيتان، الخارجية والداخلية، طبقة المضغة الظاهرة (الإكتوديرم) وطبقة الجنين الجرثومية الداخلية (الإندوديرم)، ثبت انهما عضوان إبتدائيان من ثنياتهما الداخلية والخارجية، تنشأ الغدد، الأنسجة، الأعضاء الحسية، البروزات

(٥٥) البلاستولة blastula: شكل من أشكال الجنين في مراحل التطور الباكرة عند كثير من الحيوانات ـ المترجم.

(٥٦) الجسترولة gastrula: جنين مكون من كيس مفتوح الفم وجدران مؤلفة من طبقتين من الخلايا ـ المترجم.

الجسمانية. قطعة طويلة ضيقة من الطبقة الجرثومية الخارجية، الإكتوديرم، تثخن، تنطوي الى أخدود، تحجب نفسها داخل قناة عصب، تصبح عموداً فقرياً، تصبح دماغاً. وبينما يتكثف الطين الجنيني الى نسيج ليفي رابط، الى غضروف، الخلايا شبه الغروية تبدأ بإظهار مادة هلامية بدلاً من المخاطين، فهم ان في مواضع معينة النسيج الرابط يأخذ الكالسيوم والدهن لنفسه من مصل الدم الذي جرفهما، ويبدأ بتكوين العظم. الإنسان الجنيني يقرفص بوضع منحن، ذو ذنب، ليس له خصائص مميزة عن الخنزير الجنيني، ببطن هائل وأطراف قصيرة وثخينة، عديمة الشكل، القناع الوجهي مقوس على الكرش المنتفخ؛ قصة نموه بدت علماً متجهماً لا يشبع غرور المرء، كالتسجيل الخاطف لشجرة عائلة حيوانية. على مدى مدة وجيزة من الزمن كان له جيوب ـ خيشوم مثل سمكة الروش. يبدو أمراً مباحاً، أو بالأحرى محتوماً، التفكير في المراحل المختلفة للتطور التي مر خلالها، كي يحدس الجانب الإنساني الصغير جداً الذي قدمه الإنسان الإبتدائي في حالته الناضجة. كان جلده مزوداً بعضلات مرتعشة كي يبعد الحشرات؛ انه مغطى بكثافة بالشعر؛ كان هناك تطور هائل في الغشاء المخاطي لأعضاء الشم؛ أذناه برزتا، كانتا متحركتين، لعبتا دوراً حيوياً في لعبة الملامح، وكانتا متكيفتين أكثر من آذاننا في التقاط الأصوات. كانت عيناه محميتين بجفنٍ ثالث، طارف؛ كان الجفنان موضوعين على الجانبين، عدا الثالث، الذي كانت الغدة الصنوبرية[٥٧] هي أثره البدائي، الذي كان قادراً، إذا ما نظر المرء الى الأعلى، على حراسته من الأخطار الآتية من الجو الأعلى. ان الإنسان البدائي له معي طويل جداً، أضراس عديدة، أكياس ـ الصوت فوق الحنجرة وهي الأفضل كي نجأر بها، وكذلك حمل هو غدده الجنسية في الجزء الداخلي من تجويف الأمعاء.

علم التشريح قدم للباحث خرائط للأطراف البشرية، مكسوة بالجلد

(٥٧) الغدة الصنوبرية: غدة مخروطية الشكل مجهولة الوظيفة في دماغ جميع الفقاريات ذوات الجمجمة. بالإنجليزية: pineal gland ـ المترجم.

ومهيأة لفحصه؛ رأى عضلاتها السطحية والمخفية، والأوتار: تلك العائدة للفخذين، القدم، وبخاصة الذراع، الزند والساعد. تعلّم الأسماء اللاتينية التي زوده بها الطب، ذلك الفرع من العلوم الإنسانية، بصورة فخمة. انتقل الى الهيكل العظمي، الذي أظهر تطوره وجهات نظر جديدة ـ بينها إدراك واضح للوحدة الجوهرية لكل ما يخص الإنسان، العلاقة المتبادلة بين فروع المعرفة كلها. ذلك انه هنا، بصورة غريبة بنحو كافٍ، وجد نفسه يتذكر حقله الخاص ـ أم يلزم أن نقول حقله السابق؟ ـ المهنة العلمية التي أعلن هو نفسه كونه إعتنقها، مقدماً نفسه هكذا الى الدكتور كروكوفسكي والسيد سيتيمبريني عند وصوله هنا في الأعالي. من أجل أن يتعلم شيئاً ما ـ ليس المهم أي شيء هذا ـ تعلَّم في مدرسته التقنية عن علم الإحصاء، عن الدعامات القادرة على الإلتواء، عن الأحمال، عن الإنشاء كونه الإستخدام المفيد للمادة الميكانيكية. انه شيء سخيف بالطبع أن نعتقد أن علم الهندسة، وقواعد علم الميكانيك، يمكن أن يُطبقا في الطبيعة متناسقة الأجزاء؛ لكن على الأقل يستطيع المرء أن يقول انهما نشآ من الطبيعة متناسقة الأجزاء؛ ببساطة ان القوانين الميكانيكية تجد نفسها مكررة ومعززة في الطبيعة. ان قاعدة الإسطوانة الفارغة صُورت في هيكل العظام الإنبوبية، بطريقة ما بحيث ان الحاجات السكونية تم إشباعها بالحد الأدنى المضبوط من الهيكل الصلب. فهم هانز كاستورب ان جسماً يطرد خارج نطاقات المادة المستخدمة ميكانيكياً، منسجماً مع الحاجات التي يخلقها تيار الهواء والضغط المسلطين عليها، بوسعه أن يتحمل الثقل نفسه كالعمود الصلب من المادة نفسها. وهكذا في تطور العظام الإنبوبية، كان شيئاً يمكن فهمه انه، شيئاً فشيئاً مع تكوّن الجزء الخارجي الصلب، الأجزاء الداخلية، التي كانت زائدة ميكانيكياً، تحولت الى نسيج دهني، هو النخاع. عظم الفخذ هو رافعة، في إنشائها الطبيعة متناسقة الأجزاء، بالتوجيه الذي أعطته لعمود الإدارة، نفذت، على شعرة؛ نفس منحنيات التيار الهوائي والضغط التي كان يتوجب على هانز كاستورب أن يحدد موقعهما في رسم آلة تؤدي غرضاً مشابهاً. تأمل هذه الحقيقة بسعادة غامرة؛ تمتع بالفكرة التي مفادها ان هذه العلاقة مع عظم

الفخذ، أو مع الطبيعة متناسقة الأجزاء هي عموماً الآن ثلاثية: انها عاطفية الى درجة الإفراط، انها طبية، انها تقنية؛ وهذه كلها، كما شعر، كانت شيئاً واحداً في كونها إنسانية، كانت أشكالاً مختلفة للشأن الإنساني الملح نفسه، كانت مدارس للفكر الإنساني.

لكن مع هذه كلها تبقى إنجازات البروتوبلازم لا حصر لها: يبدو انه شيء محظور على الكائن الحي انه يلزمه فهم نفسه. ان أغلب العمليات الكيميائية ـ الحياتية ليست فقط مجهولة، انه شيء يكمن في طبيعتها انها يجب أن تفلت من الإنتباه. تقريباً لا شيء يُعرف عن تركيب أو تكوين الوحدة الحية المسماة «الخلية». ما هي فائدة تعيين مكونات العضلة عديمة الحياة، حيث لا يسمح الحي لنفسه أن يفُحص كيمياوياً؟ ان التغيرات التي تحدث حين يبدأ «تيبس الجسد» كافية كي تجعل البحوث كلها عديمة القيمة. لا أحد يفهم الأيض، لا أحد يفهم الجوهر الحقيقي لوظيفة الجهاز العصبي. الى أية خصائص تدين الخلايا الذوقية بردود أفعالها؟ من أي شيء تتألف الأنواع المختلفة من تهيج أعصاب حسية معينة بفعل مواد لها روائح؟ من أي شيء تتألف، حقاً، خاصية الشم نفسها؟ ان الروائح الخاصة للإنسان والحيوان تتألف من تبخر مواد معينة مجهولة. إن الإفراز المركب الذي يدعى عرقاً، فُهم فهماً قليلاً. الغدد التي تفرزه تنتج أشذاءً تلعب بين اللبائن وبصورة لا يرقى إليها الشك دوراً جوهرياً، أما أهميتها للأجناس البشرية فلسنا في وضع يؤهلنا لتفسيرها. ان الأهمية الفيزيولوجية للمناطق الجوهرية في الجسم ما زالت مجهولة. ما من حاجة الى ذكر الزائدة الدودية، التي هي سر من الأسرار؛ في الأرانب تكون بانتظام مليئة بمادة لينة، لا يمكننا أن نقول شيئاً عن كيفية دخولها أو تجديدها لنفسها. ولكن ماذا عن المادة البيضاء والرمادية التي تكوّن الغمد النخاعي، ماذا عن المهاد البصري والترصيع الرمادي لـ جسر فارول[٥٨]. ان المادة التي تكوّن الدماغ ونخاع العظم تكون خاضعة تماماً للتحلل، لا أمل أياً كان في تقرير تركيبها. ما هذا الشيء الذي يريح

(٥٨) جسر فارول Pons Varolli: كتلة ألياف عصبية في الدماغ ـ المترجم.

قشرة الدماغ من النشاط خلال النوم الخفيف؟ ما الذي يمنع المعدة من أن تهضم نفسها ـ كما يحدث، غالباً، بعد الوفاة؟ قد يجيب المرء قائلاً، انها الحياة: قوة خاصة في المقاومة للبروتوبلازم الحي؛ غير ان هذا لن يدرك الصفة المبهمة لتفسير كهذا. ان نظرية متعلقة بظاهرة يومية كالحمى تكون مليئة بالتناقضات. ان الأكسدة المتزايدة تؤدي الى حرارة مرتفعة، لكن لماذا لا يكون هناك زيادة في إنفاق الحرارة كي يحصل التوافق؟ هل ان عجز الافرازات العرقية يعتمد على تقلص الجلد؟ لكن تقلصاً كهذا يحدث فقط في حالة «القشعريرات والحمى»، ذلك انه بطريقة أخرى، في الحمى، يكون الجلد في الأرجح حاراً. ان الحصف[٥٩] يدل على الجهاز العصبي المركزي كونه مركز أسباب الأيض الهدمي المرتفع اضافة الى تلك الحالة الجلدية التي نكتفي بتسميتها غير طبيعية، لأننا لا ندري كيف نعرّفها.

لكن ما هذه الجهالة كلها، مقارنةً بعجزنا المطلق في حضور ظاهرة كهذه مثل الذاكرة، أو حضور ذاكرة أخرى مطوّلة ومذهلة نسميها وراثة الصفات المكتسبة؟ انه شيء مستحيل أن نحصل حتى على لمحة من أي إمكانية ميكانيكية لتفسير إنجازات كهذه من جانب مادة الخلية. ان الحيمن الذي ينقل الى البيضة خصائص لا محدودة معقدة فردية وعِرقية للأب يُرى فقط بوساطة مجهر؛ مع ان أقوى التكبيرات لا تكفي لأن تظهره غير جسم متجانس التكوين، أو أن تحدد أصله، إذ يبدو نفسه في هذا الحيوان أو ذاك. هذه العوامل ترغم الفرد على الإفتراض القائل ان الخلية تكون في نفس حالة النوع الأعلى الذي تمضي لبنائه: هي أيضاً قبل الآن نوع أعلى، تتكون بدورها بإنقسام الأجسام الحية، الوحدات الحية الفردية. وهكذا يمر المرء من أصغر وحدة مفترضة الى وحدة أصغر منها؛ المرء مُساق الى أن يفصل الإبتدائي الى عناصره. لا ريب على الإطلاق لكن مثلما المملكة الحيوانية مكونة من أنواع عديدة من الحيوانات، مثلما الكائن الحي الإنساني ـ الحيواني مكون من مملكة حيوانية كاملة من أنواع الخلايا، كذلك كائن

---

(٥٩) الحصف Prickly heat: طفح جلدي مصحوب بوخز وحكة ـ المترجم.

الخلية مكون من مملكة حيوانية جديدة ومختلفة من الوحدات الإبتدائية، أصغر بكثير من الحجم المجهري، التي تنمو تلقائياً، تزداد تلقائياً على وفق القانون القائل ان كل واحدة بوسعها ان تولِّد فقط بحسب نوعها، وأن تفيد من غير انقطاع النظام الأعلى اللاحق للوجود إستناداً الى قاعدة تقسيم العمل.

كانت تلك الجينات، الميكروبات، والجراثيم الحيوية- biophore. ابتهج هانز كاستورب ابتهاجاً عظيماً لتعرفه عليها بالإسم، راقداً هناك في الليل الصقيعي. مع ذلك، سأل نفسه بإستثارة، حتى بعد أن أصبح الضوء المسلط على الموضوع وشيكاً، كيف يمكن تعيين طبيعتها الإبتدائية؟ إذا كانت حية، لا بد أن تكون عضوية، بما ان الحياة تعتمد على التعضية. ولكن إذا كانت متعضية، إذاً لن تكون إبتدائية، طالما ان الكائن الحي ليس مفرداً بل كثير الأجزاء. انها وحدات ضمن الوحدة العضوية للخلية التي تبنيها. لكن إذا كانت، حينئذ، مهما كانت صغيرة بصورة غير محتملة؛ ذلك ان مفهوم الوحدة الحية يعني بحسب التعريف انها مبنية من وحدات أصغر تكون تابعة، أي، متعضية فيما يتعلق بنوع أعلى. ما دام الانقسام يعطي وحدات عضوية تملك خصائص الجسم الحي ـ التمثل والتكاثر ـ فليس ثمة حدود موضوعة لها. طالما ان المرء يتكلم عن الوحدات الحية، لا يستطيع هو أن يتحدث بصورة صحيحة عن الوحدات الإبتدائية، ذلك ان مفهوم الوحدة يحمل معه الى ما شاء الله مفهوم الوحدة البنائية، التابعة؛ وليس ثمة شيء كالكائن الأولي، بمعنى يتعلق بشيء كان كائناً حياً قبل الآن، ومع ذلك ابتدائياً.

وما يزال، مع انه من دون وجود منطقي، شيء من هذا النوع لا بد أن يكون في آخر الأمر هو الحالة؛ ذلك انه ليس ممكناً أن لا نبالي هكذا بفكرة الإنجاب الأصلي، إنبثاق الكائن الحي من شيء لم يكن كائناً حياً. الفجوة في الطبقة الخارجية التي سعينا عبثاً الى سدها، تلك التي بين المادة الحية والمادة الميتة، لها نظيرها في الوجود العضوي للطبيعة، ويجب بشكل من الأشكال إما غلقها أو إقامة جسر عليها. عاجلاً أم آجلاً، الإنقسام يجب أن يعطي «وحدات» لا تكون، حتى في التكوين، متعضيةً، والتي تسوّي

الخلافات بين الحياة وغياب الحياة؛ المجموعات الجزيئية، التي تمثل الإنتقال بين التعضية التي نُفختْ فيها الحيوية والنشاط والكيمياء الصرفة. لكن حينذاك، حين يصل المرء الى الجزيء، يقف هو على شفير هاوية أخرى، تنفتح كالفم بغموض أكثر مقارنة بالهوة القائمة بين الطبيعة العضوية والطبيعة اللاعضوية: الخليج بين المادي واللا مادي. ذلك ان الجزيء يتكون من ذرات، والذرة لا تكون في أي مكان قريبة الى الحجم الكبير بدرجة كافية حتى إذا ما تحدثنا عنها كونها صغيرة بنحو إستثنائي. انها صغيرة جداً، انها كتلة إنتقالية مبكرة متناهية الصغر، تختر للوهمي، للذي لم يصبح واقعياً بعد ومع ذلك يشبه المادة، للطاقة، ومع ذلك هو شيء ممكن نادراً ـ أو، إذا كانت كذلك، فانها الآن لم تعد ممكنةً ـ ان نفكر بها كمادة، ولكن بالأحرى كوسط وحد فاصل بين المادي واللا مادي. تنبثق مسألة إنجاب أصيل آخر، أكثر بدائية وغموضاً من الولادة العضوية: الولادة الأولية للمادة من اللامادة. الواقع الهوة بين المادة واللامادة تنفغر بشكل واسع، تُكرِه بنحو مزعج ـ نعم بنحو مزعج أكثر ـ كي يتم سدها، كتلك الهوة بين الطبيعة العضوية واللا عضوية. لا بد أن تكون هناك كيمياء للشيء غير المادي، لا بد أن تكون هناك إتحادات لما هو وهمي، ينبثق منها المادي ـ الذرات ربما تمثل الحيوانات وحيدة الخلية للمادة، بفعل مادتها الطبيعية ومع ذلك هي ليست مادة تماماً. ومع ذلك عند الوصول الى «ليست حتى صغيرة» القياس يفلت من اليدين، لأن «ليست حتى صغيرة» تعني الشيء نفسه مثل «كبيرة بشكل هائل»؛ وان الخطوة الى الذرة برهنت على كونها من دون مبالغة: عجيبة بدرجة مفرطة جداً. ذلك انه في اللحظة ذاتها حين يشهد المرء الانقسام الأخير للمادة، حين يقسمها المرء الى الجزء الصغير بصورة بغيضة، عند تلك اللحظة يظهر بغتةً في الأفق الكون الفلكي!

الذرة نظام كوني، محملة بالطاقة؛ فيها تدور الأجسام السماوية الوفيرة حول مركز أشبه بالشمس، الذي خلاله تندفع مذنبات الفضاء الأثيري بسرعة السنوات الضوئية، تبقى في مداراتها المنحرفة عن المسار الدائري بفعل قوة الجسم المركزي. وهذه مجرد مقارنة صغيرة كما يحصل حين يسمي المرء

جسم أي كائن حي متعدد الخلايا «دولة خلية». المدينة، الدولة، المجموعة الإجتماعية المنظمة على وفق قاعدة تقسيم العمل؛ ليس فقط من الجائز أن تتم مقارنتها بالحياة العضوية، بل هي فعلاً ولّدت حالاتها. هكذا في أعمق أعماق الطبيعة، كما في سلسلة متوالية لا حد لها من المرايا، إنعكس كون السماء، التي بهتت عناقيدها، حشودها، مجموعاتها، وأشكالها الهندسية، بفعل القمر الساطع، المعلق فوق الوادي المدهش، المطوق بالصقيع، فوق رأس خبيرنا الملفّع. أليست هي جريئة جداً فكرة ان بين الكواكب السيارة للنظام الشمسي الذري ـ ذلك العدد الضخم ومجرات النظم الشمسية التي تكوّن المادة ـ واحد أو آخر من هذه الأجسام السماوية من العالم الداخلي ربما يجد نفسه في تلك الحالة التي تجعل أرضنا مؤهلة لأن تغدو مسكن الكائن الحي؟ ذلك ان شاباً ما كان قبل الآن مرتبكاً باطنياً نوعاً ما، يعاني من حالات جلدية شاذة، الذي لم يكن عديم التجربة في دنيا المحرّم، انه تأمل، بعيداً عن كونه منافياً للعقل، ظهر جلياً جداً بحيث قفز الى العينين، واضحاً بدرجة شديدة، وحاملاً طابع الحقيقة المنطقية. ان «صغر» هذه الأجسام السماوية القريبة من العالم الداخلي كان إعتراضاً لا علاقة له بالفرضية؛ طالما ان مفهوم الكبير والصغير كف عن أن يكون وثيق الصلة بالموضوع في اللحظة التي تكشفت فيها الميزة الكونية لـ«أصغر» جزء ممكن من المادة؛ بينما في الوقت نفسه، مفهوما «الخارج» و«الداخل» كانا قد تزعزعا أيضاً. ان عالم الذرة هو «الخارج» كما هو، في الأرجح، الكوكب الأرضي الذي نسكنه، إذا ما نظرنا إليه من الناحية العضوية، هو «الداخل» العميق. ألم يشر باحث ذات مرة، بصورة وهمية جريئة الى «بهائم درب اللبانة»، مسوخ كونية كان لحمها، عظمها، ودماغها قد بُنيت من الأنظمة الشمسية؟ لكن في تلك الحالة، فكر هانز كاستورب متأملاً، عندئذ في تلك اللحظة حينما يعتقد المرء انه وصل النهاية، يبدأ كل شيء كرةً أخرى من البداية! ذلك انه حينذاك، في أعمق أعماق طبيعته، وفي الجزء الأعمق من أعمق الأعماق، أغلب الظن يكون هناك فقط نفسه، فقط هانز كاستورب، ثانية ومئة مرة هانز كاستورب، بوجه متوهج وأصابع متيبسة، يرقد ملفعاً في شرفة ما، ينظر عبر الوادي

العالي المضاء بنور القمر، وذي الصقيع الليلي، ويسبر بولعٍ إنساني وطبي معاً، حياة الجسد!

كان يحمل مجلد التشريح المَرضي تحت شعاع الضوء الأحمر الآتي من مصباح طاولته، ويوجه نصه ونسخاً عديدة طبق الأصل. قرأ عن وجود مفصل خلية طفيلي وعن أورام ناقلة للعدوى. هذه أشكال من النسيج ـ وأشكال خصبة جداً أيضاً ـ تنتجها أجسام خلايا غريبة في كائن حي برهن على كونه سريعاً في تقبله لها، وبطريقة ما أو غيرها ـ ربما ينبغي للمرء أن يقول بنحو فاسد ـ منحها حالات مؤاتية بنحو خاص. انه ليس بالشيء الكثير ان الطفيلي يأخذ غذاءه من الأنسجة المحيطة به، طالما انه، خلال عملية البناء والهدم التي تستمر فيها كما في أي خلية أخرى، ينتج إتحادات عضوية تكون سامة بصورة إستثنائية ـ مدمرة بنحوٍ لا يمكن إنكاره ـ للخلايا حيث تم تضييفه. إكتشفوا كيفية عزل السم عن عددٍ من الكائنات الحية المجهرية وأنتجوه بشكل مركّز، وكان شيئاً مذهلاً أن ترى أية جرعات صغيرة من هذه المادة، التي تنتمي ببساطة الى مجموعة مركبات البروتين، التي بمستطاعها، إذا ما أُدخلت في الدورة الدموية لحيوانٍ ما، أن تنتج أعراضاً خاصة بالتسمم الحاد والإنحلال السريع. ان العلامة الخارجية لهذا الخراب الداخلي هو نمو النسيج، الورم المَرَضي، والذي كان رد فعل الخلايا تجاه منبه العصيات الغريبة. الدرينات تنشأ، بحجم حبة الدخن، تتكون من خلايا تشبه الغشاء المخاطي، التي بينها أو بداخلها تُودع العصيات، بعضها غنية بصورة إستثنائية بالبروتوبلازم، كبيرة جداً، ومليئة بالنوى. على أية حال، كل هذا الرزق الجيد يؤدي حالاً الى الدمار؛ ذلك ان نوى هذه الخلايا الشاذة تبدأ بالتحلل، البروتوبلازم الذي تحتويه الخلايا يتحطم بوساطة التخثر، ومناطق أُخر من النسيج تُشمل أيضاً. إذ يهاجمها الالتهاب، الأوعية الدموية المجاورة تعاني من العدوى. كريات الدم البيض تُجذب الى مقر الشر؛ الإنحلال يتقدم بسرعة؛ وخلال ذلك السموم القابلة للذوبان التي تحررها البكتيريا تكون قد سممت قبل الآن المراكز العصبية، التعضي كله يكون في حالة حمى عالية ويترنح ـ إذا صح التعبير بصدر متنهد ـ نحو الفناء.

الى هذا الحد يذهب علم الأمراض، نظرية المرض، إبراز البدني من خلال الألم؛ مع ذلك، وطالما ان الأمر يتعلق بإبراز البدني، في الوقت نفسه هو إبراز من خلال الرغبة. المرض هو شكل شرير، فاسق للحياة. والحياة؟ الحياة نفسها؟ ألا يحتمل ان تكون مجرد عدوى، مرض المادة؟ هل ان ما يمكننا تسميته بالإنجاب الأصيل للمادة هو مرض لا غير، نمو ناتج عن تحفيز مَرضي لغير المادي؟ ان الخطوة الأولى نحو الشر، نحو الرغبة والموت، أُتخذت على وجه الدقة آنذاك، حين حدثت أول زيادة في كثافة الروحي، ذلك النمو المروّع الخصب بنحو مَرضي، الذي أنتجه المهيج الموجود في تسرب مجهول؛ هذا، جزئياً سار، جزئياً أداة للدفاع الذاتي، هو المرحلة الابتدائية للمادة، الإنتقال من الوهمي الى المادة. هذا هو (السقوط). الخليقة الثانية، ولادة العضوي من اللاعضوي، هي مجرد مرحلة قاتلة أخرى في تقدم الجسدي نحو الوعي، كالمرض في الكائن الحي إذ يكون تسمماً، إظهاراً وإبرازاً غير مرخص به لحالته الجسدية؛ والحياة، الحياة لا شيء غير الخطوة التالية على الطريق الطائش للروح التي لحقها الخزي؛ لا شيء غير التورّد الأوتوماتيكي للمادة التي أثارها الإحساس وتصبح سريعة لتقبل هذا الذي أيقظها.

الكتب تهجع مكدسة فوق الطاولة، أحدها يهجع على الحصير بجانب الكرسي؛ أما آخر الكتب التي قرأها فقد إستراح على معدة هانز كاستورب وكتم نَفَسه؛ مع ذلك ما من أمرٍ صدر من قشرة الدماغ الى العضلات المسؤولة عن رفعه. كان قد قرأ الصفحة الى الأسفل، ذقنه غاص في صدره، فوق عينيه الزرقاوين البريئتين إنسدل الجفنان. شاهد صورة الحياة في الزهرة، بنيتها، جمالها المكسو باللحم. كانت قد رفعت يديها من مؤخرة رأسها، فتحت ذراعيها. على سطحهما الداخلي، خاصة تحت الجلد الغض لطرفي المرفقين، شاهد التفرعات الزرق للأوردة الأكبر. هاتان الذراعان كانتا تمتازان بحلاوة لا توصف. إتكأت عليه، مالت إليه وانحنت عليه، كان يعي عبيرها العضوي والنبض المعتدل لفؤادها. شيء دافئ وطري طوّق رقبته؛ ذاب بالرغبة والرهبة، وضع يديه على لحم ساعديها، حيث بدا له الجلد

ناعم الذرات فوق العضلة ثلاثية الرؤوس[٦٠] معتدل البرودة بصورة مبهجة؛ وعلى شفتيه شعر بالإلتصاق الرطب لقبلتها.

رقصة الموت

بعد عيد الميلاد بمدة غير طويلة الفارس النبيل مات. عطلتا عيد الميلاد قبل هذا الحادث أقبلتا ومضتا، كلتاهما، هذا إذا ما حُسبت «الليلة المقدسة» أيام الأعياد الدينية الثلاثة. تلك التي كان هانز كاستورب يتطلع إليها بشيء من الذعر والشك الذي يرج الرأس، ويفكر كيف ستكون هي حقاً، هنا في الأعالي. إذاً، جاءت وذهبت شأنها شأن باقي الأيام، ذات صباح، وعصر، ومساء؛ فقط غير معقولة بصورة معتدلة فيما يتعلق بالمناخ ـ أصبح الجو دافئاً قليلاً ـ وغير مختلفة كثيراً عن الأيام الأخرى شبيهاتها. ظاهرياً، كانت مزخرفة بعض الشيء ومزينة؛ داخلياً كانت تتولى السيطرة في رؤوس وأفئدة الناس في سبيل وقتها المحدد؛ بعدها، تاركةً وراءها شيئاً مترسباً من الإنطباعات البعيدة عن النوع المألوف، إنزلقت الى الماضي القريب، ثم الى الماضي البعيد.

ابن هوفرات، المدعو كنوت، أقبل من أجل قضاء العطلة وسكن مع والده في جناح البناية؛ شاب جميل الطلعة، عدا ان فقرته العنقية كانت قبل الآن بارزةً جداً. وجود الشاب بيرنز كان بالمستطاع الشعور به في الجو: أظهرت السيدات ميلاً للضحك، للإندفاع، ولتزيين أنفسهن. تفاخرن في أحاديثهن بلقاء كنوت في الحديقة، في الغابة، أو في الحي الإنجليزي. هو نفسه كان له ضيوف: عدد من زملائه الطلاب القادمين الى الوادي، ستة أو سبعة شبان أقاموا في القرية إلا انهم كانوا يتناولون طعامهم عند مائدة هوفرات، ومع آخرين من رابطتهم الطلابية الذين طافوا المنطقة مسرعين بنحو جماعي. هانز كاستورب تحاشاهم. إبتعد عنهم هو ويواكيم كلما كان ذلك

---

(٦٠) ثلاثية الرؤوس triceps: تقع هذه العضلة في مؤخرة العضد ـ المترجم.

ضرورياً؛ لم تكن له أدنى رغبة للقاء بهم. العالم كله فرّق أولئك المقيمين هنا في الأعالي عن هؤلاء الشبان المنشدين، الجوالين، الملوحين بالعصي ـ لم يكن يروم رؤيتهم ولا سماع أي شيء عنهم. بدوا، معظمهم، أشبه بسكان الشمال، ربما يكون بينهم مواطنون من هامبورغ؛ وشعر هانز كاستورب بخجل شديد من لقاء مواطنيه وأترابه. كان من عادته أن يشعر بعدم الإرتياح في ما يتعلق باحتمال وصول شخص ما أو غيره من مدينته الى مصح بيرغهوف ـ ألم يقل هوفرات ان هامبورغ زودت المؤسسة دوماً بطارئ سخي؟ ربما يكون بعضهم بين طريحي الفراش والهالكين؛ غير ان الشخص الواضح الوحيد كان رجل أعمال غائر الخدين، قيل انه أقبل من كوكسهيفين، كان يجلس طوال اسبوعين الى مائدة السيدة إلتيس. هانز كاستورب، وهو يراه، إبتهج إبتهاجاً عظيماً لمعرفة انه كان يختلط مع نزلاء يجلسون الى موائد أخرى أقل مما يختلط مع نزلاء مائدته؛ والأكثر من ذلك، كان عالم بلده من النوع الواسع. رأى ان وجود الرجل القادم من كوكسهيفين لم يؤثر ولا قيد أنملة في سعادته، ونجم في إزالة مخاوفه من وصول مواطنين آخرين من هامبورغ.

عشية عيد الميلاد أقبلت بسرعة، ذات يوم كانت قريبة، في اليوم التالي أصبحت هنا. حين تم التحدث عنها أول مرة عند مائدةٍ ما ـ ويا لدهشة هانز كاستورب ـ كان ما يزال هناك ستة أسابيع حتى حلولها، وهو زمن طويل كمدته المحددة الأصلية هنا في الأعالي، فضلاً عن الأسابيع الثلاثة التي أمضاها في الفراش. لكن تلك الأسابيع الستة الأولى، كما فكر بها وهو يستعيد الأحداث الماضية ويتأمل فيها، بدت له زمناً طويلاً جداً، في حين ان الستة التي مرت تواً كانت غير مهمة. كان زملاؤه النزلاء على صواب حين إستخفوا بها. ستة أسابيع، ياه، عددها لا يصل حتى الى عدد الأيام في الاسبوع؛ قليلة حقاً، حين يفكر المرء كم هو مسألة صغيرة الاسبوع، من الإثنين حتى الأحد وبعدئذ الإثنين من جديد. يحتاج المرء فقط الى أن يفهم كم هي عديمة القيمة الوحدة الزمنية الأصغر التالية إذا ما أدركنا أن ليس ثمة شيء كثير يمكن أن يأتي حتى من صف كامل منها (أي الوحدات الزمنية) إذا

جُمعت معاً. بالأحرى كان التأثير الكلي هو أن تقوّي عملية التقلص، الإنكماش، اللاوضوح، الطمس. ما هو اليوم، إذا ما حسبناه مثلاً من اللحظة التي يجلس فيها المرء الى وجبة طعام منتصف النهار الى اللحظة ذاتها بعد مرور أربع وعشرين ساعة؟ انه، للعلم، أربع ـ و ـ عشرون ساعة ـ لكنه بالقدر نفسه المجموع البسيط للأصفار. أو خذ ساعةً تُقضى في الإستراحة ـ العلاج، عند مائدة العشاء، أو في المسيرة اليومية ـ وهذه الأساليب في توظيف وحدة الزمن، عملياً إستنزفت إمكاناتها ـ ما هي الساعة؟ ثانيةً، لا شيء. ولا شيء هي كل هذه الأصفار، لم تكن هي جدية في طبيعتها، إذا ما أُخذت جميعاً. الوحدة الوحيدة التي بالمستطاع أن نفكر بها بجد هي أصغر الوحدات قاطبة: تلك المرات السبع من الثواني الستين التي خلالها يمسك المرء المحرار بين شفتيه ويواصل فيه منحنيه ـ كانت في الواقع، مليئة بالمحتوى ومتمسكة بالحياة، بالمستطاع أن تتوسع الى أبدية صغيرة؛ كونت كتلاً متحجرة صغيرة بكثافة عالية داخل الظلال الهاربة للسياق العام للزمن.

العطل شوشت قليلاً، الإتجاه المنتظم لأساليب مصح بيرغهوف. شجرة تنوب نامية جداً نُصبت أياماً قلائل سلفاً على جدار الجهة اليمنى لحجرة الطعام، الحائط الجانبي الأقرب للمائدة الروسية «السيئة»؛ نسمة من عبيرها تأتي الى أنوف آكلي وجبات الطعام بين آنٍ وآن، فوق الروائح الثقيلة للطعام، وأيقظت شيئاً ما أشبه بالتفكير الحالم في مُقل أشخاص قليلين بين النزلاء الجالسين الى الموائد السبع. حين جاءوا الى العشاء في اليوم الرابع والعشرين، وجدوا الشجرة مزينة بمرح ببهرجان[٦١]، بكرات زجاج صغيرة، بأكواز صنوبر مطلية بالذهب، تفاحات متناهية الصغر في شِباك، وآثار مختلفة من الصناعة اليدوية البارعة. الشموع الملونة النحيفة جداً إحترقت خلال وجبة الطعام وبعدها. وثمة شجرة صغيرة جداً، مزينة بالشموع احترقت بطريقة مماثلة، قيل، في حجرات طريحي الفراش والهالكين أن كل واحد منهم له

(٦١) بهرجان tinsel: خيوط أو أشرطة معدنية أو ورقية أو لدائنية لماعة تُزين بها شجيرات الميلاد ـ المترجم.

واحدة منها. بريد الطرود في الأيام القلائل المنصرمة كان ثقيلاً جداً. يواكيم زيمسين وهانز كاستورب تسلما تذكارات معلبة بعناية من مدينتهما البعيدة، ونشراها في حجرتيهما: هدايا حكيمة مؤلفة من أربطة عنق وثياب، أشياء تافهة غالية الثمن بالجلد والنيكل، وكميات من كعك عيد الميلاد، جوز، تفاح، ومرزبانية. نظر إبنا الخالتين بارتياب الى هذه التجهيزات الأخيرة، سائلين نفسيهما متى ستكون لهما مناسبة لاستهلاكها. شالين، كما عرف هانز كاستورب، لم تحزم هداياها وحده فقط، بل اشترتها، بعد مشاورة مع الخالين. كانت هناك أيضاً رسالة من جيمس تاينابيل، مطبوعة على الآلة الكاتبة للعلم، إنما على ورق ثقيل طُبع في أعلاها اسم مؤسسته وعنوانها، مبلغاً تمنياته الطيبة وتمنيات أبيه لمناسبة العطل مع أمنياته بالشفاء العاجل، وضمنها حالاً تحياته أيضاً لمناسبة السنة الميلادية الوشيكة ـ وهي طريقة واعية وعملية، أعقبت خطابات هانز كاستورب: كان قد بعث رسائل عيد الميلاد خاصته قبل فوات الأوان، وفي المظروف نفسه وضع التقرير السريري الشهري.

الشجرة في حجرة الطعام احترقتْ، فرقعتْ، ونشرتْ شذاها، موقِظة عقول وأفئدة النزلاء كي يميزوا ذلك اليوم. كان القوم قد إرتدوا ثيابهم من أجل تناول وجبة العشاء، إرتدى الرجال ثياب المساء، أما النساء فلبسن الجواهر، لعلها هدايا من الأزواج العاشقين هناك في الأسفل. كلاوديا شوشا إستبدلت الكنزة الصوفية المألوفة بثوب نسائي مع شيء قليل من الغرابة، يوحي بزي قومي ـ زي ريفي روسي، أو بلقاني، أو لعله بلغاري؛ فاتح اللون، متهدل، نسق مطوّق بحزام، مطرز، ووضعت معه زينات بهرجانية بالغة الصغر. فستان كهذا منح شخصها نعومة بارزة وامتلاءً، ولاءم ما أسماه سيتيمبريني «ملامح الوجه التتاري»، خاصة «عيني ذئب المروج». كانوا مبتهجين عند المائدة الروسية «الجيدة»؛ هناك سُمعت أول فلينة شمبانيا وهي تنفجر. ضربت مثلاً، أعقبتها إنفجارات في كل الموائد الأخرى تقريباً. عند مائدة إبني الخالتين كانت هناك خالة الأم التي وزعت الشمبانيا لحفيدة أختها وماروسيا، وعاملت الآخرين بالمثل. كانت لائحة الأطعمة والمشروبات

مجموعة يمكن الإختيار بينها. إنتهت بكمية قليلة من الجبن والبنبونات، التي أضاف إليها النزلاء القهوة والمُسكِرات المعطرة. بين حين وحين يتوهج فجأة غصين فوق شجرة عيد الميلاد؛ وتكون هناك طريقة عمل لإطفائه، وصيحات حادة، رعب متطرف بين السيدات. قرب نهاية الوجبة جاء سيتيمبريني ليجلس مدة وجيزة عند طرف مائدة إبني الخالتين؛ كان يرتدي ملابسه اليومية، وعابثاً بعود نبش الأسنان. نظر الى السيدة شتور بفضول وابتهاج، وأدلى بملاحظات حول ابن النجار[٦٢] وربان الجنس البشري، الذين كانوا يحتفلون بعيد ميلاده اليوم، فقد ظنوا انه جاء الى العالم في مثل هذا اليوم. ما إذا كان عاش فعلاً، قال سيتيمبريني، هذا شيء غير مؤكد؛ مع ذلك زمنه ولّد فكرةً، واصلت سيرها المنتصر حتى وقتنا الحاضر: فكرة سمو الروح الإنسانية، فكرة المساواة ـ بإيجاز، كانوا يحتفلون بولادة الديمقراطية الفردانية، ومن أجلها سيفرغ الكأس التي منحوها له. السيدة شتور وجدت ملاحظاته غامضةً ومتهورةً: نهضت بتأثير الاحتجاج ضد شرب النخب، وكما أُفرغت الكؤوس عند الموائد الأُخر، حذوا حذو الحركة العامة قرب حجرات الاستقبال.

هوفرات بيرنز، مع كنوت والآنسة فون ميليندونك، حضروا الأمسية الإجتماعية طوال نصف ساعة. كانت المناسبة مميزة بتقديم هدية الى رئيس المؤسسة، التي حدثت على وفق ذلك، في الحجرة ذات الجهاز البصري. الروس قدموا هديتهم، وهي طبق فضة كبير مدور، مع مونوغرام[٦٣] هوفرات منقوشاً في الوسط؛ كانت لا جدواه المطلقة واضحة للعيون كلها. لعله يضطجع في الأقل على الكرسي الطويل الذي كان هدية بقية النزلاء ـ مع انه حالياً من دون غطاء أو وسائد، له حصراً قماش مسحوب فوقه. كانت جهة الرأس ثابتة؛ بيرنز تمدد عليه بكامل طوله، مع طبقه الفضة تحت ذراعه، أغمض عينيه، وأخذ يشخر كماكينة نشر مصرّحاً انه فافنير Fafnir ذو ذخيرة

---

(٦٢) ابن النجار: بحسب العقيدة المسيحية (العهد الجديد) هو السيد المسيح وابن يوسف (نجار الناصرة) خطيب مريم ـ أي قام بتربيته ـ المترجم.

(٦٣) المونوغرام monogram: علامة ترمز الى شخص ما وتتألف من أحرف اسمه الأولى مرقومة على نحو متشابك ـ المترجم.

الكنز. تلا ذلك الكثير من الضحك والتصفيق؛ السيدة شوشا ضحكت ضحكات قوية، بحيث أصبحت عيناها شقين، وظل فمها مفتوحاً ـ بالضبط، لاحظ هانز كاستورب، مثل بربيسلاف هيبه عندما كان يضحك.

في الحال، خرج الرئيس، جلس النزلاء ليلعبوا الورق، الروس يحتلون، كالعادة، الصالون الصغير. بعض المرضى ما زالوا باقين في الحجرة حيث كانت شجرة عيد الميلاد، يتأملون عُقب الشموع تخمد في تجاويفها، ويمضغون بصوتٍ طاحن الأشياء لذيذة المذاق المتدلية من الأغصان. هنا وهناك عند الموائد، التي صُفتْ قبل الآن من أجل الفطور، جلس رجل منعزل، يضع رأسه بين يديه، يطيل التفكير بصمت.

كان يوم عيد الميلاد رطباً وسديمياً. هذه سحب كانوا هم بينها، أكد بيرنز؛ لا يوجد سديم، هنا في الأعالي. سديماً كان أم غيوماً، كانت الرطوبة محسوسة. سطح الثلج الذي يغطي الأرض بدأ يذوب، أمسى ليناً ومسامياً. في الإستراحة ـ العلاج، وجه المرء يكون يابساً وأحمر اللون، وكذلك يداه ـ معاناة المرء تكون أكثر مما هي عليه في مناخٍ مشمس، أكثر برودةً.

كان يوم العيد الديني مُعلّماً بالحفلة الموسيقية المسائية، حفلة موسيقية حقيقية مع صفوف من الكراسي وبرامج مطبوعة، سُلمت الى النزلاء من قِبل «مؤسسة بيرغهوف»؛ تتألف من أغانٍ تنشدها مطربة محترفة تسكن هنا في الأعالي وتعطي دروساً. كانت تلبس ميداليتين مثبتتين بدبوسين جنباً الى جنب على صدار ثوبها، ذراعاها أشبه بعصوين، وصوتها الذي كان يمتاز خاصة بانعدام الطابع يلقي ضوءاً حزيناً على خلفيات بقائها في تلك المناطق. أنشدت:

أطوف بهواي
هنا وهناك

العازفة المصاحبة لها كانت مقيمة مثلها. السيدة شوشا جلست في الصف الأول، لكنها اغتنمت مدة الإستراحة كي تخرج، تاركةً هانز كاستورب حراً كي يتمتع بالموسيقى في سلام ـ على أية حال، كانت (تلك)

موسيقى ـ وكي يقرأ نصوص الأغاني، التي طبعت في البرنامج. السيد سيتيمبريني جلس مدةً وجيزةً بجانبه، وتحدث بمقاطع قليلة طيّعة ومرنة حول النوعية غير الرنانة لغناء(٦٤) المطربة، وعبّر أيضاً عن قناعته الساخرة بالموهبة الوطنية المعروضة في الحفلة. كانت حفلة رائعة جداً، قال، لأنهم كانوا وحدهم. بعدها ذهب هو أيضاً ـ الحق يقال، هانز كاستورب لم يكن آسفاً لرؤية ظهريهما معاً، تلك المرأة ضيقة العينين، والمعلم؛ كان الأفضل له أن يكرس نفسه للغناء وينتزع العون من الفكرة القائلة انه في أرجاء العالم كلها، حتى في أكثر الأمكنة إستثنائية، تُعزف الموسيقى ـ في الأرجح حتى في البعثات القطبية.

يكون للمرء وعي متميز بسيط باليوم الذي يعقب عيد الميلاد، شيء ما يجعله لا يشبه تماماً يوم أحد إعتيادي أو أي يوم إعتيادي من أيام الاسبوع. ثم إنتهى، والعطلة كلها أمست في الماضي ـ أو، بالقدر نفسه، أمست في المستقبل البعيد، على بُعد سنة: إثنا عشر شهراً سوف تأتي بها من جديد، سبعة أكثر من المدة الزمنية التي أمضاها هانز كاستورب هنا في الأعالي.

لكن بعد موسم عيد الميلاد مباشرة، وقبل حلول السنة الميلادية الجديدة، الفارس النبيل مات. إبنا الخالتين عرفا بالوفاة من ممرضة فرتز روتبين، ألفريدا شيلدكنيشت، المدعوة سستر بيرتا، التي إلتقت بهما في المجاز وأبلغتهما بتحفظ بالحادث المحزن. هانز كاستورب شعر بولع عميق، جزئياً لأن علامات الحياة التي كان قد سمعها من الفارس النبيل كانت بين أبكر إنطباعات بقائه هنا في الأعالي، تلك هي أول الأشياء، أو هكذا بدت له، التي إستدعت التورد الى وجهه والذي من ذلك الوقت لم يفارقه؛ ولكن جزئياً أيضاً لسبب أخلاقي، بوسع المرء أن يقول تقريباً لأسباب روحية. أخر يواكيم طويلاً في حوارٍ مع الشماسة، التي تشبثت بسعادة بالغة بالحديث الدائر بينهم. انه شيء عجيب، قالت، ان الفارس النبيل عاش العُطل. كان

(٦٤) ورد في النص الإنجليزي تعبير bel canto (بالإيطالية) وهو يعني غناء مع جمال النغمة والاسلوب المتقن بحسب التقاليد الإيطالية ـ المترجم.

قد مضى زمن طويل منذ أن أظهر نفسه فارساً شجاعاً، لكن ما الذي كان يتنفس به، في النهاية، لا أحد يستطيع القول. على مدى أيام وأيام كان قد عاش فقط بمساعدة كميات هائلة من الأوكسجين. أمسِ فقط استهلك أربعين حاوية، سعر الواحدة ست فرنكات ـ ذلك المبلغ العالي، كان بوسع النبيلين أن يحسبا الكلفة بنفسيهما، وزوجته، التي أسلم الروح بين ذراعيها، أصبحت لا تملك من الدنيا شروى نقير. يواكيم عبّر عن رفضة للإنفاق. لِمَ هذا التأخر في المعاناة والعذاب والوسائل الإصطناعية الغالية طالما ان الموت آتٍ لا ريب فيه؟ لا يستطيع المرء أن يلوم الرجل لأنه استخدم بصورة عمياء الغاز النفيس الذي حثوه على استخدامه. لكن أولئك الذين في موقع المسؤولية كان ينبغي لهم ان يتصرفوا بمزيد من التعقل، كان يلزمهم أن يجعلوه يمضي في حال سبيله، باسم الله، بعيداً تماماً عن الملابسات، وأكثر من ذلك حين يأخذها المرء بالحسبان. الأحياء، على أية حال، لهم حقوقهم ـ وهكذا دواليك. هانز كاستورب اعترض بصورة حازمة. ابن خالته، قال هو، تحدث تقريباً مثل سيتيمبريني، من دون أي احترام أو تبجيل للمعاناة. الرجل توفى في الختام، هذه الوفاة أنهت كل شيء؛ وليس ثمة ما يمكن عمله كي يظهر المرء قلقه، وانه دين نحو المتوفى أن ينفق المرء ما يستطيع إنفاقه. هكذا فكر هانز كاستورب. كان يتمنى فقط لو ان هوفرات لم يبدِ نقصاً في الشعور المهذب من خلال لوم الرجل المسكين بألفاظ جارحه. لم تكن ثمة حاجة لذلك، قالت الآنسة شيلدكنيشت. محاولة صغيرة واحدة فقط قام بها المرحوم من أجل الهرب، من أجل أن يثب خارج الفراش؛ غير ان أصغر تلميح بعبث عمل كهذا كان كافياً كي يجعله يكف عن القيام به مرة واحدة والى الأبد.

مضى هانز كاستورب لرؤية أشلاء الفارس النبيل. عمل هذا بقصد محدد، ليظهر إزدراءه لنظام التكتم السائد، كي يحتج ضد السياسة الأنانية في عدم رؤية وسماع أي شيء يتعلق بهذه الوقائع؛ كي يسجل بفعله هذا إستنكاره لممارسات الآخرين. حاول أن يزج موضوع الوفاة في الحوار الدائر عند المائدة، لكنه قوبل بالرفض الصريح والقاسي من جانب الجميع الأمر الذي

جعله يغتاظ ويرتبك. السيدة شتور كانت فظةً بكل ما في الكلمة من معنى. ماذا قصد من زج موضوع كهذا ـ أي تربية نشأ عليها؟ أنظمة المؤسسة صانت المرضى من أن يحيطوا علماً بهذه الأشياء؛ وها هو ذا شاب تافه يأتي بالخبر الى المائدة، وحتى بحضور الدكتور بلومينكول، الذي ربما سيواجه في أي يوم المصير ذاته (هذا الأمر غاب عن بالها). لو حدث هذا ثانية، سوف ترفع شكوى. وبعدها حدث هذا، أُنب هكذا، هانز كاستورب إتخذ قراراً، وعبّر عنه: سوف يزور رفيقهم الراحل، ويؤدي الواجب الأخير بأن يُبدي إجلاله الصامت نحو أشلائه. أقنع يواكيم بأن يحذو حذوه.

سستر بيرتا رتبت الأمور كي يدخلا الى حجرة الفارس النبيل، الواقعة في الطبقة الأولى تحت طبقتهما. الأرملة إستقبلتهما ـ كانت امرأة شقراء، ضئيلة البدن، ذاهلة، أضعفها سهر الليالي، ذات أنف أحمر، منديلها أمام فمها، وترتدي معطفاً فضفاضاً مربع النقش، ذا ياقة مرفوعة للأعلى، طالما ان الجو بارد جداً في الغرفة. كانت التدفئة مطفأة، باب الشرفة مفتوح. الشابان قالا كلاماً مناسباً، بصوتين مخففين دالين على الاحترام؛ ثم، بإيماءةٍ حزينة من الأرملة، إجتازا الحجرة الى السرير، سائرين على أطراف أصابعهم، ومتمايلين بوقار الى الأمام. وقفا بجانب الميت، كل بحسب طرازه: يواكيم بكعبيه المتلاصقين، نصف مائل في تحية عسكرية، هانز كاستورب مسترخٍ ومستغرق في تفكير حزين، يداه مشبكتان أمامه ورأسه مائل الى أحد الجانبيِن، كما يقف للإصغاء الى الموسيقى. كان الفارس النبيل راقداً ورأسه على وسادة عالية، بحيث ان الجسم، تلك البنية الممددة، ثمرة العمليات الحياتية المختلفة، مع إرتفاع القدمين عند النهاية تحت ملاءة السرير، بدا مسطحاً جداً، تقريباً أشبه بلوح. إكليل زهور موضوع قرب الركبتين؛ سعفة ـ ورقة ناتئة منها مست اليدين العظميتين، الصفراوين، الكبيرتين المتقاطعتين المستريحتين على الصدر الغائر. أصغر وعظمياً كان الوجه أيضاً، بجمجمته الصلعاء وأنفه المعقوف، بعظام وجنتيه البارزة وشاربيه الكثين، الأصفرين الضاربين للإحمرار، قوسهما الكامل جعل حفرتي الخدين الرماديتين والكثتين تبدوان أكثر غوراً. كانت عيناه مغمضتين،

بوضوح غير طبيعي ـ كانتا مضغوطتين الى الأسفل، لم تكونا مغمضتين، فكّر هانز كاستورب. تلك هي التي يدعونها الخدمة الأخيرة للمحبوب؛ لكنها حدث وأن كانت بالأحرى بمنزلة خدمة للأحياء أكثر من الميت. وينبغي تأديتها عاجلاً أيضاً، بعد الوفاة مباشرة، ذلك انه إذا حصل أن تغلغل الغلوبيُولين في العضلات، يكون قد فات الأوان، سيكون الميت هاجعاً هناك وينظر ولن يستطيع المرء أن يتحمل أكثر وهم سباته.

تماماً في بيته، في أكثر من ناحية في محيطه الشخصي، هانز كاستورب وقف عند النعش، مبجلاً المتوفى بشكل متمرس. «يبدو نائماً»، قال هو بنحو شفوق؛ مع ان الميت كان أبعد ما يكون عن الحالة هذه. بعدها، بصوتٍ مخفف بصورة ملائمة، بدأ حواراً مع الأرملة، إستنبط معلوماتٍ حول مكابداتها، حول الأيام واللحظات الأخيرة من حياة زوجها الراحل، والترتيبات المتخذة لنقل جثمانه الى كارينثيا؛ مُظهراً تعاطفاً واطلاعاً كان جزئياً طبيباً (أي له صلة بالطبيب) وجزئياً كاهنياً (أي له صلة بالكاهن) وذا تفسير أخلاقي. الأرملة، متكلمةً بلهجتها المتشدقة، الأنفية، النمساوية، مع نشيج بين الفينة والفينة، وجدت انه شيء لافت ان الشابين سوف يشغلان نفسيهما هكذا بوجع إنسانة غريبة. أجاب هانز كاستورب انه هو وابن خالته كانا نفسيهما مريضين؛ انه هو، عندما كان يافعاً جداً، وقف عند فراش احتضار عدد من أقاربه؛ كان هو يتيم الأبوين، وإذا ما تسنى له أن يقول هذا، فقد اعتاد من زمن طويل مشهد الموت. سألت هي أي مهنة اختارها؛ فرد عليها قائلاً انه «كان» مهندساً.

«كنتَ؟» سألتْ.

«كنتُ»، رد، بمعنى ان مرضه وبقاءه هنا في الأعالي مدة لم يتحدد طولها بعد حالا بينه وبين عمله؛ ربما يعني ذلك انقطاعاً مهماً، وحتى نقطة تحوّل في مسيرته الحياتية، لم يستطع الإفصاح عنها. يواكيم، حين سمع هذا، فحص وجهه بشيءٍ من الذعر. وابن خالته؟ كان جندياً، كان يتدرب حالياً ليصبح ضابطاً.

«آ»، قالت، «حرفة الجندي مهنة خطيرة أخرى، ينبغي للمرء أن يكون

مهيئاً لملامسة الموت عن كثب، انه شيء جيد أن يعوّد المرء نفسه على المشهد سلفاً». صرفت إبني الخالتين مع الشكر وتعابير الود، التي لم يكن لها إلا أن تؤثر فيهما، إذا ما أخذنا بنظر الإعتبار حالتها المعوزة، وقائمة تكاليف الأوكسجين التي تركها وراءه زوجها الراحل.

عادا الى طبقتهما، كان هانز كاستورب مسروراً إيما سرور ومتورداً بفعل الزيارة.

«ليرقد بسلام»[٦٥]، قال باللاتينية. «كما ترى، حين يكون الموت هو الموضوع المتكلم عنه، حين يتحدث المرء الى الموتى أو عنهم، عندئذ تأتي اللاتينية رغماً عنك؛ انها، إذا صح التعبير، اللغة الرسمية. إذاً أنت ترى ان الموت شيء منفصل. لكنها ليست إيماءة إنسانية، أن يتحدث المرء اللاتينية في شرف الموت؛ وفوق ذلك، اللاتينية ليست تلك التي تعلمتها في مدرستك ـ روحها مختلفة كثيراً، ربما يستطيع المرء القول انها عدائية. انها لاتينية كنسية، لاتينية راهبية (نسبة الى راهب)، لغة عامية قروسطية، هي ضرب من الترانيم البليدة، الرتيبة، السرية. لم تكن نافعة لـ سيتيمبريني، انها لا شيء بالنسبة للإنسانيين والجمهوريين والمعلمين الذين من هذه الشاكلة، انها تأتي من نقطة مختلفة تماماً من المحيط. أجد انه ينبغي للمرء أن يكون واضحاً في ما يتعلق بهذين الإتجاهين الفكريين، أو لعل من الأفضل أن نقول هاتين الحالتين العقليتين: أعني التفكير الورع والتفكير الحر. كلاهما له جوانبه الحسنة؛ ما أختلفُ فيه مع سيتيمبريني ـ خط التفكير الحر ـ هو: يبدو انه يتصور ان هذا الخط يلتقي مع سمو الإنسان. هذه مبالغة، على ما أظن، لأن الخط الآخر له نوعه الخاص من السمو أيضاً، ويساعد على نصيب هائل من اللياقة والإنجاب الصحيح وطقس الترقية، أكثر، في الواقع، من التفكير الحر، حين تتذكر ان له عيبنا الإنساني وميلنا الى أن نخطأ مباشرة في العقل، وأفكار الموت والخراب تلعب دوراً جوهرياً جداً فيه. هل شاهدت [دون

(٦٥) وردت باللاتينية العبارة الآتية: Requiescat in pace. Sit tibi terra levis. Requiem a ternam dona ei, Domine. ـ المترجم.

كارلوس][٦٦] حين قُدمت على خشبة المسرح؟ هل تتذكر انه في المحكمة الإسبانية، حين يدخل الملك فيليب، مجللاً بالسواد، مع وسام ربطة الساق البريطاني وصوف الخراف الذهبي، ويخلع قبعته ـ تبدو شديدة الشبه بواحدة من بطيخاتنا الصفر (شماماتنا) ـ يرفعها من الأعلى ويقول: «الغطاء، يا سادتي»، أو شيئاً ما من هذا القبيل؟ تلك هي أقصى درجات الشكلانية، على ما أعتقد؛ ليس ثمة كلام عن التصرفات الحرة والبسيطة هناك! الملكة نفسها تقول: [في بلدي فرنسا الوضع مختلف تماماً!] بطبيعة الحال انه شيء دقيق جداً بالنسبة لها، منمق جداً، كانت تتمنى شيئاً مرحاً أكثر وإنسانياً أكثر. لكن ما هو الإنساني؟ كل شيء إنساني. أنا أجد ان كل تلك الشكلية الصارمة وإجلال مخافة الله للإسبان هي نوع مبجل جداً من الإنسانية؛ بينما من الناحية الثانية كلمة (إنساني) يمكن أن تُستعمل لتغطي الله أعلم أساليبَ خليعة وقذرة ـ أنت نفسك تعرف ذلك جيداً.»

«أعرف فعلاً»، قال يواكيم. «طبيعياً، لا أستطيع أن أتحمل أي نوع من [الإنفلات] والقذارة. ينبغي أن يكون هناك تهذيب وضبط النفس.»

«أجل، أنت تقول ذلك بصفتك جندياً؛ ويلزمني أن أعترف ان العسكري يفهم هذه المسائل جيداً. كانت الأرملة محقة حين قالت ان مهنتك من النوع المهيب، لأنك تكون دوماً على شفير الموت. لديك بذلة مُحكمة وضيقة ونظيفة، ذات ياقة صلدة ـ عندك أدب المعاشرة؛ ثم أنظمة رتبتك العسكرية، والطاعة العسكرية، وكل الأنواع التي حفظتها من أجل أحدها الآخر ـ تماماً في الروح الإسبانية، هناك شيء مبجل يتعلق بها، أستطيع أن أكتفي به بشكل جيد جداً، في الواقع. نحن المدنيين يلزمنا أن نبدي مزيداً من الروح ذاتها في عاداتنا وتصرفاتنا، أنا أحبها فعلاً، وأجدها مناسبة. في اعتقادي ان العالم، والحياة عموماً، هما من النوع الذي يتيح لنا جميعاً أن نرتدي السواد، مع طوق رقبة مكشكش ومنشى بدلاً من ياقتك المنتصبة؛ ويتيح لكل علاقات

---

(٦٦) دون كارلوس Don Carlos: مأساة ألّفها شيلر عُرضت أول مرة في هامبورغ العام ١٧٨٧ ـ المترجم.

بعضنا مع بعضنا الآخر أن تكون ملطفة واحتفالية، وواعية بالموت. سيبدو ذلك صحيحاً وأخلاقياً بالنسبة لي. ثمة رأي آخر من آراء سيتيمبريني المتغطرسة؛ ربما سأقول له ذلك، يوماً ما: يعتقد هو ان له شركة محتكرة للأخلاق فضلاً عن السمو الإنساني ـ بحديثه عن [أعمال المرء خلال حياته كلها]، وخدمات الأحد بإسم [التقدم] ـ كما لو أن ليس للإنسان شيء آخر يفكر به، في أيام الآحاد، غير التقدم! و[الإزالة النظامية للمعاناة] خاصته؛ أنت لم تسمع شيئاً عن ذلك، لكنه أرشدني الى الموضوع، ويمكن أن تتم إزالتها نظامياً بوساطة قاموس. ربما أجد ذلك كله شيئاً لا أخلاقياً بنحو أكيد ـ لكن ماذا عن ذلك؟ لن أخبره بذلك، بطبيعة الحال. انه يعاملني باعتدال، كما تعرف، بالطبع بطريقته المطواعة، ويقول: [أنا أحذرك، أيها المهندس]. غير ان المرء يستطيع أن يستأذن للتفكير في ما يحبه، في الأقل: [مولاي، هبة حرية التفكير]. دعني أقول لك شيئاً»، واصل كلامه ـ كانا الآن قد وصلا حجرة يواكيم، وكان يواكيم مستعداً للإستراحة ـ العلاج ـ «دعني أقل لك شيئاً أنوي عمله. نحن نسكن هنا في الأعالي، جنباً الى جنب مع الموتى، قريباً من البؤس والمعاناة، وليس فقط اننا نتصرف كما لو اننا لا نملك شيئاً نفعله بإزائها، غير ان الأمور مرتبة بعناية كي يجنبونا إياها ويمنعون تماسنا معها، أو رؤيتنا لأي شيء على الإطلاق ـ سوف يأخذون الفارس النبيل بعيداً بينما نكون نحن منشغلين بتناول فطورنا أو شاينا ـ وأنا أجد هذا سلوكاً لا أخلاقياً. كانت المرأة شتور غاضبة ببساطة لأنني ذكرت وفاته. كانت كلماتها لا عقلانية. هي امرأة جاهلة، للعلم، وتظن ان «بهدوء، بهدوء، بنحو حكيم» جاءت من تانهاوزر[٦٧]، قالت ذلك يوماً ما. لكن مع ذلك، ربما يكون لها شعور إنساني صغير، وبقية الناس كذلك. حسن، قررتُ أن أهتم قليلاً في المستقبل بالمرضى ذوي الحالات الخطيرة وبالهالكين. هذا سوف يشفيني ـ أشعر ان زيارتنا التي قمنا بها تواً جعلتني أتعافى. ذلك الشاب المسكين ريوتير في رقم خمسة وعشرين، الذي رأيته من خلال الباب حين

(٦٧) تانهاوزر Tannhauser: شاعر من القرون الوسطى ـ أنظر الملحق ـ المترجم.

أتيت أول مرة، كان في الأرجح قد مضى زمن طويل منذ أن إجتمع مع والديه، وكان قد خُطف بطريقة خفية وبكل هدوء. كانت عيناه كبيرتين جداً حتى وقتذاك. غير انه يوجد الكثير منهم، المؤسسة مليئة بهم، وما فتئوا يأتون. ستتر ألفريدا أو المديرة أو حتى بيرنز نفسه، سيكونون سعداء في الأرجح في أن يجعلوننا نؤدي هذه المهمة. لنقل ان أحد الهالكين يحل عيد ميلاده، ونسمع نحن بذلك ـ هذا الأمر سيتم إنجازه بسهولة. نبعث له، أو لها، رجلاً كان أم إمرأة، سلة أزهار، إهتمام من زميلين ـ نزيلين، يؤثران أن يظلا مجهولين، مع أطيب التمنيات بالشفاء؛ انه شيء مهذب دوماً أن نقول ذلك. ثم بعدها، بالطبع، يتم إكتشاف مَنْ الذي أرسل السلة، وهو ـ أو هي ـ في سقمها، تسمح لنا أن نسلّم عليها، بإسلوب ودي، عبر المدخل؛ ربما تطلب منا أيضاً أن ندخل دقيقة، ويكون لنا إتصال إنساني قليل معه، قبل ان يغوص الى الأعماق. هكذا أتخيل الأمر. هل أنت موافق؟ بالنسبة لي، أنا إتخذت قراري.»

يواكيم لم يكن له شيء كثير ضد الخطة. «انها ضد قواعد المؤسسة»، قال. «بشكلٍ من الأشكال، أنت ستتجاوزهم. غير ان بيرنز ربما يكون راغباً بأن يستثنيك، ويمنحك موافقته، إذا أردتها، على ما أعتقد. ربما تشير الى إهتمامك بالجانب الطبي.»

«نعم ، بين عدة أشياء»، أجاب هانز كاستورب: ذلك انه في الحقيقة بعض حوافزه المشوشة نوعاً تكمن في أعماق رغبته. ان إستنكاره للأنانية السائدة هو واحد فقط من هذه الأشياء: هناك أيضاً وبالأخص توق روحي شديد لأخذ المعاناة والموت على محمل الجد، وأن نعيرهما الإجلال الذي يستحقانه. ان ملامسة المعاناة والموت سوف، أو هكذا نأمل، يغذي ويقوّي هذا التوق الشديد للروح، من خلال إبطال التجريحات المتنوعة التي يخضع لها كل يوم وكل ساعة، والتي شعر بها بقوة شديدة بسبب النقد السيتيمبريني. كانت ثمة أمثلة كثيرة: لو ان إمرءاً ما سأل هانز كاستورب عنها، فلربما يذكر بعض الأشخاص الذين باعتراف الجميع لم يكن مرضهم شديداً، ولم يكونوا يخضعون لأدنى إكراه، لكنهم إختلقوا ذريعة الإصابة بمرض طفيف كي

يسكنوا هنا في الأعالي، من أجل متعتهم الخاصة، ولأن الحياة في هذه المرتفعات تناسبهم. هكذا كانت الأرملة هيسينفيلد، التي أتينا على ذكرها بشكل عابر. كانت هوايتها المراهنة؛ كانت تراهن ضد النبلاء بكل شيء مدرك بالحواس على كل موضوع ممكن تخيله: المناخ، أطباق العشاء، نتيجة الفحص الشهري، طول مدة البقاء الموصوفة لهذا الشخص أو ذاك، أبطال التزلج، ركوب عربة الجليد، مسابقة صيد السمك في الجليد، ومنافسات التزحلق على الثلج، مدة هذه العلاقة الغرامية أو تلك بين نزلاء المصح، ومائة موضوع آخر، هي عادة مواضيع غير مهمة على الإطلاق أو تافهة. راهنت بالشوكولاته، بالشمبانيا، والكافيار، التي يومئذ كان يتم تناولها بصورة إحتفالية في المطعم، أو بالمال، أو ببطاقات الدخول الى صالة السينما، أو حتى بالقبلات، الممنوحة والمأخوذة ـ بإيجاز، كانت قد جلبت بولعها بالمراهنة حيوية كبرى وإثارة الى حجرة الطعام، مع ان أحداثها لم تكن من النوع الذي يمكن أن يؤخذ على محمل الجد من قبل هانز كاستورب، الذي شعر كذلك ان وجودها حسب كان ضاراً بوقار مصح جاد.

ذلك انه كان معنياً داخلياً بحماية ذلك الوقار وكان يؤيده بعينيه ـ مع انه الآن، بعد ما يقارب نصف سنة بين أولئك المقيمين هنا في الأعالي، كان يكلفه أن يفعل شيئاً من هذا القبيل. ان التبصر الذي إكتسبه شيئاً فشيئاً في حيواتهم وفعالياتهم، ممارساتهم ووجهات نظرهم، لم يكن مشجعاً. كنا قد ذكرنا الشابين الهزيلين الأنيقين، في السابعة عشرة والثامنة عشرة من العمر، الملقبين ماكس وموريتز، اللذين كانت أعمالهما الجريئة مدار حديث المصح، واللذين دأبا على تسلق النافذة ليلا كي يلعبا البوكر ويسرفا في الشراب هناك في الأسفل في مجتمع أنثوي. فقط مؤخراً ـ أي، أغلب الظن بعد رأس السنة الميلادية. بإسبوع، إذ يجب أن نتذكر دوماً انه بينما نحن نروي القصة، يجري الزمن بصمت وبلا إنقطاع ـ فقد ذاع الخبر عند الفطور ان أستاذ الإستحمام قد أمسك بالثنائي تواً، بثياب مسائية مجعدة، مستلقيين في سريريهما. حتى هانز كاستورب قهقه؛ غير ان هذا مهما كان مخزياً لمشاعره الأفضل، كان لا شيء مقارنة بالحكايات التي كانت منتشرة حول

محامٍ ما من جوتيربوغ، اسمه إينهوف؛ رجل لعله في الأربعين من العمر، بلحيةٍ مدببة ويدين كثيفتي الشعر، شغل مكان السويدي عند مائدة السيد سيتيمبريني. فقد بُلغ عنه انه لم يكن يأتي فقط الى المصح مخموراً كل ليلة، بل انه منذ عهد قريب أخفق حتى في فعل ذلك، فقد تم العثور عليه مستلقياً في المرج. كان قد تجاوز دون جوان: السيدة شتور كان بوسعها أن تشير الى الشابة غير المتزوجة ـ التي عُرف عنها أيضاً ان لها عشيقاً، خطيباً في الأرض المستوية في الأسفل ـ التي شوهدت تخرج في ساعة معينة من حجرة المحامي إينهوف، وهي ترتدي معطف فرو مع ألبسة تحتانية، ولا شيء غير ذلك. كانت تلك فضيحة؛ ليس بالنسبة لحس هانز كاستورب العام فقط، بل هي أكثر من ذلك بالنسبة لحسه الخاص، ومنتقصةً من مساعيه الروحية. بل وصل الأمر الى هذا: ان التفكير بالمحامي إينهوف لم يستطع أن يدخل عقله من دون أن يستدعي هناك، بوساطة مجموعة من الآراء، التفكير بـ فرانزخين أوبردانك، المخلوقة الصغيرة ذات الرأس الأملس الأشقر، التي جلبتها أمها، وهي امرأة كهلة فاضلة من المقاطعات، الى مصح بيرغهوف هنا قبل بضعة أسابيع. كانت حالة فرانزخين، لدى وصولها، وحتى بعد فحصها، قد أُعتقد بكونها من النوع الخفيف. لكنها ربما أخفقت في الخدمة التي تلقتها في المصح، أغلب الظن كانت حالتها من تلك الحالات التي برهن الجو على كونه في المرحلة الأولى نافعاً ليس ضد المرض، بل معه. أو لعل الطفلة كانت متورطة بعلاقة غرامية سرية، كانت إثارتها سيئة التأثير بنحو خطير على صحتها. بعد وصولها بأربعة أسابيع دخلت حجرة الطعام غب الفحص الثاني، رمت حقيبتها اليدوية في الهواء وصرخت بصوتها الفتي الطازج: «هوراه، هوراه، ينبغي لي أن أمكث عاماً كاملاً!» بإزاء هذا دوّت الحجرة كلها بالقهقهة الهوميروسية. لكن بعدها بإسبوعين تردد همس مفاده ان المحامي إينهوف تصرف كوغد مع فرانزخين أوبردانك. هذا التعبير لنا، أو بالأحرى، تعبير هانز كاستورب؛ ذلك ان أولئك الذين نشروا الأخبار وجدوها قصةً قديمةً جداً كي تستدعي إستخدام لغة قوية. هزوا أكتافهم إستهجاناً وصرّحوا برأيهم قائلين ان (ألعاباً) كهذه تتطلب إشتراك إثنين، وانه

من المستبعد أن يحدث شيء ضد إرادة أي من الشريكين. هذا، في الأقل، كان سلوك السيدة شتور، رد فعلها الأخلاقي على القضية التي نحن بصددها.

كانت كارولين شتور كريهةً جداً. إذا كان ثمة شيء له القدرة على أن يحيّر شابنا هانز كاستورب، في أثناء نضالاته الروحية المحسوسة بإخلاص، فهو شخصية هذه المرأة وحياتها. إساءاتها الأبدية لإستعمال الألفاظ كانت كافية تماماً. كانت تقول مفلس حين تقصد متغطرس، وتطلق هراءً مذهلاً أيما ذهول بوساطة تفسير الظواهر الفلكية المتعلقة بكسوف الشمس. ذات يوم أكرهت تقريباً السيد سيتيمبريني على الخَبَل الدائمي بإخباره انها كانت تطالع كتاباً من المكتبة سوف يثير إهتمامه، يدعى: «ترجمة شيلر لـ بنيديتو سينيلي». هامت هي بتعابير ذات طابع رخيص ومبتذل، تعابير بالية ومتهرئة بسبب كثرة الإستعمال، أثارت أعصاب هانز كاستورب ـ كقولها، في سبيل المثال، «ليس لديك أدنى فكرة». كانت قد سادت رطانة حديثة الطراز بحيث يقولون «ببساطة فائق الجمال» لوصف رأي لامع الذكاء أو ممتاز؛ هذا التعبير أثبت الآن انه قد عمّر أكثر من نفعه. كان مخصصاً تماماً لأغراض فاسدة، وتم مص العصير منه كلياً، والسيدة شتور تتشبث بإلحاح بأحدث رواج: كل شيء، سواء في الهزل أو الجد، كان «مدمراً»، موضة قصة الشعر القصيرة للنساء، الحلوى المخصصة للعشاء، درجة حرارتها ـ وهذه كلها بدت كريهة على حدٍ سواء في فمها. كانت لها شهية لا حد لها للقيل والقال. ذات يوم ربما تروي ان السيدة سالومون كانت تلبس أغلى الملابس الداخلية المصنوعة من الدانتيلا إستعداداً لفحصها، وتفتخر بنفسها كثيراً كونها ظهرت أمام الأطباء في هذه المناسبات. ربما ثمة حقيقة أكثر من الشعر في هذا التصريح. هانز كاستورب نفسه كان له إنطباع ان الفحوصات، بغض النظر عن نتائجها، كانت لها ناحيتها السارة بالنسبة للسيدات، وانهن يزينن أنفسهن ويتبرجن على وفق ذلك. لكن ماذا يستطيع المرء أن يقول لتأكيد السيدة شتور بأن السيدة ريديش، من بوسين، التي، كان يُخشى من انها، كانت تعاني من سل العمود الفقري، توجب عليها أن تتمشى جيئةً وذهاباً عاريةً تماماً أمام هوفرات بيرنز، مدة عشر دقائق مرة بالإسبوع؟ هذه الرواية كانت تقريباً بعيدة الاحتمال وغير

مرغوب فيها أيضاً، بيد ان السيدة شتور أقسمت بكل ما هو مقدس مؤكدة صحتها ـ مع انه من العسير أن يفهم المرء كيف تستطيع هذه المخلوقة المسكينة أن تستهلك حماسة وطاقة كبيرتين جداً، وأن تكون عقائدية جداً، في مسائل كهذه، حين تمنح حالتها الشخصية أسباباً كثيرة للإهتمام بالآخرين ومتابعة أخبارهم. كانت تستحوذ عليها غالباً نوبات الرعب والأنين التي يسببها التراخي والكسل الذي بدا انه في إزدياد دائم، أو بسبب منحنيها المتصاعد؛ حين تأتي باكية الى المائدة، الوجنتان الحمراوان متشققتا الجلد مبللتان بالدمع، وتنتحب في منديلها: بيرنز كان يريد أن يرسلها الى الفراش، كانت تريد معرفة ماذا قال في غيابها، هذه المسألة تشغل بالها دوماً، كانت تريد أن تواجه الحقيقة. ذات يوم لاحظت، ويا لرعبها، ان سريرها كان قد وُضع بحيث كانت جهة القدم باتجاه باب المدخل؛ هذا الاكتشاف تقريباً أورثها التشنجات. لم يكن من اليسير أن يفهم المرء غيظها ورعبها؛ هانز كاستورب لم يفهم حالاً ماذا قصدت بقولها، وسأل: «حسن؟ وماذا بعد؟ ماذا عن السرير منتصباً بذلك الوضع؟»

في سبيل الله، ألا يستطيع هو أن يفهم؟ القدمان أولاً! كانت قد أطلقت صيحة عالية يائسة، ووضع السرير يجب تغييره في الحال، مع ان ذلك جعلها ترقد ووجهها نحو الضياء، وهكذا عكّر نومها.

غير ان أي واحد من الأشياء هذه لم يكن جدياً حقاً، ولم يكن ليلبي حاجات هانز كاستورب الروحية. حادثة بغيضة، وقعت في ذلك الوقت تقريباً، خلال إحدى وجبات الطعام الرئيسة، تركت إنطباعاً عميقاً فيه. بين المرضى الأجد كان ثمة معلّم مدرسة يدعى بوبوف، رجل نحيل وصامت، مع زوجته النحيلة والصامتة على حدٍ سواء. جلسا معاً الى المائدة الروسية «الجيدة»؛ وذات يوم، عندما كانت وجبة الطعام في نشاطها الكامل، إستولت على الرجل نوبة صرع عنيفة ومع تلك الصرخة الشيطانية الغريبة التي وُصفت كثيراً هوى أرضاً، حيث تمدد جنب كرسيه، يضرب في ما حوله بذراعين وساقين مشوهتين بنحو مرعب. وما زاد الطين بلة، انه كان قد سُلّم إليه تواً طبق سمك، وكان ثمة سبب للخوف من ان بوبوف، خلال تشنجه، ربما

يختنق بعظم سمكة. كان الصخب عصياً على الوصف. السيدات، السيدة شتور على رأسهن، مع السيدات سالومون، ريديش، هيسينفيلد، ماغنوس، إلتيس، ليوي، والباقيات حذون حذوهن، أُخذن بطرق شتى، بعضهن كن تقريباً في حالٍ سيئة أشبه بحال بوبوف. دوّت صرخاتهن. في كل مكان كانت هناك الأجفان المرتعشة، الأفواه الفاغرة، الجذوع المجدولة والمتلوّية. إحداهن اختارت أن تغيب عن الوعي، بصمت. كانت هناك حالات إختناق، بعضهن كن يمضغن ويبتلعن طعامهن حين بدأ الإهتياج. نزلاء كثيرون عند موائد مختلفة فرّوا، عبر أي مخرج موجود، مع انهم كانوا ينشدون المخرج المفتوح، مع ان الطقس كان بارداً جداً ورطباً. الحادثة كلها، على أية حال، إتخذت صفة مميزة، كانت تتسم فضلاً عن الرعب الذي تخللها بكونها كريهة، من خلال تداعي الآراء بحسب آخر محاضرات الدكتور كروكوفسكي. في معرض حديثه عن الحب كقوة متجهة الى المرض، المحلل النفساني مسَّ موضوع «الصرع». هذا البلاء، الذي، في أزمان ما قبل التحليل النفسي، قال، كان الناس بالتناوب يفسرونه كونه عقاباً (أو ثواباً) إلهياً، مقدساً، ونبوئياً أيضاً، واستحواذاً شيطانياً، وراح يتكلم عنه، بطريقة جزئياً شاعرية، وجزئياً بمصطلحات علمية لا ترحم، كونه المرادف للحب وكونه الذروة[٦٨] الجنسية للدماغ. الخلاصة، كان قد ألقى ضوءاً ملتبساً على المرض بحيث ان سامعيه كانوا مرغمين على أن يروا، في نوبة بوبوف المرضية، صورة للمحاضرة، تجلياً مروِّعاً وفضيحة غامضة. ان الهرب من جانب السيدات كان، على هذا الأساس، تعبيراً مقنَّعاً للحياء. هوفرات نفسه كان حاضراً عند الوجبة؛ هو، مع الآنسة فون ميليندونك وواحد أو إثنين آخرين من النزلاء النشيطين، حملوا المنتشي من الحجرة، كان أزرق، صلباً، مجدولاً، الزبد يعلو فمه؛ وضعوه أرضاً في الردهة، حيث كان بالوسع رؤية الأطباء، المديرة، وأناساً آخرين وهم يحومون حول الرجل غير الواعي، الذي حملوه في ما بعد على نقالة. لكن بعد مضي وقت قصير على ذلك

(٦٨) الذروة orgasm: هزة التهيج الجنسي (الجِماع) ـ المترجم.

السيد بوبوف، سعيداً تماماً وهادئاً، مع زوجته الهادئة والسعيدة على حدٍ سواء، شوهد جالساً الى المائدة الروسية «الجيدة»، يكمل وجبة طعامه كما لو ان شيئاً لم يحدث البتة.

كان هانز كاستورب حاضراً خلال هذه الحادثة، ولاحت على محياه كل علامات القلق والرعب، لكنه في الواقع لم يكن متورداً، وليكن الله في عونه! ربما كان بوبوف قد إختنق بلقمة السمك، لكنه لم يفعل في الحقيقة. لعله، خلال تناوله غير الواعي للطعام والأحداث كلها، كان حذراً جداً طوال المدة كلها من أن يختنق. هو ذا الآن جالس هناك، يأكل بإبتهاج ومرح، كما لو انه لم يسبق له أن تصرف كالسكران المسعور ـ محتمل جداً انه لم يتذكر شيئاً على الإطلاق مما جرى له. لكن في شخصه لم يكن إنساناً يقوّي ويعزز احترام هانز كاستورب للمعاناة؛ زوجته، أيضاً، وبحسب طرازها، فقط أضافت الى تلك الإنطباعات ذات الشذوذية العابثة التي كان هانز كاستورب قد كافح ضدها والتي كان يسعى الى إبطالها بأن يكون في تماس مباشر، على الرغم من الموقف السائد، مع المعاناة والموت في المؤسسة.

في الطبقة ذاتها مع إبني الخالتين، ليس بعيداً عن حجرتيهما، ترقد فتاة يافعة تدعى ليلى غيرنغروس. بحسب قول سستر بيرتا، كانت على شفير الموت. في بحر عشرة أيام أبتليت بأربعة نزوف (جمع نزف) شديدة، وأقبل والداها، على أمل أن يأخذاها الى البيت بينما هي ما زالت حية. غير ان هذا كان مستحيلاً؛ قال هوفرات ان المسكينة الصغيرة غيرنغروس لن تتحمل الرحلة. كانت في ربيعها السادس عشر أو السابع عشر. رأى هانز كاستورب هنا الفرصة المؤاتية لتنفيذ خطته بإرسال سلة الزهور والتمنيات الطيبة بالشفاء العاجل. حقيقة، لم يكن ثمة عيد ميلاد كي يتم الاحتفال به، في كل الإحتمالات الإنسانية الصغيرة ليلى لن ترى عيداً آخر ـ ميلادها حدث في الربيع، عرف هانز كاستورب. لكنه شعر ان هذه الحقيقة لن تمنعه من تقديم تعاطفه الدال على الإحترام. حين هبط مع ابن خالته للقيام بالنزهة الصباحية على الأقدام، دخل مخزن زهور قرب الكورهاوس، ومستنشقاً بصورة مقبولة

الهواء الرطب، الترابي، المحمّل بالعطر، إختار بعناية من بين عدد كبير من الأزهار غرسةً فاتنة وأمر بأن تُرسل الى حجرة المعذبة الصغيرة، مع بطاقة، لم يدوّن عليها إسمين، بل ببساطة كتب: «من زميلين في المصح، مع أطيب التمنيات بالشفاء». هذا كله كان نشاطاً رائعاً بالنسبة لـ هانز كاستورب؛ تمتع هو بالعطر الفوّاح للنباتات؛ الدفء الناعم للمخزن، بعد البرد في الخارج، جعل مقلتيه تمتلئان بالدموع. شرع قلبه ينبض بشعور خاص بالمغامرة والتهور، بإيمان راسخ بالإحساس الجيد بعمله المتواضع، الذي نسب إليه، بنحو خاص، قيمةً رمزية.

ليلى غيرنغروس لم يكن لها تمريض خاص بها، كانت تحت إشراف مباشر من لدن الآنسة فون ميليندونك والأطباء. سستر بيرتا أيضاً تدخل غرفتها وتخرج منها، وهي التي نقلت إليهما الأخبار حول نتيجة إهتمامهما. الصغيرة، في حالتها المحددة والميؤوس منها، سُرت سرور الطفل بتحايا الغريبين. السلة إنتصبت بجانب سريرها، عانقتها بعينيها ويديها، شاهدت انها كانت تُسقى باستمرار، وحتى في أقسى نوبات سعالها كانت تلقي نظراتها المعذبة عليها. على غرارها الوالدان، الرائد المتقاعد غيرنغروس وزوجته، تأثرا وسُرّا سروراً بالغاً، وطالما انه كان مستحيلاً لهما، كونهما غريبين تماماً، أن يخمنا الواهبين، الآنسة شيلدكنيشت لم تستطع ـ إعترفت بذلك ـ ان تحجم عن كشف هوية إبني الخالتين. نقلت رغبة الأسرة كلها في حتمية مجيئهما وتلقي الشكر عن هديتهما؛ وهكذا، في اليوم التالي فقط، الشماسة، أدخلت الإثنين معاً مشياً على أطراف الأصابع الى غرفة ليلى.

كانت الفتاة المحتضرة حقيقةً مخلوقةً شقراء فائقة الجمال، ذات عينين بلون أزرق يقول لا تنسني. على الرغم من فقدان الدم الغزير، والمجهود الذي كانت تبذله كي تتنفس ببقية غير كافية على الإطلاق من نسيج الرئة السليم، كانت تبدو ضعيفة وهشة في الواقع، مع انها لم تكن محزونة جداً. شكرتهما، وتكلمت قليلاً، بصوتٍ مقبول، مع انه من دون نبرة، بينما كان ثمة وهج وردي طفيف يغطي وجنتيها وبقي هناك. هانز كاستورب فسر بطريقة مناسبة تطفله الظاهري واعتذر عنه، متحدثاً بصوت منخفض ومثير

للمشاعر، مع تبجيله الرقيق. لم يكن يعوزه الكثير ـ الحافز موجود في داخله ـ كي يهوي على ركبتيه جنب السرير، وأمسك بيده يد المريضة الصغيرة والحارة طويلاً وباحكام، مع إنها لم تكن رطبة بل مبللة حقيقة، ذلك ان العرق كان يتصبب من الطفلة بغزارة شديدة، كانت تتعرق كثيراً جداً، لا بد ان جسدها كان ذاوياً، إذا لم يتم تعويض التفصد بجرعات غزيرة من عصير الليمون المحلّى، كانت ثمة غرّافة(٦٩) قريبة منه واقفة على الطاولة المجاورة للسرير. الأبوان، اللذان كانا مُبتلين، أطالا الحديث الموجز بأسئلة لطيفة عن الحالة الصحية لإبني الخالتين، بأساليب أخرى في فن الحوار. كان الرائد رجلاً عريض المنكبين، ذا جبهة واطئة وشاربين كثين، كان قلعةً من القوة؛ براءته العضوية من النزعة السُلّية لإبنته الصغيرة كانت واضحة للعيان. كانت بالأحرى الأم هي المسؤولة عن تلك الوصمة المتوارثة؛ كانت ضئيلة البدن، ومن نوع سُلّي واضح، وكان ضميرها يؤنبها على ما يبدو لأنها كانت تعرف صفتها القاتلة التي نقلتها بالوراثة الى إبنتها المعذبة. ليلى، بعد حديث إستغرق عشر دقائق، أظهرت علامات الإعياء، أو بالأحرى علامات التهيج المفرِط؛ تعمق التورّد في خديها، وعيناها اللتان تقولان لا تنسنا كانتا تومضان بقلق. إبنا الخالتين، بإشارة من الممرضة، قاما بالتوديع؛ وبعدها تبعتهما الأم المسكينة الى المجاز، إنطلقت توبخ نفسها، الأمر الذي أثر في هانز كاستورب تأثيراً موجعاً جداً. منها جاء، منها وحدها جاء، جعلت تقول بطريقة متسمة بالندم، المرة تلو المرة. زوجها لا صلة له بالموضوع لا من قريب ولا من بعيد. حتى هي، أكدت لهما، كانت قد أُصيبت به مؤقتاً، كانت حالة مرضية طفيفة وسطحية، عندما كانت ما تزال في ميعة الصبا. كانت قد تخلصت منه نهائياً، وكانت متيقنة من انها شفيت تماماً. ذلك انها كانت ترغب بالزواج، كانت تتوق توقاً شديداً لأن تتزوج وتعيش، وفعلت هذا: مشافاة ومعافاة زوّجت نفسها لبعلها العزيز، كان هو نفسه سليماً كالتوت، ومن جانبه لم يكن لديه أدنى ملاحظة على الإطلاق حول هذه

---

(٦٩) غرّافة carafe: ابريق زجاجي ـ المترجم.

الأشياء. غير ان كونه سليماً وقوياً، لم ينفع: الشيء المروع، المختبئ، المنسي رأى النور في الطفلة، وسوف ينتهي بتدميرها؛ هي، الأم، نجت منه وكانت تدخل مرحلة الشيخوخة السليمة، غير ان العزيزة المسكينة المحببة الى القلب سوف تلفظ أنفاسها الأخيرة، الأطباء لم يعطوهما أي أمل ـ وهي، هي وحدها، التي يقع عليها اللوم، بماضيها المطمور.

حاول الشابان أن يواسيا الأم، وأن يقولا شيئاً ما عن إحتمال حصول تغير نحو الأحسن. إلا ان زوجة الرائد نشجت وشكرتهما على كل ما فعلاه، على هدية الغرسة وعلى التسلية والمتعة اللتين أتت بهما زيارتهما لطفلتها. كانت راقدة هناك، الصغيرة المسكينة، وحيدة وتعاني في سريرها، في حين ان الشابات الأخريات في سنها فرحات مسرورات بالحياة، وبوسعهن أن يراقصن شباناً رائعين بحسب رغبة أفئدتهن الفياضة بالمشاعر ـ وحتى المرض لا يقدر أن يقتل الرغبة بالرقص. كانا قد جلبا لها شعاع سعادة ـ يا إلهي، سيكون هذا هو الشعاع الأخير. كانت الغرسة أشبه بدليل تقدير في حفلة راقصة، المحادثة الموجزة مع الفارسين الشابين الرائعين هي علاقة غرامية متناهية الصغر؛ هي، الأم، شاهدتها بأم عينها.

هذا كله ترك إنطباعاً موجعاً نوعاً في هانز كاستورب ـ وكانت قد تلفظت بالفرنسية بنحو سيء أيضاً، الأمر الذي أزعجه بصورة لا توصف. لم يكن هو فارساً رائعاً، كان قد زار الصغيرة ليلى فقط تعبيراً عن إحتجاجه على الروح السائدة للأنانية في المصح، وبصفة طبيبية (نسبة الى طبيب) وكاهنية (نسبة الى كاهن). كان هو بالأحرى قد إنزعج من المنحى الذي إتخذته المسألة، والتفسير الذي خلعته الأم عليها. ولكن من الناحية الثانية، شعر هو بمتعة نابضة بالحيوية كونه نفذ مشروعه فعلاً. إنطباعان بقيا في باله من العمل الذي قام به: أولهما، الروائح الترابية لمخزن الأزهار، ؛ ثانيهما، يد ليلى الصغيرة البليلة ـ هذان الإنطباعان تغلغلا في عقله وروحه. وبما انه قام بخطوة البداية، نسّق في اليوم نفسه مع ألفريدا شيلدكنيشت للقيام بزيارة مريضها فرتز روتبين الذي كان سئِماً من الحياة كممرضته، مع انه بالنسبة له، ما لم تنقطع العلامات كلها، لم يبق سوى أجل قصير.

هذا لا يعني شيئاً سوى ان الطيب يواكيم يجب أن يتعاون معه. كان حافز هانز كاستورب الخيري أقوى من نفور ابن خالته؛ الذي إستطاع، أكثر من ذلك، أن يظهره فقط من خلال الصمت والعينين اللتين تتحاشيان النظر إليه، طالما انه لم يستطع أن يتحمله إلا من خلال إظهار نقص الشعور (المسيحي). هانز كاستورب أدرك هذا جيداً جداً، واستفاد منه. على حدٍ سواء أدرك الخلفية العسكرية لنفوره؛ لكن ماذا لو كان هو نفسه قد شعر بكونه الأسعد والأقوى في مثل هذه الأعمال، إذا بدت هذه الأعمال مفضيةً الى غايات طيبة؟ في تلك الحالة، كان عليه ببساطة أن يتجاهل رفض يواكيم الصامت. تشاور مع ابن خالته ما إذا يتعين عليهما أن يرسلا أو يجلبا الزهور الى فرتز روتبين، كونه رجلاً. كان يرغب بأن يفعل هذا. شعر ان الزهور كانت ملائمة للمناسبة، وان شراء غرسة أرجوانية، مليحة، جميلة المنظر سوف يسره سروراً عظيماً. توصل الى استنتاج مفاده ان جنس فرتز روتبين كان، إذا صح التعبير، متعادلاً مع حالته المهلكة؛ كذلك ما من حاجة الى عيد ميلاد كي يكون بمنزلة عذر، طالما ان الهالكين يجب معاملتهم كما لو انهم يتمتعون بعيد ميلاد دائمي. بهذه العقلية، قصد ثانية، مع ابن خالته الهواء الدافئ، الترابي، المحمّل بالعطر لمخزن الأزهار، وجلب معه باقة ندية وفواحة من الورد، المنثور الأصفر، والقرنفل، التي بها دخلا حجرة السيد روتبين ترشدهما ألفريدا شيلدكنيشت.

المعذّب لم يكن يزيد عمره على العشرين عاماً، إن لم يكن هذا كثيراً عليه، إلا انه أصلع وأشيب الشعر نسبياً. كان يبدو شاحباً مهزولاً، كبير اليدين، والأنف، والأذنين؛ كان سعيداً أيما سعادة بلغت حد ذرف العبرات بلطف الزيارة، والتسلية التي وفرتها له، وفي الواقع، تعبيراً عن ضعفه، بكى قليلاً بينما هو يحيي الإثنين ويتسلم باقة الأزاهير. كلماته الأولى، التي أطلقها بصوت أقرب الى الهمس، كانت تتعلق بالأزهار، وشرع يتحدث عن تجارة الزهور الأوروبية، ومعدلاتها المتزايدة أبداً ـ عن الصادرات الهائلة من المشاتل الزراعية في «نيس» و«كان»، السلع المشحونة بالقطار والبريد الذي يمضي يومياً من هاتين المدينتين الى أرجاء أوروبا كلها؛ عن أسواق البيع

بالجملة في باريس وبرلين، والتجهيزات المرسلة الى روسيا. ذلك انه كان رجل أعمال؛ كانت وجهة نظره تجارية، وستبقى هكذا طالما بقي في صدره قلب ينبض. والده، صانع دمى في كوبورغ، أرسله الى بريطانيا لغرض الدراسة، أخبرهما بصوت هامس، وهناك أصيب بالمرض. نسبوا حُمّاه الى التيفوئيد، وعالجوها وفق ذلك، مع الأطعمة السائلة، التي أضعفته كثيراً. هنا في الأعالي سمحوا له أن يأكل، وفعلاً جعل يأكل؛ مع العرق الذي ينز من جبينه كان يجلس في فراشه ويحاول أن يحسن وضعه. غير ان الأوان كان قد فات، كانت القناة المعوية قد أُصيبت سابقاً. عبثاً بعثوا له لساناً وسمك حنكليس (جريث) متبلاً من البيت ـ إذ لم يكن قادراً على هضمها. والده، الذي كان بيرنز قد إستدعاه بالتلغراف، هو الآن في طريقه قادماً من كوبورغ؛ ذلك ان عملاً حازماً ينبغي إتخاذه، سوف يبذلون في الأقل قصارى جهودهم مع الإستئصال الجزئي للأضلاع، مع ان فرص النجاح تتضاءل يوماً بعد يوم. روتبين نقل هذه المعلومات كلها بهمس، وبموضوعية كبيرة. حتى في مسألة العملية الجراحية تبنى وجهة نظر تجارية، ذلك انه، ما دام هو حياً يرزق، ستكون هذه هي زاويته في النظر الى الموضوع. الكلفة، همس، حُددت بألف فرنك، ضمنها تكاليف تخدير الحبل الشوكي؛ عملياً التجويف الصدري كله كان مصاباً، ستة أو ثمانية أضلاع، والمسألة هي ما إذا سيعود عليه ذلك بالفائدة. حاول بيرنز أن يقنعه، غير ان اهتمام الطبيب بالقضية كان فريداً، في حين ان اهتمامه هو بدا غير حاسم؛ لم يكن متأكداً على الإطلاق من انه لن يكون أفضل حالاً إذا ما مات في سلام وأضلاعه سليمة لم يمسسها أحد.

كان يصعب نصحه. إبنا الخالتين فكرا ان السمعة الرائعة لـ هوفرات كجراح ينبغي أخذها بنظر الإعتبار. تم الإتفاق أخيراً أن يترك القرار للأب روتبين، الذي بات وصوله وشيكاً. الشاب فرتز بكى قليلاً من جديد وهما يودعانه؛ درت عيناه دموعاً غزيرة في مقارنة غريبة مع طريقة تفكيره وحديثه الواقعية الجافة. توسل الى النبيلين أن يعاودا زيارتهما، وعن طيب خاطر وعداه بأن يفعلا، غير ان هذا لم يحدث. صانع الدمى وصل مساءً، في

صباح اليوم التالي مضوا الى إجراء العملية الجراحية، وبعدها أصبح الشاب فرتز في حالة لا تسمح له باستقبال زائري الزيارات القصيرة. بعدها بيومين، ماراً بالغرفة صحبه يواكيم، رأى هانز كاستورب انها قد أُفرغت بغية التنظيف. سستر ألفريدا كانت قبل الآن قد حزمت صندوق ثيابها وغادرت مصح بيرغهوف الى هالك آخر في مؤسسة أخرى. متنهدةً؛ شريط نظارتها خلف أذنيها، ذهبت هي نفسها الى هناك، لأن تلك الطريقة وتلك الطريقة حسب هي الشيء المأمول الذي قدمته لها الحياة.

غرفة فارغة، غرفة كانت قد «أُخليت» ـ وأثاثها مقلوب رأساً على عقب، وكلا البابين مفتوح على وسعه، كما يراها المرء خلال مروره مروراً عابراً، في طريقه الى حجرة الطعام، أو وهو في طريقه الى النزهة اليومية ـ كانت مهمةً جداً، ومع ذلك أيضاً هذا المشهد المعتاد يأخذ حيزاً صغيراً من تفكير المرء، بخاصةٍ حين يحدث مرة، في حياة المرء، أن يشغل غرفةً «أُخليت»، ويستقر فيها الى درجة الإحساس انه في بيته. في بعض الأحيان تعرف مَنْ سكن فيها قبلك، وهذا في الواقع يجعلك تفكر. وهكذا بعد تصرّم اسبوع مرَّ هانز كاستورب ورأى حجرة ليلى غيرنغروس في تلك الحالة أيضاً؛ وفي هذه المرحلة أبى عقله لحظتئذ أن يصدق ما رآه. تسمّر في مكانه ونظر، حائراً مجفلاً، وأقبل هوفرات من ذلك الطريق، والذي تحدث إليه بطلنا الشاب:

«أرى انها أُفرغت. صباح الخير، سيد هوفرات. إذاً الصغيرة ليلى ـ»

«أي»، رد بيرنز، وهز كتفيه بلا مبالاة. بعد مدة توقف من أجل أن يمارس معنى الإيماءة تأثيره، أضاف قائلاً: «إذاً توددت إليها بحسب العُرف، قبل أن تُغلق الأبواب؟ لطف منك، أن تهتم بمرضاي المسلولين، إذا ما أخذنا بنظر الإعتبار انك نفسك سليم نسبياً. هذا دليل خصالك الحميدة ـ لا، لا، لا تكن خجولاً، صفات حميدة حقيقة. هل يلزمني أن أقدمك قليلاً الى هذا وذاك من مرضاي، ماذا؟ لي كل أنواع الطيور الحبيسة، في زنزاناتها الصغيرة، إذا أردت رؤيتها. الآن فقط، في سبيل المثال، أنا في طريقي لرؤية مريضتي الـ [مملوءة الى درجة الفيضان]. نريد أن تأتي؟ سأقدمك كزميل عاطفي معذب.».

رد هانز كاستورب قائلاً ان هوفرات أخذ الكلمات من فمه، ووجه إليه سؤالاً. بكل سرور سوف يوافق على مصاحبته؛ لكن مَنْ تكون هذه الـ[مملوءة الى درجة الفيضان] وما هو المعنى الذي قصده هوفرات حين قال ذلك؟

«المعنى الحرفي لا غير»، قال هوفرات. «المعنى كما هو بالضبط، ليس ثمة مجاز. سوف تحدثك عن نفسها.» بعد خطوات قلائل وصلا أمام الحجرة، ودخل هوفرات، وأمر مرافقه أن ينتظر قليلاً.

حين فُتح البابان، سمع الزائر صوت ضحكة صافية ونابعة من القلب، بدت مع ذلك ضيقة النَفَس، كما لو ان الشخص الذي في الداخل كان يتوق الى نَفَس. ثم أُغلق البابان؛ لكنه سمع القهقهة ثانيةً عندما، أُمر بالدخول بعد دقائق قليلة، وقدمه بيرنز الى السيدة الشقراء الراقدة هناك في السرير التي راحت تتطلع إليه بفضول بعينيها الزرقاوين. كانت ترقد نصف جالسة، مسندة بالوسائد، تبدو غاية في القلق والإضطراب، قهقهت بلا انقطاع، مكافحةً خلال ذلك من أجل إلتقاط أنفاسها: ضحكة عالية، فضية، أشبه بالخرير، كما لو ان مأزقها أثارها أو سلاها كانت قد سُليت أيضاً، على الأرجح، بوساطة طرائق تعبير هوفرات خلال تقديمه للزائر؛ وتلا شكره ووداعه بصوتٍ عالٍ مرات عدة بينما هو ينصرف؛ لوّحت لظهره المغادر؛ تنهدت بصوتٍ شجي، مع دفقات من المرح الفضي، وضغطت بيدها على صدرها المتنهد تحت منامتها التي من الباتيسته. ساقاها بدتا غير ساكنتين.

كان اسم المرأة السيدة زيمرمان. كان هانز كاستورب يعرفها بالرؤية، كانت قد جلست على مدى أسابيع عدة الى المائدة مع السيدة سالومون ومع الشاب الذي كان يزدرد طعامه، ثم إختفت عن الأنظار، وربما قلق هانز كاستورب على ذلك الغياب المفاجئ، ظاناً انها ذهبت الى البيت. الآن وجدها ثانية، تحت اسم «مملوءة الى درجة الفيضان»، وكان في انتظار تفسير ما.

«ها، ها، ها!» غردت، بطرب مرح، ممسكة بصدرها المرتعد. «رجل مضحك بصورة مرعبة، هو بيرنز؛ مضحك بنحو قاتل، يجعلك تموت من

الضحك. لكن إجلس، سيد كاستين، أو كارستين، أو مهما كان اسمك؛ لك اسم مضحك ـ هاها، هاها! لكن من فضلك عليك أن تعذرني؛ اجلس على ذلك الكرسي قرب قدميّ، لكن أرجوك لا تبالِ إذا ما ضربتُ بقدميّ، فأنا لا أستطيع أن أتمالك نفسي.»

كانت جميلة تقريباً، واضحة الملامح، أو بالأحرى محددة تماماً مع انها مقبولة، وذات لغد متناهي الصغر. كانت شفتاها زرقاوين، وكذلك طرف أنفها، ربما بسبب نقص الهواء. كانت ليديها نحافة تروق العينين؛ مخرّمات منامتها جعلتاهما تبرزان للعيان؛ غير انها لم تكن قادرة على أن تبقيهما هادئتين أكثر من قدميها. كانت حنجرتها أشبه بحنجرة فتاة، ذات «مملحة مائدة» فوق عظمي الترقوة الرقيقين؛ وصدرها، متنهداً ومكافحاً تحت المنامة مع ضحكاتها وأنفاسها اللاهثة، بدا طرياً وفتياً. قرر هانز كاستورب أن يبعث أو يجلب إليها الأزهار، إكليل أزهار من مشاتل نيس وكان، إكليل أزهار ندية فواحة. ببعض الريبة إشترك في مرحها اللاهث والجذِل.

«وهكذا أنتَ تقوم بجولَةٍ زائراً المرضى المحمومين؟» سألت. «هذا شيء مُسلٍ وودي منك! لكنني لست محمومة؛ أي، انني لست محمومة البتة، حتى الآن ـ حتى هذه (الشغلة). إصغِ وقل لي أليست هي أكثر الأشياء التي سمعتها في حياتك تسلية!» وصارعتَ من أجل الهواء، وسط رعشات وورولادات[(٧٠)] الضحك، روت قصتها.

كانت قد أتت مريضة مرضاً طفيفاً ـ طيب، مريضة، بالطبع، وإلا ما كانت لتأتي؛ أغلب الظن ليست حالة طفيفة تماماً، بل بالأحرى أخف من الحالة الخطيرة. الإسترواح الصدري، أحدث الإنتصارات في ميدان التقنية الجراحية الحديثة، بسرعة شديدة أصبح شائعاً، كان ناجحاً بصورة رائعة في حالتها المرضية. حققت هي تقدماً ساراً جداً، كانت حالتها مقنعة تماماً. زوجها ـ كانت متزوجة، مع انها بلا أولاد ـ ربما كان يأمل أن تؤوب الى

---

(٧٠) الرولادات roulads: جمع رولاد: وهو تعاقب نغمات سريع في مقطع واحد (في الغناء) ـ المترجم.

البيت ثانية في بحر ثلاثة أو أربعة شهور. إذاً، كي تسلي نفسها، قامت برحلة الى زيورخ ـ ليس ثمة سبب آخر لذهابها الى هناك، عدا انها ببساطة أرادت أن تسلي نفسها ـ كانت قد سلّت نفسها من أجل أن يطمئن قلبها، غير انها وجدت نفسها وقد إستبدت بها الحاجة الى أن تكون «مملوءة تماماً» ثانيةً وعهدت بـ (الشغلة) الى طبيب في المدينة التي كانت فيها. كان شاباً لطيفاً، ومسلياً ـ لكن ماذا كانت النتيجة؟ هنا إستبدت بها نوبة كاملة من الضحك. كان قد ملأها تماماً! ليس ثمة كلمات أخرى لوصف الحالة، فهي تعبّر عنها كلياً. كان يعني لها شيئاً كبيراً جداً، لعله كان لا يفهم التقنية جيداً جداً؛ خلاصة المسألة كلها، في تلك الحالة، انها كانت غير قادرة على التنفس، وتعاني من ضعف القلب، عادت ـ آ، ها، ها، ها! وبيرنز، لاعناً وغاضباً الى حدٍ بعيد، ألصقها بالسرير. ذلك انها الآن مريضة حقيقية، الواقع هي لا تشكو من حرارة عالية، لكن إنتهى، (خلاص)، أُفسد العمل ـ أوه، أي تعبير مشمئز لاح على محياه، كم بدا مضحكاً، ها، ها، ها! أشارت الى هانز كاستورب وضحكت ضحكة قوية بحيث حتى جبينها أمسى أزرق اللون. ان أكثر الأشياء كلها تسلية، قالت، هي الطريقة التي إهتاج فيها بيرنز ولعن ـ تلك الطريقة جعلتها تقهقه، في البدء، حين اكتشفت انها كانت مملوءة الى درجة الفيضان.

«حياتك غاية في الخطورة»، صاح بها، هكذا، من دون أن يجد حرجاً في قول ذلك. «يا له من رجل أخرق ـ آ، ها، ها، ها! ـ حقاً ينبغي لكَ أن تعذرني.»

ظل الأمر غير جلي: أي ناحية من هيجان بيرنز هي التي جعلتها تنفجر ضاحكة؛ ما إذا كانت فظاظته، ولأنها لم تكن تصدق ما قاله، أو ما إذا كانت قد صدقته، لا بد انها صدقته حقيقةً، على ما يبدو ـ وببساطة تامة اكتشفت حقيقة خطرها الوشيك، خطرها «المضحك جداً بنحو لا يوصف». كان بالنسبة لـ هانز كاستورب انه كان الأخير؛ وانها كانت تجلجل، تتكلم بصوتٍ مرتعش، وتنفجر بالضحك فقط تعبيراً عن لا مسؤوليتها الطفولية وعدم إدراك عقلها الشبيه بعقل طائر. إستهجن سلوكها. بعث إليها بعض الأزهار، لكنه

لم يرَ ثانية السيدة العاشقة للضحك ـ التي، الواقع، بعد ان تحملت الحياة معتمدةً على الأوكسجين أياماً معدودات، لفظت أنفاسها الأخيرة بين ذراعي زوجها الذي تم إستدعاؤه على عجل. «إوزة كبيرة من ذلك النوع الذي يأكلونه» أسماها هوفرات، وهو يخبر هانز كاستورب بوفاتها.

غير ان الشاب كان آنذاك قد أقام صلاتٍ إجتماعية أخرى بين الحالات المرضية الخطيرة، شكراً لـ هوفرات ولممرضات المؤسسة، وتوجّب على يواكيم أن يصاحبه في الزيارات التي يقوم بها؛ في سبيل المثال، الى ابن [الاثنين كلاهما] الثاني، ذلك ان حجرة الأول كان قد مضى زمن طويل منذ ان كُنستْ وزينتْ وبُخرتْ بالـ H_2CO. كما قاما بزيارة الى تيدي، وهو غلام أُرسل مؤخراً من «فريدريشيانيوم» ـ كما كانت تدعى المدرسة في الأسفل ـ لأن حالته المرضية كانت قد برهنت على كونها خطيرة جداً بالنسبة للحياة هناك؛ الى انطون كارلوفيتش فيرجه، وهو ممثل تأمين روسي ـ ألماني، رجل طلق المحيا يقاسي آلاماً متصلة، والى تلك المخلوقة الحزينة، ومع ذلك المغناج جداً، السيدة فون مالينكروت. هذه، كالسابقين، تسلمت الأزهار، وأُطعمت غير مرة من يدي هانز كاستورب، بحضور يواكيم، رويداً رويداً حاز الإثنان اسم: «السامريان[٧١] الطيبان» و«أخوا الاحسان»؛ هكذا أشار سيتيمبريني الى أنشطتهما، ذات يوم، الى هانز كاستورب.

«Sapperlot، أيها المهندس! ما هذا الذي سمعته عن نشاطاتك؟ إذاً رميتَ نفسكَ في مسيرة أعمال الاحسان؟»

«لا شيء يستحق الذكر، سيد سيتيمبريني. لا شيء يستحق أن نثير حوله جلبةً لا داعي لها. ابن خالتي وأنا ـ».

«لا تحدثني عن ابن خالتك. عندما تتحدثان أنتما الاثنان، نتعامل معك أنتَ وحدك. ابن خالتك ذو طبيعة طيبة وبسيطة، وهو جدير بالإحترام؛ هو لم يتعرض الى مخاطر فكرية، ذلك النوع من المخاطر الذي يمنح معلّم المدرسة قلقاً مستديماً. أنت لا ترغب بأن تجعلني أصدق انه هو الروح

---

(٧١) السامريان Samaritans: نسبة الى السامرة بفلسطين ـ المترجم.

المحرِّكة. لا، روحك هي الأكثر موهبة؛ مع انها ذات طبيعة مكشوفة أكثر. أنتَ إذا جاز لي أن أصف طفل الحياة الضعيف، على المرء أن يقلق من أجلك. والأكثر من ذلك انك سمحت لي بأن أقلق من أجلك.»

«يقيناً، سيد سيتيمبريني ـ مرةً والى الأبد. هذا لطف بالغ منك. [طفل الحياة الضعيف]، يا سلام، هذا شيء جميل جداً ـ الكاتب وحده الذي يفكر بهذا التعبير. لا أدري ما إذا يتعين أن أتباهى بنفسي على هذا اللقب، لكنني أحب مغزاه في الأقل، يلزمني أن أقول ذلك. أجل، شغلتُ نفسي بالأحرى بـ [أطفال الموت]، إذا كان هذا هو الذي أشرت إليه. أزور زيارات قصيرة هنا وهناك الحالات الخطيرة والهالكة حين يكون لي متسع من الوقت، خدمة المصح لا أحد يعاني منها. أنا أزور أولئك الذين لم يأتوا الى هنا لمجرد اللهو والتسلية، يعيشون حياة مضطربة ـ أولئك المشغولون بالاحتضار.»

«ومع ذلك فقد كتبوا: [دع الموتى يدفنون موتاهم]»، قال الإيطالي.

رفع هانز كاستورب ذراعيه، كي يشير الى أن هناك أشياءَ كثيرةً مكتوبة، في كلا الجانبين، من الصعب معرفة أشيائها الصحيحة. بالطبع، عازف الأرغن اليدوي في الشوارع عبّر عن وجهة نظر مشوشة ومقلقة، وهذا شيء متوقع منه. كان هانز كاستورب جاهزاً، الآن وكما في كل وقت آخر، بملء إرادته الحرة ليعير تعاليم سيتيمبريني أذناً صاغية، ومن خلال الخبرة يسمح لها ان تؤثر فيه. بيد انه كان أبعد ما يكون عن الإستعداد لأن يتخلى، من أجل وجهة النظر التعليمية، عن الأعمال التي بصورة غير واضحة، على الرغم من الأم غيرنغروس وتعابيرها، على الرغم من الشاب روتبين غير المشجع وقهقهات الـ«مملوءة الى درجة الفيضان»، وجدها نافعة ومهمة بعض الشيء.

ابن [الإثنين كلاهما] يدعى لاورو. هو أيضاً تسلّم زهوراً، بنفسجات أرضية، تعبق بأشذاء سماوية، من نيس، «من زميلين متعاطفين في المصح، مع أطيب التمنيات بالشفاء»؛ ومجهولية الاسم هذه أمست الآن شكلية بكل معنى الكلمة، بما ان الجميع كانوا يعرفون المصدر الذي منه أتت هذه المجاملة، [الاثنان كلاهما] نفسها شكرت إبني الخالتين حين حدث أن إلتقت بهما في الممر. الأم المكسيكية، داكنة السمرة، الشاحبة، توسلت إليهما،

بكلمات قليلة غير مترابطة، وبشكل رئيس بوساطة إيماءة حزينة بالدعوة، أن يأتيا ويتلقيا شخصياً تشكرات إبنها. ابنها الوحيد والأخير قد يموت أيضاً. ذهبا حالاً. تبين ان لاورو شاب مليح بصورة مدهشة، ذا عينين كبيرتين ساطعتين، وأنف أشبه بمنقار نسر، ومنخرين مرتجفين، وشفتين جميلتين، وذا شارب صغير أسود أخرج شطأه فوقهما. غير ان سلوكه كان مسرحياً جداً ومختالاً، بحيث ان هانز كاستورب، هذه المرة ليس أقل من يواكيم زيمسين، كان مسروراً حين أغلقا باب المريض وراءهما. [الاثنان كلاهما] تذرع الحجرة بنحو يائس جيئة وذهاباً، بخطواتها الواسعة محنية الركبتين، بشالها الكشميري الأسود، مع اللفاع الأسود المعقود تحت ذقنها، جبينها تتقاطع فيه الغصون، تجاعيد كبيرة من الجلد تحت العينين اللتين بلون الكهرمان الأسود، وزاوية واحدة من فمها الكبير متدلية بصورة مثيرة للشفقة. غالباً تدنو منهما بينما كانا جالسين عند السرير، كي تكرر حديثها الببغاوي: كلاهما، هل فهمتما ـ في البدء الأول، والآن الآخر. ولاورو المليح قدّم نفسه بتعابير متمايلة، منمقة، طنانة بصورة لا تطاق، بالفرنسية أيضاً، تاركاً الإنطباع بأنه كان يعرف كيف ينبغي للبطل أن يموت ويريد أن يفعل ذلك: كبطل إسباني، مثل شقيقه الأصغر، de meme quo sonfierjeune frere فرناندو الذي بطريقة مماثلة مات كبطل اسباني. أومأ في أثناء كلامه، فتح قميصه بسرعة كي يقدم صدره الأصفر لضربة القدر، واستمر هكذا، الى أن أخمدت نوبة سعال، التي دفعت خيطاً من الزبد الأحمر الى شفتيه، خطابه الرنان ومنحت إبني الخالتين عذراً للإنصراف على أطراف الأصابع.

لم يذكرا زيارتهما الى سرير لاورو، حتى مع نفسيهما أحجما عن التعليق على سلوكه. غير انهما كانا مسرورين بصورة أفضل لدى زيارتهما الى انطون كارلوفيتش فيرجه من سانت بطرسبورغ، الذي كان راقداً، بلحيته الهائلة البهيجة وتفاحته الآدمية الهائلة ذات المظهر البهيج بالقدر نفسه، يشفى شيئاً فشيئاً من المحاولة غير الناجحة التي تم القيام بها كي ينَصَّب الإسترواح الصدري في تنظيمه الداخلي، والذي كاد أن يكلف السيد فيرجه حياته في الحال. كان قد عانى من صدمة مرعبة، صدمة غشاء الجنب ـ وهي حادثة

تتكرر كثيراً في الحالات المرضية التي تطبق فيها هذه التقنية حديثة الطراز. إلا ان صدمة فيرجه كانت خطيرة بشكل إستثنائي، إنهيار صحي تام وفقدان خطير للوعي، باختصار صدمة شديدة جداً بحيث ان العملية الجراحية أُوقفت في الحال، وتم تأجيلها الى موعدٍ غير محدد.

عينا السيد فيرجه الرماديتان البهيجتان أصبحتا كبيرتين ومدورتين، وجهه أمسى رمادي اللون، حين شرع يتكلم عن العملية، التي حتماً كانت رهيبة حقاً. «لا يوجد تخدير، سيدي العزيز. في هذه الحالة المرضية لا فائدة منه، ان أي رجل واعٍ يفهم ذلك ويقبل الموقف كما هو. غير ان التخدير الموضعي لا يصل الى مناطق عميقة جداً، انه فقط يخدر اللحم السطحي، أنت تشعر بها حين يفتحونك، أشبه بالقرص والعصر. إستلقيتُ هناك ووجهي مغطى، لذا لم أستطع رؤية أي شيء: المساعد حملني من إحدى الجهتين والمديرة من الثانية. شعرتُ بأنني أُقرص وأُعصر، ذلك هو اللحم الذي كانوا يبعدونه جانباً ويدفعونه الى الأسفل باستعجال. بعدها سمعتُ هوفرات يقول: [جيد جداً]؛ وثم بدأ، بآلةٍ غير حادة ـ حتماً كانت غير حادة، إذ لم تكن تخترق بسرعة شديدة ـ أخذ يمررها فوق غشاء الجنب ويجد المكان الذي يستطيع أن يعمل فيه شقاً ويدخل فيه الغاز؛ وحينما شرع يحرّك آلته فوق غشاء الجنب خاصتي ـ أوه، إلهي، أوه، إلهي! شعرتُ أشبه ـ شعرت كما لو انهم يدبرون لي شيئاً غير اعتيادي ـ كان شيئاً لا يوصف على الإطلاق. غشاء الجنب، صديقيّ، ليس شيئاً يجب الإحساس به، إذ انه لا يريد أن يشعر به المرء ويجب أن لا يشعر به. انه حرام. انه مغطى باللحم ومدّخر مرة والى الأبد؛ لا أحد ولا شيء ينبغي أن يدنو منه. والآن كشفه هو وجعل يتحسسه بالكامل. رباه، شعرتُ بأنني مريض في معدتي. رهيب، مروِّع؛ لم أتخيل في حياتي كلها انه يمكن أن يكون هناك مثل هذا الشعور المقزز للنفس، خارج الجحيم وعذاباته. فقدتُ الوعي؛ كانت لي ثلاث نوبات فقدان وعي الواحدة تلو الأخرى، خضراء، وبنية، وبنفسجية. وكانت هناك رائحة كريهة ـ الصدمة وصلت الى حاسة الشم خاصتي وشممتُ نتانة مروِّعة من كبريتيد الهيدروجين، تلك الرائحة تُشم في المكان السيء؛ مع كل هذا سمعتُ نفسي

أضحك بينما كنت فاقداً الوعي ـ ليس كما يضحك الإنسان ـ بل كان أكثر أنواع الضحك التي سمعتها طوال حياتي كلها بذاءة وترويعاً. لأنه، حين يمررون آلاتهم فوق غشاء الجنب خاصتك بتلك الطريقة، أخبرتكما ما هي: تشعر كما لو انك تُدغدغ ـ تُدغدغ بصورة رهيبة، ومميزة ـ هكذا يكون العذاب الجهنمي لصدمة غشاء الجنب عسى الله أن يبعدكما عن شرِّها!»

في أحيان كثيرة، وليس من دون شحوب ورعدة، يعود أنطون كارلوفيتش فيرجه الى هذه التجربة الجهنمية له، ويعذب نفسه بإستعادة أحداثها الماضية. كان من البداية قد أعلن نفسه رجلاً بسيطاً؛ «الأشياء الأسمى» لهذه الحياة، قال، كانت قد أصبحت وراءه تماماً، تعهد بجلاء انه لم تكن له مطالب لا فكرية ولا عاطفية؛ هو من جانبه، لم يطلب شيئاً على الإطلاق من أي شخص آخر. هذه الصفقة ما ان أثرت في النفس، حتى جعل يتحدث بطريقة مسلية عن تجاربه في الحياة التي ألهاه المرض عنها. كان يعمل في شركة للتأمين من الحرائق، وقام برحلات ثابتة ومطوّلة من سانت بطرسبورغ الى شمال وجنوب روسيا بأسرها، زائراً بنايات المعامل المؤمن عليها ومتجسساً على تلك المعامل المشبوهة مالياً؛ فقد كانت ثمة حقيقة معززة بالإحصائيات مفادها ان النسبة العظمى من الحرائق تحدث في تلك المعامل التي لا يسير فيها العمل على قدم وساق. وهكذا أُرسل لدراسة معمل ما، تحت هذه الحجة أو تلك، ولتسليم مقالة الى شركته، كي يتم تلافي الخسائر الخطيرة قبل فوات الأوان، من خلال زيادة التأمين ـ المعاكس أو تقسيم الخطر. حكى عن رحلاتٍ شتائية في طول روسيا وعرضها، عن رحلة ليلية في البرد الشديد، في مركبات جليد تجلس في داخلها، تحت أغطية من جلود الأغنام، وحين تنهض من مكانك يكون بوسعك أن ترى عيون الذئاب تومض كالنجوم عبر الثلج. كان يحمل مؤونة متجمدة، حساء الكرنب والخبز الأبيض، في علب، حين يتوقفون لتبديل الأحصنة، في محطةٍ ما، هذه المؤن تستطيع أن تذوب، كما هو مطلوب، ويكون الخبز طازجاً، كما في اليوم الذي حُمّص فيه. ولكن حين يكون هناك سحر معتدل مفاجئ، يجد ان الحساء الذي جلبه بمقادير وفيرة قد ذاب واختفى.

هكذا السيد فيرجه، بين حينٍ وحين يقطع سرده بتنهدة، وبالقول ان الأمور كانت جيدة جداً ـ لو انهم لن يجرّبوا الإسترواح الصدري ثانية. كان كلامه خالياً من «الأشياء الأسمى»، غير انه كان حافلاً بالحقائق، ومن الممتع الاصغاء له، بخاصة بالنسبة لـ هانز كاستورب، الذي وجد انه شيء نافع له أن يسمع عن روسيا والحياة كما تعاش هناك. عن السماورات[٧٢] وزوارق الكنو[٧٣]، القوزاق، والكنائس ذوات الأبراج الشبيهة برؤوس البصل، بحيث تبدو أشبه بمستعمرة كاملة من الفطر. جعل السيد فيرجه يتكلم عن الشعب، الأجناس الشمالية الغريبة جداً، بطابعها الآسيوي المميز، عظام الوجنتين البارزة، والعينان المائلتان الفنلنديتان ـ المنغوليتان؛ مصغياً بولع أنثروبولوجي الى كل ما سمعه. وبحسب طلبه، السيد فيرجه تحدث إليه بالروسية؛ المصطلحات غير المألوفة، اللافقارية، الباهتة أتت متدفقة من تحت الشاربين البهيجين، خارجة من تفاحة آدم طلقة المحيا، وتمتع بها هانز كاستورب كثيراً، بقوة، لأن هذا كله كان، من الناحية التعليمية، فاكهةً محرّمةً جعل يتذوقها.

هو ويواكيم أمضيا عدة أرباع الساعة مع أنطون كارلوفيتش. كذلك زارا الغلام تيدي من «فريدريشيانيوم»، هو غلام رائع في الرابعة عشرة من العمر، أشقر وأنيق، ذو ممرضة خاصة، ومكسو بمنامة بيضاء من الحرير المضلع. أخبرهما انه ثري، ويتيم. انه هنا ينتظر اللحظة التي ينوون أن يجربوا فيها عملية خطيرة، لإزالة أجزاء ملوثة بالجراثيم. بين الفينة والفينة، حين تكون صحته جيدة، يغادر سريره ويرتدي ملابسة الرياضية الأنيقة الفاخرة كي يختلط على مدى ساعة مع المجموعة في الأسفل. السيدات كان يحلو لهن أن يضيعن الوقت سدىً معه، وكان هو يصغي الى أحاديثهن، في سبيل المثال، تلك المتعلقة بالمحامي أينهوف، والشابة التي بالملابس الداخلية، وفرانزخين أوبردانك. ثم يعود الى سريره. وهكذا بعبث وأناقة يمضي الوقت بالنسبة

---

(٧٢) السماورات samovers (بالروسية): جمع سماور وهو إناء لإعداد الشاي ـ المترجم.
(٧٣) زوارق الكنو pirogues: الكنو: زورق طويل خفيف ضيق يقاد بمجذاف ـ المترجم.

للغلام تيدي، وكان جلياً تماماً انه لم يكن يتوقع من الحياة أكثر مما ناله منها.

ثم هناك السيدة مالينكروت في رقم خمسين. ناتاليه، بالإسم، ذات عينين سوداوين وقرطين من ذهب في أذنيها؛ مغناج، مولعة بالثياب، لكنها أليعازر[٧٤] مضبوط وبالجملة بهيئة أنثى، والتي كان الله مسروراً لأن يصيبها بكل أنواع الأمراض. جسمها كله بدا ملوثاً بالجراثيم، وكانت تعاني من كل الأمراض الممكنة بالتعاقب وفي الوقت نفسه، كان جلدها مصاباً بصورة متجانسة، حيث كان مغطى في بقعٍ كثيرة بالأكزيما التي تسبب الحكة، وذا تقرحات مفتوحة هنا وهناك، حتى على الفم، الأمر الذي يجعل تناول الطعام عسيراً. كما انها كانت تعاني من إلتهابات داخلية من ضروب شتى ـ إلتهاب غشاء الجنب، الكليتين، الرئتين، السمحاق[٧٥]، وحتى الدماغ، لهذا كانت تخضع الى فقدان الوعي؛ وختاماً ضعف القلب، نتيجة الألم المستديم والحمى، وكانت تشكو من حزن عظيم وحتى انها، في بعض الأحيان، كان يتعذر عليها أن تبلع، بحيث ان لقمة الطعام تبقى ملتصقة في حلقها. كانت حالة المرأة مثيرة للشفقة فعلاً، وكانت وحيدة في العالم؛ ذلك انها هجرت البيت والأولاد من أجل عشيق؛ مجرد شاب، لمجرد أن تُهجر بدورها ـ رَوَت هذا كله لإبني الخالتين، والآن هي بلا بيت، إن لم تكن بلا موارد مالية، طالما ان زوجها يرى انها لا تريد أي مبلغ من المال. كانت تقبل من دون تبجح زائف ثمار إحسانه أو غرامه الذي لم تخمد ناره، مهما كانت، ترى نفسها بتواضع تام كونها مخلوقة آثمة مجللة بالعار؛ ولهذا تحملت كل كوارث الوضع بصبر صاعق وبالمرونة[٧٦]، مع القدرات الأولية للمقاومة المتأصلة في جنسها، التي إنتصرت على كل الشقاء الكامن في بدنها الأسمر الأصفر، وجعلت حتى من ضمادات الشاش التي توجّب عليها أن تلبسها

---

(٧٤) اليعازر Lazarus: مريض مصاب بالجذام، هو فقير عادةً. في (العهد الجديد) بعثه السيد المسيح (ع) الى الحياة بعد وفاته ـ المترجم.

(٧٥) السمحاق periosteum: غشاء من النسيج الضام يكسو العظام ـ المترجم.

(٧٦) المرونة resilience: سرعة التكيف على وفق تغير طارئ أو إستعادة الحيوية إثر بلاء ملم ـ المترجم.

حول رأسها زينة شخصية جذابة. كانت تبدل حليها مرات عدة في اليوم، تبدأ بالمرجانات(٧٧) صباحاً وتنتهي ليلاً باللآلئ. زهور هانز كاستورب سرّتها سروراً عظيماً، بنحو جلي عدّتها تعبيراً عن عواطف رجل يتودد للنساء أكثر من كونها عواطف إحسان، ودعتْ كلا الشابين لتناول الشاي في حجرتها. شربت من كوبٍ خاص بمريض، وأصابعها كلها مزينة الى حد المفاصل بأحجار الأوبال، الجمشت، والزمرد، في غفلةٍ من الزمن روت قصتها لضيفيها، كان قرطا أذنيها يتأرجحان بينما هي تتكلم. حكت عن زوجها المحترم والمِمِل، وأولادها الذين لا يقلون عن والدهم كونهم محترمين ومملين، والذين كانوا بالضبط مثل والدهم، والذي لم تكن قادرة على أن تشعر نحوه بدفء العاطفة العظيم، عن نصف الغلام، نصف الرجل الذي فرّت معه، الذي كانت لا تمل من وصف حنانه الشاعري. غير ان عائلته أخذته منها، بالخداع والقوة الممتزجين معاً، ولعله هو أيضاً إشمأز من مرضها، الذي أُصيبت به بنحو مفاجئ وعنيف. أغلب الظن الشابان إشمأزا أيضاً، سألت بغنج، وأنوثتها الفطرية إنتصرت حتى على الأكزيما التي غطت نصف وجهها.

شعر هانز كاستورب فقط بالإزدراء نحو العاشق المشمئز وعبّر عن هذا بهز الكتفين. كان إرتداد الشاب الشاعري بمنزلة حافز له وأخذ يغتنم الفرصة كي يقوم بالخدمات التي يقدر عليها من أجل المرأة الحزينة، من خلال الزيارات المتكررة التي قام بها لحجرتها: خدمات لا تتطلب مهارة تمريضية كإطعامها على سبيل المثال، حساء منتصف النهار بعد وجبته هو، وأن يعطيها إياه حين يلتصق الطعام في حلقها، وأن يساعدها في تغيير وضعها في السرير - فبالإضافة إلى كل الأشياء الأخرى، كان لها جرح نجم عن عملية ما، جعل إستلقاءها عسيراً. درّب نفسه في الفعاليات الخيرية هذه، زائراً إياها زيارة قصيرة في طريقه الى حجرة الطعام، أو لدى عودته من النزهة ماشياً على

(٧٧) المرجانات corals: جمع مرجان وهو حجر قرنفلي أو أحمر، عادةً، يتشكل من الهياكل العظمية لبعض الحيوانات البحرية الصغيرة - المترجم.

قدميه، ويخبر يواكيم أن يسبقه، يتوقف دقيقة في رقم خمسين، كي يزور حالة مرضية؛ جرّب إحساساً ساراً بالحياة المتفتحة، ثمرة قناعته بأن ما فعله كان نافعاً بحد ذاته ويمتلك أهمية خفية. كانت له أيضاً قناعة ماكرة في الطابع (المسيحي) البريء الذي إتخذته فعالياته ـ كان جلياً جداً بأنه ليس هناك أي سبب، مهما كان، عسكرياً أم إنسانياً وتعليمياً، كي تفسح (أي فعالياته) المجال لأي توبيخ خطير.

بعد ذلك بمدة قصيرة إستأنفا نشاطهما بزيارة كارين كارشتيت؛ وهانز كاستورب ويواكيم كلاهما شعر بصورة خاصة انه منجذب إليها. كانت هنا في الأعالي منذ سنوات عدة وكانت مريضة خارجية لـ هوفرات الذي أوصاهما بها لتنال الأعمال الخيرية لإبني الخالتين. كانت بكل معنى الكلمة من دون موارد مالية خاصة وتعتمد على أقارب عديمي الشعور ـ ذات مرة، الواقع، أقصوها، بما انها كانت واثقة من كونها ستموت في كل الأحوال؛ وفقط لدى توسط هوفرات أعادوها. كانت تسكن في فندق عائلي متواضع في القرية؛ كانت في التاسعة عشرة من العمر، فتاة ضئيلة، أصغر من الحجم الإعتيادي، ذات شعر أملس ودهني، وعينين كانتا تحاولان بجبن مستديم أن تخفيا سطوعاً منسجماً جداً فقط مع التورد الناجم عن حمى السل الرئوي في خديها. كان لصوتها بحة مميزة، إنما كان متجانساً. كانت تسعل تقريباً بشكل مستمر، وأطراف أصابع يديها كلها كانت مكسوة باللصقات المسكِنة للألم، لأنها كانت مليئة بالقروح التي تنز قيحاً.

هوفرات، إذاً، إستغاث ابني الخالتين لأجل كارين، فَهُما شابان طيبا القلب، وكانا قد جعلاها تحت وصايتهما الخاصة؛ بدءاً بهدية الأزهار، التي أعقبتها زيارة الى الطفلة المسكينة في شرفتها الصغيرة في القرية، وإستمروا في نزهات مختلفة قام بها الثلاثة معاً، لرؤية سباقٍ في التزلج، أو منافسة في مركبات الجليد. ذلك ان موسم الرياضة الشتائية كان الآن في ذروته، كان ثمة اسبوع خاص مزدحم كثيراً بـ«المسابقات الرياضية» ـ تلك الأعمال البطولية والعروض التي كان إبنا الخالتين سابقاً قد أعاراها إهتماماً سطحياً. كان يواكيم نفوراً من كل أنواع اللهو هنا في الأعالي. لم يكن هنا، قال، من

أجلها؛ لم يكن هنا كي يتمتع بالحياة، وكي يتحمل إقامته المؤقتة بالدرجة التي تزوده بها بتغيير مقبول وبتسلية. كان هنا حصراً وببساطة كي يشفى بأسرع ما يستطيع، كي يلتحق بالخدمة هناك في الأسفل، الخدمة الحقيقية، ليست خدمة المصح، التي كانت مجرد بديل ـ مع انه للعلم يتذمر من أي نقصان في الواجب كان مديناً به. كان محظوراً عليه الإشتراك في الألعاب الرياضية، ولم يكن يحب الذهاب إليها والتحديق الى مجرياتها فاغراً فاه. أما بالنسبة لـ هانز كاستورب، فقد كان قد أخذ بجدية شديدة، بإحساس داخلي صارم جداً، نصيبه الخاص في حياة أولئك المقيمين هنا في الأعالي التي تمنح فكرة أو نظرة عن أفعال الناس الذين صنعوا المراكز الرياضية في الوادي.

لكن إنهماكه الخيري مع المسكينة الآنسة كارشتيت الآن خلق بعض التغيير في وجهات النظر هذه ـ ويواكيم بصعوبة يستطيع أن يخالف من دون أن يبدو غير مسيحي. وصلا الى المريضة في سكنها المتواضع، في طقس رائع، بارد جداً ـ مشمس، ورافقاها خلال الحي الإنجليزي، الذي سُميّ هكذا بسبب وجود «فندق إنجلترا» فيه، وعلى طول الشارع الرئيس، الذي تصطف على جانبيه مخازن شديدة الزخرفة. مركبات الجليد تصلصل ذهاباً وإياباً؛ كان هناك حشد من البشر الأغنياء الكسولين ومحبي المتعة من كل أصقاع العالم، الذين ملأوا الكورهاوس وفنادق المكان الأخرى؛ كلهم حاسرو الرؤوس، كلهم يرتدون أزياءً رياضية كانت آخر صيحات أناقة وجمال الأزياء، كلهم بلون البرونز الناجم عن سفعات شمس الشتاء والإنعكاسات الساطعة من المنحدرات المكسوة بالثلج. هذا الجمع البشري كله، متضمنا إبني الخالتين والمرأة التي تحت حمايتهما، كانوا قد ذهب الى المزلجة، التي تقع في عمق الوادي غير بعيد عن الكورهاوس، والتي كانت في الصيف مرجاً، يُستخدم لكرة القدم. الموسيقى كانت تُعزف، الفرقة الموسيقية لـ الكورهاوس، تقيم في الشرفة الخارجية للجناح الخشبي من المبنى، فوق المضمار ذي الزوايا الأربع. وراء الكل تقع الجبال، مكسوة بثلج كثيف، بإزاء سماء قاتمة الزرقة. شبيبتنا مروا عبر المدخل والحشد

الجالس في الصفوف المرتفعة، والذي أحاط بالمضمار من ثلاث جهات. وجدوا أمكنة لهم، وجلسوا ليتفرجوا، فيما المتزلجون المحترفون، بأزياء ضيقة من التريكو(٧٨) الأسود مع سترات مبطنة بالفرو ومزركشة بشريط زيني، بأشكال خارجية مزخرفة، رفرفوا وتوازنوا، قفزوا وداروا بسرعة. فنانان، ذكر وأنثى، محترفان ومنقطعا النظير، قاما بأعمال بطولية كانا وحدهما القادران على تأديتها في العالم بأسره، وأثارا عواصف من التصفيق وألحان قصيرةً عُزفت على الأبواق. ستة شبان من قوميات مختلفة تنافسوا من أجل جائزة السرعة، وكدحوا ست مرات حول المضمار ذي الجوانب الأربعة، إنحنوا، أيديهم خلف ظهورهم، بعضهم يربطون مناديلاً حول أفواههم. دق جرس وسط الموسيقى، والحشد ينفجر بين الفينة والفينة بصيحات التشجيع والإستحسان.

كانت رفقة مرحة، تلك التي جلس فيها المرضى الثلاثة، إبنا الخالتين وتلك التي تحت حمايتهما وشرعوا ينظرون في ما حولهم. كان هناك رجال إنجليز بأسنان بيض يعتمرون قبعات اسكتلندية، يتحدثون بالفرنسية الى سيدات معطرات بأرقى العطور ويلبسن من الرأس حتى القدم ثياباً صوفية بألوان زاهية ـ بعضهن يرتدين سراويل النكرز(٧٩). أمريكان ذوو رؤوس صغيرة، ناعمة، أُلصق عليها الشعر، الغليون في الفم، ويرتدون ألبسة فرو خشنة السطح الجلدي فيها الى الخارج؛ روس ملتحون، أنيقون، يبدون أثرياء بصورة بربرية، وملاييون(٨٠) هولنديون، هؤلاء كلهم يجلسون بين السكان الألمان والسويسريين، فضلاً عن نثار متفرق من أجناس غير محددة من البشر ـ كلهم يتحدثون الفرنسية ـ لعلهم من البلقان أو المشرق. هانز كاستورب أظهر ضعفاً معيناً نحو هذا المجتمع البشري المتنافر نصف البربري؛ غير ان يواكيم إبتعد عنه كونه هجيناً ومشكوكاً فيه. في الأوقات

---

(٧٨) التريكو tricot (بالفرنسية): نسيج محبوك ـ المترجم.

(٧٩) النكرز knicker brocker: سروال قصير واسع مرموم عند الركبة ـ المترجم.

(٨٠) ملاييون Malayan: أبناء شبه جزيرة الملايو ـ المترجم.

الفاصلة كانت هناك ألعاب رياضية للأطفال، الذين تهادوا فوق المضمار منتعلين حذاء ثلج في إحدى القدمين وزحلوقة في الأخرى. في إحدى المسابقات يدفع كل صبي فتاةً أمامه على مجرفة؛ في أخرى يحمل الفائز شمعة مشتعلة، وينبغي أن يصل الهدف وهي ما زالت متوهجة؛ أو يجدر به أن يقفز فوق الحواجز في مساره، أو يلتقط البطاطا بملعقة صفيح ويودعها في مرشات موضوعة على طول المضمار. كان الجميع في مزاج عقلي متهور. أغنى الأطفال أُشير إليهم بالبنان، أجمل الأطفال وأولئك الذين ينحدرون من عوائل ذائعة الصيت: كانت هناك الإبنة الصغيرة لمليونير كبير هولندي، ابن أمير فارسي، وغلام بعمر اثنتي عشرة سنة حمل اسم بطل رياضي مشهور في قارات العالم كلها. الشابة كارين كانت مبتهجة مع البقية، وكانت تسعل باستمرار حين تقهقه؛ تصفق تعبيراً عن مرحها وعرفانها بالجميل يديها الهزيلتين بأطراف أصابعها التي تنز قيحاً.

أخذها ابنا الخالتين لرؤية مسابقات مركبات الجليد أيضاً. لم تكن تبعد مسافة طويلة عن آخر الخط، سواء من جهة مسكن كارين أو من جهة مصح بيرغهوف؛ ذلك ان الطريق يهبط من شاتزالب وينتهي في القرية، بين المنازل المشيدة على المنحدر الغربي. في تلك النقطة إنتصب كوخ، حيث يتم تسلّم خبر بالهاتف عن إنطلاق المركبات هناك في الأعالي.

ثم تأتي المركبات الواطئة فرادى، مع فترات فاصلة طويلة بين الواحدة والأخرى، حول إنحناءات المضمار الأبيض، الذي لمع معدنياً بين الحواجز المتجمدة من الثلج. كان ركابها من الرجال والنساء، بملابس صوفية، بلفاعات زاهية الألوان من كل القوميات ملتفة حولهم. كانوا جميعاً حمراً ومفعمين بالحيوية، وكان الثلج يهطل على وجوههم بينما كانوا يأتون. المركبات الواطئة تنزلق جانبياً وتنقلب، مدحرجة ركابها في الثلج - والمشاهدون يأخذون صوراً فوتوغرافية للمشهد. هنا أيضاً تعزف الموسيقى. جمهور النظارة يجلسون في منابر صغيرة، أو محشورين في الدرب الضيق الذي كان قد جُرِف على طول المضمار؛ أو يملأون الجسور الخشب، التي إمتدت فوقه، يشاهدون المركبات التي كانت تئز بين الفينة والفينة تحتهم.

كان هذا هو الدرب الذي تسلكه الجثث القادمة من المصح في الأعلى، فكّر هانز كاستورب: حول هذه المنعطفات، تحت هذه الجسور، يهبطون، يهبطون، الى الوادي في الأسفل. كلّم الآخرين عنه.

كذلك أخذا كارين، عصر يوم من الأيام، الى مسرح (البروجيكتور) السينمائي في البلاتز ـ أحبته حباً جماً. الهواء السيء الذي جلسوا فيه كان كريهاً لثلاثتهم، فقد إعتادوا أن يتنفسوا الهواء النقي جداً؛ أخمد هو تنفسهم وجعلهم يشعرون ان رؤوسهم ثقيلة وبليدة. حياة تتنقل بسرعة من مكان الى مكان عبر الشاشة أمام أعينهم التي تؤلمهم ألماً شديداً: حياة مقسمة على شرائح صغيرة، سريعة الزوال، مسرَّعة؛ تقلّب قلق من الظهور والتلاشي، منجز مع مصاحبة خفيفة للموسيقى، التي واءمت درجة سرعتها الواقعية مع سلسلة أوهام الماضي، ومع أضيق وسيلة لقيادتها، مع ذلك أفلحت في إثارة سلسلة كاملة من الخيلاء والوقار، العاطفة، الانغماس في الملذات، والحِسية المقرقرة. كانت دراما مثيرة من الغرام والموت شاهدوها تدور بصمت؛ المشاهد السينمائية، التي جرت في قصر طاغية شرقي، تعدو مسرعة، مليئة بالروعة والأجساد العارية، عطش السلطة والهجوم بعنف على نكران الذات الديني، مليئة بالوحشية، الشهوة، الشبق المميت، وتتباطأ المشاهد كي تعطي منظراً كاملاً للتكوين العضلي لذراعي الجلاد. رُتبت، باختصار، كي تُشبع أعمق رغبات حضارة عالمية يتم التفرج عليها. فكر هانز كاستورب، وهمس كذلك الى ابن خالته، حتماً وبلا أدنى شك بأن سيتيمبريني، بصفته ناقداً، ميز بوضوح ما فهموه كونه كريهاً للإحساس الإنساني، وضحى، بسخرية مباشرة وكلاسيكية، بعُهر المهارة التقنية لهذا العمل الآدمي الخسيس. من الناحية الأخرى، السيدة شتور، التي كانت جالسة ليس بعيداً عن أصدقائنا الثلاثة، بدت مستغرقة بكل معنى الكلمة؛ كان وجهها الأحمر الجاهل مشوهاً بتعبير ينم عن المتعة العظمى.

وهكذا كانت السحنات الأخرى من حولهم. ولكن حين خبا البصيص الأخير للصورة الأخيرة في بكرةٍ ما، حين إشتعلت الأضواء في قاعة الإستماع، وانكشف مجال الرؤية كصفحةٍ خاليةٍ من الكانفا، لم يكن هناك

حتى تصفيق. لم يكن هناك أحد كي يُصفق له، كي يُنادى عليه للظهور أمام ستارة المسرح ويُشكر على التمثيل. الممثلون الذين اجتمعوا كي يقدموا المشاهد السينمائية التي تمتعوا بها تواً كانوا قد تبعثروا في الريح؛ ظلالهم فقط كانت هنا، فعالياتهم إنشطرت الى ملايين الصور، كل واحدة منها بأقصر مدة ممكنة من التعديل البؤري(٨١)، من أجل أن تعاد الى الحاضر وأن تُدار ثانية ساعة يشاء المرء. صمتُ الحشد، حين إنتهى الإيهام، كان ضعيفاً ومنفراً بعض الشيء. إمتدت أيديهم عديمة القوة بوجه العدم الذي واجههم. دعكوا عيونهم، حدّقوا أمامهم بنحوٍ خالٍ من التعبير، طارفين في الضوء الساطع متمنين لأنفسهم أن يعودوا الى العتمة، يتطلعون الى المشاهد التي استولت على نهارهم وبعدها، إذا صح التعبير، زُرعت في الزمن الطازج، وزُينت بلا ذوق بالموسيقى.

الطاغية مات مقتولاً بسكين، مطلقاً صرخة صامتة. بعدها جاءت مشاهد سينمائية من مشارق الأرض ومغاربها: رئيس الجمهورية الفرنسية، بقبعةٍ رسمية ووشاح، جالساً في لندوية(٨٢) ويرد على كلام ترحيب؛ نائب ملك الهند في حفل عرس أحد الأمراء الهنود، ولي العهد الألماني في فناء حامية بوتسدام. كانت هناك صورة للحياة في قرية مكلينبورغ الجديدة، صراع ديكة في بورنيو، متوحشون عراة ينفخون في خطوم ـ قرون، صيد الأفيال البرية، احتفال في قصر ملك سيام، شارع مومسات في اليابان، فتيات الجيشا (الراقصات والمغنيات) جالسات خلف نوافذ خشب مزودة بشبكيات: ساموديون(٨٣) مكبلون بالفراء، يقودون مزلجات تسحبها أيائل الرنة عبر الرقع مترامية الأطراف لسيبيريا؛ حجاج روس يصلون في هيبرون، مجرم فارسي يُجلد بسوط. كانوا حاضرين في هذه المشاهد السينمائية كلها؛ المسافات

(٨١) التعديل البؤري focus: تعديل من أجل الحصول على رؤية واضحة ـ المترجم.

(٨٢) لندوية landaue: عربة بأربع عجلات ذات غطاء مقسوم الى قسمين بحيث يُستطاع طيه أو إزالته ـ المترجم.

(٨٣) ساموديون samoyeds: شعب سيبيري منغولي يعيش على القنص وصيد الأسماك ـ المترجم.

أُلغيت، الساعة الكبيرة أُعيدت الى الوراء؛ في ذلك الزمان والمكان أُستخدمت الموسيقى وتحولت الى ألعاب مشعوذين، وعَدْوٌ الآن وهنا. امرأة مغربية شابة، في زي من الحرير المقلّم، وذات حلي بهيئة سلاسل، قلائد، وخواتم، ثدياها المنتفخان نصف عاريين، فجأةً دنت منها الكاميرا كثيراً بحيث بدت ـ أي المرأة ـ بالحجم الطبيعي؛ وكان بمستطاع المرء رؤية المنخرين المتسعين، العينين المليئتين بالحياة الشهوانية، الملامح في أثناء النشاط بينما هي تُظهر أسنانها البيض في أثناء ضحكة، وترفع إحدى يديها، ذات الأظافر المبيّضة، كي تظلل عينيها، بينما تلوّح بالأخرى للجمهور، الذي كان يحدق، مأخوذاً على حين غرة، في الوجه غير المتوقع الفاتن. يبدو انها كانت تنظر ولا ترى، لم تكن تثيرها النظرات المثبتة عليها، بسمتها وإيماءتها لم تكونا تنتميان للحاضر بل للماضي، بحيث ان الحافز الذي كان من المؤمل أن تتم الاستجابة له أُعيق، وضاع في شعور بالعجز الجنسي. ثم تلاشى الإيهام. سطعت الشاشة بيضاء وخالية مع الكلمة الوحيدة «الخاتمة» مكتوبة عليها. إنتهت التسلية، بصمتٍ أُخلي المسرح، جمهور جديد احتل أمكنة أولئك الذين غادروا، وأمام عيونهم الأكثر لهفة كانت البكرة حالياً تنشر نفسها من جديد.

بحّثٍ من السيدة شتور، التي انضمت إليهم عند باب الخروج، قاموا بزيارةٍ الى المقهى عند الكورهاوس، كارين صفقت بيديهما بعرفان جميل مبتهج. هنا أيضاً كان ثمة موسيقى، فرقة موسيقية صغيرة يرتدي أعضاؤها بذلات حمراء اللون، يقودها عازف من بوهيميا[٨٤] أو هنغاريا، كان يقف بعيداً عن العازفين الآخرين، وسط الأزواج الراقصة، ويضرب على آلته الموسيقية بالتفافات مسعورة من جسده. كانت الحياة هنا دنيوية: مشروبات غريبة تُسلم باليد عند الموائد. طلب إبنا الخالتين عصير البرتقال المحلّى كي ينعشا وديعتهما ونفسيهما، في حين أخذت السيدة شتور زجاجة براندي وسكراً. كانت الحجرة حارة ومغبرة. عند هذه الساعة، قالت، حياة المقهى

(٨٤) بوهيميا Bohemia: إقليم في غرب تشيكوسلوفاكيا (السابقة) ـ المترجم.

لم تبلغْ بعد نشاطها الكامل، الرقص يغدو أكثر حيوية كلما تقدم المساء، ومرضى عديدون من المصحات، فضلاً عن أُناس فاسقين من الفنادق والكورهاوس، أكثر من الموجودين حالياً، يأتون لاحقاً كي ينضموا الى اللهو. أكثر من مريض (أو مريضة) في حالة خطيرة جعل يرقص بلا انقطاع، يعب كأس الحياة حتى آخر قطرة فيها. وبـ dulci jubilo[٨٥] عانى نزفه الأخير. بدت كلمتا dulci jubilo على شفتيها الأميتين، شيئاً غريباً. الكلمة الأولى لفظتها بهيئة dolce، ببعض الذكرى الماضية من المفردات الموسيقية لزوجها الإيطالي، غير ان الثانية أوحت بـ jubilee، أو محاولة في الغناء الميودل[٨٦]، أو الطيبة وحدها التي تعرف ماذا. إبنا الخالتين كلاهما نذر نفسه بمواظبة للإنبوبتين الورقيتين في كأسيهما، حين تم التلفظ بهاتين الكلمتين اللاتينيتين ـ غير ان السيدة شتور لم تصب بالإستياء. بدأت تسحب شفتيها وتكشف أسنانها الشبيهة بالقوارض، كي تقول إشارات خفية وتصنع تلميحات في موضوع العلاقات القائمة بين الشبيبة الثلاثة. بقدر ما يتعلق الأمر بـ كارين، كان كل شيء جلياً تماماً، وكما قالت السيدة شتور، لم يكن بوسعها إلا أن تتمتع بأن يرافقها في نزهاتها القليلة، فارسان رائعان كهذين. لكن الجانب الآخر لم يكن يسيراً جداً بلوغه. على أي حال، الجهل والبلاهة ومع ذلك، حدس المخلوقة الأنثوي ساعد في ان يمنحها لمحة، مع انها كانت جزئية ومن النوع المبتذل، عن الحقيقة. ذلك انها رأت، وكذلك أشارت بصورة مضايقة الى الحقيقة التي مفادها ان هانز كاستورب هو الفارس، وبحضور زيمسين حصراً؛ كذلك ـ إذ انها كانت تعي حالة شعور هانز كاستورب نحو مدام شوشا ـ كان يلعب دور المتودد للنساء مع الصغيرة والمسكينة كارشتيت لأنه لم يكن يدري كيف يدنو من الأخرى. كان تخميناً بسيطاً، يفتقد الى عمق التفكير وهو في الواقع لا يغطي كل حقائق الحالة ـ

(٨٥) dulci jubilo: (باللاتينية): ابتهاج عذب ـ المترجم.

(٨٦) الغناء الميودل yodel: الغناء الذي يكثر فيه الانتقال من الصوت العادي الى صوت عالي الطبقة ـ المترجم.

الخلاصة، كان ذلك جديراً تماماً بالسيدة شتور، وحين ذكرته، كونها غير متحفظة، حتى لم يرد عليها، عدا الإبتسامة الضعيفة والنظرة التي لا سبيل الى فهمها. هذا شيء صحيح تماماً، مع ذلك، فإن المسكينة كارين، وهبته بديلاً، دعماً غير ملموس مع انه حقيقي، على غرار بقية أنشطته الخيرية. لكن في الوقت نفسه كانت الأنشطة هذه غايةً بحد ذاتها أيضاً. ان القناعة الداخلية التي جرّبها كلما أطعم السيدة مالينكروت المبتلاة حساءها، أو كلما سمح للسيد فيرجه أن يروي له المزيد عن حكاية صدمة غشاء الجنب الجهنمية، أو كلما رأى المسكينة كارين تصفق بيديها التالفتين والمصابتين بالغنغرينا بمرحٍ مقرّ بالجميل، كانت ـ أي القناعة ـ أغلب الظن من الطراز البديلي والنسبي؛ ومع ذلك لم تكن قناعة خالصة وفورية. كانت متأصلة في تقليد معارض تماماً لذلك الذي مثله السيد سيتيمبريني، بصفته معلماً ـ مع ذلك بدا له هانز كاستورب، بسبب ذلك كله، انه جدير بأن يطبق عليه الـ placet experiri.

المنزل الصغير الذي كانت تسكنه كارين كارشتيت يقع قرب خط سكة الحديد والمجرى المائي، في الطريق المؤدي الى الدورف، وكان شيئاً مناسباً جداً لإبني الخالتين أن يأخذاها بعد الفطور للمسيرة الصباحية. الذهاب من ذلك المكان الى القرية، الوصول الى الشارع الرئيس، يكون أمامك شياهورن الصغير، والى يمينه ثلاث قمم كانت تُدعى «الأبراج الخضر»، لكنها الآن مغطاة كالبقية بالثلج الذي كان يومض بصورةٍ عمياء في الشمس. في موقع أبعد الى اليمين تأتي القمة المدورة لـ الدورفبيرغ، وربع الدرب أعلى منحدره مرئية كانت مقبرة الدورف، مطوّقة بحائط، تشرف بنحو جلي على منظر رائع، يشبه الى حدٍ كبير منظر البحيرة البعيدة، وهكذا اقترحت نفسها بشكل طبيعي منتهىً لأي نزهة. الى هناك ذهبا، ذات صباح محبب الى القلب ـ الواقع، الصباحات كلها الآن محببة الى القلب؛ ذي شمس حارة، صقيع متألق، زرقة عميقة، هواء بلا ريح، ومشهد يتألق ببياض في الإتجاهات كلها. إبنا الخالتين، أحدهما بوجه أحمر ـ آجري، الآخر برونزي، سارا من دون معطفين، اللذين كانا لا يطاقان في أشعة الشمس. الشاب زيمسين في

ملابس رياضية، بـ«كالوشين»، هانز كاستورب بكالوشين أيضاً، ولكن بسروال طويل، لا يشعر بكونه دنيوياً بدرجة كافية كي يرتدي سروالاً قصيراً. هذه هي السنة الجديدة، بين مطلع ومنتصف شباط (فبراير) ـ أجل، الرقم الأخير في التاريخ تغيّر منذ مجيء هانز كاستورب الى هنا في الأعالي، هو الآن مكتوب بالرقم التالي الأعلى. عقرب الدقائق في الساعة الكبيرة للزمن تقدم مدة واحدة أكثر: ليس واحداً من الأوقات الكبيرة، ليست واحدة تقيس القرون أو العقود؛ انها فقط السنة التي تقدمت برقم واحد؛ مع ان هانز كاستورب لم يمضِ هنا في الأعالي عاماً كاملاً حتى الآن، بل ما يزيد قليلاً على نصف العام، كان قد هز نفسه، كما يفعل عقرب الدقائق في الساعات الكبيرة، التي تسجل فقط خمس دقائق في كل مرة؛ وهو الآن يشير بلا حراك، منتظراً اللحظة أن تتحرك الى أمام من جديد. غير ان العقرب الذي يؤشر الشهور ينبغي أن يتحرك عشرة أوقات أخرى، مدتين أكثر، الواقع، مما كان قد تحرك منذ ان جاء الى هنا في الأعالي؛ ذلك ان شباط (فبراير) لم يُحسب، كونه بدأ تواً ـ كالورقة النقدية التي أُستبدلت بوحدات صغيرة إذ تعد مالاً منفقاً.

الى المقبرة إذاً، على منحدر الدورفبيرغ، اتخذ الثلاثة سبيلهم ـ نقول ذلك كي نكمل حكاية نزهاتهم القصيرة. كانت فكرة هانز كاستورب؛ يواكيم أغلب الظن كانت له وساوس في البداية، بسبب المسكينة كارين، لكنه أخيراً وافق على انه شيء عديم الجدوى أن يتظاهر المرء معها، أو أن ينفذ السياسة الوضيعة للسيدة شتور في أن تُحجب عن كل ما من شأنه أن يذكّرها بنهايتها. كارين كارشتيت لم تكن قد بلغت الحد الذي يجعلها تُظهر خداع النفس الذي يُعد من سمات المرحلة الأخيرة. كانت تعرف حق المعرفة كيف كانت حالتها المرضية، وماذا يعني تموّت أطراف أصابعها: كانت تعرف أيضاً ان أقرباءها عديمي الشعور لن يسمعوا عن النفقة غير الضرورية لإرجاعها الى البيت، وسيكون قدرها، بعد موتها، ان تملأ مساحة متواضعة هناك في الأعلى. باختصار، ربما يقال أيضاً أن نزهةً كهذه كانت ملائمة أكثر، من الناحية الأخلاقية، من نزهات أُخر، أو من السينما أو مسابقات مركبات الجليد، في

سبيل المثال ـ ومؤكد لن يكون شيئاً أكثر من ملائم أن يقوم المرء بزيارة أولئك الراقدين هناك في الأعالي مرة واحدة بطريقة من الطرق، كإهتمام رفاقي، شريطة أن لا يعدُّ المرء الزيارة في الصنف نفسه مع جولةٍ اعتيادية على القدمين أو نزهة الى نقطة تثير الإهتمام.

ببطءٍ ذهبوا، برتلٍ واحد، صاعدين الدرب الضيق الذي شُقَّ في الثلج، تاركين أعلى الفيلات خلفهم وأسفلهم، وناظرين الى المشهد المألوف الذي كان ينبسط في روعته الشتائية، متغيراً قليلاً على وفق قواعد المنظور، ومفتوحاً الى الشمال ـ الغربي، نحو مدخل الوادي. كان هناك منظر البحيرة الذي تهفو إليه النفوس، الآن هي مدى متجمد ومغطى بالثلج، تحفها الأشجار؛ الجبال بدت كأنها تنحدر مباشرة الى الأسفل نحو جرفها الأبعد، بينما وراء هذه من جديد بانت القمم غير المألوفة، كلها مكسوة تماماً بالثلج، كل واحدة تعلو الأخرى نحو السماء الزرقاء. الشبيبة تطلعوا الى المنظر، واقفين في الثلج أمام المدخل الصخري المفضي الى المقبرة؛ بعدها دخلوا عبر باب بقضبان حديد متصالبة كان مثبتاً بمزلاج.

هنا أيضاً وجدوا دروباً جُرفت بين الأسيجة الصغيرة، كل واحد منها كان محاطاً بدرابزونه، كل واحد منها يحتوي عدداً من القبور. الثلج طوّق وشيّد كل إرتفاع ناعم وأملس، مع صليبه المصنوع من الحجر أو المعدن، نصبه التذكاري الصغير مزخرف بالرسوم النافرة والنقوش. لا أحد يمكن رؤيته أو سماعه، عزلة البقعة الهادئة وسلامها لاحا عميقين وكاملين في أكثر من معنى. ثمة ملاك أو كيوبيد(٨٧) صغير من الحجر، يضع إصبعه على شفته، قبعة من الثلج منحرفة فوق رأسه، ينتصب بين الشجيرات ـ وربما حسبه الناس الروح الحارسة للمكان ـ الروح الحارسة لصمت واضح، بحيث كان دحضاً للكلام أكثر مما هو نفي له. الصمت الذي كانت تحرسه بعيد كل البُعد عن كونه خالياً من المحتوى أو الصفة المميزة. هنا كان ثمة مكان ملائم

(٨٧) كيوبيد Cupid: صورة أو تمثال لكيوبيد تمثله طفلاً جميلاً مجنحاً يحمل قوساً ونشاباً. كيوبيد هو إله الحب عند الرومان ـ المترجم.

لزائرينا الذكرين كي يخلعا قبعتيهما. إذا كانا يعتمران قبعتين فوق رأسيهما. غير انهما كانا، حتى هانز كاستورب، حاسري الرأسين؛ وكان بمستطاعهما فقط أن يسيرا بصورة مبجلة، ثقلهما على النتوء المستدير عند قاعدة إبهام كل قدم من أقدامهما، مائلين ميلانات غريزية على هذا الجانب وذاك، رتل وحيد في أثر كارين كارشتيت، بينما هي تدلهما على الطريق.

كانت المقبرة ذات شكل غير منتظم، بدأت كمستطيل ضيق يواجه ناحية الجنوب، ومن ثم نشرت مستطيلات أخرى في كلتا الجهتين. زيادات متتالية في الحجم كانت ضرورية بشكل واضح، وقد شمل ذلك الأرض المحروثة. مع ذلك، السياج الحالي بدا كاملاً بصورة معتدلة، على طول الحائط وقطع الأراضي الداخلية الأقل جاذبية، يشق على المرء أن يرى أو يقول أين سيجري دفن أي جثة أخرى. الثلاثة تجولوا برهةً من الوقت بحذر على طول الدروب، بين الأسيجة يتوقفون كي يفكوا مغالق اسم أو تاريخ هنا أو هناك. اللوحات والصلبان كانت متواضعة، لا بد انها لم تكّلف إلا قليلاً. النقوش حملت أسماء من جهات الأرض كلها، كانت بالإنجليزية، بالروسية ـ أو بلغات سلافية أخرى ـ وكذلك بالألمانية، البرتغالية، وغيرها. التواريخ تحكي قصتها الخاصة الحزينة، ذلك ان الوقت الذي غطته كان عموماً إمتداداً زمنياً قصيراً حقيقةً، العمر بين الولادة والموت لا يزيد معدله على عشرين عاماً. لم يكن عمراً منحوساً، بل كان شباباً إستوطن البقعة؛ أُناس لم يترسخوا بعد في الحياة، والذين أقبلوا الى هنا من زوايا الأرض كلها كي يشغلوا الأفقي الى الأبد.

في مكانٍ ما في معمعان القبور، في قلب الأكر(٨٨)، يستلقي مكان صغير، مسطح، مسوّى، بطول قامة رجل، بين ركامين مدورين بأكاليل زهور احتفظت بشكلها ولونها مدةً طويلةً متدلية فوق شاهدة الضريح. الثلاثة توقفوا هنا، بشكل لا إرادي. الفتاة الشابة أولاً، كي تقرأ النقوش المحزنة. هانز كاستورب وقف مسترخياً، يداه مشبكتان أمامه، عيناه مُحجبتان وفمه مفتوح

(٨٨) الأكر acre: قياس للمساحة يساوي نحو أربعة آلاف متر مربع ـ المترجم.

بعض الشيء، الشاب زيمسين متمالك نفسه، وليس منتصباً حسب، بل منحنياً قليلاً الى الخلف؛ وإبنا الخالتين كلاهما إختلس نظرة الى محيا كارين. كانت واقفة هناك، واعية بنظراتهما، بسيماء متواضعة وخجولة، رأسها مائل على كتفها، تطرف بعينيها وتبتسم إبتسامة صغيرة متكلفة.

الليلة الفولبورغية(٨٩)

في غضون الأيام القليلة المقبلة ستكون قد مرت سبعة شهور منذ مجي هانز كاستورب بين أولئك المقيمين هنا في الأعالي؛ بينما ابن خالته يواكيم الذي كان يملك رصيداً من خمسة شهور، سيكون عما قريب قادراً على أن يسترجع ذكريات إثني عشر شهراً؛ أي ذكريات دورة سنوية كاملة. دورة، في الواقع، بالمعنى الكوني، فمنذ أن أنزلته القاطرة الصغيرة القوية في هذه المرتفعات، أكملت الأرض مسيرة كاملة واحدة حول الشمس، وعادت الى النقطة التي بدأت منها رحلتها بعد ذلك. موسم عيد المرفع بات وشيكاً، وسأل هانز كاستورب بين الساكنين القدامى لمصح بيرغهوف كيف سيكون.

«رائع الى حد إستثنائي»، أجاب سيتيمبريني، الذي صادفه إبنا الخالتين ثانية خلال النزهة الصباحية. «فائق الجمال»، قال. «كل مدة قصيرة منه نابضة بالحيوية كما هي عليه في (البلاتر). سوف ترى، أيها المهندس، [شبان الليل الأنيقون المبتهجون، بصفوفٍ ساطعةٍ يتقدمون]»، إقتبس، واستمر في إسلوبه الساخر جداً، صائغاً هزءه في تعابير رنانة، مع مرافقة معبّرة من حركات الذراع، الكتف، الرأس. «ماذا تتوقع؟ حتى في دور الصحة لهم حفلاتهم الراقصة للحمقى والبلهاء، قرأتُ مرة؛ لِمَ لا تكون هنا في الأعالي حفلات راقصة أيضاً؟ البرنامج يشتمل على رقصات موت مختلفة، كما يخيل لك؛ لكن لسوء الحظ بعض نزلاء السنة الماضية لن

---

(٨٩) الليلة الفولبورغية Walpurgis-Night: نسبة الى القديسة فولبورغا Walpurga ـ أنظر الملحق ـ المترجم.

يكونوا هنا ـ الحفلة إنتهت في التاسعة والنصف، فاهم ـ».

«هل تعني ـ أوه، شيء خطير جداً!» قهقه هانز كاستورب. «سيد سيتيمبريني، أنت بائس! التاسعة والنصف ـ أقول، هل فهمتَ ذلك؟» إلتفت الى ابن خالته. «السيد سيتيمبريني يعني انه ما زال الوقت مبكراً جداً بالنسبة لنزلاء السنة الماضية كي يشتركوا. هاها ـ شبحي! هو يعني أولئك الذين هجروا الجسد والأشياء المتعلقة بالجسد في الوقت المحدد. لكنني في غاية التهيج»، قال. «أعتقد انه شيء مناسب تماماً أن نحتفل بالأعياد الدينية هنا في الأعالي حين تأتي، ونعلّم الزمن بالطريقة الإعتيادية. انها رتابة مستوية تماماً، من دون أي انقطاع على الإطلاق، التكلم عنها سيكون شيئاً مرعباً. كنا قد عشنا عيد الميلاد، رأينا بداية السنة الجديدة؛ والآن يأتي ثلاثاء المرافع، وبعده، أحد السعف[٩٠]، اسبوع الآلام، عيد الفصح؛ وبعد ذلك بستة أسابيع، أحد العنصرة؛ بعدها سيكون قد حل تقريباً منتصف الصيف، انقلاب الشمس الصيفي، ونبدأ بالتقدم نحو الخريف ـ».

«قِفْ، قِفْ، قِفْ!» صاح سيتيمبريني، رافعاً وجهه الى السماء وضاغطاً على صدغيه براحتي يده. «إهدأ، لا أستطيع أن أصغي إليك وأنت تطلق الأعنة هكذا!»

«معذرةً، أنا أعني عكس ذلك بالضبط. بيرنز ينبغي له أخيراً أن يعقد العزم على الحقن، كي يتخلص من عدواي؛ حرارتي لصقت عند درجة ٩٩,٣ فهرنهايت، أربعة بالعشرة، خمسة، ستة، وحتى سبعة. أنا طفل الحياة الرقيق وسأظل هكذا! لا أعني انني سأبقى أجلاً طويلاً، رادامانثوس لم يدخلني على مدى عددٍ محددٍ من الشهور؛ لكنه قال انه سيكون شيئاً عديم المعنى إذا ما قطعنا استمرار المعالجة، عندما أكون قد أمضيتُ هنا في الأعالي مدة طويلة جداً، ووظفتُ زمناً كثيراً جداً، إذا جاز القول. حتى إذا ما عيّن أجلاً، ما نفع ذلك لي؟ حين يقول هو، مثلاً، نصف سنة، فعلينا أن

(٩٠) أحد السعف Palm Sunday: يوم الأحد الذي يسبق الفصح، وفيه تحيى ذكرى دخول المسيح (ع) ظافراً الى بيت المقدس، حيث نثر على طريقه سعف النخل ـ المترجم.

نأخذ هذه المدة كحد أدنى، دوماً يمكث المريض أكثر من ذلك. أنظر الى ابن خالتي؛ كان من المفروض أن يكمل في بداية الشهر ـ يكمل بمعنى أن يكون قد تعافى، شفي من مرضه، وآخر مرة رآه بيرنز، أصر على أربعة شهور أخرى كي يتيقن من انه سليم تماماً ـ طيب، إذاً، أين نحن؟ ياه، عند انقلاب الشمس الصيفي، كما قلتُ، فليس لي أدنى نية في إزعاجك، وفي الطريق الى الشتاء. حسن، حسن، بالنسبة للوقت الحاضر أمامنا هو Fasching[٩١]، كما قلتُ، أعتبره شيئاً لائقاً ومناسباً أن نحتفل به بالطريقة الإعتيادية، كما يأتي في التقويم. السيدة شتور أخبرتني ان البواب يبيع أبواق صفيح في كوخه، هل تعرف ذلك؟»

وهكذا حدث. ثلثاء المرافع أقبل بسرعة؛ قبل أن يراه المرء حقاً في الطريق، وصل. كل ضروب الآلات المضحكة كانت تزمجر وتطلق صرخات حادة طويلة في ردهة الطعام، حتى عند الفطور المبكر؛ عند منتصف النهار، ثعابين ورق إنطلقت من المائدة التي جلس إليها غانسير، راسموسين، والآنسة كليفيلد. قبعات ورق أُعتمرت؛ كانت كالأبواق، بيعت من قبل البواب. كانت ماروسيا ذات العينين المدورتين من أوائل الذين ظهروا بواحدة منها. لكن في المساء ـ آ، في المساء كانت هناك إبتهاجات في الردهة وحجرات الإستقبال، التي خلالها ـ لكننا نعرف فقط الى أي شيء، شكراً لشخصية هانز كاستورب المغامرة، تؤدي مباهج عيد المرفع هذه خلال سيرها؛ ونحن لا نقصد أن نجعل معرفتنا تخدعنا في إرتكاب عمل طائش. سوف نفي الزمن كل الشرف الذي يستحقه، ولا نرسِّب شيئاً. كلا، بالأحرى، سوف نميل الى أن نؤجل الحكاية تعبيراً عن إحساسنا نحو وخزات ضمير الشاب هانز كاستورب الأخلاقية، التي منعته أمداً طويلاً جداً من أن يجتاز الروبيكون[٩٢] خاصته.

---

(٩١) Fasching (بالألمانية): الكرنفال ـ أو عيد المرفع ـ المترجم.

(٩٢) يجتاز الروبيكون crossing his Rubicon: يتخذ قراراً خطيراً لا سبيل الى الرجوع عنه. والروبيكون نهير في شمالي إيطاليا اجتازه يوليوس قيصر مشعلاً بذلك نار الحرب الأهلية التي جعلته سيد روما ـ المترجم.

الجميع يهبطون الى البلاتز عصراً، كي يشاهدوا الشوارع في مزاج الكرنفال، حيث المهرجون والمضحكون يهزون جلاجلهم، ومتنكرون على الأقدام، وفي عربات جليد مجلجلة، ومزخرفة، تنشب بينهم مشادات كلامية نابضة بالحيوية، وقُذفت بقوة كمية كبيرة من قصاصات الورق الملون. كانت المعنويات عالية جداً عند الموائد السبع كلها حين اجتمع النزلاء من أجل وجبة المساء، كانت الدلالات كلها تشير الى أن اللهو الذي بدأ في الخارج سوف يستمر بالاسلوب نفسه في داخل المبنى. كان البواب قد حقق تجارة مزدهرة بالجلاجل وأبواق الصفيح؛ المحامي باراوانت كان أول مَنْ ذهب بعيداً في الخط نفسه، مرتدياً ثوباً نسوياً فضفاضاً وجديلة من الشعر المستعار تعود للسيدة القنصل ـ فورمبرانت، جعل شاربيه يتدليان الى الأسفل في كل ناحية من فمه بالملقط، وبدا صورة حقيقية لرجل صيني، مثيراً تصفيقاً صاخباً من الأشخاص كلهم. الإدارة أدلت بدلوها. كل مائدة من الموائد السبع زُينت بمشكاة ورقية، قمر ملون مع شمعة مشتعلة بداخله؛ حين دخل سيتيمبريني، ومر بـ هانز كاستورب اقتبس:

«أنظر الى ألسنة النار البهية ـ

نادٍ ليلي مبتهج كأمنية القلب ـ»

أطلق الكلمات ببسمته الرائعة، الصريحة، ومشى الهوينى الى مكانه، حيث رُحب به بمطر من القذائف أشبه بالكريات متناهية الصغر، التي شقت طريقها ونثرت رذاذاً من العطر في المكان الذي سقطت عليه.

نعم، من أول لحظة كانت النغمة المميزة عالية. كانت انفجارات الضحك متواصلة؛ ثعابين ورق تتدلى من الثريات، تتأرجح ذهاباً وإياباً؛ قصاصات الورق الملون سبحت في الصلصات؛ بوقت مبكر جداً جلبت النادلة القزمة أول دلو ثلج، أول زجاجة شمبانيا. شربها النزلاء ممزوجة مع البرغندية(٩٣)، بإصرار من المحامي إينهوف. قرب نهاية وجبة الطعام أُطفئ ضياء السقف، وفقط الشفق الملون للمشاكي (جمع مشكاة) الورقية هو الذي

(٩٣) البرغندية buygundy: خمر تُصنع في برغنديا بفرنسا ـ المترجم.

أضاء الحجرة، جاعلاً من المنظر ليلاً إيطالياً، ومتوّجاً مزاج المساء. سيتيمبريني مرَّر ورقةً الى مائدة هانز كاستورب، بوساطة يد ماروسيا، التي كانت تجلس الأقرب إليه، على رأسها قبعة فارس من ورق المناديل الأخضر، كان قد كُتب عليها بقلم الرصاص:

«لكن إنتبه، سحر الجبل مجنون هذي الليلة
وإن إخترت إشعال لفافة ورقية[٩٤]
دربك، حاذر، سوف يُضلك.»

هذه الأبيات استُقبلت بحماسة، مع ان الدكتور بلومينكول، الذي كانت حالته المرضية الآن قد تغيرت نحو الأسوأ، تمتم بشيء ما لنفسه، ولاح تعبير خاص به على وجهه، أو بالأحرى على شفتيه؛ بدا كما لو انه يسأل أي نوع من الأشعار هذه. غير ان هانز كاستورب فكّر أن لا بد من جواب، شعر انه مرغم على إكمال الإقتباس، مع انه شيء بعيد الإحتمال أن يستطيع هو إنتاج أي شيء لافت. فتش في جيوبه عن قلم رصاص، لكنه لم يجد واحداً، ولا يستطيع يواكيم أو مدرّسة الثانوية أن تلبي طلبه؛ وعيناه المحتقنتان بالدم نظرتا شرقاً طلباً للعون، الى الزاوية الأبعد من الجهة اليسرى من الحجرة ـ كان واضحاً ان غرضه الزائل كان قد تبدد في حلقة متسعة من تداعيات الخواطر. شحب قليلاً، وكلياً ضيّع مَعلَم هدفه الأصلي.

كان ثمة سبب آخر جيد للشحوب. كانت السيدة شوشا قد تبرجت تبرجاً خاصاً من أجل الكرنفال[٩٥]، إرتدت ثوباً نسائياً جديداً، أو على الأقل هكذا بالنسبة لبطلنا، من الحرير الخفيف داكن اللون، لعله أسود، أو على الأرجح بني ذهبي. كان مفصلاً بعنق صغير مدور محتشم مثل ثوب طالبة مدرسة، لا يكاد يكشف قاعدة الحنجرة، أو عظمي الترقوة، أو العظم البارز قليلاً عند مؤخرة الرقبة، تحت الهدابات الناعمة لشعرها. لكنه ترك ذراعي كلاوديا حرتين حتى الكتفين، كانت ذراعاها طريتين جداً ومع ذلك ممتلئتين جداً،

---

(٩٤) لفافة ورقة wisp: تستعمل هذه الورقة لإضرام المشعل ـ المترجم.
(٩٥) الكرنفال Carnival: هو عيد المرفع ـ المترجم.

فاترتين جداً، بيضاوين بصورة مدهشة جداً، مبرزتين بالمغايرة إزاء الحرير الأسود لثوبها النسائي، بذلك التأثير الساحر الذي جعل هانز كاستورب يغمض عينيه ويتمتم في قرارة نفسه: «يا إلهي!» لم يرَ مثل هذا الزي من قبل. ثياباً نسائية خاصة بالحفلات الراقصة شاهدها من قبل، جليلة واحتفالية، مفصلة على وفق طرازٍ يكشف من جسد المرأة أكثر بكثير مما فعله هذا الفستان، من دون أن يحقق مثقال ذرة من تأثيره الحسي. يا له من مسكين، بطلنا هانز كاستورب! تذكر نظريةً كان قد آمن بها ذات مرة تتعلق بهاتين الذراعين، عند التعرف إليهما أول مرة، محجبتين بالشاش الشفاف: ان الشاش نفسه، «النسيج الكاذب» كما أسماه هو، هو الذي أعارهما إغراءهما الذي لا يوصف، اللا معقول. فكرة حمقاء! ان العُري المطلق، المبرز، الباهر لهاتين الذراعين، هذين العضوين الفاتنين لكائن حي ملوث بالجراثيم، كان تجربة مسكِرة جداً، مقارنة بتلك التي سبقتها، بحيث لم تترك لشابنا أي ملاذ آخر غير أن، يهمس، بلا صوت وبرأسٍ محني: «يا إلهي!»

في ما بعد سُلّمت باليد ورقة أخرى، كُتب عليها:

«مجتمع بحسب أمنية القلب ـ
باخلاص ـ عن حفلة عرائس
وعزّاب رائعين على النار
ذوي أمنيات مبكرة النضج ونابعة من القلب.»

«برافو، برافو!» هتفوا. كانوا يحتسون القهوة الآن، مُقدّمةً إليهم في أباريق خزف صغيرة بنية اللون، وبعضهم يحتسون المشروبات المسكِرة المعطرة أيضاً، في سبيل المثال السيدة شتور التي كانت تعبد الحلوى والمشروبات الكحولية. بدأت المجموعة تنهض عن المائدة، تتحرك، وتقوم بزيارات الى هذا أو ذاك. قسم من النزلاء كانوا قبل الآن قد انتقلوا الى حجرات الاستقبال، نزلاء آخرون لبثوا جالسين، ما زالوا مخلصين للمشروب الذي مزجوه. سيتيمبريني، كوب القهوة بيده، يعبث بعود نبش الأسنان خاصته، انتقل من جانب الى آخر وجلس بين هانز كاستورب ومدرّسة الثانوية.

«[الهارز][٩٦]»، قال. «[قرب شيركه وإيلند]. هل أبالغ، أيها المهندس؟ هو ذا المجنون لك! لكن إنتظر، اللهو لن ينتهي عاجلاً جداً، انه أبعد ما يكون عن الإنصراف، هو حتى لم يبلغ أوجه. من خلال ما سمعته، سيكون هناك المزيد من التنكّر؛ بعض الأشخاص غادروا الحجرة، لنا المسوغات كلها كي نتوقع تقريباً كل شيء.»

حتى خلال حديثه، متنكرون جدد دخلوا: نسوة يلبسن أزياء الرجال، بلحى وشوارب من الفلين المحروق، خادعات أنفسهن بشخصياتهن الرجالية وبدونَ شبيهات بشخصيات أوبرا هزلية؛ رجال في ثياب نساء، يتعثرون بتنوراتهم. هنا كان الطالب راسموسين بتبرج أسود مزين بالكهرمان الأسود، عارضاً فستاناً منقطاً مقوّر الصدر ومهوّياً نفسه من الأمام والخلف بمروحة ورقية، كان هناك مهرج[٩٧] يرتدي ثياباً داخلية بيضاء اللون، ويعتمر قبعة نسائية لباد، وجه مكسو بالمساحيق منح عينيه تعبيراً غير طبيعي، وشفتاه مكسوتان بمرهم عطري أحمر كالدم ـ كان ذاك هو الشاب ذو إظفر اليد. يوناني من المائدة الروسية «السيئة»، كان يتمتع بساقين جميلتين، يتبختر برداء محكم[٩٨]، ذي معطف فضفاض قصير، طوق رقبة مكشكش ورق، وخنجر، منتحلاً شخصية أمير حكاية من حكايات الجان أو شخصية نبيل إسباني. هذه الأزياء كلها أُرتجلت منذ نهاية وجبة الطعام. السيدة شتور لم تعد قادرةً على الجلوس مدة أطول. هي الأخرى توارت عن الأنظار، وعادت الآن وهي ترتدي ثياب خادمة نهارية، بتنورة منقلبة الى الأعلى وكمين مطويين الى الخلف؛ قبعة ورق مربوطة تحت ذقنها، مسلحة بدلو وفرشاة تنظيف، بدأت تدعك الأرض أسفل الموائد، بين أقدام أولئك الذين ما زالوا جالسين.

---

(٩٦) الهارز The Harz: الجزء الرئيس المحرّج من جبال هارز، في وسط ألمانيا ـ أنظر في الملحق (هامش الليلة الفولبورغية) ـ المترجم.

(٩٧) في النص Pierrot (بالفرنسية): وهو المهرج في المسرحيات الإيمائية الفرنسية ـ المترجم.

(٩٨) رداء محكم tights: ثوب ضيق يرتديه الراقص أو البهلوان ـ المترجم.

«[أنظر الى المجنون بابو Baubo يركب الآن]»، إقتبس سيتيمبريني، حين ظهرت، وقرأ البيت التالي أيضاً، بطريقة إلقائه الواضحة و«المطواعة». سمعت هي البيتين، وردت بأن أسمته ديكاً رومياً وأمرته بأن يحفظ نكاته الفاحشة لنفسه. بترخيصٍ من الموسم خاطبته هو، السيد سيتيمبريني، بـ(أنتَ). لكن الواقع عدمَ الكلفة هذه غدت عامة أثناء وجبة الطعام. أعد نفسه للإجابة، حين قاطعته ضجة طازجة وقهقهات في الردهة، وأولئك الجالسين في حجرة الطعام رفعوا أبصارهم بترقب.

دخل شخصان على إنفراد متبوعين بعدد كبير من النزلاء. كانت أحدهما امرأة ترتدي زي ممرضة؛ غير ان بذلتها السوداء كانت معلّمة من الرأس الى القدم بخطوط قصيرة بيض متقاربة الواحد أسفل الآخر، مع خط أطول على فسحات نظامية، كالدرجات على المحرار الطبي. كانت تضع إصبعاً واحداً على شفتيها الشاحبتين، وفي يدها الأخرى جدول الحرارة. كان مرافقها يرتدي ثياباً زرقاً، مع طلاء أزرق على شفتيه، حاجبيه، حلقه، خديه، وذقنه، وقبعة صوف زرقاء منحرفة فوق إحدى أذنيه. كان يرتدي (بلوفراً)[٩٩] من الكتان الازرق اللامع، مربوطاً حول الرسغين، ومنتفخاً للخارج في كرش ضخم حول الوسط. كان هذان السيدة إلتيس والسيد ألبين، كانا يلبسان إعلانين كرتونيين كُتب عليهما: «الممرضة الصامتة»، و«راية الإقلاع»؛ معاً، بمشيةٍ جانبية تحركا عبر الباب.

يا للتصفيق الذي كان هناك! يا للصيحات الرنانة! السيدة شتور، مكنستها تحت ذراعها ويداها على ركبتيها، ضحكت كالخادمة النهارية التي مثلت شخصيتها. سيتيمبريني وحده الذي لم يتحرك. ألقى نظرة واحدة على المتنكرين الناجحين وأضحت شفتاه خطاً رفيعاً رقيقاً تحت شاربيه المتموجين.

بين الحشد المتدفق خلف الرجل الأزرق والممرضة الصامتة، جاءت كلاوديا شوشا، مع تمارا ذات الشعر الصوفي والرجل ذي الصدر الغائر، المدعو بوليجين، الذي كان يرتدي ثياب المساء. كلاوديا مست مائدة هانز

---

(٩٩) بلوفر pullover: كنزة صوفية تُلبس من طريق الرأس ـ المترجم

كاستورب مساً خفيفاً بطيات ثوبها النسائي الجديد وقطعت الحجرة الى حيث كان يجلس الشاب غانسر والآنسة كليفيلد. مرافقوها تبعوا الحشد خارج ردهة الطعام خلف المتنكرين المجازيين، لكنها وقفت هناك، يداها خلف ظهرها، ضاحكة ومتحدثة من غير كلفة؛ عيناها أشبه بشقين ضيقين. هي أيضاً كانت قد إعتمرت قبعةً ـ لم تكن مُبيعة، بل من النوع الذي يُصنع للأطفال، قبعة مردودة بسيطة من الورق الأبيض، إستقرت بسرعة على رأسها، وملائمة لها، بطبيعة الحال، كالأعجوبة. قدماها تظهران تحت الحرير البني ـ الذهبي الداكن لثوبها النسائي، الذي كانت تنورته مجعدة بعض الشيء. في ما يتعلق بذراعيها لن نقول المزيد في هذا المكان. كانتا عاريتين الى الكتفين.

«أنظرْ إليها جيداً»، هانز كاستورب سمع سيتيمبريني يقول ذلك، كما لو من مسافة معينة، شيّعها بنظرته بينما هي تغادر الحجرة حالياً. «[الشقراء، أنظر! انها ليليث!]»

«مَنْ؟» سأل هانز كاستورب.

كانت روح السيد سيتيمبريني الأدبية مسرورة. أجاب «انها زوجة آدم الأولى.»

بجنبهما كان هناك فقط الدكتور بلومينكول عند المائدة، جالساً في مكانه عند النهاية الأخرى. الآخرون، حتى يواكيم، كانوا الآن في حجرات الإستقبال. هانز كاستورب قال ـ وهو أيضاً خاطب مرافقه بترخيصٍ من الموسم، وقال (أنتَ) له: «ياه، أنت مليء بالشعِر هذي الليلة. أي ليليٍ تلك التي تعنيها؟ هل تزوج آدم أكثر من مرة؟ لا أعرف هذا.»

«بحسب الأساطير العبرية، ليليث أصبحت جنية تتنقل ليلاً، [سيدة جميلة عديمة الرحمة]، خطيرة للشباب بخاصة، بسبب ضفائرها الجميلة.»

«يا للشيطان! جنية بضفائر جميلة! أنتَ لا تستطيع أن تطيق ذلك، هل تستطيع؟ تظهر أنت وتشعل الضوء الكهربائي وتعيد الشبان الى درب الفضيلة ـ هذا ما نفعله، أليس كذلك؟» قال هانز كاستورب بنحو غريب الأطوار. كان قد شرب نوعاً ما بحرية من البيرغندية والشمبانيا الممزوجتين.

«إصغ أنتَ، أيها المهندس ـ إنتبه الى ما أقوله»، أجاب سيتيمبريني

مقطباً حاجبيه. «سوف تخاطبني بكرم بالصيغة المقبولة المستخدمة في البلدان المثقفة من الغرب، صيغة الشخص الثالث الجماعية pluralis، إذا ما تجرأتُ بالاقتراح.»

«لماذا؟ أليس هذا عيد المرفع؟ الصيغة الأخرى هي المقبولة في كل مكان هذه الليلة.»

«نعم ـ ويكمن سحرها في تهتكها نفسه. حينما يتحدث الغرباء، الذين يستخدمون بانتظام صيغة الشخص الثالث، يتحدثون الى أحدهما الآخر بصيغة الشخص الثاني، فهذه حرية كريهة، هي عبث لا تقيده جذور الأشياء، وأنا أحتقرها وأدينها، لأن إستخدامها في الحقيقة موجه بتهور ووقاحة ضد حضارتنا وبشريتنا المنوّرة. لا تتصور، لحظة واحدة، انني أخاطبك بهذه الصيغة الآن فقط. أنا أقتبس من التحفة العائدة لأدبك القومي ـ إستخدمتُ الترخيص الشاعري.»

«وكذلك فعلتُ. أنا أستخدم نوعاً من الترخيص الشاعري الآن، لأنه يبدو لي ملائماً للمناسبة، ولهذا السبب أفعلها. لا أقول انني وجدته شيئاً طبيعياً تماماً وسهلاً أن أقول [أنت] لك، على العكس ان هذا يكلفني مجهوداً، يلزمني أن ألكز نفسي من أجله؛ لكنني أقوم بذلك بمطلق الحرية، بفرح، ومن أعماق قلبي ـ» «من أعماق ـ».

«نعم، بإخلاص تام، من أعماق قلبي. نحن هنا في الأعالي منذ زمن معاً ـ هل عرفتَ انها سبعة شهور؟ هذا ليس بالكثير، أغلب الظن، كما يفكرون بالزمن هنا؛ لكنها بالطريقة الإعتيادية مدة جيدة، على أية حال. حسن، أمضيناها معاً، لأن الحياة جمعتنا معاً. نحن نلتقي تقريباً يومياً، وكانت لنا حوارات شائقة، جزئياً في مواضيع، لن يكون لي، هناك في الأسفل، أدنى إدراك لها. لكن هنا في الأعالي حصلتُ عليه، هي تبدو لي واقعية جداً ووثيقة الصلة؛ وكنتُ دوماً لاذعاً جداً، في نقاشاتنا، أو بالأحرى، حين فسرتَ لي الأشياء، كإنساني(١٠٠)، ذلك انني بالطبع غرٌ جداً

(١٠٠) إنساني: وردت باللاتينية homo humanous ـ المترجم.

كي أسهم في أي شيء، وأستطيع فقط أن أشعر ان كل ما تقوله جدير جداً بالاصغاء إليه. من خلالك تعلمتُ كيف أفهم أشياءَ كثيرة كهذه ـ ما يتعلق بـ كاردوتشي هو أقل جزء منها ـ خذ الجمهورية والإسلوب الجميل وكيف انهما يشكلان وحدة متماسكة، أو كالزمن مع التقدم البشري، وكيف انه إذا لم يكن ثمة زمن لن يكون هناك تقدم بشري، والعالم سيكون مجرد مياه غير متحركة وبُريكة راكدة. ما فائدة أن أعرف عن هذا كله إذا لم يكن من أجلك؟ لذا أنا ببساطة أخاطبك كما لو كنا صديقين قديمين وحميمين، من دون مراسم إضافية، ويجدر بك أن تعذرني، لأنني لا أعرف أي طريقة أخرى. أنت تجلس هنا، وأنا أتحدث إليك هكذا، وهذا هو الشيء الضروري. فأنتَ لستَ، بالنسبة لي، مجرد أي رجل، ذي إسم، كأي شخص آخر؛ أنت نموذج، سيد سيتيمبريني، أنت رسول لهذا المكان ولي. نعم، هذا هو أنت»، أكد هانز كاستورب، وضرب الطاولة بالجزء المسطح من يده. «لذا الآن سوف أشكرك»، مضى يقول، ودفع شمبانياه وبيرغنديته على طول المائدة الى كوب قهوة السيد سيتيمبريني، كما لو انه يقرع كأسه مع كأس الإيطالي. «أنا أشكرك لأنك تحملت العناء عني في أثناء هذه الشهور السبعة، كونك مددت يد العون الى حمار شاب في كل التجارب الجديدة التي واجهها، وحاولت أن تؤثر فيه من أجل فائدته ـ مجاناً، بطبيعة الحال ـ جزئياً بوساطة الحكاية وجزئياً بالأفكار التجريدية. أنا من غير ريب أشعر ان الأوان قد حان كي أشكرك على كل ما فعلته، وأن أستميحك عذراً لأنني كنت طالباً مزعجاً وعسيراً ـ [طفل الحياة العسير]، لا، [طفل الحياة الرقيق] ـ هذا هو ما أطلقته عليّ. تأثرتُ تأثيراً بالغاً كونك قلت ذلك؛ وأشعر بالتأثر كل مرة يخطر بها هذا الأمر في بالي. الطفل المزعج الذي كنتُه بالنسبة لك، بوصفك معلّماً، تذكر، حدث ان تكلمت عن ذلك في أول يوم إلتقينا فيه، انه واحد من الأفكار التي علمتني إياها، العلاقة بين الإنسانية والتعليم؛ وثمة أشياء كثيرة غيرها سوف أفكر بها بمرور الزمن. يلزمك أن تغفر لي، إذاً، ولا تسيء بي الظن. أنا أشرب نخب صحتك، سيد سيتيمبريني؛ أشرب نخب جهودك الأدبية من أجل رفع المعاناة عن البشر.» كفَّ عن الكلام، إنحنى

وأفرغ كأسه، تجشأ مرتين، ونهض. «الآن دعنا ننضم الى الآخرين.»

«لماذا، أيها المهندس، ماذا جرى لك؟» سأل الإيطالي بدهشة، واقفاً هو الآخر. «هذا يبدو أشبه بانصراف.»

«إنصراف؟ كلا - لماذا؟» هانز كاستورب تهرب منه - ليس بالكلمات حسب، لكن عملياً، ذلك انه التفت بينما كان يتكلم، راسماً منحنياً بالجزء العلوي من جسمه، وتوقف أمام الآنسة أنجيلهارت التي دخلت تواً كي تأخذهما. قالت ان بنش[١٠١] الكرنفال، المتبرع به من قبل الإدارة، يجري توزيعه على الجميع عدا هوفرات نفسه، وأمرتهما بالمجيء إذا ما كانا يرغبان بشرب كأس. لذا ذهبوا معاً.

الطاولة الصغيرة المستديرة المكسوة بغطاء أبيض، وهوفرات بيرنز خلفها، كانت مركز حشد من النزلاء، كل واحد منهم يحمل كوب شربت كي يُملأ له، حيث كان الموزع يغرف الشراب الذي يصدر بخاراً من سلطانية. هو أيضاً كان قد خلق إمتيازات لروح الكرنفال؛ كان يرتدي معطف الجراح الأبيض المألوف خاصته، ذلك انه حتى اليوم لا بد أن يستمر في نشاطه المهني؛ لكنه أضاف طربوشاً تركياً أصيلاً، قرمزي اللون، ذا شرابة سوداء تتدلى فوق إحدى أذنيه. مظهره، كونه بحد ذاته لافتاً بصورة كافية، لم يكن يحتاج الى أكثر من هذا كي يغدو غريباً تماماً. السمق الطويل الأبيض ضخّم طوله؛ يشعر المرء انه لو وقف منتصباً ورفع رأسه، سيكون أطول من حجمه الطبيعي؛ وفي الأعلى كان هناك الرأس الصغير، مع بشرته السامية والطراز الفريد للملامح. لم يحدث قبلاً أن تأثر هانز كاستورب كثيراً بغرابته كما حصل حين رآه اليوم تحت غطاء الرأس المضحك هذا: الوجه المسطح، ذو الأنف الأفطس، والتورد الأرجواني، العينان الزرقاوان الجاحظتان، الدامعتان تحت الحاجبين اللذين بلون نسالة الكتان، والشارب الأشقر المشذب الذي يعتلي بإنحناء الشفتين المكتنزتين الشبيهتين بقوسين. أشاح

---

(١٠١) البنش punch: شراب غازي عادةً مؤلف من عصيري فاكهة أو أكثر مع سكر وماء - المترجم.

وجهه عن البخار المضفور الى الأعلى من الطاسة، رفع المغرفة عالياً وجعل البنش الحلو ينسكب بسيل متدفق بني اللون في الكؤوس التي كانوا يمدونها إليه، يثرثر في أثناء ذلك بدفقه المألوف من الجعجعة غريبة الأطوار. «السيد الأوري[١٠٢] يجلس منتصباً فوق»، شرح سيتيمبريني بصوت خفيض مع تلويحة يد.

الدكتور كروكوفسكي كان هناك أيضاً، قصيراً، قوياً، صلباً، بقميصه الأسود من صوف الألبكة مثبتاً بإحكام كالبرنس التنكري على كتفيه، الكمان متدليان. كان يحمل كأس البنش خاصته بيده عند مستوى عينيه ولاوياً رسغه بينما هو يتكلم ويضحك مع مجموعة من المتنكرين. كانت الموسيقى تُسمع: السيدة ذات الوجه التابيري كانت تعزف لارجو[١٠٣] هندل[١٠٤] على الكمان، ومن ثم سوناتا حجرة الإستقبال لـ غريغ[١٠٥]، الذي كان بصورة مميزة شمالي المزاج. المانهايمي صاحبها على البيانو. كان هناك تصفيق ودي، حتى من طاولات البريدج، التي كانت قد نُصبت وشغلها المتنكرون، مع زجاجات في أوعية تبريد بجانبهم. كانت الأبواب كلها مفتوحة، وبعض النزلاء كانوا واقفين في الرواق أيضاً. ثمة مجموعة حول طاولةِ البنش كانت تنظر الى هوفرات، الذي كان يقدّم تسلية جديدة. منحنياً فوق الطاولة وعيناه مغمضتان ورأسه مرميٌّ الى الخلف كدليل على حُسن النية، كان يرسم رسماً تخطيطياً بيده الهائلة لهيئة ما على قفا بطاقة زيارة، تخطيطاً لخنزير. كان نوعاً ما خيالياً أكثر من كونه واقعياً، مع ذلك من دون ريب كانت قسمات خنزير ما، التي في ظل هذه الظروف، من دون مساعدة عينيه، إستطاع أن يرسمها.

---

(١٠٢) الأوري Urian نسبة الى أوري Uri إقليم في وسط سويسرا يتحدث الألمانية ـ المترجم.

(١٠٣) لارجو Largo: لحن بطيء جداً ـ المترجم.

(١٠٤) هندل Handel: موسيقار ألماني (١٦٨٤ ـ ١٧٥٩). عُد من أشهر شخصيات عصره، ومن أكبر أساتذته في تاريخ الموسيقى ـ المترجم.

(١٠٥) غريغ Grieg: موسيقار دنيماركي (١٨٤٣ ـ ١٩٠٧). اعتبره النقاد عازف بيانو قديراً وقائد أوركسترا ماهراً وأستاذ الرومانتيكية الشاعرية ـ المترجم.

كان ذلك عملاً فذاً، وكان بوسعه أن ينجزه. العينان الصغيرتان كانتا تقريباً في المكان الصحيح، وكذلك الأذن البارزة، والساقان متناهيتا الصغر أسفل البطن الصغير المدور؛ الخط المنحرف للظهر ينتهي بعقصة الشعر الصغيرة الملساء للذيل. تعالت (آه!) عامة حين فرغ من الرسم، تأجج الطموح في نفس كل فرد منهم كي يحاكي رئيس المؤسسة. يا للإجهاضات التي أحدثتْ! كانت الرسوم تفتقد كلياً الترابط المنطقي. كانت العينان خارج الرأس، السيقان داخل البطن، خط الأخير جاء في لا مكان قرب نقطة الإتصال، الذيل الصغير معقوص من تلقاء نفسه من دون إرتباط عضوي مع الرسم، كان زخرفة عربية مستقلة. تقريباً إنفلقوا من الضحك، إزدادت المجموعة. كان اهتمام مجموعة البريدج لافتاً، الفضول جذب اللاعبين ليأتوا حاملين ورقهم الذي اتخذ شكل المراوح في أيديهم. كان المتفرجون ينظرون الى صاحب الإنجاز ليروا ان عينيه لم تكونا تطرفان ـ شعوره بالعجز يجعله يفعل ذلك غالباً؛ كانوا يضحكون ويكركرون بينما كان يرتكب أخطاءه الفاضحة والمسعورة؛ وانفجروا بمرح مسرف حين فتح عينيه أخيراً.ونظر الى إنجازه الشخصي المثير للسخرية. الثقة الواضحة بالنفسِ أغوت كل فرد كي يجرّب يده. الورقة الكرتونية، كبيرة الحجم، مُلئت حالاً في كلتا الجهتين بإخفاقات متداخلة. هوفرات تبرع ببطاقة ثانية من علبته، في حين ان المحامي باراوانت، بعد ان إهتم بالفكرة، حاول أن يرسم خنزيراً من دون أن يرفع قلم الرصاص عن الورقة ـ وعجباً، ان درجة فشله تصدرت البقية كلهم: كان إبداعه لا يمت بأي شبهٍ لا لخنزير ولا لأي شيء آخر على سطح كوكبنا الرحب. كان رسمه قد أُستقبل بمرح صاخب وتهانٍ صاخبة. جيء ببطاقات لوائح الأطعمة والمشروبات من حجرة الطعام، والآن بوسع أشخاص كثيرين أن يرسموا في الوقت نفسه، كل منجزٍ له جماعته الخاصة به من المتفرجين والطموحين، ينتظرون قلم الرصاص الذي كان يستخدمه. كانت هناك ثلاثة أقلام، يخطفونها من أيدي أحدهم الآخر. هوفرات، تاركاً التسلية تأخذ مجراها، ومشاهداً إياها وهي تزدهر، إنسحب مع معاونيه.

وقف هانز كاستورب في معمعان الحشد، عند ظهر يواكيم، ينظر. أراح

مرفقه على كتف ابن خالته وأسند ذقنه بالأصابع الخمسة لتلك اليد، ذراعه الأخرى إستقرت على وركه. كان يتكلم ويقهقه، يتوق الى أن يجرّب مهارته؛ طالباً هنا وهناك قلم رصاص، وفي الختام تسلّم عقباً من شيء ما، يصعب الإمساك به بين الإبهام والسبابة. بعدها أغمض عينيه، رفع وجهه الى السقف، ورسم، متفوّهاً طوال الوقت بالتوبيخات الشديدة على قلم الرصاص، بعض التفاهات المرعبة على الورقة، وبعجالته أفسد حتى هذه، وتجاوز الورقة ليرسم على قماش الطاولة. «هذا لا يُعد!» صاح على مشاهديه الذين إنفجروا بملاحظات ساخرة مستحقة جداً. «ماذا تستطيع أن تفعل بقلم كهذا. ليأخذه الشيطان!» وقذف الكسرة التي أغضبته الى طاسة البنش. «ألاّ يملك أحد منكم واحداً مقبولاً؟ مَنْ منكم سيعيرني قلم رصاص؟ ينبغي لي أن أجرب ثانية. قلم رصاص، قلم رصاص، مَنْ بحوزته قلم رصاص؟» هتف، متكئاً بيده اليسرى على الطاولة، وهازاً الأخرى عالياً في الهواء. ما مِنْ جواب. ثم إلتفت ومضى مجتازاً الحجرة، مباشرة الى كلاوديا شوشا، التي، كما أدرك جيداً، كانت واقفة قرب باب الصالون الصغير، تنظر باسمةً الى الحشد المجتمع حول طاولة البنش.

وراءه سمع أحدهم يصيح ـ كلمات رخيمة، بلغة غريبة: « Eh, Ingengnere! Aspetti! Che cosa fa, Ingengnere! Un po' di ragione sa! Ma matto questo ragazzo! » لكنه حجب الصوت بصوته هو، والسيد سيتيمبريني، رافعاً يده بعجل مع تأرجح الذراع ـ إيماءة شائعة في بلده، معناها يصعب التعبير عنه بالكلمات ـ ومنفساً عن «إيـ ـ يه!» طويلة ـ مجرورة أدار ظهره للحجرة ولإبتهاجات الكرنفال. ـ بيد ان هانز كاستورب كان واقفاً في الساحة الآجرية لفناء المدرسة، محدّقاً على مقربة دانية في هذين العينين الزرقاوين ـ الرماديتين ـ الخضراوين بثنيتي الموقين، فوق عظام الوجنتين الناتئة وقائلاً: «هل يوجد بحوزتـ(كِ) قلم رصاص؟»

كان شاحباً شحوب الموتى، شاحباً الشحوب نفسه حينما عاد مبقعاً بالدم الى المحاضرة، من مسيرته التي قام بها. الأعصاب التي تتحكم بالأوعية الدموية التي تزود الوجه عملت بشكلٍ جيد جداً بحيث ان الجلد

الذي سُلِبَ منه دمه كله، أمسى بارداً تماماً، الأنف بدا شاحباً، والتجويفان الكائنان تحت العينين الفتيتين لاحا بلون الرصاص كتجويفي جثة من الجثث. والعاطفة جعلت فؤاده، فؤاد هانز كاستورب، يضرب محدثاً صوتاً مكتوماً، بطريقة ما بحيث تعذر عليه أن يتنفس إلا في لهاثات؛ وسرت الإرتعاشات في أوصاله، تلك الإرتعاشات كانت ناجمة عن عمل الغدد الدهنية، التي، مع بصيلات الشعر، أبرزت نفسها.

كانت واقفة هناك، بقبعتها الورق، وشرعت تتأمله صعوداً ونزولاً، بإبتسامة لم تظهر أيَّ أثرٍ للأسف، ولا أي قلق بسبب الإتلافات المكتوبة على جبينه. الجنس لا يعرف حنواً كهذا، لا رأفة مع الوخزات التي تأتي بها العاطفة، في ما يتعلق بهذا العنصر كانت المرأة كما لو انها مطلعة عليه أكثر بكثير من الرجل، الذي كان ـ هذا العنصر ـ بالنسبة له، بسبب طبيعته الخاصة، غريباً. ولم يحدث من قبل أن صادفته فيه سوى مع المرح الساخر والخبيث ـ الحنو، في الواقع، لا يملك هو مثقال ذرة منه.

كان قد إستخدم صيغة المخاطب المفرد. ردت: «أنا؟ ربما أملك، دعني أرَ.» صوتها وبسمتها أظهرا إهتياجاً، شعوراً ـ كالذي يحدث حين تُلفظ أول كلمة في علاقة بقيت طي الكتمان زمناً طويلاً ـ شعوراً حاذقاً، يركز الماضي كله في لحظة واحدة من الحاضر. «أنت متلهف جداً ـ أنت طموح جداً» ـ إستمرت هكذا في الهزء منه، بصوتها المحجب قليلاً، الأجش بصورة مقبولة، بطريقة تلفظها الغريبة، مانحة صوتاً غريباً لحرف الجيم(١٠٦) وجاعلة حروف اللين مفتوحة جداً، وحتى انها لفظت المقطع الأول من كلمة «طموح» بجرس مختلف، بتأثير غريب جداً؛ منقبة ومنعمة النظر خلال ذلك في حقيبتها الجلدية، التي منها أخرجت أولاً منديلاً، ومن ثم قلماً فضياً صغيراً، اسطوانياً وهشاً، شيئاً صغيراً طريفاً ليس للإستخدام ـ القلم الآخر،

(١٠٦) في النص الإنجليزي صوتاً غريباً لحرف الراء.. وقد إرتأينا هذا التغيير على وفق ترجمتنا العربية لحديث السيدة كلاوديا شوشا ـ المترجم

الأول، كان شيئاً يمكن الإمساك به. «هو ذا» قالت، وحملت اللعبة من طرفها أمام عينيه، بين الإبهام والسبابة، بخفةٍ قلبتها الى الأمام والخلف.

طالما انها هكذا أعطته القلم وظلت ممسكة به، أخذه هو، إذا صح التعبير، من دون أن يتسلمه: أي مد يده، وأصابعه مستعدة للإمساك بالشيء الرقيق، لكنه لم يكن حقيقة يمسك به. عيناه ـ في محجريهما الرصاصيين ـ إنتقلتا من الشيء الصغير الى ملامح وجه كلاوديا المغولي. كانت شفتاه الخاليتان من الدم منفرجتين، وظلتا هكذا، لم يستخدمهما لإطلاق الكلمات، وهو يقول: «أرأيتِ، عرفتُ ان بحوزتك واحداً.»

«حذار، انه هش»، قالت. «ضع هذا في حسبانك».

رأساهما مالا عليه معاً، وأرته طريقة الإستعمال ـ كانت اعتيادية، الابرة الصغيرة للرصاص الصلب، عديم القيمة ربما تنزل حين يرخي المرء البرغي.

وقفا مائلين نحو بعضهما الآخر. الياقة الصلدة لرداء المساء خاصته أفادته في إسناد ذقنه.

«شيء ضئيل القيمة ـ لكنه (لكِ)» قال، جبيناً بجبين معها، متحدثاً عن قلم الرصاص، متيبس الشفتين، بحيث ان معظم الحروف الشفوية خرجت بلا صوت.

«آه، أنت ظريف أيضاً»، ردت عليه، مع ضحكة قصيرة. قوّمت جذعها، وسلّمت قلم الرصاص. ثمة سؤال يخطر بالبال: ماذا عنت حين قالت انه ظريف؛ بما انه كان واضحاً انه ليس ثمة قطرة دم واحدة في رأسه: «طيب، أُغربْ، إذهبْ وإرسم، جر نفسك!» وبظرافة مماثلة من جانبها، بدت وكأنها تُقصيه.

«لكنكَ لم ترسمي حتى الآن، يلزمك أن ترسمي أيضاً»، قال، من دون أن يستخدم حرف الميم في (يلزمك) و(ترسمي)، وانسحب خطوة الى الوراء، بطريقة مغرية.

«أنا؟» قالت ثانيةً، مع تغير في مقام الصوت نابع عن الدهشة التي يبدو انها كانت إشارة الى شيء آخر عدا دعوته. وقفت لحظةً في إرتباك باسم، بعدها كما لو انها ممغنطة تبعته خطوات قلائل صوب طاولة البنش.

غير ان الولع بالفعالية هناك كان قد هزل. شخص ما لم يزل يرسم، لكن من دون مشاهدين. كانت البطاقات مغطاة بالأعباث (جمع عبث)، كلهم قدموا أسوأ ما عندهم، والآن الشخص الحالي أدخل إتجاهاً جديداً. ما إن غادر الطبيبان المشهد، حتى إنتقل الخبر من شخص الى آخر بخصوص الرقص، كانت الطاولات قد دُفعت الى الوراء قبل الآن؛ وُضع رقباء عند بابي حجرتي الكتابة ـ والموسيقى، مع أوامر أن تُعطى إشارة في حالة ظهور «العجوز»، كروكوفسكي أو أوبرين. بشكل معبّر، غلام سلافي يافع هاجم لوحة مفاتيح البيانو الصغير المصنوع من خشب الجوز، وبدأ أول شخصين يدوران في نطاق دائرة غير منتظمة من الكراسي والطاولات، التي أجلس عليها المشاهدون أنفسهم.

نبذ هانز كاستورب طاولة البنش التي غادرها الآخرون بتلويحةٍ من يده، وأشار بذقنه الى مقعدين شاغرين في زاوية مستورة من الصالون الصغير، قرب أستار المدخل. لم يتكلم، ربما لأن صوت الموسيقى كان مرتفعاً جداً. سحب كرسياً ـ كان كرسي إستلقاء بتنجيد من البلش(١٠٧) ـ للسيدة شوشا، في الزاوية التي كان قد أشار إليها، واتخذ لنفسه، كرسياً بهيئة سلة، يصر ويطقطق، ذا مسندين معقوصين، فجلس فيه، إنحنى للأمام نحوها، ذراعاه فوق ذراعي الكرسي، قلمه الرصاص بيده، وقدماه مسحوبتان للخلف تحت مقعده. إستلقت هي مغمورةً في المنحدر البلشي، ركبتاها مرفوعتان الى الأعلى؛ أياً كانت منهما، لفت ساقاً على ساق، وأرجحت قدمها في الهواء، في حذائها الأسود الجلدي ـ الصقيل، والجورب الحرير الأسود الممتد فوق عظم الكاحل. كان هناك ذهاب وإياب في الحجرة، بعض النزلاء نهضوا ليرقصون، بينما جلس آخرون في مقاعدهم.

«أنتِ تلبسين فستاناً جديداً»، قال، كما لو كان يعتذر عن نظره إليها؛ وسمع جوابها.

«جديداً؟ إذاً تعرفت على ثوبي؟»

---

(١٠٧) البلش plush: نسيج ذو زئبر أطول من زئبر المخمل ـ المترجم.

«هل أنا على صواب؟»

«نعم، عملته هنا مؤخراً؛ الخياط في القرية هناك في الأسفل، لوكاشيك صنعه لي. انه يعمل للعديد من السيدات هنا في الأعالي. هل أحببته؟»

«حباً جماً»، قال، ومسحها بنظراته مرة أخرى، ومن ثم خفض عينيه.

«أترغبين بالرقص؟» أضاف قائلاً.

«أترغبُ أنت؟» سألته، بحاجبين مرفوعين، مع ذلك كانت تبتسم، وأجاب قائلاً:

«بودي أن أرقص، إذا شئتِ.»

«لم أكن أظنك شجاعاً جداً»، قالت، وحين ضحك بإستنكار، مضت تقول: «ابن خالتك صعد للأعلى قبل الآن.»

«نعم، انه ابن خالتي»، أكد لها، بنحوٍ لا ضرورة له. «لاحظتُ انه غائب، لعله الآن في الإستراحة ـ العلاج.»

«انه شاب صارم جداً، شريف جداً، ألماني قح.»

«صارم؟ شريف؟» كرر. «أفهم الفرنسية أفضل من التكلم بها. أنت تقصدين انه متحذلق. تظنين اننا متحذلقون، نحن الألمان ـ أم انك تعنين الألمان الآخرين؟»

«نحن نتحدث عن ابن خالتك. لكن، هذا حقيقي، فأنت بورجوازي صغير. أنتم تحبون النظام أكثر من الحرية، وأوروبا كلها تعرف ذلك.»

«تحبون، تحبون ـ أهذا كل ما في الأمر؟ هذا يحتاج الى تعريف، هذه الكلمة. نحن نحب ما لا نملكه ـ هذا مضروب به المثل»، أكد هانز كاستورب. «مؤخراً»، مضى يقول، «فكرتُ كثيراً جداً في الحرية. أعني، انني سمعت الكلمة في أحوالٍ كثيرة، وشرعت أفكر فيها. سأخبركِ بالفرنسية، ما كنت أفكر به. هذا الذي تسميه أوروبا الحرية لعله شيء فيه من الحذلقة والبورجوازية ما يكفي بالمقارنة مع حاجتنا الى النظام ـ أليس كذلك!»

«عجباً! هذا شيء طريف! هل هو ابن خالتك الذي تفكر به بقولك أشياء غريبة كهذه؟»

«كلا، انه ساذج حقاً، طبيعة بسيطة، لم يتعرض هو لمخاطر فكرية، كما تعرفين. هو ليس بالبورجوازي، انه عسكري.»

«لم يتعرضْ؟» كررت كلمته، ليس من دون صعوبة. «أنت ترى ان طبيعته بسيطة، أمتأكد أنت من ذلك؟ ولكنه مصاب بمرض خطير، ابن خالتك المسكين هذا.»

«مَنْ الذي أخبرك بذلك؟»

«كل واحد منا يعرف الآخر، هنا في الأعالي.»

«هل هو هوفرات بيرنز؟»

«ربما يسمح لي هو برؤية اللوحات.»

«تقصدين يسمح لك برؤية صورتك!»

«ولِمَ لا؟ ألا تعتقد انه أفلح في رسم صورتي؟»

«بلى، نجح نجاحاً باهراً. رسم بيرنز بشرتك جيداً، أوه، رسمها رسماً دقيقاً. كم تمنيت أن أكون رساماً يرسم البورتريهات، أنا أيضاً، كي تكون الفرصة لدراسة بشرتك مثله.»

«تكلم بالألمانية، أرجوك!»

«أوه، أنا أتحدث الألمانية، حتى حين أتكلم الفرنسية. انها نوع من الدراسة الفنية والطبية ـ وبكلمة: المسألة تعني موضوعات إنسانية، هل تفهمين. ـ ما رأيك، هل نرقص؟»

«أوه، كلا، سيكون ذلك عملاً صبيانياً ـ من وراء ظهورهم! ما أن يأتي بيرنز حتى يسارعون كلهم الى كراسيهم. أليس هذا شيئاً مضحكاً جداً.»

«هل تكنين له قدراً كبيراً من الإحترام كهذا؟»

«لمَنْ؟» قالت، مانحةً تساؤلها نغمة جافة، غريبة. «لبيرنز.»

«دعك من بيرنزك هذا! لكن ليس ثمة حيز كاف للرقص. وفضلاً عن ذلك على السجادة ـ لنرَ.»

«أجل، لنرَ»، وافق هو، وتطلع وراءها، بعينيه الزرقاوين، عيني جده المتأملتين، بوجهه الفتي الشاحب، الى التصرفات الغريبة للمرضى المتنكرين

في البهو وحجرة الكتابة. كانت هناك «الممرضة الصامتة» ترقص بمرح مع «راية الإقلاع»، كانت هناك السيدة سالومون كونها سيدة المراسم، ترتدي ثياب المساء مع صدرة بيضاء اللون ومقدمة قميص منتفخة؛ كانت تضع نظارة إحادية الزجاجة وشارباً شديد الصغر مصبوغاً، ودارت على حذائين بكعبين شديدي الصغر، عاليين من الجلد الصقيل، بحيث كانا يبرزان بصورة غريبة تحت سروالها الأسود، بينما كانت تراقص المهرج، الذي كانت شفتاه الحمراوان كالدم تبرزان بنحو صارخ من وجهه الأبيض الشاحب شحوب الموتى، مع العينين الشبيهتين بعيني أرنب أمهق. اليونانيون زخرفوا ساقيه المتناسقتين بردائهم المحكم الأرجواني الشاحب جنباً الى جنب مع راسموسين المتألق بصورة مكفهرة الذي كان يلبس ثوباً نسائياً ذا طراز مبتذل. المحامي باراوانت بكيمونه[١٠٨]، السيدة القنصل ـ الجنرال فورمبرانت، والشاب غانسر كانوا يرقصون هم الثلاثة معاً، وأذرعهم تطوّق أحدهم الآخر. فيما يخص السيدة شتور، كانت ترقص مع مكنستها، تضمها الى قلبها وتعانق الشعرات كما لو كانت شعر رجل.

«أجل، لنرَ»، كرر هانز كاستورب، بآلية. تحدثا بنبرات خفيضة، غطت عليها الموسيقى. «لنجلس هنا، وننظر، كما لو كنا في حلم. ذلك انه يبدو لي كالحلم، أن نجلس هكذا ـ مثل امرىءٍ يحلم حلماً فريداً جداً، إذ توجب عليه أن ينام نوماً عميقاً كي يحلم بذلك الحلم. يمكنني القول ـ انه حلم واضح يواتينا في كل وقت، حلم طويل، أبدي، شخص ما يجلس قريباً منكِ، كما هو الحال الآن، هي ذي الأزلية.»

«أأنت شاعر!» قالت. «بورجوازي، إنساني، وشاعر ـ هكذا يكون الألماني الكامل، كما يحب!»

«أخشى اننا لا نكون كما ينبغي»، أجاب. «بكل بساطة، وتحت أي اعتبار، ربما نكون أطفال الحياة رقيقو الصحة.»

«كلام جميل. قل لي إذاً. ـ أليس هو أمراً عسيراً جداً أن يحلم المرء

(١٠٨) الكيمونو kimono (باليابانية): ثوب فضفاض واسع الردنين ـ المترجم.

ذلك الحلم في ما بعد. وحتى وقت قريب كان السيد قد عزم على توجيه كلامه الى خادمته المتواضعة.»

«علامَ هذا الكلام؟» قال. «لماذا التحدث؟ الكلام، والإسهاب في الحديث هو أمر جمهوري فعلاً، أنا أعترف بهذا. بيد انني أشك في أن يكون هذا شاعرياً بالدرجة نفسها. أحد أولئك المقيمين، أمسى صديقاً لي منذ عهد قريب، السيد سيتيمبريني ـ»

«تحدث إليك قليلاً منذ لحظات.»

«آ حسن. انه خطيب كبير. يحب هو أن يلقي أشعاراً جميلة ـ هل هو شاعر، هذا الرجل؟»

«أنا جد متأسفة، إذ ليست لي أدنى رغبة في التعرف على هذا النبيل.»

«أنا أصدق كلامك هذا.»

«آ، تصدقه؟»

«كيف؟ ما قلتِه كانت جملة غير مهمة البتة. أنا كما تلاحظين قلما أتحدث الفرنسية. ومع ذلك أؤثر أن أتحدث بها مفضلاً إياها على لغتي، فبالنسبة لي التحدث بالفرنسية هو الكلام من دون كلام ـ هو كلام خالٍ من المسؤولية، أو كما نتكلم في الحلم. هل تفهمين؟»

«تقريباً.»

«هذا يكفي. ـ تكلمي»، استرسل هانز كاستورب. «مسألة عقيمة! في الأبدية، لا نحكم أبداً. في الأبدية، كما تعرفين، نبدو وكأننا نرسم خنزيراً صغيراً: نميل الرأس الى الخلف ونغمض العينين.»

«لا بأس! تبدو كما لو أنكَ في بيتك في الأزلية، لا ريب. تعرف ذلك تماماً. ينبغي الإعتراف، انك حالم صغير فضولي بدرجة كافية.»

«وفضلاً عن ذلك» قال هانز كاستورب. «إذا ما كلمتك بأسرع ما يمكن فعليّ أن أخاطبك بـ [أنتِ]!»

«حسن. وهل تنوي مخاطبتي هكذا رافعاً الكلفة بيننا الى الأبد؟»

«أجل. انني أرفع الكلفة دوماً في مخاطبتك وسوف أفعل هذا دوماً أثناء مخاطبتي إياكَ.»

«هذا أمر هين، في سبيل المثال. على أي حال، لن يكون لك متسع من الوقت كي تخاطبني بـ [أنتِ]. سوف أرحل في الحال.»

إستغرقت الكلمات وقتاً كي تنفذ الى وعيه. عندئذ جفل، أجال النظر في ما حوله كما لو انه إستيقظ من حلم. الحوار تواصل بطيئاً الى حدٍ ما، لأن هانز كاستورب كان يتحدث الفرنسية بصعوبة، شاعراً بمغزى الكلمات. كان البيانو صامتاً على مدى برهة من الزمن، الآن شرع يرن ثانية، تحت يدي رجلٍ من مانهايم، حل محل الشاب السلافي. وضع بعض النوتات الموسيقية في المكان المناسب، والآنسة إنجيلهارت جلست جنبه كي تقلِّب له الصفحات. كانت الحفلة قد بدأت تضعف؛ العديد من النزلاء من المفروض انهم إنهمكوا في حياتهم الأفقية. من الموقع الذي كانوا جالسين فيه لم يكن بوسعهم رؤية أيٍّ من البشر، إلا ان ثمة لاعبين عند طاولات الورق في حجرة الكتابة.

«سوف ـ ماذا؟»

«سوف أرحل»، كررت، باسمة بدهشةٍ كاذبةٍ بإزاء إرتباكه.

«مستحيل»، قال، «أنتِ تمزحين.»

«لا أبداً. أنا جادة كل الجد. أنا مغادرة.»

«متى؟»

«غداً. بعد الغداء.»

وهنا حدث في داخله إحساس بالإنهيار الكلي. قال: «الى أين؟»

«بعيداً.»

«الى داغستان؟»

«أنتَ مثقف غير سيء. ربما في هذه اللحظة في الأقل ـ»

«هل شفيتِ من مرضكِ، إذاً؟»

«في ما يتعلق بهذا ـ كلا. غير ان بيرنز يظن أن ليس ثمة شيء أكثر يمكنني أن أناله هنا، في الوقت الحاضر. لهذا سأغامر في تبديل الجو قليلاً.»

«إذاً ستعودين!»

«هي ذي المسألة. أو، بالأحرى، المسألة هي متى. بالنسبة لي، كما

تعرف، انني أحب الحرية قبل كل شيء، وبالأخص حرية اختيار منزلي. أنت لا تفهم معنى ذلك: أن تكون مهووساً بالاستقلالية. ربما هذا نابع من أصلي.»

«وزوجك في داغستان هل يوافق على ـ حريتك هذه؟»

«أرغمني المرض على العودة. أنا أقيم في هذا المصح ثالث مرة. أمضيتُ هنا عاماً كاملاً. يمكنني أن أعود. لكنك ستكون من الماضي البعيد، لأنني سأرجع بعد زمن طويل.»

«أتعتقدين هذا يا كلاوديا؟»

«وإسمي الأول أيضاً! لقد أخذتَ تقاليد الكرنفال مأخذاً جدياً!»

«أنتِ إذاً تعرفين عن حالتي المرضية أيضاً؟»

«نعم ـ كلا ـ كلنا يعرف هذه الأشياء هنا. لديك بقعة صغيرة رطبة هنا في الداخل وقليل من الحمى، أليس كذلك؟»

«حرارتي تتراوح بين السابعة والثلاثين والثمانية والثلاثين والتاسعة والثلاثين في أوقات بعد الظهر.» قال هانز كاستورب. «وأنتِ؟»

«أوه، حالتي المرضية، كما تعرف، شديدة التعقيد ـ انها غير هينة على الإطلاق.»

«ثمة شيء ما يكمن في حقل من حقول المعارف الإنسانية، هذا ما يقوله الطب»، قال هانز كاستورب. «انه يدعى الإنغلاق السلي للأوعية اللمفاوية.»

«آه! أنت تتجسس عليّ، عزيزي، انني أرى ذلك جيداً.»

«وأنتِ ـ اغفري لي! دعيني أطرح عليك سؤالاً ـ أوجهه لك بالجد كله: قبل ستة شهور، حين غادرت مائدتي لغرض إجراء فحصي الأول ـ أدرتِ بصرك ناظرةً ورائي ـ أتذكرين؟»

«يا له من سؤال! منذ ستة أشهر!»

«هل كنت تعرفين الى أين كنتُ ذاهباً؟»

«مؤكد، كان ذاك محض مصادفة ـ»

«بيرنز أخبرك؟»

«بيرنز هو الذي يفعل هذا دوماً!»

«أوه، لقد مثّل جلدك بطريقة دقيقة الى حدٍ بعيد ـ فضلاً عن ذلك انه أرمل وذو وجنات حارة وهو الذي يقوم بإعداد القهوة بنحو رائع. أحسب انه يعرف جسدك ليس بصفته طبيباً، بل كمطلع على المعارف الإنسانية.»

«معك حق أن تتحدث بعزم، وتتكلم حالماً، يا عزيزي.»

«ليكن. دعيني أحلم ثانيةً. فبعد أن أيقظني الحلم بمرارة شديدة دس الإنذار هذا الخاص برحيلكِ. سبعة شهور أمام ناظريك ـ أما الآن فما كدتُ أتعرف إليكِ حتى أخذتِ تتحدثين عن السفر!»

«أكرر قولي، انه يمكنك أن تتحدث في ما بعد.»

«هل راق لكِ ذلك؟»

«أنا؟ لن تفلت مني، يا صغيري. المسألة تخص إهتماماتكَ أنت. هل أنت خجول جداً لتقترب من امرأة كي تحدثها في الحلم الآن، هل ثمة شخص ما يمنعك من فعل ذلك؟»

«لقد قلتُ لكِ ذلك. لا أريد أن أخبرك [أنتِ].»

«يا لكَ من مهرج! أجب إذاً ـ هذا السيد المتحدث اللبق، هذا الإيطالي الذي غادر الحفلة ـ ما الذي تفوه به قبل قليل؟»

«لم أسمع منه شيئاً على الإطلاق. أكون منشغلاً مع هذا السيد عندما تراكِ عيناي ـ لكنك تنسين ـ لم يكن التعرف إليك بالأمر اليسير جداً. كان هناك أيضاً ابن خالتي. ومعه أرتبطتُ، وهو الذي يميل الى إثارة اللهو هنا. هو لا يفكر بشيء سوى عودته الى السهول، ليغدو جندياً.»

«يا للشيطان البائس! انه، في الواقع، أكثر مرضاً مما يحسب. صديقك الإيطالي فضلاً عن ذلك لم يذهب بعيداً كذلك.»

«هو نفسه يقول ذلك. أما ابن خالتي ـ أحقاً هو كذلك؟ انك ترعبينني».

«من الجائز جداً أن يموت، إذا ما حاول أن يكون جندياً في السهول.»

«انه سيموت. الموت. كلمة رهيبة، أليس كذلك؟ لكنها غريبة، هذه الكلمة، هي لا تؤثر فيَّ كثيراً. كانت طريقة مقبولة في التحدث حينما قلتُ: [انك ترعبينني]. فكرة الموت لا ترعبني. انها تجعلني هادئاً. أنا لا أشعر بالأسف ـ سواء بالنسبة لصاحبي يواكيم، أو لي، ظاناً انه سيموت. إذا كان

ذلك الأمر صحيحاً، فإن حالته المرضية تشبه حالتي كثيراً، ولا أجده جليلاً على وجه الخصوص. انه محتضر، أما أنا، فعاشق، أو حسن ـ لقد حدثتِ ابن خالتي في ورشة التصوير الفوتوغرافي، في غرفة الإنتظار، لا بد انك تتذكرين ذلك.»

«قلما أتذكر.»

«في ذلك اليوم قام بيرنز بأخذ صورة شفافة لكِ!»

«نعم.»

«يا إلهي! هل تحملينها معك؟»

«لا، إني أحفظها في غرفتي.»

«آه ـ في غرفتك. أما بالنسبة لي، فأنا أحملها دوماً في محفظتي. أتريدين أن أريكِ إياها؟»

«ألف شكر. ان فضولي ليس شديداً. سيكون مظهراً ساذجاً جداً.»

«أما أنا فقد رأيتُ صورتك الخارجية. لكنني أحب كثيراً أن أرى صورتك الداخلية المحفوظة في غرفتك. دعيني أطلب شيئاً آخر! غالباً يأتي رجل روسي يسكن في المدينة لزيارتك. مَنْ يكون هو؟ ولأي غرض، يأتي هذا الرجل؟»

«أنت في أسوأ الأحوال تعمل في التجسس، أعترف بذلك. ايه، حسن، أجيب على سؤالك. نعم، انه مواطن معذب، صديق. تعرفتُ إليه في محطة إستجمام، منذ سنوات عدة. علاقاتنا؟ تلك هي: نتناول الشاي معاً، ندخن سيجارتين أو ثلاثاً، ونثرثر، ونتفلسف، ونتكلم عن الإنسان، والله، والحياة، والأخلاق، وعن آلاف الأشياء الأُخر. هذا هو إنشغالي. أيسرك هذا؟»

«في ما يتعلق بالأخلاق! وماذا وجدتِ بشأن الأخلاق، في سبيل المثال؟»

«الأخلاق؟ أهذا يثير إهتمامك؟ ايه حسن، يبدو لنا انه من الضروري البحث عن الأخلاق في الفضيلة، أي بمعنى في الفكر، والإنضباط، والأدب، والشرف، ولكن حري بي القول ان علينا أن نبحث عنها في ما هو

معاكس، أي في الخطيئة، في الإستسلام للخطر، لما هو مؤذٍ وضار، لكل ما يهلكنا. يبدو لنا أن الأخلاق تكمن في التلاشي، بل وحتى في الضياع أو الإستسلام للضعف أكثر مما تكمن في الإنضباط. لم يكن الأخلاقيون العظام أفاضل، هم دوماً مغامرون في الألم، فاسدون، وموغلون في الخطيئة، أولئك الذين يلقنوننا أن ننحني أمام البؤس. كل هذا من المفروض أن يزعجك، أليس كذلك؟»

لزم الصمت؛ جالساً كالسابق، وقدماه مجدولتان معاً، مدفوعتان للوراء تحت كرسي الأماليد ذي الصرير، مائلاً للأمام نحو الشخصية التي قبالته، بقبعتها المردودة[١٠٩]؛ قلمها الرصاص بين أصابعه. بعيني هانز لورنز كاستورب الزرقاوين أمعن النظر في الحجرة. كانت خالية، أفراد الشلة تشتتوا. البيانو، في الوسط عكس القطر، كانت تمسه برقة ورشاقة يد واحدة، يد المانهايمي، الذي جلست جنبه الآنسة انجيلهارت، تقلّب صفحات كتاب النوتات الموسيقية الذي كانت تضعه على ركبتها. عند هذه الفاصلة التي تلت الحوار الدائر بين هانز كاستورب وكلاوديا شوشا، عازف البيانو كف عن العزف، وجلس ويده في حضنه، بينما الآنسة إنجيلهارت تابعت تقليب صفحات كتابها الموسيقي. هؤلاء الأربعة وحدهم الذين بقوا، من بين كل المشاركين في الكرنفال؛ كانوا جالسين هنا بلا حراك. دام الصمت دقائق معدودات. أعمق فأعمق، تحت ثقلهما، غاص رأسا الاثنين الجالسين عند البيانو: رأسه نحو لوح مفاتيحه، رأسها نحو كتابها؛ إنما أخيراً كما لو بإتفاق مشترك نهضا بحذر، وبعناية أحجما عن إلقاء أي نظرة الى الزاوية المعاكسة، رأساهما إنسحبا الى أكتافهما، أذرعهما تدلت ثابتة عند جنبيهما، تلاشيا معاً عن الأنظار، سائرين على أطراف أصابعهما، عبر حجرة الكتابة.

«ذهب الجميع»، قالت السيدة شوشا. «هذان كانا آخر أعضاء الثلة. لقد

---

(١٠٩) القبعة المردودة cocked hat: قبعة مردودة الحافة الى أعلى في موضعين أو ثلاثة ـ المترجم.

تأخرا. ايه حسن، الكرنفال إنتهى.» رفعت ذراعيها كي تزيل قبعة الورق من على رأسها، ذي الضفيرة الضاربة للإحمرار التي تطوّقه كالإكليل. «انت تعرف الظروف، سيدي.»

إلا أن هانز كاستورب قاوم الظروف، مغمضاً عينيه، ولم يغير موضعه أبداً. أجاب: «أبداً، كلاوديا. أبداً سأحدثـ[كِ]، أبداً عن الحياة وليس عن الموت، إذا جاز للمرء أن يقول هذا ـ ينبغي للمرء أن يكون قادراً على هذا. هذه الشكليات في النهوض لإمرىءٍ ما إحتراماً هي شكليات تنتمي الى الغرب المثقف والى حضارة إنسانية، تبدو لي أكثر بورجوازية، انها ليست سوى حذلقة! أتريدين حقاً أن تدهشني هذه الشكليات؟ هذه الرسميات، الى أي حماقة تقودنا! ان كل ما قلتِه عن الأخلاق، أنت ومواطنكِ المعذب ـ أتريدين حقاً أن يدهشني هذا؟ الى أي حماقة تقودينني؟ قولي إذاً، ماذا تفكرين بشأني؟»

«انه موضوع لا يتيح التأمل كثيراً. أنت رجل طيب صغير، من عائلة طيبة، تلميذ طيّع لمعلميه، وسيعود الى السهول حالاً، كي ينسى تماماً ما تحدث عنه في الحلم هنا وليساعد في جعل بلده كبيراً وقوياً من خلال مهنته الشريفة في المسفن. صورتك الداخلية تلك التي أُلتقطت لك من دون كاميرا، أتجدها دقيقة، هذا ما أتمناه؟»

«تنقصني بعض التفاصيل الموجودة عند بيرنز.»

«آ، العلوم الطبية تجدها دوماً. انها ضليعة في هذه التفاصيل.»

«أنتِ تتكلمين كالسيد سيتيمبريني. والحمى التي أعاني منها؟ من أين تنجم؟»

«هيا إذاً، انها حدث من دون عواقب، وسيمر سريعاً.»

«كلا، يا كلاوديا، أنت تعرفين ان ما قلتِه ليس صحيحاً، كما انكِ قلتِ ذلك من دون قناعة، أنا متأكد من ذلك. الحمى في جسدي، وخفقان قلبي المنهك،، وارتعاش أعضاء جسمي، هذه كلها ليست عرضية، بل على العكس من ذلك. وهي ليست سوى هكذا ـ» ووجهه الشاحب بشفتيه المختلجتين دنا من وجهها. «لا شيء سوى حبي لك، أجل، حبكِ أوقعني

في شباكه فوراً، أو انني وقعت في هواك حالما إلتقيتُ بك وهو ـ بكل جلاء، مَنْ قادني الى هذا المكان ـ»

«يا له من جنون!»

«الحب لن يكون شيئاً إن لم يكن جنوناً، انه شيء أحمق، محرم ومغامرة في الألم، أو بوجه من الوجوه هو إبتذال مقبول، جميل كي نصنع منه أغانٍ قصيرة وديعة في السهول. أما بالنسبة لهذا الذي اعترفتُ به لكِ، واعترف لك به قلبي ـ أجل، هذا شيء حقيقي، لقد عرفتك منذ وقت مضى، في سالف الزمان، كنتِ أنت وعيناك المنحرفتان بشكل رائع وفمك وصوتك الذي تتكلمين به. ذات مرة، عندما كنتُ طالباً في المدرسة الثانوية، طلبتُ منك قلمك الرصاص كي أتعرف إليك، لأنني مغرم بك بدرجة لا معقولة. ومن حبي القديم لك، لا ريب، بقيت لي هذه العلامات التي وجدها بيرنز في جسدي، والتي تشير الى انني كنت عليلاً أيضاً ـ»

أسنانه اصطكت معاً. بينما كان يهذي، سحب قدماً واحدة من تحت كرسيه، وحركها الى الأمام، بحيث ان الركبة الأخرى مست البلاط، هناك ركع أمامها، رأسه منكس، أوصاله كلها ترتعش. «أحبك»، ثرثر، «أحببتك في الأزمان كلها، لأنك تمثلين حياتي، وحلمي، وقدري ورغبتي وأمنيتي الأبدية ـ»

«لنذهب، لنذهب!» قالت. «إذا كان معلموك قد رأوك ـ»

لكنه هز رأسه، بعنف، الذي كان محنياً صوب السجادة، ورد قائلاً: «هذا الأمر لا يعنيني، انني أزدري كل هؤلاء كاردوتشي والجمهورية البليغة والتقدم الإنساني في العصر الحالي، لأنني متيم بحبك!»

عانقت برقة الشعر القصير في مؤخرة رأسه.

«بورجوازي صغير!» قالت. «بورجوازي ظريف ذو بقعة صغيرة رطبة. أتحبني حقاً حباً جماً؟»

وخارجاً عن طوره لدى لمستها، الآن جاثياً على ركبتيه، برأسٍ محني وعينين مغمضتين، إسترسل قائلاً: «أوه، الحب، كما تعرفين ـ الجسد، الحب، الموت، هذه الكلمات الثلاث لا تشكل سوى كلمة واحدة. ذلك ان

الجسد هو المرض والشهوة الجنسية، وهو الذي يقوم بالقتل، نعم، هما شهوانيان، الحب والموت، وهنا يكمن رعبهما وسحرهما العظيم! غير ان الموت، كي تفهمي ذلك، هو من ناحية شيء سيء السمعة، ووقح، ومُخجل؛ إلا انه من الناحية الأخرى قوة إحتفالية ومهيبة ـ سامية أكثر بكثير من الحياة الزاهية الحافلة بكسب المال وملأ البطن ـ أكثر وقاراً من التقدم الذي يهذر طوال الوقت ـ لأنه التاريخ والنبل والشفقة والأزلية والقداسة والذي يحثنا على أن نرفع قبعاتنا ونسير على أطراف أصابعنا. ـ والحالة هذه، كذلك، الجسد، نفسه، وحب الجسد، كلاهما مسألة بذيئة ومزعجة، والجسد يحمر ويشحب نتيجة الرعب والخجل من نفسه. ولكنه أيضاً انتصار عظيم ورائع. وصورة إعجازية عن الحياة العضوية، وأعجوبة مقدسة للشكل والجمال، أما الحب، فبالنسبة له، وبالنسبة للجسد الإنساني، فهو منفعة إنسانية في أعلى درجاتها، وقوة أكثر تربوية من كل التعليم في العالم! أوه، يا له من جمال عضوي أخاذ ذلك الذي لا يتكون من صبغ زيني كما انه ليس من حجر، بل من مادة حية قابلة للفساد، مملوءة سراً محموماً بالحياة والعفن! أنظري الى التناظر العجيب للصرح الإنساني والأكتاف والأوراك والحلمات المغطاة بالزهور من هذا الجانب وذاك على الصدر والجوانب مرتبة بالتساوي، والسرة في الوسط، في رخاوة البطن، والجنس معتم بين الفخذين! أنظري الى لوحي الكتفين اللذين يتحركان تحت بشرة حريرية من الظهر، والعمود الفقري الذي ينزل الى الردفين، والفروع الكبيرة من الأوعية الدموية والأعصاب التي تمر من الجذع الى القصبات عبر الإبطين، وكأن بنية الذراعين تتطابق مع بنية الساقين. أوه، انها المناطق الناعمة للمفصل الداخلي للمرفق وباطن الركبة، مع غناها المفرط بالرشاقة العضوية تحت وسائدها اللحمية! يا له من مهرجان ضخم وأنتِ تداعبين كل هذه المواضع اللذيذة في الجسم البشري! مهرجان الموت من دون أي أنين! أوه، يا إلهي، دعيني أشم عطر بشرة رضفتك، التي تحتها الكبسولة المفصلية الماهرة تفرز زيتها المتدفق! دعيني ألثم بفمي بورع الشريان الفخذي، الذي يخفق في فخذك والذي ينقسم في الأسفل الى شرايين عدة عند عظم الساق الأكبر! دعيني

أتنشق ثانيةً أريج مساماتك وأتلمس زغبكِ، صورة إنسانية للماء والزلال مخصصة لتشريح القبر، دعيني أهلك وأنا أضع شفتيّ على شفتيك!»

لم يتحرك قيد أنملة، أو يفتح عينيه؛ جاثياً على ركبتيه وبرأسٍ محني، يداه تحملان قلم الفضة الممدود أمامه، ظل، يتمايل ويرتعش.

قالت: «أنتَ في الواقع ظريف وتعرف كيف تتوسل بطريقة عميقة، ألمانية.» ووضعتْ قبعة الورق على رأسه.

«وداعاً، يا أمير الكرنفال خاصتي! سترتفع حرارتك هذا المساء. انني أتوقع ذلك.»

انسلت من كرسيها، وانزلقت فوق السجادة الى الباب، حيث توقفت هناك لحظة، جمدت عند المدخل، نصف ملتفتة إليه، بذراعٍ عارية واحدة مرفوعة عالياً، يدها على مفصل الباب. من فوق كتفها قالت برقة: «لا تنسَ أن تعيد لي قلمي.»

ومضت.

الفصل السادس

تغـيـيـرات

ما هو الزمن؟ أحجية، شيء مختلَق ـ وفعال بكل معنى الكلمة. انه يتحكم بالعالم الخارجي، هو حركة مقترنة بالأشخاص، وممتزجة مع كينونتهم في المكان، ومع حركتهم كذلك. هل يحتمل أن لا يكون هناك زمن إذا لم تكن هناك حركة؟ ولا حركة إن لم يكن ثمة زمن؟ نسأل بولع. هل الزمن وظيفة المكان؟ أم ان المكان هو وظيفة الزمن؟ أم هل هما شيئان متطابقان؟ أجوبة مكررة. الزمن عملي، بالمستطاع الإشارة إليه كونه فعلاً، كونه نشاطاً؛ نقول ان شيئاً «أُحدِث» بمر الزمن. أي نوع من الأشياء هذا؟ التغيير! الآن ليس بعدئذ، هنا ليس هناك، ذلك ان بينهما ثمة حركة. غير ان الحركة التي يقيس بها المرء الزمن هي دائرية، مغلقة؛ وربما يمكن وصفها بصورة جيدة تقريباً كالراحة، كالإنقطاع عن الحركة ـ ذلك ان الـ(هناك) يكرر نفسه باستمرار في الـ(هنا)، الماضي في الحاضر. والأكثر من هذا، بما ان مجهودنا الأقصى لا يستطيع أن يتخيل حداً نهائياً سواء للزمن أو المكان، فقد إستقر رأينا على أن نعدّ الزمن أبدياً والمكان لا محدوداً ـ آملين بجلاء انه إذا لم يكن هذا ناجحاً جداً، ففي الأقل سيكون أكثر نجاحاً من غيره. لكن أليس هذا التوكيد على (الأبدي) و(اللامحدود) هو التحطيم المنطقي ـ الرياضي لكل ولأي حد للزمان أو المكان، وتصغيرهما، تقريباً، الى الصفر؟ هل

يمكننا، في الأبدية، أن نتخيل سلسلةً من الأحداث، وهل يمكننا، في اللامحدود، أن نتخيل تعاقب أشخاص يشغلون مكاناً؟ المفاهيم المتعلقة بالمسافة، الحركة، التغيير، وحتى تلك المتعلقة بوجود أشخاص محدودين في الكون ـ كيف تحصل هذه كلها؟ هل هي متناغمة مع فرضية الأبدية واللامحدودية التي كنا مساقين لأن نتبناها؟ ثانيةً نسأل وثانيةً نتلقى أجوبةً مكررة.

هانز كاستورب فكر ملياً في هذه الأسئلة وما شاكلها. نحن نعرف انه من أول يوم لوصوله هنا في الأعالي كان عقله ميالاً جداً الى مثل هذا التأمل الذي بلا كمين. في ما بعد، ربما، ثمة رغبة مشؤومة إنما قوية خاصة به، طالما انها مشبعة، شحذت عقله أكثر وقوّته في نزوعه العام الى التساؤل والإنتقاد. طرح هذه الأسئلة على نفسه، طرحها على ابن خالته الطيب يواكيم، طرحها على الوادي، ككل، الغائص هناك، كما فعل طوال هذه الشهور بلا إنقطاع، في الثلج، مع انه لا يتوقع من هذه الجهات أي شيء كجواب، يصعب الحصول منه على أدنى قول. بالنسبة له، بالضبط لأنه لم يعرف الأجوبة لجأ الى طرح الأسئلة. في ما يتعلق بـ يواكيم، كان من الصعب أن يجعله حتى يفكر فيها، هو الذي، كما قال هانز كاستورب، بالفرنسية، ذات مساء، لا يخطر بباله شيء غير فكرة أن يكون جندياً هناك في الأسفل. يواكيم تصارع مع أمانيه هذه، التي بدت الآن تقريباً في متناول يده، الآن تراجعت الى البُعد وسخرتْ منه هناك؛ الصراع يغدو يوماً بعد يوم أكثر مرارة، هو أيضاً مهدد بأن ينهيه مرة واحدة والى الأبد بمحاولة جريئة واحدة من أجل الحرية. نعم، يواكيم الطيب، المريض، المستقيم، الميّال جداً الى الإنضباط والخدمة، هوجم من قبل نوبات التمرد، لا بل إرتاب في شهادة «المقياس الغافكي»؛ الطريقة المستخدمة في المختبر، للتأكد من درجة عدوى المريض. سواء كانت مجرد عصيات معزولة قليلة العدد، أو مستعمرة كاملة منها، وُجدت في البلغم الذي تم تحليله، وقررتْ «رقمه الغافكي»، الذي إعتمد عليه كل شيء. عكس هذا الرقم بصورة لا تخطئ فرص الشفاء التي ينبغي للمريض أن يحسب حسابها؛ عدد الشهور والسنوات التي ينبغي له أن

يبقى فيها من السهل أن نستنتجه منه، بدءاً بالشهور الستة التي كان هوفرات بيرنز يدعوها «عطلة نهاية الاسبوع»، وانتهاءً بـ«العقوبة مدى الحياة» التي، إذا ما أخذناها حرفياً، كانت تعني عادةً مدة صغيرة جداً. يواكيم، إذاً، ندد بالمقياس الغافكي، أشار بصراحة انه إرتاب في شهادته ـ أو ربما ليس بصراحة تامة، لم يقل هكذا عن الشهادات، بل عبّر عن وجهات نظره الى ابن خالته، وحتى في حجرة الطعام. «أنا أتغذى عليه، لن أكون مغفلاً بعد الآن»، قال، والدم يصعد الى وجهه الذي أمسى بلون البرونز. «قبل اسبوعين كان مقياس الغافكي يشير الى رقم إثنين، مجرد لا شيء، كانت تنبؤاتي في أفضل حال. واليوم أنا مُبتلى بانتظام، رقم تسعة، إذا كان هذا يرضيك. لا حديث عن الفرار. بحق الشيطان كيف يستطيع المرء أن يعرف أين هو؟ عالياً فوق الشاتزالب كان ثمة رجل، فلاح يوناني، أرسله موظف في الشرطة الى هنا من أركاديا، كان عنده داء السل سريع العدو، لم يكن عنده أدنى بصيص أمل. قد يموت بين يوم وآخر ـ لكنهم مع ذلك لم يعثروا حتى على شبح عصية واحدة في بلغمه. أما من ناحية ثانية، فإن ذلك الكابتن البلجيكي الذي أُطلق سراحه من المصح معافى في يوم مضى، كان يتعايش ببساطة معها، غافكي عشرة ـ وكان لديه تجويف متناهي الصغر. الشيطان يهرب مع غافكي! أنا مرهق، أنا ذاهب الى البيت، حتى لو لقيت حتفي!» هكذا قال يواكيم، وأفراد مجموعته كلهم كانوا يتألمون لرؤية الشاب الرقيق، الجدي مستثاراً بدرجة شديدة. هانز كاستورب، حين سمع التهديد، لم يستطع أن يحجم عن إقتباس رأي معين كان قد سمعه معبّراً عنه بالفرنسية، من شخص ثالث. لكنه لزم الصمت. هل ينبغي له أن يقدم نفسه الى ابن خالته نموذجاً للصبر، كما فعلت السيدة شتور، التي كانت فعلاً قد حذرت يواكيم كي لا يكون كافراً، وطلبت منه أن يقهر إعتداده بنفسه، وأن يتخذها هي، كارولين شتور، قدوةً له، وان الوفاء والتصميم الثابت هما اللذان جعلاها تصمد هنا في الأعالي، بدلاً من أن ترجع لتتصرف كالملكة في بيتها الكائن في كانشتات ـ بقصد انها عندما تعود ستكون زوجةً سليمةً ومعافاة بالنسبة لذراعي زوجها بالمد الصبر؟ لا، هذه اللغة لا تمت بصلة الى هانز كاستورب ـ منذ عيد

المرفع كان يشعر بوخز الضمير نحو ابن خالته. الضمير أخبره ان يواكيم يجب أن يكون حتماً واعياً بمسألة معينة لم تتم الإشارة إليها بينهما؛ لا بد انه فهمها كونها شيئاً شديد الشبه بالخيانة والهجران ـ تلك هي المسألة المتعلقة بزوج العينين البنيتين اللتين نعرفهما، الميل غير المسوّغ للضحك، والمنديل المعطر بالبرتقال، الذي يتعرض يواكيم لتأثيره خمس مرات يومياً، مع ذلك لم يستسلم للشيطان، بل كان يثبت عينيه باستمرار على طبقه. نعم، حتى العداء الصامت الذي قاوم به يواكيم مسائل وتأملات ابن خالته في موضوع الزمن، هانز كاستورب شعر به كونه تعبيراً عن اللياقة العسكرية التي وبخته هو نفسه. أما ما يتعلق بالوادي، وادي الشتاء ذاك المغطى بالثلج، حين وجه إليه هانز كاستورب، المضطجع في كرسيه الممتاز، نظرته الميتافيزيقية المتسائلة، لم ينبسْ ببنت شفة أيضاً. ذُراه مستدقة الرأس، قبابه وقممه وغاباته البنية ـ الخضراء ـ الضاربة للإحمرار إنتصبت هناك صامتة، والزمن القاتل يجري فوقها ومن حولها: تارةً نيّراً قبالة السماء عميقة الزرقة، طوراً مكفناً بالأبخرة، وثالثةً يتوهج وردياً في الشمس الراحلة، ورابعةً يتلألأ ببريق شديد شبيه بالماس في ضوء القمر السحري ـ إنما دوماً، دوماً مكسواً بالثلج، طوال ستة شهور طويلة، لا تُصدق، مع انها تعدو مسرعة. . النزلاء كلهم أعلنوا انهم لا يطيقون النظر بعد الآن الى الثلج، كانوا يشعرون بالاشمئزاز منه؛ فقد نالوا كفايتهم في فصل الصيف، والآن هذه الكتل والأكوام والمنحدرات والوسائد من الثلج، يوماً بعد يوم، كانت أكثر مما يطيقون، أرواحهم غاصت تحت ثقلها. لجأوا الى النظارات الملونة، الخضراء، الصفراء، والحمراء، كي ينقذوا عيونهم، إلا ان مشاعرهم ظلتْ كما هي.

الجبل والوادي، إذاً، كانا متمددين في الثلج العميق طوال ستة شهور، لا، سبعة، فكما قلنا، الزمن يمشي بخطى واسعة ـ ليس الزمن الحاضر فقط، آخذين بنظر الإعتبار الحكاية التي نرويها الآن، ولكن حتى الزمن الماضي، الزمن المنصرم لـ هانز كاستورب ورفاق قدره، عالياً وسط الثلوج ـ الزمن يخطو خطوات واسعة ويجلب معه التغييرات. النبوءة التي، أثارت كثيراً جداً، وبنحو عفوي، إشمئزاز السيد سيتيمبريني، أفصح عنها هانز كاستورب عشية

عيد المرفع، كانت بصورةٍ معتدلة بحاجة الى أن تُنفذ. في الحقيقة، لم يكن انقلاب الشمس الصيفي تواً في المتناول؛ مع ذلك فإن عيد الفصح كان قد مرّ على الوادي، تقدم نيسان (ابريل)، مع اسبوعِ العنصرة في منظر واضح؛ فالربيع، مع ذوبان الثلوج، سيكون هنا عاجلاً. لن يذوب الثلج كله: على المرتفعات الواقعة جنوباً، وشمالاً في الوهاد الحجرية لـ الراتيكون، بعضه سوف يبقى، وخلال شهور الصيف سيهطل المزيد منه بصورة مؤكدة، مع انه نادراً ما يبقى. على الرغم من ذلك دارت السنة، وبشرت بتغييرات خلال مسيرها؛ فمنذ ليلة عيد المرفع تلك حين استعار هانز كاستورب قلم رصاص السيدة شوشا وبعدها أعاده إليها ثانية، متسلماً بدلاً منه تذكاراً حمله معه في جيبه، منذ تلك الليلة مرت ستة أسابيع، ضعف المدة الأصلية المقررة لإقامة هانز كاستورب المؤقتة بين أولئك المقيمين هنا في الأعالي.

أجل، ستة أسابيع، منذ ذلك المساء الذي تعرف فيه هانز كاستورب الى كلاوديا شوشا، ومن ثم رجع في وقتٍ متأخر جداً الى حجرة نومه بعد عودة يواكيم المحب للواجب الى حجرته الخاصة. ستة أسابيع منذ اليوم التالي، الذي واكب رحيلها، رحيلها الحالي، رحيلها المؤقت الى داغستان، بعيداً جداً الى ناحية الشرق وراء القفقاس. ذلك ان غيابها سيكون فقط مؤقتاً، ذلك انها ترغب بالعودة، ذلك انها سوف تؤوب أو يجب أن تؤوب، في تاريخ معين غير محدد حتى الآن، عن هذا كان لـ هانز كاستورب عهود مباشرة وحرفية، ممنوحة، ليس خلال تلك المحادثة التي تم قصها باللغة الفرنسية، ولكن في فسحة متأخرة، صامتة بالنسبة لآذاننا، التي خلالها إخترنا أن نقطع مؤقتاً تدفق قصتنا على طول مجرى الزمن، وكي نجعل الزمن يجري صافياً وخالياً من أي محتوى مهما كان. نعم، مثل هذه الوعود المواسية لا بد انها تم التلطف بها على شابنا هانز كاستورب قبل أن يرجع الى رقم أربعة وثلاثين؛ ذلك انه لم يكن له كلمة مع السيدة شوشا في اليوم التالي، الواقع، لم يرَها، إلا مرتين من مسافة معينة: مرةً حين إرتطم باب الزجاج بعنف، وانزلقت هي آخر مرة الى موقعها عند المائدة، مرتدية تنورتها من القماش الأزرق وكنزتها الصوفية الغليظة البيضاء. قلب الشاب كان في حلقه ـ فقط

النظرة الحادة للآنسة إنجيلهارت التي وجهتها إليه منعته من أن يدفن وجهه في يديه. المرة الأخرى كانت في تمام الساعة الثالثة، حين وقف عند نافذة الممر المؤدي الى طريق المركبات، شاهداً على رحيلها.

حدث ذلك كما لو كان رحيل شخص آخر شهده هانز كاستورب خلال مكوثه هنا في الأعالي. عربة الجليد أو المركبة توقفت أمام الباب، الحوذي والحمال حزما بسرعة صناديق الثياب خاصتها، بينما تجمّع الأصدقاء والصديقات ليقولوا وداعاً للمرأة المسافرة، التي، معافاة أم غير معافاة، وسواء الى الحياة أو الموت، كانت متوجهة الى الأرض المستوية. آخرون فضلاً عن الأصدقاء والصديقات تجمعوا حولها أيضاً، متفرجون فضوليون، قطعوا الإستراحة ـ العلاج من أجل هذه التسلية الممنوحة لهم. كانت هناك حتماً موظفة مكسوة بثوب نسائي تمثل الإدارة، وحتى الأطباء أنفسهم أغلب الظن، بعدئذ خرجت المتلقية الفاتنة للمجاملة التي آواها هذا العالم الصغير لنزيلة مسافرة؛ عموماً ذات وجه متورد، ومشية جعلها إهتياج اللحظة نابضة بالحيوية أكثر بكثير من الطبيعي. اليوم السيدة شوشا هي التي إنبثقت من المدخل، صحبة زميلها الريفي المقعر، السيد بوليجين، الذي كان من المزمع أن يرافقها شطراً من طريق الرحلة. كانت ترتدي معطف سفر طويلاً فضفاضاً، خشن النسيج، ذا حافات من الفراء، وقبعة كبيرة؛ كانت تبتسم بكل ما في الكلمة من معنى، ذراعاها مليئتان بالزهور، هي أيضاً يبدو ان إهتياجاً سائغاً قد تملّكها بسبب مشهد التغيير، إن لم يكن ثمة شيء آخر، وهو أمر مألوف لكل أولئك الذين غادروا، مهما كانت ظروف مغادراتهم، وسواء بموافقة الأطباء، أو بسبب يأسهم المطلق، وعلى مسؤوليتهم الشخصية. كان خداها متوردين، وكانت تتحدث بلا كلفة من دون انقطاع، ربما بالروسية، بينما كان الدثار الغليظ يُرتب فوق ركبتيها. الناس قدموا باقات زهور الوداع، خالة الأم أعطتها علبة من مربيات روسية. نزلاء عديدون آخرون فضلاً عن رفاق السيدة شوشا الروس وزملاء مائدتها، كانوا واقفين هناك ليشاهدوا ذهابها؛ بينهم الدكتور كروكوفسكي، مظهراً أسنانه الصفر وسط لحيته بابتسامة نابعة من القلب، مدرّسة الثانوية، والرجل الذي

من مانهايم، الذي كان يحدق بكآبة واختلاس من مسافةٍ ما، والذي اكتشفت عيناه هانز كاستورب بينما كان واقفاً عند نافذة ممره خافضاً بصره محدقاً في المشهد. هوفرات بيرنز لم يظهر نفسه ـ لعله قبل الآن ودع المسافرة وداعاً خاصاً. الجياد جفلتْ، وسط تحيات الوداع وتلويحات الأيدي من المتفرجين؛ وبعدها، حين غاصت السيدة شوشا باسمةً الى الوراء على وسائد مركبة الجليد، مسحت عيناها واجهة مبنى مصح بيرغهوف، واستقرت على مدى جزء من الثانية على وجه هانز كاستورب. بتهور شاحب قصد شرفته، كي ينال من ذلك المكان آخر لمحة الى مركبة الجليد بينما هي تمضي مجلجلة عبر الطريق الخاص المؤدي الى الدورف. ثم قذف نفسه بقوة في كرسيه، وسحب تذكاره، كنزه، المؤلِّف، هذه المرة ليس من رقاقات قلائل بنية ـ محمرة، بل من لوح زجاج خفيف، الذي يجب أن يُحمل صوب الضوء لرؤية أي شيء عليه. كان ذاك بورتريه كلاوديا السيني، مظهراً ليس وجهها، بل البنية العظمية الرقيقة للنصف العلوي من جسدها، وأعضاء التجويف الصدري، محاطاً بالغلاف الشاحب، الشبحي للجسد.

كم مرة نظر إليه، كم مرة ضغطه على شفتيه، في الزمن الذي مرَّ منذ ذلك الحين وأتى بتغييراته معه ـ تلك التغييرات، كإعتياد الحياة هنا، على سبيل المثال، في الأعالي من دون كلاوديا شوشا، الإعتياد، هو ذا، على بُعدها مكانياً! مع ذلك على أية حال، هذا التأقلم حدث بسرعة أكثر مما يظنه المرء ممكناً؛ فليس الزمن هنا في الأعالي عند مصح بيرغهوف مرتباً ومنظماً بقصد أن يعتاد المرء الأشياء بسرعة، حتى إذا كان هذا الإعتياد يتألف بشكل رئيس من الإعتياد على عدم الإعتياد؟ لم يعد يتوقع تلك الجلبة والضوضاء عند بداية كل وجبة من وجبات الطعام الخمس الهائلة لمؤسسة بيرغهوف. في مكانٍ آخر، في إقليم بعيد ذي مناخ خاص، كانت كلاوديا تجعل الأبواب تنغلق بعنف خلفها، في مكانٍ آخر كانت تعبّر عن نفسها بهذا الفعل، كشيء مرتبط إرتباطاً صميمياً بكينونتها الخاصة وبالحالة المرضية لهذه الكينونة كما يرتبط الزمن بحركة الأشخاص في المكان. أغلب الظن، أن مرضها في الواقع، يتألف كله من هذا الأمر، ولا شيء سواه ـ لكن مع انها غائبة عن

الأنظار، كانت مع ذلك حاضرة بصورةٍ غير منظورة بالنسبة لـ هانز كاستورب؛ كانت هي الروح الحارسة للمكان، التي، في ساعة شريرة، ساعة غير متناغمة مع أي أغنية قصيرة بسيطة للأرض المنبسطة، مع ذلك ساعة ذات حلاوة عابرة، كان قد عرفها وامتلكها، هي التي يضم الآن صورتها الوهمية الى قلبه المرهق طوال أشهر عدة.

في تلك الساعة شفتاه المرتعشتان تلعثمتا وثرثرتا، بلغتيه الخاصة والأجنبية، من دون إرادة منه على الأغلب، بأكثر الأشياء جنوناً: توسلات، صلوات، اقتراحات، خطط متهورة، تم رفضها رفضاً قاطعاً، وبصورة صحيحة: مثل، إحتمال أن يُسمح له بمرافقة الروح الحارسة وراء القفقاس؛ واحتمال أن يتبعها، واحتمال أن ينتظرها عند البقعة التالية التي يجب أن تختارها روحها الحرة وغير المقيدة منزلاً لها؛ ومن ذلك الحين فصاعداً لن يفترق عنها أبداً - هذا وغيره من التفوّهات الطائشة وغير المسؤولة. لا، كل ما حمله مغامرنا الشاب البسيط من تلك الساعة كان مجموعته النفيسة من الكنز الشبحي، وإمكانية، ربما إحتمال، عودة السيدة شوشا لإقامة مؤقتة رابعة في بيرغهوف - عاجلاً أم آجلاً، حسبما تقتضيه صحتها. لكن سواء عاجلاً أم آجلاً، حسبما قالت هي ثانية عند الرحيل - سيكون هانز كاستورب آنذاك «من الماضي البعيد». كانت تلك نبوءة سمتها المميزة المتسمة بالإستخفاف سيكون من الصعب جداً أن يتحملها هو ما لم يكن يعرف ان النبوءات تخلق غالباً كي لا تحدث - كالسحر، في الواقع، كي تكون ضد تحقيقها. نبوءات من هذا الضرب تهزأ بالمستقبل: تقول له كيف ينبغي له أن يشكل نفسه، بقصد انه سيكون عاراً عليه أن يكون بذلك الشكل. الروح الحارسة، في خلال الحوار الذي كررناه، وفي مكان آخر، أسمت هانز كاستورب «البرجوازي الظريف ذا البقعة الصغيرة الرطبة»، والتي ربما تُعد بمعنىً ما ترجمةً للنعت السيتيمبريني «طفل الحياة الرقيق»؛ ويكون السؤال هكذا، أي عنصر رئيس من الجوهر الممزوج لكينونته سيتكشف عن كونه الأقوى، البورجوازي أم الآخر. الروح الحارسة، مع انها أخفقت في أن تأخذ بالحسبان الحقيقة القائلة ان هانز كاستورب أيضاً حقق نجاحاً كبيراً في

العالم، وربما يسهل عليه أن يعود الى هنا في اللحظة المناسبة ـ مع انه، برزانة تامة، لم يكن يستقر هنا في الأعالي لمجرد انه ربما لن يحتاج الى العودة؟ على وجه الدقة وبصورة واضحة كان هذا الأمر يلازمه، كما حصل مع أناس عديدين، كونه أساس وجوده المستمر.

نبوءة واحدة، حقيقةً، خُلِقتْ في مساء ذلك الكرنفال، خُلِقتْ بهزء، تحققتْ. جدول حرارة هانز كاستورب تكشف عن منحني ذي إرتفاع حاد، دوّنه هو مع شعور بالوقار. بعدها هبط قليلاً، ومن ثم أخذ مجراه الطبيعي، لم يتغير عدا تموجات طفيفة، مرتفعة كثيراً فوق مستواه المألوف. كانت تلك حمى، درجتها واستمرارها، بحسب هوفرات، كانت غير متناسبة مع حالة رئته. «هِمْ، أيها الشاب، أنت مصاب بالعدوى أكثر مما يحسب المرء»، قال. «ينبغي لنا أن ندخل مرحلة الحقن تحت الجلد. سوف تكون مفيدة لمرضك، أم أنا هولندي. في بحر ثلاثة أو أربعة شهور ينبغي لك أن تكون بصحة جيدة.» وهكذا توجب على هانز كاستورب أن يظهر نفسه، مرتين بالأسبوع، الإثنين والسبت، بعد التمرين الصباحي، في «المختبر»، حيث يتم إعطاؤه الحقن.

هذه تُعطى من قبل أي واحد من الأطباء بعدم إكتراث، غير ان هوفرات كان ينجز العملية كالفنان، بضربة منحرفة رائعة، عاصراً الحقنة الصغيرة في اللحظة ذاتها التي يضغط فيها الرأس المستدق بإحكام. ولم يكن ليبالي مطلقاً أين يُقحم إبرته، لذا كثيراً ما يكون الألم حاداً، والبقعة صلبة وملتهبة بعد ذلك بوقت طويل. كان تأثير اللقاحات على الجسم كله ملحوظاً تماماً؛ كان رد فعل الجهاز العصبي كرده بعد مجهود عضلي شديد، وقوة اللقاحات بدت للعيان في الحرارة المرتفعة التي كانت نتيجتها المباشرة. قال هوفرات انه سيكون لها هذا التأثير، وتنتهي الى هذه النتيجة. المسألة كلها، في كل مرة، لا تستغرق سوى ثانية؛ الواحد إثر الآخر، رتل المرضى يتسلمون جرعاتهم، في الفخذ أو الذراع، ويعودون أدراجهم. لكن مرةً أو مرتين، حيث كان هوفرات في مزاج أكثر حيوية، وليس مكتئباً بفعل التبغ الذي يدخنه، حدث أن تحدث إليه هانز كاستورب، وأدار الحوار الموجز نوعاً ما كما يأتي:

«ما زلتُ أذكر القهوة والكلام اللطيف الذي تبادلناه في الخريف الماضي، سيد هوفرات»، يقول هو. «فقط أمس، أو ربما اليوم الذي سبقه، كنتُ أذكّر ابن خالتي كيف حدث اننا ـ».

«غافكي سبعة»، قال هوفرات. «التحليل الأخير. الشاب ببساطة لا يستطيع أن يتخلى عن عُصياته. ومع ذلك يبقى هو بالنسبة لي أسوأ من أي وقت مضى، كي أجعله يذهب بحيث يستطيع أن يلبس سيفاً مربوطاً حول وسطه. يا له من طفل! قدّم لي مشهداً قبل شهر أو أكثر، كما لو ن دهراً مرّ فوق رؤوسنا. وهو يقصد السفر ـ في أي حال من الأحوال ـ هل قال الشيء نفسه لك؟ ينبغي لك أن تتحدث معه حديثاً صريحاً بكل ما في الكلمة من معنى. كن واثقاً، ستجده ميتاً إذا تسرعَ في ما يتعلق بالنزول الى الأسفل وإستنشاق الهواء الرطب الجميل الى رقعته الضعيفة. بالع السيف مثله لا يملك بالضرورة عقلاً كبيراً جداً؛ أما أنت، كونك مدنياً مثابراً، فعليك أن توليه عنايتك كي لا يجعل من نفسه موضوع سخرية.»

«تحدثتُ إليه، سيد هوفرات»، أجاب هانز كاستورب، آخذاً العنان ثانيةً بين يديه. «فعلتُ ذلك، كثيراً، حين بدأ يمانع من غير طائل ـ وأعتقد انه سوف يصغي الى صوت العقل. غير ان الأمثلة التي أمام عينيه من النوع الخاطئ تماماً. انه يرى الناس دوماً يتصرفون على وفق ما يشتهون، من دون سلطة منك، يبدون مبتهجين بنحو هائل، كما لو انهم فعلاً يغادرون نحو الأفضل، وهذه غواية للجميع عدا الشخصيات القوية. في سبيل المثال مؤخراً ـ مَنْ التي ذهبت؟ امرأة من المائدة الروسية [الجيدة]، تلك هي السيدة شوشا. ذهبت في الى داغستان، هكذا يقولون. حسن، داغستان ـ لا أعرف المناخ هناك، ربما يكون أفضل، حين يكون كل شيء قد قيل وأُنجز، من البقاء في المركب. لكن على أية حال، انها الأرض المنبسطة، على وفق آرائنا هنا في الأعالي ـ مع انني لستُ أعرف ربما تكون جبلية، من الناحية الجغرافية؛ لستُ على دراية كافية بالموضوع. لكن كيف يستطيع شخص غير سليم أن يحيا هناك، حيث كل الأفكار المناسبة مفقودة تماماً، وما من أحد لديه إنطباع شخصي عن النظام، الإستراحة ـ العلاج، وقياس الحرارة، وما

الى ذلك؟ على أي حال، سترجع هي، قالت لي ذلك بنفسها ـ حدث هذا. كيف حصل أن بدأنا الحديث عنها؟ ـ نعم، سيد هوفرات، أتذكر كما لو انه جرى أمس، كيف إلتقيناك في الحديقة، أو، بالأحرى، أنت التقيت بنا، إذ كنا جالسين على مصطبة ـ بوسعي أن أريك المصطبة ذاتها اليوم، التي كنا نجلس عليها ـ كنا نجلس وندخن. أو، بالأحرى، كنتُ أدخن وحدي، ذلك ان ابن خالتي لا يدخن، وهذا شيء غريب بدرجة كافية. كنتَ تدخن أنت أيضاً، وتبادلنا علامتينا التجاريتين، على ما أذكر، تبغك البرازيلي وجدتُه ممتازاً؛ لكنني أظن ان على المرء إذا ما أراد أن يدخنه أن يكون حذراً قليلاً، وإلا حدث شيء كالذي حدث لك تلك المرة مع السيجارتين الصغيرتين المستوردتين ـ حين إنتفخ صدرك بالكبرياء وكنت تقريباً تمشي بخطى قصيرة قلقة. بوسعي أن أضحك على ذلك الموقف، طالما انه مرَّ بسلام. طلبتُ مائتين أُخريين من مارياي مؤخراً. أنا مدمن عليها، هي تناسبني من النواحي كلها. غير ان المركبة والطقوس يجعلون الكلفة مرتفعة نوعاً ـ وإذا كان لديك شيء جيد تقترحه، سيد هوفرات، أنا مستعد لأن أقوم بصفقة رابحة مع النتاج المنزلي ـ أرى بعض النباتات المائية الجذابة في الشبابيك. نعم، كان لنا إمتياز أن ننظر الى رسومك. أتذكرُ كل شيء بشكل جيد جداً. وكنتُ مندهشاً تماماً من تقنيتك الزيتية. لا أجرؤ على القول ان ثمة شيئاً ما يشبهها. أريتنا البورتريه الذي رسمته للسيدة شوشا، هو ببساطة معالجة من الدرجة الأولى للجلد ـ ينبغي لي القول انني كنتُ مفتوناً جداً به. في ذلك الوقت لم أكن قد تعرّفت شخصياً الى المرأة الجالسة، عرفتها بالرؤية فقط. لكن قبيل سفرها، حصل أن تعرفتُ إليها.»

«أنت لا تعني ذلك!» أجاب هوفرات جواباً مقتضباً كما فعل تلك المرة حين أخبره هانز كاستورب، قبيل الفحص الأول، ان عنده حمى. لم يقلْ المزيد.

«نعم»، تابع الشاب، «تعرّفتُ إليها ـ وهو شيء لم يكن باليسير جداً، في هذا الجوار، كما تعرف. لكن السيدة شوشا وأنا، تدبرنا الأمر، في الساعة الحادية عشرة، كان لنا بعض الحوار ـ ف ف ـ ف!» مضى هانز

كاستورب يقول، وسحب نَفَسه بحدة من خلال أسنانه. الإبرة دخلت. «ذاك يقيناً عصب مهم جداً حدث ان ضربته، سيد هوفرات»، قال. «أؤكد لك، الإبرة تؤذي كالشيطان. شكراً، ان تدليكاً قليلاً ينفعها. . . نعم، دنونا من أحدنا الآخر، في الحوار.»

«آ؟ حسن؟» قال هوفرات. كان سلوكه كما يتوقع المرء من خلال تجربته الشخصية رداً إيجابياً جداً، ومعبّراً عن موافقته سلفاً من خلال طريقة طرح السؤال.

«أنا متأسف ففرنسيتي عرجاء نوعاً»، أجاب هانز كاستورب متملصاً. «لم تكن لي مناسبات كثيرة لإستخدامها. غير ان الكلمات بنحوٍ ما تأتي الى عقل المرء حين يحتاجها ـ لذا فهمنا أحدنا الآخر بطريقة جيدة نوعاً.»

«أنا أصدقك»، قال هوفرات. «حسن؟» كرر إستفهامه؛ وأضاف أيضاً، بحافزه الخاص: «جميل جداً، ماذا؟»

وقف هانز كاستورب، ساقاه ممدودتان وكذلك مرفقاه، ووجهه مرفوع للأعلى، كان يزرر ياقة قميصه.

«انها القصة القديمة»، قال. «في مكان كهذا، شخصان أو عائلتان، بوسعهما أن يسكنا أسابيع من غير انقطاع تحت سقف واحد، من دون أن يتكلما معاً. لكن ذات يوم يتعارفان، ويعتادان على أحدهما الآخر، فقط ليكتشفا ان أحد الفريقين على وشك الرحيل. حوادث داعية للأسف كهذه تجري كثيراً، على ما أعتقد. في مثل هذه الحالات، يشعر المرء بالرغبة في أن يستمرا بالإتصال بوساطة البريد ـ لكن السيدة شوشا ـ».

«أف، هي لن تفعل هذا، أليس كذلك؟» قهقه هوفرات.

«لا، لن تسمع به. هل تكتب لك، بين حين وآخر، من الموقع الذي تستقر فيه؟»

«ليباركك الله!» أجاب بيرنز، «هي لن تفكر في ذلك البتة. أولاً، هي كسولة جداً، وثانياً ـ كيف تستطيع هي فعل ذلك؟ أنا لا أستطيع أن أقرأ الروسية، مع انني أقدر أن أبربر بها، مقلّداً شخصاً ما، حين يتوجّب عليّ أن

افعل هذا، لكنني لا أستطيع أن أقرأ كلمة واحدة ـ ولا أنت أيضاً، على ما أعتقد. والهرّة تستطيع أن تخرخر[1] الكتب بسرعة كافية بالفرنسية أو بالمانية، أما الكتابة ـ فسوف تطرحها أرضاً بكل ما الكلمة من معنى. فكر في التهجئة! لا، يا صديقي الشاب المسكين، علينا أن نواسي بعضنا البعض. هي دوماً تعود من جديد، عاجلاً أم آجلاً. أُناس عديدون يأخذون المسألة بصورة مختلفة ـ انها مسألة إجراءات، أو مسألة مزاج خاص. أحدهم يذهب ويواصل العودة في كل مرة، آخرٌ يمكث مدةً طويلةً بدرجةٍ كافيةٍ بحيث لن يحتاج الى أن يعود ثانية الى المصح. فقط قُل لإبن خالتك انه إذا ما ذهب الآن، ففي الأرجح ستكون أنت ما تزال هنا لتراه عائداً بحالة سيئة.»

«لكن سيد هوفرات، كم طول المدة التي تروم أن تبقيني ـ»

«أبقيك؟ تقصد أبقيه، أليس كذلك؟ ذلك انه لن يمكث وقتاً طويلاً في الأسفل كالذي أمضاه هنا في الأعالي، ذلك هو ما أعنيه، ولهذا أخبرك به. هذا هو رأيي المتواضع، وأنا أحملك مسؤولية إخباره بذلك على لساني، إذا كنتَ كريماً جداً بحيث تأخذ هذه المهمة على عاتقك.».

هكذا، تقريباً، يكون إتجاه حوارهما، الذي قاده ببراعة هانز كاستورب، الذي، على أية حال، لم يحصد شيئاً أو حصد أقل من اللاشيء لقاء جهده هذا. كم ينبغي على المرء أن يبقى كي يرى عودة امرأة غادرت قبل أوانها ـ في ما يتعلق بهذه المسألة ستكون النتيجة غير قابلة للتحديد؛ أما بخصوص الأنباء المباشرة للمسافرة الشقراء، ببساطة لم يحصل على أي خبر بفعل أحجية الزمان والمكان. هي لن تكتب الرسائل، ولن تواتيه هو فرصة كي يفعل ذلك. ومتى يتسنى له أن يفكر في هذا، كيف يمكن أن تكون الظروف غير ذلك؟ أليس هذا اعتقاداً بورجوازياً جداً، لا بل اعتقاداً متحذلقاً، من جانبه، كي يتصور انه يتوجب عليهم الكتابة، بينما هو نفسه يتبنى فكرة مفادها انه ليس ضرورياً ولا مرغوباً فيه بالنسبة لهم أن يتكلموا؟ هل تكلم معها، في أمسية الكرنفال تلك ـ أي شيء من الجائز أن يقال عنه كلاماً، وليس

(١) تخرخر purr: تطلق صوتاً خفيضاً كصوت الهرة ـ المترجم.

بالأحرى تعبيراً عن حلم ما، مصوغاً بلسان أجنبي، وذا نزعة «متحضرة» قليلاً جداً؟ لِمَ يجب عليه أنَ يكتب إليها، على ورق الرسائل أو على البطاقات البريدية، مدوّناً الكلمات والسطور بغية تنويرها، كما فعل حين نوّر أقاربه في البيت، بخصوص تقلبات منحني حرارته؟ كانت كلاوديا محقة تماماً في شعورها بأنها معفاة من الكتابة بفضيلة الحرية التي وهبها إياها مرضها. الكلام والكتابة هما بطبيعة الحال الشأن الأول لأي شخص إنساني ومؤيد للنظام الجمهوري، إنهما المسألة المناسبة لـ برونيتو لاتيني، هذا الشخص نفسه الذي ألّف الكتاب المتعلق بالفضائل والرذائل، وعلّم الفلورنسيين فن اللغة وكيف يقودون دولتهم على وفق قواعد علم السياسة.

وهنا تذكّر هانز كاستورب لودوفيكو سيتيمبريني، وتخضب وجهه بالإحمرار، كما حصل له حين ولج الإيطالي حجرة التمريض الخاصة به وأشعل النور. هانز كاستورب ربما طرح عليه ألغازه الميتافيزيقية، سواء بطريقة تعبّر عن التحدي أو بروح ميالة الى الإنتقاد، من دون أي توقع جاد لجواب من الإنساني، الذي كانت همومه وشجونه كلها، بالطبع، تعود لهذه الأرض. لكن منذ إبتهاجات الكرنفال، والخروج مشبوب العاطفة لـ سيتيمبريني من حجرة الموسيقى، ساد بينهما فتور، يرجع الى وخز الضمير من جانب هانز كاستورب، ومن جانب الآخر الى الجرح العميق الذي تعرّض له كبرياؤه التعليمي. تحاشى كل منهما الآخر، وطوال أسابيع عدة لم يتبادلا كلمة واحدة. في عينيّ شخص ذي رؤية مفادها ان الروادع الأخلاقية كلها تكمن في الفكر والفضيلة، هانز كاستورب لا بد انه كف عن كونه «طفل الحياة الرقيق»؛ السيد سيتيمبريني لا بد انه الآن تخلى عنه بدلاً من أن يفقده. الشاب قسى قلبه، كان يعبس ويبرز شفتيه حين يلتقيان، وكانت النظرة المتوهجة بنحو مكفهر للإيطالي تستقر عليه بتوبيخ صامت. غير ان امتعاضه تلاشى في الحال. المرة الأولى التي تحدث فيها السيد سيتيمبريني إليه، كما أسلفنا، حدثت بعد أسابيع من الصمت. مع ذلك، كان حديثاً عابراً، وبهيئة تلميح تقليدي، إذا ما أردنا فهمه نحتاج الى بعض التدريب في الثقافة الغربية. إلتقيا، بعد الغداء، في الباب الزجاج ـ ذلك الباب الذي لا أحد الآن يشعر

بالذنب جراء غلقه بقوة. سيتيمبريني باغت الشاب، وخلال السماح له بالمرور، قال: «حسن، أيها المهندس، وكيف إستمتعت بالرمان؟»

ابتسم هانز كاستورب، ممتلئاً بالبهجة ولكن بارتباك. أجاب: «لم أفهم تماماً، سيد سيتيمبريني. هل كان بحوزتنا ثمار الرمان؟ لا أذكر انني ذقتها ـ أوه، نعم، مرة في حياتي شربتُ عصير الرمان مع الصودا؛ كان شديد الحلاوة.»

الإيطالي، الذي كان قد أصبح قبل الآن أمامه، أدار رأسه ليقول: «الآلهة والموتى عُرِفوا بأنهم يزورون العالم السفلي ويجدون طريقهم في العودة ثانيةً. لكن في تلك المملكة يعرفون ان الذي يتذوق ثمارها مرة واحدة ينتمي إليهم.»

مرَّ، بسرواله ذي المربعات الأبدي، وترك هانز كاستورب وراءه. على الأرجح، فإن الشاب ذُهِل إلى حد ما بفعل هذه الإشارات الضمنية، مع انه كان قد أُستثير الى درجة السخط كونها عدت صحيحة، وتمتم من خلال أسنانه خلف الظهر المغادر: «كاردوتشي ـ لاتيني ـ هيوماني ـ سباغيتي ـ إذهب واتركني في سلام!»

مع ذلك كان في الحقيقة سعيداً سعادة صادقة كون الصمت قد تكسّر. ذلك انه على الرغم من تذكاره، الميدالية المروعة التي كان يلبسها قريباً من قلبه، إتكل على السيد سيتيمبريني، عوّل كثيراً على شخصيته وآرائه؛ وان فكرة كونه قد تخلص منه كانت تُشكّل عبئاً على روحه أثقل من ذلك الشعور الصبياني المتذكر المتعلق بتفوق الآخرين عليه في المدرسة، وان لا يُحسب حسابه بعد الآن، المتعلق باستمتاعه، مثل السيد ألبين، بالحسنات اللانهائية لحالته المخزية. على أية حال، لم تواتيه الجرأة كي يخاطب معلمه؛ الذي، بدوره، جعل الأسابيع تنقضي قبل أن يقترب ثانيةً من «الطفل الرقيق» خاصته.

أوقيانوس الزمن، تموّج قُدُماً بإيقاع رتيب، حمل موسم عيد الفصح على موجاته العظام. ولاحظوا هم الموسم عند مصح بيرغهوف، كما فعلوا باستمرار طوال كل الأعياد الدينية السنوية التي تتكرر دورياً، بوساطة قطع استمرارية المديات الزمنية الطويلة، وربطها ببعضها. في الفطور المبكر كانت

هناك باقة صغيرة من زهر البنفسج عند كل مكان؛ في الفطور الثاني كل نزيل كانت له بيضة ملونة، بينما زينت الأرانب البرية المصنوعة من السكر والشوكولاته مائدة منتصف النهار وجعلتها مهرجانية.

«هل سبق لك أن قمت برحلة بحرية في باخرة، أيها الملازم؟ أو أنت، أيها المهندس؟» سأل السيد سيتيمبريني، متمشياً الى مائدة ابني الخالتين، فيما عود نبش الأسنان في فمه. معظم النزلاء كانوا يقصرون مدة الإستراحة ـ العلاج الرئيسة إجلالاً لليوم، وخصصوا ربع ساعة للقهوة والكونياك. «هذه الأرانب والبيضات الملوّنات تذكّرني بعض الشيء بالحياة على متن زورق عظيم للسفر عبر المحيطات، حيث تحدق الى القفر المالح والأفق العاري طوال أسابيع بلا إنقطاع، وحتى الراحة المبالَغ بها للحياة نادراً ما تنفع في جعلك تنسى مخاطرها، وعيها الخفي يستمر بالنخر في أعماق كينونتك. ما زلتُ أذكر الروح التي شاهد بها ركاب فُلك كهذا، بورع، أعياد اليابسة: كانت لهم أفكار عن العالم الخارجي، كانوا حساسين نحو التقويم. على الساحل سيكون اليوم عيد الفصح، يقولون؛ أو اليوم يحتفلون بعيد ميلاد المسيح[٢] ـ وسوف نحتفل نحن أيضاً، بأفضل صورة ممكنة. نحن بشر أيضاً. أليست تلك هي الفكرة؟»

أذعن ابنا الخالتين. كان الأمر كذلك بالضبط. تأثر هانز كاستورب كونه خوطب مرةً أخرى، ومحفزاً من قبل ضميره، مدح كلمات السيد سيتيمبريني بنبرات رنانة، تلفظها بشكل بارز، قال يا لها من كلمات مفعمة بالحيوية، يا لها من لغة ثرية لأديب. لا يستطيع أن يقول المزيد عنها. لا ريب، مع انه بصورة سطحية فقط، كما لاحظ السيد سيتيمبريني، بطريقته المطواعة، الراحة على ظهر باخرة تمخر عباب المحيط تجعل المرء ينسى عنصر الخطورة في الظروف. لو كان قد تجرأ ليضيف شيئاً ما، فسوف يقول ان هذه الراحة تسبب أيضاً نوعاً من الطيش غواية القدر، التي أسماها الكتّاب الكلاسيكيون القدامى ـ ولكي يسر مستمعه إقتبس من الكلاسيكيات ـ غطرسة

(٢) المسيح: ورد في النص الإنجليزي تعبير The King ـ المترجم.

بلشازار[٣] ملك بابل، وما شاكل. باختصار، إقتربت من كونها كافرة. مع ذلك، من الناحية الثانية، ترف مركب مسافر عبر المحيطات يتضمن (!) إنتصاراً فخماً للروح الإنسانية، انه شرف للجنس البشري، أن نضع كل هذه الراحة والترف فوق زبد البحر المالح وأن نبقيها هناك ـ الإنسان هكذا يضع قدمه بشجاعة، إذا جاز التعبير، على قوى الطبيعة، مسيطراً على العناصر البدائية؛ وذلك يتضمن(!) إنتصار الحضارة على الهيولى ـ إذا كان حراً تماماً كي يستخدم تعبيراً موجزاً كهذا.

السيد سيتيمبريني أصغى بانتباه، الساقان والذراعان متصالبتان، بعود نبش الأسنان ضرب برقة شاربيه المتهدلين.

«انه شيء لافت»، قال. «الإنسان لا يقدر أن يضع أحكاماً عامة بأي مدى، في أي موضوع، من دون أن يكشف خططه الحقيقية، من دون أن يُظهر شخصيته الكاملة، ويقدّم، كما لو في إستعارة، الموضوع الجوهري ومسألة وجوده الخاص. هذا، أيها المهندس، هو الذي فعلتَه الآن. كل ما قلتَه الآن جاء من أعمق أعماق شخصيتك؛ حتى المرحلة الحالية التي وصلتَ إليها وجدت هناك تعبيراً شاعرياً، وأظهرت نفسها كونها ما تزال تجريبية ـ»

«placet experiri»، قال هانز كاستورب، مع حرف (c) الإيطالي، قهقه وأحنى رأسه.

«يقيناً ـ إذا كان ما أُستخدم ليس طيشاً وحياةً خليعةً، بل هو مجرد شغف جدير بالاحترام لإستكشاف الكون. تحدثتَ عن الغطرسة، تلك هي الكلمة التي إستخدمتَها. الغطرسة التي يقاوم بها العقل قوى الظلام هي أسمى تعبير إنساني، ويستنزل عليها الإنتقام السريع للآلهة الحسودين ـ كما يحصل عندما، في سبيل المثال، يغرق فُلك ممتاز كهذا ويغوص بفخامة تحت الأمواج. هذه هزيمة مشرفة. بروميثيوس أيضاً كان متهماً بـ (الغطرسة) ـ

(٣) بلشازار Belshazzar: ابن آخر امبراطور بابلي. في مأدبةٍ كبرى رأى «كتابةً على الجدار» تخبره بمصيره ومصير بابل. في تلك الليلة استولى سيروس على المدينة العام ٥٣٩ق.م ـ المترجم.

وكان عذابه على الجروف (جمع جُرف) السكيثية من وجهة نظرنا عذاباً رهيباً. لكن ماذا عن النوع الآخر من (الغطرسة)، الذي يفنى في مستهتر عابث مع قوى اللاعقل والعداء للجنس البشري؟ هل يكون هذا ـ هل يستطيع أن يكون ـ مشرِّفاً «نعم أم لا؟»

حرك هانز كاستورب كوب قهوته حركة قليلة، مع انه لم يكن فيه شيء.

«أيها المهندس، أيها المهندس»، قال الإيطالي، نكس رأسه بتأمل، عيناه السوداوان مثبتتان في الفضاء، «ألا تخاف الإعصار المصحوب بمطر ورعد وبرق، الذي هو الدائرة الثانية في الجحيم، الذي يدوّم ويسوط الآثمين بسبب الجسد، أولئك الضالين التعساء الذين ضحوا بعقولهم من أجل ملذاتهم الحسية! يا ستار! حين تخيلتك، ترفرف هنا وهناك في العاصفة، رأساً على عقب كاد يغمى عليّ من الأسف الصرف، وسقطتُ [كما تسقط الجثة].»

ضحكا، كان فرحاً لأنه يُسره أن يضحك ويتكلم الشعر. بيد ان سيتيمبريني أضاف قائلاً: «أتذكر، أيها المهندس، مساء ثلاثاء المرفع، حين كنتَ جالساً الى خمرك، غادرتني ـ نعم، بطريقةٍ ما، وصل الأمر الى ذلك الحد. حسن، اليوم جاء دوري. أيها النبيلان، إنكما تشاهدانني وأنا أقوم بدور توديعكما. أنا راحل عن مؤسسة بيرغهوف.»

كان ابنا الخالتين مشدوهين.

«مستحيل! أنت تمزح»، صاح هانز كاستورب، كما صاح من قبل، في مناسبة مشابهة. جفل الآن بالقدر نفسه الذي جفل فيه يومذاك.

أجاب سيتيمبريني، بدوره: «أبداً. كما قلت لكما. الأكثر من ذلك، الأنباء بالنسبة لكما يجب ألا تكون أنباءً. مرةً شرحتُ لكما انني في اللحظة التي أعي فيها ان أمنيتي في التطلع الى عودةٍ ما الى عملي في غضون أي زمن معقول، هذه الأمنية لن أعود قادراً على الإحتفاظ بها، في تلك اللحظة، أكون قد قررتُ نهائياً أن أقوّض خيمتي، بقدر تعلق الأمر بهذه المؤسسة، وأن أفتش في القرية عن مأوى دائمي. حسن ـ اللحظة حانت. لا أستطيع أن أشفى، هكذا قررتُ. بوسعي أن أطيل أيامي، لكن فقط هنا في الأعالي. عقوبتي الأخيرة هذه طوال الحياة ـ هوفرات بيرنز بحيويته المألوفة كان قد

أعلن هلاكي. جيد جداً، كنتُ قد إستنتجتُ الإستنتاج المحتوم. إتخذتُ مسكناً جديداً، وأنا على وشك أن أنقل الى هناك ممتلكاتي الدنيوية الصغيرة، وأدوات صنعتي الأدبية. هو لا يبعد كثيراً عن هذا المكان، يقع في الدورف؛ سنرى يقيناً أحدنا الآخر، بالتأكيد لن تغيبا عن ناظريّ، إنما بصفتي زميلاً ـ نزيلاً في هذه المؤسسة لي الشرف أن أودعكما.»

هكذا كان الإبلاغ الذي قام به سيتيمبريني، في أحد عيد الفصح ذاك. كل من إبني الخالتين أظهر نفسه قلقاً جداً. كانا قد تكلما بتفصيل تام وبصورة متكررة معه، في موضوع قراره، وكذلك كيف سيؤدي خدمة العلاج حتى بعد مغادرته لمصح بيرغهوف؛ وفي أخذه مهمته الموسوعية العظمى معه واستمراره فيها، تلك المسؤولية التي وضعها نصب عينيه، ذلك المسح لتحف الأدب الرفيع، من وجهة نظر المعاناة البشرية وإزالتها؛ أخيراً تكلما عن سكن السيد سيتيمبريني المستقبلي، في منزل «شمّاع صغير»، كما دعاه الإيطالي. بائع الشموع، كما إتضح، أجرَّ الأدوار العليا لخياط ثياب نسائية من إقليم بوهيميا، كان بدوره يؤجر المساكن. والآن هذه الترتيبات كلها أمست في الماضي. الزمن تحرك باستمرار الى أمام، وأتى بأكثر من تغيير في قطاره. سيتيمبريني لم يعد يسكن في مصح بيرغهوف، إتخذ إقامته مع لوكاشيك، خياط الألبسة النسائية ـ وهذا الواقع حدث منذ بضعة أسابيع خلت. لم يخرج من المصح في مركبة جليد، بل راجلاً، مرتدياً معطفاً قصيراً أصفر اللون، مزيناً بشكل متناثر بالفرو عند الياقة والرسغين، يرافقه رجل يدحرج الأمتعة الدنيوية والأدبية للإنساني على شاحنة يدوية. قرص إحدى فتيات حجرة الطعام في خدها بقفا إصبعين من أصابعه، وذهب في الطريق الخاص، مؤرجحاً عصاه ـ شاهداه وهو يغادر. هذا، كما أسلفنا، كان قد جرى في وقت متقدم من نيسان (ابريل)، ثلاثة أرباع الشهر أمست في الماضي. ما يزال الوقت في معمعان الشتاء ـ في حجرتي نومهما سجل مقياس الحرارة درجة لا تزيد على الأربعين فهرنهايت؛ في الخارج كانت هناك خمس عشرة درجة من الصقيع، وإذا ترك إنسان ما محبرته في الشرفة فسوف تتجمد ليلاً الى كتلة ثلجية، أشبه بقطعة فحم. مع ذلك يعرف المرء

ان الربيع قريب. كانت ثمة أيام أشرقت فيها الشمس، يشعر المرء بوجودها الرقيق في الهواء. ذوبان الثلوج بات وشيكاً، وسوف يجلب معه حتماً التغييرات لمصح بيرغهوف ـ على الرغم من سلطة هوفرات بيرنز، على الرغم من كل ما يستطيع قوله، في ردهة الطعام، وحجرة النوم، عند كل وجبة طعام، في كل زيارة، في كل فحص، مقاوماً بعنف التحيز السائد ضد الموسم.

هل كانوا، سأل، هنا في الأعالي من أجل الألعاب الرياضية الشتوية، أم انهم مرضى؟ وإذا كانوا من الصنف الأخير فما نفع الثلج والجليد لهم؟ هل يوجد في بالهم انطباع شخصي بأن الثلج الذائب زمن سيء لهم لأن يكونوا هنا؟ هراءـ انه أفضل الأوقات جميعاً! بمستطاعه أن يريهم ان ثمة عدداً أقل من طريحي الفراش، في الوادي كله، في هذا الوقت مقارنة مع أي وقت آخر من السنة. وليس ثمة بقعة في العالم مؤاتية لمرضى الرئة في هذا الموسم أكثر من البقعة التي هم فيها، أي شخص عنده ذرة من الإحساس سوف يبقى هنا، ويفيد نفسه من عملية التقسية التي يقدمها هذا المناخ. ثم، شريطة أن يبقوا طوال مدتهم المحددة، سيبلون من مرضهم كلياً، متينين بإزاء أيّ قسوة لأي مناخ في العالم. وهلم جرا. إلا ان التحيز يبقى في مكانه، دعه يقل ما يشاء. مصح بيرغهوف أُفرغ. أغلب الظن انه الربيع الداني الذي تغلغل الى عظامهم وأقلق حتى أكثر الأحداث رسوخاً، لكن على الرغم من كل شيء، عدد المغادرات «المتهورة» غير المرخصة من مؤسسة بيرغهوف إزدادت الى أن شارف الوضع على مرحلة حرجة. السيدة سالومون من امستردام، مثلا، على الرغم من سرورها البالغ من عرضها ملابسها الداخلية المصنوعة من الدانتيلا في أثناء الفحوصات، على الرغم من الحقيقة القائلة بأنها لم تكن تتحسن، بل باتت حالتها المرضية تسوء باستمرار، رحلت نهائياً وبصورة لا شرعية الى الأرض المنبسطة. كانت إقامتها المؤقتة في الوادي تمتد الى حقبة زمنية أسبق بكثير من إقامة هانز كاستورب؛ كانت قد أُدخلت منذ أكثر من عام شاكية من ضعف طفيف لا غير، وصفت لها كعلاج إقامة أمدها ثلاثة شهور. بعد مرور أربعة شهور قيل انها ستحتاج ستة أسابيع أخرى

لتكون سليمة تماماً. لكن عند نهاية ذلك الوقت لم يُسمع كلام عن الشفاء؛ ينبغي لها أن تمكث أربعة أشهر أخرى في الأقل. وهكذا إستمر الحال: يقيناً ان هذا المكان ليس سجناً، وليس مستعمرة عقاب سيبيرية؛ السيدة سالومون بقيت، وكشفت ملابسها الداخلية الجميلة. إنما الآن، بينما تذوب الثلوج، وصفت لها، عند فحصها، ستة شهور أخرى، بسبب أصوات الصفير في الجزء العلوي من الرئة اليسرى، وضجيج واضح تحت لوح الكتف الأيسر، صبرها بلغ نهايته فجأةً، ورحلت الى امستردامها الرطبة والمذروة بالرياح، متفوّهةً بالذم ضد دورف وبلاتز، الطقس ذي الشهرة الواسعة، مصح بيرغهوف العالمي. هل أحسنت صنعاً؟

هوفرات بيرنز رفع كتفيه وذراعيه، وجعل الأخيرتين تسقطان مع صفعة على جنبيه. وفي وقت متأخر، قال، السيدة سالومون ستعود من جديد في الخريف ـ ونهائياً. سنكون قادرين على أن نختبر حقيقة نبوءته، فقد كُتب علينا أن نقضي مع ذلك زمناً دنيوياً أكثر في ملاذ المتعة هذا. غير ان حالة سالومون بعيدة كل البُعد عن كونها فريدة في نوعها. الزمن يجلب تغييرات كثيرة. الزمن يفعل ذلك دائماً ـ لكن بشكل تدريجي أكثر، بحسب النظام، وليس بصورة لافتة جداً. كانت هناك فجوات عند الموائد السبع، عند المائدة الروسية «الجيدة» فضلاً عن «السيئة»، وعند تلك الواقفة بالعرض بالنسبة للغرفة. ليس هذا وحده الذي يعطي صورةً دقيقةً أو جيدةً للوضع؛ إذ كان هناك دوماً واصلون، وكذلك راحلون، ربما تكون حجرات النوم مشغولة بالكامل ـ مع انه يوجد شخص يتعامل مع المرضى الذين وضعت حالاتهم المرضية أخيراً حداً لممارستهم أي عملية اختيار في المسألة. الفجوات في حجرات الطعام كانت تُعزى جزئياً الى ممارسة الإختيار، غير ان بعضها إنفغرت بإسلوب مكتوم بنحو خاص ـ كما هو الحال، مثلاً، مع الدكتور بلومينكول ـ أمسى هو في عداد الأموات. ذلك التعبير الذي كان يلوح على وجهه، كما لو ان شيئاً سيء الطعم في فمه، أمسى واضحاً أكثر فأكثر. بعدها أصبح طريح الفراش بصورة دائمة. ومن ثم لفظ أنفاسه الأخيرة ـ لا أحد يعرف على وجه الدقة متى، قضيته رُتبت بطريقة نظامية وبذوق ورقّة

مألوفين. فجوة. السيدة شتور جلست جنبها ـ جعلتها ترتجف، لذا إنتقلت الى الجانب الآخر من يواكيم زيمسين، في مكان الآنسة روبنسون التي أُخرجت مشافاة، وقبالة مدرسة الثانوية، جارة هانز كاستورب، التي ما تزال مخلصة لموقعها. كانت الأخيرة جالسةً، حالياً، وحدها في جهتها من المائدة، ذلك ان الأمكنة الثلاثة الأخرى كانت خالية. الطالب راسموسين أصبح شيئاً فشيئاً أكثر نحافة وأكثر ضعفاً، هو الآن طريح الفراش، ولعله هالك. خالة الأم وحفيدة أختها وماروسيا ذات الصدر الممتلئ، ذهبن في رحلة ـ تلك هي الطريقة المألوفة في الصياغة، لأن الجميع كانوا يعرفون انهن سيرجعن ثانيةً. سيرجعن يقيناً عند حلول الخريف، لذا يصعب عليك القول انهن غادرن. انقلاب الشمس الصيفي ـ ما إن مضى اسبوع العنصرة ـ إنتصب أمامهم مباشرةً؛ وبعد أطول يوم في السنة يذهبون الى سفح التلة فجأة، نحو الشتاء. في هذه الحالة تكون خالة الأم وماروسيا قد أحسنتا صنعاً حين عادتا ثانية ـ الأمر الذي توجب حصوله، ذلك ان ماروسيا المفعمة بالحيوية كانت بعيدة كل البُعد عن كونها معافاة، ومُدرسة الثانوية كانت تعرف بشكل أكيد ان صاحبة العينين البنيتين لها تقرّحات سُليّة في صدرها المنتفخ، الأمر الذي تطلب غير مرة إجراء عملية جراحية. هانز كاستورب، كما قالت الآنسة إنجيلهارت هذا، أرسل نظرة سريعة الى يواكيم المنحني بمثابرة على طبقه ووجهه أمسى مرقشاً بكل ما في الكلمة من معنى.

خالة الأم النابضة بالحيوية منحت زملاء مائدتها عشاء الوداع في المطعم، الذي دعت إليه إبني الخالتين، السيدة شتور والآنسة إنجيلهارت ـ مأدبة مناسبة، مع الكافيار، الشمبانيا، والمشروبات المسكرة المعطرة. كان يواكيم صموتاً جداً، الواقع أنه لم يتكلم سوى مرة أو مرتين، وكذلك بصوت لا يكاد يعلو على الهمس؛ بحيث ان السيدة العجوز، في تفجر إنفعالي شديد، حاولت أن تدخل السرور الى قلبه، بل مضت شوطاً بعيداً، بحيث نحت جانباً كل الصيغ المقبولة وخاطبته بـ (أنتَ). «لا بأس، أيها الأب الصغير، إبتهج، كُلْ، اشرب، وكن مرحاً. سنعود من جديد»، قالت. «لنأكل كلنا، ونشرب، ونكون مرحين، وننصرف، عناية سيئة! الله سوف

يبعث الخريف في الوقت المناسب له[٤]، قبل أن يتسنى لنا معرفة ذلك ـ فعلامَ الحزن والكدر؟» في الصباح التالي قدمت لنصف حجرة الطعام علباً زاهية الألوان من المربى وغادرت مع وديعتيها في نزهتهن الصغيرة.

ويواكيم؟ هل وجد الأشياء أسهل، نظراً لذلك؟ أم انه عانى من كرب الخواء الداخلي بسبب الأمكنة الشاغرة عند مائدة الطعام؟ نزقه النادر، تهديداته في القيام برحيل غير مبرأ من الخطيئة، هل كانت هذه كلها ذوات صلة مع رحيل ماروسيا؟ أم انه، من الناحية الثانية، لن يغادر، بل أعار أذناً صاغيةً لحقيقة هوفرات المتعلقة بالثلوج الذائبة ـ هل كانت تلك حقيقة مرتبطة بشكلٍ من الأشكال مع واقعة ان ماروسيا ذات الصدر الممتلئ لم تذهب الى الأبد بل فقط في رحلة، وانها ستعود من جديد في غضون خمسٍ من أصغر الوحدات الزمنية بالنسبة لمؤسسة بيرغهوف؟ آ، نعم، كلاهما حقيقي، هذا وذاك، كما أدرك هانز كاستورب، من دون أن يتبادل مع يواكيم مقطعاً لفظياً واحداً في هذا الموضوع ـ حيث كان شديد الحرص كي يحجم عن فعل ذلك شأنه في ذلك شأن ابن خالته، الذي تجنب من ناحيته ذكر شخص آخر غادر مؤخراً في رحلة قصيرة الأمد.

في غضون ذلك، مَنْ الذي جلس الى مائدة سيتيمبريني، في المكان الذي تركه الإيطالي خالياً وفي صحبة رجال هولنديين كانت تستحوذ عليهم شهيات هائلة للطعام، بحيث انهم يومياً، قبل غداء بيرغهوف ذي الألوان الخمسة من الطعام، حتى قبل الحساء، كل واحد منهم كان يطلب ويأكل ثلاث بيضات مقلية؟ مَنْ، نقول، غير انطون كارلوفيتش فيرجه، الشخص نفسه الذي جرّبَ العذاب الجهنمي لصدمة غشاء الجنب! نعم السيد فيرجه كان خارج الفراش. من دون مساعدة الإسترواح الصدري كان قد تحسن تحسناً ملحوظاً بحيث كان قادراً على أن يمضي معظم سحابة يومه مستيقظاً ومرتدياً ثيابه، وكذلك يحضر وجبات طعام مصح بيرغهوف، بشاربيه الكثين البهيجين، وتفاحته الآدمية المتضخمة، البهيجة أيضاً. إبنا الخالتين تحدثا معه

---

(٤) الهاء في (له) تعود الى (الله) وليس (الخريف) ـ المترجم.

من غير كلفة غالباً، في حجرة الطعام أو الصالون، أو حتى أمالا فؤاديهما على ذلك المعذب البسيط، وأخذاه معهما في النزهات اليومية الراجلة. كان الحديث الرفيع فوق فهمه؛ ولكن في حدود فهمه كان بمستطاعه أن يتحدث بصورة مقبولةٍ تماماً عن صنع الكالوشات، وعن الأجزاء البعيدة للإمبراطورية الروسية، سمرقند، جيورجيا وهلمَّ جرا، بينما كانوا يتهادون عبر الوحل لين القوام والضباب.

ذلك ان الطرق نادراً ما كانت سالكة. كانت مبخرة بالماء وعابقة بالضباب. هوفرات، قال انه ليس ضباباً بل هو مجرد غيم؛ إنما في رأي هانز كاستورب كان هذا مراوغة. الربيع قاتل قتالاً مريراً، مع مائة عقبة في معمعان الشتاء؛ المعركة استمرت طوال شهور عدة، حتى وقت جيد من حزيران (يونيو). كانت هناك أوقات في آذار (مارس) الحرارة فيها تقريباً لا تُطاق؛ حين يستلقي المرء، بأخف الثياب، في كرسي الإستلقاء في الشرفة، مع المظلة الخفيفة الصغيرة المنتصبة لتحميه من أشعة الشمس. في تلك الأيام بعض السيدات كن يسمن من أجل الصيف، ويكسون أنفسهن بثياب الموصلين(٥) من أجل الفطور المبكر ـ بنحو ممكن إغتفاره، أغلب الظن، بسبب تفرد الطقس هنا في الأعالي، الذي كان مؤاتياً للتوهم بسبب المناخ، مازجاً، إذا صح التعبير، الفصول كلها معاً. مع ذلك لم يكن تحسّبهنَّ للمستقبل سوى قلة تبصّر على أية حال، كاشفاً ندرة التخيل، والبلاهة التي لا تستطيع أن تدرك شيئاً وراء اللحظة الحالية؛ بل الأكثر من ذلك كانت هي طمعاً من أجل التغيير، ضجراً ونفاد صبر يبددان الزمن. كان الوقت آذار (مارس) بحسب التقويم، لهذا كان ربيعاً، وهو يعني في الواقع فصل الصيف؛ وسحبن ثيابهن الصيفية، كي يظهرن بها قبل أن يفاجئهن الخريف. الأمر الذي حدث فعلاً. مع نيسان (ابريل)، بدأ مناخ بارد رطب، غائم. نوبة طويلة من المطر تحولت أخيراً الى تساقطات قصيرة الأجل من الثلج الخفيف الطازج. الأصابع تيبست في الشرفة، بطانيتا وبر الجمل دُعيتا الى الخدمة،

(٥) الموصلين muslin: نسيج قطني ناعم ـ المترجم.

لم تكنْ هناك حاجة ماسة الى لبس كيس النوم المصنوع من الفراء من جديد، الإدارة أجبرت نفسها على أن تشعل التدفئة، وفي كل مكان تُسمع المكابدات المريرة ـ الربيع خدعهم. قرب نهاية الشهر غاص الوادي في الثلج؛ لكنه ذاب بعدئذ، كما تنبأ بعض النزلاء ممن كانوا متمرسين أو حساسين للمناخ: السيدة شتور، ليوي العاجية، غير ان الأرملة هيسينفيلد، شمت ذلك وشعرت به في الوقت نفسه، قبل ان تظهر أصغر السحب طراً نفسها فوق قمة البنية الجرانيتية جنوباً. السيدة هيسينفيلد أُصيبت بمغص، الآنسة ليوي أصبحت طريحة الفراش، والسيدة شتور ساحبةً شفتيها خلف أسنانها الشبيهة بأسنان الفأر يبدو على أساريرها تعبيرها الغليظ، كل يوم وكل ساعة تعبّر عن خوفها الخرافي من النزف ـ فقد أُشيع كلام مفاده ان ذوبان الجليد يسبب حالات النزف، أو في الأقل يسهلها. أمسى الطقس دافئاً بصورة لا تصدق. أُطفئتْ التدفئة، أبواب الشرفات تُركت مفتوحة طول الليل، ومع ذلك ظلت الحرارة صباحاً فوق درجة الخمسين فهرنهايت. ذاب الثلج بسرعة، إستحال رمادي اللون، أمسى مسامياً ومنقوعاً، الركامات إنكمشت، وبدت وكأنها تغوص في الأرض. خارجاً، في كل الأنحاء، كان هناك قرقرة، جريان هزيل رقيق ورشح. الأشجار قطرت، كتلها الثلجية إنزلقتْ عنها؛ الحواجز المجروفة في الشوارع، الطبقات الشاحبة التي تكسو المروج بالسجاد، تلاشت عن الأنظار بالطريقة نفسها، مع انها لم تختفِ في وقت واحد، فقد أُثقلت جداً بسبب ذلك. بعدئذ يا لها من تباشر محببة للربيع تلك التي أظهرت نفسها! لم يُسمع عنها، وهي فائقة الجمال والسحر. هناك تتمدد المروج الفسيحة، مع القمة الشبيهة بالمخروط لـ شوارزهورن التي تشمخ في الخلفية، ما تزال مكسوةً بالثلج، وبالقرب منها إلى جهة اليمين النهر المتجمد المدفون بالثلج سكاليتا. المنظر المألوف للمرعى وكومة التبن ما زالا مكسوين بطبقة خفيفة وهزيلة من الثلج، بحيث انه في كل مكان ظهرت رقع عارية من الأرض الداكنة أو النخيل الجاف الذي إقتحم طبقة الثلج. مع ذلك على أية حال، وجده إبنا الخالتين نوعاً من الثلج مثيراً للفضول! سميكاً في البُعد، في المنطقة المجاورة للمنحدرات المشجرة، ولكن في الطليعة كان هناك مجرد نثار

متفرق في أقصى الحالات؛ مديات من النجيل حائل اللون المقتول بالشتاء كانت منقطة أو مزينة بما يشبه العساليج بالبياض. نظرا عن كثب، إنحنيا الى الأسفل مندهشين ـ لم يكن ثلجاً، بل كانت أزاهيراً: أزاهير الثلج، ثلج الأزاهير، كؤوس قصيرة السيقان من اللونين الأبيض والأزرق شديد الشحوب. كانت تلك أزهار الزعفران، لا غير، إنبجست بالملايين من قاع المرج المشبع بالماء، كثيفة جداً بحيث ان المرء حقيقةً يخلط بينها وبين الثلج الذي إندمجتْ معه.

ابتسم ابنا الخالتين على الخدعة، وتعبيراً عن السعادة الناجمة عن المعجزة التي أمام أعينهما ـ على الانتحال الهياب والمحبب الى القلب للتلوّن الوقائي، إذا صح التعبير، من جانب هذه الأنشطة الأولى الخجولة المتكررة للحياة العضوية. قطفا بعض الأزهار، درسا تركيب كؤوسها الفاتنة، ودرسا الأزاهير في فتحات الأزرار، حملاها في الطريق الى المؤسسة ووضعاها في كؤوس على حامليهما؛ ذلك ان البلادة القاتلة للشتاء إستمرت مدةً طويلةً في الواقع ـ مهما بدت قصيرة.

بيد ان ذلك الثلج المزهر غُطي عاجلاً بالأزاهير الحقيقية؛ وحتى الـ soldanellas الزرق وزهور الربيع الحمر والصفر التي إستمرت من غير انقطاع عانت من القدر نفسه. أيّ قتال هذا، ينبغي على الربيع أن يشنه هنا في الأعالي، قبل أن يتغلب في خاتمة المطاف! كان قد دُفع الى الوراء بقوة عشر مرات قبل أن يحصل على موطئ قدم ـ الى الوراء حيث البداية التالية للشتاء، مع الريح الباردة الى حد بعيد، تساقطات الثلج الخفيف، والمؤسسة المدفأة. في مطلع أيار (مايو) ـ إذ بينما كنا نتحدث عن أزهار الزعفران، كان نيسان (ابريل) قد إندمج مع أيار (مايو) ـ انه عذاب حقيقي أن نكتب كثيراً جداً كما لو اننا نكتب بطاقة بريدية بينما نحن جالسون في الشرفة، الأصابع متيبسة جداً، في الجو البارد النوفمبري. الأشجار الظلية الأربع أو الخمس في البلاتز كانت جرداء كما لو أنه كانون الثاني (يناير) في أحد الوديان. أمطرت طوال أيام بلا إنقطاع، طوال اسبوع كامل. فقط الجودة المعادلة لذلك النوع من كرسي الإستلقاء المستخدم هنا في الأعالي وحدها التي تجعل محنة

الإستلقاء ساعات بوجه ندي ومتيبس، هنا في الخارج وسط السديم المدخن محتملةً. مع هذا إبان ذلك، سراً، مطر الربيع هو الذي هطل؛ والمزيد ثم المزيد، كلما استمر سقوطه مدةً أطول، يكشف ذاته بما هو. تحته ذاب الثلج تماماً، لم يعد ثمة بياض، فقط هنا وهناك كان ثمة أثر من اللون الرمادي الداكن ـ والآن، بعد طول انتظار، أخذت المروج تخضر!

يا لها من سعادة تلك، ويا لها من نعمة للعيون، بعد ذلك الكم الهائل من البياض! إنما هناك إخضرار آخر، يبز في رقته اللينة حتى لون النجيل الجديد، وذاك هو إخضرار براعم اللاركس[٦] الفتية. لم يستطع هانز كاستورب أن يحجم عن معانقتها بيده، أو أن يضرب خديه بها حين ينطلق في نزهاته الراجلة ـ نعومتها وطراوتها كانتا لا تُقاوَمان. «انها تقريباً تغري المرء كي يكون عالِم نبات»، قال لمرافقه. «انها حقيقة، أنا تقريباً أود أن أكون عالِماً طبيعياً، تعبيراً عن سعادتي الصرفة بإعادة إيقاظ الطبيعة، بعد شتاء كهذا هنا في الأعالي. يا رجل، تلك زهور الجنطيانا، التي تراها عالياً هناك على الجروف؛ وهذا نوع من البنفسج الأصفر الصغير ـ شيء ما لم آلفه من قبل. وهذه هي نباتات الحوذان، انها تبدو بالصورة ذاتها هناك في الأسفل، الرتبة المألوفة Ranunculacae: مركب، أتذكر، انه نبات فاتن بصورة خاصة، خنثوي، يمكنك رؤية الكثير من السُدادات (جمع سُدادة، وهو عضو الذكورة في الزهرة) والمدقات (جمع مدقة، أي عضو الأنوثة في الزهرة)، إن لم تخني الذاكرة. ينبغي لي فعلاً أن أبرز للنور مجلداً قديماً في علم النبات أو غيره، وان أحسّن معرفتي في هذا الحقل. ـ قبعتي، كم هو مفرح أن يستطيع المرء أن ينعم النظر في العالم!»

«سيكون الوضع أكثر من ذلك في حزيران»، قال يواكيم. «إن زمن الإزهار في هذه الأنحاء ذائع الصيت. لكنني نادراً ما فكرتُ انني سأكون هنا من أجله. ـ لعلها مستقاة من كروكوفسكي، فكرتك المتعلقة بدراسة علم النبات؟»

---

(٦) اللاركس Iarch: شجرة من الفصيلة الصنوبرية تدعى ايضاً الأرزية - المترجم.

كروكوفسكي؟ ما الذي جعله يقول ذلك؟ أوه، في الأرجح لأن الدكتور كروكوفسكي أعلن نفسه نباتياً في واحدة من محاضراته المتأخرة. نعم، سنكون على خطأ إذا ما إفترضنا ان ذلك بسبب ان الزمن أتى بتغييرات كثيرة عند مصح بيرغهوف، الدكتور كروكوفسكي لم يعد يعطي محاضراته. انه يعطيها كالسابق، مرة كل اسبوعين، مرتدياً سترته السوداء التي تبلغ الركبتين، مع انه لم يعد ينتعل الخفين، ذلك ان الأخيرين يلبسهما فقط في الصيف، وعاجلاً سيقوم بتقديمها من جديد: يعطي محاضراته يوم الإثنين بين أسبوع وأسبوع، في حجرة الطعام، كما في ذلك اليوم البعيد حين عاد هانز كاستورب متأخراً وملوثاً بالدم من نزهته الراجلة. طوال ثلاثة أرباع السنة حتى الآن كان المحلل النفساني قد أبدى رأيه في موضوع الحب والمرض. لم يُطل محاضراته كثيراً حتى ولو مرة واحدة، بدردشات صغيرة، تستغرق بين نصف الى ثلاثة أرباع الساعة، كان يوزع كنوز فهمه؛ ويكون للمرء انطباع شخصي انه ينبغي له ألا يكف عن ذلك، وان بوسعه أيضاً أن يستمر الى الأبد. انها ضرب من «تسلية ألف ليلة وليلة» تجري نصف شهرياً، تنسج نفسها ساعة تشاء، وبصورة مدروسة، مثل قصص شهرزاد، كي تشبع فضول أميرٍ من الأمراء، وكي تُصرف غضبه. موضوع الدكتور كروكوفسكي، بمداه غير المقيد، يذكِر المرء، حقيقة، بالإنجاز، الذي كرس له سيتيمبريني نفسه، المتعلق بموسوعة المعاناة. والمدى الذي وهبت له نقاط الانطلاق يمكن إدراكه من حقيقة ان المحاضر تطرق مؤخراً الى علم النبات ـ ولكي نكون دقيقين، الى الفطر. لكنه أغلب الظن غيّر موضوعه تغييراً طفيفاً الآن. انه حالياً يناقش الحب والموت؛ مستغلا الفرصة المناسبة لملاحظات هي جزئياً شاعرية بطبيعتها، وجزئياً علمية بصورة لا ترحم. وهكذا كان، بهذا الصدد، النبيلان المتعلمان يتكلمان بتشدقه، إيقاع (شرقي) نموذجي، وحرف الراء الذي غمغم به برقة، تطرقا الى موضوع علم النبات، أي، الى موضوع الفطر. كائنات أشكال الحياة العضوية المعزولة نسبياً، الخصبة، الشاذة هذه، ذوات طبيعة شهوية، وذوات علاقة قوية بالمملكة الحيوانية. ان نتاجات الأيض الحيواني مثل الزلال، الغلايكوجين، النشاء الحيواني، باختصار،

موجودة فيها. والدكتور كروكوفسكي استمر في حديثه عن نوع من الفُطر، ذائع الصيت في عِتقه الكلاسيكي ومنذ ذلك الحين، بسبب شكله والقوى المنسوبة إليه ـ فُطر في اسمه اللاتيني خطر بالبال النعت (فاسق) impudicus الذي بصيغته اللغوية يوحي بالغرام، برائحة الموت الخاصة به. ذلك انها حقيقة لافتة ان رائحة الـ (فاسق) هي تلك الخاصة بالتعفن الحيواني: انه ينشر تلك الرائحة حين يقطر السائل اللزج، المخضر، الحامل للجرثومة من سطحه الشبيه بالجرس. مع ذلك حتى اليوم، بين الجهلاء، الفطر يُعد شيئاً مثيراً للشهوة الجنسية.

هذا كله، وجده المحامي باراوانت، كريهاً بعض الشيء بالنسبة للسيدات. هو ما يزال هنا، كونه أصغى الى دعاية هوفرات، وتحمّل موسم الذوبان. بالطريقة نفسها السيدة شتور، التي أبدت قوة شخصية وقاومت بعنادٍ كل غواية بالرحيل المحظور، أظهرت نفسها عند المائدة قاصدة من وراء ذلك ان كروكوفسكي كان اليوم «مبهماً» بصورة لا تقبل الجدل، بفطره الكلاسيكي. قالت هي فعلاً «مبهماً»، المخلوقة المسكينة، وراحت ترتكب الغلطات البلهاء الواحدة تلو الأخرى.

غير ان ما أدهش هانز كاستورب هو ان ابن خالته أصر على ذكر الدكتور كروكوفسكي وتلميحاته النباتية، ذلك ان المحلل النفسي كان نادراً ما يُشار إليه بينهما مثل كلاوديا شوشا أو ماروسيا. باتفاقٍ مشترك كانا قد تجاوزا أساليبه وأعماله بصمت. إنما الآن يواكيم ذكره ـ مع انه فعل ذلك بنبرة سريعة الإنفعال. قوله، أيضاً، انه لن يكون هنا في الأعالي في موسم الإزهار. بدا منحرف المزاج بشكلٍ كبير. ابن الخالة الطيب بدا في طريقه الى أن يفقد توازنه. إرتعش صوته بالغضب حين تحدث، اللطف والإعتدال القديمان ولّيا الى الأبد وصارا شيئين من الماضي. ألأنه إفتقد عطر البرتقال؟ هل كانت الطريقة التي أرجؤوه فيها برقمه الغافكي هي التي قادته الى حافة اليأس؟ أم انه متردد بين رأيين فإما ينتظر حلول الخريف هنا في الأعالي أو يقرر الرحيل المحظور؟

فضلاً عن هذا كله، فقد كان هناك شيء منح صوت يواكيم ظلاً للغضب

وجعله يذكر المحاضرة النباتية الحديثة بإزدراء. هانز كاستورب لا يعرف هذا ـ أو بالأحرى لم يكنْ يعرف ان يواكيم يعرفه؛ فبالنسبة له هو، كان يعرفه جيداً، كان يعرف هذه الروح المغامرة، رضيع الحياة الرقيق هذا، طاعون المعلّم هذا! بإيجاز، أمسك يواكيم ابن خالته عند حيله ثانيةً، واكتشفه في صنوف أخرى من الخيانة، ليست عديمة الشبه بتلك الحيلة التي كان مذنباً بسببها في مساء الكرنفال، بل أمسى يملك ميزةً أكثر قوةً في هذه الحال، بحيث انه أمسى خبيراً فيها. في الرتابة الإيقاعية لجريان الزمن، في تمفصل الدقيقة، دقيقة اليوم الإعتيادي ـ ذلك اليوم الذي كان دوماً، حتى بالنسبة للتشوش واللهو، اليوم نفسه، أبديةً ثانية، لذا من الصعب أن يقول المرء كيف إستطاع أن يأتي بأي تغيير ـ في النظام الذي لا تنتهك حرمته، الذي لا يُخرق، نقول، ذلك اليوم، روتين زيارات الدكتور كروكوفسكي أخذه، كما في الأيام الخوالي، عبر الحجرات كلها، أو بالأحرى عبر الشرفات كلها، من الكرسي الى كرسي الاستلقاء، بين الثالثة والنصف حتى الرابعة عصراً. كم مرة جدد اليوم الإعتيادي لمصح بيرغهوف نفسه، منذ ذلك الزمن البعيد حين رقد هانز كاستورب ودمدم في قرارة نفسه لأن الدكتور كروكوفسكي رسم قوساً حوله وتركه جانباً! نزيل ذلك اليوم أمسى منذ زمن بعيد (الرفيق) ـ الدكتور كروكوفسكي كثيراً ما صار يخاطبه هكذا حين يقوم بجولاته على المرضى، وإذا كانت، كما قال هانز كاستورب الى يواكيم، الأفكار العسكرية المرافقة للكلمة مع التلفظ الغريب لحرف الراء، بدت بنحو فريد غير مناسبة في فمه، مع ذلك الكلمة نفسها غير منسجمة مع سلوكه النشيط والودي، الذي يستدعي الثقة. غير ان هذا ثانية، بدوره، يناقض سواده وشحوبه، بحيث كانت هناك هالة من الشكوك تغلّف الرجل.

«حسن، أيها الرفيق، وكيف تسير الأمور؟» يقول الطبيب، حين، آتياً من الروسيين البربريين، يقترب من جهة رأس كرسي إستلقاء هانز كاستورب. المريض، يداه مطويتان على صدره، يبتسم يومياً على اسلوب التخاطب المرح، يبتسم بسيماء ودية، ولو انها بالأحرى منزعجة، ناظراً الى أسنان الطبيب الصُفر، التي كانت مرئية خلال لحيته. «نمتَ جيداً جداً، صحيح؟»

يواصل كروكوفسكي حديثه. «منحني الحرارة نازل؟ صاعد، إيه؟ لا بأس، ستكون الحال جيدة قبل أن تقرر الزواج. يوماً سعيداً لك.» ويدخل شرفة يواكيم. ذلك ان جولات العصر هذه كانت مجرد «نظرة خاطفة عامة»، لا غير.

ولكن ذات مرة وبطريقة ما يلبث مدةً أطول بعض الشيء، واقفاً هناك عريض المنكبين وقوياً، وكذلك ببسمته الرجالية، متحدثاً مع الرفيق من غير كلفة في هذا وذاك من الأمور: المناخ، المغادرات المختلفة والواصلون الجدد، مزاج المريض، ما إذا كان جيداً أو سيئاً؛ بعض الأحيان يتحدث عن مسائله الشخصية، الأصل والتنبؤات المستقبلية ـ قبل أن يطلق صيغته الكلامية: «يوماً سعيداً لك»، ويذهب في حال سبيله. هانز كاستورب ينقل يديه الى ما وراء رأسه، ويرد على كل الأسئلة التي يوجهها إليه، باسماً بدوره. جرّب شعوراً قوياً بالغرابة، نعم، لكنه أجاب. تحدثا بنبراتٍ واطئة، بحيث ان يواكيم، على الرغم من الحقيقة القائلة ان الحاجز الزجاج كان يفصل بينهما الى النصف فقط، لم يكن قادراً على أن يكتشف ماذا قالا ـ الواقع، لم يبذل الأخير أدنى مجهود لكي يفعل ذلك. سمع ابن خالته ينهض عن كرسيه ويدخل الغرفة، ربما ليُري الطبيب منحني الحرارة خاصته؛ والحوار بدا مطولاً كثيراً داخل حجرة النوم، إذا أراد أن يحكم من خلال طول الوقت قبل أن يظهر المساعد، هذه المرة من الداخل، عبر غرفته.

عمَّ تحدّث الرفيقان؟ يواكيم لم يطرح السؤال. ولكن أحداً منا إذا فعل ذلك، فإن جواباً بالمصطلحات العامة ربما يكون وشيكاً، إذ ان هناك مسائل كثيرة تستأهل تبادل وجهات النظر حولها، بين رفيقين زميلين حين تكون لهما أفكار مشتركة، وأحدهما وصل نقطة إدراك مسألة الكون المادي في ضوء سقوط مفاجئ للروح، ونمو هالك فوقها، بينما الآخر، بصفته طبيباً، إعتاد أن يعالج الصفة الثانوية للمرض العضوي. نعم، كان هناك، ينبغي لنا القول، الكثير مما يمكن الحديث عنه، الكثير مما يمكن قوله في موضوع المادي كونه التعفن غير المشرّف لغير المادي، والحياة كونها قلة حياء المادة، أو ان المرض هو تجلٍ غير طاهر للحياة. متخذاً المحاضرات الحالية خلفيةً،

الحوار ربما ينتقل من موضوع الحب كقوةٍ تؤدي الى المرض، من الطبيعة فوق الحسية للدلالات، الى المناطق «القديمة» و«الطازجة» الملوثَة بالجراثيم، الى السموم القابلة للذوبان وجرعات الحب المسمومة، الى إنارة اللاواعي، الى بركات التحليل النفسي، إنتقال الأعراض ـ باختصار، كيف بوسعنا أن نعرف كل ما تحدثنا عنه، الدكتور كروكوفسكي والشاب كاستورب، عندما تكون هذه مجرد تخمينات وافتراضات أُطلقت جواباً على سؤال افتراضي!

على كل حال، لم يعودا يتكلمان؛ إستمر ذلك أسابيع قلائل فقط. فمؤخراً المساعد لم يعد يقضي وقتاً أكثر مع هذا المريض شخصياً مقارنة مع الآخرين، بل كان يقصر نفسه بشكل رئيس على الـ«حسن، رفيق؟» و«يوماً سعيداً لك» خلال جولاته. غير ان يواكيم إكتشف إكتشافاً آخر، كان قد فهم جيداً إزدواجية ابن خالته ـ من دون، هكذا قيل، أن يكون له أدنى قصد في أن يفعل هذا، من دون أن يخضع شرفه العسكري الى مهنة التجسس. حدث ذلك ببساطة تامة حين كان قد دُعيَ، ذات أربعاء، من أول مدة استراحة، للنزول الى الدور التحتاني وأن يتم قياس وزنه من قبل أستاذ الإستحمام. هبط الدرجات المغطاة بمشمع الأرضية النظيف التي تواجه باب حجرة الإستشارة الطبية، حيث تقع مقصورات الأشعة السينية على الجانبين: الى اليسار المقصورات العضوية، الى اليمين حول الزاوية ودرجة واحدة الى الأسفل، التحليلية، مع بطاقة زيارة الدكتور كروكوفسكي ملصقة على الباب. يواكيم توقف في منتصف السلّم الذي كان ينزله، حين رأى ابن خالته يأتي من حجرة الإستشارة الطبية، حيث كان قد زُرِقَ تواً بحقنته. مشى بسرعة عبر الباب، أغلقه بكلتا يديه، ومن دون أن ينظر حوله، إستدار نحو الباب الذي ثُبتت عليه البطاقة بدبابيس رسم. بلغه بخطوات قلائل، صامتة، محنية، قرعه، إنحنى كي يصغي، ورأسه قريب من الإصبع الذي يقرع. وحين رنت الـ«أدخل» بالجهير الأول الغريب في الناحية الأخرى من الباب، رأى يواكيم ابن خالته يختفي عن الأنظار في نصف العتمة للعرين التحليلي الخاص بالدكتور كروكوفسكي.

أيام طويلة ـ أطول الأيام، إذا ما تحدثنا بموضوعية، وبخصوص ساعات وضح النهار التي تحتويها؛ بما ان طولها الفلكي لا يقدر أن يؤثر في انقضائها السريع، سواء إذا أخذناها بصورة فردية أو بجريانها العام الرتيب. الإعتدال الربيعي[٧] مرَّ عليه ثلاثة شهور، انقلاب الشمس الصيفي بات وشيكاً. غير ان الفصول هنا في الأعالي تتبع التقويم بخطى عرجاء، وفقط في أثناء الأيام القلائل الأخيرة وصل الربيع بكل ما في الكلمة من معنى: ربيع حتى الآن من دون ذرة واحدة من هواء الصيف الأكثف، نقياً، أثيرياً، ومنعشاً، والشمس ترسل ومضاتها الفضية من سماء زرقاء، والمروج سعيدة بالأزاهير متعددة الألوان.

وجد هانز كاستورب أعشاب الجُريس ذات الأزهار الزرق والألفية على منحدر التل، مثل تلك التي وضعها يواكيم في حجرته كي تسرّه حين يأتي، وحين شاهدها، أدرك كيف كانت السنة تكمل أيامها. تلك الأخر كانت الأزهار المتأخرة للصيف المتقدم نحو النهاية، بينما الآن النجيل الطري زمردي اللون للمروج المائلة مرصع بكثافة بكل أنواع الزهور، كأسية الشكل، جرسية الشكل، نجمية الشكل، أي شكل، مالئةً الجو المشمس بالطيب الحار والعطر: كميات من أزهار الثالوث[٨] وfly-bane البرية، أزهار الربيع، حمر وصفر، أكبر وأجمل من أي زهور سبق لـ هانز كاستورب أن رآها هناك في الأسفل، على قدر ما يتذكر ملاحظاته، وزهور soldanellas حانية الرأس، الخاصة بالمنطقة، بأجراسها وردية اللون، أرجوانية، وزرق ذات الأهداب الصغيرة.

هانز كاستورب جمع باقة من هذه الفتنة كلها وأخذها الى حجرته، ليس من أجل الزينة، بل بقصد علمي محدد وجدّي. كان قد جمع عدةً كي تخدم

(٧) الإعتدال الربيعي Vernal equinox: إعتدال الليل والنهار يحدث نحو الحادي والعشرين من آذار (مارس) ـ المترجم.

(٨) زهرة الثالوث pansy: نوع من البنفسج ـ المترجم.

حاجته: كتاب مدرسي في علم النبات، مالج[٩] صغير يدوي كي ينتزع به الجذور، معشبة[١٠]، عدسة جيب مكبرة. الشاب بدأ العمل بنشاط في شرفته، مرتدياً أحد ثياب الصيف الخفيفة كان قد جلبه حين أتى ـ هذه علامة أخرى تدل على ان سنته الأولى أكملت مسارها.

أزهار مقطوعة تواً إنتصبت هنا وهناك في كؤوس داخل حجرته، وعلى حامل المصباح بجانب كرسيه الراقي جداً. أزهار نصف ذابلة، ذاوية لكنها غير جافة، ترقد مبعثرة على أرض شرفته، وعلى الدرابزين: أُخر، بين صفحات ورق النشاف، كانت قد أخرجتْ رطوبتها تحت ضغط من الأحجار الثقيلة. حين تغدو يابسة تماماً ومسطحة، يلصقها هو بأشرطة ورق في ألبومه. تمدد وركبتاه مرفوعتان، إحداهما متصالبة فوق الأخرى، الكتيب مفتوح، وجهه الى الأسفل على صدره مثل سقف صغير مجملن[١١]؛ حاملاً العدسة السميكة مائلة الحافة بين عينيه الزرقاوين الأمينتين وثمة زهرة بيده الأخرى، كان قد قطع منها بسكين الجيب خاصته جزءاً من التويج، كي يستطيع أن يعاين بنحوٍ أفضل كرسي الزهرة ـ كم يبدو هو كتلةً هائلةً سمينةً من خلال العدسة المكبرة! المئابر نشرتْ غبار طلعها الأصفر على كرسي الزهرة من رؤوس خُييطاتها[١٢]، المدقة المنقرة انتصبتْ بتيبس من المبايض؛ حين قطعها هانز كاستورب طولياً، كان بوسعه أن يرى القناة الضيقة التي خلالها كانت حبيبات اللقاح والحويصلات تطفو عبر الرحيق الى تجويف المبيض. هانز كاستورب أحصى، إختبر، قارن؛ درس تركيب وتصنيف كأس الزهرة وتويجاتها فضلاً عن عضوي الذكورة والأنوثة؛ قارن ما وجده

(٩) مالج trowel: أداة تُرفع بها النباتات الصغيرة ـ المترجم.

(١٠) معشبة herbarium: مجموعة من نماذج الأعشاب المجففة مرتبة ترتيباً نظامياً ـ المترجم.

(١١) مجملن gabled: هذه الكلمة مأخوذة من جملون وهو الجزء الأعلى مثلث الزوايا، من جدار مكتنف بسطحيين متحدرين ـ المترجم.

(١٢) الخييط filament: ذلك الجزء من السداة الذي يحمل المئبر أو مستودع اللقاح ـ المترجم

مع الرسوم التخطيطية في الكتاب؛ ورأى بقناعة انها كانت دقيقة حين إختبرها بوساطة تركيب مثل هذه النباتات كما كان معروفاً بالنسبة له. ثم مضى الى تلك التي لم يكن يعرف أسماءها، وبمساعدة لينايوس[١٣] خاصته ثبت صنفها، مجموعتها، رتبتها، نوعها، عائلتها، وجنسها. ولأنه كان يملك وقتاً تحت تصرفه، حقق فعلاً بعض التقدم في ميدان التصنيف النباتي على أساس علم التشكل (المورفولوجيا) المقارَن. تحت كل عينة مجففة في معشبته كتب بحروف زينية الأسماء اللاتينية التي كان خلعها عليها بأناقة العِلم الإنساني؛ أضاف خصائصها المميزة، وأخضعها كلها الى موافقة الطبيب يواكيم، الذي عبّر عن إعجابه بكل معنى الكلمة.

مساءً تطلّع الى النجوم. سيطر عليه ولع بالسنة المنصرمة ـ هو الذي أمضى قبل الآن عشرين دورة ونيف على هذه الأرض من دون أن يوجع رأسه بها أبداً. إذا كان الكاتب مدفوعاً للحديث عن الإعتدال الربيعي وما شاكل، فلأن هذه المصطلحات كانت تشكل الأثاث النفسي الحالي لبطلنا، الذي يود الآن أن يُظهره في المناسبات كلها، وهنا أيضاً، مدهشاً ابن خالته بذخيرة المعلومات التي باتت تحت سيطرته.

«الشمس»، لعله يبادر بالقول، حين يقومان بنزهتهما الراجلة معاً، «سوف تدخل عاجلاً برج السرطان، أتدري ماذا يعني ذلك؟ انها أول علامة صيفية لدائرة البروج، كما تعرف. بعدها يأتي برج الأسد وبرج العذراء، ومن ثم الخريف، الإعتدال الخريفي، قرب نهاية أيلول، حين تسقط أشعة الشمس عمودياً على خط الإستواء ثانيةً، كما فعلتْ في آذار، حين كانت الشمس في علامة برج الحمل.»

«يؤسفني القول أنه فاتني الإنتباه الى كلامك»، قال يواكيم بنكد. «ما كل هذا الذي تقوله بارتجال وسهولة عن برج الحمل ودائرة البروج؟»

«ياه، أنت تعرف ما هي دائرة البروج ـ العلامات السماوية الإبتدائية: برج العقرب، برج القوس، برج الجدي، برج الدلو، والبقية. كيف تستطيع

---

(١٣) لينايوس Linnaus: عالم نبات سويدي (١٧٠٧ ـ ١٧٧٨) ـ المترجم.

أن تكون مولعاً بها؟ في الأقل، عليك أن تعرف انها إثنى عشر برجاً، ثلاثة لكل فصل، السنة الصاعدة والسنة النازلة، دائرة البروج التي تمر من خلالها الشمس. في اعتقادي انها دائرة هائلة. تخيل، وجدوا انها أستخدمت لتزيين السقف في معبد مصري ـ ومعبد افروديت[١٤]، فضلاً عن ذلك ـ ليس بعيداً عن طيبة[١٥]. كانت هذه البروج معروفة للكلدانيين أيضاً، الكلدانيون، إذا سمحت، هم أولئك السحرة القدامى العرب ـ الساميون، الذين كانوا ضليعين جداً في علم التنجيم والتنبؤ. عرفوا ودرسوا المنطقة في السماء التي تدور الكواكب السيارة خلالها، وقد قسّموها الى إثنتي عشرة رمزاً بوساطة البروج الـ dodecatemoria، كما وصلتْ إلينا بمر الزمن. شيء هائل، أليس كذلك؟ ثمة إنسانية لك!»

«أنت تتحدث عن الإنسانية مثل سيتيمبريني بالضبط.»

«أجل ـ مع ذلك ليس مثله على وجه الدقة. عليك أن تأخذ البشرية كما هي؛ لكنني مع ذلك أجدها شيئاً هائلاً. أود أن أفكر في الكلدانيين حين أستلقي وأنظر الى الكواكب السيارة التي عرفوها حق المعرفة ـ ذلك انهم، مع كونهم أذكياءً، لم يعرفوها كلها. لكن تلك التي لم يعرفوها لا أقدر أن أراها أنا أيضاً. أورانوس أُكتشف حديثاً، بوساطة التلسكوب ـ قبل مائة وعشرين سنة خلت.»

«تسمي ذلك حديثاً؟»

«أنا أسميه حديثاً ـ مع رخصتك الودية ـ مقارنة مع الثلاث آلاف سنة منذ زمنهم. لكنني حين أستلقي وأنظر الى الكواكب السيارة، حتى الثلاثة آلاف سنة تبدو لي [حديثاً]، وشرعتُ أفكر بصورة حميمية تماماً بالكلدانيين، وكيف انهم في زمانهم كانوا يتطلعون الى النجوم ويكتبون عنها الأشعار ـ وهذا كله إنسانية أيضاً.»

---

(١٤) افروديت Aphrodite: إلاهة الحب والجمال عند الاغريق ـ المترجم.

(١٥) طيبة Thebes: مدينة قديمة في اليونان (مقاطعة بيوسيا) يُنسب تأسيسها الى قدموس الفينيقي. اسمها الحالي نيفا ـ المترجم.

«ينبغي لي القول، انك تملك أفكاراً ضخمة جداً في رأسك.»

«يمكنك أن تسميها ضخمة، وأنا أسميها حميمة ـ سيان، مهما أردت أن تسميها. لكن حين تدخل الشمس برج الميزان ثانيةً في غضون ثلاثة أشهر من الآن، ستقصر النهارات كثيراً جداً بحيث ان النهار والليل سيكونان متساويين. النهارات تستمر في النقصان حتى حلول عيد الميلاد تقريباً، كما تعلم. لكن الآن ينبغي لك، إذا سمحتَ، أن تضع في بالك انه، بينما تمر الشمس خلال علامات الشتاء ـ برج الجدي، برج الدلو، وبرج الحوت ـ تكون النهارات قبل الآن قد شرعت تغدو أطول! ذلك ان الربيع يكون عندئذ في الطريق من جديد ـ الربيع الثلاثة آلاف في ترتيبه منذ الكلدانيين، والنهارات تستمر في الطول الى أن نكمل السنة، ويبدأ الصيف ثانيةً.»

«طبعاً.»

«لا، ليس طبعاً على الإطلاق ـ انه حقيقة براعة في الخداع بكل ما في الكلمة من معنى. النهارات تطول في الشتاء، وحين يأتي أطولها، الحادي والعشرين من حزيران، بداية الصيف، تبدأ بالإنحدار ثانية، نحو الشتاء. تسمي ذلك [طبعا]؛ إذا أفلت المرء مرة واحدة زمام الفكرة القائلة انها [طبعاً]، يكون ذلك شيئاً مرعباً تماماً، تشعر كما لو انك تتمسك بشيء ما. يبدو ذلك أشبه بضحكة عملية ـ حيث ان الربيع يبدأ مع بداية الشتاء، والخريف مع بداية الصيف. تشعر كما لو انك مخدوع، أُدخل دائرةً، وتركز بصرك على شيء يثبت في النهاية انه نقطة متحركة. نقطة متحركة في دائرة. ذلك ان الدائرة لا تتكون من شيء عدا تلك النقاط الإنتقالية من دون أي نطاق مهما كان، التقوّس غير متكافئ، ليس هناك أمد للحركة، والأبدية ثبت في النهاية انها ليست [مستقيمة]، بل [دوامة خيل]!»

«من أجل الطيبة، توقف!»

«العيد الديني لانقلاب الشمس الصيفي ـ ليلة منتصف الصيف! النيران توهج على قمة الجبل، الناس يتحلقون متفائلين حول ألسنة اللهب القافزة! لم أر ذلك، لكنهم يقولون ان أجدادنا الأجلاف اعتادوا هكذا أن يحتفلوا بأول ليلة صيف، الليلة التي يبدأ الخريف معها، في ظهيرة وذروة السنة،

النقطة التي يبدأ منها الإنحدار من جديد: رقصوا وداروا وصاحوا وتهللوا ـ وعلامَ، حقاً، كل ذلك التهلل البدائي؟ هل يمكنك أن تكتشف ذلك؟ ما الذي كانوا مبتهجين به أيما إبتهاج؟ أكان هذا بسبب انه منذ ذلك الزمن فصاعداً إنحدر العالم الى الظلام ـ أو أغلب الظن لأنه حتى ذلك الزمن كان في صعود، والآن تم بلوغ نقطة الإنطلاق، اللحظة الزائلة لليلة منتصف الصيف وجنون منتصف الصيف، ملتقى الدمع والضحك؟ أنا أصفه كما هو عليه، بالكلمات التي تخطر ببالي. فرح مأساوي، حزن مبتهج بالنصر ـ هذا هو الذي جعل أسلافنا يقفزون ويبتهجون حول ألسنة اللهب الواثبة: كانوا يفعلون ذلك تعبيراً عن إجلالهم لجنون الدائرة، لأبديةٍ من دون أمد، يتكرر فيها كل شيء ـ بيأس تام، إن شئت.».

«لكنني لا أريد»، دمدم يواكيم. «أتوسل إليك لا تقذفها عليّ. هذه مسائل ضخمة جداً تشغل نفسك بها، ليلاً حين تقوم بعلاجك.»

«نعم، أعترف انك منهمك عملياً أكثر بنحوك الروسي. ياه، يا رجل، أنت مرغم على أن تكون ذا سيطرة كاملة على اللغة قبل أن يمر وقت طويل؛ وسيكون هذا فائدة عظيمة لك إذا إندلعت حرب ـ لا سمح الله.»

«لا سمح الله؟ أنت تتكلم كإنسان مدني. الحرب ضرورية. من دونها، قال مولتكه[16] سيتمزق العالم عاجلاً إرباً إرباً بكل ما في الكلمة من معنى ـ سوف يتعفن.»

«نعم، أعترف ان به ميلاً في ذلك الإتجاه. وسوف أذهب شوطاً بعيداً إذا ما قلتُ»، بدأ هانز كاستورب، وكاد يعود الى الكلدانيين، الذين شنوا الحروب أيضاً، وتغلبوا على بلاد بابل[17]، حتى إذا كانوا من الأقوام السامية، والذي يعني الشيء نفسه تقريباً إذا ما قلنا انهم كانوا يهوداً ـ حين

---

(١٦) مولتكه Moltke: الكونت هلموت فون (١٨٠٠ ـ ١٨٩١): مارشال بروسي بطل معركة سادوفا (العام ١٨٦٦) ـ المترجم.

(١٧) بلاد بابل Babylonia: المصطلح الذي أُطلق على وادي الرافدين الجنوبي الذي يؤلف أكداً في الشمال وسومراً في الجنوب ـ المترجم.

أدرك إبنا الخالتين في الوقت نفسه ان ثمة نبيلين يسيران أمامهما على مسافة قريبة، إندهشا من كلامهما وقطعا حديثهما كي ينظرا في ما حولهما.

كانا على الشارع الرئيس، بين الكورهاوس وفندق بيلفيدير، في طريق الإياب الى القرية. كان الوادي مبتهجاً بحلته الربيعية الجديدة. كان لونها ساطعاً ورقيقاً تماماً. كان الجو رائعاً. سمفونية من الروائح المنبعثة من المروج الملأى بالأزاهير ملأت الهواء النقي، الجاف، الرائق، المغمور بالشمس.

ميّزا لودوفيكو سيتيمبريني مع رجل غريب، إنما بدا كما لو انه من ناحيته إما لم يميزهما أو لم يكن ليكترث بلقاءٍ ما، ذلك انه إستدار على عقبيه من جديد، غذَّ خطاه، واندفع بسرعة في حوارٍ، تصاحبه إيماءاته المألوفة النابضة بالحيوية. وحين أصبح إبنا الخالتين على يمينه وحيّاه بمرحٍ، صاح هو: «Sapristi!» و«حسن، حسن، حسن!» مع كل الإشارات التي تَنم عن الدهشة الممتزجة بالبهجة؛ ومع ذلك لم يتوقف كي يسمح لهما بتجاوزه، لكنهما أخفقا في أن يدركا نيته ـ أو بالأحرى عرفا أن لا معنى لها. ذلك ان هانز كاستورب كان مسروراً بنحوٍ صادق برؤيته هكذا، بعد ردحٍ من الزمن: توقف وصافحه، وسأله عن حالته الصحية، ونظر بترقبٍ مهذبٍ الى مرافقه. كان سيتيمبريني مدفوعاً هكذا لأن يفعل ما كان يفضل بنحو واضح أن لا يفعله، لكنه بدا أمراً طبيعياً تماماً، في ظل هذه الظروف: أي، أن يقدم أحدهما الى الآخر، الأمر الذي فعله على وفق ذلك، بإيماءةٍ مناسبة، وصافح النبيلان أحدهما الآخر، نصف واقفين، نصف سائرين.

ظهر ان الغريب، الذي ربما يكون في عمر سيتيمبريني تقريباً، كان زميلاً له في البيت، المستأجر الآخر لـ لوكاشيك خيّاط الألبسة النسائية. كان اسمه، هكذا فهم الشابان، نافته. كان ضئيل البنية وهزيلاً، حليق الذقن، وكان ذا بشاعة حادة، ربما يجرؤ المرء على القول انها مزعجة بحيث انها أدهشت إبني الخالتين بنحوٍ جلي. كل شيء فيه حاد: الأنف المعقوف الذي يهيمن على وجهه، الفم الضيق، المزموم، العدستان السميكتان، مشطوفتا الحافة لنظارتيه بإطاريهما الخفيفين، خلفهما عينان رماديتان باهتتان ـ حتى

الصمت الذي كان يحافظ عليه، الأمر الذي أوحى انه حين يكسره، كلامه سيكون قاطعاً ومنطقياً. على وفق العُرف كان حاسر الرأس ومن دون معطف ـ والأكثر من ذلك أنيق الملبس، يرتدي بزةً زرقاء قاتمة من الفلانيلة ذات أشرطة بيض. كان فصالها المحافِظ إنما حديث الطراز قد إسترعى حالاً إنتباه إبني الخالتين، اللذين إلتقت نظراتهما الخبيرة بالحياة والناس مع نظيراتها، التي كانت فقط أسرع وأقوى، من جانب الرجل ضئيل البدن. ألم يكن لودوفيكو سيتيمبريني يعرف كيف يلبس مع هذا الوقار البسيط سترة الطيار البالية وسرواله ذا المربعات، اللذين عانى منهما حقاً بفعل المغايرة مع رفيقه. لم يحدث هذا أبداً لأن السروال كان قد تم كيّه حديثاً، لا ريب من قبل مالك غرفته، وربما، من مسافة قصيرة، يحسبه المرء جديداً. النوعية الدنيوية والراقية لخياطة الغريب القبيح جعلته أقرب الى إبني الخالتين منه الى سيتيمبريني؛ مع ذلك لم يكن عمره فقط الذي صنفه مع الأخير، لكن أيضاً أعلن شيئاً آخر، تم تمثيله بشكل مناسب بوساطة المظهر العام للأربعة. ذلك ان الإثنين الأصغر سناً كانا أسمرين ومسفوعين، أما الإثنان الأكبر فكانا شاحبين: وجه يواكيم خلال الشتاء إنقلب برونزياً بشكل أعمق، وتوهج وجه هانز كاستورب باحمرار وردي تحت رأسه الأشقر. إنما على شحوب السيد سيتيمبريني الجنوبي، الذي أُبرز بالمغايرة بوساطة شاربه الداكن، أشعة الشمس لم يكن لها أي تأثير؛ في حين ان رفيقه مع كونه أشقر الشعر، كان شعره معدنياً، أشقر ـ رمادياً شاحباً، وكان قد سرّحه ناعماً الى الوراء من جبهة عالية مستقيماً فوق رأسه كله ـ وأظهرا أيضاً البنية البيضاء ـ التامة للأجناس السُمر. إثنان من بين الأربعة ـ هانز كاستورب وسيتيمبريني كانا يحملان عصوي مشي؛ يواكيم، بصفته رجلاً عسكرياً، ليس له عصا، ونافته، بعد التعارف والمصافحة، شبك يديه وراءه من جديد. كانت يداه، وقدماه أيضاً، صغيرتين ورقيقتين، كونهما تليقان ببنيته. كان يعاني من زكام طفيف وكان يسعل بصورة غير متطفلة.

تغلب السيد سيتيمبريني حالاً وبصورة رائعة على تلميح الارتباك أو الاغاظة الذي أظهره عند أول نظرة للشابين. كان في أبهج مزاجٍ له، وصنع

كل أنواع التلميحات الساخرة بينما هو يقوم بتقديم أحدهما الى الآخر، في سبيل المثال أسمى نافته [أمير السكولاستية]. السعادة، قال، مقتبساً من آريتينو حجزت قصراً رائعاً في صدره، صدر سيتيمبريني؛ السعادة الناجمة عن نعمة الربيع ـ الذي راقه. كان النبيلان يعرفان انه يكنّ حقداً معيناً على الحياة هنا في الأعالي ـ كثيراً ما كان يشجبها بألفاظ جارحة! ـ الاجلال كله، إذاً، لربيع الجبل! يكفي وحده كي يعوض عن كل الأشياء المرعبة في المكان. كل العناصر المقلقة، المغضِبة للربيع في الوادي كانت مفقودة هنا: لا يوجد هنا أعماق مزبدة، ما من هواء مبّخر، ما من رطوبة ثقيلة الوطأة! فقط الجفاف، الوضوح، الفتنة الصافية والثاقبة. وعلى غرار قلبه، كان رائعاً.

كانوا يسيرون في رتلٍ متفاوت، الأربعة جنباً الى جنب كلما كان ذلك ممكناً؛ حين يأتي الناس إليهم أو يتجاوزونهم، سيتيمبريني في الجناح الأيمن، توجّب عليه أن يسير في الطريق، أو بطريقة أخرى تتفرق جبهتهم في الحال، وأحدهم أو الآخر يرجع للخلف ـ إما هانز كاستورب، بين الإنساني وابن خالته يواكيم، أو نافته ضئيل البدن في الجانب الأيسر. يطلق نافته ضحكةً قصيرة، بصوت جعله زكامه غير واضح: طبيعة صوته أثناء الكلام تذكّر المرء بصوتٍ منبعث من صحن مصدوع يُقرع عليه بمفصل إصبع من أصابع اليد.

مشيراً الى الإيطالي بإيماءة جانبية، قال، بإعلان مدروس: «إصغ الى الفولتيري[١٨]، الى العقلاني! انه يمدح الطبيعة، لأنها حتى حين تكون لها الفرصة لن تحيّرنا بالأبخرة المبهمة، بل تحافظ على وضوح جاف وكلاسيكي. وعلى أية حال ـ ما هو الاسم اللاتيني للرطوبة؟»

«Humor»، صاح سيتيمبريني، من فوق كتفه. «والدعابة[١٩] في

---

(١٨) الفولتيري Voltairian: نسبة الى فولتير، الفيلسوف الفرنسي (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) ـ المترجم.

(١٩) الدعابة humour: لاحظ ان هذه الكلمة ذات جناس لفظي مع كلمة humor التي تعني رطوبة، أو لعلهما كلمة واحدة بمعنيين متباعدين ـ المترجم.

ملاحظات الطبيعة لدى البروفيسور تكمن في الحقيقة التي تفيد بأنه مثل القديسة كاترين السيانية[20] كان يفكر في جروح المسيح حين يرى زهرة ربيع حمراء في فصل الربيع.»

«سيكون ذلك شيئاً ذكياً، بدلاً من كونه هزلياً»، رد نافته بحجة معاكسة. «إنما في كلتا الحالتين انها شجاعة جيدة أن تتضمّن الطبيعة معنىً؛ وهي بحاجة الى إحداهما.»

«الطبيعة»، قال سيتيمبريني بصوتٍ أوطأ، ليس كثيراً جداً فوق كتفه، بل على طول كتفيه، «لا تحتاج الى تضميناتك. انها [الروح القدس] بحد ذاتها.»

«ألا تضجرك أحديتك[21] بعض الشيء؟»

«آ، أنت تعترف، إذاً، انه شيء بسيط أن تسلي نفسك كونك تفصل الله والطبيعة كلاً منهما على إنفراد، وتقسِّم العالم الى معسكرين يسود بينهما العداء؟»

«أنا أجده شيئاً على قدرٍ عظيمٍ من المتعة أن أسمع انك تصفه بـ حب التسلية ما أعنيه حين أقول [آلام المسيح] و[الروح القدس].»

«وأنتَ، مَنْ الذي وضع مثل هذه الكلمات الكبيرة لإستخدامات عديمة الجدوى كهذه، لا تنسَ انك توبخني أحياناً كوني منمق الإسلوب.»

«أنت تتشبث بالفكرة القائلة ان [الروح القدس] تلمح الى العبث. لكن هذا لن يحول دون أن تكون ما هي عليه: ثنائية. الإثنينية[22]، التضاد، هو القاعدة المتحركة، العاطفية، الجدلية لـ [الروح القدس]. أن ترى العالم شقاً بين قطبين متناقضين ـ هذه هي [الروح القدس]. الأحدية كلها مملة Solet Aristoteles quarere pugnam.»

---

(٢٠) كاترين السيانية Saint Catherine of Siena (١٣٤٧ ـ ١٣٨٠): قديسة إيطالية متصوفة ـ المترجم.

(٢١) الأحدية monism: القول بأن الحقيقة كل عضوي واحد ـ المترجم.

(٢٢) الإثنينية dualism: نظرية تقول بأن ثمة مبدأين أساسيين ليس غير، كالعقل والجسد. وتعني أيضاً الإيمان بأن الإنسان ذو جسد وروح ـ المترجم.

«أرسطوطاليس؟ ألم يضع أرسطوطاليس في الفرد حقيقة الآراء الكونية؟ هذه هي وحدة الوجود[٢٣].»

«خطأ. حين تفترض كينونة مستقلة للأفراد، حين تنقل جوهر الأشياء من الكون الى ظاهرة معينة، كما فعل توما الأكويني وبونافينتورا، كونهما ارسطيين جيدين، عندئذ تدمر أنت الوحدة كلها بين العالم و[المثل الأعلى]؛ أنت تضع العالم خارج [الله] وتجعل [الله] متعالياً. هذه، يا سيدي العزيز، قروسطية تقليدية.»

«قروسطية تقليدية. يا له من تعبير موجز!»

«أعذرني، أنا أستعمل حصراً مفهوم [تقليدية] في مكانه الصحيح: أي، حيثما تصل الفكرة ذروتها. العِتق ليس دوماً تقليدياً. وقد لاحظتُ فيك كرهاً عاماً لـ [المطلق]؛ للتطبيق الأوسع لمقولات ارسطو العشر. أنت حتى لا تريد [الروح القدس] المطلقة. تريد فقط أن تكون [الروح القدس] مرادفةً للتقدم الديمقراطي.»

«آمل أن تكون لنا قناعة واحدة في ان [الروح القدس]، مهما كانت مطلقة، يجب أن لا تصبح المؤيدة للرجعية.»

«مع ذلك أنت تدعي دوماً كونها المؤيدة للحرية!»

«لماذا تقول [مع ذلك]؟ هل ان الحرية هي قانون حب شخص من صنف المرء، أم انها عدمية[٢٤] ولا إحسان بكل معنى الكلمة؟»

«على أية حال، ان الشيئين الأخيرين هما اللذان تخشاهما بشكل واضح جداً.»

قذف سيتيمبريني ذراعه الى الأعلى. توقفت المشادة الكلامية فجأةً. يواكيم نظر حائراً من شخص الى آخر، وهانز كاستورب بحاجبين مرفوعين

---

(٢٣) وحدة الوجود pantheism: المذهب القائل بأن الله والطبيعة شيء واحد وبأن الكون المادي والإنسان ليسا إلا مظاهر للذات الإلهية ـ المترجم.

(٢٤) عدمية nihilism: وجهة نظر تقول ان القيم والمعتقدات التقليدية لا أساس لها من الصحة وان الوجود لا معنى له ولا غنى فيه ـ المترجم.

تطلع الى الدرب الذي أمامه. كان نافته قد تحدث بصورة حادة وقاطعة؛ مع ذلك كان هو الشخص الذي دافع عن المفهوم الأوسع للحرية. كانت له طريقة خاصة في أن يقول «خطأ!» بصوتٍ أنفي رنان، وبعدها يمسك شفتيه معاً بإحكام بسببه ـ لم يكن التأثير مُرضياً. كان سيتيمبريني قد رد على معظم الحجج برفق، مع ذلك بدفء رائع في نبرته، كما يحدث حين يستحث موافقتهم الضرورية في مسائل جوهرية معينة. بدأ الآن، طالما ان نافته لم يتكلم ثانية، يشبع الفضول الطبيعي للشابين بشأن القادم الجديد ـ كان من حقهما أن يطالبا بنوعٍ من التفسير بعد ان إنتهى الحوار. نافته باستسلام سمح له بأن يستمر، من دون اهتمام. كان هو، هكذا قال سيتيمبريني، بروفيسوراً في اللغات الموغلة في القِدم في الفرايدريكيانيوم ـ قدّم اللقب بتوكيد طنان، كما يفعل الإيطاليون عادةً. كان نصيبه مثل نصيب المتحدث: أي، كان مدفوعاً لأن يستنتج ان مكوثه سيكون طويل الأمد، وقد غادر المصح الى غرفة خاصة تحت سقف لوكاشيك خياط الألبسة النسائية. المدرسة العليا للمنتجع حصلت ببراعة على خدمات [عالِم اللاتينية] المتميز هذا ـ طالب مؤسسة دينية، كما وصفها سيتمبريني بصورة غامضة نسبياً ـ وما من حاجة الى القول انه كان زينة لموقعه الوظيفي. باختصار، سيتيمبريني مجّد نافته القبيح أيما تمجيد، على الرغم من الجدل النظري الذي خاضاه تواً، الذي يظهر الآن، انه يُستأنف من جديد.

راح سيتيمبريني يتحدث عن إبني الخالتين الى السيد نافته، الذي من خلاله تبين انه كان قد تحدث عنهما قبل الآن. هنا، قال، المهندس الشاب الذي أقبل في إجازة أمدها ثلاثة أسابيع، لمجرد أن يعثر السيد هوفرات بيرنز على مكان رطب في رئته، وهنا أمل منظمة الجيش البروسي، الملازم زيمسين. تطرق الى ثورة يواكيم والرحيل الذي ينوي القيام به، أضاف قائلاً ينبغي على المرء أن لا يهين المهندس بأن يلصق به تهمة كونه لا يملك أدنى رغبة متحمسة للعودة الى مهماته التي إنقطعت.

لاح الاستياء على وجه نافته.

«النبيلان لهما محامٍ بليغ. انه شيء لا يخطر ببالي أن أسأل عن دقة

تفسيره لأفكارك ورغباتك. عمل، عمل ـ ياه، لا يستطيع أن يطلق عليّ أي تسمية عدا كوني عدواً للجنس البشري inimicus humane natura ـ إذا تجرأتُ بأن أقترح انه كان ثمة أوقات يفشل فيها الحديث في ذلك المزاج فشلاً ذريعاً في أن يسفر عن التأثير المرغوب به: أوقات حين يُثمن المناقض الدقيق لمثله الأعلى تثميناً عالياً لا يُضاهى. برنارد كليرفو[٢٥]، في سبيل المثال، بشّر بنوع من التقدم من أجل الكمال يختلف تماماً عن أي نوع حلم به السينيور لودوفيكو طوال حياته. أتريد أن تسمع ما هو هذا النوع؟ كانت مرحلته الأدنى في [المطحنة]، مرحلة الثانية في [الحقل المحروث]، الثالثة، والجديرة بالثناء ـ لا تصغِ، سيتيمبريني! ـ فوق [سرير الاسترخاء]. المطحنة هي رمز الحياة الدنيوية ـ ليست صورة سيئة. الحقل المحروث يمثل روح الإنسان العلماني، صورة مهمات الكاهن والمعلم. هذه المرحلة أسمى من المطحنة لكن السرير ـ»

«هذا واضح، فهمنا»، صاح سيتيمبريني. «سيدايّ، هل سيطنب الآن في عرض واستخدامات [سرير النهار[٢٦] الفاسد].»

«لم أكن أعرف، لودوفيكو، انك كنت المحتشمة[٢٧]. حين يراك المرء وأنت تنظر الى الفتيات.. ما الذي جرى لإخلاصك الوثني؟ استمر: السرير هو مكان الجِماع بين المتودِد والمتودَد إليه: رمزياً، يمثل الإعتزال التعبدي عن العالم من أجل الإتصال مع [الله].»

«تباً! ببطء معتدل[٢٨]، ببطء معتدل!» رد عليه الإيطالي، بصوت مبلل بالدمع. ضحكوا جميعاً. لكن سيتيمبريني تابع كلامه، بوقار: «لا، لا، أنا أوروبي، غربي، في حين ان نوع التقدم الذي وصفته شرقياً خالصاً. المشرق

---

(٢٥) برنارد كليرفو Bernard of Clairvaus (١٠٩٠ ـ ١١٥٣): لاهوتي ومصلح كنسي فرنسي ـ المترجم.

(٢٦) سرير النهار daybed: سرير ضيق يحوّل في النهار الى أريكة ـ المترجم.

(٢٧) المحتشمة prude: سيدة تظهر أو تتكلف قدراً من الإحتشام مغالى فيه ـ المترجم.

(٢٨) ببطء معتدل Andante: يستعمل هذا المصطلح في الموسيقى، ويعني أيضاً حركة معتدلة البطء ـ المترجم.

يشمئز من النشاط. لا وتسو[٢٩] كان يلقن ان الكسل والتراخي مفيد أكثر من أي شيء آخر بين السماء والأرض. حين يكف الجنس البشري بأكمله عن عمل أي شيء مهما كان، عندئذ فقط الراحة التامة تسكن هذه الأرض وتسود فيها البركة. هناك يكون اتصالك مع الله.»

«أوه، حقيقة! وماذا عن التصوف[٣٠] الغربي، ماذا عن الطمأنينة، تلك العقيدة التي عدت فينيلون[٣١] بين تابعيها؟ ـ فينيلون لقن ان كل نشاط ذا عيوب، بما ان كل إرادة للعمل هي إهانة لله، الذي يشاء أن يعمل وحده. أنا أشيد بافتراضات مولينوس[٣٢] ليس ثمة أدنى شك ان الإمكانية الروحية في إيجاد الخلاص في الإسترخاء قد انتشرت عموماً في كل أرجاء العالم.»

هنا هانز كاستورب أدلى بدلوه. بشجاعة البساطة، مزج المناظرة، ومحدقاً في الفضاء، ألقى محاضرته كما يأتي: «عبادة، إعتزال ـ ثمة شيء ما فيها، انها تبدو معقولة. مارسنا درجةً عاليةً من الإعتزال عن العالم، نحن المقيمين هنا في الأعالي. لا ريب في ذلك. خمسة آلاف قدم عالياً، نحن نستلقي في هذه الكراسي المِمتازة خاصتنا، نتأمل العالم وكل ما موجود فيه، ولنا أفكارنا الخاصة عنه. كلما فكرتُ به أكثر، أكون أكثر يقيناً من ان سرير الإسترخاء ـ الذي أعني به الكرسي المركّب خاصتي، طبعاً ـ وهبني غذاءً للتفكير في هذه الشهور العشرة أكثر من المطحنة الموجودة هناك في الأسفل

---

(٢٩) لا وتسو Lao-Tsua: فيلسوف صيني (القرن الخامس أو السادس ق.م). ألّف «كتاب الطريق والفضيلة». تعتبر تعاليمه عند أتباع مذهب الطاوية أساساً للبوذية ـ المترجم.

(٣٠) التصوّف mysticism: الإيمان بأن المعرفة المباشرة بالله أو بالحقيقة الروحية يمكن أن تتم للمرء من طريق التأمل أو الرؤيا أو النور الباطني وبطريقة تختلف عن الإدراك الحسي العادي أو إصطناع التفكير المنطقي ـ المترجم

(٣١) فينيلون Fenelon: فرانسو (١٦٥١.١٧١٥): أسقف وكاتب فرنسي أشهر آثاره: «مغامرات تليماك» (العام ١٦٩٩) ـ المترجم.

(٣٢) مولينوس Molinos: ميغويل دي (١٦٢٨ ـ ١٦٩٦): قس اسباني. كان «الدليل الروحي» خاصته التعبير الكلاسيكي للتصوف. أُدين من قبل محكمة التفتيش العام (١٦٨٧) ـ المترجم.

في الأرض المنبسطة في كل السنوات الماضيات. ببساطة لا يستطيع أحد أن ينكر ذلك.»

سيتيمبريني تطلع إليه، ثمة وميض كئيب في عينه الداكنة. «أيها المهندس»، قال بتحفظ. أخذ ذراع هانز كاستورب وجرّه قليلاً الى الجانب، كما لو انه يروم التحدث إليه بأمرٍ خاص. «كم مرة قلتُ لك انه ينبغي للمرء أن يعرف كنه نفسه، وأن يفكر على وفق ذلك. لا بأس بالإفتراضات. إرثنا الغربي هو العقل ـ العقل، التحليل، النشاط، التقدم: هذه وليس السرير الكسلان للعُرف الرهباني!»

كان نافته يصغي. أدار رأسه ليقول: «العُرف الرهباني! كما لو اننا لسنا مدينين للرهبان بثقافة تربة أوروبا كلها! كما لو اننا لا ندين لهم بألمانيا، فرنسا، وإيطاليا التي تهبنا الذرة والخمر والفاكهة اليوم، بدلاً من أن تغشينا الغابات البدائية والمستنقعات! الرهبان، سيدي العزيز، كانوا عمالاً نشيطين ـ»

«حسن، حسن، فضلاً عن ذلك!»

«إسمح لي. ان عمل هؤلاء الرهبان لم يكن غايةً بحد ذاته ـ أي، انه لم يكن مخدِراً ـ ولم يكن غرضه أن يعزز تقدم العالم، أو أن يكسب الفائدة التجارية. بل كان نظاماً تكفيرياً خالصاً، كان جزءاً من طريقة الزهد، وسيلة الخلاص. لقد أماتَ الحواس، كان إجراءاً وقائياً ضد خداع الجسد. وهكذا، إسمح لي أن أشير الى انه كان جوهرياً غير إجتماعي. كان أنانية دينية خالصة، غير ملطخة.»

«أنا مدين لك كثيراً بالتوضيح، ويسرني أن أفهم ان بركات العمل بوسعها أن تبرر نفسها، حتى ضد إرادة الإنسان.»

«أكيد ضد نواياه، في الأقل. ما استرعي انتباهك إليه هو أن لا شيء أقل من الفرق بين المنفعي والإنساني.»

«وما استرعيتُ أنا إنتباهك إليه هو الحقيقة، التي ألاحظها بسخط، التي تشهد بأنك ما زلتَ تقسِّم العالم الى زمر متعارضة.»

«يحزنني أن أجعلك تستاء من نفسك. مع ذلك من المفيد أن نحدد الفوارق، ونحافظ على مفهوم [Homo Dei]، خالياً من العناصر الملوثة.

أنتم الإيطاليون هم الذين إخترعوا الصناعة المصرفية والتبادل التجاري، وربما يصفح عنكم الباري! لكن الإنجليز إخترعوا النظرية الإقتصادية الإجتماعية، وان الروح الحارسة للجنس البشري لن تغفر لهم تلك الخطيئة.»

«آ، الروح الحارسة للجنس البشري حية في مفكري الإقتصاد العظماء لتلك الجزيرة أيضاً! ـ أتريد أن تقول شيئاً ما، أيها المهندس؟»

هانز كاستورب تردد ـ مع انه قال شيئاً ما على أية حال، نافته فضلاً عن سيتيمبريني أصغى بقلقٍ معين: «من خلال ما قلته، سيد نافته، ينبغي لك أن تتعاطف مع مهنة ابن خالتي، وأن تفهم تلهفه في أن يكون فيها. أما بالنسبة لي، فأنا مدني بكل معنى الكلمة، ابن خالتي يوبخني كثيراً على هذه الصفة. لم أرَ الخدمة العسكرية، إني طفل السِلم، نقي وبسيط، وفكرتُ غالباً أن أصبح كاهناً ـ إسأل ابن خالتي إن لم أكرر على مسمعه هذا مرات عدة! ولكن على الرغم من ذلك كله، وناهيك عن ميولي الشخصية ـ أو حتى، ربما، ليس ناهيك تماماً عنها ـ لي بعض الفهم والعاطفة نحو الحياة العسكرية. هي ذات جانب جدي بصورةٍ لعينة، زهدي الى حدٍ ما، مثلما قلتَ ـ هذا هو التعبير الذي استخدمتَه، أليس كذلك؟ على العسكري أن يأخذ بالحسبان مسألة بلوغه مرحلة الإمساك بالموت، كما يفعل الكاهن. لهذا السبب ثمة الشيء الكثير من الإنضباط واللياقة والإنتقام في الجيش، الكثير من [آداب المعاشرة الإسبانية]، إذا جاز لي أن أقول هذا؛ وهذا لن يتسبب في اختلاف كبير إذا ما لبس المرء ياقة منتظمة أو طوق رقبة مكشكش منشى، الشيء الرئيس هو الزهد، كما قلتَ بنحو جميل ـ لا أدري ما إذا أفلحتُ في أن أجعل سلسلة أفكاري بكل معنى الكلمة ـ»

«أوه، بكل معنى الكلمة»، قال نافته، وقذف نظرة الى سيتيمبريني، الذي كان يدوّر خيزرانته ويرنو ببصره الى السماء.

«ولهذا»، إستطرد هانز كاستورب قائلاً: «السبب أعتقد ان عليك أن تتعاطف تعاطفاً كبيراً مع أحاسيس ابن خالتي زيمسين. أنا لا أفكر في [الكنيسة والملك] وما يصاحبها من أمثال هذه الأفكار، التي يؤيدها عدد كبير من الناس حسني النية تماماً والمتمسكين بالعُرف. ما أعنيه هو ان الخدمة في

الجيش ـ الخدمة هي الكلمة الصحيحة ـ لا تؤدى لمنفعة تجارية، وليس من أجل العقيدة الإقتصادية للمجتمع، كما أسميتَها ـ ولا بد أن يكون هذا هو سبب أن الإنجليز لهم جيش صغير جداً، عدد قليل للهند، وعدد قليل في بلدهم للإستعراضات العسكرية ـ»

«لا جدوى من إستمرارك في الحديث، أيها المهندس»، قاطعه سيتيمبريني. «ان حياة الجندي، أقول هذا من دون أدنى رغبة في إغاظة الملازم زيمسين ـ لا يمكن أن تذكر في النزاع، بسبب انها، كونها حياة، إسمية بكل معنى الكلمة ـ إسمية بحد ولأجل ذاتها، من دون مضمون على الإطلاق. ممثلها النموذجي هو جندي المشاة، الذي يؤجر نفسه لهذه الحملة العسكرية أو تلك. خذ جنود [الإصلاح ـ المعاكس] الإسباني، في سبيل المثال، أو جنود الجيوش الثورية المختلفة، الجيوش النابليونية أو الغاريبالدية[٣٣] أو خذ الجيش البروسي. سأكون جاهزاً للتحدث عن الجندي حين أعرف من أجل أي شيء يحارب هو.»

«لكن كونه يحارب»، إنضم نافته ثانيةً، «يبقى السمة المميزة لحياته بوصفه جندياً. دعنا نتفق الى هذا الحد. هذا التميز ربما لن يكون كافياً كي يسمح لحياته [أن تذكر في النزاع]؛ لكن حتى مع ذلك، تضعه حياته في دائرة بعيدة عن معرفة مدنيّك، بتقبله البرجوازي للحياة.»

«ما تفضلتَ بتسميته بـ [التقبل البرجوازي للحياة]»، كرر سيتيمبريني، متكلماً بشفتين محكمتي الإغلاق نوعاً ما، وزاويتا فمه مسحوبتان للوراء تحت الشارب المتموج، بينما كان عنقه يتلوى عالياً وحول ياقته بتأثير رائع، «سيكون دوماً جاهزاً لدخول لوائح أي شروط تريدها، من أجل العقل والفضيلة، ومن أجل تأثيرها المنطقي على العقول الفتية والمتذبذبة.»

ران صمت. الشابان تطلعا أمامهما، مرتبكين. بعد خطوات قلائل، قال سيتيمبريني، معيداً رأسه وعنقه الى الوضع الطبيعي مرة أخرى: «يجدر بك ألا

---

(٣٣) الغاريبالدية Garibaldian: نسبة الى غاريبالدي (١٨٠٧ ـ ١٨٨٢): قائد وزعيم إيطالي. يُعد أحد صانعي الوحدة الإيطالية ـ المترجم.

تندهش من سماعنا أنا وهذا النبيل منهمكين في جدالات طويلة. نحن نقوم بذلك بودٍ تام، وعلى أساس الفهم المهم المشترك.»

كان لهذا تأثير طيب ـ كان ذاك سلوكاً إنسانياً ونبيلاً من جانب السيد سيتيمبريني. لكن يواكيم بدوره، كان يقصد عندئذ قصداً جيداً، ومفكراً بأن يأخذ الحوار قُدماً في قنوات عديمة الضرر، كان مقدراً له أن يقول: «حدث أن تكلمنا عن الحرب، ابن خالتي وأنا، بينما كنا ماشيين وراءك.»

«سمعتكما»، أجاب نافته. «فهمتُ كلماتكما وإلتفتُ من حولي. هل كنتما تتحدثان في علم السياسة، مناقشين الوضع الدولي؟»

«أوه، كلا»، ضحك هانز كاستورب. «كيف يتسنى لنا أن نفعل ذلك؟ بسبب وجود ابن خالتي هنا، ستكون مناقشة علم السياسة أمراً منافياً لأخلاق المهنة؛ وبالنسبة لي، أنا طوعاً أمتنع عن الإمتياز. أنا لا أعرف شيئاً عنه ـ لم تقع صحيفة بيدي منذ مجيئي.»

سيتيمبريني، كما حدث من قبل، وجد هذا مستحقاً الشجب. تقدّم كي يظهر نفسه كونه يملك معلوماتٍ مستفيضة عن الأحداث الحالية، وأعطى موافقته لحالة القضايا الدولية، طالما انها تتخذ مساراً مؤاتياً لتقدّم الحضارة. الجو الأوروبي مليء بالأفكار والخطط السلمية من أجل نزع السلاح. الفكر الديمقراطي يواصل السير. قال انه يملك مرجعاً موثوقاً به ينص على أن [الأتراك الشبان] على وشك أن يتخلوا عن مشاريعهم الثورية. تركيا، كونها دولة قومية دستورية ـ يا له من نصر للبشرية!»

«جعل الإسلام تحررياً»، سخر نافته. «ممتاز! تعصب متنوّر ـ أوه، شيء جيد جداً الواقع! ويثير شغفك أيضاً»، قال، ملتفتاً الى يواكيم. «لأنه حين سقط عبدالحميد[٣٤]، وسينعدم تأثيرك في تركيا، وسوف تنصب إنجلترا نفسها كمدافع. ـ ينبغي لكما دوماً أن تقدرا المعلومة التي تأخذانها من صديقنا سيتيمبريني حق قدرها»، قال لإبني الخالتين كليهما. وهذا أيضاً بدا

(٣٤) عبدالحميد (الثاني) (١٨٤٢ ـ ١٩٠٩): سلطان عثماني (١٨٧٦ ـ ١٩١٩). حكم البلاد حكماً استبدادياً. خُلع عن العرش ـ المترجم.

وقحاً تقريباً: كما لو انه حسب انهما سيميلان لأن يأخذا كلام سيتيمبريني باستخفاق. «في المسائل القومية ـ الثورية لديه معلومات وافية جداً. في بلده يرعون علاقاتٍ جيدة مع اللجنة الإنجليزية البلقانية، لكن ماذا جرى لـ اتفاق ريفال، لودوفيكو، إذا كان أتراكك التقدميين ناجحين؟ إدوارد السابع[٣٥] لن يكون قادراً بعد الآن على أن يمنح الروس منفذاً حراً الى الدردنيل[٣٦]، إذا ما إستجمعت النمسا قوتها كي تمارس سياسة نشيطة في دول البلقان، لماذا ـ»

«أوه، ها أنتَ ذا ونبوءاتك الكاساندرية!» سيتيمبريني تفادى الضربة. «نيقولا[٣٧] محب للسلام. نحن مدينون له بمؤتمري الهيغ، وهي أحداث معنوية من الطراز الأول.»

«نعم، روسيا ينبغي لها أن تمنح نفسها الوقت الكافي كي تصحو من حظها العاثر الصغير في الشرق.»

«تباً، سيد لماذا ينبغي لك أن تسخر من إشتياق الطبيعة الإنسانية الى تحسين الوضع الإجتماعي؟ ان شعباً يحبط طموحاتٍ كهذه يعرّض نفسه للعار الأخلاقي.»

«ولكن ما نفع علم السياسة، إذاً، إن لم يمنح كلا الجانبين فرصةً كي يتوصلا بدورهما الى تفاهم مشترك عن طريق التسوية؟»

«هل تناصر قضية الألمنة الشاملة؟»

هزَّ نافته كتفيه إستهجاناً، في الواقع، كي يضيف قبحاً الى قبحه، لعله كان مشوهاً قليلاً، لأن كتفاه لم تكونا متساويتين تماماً. إشمأز من الإجابة، سيتيمبريني أعلن حكمه: «على أية حال، ما تقوله كلبي، أنتَ لا ترى شيئاً

---

(٣٥) إدوارد السابع Edward VII (١٨٤١ ـ ١٩١٠): ملك بريطانيا وآيرلندا (١٩٠١ ـ ١٩١٠) ابن الملكة فكتوريا وخليفتها، تولى العرش وهو في الستين من العمر ـ المترجم.

(٣٦) الدردنيل Dardanelles: مضيق بين شبه جزيرة البلقان وآسيا الصغرى ويصل البحر الإيجي ببحر مرمرة ـ المترجم.

(٣٧) نيقولا الثاني Nicholas (١٨٦٨ ـ ١٩١٨): آخر قياصرة روسيا (١٨٥٩ ـ ١٩١٧). خلع عن العرش (العام ١٩١٧). أعدمه البلاشفة ـ المترجم.

غير الخداع السياسي في الجهود النبيلة للديمقراطية كي تكمل نفسها دولياً ـ»

«اين تريدني أن أرى المثالية أو حتى التقوى. ما رأيتُه هو النشاطات الضعيفة لغريزة الحفاظ على الذات، البقية الأخيرة الخاضعة لسلطة نظام عالمي مدان. الكارثة آتية لا ريب فيها ـ انها تتقدم في كل مكان وبكل طريقة. خذ السياسة البريطانية. ان حاجة إنجلترا لضمان الميدان الهندي شيء منطقي. ولكن ماذا ستكون عواقب ذلك؟ إدوارد يعرف وكذلك أنت وأنا ان روسيا يجب عليها أن تعوّض خسائرها في منشوريا، وان السلام الداخلي ضروري لها كالخبز اليومي. مع ذلك لا يستطيع هو أن يساعد نفسه ـ أرغمها على أن تنظر غرباً من أجل التوسع، حرّك منافساتٍ هادئة بين سانت بطرسبورغ وفيينا ـ »

«أوه فيينا! ان ولعك بذلك العوق الموغل في القدم يُعزى، أنا أفترض، الى حقيقة ان امبراطوريتها المتآكلة هي نوع من المومياء، إذا صح التعبير، للإمبراطورية الرومانية المقدسة للشعب الألماني.»

«بينما أنتَ، أعتقد، معجب بالروس ليس له صلة إنسانية مع البابوية القيصرية[(٣٨)].»

«الديمقراطية، يا صديقي، تُؤمل من الكرملين أكثر مما تُؤمل من هوفبورغ، وانه شيء مخزٍ لبلد لوثر وغوتنبرغ ـ»

«لعله ليس مخزياً حسب، بل أحمق في الصفقة. غير ان هذه الحماقة هي أداة مصير ـ»

«أوه، وفّر عليّ حديثك عن المصير! العقل الإنساني يحتاج فقط الى أن يشتهي بقوة أكثر من المصير، وهو مصير!»

«الإنسان دوماً يشتهي مصيره. أوروبا الرأسمالية تشتهي مصيرها.»

«الإنسان يؤمن بمجيء الحرب إن لم يكن يمقتها بصورة كافية.»

«ان مقتك للحرب مفكك منطقياً، إن لم تجعل من الحالة ذاتها نقطة انطلاقك.»

---

(٣٨) القيصرية caesaro: الدكتاتورية السياسية أو الطغيان السياسي ـ المترجم.

«الحالة القومية هي القاعدة الزائلة، التي ترغب بأن تعزوها الى الحالة الشريرة. ولكن حين تكون الأمم حرة ومتساوية، حين تكون الدول الصغيرة والضعيفة مصونة، حين تكون هناك عدالة في العالم، والحدود القومية ـ»

«نعم، أعرف، تخم البرينر. تصفية النمسا. ليتني عرفتُ كيف توقعتَ أن يحدث ذلك من دون حرب!»

«وأريد أن أعرف متى شجبتُ حرباً ما من أجل معرفة الطموحات القومية!»

«لكنك قلت ـ»

«لا، هنا ينبغي لي حقاً أن أؤيد السيد سيتيمبريني»، هانز كاستورب إشترك في الجدال، الذي كان قد تابعه بينما كانا يخوضان فيه، ناظراً بانتباه الى كل متحدثٍ تباعاً، ورأسه مائل الى أحد الجانبين. «ابن خالتي وأنا كان لنا إمتياز أن نتحادث معه محادثات عديدة في هذا وما شاكله من المواضيع ـ وما بلغه، بطبيعة الحال، هو اننا كنا نصغي بينما كان يشرح أفكاره ويطوّرها ـ لذا أستطيع أن أكفل حقيقة، وابن خالتي هنا سوف يؤيدني، ان السيد سيتيمبريني كان قد تحدث أكثر من مرة، بحماسةٍ عظمى، عن المبدأ الثوري، وعن الثورة والإصلاح ـ والذي لم يكن مبدأً سلمياً جداً ـ على ما أظن ـ وعن الجهود الكبيرة التي يجب بذلها قبل أن تنتصر في كل مكان، ويمكن أن تبرز الى الوجود: جمهورية ـ العالم الشاملة العظمى. هذه هي كلماته، مع انها بدت طيّعة أكثر بكثير وأدبية أكثر بكثير حين قالها. لكن الجزء الذي ما زلتُ أحتفظ بذكرى مضبوطة جداً عنه، وأبقيته حرفياً تماماً، ونظراً لكوني مدنياً كاملاً وجدته مرعباً، هو قوله انه سيأتي النهار، إن لم يأتِ على أجنحة الحمام، إذاً على قوادم النسور ـ قوادم النسور هي التي أجفلتني. وان فيينا يجب أن تُصرع قبل أن يسود السلام والإزدهار. لذا من المستحيل أن نقول ان السيد سيتيمريني أدان الحرب هكذا. ألستُ مصيباً، سيد سيتيمبريني؟»

«تقريباً»، قال الإيطالي بإيجاز، مدوّراً خيزرانته، برأس مائل جانباً.

«شيء سيء جداً»، إبتسم نافته بخبث. «ها أنت ذا قانعاً بالميول الحربية

المنبثقة من فم تلميذك [ـ Assument Pennas ut acquilo]»

«فولتير نفسه إستحسن الحرب، أي حرب، من أجل الحضارة، ونصح فريدريك[٣٩] أن يحارب تركيا.»

«بدلاً من ذلك خالف نفسه معها ـ هو هو! ومن ثم جمهورية العالم! أنا أحجم عن طرح سؤال يتعلق بما جرى لمبدأ الثورة حين حدث السلم والإزدهار مرةً. فقد أمسى واضحاً من تلك اللحظة ان الثورة أضحت جريمةً ـ»

«أنت تعرف حق المعرفة، كما يعرف هذان الشابان هنا، اننا نتعامل مع تقدم في المسائل البشرية فُهِمَ على انه لا نهائي.»

«لكن الحركة كلها في دوائر»، قال هانز كاستورب. «في المكان والزمان، كما تعلمنا من قانون الدورية[٤٠] وحفظ الكتلة. ابن خالتي وأنا كنا نتحدث في هذا الموضوع مؤخراً. كيف يتسنى للتقدم أن يكون مفهوماً، وفي حركة مسدودة من دون إتجاه ثابت؟ حين أضطجع مساءً وأنظر الى دائرة البروج ـ أي، النصف المرئي منها لنا ـ وأفكر بحكماء العصور القديمة ـ»

«ينبغي لك ألا تطيل التفكير وتحلم، أيها المهندس»، قاطعه سيتيمبريني. «يجدر بك أن تصمم على أن تثق بمواهب شبابك وطبيعتك البشرية، وهي تحثك في إتجاه العمل. وكذلك تدريبك في العلم الطبيعي مصمم على أن يربطك بالأفكار التقدمية. أنت ترى، من خلال مدى العصور اللامحدودة، ان الحياة تتطور بدءاً بالنقاعيات[٤١] وانتهاءً بالإنسان: كيف يمكنك أن ترتاب، إذاً، في مسألة ان الإنسان أمامه على أية حال إمكانات لا محدودة للتطور؟ وفي حقل الرياضيات العالية، إذا ما أبقيتَ مسألتك على ذلك، إذاً إتبع دورتك من نضجٍ الى نضجٍ، ومن خلال تعاليم قرننا الثامن

---

(٣٩) فريدريك Fredrick (الثاني) (١٧١٢ ـ ١٧٨٦): ملك بروسيا (١٧٤٠ ـ ١٧٨٦) هزم النمسا وعزز الجيش ـ المترجم.

(٤٠) الدورية Periodicity: كون الشيء دورياً ـ المترجم.

(٤١) النقاعيات infusoria: حيوينات تكثر في نقاعات المادة العضوية ـ المترجم.

عشر، عرفنا ان الإنسان كان في الأصل طيباً، سعيداً، ومن دون خطيئة، وان الآثام الإجتماعية أفسدته وشوهته، وانه بوسعه وسيكون مرةً أخرى: طيباً، سعيداً، من دون خطيئة بفضل تأثير العمل في بنيته الإجتماعية ـ»

«السيد سيتيمبريني أهمل الإضافة»، قاطع نافته، «ان الأنشودة الرعوية الروسوية[٤٢] هي تحوّلٌ معقد لتعاليم الكنيسة المتعلقة بحالة الإنسان الأصلية الحرة والخالية من الخطيئة، قربه الأولي وعلاقته البنيوية بـ (الله)؛ تلك الحالة التي ينبغي له أن يعود إليها في خاتمة المطاف. غير ان إعادة ـ تأسيس [مدينة الله] بعد تدمير الأشكال الأرضية كلها، تقع عند مكان لقاء الأرضي والسماوي، المادي والروحي، التجديد خارق للطبيعة ـ وفي ما يتعلق بـ جمهورية العالم الرأسمالية خاصتك، طبيبي العزيز، انه لأمر غريب في هذا الصدد أن أسمعك تتكلم عن الغريزة[٤٣]. الغريزي يناصر تماماً القومي. الله نفسه زرع في صدر البشر الغريزة التي تدعوهم للتقسيم على دول. الحرب ـ»

«الحرب»، كرر سيتيمبريني، «الحرب، سيدي العزيز، أُرغمت قبل الآن كي تخدم قضية التقدم، بحيث انك ستوافق إذا ما تذكرتَ أحداثاً معينة في تاريخ عهدك المفضل ـ أعني بهذا عهد الحملات الصليبية. هذه الحروب التي شُنت من أجل الحضارة حفزت العلاقات الإقتصادية والتجارية بين الشعوب، ووحدت البشرية الغربية بإسم فكرةٍ ما.»

«ويا لك من متسامح دوماً مع فكرةٍ ما! أود أن أذكّرك بمزيدٍ من اللطف والكياسة بأن الحملات الصليبية والعلاقات الإقتصادية التي حفزتها كان أي شيء عدا كونه في صالح الدُوَلية[٤٤]. بل على العكس، تلك الحملات علّمت الشعوب على أن تكون واعية بنفسها، وهكذا عززت تطور الفكرة القومية.»

---

(٤٢) الروسوية Rousseauian: نسبة الى جان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨) وهو كاتب فرنسي، كانت لآرائه السياسية أثر كبير في تطور الديمقراطية الحديثة ـ المترجم.

(٤٣) الغريزة والموهبة في الإنجليزية هما كلمة واحدة instinct ـ المترجم.

(٤٤) الدولية internationalism: سياسة التعاون بين الدول وبخاصة في الحقلين السياسي والاقتصادي ـ المترجم.

«صحيح، أي، صحيح بقدر تعلق الأمر بمسألة العلاقة بين الشعوب والكهانة، ذلك انه الواقع في ذلك الزمن الوعي المتعاظم بالشرف القومي بدأ يصلّب نفسه في مواجهة الافتراض الكهنوتي ـ»

«مع ان ما تدعوه أنت بالإفتراض الكهنوتي لم يكن سوى مفهوم الوحدة البشرية بإسم [الروح القدس]!»

«تلك الروح مألوفة بالنسبة لنا ـ ونحن لا نضمر لها حباً عظيماً.»

«إن ولعك الشديد بالقومية ينفر بنحو جلي من الكونية القاهرة للعالَم الخاصة بالكنيسة. مع هذا، لا أستطيع أن أفهم كيف توفق قوميتك مع خوفك الشديد من الحرب. لأن إعجابك الشديد الآيل للزوال بالدولة لا بد أن يجعل منك بطل المفهوم الإيجابي للقانون، وهكذا ـ»

«أوه، إذا ما تكلمنا عن القانون ـ ان مفاهيم القانون الطبيعي والعقل البشري الكوني عاشت، سيدي العزيز، في القانون الدولي.»

«أُفٍ، ان قانونك الدولي ما هو إلا تحولاً روسوياً آخر لـ [ius divinum] الذي ليس له شيء مشترك مع الطبيعة أو العقل البشري، وهو مستند على الإلهام ـ»

«لا تدعنا نتخاصم على الأسماء، أيها البروفيسور! ما أستطيع أن أسميه القانون الطبيعي والدولي، أنت حرٌ في أن تدعوه [ius divinum]. الشيء الجوهري هو انه فوق القوانين الصريحة للدول القومية يرتفع هناك سلطان قضائي أعلى، فوّض بأن يحكم بين المصالح المتعارضة بوساطة محاكم التحكيم(٤٥).»

«محاكم التحكيم! الإسم نفسه أبله! في محكمةٍ مدنية كي تبدي رأياً في قضايا الحياة والموت، تنقل إرادة الله الى الإنسان، وتحدد مجرى التاريخ! ـ حسن، هذا يكفي بالنسبة لـ [أجنحة الحمام]. الآن حان أوان [قوادم النسور] ـ ماذا بشأنها؟»

---

(٤٥) محاكم التحكيم Courts of arbitration: وهي المحاكم التي تفصل في النزاعات ـ المترجم.

«المجتمع المدني ـ»

«أوه، المجتمع لا يعرف ماذا يريد. انه ينادي من أجل حملةٍ ضد التدني في نسبة المواليد، انه يطالب بتخفيض كلفة إنجاب الأطفال وتدريبهم على مهنة معينة ـ وفي غضون ذلك الناس يُساقون كما تُساق الأنعام، وكل الحرف والمهن تكون مزدحمة جداً بحيث ان النزاع الدائر حول حوض التغذية يضع في الظل رعب الحروب الماضية. مديات مفتوحة، مدن جنائنية! تقوية السلالة! لكن لِمَ التقوية، طالما ان الحضارة والتقدم قررا انه لن تكون هناك حروب بعد الآن؟ بينما تشفي الحرب كل شيء ـ تقوم هي بـ [تقوية السلالة]، وفي الوقت نفسه توقف التدهور في نسبة المواليد.»

«أنت تمزح، بالطبع، لا يمكنك أن تقصد ما تقول. ونقاشنا يبلغ نهايةً ما في اللحظة المناسبة، منها نحن أولاء»، قال سيتيمبريني، ولفتَ أنظار إبني الخالتين بعصاه الى الكوخ الذي توقفوا أمام بابه برهةً. كان الكوخ يقوم قرب بداية القرية: بناء متواضع، منفصل عن الشارع بوساطة حديقة أمامية ضيقة. كرمة برية، تنبثق من جذور جرداء عند الباب، قذفت ذراعاً على إمتداد جدار الطابق الأرضي نحو نافذة عرض دكان صغير جداً. الطابق الأرضي، شرح سيتيمبريني، يعود الى الشماع؛ كان نافته يقيم في الطابق الأعلى منه، مع دكان الخياط، وكانت غرفته الخاصة في السقف، حيث كان له مكتب صغير هادئ.

نافته، بمودةٍ تلقائية غير متوقعة، عبّر عن أمله في أن يُسر بلقائهما ثانية. «تعالا لزيارتي»، قال: «أقول [تعالا لزيارتي]، إذا كان الدكتور سيتيمبريني هنا ليس له مطالبات سابقة في صداقتكما. تعالا، على أية حال، وقتما تشاءان، كلما أحسستما بالرغبة في الحديث. أنا أثمن تثميناً عالياً تبادل الآراء مع الشباب، وربما لا أخلو تماماً من العُرف التعليمي. أستاذ مأوانا هنا» ـ أومأ برأسه جهة سيتيمبريني ـ «يعتقد ان الإنسانية البورجوازية الحالية تحتكر الموهبة التعليمية؛ إنما ينبغي لنا أن نتجادل معه. حتى وقت آخر، إذاً!»

سيتيمبريني خلق صعوبات ـ كانت هناك صعوبات، قال هو. أيام الإقامة المؤقتة للملازم هنا في الأعالي معدودة؛ وكذلك بالنسبة للمهندس، انه لا

ريب سيضاعف حماسته في طقس العلاج كي يتبع ابن خالته نازلاً الى الوادي بأسرع ما يستطيع.

غير ان الشابين وافقا تباعاً. عبّرا عن موافقتهما على دعوة السيد نافته بالانحناء، وفي الدقيقة التالية عبّرا عن شكرهما لعدالة ملاحظات السيد سيتيمبريني. وهكذا كل شيء تُرك مفتوحاً.

«ماذا دعاه؟» سأل يواكيم، بينما كانا يصعدان الدرب الملتوي المؤدي الى مصح بيرغهوف.

«فهمته يقول [أستاذ المأوى]»، أجاب هانز كاستورب. «كنتُ أسائل نفسي تواً حول هذا اللقب. لعلها كانت نكتة ما أو غيرها، إنهما يلقبان أحدهما الآخر بأسماء غريبة. سيتيمبريني أسمى نافته [أمير السكولاستية] ـ وهو لقب لا بأس به. كان أساتذة الجامعات في القرون الوسطى هم اللاهوتيون، الفلاسفة العقائديون، إن شئت. تحدثنا مراتٍ عدة عن العصور الوسطى؛ ذكّرني ذلك باليوم الأول لمجيئي هنا، حين قال سيتيمبريني انه توجد هنا في الأعالي أشياء كثيرة من القرون الوسطى ـ إنها أدرياتيكا فون ميليندونك، اسمها، أعني، هو الذي جعله يقول ذلك ـ ما رأيك به؟»

«مَنْ؟ الرجل ضئيل البدن؟ لم أحبه كثيراً جداً. مع انه قال بعض الأشياء راقت لي في ما يتعلق بـ محاكم التحكيم ـ لم تكن هي سوى رياء منحرف، بطبيعة الحال. غير انني لم أبالِ كثيراً بالرجل نفسه ـ قد يقول إنسان ما أشياءً جيدة كثيرة على وفق ما يشاء، لا يهمني ما إذا كان هو نفسه شخصاً غريب الأطوار. وكان فعلاً كذلك، لا يمكنك أن تنكر هذا. ذلك الشيء المتعلق بـ[مكان الجِماع] كان مبهماً بنحو جلي، ناهيك عن ذكر أي شيء آخر. وهل رأيت الأنف الكبير اليهودي الذي يمتلكه؟ لا أحد سوى اليهود يملكون مثل هذه الأشكال البشرية الضعيفة. هل تفكر حقاً في زيارة الرجل؟»

«زيارته ـ بالطبع سوف نقوم بزيارته»، أوضح هانز كاستورب. «حين تحدثتَ عن كونه ضعيفاً، العسكري فيك وحده هو الذي كان يتكلم. وأما بالنسبة لأنفه، الكلدانيون لهم أنوف من النوع ذاته، وكانوا يعرفون حق

المعرفة كل شيء عن أنفسهم، يعرفون أشياءً كثيرةً غير الخيمياء. نافته فيه بعض صفات معلِم أسرار الدين، أثار اهتمامي كثيراً. لن أقول انني فهمته فهماً كاملاً، على أية حال، لكن إذا تسنى لنا أن نلتقي به كثيراً ربما نستطيع أن نفهمه جيداً، أظن انه ليس شيئاً بعيد الإحتمال مطلقاً اننا قد نتعلم شيئاً من خلال التعرف عليه.»

«أوه، أنتَ، وتعلمك! انك تغدو أكثر حكمةً طوال الوقت، بعلم الأحياء خاصتك، وعلم النبات خاصتك، وتغيرك المستمر من فكرة الى فكرة! رحتَ تتفلسف عن الزمن من أول يوم لمجيئك. لكننا لم نأتِ الى هنا في الأعالي لنكتسب الحكمة. بل أقبلنا كي نكتسب الصحة، كي نغدو أكثر صحة شيئاً فشيئاً الى أن نصبح سليمين تماماً، وأحراراً في المغادرة، والنزول الى الأسفل وهو الموقع الذي ننتمي إليه!»

«[في الماضي جلستْ الحرية على الأعالي]»، إقتبس هانز كاستورب بابتهاج. «قل لي أولاً ما هي الحرية»، مضى يقول. «نافته وسيتيمبريني تجادلا كثيراً وبشدة وعنف حولها من دون أن يتوصلا الى أي إستنتاج. سيتيمبريني يقول انها قانون محبة الإنسان لآخر من طرازه، ذلك يبدو شبيهاً بقولٍ ردده جده، الـ carbonaro. لكن مهما كان هو شجاعاً، ومهما كان سيتيمبريني نفسه شجاعاً فإن ـ»

«أجل، لاح عليه عدم الإرتياح حين تحدثنا عن الشجاعة الجسدية.»

«لا أستطيع أن أمنع نفسي من التفكير انه سيكون خائفاً من أشياء لا يخاف منها نافتة ضئيل البدن، وان حريته وشجاعته هما تقريباً هراء. هل تحسب انه ستكون له الجرأة [كي يضيع نفسه أو حتى يترك نفسه للذبول؟][٤٦]»

«لماذا بدأتَ فجأة تتكلم الفرنسية؟»

«أوه، لا أدري. الجو هنا في الأعالي دولي جداً. لا أدري أيهما الذي يجد فيها سعادة أكبر ـ سيتيمبريني من أجل جمهورية ـ العالم البرجوازية

---

(٤٦) الكلمات بين القوسين وردت بالفرنسية ـ المترجم.

خاصته، أم نافته من أجل الكوزموبوليس[٤٧] الكهنوتية خاصته. كما ترى، أنا أحتفظ بأذنيّ مفتوحتين؛ لكن مع ذلك وجدتُ الأمر بعيداً عن الوضوح. على العكس، كانت النتيجة تشوشاً أكثر من أي شيء آخر.»

«هي كذلك دوماً. سوف تكتشف انه عندما يناقش الناس أفكارهم ويعبّرون عنها لا شيء على الإطلاق يسفر عنها سوى تشوشٍ مرتبك بنحو أسوأ. أقول لك، لا يهم أبداً أيّ أفكار تلك التي يحملها الإنسان، طالما انه شاب محترم. الشيء الأفضل هو أن لا تكون له أي أفكار، وأن يؤدي واجبه فقط.»

«أجل، بوسعك أن تقول ذلك لأنك جندي، وحياتك رسمية بكل معنى الكلمة. لكن الأمر مختلف معي، فأنا مدني، ومسؤول تقريباً. وينبغي لي القول انه شيء مقلق نوعاً أن يكون هناك الى يمينك رجل يبشر بجمهورية ـ العالم الدولية، ويمنع الحرب منعاً باتاً، ومع ذلك هو وطني جداً، بحيث انه أبداً يطالب بتصحيح تخم البرينر، الى درجة شن حربٍ ما من أجل الحضارة بسببه؛ وبعدئذ في الجانب الآخر ثمة رجل ضئيل البدن يؤكد ان كل دولة قومية هي إختراع من اختراعات الشيطان، ويهتف مشجعاً لوحدة كونية معينة يراها في الأفق البعيد ـ مع ذلك في اللحظة التالية نبرر غرائزنا القومية ونختلق مزاحاً مرعباً حول مؤتمرات السلم. يا للخلط! مهما كلف الثمن يلزمنا أن نذهب لزيارته، ونحاول أن نفهم أفكاره. أنت تقول اننا لم نأتِ الى هنا في الأعالي كي نغدو أكثر حكمةً، بل أكثر عافيةً، وهذا شيء حقيقي. غير ان هذا التشوش كله لا بد من ترويضه، وإذا لم تشاركني هذا الاعتقاد، فعلامَ إذاً قسّمتَ العالم الى معسكرين متعاديين، بوسعي أن أخبرك، أنه خطأ فاحش، يستحق التوبيخ.»

---

(٤٧) الكوزموبوليس cosmpolis: مدينة يتألف سكانها من عناصر إجتمعت من مختلف أرجاء العالم ـ المترجم.

عن مدينة الله[٤٨]، الحرية بوساطة الشيطان

هانز كاستورب في شرفته، يدرس نباتاً. الصيف الفلكي بدأ الآن، والنهارات شرعت تقصر، نباتاً أزهر بترفٍ في أمكنةٍ عدة: الحوضية، من العائلة الحوذية، الذي نما في مجموعة، ذا سيقان طويلة تحمل أزهاراً زرقاً، بنفسجية، أو بنّية ـ محمرة، وينشر أوراقاً شبيهة بالعشب. نبت في كل مكان، لكن بغزارة شديدة في ذلك القاع الهادئ حيث، قبل عام تقريباً، رآه أول مرة: ذلك الوهد البعيد المشجر، المليء بصوت الماء المندفع بعنف، حيث فوق المصطبة أعلى جسر المشاة، إنتهت مسيرته الراجلة، المحفوفة بالمخاطر بنحو سيء، الموقوتة بنحو سيء، المقدّرة بشكل سيّئ. كان يعود لزيارته المرة تلو المرة.

كان، إذا ما بدأ المرء مسيرته بطيش أقل مما يفعل هو، لا يبعد مسافةً كبيرةً الى هناك. إذا إرتقيتَ المنحدر من نهاية طريق المزلجات في القرية، بمستطاعك أن تصل البقعة الفاتنة في غضون عشرين دقيقة، حيث جسر الخشب العائد للدرب المار عبر الغابة فوق الطريق حين يهبط من الشاتزالب، شريطة أن تلازم أقصر السبل، وأن لا تتوانى ولا تتوقف طويلاً جداً كي تلتقط أنفاسك. حين يكون يواكيم مسجوناً في المؤسسة لتأدية طقس العلاج، ولغرض إجراء بعض الفحوصات، وتحاليل الدم، تصوير الأشعة السينية، الوزن، أو زرق الحقن، فإن هانز كاستورب، سوف يتمشى متنزهاً الى هناك في المناخ الجيد، بعد الفطور الثاني، أو حتى بعد الأول؛ أو يوظف الساعات بين الشاي والغداء في زيارة بقعته الأثيرة، والجلوس على المصطبة حيث باغته مرةً الرعاف العنيف، والإصغاء برأسٍ محني الى صوت السيل والنظر الى المشهد المنعزل، بالأعداد الهائلة من نباتات الحوضية الزرق المزهرة في أعماقه.

ألهذا السبب وحده جاء؟ لا، جلس هناك كي يختلي بنفسه: كي يتذكر

---

(٤٨) مدينة الله City of God: السماء ـ المترجم.

ويراجع في باله وقائع الشهور المنصرمة وانطباعاتها. كانت كثيرة، متنوعةً، ويصعب تصنيفها، بدت جد متحابكة وجد متمازجة، وتكاد تخفي أي اختلاف واضح بين الحقيقة الملموسة وتلك المتخيلة أو التي حُلم بها. ولكن مرةً والى الأبد، كان لها في جوهرها شيء غريب، شيء جعل فؤاده غير الموثوق به كدأبه من أول يوم له هنا في الأعالي، يتوقف حين فكر بها، وبعدها جعل يرتعش بوحشية. أو هل كانت إرتعاشاته تُفسَّر بصورة كافية بالفكرة القائلة ان سنةً كاملةً مضت منذ أن جلس هنا أول مرة، ففي هذه البقعة بالذات، حيث جاء الى هنا مرة في حالة من الحيوية المتدنية وشاهد شبح برييبسلاف هيبه، ، ونباتات الحوضية التي كانت تزهر من جديد؟

الآن، في الأقل، على مصطبته عند الماء المندفع بقوة، لا يعاني من نزف الأنف ـ أمسى هذا شيئاً من الماضي. يواكيم قال من البداية انه ليس من السهل أن يتأقلم المرء، ووقت تلك الزيارة الأبكر كان ما يزال يجده شيئاً عسيراً. لكنه حقق تقدماً؛ والآن، بعد أحد عشر شهراً، المسألة يجب أن تُعد بحكم المنتهية. والأكثر، في ذلك الإتجاه، لا يمكن أن تُعد متوقعة. كيمياء هضمه نظمت نفسها، ماريا كانت لها نكهتها اللذيذة القديمة جداً، أغشيته المخاطية الجافة شفيت بدرجة كافية كي تجعله يستمتع من جديد بعبير تلك العلامة التجارية الجديرة بالاحترام للسيجارات (جمع سيجار). هو ما يزال يطلبها بإخلاص من بريمين حين يبدأ مخزونه بالنقصان، مع ان واجهات حوانيت المنتجع العالمي عرضت سلعاً جذابة. ماريا، أحس هو، خلقت نوعاً من الصلة بينه، هو المنفي، وبين بيته في [الأرض المنبسطة] ـ صلة مؤثرة أكثر من البطاقات البريدية التي كان يبعثها بين حين وآخر الى خاله، الفترات الزمنية الفاصلة بينها أمست أطول فأطول نسبياً بينما هو يتشرب أكثر مفاهيم الزمن الرحب السائدة «هنا في الأعالي». كان في الأغلب يرسل بطاقات بريدية ذات صور، فالمرء يُسر أكثر حين يتسلّم بطاقات من هذا النوع، بمناظر طبيعية فاتنة للوادي في حلة الشتاء والصيف القشيبة. فهي تمنحه على وجه الدقة الحيز الذي يحتاجه كي يخبر أقرباءه بآخر أنباء حالته الصحية، كل ما يمكن أن يخرج من أفواه الأطباء بعد الفحص الشهري أو

الفحص العام: كأن يقول، بالرؤية والتسمع، كان قد تحسن بصورة بينة، ولكنه ما يزال غير خالٍ تماماً من العدوى؛ أي ان الزيادة الطفيفة المستمرة في درجة حرارته ناجمة عن مناطق صغيرة ملوثة بالجراثيم ستختفي بصورة مؤكدة من دون أن تترك أثراً لو تحلى بالصبر، وعندئذ لن يكون بحاجة الى أن يعود الى هنا. كان يعرف حق المعرفة ان الرسائل الطويلة لم تكن مطلوبة ولا متوقعة، إذ لم تكن تلك جماعة إنسانية أو أدبية يخاطبها هو نفسه هناك في الأسفل، وان الإجابات التي كان يتسلمها تفتقر بالقدر نفسه الى التمدد. كانت ترافق حصراً وسائل العيش التي تأتي إليه من البيت، الدخل المالي من ميراثه الأبوي. محوَّلاً الى النقد السويسري، كان هذا مفيداً جداً بحيث انه لم ينفق قسطاً واحداً منه حين يصل التالي، موضوعاً في رسالة مؤلفة من سطور قلائل مطبوعة بتوقيع «جيمس تاينابيل»، ينقل تحاياه وأطيب تمنياته بالشفاء العاجل، فضلاً عن خال الأم تاينابيل وغالباً من البحري بيتر أيضاً.

هوفرات، هكذا أخبر هانز كاستورب قومه، تخلى مؤخراً عن الحقن: هي لا تلائم المريض الشاب. هي تورثه الصداع والاعياء، وتسبب له فقدان الشهية، تنقص وزنه، جعلت حرارته ترتفع في البداية، ولم تفلح في إنقاصها على المدى الطويل. وجهه يتوهج أحمر ـ وردياً بحرارة جافة داخلية، وهي علامة بالنسبة لطفل الأرض الواطئة هذا، الذي تربى في جوٍ يتمتع بدرجة عالية من الرطوبة، علامة تفيد بأن التأقلم لا يتكون من «التعوّد على عدم التعود عليه» ـ الذي، الواقع، رادامانثوس نفسه لم يفعل ذلك، كونه إرجواني الخدين دوماً. «بعض الناس لا يستطيعون أن يعتادوا عليه»، قال يواكيم، ويبدو ان هذه هي حالة هانز كاستورب. فحتى إرتعاشة عنقه تلك، التي واتته غبَّ وصوله الى هنا، لم تختفِ تماماً، بل كانت تداهمه خلال المشي أو التكلم ـ نعم، حتى هنا في الأعالي في معتزله المليء بالأزهار الزرق، بينما هو يجلس متأملاً مجمل مغامراته، بحيث ان إسناد الذقن المبجل من جانب هانز لورنز كاستورب أمسى تقريباً عادةً ثابتةً له. هو نفسه سيكون فجأة واعياً باستخدامه وله ذكرى مفاجئة بالياقة العالية للرجل العجوز، الصيغة المؤقتة لطوق الرقبة المكشكش الحلقة الذهبية الباهتة لحوض التعميد؛ الصوت

الوقور الذي يفوق الوصف لـ«الأكبر، الأكبر، الأكبر». هذه وما شاكلها من الأفكار المصاحبة تقوده بدورها شيئاً فشيئاً الى الوراء كي يفكر ملياً في مغامراته في الحياة.

بريبيسلاف هيبه لم يظهر له ثانية بهيئة جسدية، كما حدث قبل أحد عشر شهراً خلت. ان رحلة التأقلم إنتهتْ، لم تعد هناك رؤى. لم يعد جسده يرقد مستلقياً على ظهره بينما أناه تطوف عائدة الى حاضر بعيد. ليس ثمة حوادث من هذا الطراز. ان حيوية ووضوح تلك الذكرى ـ الصورة، إذا ما رجعت كي ترفرف أمام عينيه، مع ذلك حفظت في نطاق معقول وطبيعي ـ لكنها ربما تدفع هانز كاستورب كي يسحب من جيب الصدر خاصته اللوح الزجاج الذي كان قد تسلمه كهدية، ومحفوظاً هناك في مظروف موضوع في مغلف بريد. كانت صورة صغيرة سالبة. أُخذت في مستوى واحد مع الأرض، كانت سوداء ومعتمة، لكن إذا ما رُفعت إزاء الضوء، تكشف المادة للعين البشرية: نسخة طبق الأصل شفافة للشكل البشري، الهيكل العظمي للأضلاع، الخط المحيطي للقلب، قوس الحجاب الحاجز، المنفاخان اللذان كانا رئتين، فضلاً عن الكتف وعظام العضدين، كلها محجوبة بمظروف معتم ضبابي من اللحم ـ ذلك اللحم الذي ذاقه هانز كاستورب مرةً، في أسبوع الكرنفال بصورة مجنونة حقاً. ما يثير الدهشة ان قلبه غير المستقر توقف عن الخفقان أو جعل يخفق بوحشية حين نظر إليها، ومن ثم، مع صوت المياه المتدفقة بقوة، مستنداً بذراعين متقاطعتين على الظهر الناعم لمصطبته، رأسه مائل على كتفه، بين نباتات الحوضية المزهرة، شرع يقلّب كل شيء في باله!

رفرفت أمام عينيه ـ صورة الشكل البشري سماوية، تحفة الحياة العضوية ـ كما حدث أن رفرفت مرةً في تلك الليلة الباردة جداً والمرصعة بالنجوم حين غاص عميقاً في دراستها. ان تأمله لمنظرها الداخلي كان متصلاً إتصالاً لا ينفصم في بال الشاب مع جمهرةٍ من المسائل والحصافات، ليست من النوع الذي كان الطبيب يواكيم يحتاج كي يتعلق بها، ولكن من النوع الذي جعل هانز كاستورب يشعر، كونه مدنياً، بأنه مسؤول عنها. حقيقة، هناك في الأسفل، في السهل، لم يكن واعياً بها، وليس من الجائز أن يكون كذلك.

هنا في الأعالي حدث الشيء، حيث يجلس المرء هنا منعزلاً بورع، متطلعاً من إرتفاع خمسة آلاف قدم أو نحو ذلك الى الأرض والى كل ما عليها ـ وربما، أيضاً، بفضل الحالة الفيزيولوجية للمرء، بجسم يُجذب، إذا صح التعبير، الى راحة أسمى بفعل السموم التي أفرزتها عدوى داخلية محدودة كي تشتعل، حرارةً جافةً، في الوجه. تأملاته جذبته الى سيتيمبريني، عازف الأرغن اليدوي في الشوارع والمعلّم، الذي رأى والده ضوء النهار في اليونان، الذي اختار أن يعرّف حب الصورة كسياسة مفهومة، بلاغة، وثورة، الذي كان بوسعه أن يكرس رمح المواطن على مذبح البشرية. فكّر بالرفيق كروكوفسكي، والمقايضة التي كانت بين الإثنين في الحجرة الشفقية تحت السلالم. فكّر في الطبيعة الثنائية للتحليل، وتساءل الى أي حد كان هو ملائماً للوقائع ومساعداً على التقدم، الى أي حد كان هو متصلاً بالقبر وتشريحه كريه الرائحة. إستدعى صورتي الجدين، الثائر والموالي، كليهما لأسبابٍ متناقضة تماماً، يلبسان السواد؛ قابل أحدهما مع الآخر، وامتحن قيمتيهما. مضى أبعد من ذلك، وتشاور مع نفسه في مسائل واسعة جداً مثل المظهر البشري والحرية، الجسد والروح، الشرف والعار، الزمن والأبدية ـ واستسلم لسحر موجز ولكنه عنيف للدوار، ولفكرة مفاجئة مفادها ان نباتات الحوضية التي تحيط به من كل حدب وصوب كانت تزهر مرةً أخرى، وسنته هنا تقترب من نهايتها.

كان يملك اسماً غريباً للإنشغالات العقلية الجدية التي تشربته في معتزله الفاتن؛ أسماها «جرد البضائع الموجودة»؛ هذا التعبير، الفظ، حدد له الاستخدام الذي كان يحبه، مع انه كان مرتبطاً في ذهنه بظاهرة الخوف والدوار والخفقان، وجعل وجهه يشتعل حتى أكثر من عادته. مع ذلك بدا ثمة توافق معين في الحقيقة القائلة ان التوتر العقلي المشوّش أرغمه على الاستفادة من اسناد الذقن الى الأسفل؛ تلك الطريقة في حمل رأسه أضفت عليه وقاراً خارجياً في أن يجاري الأفكار التي مرت عبر دماغه بينما هو يتأمل الصورة. «Homo Dei»ـ هكذا أسمى نافته القبيح الصورة، حين كان يدافع عنها ضد المبدأ الإنجليزي لمجتمع اقتصادي. وبمصاحبة طبيعية قرر هانز

كاستورب انه في مصلحة هذه الأنشطة العقلية الخاصة به، وموقفه المسؤول كونه عضواً مدنياً في المجتمع، ينبغي له فعلاً ـ ويواكيم ينبغي له أيضاً ـ ان يجلّ الرجل ضئيل البدن وذلك بزيارته. سيتيمبريني لم يحبذ الفكرة، بما ان هانز كاستورب كان داهية ورقيق الإحساس بدرجة كافية كي يعرف هذا.

حتى اللقاء الأول أثار إستياء الإنساني، الذي حاول بنحو جلي أن يمنعه ويحمي طالبيه من الإتصال مع نافته، على الرغم من انه شخصياً رافقه وتجادل معه. «طالبيه» ـ هكذا صاغها بنحوٍ ماكر طفل الحياة الرقيق، عارفاً طوال الوقت انه هو وحده موضوع قلق سيتيمبريني. هذا هو حال المعلمين. انهم يسمحون لأنفسهم بالإسترخاءات، قائلين انهم «بالغون»، ويحرمون طلابهم من الشيء نفسه، قائلين انهم ليسوا «بالغين». كان ذلك شيئاً جيداً، إذاً، ان عازف الأرغن اليدوي لم يكن حقاً في وضع كي يحرم الشاب هانز كاستورب من أي شيء ـ ولا حتى حاول أن يفعل ذلك. انه فقط شيء ضروري ان الطفل الرقيق يجدر به أن يخفي إدراكاته الحسية الرقيقة وأن يتخذ سيماء الإغماء؛ عندما لا يكون هناك شيء يمنعه عن الإستفادة الودية من دعوة نافته. التي، على وفق ذلك، قام بها، رافقه يواكيم، شاء أم أبى، عصر يوم أحد بعد مدة الإستراحة ـ العلاج الرئيسة، بعد لقائهما الأول بأيامٍ معدودات.

كانت مجرد مسيرة دقائق قلائل من مصح بيرغهوف الى باب الكوخ المكلل بالكرمة. دخلا، مارين بباب حانوت صغير الى يمينهما، وصعدا الدرجات الضيقة البنية الى باب الطبقة الأولى. قرب الجرس كانت هناك لوحة صغيرة، بإسم لوكاشيك، خياط الألبسة النسائية. فُتح الباب من قبل غلام نصف ناضج، يلبس نوعاً من جرموقين[(٤٩)] خاصين بالخدم وسترة مخططة، خادم صغير، ذو رأس حليق وخدين متوردين. سألاه عن البروفيسور نافته، طبعا إسميهما في ذهنه، طالما انهما لم يجلبا معهما

(٤٩) جرموقين gaiters: الجرموق حذاء نصفي (مطاط الجانبين) لا يتجاوز أعلى الكاحل ـ المترجم.

بطاقتين؛ قال انه سيذهب ويسلمهما الى السيد نافته ـ الذي سمّاه من دون لقب. كان الباب المقابل للمدخل مفتوحاً، ومنح رؤية للحانوت، حيث، بغض النظر عن العطلة، كان لوكاشيك، الخياط، يجلس متقاطع الساقين على طاولة ويخيط. كان شاحباً وأصلع الرأس، ذا أنف كبير منحن، تحته شارباه الأسودان يتدليان على جانبي فمه ومنحاه مظهراً مكفهراً.

«طاب عصرك»، حياه هانز كاستورب.

«Grutsi»، أجاب الخياط، بلهجةٍ سويسرية، لم تناسب اسمه ولا طلعته وبدت غريبة وغير ملائمة.

«أتشتغل بجد؟» مضى هانز كاستورب يقول، مومئاً برأسه. «أليس اليوم أحد؟»

«شيء مُلحّ»، قال الخياط باقتضاب، وهو يدرز.

«هل هو فستان جميل؟ هل تصنعه بعجل من أجل حفلةٍ ما؟» حدس هانز كاستورب.

الخياط جعل السؤال معلقاً، برهةً من الوقت، قضم غزله القطني، وسلك خيطه في سم الابرة من جديد. بعد هنيهةٍ أومأ برأسه.

«هل سيكون جميلاً؟» ألح هانز كاستورب. «هل سيكون له كمّان؟»

«نعم، كمّان، انه لألمانية عجوز»، أجاب لوكاشيك، بلهجة بوهيمية قوية. عودة الغلام قاطعت هذه المحادثة، التي تمت عبر المدخل. السيد نافته توسل الى النبيلين أن يدخلا، أعلن، وفتح باباً على مبعدة خطوات قلائل في الممر، رافعاً الستار المتدلي فوقه كي يسمح لهما بالدخول. السيد نافته، بصندلين، كان واقفاً على سجادة خضراء كالطحلب في الداخل، واستقبل ضيفيه.

ابنا الخالتين كلاهما بوغت بترف حجرة المكتب ذات النافذتين. لا بل ذُهلا؛ لأن فقر الكوخ، السلّم الحقير والممر البائس، تجعل المرء لا يتوقع شيئاً من نوع ذلك الترف. المقارنة أضفت على أثاث نافته الأنيق سمةً خرافية مميزة، لم يكن هو نفسه يملكها، وما كان ليبدو في عيون هانز كاستورب ويواكيم زيمسين لو انه خلاف ذلك. على أية حال قطع الأثاث ممتازة أيضاً،

وحتى أخاذة؛ وعلى الرغم من طاولة الكتابة ورفوف الكتب، لم تكن الحجرة تمتاز بمظهر رجالي. كان هناك الشيء الكثير من الحرير ـ حرير خمري اللون، حرير ضارب الى الأرجواني؛ ستائر نوافذ حريرية، ستائر أبواب حريرية، وأغطية حرير لقطع الأثاث المرتبة على الجانب الضيق من الحجرة أمام حائط مغطى تقريباً كلياً بنسيج (غوبيليني) مزدان بالرسوم والصور. كراسٍ مريحة باروكية ذات وسائد صغيرة على المساند إجتمعت حول طاولة صغيرة مكبلة بالمعدن، وخلفها تقف كنبة باروكية ذات وسائد مخمل. خزانات كتب كَسَتْ حائط المدخل على جانبي الباب. هي وطاولة الكتابة، أو، بالأحرى، المكتب ذو الغطاء اللفاف[٥٠]، انتصب بين الشباكين، كان من خشب الماهوغاني المنقوش؛ أبواب الزجاج لخزانات الكتب كانت مكسوة بالحرير الأخضر. لكن في الزاوية الى يسار مجموعة الكنبة وقف عمل فني، منحوتة خشب كبيرة مطلية، اعتلت منصة مكسوة بالأحمر: المنتحبة[٥١]، مروِّعة بصورة عميقة، ومؤثرة بنحو غير بارع الى درجة كونها مغايرة لكل ما هو طبيعي[٥٢]. العذراء، تعتمر قبعةً، بحاجبين ملمومين وفم مزوّى ومنتحب، و[رجل الأحزان] في حضنها ـ إذا ما اعتبرناه عملاً فنياً فعلينا القول انه كان بدائياً وذا عيوب، ذا تشريح مبالَغ به بنحوٍ غير متقن وجاهل، الرأس المتدلي مزوّد بالأشواك، الوجه والأطراف منقطة بالدم، نقاط هائلة من الدم تنبجس من الجرح الكائن في الجنب ومن آثار الأظافر في اليدين والقدمين. هذه التحفة حقيقة تمنح الغرفة الحريرية طابعاً فريداً. ورق الجدران، على جدار الشباك وفوق خزانات الكتب، واضح انه زُود من قبل المستأجر: الشريط الأخضر فيه ضاهى السجادة المخمل الناعمة المفروشة

---

(٥٠) لمكتب ذو الغطاء اللفاف roll top desk: منضدة كتابة ذات غطاء لفاف مؤلف من أضلاع خشبية متوازية ـ المترجم.

(٥١) المنتحبة Pieta (بالإيطالية): صورة (أو تمثال) تمثل العذراء تنتحب فوق جثمان المسيح (ع) ـ المترجم.

(٥٢) وردت في النص كلمة غروتسك grotesque وهو فن زخرفي يتميز بأشكال بشرية وحيوانية غريبة، يمتاز هذا الفن بالغرابة والبشاعة ـ المترجم.

فوق البساط الأحمر. كان للشباكين ستائر كريمية اللون تتدلى الى الأرض. السقف فقط كان من المستحيل معالجته: كان أجرد ومليئاً بالشقوق؛ إنما تتدلى منه ثريا صغيرة فينيسية[٥٣].

«جئنا في زيارة صغيرة»، قال هانز كاستورب، وعيناه تحدقان في الرعب الورع في الزاوية أكثر مما تنظران الى مالك الحجرة المدهشة، الذي كان يعبّر عن مسرته ذلك ان إبني الخالتين حافظا على عهدهما. بحركةٍ كريمة من يده اليمنى الصغيرة يرشدهما الى كراسي الساتان. إلا ان هانز كاستورب مضى كما لو كان مسحوراً مباشرةً الى المجموعة الخشبية، ووقف أمامها، ذراعاه على خاصرتيه ورأسه مائل الى أحد الجانبين.

«ما هذا الذي تملكه هنا؟» سأل بصوتٍ خفيض. «انه جيد بصورة مرعبة. يا له من تعبير عن المعاناة! انه قديم، بطبيعة الحال؟»

«القرن الرابع عشر»، رد نافته. «لعله جاء من الراين. هل أثر فيك؟»

«بصورةٍ هائلة»، قال هانز كاستورب. «انه يؤثر في أي إنسان ـ لا أستطيع أن أتمالك نفسي. لم يدرْ بخلدي أبداً انه سيكون هناك شيء في العالم في وقت واحد بمنتهى ـ سامحني ـ القبح، وبمنتهى الجمال.»

«كل الأعمال الفنية التي وظيفتها التعبير عن الروح والعواطف»، أجاب نافته، «تكون دوماً في منتهى القبح فضلاً عن كونها جميلة، وفي منتهى الجمال إضافة الى كونها قبيحة. ذلك قانون. جمالها ليس هو الجمال الجسدي، الذي هو غير ممتع حسب ـ بل جمال الروح. والأكثر من ذلك، ان الجمال الجسدي هو تجريد»، أضاف؛ «فقط الجمال الباطني، جمال التعبير الديني، الذي له حقيقة، أي حقيقة.»

«إننا ممتنان لك غاية الإمتنان كونكَ جعلتَ هذه الإختلافات واضحة»، قال هانز كاستورب. «القرن الرابع عشر؟» سأل نفسه؛ «ذلك يعني ألفاً وللثمانة وكذا وكذا؟ أجل، تلك هي العصور الوسطى، هكذا تقول الكتب؛

(٥٣) فينيسية venetian: نسبة الى فينسيا وهي مدينة البندقية الإيطالية ذائعة الصيت ـ المترجم.

وأستطيع تقريباً أن أميّز في هذا الشيء: المفهوم الذي كنتُ حصلتُ عليه عنها مؤخراً. لم أكن أعرف شيئاً البتة عن العصور الوسطى من قبل، أنا نفسي، لأني كنت منهمكاً بالجانب التقني. إنما هنا في الأعالي أوضحوها لي بطرق شتى. لم يكن هناك مبدأ اقتصادي للمجتمع آنذاك، هذا شيء واضح بنحوٍ كافٍ: ما اسم الفنان؟»

هز نافته كتفيه.

«ماذا يهم؟» قال. «لا ينبغي طرح سؤال كهذا ـ ففي الزمن الذي أُنجز فيه لم يكن أحد يسأل هذا السؤال. لم تبدعه عبقرية وحيدة مدهشة ومعلومة جيداً. انه نتاج مجهول الاسم، مجهول الاسم ومشاعي. الأدهى من ذلك، انه فن قوطي متقدم جداً للقرون الوسطى Signum mortificationis. ليس هناك ما هو ملطِف ومجمِّل حسبه العهد الروماني مناسباً لوصف صلب المسيح: هنا ليس ثمة تاج ملكي، ليس ثمة انتصار مهيب على العذاب العظيم والعالم. انه تصريح كامل جداً وجذري جداً بالخضوع للمعاناة وبضعف الجسد. متشائم وزاهد ـ الفن القوطي وحده، حقيقةً، كذلك. لعلك ليس حسن الإطلاع على عمل [انوسنت الثالث][٥٤]، [بؤس الحالة البشرية]: هو قطعة أدبية ظريفة بإفراط ـ كُتبَ في نهاية القرن الثاني عشر، لكن هذا كان أبكر الفنون التي أثثت صورةً إيضاحية تزيينية له.».

تنهد هانز كاستورب تنهدةً عميقة. «سيد نافته»، قال، «كل كلمة تقولها تثير إهتمامي بنحو هائل [Signum mortificationis] ـ هل هذا صحيح؟ سأتذكرها. [مجهول الاسم ومشاعي] ـ وهذا أيضاً يستحق التفكير. أنت محق تماماً في اعتقادك انني لا أعرف عمل ذلك البابا ـ فهمتُ ان [انوسنت الثالث] كان بابا؟ هل فهمتك وأنت تقول انه ظريف وزاهد؟ ينبغي لي أن أعترف انه لم يخيل لي أبداً ان الشيئين يمضيان يداً بيد، لكن حين أفكر في

---

(٥٤) انوسنت الثالث Innocent III (١١٦٠ ـ ١٢١٦): بابا (١١٩٨ ـ ١٢١٦) اعتقاده بأن الطاقة الروحية يجب أن تسود ما هو زائل جلبت له النزاع مع الملوك مثل الملك جون (في بريطانيا) ـ المترجم.

الموضوع، بطبيعة الحال واضح ان الحديث عن البؤس البشري يمنح المرء فرصة طيبة كي يسخر من الأشياء الجسدية. هل يمكن الحصول على العمل؟ أغلب الظن إذا ما طورتُ لغتي اللاتينية أستطيع قراءته.»

«انه بحوزتي هنا»، قال نافته، مومئاً برأسه الى إحدى خزانات الكتب. «انه في خدمتك. لكن ألا ينبغي لنا الجلوس؟ بمستطاعك النظر الى [المنتحبة] وأنت جالس على الكنبة. الشاي جاهز وسيأتي حالاً.»

جلب الخادم الصغير الشاي، وكذلك سلةً فاتنةً مكسوةً بالفضة تحوي شرائح من الكعكة المطبقة(٥٥). وخلفه، على العتبة، من الذي يستطيع أن يقف، على قدمين مجنحتين، مكللاً بابتسامته اللطيفة، ويهتف قائلاً: «Sapperlot!» و«Accidente» - مَنْ هو، حقاً، غير المستأجر من الطبقة العليا، السيد سيتيمبريني، قام بزيارةٍ غير متوقعة لهما كي يلازمهما؟ من نافذته الصغيرة، قال، رأى إبني الخالتين يدخلان، واستعجل كي ينهي صفحة الموسوعة التي كانت في تلك اللحظة في متناوله، كي يلتمس دعوتهما. ليس ثمة شيء أكثر طبيعية من مجيئه: كان هذا مبرراً بفعل التعارف القديم مع نزيلي مصح بيرغهوف، ناهيك عن علاقاته بـ نافته، التي، على الرغم من الإختلافات العميقة في الفكر، كانت نابضةً بالحيوية من كلا الطرفين؛ المضيّف تقبل حضوره كشيء طبيعي. هذا كله لم يمنع هانز كاستورب من أن ينال إنطباعين من مجيئه، الأول واضح كالثاني: الأول، ان السيد سيتيمبريني أقبل كي يمنعهما - أو بالأحرى يمنعه - من أن يكون وحده مع نافته ضئيل البدن، وكي يؤسس، إذا جاز التعبير، موازنة تعليمية؛ ثانياً، ان السيد سيتيمبريني لم يكن يعترض على الإطلاق، بل على العكس، على تبديل غرفته في العليّة من أجل إقامة مؤقتة في غرفة نافته الجميلة والحريرية، ولا على تناول شاي جيد ومناسب. دعك يديه الصغيرتين الصفراوين معاً، مع خط الشعر في كل منهما الممتد للوراء من

---

(٥٥) الكعكة المطبقة layer Cake: كعكة مؤلفة من طبقتين أو أكثر يتخللها مربى أو شوكولا.. إلخ - المترجم.

الخنصر، قبل أن ينهال، بتلذذ واضح وصريح، على الكعكة المطبقة، التي كان لها حشوة من الشوكولاته.

استمر الحوار في موضوع [المنتحبة]، هانز كاستورب بقي على مقربة من المسألة بالنظرة والكلمة، وملتفتاً الى الإنساني كما لو انه يضعه في علاقة حرجة مع العمل الفني. كان كره السيد سيتيمبريني واضحاً في السيماء التي إلتفت بها للعمل ـ ذلك انه أصلاً جلس وظهره الى زاوية الحجرة تلك. كان في غاية التهذيب كي يعبّر عن كل ما شعر به، وقصر نفسه بأن أشار الى عيوب معينة في التناسبات الجسدية للعمل الفني، وعدّها جرائم ضد الطبيعة، والتي كانت بعيدة كل البُعد عن التأثير في عواطفه، لأنها لم تنبثق من عدم كفاءة قديمة، بل من نية سيئة مدروسة ـ مبدأ متناقض جوهرياً. ـ نافته إتفق معه بخبث في ما يتعلق بالتصريح الأخير. مؤكد، لا جدال في نقص المهارة التقنية. ما نملكه هنا هو الإنعتاق الواعي من الطبيعي، إزدراء الطبيعة تجلى من خلال الرفض الورع لإجلالها أي قدر من الإجلال مهما كان. في حين أوضح سيتيمبريني ان تجاهل الطبيعة وإهمال دراستها يقود الناس الى الخطأ. وصفها بأنها مضحكة: اللاشكلانية التي كانت العصور الوسطى وكل الحقب الزمنية المشابهة فريسةً لها، وشرع، بكلماتٍ رنانة، يمجِّد الإرث الأغريقي ـ الروماني، الكلاسيكية(٥٦)، الشكل، الجمال، العقل، السعادة الوثنية في الحياة. هذه الأشياء وهذه الأشياء وحدها، قال كُرّستْ كي تحسّن قدر الإنسان على البسيطة. هانز كاستورب بدأ الكلام هنا. ماذا، سأل هو، بشأن إفلوطين(٥٧)، إذاً، الذي قال انه كان يشعر بالخجل لأن له جسد؟ أو فولتير، الذي، بإسم العقل، إحتج ضد زلزال ليشبونة(٥٨) المخزي؟ هل كانا

---

(٥٦) الكلاسيكية classicism: قواعد الأدب والفن عند الإغريق والرومان، وهي تشمل البساطة والتناسب والسيطرة على العواطف ـ المترجم.

(٥٧) إفلوطين Plotinus (٢٠٤ ـ ٢٧٠م): زاهد وصوفي وفيلسوف تأثر بافلاطون. مؤسس الافلاطونية الحديث ـ المترجم.

(٥٨) ليشبونة Lisbon: عاصمة البرتغال. ضربها زلزال العام ١٧٥٥ ودمر نصف المدينة ـ المترجم.

سخيفين؟ ربما. مع ذلك بدا له، حينما فكر في الموضوع، ان ما يعده شخص ما كونه سخيفاً ربما يُعدُّ مشرِّفاً فكرياً؛ من هذا يتلو ان العداء السخيف للطبيعة أُظهر بوضوح من قبل الفن القوطي، عندما يكون كل شيء قد قيل وأُنجز، كان هو رائعاً بطريقته الخاصة شأن إيماءات إفلوطين أو فولتير، بما انه شهد على الإنعتاق عينه، والكبرياء التي لا تُقهَر نفسها، التي رفضت أن تتنازل لصالح القوى الطبيعية العمياء ـ»

إنفجر نافته ضاحكاً. بدا صوته أكثر من أي وقت مضى أشبه بصوت طبق مصدوع. وانتهى بنوبة سعال.

قال سيتيمبريني بإسلوب منمق لـ هانز كاستورب: «ان تألقك هو نوعاً ما لطاظة بالنسبة لمضيفنا، طالما انه يجعلك تظهر كارهاً لهذه الكعكة اللذيذة. بيد انني لا أعرف ان العرفان بالجميل هو ميزتك القوية. النوع الذي أقصده يتألف من الإستفادة الجيدة من الهدايا المتسلمة.»

بينما بدا هانز كاستورب مجروح المشاعر نوعاً ما، أضاف قائلاً بأسلوبه الرائع جداً: «كلنا نعرفك، أيها المهندس، كونك مضحِّكاً: غير ان نكاتك الساخرة على حساب الحقيقي، الجيد، الجميل لن تجعلني أرتاب في محبتك الجوهرية لها كلها. أنت تعي تماماً، بطبيعة الحال، ان ثمة نوعاً واحداً فقط من التمرد ضد الطبيعة يمكننا أن ندعوه مشرِّفاً؛ ذلك الذي يتمرد باسم الجمال البشري والسمو البشري. الأشياء الأخرى كلها تأتي بالضعة والإنحطاط في قطارها، حتى عندما لا تكون موجهة الى تلك الغاية. وأنتَ تعرف، أيضاً، ما هي الفظاعات اللا إنسانية، ما هو التعصب المهلِك، تلك كلها التي أُظهرت من قبل القرن الذي يدين له النتاج الذي خلفي بولادته. أنظر الى ذلك الطراز شديد البشاعة، عضو محكمة التفتيش ـ في سبيل المثال، الشخصية المتعطشة للدم لـ كونراد فون ماربورغ، وحماسته سيئة السمعة في إضطهاد كل شيء يقف في طريق الهيمنة الفوقطبيعية! أنت بعيد من خطر مناداة السيف والخازوق كأداتين للإحسان الإنساني!»

«مع ذلك في خدمته»، رد نافته معترضاً، «ولدتْ بمشقة الآلات

والماكينات كلها التي بوساطتها حررت [محكمة التفتيش][٥٩] العالم من المواطنين غير المرغوب فيهم. كل عقوبات الكنيسة، حتى الخازوق، حتى الحرمان من الكنيسة، أُنزلت كقصاص كي تنقذ الروح من الخطيئة المميتة السرمدية ـ والتي لا يمكننا أن نقول عنها مثلما يقال عن هوس التدمير الذي أظهره اليعاقبة[٦٠]. إسمح لي أن ألاحظ ان أي نظام للقصاص والعقوبات لا يستند الى اعتقاد بالآخرة هو ببساطة حماقة وحشية. وفي ما يتعلق بانحطاط البشرية، تاريخ مجراها متزامن بالضبط مع نمو الروح البورجوازية. عصر النهضة الأوروبية، عصر التنوير، العلوم الطبيعية وعلم الإقتصاد للقرن التاسع عشر، لم تترك شيئاً لم يُنجزْ ولم يُلقنْ وهو ما من شأنه أن يُعجِّل هذا الإنحطاط. علم الفلك الحديث، مثلاً، حوّل الأرض، مركز (الكل)، المسرح الرفيع للصراع بين (الله) و(الشيطان) من أجل الإستحواذ على مخلوقٍ يشتهيه كل منهما بصورة ملتهبة، الى كوكب سيار صغير حيادي، وهكذا ـ في الأقل حالياً ـ وضع نهايةً للوضع الكوني المهيب للإنسان، الذي إليه، فضلاً عن ذلك، إستند علم التنجيم كله.»

«حالياً؟» سأل السيد سيتيمبريني، بتهديدٍ. كان في سلوكه وهو يتكلم شيء ما يعود لعضو محكمة التفتيش ينتظر الفرصة السانحة كي ينقض على الشاهد ما إن يورط نفسه بالإعتراف بالذنب.

«أكيد. على مدى مئات قلائل من الأعوام، أي»، وافق نافته، ببرود. «في هذا الشأن، ان تبرئة السكولاستية في الطريق، لا بل هي ماضية قُدماً، ما لم تفشل العلامات كلها. كوبرنيكوس[٦١] سوف يُهزم أمام بطليموس[٦٢]. ان

---

(٥٩) محكمة التفتيش Holy Office: محكمة كهنوتية مهمتها حماية الدين والأخلاق ـ المترجم.

(٦٠) اليعاقبة Jacobins: جماعة سياسية متطرفة عُرفت بنشاطها الإرهابي خلال الثورة الفرنسية ـ المترجم.

(٦١) كوبرنيكوس Copernicous (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣): عالم فلك بولوني. قال ان الأرض وسائر الكواكب السيارة تدور حول الشمس وحول نفسها ـ المترجم.

(٦٢) بطليموس Ptolmey (١٢٧ ـ ١٥١ب.م): عالم الفلك والجغرافية الذي سطع نجمه في الإسكندرية، مؤلف كتاب (الجغرافية) الذي ظل معتمداً طوال القرون الوسطى ـ المترجم.

الفرضية الخاصة بالشمس بوصفها مركزاً لاقت تدريجياً معارضة فكرية سوف تنتهي بتحقيق غرضها. العلم سوف يرى نفسه مرغماً فلسفياً على أن يعيد الأرض الى موقع السيادة الذي أُجلستْ فيه من قبل عقيدة الكنيسة.».

«ماذا؟ ماذا؟ معارضة فكرية؟ العلم مرغماً فلسفياً؟ أي نوع من الإختيارية هذه التي تصرّفها؟ وماذا عن المعرفة الخالصة، ماذا عن العلم؟ ماذا عن البحث المتحرّي عن الحقيقة؟ الحقيقة، سيدي العزيز، مرتبطة إرتباطاً لا فكاك منه مع الحرية، الشهداء من أجلها تريدنا أن نعدهم مجرد مجرمين على هذا الكوكب السيار لكن مَنْ هم بالأحرى أكثر الجواهر سطوعاً في تاجها؟»

كان سؤال السيد سيتيمبريني، وإلقاؤه، مذهلين. كان يجلس منتصب القامة، كلماته المستقيمة تدحرجت على نافته ضئيل البدن، وسمح لصوته أن يتضخم في النهاية، بحيث يستطيع المرء القول كيف كان متيقناً من ان خصمه لا يستطيع سوى أن يرد عليه بالصمت الخجول. كان يحمل قطعةً من الكعكة المطبقة بين أصابعه، لكنه الآن طرحها على طبقه، كما لو كان يكره أن يقضمها بعد أن أطلق سؤاله.

أجاب نافته، برباطة جأش كريهة: «سيدي الطيب، ليس ثمة شيء كالمعرفة الخالصة. إن صحة تعاليم الكنيسة في موضوع العلم التي يمكننا أن نلخصها بمقطع القديس أوغسطين(٦٣): أنا أؤمن، كي أستطيع أن أفهم، هذا شيء لا جدال فيه على الإطلاق. الإيمان هو عربة المعرفة، العقل ثانوي. ان علمك الخالص أسطورة. ان معتقداً ما، مفهوماً ما عن الكون، فكرة ما ـ باختصار، إرادة ما، هي دوماً في الوجود؛ مهمة العقل أن يفسرها ويظهرها بوضوح. حتى مفهوم الدليل نفسه، إذا ما تكلمنا سايكولوجياً، يحتوي على عنصر قوي من الإختيارية. ان اللاهوتيين العظماء للقرنين الثاني عشر والثالث عشر كانوا متفقين على ان ما هو خاطئ في اللاهوت لا يمكن أن يكون صحيحاً في الفلسفة. بوسعنا، إن شئت، ان ندع اللاهوت خارج نطاق

---

(٦٣) القديس أوغسطين Saint Augustine (٣٥٤ ـ ٤٣٠م): لاهوتي وفيلسوف كاثوليكي. حاول التوفيق بين الفكر الإفلاطوني والعقيدة النصرانية ـ المترجم.

المناقشة؛ غير ان إنسانية ما، وهي مفهوم ثقافي، ترفض أن تقر ان ما هو خاطئ فلسفياً لا يمكن أن يكون صحيحاً علمياً، لا تستحق التسمية. ان الإتهام الذي وجهته [محكمة التفتيش] الى غاليلو[٦٤] ينص على أن فرضيته كانت فلسفياً منافية للعقل. لم يكن بالمستطاع توجيه إتهام ساحق أكثر.»

«أها! إن تفكير نابغتنا العظيم أصبح يملك الصحة الأكبر في خاتمة المطاف! لا، دعنا نكون جديين، أيها البروفيسور. أجبني على ذلك، أجبني بحضور هذين المستمعين الشابين: هل تؤمن بالحقيقة، بالموضوعي، بالحقيقة العلمية، وان الكفاح من أجل إحرازها هو أسمى قانون للفضيلة كلها، التي تشكل إنتصاراتها على السلطة أكثر الصفحات بهاءً في تاريخ الشخصية البشرية؟»

هانز كاستورب ويواكيم ـ الأول أسرع من الثاني ـ أدارا رأسيهما من سيتيمبريني الى نافته.

رد نافته: «لا يمكن أن تكون هناك مثل هذه الإنتصارات التي تتحدث عنها؛ ذلك ان السلطة هي الإنسان نفسه ـ مصالحه، ثروته، خلاصه ـ وهكذا بينها وبين الحقيقة لا يمكن أن يكون ثمة صراع. انهما يتطابقان مع بعضهما البعض.»

«إذاً الحقيقة، على وفق ما قلته ـ»

«أي شيء ينفع الإنسان، هو الحقيقة. هو يتضمن الطبيعة كلها، في الطبيعة كلها فقط خُلق هو، والطبيعة كلها له وحده. انه مقياس الأشياء كلها، وان رفاهيته هي المعيار الفريد والوحيد للحقيقة. أي علم نظري من دون تطبيق عملي مفيد لخلاص الإنسان لا أهمية له على الإطلاق، نحن مرغمون على رفضه. خلال القرون المسيحية كانت حقيقة مقبولة: ان العلوم الطبيعية لا تمنح الإنسان تنويراً. لاكتانتيوس[٦٥]، الذي اختاره قسطنطين

---

(٦٤) غاليلو Galileo (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢): عالم فلم إيطالي. أيد نظرية كوبرنيكوس بأن الأرض تدور حول الشمس ـ المترجم.

(٦٥) لاكتانتيوس Lactantius ـ المترجم.

الكبير[٦٦] معلماً خصوصياً لإبنه، جعل الموقف واضحاً جداً حين سأل بكلماتٍ كثيرةٍ جداً أية نعمة سماوية تلك التي سيحرزها من خلال معرفة منابع النيل، أو ثرثرة علماء الفيزياء في ما يتعلق بالأجرام السماوية. أجبه إن استطعت! لماذا نفضل الفلسفة الإفلاطونية على كل ما عداها من الفسلفات، إن لم يكن بسبب ان لها علاقة بمعرفة (الله)، وليس معرفة الطبيعة؟ دعني أؤكد لك ان الجنس البشري يكاد يجد طريقه للعودة الى وجهة النظر هذه. الجنس البشري سوف يدرك عاجلاً انها ليست مهمة العلم الحقيقي ان يلاحق الفهم الكافر؛ بل أن يرفض تماماً كل ما هو ضار، نعم، حتى كل، إذا ما تحدثنا مثالياً، ما هو عديم الأهمية، لصالح الغريزة، المعيار، الاختيار. انه سلوك صبياني أن نتهم الكنيسة كونها دافعت عن الظلام بدلاً من الضياء. لقد أحسنت صنعاً، بمعاقبته كونه محظوراً: كل الكفاح غير المشروط من أجل المعرفة [الخالصة] بالأشياء ـ ان كفاحاً كهذا، أي، بما انه لا صلة له بما هو روحي، بما انه لا يحتوي على خلاص الإنسان؛ ذلك ان هذا العلم الطبيعي، غير المشروط، اللافلسفي هو الذي قاد الناس دوماً وسيظل يقودهم أبداً الى الظلام.»

«ان فلسفتك الذرائعية»، أجاب سيتيمبريني، «تحتاج فقط الى أن تترجم الى مصطلحات سياسية كي تبرز شخصيتها الخبيثة بقوة تامة. الجيد، الحقيقي، والعادل، هو الذي يفيد (الدولة): سلامتها، شرفها، قوتها المتأتية من المحك الفريد للفضيلة. جيد وطيب. لكن إنتبه بهذه الطريقة انك تفتح الباب على مصراعيه كي تدخل منه كل ضروب الجرائم؛ أما ما يخص الحقيقة البشرية، العدالة الفردية، الديمقراطية، فيمكنك أن ترى ماذا سيحل بها ـ»

«إذا سمحتَ لي»، اقتحم نافته، «بإدخال القليل من المنطق الى المقدمتين المنطقيتين، فبوسعي أن أصوغ المسألة هكذا: فوق ذلك إما

(٦٦) قسطنطين الكبير Constantin the Great: (٢٨٠؟ ـ ٣٣٧م): امبراطور روماني (٣٠٦ ـ ٣٣٧م) أعاد بناء بيزنطة وأسماها القسطنطينية ـ المترجم.

بطليموس واللاهوتيون على صواب، والعالم محدود في الزمان والمكان، الإلوهية مبهمة، التضاد بين الله والإنسان أُبقي، وكينونة الإنسان ثنائية؛ من هذا يتبع ان قضيةً شخصيةً تكمن في الصراع بين الروحي والمادي، التي تُعد كل القضايا الإجتماعية ثانوية تماماً بالنسبة لها ـ وهذا هو النوع الوحيد من الفردانية الذي يمكنني أن أميزه بوصفه متماسكاً ـ أو بطريقة أخرى، من الناحية الثانية، فلكيو نهضتك الأوروبية يكتشفون الحقيقة بالمصادفة، وان الكون لا نهائي. عندئذ لا يوجد هناك عالم فوق الإدراك، ولا توجد إثنينية؛ الـ (ما وراء) يُمتص من قبل الـ (هنا)، التضاد بين الله والإنسان يتهاوى؛ يكف الإنسان عن كونه مسرحاً للنزاع بين المبدأين المتعاديين، ويغدو متناغماً ووحدوياً، الصراع يستمر بين مصلحته الفردية والجماعية؛ وتغدو مصلحة الدولة، بطريقة الوثني الجيد، قانون الفضيلة. إما أحد الشيئين وإما الآخر.»

«أنا أحتج!» صاح سيتيمبريني، حاملاً كوب شايه ممدوداً على طول الذراع نحو مضيفه. «أنا أحتج ضد التهمة القائلة ان الدولة الحديثة تعني إخضاع الفرد للغايات الشريرة! أنا أحتج ضد المعضلة التي تسعى أنت لأن تضعنا فيها، بين البروسيانية[٦٧] والرجعية القوطية[٦٨]! الديمقراطية لن يكون لها معنىً أياً كان إن لم تكن ديمقراطية فردانية مصحِحة لإستبدادية[٦٩] الدولة أياً كانت هذه الإستبدادية. الحقيقة والعدالة هما الجوهرتان المباشرتان للفضيلة الفردية. إذا، ظهر أحيانا انهما تقفان بشكل معاكس، حتى الى درجة العداوة، لمصالح الدولة، فإنهما تفعلان ذلك بينما هما طوال الوقت تحملان أمام أعينهما، نعم، دعنا نقول بجرأة، سعادتها الروحية. أن تجد في النهضة الأوروبية أصل عبادة الدولة ـ يا له من منطق زائف! الإنجازات التي أُنتزعت

---

(٦٧) البروسيانية prussianism: النزعة العسكرية البروسية وما اتصفت به من نزعات إستبدادية وبخاصة منذ فردريك الكبير الذي تولى الحكم من (١٧٤٠ ـ ١٧٨١م) ـ المترجم.

(٦٨) القوطية Gothic: الخاصة بالقوطيين سكان جرمانيا الشرقية ـ المترجم.

(٦٩) الإستبدادية absolutism: نظرية سياسية تقول بأن السلطة المطلقة يجب أن تُناط بحاكم واحد أو أكثر ـ المترجم.

من الماضي ـ أنا أستخدم الكلمة حرفياً، سيدي العزيز ـ التي أُنتزعت من الماضي بوساطة النهضة الأوروبية والإنبعاث الفكري هي: قوة الشخصية، الحرية، وحقوق الإنسان.»

كل واحد من السامعين تنهد بعمق ـ كانوا يحبسون أنفاسهم خلال جواب السيد سيتيمبريني الكبير. هانز كاستورب لم يسمح لنفسه ان يؤيد بكل معنى الكلمة، مع ذلك لم يستطع أن يحجم عن صفع الطاولة بيده. «هائل»، قال، بين أسنانه المطبقة. يواكيم هو الآخر أظهر بوضوح موافقته الطافحة بالحيوية، على الرغم من الكلمة التي سمح سيتيمبريني لنفسه أن يتلفظ بها عن البروسيانية. كلاهما إلتفت الى الخصم الذي تحمل تواً هذا الرد الساحق ـ هانز كاستورب بتلهفٍ شديد بحيث انه إنخفض بصورة لا واعية الى الوضع الذي إتخذه عند رسم الخنزير، مرفقاه على الطاولة وذقنه في راحته، وجعل يحدّق بترقبٍ في وجه السيد نافته.

ونافته جالسٌ هناك، متوتراً وعديم الحراك؛ يداه الهزيلتان في حجره. قال: «أحاول أن أدخل شيئاً من المنطق الى المناقشة، وأنت تجيبني بعواطف نبيلة. أنا واعٍ بصورة جيدة نسبياً ان ما يدعى بـ التحررية ـ الفردانية، المفهوم الإنساني للمواطنية ـ هو نتاج النهضة الأوروبية. غير ان هذه الحقيقة تجعلني بارداً تماماً، مدركاً كما أنا فاعل، ان عصرك البطولي العظيم هو شيء من الماضي، مُثُله العليا ميتة، أو في الأقل مضطجعة في آخر لهاثاتها، بينما أقدام أولئك الذين يسددون إليها [رصاصة الرحمة] كانوا قبل الآن أمام الباب. أنت تسمي نفسك، إذا لم أكن مخطئاً، ثورياً. لكنك تُخطئ حين تعتقد ان ثورات المستقبل سوف تنشأ من الحرية. في السنوات الخمسمائة الماضية، عاش مبدأ الحرية أكثر من فائدته. ان نظاماً تربوياً ما يزال يرى نفسه طفلاً لعصر التنوير، والنقد كونه وسطه المختار في التدريس، تحرير وعبادة الأنا، مذيب أشكال الحياة التي كانت دوماً ثابتة ـ ان نظاماً كهذا قد يبقى، على مدى ردح من الزمن، يكسب فائدة بلاغية عقيمة، غير ان ميزته الرجعية تكون، بالنسبة للمبتدئ، واضحةً من دون ريب. كل الأنظمة التربوية التي تستحق هذا الاسم كانت قد ميزت دوماً ما يجب أن يكون المبدأ الجوهري

والمهم لعلم أصول التدريس: أي التفويض المطلق، الآصرة الحديدية، الإنضباط، التضحية، النكران الزهدي للذات، ضبط النزعات العاطفية. وأخيراً، ان سوء فهم كريه من جانب الشاب أن يعتقد انه يجد سعادته في الحرية: ان سعادته القصوى تكمن في الطاعة.»

جلس يواكيم باستقامة. هانز كاستورب تخضب بالإحمرار. السيد سيتيمبريني برمَ باهتياج شاربه الجميل.

«كلا»، إستطرد نافته. «الحرية وإنماء الفرد ليسا مفتاح عصرنا، هما ليس ما يحتاجه عصرنا، ان ما يحتاجه، ما يكافح من أجل، ما سوف ينتجه ـ هو [الإرهاب].»

نطق الكلمة الأخيرة بصوتٍ أوطأ من باقي الكلمات، من دون حركة من جسده. فقط نظارتا عينيه ومضتا فجأةً. ثلاثتهم، حين سمعوها، قفزوا، حتى السيد سيتيمبريني، الذي، على أية حال، سيطر على قواه فوراً وابتسم.

«وهل بوسع المرء أن يسأل»، إستفهم هو، «مَنْ هو ـ أو ما هو ـ كما ترى أنا أطرح الأسئلة، أنا أسائل نفسي كيف يمكنني أن أسأل ـ مَنْ هو، أو ما هو الذي تتصوره يجلب هذا ـ هذا ـ أنا أكرر الكلمة ببعض الكراهية ـ هذا [الإرهاب]؟»

نافته جلس بلا حراك، يومض مثل سيف مُستل. قال: «أنا في خدمتك. أحسب انني لا أخطئ في إفتراض إتفاقنا في فهم الحالة المثالية الأصلية للإنسان، وهي حالة من دون حكومة ومن دون قوة، حالة غير توسطية مثل طفل الرب، حيث لا يوجد فيها سيادة ولا خدمة، لا قانون ولا قصاص، لا خطيئة ولا علاقة بمقتضى الجسد، لا تمايز طبقي، لا عمل، لا ثروة: لا شيء غير المساواة، الأخوة، والكمال الأخلاقي.»

«جيد جداً. أنا موافق»، أعلن سيتيمبريني. «أنا أتفق معك في كل شيء عدا العلاقات التي بمقتضى الجسد، التي، بنحوٍ واضح، لا بد انها إستمرت طوال الوقت، طالما ان الإنسان من الفقاريات المتطورة كثيراً، ومثل سائر المخلوقات الأخر من نوعه ـ»

«كما تشاء. أنا فقط ذكرتُ بالنص اتفاقنا الرئيس في ما يتعلق بالحالة

الأصلية، الفردوسية للإنسان، تحرره من القانون، وعلاقته غير التوسطية بالرب، الحالة التي ضاعتْ منه خلال انحرافه عن سبيل الفضيلة. اني أؤمن انه يمكننا أن نمضي جنباً الى جنب خطوات قلائل أخرى على الطريق: اننا في ذلك نفسر معاً الدولة كونها عقداً إجتماعياً، آخذين (الانحراف) في الاعتبار وداخلين فيه كونه وقايةً ضد الشيطان، وهكذا كلانا يرى فيه مصدر القوة المطلقة ـ»

«رائع!» صاح سيتيمبريني. «عقد إجتماعي ـ ياه، هذا تنوير، هذا روسو. ليس لي فكرة ـ»

«لحظة واحدة، أرجوك. صحبتنا تفترق هنا. القوة كلها والسيطرة كلها كانت أصلاً مُلكاً للناس، الذين عهدوا بها مع حقهم في تشريع القوانين، الى أمرائهم. لكن من هذا مدرستك الفكرية تستنتج في المثال الأول حق الناس في التمرد على المَلَكية. بينما نحن، على العكس ـ»

«نحن؟» فكر هانز كاستورب، لاهثاً. «مَنْ [نحن]؟ مؤكد ينبغي لي أن أسأل سيتيمبريني في ما بعد، مَنْ الذين عناهم حين قال [نحن].»

«نحن، بدورنا»، قال نافته. «لسنا أقل ثورية منك، إستنتجنا، بصورة ثابتة على المبدأ، تفوّق الكنيسة على السلطة المدنية. ان الطبيعة المؤقتة لسلطة الدولة، إذا صح التعبير، مكتوبة على جبينها، ولكن حتى إذا لم تكن كذلك سيكون كافياً أن نشير الى الحقيقة التاريخية القائلة ان سلطتها ترجع الى إرادة الناس، في حين ان تلك الخاصة بالكنيسة تستند الى القانون الإلهي، كي تؤسس ميزتها الخاصة كوسيلة والتي، إذا لم تُخترع على وجه الدقة بوساطة قوة الشر، تكون مع ذلك بديلاً مؤقتاً ذا عيوب وغير كافٍ.»

«الدولة، سيدي العزيز ـ»

«لقد تعرفتُ الى أفكارك في موضوع الدولة القومية. كما يقول فيرجيل هاصتك: [حب وطن الأسلاف يقهر كل شيء، ولا شيء يشبع الجوع الى المجد]. وأنت تضيف الترياق العائد للفردانية التحررية بعض الشيء ـ أي الديمقراطية، لكنها تترك علاقتك الجوهرية بالدولة على حالها، من دون أن

تمسها مساً خفيفاً. ذلك ان روح الديمقراطية هي قوة المال، واضح انها لا تكذبها ـ أم انك تريد أن تنكر هذه الحقيقة؟ العصور القديمة كانت رأسمالية بسبب عبادتها للدولة. العصور الوسطى المسيحية ميزت بوضوح الرأسمالية المتوارثة للدولة المدنية: [المال سيكون إمبراطوراً] هذه نبوءة من القرن الحادي عشر. هل تنكر انها تحدث الآن حرفياً، ومعها الافساد التام للحياة عموماً؟»

«صديقي العزيز، لك جمهور من المستمعين. أنا متلهف جداً للتعرف الى [المجهول الكبير]، جالب [الإرهاب].»

«ان الفضول المحفوف بالمخاطر من جانبك، كونك الناطق بإسم طبقة اجتماعية قامت بمهمة حاملة لواء الحرية ـ آخذين بالإعتبار ان تلك الحرية هي التي جرّت العالم الى حافة الخراب. ان هدفك هو [إمبراطورية] الديمقراطية، تمجيد مبدأ [الدولة] القومية في [الدولة] الكونية، [دولة ـ العالم]. وإمبرطور [دولة ـ العالم] هذه؟ ان مدينتك الفاضلة رهيبة، شاذة ـ ومع ذلك، في ما يتعلق بهذه المسألة، نجد أنفسنا أنا وأنت ثانيةً والى حدٍ ما على أرضية مشتركة. ذلك ان جمهورية ـ العالم الرأسمالية خاصتك هي، في الواقع، ذات ميزة خاصة متسامية، دولة ـ العالم هي الدولة المدنية وقد تسامت؛ ونحن نتحد في الإيمان بأن الدولة الأخيرة، التي بلغت حد الكمال، التي تتمدد باهتةً فوق الأفق البعيد، يجب أن توازي كمال الإنسان الأصلي، الأولي(٧٠). منذ زمن غريغوريوس الكبير(٧١)، مؤسس [دولة الله]، تولت الكنيسة دوماً مسؤولية إعادة البشرية الى كنف الهداية الإلهية. ان مطالبة غريغوري بالقوة المؤقتة قد أُختيرت ليس من أجل ذاتها، بل لأن إستبداديته المفوَّضة توجب عليها أن تكون الوسيلة والطريق الى هدف التخليص من الخطيئة ـ وهي مرحلة إنتقالية بين الدولة الوثنية والمملكة

(٧٠) الأصلي، والأولي تعودان الى الكمال، وليس للإنسان ـ المترجم.
(٧١) غريغوريوس الكبير Gregory the Great: هو القديس غريغوريوس الأول (٥٤٠؟ ـ ٦٠٤م)، بابا روما (٥٩٠ ـ ٦٠٤م) قوّى البابوية وأعاد تنظيمها ـ المترجم.

السماوية. كنتَ تحدثت الى طالبيك هذين عن الأعمال الدموية للكنيسة، عقوباتها وتعصبها؛ بطريقة غاية في السخافة، ذلك انها تحتكم الى العقل كون حماسة الورع لا يمكن أن تكون ذات ميزة مناوئة للعنف. غريغوري نفسه قال: [ملعون هو الإنسان الذي يكبح سيفه عن إراقة الدماء]. تلك القوة هي الشر كما نعرف. لكن إذا توجّب للمملكة أن تأتي، إذاً من الضروري أن ثنائية الخير والشر، القوة البدنية والروح، الآن وفي ما بعد، يجب أن تكون ملغاة في الوقت المناسب كي تفسح الطريق لمبدأ واحد، الذي من شأنه أن يوحد الزهد والهيمنة. هذا هو ما عنيته بالحاجة الماسة الى [الإرهاب].»

«لكن حاملة اللواء، حاملة اللواء؟»

«أما زلتَ تسأل؟ هل ان تحرريتك المانشسترية[٧٢] غافلة عن وجود مدرسة الفكر الإقتصادي الذي يعني إنتصار الإنسان على علم الإقتصاد، والتي تتطابق مبادؤها وأهدافها مع مبادئ مملكة الله؟ ان [آباء] الكنيسة يسمون [لي] و[لك] كلمتين ضارتين، ويسمون الملكية الخاصة إغتصاباً وسلباً. وقد تبرأوا من فكرة التملكات الشخصية، لأنه، على وفق القانون الإلهي والطبيعي، الأرض مشاعة للبشر كلهم، وتحمل ثمارها من أجل فائدة الجميع. كانت تعاليمهم تنص على أن الجشع، وهو نتيجة منطقية لـ[الإنحراف عن سبيل الفضيلة]، يمثل حقوق الملكية وهو مصدر الحيازة الشخصية. كان الآباء عطوفين بدرجة كافية، مناوئين للتجارة بدرجة كافية، لكي يشعروا ان كل الأنشطة التجارية هي بمنزلة خطر على روح الإنسان وخلاصها. كرهوا المال والتمويل، وأسموا إمبراطورية الوقود الرأسمالي نيران الجحيم. أما المبدأ الإقتصادي الجوهري القائل ان الأسعار تخضع لقانون العرض والطلب، فقد احتقروه دوماً من أعماق أفئدتهم، وأدانوا اغتنام فرصة ما كونه استغلالاً ساخراً لحاجة أخ في الإنسانية. وشنيعاً أكثر منه، في نظرهم، إستغلال الزمن، وبشاعة تسلّم مكافأة عن مرور الزمن ـ أو فائدة

---

(٧٢) المانشسترية: نسبة الى مانشستر Manchester وهي مدينة في وسط بريطانيا، أما ما نقصده بالتحررية فهي الليبرالية ـ المترجم.

بكلمة أخرى ـ وإساءة إستخدامه من أجل فائدة إنسان ما وخسارة آخر كونه تدبيراً كونياً وممنوحاً من قبل الباري.»

«رائع!» هتف هانز كاستورب، تعبيراً عن اهتياجه مستفيداً من صيغة السيد سيتيمبريني الدالة على الموافقة. «الزمن ـ تدبير كوني وممنوح من قبل الباري! هذا شيء على درجة عالية من الأهمية.»

«تماما»، قال نافته. «الواقع، أن هذه الأرواح البشرية تمردتْ على فكرة الزيادة الآلية للمال؛ عدوا كل ضروب أخذ الفائدة والمضاربات رباً فاحشاً، وصرّحوا قائلين ان كل إنسان ثري إما لص أو وريث لص. مضوا شوطاً أبعد. مثل توما الاكويني[٧٣]، عدوا التجارة، نقيةً وبسيطةً، شراء وبيع من أجل الربح، من دون تغيير أو تحسين النتاج، مهنةً وضيعة. لم يكونوا ميالين الى أن يمنحوا قيمةً عالية جداً للعمل بـ ولأجل نفسه، كونه شأناً أخلاقياً وليس دينياً، هو غير منجز لخدمة الله، بل بوصفه جزءاً من قضية العيش. كون الحالة هكذا، طالبوا بأن يكون قياس الربح أو التقدير الشعبي متناسباً مع الجهد الحقيقي المبذول، وعلى وفق ذلك لم يكن التاجر أو صاحب المصنع، بل العامل وحارث التربة هما الجديران بالإحترام في نظرهم. ذلك انهم كانوا منحازين لإنتاج معتمد على الضرورة، ونظروا الى الإنتاج الواسع باشمئزاز. الآن، إذاً: بعد قرون من الكراهية هذه المبادئ والمقاييس بُعثت بوساطة الحركة الحديثة للشيوعية. التشابه تام، حتى بالنسبة للمطالبة بالهيمنة العالمية التي تقوم بها طبقة العمال الدولية كونها ضد الصناعة والتمويل الدوليين؛ الشغيلة الدولية التي تدافع اليوم عن المثل العليا لـ (مدينة الله) المناقضة للمقاييس المكذِّبة والمنحطة للبرجوازية الرأسمالية. ان دكتاتورية الشغيلة، الوسيلة السياسية ـ الإقتصادية للخلاص المطلوبة من قبل عصرنا، لا تعني الهيمنة لأجل ذاتها والى الأبد؛ بل بدلاً من ذلك بشعور غامض بالإلغاء الموقت، بإشارة الصليب، بالتناقض بين الروح والقوة البدنية، بشعور

(٧٣) توما الاكويني Thomas Aquinas (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤): راهب دومينيكاني ولد في إيطاليا وعلّم في جامعة باريس ـ المترجم.

غامض بالتغلب على العالم من خلال إخضاعه، بحسٍ متسامٍ، إنتقالي، بشعور غامض بـ (المملكة). الشغيلة إضطلعت بمهمة غريغوريوس الكبير، حماسته الدينية تضطرم في داخلها، وهي مثله نادراً ما تحجم عن إراقة الدماء. ان مهمتها هي أن تُقحم الإرهاب في العالم من أجل شفاء العالم، ذلك ان الإنسان ربما يستطيع أخيراً أن يحقق الخلاص والحرية، ويكسب في خاتمة المطاف التحرر من القانون ومن التمايز الطبقي وصولاً الى وضعه الأصلي بوصفه ابناً لـ[الله].»

هكذا قال نافته. كانت المجموعة الصغيرة صامتةً. الشابان نظرا الى سيتيمبريني. شعرا، انها كانت قضيته.

قال هو: «مُذهِل. أنا مصعوق. أقر بذلك. لم أتوقع هذا. Roma Locuta. روما تكلمتْ، وكيف ـ كيف تكلمت هي! السيد نافته أنجز أمام أعيننا مهمةً عسيرةً[٧٤] كهنوتية ـ إذا كان النعت متنافراً، فان هذا التنافر كان [ملغىً وقتياً] ـ أوه، نعم! أكرر، انه شيء مُذهِل. هل بميسورك، أيها البروفيسور، أن تفكر بأي نقد ممكن، ولو فقط في موضوع التناغم؟ قبل دقائق قلائل كنت لا تألو جهداً كي تجعلها مفهومة لنا: الفردانية المسيحية المستندة الى ثنائية الله والعالم، وأن تبرهن على تفوقها على كل المبادئ الأخلاقية المحدِدة سياسياً. وها أنت ذا الآن تعترف باشتراكية مدفوعة الى درجة الدكتاتورية والإرهاب؟ كيف تستطيع أن توفق بين الشيئين؟»

«الشيئان المتضادان»، قال نافته، «ربما يكونان منسجمين مع أحدهما الآخر. انها الحالة المعتدلة، ليس أحد الشيئين ولا الآخر منافٍ للعقل. ان فردانيتك، كما كانت لي الحرية في أن ألاحظ، ذات عيوب. انها اعتراف بالضعف. انها تصحح أخلاق [دولتها] الوثنية من خلال مزج القليل من المسيحية، القليل من [حقوق الإنسان]، القليل مما يدعى بـ الحرية ـ لكن هذا هو كل شيء. انها فردانية تنبثق من الأهمية الكونية، التنجيمية للشخصية الفردية، فردانية ليست إشتراكية إنما دينية، والتي تعد الطبيعة البشرية ليست

---

(٧٤) مهمة عسيرة: في النص Salto mortale: أي قفرة مميتة. وردت بالإيطالية ـ المترجم

صراعاً بين الأنا والمجتمع، بل صراعاً بين الأنا والله، بين الجسد والروح ـ فردانية أصيلة كتلك التي تنسجم جيد جداً مع الشيوعية العمياء جداً.»

«مجهولة الإسم ومشاعية»، قال هانز كاستورب.

سيتيمبريني حملق فيه مغضباً. «إهدأ، أيها المهندس»، قال بصرامة لعلها ناجمة عن إهتياجه العصبي. «إخبر نفسك، إنما لا تحاول أن تعبّر عن آرائك. هذا جواب، في الأقل»، قال، ملتفتاً الى نافته من جديد. «انه يمنحني راحة فاترة، لكنه جواب. دعنا نعاين كل النتائج التي تنشأ منها. في ما يتعلق بالصناعة، شيوعيتك المسيحية ترفض الآلات والمكائن، التقنية، التقدم المادي. في ما يتعلق بما أسميته بالتجارة ـ المال والتمويل، اللذين كانا في العصور القديمة يتبوآن منزلة أعلى من الزراعة والعمل اليدوي ـ أنت ترفض الحرية. ذلك انه شيء واضح، واضح بحيث يكون جلياً لأي فكر عادي جداً، ان العلاقات الإجتماعية، العامة والشخصية، تكون وثيقة الصلة بالتربة، كما في العصور الوسطى؛ حتى ـ أشعر ببعض النفور من قول ذلك ـ حتى ذات الفرد. ليت التربة تستطيع أن تحفظ الحياة، عندئذ فقط إمتلاكها يستطيع أن يمنح الحرية. العمال اليدويون والفلاحون، مهما كانت مواقعهم جديرة بالإحترام، إذا لم تكن لهم ملكية حقيقية يستطيعون فقط أن يكونوا ملكاً لأولئك الذين يملكونها. الواقع، حتى زمن متقدم من العصر الوسيط عدد كبير من السكان، حتى الساكنين في المدن، كانوا أقنانا[٧٥]. خلال مناقشتنا أطلقتَ تلميحات مختلفة عن نبل الإنسان. مع ذلك أنت تدافع عن المبادئ الأخلاقية لنظام إقتصادي معين يجرّد الفرد من حريته واحترامه لذاته.»

«في ما يخص احترام الذات والإفتقار إليه»، أجاب نافته، «ثمة الشيء الكثير مما يقال. في هذه الآونة سأكون سعيداً إذا كان تداعي الخواطر يجعلك تعد الحرية مسألة جدية أكثر مما هي كإيماءة جميلة. أنتَ أكدتَ بأن

---

(٧٥) أقنان serfs: جمع قِن (عبد الأرض): رقيق يعمل على أرض سيد إقطاعي وتنتقل ملكيته من هذا السيد الى أيما سيد آخر قد تؤول ملكية تلك الأرض إليه ـ المترجم.

المبادئ الأخلاقية المسيحية، بجمالها كله ولطفها كله، خُلقتْ من أجل العبودية. وأنا، من الناحية الأخرى، أؤكد ان مسألة الحرية ـ مسألة المدن، كي نعبّر عنها بصورة ملموسة ـ كانت دوماً مسألة أخلاقية بشكل بالغ، وهي مرتبطة تاريخياً بالتدهور اللاإنساني للأخلاق التجارية، بكل إرهاب الصناعة الحديثة والمضاربة، مع الهيمنة الشيطانية للمال والتمويل.»

«عليّ أن أؤكد انك لا تتخذ ملاذاً خلف الشكوك والتناقضات، بل تنبثق بثبات من حيث تنتمي، في صالح أكثر أنواع الرجعية سواداً.»

«ستكون الخطوة الأولى نحو الحرية الحقيقية ومحبة الجنس البشري أن يحرر المرء عقله من الخوف المترهل الذي تولّد بذكر كلمة الرجعية.»

«طيب، هذا يكفي»، أعلن سيتيمبريني، بصوت مرتعش بعض الشيء، منحياً جانباً كأسه وطبقه ـ اللذين كانا فارغين الآن ـ ونهض من كنبة الساتان «هذا يكفي اليوم، يكفي ليوم كامل، على ما أظن. تشكراتنا، أيها البروفيسور، للضيافة اللذيذة وللمحادثة المرهفة جداً. صديقاي الشابان هنا من بيرغهوف يستدعيهم طقس العلاج، وأود، قبل ذهابهما، أن أريهما صومعتي في الأعلى. تعالا، أيها النبيلان! مع السلامة، أيها الأب!»

هانز كاستورب ميز اللقب بحاجبين مرفوعين. إذاً اللقب الآن هو الأب. أذعنا لمقاطعة السيد سيتيمبريني للحفلة الصغيرة ورتبا نفسيهما من دون أن يمنحا نافته الفرصة كي يأتي إذا ما كان راغباً في ذلك. الشابان بدورهما شكرا مضيفهما وغادرا، وحثهما نافته على المجيء ثانيةً. ذهبا صحبة السيد سيتيمبريني، هانز كاستورب يحمل معه المجلد ذا الغلاف الكرتوني الذي يضم [بؤس الحالة الإنسانية]، الذي دسه مضيفه بين يديه. لوكاشيك المكفهر لم يزل جالساً على طاولته يخيط الثوب ذا الأكمام للعجوز. توجّب عليهم أن يمروا من أمام بابه المفتوح كي يصعدوا السلم الشبيه بسلّم من حبال الى الطبقة العليا. كان، إذا ما تحدثنا بشكل مناسب، يشق علينا أن نسميها طبقة، كونها ببساطة علّية ذات عوارض خشبية وحديدية جرداء داخل السقف المائل؛ كان لها الهواء المحتبس لعلية تحت السقف الأعلى مباشرة وتعبق برائحة الحصى الدافئ. غير انها كانت مقسّمة الى حجرتين، خدمتا

الجمهوري الرأسمالي وصاحب الأدب الرفيع المساهم في [علم اجتماع المعاناة] كغرفة مكتب وكابينة نوم. هاتان عرضهما بسعادة لصديقيه الشابين، صوّرهما كونهما منعزلتين ودافئتين ومريحتين، كي يزودهما بأوصاف مناسبة لمديحهما، الأمر الذي فعلاه وفق ذلك. كلاهما وجد مسكنه منعزلاً ودافئاً ومريحاً بصورة رائعة، كما قال هو بالضبط. كانت لهما نظرة خاطفة على حجرة النوم، متناهية الصغر، فقط هيكل سرير قصير وضيق في الزاوية تحت السقف المائل، وبساط صغير على البلاط بجانبه؛ ثم إلتفتا من جديد الى غرفة المكتب، التي كانت ذات أثاث متباعد شأنها شأن الغرفة الأخرى، غير انها كانت مرتبة الى درجة الشكلانية، أو حتى لا مبالية. كراسٍ ثقيلة عتيقة الطراز، عددها أربعة، ذات مقاعد من القصب، موضوعة بصورة متناظرة في ناحيتي الباب، الأريكة دُفعت بإزاء الحائط، وثمة منضدة مستديرة ذات غطاء أخضر إحتلت وسط الحجرة، فوقها لمجرد الزينة ـ أو، ربما، للتذكير، لكن بأية حال ذات تأثير بالرزانة البسيطة ـ كانت تقف هناك قنينة ماء ذات كأس مقلوب رأساً على عقب فوقها. كتب وكراسات يستند بعضها الى بعض في رف صغير مُعلّق، وعند الشباك المفتوح إنتصب مكتب عالي الأرجل، رديء النوع، قابل للثني، ذو حصير صغير سميك من اللباد على البلاط تحته، كان كبيراً بدرجة كافية كي يمنح حيزاً للوقوف. هانز كاستورب احتل موقعاً هنا مدة دقيقة كي يجرب الأمر. كانت هذه ورشة عمل السيد سيتيمبريني، حيث كتب مقالاتٍ في الأدب الرفيع كي يسهم في موسوعة المعاناة البشرية. أراح الشاب مرفقيه على السطح المائل للمكتب، وأعلن انه وجد الشقة الصغيرة منعزلة ودافئة ومريحة جداً. هكذا، إفترض، بصوت عالٍ، ان والد لودوفيكو، بأنفه الطويل الأرستقراطي، ربما عكف على عمله في (بادوا) ـ وعرف انه كان واقفاً، الواقع، عند مكتب عالِم ميت؛ ليس هذا فحسب، الأكثر من ذلك، ان الكراسي، الطاولة، وحتى قنينة الماء، كانت له، وان الكراسي ورثها عن جده الـ Carbonaro، وانها ذات مرة زينت جدران مكتب المحاماة العائد له في ميلانو. هذا ترك إنطباعاً كبيراً في الشابين، حالاً في نظرهما بدأت الكراسي تُبدي صلتها بالتحريض السياسي ـ يواكيم، الذي

كان جالساً بلا وعي تام على واحدٍ منها، ساقاه متقاطعتان، نهض فوراً، نظر إليه بإرتياب، ولم يجلس عليه ثانية. غير ان هانز كاستورب، عند مكتب سيتيمبريني الأكبر سناً، كان يفكر كيف كان يعمل الآن هنا سيتيمبريني الأصغر سناً، جامعاً علم السياسة الخاص بالجِد والفلسفة الإنسانية الخاصة بالأب في مزيج من الجمال الأدبي. في النهاية ذهبوا كلهم معاً، المؤلف آثر أن يوصل صاحبيه الى باب مصحهما.

لزموا الصمت بعض الوقت؛ غير ان الصمت كان يتحدث عن نافته، وكان بوسع هانز كاستورب أن ينتظر. كان متيقناً من ان السيد سيتيمبريني سوف يأتي على ذكر زميل مسكنه، ورافقهما هو من أجل هذا الغرض تحديداً. ولم يكن ظنه خاطئاً.

جاراً نفساً طويلاً، كما لو انه يريد أن يبدأ بدايةً جيدةً، شرع الإيطالي يقول: «صاحبيّ، يلزمني أن أحذركما.»

حين توقف عن الكلام قليلاً، بعدها، سأل هانز كاستورب بدهشةٍ مؤثرة: «تحذرنا من ماذا؟» ربما يجدر به أن يقول أيضاً «ومِن مَنْ»، لكنه عبّر عن ذاته بصورة موضوعية كي يُظهر كيف كان هو غير واعٍ بمعنى كلام السيد سيتيمبريني - معنى حتى يواكيم نفسه أدركه تماماً.

«مِنَ الشخص الذي كنا في ضيافته قبل قليل»، أجاب سيتيمبريني، «والذي كنتُ وسيلة تعرفكما إليه بصورة غير مقصودة. المصادفة هي التي شاءت ذلك، كما رأيتما، ولم أستطع منعها. غير ان المسؤولية هي مسؤوليتي، وهكذا أشعر أنا. انه من صميم واجبي أن أنبه سنواتكم الغضة الى المخاطر الفكرية للإتصال مع هذا الرجل، وأناشدكما أن تبقيا تعارفكما معه في الحدود الأمينة. هو في الظاهر منطق، غير ان جوهره فوضى.»

«يبدو هو عرافاً نوعاً ما»، كان هذا رأي هانز كاستورب. «بعض الأشياء التي قالها كانت في منتهى الغرابة: بدا كما لو انه عنى أن يقول ان الشمس تدور حول الأرض.» ولكن كيف بوسعهما، مضى يقول، ان يتوقعا أن يكون صديقه، صديق السيد سيتيمبريني، شخصاً غير مناسب لهما كي يرافقاه؟ وكما اعترف هو نفسه، كانا قد تعرفا إليه من خلاله هو، إلتقيا الرجل أول مرة حين

كان في رفقته، وشاهدا الرجلين يتمشيان ويشربان الشاي معاً. مؤكد أن هذا يعني ـ»

«بالطبع، أيها المهندس، بالطبع.» كان صوت السيد سيتيمبريني مليئاً بالاستسلام المعتدل، وحتى كان راجفاً. «أنا صريح في هذا الجواب، كما عبّرتما عنه. جيد. أنا جاهز تماماً لتقبل المسؤولية. أنا أسكن تحت السقف نفسه مثل هذا الرجل، لقاءاتنا شيء لا بد منه. كلمة تؤدي الى كلمة، وحدث التعارف. السيد نافته ذو قدرات عقلية استثنائية جداً. انه استطرادي(٧٦) بطبيعته، وكذلك أنا. عدّاني مذنباً إن شئتما ـ أنا أفدتُ نفسي من فرصة الجدال مع خصم هو على الرغم من كل شيء نظيري. ليس لي واحد آخر ـ في أي مكان. ـ الخلاصة، صحيح انني أزوره ويبادلني هو الزيارة، ونتمشى معاً. نحن نتجادل بشدة وعنف. نحن نتخاصم، كل يوم تقريباً، الى أن يغضب أحدنا من الآخر؛ لكنني أعترف أن تناقض وأذى أفكاره الطفيف هما ما يجعل تعارفنا جذاباً جداً. أنا بحاجة الى الاحتكاك. الأفكار لا تستطيع أن تحيا إن لم تكن للمرء الفرصة للقتال من أجلها ـ وأنا أعززها في داخلي. كيف يمكنك أن تدافع كثيراً جداً عن أفكارك، أيها الملازم، أو أنت، أيها المهندس؟ أنتما بلا حماية ضد السفسطة الفكرية، أنتما معرضان للخطر من تأثير هذه الشعوذة نصف المتعصبة، نصف المهلِكة ـ خطر على العقل وعلى الروح.»

أجاب هانز كاستورب انه ربما يكون ذلك صائباً تماماً؛ هو وابن خالته كانا بشكل طبيعي تقريباً عُرضةً لمثل هذه الأخطار ـ انها القصة القديمة ذاتها عن ابن الحياة رقيق الصحة، التي فهمها فهماً كاملاً. لكن من الناحية الأخرى؛ ربما يستشهد المرء بـ بترارك(٧٧) وحكمته، التي كان السيد سيتيمبريني حسن الإطلاع عليها. وعلى الرغم من كل شيء كان حديث نافته

---

(٧٦) إستطرادي dicursive: متنقل من موضوع الى آخر ـ المترجم.

(٧٧) بترارك Petrarch (١٣٠٤ ـ ١٣٧٤): عالم وشاعر إيطالي. يعدّ أحد أبرز رواد عصر النهضة الأوروبية ـ المترجم (مكرر).

كله جديراً بأن يصغي المرء إليه. علينا أن نقر بأن ما قاله بخصوص الحقبة الشيوعية، التي لا يُسمح خلالها لأي إمرىءٍ بتسلم فائدة، كانت من الطراز الأول؛ وكذلك بعض الأشياء التي قالها عن التربية والتي ما كان له، هانز كاستورب، أن يسمعها بطريقة أخرى.

سيتيمبريني زمّ شفتيه، وأسرع هانز كاستورب ليقول، في ما يتعلق بموقفه الخاص، كان بطبيعة الحال غير موالٍ، وانه عنى فقط انه تمتع بسماع ما قاله نافته عن أعمق رغبات الشباب. «لكن فسر لي هذا الشيء الوحيد»، مضى يقول. «هذا الشخص ـ أدعوه هكذا كي أُظهر عدم تحيزي، وانني لا أتفق معه بأية طريقة فيما يقوله، بكل ما في الكلمة من معنى، لكنني أميل الى أن أدُلي بتحفظات مهمة ـ»

«وبحق»، هتف سيتيمبريني معبّراً عن شكره.

«ـ كان له الشيء الكثير ليقوله ضد المال، روح [الدولة]، كما عبّر هو نفسه، وضد الاحتفاظ بالملكية، التي عدّها لصوصية؛ بإيجاز، ضد النظام الرأسمالي، الذي دعاه، إذا أسعفتني الذاكرة، وقوداً لنيران جهنم، أو شيئاً من هذا القبيل. تغنى بمدائح العصر الوسيط لأنه منع أخذ الفائدة. وطوال الوقت لا بد ان الرجل نفسه دأب على ذلك، إذا جاز لي أن أقول هذا ـ أنت تندهش أيما دهشة حين تدخل حجرته أول مرة وترى كل ذلك الحرير ـ»

«آ، نعم»، إبتسم سيتيمبريني، «الذوق صفة مميزة له.»

«ـ الأثاث القديم والجميل»، استطرد هانز كاستورب، «المنتجِبة المتوارثة من القرن الرابع عشر، الثريا الفينيسية، الغلام الصغير بزي الخدم ـ وتلك القطع الكثيرة من الكعكة المطبقة المحشوة بالشوكولاته، أيضاً ـ لا بد أن يكون شخصياً ثرياً، على ما أعتقد ـ»

«السيد نافته»، أجاب سيتيمبريني، «شخصياً، رأسمالي صغير مثلي.»

«مجرد؟» سأل هانز كاستورب. «ثمة [مجرد] في لهجتك، سيد سيتيمبريني.»

«حسن أولئك القوم لا يجعلون أحداً يحتاج مَنْ ينتمي إليهم.»

«أولئك القوم؟»

«الآباء.»

«آباء؟ أي آباء؟»

«ياه، أيها المهندس، اقصد اليسوعيين(٧٨).»

تلا ذلك توقف قصير. أبدى إبنا الخالتين دهشة كبرى. صاح هانز كاستورب: «ماذا! أستغفر الله! لا يمكنك أن تقصد ذلك! لا يمكنك أن تقصد ان الرجل يسوعي!»

«حدستَ حدساً صحيحاً»، قال السيد سيتيمبريني بشكلية.

«لم يحدث في حياتي كلها ـ مَنْ ذا الذي يفكر في شيء كهذا؟ إذاً لهذا السبب أسميته بـ[الأب]!»

«كانت تلك مبالغة مؤدبة»، رد سيتيمبريني. «السيد نافته ليس [أباً]. ان مرضه هو المسؤول عن عدم بلوغه ذاك الشوط البعيد. لكنه أنهى مدة ترهبنه وأوفى بأول إلتزاماته. حالته الصحية جعلته يتخلى عن دراساته الدينية، وبعدها أمضى عدداً من السنين في مدرسة تعود لـ[الجمعية]، حيث كان تلميذاً مفوّضاً(٧٩) ومعلّماً للطلاب الأصغر سناً. كان ذلك منسجماً مع ميوله التعليمية، واستمر في الخط ذاته هنا في الأعالي، بتدريسه اللاتينية في الفرايدريكيانيوم. انه هنا منذ خمسة أعوام. متى، أو ما إذا، يستطيع أن يغادر هذا المكان، يبقى شيئاً مشكوكاً فيه. لكنه ينتمي الى [الجمعية]، وحتى إذا كانت الآصرة محلولة أكثر مما هي عليه فعلاً، ما كان ليطلب شيئاً. كما أخبرتك، هو شخصياً فقير الحال؛ أي بمعنى، هو من دون ملكيات. ذلك هو قانون [الجمعية]؛ التي تنال ثروة كبيرة، على أي حال، وتُعنى جيداً بثروتها الخاصة، كما رأيت.»

«رعد ـ وبرق!»، قال هانز كاستورب. «ولم أكن حتى أعرف ان أشياء كهذه ما تزال موجودة! يسوعي! حسن، حسن! لكن قل لي، إذا كان أولئك

---

(٧٨) اليسوعي Jesuit: عضو جمعية دينية للرجال أسسها القديس اغناطيوس لويولا العام ١٥٤٠ ـ المترجم.

(٧٩) التلميذ المفوّض prefect: تلميذ يكلف بمساعدة الأستاذ في حفظ النظام ـ المترجم.

الرجال يشملونه برعاية جيدة، فلماذا بحق السماء يسكن هو ـ أنا لا أقصد أن أقول كلمة عن سكنك، سيد سيتيمبريني، وأنت بالتأكيد ثابت بصورة رائعة عند مبنى لوكاشيك، انه سكن منعزل ودافئ ومريح جداً؛ لكنني أقصد، إذا كان نافته يملك فعلاً ثروة كتلك، إذا ما تحدثنا بنحو عادي، لماذا لا يتخذ شقةً سكنية أخرى، في مبنى آخر، أفخم، ذات مدخل مناسب وحجرات كبيرة؟ هو شخص يكتنفه السر ومُريب ظاهرياً، هناك في ذلك الجحر، بكل ذلك الحرير ـ»

هز سيتيمبريني كتفيه.

«لعله يخضع لاعتبارات الذوق والإحساس»، قال. «يخيل لي انه يهدئ ضميره المعادي للرأسمالية من خلال السكن في منزل بائس، ويعوّض نفسه من خلال العيش بالطريقة التي يواظب عليها. وينبغي لي القول ان ذلك الحذر يلعب بعض الدور في القضية أيضاً. لا فائدة من أن نعلن للعالم كله كيف يعتني [الشيطان] بقضيته عنايةً ممتازة. انه يُبدي مظهراً كاذباً متواضعاً، ووراءه يطلق العنان لميوله كما لو كان أمير الكنيسة ـ»

«شيء إستثنائي!» قال هانز كاستورب. «انه شيء جديد ومُذهل جداً بالنسبة لي. أنا حر كي أعترف. ياه، سيد سيتيمبريني، نحن حقيقة مدينان لك كثيراً بهذا التعارف الجديد. مراراً وتكراراً سوف ننزل الى الأسفل من أجل زيارته ـ أنا متأكد من ذلك. ان محادثة كهذه تثير العجب كما لو انها توسع الأفق ـ انها تمنح المرء لمحات خاطفة على عالم لم يحلم إمرؤ بوجوده أبداً. يسوعي مناسب! حين أقول مناسب، هذه الصِّفة ترمز الى كل ما خطر ببالي حين قلتها. أعني، هل هو، يسوعي حقيقي؟ أعرف انك تقصد ان شخصاً ما لا يمكن أن يكون لائقاً حين يسنده الشيطان من الخلف، لكن ما عنيتُه، هل هو لائق كيسوعي؟ هذا ما فكرت به. قال هو أشياءً معينةً ـ أنت تعرف تلك التي أقصدها ـ حول الشيوعية الحديثة، والحماسة الدينية للشغيلة، وعدم إمتناعها عن إراقة الدماء ـ لن أناقشها أكثر، لكن أكيد جدك، برمح المواطن خاصته، كان حملاً مضبوطاً بالمقارنة ـ أرجوك سامحني على لغتي هذه. هل هذا مسموح به؟ هل تؤيد سلطاته هذا؟ هل هي تلك تعاليم

الكنيسة الرومانية، التي تنشرها كل الجمعيات الدينية في أرجاء العالم كافة من طريق الخداع، أو هكذا يقولون؟ أليست هي ـ ما هي الكلمة؟ ـ هرطقية، شاذة، غير دقيقة؟ تلك هي الأشياء التي كنتُ أفكر بها المتعلقة بالسيد نافته ـ ويسرني أن أسمع رأيك فيها.»

إبتسم سيتيمبريني.

«شيء بسيط جداً. السيد نافته، بطبيعة الحال، في المقام الأول يسوعي. هو كذلك دوماً، وقبل أي شيء آخر. لكنه أيضاً رجل فكر. ـ أم لا يلزمني أن أذهب الى جمعيته ـ وبمثل هذه الطريقة يبحث هو دوماً عن إتحادات جديدة، جمعيات جديدة وأشياء معدّلة جديدة، ظلال معانٍ جديدة مناسبة للزمن. رأيتَ كيف أذهلني حتى أنا بنظرياته. لم يكن قد أمضى معي شوطاً بعيداً من قبل. إستفدتُ من الحافز الواضح جداً لوجودك كي أثيره الى الحد الذي يقول كلمته الأخيرة في موضوع معين. يبدو هذا مضحكاً بدرجة كافية، شاذاً بدرجة كافية ـ»

«نعم نعم، إنما قل لي، لماذا لم يصبح [أباً]؟ انه كبير السن بدرجة كافية، أليس كذلك؟»

«أخبرتك ـ ان مرضه منعه من ذلك.»

«طيب، لكن ألا تعتقد ـ إذا كان هو أولاً يسوعياً وثانياً رجل فكر يبحث دوماً عن إتحادات جديدة ـ ألا تظن ان هذه الميزة الثانية، المضافة لها علاقة بمرضه؟»

«ماذا تعني بذلك؟»

«أعني فقط ـ أنظر: هو يمتلك بقعة رطبة، وهذا يمنعه من أن يصبح [أباً]. غير ان مُركباته أغلب الظن منعته على أية حال؛ وهكذا، بطريقة ما، البقعة والمُركبات تشكلان وحدةً متماسكة. بهذه الطريقة هو أيضاً ابن رقيق الصحة من نوع خاص ـ a joli jesuit with a petite tache humide»(٨٠).

(٨٠) هذه الجملة وردت هكذا في النص الإنجليزي وتعني: يسوعي ظريف ذو بقعة صغيرة رطبة ـ المترجم.

كانوا قد وصلوا المصح، لكنهم وقفوا بمجموعة صغيرة على الدكة أمام المؤسسة يتحدثون قليلاً قبل الافتراق، ويراقبهم نزلاء قليلون حدث ان كانوا يزجون الوقت هناك. قال السيد سيتيمبريني: «أكرر، صديقيّ الشابين ـ أحذركما. لا أستطيع أن أمنعكما من تشجيع التعارف الذي حصل الآن، إذا ما قادكم الفضول الى فعل ذلك. لكن سلّحا قلبيكما وعقليكما بالشك، عارضاه بروح إنتقادية. سأصف لكما هذا الرجل بكلمة واحدة. انه شهواني.»

لاحت الدهشة على وجهي إبني الخالتين. سأل هانز كاستورب ـ «انه ماذا؟ لكنه عضو جمعية. عليهم أن يوفوا النذور، هكذا ظننتُ دوماً ـ وبعدئذ هو مخلوق مسكين من الناحية الجسدية، بحيث ـ»

«كلامك هذا محض هراء، أيها المهندس»، قاطعه سيتيمبريني. «هذا ليس له علاقة بعدم الكفاءة الجسدية؛ في ما يتعلق بالنذور التي تتحدث عنها، هناك دوماً تحفظات. أنا أتكلم بمعنى أوسع، أكثر عقلانيةً، أشعر انني ربما إستغللتُ فهمكَ، الآن. لعلك تتذكر زيارتي لك يوماً ما في حجرتك ـ جرى ذلك منذ زمن طويل جداً، طويل جداً بنحو مخيف ـ كنتَ قد أنهيت تواً مدة رقادك في السرير التي إستغرقت ثلاثة أسابيع، بعد أن تم إستقبالك في المصح.»

«طبعاً، دخلتَ عند الغسق، وأشعلتَ الضياء ـ أتذكر زيارتك كما لو انها جرت أمس ـ»

«جيد. وجعلنا نتحدث، كدأبنا، أنا أبتهج لقول ذلك، في مواضيع رفيعة بعض الشيء. تحدثنا، على ما أعتقد، عن الحياة والموت: عن جلال الموت كونه حال الحياة وشيئاً تابعاً لها، والبشاعة والغرابة التي ينحدر إليها حالما ينصبه العقل في مبدأ مستقل. أيها الشابان»، إستطرد سيتيمبريني قائلاً، واقفاً على مقربة من الإثنين، إبهام ووسطى يده اليسرى ممدودتان كالشوكة، كما لو انه يريد أن يسيطر على إهتمامهما، بينما كان يرفع سبابة يده اليمنى محذراً، «إطبعاه في ذهنيكما: العقل مستقل. إرادته حرة، انه يكيف العالم

الأخلاقي. دعه مرة بصورة ثنائية يعزل الموت، والموت يصبح، فعلاً، بوساطة هذا النشاط العقلي للإرادة، أنت تفهمني، قوة بحد ذاته، القوة المضادة للحياة، المبدأ المعادي، الغواية الكبيرة؛ مملكته هي مملكة الجسد. تسألني لماذا مملكة الجسد؟ وأنا أجيبك: لأنه يشد ويحرر، لأنه يحرر ـ مع ذلك ليس تحرراً من الشر، بل تحرراً بوساطة الشر. انه يهدئ التصرفات والأخلاق، انه يحرر المرء من ضبط النفس والكبت، انه يسلّمه للشبق. إذا كنتُ قد حذرتكما من هذا الرجل، الذي عرفتكما به بصورة غير مقصودة، إذا نصحتكما بأن تكونا مسلحين الى حدٍ كبير بروح إنتقادية في كل تعاملاتكما معه، فلأن أفكاره كلها شهوانية وتقف تحت درع الموت ـ والموت هو أكثر القوى فجوراً، كما أخبرتك آنذاك، أيها المهندس ـ ما زلتُ أذكر كلماتي جيداً، ذلك انني لا أخفق في أن أحفظ في ذهني كل ما هو جيد وأن أقول كل فقرة حدث ان أفدتُ نفسي بها ـ قوة معادية للحضارة والتقدم، للعمل وللحياة، وبالضد من نَفَسهما النتن تكون أكثر مهمات المعلم نبلاً هي أن يستر عقل الشباب.»

مَنْ يقدر أن يبز السيد سيتيمبريني في الكلام الجميل، مَنْ يتكلم بصورة أوضح منه، أو بلغة منمقة بالمحسنات البلاغية ومصقولة؟ هانز كاستورب ويواكيم زيمسين شكراه بحرارة بالغة على كل ما قاله، وإرتقيا الدرجات المؤدية الى مصح بيرغهوف، بينما لجأ السيد سيتيمبريني مرة أخرى الى طاولة الكتابة الإنسانية خاصته، في الطبقة الكائنة فوق صومعة نافته الحريرية.

الزيارة الأولى التي قام بها إبنا الخالتين الى نافته، التي وصفنا مجرياتها، تبعتها زيارتان أخريتان أو ثلاث؛ إحداها جرت، حتى، في غياب السيد سيتيمبريني. تلك الزيارات كلها وهبت الشاب هانز كاستورب مادة غنية للتفكير، حينما، في منعزله المليء بالأزهار الزرق، مع صورة الشكل البشري السماوي، المدعوة Homo Dei، المرفرفة أمام عين العقل خاصته، جلس وجعل [يجرد البضائع الموجودة].

وصل أغسطس (آب)، ومع دخوله مرت الذكرى السنوية لوصول بطلنا الى هذه الأنحاء. شيء حسن جداً حين تكون قد إنقضت ـ الشاب هانز كاستورب لم يتطلع للذكرى بسعادة. وتلك هي القاعدة. الذكرى السنوية لم تكن شائعة. الساكنون القدامى يمرون بها من دون أن يفكروا فيها؛ و ـ مع انهم عموماً يتمسكون بأي حجة من أجل إقامة إبتهاج صاخب، ويغتنمون الفرصة كي يحتفلوا بذكرياتهم السنوية الخاصة ناهيك عن تلك التي شكلت الإيقاع المتكرر دورياً للسنة؛ يمرحون بإنفجارات سدادات الفلين في المطعم في أعياد الميلاد الشخصية، الفحوصات العامة، المغادرات الوشيكة سواء «المتهورة» أو المسموح بها، وما شاكل من المناسبات ـ لم يعيروا الذكرى السنوية للوصول أيَّ إنتباه آخر عدِا الصمت العميق. انهم يجعلونها تمر مرور الكرام، لعلهم حقيقةً إستطاعوا أن ينسوها، وربما كانوا واثقين من أن لا أحد سواهم سوف يتذكر هذه المناسبة. كانوا قد عوّلوا على تمفصل مناسب للزمن، إهتموا بالتقويم، ملاحظين منعطفات السنة، وحدودها المتكررة دورياً. أما قياس الزمن الخاص بالفرد، ذلك الزمن الذي كان بالنسبة للفرد في هذه المناطق مرتبطاً إرتباطاً حميماً بالمكان ـ فقد عُدَّ مهنةً مناسبةً فقط للواصلين الجدد وأولئك الذين أمضوا أجلاً قصيراً. المواطنون المستقرون كانوا يفضلون الزمن غير المقيس، الأبدي، اليوم الذي كان أبداً نفسه؛ وبرقةٍ كان كل واحد منهم يجل في الآخرين العاطفة التي كان هو نفسه قد تعلق بها بحرارة كبيرة. أن يقول لأي شخص ان هذا اليوم قبل ثلاث سنوات كان يوم وصوله، قوله هذا سيُعد همجياً، وسوء ذوق من الطراز الأول ـ ببساطة لم يحصل هذا أبداً. حتى السيدة شتور، على الرغم من عيوبها في مسائل أخرى، كانت جد لبقة وجد منضبطة لئلا يزل لسانها بتلك الجملة. أكيد ربطت جهلها الكبير بحالتها الجسدية الملوثة بالجراثيم والمحمومة. منذ عهد قريب كانت قد ألمحت الى «تأثر» طرف رئتها؛ واتخذت المحادثة طابعاً تاريخياً، شرحت ان التواريخ كانت بالنسبة لها

«طوق بوليقريطس»[٨١] ـ وهي ملاحظة جعلت سامعيها يتفرسون فيها. لكنه شيء لا يُصدق أن تذكر هي الشاب زيمسين بأن سنته ستنتهي في شباط (فبراير) ـ مع انها في الأرجح فكرت في هذا. ذلك ان رأس هذه المخلوقة التعيسة كان مليئاً بمتاع لا نفع فيه، وكانت تحب أن تتعقب قضايا الناس الآخرين. غير ان عُرف المكان أبقاها تحت المراقبة.

والشيء نفسه جرى مع الذكرى السنوية لـ هانز كاستورب. لعلها حاولت أن تومئ له برأسها بطريقة ذات معنى، عند المائدة؛ ولأنها لاقت نظرةً محدقةً خاليةً من التعبير إنسحبت ببراعة. يواكيم هو الآخر لزم الصمت، مع انه كان في الأرجح يتذكر بوضوح التاريخ الذي أتى فيه بالضيف من محطة الدورف. كان يواكيم أبداً صموتاً بطبيعته، كان دوماً يتكلم أقل من ابن خالته، حتى قبل أن يأتيا هنا في الأعالي ـ ليس ثمة مقارنة بينه وبين الإنسانيين والمجادلين من معارفهما ـ وفي هذه الأيام إتخذ صمته درجات بطولية، فقط الكلمات ذوات المقطع الواحد تمر من شفتيه. سلوكه، على أية حال، كلام مجلدات. كان واضحاً ان في ذهنه محطة الدورف كان يرافقها نظام آخر من الأفكار غير تلك المتعلقة بوصول أو لقاء الناس. كان يقود مراسلات نابضة بالحيوية مع الأرض المنبسطة؛ كان تصميمه ناضجاً، إستعداداته أصبحت في رأس اللائحة.

كان تموز (يوليو) دافئاً ونيّراً. لكن مع آب (أغسطس) بدأ مناخ سيء، غائم ورطب؛ مع رذاذ متجمد أولاً وبعدها ثلج حقيقي. واستمر ـ مع فترات فاصلة من أيام مفردة مشرقة ـ طوال الشهر كله، وحتى في شهر أيلول (سبتمبر). في البداية كانت الحجرات قد احتفظت بدفء المدة الصيفية التي إنصرمت تواً: كانت الغرف قد ظلت في درجة خمسين فهرنهايت، التي عُدّتْ مريحةً. لكن سرعان ما أصبح المناخ أكثر برودة؛ كان هناك مرح

(٨١) بوليقريطس Polycrates: طاغية ساموس Samos (٥٤٠ ـ ٥٢٢ق.م) قدم دعماً كبيراً لقمبيز الثاني ضد المصريين في الحروب الفارسية ـ المترجم.

صاخب حين بيّض تساقط الثلج الوادي، ذلك ان مشهده ـ المشهد وحده، ذلك أن تدني الحرارة فقط لم يكن كافياً ـ أرغم الإدارة على تدفئة، أولاً حجرة الطعام، وبعدها حجرات النوم أيضاً؛ بحيث ان المرء حين ينهض من تحت البطانيات، عند نهاية مدة إستراحة ما، ويدخل من جديد حجرة نومه، ربما يدفئ أصابعه المتيبسة على الأنابيب الحارة، مع ان الهواء الجاف الذي تطلقه هذه يفاقم الإحتراق في الخدين.

هل عاد الشتاء من جديد؟ تقريباً الوعي فكر هكذا. في كل حدب وصوب كانت هناك شكاوى عالية الصوت، من أن صيفهم خدعهم؛ مع انهم حقيقةً هم الذين خدعوا أنفسهم، أغرتهم ظروف طبيعية واصطناعية، وكذلك إستهلاك وحدات الزمن بالطريقة الطائشة نفسها في داخل المصح وخارجه. كان العقل يعي ان مناخاً خريفياً جميلاً حتماً سيعقب، ستكون هناك سلسلة متوالية من الأيام الساطعة كل يوم يتنافس مع الآخر، والفاتنة جداً بحيث ان المرء ربما يشرِّفها بأن يخلع عليه إسم الصيف، لولا القوس الأكثر سطحية الذي اتخذته الشمس خلال مسارها وأفولها الأبكر. غير ان تأثير المنظر الطبيعي للشتاء على المرء كان أقوى من سلطان مثل هذه الأفكار المواسية. إبنا الخالتين يقفان عند الباب المغلق في الشرفة، ويحدقان بقرف في دوامة الرقاقات ـ انه يواكيم الذي وقف هكذا، وبصوتٍ مكتوم قال: «إذاً سيبدأ كله من جديد، صحيح؟»

من ورائه في الحجرة أجاب هانز كاستورب: «سيكون هذا مبكراً نوعاً ما ـ أكيد لا يمكن أن يستقر الأمر لصالح الشتاء قبل الآن ـ غير ان له مظهر حاسم بنحو فظيع. إذا كان الشتاء يتألف من الظلام والبرد، الثلج والأنابيب الحارة، إذاً لا يمكن لأحد أن ينكر انه الشتاء ثانية. وعندما تعتقد اننا إنتهينا منه تواً وان الثلج بدأ تواً بالذوبان ـ في الأقل، يبدو الأمر هكذا، أليس كذلك، كما لو ان الربيع كان قد ولّى تواً ـ حسن، يمكنني القول، ان هذا يصيب المرء بالدوار. انه حقيقة ضربة لحب المرء للحياة. دعني أشرح لك ما أعنيه. أقصد ان العالم كونه مرتباً بشكل طبيعي يساعد على تحقيق حاجات

الإنسان وسعادته في الحياة ـ أليس الأمر كذلك؟ لن أبالغ إذا قلتُ ان نظام الأشياء الطبيعي كله، في سبيل المثال حجم الأرض، الوقت الذي تستغرقه كي تدور حول محورها وحول الشمس، الإنقسام بين النهار والليل، الصيف والشتاء ـ باختصار، التناغم الكوني كله، إذا أردت أن تسميه هكذا ـ مرتب بصورة خاصة لفائدتنا ومصلحتنا؛ سيكون ذلك وقاحة، على ما أعتقد، وشيئاً ساذجاً في الصفقة. سيكون ذلك إستنتاجاً غائياً، كما يعبّر عنه الفلاسفة. لا، سيكون من الحقيقي أكثر أن نقول ان حاجاتنا ـ الحمد لله يلزمها أن تكون هكذا ـ في تناغم مع الحقائق الأكبر، الجوهرية للطبيعة. أقول الحمد لله، ذلك ان هذا فعلاً يدفعنا لأن نسبحه. الآن، حين يأتي الصيف أو الشتاء هناك في الأسفل، الصيف أو الشتاء الماضي يكون بعيداً بدرجة كافية في الماضي كي يجعل المرء يفرح برؤيته من جديد ـ وهنا تكمن بعض السعادة التي نملكها في الحياة. إنما هنا في الأعالي هذا النظام والتناغم دُمرا تماماً: أولاً لأنه لا وجود لمواسم مناسبة، كما قلتَ ذلك أنت نفسك في بداية مجيئي، لكن أيام الصيف وأيام الشتاء كلها ممتزجة معاً؛ وثانياً، لأن ما أنفقناه هنا في الأعالي ليس زمناً على الإطلاق، وان الشتاء الجديد، حين يقبل، ليس جديداً، بل الشتاء القديم نفسه طوال الوقت. كل ذلك يفسر بصورة كاملة الإشمئزاز الذي تشعر به حين تتطلع من النافذة.»

«شكراً»، قال يواكيم. «والآن فسرته، انك تشعر بكونك قانعاً تماماً بحيث تكون قانعاً بالوضع نفسه ـ مع انه في كل البشر ـ لا!» قال هو. «أنا مرهق. شبعان. انه وضع كريه. الوضع كله خداع هائل، فاسد، كريه؛ وأنا، بدوري ـ» مضى بخطوات عجلى عبر الحجرة وأغلق الباب بغضب وراءه. وإذا لم يكن هانز كاستورب خاطئاً جداً، كانت هناك دموع تترقرق في العينين اللطيفتين، الجميلتين.

ترك الآخر مصعوقاً. طالما ان يواكيم قصر نفسه على صياغة قراره في كلمات؛ ابن خالته لم يأخذ الأمر مأخذاً جدياً تماماً. لكن الآن ذلك الصمت تحدث إليه، وسلوكه أيضاً، كان هانز كاستورب مذعوراً، ذلك انه فهم ان العسكري يواكيم هو الذي يترجم الأقوال الى أفعال ـ كان مذعوراً جداً

بحيث أمسى شاحباً، وكان شحوبه بسبب الإثنين معاً. «من الجائز أن يموت قريباً»، فكر. وتلك القطعة من معلومة المصدر الثالث مزجت نفسها مع خوفٍ قديم، مؤلم، لا يمكن كبته تماماً، جعله يقول في قرارة نفسه: «هل من الممكن أن يتركني وحدي هنا في الأعالي ـ يتركني أنا، الذي أتيتُ فقط من أجل زيارته؟ سيكون ذلك شيئاً مجنوناً، فظيعاً؛ بمجرد التفكير فيه أشعر ان قلبي يرتعش وخدي يغدو شاحباً. لأنني (إذا) تُركت هنا في الأعالي ـ كما سأكون عليه، إذا ذهب الى الأسفل، ذلك انه شيء غير وارد بالنسبة لي أن أذهب معه. (إذا) تُركتُ هنا في الأعالي، فسأبقى هنا الى الأبد، وحيداً لن أجد طريقي في العودة. لن أرجع الى العالم ثانية. وبمجرد التفكير في هذا يتوقف فؤادي عن الخفقان.»

هكذا كان مجرى تأملات هانز كاستورب المخيفة. غير انه عصر ذلك اليوم، وُهب اليقين. يواكيم بنفسه صرّح قائلاً: سبق السيف العدل، الجسور نُسقت[٨٢].

نزلا بعد الشاي الى الدور التحتاني لغرض إجراء الفحص الشهري. كان ذلك بداية أيلول (سبتمبر). عند دخولهما حجرة الاستشارة ذات الهواء الدافئ، شاهدا الدكتور كروكوفسكي جالساً الى طاولته، وهوفرات، بوجه شديد الزرقة، مستنداً الى الجدار شابكاً ذراعيه، ربت على كتفه بالسماعة الطبية، ومتثائباً نحو السقف «هنيئاً، يا أولاد»، قال هو، بكسل. كان مزاجه غير صارم، مستسلماً وكئيباً، وربما كان يدخن. كانت هناك أيضاً، على أية حال، أسباب موضوعية لحالته تلك، كما سمع إبنا الخالتين: فضيحة دولية من النوع الذي كان شائعاً جداً في المؤسسة. فتاة ما تُدعى إيمي نولتنغ دخلت مصح بيرغهوف قبل عامين في فصل الخريف، وبعد مكوث استغرق زهاء تسعة شهور غادرت مكتسبةً الشفاء التام. لكن قبل أن ينصرم أيلول (سبتمبر) عادت، قائلة انها «لا تشعر بأنها على ما يرام» في البيت. في شباط (فبراير)، برئتين غابت عنهما كل آثار الخرخرات، رُحِّلت الى البيت

---

(٨٢) الجسور نُسقت: أي انه لا يمكن التراجع ـ المترجم.

من جديد ـ لكن في منتصف تموز (يوليو) عادت ثانية الى مكانها عند مائدة السيدة إلتيس. إيمي هذه، عندئذ، أُكتشفت في حجرتها في الواحدة بعد منتصف الليل رفقة معذب آخر، يوناني يدعى بوليبراكسيوس، هو نفسه الذي خطفت ساقاه الجميلتان إنتباهاً مُرضياً ليلة ثلاثاء المرفع ـ هو صيدلي في مقتبل العمر كان والده يملك مصبغة في (البيراوس). هذا الإكتشاف تم من خلال غيرة فتاة أخرى في ميعة الصبا، وهي صديقة لـ إيمي، وجدت طريقها الى حجرة إيمي بالطريق نفسه الذي سلكه اليوناني ـ أي عبر الشرفات؛ أطلقت صرخةً هائلة، مخبلة بغيظها الغيور بحيث أقبل الجميع راكضين، وأصبحت الشائعة معروفة لعصافير سطوح المؤسسة. توجب على بيرنز أن يطرد الثلاثة كلهم؛ وناقش في تلك اللحظة المسألة البغيضة أخلاقياً مع كروكوفسكي الذي كان يعالج الفتاتين معالجة خاصة. هوفرات، حين فحص، إستمر في اطلاق الملاحظات، بنبرات مستسلمة وحزينة ـ فقد كان بارعاً في التسمع بالسماعة الطبية بحيث كان بوسعه أن يصغي الى أحشاء الإنسان، ويملي ما يسمعه على مساعده ويتحدث عن شيء آخر طوال الوقت. «آ، نعم، أيها الشابان»، قال، «هذه الليبيدو[٨٣] اللعينة. يمكنكما أن تنالا منها بعض المتعة، انها مناسبة لكما ـ حويصلي. لكن رجلاً في موقعي هذا، الحق أقول لكما ـ صوت غير واضح هنا ـ له بطن مليء. انها غلطتي ان السل الرئوي والشهوة الجنسية يمشيان معاً ـ صوت أجش نوعاً هنا؟ لم أرتب الأمر بتلك الطريقة؛ لكن قبل أن تنتبه أين أنت تجد نفسك قيّماً على ماخور ـ مقتصر هنا تحت الكتف اليسرى. لدينا تحليل نفسي، نحن نمنح المغفلين كل الفرص المتاحة كي يفحصوا عما يختلج في نفوسهم من لواعج ومشاعر ونوايا ـ ذلك ينفعهم كثيراً! كلما تحدثوا أكثر أمسوا أكثر فسوقاً. أنا أبشر بالرياضيات ـ هنا، أفضل، الخرخرات راحت. ـ أخبرتهم انهم إذا ما شغلوا أنفسهم بدراسة الرياضيات سيجدون فيها أفضل علاج حيال رغبات الجسد. المحامي باراوانت كان حالة سيئة؛ أخذ بنصيحتي،

---

(٨٣) الليبيدو libido: الشهوة الجنسية ـ المترجم.

هو الآن مشغول بمحاولة المستحيل، وشعر بارتياح كبير. بيد ان أغلبهم كانوا جد حمقى وكسالى، وليكن الله في عونهم! حويصلي. ـ كما ترى، أعرف انه شيء سهل جداً بالنسبة للشبيبة أن يذهبوا الى ما هو سيء هنا في الأعالي ـ إعتدت أن أفعل شيئاً ما في ما يخص هذه الفسوقات. لكن حدث قبل مدة وجيزة أن أخاً ما أو عريساً سألني شخصياً عن علاقتي الغرامية ـ ومنذ ذلك الحين بقيتُ في أسوأ حال. ـ خرخرات طفيفة عالياً في جهة اليمين.»

انتهى من يواكيم، دس سماعته الطبية في جيب سمقه، ودعك عينيه بكلتا يديه الضخمتين، كعادته حين «يرتد عن الطريق القويم» ويغدو كئيباً. بطريقةٍ نصف آلية، بين التثاؤبات، ثرثر بسرعة وسهولة: «حسن، زيمسين، فقط حافظ على مرحك، ستكون على ما يرام أيضاً. لستَ كصورة في كتاب علم وظائف الأعضاء، ثمة عقدة هنا وهناك، وأنت لم تنظف بعد غافكي خاصتك، لا بل صعدت درجةً أو نحو ذلك، انه ستة هذه المرة ـ إنما لا يهم، لا تبتأس، أنت أفضل حالاً مما كنت عليه حين أتيتَ؛ يمكنني أن أسلمك إياه مكتوباً. فقط خمسة أو ستة شهور أخرى ـ monaths ـ أعني. هل تعرف ما هو الشكل الأبكر للكلمة؟ قصدتُ أن أقول monath، بعد هذه ـ»(٨٤).

«سيد هوفرات»، بدأ يواكيم كلامه. كان يقف عارياً حتى الخصر، أخمصا قدميه متلاصقان وصدره مكشوف، بوقفةٍ مصممة، ومرقش الوجه كعهده به حين لاحظ هانز كاستورب أول مرة شحوب الوجه المسفوع بقوة جراء التعرض للشمس.

تابع بيرنز من دون أن يعيره إهتماماً: «ـ وإذا ما بقيتَ نصف سنة أخرى والتزمت بالتعليمات، يا سلام، ستكون رجلاً واثقاً من النجاح، يمكنك أن

---

(٨٤) في الإنجليزية القديمة يسمى الشهر (month): monath ـ وهو مدة دوران القمر حول الشمس: نحو ٢٩,٥ يوماً ـ المترجم.

تغلب قسطنطين[٨٥] بيد واحدة؛ ستكون قوياً بدرجة كافية كي تقود فوجاً من الرجال ذوي القوة الإستثنائية ـ»

مَنْ يدري كم من المزيد من الهراء كان يمكن أن يطلقه ويرغم يواكيم على سماعه لولا تصميم الأخير غير المتردد على أن يضعه عند حده.

«سيد هوفرات»، قال الشاب، « أود أن أقول لك، إذا سمحت لي، إنني قررتُ الرحيل.»

«ما هذا؟ إذاً أنت تنوي الرحيل؟ إعتقدت انك تود أن تنزل في ما بعد كإنسان سليم، كي تكون جندياً.»

«كلا، يلزمني أن أغادر الآن، سيد هوفرات، في غضون أسبوع، هذا هو قراري.»

«أتعني ما تقوله؟ تريد أن تقفز من المقلاة الى النار؟ سوف ترفع الخيام وترحل عن المكان؟ ألا تسمي هذا فرارا؟»

«لا، سيد هوفرات. أنا لا أنظر إليه في هذا الضوء. لا بد لي أن ألتحق بفوجي.»

«حتى إذا أخبرتك انني أستطيع يقيناً أن أصرفك في بحر نصف عام، لكن ليس قبله؟»

وقفة يواكيم أصبحت لائقةً أكثر. طوّق بطنه، وردَّ رداً مكبوتاً ومقتضباً: «أنا هنا منذ عام ونصف، سيد هوفرات. لا أستطيع الإنتظار مدة أطول. كان من المفروض أن تكون ثلاثة شهور لا غير. منذ ذلك الحين جعلت تزداد المرة تلو المرة، أولاً ثلاثة شهور، ثم ستة، وهلم جرا، وحتى الآن لم أتماثل للشفاء.»

«هل هذه غلطتي؟»

«لا، سيد هوفرات. لكنني لا أستطيع الإنتظار مدة أطول. إذا لم أكن

---

(٨٥) قسطنطين Constantinople (الأول، الكبير) (٢٧٤ ـ ٣٣٧): إمبراطور روماني ٣٠٦م. أسس عاصمة جديدة سماها القسطنطينية ودشنها سنة ٣٣٠م (تدعى هذه المدينة أيضاً استانبول) ـ المترجم.

أنوي أن أضيع فرصتي، لا أستطيع أن أنتظر ريثما أكتسب الشفاء التام هنا في الأعالي. يلزمني أن أهبط الآن. أحتاج الى وقت صغير كي أهيأ تجهيزاتي والترتيبات الأخرى.»

«عائلتك تعرف ما أنت فاعل ـ هل هم موافقون؟»

«أمي ـ نعم. الأمور كلها مرتبة. في الأول من تشرين الأول سألتحق بالفوج السادس والسبعين كبوّاق[٨٦].»

«مع كل المخاطر؟» سأل بيرنز، وركز عليه نظرات عينيه المحتقنتين بالدم.

«لي الشرف»، أجاب يواكيم، وشفتاه تختلجان.

«جيد جداً، زيمسين.» تغيرت نبرة هوفرات؛ تخلى عن موقفه، إسترخى بكل طريقة. «جيد جداً، إذاً. حرّك رجليك، اذهب، وليكن الله معك. أفهم انك تعرف عقلك، وهو شيء واقعي جداً بالتأكيد، ذلك انها قضيتك وليست قضيتي. كل قِدر يقف على قاعدته[٨٧]. أنت تذهب متحملاً خطرك، لستُ مسؤولاً عن ذلك. لكن يا إلهي، ربما تتغير الأمور ويتحسن وضعك. الجندية مهنة خارج المباني. لعلها تكون نافعة لك، لعلك تخرج سالماً من المحنة.»

«نعم، سيد هوفرات.»

«حسن، وماذا عن ابن خالتك، المواطن المسالم ذاك؟ هو يريد أن يرافقك، صحيح؟»

كان هذا هانز كاستورب، الذي من المفروض أن يجيب. كان واقفاً هناك شاحباً كما كان عليه في الفحص الأول، الذي إنتهى بأن أُعترف بكونه مريضاً. الآن، كما حصل آنذاك، كان بالمستطاع رؤية قلبه يدق على جنبه. قال: «أتمنى أن ترشدني برأيك، سيد هوفرات.»

---

(٨٦) وردت في النص كلمة cornet الأصح cornetist ـ لعله خطأ مطبعي، أو ربما تعبير عامي ـ المترجم.

(٨٧) هذه الجملة تعني ان كل امرئ يتحمل وزر أعماله ـ المترجم.

«رأيي. جيد» سحبه إليه من ذراعه، وجعل يربت عليه ويصغي. لم يملي. مرَّ الفحص سريعاً نسبياً. حين إنتهى، قال: «يمكن أن تذهب.»

تلعثم هانز كاستورب: «تقصد ـ تقصد ـ انني تماثلت للشفاء؟»

«نعم، تماثلتَ للشفاء. المكان في الأعلى في الفص الأيسر لم يعد يستحق أن يتكلم عنه المرء. حرارتك لا علاقة لها به. لماذا لديك هذه الحرارة، لا أدري. أفترض انها لم تعد ذات أهمية. بقدر تعلق الأمر بي، بوسعك أن تذهب.»

«لكن ـ سيد هوفرات ـ هل لي أن أسأل ـ أي ـ انك ربما لا تكون جاداً بكل ما في الكلمة من معنى؟»

«لا أكون جاداً؟ لِمَ لا؟ ماذا تظن؟ وعرضياً، ماذا تظنني، إذا سمحت لي أن أسأل؟ ماذا تحسبني؟ قيّماً على بيت دعارة؟»

كان في حالة انفعال شديد. توهج الدم في خديه وحوّل زرقتهما الى اللون الأرجواني، شفته وحيدة الجانب سُحبت عالياً جداً بحيث ظهر نابا فكه الأعلى. دفع رأسه للأمام كالثور، بعينين محدقتين، محتقنتين بالدم، ودامعتين.

«لا أملك بيتاً للدعارة»، جأر. «في المقام الأول، لستُ صاحب الملك هنا! انا مجرد مؤجر. أنا طبيب. لست سوى طبيب، أقول لك هذا كي تفهم. لستُ قوّاداً. لست السينيور أموروسو بالسيف الطليطلي في Napoli bella. أنا خادم البشرية المعذبة! وإذا كان أي منكما قد تخيل بالمصادفة رأياً مختلفاً عني وعن شخصيتي، عندئذ بوسعكما كلاكما أن تذهبا الى الشيطان مع تمنياتي ـ يمكنكما أن تذهبا الى الكلاب أو أن تنقلبا راجعين، إختارا أي الشيئين، ورحلة ممتعة لكما أنتما الإثنين!»

مشى بخطوات واسعة عبر الحجرة وخرج من الباب المفضي الى حجرة انتظار الأشعة السينية. ضُرب الباب وراءه بعنف.

نظر إبنا الخالتين بتوسل الى الدكتور كروكوفسكي، الذي كان قد دفن أنفه في أوراقه. لبسا ثيابهما على عجل. على السلّم قال هانز كاستورب: «كان ذلك شنيعاً. هل رأيته من قبل في مثل هذا السلوك؟»

«لا، لم أره في سلوك كهذا. غير ان السلطات غالباً ما تتعرض لهذه النوبات. الشيء الجوهري أن تتصرف بوقار وتجعل العاصفة تمر. كان منزعجاً من [شغلة] بوليبراكسيوس وإيمي نولتنغ. لكن هل رأيت»، استطرد يواكيم، وسعادة كونه قد حارب وكسب المعركة إستحوذت عليه وكادت تحرمه من نَفَسه، «هل رأيتَ كيف إستسلم ولم يعد يرغب بالشجار، مباشرةً بعد ان رأى انني جاد؟ كل ما على المرء أن يفعله أن يُبدي بعض الشجاعة، وأن لا يجعل الآخرين يرفعون أصواتهم عليه. الآن حصلت على نوع من الإجازة ـ في الأقل، هو نفسه قال انني ربما أنجو من المأزق ـ أنا مسافر في غضون اسبوع ـ في بحر ثلاثة أسابيع سأكون مع القوات المسلحة»، أنهى حديثه، مغيّراً فقرته، ومقصراً الفرح الذي إختلج في صوته على مسائله الخاصة، من دون إشارة الى تلك الخاصة بـ هانز كاستورب.

كان الأخير صامتاً. لم يقل كلمة، لا عن «إجازة» يواكيم ولا عن إجازته هو ـ التي ربما كانت قد ذُكرت بشكل جيد. أكمل إستعداداته للإستراحة ـ العلاج، دس المحرار الطبي في فمه، قذف بطانيتي وبر الجمل حول نفسه بيدٍ سريعة، متمرسة، التقنية المثالية لتلك المهارة المقدسة التي لا تعرف عنها الأرض المنبسطة شيئاً؛ ثم إضطجع بلا حراك، ناعماً كلفة إسطوانية من اللقانق، في كرسيه الممتاز، في الرطوبة معتدلة البرودة لعصر يومٍ مبكر من أيام الخريف.

سحب المطر تتدلى واطئة. بقايا ثلج إستقرت على الأغصان الرئيسة لأشجار التنوب الفضية. كان علم المؤسسة يلتف حول ساريته. همهمة خفيضة من الأصوات البشرية تصاعدت من ردهة الإستراحة، التي صعد منها السنة الماضية، في هذا الوقت تقريباً، صوت السيد ألبين الى أذن هانز كاستورب. العلاج ما يزال مستمراً، المرضى جالسون هناك بوجوه وأطراف أصابع مثلجة حالاً. هذا كله بالنسبة له عادة ترسخت طويلاً. المجرى المحتوم للحياة؛ كان يعرف الإقرار بالجميل الذي يكنه المريض المستقر لنعمة كونه قادراً على الإستلقاء، مستكيناً إلتماساً للدفء، ويفكر في الأشياء كلها على مهل.

إذاً حُسِمَ الأمر، توجّب على يواكيم أن يغادر. رادامانثوس أطلق سراحه؛ ليس [معافى]، ليس بلائحة صحية نظيفة، مع ذلك بصورة نصف موافِقة، إستناداً الى عزمه الثابت وتقديراً له. سوف ينزل الى الأسفل: أولاً عبر الطريق الضيق الذي يصل حتى لاندكوارت، ومن ثم الى رومانشورن، وبعدها عبر البحيرة الواسعة اللامحدودة، التي فوقها بحسب الأسطورة أبحر الفارس، عبر ألمانيا كلها، والوطن. سوف يتوقف هناك، في دنيا الوادي، بين أُناسٍ ليس لهم أدنى فكرة عامة عن طريقة العيش، وجاهلين بـ «قياس الحرارة» وبكل الطقس الخاص بلف البطانيات، وجاهلين بـ أكياس النوم، وبـالمسيرات الراجلة اليومية الثلاث، بـ ـ يشق القول، يشق إحصاء كل الأشياء التي يجهلها أولئك الذين في الأسفل جهلاً مطبقاً؛ غير ان صورة يواكيم وحدها، بعد عامٍ ونصف هنا في الأعالي، يقضي حياته في ظلام ذلك اللافهم الخاص بالأرضِ المنبسطة ـ صورة يواكيم وحده، مع إشارة افتراضية ضعيفة جداً الى هانز كاستورب ـ حيّرت الشاب كثيراً بحيث أغمض عينيه وطردها بحركة من يده، مهمهماً: «مستحيل!»

وبما انه شيء مستحيل أن يحيا هنا في الأعالي، وحيداً، من دون يواكيم؟ نعم، هكذا إنتهت الحال. كم سيطول ذلك؟ الى أن يصرفه بيرنز مشافى ـ جدياً، أي، ليس كما فعل اليوم. غير ان هذا مدى زمني غير محدد بحيث انه لن يتنبأ به بعد الآن أكثر مما استطاع يواكيم، في مناسبة مماثلة قبل مدة طويلة. ثانيةً، هل يجوز أن المستحيل آنذاك أصبح الآن ممكناً؟ على العكس، ان رحيل يواكيم السريعِ قدّم ـ بشرف ـ دعماً لإبن خالته، الآن، قبل أن يغدو المستحيل مستحيلاً تماماً، مرشداً ومرافقاً على دربٍ لن، لن يجد له مثيلاً ثانية. آه، إذا إستشار المرء البيداغوجيا(٨٨) الإنسانية، كيف ستناشده البيداغوجيا الإنسانية كي يأخذ اليد ويتقبل الإرشاد الممنوح! غير ان السيد سيتيمبريني مجرد ممثل ـ لأشياء وقوى تستحق أن يسمع عنها المرء،

(٨٨) البيداغوجيا pedagogy: علم أصول التدريس ـ المترجم.

هذا صحيح، غير انها ليست القوى الوحيدة هناك. والشيء نفسه بالنسبة لـ يواكيم. كان جندياً. انه راحل ـ تقريباً في الزمن المحدد لعودة تلك ذات الصدر العالي، فقد كان معروفاً انها ستؤوب في اكتوبر (تشرين الأول). في حين ان رحيل المدني هانز كاستورب أصبح مستحيلاً، على وجه الدقة لأن عليه أن ينتظر كلاوديا شوشا، التي كانت عودتها، حتى الآن، غائبة عن باله. «أنا لا أنظر إليه في ذلك الضوء»، أجاب يواكيم حين تكلم رادامانثوس عن الفرار ـ مع انه قدر تعلق الأمر بـ يواكيم كان ذلك فحسب شيئاً من الهذيان الكئيب لـ هوفرات. لكن بالنسبة له، هو المدني، كان الأمر مختلفاً. بالنسبة له ـ آ، هنا تكمن الفكرة الصحيحة، الفكرة التي هيأ نفسه لإستنباطها، بينما كان مستلقياً في البرد والرطوبة ـ بالنسبة له الفرار الحقيقي يكمن في إغتنام الفرصة بالإندفاع بسرعة بصورة غير قانونية ـ أو نصف غير قانونية ـ الى الأرض المنبسطة. سيكون ذلك إنغماساً في مسؤوليات شاملة معينة نتجت عن تأمله للصورة المدعوة Homo Dei؛ سيكون ذلك إظهاراً لتلك المهمة المحددة الخاصة بـ«جرد البضائع الموجودة»، تلك المهمة العسيرة والمرهِقة، التي كانت حقيقةً وراء القدرات الفطرية بالنسبة له، لكنها مع ذلك وهبت روحه تلك المسرات التي يتعذر وصفها والمغامِرة؛ تلك المهمة كان من واجبه أن ينجزها، هنا في كرسيه، وهناك في الأعالي في معتزله ذي الأزاهير الزرق.

انتزع المحرار من فمه، بعنفٍ كما لم يحدث من قبل عدا تلك المرة حين باعته أوبرين اللعبة وإستعملها أول مرة. نظر إليه بالفضول الشديد ذاته الآن كما في السابق. آ، الزئبق الواقع متجه الى الأعلى: توقف عند درجة ١٠٠,٥ فهرنهايت، تقريباً ١٠٠,٦.

رمى هانز كاستورب أغطيته، قفز ومشى بخطوات واسعة الى باب المجاز وعاد من جديد. ثم إستلقى ثانيةً، نادى يواكيم برقة، وسأله كم بلغ مقياس حرارته.

«لن أقيس حرارتي بعد الآن»، رد ابن خالته.

«حسن، أنا عندي بعض المرارة[٨٩]»، قال هانز كاستورب محاكياً السيدة شتور؛ يواكيم، خلف لوح الزجاج، لم ينبس ببنت شفة.

لم يقل المزيد، في ذلك اليوم أو اليوم الذي تلاه؛ ولم يبذل أي مجهود كي يكتشف خطط ابن خالته ـ التي، في الواقع، ستكون مدفوعة لإظهار نفسها في وقت غير طويل، إما من خلال إتخاذه خطوات معينة أو إحجامه عنها. فعلت هي كذلك ـ الأخيرة. هانز كاستورب بدا موافقاً على ذلك التصوف الذي بحسب رؤيته النشاط كله يعد بمنزلة إهانة للباري، الذي يفضل أن يعمل بـ (مشيئته). على أية حال، نشاط الشاب خلال هذه الأيام قصر نفسه على زيارة الى بيرنز؛ إستشارة كان يواكيم يعيها، كان يتوقع نتيجتها سلفاً. ابن خالته شرح قائلاً انه أخذ حريته في أن يعوّل كثيراً على نصائح هوفرات التي يكررها في أحيان كثيرة بأن يبقى هنا في الأعالي مدة طويلة كافية كي يتم علاجه أكثر مما يعوّل على الرأي غير المدروس الذي صُرِّح به في ذروة اللحظة. كانت حرارته ١٠٠,٥ درجة فهرنهايت، لا يستطيع أن يعد نفسه مطلق السراح بحسب العرف؛ وما لم يؤخذ تصريح هوفرات الحديث بالحسبان كونه طرداً، الذي إزاءه كان هو، المتكلم، لا يعي أنه كشف نفسه، كاد يود القول انه بتفكير ناضج كان قد قرر أن يبقى وينتظر حادثة الشفاء التام. هوفرات أجاب على هذه كلها حصراً بـ «Bon! جيد جداً ـ ما من إساءة متعمدة، ما من إساءة مقبولة»، أو بكلماتٍ لها ذلك القصد. كان ذلك أشبه بكلام لرجل حساس؛ ألم يدرك هو أولاً ان هانز كاستورب له موهبة بوصفه مريضاً أكبر من موهبة ابن خالته المشعوذ آكل النار ذاك؟ وهكذا دواليك.

كانت هذه كلها قد ماثلت بدقة تخمين يواكيم. لم يقل شيئاً، فقط أشار بصمت الى أن هانز كاستورب لم يحرك ساكناً كي يشترك في إستعداداته

---

(٨٩) المقصود هنا بعض الحرارة؛ في النص الإنجليزي أُستخدمت كلمة temperament بدلاً من كلمة temeprature. كما هو معروف ان السيدة شتور تخطأ في إستعمال الكلمات ـ المترجم.

للمغادرة. غير ان الطيب يواكيم مشغول بدرجة كافية، يقيناً، بقضاياه الخاصة. ليس له وقت بعد الآن كي يشغل نفسه بمصير ابن خالته أو بمكوثه مدة أطول. في صدره كانت العاصفة تثور. كانت بدرجة ما بحيث لم يعد يقيس حرارته بعد الآن ـ كان، هكذا قال، قد جعل أداته تسقط على الأرض، وتنكسر ـ ذلك ان المحرار الطبي ربما يعطي مشورة معاكسة: كان مهتاجاً بصورة مخيفة، هو الآن متقد بصورةٍ مكفهرة، هو الآن شاحب باهتياج مبتهج. لم يعد قادراً على الإستلقاء بلا حراك في العلاج؛ هانز كاستورب سمع تحركاته هنا وهناك طوال اليوم في حجرته، خلال تلك الساعات، أربع مرات كل يوم، حين يسود مؤسسة بيرغهوف كلها ذلك الشيء الأفقي. كان قد مرَّ عام ونصف. والآن، أخيراً، أخيراً، هو بصدد المغادرة الى الأرض المنبسطة، الى الوطن والى فوجه! حتى مع نصف إطلاق سراح فقط ـ لم يكن ذلك حادثاً تافهاً ـ فؤاد هانز كاستورب ذهب الى ابن خالته حين سمع خطواته القلقة. ثمانية عشر شهراً، دورة دولاب كاملة ونصف دورة أخرى من جديد، سكن هنا في الأعالي، توغل عميقاً، عميقاً، في حياة المكان، إنحسار المد وجريانه، على مدى سبع مرات سبعين يوماً؛ والآن سوف يهبط الى الأسفل كي يحيا وسط الغرباء وغير المطلعين. أي صعوبات تلك التي يواجهها، كي يؤقلم نفسه؟ أليس هو بالأمر المدهش إذا كان إهتياج يواكيم تألف فقط جزئياً من عاطفةٍ مبتهجة، وجزئياً أيضاً من الرعب ـ إن لم يكن تألف أيضاً من غصة الرحيل عن كل هذه الحياة الأليفة التي جعلته يمشي هكذا بخطوات واسعة جيئة وذهاباً في حجرته؟ ذلك اننا لم نضع في الحسبان ماروسيا.

غير ان كفة الفرح هي التي كانت راجحة. قلب الطيب يواكيم فاض في شفتيه. كان يتكلم دوماً عن نفسه، لم يشر الى مستقبل هانز كاستورب. قال كم سيبدو طازجاً وجديداً: العالم، هو نفسه، الحياة كلها، وكل يوم، كل ساعة من الزمن. مرة أخرى سوف يتمتع بالزمن الواقعي، المتواصل، سنوات الشباب الطويلة، الطافحة بالحيوية والعنفوان. تكلم عن أمه، خالة هانز كاستورب من أمٍ ثانية، التي كانت لها نفس العينين السوداوين اللطيفتين

كإبنها. لم تزره هنا في الأعالي طوال هذه المدة كلها، تؤجل مثله من شهر الى شهر، من نصف عام الى نصف عام، كانت قد تأخرت طوال المدة كلها لإقامته في الجبال. تكلم عن يمين الإخلاص للقوات المسلحة، الذي سوف يقسم به عاجلاً ـ تكلم بحماسة، ببسمة على وجهه. كان ذلك احتفال وقور: في حضور العَلَم سيحلف له، حرفياً، للعَلَم ـ «لا تقل ذلك! بجد؟» سأله هانز كاستورب. «لسارية العلم؟ لنفاية قماش الرايات تلك؟» حتى كذلك! انه شيء رمزي؛ في سلاح المدفعية يقسمون للبنادق. يا للعادات المتعصبة، قال المدني، وجدها عاطفية بنحو مفرط. يواكيم أومأ برأسه، ممتلئاً بالزهو والسعادة.

أمضى وقته في الإستعدادات؛ حسم آخر حساب له مع الإدارة، وفي الأيام التالية بدأ يحزم أمتعته. حزم ثياب الصيف والشتاء وخُيط كيس النوم وبطانيتي وبر الجمل في كيس خيش من قبل أحد الخدم. لعلها تكون نافعة في المناورات العسكرية. بدأ يودع معارفه؛ قام بزيارة كل من نافته وسيتيمبريني ـ وحده، ذلك ان ابن خالته لم يفضل الذهاب معه، ولم يسأله ماذا قال سيتيمبريني عن رحيله الوشيك وعن بقاء هانز كاستورب. ما إذا قال سيتيمبريني: «نعم، نعم» أو، «فاهم، فاهم» أو كلاهما، أو فقط «مسكين!» واضح انه بالنسبة لـ هانز كاستورب الأمر سيّان.

أقبلت عشية الرحيل. قام يواكيم آخر مرة بكل نشاط من الأنشطة اليومية: كل وجبة من وجبات الطعام، كل وقت من أوقات الإستراحة، كل مسيرة من المسيرات الراجلة؛ ودع الأطباء وأوبرين. إنبلج الفجر. جاء الى المائدة بيدين باردتين وعينين مشتعلتين، ذلك انه لم يغمضهما طوال الليل. أكل أقل من لقمة واحدة؛ وحين أتت النادلة القزمة لتقول له ان صناديق ثيابه أُحزمت قفز من كرسيه كي يودع زملاء مائدته. السيدة شتور بكت، درت عيناها دموعاً سهلة، غير مالحة لإمرأة ساذجة؛ وبعدها، وراء ظهر يواكيم، هزت رأسها لمدرّسة الثانوية وأدارت يدها في الهواء، بأصابع متباعدة، معبّرةً

بذلك عن شكية رخيصة وعادية في سبب إصرار يواكيم على الرحيل، ورفاهيته المستقبلية. هانز كاستورب رآها تفعل ذلك، بينما كان يجرع كوبه واقفاً، كي يلحق ابن خالته. بعدها جاءت مسألة منح البقاشيش، وتقبل توديع الإدارة الرسمي في الدهليز. المجموعة المألوفة من المشاهدين كانت واقفةً هناك: السيدة ألتيس مع الـ Steriletto خاصتها، ليفي العاجية، بوبوف الجامح وزوجته. لوّحوا بمناديلهم حين هبطت العربة الطريق الخاص بينما كان كابح السرعة قيد العمل. كان يواكيم يحمل وروداً. كان يعتمر قبعةً أما هانز كاستورب فحاسر الرأس.

كان الصباح بهياً، بأول إشراق بعد أيام من الظلام. الشياهورن، الأبراج الخضر، القمة المستديرة لـ الدورفبيرغ، إنتصبت غير قابلة للتغيير وواضحة نحو السماء؛ إستقرت عينا يواكيم عليها. قال هانز كاستورب انه شيء يدعو للأسف نوعاً ان المناخ تغير وأصبح رائعاً جداً في اليوم الأخير. كان ثمة نكاية في هذا الأمر؛ المغادرات تكون دوماً أسهل إذا ما تُرِكَ انطباع قاسٍ في النهاية. في ما يتعلق بهذا يواكيم لا يحتاج الى أي شيء كي يجعله أسهل، وكان هذا مناخ ممتاز للمناورات العسكرية، سيكون سعيداً إذا حصلت هناك في الأسفل. قالوا أشياءَ قليلة أخر. الأشياء التي كانت بينهما، الوضع بالنسبة لكليهما، الواقع لم يبق الشيء الكثير مما يقال. البواب الأعرج جلس على الصندوق مع الحوذي.

منتصبين ومرحين على الوسائد الصلبة، جعلوا المجرى المائي وراءهم، خط السكة الحديد الضيق؛ إنطلقوا بالعربة على طول الشارع غير المنتظم المكتظ بالمباني بجانب الأخير، وتوقفوا في الساحة المرصوفة أمام محطة الدروف، التي كانت أكبر قليلاً من محارة. تذكّر هانز كاستورب بارتعاشة الانطباعات الأولى. منذ وصوله، قبل ثلاثة عشر شهراً، في الفجر، لم يرَ المحطة. «الى هنا وصلتُ»، قال بصورة لا ضرورة لها لـ يواكيم، الذي اكتفى بالقول: «فعلتَها إذاً»، ودفع الأجرة للحوذي..

الرجل الأعرج تولى مسألة بطاقات السفر والأمتعة. وقفا كلاهما على الرصيف عند القطار المصغر، الذي في إحدى مقصوراته ذات التنجيد

الرمادي شغل يواكيم مكاناً له مع معطفه، بطانية السفر خاصته، وورده. «حسن، إذهب، واحلف يمينك المتعصب»، هانز كاستورب أخبر ابن خالته، ورد عليه يواكيم: «أنا أعني ما قلتُ.» ماذا بقي هناك كي يقال؟ تبادل آخر التحايا، تحايا لأولئك المقيمين في الأسفل، تحايا لأولئك الساكنين هنا في الأعالي. هانز كاستورب رسم أشكالاً معينةً على الإسفلت بخيزرانته. «إتخذوا أمكنتكم!» صاح الحارس. هانز كاستورب جفل؛ نظر الى يواكيم، ويواكيم نظر إليه، كل منهما مد يده للآخر. كان هانز كاستورب يبتسم ابتسامة مبهمة؛ بدت عينا الآخر حزينتين، ضارعتين. «هانز!» قال ـ نعم، انه شيء لا يُصدق وموجع، حدث هكذا: نادى ابن خالته بإسمه الأول. لم يخاطبه بـ أنتَ، ولا [الزميل العريق] أو يا [رجل]، هذه الصيغ التي إعتاد أن يخاطب بها أحدهما الآخر طوال حياتيهما. لا، على الرغم من التحفظات كلها، بتفجر تقريباً، نادى ابن خالته بإسمه الأول. «هانز»، قال، وضغط كفه بتوسل ـ والآخر لاحظ ان إهتياج الرحلة، الليلة المسهدة، العاطفة، جعلت رأس يواكيم يرتعش على عنقه، كما جرى لعنقه هو حين [جرد البضائع الموجودة]، «هانز»، قال بجد، «إنزل حالاً!» قفز فجأةً. الباب أصدر صوتاً عنيفاً، صفّر القطار، العربات إنتقلت معاً من خط الى آخر. المحرك الصغير نفث دخاناً وسحب بجهد، القطار إنزلق بعده. المسافر لوّح بقبعته من النافذة، الآخر، على الرصيف، لوّح بيده. شاعراً بأن ابن خالته تخلى عنه، وقف هناك، بعد ذلك، زمناً طويلاً، وحيداً. ثم بتؤدة رجع من حيث أتى قاطعاً الدرب الذي كان قد سلكه منذ أكثر من سنة مع يواكيم.

نوبة، وخيبة

دارت العجلة. العقرب في الساعة الجدارية للزمن تحرك للأمام. كان قد انتهى موسم تفتح نبات الحوضية، والسحلب، وكان الجبل وردي اللون. زهور الجنطايا عميقة الزرقة، نجمية الشكل والزعفران الخريفي، شاحباً ومؤذياً، ظهرا من جديد بين النجيل الرطب، وغطى الغابات لون ضارب الى

الإحمرار. الاعتدال الخريفي(٩٠) كان قد مرَّ عليه زمن. يوم عيد الموتى(٩١) كان في المشهد ـ و، لمستهلكي الزمن المتمرسين، ربما حتى موسم أيام الأحد الأربعة السابقة للميلاد، والإنقلاب الشتائي، وعيد الميلاد. لكن حالياً ثمة أيام تشرين الأول (اكتوبر) المحببة الى القلب، سلسلة متوالية منها، شبيهة بذلك اليوم الذي ذهب فيه ابنا الخالتين ليشاهدا رسوم هوفرات.

منذ رحيل يواكيم لم يعد هانز كاستورب يجلس الى مائدة السيدة شتور، تلك المائدة التي كان فيها مكان الدكتور بلومينكول الخالي، عند تلك المائدة اعتادت ماروسيا المبتهجة أن تكتم مرحها اللامسؤول في منديل جيبها المعطر بالبرتقال حين تجلس إليها. نزلاء جدد، غرباء، جلسوا هناك الآن. صاحبنا، شهران مرّا في سنته الثانية، مُنحَ مكاناً جديداً من قبل الإدارة عند مائدة قريبة، بصورة منحرفة مع مائدته القديمة، بينها وبين المائدة الروسية «الجيدة». باختصار، مائدة سيتيمبريني. نعم، هانز كستورث جلس في مقعد الإنساني الشاغر، ثانيةً في الحافة، مواجهاً «مكان الطبيب»، الذي تُرك عند كل واحدة من الموائد السبع خالياً لـ هوفرات ومرافقه الخاص كي يشغلاه متى شاءا.

عند الحافة الأبعد عن الباب، جنوب مكان رئيس الأطباء، جلس المكسيكي ذو الظهر الأحدب، جاثماً على وسائد عدة؛ المصور الفوتوغرافي الهاوي، الذي كان تعبير وجهه أشبه بتعبير شخص أخرس، لأنه لا يملك لغةً يستطيع بها أن ينقل أفكاره. الى جانبه جلست العانس الموغلة في القِدم من سيبينبورغين. هي، كما قال سيتيمبريني، طالبت بأن يولع الجميع قاطبةً بزوج شقيقتها، وهو رجل لا أحد يعرفه، أو يود معرفة أي شيء عنه. بانتظام في ساعات معينة من اليوم هذه السيدة تُرى عند درابزون شرفتها مع خيزرانة صغيرة ذات مقبض من فضة تولا(٩٢)، فوق مؤخرة عنقها

---

(٩٠) الاعتدال الخريفي autumn equinox: يصادف في الثالث والعشرين من ايلول (سبتمبر) ـ المترجم.

(٩١) يوم عيد الموتى All Souls' Day: يصادف في الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) ـ المترجم.

(٩٢) تولا Tula: مدينة في روسيا ـ المترجم.

ـ كانت تفيد أيضاً كإسناد خلال مشيها ـ موسّعةً صدرها المسطح من خلال تمارين التنفس العميق. قبالتها جلس رجل تشيكي، كان الجميع يدعونه بـ سيد فينزل، بما ان اسم عائلته يستحيل لفظه. السيد سيتيمبريني، الواقع، حاول مرةً أن يلفظ السلسلة المتوالية المعقدة من الحروف الساكنة؛ بقليل من الإيمان الجيد مما هي طريقة لأن يختبر فيها بمرح العجز الرائع للاتينيته بوجه ذلك النمو الصوتي المتلبد والمتشابك. مع انه كان ممتلئ الجسم كالخُلد، ذا شهية مدهشة حتى هنا في الأعالي، كان التشيكي وعلى مدى أربعة أعوام يعلن مقسماً بأن لا أمل له. في مساء ما، يعزف أغاني بلاده مداعباً أوتار آلة عود beribboned، أو يتحدث عن مزرعة بنجر السكر، والنساء الجميلات اللاتي يعملن فيها. على جانبي هانز كاستورب جلس الزوجان من هاله، ماغنوس صانع البيرة وزوجته، اللذان تتسكع حولهما الكآبة كالغيمة، لأن لا طاقة لهما على تحمل نتاجات مهمة معينة من عملية الأيض: هو السكر، هي الزلال. مزاجهما النفسي، بخاصة مزاج السيدة ماغنوس الشاحبة، كان مقاوِماً لأي شعاع من الابتهاج؛ اليأس انبعث منها كما تنبعث الرطوبة من قبو؛ حتى أكثر من السيدة شتور مثلت ذلك الإتحاد غير المنوِّر بين الغباء والمرض، الذي عكر نفس هانز كاستورب ـ تحت تصحيح من السيد سيتيمبريني. أما السيد ماغنوس فكان أكثر حيوية ومحدِثاً أكثر، مع انه يتكلم فقط في مزاجٍ لا يطاق بالنسبة للحس الأدبي للإيطالي. هو أيضاً كان ميالاً للغضب، وكان يصطدم مع السيد فينزل لأسباب سياسية وغير سياسية. الطموحات القومية للتشيكي أثارت سخطه؛ ثانيةً، الأخير أظهر نفسه مؤيداً لتحريم بيع المسكِرات أو صنعها، وأدلى بملاحظات أخلاقية حول صنع البيرة، بينما السيد ماغنوس، بوجه شديد الإحمرار، كان يدافع من وجهة نظر صحية عن روعة المشروب الذي كانت مصالحه الذاتية مكبلة به. في لحظات كهذه، لمسة السيد سيتيمبريني الخفيفة والظريفة كانت تحافظ دوماً على اللياقة، لكن هانز كاستورب، في مكانه، وجد ان سلطته قادرة قليلاً على التعامل بنجاح مع الموقف.

مع إثنين فقط من زملاء مائدته كانت له علاقات شخصية، هما: انطوان كارلوفيتش فيرجه من سانت بطرسبورغ، ذلك المعذب البهيج، الجالس الى يساره. كانت له أشياء يقولها، تحت شاربيه الكثين الأحمرين ـ البنيين، عن صناعة الأحذية المطاطية؛ عن المناطق البعيدة في الدائرة القطبية، عن الشتاء الأبدي عند [الرأس(٩٣) الشمالي]. هانز كاستورب وهو كانا يقومان بجولتهما اليومية معاً. الآخر، الذي ينضم إليهما كلما سنحت الفرصة، والذي جلس جنب المكسيكي أحدب الظهر، عند النهاية البعيدة من المائدة، كان الرجل الذي من مانهايم، ذو الشعر الخفيف والأسنان الرديئة ـ اسمه فيردناند فيسال، والذي يمتهن التجارة ـ كانت عيناه تستقران بذلك التوق القابض للصدر على شخص السيدة شوشا السار، الذي منذ ليلة الكرنفال تلك سعى الى صحبة هانز كاستورب.

فعل ذلك بإصرار حليم، باخلاصٍ مستنكر كان كريهاً بالنسبة لـ هانز كاستورب، مدركاً أصوله المتشابكة؛ الذي شعر انه مرغم إنسانياً على الإستجابة له. بلطفٍ، حينذاك، ومدركاً انه حتى رفع الحاجبين سيكفي لأن يجعل المخلوق الجبان ينكمش خوفاً، حيث عانى من الوجود المتملق لـ فيسال، وكان الأخير لا يفوّت فرصةً كي يجعل من نفسه مقبولاً. سمح للرجل أن يحمل معطفه حين يمضيان في مسيرتهما الراجلة معاً، وكان فيسال يفعل هذا باخلاص؛ تحمل كذلك حوار المانهايمي، الذي كان محزناً الى درجة. كانت لـ فيسال شهوة الى طرح أسئلة مثل السؤال الآتي: هل ثمة معنى في التصريح بالحب لإمرأةٍ يعبدها المرء، لكنها لم تستجب أبداً ـ تصريح، بكلمات أخرى، بالحب الميؤوس منه؟ ماذا يظن رفيق دربه؟ بالنسبة له، فكّر جيداً في المسألة، إعتقد ان ثمة سعادةً لا محدودة في هذه التجربة. حتى إذا كان فعل الإعتراف لم يثر شيئاً غير الإشمئزاز، وتضمن إذلالاً كبيراً، مع ذلك انه يضمن لحظةً من الإتصال الحميم بالمحبوبة. ثقتها بنفسها جرتها الى دائرة هيامه، وحتى بعد أن إنتهى حقيقةً ذلك كله، مع ذلك الفقدان دُفع

---

(٩٣) الرأس Cape: أرض داخلة في البحر ـ المترجم.

ثمنه بوساطة منتهى السعادة اليائسة للحظة؛ ذلك ان الإعتراف فعل قوة، كلما كان مقنعاً أكثر تكون المقاومة التي يواجهها أقوى. في هذه النقطة تقطيبة حاجبي هانز كاستورب جعلت فيسال يكف عن القيام بالعمل، مع انها كانت ذات صلة بوجود فيرجه طلق المحيا، بنفوره من الطيرانات العليا للحديث، أكثر مما هي مراقبة أخلاقية من جانب بطلنا. غير راغبين بأن نظهره إما أحسن أو أسوأ مما هو عليه فعلاً، نشعر اننا مرغمين على أن نذكر ان البائس فيسال، ذات مساء حين كانا وحيدين، توسل إليه، بشفتين شاحبتين، ومن أجل محبة الباري أن يخبره ماذا جرى بعد ابتهاجات ثلاثاء المرفع، وهانز كاستورب استجاب بابتهاج، من دون، كما يحتمل أن يظن القارئ، أن يدخل عنصر خليع أو وقح في سرده. مع ذلك، هناك الأسباب كلها، من جانبنا ومن جانبه، في أن لا نمضي كثيراً جداً في التفاصيل، وسوف نضيف فقط من ذلك الحين فصاعداً ان فيسال حمل معطف صديقه بنكران ذات أكثر من أي وقت مضى.

هكذا هو الحال بالنسبة لزملاء مائدة هانزنا. كان المقعد الواقع الى يمينه خالياً، كان قد شُغل فقط أياماً قلائل من قبل ضيف، كما كان هو نفسه ذات مرة، قريب زائر من الأسفل، يمكننا أن نقول انه رسول ـ لم يكن سوى خال هانز جيمس تاينابيل.

انه شيء خارق للطبيعة، أن يجلس المرء فجأةً جنب مبعوث وسفير من الوطن، ينبعث من نسيج بزته الإنجليزية جو تلك الحياة العتيقة في العالم «العلوي» الواقع في الأسفل البعيد. لكنه كان مرغماً على المجيء. على مدى زمن طويل فكر هانز كاستورب في احتمال قدومٍ من الأرض المنبسطة، وكذلك كان متيقناً باعتدال أي شكل شخصي سيتّخذه هذا القدوم. في الواقع، لم يكن أمراً عسيراً أن يخمن المرء مَنْ ذا الذي سيأتي، ذلك ان مجيء بيتر، المسافر بحراً، كان تقريباً مستحيلاً، أما في ما يتعلق بقدوم خال الأم تاينابيل نفسه، فلم يكن أقل واقعية من أي وقت مضى من ان الجياد الوحشية لا تستطيع ان تسحبه الى بقعةٍ بسبب الضغط الجوي الذي كان يخافه أيما خوف. لا، جيمس كان هو الرجل الذي أُرسل بمهمة من الوطن للبحث

عن المتهرب من إداء واجبه ـ ومجيؤه كان متوقعاً حتى من وقت أبكر. بعد أن رجع يواكيم وحده، وأخبر أفراد العائلة ما هي الأمور في المصح، كانت الزيارة قد أصبحت واجبة ومتأخرة، وهكذا لم يكن هانز كاستورب في أدنى درجات الإرتباك عندما، ما كاد يمضي اسبوعان على مغادرة ابن خالته، سلّمه البواب برقية. فتحها وهو يعرف سلفاً محتوياتها، وقرأ إعلان الوصول الوشيك لـ جيمس تايناببل. كان له عمل في سويسرا، وسوف ينتهز الفرصة ليقوم بزيارة هانز في مرتفعاته. سيكون هنا بعد غد.

«جيد»، فكّر هانز كاستورب. «ممتاز»، فكّر. وأضاف لنفسه شيئاً ما أشبه بـ«لا تذكره لأحد!» «لو كنتَ عرفتَ وحدكَ!» بصمت ناجى الشخص المقترب. باختصار، أخذ الزيارة الوشيكة برباطة جأش تامة؛ أعلنها لـ هوفرات بيرنز وللإدارة، إستأجر حجرةً ـ حجرة يواكيم، كانت ما تزال خالية ـ وفي اليوم التالي لكن وحده، ساعة وصوله، زهاء الساعة الثامنة، كان الظلام قد حل ـ إنتقل في واسطة النقل غير المريحة ذاتها التي شاهد فيها يواكيم يغادر، حتى وصل محطة «دورف»، للقاء المبعوث القادم من الأرض المنبسطة الذي جاء يستطلع المنطقة.

قرمزي الوجه، حاسر الرأس، بلا معطف، واقفاً عند حافة الرصيف بينما كان القطار يندفع الى الأمام، تحت شباك عربة قريبة، وأخبره أن يترجل، لأنه هنا. القنصل تايناببل ـ كان نائب قنصل، بلطفٍ أراح أباه من تلك الوظيفة أيضاً ـ خرج من مقصورته، ملتفاً بمعطفه الشتوي، ونصف منجمد، فذلك المساء الأكتوبري كان بارداً باعتدال، الواقع كان تقريباً بارداً بدرجة كافية كي يحصل الإنجماد، قرابة الصباح ربما سيحصل الانجماد، خرج من مقصورته بدهشة طافحة بالحيوية، وصفها على وفق الأسلوب الرائع، الراقي جداً لألماني نبيل من الشمال الغربي؛ حيّا قريبه بهتافات متكررة وملفوظة بتوكيد، هتافات رضا لدى ظهور قريبه؛ شعر بالإرتياح لأن البواب الأعرج تولى الاهتمام بالأمتعة، وصعد مع هانز كاستورب الى المقعد العالي الصلب للكبريلة، التي توقفت في الساحة خارجاً. تحركت بهما العربة تحت سماء مكتظة بالنجوم، وهانز كاستورب، رأسه مائل للخلف، بسبابة

موجهة جعل يشرح لخاله البعيد[٩٤] الحقل المليء بالنجوم، سمّى الكواكب السيارة بأسمائها وأراه هذا البرج أو ذاك. الآخر، كان منتبهاً لمرافقة أكثر من إنتباهه للكون، حدّث نفسه لعل ذلك شيء ممكن تصوّره، انه في الأقل شيء غير مجنون فعلاً، أن يبدأ أحدهم الحوار بالتكلم عن النجوم، بيد أن هناك مواضيع ما تزال أقرب لليد. منذ متى، سأل، عرف هانز كاستورب كثيراً جداً عن أشياء عالية جداً؛ ورد الشاب أن معرفته هي ثمرة الإستلقاء الطويل في وقت الإستراحة ـ العلاج المسائية، في الربيع، الصيف، الخريف، الشتاء. ماذا؟ يستلقي خارجاً في شرفةٍ ما ليلاً؟ أوه، نعم. القنصل سيفعل ذلك أيضاً. ليس أمامه شيء آخر يفعله.

«يقيناً، بالطبع»، أذعن جيمس تاينابيل، مُكرَهاً نوعاً. أخوه بالتنشئة تابع الكلام بإطراد، برتابة. كان يجلس من دون قبعة أو معطف، في الهواء، الطازج للإنجماد، هواء المساء الخريفي. «أعتقد انك غير بردان؟» سأله جيمس، مرتجفاً في معطفه الايرلندي الفضفاض الذي بسماكة إنش. تكلم سريعاً وبصورة غير واضحة نوعاً، كانت له رغبة للتحدث بلا كلفة. «نحن لا نشعر بالبرد»، قال هانز كاستورب، بإيجاز هادئ.

لم يكن بمستطاع القنصل النظر إليه بصورة كافية بينما كانا جالسين في العربة المتحركة. سأل هانز كاستورب عن الأقارب والأصدقاء في الوطن. جيمس نقل تحيات عدة، بضمنها تحيات يواكيم، الذي إنضم قبل الآن الى القوات المسلحة، متألقاً بالزهو والفرح. هانز كاستورب تقبل تلك التحيات بكلمة الشكر الهادئة، من دون أن يوجه أسئلة خصوصية عن وطنه. منزعجاً من شيء غير محدد، إما منبعث من قريبه أو بسبب تشوشه بعد الرحلة الطويلة، جيمس تاينابيل نظر من حوله، غير قادر على أن يتبين الكثير من المنظر الطبيعي؛ عبَّ نَفَساً عميقاً من الهواء الغريب، زفره، وأبدى رأيه كونه رفيعاً. بطبيعة الحال، أجاب الآخر، ليس للا شيء أن يكون هذا الهواء ذا

(٩٤) الخال البعيد uncle-cousin: المقصود هنا خال الأم. ويقال بالعامية العراقية: **الخال** غير اللح. وقد تعني أيضاً أحد الأقارب البعيدين ـ المترجم.

شهرة بعيدة وواسعة. له صفات عظيمة. انه يسرّع الأكسدة، مع ذلك في الوقت نفسه يزداد وزن المرء. انه قادر على شفاء أمراض معينة تكون مستترة في كل كائن بشري، مع ان تأثيراته الأولية تكون مؤاتية جداً لهذه الأمراض، وبوساطة قوة مُكرِهة عضوية عامة، متجهة الى الأعلى والى الخارج، تجعلها (أي الأمراض) تأتي الى السطح، تجلبها، إذا صح التعبير، الى ثوران مُنتصِر. ـ معذرة ـ منتصر؟ ـ نعم؛ ألم يشعر أن تفشي مرض ما له شيء مبهج، ثوران يتعلق بالمسرّة الجسدية؟ «أكيد، بالطبع»، الخال سارع الى القول، وفكه الأسفل غير خاضع لسيطرة تامة. ومن ثم أعلن انه يستطيع البقاء ثمانية أيام ـ اسبوعاً، هكذا قال؛ سبعة أيام ـ أو ربما ستة. قال انه وجد هانز كاستورب وقد بدا سليماً جداً، شكراً لإقامةٍ كانت أطول بكثير مما توقع أي امرئ، ولأن الحالة كانت هكذا حسب أن قريبه سوف يسافر معه الى الأسفل حين يرحل هو.

«أوه، لا، لا أنوي تماماً أن ألعب دور المجنون هكذا»، قال هانز كاستورب. الخال جيمس تكلم بوصفه رجلاً من الوادي. دعه يمكث هنا في الأعالي بعض الوقت، يتفحص ما حوله ويعتاد الأشياء، سوف يغير مزاجه الذهني. المسألة هي أن يكتسب الشفاء، ولهذه الغاية وجه إليه بيرنز مؤخراً لكمةً عنيفة بأن نصحه بالبقاء ستة أشهر إضافية. «هل أنت مجنون؟» سأله خاله. خاطب قريبه بكونه «شاباً»، وسأله ما إذا كان مجنوناً. إجازته ستبلغ عما قريب عاماً ونصف. والآن نصف عام آخر فوق ذلك كله! مَنْ، ليأخذه الشيطان، له كل هذا الزمن ليبدده؟ هانز كاستورب رد رأسه الى الوراء، وضحك، ضحكة قصيرة، هادئة. الزمن! الخال جيمس يلزمه ان يغير آراءه حول الزمن، أولاً، قبل أن يتكلم. قال تاينابيل انه سيكون له حوار جدي غداً مع هوفرات، في قضية هانز. «مهما كلف الثمن»، أخطره قريبه. «سوف تحبه. شخصية مسلّية، فظ الى درجة، مع ذلك هو كئيب.» أشار الى أضواء الشاتزالب، وبصورة عرضية ذكر انه توجب عليهم أن يجلبوا الجثث الى الأسفل بوساطة مركبات الجليد خلال فصل الشتاء.

النبيلان تناولا عشاءهما معاً في المطعم، بعد أن أرشد هانز كاستورب

قريبه الى حجرته ومنحه فرصةً كي يغتسل. كانت قد دُخنت بالفورمالديهايد H_2CO، شرح، دُخنت تدخيناً شاملاً كما لو ان المستأجر الأخير لم يذهب من دون استئذان بالإنصراف، بل بطريقة مختلفة تماماً ـ موت بدلاً من الرحيل. سأل الخال ماذا عنى بكلامه. «لغة إصطلاحية للساكنين في المصح»، قال هانز كاستورب. «تلك هي طريقتنا في الخدمة الطبية. يواكيم هجرها ـ هجرها الى القوات المسلحة. لغة مضحكة، إنما يمكن صنعها. لكن أسرع، وإلا لن نجد شيئاً حاراً لنأكله.» في المطعم الدافئ، حسن الإضاءة جلسا كل واحد منهما يواجه الآخر الى المائدة التي نُصبت عند الشباك. النادلة القزمة قدمت لهما الطعام والشراب بفطنة، وطلب جيمس زجاجة برغندية، جيء بها مضطجعة في سلة. لمسا كأسيهما، والتوهج المستحب انتشر عبر عروقهما. الأصغر سناً تحدث عن الحياة هنا في الأعالي، عن الأحداث التي تأتي بها الفصول المتغيرة في أثناء جريانها، عن الشخصيات العديدة بين المرضى، عن الاسترواح الصدري الذي شرح وظيفته بتفصيل تام، واصفاً الطبيعة المروِّعة لصدمة غشاء الجنب، وذاكراً حالة طلق المحيا السيد فيرجه، مع نوبات الإغماء ثلاثية الألوان، النتانة المهلوسة، ونوبة الضحك الشيطانية عندما يتم الإحساس بها في غشاء الجنب. دفع ثمن وجبة العشاء. جيمس أكل وشرب بحماسة، كدأبه ـ بشهية تفاقمت أكثر بفعل الرحلة، وتغيير الجو. لكنه قطع مؤقتاً العملية مرات عدة، جلس وفمه مليء بالطعام ونسي أن يلوك، حاملاً سكينه وشوكته بزاوية منفرجة فوق طبقه ومحدقاً في هانز كاستورب بنظرةٍ ثابتة. بدا غير واعٍ بفعلته تلك، وحتى الآخر لم يُبدِ أي علامةٍ تدل على انه لاحظها. صدغا القنصل تاينابيل المكسوان بشعر أشقر خفيف، أظهرا عروقاً منتفخة.

لم يدر الحوار حول وطنهما الواقع في الأسفل، لم تكن ثمة إشارة الى العائلة أو الى مسائل شخصية، أو مسائل العمل أو المدينة، ولا حتى الى شركة توندر وفيلمز، صانعي السفن، صاهري المعادن، والميكانيكيين الذين ما زالوا ينتظرون مبتدئهم ـ مع ان لهم في الأرجح أشياء كثيرة أخرى لينشغلوا بها كي يكونوا واعين انهم كانوا ينتظرون. جيمس تاينابيل ألمح، بطبيعة

الحال، الى هذه المواضيع، خلال الطريق الذي سلكته المركبة وفي ما بعد، إلا إنها عجزت عن إحداث أثر في النفس؛ ما من أحد أصغى إليها. إرتدت كالكرة، إذا صح التعبير، من هدوء هانز كاستورب الجليل، الصادق، الجليّ، الذي كان أشبه ببزة من الدرع؛ مثل لا مبالاته بالبرد المعتدل لذلك المساء الخريفي، كتعبيره الموجز «نحن لا نشعر بالبرد». كبرياؤه المصطنعة هذه ربما كانت هي السبب الذي جعل خاله يحدق فيه بنظرة ثابتة جداً. تكلما عن أوبرين والأطباء، عن محاضرات الدكتور كروكوفسكي، التي سيكون جيمس حاضراً خلالها إذا لبث اسبوعاً. مَنْ الذي أخبر القريب ان الخال يود أن يكون حاضراً؟ لا أحد ـ ببساطة، تصور هو هذا الأمر، بتلك الثقة الهادئة التي تجعل من فكرة ألا يكون حاضراً، غير معقولة، تلك الفكرة التي، على وفق ذلك، أسرع جيمس ليتنصل منها بـ«أكيد، بالطبع» سريعة، كما لو كان متلهفاً ليُظهر انه لم يفكر بها لحظةً. هذه الطاقة العقلية بالذات، المفروضة بالقوة فضلاً عن ذلك، هي التي جعلت القنصل تاينابيل بلا وعي يحدّق في قريبه؛ والآن كذلك مفتوح الفم، ذلك انه وجد مسالكه الأنفية مسدودة، مع انه بقدر ما كان يعرف، لم يكن عنده نزلة. سمع قريبه يُبدي رأياً حول المرض الذي كان الشغل الشاغل للحياة هنا في الأعالي، وحول التقبل المصوّر عموماً له؛ حول حالة هانز كاستورب نفسه البسيطة إنما المملة، حول إنجذاب العُصية الى النسيج الخلوي للمجاري التنفسية للحنجرة، الأنابيب القصبية، والحويصلات الهوائية؛ حول تكوّن العُقد الصغيرة، ظهور السموم القابلة للذوبان وتأثيرها المخدِّر في الجسم؛ عن إنحلال الأنسجة، عن التجبن(٩٥) ومسألة ما إذا يُكبح المرض بوساطة التحجر الطباشيري والشفاء بوساطة التليف، أو ما إذا يوسع المنطقة، يحدث تجاويفاً أكبر، ويدمر العضو. أُخبر عن شكل «العدو السريع» الذي يتخذه المرض في بعض الأحيان، والذي يجعل النهاية قضيةً لا تزيد على بضعة شهور أو حتى

(٩٥) التجبن caseation: تحول الأنسجة الى كتلة محببة متعجنة شبيهة بالجبن كما في السل ـ المترجم.

أسابيع؛ عن إستئصال الرئة، عن جراحة هوفرات البارعة جداً في الإستئصال الجزئي للرئتين، وهي عملية توجب إجراؤها في الغد أو في اليوم التالي الذي جُلبت فيه حالة خطيرة الى المصح، امرأة اسكتلندية فاتنة الجمال، أو كانت ذات مرة فاتنة الجمال كانت تعاني من gangrena pulmonum، [غنغرينا الرئتين]، وباء أخضر وأسود أجبرها على أن تتنفس طوال اليوم محلولاً متبخراً لحامض الكربوليك، مخافة أن تفقد صوابها بسبب القرف الجسدي الصرف. هنا، على حين غرة، القنصل، تعبيراً عن دهشته الكبرى وغمه، انفجر ضاحكاً. شخر بوضوح، لكنه أعاد نفسه حالاً الى الوضع السوي، مروعاً؛ سعل وبذل قصارى جهده ليتنكر للإنفجار عديم المعنى. شعر بالارتياح، الذي على أية حال حمل بداخله بذور قلق طازج، حين رأى ان هانز كاستورب لم يعرْ ذلك إنتباهاً، مع انه حتماً لاحظ الحادثة، إلا انه تغاضى عنها بلامبالاة لم تنم عن ذوق، أو مراعاة لمشاعر الآخر، أو لطف كبير جداً من جانبه، كما نمتْ عن عدم إكتراث خالص جداً، تعذر إيذاء أو لطف ممتاز، كما لو انه كف من زمن عن ملاحظة حوادث كهذه أو الشعور بالذهول نحوها. أغلب الظن، أن القنصل أراد أن يجعل إنفجار مرحه الصاخب يبدو مقبولاً ظاهرياً؛ ربما كان له تسلسل منطقي آخر في عقله؛ على أية حال، بنحو مفاجئ تبنى الحوار وشرع يتكلم كعضوٍ في نادٍ. الأوردة نتأت على جبينه بينما كان يصف أغنية صغيرة تنشدها مغنية في مقهى غنائي، امرأة مجنونة تماماً، كانت حينذاك على خشبة المسرح عند سانت بولي، حرمت زملاءه الذكور في هامبورغ من أنفاسهم بسبب جمالها ذي المزاج الخاص، الذي حاول أن يصفه لقريبه البعيد. كان صوته غليظاً بعض الشيء، مع ان ذلك لم يكن بحاجة الى أن يزعجه، بما ان اللطف الغريب لقريبه البعيد بدا وكأنه يحجب هذه الظاهرة كالآخر. غير ان سأمه أمسى في النهاية طاغياً جداً بحيث ان اللقاء إنتهى في نحو الساعة العاشرة والنصف، ولم يكن قادراً على الحضور حين قُدِّم الى المذكور كثيراً كروكوفسكي، الذي جلس يقرأ صحيفةً قرب باب أحد الصالونات. لم يجب بغير «أكيد، بالطبع» على تحية الطبيب المبتهجة والودية، وشعر بالإرتياح حين تركه قريبه، ماراً عبر الشرفة،

من حجرة يواكيم الى حجرته، بعد أن ودعه متمنياً له ليلة هانئة وقائلاً له انه سوف يأتي ليأخذه لغرض تناول وجبة فطور الساعة الثامنة. كان سعيداً بأن يعود الى سرير الهارب، مع سيجارته المنتظمة، سيجارة طابت ليلتك ـ التي كاد أن يسبب بها حريقاً، فقد داهمه النعاس مرتين وهي ما تزال بين شفتيه.

جيمس تاينابيل، الذي كان هانز كاستورب يخاطبه بالتناوب بـ خال جيمس وجيمس، كان رجلاً طويل الساقين يناهز الأربعينات، يرتدي بذلةً من الجوخ الإنجليزي الجيد والكتان المزخرف، ذا شعر خفيف نوعاً ما، وأصفر كالكناري، وعينين زرقاوين قريبتين من بعضهما، ذا شارب مشذب بلون القش، ويدين بأظافر مقصوصة بعناية. إستمر بالسكن في فيللا القنصل الرحبة القديمة في محلة هارفيسته هودر، مع انه كان زوجاً وأباً على مدى سنوات عدة، إتخذ زوجةً من وسطه الإجتماعي، من طرازه المتمدن جداً والممتاز، بطريقة الكلام الناعمة، الرشيقة، المؤدبة ذاتها. في وسطه الإجتماعي كانوا يعدونه رجلاً فعالاً جداً، حذراً و ـ على الرغم من أساليبه المهذبة ـ رجل مهنة عملياً بارد الأعصاب. لكن خارج نطاق المهنة ـ حين سافر جنوباً، في سبيل المثال ـ أبدى نوعاً من المرونة التواقة، إستعداد سريع وودي للخروج من شخصيته الذاتية الأمر الذي كان بأية حال علامة على تزعزع ثقافته الخاصة، لكن بالأحرى دلَّ على قناعةٍ بكفايتها، وعلى الرغبة في تصحيح قصوراته الارستقراطية؛ شهدتْ رغبة بأن لا يبدي دهشة إزاء الأساليب الجديدة، حتى حين يجدها إعتقاداً سابقاً إستثنائياً. «أكيد، بالطبع»، يسرع هو الى القول، بحيث ما من أحد ربما يقول عنه انه بكل أناقته كان محدوداً. كان قد جاء الى هنا في الأعالي في مهمة عملية محددة، كي يرى كيف تسير الأمور مع قريبه الشاب المتملص، كي «يحركه بالقوة الى أن يرتخي»، كما صاغها هو لنفسه، ويعود به الى البيت ثانية. غير انه كان يعي انه يعمل في أرض أجنبية؛ والدقائق القلائل الأوُل هنا في الأعالي جعلته يرتاب في كونه ضيفاً في بيئة غريبة عليه تماماً، والأكثر من ذلك جعلته أكثر ثقة بنفسه بدلاً من أن تقللها. مواهبه المهنية تنازعت مع تنشئته الجيدة ـ كلما كانت أقوى يكون هو واعياً أكثر بالاتزان الواثق من نفسه لحياة المؤسسة الإجتماعية.

هذا كله أدركه هانز كاستورب حين ردَّ على برقية القنصل في قرارة نفسه بـ«لا تذكرها لأحد» إنما لا ينبغي أن يذهبن بنا الظن انه بصورة واعية طبق عملياً على خاله الصفات الغريبة للمكان. كان قد أصبح جزءاً منه من زمن طويل جداً؛ لم يكن هو الذي إستخدمها ببراعة ضد المعتدي، بل هي التي إستخدمته. كل شيء ـ من اللحظة التي همس صوت صادر من قريبه أول مرة للقنصل ان لمشروعه فرصة نجاح صغيرة ـ كل شيء حول الوضع أتم نفسه، ببساطة، بشكل محتوم، حتى النهاية، وهانز كاستورب رافق العملية بابتسامته الكئيبة، المؤمنة بالقضاء والقدر.

في الصباح الأول، عند الفطور، جعل المضيّف ضيفه يتعرف الى مجموعة زملاء مائدته. بعدها التقى جيمس هوفرات، الذي أقبل ماشياً بخطى قصيرة مترنحة عبر حجرة الطعام، في أثره المساعد الأسود والشاحب، موزعاً في كل الأنحاء سؤاله المتكلف المنتظم: «نمتَ جيداً؟» إلتقى هوفرات، ومن شفتيه سمع انها لم تكن فقط قصاصة من فكرة أنه يأتي لزيارة قريبه البعيد الملقى على ساحل مهجور، بل انه خدم منفعته الخاصة بشكل أفضل في مجيئه هذا، ذلك ان كونه مصاباً بفقر الدم كان جلياً لأي عين. هو، تاينابيل، مصاب بفقر الدم؟ ـ «نا ـ وعاً ما[٩٦]!»، قال بيرنز، ورفع سبابة سحبها على البشرة تحت عين جيمس. «نا ـ وعاً ما!» كرر. الضيف الخالي (نسبة الى الخال) سوف يلجأ الى حيلة ذكية كي يمدد نفسه على شرفته على مدى أسابيع قلائل ويفعل كل ما في وسعه كي يحاكي المثال الجيد الذي يضعه الى جانب ابن بنت أخته. في حالته هو ليس بوسعه أن يفعل شيئاً أكثر ذكاءً من أن يتصرف كما لو انه مصاب بحالة خفيفة من التدرن الرئوي ـ التي كانت موجودة دوماً على أية حال. «أكيد، بالطبع»، رد القنصل بسرعة؛ وحين مشى هوفرات بخطى قصيرة مترنحة، نظر وراءه، وحدق في فقراته العنقية، بفمٍ مفتوح وبسيماء مؤدبة بمثابرة، على مدى برهة كافية، أما قريبه فكان

---

(٩٦) في النص الإنجليزي وردت كلمة ray-ther، وقد اجتهدنا باجتراح كلمة (نا وعاً) قاصدين بها (نوعاً)، كي نعطي صورة قريبة لطريقة نطق هوفرات ـ المترجم.

واقفاً الى جانبه، جامداً كلياً، سالماً. قاما بالمسيرة الراجلة الموصوفة علاجاً، حتى وصلا المجرى المائي وعادا من جديد، بعدها جرّب جيمس تاينابيل أول استراحة ـ علاج له. هانز كاستورب أعاره إحدى بطانيتي وبر الجمل خاصته، فضلاً عن النسيج مربع النقش العائد لـ جيمس؛ هو نفسه وجد ان بطانيةً واحدةً تكفي تماماً لهذا المناخ الخريفي الجميل. وعلّمه خطوة خطوة الطريقة التقليدية في لبس البطانيتين؛ نعم، بعد ان جعل القنصل يتحنط بطريقة جميلة جداً، بنحوٍ مدروس. حلَّ البطانيتين عنه من جديد، بهدف أن يحزم هو نفسه وحده، هانز كاستورب يمد له يد العون. ثم لقن الخبير الشخص المبتدئ كيف يثبت المظلة الخفيفة الكتان على كرسيه للوقاية من أشعة الشمس.

سُرَّ القنصل في كونه ميالاً للهزل. مزاج الأرض المنبسطة ما زال قوياً بداخله، سخر من درسه، كما سخر في وقت مبكر من التمرين الموصوف علاجاً بعد الفطور. لكنه حين رأى البسمة السلمية، غير المفهومة التي قابل بها قريبه نكاته، بسمة إنعكس فيها كل صفاء الثقة بالنفس للعُرف المحلي، إستحوذ عليه الرعب. كان يخشى، حقيقةً، من تلف قدرته على العمل، وقرر بسرعة أن يجري الحوار الحاسم مع هوفرات بأسرع ما يمكن وأن يقنعه ـ عصر ذلك اليوم، إذا كان هذا ممكناً، بينما هو ما يزال يمتلك وبوسعه أن يقنع نفسه على تحمل قوة الإقناع التي كان قد جلبها معه من الأسفل. بنحوٍ جلي شعر ان هذه قد ضعفت، وأن تنشئته الجيدة كانت قد تحالفت ضده مع روح المكان.

والأكثر من ذلك شعر انه كان شيئاً زائداً بالنسبة لـ هوفرات أن ينصحه، بسبب فقر الدم خاصته، بأن يحيا في أثناء إقامته هنا كما يفعل المرضى. ذلك انه، ظهر، نتج هذا من تلقاء ذاته؛ فما من سبيلٍ آخر بدا ممكناً. كان هذا أغلب الظن جزئياً ثمرة هدوء القريب والثقة الحصينة بالنفس؛ ربما لم يكن هذا مائة بالمائة السبيل الوحيد والمحتوم الذي يجب إتباعه ـ لكن كيف يستطيع رجل في مثل تنشئته أن يميز؟ لا شيء يمكن أن يكون أوضح من ان الفطور الثاني الوفير ينبغي أن يعقب مدة الاستراحة، والتجول حتى البلاتز

الذي تبعه بدا تعاقباً طبيعياً ومحتوماً ـ وبعدها أرهق هانز كاستورب خاله ثانيةً. أرهقه ـ التعبير الصحيح له ـ وهناك، في ضوء الشمس الخريفي، في كرسي ذي خصائص ينبغي التغني بها بدلاً من التكلم عنها، جعله يستلقي، الى أن دعا رنين الجرس القرصي المرضى الى وجبة منتصف النهار. جد وفيرة كانت، ممتازة بكل ما في الكلمة من معنى ومن الطراز الأول، بحيث ان مدة الإستراحة الرئيسة التي تليها بدت ضرورة داخلية بدلاً من كونها إنسجاماً خارجياً، وجيمس شارك فيها بقناعة شخصية مخلصة جداً. وهلم جرا حتى العشاء الضخم والأمسية الإجتماعية في الصالون مع التسليات البصرية. ما هو الاعتراض الذي يمكن أن يُقدم ضد نظام يومي كهذا، الذي بصورةٍ رقيقة جداً إعتبر الإذعان شيئاً صحيحاً؟ لا شيء، يقيناً، مع ان قدرات القنصل الانتقادية لم تضعف بسبب عدم الراحة الجسدية التي، بينما هي ليست مرضاً حقيقياً، مع ذلك، تألفت من مزيج من الإرهاق الجسدي والتهيج، مع الحالة المصاحبة للقشعريرة والحمى، كانت مرهقة بدرجةٍ كافية.

كان هانز كاستورب قد أفاد نفسه من القنوات الرسمية في الترتيب من أجل المشاورة المرغوبة بحماسة مع هوفرات بيرنز: كان هذا قد أسند مهمةً لأستاذ الإستحمام، التي حوّلها الأخير الى أوبرين، وكانت للقنصل تاينابيل الفرصة كي يتعرف على هذه الشخصية الفريدة. ظهرت له بينما كان مستلقياً في شرفته، وسلوكها الإستثنائي فرض إجهاداً شديداً على التربية الجيدة للنبيل سيء الطالع المستلقي هناك في كرسيه أشبه باللفة الاسطوانية لللقانق. سيكون الأفضل له، قيل له، أن يصبر أياماً قلائل؛ هوفرات مشغول، كانت هناك عمليات جراحية وفحوصات عامة، البشر المعذبون يجب أن تكون لهم الأسبقية، ذلك مبدأ مسيحي راسخ؛ وطالما انه ظاهرياً في صحة جيدة، عليه أن يعتاد فكرة انه ليس الرقم واحد هنا في الأعالي، وان عليه أن يرجع الى الوراء وينتظر دوره. سيكون الأمر مختلفاً إذا كان يريد موعداً للفحص ـ هي، أدرياتيكا، لن تكون مندهشة إذا كان يريد. حين حدّقت مباشرة في عينيه. بتلك الطريقة ـ وجدتهما ضبابيتين ومضطربتين نوعاً؛ وبدا، وهو مستلقٍ،

كما لو ان الأشياء كلها لم تكن في أفضل حال بالنسبة له، هي نفسها يشق عليها أن تمنحه لائحة صحية خالية من المرض. هل كان يريد فعلاً فحصاً أم حواراً خاصاً؟ «الأخير، بالطبع»، أكد لها جيمس. عندئذ سيكون من الأفضل له أن ينتظر الى أن تجعله يعرف. ليس لـ هوفرات متسع من الوقت لإجراء الحوارات الخاصة.

باختصار، جرت الرياح بما لا تشتهي السفن، بالضبط عكس ما توقع جيمس، والحوار مع المديرة لم يشوش إتزانه فتيلاً. ان رجلاً في تربيته تردد في أن يقول بفظاظة لقريبه انه وجدها امرأةً مرعبة: سيكون شيئاً غير حكيم، القول ان سلوك هانز كاستورب كشف بصورة جلية قبوله كل الظواهر الإستثنائية هنا في الأعالي. جيمس فقط نقر على باب قريبه، وألمح الى أن الآنسة ميليندونك أصيلة الى حد كبير. هانز كاستورب رفع بصره باستفهام، ونصف مصدّق؛ سائلاً، بدوره: «هل باعتك محراراً طبياً؟» «أنا ـ لا» قال خاله. «هل هذا عُرف هنا في الأعالي؟» والأنكى من ذلك ان هانز كاستورب ما كان ليندهش لو انها فعلت ذلك. تكررت من جديد تلك الـ«نحن لا نشعر بالبرد». والقنصل شعر بالبرد، شعر به بصورة مستمرة، مع ان رأسه كان حاراً. فكر في قرارة نفسه لو ان أوبرين منحته محراراً طبياً، فسوف يرفضه بنحوٍ مؤكد، وبذلك يكون قد ارتكب خطأً فاضحاً، بما انه لن يطلب من قريبه أن يعيره محراره ـ كان أكثر تحضراً من أن يفعل ذلك.

مرت أيام عدة، أغلب الظن أربعة أو خمسة أيام. حياة السفير مرت على قضبان السكة الحديد ـ القضبان التي مُدت له كي يعبر عليها ـ ومسألة أن يتوجب عليه أن يفر منها كانت غير واردة. القنصل له تجاربه، وانطباعاته ـ التي لن نزعج أنفسنا في تعقبها. ذات يوم، في حجرة هانز كاستورب، رفع من على الحامل فوق الخزانة ذات الأدراج لوحاً زجاجياً أسود، واحداً من الأشياء الشخصية الصغيرة التي بوساطتها عبد المالك مسكنه النظيف. رفعه نحو الضوء؛ ثبتَ انه صورة فوتوغرافية سالبة. نظر إليها ـ «ما هذا؟» قال. لعله سأل. كشفت هيكلاً عظمياً بلا رأس لهيئة بشرية ـ النصف العلوي، هو ذاك ـ مغلَفاً بلحم ضبابي؛ ميز الجذع الأنثوي. «ذاك؟ أوه،

تذكار»، أجاب القريب. فرد عليه الخال: «معذرةً»، وبعجل أعاد الصورة على حاملها. نقدم هذا مثالاً على ذلك النوع من التجارب التي وفرتها له الأيام الأربعة أو الخمسة. حضر أحد «مؤتمرات» الدكتور كروكوفسكي ـ حيث ان مسألة وجوب إقامته كانت غير واردة. في اليوم السادس حقق الكلام المتَلَهف له مع هوفرات. بُعث في طلبه، وبعد الفطور نزل درجات السلّم الى الدور التحتاني، كي يكون له حديث قصير مع الرجل حول موضوع قريبه والطريقة التي يقضي فيها وقته.

حين عاد، سأل بصوتٍ خفيض: «هل حدث قبلاً أن سمعتَ شيئاً كهذا؟»

إنما كان جليا ان هانز كاستورب سمع مثله. كان واضحاً ان أي شيء يستطيع أن يقوله جيمس لن يجعله «يشعر بالبرد». لذا توقف جيمس عن الكلام، ورد على سؤال القريب الذي كان فضلاً عن ذلك شغوفاً باعتدال: «أوه، لا شيء». لكنه من ساعةٍ الى ساعة نمّى عادةً جديدةً: في التحديق بصورة مائلة للأعلى، بحاجبين مجعدين وشفتين متغضنتين، ثم بغتةً يدير رأسه كي يعيد النظرة ذاتها في الإتجاه المعاكس. هل جرى الحوار مع هوفرات أيضاً بصورة مختلفة عن توقعات جيمس؟ هل فقد صفته المميزة كونه حواراً خاصاً، هل تحوّل موضوع الحوار من هانز كاستورب الى جيمس تاينابيل؟ ربما يظن المرء ذلك. القنصل أظهر نفسه مبتهجاً. تحدث كثيراً، قهقه من دون سبب، ضرب قريبه بقبضة يده في تجويف البطن، صائحاً: «مرحباً، أيها الزميل القديم!» بين حين وحين كانت له تلك النظرات، واحدة هنا، وبعدها نظرة ثانية هناك. إنما تبين انه كان لنظراته هدف آخر، أكثر تحديداً، عند المائدة، لدى مسيرتهما الراجلة، وفي صالون مساءٍ ما.

سمعنا عن امرأةٍ ما، السيدة ريديش، زوجة صاحب مصنع بولندي، جلست الى المائدة مع السيدة سالومون، الغائبة من دون رحيل، والتلميذ الشره ذي العوينات المستديرة. لم يكد القنصل ينتبه إليها في بادئ الأمر، والواقع كانت هي مجرد سيدة ردهة إستراحة مثل أي سيدة أخرى ـ سمراء قصيرة بعض الشيء بأساليب مختلفة، لم تُعد هي الأصغر سناً، بل حتى

رمادية الشعر نوعاً، ولكن ذات لغد جميل وعينين بنيتين نابضتين بالحيوية. في ما يتعلق بالثقافة كانت بعيدةً كل البُعد عن كونها قادرة على أن تصمد مع زوجة القنصل تاينابيل هناك في الأسفل. هذا شيء مؤكد. غير ان القنصل، بعد عشاء الأحد، في الردهة، إكتشف، شكراً لـ تقويرة فستان السيدة ريديش الأسود ذي اللُمعات، ان صدرها كان شديد البياض ومبهجاً للحواس، الثديان مضغوطان معاً بحيث كان الغضن الواقع بينهما واضحاً بشكل من الأشكال؛ وان النبيل الناضج والأنيق كان قد إهتز أيما إهتزاز بهذا الإكتشاف كما لو انه إمتلك بالنسبة له مغزىً جديداً لم يحلم به أبداً. حاول التعرّف الى السيدة ريديش، وتحقق له ذلك؛ تحاور معها أخيراً، في البدء واقفاً ومن ثم جالساً، ومضى الى فراشه يترنم بأغنية ما. في اليوم التالي، لم تكن السيدة ريديش ترتدي فستاناً ذا لُمعات، كان صدرها مستوراً؛ بيد ان القنصل عرف ما عرفه، وتوقف عند إكتشافه. حاول أن يعترض سبيل السيدة خلال سيرها، وتمشى الى جنبها خلال الحوار، مال نحوها وفوقها بطريقة متوددة جداً وواضحة؛ شرب نخبها عند المائدة واستجابت له، باسمة كثيراً بحيث ظهرت حشوات ذهب عدة في أسنانها؛ تكلم عنها الى قريبه البعيد؛ وقال انها كائن سماوي ـ وعندئذ انفجر يغني. وهذا كله جعل هانز كاستورب يبدي، باتزان تام، ملاحظة مفادها ان هذا كله كان شيئاً اعتيادياً وواقعياً. غير ان هذا لا يستطيع أن يقوّي نفوذ جيمس على الأصغر منه سناً، ولا أن يضيف رونقاً لمهمة السفير.

وجبة الطعام التي حيّا السيدة ريديش بأن رفع كأسه ـ مرتين في الواقع، خلالها، مرة عند تناول السمك، ومرة عند إحتساء الشربات[٩٧] ـ كانت تلك التي يشارك فيها هوفرات مائدة هانز كاستورب، خلال جولته حول الموائد السبع، كان موقعه عند الطرف العلوي لكلٍ منها يُترك شاغراً. جلس طاوياً يديه الضخمتين بين السيد فيسال والمكسيكي أحدب الظهر، الذي تكلم معه بالإسبانية، ذلك انه قادر تقريباً على أن يتحدث بأي لغةٍ من اللغات، حتى

(٩٧) الشربات sherbet: شراب مثلوج يُعد من عصير الفاكهة المحلى ـ المترجم.

التركية والهنغارية. جلس بشاربه الصغير أُحادي الجانب وعينيه الزرقاوين، الجاحظتين، المحتقنتين بالدم، وتطلع الى القنصل تاينابيل وهو يلقي التحية على السيدة ريديش رافعاً كأس البوردو. بعدها، حين تقدمت الوجبة، تحدث هوفرات حديثاً قصيراً، حُث إليه بوساطة جيمس، الذي سأله بصورة غير متوقعة، على إمتداد المائدة كلها، ما هي عملية التعفن الجسدي. كان هوفرات مطلعاً أتم الإطلاع في هذا الحقل، الجسدي إذا صح التعبير هو مقاطعته، كان مَلِكاً لها؛ ألم يخبرهم ماذا يحصل حين يتعفن الجسد؟

«أولاً»، أجاب هوفرات، واضعاً مرفقيه على الطاولة وحانياً يديه المطويتين، «أولاً، بطنك ينفجر. أنت ترقد هناك على رقاقاتك ونشارتك، وأنت تنتفخ، الغازات تنفخك، تنفخ أحشاء جسمك كلها الى الخارج، كما تفعل الضفادع حين يملؤها الصبيان الصغار السيئون بالهواء. تغدو بالوناً متناسقاً؛ جلد بطنك لا يستطيع أن يتحملها بعد الآن، انه ينفجر كالفشار(٩٨). أنت تريح نفسك بصورة كبيرة، مثل يهوذا الأسخريوطي حين هوى من الغصن وانفجرت أحشاؤه كلها الى الخارج. وبعد ذلك تغدو مناسباً للمجتمع من جديد. إذا نلتَ إجازةً للعودة، يمكنك أن تزور أصدقاءك من دون أن تكون كريه الرائحة. تكون نتن الرائحة بكل ما في الكلمة من معنى. بعد ذلك تكون منقى تماماً، مثل مواطني بالرمو(٩٩)، يتسكعون في أقبية كابوسينس خارج بورتانيوفا: هم رجال نبيلون جداً، بسيطون وأنيقون تماماً، الجميع يكن لهم الإحترام. الشيء الرئيس هو ان تنتن بشكل جيد.».

«مؤكد، بالطبع»، قال القنصل. «جزيل الشكر لك.» صباح اليوم التالي توارى عن الأنظار.

كان قد رحل، ذهب الى الأسفل مع أول قطار صغير نازل الى الأرض

---

(٩٨) الفشار pop: يدعى باللهجة العراقية: الشامية ـ المترجم.

(٩٩) بالرمو Palermo: مدينة إيطالية شمال غربي جزيرة صقلية. فيها آثار قرطاجية ويونانية وعربية ـ المترجم.

المنبسطة ـ مع انه لم يذهب من دون أن يرتب قضاياه ـ الأمر الذي لم نوحي به. دفع قائمة حسابه، وتكاليف تدخين حجرته؛ بعدئذ، في عجلةٍ تامة، من دون أن يتحدث بمقطع لفظي واحد الى قريبه، حزم حقائبه اليدوية ـ أغلب الظن الليلة التي سبقت سفره، أو حتى عند إنبلاج الفجر، حين كان الجميع يغطون في النوم ـ وحين دخل هانز كاستورب حجرة خاله عند ساعة الفطور المبكر، وجدها خالية.

واضعاً يديه على خاصرتيه، وقف وقال: «حسن، حسن!» وغطت بسمةٌ كئيبة ملامحه. «نعم، نعم»، قال ونكس رأسه. شخص ما لاذ بالفرار. بسرعة طائشة، لاهثاً، كما لو ان لحظة التصميم ينبغي أن لا يُسمح لها بالضياع، جمع حاجياته ورحل. ليس رفقة قريبه، ليس بعد إكمال مهمته النبيلة، لكنه سعيد بأن ينقذ حتى نفسه بالهرب، الرجل حسن العشرة هاجر الى الأرض المنبسطة ـ حسن، رحلة موفقة لك، أيها الخال جيمس!

هانز كاستورب لم يجعل أحداً يشك بجهله بخطط خاله. بخاصة البواب الأعرج الذي أخذ خاله الى المحطة. من (بحيرة كونستانس) أرسل جيمس بطاقة بريدية قائلاً انه كانت قد وصلته برقية تقضي عودته الفورية لأسبابٍ تخص العمل. لم يشأ هو أن يزعج قريبه (كذبة مؤدبة). وتمنى له إقامة مؤقتة مُرضية مستمرة في مؤسسة بيرغهوف. هل قيل ذلك بهزء؟ إذا صح هذا، هانز كاستورب وجده قولاً ماكراً بكل ما في الكلمة من معنى، ذلك ان خاله لم يكن في مزاج هزلي حين قطع إقامته. كلا، كان قد أصبح مُدرِكاً داخلياً ـ بوسع المرء أن يتخيله وهو يشحب لدى تفكيره ـ انه حتى بعد إقامةٍ أمدها اسبوع واحد فقط هنا في الأعالي، يجد كل شيء هناك في الأسفل خاطئاً وغير ملائم، وهذا الإحساس سوف يستمر وقتاً مهماً قبل أن تبدأ عملية إعادة التوافق: سيبدو شيئاً غير طبيعي بالنسبة له الذهاب الى مكتبه، بدلاً من القيام بمسيرة راجلة موصوفة علاجاً بعد الفطور، وبعدها يستلقي بصورة طقسية ملفوفاً، مستقيماً في شرفةٍ من الشرفات. وهذه الملاحظة المرعبة كانت السبب المباشر لهربه.

هكذا إنتهت حملة الأرض المنبسطة في إستعادة مواطنها المفقود هانز

كاستورب. شابنا لم يكتم عن نفسه الفكرة القائلة ان الفشل التام لمهمة السفير سجل أزمة في العلاقات بينه وبين العالم الكائن في الأسفل. كان ذلك يعني انه تخلى عنه، نهائياً وبهزةٍ مجازية للكتفين؛ كان ذلك يعني، بالنسبة له، تحقيق الحرية ـ ان التفكير بهذا الأمر كف تدريجياً عن جعله يرتعد.

عمليات روحية

ليو نافته جاء من مكانٍ صغير قرب الحدود الغاليسية ـ الفولهاينية[١٠٠]. والده، الذي يتكلم عنه باجلال، بصورة واضحة بشعور انه الآن بعيد بدرجة كافية عن بلدته كي ينظر بنزعة خيرية نزيهة، كان شوخت، أو جزار القرية ـ وهي حرفة مختلفة في الواقع عن حرفة القصاب غير اليهودي، الذي كان عاملاً وصاحب متجر، في حين كان والد ليو موظفاً ومالكاً لدائرة روحية. إيليه نافته، بعد أن أُختبر من قبل الحاخام في حذقه الديني، كان قد فُوِّض من قبله كي يذبح حيوانات مناسبة على وفق القانون الموسوي[١٠١] وبحسب القاعدة التلمودية[١٠٢]. إن إنجاز مهمته الطقسية أضفت على كينونته شيئاً كهنوتياً؛ وعيناه الزرقاوان، اللتان وصفهما الابن كونهما ترسلان ومضاتٍ أشبه بومضات النجوم، كانتا تحملان في أعماقهما وفرةً من الحماسة الروحية الصامتة. ان وقار وضعه دلَّ على ذلك الوقت المبكر حين كان ذبح الحيوانات في الواقع وظيفةً كهنوتية. ليو، أو ليب، كما كان يُدعى إبان طفولته، كان يُسمح له بأن ينتظر في الساحة ـ الفناء بينما كان الأب ينجز مهمته، يعاونه مساعده، وهو شاب قوي من الطراز اليهودي الرياضي، الى جانبه إيليه النحيل بلحيته الشقراء الرشيقة بدا أكثر هشاشةً ورقةً. واقفاً قرب

---

(١٠٠) في النص Galician-Volhynian ـ المترجم.

(١٠١) الموسوي Mosaic: نسبة الى النبي موسى (ع) ـ المترجم.

(١٠٢) التلمودية Talmudic: نسبة الى التلمود وهو مجموعة الشرائع والتعاليم اليهودية ـ المترجم.

الضحية، التي كانت مشدودة القوائم ومقيدة في الواقع، إنما ليست مدوّخةً بضربة، يرفع سكين الجزار الضخمة ويجعلها تستقر في جرح بليغ عميق قريب من الفقرة العنقية؛ بينما المساعد يحمل الأحواض الممتلئة بسرعة كي يستقبل الدم المتدفق الذي يصدر بخاراً، والطفل يحدق في المشهد بتلك النظرة الطفولية التي تنفذ كثيراً عبر الحاسة الى الجوهري، وربما تكون في درجة غير إعتيادية موهبة ابن إيليه ذي العينين النجميتين. كان يعرف انه ينبغي على القصابين المسيحيين أن يدوخوا ماشيتهم بضربةٍ من هراوة قبل ذبحها، وقد أُتخذ هذا النظام بغية تجنب الوحشية غير الضرورية. مع ذلك والده، جد رقيق وجد ذكي بالمقارنة مع أولئك الأجلاف، ونجمي العينين بصورةٍ لم يكن عليها أي منهم على الإطلاق، كان يقوم بمهمته على وفق (القانون)، يضرب الكائن الحي حين تكون حواسه غير ضعيفة، ويجعل دم حياته ينبجس الى أن يغرق فيه. الغلام ليب شعر ان غير اليهود الحمقى كانت تحثهم طبيعة بسيطة وغير موقرة، والتي تكن إجلالاً للإلوهية أقل مما تفعله قسوة فؤاد والده الوقورة؛ وهكذا فإن مفهوم التقوى أصبح مرتبطاً في ذهنه بمفهوم الوحشية، وفكرة المقدس والروحي أصبحت مرتبطة بمشهد وبرائحة الدم المتدفق. ذلك انه أغلب الظن رأى أن والده لم يخترْ حرفته الدامية من دون الميول الوحشية ذاتها التي حركت القصاب الشهواني غير اليهودي أو مساعده اليهودي كي يجد المسرة فيها، بل بالأحرى إختارها لأسباب روحية، وبمغزى دلت عليه عيناه اللامعتان كالنجوم.

أجل، إيليه نافته كان شخصاً ميالاً للتأمل ومُهذباً؛ تلميذاً لـ (التوراة)، لكنه ناقد أيضاً، يناقش مقاطع من الكتاب المقدس مع حاخامه ـ الذي كان يخالفه الرأي مرات كثيرة. في قريته، وليس فقط بين أولئك الذين من عقيدته، كان قد تحوّل الى شيء ما غير إعتيادي، تحوّل الى رجل ذي معرفة أكثر من إعتيادية ـ معرفة أغلبها يتعلق بالأشياء المقدسة، لكن أغلب الظن تشمل أيضاً أشياءً ربما لا تكون حكيمةً تماماً، وعلى أية حال لم تكن في المجرى الإعتيادي. كان فيه شيء شاذ، إنشقاقي، كان أشبه بـ (إله) أليف،

بـ بعل شم[١٠٣] أو صادوق[١٠٤]، رجل ـ أعجوبة. ذات مرة عالج امرأةً مصابة بقرحة خبيثة، ومرةً ثانيةً عالج غلاماً مصاباً بالتشنجات، ببساطة بوساطة الدم والإبتهالات الدينية. إنما بالضبط كان عبير التقوى الغريبة هذا، الذي لعبت دوراً فيه رائحة مهنته المرتجة بالدم، هو الذي برهن على هلاكه. كان هناك الموت غير القابل للتفسير لغلامين غير يهوديين، وكانت تلك ثورة شعبية، هلع مسعور ـ وإيليه مات بصورة مرعبة، مسمراً على طريقة الصلب على باب منزله المحترق. الزوجة طريحة الفراش المصابة بالتدرن الرئوي، الغلام ليو، وأربعة أشقاء وشقيقات، كلهم نائحون ونادبون بأذرع مقذوفة بقوة للأعلى، فروا من البلد.

ليست معدمةً تماماً وكلياً، شكراً لبصيرة الأب، الجماعة الصغيرة أقبلت لتستقر في مدينة فورارلبيرغ الصغيرة. زوجة نافته وجدت عملاً في معمل لنسج القطن، حيث كانت تشتغل بقدر ما كانت تتحمله طاقتها، بينما واظب الأولاد على الدوام في مدرسة عامة. القوت العقلي الذي موّنته هذه المؤسسة ربما لبى حاجات أشقاء وشقيقات ليو؛ أما بالنسبة له، كونه أكبرهم سناً، فكان غير كافٍ أبداً. من أمه كان قد إنتقل إليه بالوراثة مرض الرئة. أما والده، فقد ورث عنه، البنية النحيفة، لكن أيضا ألذكاء الإستثنائي: القدرات العقلية التي كانت من البداية مرتبطة بالطموحات الغريزية، طموح نبيل، وشوق متحمس للجانب المهذب أكثر من الحياة، الذي جعله يصل بصورة متحمسة الى ما وراء دنيا أصله. غلام الرابعة عشرة والخامسة عشرة تمكن من الحصول على كتب خارج ساعات الدوام المدرسي. إستمر يثقف نفسه، شرهاً جامحاً، ويغذي عقله النامي وشديد التوق. كان يفكر وينطق أشياءَ تجعل الأم الواهنة تسحب رأسها الى الأسفل بصورة ملتوية بين كتفيها وتنظر إليه دافعةً كلتا يديها المهزولتين الى الخارج. شخصيته والأجوبة التي كان

---

(١٠٣) البعل شم Baal-Shem: البعل أحد الأبطال أو الآلهة المحلية عند الكنعانيين والفينيقيين. ـ المترجم

(١٠٤) صادوق Zaddik: رئيس الكهنة في عهد داود الملك. إليه إنتسب الصدوقيون، وهم طائفة من اليهود خصوم الفريسيين ـ المترجم.

يعيطها للدرس الديني خطفت إنتباه حاخام المقاطعة إليه، وهذا الرجل الورع والمتعلّم إستقبله تلميذاً خصوصياً، أشبع ميله للدراسة بأن أعطاه دروساً في اللغة العبرية وفي أدب الإغريق والرومان، وميله المنطقي للرياضيات. غير ان الرجل الطيب لم يجازه على جهده؛ ومع مر الزمن، أمسى واضحاً أكثر من أي وقت مضى انه ربى أفعى خبيثة في صدره. كما حصل ذات مرة بين إيليه نافته وحاخامه، حصل ذلك هنا. تشاجرا، ونتيجةً لذلك نشأ بينهما شيء إستدعى الغضب كانت له دوافع دينية وفلسفية وأمسى أكثر مرارةً رويداً رويداً؛ رجل الدين المستقيم أخلاقياً كانت له القدرة التامة على تحمل كل شيء من نزق الشاب ليو، ميله للنقاش، شكوكيته الى جدله الحاد. ناهيك عن ذلك، ان ميل الشاب للسفسطة وذكاءه النهم كانا قد إتخذا مؤخراً طابعاً ثورياً. تعرفه الى ابن عضو ينتمي الى الحزب الديمقراطي ـ الإجتماعي لـ(الرايخسرات)[١٠٥]، ومع هذا البطل الشعبي نفسه، حوّل أفكاره الى علم السياسة، وجعله يخصص ولعه الخاص بالمنطق الى ميدان النقد الإجتماعي. قال أشياءَ جعلت الشعر ينتصب واقفاً في رأس التلمودي الطيب، الذي كان وفياً تماماً في علم السياسة، وأعطى اللكمة الأخيرة للعلاقات بين الأستاذ والتلميذ. وباختصار وصل الأمر الى هذا: طُرِد ليو، مُنع من إجتياز عتبة غرفة مكتب أستاذه ـ بالضبط في الوقت الذي رقدت فيه راحيل نافته على فراش الموت.

وبعدها، غب موت الأم، تعرّف ليو الى الأب أونتر بيرتنجر. الغلام ذو الأعوام الستة عشر جلس وحيداً على مصطبة في متنزه المقاطعة مارجريتينتوث، كما كانت تُدعى، مرتفع صغير على ضفة الـ (إل)، يطل على المدينة، الذي منه ينال المرء نظرة واسعة مُرضية على وادي الراين. جلس هناك مستغرقاً في الأفكار المقلِقة والمُرة المتعلقة بمصيره وبمستقبله،

(١٠٥) الرايخسرات Reichsrat: مجلس النواب في البرلمان الألماني (١٨٧١ ـ ١٩٣٤) ـ المترجم.

حين جلس أحد أعضاء الهيئة التدريسية لـ (نجمة الصبح)، المدرسة الداخلية لـ (الجمعية اليسوعية) خلال نزهة خلوية، جلس قريباً منه، وضع قبعته على المصطبة، لفَّ ساقاً على ساق تحت غفارته(١٠٦)، وبعد أن قرأ كتاب صلواته اليومية برهةً بدأ حواراً قوى بصورة نابضة بالحيوية، وبرهن في النهاية على كونه عاملاً حاسماً في مصير ليو. اليسوعي، رجل مثقف وكثير السفر، حاكم وصياد الرجال، معلم بالشغف والقناعة، أتلع أذنيه عند سماعه النبرة المزدرية، الجمل الملفوظة بوضوح، التي أجاب بها الشاب اليهودي المسكين على أسئلته الأوُل. شخص ألمعي رائع ومعذب إستنشق الكلمات، و، سابراً الى مدى أبعد، الأب الطيب إكتشف تمكناً من الحقيقة وأناقةً لاذعةً من الفكر جُعلا فقط دهشةً بفعل المظهر الخارجي رث الملابس للشاب. تحدثا عن كارل ماركس، الذي كان ليو قد درس كتابه «رأس المال» بطبعةٍ رخيصةٍ؛ وتحولا منه الى هيجل، الذي قرأ أيضاً له أو عنه كفايةً كي يكون قادراً على قول شيء مذهل. سواء من خلال ميل عام نحو كل ما هو ظاهري التناقض، أو بقصد أن يكون دمثاً، أسمى هيجل «مفكراً كاثوليكياً»؛ وعند الإستفهام الضاحك للأب كيف يمكن إثبات ذلك، بما ان هيجل، كونه [فيلسوف الدولة البروسية]، لا بد أن يُعد يقيناً مع البروتستانت، أجاب الغلام ان تعبير [فيلسوف الدولة] على وجه الدقة قوّى موقعه وبرر وضعه بالمعنى الديني، مع انه، لم يبرره بالمعنى الكنسي ـ العقائدي. ذلك ان (ليو أحبّ التوحيد، الذي جاء من فمه بطابعٍ منتصر، عديم الشفقة، عيناه تومضان خلف عويناته في كل مرة يستطيعُ أن يجلبه بها) علم السياسة والمذهب الكاثوليكي كانا، كمفهومين، متجانسين سايكولوجياً، كلاهما ينتمي الى صنف ضمَّ كل ما هو موضوعي، عملي، تجريبي، ذي مخرج يفضي الى الحياة النشيطة. بالضد منه وقف المذهب البروتستانتي، العالم التقوي(١٠٧)،

---

(١٠٦) الغفارة cassock: رداء الكاهن في الكنيسة ـ المترجم.

(١٠٧) التقوي pietistic: نسبة الى التقوية وهي حركة دينية نشأت في ألمانيا في القرن السابع عشر وأكدت على دراسة الكتاب المقدس والخبرة الدينية الشخصية ـ المترجم.

الذي كان منشؤه في التصوف. اليسوعية، أضاف، دلت بوضوح على العنصر السياسي، التعليمي في المذهب الكاثوليكي، (الجمعية) كانت تُعد فن إدارة شؤون الدولة والتربية كونهما ميدانها الملائم. ونوّه بـ غوته، الذي غرس جذوره في البروتستانتية وكونه بروتستانتياً بصورة مؤكدة، مع ذلك، بفضل موضوعيته ومذهب العمل خاصته، إستهلك جانباً كاثوليكياً قوياً. كان قد دافع عن الإعتراف السري، وبصفته مربياً كان يسوعياً تقريباً.

ربما قال نافته هذه الأشياء، تعبيراً عن قناعة، أو لأنهما كانا ذكيين، أو لأنه، بصفته غلاماً مسكيناً، كان يعرف كيف يمكن للإطراء البارع أن يخدم غاياته. الأب أعطى أهمية لقيمتها الداخلية أقل من تلك التي أعطاها لقدرتها العامة على منح الشهادة. كان حديثهما مطولاً، الأب سيطرت عليه حقائق وضع ليو الشخصي، وأنهى كلامه بأن دعا الشاب لزيارته في المدرسة.

وهكذا تم التلطف على نافته بدخول فناء «نجمة الصباح». كان ذلك شيئاً يمكننا أن نتصور تماماً انه كان قد مضى زمن طويل منذ أن اشتهى الجمال المدرسي والإجتماعي لذلك الجو؛ والآن، بانعطاف القضايا هذا، كان قد كسب أستاذاً جديداً وحامياً أفضل بكثير من القديم كي يثمن ويعزز قابلياته الشخصية، أستاذ فاتر الأعصاب بطبيعته، تكمن قيمته في عالميته؛ أمسى الآن الدخول الى عالمه موضوع رغبة الغلام اليهودي. شأنه شأن الموهوبين من عرقه، كان نافته بطبيعته ارستقراطياً وثورياً معاً؛ إشتراكياً، مع ذلك يتملكه حلم التألق في العالم الأكثر زهواً، الأجمل، الشمولي جداً والمألوف جداً للحياة. ان أول تعبير حثته عليه عِشرة لاهوتي كاثوليكي هو ـ مهما كان مقارناً وتحليلياً في صيغته ـ جوهرياً تصريح بالميل الى الكنيسة الرومانية، كقوةٍ في وقت واحد روحية وارستقراطية (بتعبير آخر مناوئة للمادية)، في وقت واحد رفيعة وغير ودية بالنسبة للأشياء الدنيوية (بتعبير آخر، ثورية). وان الإجلال الذي ضمره هكذا كان أصيلاً، وعميقاً؛ ذلك ان، كما فسر هو نفسه، الديانة اليهودية، بفضل ميولها الدنيوية والمادية، واشتراكيتها، ودهائها السياسي، كان لها حقيقةً أشياء مشتركة مع المذهب الكاثوليكي أكثر مما هو موجود بين المذهب الأخير والذاتية المبهمة

والتضحية بالذات للبروتستانتية؛ ان تحوّل يهودي الى الدين الكاثوليكي الروماني على وفق ذلك إنفجار روحي أقل عنفاً بصورة واضحة من تحول شخص بروتستانتي.

منفصلاً عن راعي حظيرة خرافه الأصلية، يتيماً، منبوذاً، مليئاً بالتوق الشديد الى جوٍ أكثر حرية وأشكال حياة تتحقق فوقها مواهبه الفطرية، نافته، الذي تجاوز سن الإدراك من زمن طويل، كان شديد التوق الى مهنةٍ يجنب فيها حاميه كل مشاكل كسب هذا الشخص ـ أو بالأحرى، هذا الفرد الإستثنائي ـ الى طائفته. حتى قبل تعميد ليو كان هو، عند تحريض الأب، قد وجد مأوىً مؤقتاً في «نجمة الصباح»، حيث مُنح قوتاً للجسم والعقل؛ وهاجر الى هنا باتزان أعظم، وبقسوة فؤاد الأرستقراطي بالفطرة، تاركاً أشقاءه وشقيقاته الى عناية (الأوصياء الفقراء) والى مصير مناسب لمواهبهم الأقل شأناً.

كانت ملكية المؤسسة واسعة، تشمل في بناياتها مكاناً لأربعمائة طالب، ذات غابة وأرض مرجية، نصف دزينة من الملاعب الرياضية، بنايات حقول، ومرابط لمئات الأبقار. كان المعهد في الوقت نفسه مدرسة داخلية، حقلاً مثالياً، مدرسةً للتدريب الرياضي، أماً بالتنشئة لعلماء المستقبل، ومعبداً للموزيات(١٠٨) ـ ذلك انه كانت هناك أعمال مستمرة في المسرح والموسيقى. كانت الحياة هناك مزيجاً من الحياة الرهبانية وحياة المزرعة. بانضباطها وأناقتها، بابتهاجها الحسن الهادئ، رفاهيتها، بجوها الفكري، ودقة نظامها المتغير يومياً، هدأت وأشبعت أعمق غرائز الغلام ليو. كان سعيداً بصورة مبالغ بها. أكل وجبات ممتازة في حجرة طعام رحبة سادت فيها سلطة الصمت ـ كما في ممرات المؤسسة ـ وفي مركزها جلس تلميذ مفوض يافع على منبر عالٍ وجعل يقرأ بصوت مرتفع. كانت حماسة ليو في الدروس ملتهبة؛ وعلى الرغم من ضعف صدره كان يبذل قصارى جهوده كي

---

(١٠٨) الموزيات Muses: جمع موزية وهي إحدى الإلاهات التسع الشقيقات اللواتي يحمين الغناء والشعر والفنون والعلوم (في الميثولوجيا الاغريقية) ـ المترجم.

يصمد في الألعاب والمباريات الرياضية. مضى بتكريسٍ الى قداس مبكر وشارك في خدمة الأحد بحماسةٍ لا بد انها كانت سارةً لمعلميه الكهنوتيين. وضعه الإجتماعي لم يكن مقنعاً لهم بدرجة قليلة. وفي الأيام السعيدة والأيام المقدسة، بعد الكعك والخمر، كان يسلك واحداً من أطول طرقات الطلاب الذين، ببزات رمادية وخضر بشريط على السروال، بياقة عالية وقبعة عسكرية فرنسية، يشرعون بالسير في الريف.

كان قد تأثر إعترافاً بالجميل لدى المراعاة التي أبدوها نحوه، في ما يتعلق بمنشئه، نصرانيته الطفولية، ومصائره الشخصية. لا أحد في المعهد بدا عارفاً بكونه موضع إحسان. كانت قواعد المؤسسة قد ساندت إخفاء حقيقة كونه شريداً وبلا أسرة. كان محظوراً إرسال طرود طعام حلويات الى الطلاب؛ وإذا ما وصل أي طرد، فكان يُقسّم ويتسلم ليو حصته إسوةً بالآخرين. وان عالمية المعهد منعت عرقه من أن يكون ممكن الإدراك. كان هناك غرباء يافعون آخرون بين الطلاب مثل أولئك الأمريكيين الجنوبيين الذين يتكلمون البرتغالية، الذين يبدون «يهوديين» أكثر منه، وهكذا فإن الفكرة لم تخطر بالبال. تم قبول أمير أثيوبي في الوقت نفسه مع نافته؛ كان له شعر صوفي وذا مظهر بربري واضح للعيان، مع انه كان مميزاً جداً.

في الصف أبدى ليو رغبته في دراسة اللاهوت، كي يهيء نفسه لعضوية (الجمعية)، إذا ما وجدها شيئاً يستحق ذلك. إستناداً الى هذا، غيّر موقعه من «المدرسة الثانية»، حيث كان الطعام والأحوال المعيشية أكثر تواضعاً، الى الأولى، حيث كان الندل يقدمون له الطعام والشراب عند المائدة، وكان له مهجع بين نبيل سيليزي[١٠٩]، كونت هاربوفال وشاماريه، والشاب ماركيز رانغونيسانتاكروس من مودينا[١١٠]. إجتاز إمتحاناته بصورة رائعة، و، تحقق عزمه، هجر الحياة الطلابية للمدرسة كي يدخل مدة ترهبنه في (تيسس)

(١٠٩) سيليزي silesian: نسبة الى سيليزيا وهي منطقة في أواسط أوروبا تتقاسمها تشيكوسلوفاكيا وبولونيا ـ المترجم.

(١١٠) مودينا Modena: مدينة إيطالية ذات أصل اترووري ـ المترجم.

القريبة، حيث عاش حياة الخدمة والتواضع، الطاعة الصامتة والتهذيب الديني، وتشرّب من ذلك نكهةً روحيةً مساويةً تماماً للآمال المتعصبة لسنواته المبكرة.

خلال ذلك، على أية حال، صحته دفعت الثمن؛ أقل، في الواقع، عبر قسوة مدة الترهبن، التي لم تكن تفتقر الى الإستجمام الجسدي أكثر من افتقارها الى الإستجمام النابع من الداخل. اللطف وصفة الفطنة اللتان يمتاز بهما النظام التربوي الذي كان هدفاً له لبيا ميوله الشخصية الى النصف. أمضى نهاراته كلها ونصيباً جيداً من لياليه في التمارين الفكرية، بحثاً عن الضمير، في التأمل، في الإستبطان، والتي زج فيها نفسه بحب المشاكسة ذاك لأنه تورط في ألف مشكلة، وإنكار، وشجار. كان مصدر يأس ـ إن لم يكن في الوقت نفسه الأمل الأعظم ـ لمدرسيه الخصوصيين، الذين كان يدفعهم يومياً الى تخوم إحتمالهم بوساطة جدله العنيف ودقة عملياته العقلية. «Ad hac quid tu؟» يسأل، زجاجتا عويناته تومضان. والأب المُحرَج لا يستطيع سوى أن يحثه على إداء الصلاة من أجل الروح الهادئة ـ «ut in aliquem gradum quietis in aroma Pervenilat.» هذا الهدوء، حين تحقق، تكوّن من ضمور كلي للشخصية، حالة من إنعدام الحس يغدو فيها الفرد آلةً عديمة الحياة؛ انه «سلام المقبرة» الحقيقي، علاماته الخارجية الغريبة التي يستطيع الراهب نافته أن يراها في السحنات الخالية، المربكة لأولئك المحيطين به، الذي (أي السلام) لم يستطع بلوغه، حتى بوساطة الاعتلال الجسدي.

عبّر ذلك عن الطبيعة الفكرية لأولئك الذين في السلطة التي فوقه بأن تأخراته وعوائقه ليس لها تأثير في منزلته. عند نهاية مدة ترهبنه التي إستغرقت عامين كاملين أب المقاطعة نفسه بعث في طلبه، وبعد الحوار صادقَ على قبوله في (الجمعية). السكولاستي الشاب، الذي إختار أدنى الدرجات الكهنوتية الأربع كـ بواب، مساعد كاهن، قارئ[111]، ومطهر، وكذلك

---

(١١١) قارئ lector: شخص مهمته تلاوة فصول من الكتاب المقدس في قداس ـ المترجم.

النذور «البسيطة»، أمسى الآن يقيناً عضواً من أعضاء (الجمعية)، وبدأ الرحلة الى فالكينبيرغ، الكلية اليسوعية في هولندا، ليبدأ دراساته اللاهوتية.

كان يومذاك في العشرين من عمره. بعد تصرم ثلاث سنوات، المناخ غير المؤاتي والتوتر الفكري المستمر تضافرا معاً كي يفاقما معاناته الوراثية بحيث ان بقاءً أطول سوف يعرض حياته للخطر. الرهبان الأعلى منه منزلةً أصيبوا بالرعب بسبب نزفٍ ما، تأرجح هو أسابيع عدة بين الحياة والموت، حين نقلوه بسرعة، ما كاد أن يتماثل للشفاء، كرةً أخرى الى المكان الذي أتى منه. في المعهد حيث كان طالباً وجد مهنة له تلميذاً مفوّضاً ومشرفاً على التلاميذ الداخليين[١١٢] ومعلماً للدراسات الثقافية والفلسفة. هذه الفسحة كانت على أية حال مفروضة على طلاب (الجمعية)؛ غير انها لا تستمر عادةً إلا لسنوات قلائل، بعدها يعود الطالب الى الكلية ليأخذ من جديد المقررات الدراسية على مدى سبع سنوات ويتحملها حتى نهايتها. هذا، على أية حال، لن يوافق الراهب نافته على القيام به. إستمر يعاني من المرض؛ الطبيب والرهبان الأعلى منه منزلةً قرروا أن الأفضل له أن يعزز درجته الكهنوتية هنا بين الطلاب، في هذا الريف النقي، في مهن عديدة خلوية في الحقل. إتخذ الواقع أول الدرجات الكهنوتية العليا، ونال بذلك الحق في أن ينشد الرسالة الأنجيلية في قداس الآحاد ـ حق، على أية حال، لم يتدرب عليه، أولاً لأنه لم يكن موسيقياً أبداً، وثانياً بسبب صدره الضعيف، الذي يجعل طبقة صوته تتغير تغيراً ملحوظاً ويغدو صوته غير ملائم للغناء. لم يستطع أن يكون أكثر من شماس مساعد ـ لم يقدر حتى أن يصل درجة الشماسة، وهي أقل بكثير من الكهانة. حوادث النزف تكررت، الحمى إستمرت، وأخيراً، أقبل هو الى الجبال من أجل علاج طويل الأمد على نفقة (الجمعية). العلاج الآن في سنته السادسة، ورويداً رويداً إنتهى الأمر الى أن أضحى حالةً ثابتةً من الوجود أكثر من كونه علاجاً، أمسى إقامةً من أجل الحياة في جوٍ نقي، حياة ملونة ببعض

(١١٢) التلاميذ الداخليين boarders: هم التلاميذ الساكنين في المدرسة الداخلية ـ المترجم.

النشاط معلماً للاتينية في ثانوية دافو للصبيان المصابين بسلٍ خفيف.

هذا كله، بتفصيل أكبر، فهمه هانز كاستورب خلال زيارته الى صومعة نافته الحريرية، إما بمفرده أو رفقة زميلي مائدته فيرجه وفيسال، اللذين أدخلهما الى هناك؛ أو بطريقة أخرى حين يلتقي نافته في مسيرةٍ راجلة، ويتنزه معه عائداً الى الدورف. فهمها كلما سنحت الفرصة، تدريجياً، ولكن أيضاً بصيغة حكاية متواصلة، ووجدها إستثنائية بدرجة كبيرة. ليس ذلك حسب، بل حث فيرجه وفيسال أن يجداها كذلك، الأمر الذي فعلاه على وفق ذلك. السابق، الواقع، طوال تلك المدة القصيرة إحتج قائلاً انه مجرد رجل عادي، وهذا النوع الرفيع من الأشياء وراء نطاق فهمه تماماً، تجربته مع صدمة غشاء الجنب كانت الحدث الوحيد في حياته كي يرفعها فوق العالم الأكثر رتابةً. فيسال، على أية حال، واضح انه تمتع بحكاية صعود رجل الى مرتبة النجاح من البدايات المتواضعة والمحزنة ـ وعلى الرغم من ذلك ليس ثمة دافع فيها للغطرسة، طالما ان الحظ الجيد بدأ يتضاءل من جديد في الضعف الجسدي السائد.

هانز كاستورب، بدوره، أسف على الشيء المعاكس في مسائل نافته، مفكراً بفخر وقلق في يواكيم الطموح، الذي بمجهودٍ بطولي إندفع خارجاً عبر النسيج المتين للبلاغة الرادامانثوسية وجرى الى القوات المسلحة، حيث رسمه خيال ابن خالته ملتصقاً بالعَلَم بثلاثة أصابع مرفوعة في قَسَم الولاء. لهذا العلم نافته أيضاً أقسم قَسَم الولاء، هو أيضاً قَبِلَ تحت طياته: كانت هذه هي الصورة التي إستخدمها حين فسر (جمعيته) لـ هانز كاستورب. لكن بشكلٍ واضح، باستنتاجاته ومجموعاته المؤتلفة، كان مخلصاً لقسمه أقل من إخلاص يواكيم. هانز كاستورب، مصغياً الى اليسوعي المستقبلي أو اليسوعي السابق؛ شعر بنفسه أقوى في أفكاره مدنياً وطفل السلم، بينما أدرك أن هذا الرجل ويواكيم كل منهما يجد شيئاً مقنعاً في مهنة الآخر ويميز تشابهها مع مهنته. ذلك ان كل واحدة من المهنتين عسكرية شأنها شأن الأخرى، وكلاهما عسكرية بكل ما في الكلمة من معنى؛ كلاهما زهدية، كلاهما كهنوتية، كلاهما مرتبطة بالإجلال التام وبـ«آداب المعاشرة

الإسبانية». هذه الأخيرة بالأخص لعبت دوراً كبيراً في جمعية نافته، نشأت في اسبانيا. تمارينها، التي كانت غير منفصلة عن أنظمة الجيش التي أصدرها لاحقاً فريدريك البروسي الى مشاته، حيث كُتبت أولاً باللغة الإسبانية، نافته يستخدم دوماً المقاطع اللفظية الإسبانية في حكايته ونعوته. هكذا يتكلم هو عن "dos bunderas"، العَلَمين ـ الشيطاني، والإلهي، اللذين إجتمعت تحتهما الجيوش من أجل النضال العظيم: ذلك النضال القريب من القدس، حيث كان المسيح «القائد العام» لكل المخلصين، أما الجيش الآخر عند سهول بابل، حيث كان الـ"caudillo" أو الزعيم هناك هو لوسيفورس[١١٣].

ألم تكن مؤسسة «نجمة الصباح»، على وجه الدقة، أكاديمية عسكرية، طلابها كانوا يُدربون على الفصل بين اللياقة العسكرية والروحية، المزاوجة، إذا صح التعبير، بين الياقة المرتفعة وطوق الرقبة المكشكش الإسباني؟ والآراء المتعلقة بالرتبة العسكرية والترقية، التي لعبت دوراً لامعاً في مهنة يواكيم، يا لوضوح، فكر هانز كاستورب؛ كونها مرئية في تلك الجمعية الأخرى، حيث نافته، واحسرتاه، بسبب مرضه، مُنع من أن يحقق تقدماً أكثر! على وفق تفسيره، كانت (الجمعية) مكونة على وجه الحصر من ضباط على درجةٍ عالية من الحماسة، تحركهم فكرة في ان يميزوا أنفسهم (insignis esse، باللاتينية). وهؤلاء، على وفق مذهب مؤسسهم وجنرالهم الأول، لويولا الإسباني، أنجزوا خدمة رائعة أكثر بكثير من أي خدمة يمكن أن ينجزها أي منهم إذ كانوا مقودين فقط بوساطة عقلهم الطبيعي. ذلك ان خدمتهم كانت عملاً زائداً على ما هو مفروض عليهم من حيث انهم لم يقاوموا فقط ثورة الجسد، التي على الرغم من كل شيء كانت إلزامية على أي عقل بشري سليم عادي كي يقوم بها، بيد انها كانت معادية حتى لأي ميل نحو الأشياء الحسية، نحو حب الذات وحب الأشياء الدنيوية، حتى إذا لم تكن هذه محظورة بصورة مباشرة. ذلك انه كان أفضل ومشرفاً أكثر أن نغير

---

(١١٣) لوسيفورس Lucifer: أي حامل النور. لقب ملك بابل في سفر أشعيا. هو في عرف المسيحيين رئيس الشياطين ـ المترجم.

على العدو، أي، ان نهاجمه، من أن نكتفي بالدفاع عن النفس. كي نضعف ونرهق العدو ـ كانت تلك التعليمات في كتاب الخدمة؛ وهنا ثانية مؤلفها، لويولا الإسباني، كان يتفق في الرأي مع «القائد العام» يواكيم، مع فريدريك البروسي، بشعاره: «إهجم، إهجم عليه! إبقَ في أعقابه! لا تجعله يفلت!».

لكن أكثر الأشياء المشتركة بين عالمي نافته ويواكيم هو موقفهما من إراقة الدم، بديهيتاهما التي تفيد بأنه ينبغي للمرء أن لا يكبح يده. في تلك المسألة، كالعوالم، كالأنظمة، كحالات المجتمع، كانا في انسجام صارم. طفل السلام يصغي بشره الى قصص نافته عن رهبان القرون الوسطى المولعين بالحرب، الذين، كانوا زهديين الى درجة الإنهاك الجسدي ومليئين بتوقٍ روحي الى السلطة، وقساة في إراقة الدماء بهدف إقامة مملكة [الله] وحكمها المطلق السماوي، مملكة الداويين[١١٤] المولعين بالحرب، والذين احتفظوا بها بصورةٍ تستأهل أن يموتوا في المعركة مع غير النصرانيين أكثر بكثير مما تستأهل أن يموتوا في أسرّتهم، وهي ليست جريمة بل المجد الأعلى، أن تقتل أو تُقتل من أجل المسيح. لحسن الحظ، سيتيمبريني لم يكن حاضراً خلال تلك المحادثة! كان ما يزال يمارس دور عازف الأرغن اليدوي في الشوارع، وغنى مدائح السلام بمصاحبة القيثار والسنطور؛ غير انه كانت هناك دوماً الحرب المقدسة ضد فيينا، التي لم يقل لها لا، مع ان نافته فتش عن نقطة ضعفه بسخرية وإزدراء، وحين كان الإيطالي يلتهب بشعور مشبوب العاطفة، يقود نافته الطبقة البورجوازية من كل العالم المسيحي الى الميدان ضده، مُقسِماً ان كل بلد، أو بطريقة أخرى لا بلد على الإطلاق، هو وطن أسلافه، ومكرراً بتأثير لاذع المقطع اللفظي السائد في (الجمعية)، المسمى (النيكل)، الذي على وفقه حبنا لبلدنا هو «طاعون، والموت المؤكد للمحبة المسيحية.»

المثال الأعلى الزهدي لـ نافته، بالطبع، هو الذي جعله يدعو حب

---

(١١٤) الداويون Templars: أعضاء منظمة دينية عسكرية أُنشِئت في القدس العام ١١١٨م لحماية الحجاج والقبر المقدس. يُدعون أيضاً فرسان الهيكل ـ المترجم.

الوطن بلاءً ـ وكل ما لم يدركه على الإطلاق وراء الكلمتين (أي حب الوطن)، كله، على وفق ما قاله، لا يستمر في كونه معاكساً للمثال الأعلى الزهدي ومملكة الله! ذلك انه ليس وحده التماس مع الوطن والعائلة، بل كذلك الإلتصاق بالحياة والصحة كانا مقدرين جداً؛ جعله لوماً للإنساني ذلك ان الأخير تغنى بمدائح السلام والسعادة: بصورة مشاكسة إتهمه بالحب الجسدي (amor carnalis)، والاعتماد على الراحة البدنية (commodorum corparis)، وأخبره وجهاً لوجه ان أسوأ ضروب الزندقة البورجوازية هو أن ننسب الى الصحة أو الحياة ذاتها أي أهمية مهما كانت.

كان ذلك أثناء الجدال الكبير حول المرض والصحة، الذي يوماً ما، قرب عيد الميلاد (الكريسماس)، أثير خلال خلافاتٍ حصلت بينهم في مسيرة ثلجية راجلة الى البلاتز والعودة منها. كلهم شاركوا فيه: سيتيمبريني، نافته، هانز كاستورب، فيرجه وفيسال ـ قاطبةً محمومين قليلاً، في وقت واحد مستثارين بصورة عصبية وكسولين جسدياً من التمشي والتكلم في الصقيع القاسي، الجميع تعرّضوا الى نوبات الإرتجاف و ـ سواء كانوا رئيسيين في الجدال، مثل سيتيمبريني ونافته، أو أغلب الأحيان سريعين الى تقبل الأفكار، كالآخرين، يساهمون فقط بقول أشياء قصيرة فجأةً وبقوة من حين الى حين ـ كلهم، بلا إستثناء، مستغرقون تماماً بحيث انهم توقفوا مراتٍ عدة خلال الطريق، في مجموعة مُخلّةٍ بالنظام تومئ في أثناء كلامها سادين بذلك السبيل على المارة، الذين توجب عليهم أن يرسموا دائرة حولهم كي يتجنوبهم. لا بل كان الناس يتوقفون قليلاً ويصغون بدهشة الى تهورهم.

كان النقاش قد نما من إشارة ألمح إليها شخص ما الى كارين كارشتيت، كارين المسكينة ذات أطراف أصابع اليد المكشوفة، التي حدثت وفاتها مؤخراً. هانز كاستورب لم يسمع شيئاً عن تدهور حالتها الصحية ورحيلها النهائي؛ بطريقةٍ أخرى كان سيسره أن يشهد الطقوس الأخيرة، كرعايةٍ رفاقية، إن لم يكن ذلك ببساطة تعبيراً عن ميله المعترف به نحو الجنائز. غير ان الممارسة المحلية للحذر وكتمان السر حال دون سماعه بنبأ وفاتها حتى وقت متأخر جداً. كانت كارين قد نزعت الى الإعتقاد أن الأفقي حسن، في

جنينة الكيوبيد بقبعة الثلج المائلة. «لترقد أبداً.» خصص كلمات ودية قلائل لذكراها، قاطعه السيد سيتيمبريني، الذي بدأ يهزأ بفعاليات طالبه الخيرية، بزياراته الى ليلى غيرنغروس، روتبين رجل الأعمال، السيدة زيمرمان «المملوءة الى درجة الفيضان»، الإبن المتبجح لـ«الاثنين كلاهما»، والمبتلاة ناتاليه فون مالينكروت. إنتقد هانز كاستورب مستعيداً أحداث الماضي ومتأملاً فيها لأنه ضمر تقديراً بأزاهيرغالية الثمن لذلك الطاقم الكئيب والمثير للسخرية؛ ورد هانز كاستورب قائلاً انه عدا الاستثناء المؤقت للسيدة فون مالينكروت والغلام تيدي، أولئك الذين تقبلوا مجاملته كانوا الآن بكل جدٍ قد أصبحوا في عداد الأموات ـ فرد عليه السيد سيتيمبريني ما إذا جعلهم ذاك محترمين أكثر. حسن، على الرغم من كل شيء، أجاب هانز كاستورب، ألا يوجد شيء كالمهابة المسيحية أمام المعاناة؟ قبل أن يستطيع سيتيمبريني من إسكاته، تدخل نافته، وشرع يتحدث عن الإنهماكات الورعة التي أظهرها الأشخاص الورعون في القرون الوسطى، الحالات الصاعقة للتقوى المتعصبة والوجد في رعاية العليل: بنات الملك يقبّلن الجروح كريهة الرائحة للمجذومين، بطواعيةٍ يعرضن أنفسهن للتلوث ومسميات القروح التي تلقينها «ورود»هن؛ أو شاربات الماء الذي أُستخدم لتنظيف الأخماج (الخرّاجات)، ومُقسِمات أن ليس ثمة شيئاً أطيب مذاقاً منه.

بدا سيتيمبريني كما لو انه على وشك أن يتقيأ. لم يكن، قال، العنصر الجسدي المثير للإشمئزاز في هذه الحكايات والمؤثر جداً هو الذي قلب معدته مثل الجنون الرهيب الذي كشف عن خططه الحقيقية في هذا المفهوم المتعلق بمحبة البشرية. بعدئذ، إستعاد وضعه الطبيعي، ومزاجه الجيد، إنتصب واقفاً وأبدى رأياً حول التقدم الحديث للأفكار الإنسانية، الإعادة القسرية المنتصرة الى الوراء للوباء، حول الأحوال والعادات المفضية الى الصحة وحول الإصلاح الإجتماعي، قارن رعب الطاعون بالأعمال البطولية للعلم الطبي الحديث.

هذه كلها، أجاب نافته، كانت إنجازات بورجوازية شريفة؛ غير ان أذاها كان أكثر من فائدتها في القرون التي نحن بصددها. هي لم تنفع لا هذا

الجانب ولا ذاك، أفادت المعلولين والبائسين قليلاً مثلما فعلت مع الأقوياء والأثرياء، هؤلاء الأخيرون لم يكونوا جديرين بالشفقة من أجل الشفقة ذاتها، بل من أجل خلاص أرواحهم نفسها. الإصلاح الإجتماعي الناجح جرّدهم من براءتهم الضرورية من الإثم، مثلما جرّد البائسين من حالتهم الطاهرة. ان إستمرار الفقر والمرض كان في مصلحة كلا الحزبين، وبوسع الوضع أن يبقى مدةً طويلةً جداً كما هو ممكن أن يؤمن كلاهما بوجهة النظر الدينية الخالصة.

«وجهة نظر قذرة»، أعلن سيتيمبريني. وضعُ حماقته، شعر هو نفسه، وراء نطاق الخلاف. هذا الكلام عن النصيب الطاهر للمساكين والبائسين ـ نعم، وما قاله المهندس، ببساطة، عن المهابة المسيحية الناشئة عن المعاناة ـ كان ببساطة هراءً خادعاً، مستنداً الى إعتقاد خاطئ، الى عاطفة خاطئة، الى علم نفس غير صحيح. الأسف الذي يشعر به الشخص المعافى نحو العليل ـ أسفاً تقريباً عادل رعباً، لأن الإنسان المعافى لا يستطيع أن يتصور كيف يمكنه هو نفسه أن يتحمل معاناة كهذه. كان مبالغاً به بدرجة كبيرة جداً. الشخص المريض ليس له حق واقعي في ذلك. انها، حقيقة، نتيجة خطأ في التفكير، نوع من الهلوسة؛ ذلك ان الرجل السليم يعزو الى المريض مؤهلاته العاطفية، ويتصور ان الرجل العليل هو، إذا صح التعبير، رجل معافى توجب عليه أن يتحمل الآلام المبرحة لرجل مريض ـ وأن لا شيء كان بعيداً عن الحقيقة. حيث ان الرجل العليل ـ على وجه الدقة، هو رجل عليل: بحالته الطبيعية وردود الأفعال المحوّرة لحالته. المرض يكيّف إنسانه أيما تكييف بحيث انه (أي المرض) وهو (أي المريض) بوسعهما أن يتوصلا الى تفاهم؛ كانت هناك تسكينات حسية، دوائر قصيرة، خدر رؤوف؛ الطبيعة توصلت الى الإنقاذ بمعايير التكيف الروحي والأخلاقي والإرتياح، الأمر الذي، بسذاجة، أخفق الرجل السليم في أن يأخذه بالحسبان. لن يكون هناك تصور أفضل من حالة كل هذا الطاقم المصاب بالسل هنا في الأعالي، بحماقته المتهورة، طيشه وسلوكه الأخلاقي المحلول، وافتقارهم التام للتوق الى الصحة. باختصار، دع الإنسان السليم بكل إجلاله للمرض يصاب هو نفسه بالمرض، وسوف يفهم حالاً ان مسألة كونه مريضاً هي حالة كينونة بحد ذاتها

ـ وهي حتى ليست حالة محترمة جداً ـ وانه كان قد عدّها مسألةً غايةً في الجدية.

عند هذه النقطة أنطون كارلوفيتش فيرجه شمَّر عن ساعديه كي يحتج ـ صان صدمة غشاء الجنب من الأقوال الساخرة والإزدراء. إذاً فكّر السيد سيتيمبريني ان بوسعك أن تأخذ مسألة صدمة غشاء الجنب غايةً في الجدية، أليس كذلك؟ بكل الإحترام وعرفان الجميل المطلوبين وكل ذلك، هو، فيرجه، لا بد ان يطلب المعذرة من السيد سيتيمبريني! تفاحته الآدمية الكبيرة وشارباه البهيجان إضطربا صعوداً ونزولاً حين أنكر أي نقص في الإحترام للعذابات التي كان قد خضع لها. كان مجرد رجل بسيط، وكيل تأمين على الحياة، ليس له أفكار طنانة؛ حتى الحوار الحالي حلق عالياً فوق رأسه. أما إذا كان السيد سيتيمبريني قد عنى ان صدمة غشاء الجنب كانت مثالاً جيداً لما كان يتحدث عنه ـ ذلك التعذيب بوساطة الوخز الخفيف، بنتانته الكبريتية ونوبات إغمائه ذوات الألوان الثلاثة ـ حسن، في الواقع كان هو مديناً كثيراً جداً بجميل السيد سيتيمبريني، حقيقةً ينبغي له أن يشكره بصورة عطوفة جداً الواقع، إنما لم يكن ثمة شيء من هذا النوع في ما يتعلق بـ صدمة غشاء الجنب ـ لا يوجد البتة! خذ التكيفات و«الخدر الرؤوف» ـ يا سلام، كان ذلك أكثر قطع [الشغلة] مقززةً للنفس تحت الشمس المشرقة، وما من أحد لم يجتزها بنجاح يمكن أن يكون له أدنى فكرة ـ»

«نعم، نعم»، قال السيد سيتيمبريني. الإنهيار الصحي للسيد فيرجه أمسى ملحوظاً أكثر فأكثر مع مضي الوقت، وهو ذا الآن يلبسه كهالةٍ حول رأسه، هو، سيتيمبريني، لا يضمر إحتراماً كبيراً للناس المعلولين الذين طالبوا بالإعتبار بسبب مرضهم. كان هو نفسه عليلاً، وبصورة خطيرة؛ إنما باخلاصٍ تام شعر بأنه ميال الى الخجل من هذه الحقيقة. على أية حال، ملاحظاته الحالية كانت غير معقولة بصورةٍ خالصةٍ وموضوعية؛ والمقارنة التي عقدها بين الطبيعة وردود أفعال إنسانٍ معافى وإنسان مريض كانت مستندة الى الفطرة السليمة، كما يفهم النبلاء إذا ما فكروا في الجنون ـ خذ، مثلاً، الهلوسات.

افترض ان أحد مرافقيه، قل، المهندس، أو السيد فيسال، يدخل حجرته الليلة عند الغسق ويرى أباه الميت جالساً هناك في ركنٍ ما، ويكون قادراً على أن ينظر ويتكلم إليه ـ سيكون ذلك رهيباً بدرجة مطلقة، أليس كذلك؟ تجربة مرهقة للأعصاب، تذهل الإحساس والعقل معاً، وتجعله يخرج من الحجرة بأسرع ما يمكن ويضع نفسه في عناية إختصاصي بالأمراض العصبية. أم ان هذا ليس صحيحاً؟ ان الهزلي في المسألة هو أن تجربة كهذه لن تكون ممكنةً لأي من النبلاء الحاضرين؛ بما انهم جميعاً يتمتعون بصحة عقلية تامة. لو حصل هذا لأي منهم، سيكون علامةً أكيدةً على انهم لم يكونوا سليمين، بل مرضى، وانهم لن يتفاعلوا مع الهيئة بعواطف الرعب ويلوذوا بالفرار، بل يتعاملون معها كما لو انها شيء منظّم تماماً، ويبدأون حواراً معها ـ هذا هو، في الواقع، رد فعل شخص يعاني من الهلوسة. ان نفترض ان هلوسات كهذه أثرت في شخص خضع لها بالرعب نفسه الذي يشعر به عقل سليم هو خلل في التخيل يكون الأشخاص الأسوياء معرّضين لها كثيراً.

السيد سيتيمبريني تكلم بمظهر مضحك وطيّع. تصويره للأب الذي في الزاوية جعلهم يقهقهون، حتى فيرجه، إنزعج مع انه أهمل صدمة غشاء الجنب خاصته. السيد سيتيمبريني إستفاد من مرحهم الصاخب كي يسهب أكثر في ضعة الناس الذين خضعوا للهلوسة، وللجنون عموماً. كانت فكرته ان هؤلاء الناس يستسلمون أكثر مما كانوا يحتاجون، وكثيراً ما كان في قدرتهم أن يسيطروا على نزواتهم: كان قد أدلى بهذه الملاحظة حين زار المستشفيات الخاصة بالمجانين. ذلك انه بحضور الطبيب، أو غريب ما، المرضى في الأغلب يقطعون مؤقتاً ثرثرتهم، تكشيراتهم، وترنحهم جيئة وذهاباً، ويتصرفون بصورة معقولة تماماً، طالما انهم شعروا بكونهم تحت التدقيق، فقط ليطلقوا العنان لأنفسهم ثانيةً بعدها. ذلك ان الجنون من غير شك، في حالاتٍ كثيرة عنى ذلك النوع من الإنغماس في الملذات والذي كان ملاذ الطبيعة الضعيفة للإنسان إزاء المحنة الشديدة جداً، دفاعاً بإزاء ضربات القدر الساحقة جداً كما يشعر بها هو (أي الإنسان)، حينما يكون، في مزاجه الصحيح، غير قادر على أن يتغلب عليها. ولكن كل امرىءٍ تقريباً ربما يدخل

تلك الحالة؛ وهو، سيتيمبريني، كان قد حمل أكثر من مجنون على الضبط المؤقت للنفس، ببساطة بوساطة معارضة هرائه بسيماء عقل عنيد.

نافته ضحك بسخرية، هانز كاستورب أعلن إستعداده للإيمان بتصريح السيد سيتيمبريني. الواقع، حينما تخيله باسماً تحت شاربيه ومركزاً على الأبله نظرةً ثابتةً من عقله القاسي، كان بوسعه أن يفهم جيداً كيف توجب على الشخص المسكين أن يسترد رباطة جأشه ويتصرف بـ «ضبط مؤقت للنفس»، مع انه ربما يجد حضور السيد سيتيمبريني حادثاً غير سار الى حد بعيد. ـ غير ان نافته أيضاً كانت له تجربة في مستشفيات المجانين. تذكّر زيارةً الى الردهة العنيفة، حيث رأى مشاهدَ مثل ـ يا إلهي، مشاهدَ من النوع الذي سيكون كبيراً جداً حتى للعين الذكية للسيد سيتيمبريني أو لقدراته التأديبية: مشاهدَ دانتية[(١١٥)]، تابلوهات[(١١٦)] شديدة البشاعة: للرعب والكرب: مجانين عراة يقرفصون في المغطس المستمر، في كل وضع من أوضاع الكرب العقلي أو في ذهول القنوط؛ بعضهم يزعقون بصوتٍ عالٍ، آخرون بأذرع مرفوعة للأعلى وأفواه مفغورة إنبعث منها ضحكٌ مزج كل عناصر الجحيم ـ»

«أها» صاح السيد فيرجه، وإستأذنهم بالإنصراف كي يذكرهم بالضحكة التي إنفلتت منه حين تطرقوا الى غشاء الجنب خاصته. الخلاصة، الحذلقة العنيدة للسيد سيتيمبريني ينبغي لها أن تؤكد نفسها مهزومة أمام هذه المشاهد في الردهة العنيفة، بإزائها، الرعدة من الرهبة الدينية كانت يقيناً رد فعل أكثر إنسانية من هذه الثرثرة المتلطفة حول العقل، التي يراها (راهبنا المبجل) و(معلمنا المتفوق) مناسبةً لأن تُرشح علاجاً للجنون.

كان هانز كاستورب مشغول البال جداً بحيث لم يسأل عن اللقبين الجديدين اللذين كان نافته قد منحهما للسيد سيتيمبريني. بسرعة صمم على أن يبحث عنهما في أول فرصة سانحة له؛ ففي هذه الآونة، يداه مملوءتان

---

(١١٥) دانتية Dantesque: نسبة الى الشاعر الإيطالي دانتي ـ المترجم.

(١١٦) تابلو tableau: صورة، لوحة حية، مشهد ـ المترجم.

بالحوار الحالي. كان نافته يجادل بصورة لاذعة في الميل العام الذي جعل الإنسان يمجد الصحة وينتقص من قدر ويقلل من شأن المرض. كان موقف السيد سيتيمبريني، فكر، هو مثال لافت، وحتى رائع لنكران الذات، آخذين بالحسبان انه عليل هو نفسه. غير ان الإفتراض، مهما كان أهلاً بصورة لافتة للمكافأة، كان مخطئاً كما يمكن أن يكون جيداً: مستنداً فعلاً على إقدام وتبجيل الجسم البشري الذي يمكن فقط أن يُبرأ من الإثم إذا ظل ذلك الجسم في خلوه الأصلي من الخطيئة، بدلاً من أن يغوص في حالته الهابطة الحالية (statu degradationis). ذلك انه خُلق سرمدياً، وبوساطة الآثام الأصلية للفسوق والمقت الشديد، بوساطة فساد طبيعته، أصبح مميتاً وقابلاً للفساد، وهكذا عُدَّ سجن وردهة تعذيب النفس، أو عُدَّ الأداة المناسبة لإيقاظ الضمير نحو مغزى العار والتشوش (pudoris et confusionionis sensum)، كما عبّر بذلك القديس إغناطيوس.

الإنساني أفلوطين، هتف هانز كاستورب، كان معروفاً أيضاً بأنه أعطى وصفاً للفكرة ذاتها. إلا أن السيد سيتيمبريني رفع يديه بقوةٍ الى الأعلى وأمر الشاب أن لا يخلط بين وجهتي نظر مختلفتين ـ و، بالنسبة للبقية، نصحهم وطلب منهم أن يحافظوا على موقفهم المتسم بالتقبل السريع للأفكار.

نافته، مستمراً، إستمد المهابة التي ضمرتها العصور الوسطى المسيحية للمعاناة الجسدية من الحقيقة القائلة انها أذعنت على أسس دينية على مرأى من كرب الجسد. ذلك ان جروح الجسم لم تؤكد فقط حالتها المغمورة، بل أيضاً ماثلت بطريقة مهذبة الإفساد المسمِم للروح، وهكذا كانت باعثاً على عواطف ذات قناعة روحية حقيقية: في حين ان الصحة الناضرة هي ظاهرة مُضللِة، مُهينة لضمير الإنسان ويستلزم أن تكون محايدة بوساطة موقف الحط من القدر والتواضع أمام الضعف الجسدي، الذي يكون نافعاً بصورة لا متناهية للروح.

Quis me liberabit de corpore mortis huius؟ مَنْ الذي سيحررني من جثمان هذه الميتة؟ ها قد تكلم صوت الروح، الذي كان بصورة سرمدية صوت الإنسانية الحقيقية.

على العكس ـ بحسب وجهة نظر السيد سيتيمبريني، المُقدمة مع حرارة ليست بالقليلة ـ كان صوتاً من الظلام، صوتاً من عالم لم تشرق عليه شمس العقل والإنسانية بعد. حقاً، بهيئته الجسدية كان ملوّثاً؛ مع هذا، ماذا يهم ذلك، بما ان عقله كان غير ملوث وسليماً ـ وكان مؤهلاً تماماً لأن يجلب التشوش لخصمه الكهنوتي في أي نقاشٍ يتعلق بالجسد، أو لأن يسخر منه في ما يخص الروح؟ لاذ بفرارٍ سريع جداً في الاحتفال بالجسد البشري كونه المعبد الحقيقي لـ(الله)؛ ذلك ان نافته أعلن مباشرة ان هذه البنية المهلكة لم تكن أكثر من حجاب بيننا وبين الخلود؛ بينما منعه سيتيمبريني بصورة مؤكدة من إستخدام كلمة الإنسانية ـ وهكذا إستمر الأمر.

حاسرو الرؤوس، وجوههم متيبسة في البرد، داسوا بكالوشاتهم المطاط الثلج الهش، ذا الصرير، المكسو بالرماد، أو تقدموا بجهد عبر كتل مسامية في القناة: سيتيمبريني بسترةٍ شتائيةٍ ياقتها وطرفا كميها من فرو السمور ـ كان الفرو بالياً الى الجلد، وبدا رثاً بكل معنى الكلمة، إلا انه كان يعرف كيف يواجه النتائج بكبرياء مصطنعة؛ نافته بمعطف طويل أسود اللون يصل الى كعبي قدميه وعالياً حتى أذنيه، ولا يُظهر شيئاً من الفرو الذي كان مبطناً به في كل مكان. كلا المتحدثين عامل موضوعه كما لو كان شأناً شخصياً في أقصى حد؛ وكلاهما إلتفت كثيراً ليس الى أحدهما الآخر لكن الى هانز كاستورب، برهانٍ وشرح، مشيرين الى خصومهم بهزة رأس أو إبهام عنيفة. كانا قد أبقياه بينهما، وكان هو يدير رأسه كي يوافق أولاً على رأي الأول وبعدها على رأي الآخر؛ بين الفينة والفينة كان يقف كالعمود بلا حراك على الدرب، يميل جسمه الى الخلف من الخصر ويومئ بقفازه المبطن بالفرو بينما كان يشارك مشاركةً معينةً غير كافية تماماً في الكلام. فيرجه وفيسال كانا يدوران حولهم، تارة في الأمام وطوراً في الخلف، تارة برتلٍ واحد الى أن يتوجب عليهما أن يحطما صفهم من جديد كي يسمحوا للناس بالمرور.

بسبب ملاحظة معينة منهم إتخذ الجدال طابعاً أقل تجريداً، والمجموعة كلها اشتركت في نقاش حول التعذيب، إحراق جثث الموتى والعقوبة ـ القصوى، الجسدية معاً. فيردناند فيسال هو الذي أدخل الموضوع الأخير؛

بتلذذ جلي، كما لاحظ هانز كاستورب. كما هو متوقع، السيد سيتيمبريني، بكلمات طنانة، ناشد نبل الجنس البشري ضد إجراء كانت نتائجه مدمرة في التربية كما هي في البانولوجيا[117]. ومتوقعة بالقدر نفسه، مع انها صُيّرت مروِّعة بوساطة نوع خاص من الوحشية الكئيبة، كانت موافقة نافته على الضرب بالعصا. بحسب ما قاله، كان شيئاً أخرق أن يثرثر حول السمو البشري، طالما ان السمو الحقيقي لا يكمن في الجسد بل في الروح. ان روح الإنسان تكون الى الأبد ميالةً لأن تمتص مباهج هذه الحياة الدنيوية من الجسد عوضاً عن الروح؛ وهكذا الوجع، الذي صيّر الأشياء الخاصة بالحواس مُرَّةً له، كان مؤثراً بدرجة كبيرة، راداً إياه الى الروح ومانحاً الأخيرة السيادة على الجسد. كان شيئاً سطحياً أن نؤكد معلنين ان قصاص سارية الجَلد[118] كان فيه شيء مخزٍ بصورة خاصة. القديسة إليزابيث ضُربت بالسياط من قبل الكاهن الذي إعترفت له، كونراد فون ماربورغ، الى أن إنبجس الدم، وبهذه الوسيلة كانت روحها سابحة «الى الطبقة الثالثة من الملائكة». هي نفسها، فضلاً عن ذلك، كانت قد ضربت بالقضبان امرأة عجوزاً كانت نعسانة جداً بحيث انها لم تستطع أن تدلي باعترافها. ان أعضاء طائفة معينة، وحتى أعضاء آخرين ذوي طبيعة ورعة وجدية، خضعوا للضرب بالسوط من أجل أن يقوى ـ ربما ـ الحافز الروحي. هل سيؤكد أحد ما معلناً بجدية ان إجراءً كهذا كان همجياً ولا إنسانياً؟ انه شيء حقيقي ان العقوبة الجسدية كانت في سبيلها الى الزوال في بلدان معينة عدت نفسها في طليعة التقدم: غير ان الإعتقاد القائل ان هذا الزوال التدريجي كان علامةً من علامات التنوير أمسى هزلياً أكثر كلما طال أمده.

حسن، على أية حال، فكّر هانز كاستورب، مفترضاً بدرجة كبيرة: انه في التناقض بين الجسم والروح الجسم بلا ريب هو الذي جسّد ـ الجسم

---

(١١٧) البانولوجيا penology: فرع من علم الجريمة يبحث في إدارة السجون ومعاملة المجرمين ـ المترجم.

(١١٨) سارية الجَلد whipping-post: سارية يُشد إليها المذنب ثم يُجلد ـ المترجم.

جسّدَ، هذا شيء لا بأس به، صحيح؟ ـ مبدأ الشر؛ طالما ان الجسم هو طبيعياً طبيعة ـ جيد جداً، أيضاً، ذاك! والطبيعة، كونها مناقضة تماماً للروح والعقل، هي من خلال هذه الحقيقة شريرة جوهرياً، شريرة باطنياً، ربما يجوز للمرء أن يقول ذلك، إن لم يبدُ هذا أشبه بسعي للفت الأنظار! لكن ينتج من هذا ان الجسم يجب أن تتم معاملته على وفق ذلك، وأن يستفيد من الوسائل التأديبية، التي ربما تسمى أيضاً شريرة باطنياً. السيد سيتيمبريني، في سبيل المثال، تلك المرة، حين منعه وهن الجسد من حضور المؤتمر المكرّس لتعزيز الحضارة الذي عُقد في برشلونة، كان يجب أن تكون الى جانبه القديسة إليزابيث ـ!

ضحك الجميع؛ لكن بينما كان الإنساني يوقف مدافعه فجأةً، بدأ هانز كاستورب بعجالة يتحدث عن ضربٍ بالسوط كان قد خضع له، حين كان في واحدٍ من الصفوف الدنيا في المدرسة الثانوية الألمانية، حيث ما زال هذا النوع من العقوبة باقياً الى حدٍ ما، وكانت هناك دوماً ضربات بالسوط حاضرة. منزلته هو، المنزلة الإجتماعية لـ هانز كاستورب كانت جيدة جداً بحيث لا يتجرأ الأساتذة على أن يضعوا أيديهم عليه؛ لكنه جُلد مرةً من قبل طالب أقوى منه، شخص ضخم وغليظ ضرب بسوط مرن ربلتي ساقي هانز كاستورب المكسوتين بجوربين خفيفين. كان ذاك قد آذاه بصورة بغيضة جداً ـ «باطنية» جداً ـ بحيث انه نشج بكل معنى الكلمة بسبب الغيظ، وسالت دموعه بصورة مخزية. وتذكّر انه قرأ مرة انه في السجون، حين يُجلد الرجال بالسياط، فإن أكثر الأشرار صلابةً ينتحبون كالأطفال الصغار.

السيد سيتيمبريني أخفى وجهه في يديه، اللتين كانتا مكسوتين بقفازين جلديين باليين؛ ونافته بهدوء رجل دولة، سأل كيف يتوقعون بخلاف ذلك أن يقللوا عدد المجرمين العنيدين ـ ما لم يودعوا في أداة التعذيب الخشبية[١١٩]، التي كانت الأثاث المناسب تماماً لأي سجن من السجون. السجن البشري لن

(١١٩) أداة التعذيب الخشبية stocks: هذه الأداة ذات ثقوب كانت تُقيد فيها رجلا (أو رجلا ويدا) المذنب ـ المترجم.

يكون هذا الشيء ولا ذاك، تسوية جمالية: إذا لم يعتقد السيد سيتيمبريني هذا، إذاً سيكون واضحاً انه، على الرغم من كونه محباً للجمال، كان له إحساس قليل جداً بملاءمة الأشياء. وفي حقل التربية، ان مفهوم النبل البشري الذي سوف يحظر العقوبة الجسدية من المدارس التي إستندت منها جذورها، بحسب قول نافته، في الفردانية التحررية لعصرنا البورجوازي، والإنساني، في إستبدادية منوَّرة روحياً لـ الأنا، حقيقة، يموت الآن، كي يفسح المجال للمفاهيم الإجتماعية المكونة من أشياء أكثر صرامة وقسوة: أفكار تتعلق بالتأديب والإنسجام، بـ الإكراه والإذعان، من أجل معرفتها سيكون عنصر القسوة الورع ضرورياً، وحين يُدرك، سيجعلنا نغير آراءنا كلها في ما يتعلق بموضوع ضرب الجسد البشري.

«من هنا التعبير الموجز، Perinde acsi cadaver» سخر سيتيمبريني. نافته اقترح بما ان الله، في معاقبته آثامنا، أصابنا بالعقاب المخزي والمرعب لـ التعفن الجسدي، على أية حال لن تكون إهانة بغيضة جداً لذلك الجسم نفسه انه يجب أن ينال بين الحين والحين ضرباً بالسياط. وبعدها، بنحوٍ ما، كلهم في وقت واحد، تقدموا الى موضوع حرق جثث الموتى.

سيتيمبريني ضمر له الاجلال. ان إهانة التعفن، قال، التي تحدث عنها نافته، كان بالمستطاع أن تُهذب من جديد بوسائلها الخاصة. بدوافع عملية فضلاً عن الدوافع المثالية، كان الجنس البشري الآن على وشك أن يهذبها من جديد. شرح انه كان يساعد في التهيؤ لمؤتمر دولي من أجل تشجيع حرق جثث الموتى، موقع أعماله سيكون أغلب الظن السويد. محرقة مثالية سوف يتم عرضها، ومخطط لها على وفق آخر البحوث والتجارب، مع ردهة مخصصة لجرات حفظ رماد الموتى؛ هم يأملون أن يثيروا اهتماماً وحماسةً واسعي النطاق. يا لها من عقيمة وعتيقة طريقة الدفن، في ظل ظروفنا الحديثة ـ ثمن التربة، توسع مدننا وما يترتب عن ذلك من دفع المقابر الى الخارج حتى تصل الحافات! ومواكب التشييع المكتئبة، مع وقارها الذي اختصرته ظروف حركة المرور الحالية! السيد سيتيمبريني كان يملك الكثير من الحقائق المحرِرة من الوهم تحت سيطرته. رسم صورة مضحكة لأرمل مبتلى بالحزن

خلال رحلته اليومية الى المقبرة، كي يتبادل الأفكار والمشاعر مع المحبوبة الراحلة؛ وقال ان الإنسان يجب أن يملك وفرة من تلك البضائع الإنسانية النفيسة جداً، الزمن، والأكثر من ذلك، ان صخب الشغل في مقبرة كبيرة حديثة بالتأكيد يفسد سعادته التأسلية(١٢٠). ان فناء الجسم بوساطة النار ـ يا له من مفهوم نظيف، صحي، مبجل، نعم، انه مفهوم بطولي، مقارنة مع تركه للعمليات البائسة للتفسخ والإمتصاص من خلال الأشكال الدنيا للحياة! نعم، الطريقة الأحدث كانت أكثر إقناعاً من الناحية العاطفية أيضاً، وأرحم من التوق الإنساني الى الخلود. ذلك ان ما دمرته النار هو الجزء الأكثر فناءً من الجسد، العناصر التي حتى خلال حياة المرء يتم التخلص منها بوساطة عملية الأيض، بينما تلك العناصر التي ترافق خلال الحياة كلها، تأخذ أقل حصة في عملية التغيير، تلك التي تغدو رماداً، ومعها إمتلك الأحياء الجزء الخالد من الفقيد.

«أوه، رائع»، قال نافته. «أوه، حقاً، جيد جداً! الجزء الخالد من الإنسان، رماده!»

واضح ان نافته قصد أن يأخذ الإنسانية سريعاً الى منزلتها القديمة، اللاعقلانية إزاء الحقيقة البيولوجية الراسخة؛ قصد أن يرغمها على البقاء في مرحلة الدين الإبتدائي، حيث كان الموت شبحاً محاطاً بفظاعات مبهمة جداً بحيث لم يكن بالمستطاع تركيز نظرة العقل عليها. يا لها من همجية! ان الخوف من الموت يرجع الى مرحلة ثقافية متدنية جداً، حين كان الموت العنيف هو القاعدة، وأشياؤه المرعبة هكذا أصبحت ترافق فكرة الموت عموماً. لكن الآن، شكراً لتطور الأحوال المفضية الى الصحة وزيادة الحماية الشخصية، الموت الطبيعي هو القاعدة، الموت العنيف الإستثناء؛ الإنسان الجديد أصبح يفكر في الراحة الأبدية، بعد إستنزاف قدراته، كونه (أي الموت) ليس مرعباً البتة، بل طبيعي، وحتى مرغوب فيه. كلا، الموت ليس

---

(١٢٠) التأسلية atavistic: التأسل هو العودة الى صفات الأسلاف التي ابتعدت عنها الأنسال السابقة ـ المترجم.

شبحاً ولا لغزاً. انه ظاهرة بسيطة، مقبولة، وضرورية فيزيولوجياً، أن نقيم عليها أطول مما تتطلبه اللياقة فنحن بذلك نسلب الحياة منها. على وفق ذلك، [ردهة الموت] (كما تسمى المحرقة الحديثة أو يسمى السرداب المخصص لجرار حفظ رماد الموتى) سوف تضاف إليها [ردهة الحياة]، حيث يتضافر فن العمارة، الرسم، النحت، الموسيقى، والشعر، هذه الفنون كلها تتضافر كي تسحب أفكار الأحياء من تأمل الموت، من الحزن الضعيف وغير المجدي، وتثبتها على مباهج الحياة.

«هيا الى الرقص!» سخر نافته. «لا تدعهم يقومون بالمزيد من طقوس التشييع، لا تدعهم يضمرون إحتراماً كبيراً لحقيقة بسيطة جداً كالموت ـ لكن من دون تلك الحقيقة البسيطة، لن يكون هناك لا فن العمارة ولا الرسم، لا النحت ولا الموسيقى، لا الشعر ولا أي فن آخر.»

«هاجر الى القوات المسلحة»، غمغم هانز كاستورب بنحوٍ حالم.

«ملاحظتك مبهمة»، رد عليه سيتيمبريني، «هذا لن يمنعها من أن تكون في الوقت نفسه سخيفة. تجربة الموت إما يجب أن تكون التجربة الأخيرة للحياة، أو بطريقة أخرى يلزمها أن تكون بُعبعاً، خالصاً وبسيطاً.»

«هل ستكون هناك رموز فاحشة مستخدمة في [ردهة الحياة]، كتلك المستخدمة في التوابيت الحجرية الموغلة في القِدم؟» سأل هانز كاستورب بسيماء جادة.

«بكل الإعتبارات»، قاطعه نافته، «ستكون هناك تغذية غنية جيدة للحواس. بالزيوت وبالرخامات، الذائقة الإنسانية سوف تحتفل ببهاءات الحواس ـ بهاءات البدن الأثيم الذي صان لحمه من التعفن. ما من شيء مدهش في هذا ـ انه من نفس الحساسية الشديدة نحو مسألة العقوبة الجسدية.»

وهكذا تقدموا الى موضوع التعذيب ـ الذي أدخله فيسال، الذي كان، كما ظهر، قد راق له بنحوٍ خاص. «السؤال»، الآن ـ ماذا كانت وجهات نظر النبلاء عنه؟ هو، فيردناند، حين كان «على الطريق»، ود أن يزور تلك الملتجآت الهادئة في مراكز الثقافة القديمة، حيث ان بحثاً كهذا في وعي

الإنسان جرت العادة أن يتم إجراؤه. كان قد رأى ردهات التعذيب في نورمبرغ وريجينزبورغ، كان قد أنجز دراسة عنهما، وكان قد نوِّر. كانوا بصورة مؤكدة قد إبتكروا عدداً من السُبل الساذجة في المعاملة القاسية للبدن من أجل فائدة الروح. لم تكن هناك أي صيحة عالية ـ كانوا قد حشروا كمثرى الخنق الشهيرة، هي نفسها كانت لقمة لذيذة جداً، في فم الضحية، وبعدها ساد الصمت.

«قذارة!» تمتم سيتيمبريني.

أعلن فيرجه إحترامه لـ كمثرى الخنق، وللفعالية الصامتة كلها. إنما أي شيء أسوأ من تثبيت غشاء جنبه في موضعه كان متيقناً من انه لم يكن مبتكراً، ولا حتى في تلكم الأزمان.

كان ذلك في مصلحته!

الروح العنيدة، العدالة المُذنبة، كلاهما سوَّغ نقصاً مؤقتاً في الرأفة. لكن في الواقع، كان التعذيب إكتشافاً من إكتشافات العقل البشري.

إفترض سيتيمبريني ان المتحدث لم يكن في كامل وعيه.

أوه، نعم، كانت الحواس قد فرضت سيطرتها كاملة عليه. انه السيد سيتيمبريني، محب الجمال الضليع، الذي لم يكن أغلب الظن مطلعاً إطلاعاً تاماً على تاريخ تطور قوانين القرون الوسطى. كانت هناك، الواقع، عملية (عقلنة) مستمرة، في أثنائها إتخذ العقل مكان (الله)، الذي كان قد دُفع خارج مقاطعة العدالة. بكلمات أخرى، الإختبار بوساطة المعركة إنحدر الى الإهمال، لأنه لوحظ ان الرجل الأقوى هو الذي تغلب حتى عندما يكون على خطأ. القوم الذين من نوع السيد سيتيمبريني، الشكاكون والإنتقاديون، هم الذين أدلوا بهذه الملاحظة وأحضروا (محكمة التفتيش)، التي أبطلت الإجراء الساذج القديم. العدالة لم تعد تعتمد على تدخل (الله) في صالح الحقيقة، بل هدفت الى إستخراجها من التهم بوساطة الإعتراف. ما من عقاب من دون إعتراف ـ يمكنك أن تسمع ذلك الآن بين الناس، ذلك ان الغريزة تقيم عميقاً معهم؛ سلسلة الشهادة ربما تكون قوية مثلما تشاء، ولكن إذا لم يكن ثمة إعتراف، يبقى هناك إحساس مختبئ ان العقوبة كانت غير

شرعية. لكن كيف نبلغ الإعتراف؟ كيف نتدبر الحقيقة، من بين كتلة مؤلفة من ظرف وشك؟ كيف ننعم النظر في قلب، عقل، رجلٍ أنكر وأخفى الحقيقة؟ إذا كانت الروح متمردة، هناك يبقى الجسم، الذي ربما يمكن بلوغه. التعذيب يُنصح به للعقل، كوسيلة لغاية، غاية تقديم إعتراف لا غنى عنه. لكن السيد سيتيمبريني هو الذي طالب بالإعتراف وأدخله، وكان هو، على وفق ذلك، مسؤولاً عن التعذيب.

الإنساني توسل الآخرين أن لا يصدقوا كلمةً واحدةً من هذا كله. كان السيد نافته غارقاً في ضحكة شيطانية. إذا كان الوضع مثلما قال هو فعلاً، إذا كان الشيء المروّع هو حقاً إكتشاف العقل البشري، فذلك يُظهر فقط كم هو موجع أن يكون بحاجة دائمة الى المؤازرة والتنوير، وكم هي صغيرة الأرض التي يملكها عابدو الغريزة بسبب خوفهم من ان الأشياء يمكن توجيهها الى الأبد بوساطة العقل على هذه الأرض! إلا ان المتكلم كان مخطئاً بطبيعة الحال. ان المقت الشرعي الذي كانوا يناقشونه لم يكن بالمستطاع أن يوضع عند باب العقل البشري، لأنه يرجع الى إيمان أصلي بالجحيم. المخلعة[١٢١]، الكماشة، البراغي والملقط التي شاهدتها في ردهات التعذيب والإستشهاد هذه مثلت مجهود خيال طفولي ومضلِل لمحاكاة ما أُعتقد بورع انها معاناة الملعون أبدياً. غير أن هذا لم يكن كل شيء. كانوا يفكرون في مساعدة الشرير، هم الذين افترضوا ان روحه كانت تكافح من أجل الإعتراف، بينما جسده، المبدأ الشرير، يضع نفسه ضد رغبة الروح: كانوا يفكرون بأن يقدموا له خدمة المحبة، بأن يرهقوا جسده بالتعذيب. كان ذلك جنون الزهد ـ»

«لكن ماذا بشأن الرومان القدامى ـ هل كانوا يضمرون الوهم نفسه؟»

«الرومان؟ لكن ماذا!»

«لكنهم إستخدموا التعذيب كأداة شرعية.»

مأزق منطقي. هانز كاستورب حاول أن يساهم ـ كما لو كانت مهنته أن

---

(١٢١) المخلعة rack: أداة تعذيب قديمة يُمط عليها الجسم ـ المترجم.

يقود حواراً كهذا! طوعاً، دفع بقوة الى ميدان الصراع مسألة العقاب المطلق. التعذيب، قال، كان مخففاً ـ مع ان الحكام المستجوبين ما يزالون يملكون سبلاً يجعلون فيها الشخص المتهم مرناً. غير أن عقاب الموت إستمر، يبدو ان التخلي عنه مستحيل. تم تطبيقه من قبل أكثر الأمم تحضراً. النظام الفرنسي في ترحيل الأجانب غير المرغوب فيهم أُستخدم بطريقةٍ سيئة جداً. ليس ثمة شيء ملائم يمكن إستخدامه مع أنصاف بشر معينين سوى أن نجعلهم أقصر بطول رأس!

لم يكونوا «أنصاف بشر معينين»، صحح سيتيمبريني قوله. كانوا رجالاً، مثل المهندس، مثله هو نفسه، سيتيمبريني ـ هم فقط ضحايا ضعيفو الإرادة لنظام إجتماعي ناقص. ذكر حالة مجرم مخذول، النوع الذي يُشار إليه دوماً بوساطة النواب العامين كونه «حيواناً بهيئة إنسان»، والذي غطى جدران زنزانته بالشِعر، وهو على أية حال ليس بالشِعر السيء على الإطلاق، بل هو أفضل بكثير من معظم الأشعار التي إستطاع النواب العامون أن يكتبوها.

ذلك ألقى ضوءً فريداً بعض الشيء على فن كتابة الشعر، رد نافته رداً سريعاً، لكنه لم يكن بطريقة أخرى يستأهل الجواب.

قال هانز كاستورب انه لم يندهش لدى سماعه ان نافته يستحسن عقاب الموت. في اعتقاده، ان نافته كان ثورياً شأنه شأن سيتيمبريني، فقط باتجاه محافظ ـ ثورياً رجعياً.

السيد سيتيمبريني، ببسمةٍ دالة على الثقة، أكد لهم ان العالم، بعد أن مرَّ خلال حقبة زمنية من الرجعية اللا إنسانية، يعود دوماً الى النظام الطبيعي للأشياء. غير ان السيد نافته كان يؤثر أن يكذب الفن قبل أن يعترف بأنه ربما يكون له تأثير مُلطِف على بائس مغمور. لم تكن به حاجة الى أن يتوقع، بوساطة كلام متعصب جداً كهذا، أن يحقق تقدماً كبيراً مع شاب باحث عن الحقيقة. هو، سيتيمبريني، كان له الشرف أن ينتمي الى عصبةٍ مشكّلة حديثاً، هدفها تخفيف العقوبة القصوى في البلدان المتحضرة كلها. لم يستقر الأمر حتى الآن أين سيتم عقد المؤتمر الأول؛ لكن ثمة شيء مؤكد، وهو ان أولئك الذين إنكبوا عليه كانت في متناولهم حجج كثيرة. قدم هو بعضها تواً:

الإحتمال القائم أبداً ان العدالة ربما تخطئ وأن القتل الشرعي يُرتكب؛ أمل الإصلاح الذي لم يكن بالمستطاع تجاهله؛ وصية الكتاب المقدس «الإنتقام لي». بعدها أشار الى النظرية التي مفادها ان الدولة، بوظيفتها ليس كمستخدِمة للقوة، بل كأداة للإصلاح البشري ربما لا ترد الشر بالشر؛ هاجم هو مفهوم الشعور بالذنب، على أساس الحتمية العلمية؛ وأخيراً أنكر نظرية العقاب برمتها.

على رأسها توجب على «الشاب الباحث عن الحقيقة» أن يقف على مقربة بينما نافته لوى ببراعة عنق كل هذه البراهين، الواحد تلو الآخر. سخر من كره الإنساني لإراقة الدم، وتبجيله للحياة الإنسانية. قال ان الأخيرة صفة مميزة لعصرنا البورجوازي جداً، لسياستنا الخاصة برجل متخنث. مع ذلك، كان تنافرها جلياً. كي ندع فكرةً ما تنبثق بحيث تتخطى إعتبارات السلامة الشخصية والسعادة ـ وان هذه الأفكار وحدها التي تستحق البشر، وهكذا بمعنىً أعلى كانت الحقل الطبيعي للنشاط الإنساني ـ وأن الفرد، حتى في ظل التوتر العاطفي العادي، يُضحى به من دون تردد من أجل حق المطالبة الأسمى. كلا، الأكثر من ذلك: الفرد، بإرادته الشخصية الحرة، يُعرِّض نفسه من دون إهتمام. ان إحسان خصمه المشرف سوف يمحو من الحياة كل صفاتها القاسية والمهلكة؛ يخصي الحياة، كما تفعل حتمية ما يسمى علمها. غير ان الحتمية لن تفلح في إلغاء مفهوم الشعور بالذنب. انها قادرة فقط على أن تزيد في سلطتها ورهبتها.

أوه، لذا طالب الضحية الشقية لسوء التوافق الإجتماعي أن يكون قانعاً بإثمه الخاص، ويمشي بقناعة تامة الدرب المفضي الى المشنقة؟

«تماماً. الشرير مملوء بشعوره بالذنب كما هو مملوء بنفسه. فهو كما هو عليه، ولن يقدر ولن يكون غير ذلك ـ وفي هذا يكمن شعوره بالذنب.»

نافته غيّر خلفية النقاش من التجريبية الى الميتافيزيقية. مضى يقول انه في السلوك، في النشاط، الحتمية هي التي سادت حقاً؛ ليس ثمة حرية إختيار. لكن في الصيرورة، يكون الإنسان كما يرغب بأن يكون عليه، وكما، حتى نفَسه الأخير، لم ينقطع عن أن يكون عليه. كان قد وجد متعةً بالغةً في

القتل، ولن يبالي البتة أن يكون هو قتيلاً. دعه يمت، إذاً، لأنه أشبع أعمق رغبات قلبه.

«أعمق الرغبات؟»
«أعمق الرغبات.»

جميعهم صروا على أسنانهم. هانز كاستورب أطلق سعالاً قليلاً، فيسال جعل فكه في وضع منحرف. السيد فيرجه أخرج تنهيدة. قال سيتيمبريني بصورة لاذعة: «ثمة نوع من التعميم له هيئة شخصية بصورة جلية. هل سبق ان واتتك رغبة بأن ترتكب جريمة قتل؟»

«هذا شيء لا يعنيك. إنما إذا كانت لي فيلزمني أن أضحك بوجه أي حب جاهل للخير حاول أن يغذيني على الـ Skilly الى أن أموت ميتةً طبيعيةً. انه شيء سخيف بالنسبة للقاتل أن يعيش بعد رحيل القتيل. الإثنان، معاً فقط، كصيرورتين كلاهما في علاقة إنسانية واحدة يتقاسمان، مثلهما، الأول يعمل، الثاني يعاني منه، سراً يربطهما معاً الى الأبد. انهما ينتميان الى أحدهما الآخر.»

قال سيتيمبريني بعاطفة فاترة عاطفة انه يفتقد الى الذكاء الضروري لفهم زهد الموت والقتل هذا ـ وهو حقيقة لا يتحسر على فقدانه. ما من إساءة مقصودة؛ موهبة السيد نافته الدينية لا ريب تفوقت كثيراً على موهبته هو، لكنه إحتج قائلاً انه لم يكن حسوداً. طبيعته الخاصة كان لها توق شديد لا يُقهر للهواء النقي؛ انها تجعله بعيداً نسبياً عن محيط يُضمر فيه الإجلال ـ وليس حصراً الإجلال غير الدال على التفكير للشباب ـ للمعاناة، وذلك بالمعنى الروحي فضلاً عن المعنى الجسدي. في ذلك المحيط، كان جلياً، الفضيلة، العقل، والتمتع بالصحة كلها لا تساوي شيئاً، الرذيلة والمرض يُعاملان باحترام بصورة مدهشة.

نافته اتفق معه في الرأي. قال ان كون المرء مستقيم الأخلاق ومعافى لا يعني، الواقع، كونه متديناً على الإطلاق. انه ينقي الجو بحيث يقال بنحو جلي ان الدين لا علاقة له البتة بالعقل والفضيلة.

«لأنه»، أضاف، «لا صلة له بالحياة. الحياة مستندة الى ظروف ومشيدة على أساسات هي جزئياً نتيجة التجربة، وجزئياً تنتمي الى حقل الأخلاق. نسمي النوع الأول الزمان، المكان، والسببية، الثاني، الفضيلة والعقل. غير ان هذه قاطبة ليست فقط دخيلة على، لا مبالية على الإطلاق بـ طبيعة الدين، بل هي حتى عدائية نحوها. لأنها على وجه الدقة هي التي تصنع الحياة ـ ما تسمى بـ الحياة الطبيعية، والتي يمكننا أن نطلق عليها تسمية المادية الخبيثة، أو البورجوازية المتطرفة، النقيض المطلق لها، نقيضها الموهوب جداً، هو حياة الدين.»

تابع نافته يقول انه لن ينكر على الميدان الآخر إمكانية الموهبة. ثمة الكثير مما يعجب به في المحترمية التذكارية، المادية المهيبة لوعي الطبقة الوسطى. إلا انه ينبغي للمرء أن لا ينسى انها حين تقف، مباعدة بين ساقيها، منغرسة بثبات فوق الأرض، اليدان خلف الظهر، الصدر بارز الى الأمام، فهي تجسيد للزندقة.

هانز كاستورب، كتلميذ مدرسة، رفع يده. كان يود، قال، أن لا يغيظ أياً من الجانبين. لكن بما انهم كانوا يتكلمون عن التقدم، ومن هنا، الى حدٍ ما أيضاً، عن علم السياسة، وجمهورية الفصاحة وحضارة الغرب المثقفة، لعله يقول انه بدا له الإختلاف ـ أو، إذا أصر السيد نافته، التناقض ـ بين الحياة والدين يعود الى ذلك القائم بين الزمن والخلود. في الزمن فقط يوجد تقدم؛ في الخلود لا يوجد تقدم البتة، ولا يوجد فيه أي علم سياسة أو فصاحة. هناك، إذا صح القول، يضع المرء عقله في (الله)، ويغمض عينيه. وهذا هو الإختلاف بين الدين والفضيلة ـ كان يعي انه صاغها بصورة سيئة جداً.

طريقة صياغته، قال سيتيمبريني، كانت ساذجةً، بغيضةً أقل من خوفه من الخضوع لإهانة، ومن ميله للتراجع في وجه الشيطان. أوه، بقدر تعلق الأمر بالشيطان، كلاهما تكلم عنه سابقاً، أليس كذلك؟ «أيها الشيطان، أيها التمرد.» لكن أي شيطان هذا الذي يتراجع هو في مواجهته الآن؟ هل هو شيطان كاردوتشي ـ التمرد، الحيوية، الروح الإنتقادية ـ أم هو الشيطان

الآخر؟ انه شيء خطير جداً أن يكون الشيطان الى يمينك والى شمالك، هكذا؛ كيف بإسم الشيطان يمكننا أن نتخلص من هذا الوضع؟

ذلك، قال نافته، ليس وصفاً مناسباً لحال الأمور كما نظر إليها السيد سيتيمبريني. ذلك ان الميزة البارزة للكون خاصته هو انه جعل (الله) و(الشيطان) شخصين أو مبدأين واضحي المعالم، وجعل «الحياة» موضوع النزاع بينهما ـ وكانت هذه، بالمناسبة، هي الطريقة التي تصورتها بهما العصور الوسطى. لكن في الواقع (الله) و(الشيطان) متحدان في كونهما معارضين للحياة، للبورجوازية، العقل والفضيلة، بما انهما معاً مثّلا المبدأ الديني.

«يا له من خليط مثير للإشمئزاز cha guzzabulgio proprio stomachevole! الخير والشر، التطهر من الخطيئة والسلوك الإجرامي، كلها ممزوجة معاً! من دون حكم! من دون إدارة! من دون إحتمال أن يتم إنكار ما كان خسيساً! هل عرف السيد نافته ما الذي أنكره وتنصل منه بوجود الشاب، حين زج الله والشيطان معاً وبإسم هذين الإثنين الغاضبين في وحدتهما رفض أن يعترف بوجود مبدأ أخلاقي؟ أنكر هو كل معايير القيم، أنكر الطيبة! فظيع! ـ جيد جداً، إذاً لا يوجد خير ولا شر، لا شيء غير كل مشوش أخلاقياً! ولا يوجد حتى الفرد الذي تستحوذ عليه قدرة إنتقادية ـ هناك الكوميولونالية(١٢٢) الكونية التي تستهلك كل شيء، التي تسوّي بالأرض كل شيء، والإنغماس الزهدي فيها!

كان شيئاً مبهجاً، أن يظن السيد سيتيمبريني نفسه فردانياً! فلكي تكون كذلك! ينبغي للمرء في الأقل أن يميز الفرق بين الفضيلة والتنعم بالسعادة الروحية، الأمر الذي لم يفعله بصورة مؤكدة جداً مضيؤنا الجدير بالإحترام وصاحبنا المؤمن بالأحدية! ان مجتمعاً تُفهم فيه الحياة بحماقة كونها هدفاً بحد ذاتها، من دون أسئلة تُطرح حول مغزاها وهدفها الخفيين، تحكمه أخلاق قبلية وإجتماعية، الواقع، فضيلة فقارية، إذا شئت، لكن بالتأكيد لا

(١٢٢) الكوميولونالية communalty: نظرية تقول ان الدولة كناية عن إتحاد كوميونات. الكوميون هو أصغر وحدات التقسيم الإداري في فرنسا وإيطاليا وسويسرا ـ المترجم.

تحكمه الفردانية. ذلك ان الفردانية تنتمي على إنفراد وكلية، الى دنيا الديني والزهدي، الى ما يسمى «الكل المشوش أخلاقياً». وفضيلة السيد سيتيمبريني هذه، ماذا كانت، ماذا تبغي؟ كانت مكبلة بالحياة، وهكذا فهي منفعية تماماً؛ كانت غير نبيلة بصورة مثيرة للشفقة. غايتها وهدفها أن تجعل الناس يصبحون مسنين وسعداء، أثرياء ومرتاحين ـ وهذا هو كل ما يتعلق بها. وهذه الفلسفة المادية، هذه الحقيقة الخاصة بالعمل والعقل، أفادت السيد سيتيمبريني كونها نظاماً أخلاقياً. بقدر تعلق الأمر به هو، نافته، يستمر في ان يتبرأ من الحقيقة القائلة انها لا شيء سوى فلسفة بورجوازية مطلقة ودنيئة جداً.

أمره سيتيمبريني أن يتحلى بالهدوء ـ صوته إرتعش بانفعال. وجد كلام السيد نافته عن «البورجوازية» ببساطة لا يطاق ـ الله أعلم لماذا توجب عليه أن يتصنع تلك السيماء المزدرية، الارستقراطية! كما لو ان نقيض الحياة ـ وكلنا يعرف ما هو ـ يميل الى أن يكون مصقولاً أكثر من الحياة نفسها!

صرخات جديدة، شعارات(١٢٣) جديدة! الآن الشعار هو «المبدأ الارستقراطي». هانز كاستورب، مخضباً تماماً بالإحمرار ومُستنزفاً لأنه أرهق قدراته العقلية في البرد، متزعزعاً في ما يتعلق بقدرته على التعبير الواضح، حاراً وبارداً في وقاحته الخاصة، سمع نفسه يقول بصورة غير واضحة، انه مذ كان طفلاً صوّرَ الموت لنفسه كونه يرتدي طوق رقبة مكشكش منشى، أو في الأقل نوعاً من نصف بزة نظامية، ذا ياقة منتصبة، بينما الحياة، في الناحية الثانية، لبست ياقة إعتيادية. كلماته بدت، حتى لنفسه، مثل أشياء غير لائقة مخمورة؛ أسرع ليؤكد للمجموعة ان ذلك لم يكن على الإطلاق ما قصده في كلامه. ومع ذلك ـ أليست هي حقيقة ان المرء لا يستطيع أن يتخيل أُناساً معينين أمواتاً، ببساطة لأنهم كانوا جد إعتياديين؟ هذا يعني انهم كانوا جد ملائمين للحياة، إلا انهم لا يستطيعون أن يموتوا، لأنهم غير ملائمين لتكريس الموت.

---

(١٢٣) شعارات catchwords، الشعار: لفظة أو صيغة تكرر حتى تصبح ممثلة لحزب أو مدرسة أو وجهة نظر ـ المترجم.

قال السيد سيتيمبريني انه كان متيقناً من ان هانز كاستورب أطلق هذا الكلام حصراً من أجل أن يكون معارضاً. الشاب يجده أبداً جاهزاً لإسداء يد العون في الصراع الفكري، ضد هجومات كالهجوم الحالي. المهندس إستخدم تعبير «ملائمين للحياة»؛ هل كان يقصد به معنىً إزدرائياً؟ بالنسبة له كان التعبير مرادفاً لـ«جديرين بالحياة»، كلا المفهومين متجانسان تماماً، ويقترحان بوساطة عملية المرافقة الطبيعية تعبيراً جميلاً بالقدر نفسه ألا وهو «جديرين بالمحبة». ربما يقول المرء حقيقةً ان الفرد الذي يكون جديراً بالأولى يكون جديراً تماماً بالأخرى. وكلاهما معاً، الجدير بالمحبة والجدير بالحياة، يصنع النبل الحقيقي.

هانز كاستورب وجد ذلك فاتناً ـ منوِّراً جداً. السيد سيتيمبريني فاز عليه تماماً بنظريته المطواعة. قل ما تشاء ـ وثمة الكثير مما يقال عن فكرة ان المرض يمتاز بشيء وقور ومشرف ـ مع ذلك على أية حال، لا يمكنك أن تنكر ان المرض هو توكيد للجسدي، إنه يرمي الإنسان الى الوراء، إذا جاز التعبير، على الجسد والى ذلك المدى المرض مؤذٍ للنبل الإنساني. ذلك انه جرَّ الإنسان الى الأسفل، الى مستوى جسده. وهكذا ربما يعترض أحدهم قائلاً ان المرض لا إنساني.

على العكس، سارع نافته الى القول. المرض إنساني جداً في الواقع. ذلك انه كي تكون إنساناً عليك أن تكون عليلاً. يكون المرء جوهرياً عليلاً، ان حالته البعيدة كل البُعد عن الصحة هي التي تجعل منه إنساناً. هناك أولئك الذين أرادوا أن يجعلوه «معافى»، يجعلوه «يعود الى الطبيعة»، حيث، الحقيقة هي، انه لم يكن «طبيعياً» من قبل على الإطلاق. كل الدعاية التي يقوم بها اليوم رُسل الطبيعة، تجارب في تجدد الجسد، الطعام غير المطبوخ، معالجات الهواء النقي، الإستحمام بالشمس، وهلم جرا، الممتلكات الروسوية كلها، كان لها هدف لا يتعدى سوى تجريد المرء من صفاته الإنسانية وحيونته. تحدثوا عن «الإنسانية»، عن «النبل» ـ لكن الروح وحدها التي ميزت الإنسان، كمخلوق منفصل كثيراً عن الطبيعة، معارض كثيراً لها في الإحساس، عن كل الأشكال الأخرى للحياة العضوية. في روح الإنسان،

إذاً، يسكن نبله الحقيقي وفضيلته ـ في حالته المرضية، إذا صح التعبير؛ باختصار، كلما كان أكثر مرضاً، بالقدر نفسه يكون إنساناً أكثر. ان سجية المرض إنسانية أكثر من سجية الصحة. كيف إذاً يستطيع إنسان ما يتظاهر بأنه صديق إنسان آخر أن يغمض عينيه عن هذه الحقائق الجوهرية المتعلقة بإنسانية الإنسان؟ السيد سيتيمبريني تتردد كلمة التقدم الى الأبد على شفتيه! هل كان يعي ان التقدم كله، طالما ان هناك شيئاً كهذا، يُعزى الى المرض، والى المرض وحده؟ بكلمات ما، الى السجية، التي هي الشيء نفسه؟ ألم يعش الطبيعي، منذ أن بدأ الزمن، على إنجازات غير الطبيعي؟ البشر بصورة واعية ومن دون إكراه، هبطوا الى المرض والجنون، في بحثهم عن المعرفة التي، إذا ما نالوها بوساطة التعصب، سوف تعيدهم الى الصحة، بعد امتلاكها واستخدامها تكف (أي المعرفة) عن أن تكون مشروطة بوساطة ذلك الفعل النبيل والطبيعي للتضحية. هذا هو الموت الحقيقي على الصليب، هذه هي الكفارة[١٢٤] الحقيقية.

«أها!» فكّر هانز كاستورب. «أنت اليسوعي غير التقليدي، أنت، بتفسيراتك لـ صلب المسيح! انه شيء واضح لماذا لم تصبح كاهناً، أنت اليسوعي الجميل ذو البقعة الصغيرة الرطبة! الآن، إزأر، أيها الأسد!» خاطب هانز كاستورب السيد سيتيمبريني في عقله. والأسد زأر. ميز كل ما قاله كونه مماحكة، سفسطة وتشوشاً.

«قلها!» صاح على خصمه، «قلها بشخصك كمعلم مدرسة، قلها في مسمع شاب طيّع، قلها بلا تردد، ان الروح هي ـ المرض! يقيناً انك هكذا تشجعهم على الإيمان بما هو روحي. المرض والموت كنبل، الحياة والصحة كفظاظة ـ أي عقيدة هذه التي تجعل المبتدئ في الرهبنة يسرع الى خدمة الجنس البشري! Davvero, e criminoso» وكصليبي دخل ميادين النزاع دفاعاً عن نبل الحياة والصحة، عن تلك التي منحتها الطبيعة، من أجل

(١٢٤) الكفارة atonement: المقصود هنا آلام السيد المسيح (ع) وموته (تكفيراً عن خطايا البشر) ـ بحسب العقيدة المسيحية ـ المترجم.

روحها لا يحتاج الإنسان الى الخوف. «الشكل»، قال، وإنضم نافته ثانيةً بصورة طنانة: «اللوجوس»[١٢٥]. لكن الذي لم يكن له شيء من اللوجوس أجاب: «العقل»، ورد الرجل ذو اللوجوس رداً حاسماً قائلاً: «آلام المسيح».

كان تشوشاً مقيتاً بصورة سيئة.

«الموضوع»، صاح أحدهما، الآخر: «الذات!». «الفن» و«النقد» كانا يتبادلان الكلمات جيئةً وذهاباً، بعدها مرة أخرى «الطبيعة» و«الروح»، ومَنْ هي التي كانت أكثر نبلاً، وما يتعلق بـ«المسألة الارستقراطية». إنما لم يكن ثمة نظام ولا وضوح، ولا حتى من النوع الثنائي والمحارب. الأشياء لا تمضي فقط من خلال الأضداد، ولكن أيضاً في حالةٍ يختلط فيها الحابل بالنابل. المجادلان لم يناقض كل منهما الآخر، بل حتى نفسيهما. كم مرة لم يبدد فيها سيتيمبريني خطبته في مدح النقد الأدبي، كونه المبدأ الارستقراطي؟ مع ذلك فهو الآن يتخذ الموقف المعاكس، هو لا يبدد وقته في مدح «الفن». كم مرة لم يؤيد فيها نافته الموهبة، كم مرة أسمى فيها سيتيمبريني الطبيعة قوة عمياء، مجرد «خادمة للقدر»، ينبغي للعقل والزهد البشريين ألا يتنازلا أمامها أبداً! لكن هو ذا نافته أمسى في جانب الروح والمرض، حيث يسكن النبل والإنسانية الحقيقيان وحدهما، بينما زج سيتيمبريني نفسه في الدفاع عن الطبيعة وصحتها النبيلة، بصرف النظر عن تناقضه الذاتي بسبب تحريره منها. «الموضوع» و«الذات» لم يتورطا قليلاً في تشوش ما ـ نعم، وهنا التشوش، الأنكى من ذلك، بقي ثابتاً، كان أكثر الأشياء واقعيةً ورسوخاً؛ بحيث ان أحداً لم يكن يعرف بعد الآن مَنْ هو الورع ومَنْ هو الملحد. نافته بوضوح منع سيتيمبريني من أن يسمي نفسه فردانياً، فطالما أنكر هو التضاد بين الله والطبيعة، رأى في مسألة صراع الإنسان الداخلي ليس أكثر من نزاع بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، وكان منذوراً لعلم الأخلاق المادي والبورجوازي، الذي أصبحت فيه الحياة

---

(١٢٥) اللوجوس The logus: العقل، المبدأ العقلاني في الكون (في الفلسفة اليونانية القديمة) ـ المترجم.

غايةً بحد ذاتها، محددةً بأهداف نفعية، والقانون الأخلاقي أفاد مصلحة (الدولة). هو، نافته، كان يعي جيداً ان صراع الإنسان الداخلي يستند الى التضاد بين المحسوس وما فوق المحسوس؛ انه هو، وليس سيتيمبريني، مَنْ مثّل الفرادنية الحقيقية، الزهدية. هو، وليس سيتيمبريني، مَنْ كان الملحد، الرجل الذي تطلع الى الهداية في داخل نفسه. أجاب هانز كاستورب انه إذا كان ذلك حقيقياً، إذاً ماذا عن «مجهول الإسم والمشاعي» ـ ناهيك عن ذكر أي تناقض آخر؟ وماذا عن تلك التعليقات اللافتة التي أدلى بها لـ الأب أونتر بيرتنجر في موضوع المذهب الكاثوليكي الهيجلي، والصلة بين المذهب الكاثوليكي وعلم السياسة، صنف الهدف الذي شكلاه معاً؟ ألم يكن دوماً فن الحكم والتربية هما العالمان الخاصان بالجمعية التي ينتمي إليها نافته؟ وأية تربية! السيد سيتيمبريني نفسه كان يقيناً معلماً متحمساً، متحمساً الى درجة الملل، لكنه يستطيع ببساطة أن لا يتنافس مع نافته في مسألة الموضوعية الزهدية، المميتة للذات. السلطة المطلقة، الإنضباط الحديدي، الإكراه، الطاعة، الإرهاب! كل ذلك ربما يكون له قيمته الخاصة، لكنه أضمر تقديراً ضئيلاً للفرد ونبل قدرته النقدية. انها أنظمة الجيش الخاصة بـ فريدريك البروسي، الكتاب المنهجي لـ الإسباني لويولا الشامل ثانيةً؛ كان صارماً، كان ورعاً حتى النخاع. إنما بقي سؤال واحد ينبغي طرحه: كيف وصل نافته الى هذه الإستبدادية المتوحشة، هو الذي، من دون إكراه، لم يؤمن على الإطلاق في المعرفة الخالصة أو بالبحث المحرِر، بكلمات أُخرى لم يؤمن بالواقع، بالواقع الموضوعي، العلمي، الكفاح من أجله كان بالنسبة لـ لودوفيكو سيتيمبريني القانون الأسمى للفضيلة. هنا يكمن هدف ورعه الصارم، بينما نافته بـ (إنفلات) جدير بالتوبيخ أرجع الواقع الى الجنس البشري نفسه. أوضح ان ذلك الواقع أفاد الإنسان. أليست البورجوازية المطلقة جداً، المادية النفعية الصرف، التي جعلت الواقع يعتمد على مصلحة الجنس البشري؟ يقيناً لا يمكننا أن نعدها موضوعية صارمة، هناك إلحاد وذاتية تتعلق بها أكثر بكثير مما يسمح به ليو نافته ـ كان فيها، الواقع، الشيء الكثير من علم السياسة كالعبارة التعليمية الخاصة بـ السيد سيتيمبريني:

«الحرية قانون حب الإنسان لآخر من نوعه». ذلك يعني، بنحو جلي، أن نجعل الحرية، كما جعل نافته الواقع، تعتمد على الإنسان، وهكذا تصبح ارثوذكسية أكثر من كونها متسامحة. لكن هنا ثانيةً ثمة إختلافات مالت الى الإختفاء في عملية التعريف.

آه، سيتيمبريني هذا ـ لم يكن إعتباطاً أديباً، ابن سياسي وحفيد شخص إنساني! كانت له آراء رفيعة حول التحرير والنقد الأدبي ـ ويسقسق للفتيات في الشارع. من الناحية الثانية، نافته الصغير الحاد كالسكين كان مقيداً بنذور من النوع الأكثر صرامة؛ مع ذلك في التفكير كان تقريباً فاسقاً، بينما الآخر يحتال على الفضيلة، إذا جاز التعبير. بينما كان السيد سيتيمبريني خائفاً من «الروح المطلقة» Absolute Spiritee وكان يود أن يراها في كل مكان مشدودة بإحكام لـ التقدم الديمقراطي؛ كان ببساطة مستثاراً بالترخيص الديني لخصمه المقاتل، الذي قد يخلط معاً الله والشيطان، التطهر من الخطيئة مع السلوك الشائن، النبوغ مع المرض، والذي لا يعرف معايير ذات قيمة، ولا حكماً عقلانياً، ولا أي تمرين للإرادة. لكن مَنْ هو إذاً الأرثوذكسي، مَنْ هو الملحد؟ أين تكمن المنزلة الحقيقية، الحالة الحقيقية للإنسان؟ هل سيهبط الى الهيولى التي تستهلك كل شيء والتي تساوي كل شيء، تلك الحالة الزهدية ـ الفاسقة؛ أم يتخذ موقفه على «النقدي ـ الذاتي»، حيث الكلام المنمق الفارغ والصرامة البورجوازية للأخلاق ناقضاً أحدهما الآخر؟ آه، المبادئ ووجهات النظر تفعل هذا باستمرار؛ أمسى عسيراً جداً على المسؤولية المدنية لـ هانز كاستورب أن تميز بين الفرضيات المتعارضة، أو حتى تُبقي المقدمتين الكبرى والصغرى[١٢٦] الواحدة منفصلة عن الأخرى وجليتين في عقله، ذلك ان الغواية تصبح تقريباً لا تقاوم بحيث تدخل الرأس أولاً في «الكل المشوش أخلاقياً» لـ نافته. التشوش، الأهداف المضادة، تصبح عامة، وهانز كاستورب توقع ان الخصمين سيكونان مستثارين أقل لو لم يلدغ الجدال أعماق روحيهما.

---

(١٢٦) المقدمتان الكبرى والصغرى premises: هاتان تمثلان المقدمة المنطقية ـ المترجم.

كانوا قد وصلوا في غضون ذلك بيرغهوف. بعدها الثلاثة المقيمون هناك عادوا مع الآخرين الى أن وصلوا بابهم، حيث وقفوا هناك في الثلج برهة أخرى، وسيتيمبريني ونافته واصلا الجدال. كان واضحاً لـ هانز كاستورب أن حماستهما كانت حماسة معلم المدرسة، مالت الى أن تترك إنطباعاً في عقله الطيّع. السيد فيرجه كرر قائلاً ان ذلك كله كان وراء نطاق فهمه، بينما فيسال، ما أن بدأا يتكلمان في موضوعي التعذيب والعقاب الجسدي، حتى أظهر إهتماماً قليلاً. هانز كاستورب وقف محني الرأس يحفر بعصاه جحراً في الثلج، يتأمل الفوضى الواسعة لهذه كلها.

أخيراً توقفوا فجأةً. لم يكن ثمة حدود للموضوع. بيد انهم لم يستطيعوا أن يستمروا الى الأبد. نزلاء مصح بيرغهوف الثلاثة إتخذوا طريقهم صوب مأواهم، والمجادلان توجب عليهما أن يلجا الكوخ معاً، أحدهما يفتش عن صومعته الحريرية، الآخر عن مكانه الضيق المقفل، الإنساني، ذي المنبر ـ المكتب وقنينة الماء. هانز كاستورب لجأ الى شرفته. أذناه مليئتان بالهرج والمرج وصوت إصطدام الأذرع، طالما ان جيش القدس وجيش بابل، تحت العلمين، تقدما في ثياب المعركة، وإلتقى كل منهما الآخر وسط الجلبة والصيحات.

ثلج

يومياً، خمس مرات في اليوم، النزلاء عبّروا عن إستياء إجماعي من ذلك النوع من الشتاء الذي كانوا يعيشونه. شعروا انه لم يكن بالصورة التي كان لهم الحق بأن يتوقعوها من هذه المرتفعات. فقد أخفق في أن ينقل الصفة المميزة الإرصادية الشهيرة في أي شيء بالمقدار الذي أشير إليها من خلال النشرة التمهيدية، التي إستشهد بها المقيمون القدامى، أو التي توقعها الجدد. كان هناك إخفاق كبير جداً في التزود بأشعة الشمس، وهو عنصر مهم جداً في المعالجات المتحققة هنا في الأعالي بحيث انه من دونها ستتعوق بنحوٍ جلي. ومهما فكر السيد سيتيمبريني في صدق رغبة المرضى في الإنتهاء من

علاجهم، والمغادرة الى «الوطن» والعودة الى الأرض المنبسطة، على أية حال كانوا يصرون على حقوقهم العادلة. كانوا يريدون ما كانوا مؤهلين له، ما دفع ثمنه آباؤهم وأزواجهن، ودمدموا بلا إنقطاع، عند المائدة، في المصعد، وفي الردهة. الإدارة أظهرت وعياً في ما كانت مدينةً لهم به من خلال نصب جهاز جديد خاص بالمعالجة بأشعة الشمس. كانوا يملكون سابقاً جهازين، لكنهما لم يكونا يكفيان لتلبية إحتياجات أولئك الذين يريدون أن يغدوا مسفوعين بالشمس بوساطة التيار الكهربائي ـ كان ذلك مناسباً جداً للسيدات، الشابات منهن والمسنات، ويجعل الرجال كلهم، مع انهم كانوا أفقيين مؤكدين، يبدون رياضيين بنحوٍ لا يقاوَم. والسيدات، مع انهن كن يدركن الأصل الميكانيكي ـ التجميلي لسيماء البطل المنتصر هذه، كن حمقاوات بدرجة كافية كي يُجرفن بوساطته. كانت هناك السيدة شونفيلد، مريضة حمراء الشعر، حمراء العينين من برلين. في الصالون كانت تنظر بظمأ الى شابٍ أنيق طويل الساقين، غائر الصدر، وصف نفسه في بطاقة الزيارة خاصته كونه: «طياراً حاصلاً على الدبلوم في البحرية الألمانية». كان قد إستعاد صحته بالإسترواح الصدري وكان يرتدي «السموكنغ» في وجبة منتصف النهار إنما ليس في المساء، قائلاً ان هذه كانت عادتهم في الأسطول. «يا إلهي»، همست السيدة شونفيلد بحضوره، «أي سمرة يملكها هذا العفريت ـ نالها من جهاز المعالجة بأشعة الشمس ـ جعلته يبدو أشبه بصياد النسور!»

«مهلاً، يا أنثى النكس[١٢٧]» همس في أذنها، في المصعد، «سأجعلك تدفعين ثمن النظر إليّ بتلك الطريقة!» جعلها هذا القول تقشعر وترتجف. وعلى طول الشرفات، عبر الحواجز الزجاجية، وجد العفريت صياد النسور طريقه الى أنثى النكس.

غير ان الشمس الاصطناعية كانت أبعد من أن تعوِّض عن النقص الكامل في الشمس الحقيقية. يومان أو ثلاثة أيام بأشعة شمس كاملة في الشهر ـ انها

(١٢٧) النكس nix: روح مائية تتخذ في الأساطير الجرمانية، صورة امرأة حيناً وصورة رجل حيناً أو صورة نصفها رجل ونصفها سمكة ـ المترجم.

غير جيدة بدرجة كافية، مع انها بهية، ذات سماء مخملية عميقة الزرقة وراء ذرى الجبل الأبيض، تألق أشبه بتألق الماسات ووهج حار رائع في الوجه وقفا العنق، حين بزغت لامعةً من العباءة السميكة المتغلبة للسديم الرمادي. يومان أو ثلاثة أيام كهذه في أسابيع عدة لا تستطيع أن تقنع أُناساً نوعهم ربما يقال عنه كونه يبرر الإحتياجات الاستثنائية من العالم الخارجي. كانوا قد عقدوا اتفاقاً داخلياً، من خلال شروطه كانوا قد أذعنوا للمباهج والأحزان المشتركة الملائمة لأناس الأرض المنبسطة، وبالمقابل يتحررون من حياةٍ كانت، للعلم، خاملةً، لكنها من ناحية أخرى حيوية جداً ومسلية، وسعيدة الى درجةٍ تجعل المرء ينسى بكل معنى الكلمة طيران الزمن. وبالتالي لم يكن شيئاً جيداً جداً بالنسبة لـ هوفرات ليخبرهم كم هو مُرضٍ مصح بيرغهوف إذا ما قورن بمنجم سيبيري أو قرية صغيرة مُتخذة مكاناً للعقاب، ولا أن يتغنى بمدائح الهواء، الضعيف جداً والخفيف، النادر تقريباً كالأثير الكوني الخالي، الخالي من المزيج الأرضي جيداً كان أم سيئاً، وحتى من دون أشعة الشمس الحقيقية يُفضل هو على الأبخرة النتنة للسهل. على الرغم من كل ما كان قادراً على قوله، الإستياء الكئيب أحرز تقدماً، تهديدات بالمغادرات غير المرخص بها كانت حالة سائدة، وحتى تم تنفيذها، من دون إعتبار للتحذير الذي قدمه الرجوع المحزن لـ السيدة سالومون الى القطيع، أمست هي الآن «عضواً دائماً مدى الحياة»، حالتها المملة إنما ليست الخطيرة أخذت ذلك الإنعطاف بسبب زيارتها العنيدة لأمستردامها الرطبة والمذروة بالرياح.

لكن إذا لم يكن لهم شمس، كان عندهم ثلج. تلك الكتل الثلجية التي لم يرَ هانز كاستورب مثيلاً لها طوال حياته إلا الآن. الشتاء المنصرم كان قد فعل فعله بكل ما في الكلمة من معنى في ما يتعلق بهذا الشأن، إلا انه كان لا شيء مقارنة بهذا الشتاء. كان هطول الثلج هائلاً ولا حد له، وجعل المرء يدرك الطبيعة المتطرفة، الغريبة للمكان. كان يهطل متقطعاً نهاراً، وطوال الليل كله. الطرق القليلة التي أُبقيت مفتوحة كانت أشبه بالأنفاق، ذات جدران شاهقة من الثلج في كلا الجانبين، سطوح بلورية ومرمرية كان التطلع إليها يُسر النظر، وعليها كان النزلاء يخربشون كل صنوف الرسائل، النكات

والشخصيات. إنما حتى هذا الدرب الكائن بين الجدران كان فوق مستوى الرصيف، وكان مصنوعاً من ثلج مرصوص بقوة، كما يستطيع المرء أن يكتشف عبر مواقع معينة تراجع فيها الثلج، وجعل المرء يغوص بغتةً حتى الركبتين. وربما تُكسر ساق المرء، إذا لم يكن حذراً. المصاطب إختفت، عدا الظهر المرتفع لمصطبةٍ بازغة هنا وهناك. في المدينة، كان مستوى الشارع مرتفعاً جداً بحيث ان الحوانيت أضحت أقبية، يهبط إليها المرء من خلال درجاتٍ مُفصلة داخل الثلج.

وفوق كل هذه الكتل المضطجعة هطل المزيد من الثلج، بصورة متقطعة خلال النهار. هطل بصمتٍ، عبر هواء كان معتدل البرودة، ربما عشر الى خمس عشرة درجة من الصقيع. المرء لا يحس بالبرد، لعله كان أقل من ذلك بكثير، ذلك ان الجفاف وغياب الريح جرّده من اللسع. كانت الصباحات معتمة جداً، الفطور يتم تناوله على ضوء القمر الإصطناعي المتدلي من السقف المعقود لحجرة الطعام، فوق الحافة المرسومة بابتهاج. في الخارج كانت الفجوة المدخِنة، كان العالم مغلفاً بالقطن الطبي الرمادي - الأبيض، مرصوصاً الى زجاج النوافذ بالثلج والسديم. لا مَعلَم للجبال؛ أما الأشجار دائمة الخضرة الأقرب إليهم فثمة لمحة منها تظهر عبر الضباب بين الحين والحين، تقف محملةً، ومن وقتٍ الى آخر يهتز غصن رئيس من أغصانها متحرراً من عبئه الثقيل، ذلك العبء يطير في الهواء، ويرسل سحابةً من البياض بإزاء اللون الرمادي. في الساعة العاشرة الشمس، حزمةٌ من الضوء الباهت، تأتي من وراء جبلها، وتهب المشهد الذي يتعذر تمييزه تلميحاً مبهماً للحياة، فكرةً غامضةً شاحبةً للواقع؛ على أية حال مع ذلك، إستبقت هي على شبحيتها الرقيقة، على إفتقارها لأي خط محدد كي تستطيع العين أن تتعقبه. كانت الخطوط المحيطية للقمم قد ذابت، إختفت، تبددت في السديم، بينما الرؤية، التي أُغريت في أن تسلك السبيل من منحدر ثلجي وامض بصورة شاحبة الى آخر، أضاعت نفسها في الفراغ. بعدها سحابة وحيدة، أشبه بالدخان، مضاءة بالشمس، ربما تتمدد أمام جدار من الصخر وتتدلى هناك طويلاً، بلا حراك.

عند منتصف النهار تبزغ الشمس الى النصف، وتُبدي علامات التخلص من السديم. عبثاً ـ مع ذلك مزقة طولية من الزرقة تكون ظاهرة للعيان، وتكفي لتجعل المشهد، بخطوطه المحيطية المشوهة بصورة غريبة، يتلألأ بعيداً وواسعاً بصورة مُذهلة. عادةً، عند هذه الساعة، يتوقف هطول الثلج، كما لو انه يريد أن يلقي نظرةً على ما فعله؛ ثمة تأثير مشابه تحققه الأيام النادرة حين تتوقف العاصفة، والقدرة اللا منقطعة للشمس تسعى الى إذابة السطح النقي والمحبب الى القلب من الكتل التي هطلت منذ عهد قريب. يكون المشهد حالاً فائق الجمال وهزلياً، خيالاً جامحاً طفولياً. الوسائد السميكة الخفيفة تسمن فوق الأغصان الرئيسة للأشجار، حِدب وأكوام قَصّة الصخر المكسوة بالثلج أو الفروة التحتية، القناع المضحك، الصغير جداً، والمنحني الذي إرتدته الأشياء الإعتيادية كلها، جعل من المشهد منظراً طبيعياً في أرض الأقزام الخرافيين، صورة لحكايةٍ من حكايات الجان. هكذا كان المنظر المباشر ـ شيء مرهق أن تتحرك فيه، محفزاً بصورةٍ غريبة وخبيثة للخيال. لكن حين ينظر المرء عبر الفضاء المتخلِل، الى مجموعة التماثيل الرخامية الشاهقة لجبال الألب العالية وهي مكسوة تماماً بالثلج، تستحوذ على المرء عاطفة مختلفة تماماً، وهذه هي رهبة سموها المهيب.

عصراً، بين الثالثة والرابعة، يستلقي هانز كاستورب في صندوق شرفته، مغلّفاً تغليفاً جيداً، رأسه على وسادة (ليست عالية جداً أو واطئة جداً) كرسيه الممتاز، يرنو ببصره الى الغابة والجبل فوق درابزونه ذي التنجيد السميك. أشجار التنوب المثقلة بالثلج، لونها بين الخضرة الغامقة الى السواد، راحت تتاخم جوانب الوادي، وتحتها إستلقى الثلج ليناً كالوسائد التحتية. فوق خط الشجر، كانت جدران الجبل قد رفعت نفسها عالياً في الهواء الرمادي ـ الأبيض: أجسام هائلة من الثلج، ذوات قمم محجبة برفق، وهنا وهناك ثمة نتوء أسود من الصخر. الثلج يهطل بصمت الى الأسفل. المشهد يغدو ضبابياً شيئاً فشيئاً، انه يميل العين، فتنظر هكذا الى الفراغ الغائم، كي ترجع. في لحظة الإنسلال ربما يجفل المرء ـ مع ذلك أي نوم أنقى من هذا النوم في الجو المنجمد؟ كان نوماً بلا أحلام. كان نوماً متحرراً من العبء، حتى

العبء غير الواعي ـ الخاص بالحياة العضوية ويكون أيضاً واعياً قليلاً بمجهوده في إستنشاق هذا الهواء عديم المحتوى، عديم الوزن، غير المحسوس كالنوم عديم النَفَس للإنسان الميت. حين تحرك هانز كاستورب حركةً ضئيلةً ثانيةً، إختفت الجبال كلها في غيمة ثلج؛ فقط قبة مستدقة، صخرة ناتئة، ربما تظهر لحظةً، كي تكون سابحةً في عالم آخر في اللحظة التالية. كان شيئاً ممتعاً جداً أن تشاهد هذه المَزحات الشبحية؛ ينبغي للمرء أن يبقى يقظاً كي يتابع التحولات، التحجب وكشف الحجاب. في لحظة ما حيز كبير من الصخر المغطى بالثلج يُظهر نفسه، يبرز جريئاً وحراً، مع انه يكون ذا قاعدة أو قمة لا يُرى منها شيء. لكن إذا انقطع المرء عن تركيز بصره عليه، فسوف يتلاشى، في نَفَس.

بعدها كانت هناك عواصف عنيفة جداً بحيث تمنع المرء من الجلوس في الشرفة لأن الثلج المُساق الذي يأتي مصادفةً، بكمية معينة بحيث يغطي الأرض والكرسي بحجاب سميك. أجل، حتى في هذا الوادي المستور كانت العاصفة تعرف كيف تهب. الهواء الضعيف يكون في هرج ومرج، يكون مدوِّماً جداً مليئاً بالثلج بحيث ان المرء لا يستطيع أن يرى على مبعدة عرض يد أمام وجهه. عصفات ريح قوية بدرجة كافية بحيث تأخذ نَفَس المرء تدفع الثلج بقوة هنا وهناك، تسحبه الى الأعلى بهيئة زوبعة من قاع الوادي الى الهواء العالي، تنقله برشاقة هنا وهناك في أكثر الرقصات جنوناً؛ لم تعد عاصفةً ثلجيةً، كانت هيولى تعمي الأبصار، عتمةً بيضاء، تقصيراً هائلاً من قبل هذه المنطقة الجامحة والعنيفة؛ ما مِن كائن حي عدا عصافير (دُرسات) الثلج التي ظهرت بغتةً أسراباً ـ يمكنه أن يزدهر هنا. ومع ذلك أحب هانز كاستورب هذا العالم الثلجي. وجده شبيهاً بالحياة عند ساحل البحر. كانت رتابة المشهد عميقة جداً في كلتا الحالتين. الثلج، عميقاً جداً، خفيفاً جداً، وجافاً ونظيفاً جداً كان الرمل هناك في الأسفل. كل منهما نظيف كالآخر: يمكنك أن تهز الثلج من جزمتيك وثيابك، كما تستطيع أن تفعل ذلك مع التراب الناعم، الحجر عديم الغبار والأصداف، نتاج عمق البحر ـ من دون أن تترك أثراً على الإطلاق. والمشي في الثلج كان مرهِقاً شأنه شأن السير

على كثبان الرمل؛ ما لم يأتِ أديم الأرض عليه، بوساطة الذوبان والإنجماد، حين يغدو المشي سهلاً ومُرضياً كالمسيرة على طول الشريط الرملي الناعم، الصلب، الرطب، اللين القريب من حافة البحر.

غير ان العواصف وأكداس الثلج التي جرفتها هذه السنة لم تمنح المشاة إلا فرصةً ضئيلةً. كانت مؤاتيةً فقط للتزحلق. مجراف الثلج، باذلاً كل ما بوسعه، نادراً ما أبقى الشارع الرئيس في القرية والدروب التي لا غنى عنها خاليةً. وهكذا المديات القصيرة الملائمة كانت مزدحمةً دوماً بمشاة آخرين، مرضى وأصحاء: أبناء البلد، النزلاء الدائمون، وسكان الفندق، وهؤلاء بدورهم يتخبطون بوساطة المزلجات بينما هي تتمايل وتنحرف نازلةً المنحدرات، يوجهها رجالٌ ونساءٌ يستندون كثيراً للوراء حين يقبلون، ويصيحون بإلحاح وقد إستبد بهم الشعور بأهمية مهنتهم. ما إن يصلوا القاع حتى يرتدّون ويدحرجون مزلجاتهم شديدة الصغر صاعدين المرتقى من جديد.

كان هانز كاستورب مشمئزاً تماماً من المسيرات الراجلة كلها. كانت له رغبتان: إحداهما، الأقوى، هي أن يختلي بأفكاره ومشاريعه الخاصة بالتقييم، وهذه الرغبة كفلتها له شرفته. إلا ان الأخرى، متحالفةً معها، كانت رغبة مُلحة حيوية في أن يكون في تماسٍ حميم وأكثر حرية مع الجبال، الجبال في توحّدها الثلجي؛ التي كان منجذباً إليها بنحو لا يقاوم. مع ذلك كيف يقدر هو، غير المحتاط على الإطلاق ومقيد القدم، أن يأمل أن يُشبع رغبةً كهذه؟ يتوجب عليه أن يخطو وراء نهاية الدروب المجروفة ـ نهاية يتم الوصول إليها حالاً عند أي منها ـ كي يغطس هو الى مستوى الصدر في المحيط الثلجي.

هكذا قرر هانز كاستورب، في يومٍ ما من شتائه الثاني مع أولئك المقيمين هنا في الأعالي، أن يشتري لنفسه زحلوقتين ويتعلم المشي بهما، وهما تكفيان، هكذا، لتلبية أغراضه. لم يكن رياضياً، ولم يكن ميالاً جسدياً للرياضة؛ ولم يتصرف كما لو كان كذلك، كما فعل كثير من نزلاء المصح، مرتدين الملابس الرياضية كي يتلاءموا مع موضة المكان وروحه. هرمينه

كليفيلد، في سبيل المثال، من بين إناث أُخريات، مع انها كانت زرقاء الوجه باستمرار بسبب نقص النَفَس، أحبت أن تظهر في وجبة الغداء بسروال من (التويد) قصير واسع مرموم عند الركبة، وأن تتراخى بعد وجبة الطعام في كرسي ـ سلة في الردهة، ممددةً ساقيها. هانز كاستورب عرف انه سيقابل بالرفض إذا ما طلب من هوفرات أن يؤيد خطته. كانت الأنشطة الرياضية محظورة بصورة غير مشروطة في مصح بيرغهوف كما هي عليه في كل المؤسسات الأخر التي من نوعها. هذا الهواء، الذي يبدو ان المرء يستنشقه بصورة عفوية، كان مصدر توتر على القلب، أما ما يتعلق بـ هانز كاستورب شخصياً، فتعليقه النابض بالحيوية حول حالته الخاصة، حيث «التأقلم مع الكينونة هنا في الأعالي يتكون من التأقلم مع عدم التأقلم» ما زال ساريَ المفعول. حمّاه، التي عزاها رادامانثوس الى بقعةٍ رطبة، ظلت عنيدةً. لماذا كان هنا لولاها؟ رغبته، تصميمه الحالي كانا إذاً متناقضين مع نفسيهما وغير مقبولين بصورة جلية. مع ذلك ينبغي لنا أن نبذل مجهوداً عظيماً كي نفهمه بصورة صحيحة. لم تكن به رغبة تقليد أصحاب موضة الهواء النقي والرياضيين المزيفين الأنيقين، الذين كانوا تواقين بالقدر نفسه للجلوس طوال اليوم ولعب الورق في حجرة فاسدة الهواء، لو كان هذا محظوراً من قبل السلطة. شعر بنفسه عضواً من أعضاء مجتمع آخر أكثر حميميةً من هذا العالم السياحي الصغير؛ وجهة نظر جديدة وأوسع، نبل وتحفظ كلها وضعته بمعزلٍ عن الآخرين، وجعلته يعي انه شيء غير مناسب له أن يحاكي أفعالهم الخشنة وتشقلبهم في الثلج. لم يكن ثمة طيش في فكرته، خططه كانت معتدلة جداً بحيث ان رادامانثوس نفسه، إذا ما عرف، ربما يوافق عليها. غير ان القواعد وقفت عثرةً في الطريق، وقرر هانز كاستورب أن ينفذ خططه من وراء ظهره.

إغتنم فرصةً كي يتكلم الى السيد سيتيمبريني حول خطته ـ الذي كان يود ببهجة صرف أن يعانقه. «نعم، نعم، نعم! إفعل هذا، إفعل هذا، أيها المهندس، إفعل هذا مع بركة الله! لا تطلب الإستئذان من أحد، لكن ببساطة إفعلها! آ، لا بد ان ملاكك الصالح همس لك الفكرة! إفعلها حالاً، قبل أن يفارقك الحافز. سوف أصحبك، سأذهب الى الحانوت برفقتك، ومعاً سوف

نحصل على أدوات هذا الطموح المفرِح. سأذهب معك حتى الى الجبال، سأكون الى جنبك، على قدمين مجنحتين، كقدمي عطارد[١٢٨] ـ لكنني ربما لا أفعل هذا ـ لا أفعل هذا! إذا كان هذا كله، كيف أستطيع أن أفعل هذا حالاً! كوني غير قادرٍ هي الحقيقة، أنا رجل مهشم ـ أما أنت ـ فلن يؤذيك هذا، لن يؤذيك أبداً، إذا كنتَ حساساً ولا تفعل شيئاً متهوراً. حتى ـ حتى إذا كان يؤذيك ـ أذىً قليلاً فقط ـ فإن ملاكك الصالح هو الذي حرّضك عليه. لن أقول المزيد. آ، يا لها من خطة لا يتفوق عليها شيء! عامان هنا في الأعالي، وما زلت قادراً على تنفيذ مثل هذه المشاريع ـ آ، نعم، قلبك سليم، ما من حاجة لأن نيأس منك. برافو، برافو! مهما كلف الأمر إسحب الصوف فوق عيني شيطانك! إشترِ أحذية الثلج، دعهم يرسلوها إليّ أو الى لوكاشيك، أو الى صانع الشموع في الطبقة السفلى. تأخذها من هنا وتذهب وتتدرب، تنطلق بهما من هنا ـ»

وهذا ما حدث. تحت العين الإنتقادية للسيد سيتيمبريني ـ تصرف تصرف الخبير، مع انه جاهل بالألعاب الرياضية ـ هانز كاستورب حاز زحلوقتين بلوطيتين، صُقلتا فأمستا بلون بني فاتح، بنهايات ضيقة مدببة ولها أفضل أنواع السيور. إشترى العارضة ذات النعل الحديدي مع الدولاب الصغير، أيضاً، ولم يقتنع بأن ترسل بضائعه، بل حملها على كتفه الى مأوى سيتيمبريني، حيث اتفق مع البقال أن يتولى العناية بهما. كان قد تطلع الى الرياضة بدرجة كافية كي يعرف كيفية إستخدام أدواته؛ واختار ملعباً لتدريبه منحدراً خالياً تقريباً من الشجر خلف المصح بمسافة غير نائية، بعيداً عن ضجيج المكان حيث كان مبتدئون آخرون يتدربون على الطريقة، شرع يقوم يومياً بأولى محاولاته المتخبطة، كان يشاهده السيد سيتيمبريني، يقف على مبعدة مسافة قصيرة، متكئاً على خيزرانته، بساقين متقاطعين برشاقة، ويحيي تقدم غرسته باستحسان. ذات يوم، كان هانز كاستورب يتخذ سبيله نازلاً

(١٢٨) عطارد Mercury: رسول الآلهة وإله التجارة والفصاحة والمكر واللصوصية عند الرومان ـ المترجم.

طريق المركبات الخالي صوب الدورف، قاصداً بذلك إعادة الزحلوقتين الى البقال، صادف هوفرات وجهاً لوجه. بيرنز لم يميزه، مع انه كان ذلك في وضح النهار، ومبتدؤنا إصطدم به تقريباً. مغلفاً بسديمٍ من دخان التبغ، مشى بتشامخ من دون أن يعيره الإهتمام.

هانز كاستورب وجد ان المرء حين تكون له رغبة قوية سرعان ما يكتسب الإستعداد لتعلم مهارة ما. لم يكن يطمح أن يكتسب مهارة خبير، وكل ما كان يحتاجه ناله في بحر أيامٍ قلائل، من دون إجهاد غير ضروري على النَفَس أو العضلات. تعلّم أن يُبقّي قدميه متلاصقتين بترتيب وأن يصنع آثاراً متوازيةً؛ وأن يفيد نفسه من عصاه عند الإنطلاق؛ تعلّم كيف يتجاوز الحواجز كالارتفاعات الصغيرة للأرض، بحركةٍ محلّقةٍ نوعاً، ذراعاه ممدودتان، صاعداً وهابطاً كسفينة على سطح بحر متلاطم الموج؛ تعلّم، بعد المحاولة العشرين، أن لا يمشي بخطى رشيقة سريعة ويستدير حين يكبح في سرعته القصوى، مع إستدارة (تيليمارك) الصحيحة، إحدى القدمين الى الأمام، الأخرى محنية عند الركبة. شيئاً فشيئاً وسّع عالم أنشطته. ذات يوم حدث أن السيد سيتيمبريني رآه يختفي في السديم البعيد؛ الإيطالي صاح عليه محذراً من خلال يديه كوبيتي الشكل، ودار على عقبيه متجهاً صوب البيت، كانت روحه التعليمية مسرور ة جداً.

كان جميلاً هنا في هذه المرتفعات الشتوية: جميلاً بصورة غير معتدلة ومُرضية، أكثر من بحر الشمال حين يكون جميلاً في عاصفة غربية. لم يكن هناك هدير الأمواج المتكسرة، هيمن سكون شبيه بالموت، لكنه أثار مشاعر رهبة مشابهة. نعلا هانز كاستورب الطويلان المرنان أخذاه في الإتجاهات كلها: على طول السفح الأيسر المفضي الى كلاواديل، يميناً الى فروينكيرخ وغلاريس حيث كان بوسعه رؤية المسِّيف(١٢٩) الظليل لـ أمسيلفو، أشبه بالشبح في الضباب الخفيف؛ الى الوادي ديشما، أو صعوداً وراء بيرغهوف

(١٢٩) المسِّيف massif (بالفرنسية): الجزء الرئيس أو المركزي من جبل أو سلسلة جبال ـ المترجم.

باتجاه سيهورن المشجر، فقط قمته، مكسوة بالثلج، صعدا فوق خط الشجر، أو غابة دروساتشا، مع الخط الخارجي الشاحب لطيف راتيكون غير الواضح وراءها، مكسواً بالثلج بكثافة. أخذ زحلوقتيه وصعد الى سكة الحديد المعلقة المؤدية الى شاتزالب؛ هناك، جذلاً ستة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر، عربد بحسب مشيئته على المنحدرات الوامضة للثلج سهل التفتيت ـ حيث، في المناخ الجيد، كان هناك منظر ذو محتوى مهيب للأراضي المحيطة كلها.

تمتع بتسليته الجديدة، التي إنهارت أمامها كل صعوبات وعراقيل الحركة. منحته عزلةً مطلقةً كان في حاجة ماسة إليها، وملأت روحه بانطباعات حول الوحشية المفرطة، وخطر هذه المنطقة التي غامر في ولوجها. فمن جهة كان من الجائز أن يكون له منحدر شديد الإنحدار، مكسو بشجر الصنوبر، فيسقط في السديم، ومن الجهة الثانية ربما تبزغ مجرد صخرة ذات كتل ثلجية، بأشكالٍ شديدة البشاعة، سيكلوبية[١٣٠]، ذات قباب وعقود، منتفخة أو غائرة. يتوقف هو لحظةً، كي يقمع صوت حركته، حين يكون السكون المحيط به مطلقاً، تاماً، صمتاً ملفوفاً، إذا جاز التعبير، مجهولاً في أي مكان آخر. ليس ثمة حركة طفيفة من الهواء، ليس ثمة أي قدر منه بحيث من المحتمل أن يهز أغصان الشجر هزاً خفيفاً؛ لم يكن هناك حفيف ولا صوت طائر. كان سكوناً بدائياً أصغى إليه هانز كاستورب، حين إنحنى هكذا على عكازه، رأسه الى أحد الجانبين، فمه مفتوح. وكان الثلج يهطل باستمرار، يهطل من دون توقف قصير، بصورة لا نهائية، برفق، هطولاً صامتاً.

لا، عالم السكون اللا محدود هذا لم يكن له شيء مضياف؛ انه يستقبل الزائر عند خطره الخاص، أو بالأحرى نادراً ما كان يستقبله، تحمّل تغلغله في معاقله، بإسلوب ينذر بالشر؛ جعله يعي خطر عناصر الطبيعة، خطر حتى غير

(١٣٠) سيكلوبية cyclopean: نسبة الى السيكلوب وهو عملاق من جيل من العمالقة (في الأساطير اليونانية) ذو عين واحدة في وسط الجبين ـ المترجم.

عدائي، لكنه مميت بصورة موضوعية. ابن الحضارة، ناءٍ من الولادة عن الطبيعة الوحشية وكل طرقها، سريع التأثر بجلالها مقارنة بإبنها الفطري الذي كان يتطلع إليها ويسكن قريباً منها من طفولته فصاعداً، وكانت له علاقات متبادلة عادية حميمة معها. الأخير نادراً ما يعرف الرهبة الشديدة حد الإفراط التي يضمرها الإبن الآخر نحو الطبيعة، تلك الرهبة هي التي تحدد كل إحساسه نحوها، وهي حاضرة بهيئة رعشة ثابتة، مهيبة في أعمق أعماق روحه. هانز كاستورب، واقفاً هناك بلفافتي ساقيه وصدرته طويلة الأكمام من وبر الجمل، على زحلوقتيه الممتازتين، فجأةً بدا له شيئاً متجرئاً بنحوٍ متزايد، أن يكون هكذا مصغياً للسكون البدائي، الصمت الشبيه بالموت لهذه المعاقل الشتائية. أحس بصدره يصبح أكثر إبتهاجاً عندما، في طريق عودته الى المصح، أول الأكواخ، وأول مساكن البشر، لاحت واضحةً من بعيد عبر الضباب. حينئذ فقط عرف انه كانت قد إستحوذت عليه لساعات عدة، رهبةٌ ورعبٌ غامضان. فوق جزيرة (زيلت) وقف على حافة الأمواج المتكسرة الهادرة. في ثيابه البيض المصنوعة من (الفلانيلة)، أنيقاً، واثقاً بنفسه، وجديراً جداً بالإحترام، وقف هناك كما يقف المرء أمام قفص أسد ويبحلق في الفكين المتثائبين للحيوان، المملوءين بالأنياب القاتلة. كان قد إستحم في الأمواج المتكسرة، وانتبه الى نفخة بوق حارس الشاطئ، محذراً الجميع قاطبة أن لا يغامروا بتهور بالمضي أبعد من الخط الأول للأمواج العظيمة، وأن لا يدنوا كثيراً جداً من العاصفة المقترِبة ـ الاندفاع الأخير لطوفانها، في الواقع، ضربه كلطمة من براثن أسد. من تلك التجربة أدرك شابنا السعادة المخيفة في العبث مع قوى كبيرة جداً بحيث ان الإقتراب منها كثيراً هو محض دمار. ما لم يشعر به آنذاك هو الإغراء بأن يدنو أكثر، أن ينقل التماس الراعش مع هذه القوى الطبيعية المميتة الى درجةٍ يكون فيها العناق التام وشيكاً. كونه إنساناً ضعيفاً ـ مع انه مجهز تجهيزاً جيداً ومقبولاً بأسلحة الحضارة ـ ما عرفه في هذه اللحظة هو سحر المغامرة بعيداً جداً في المجهول شديد البشاعة، أو في الأقل الإمتناع حتى الآن عن الهرب منه، بحيث ان المغامرة تمس ما هو خطر مساً عابراً رفيقاً، وانه نادراً ما كان ممكناً أن نضع

حدوداً لها، قبل أن تكف عن كونها مسألة لهو مع الزبد ومراوغة البرثن غير الرحيم مراوغةً هازلةً ـ لولا المغامرة الأخيرة، الموجة العظيمة. فكا الأسد، والبحر.

الخلاصة، كان هانز كاستورب شجاعاً هنا في الأعالي ـ إذا كنا نعني بـ (الشجاعة) ليس فقط اتخاذ موقف واقعي فاتر بوجه الطبيعة، بل الخضوع الواعي لها، الخوف من الموت يطرده التوحد الذي لا يقاوَم. نعم، في صدره الضيق، المتحضر جداً، أعز هانز كاستورب إحساساً بالقرابة مع عناصر الطبيعة، إرتبط مع الإحساس الجديد بالتفوق الذي شعر به مؤخراً لدى رؤية الناس على زلاجاتهم الصغيرة؛ جعله يشعر بعزلةٍ أعمق، أوسع، أقل ترفاً من تلك التي وفرها له كرسي شرفته التي ستكون نفيسةً ولا تُقدر بثمن. جلس هناك ونظر الى الخارج، الى تلك القمم المكللة بالسديم، الى كرنفال الثلج، وإستحى من كونه إنفصل هكذا عن المتراس المرتجل للسعادة المادية. هذا الحافز، وهو ليس بدعة وقتية ـ لا، وهو على أية حال ليس حباً فطرياً للجهد البدني ـ هو الذي حمله على تعلّم إستخدام الزحلوقتين. إذا كان هذا شيئاً غريباً هناك في مهابة الجبال، في السكون المميت للثلوج. ويقيناً كان شيئاً غريباً، بالنسبة لإبننا، ابن الحضارة ـ هذا شيء واقعي بالقدر نفسه، ذلك انه في هذه الشهور والسنوات كان قبل الآن قد شرب بإفراط من هذا الشيء الغريب، بالروح والعقل. حتى الحديث مع نافته وسيتيمبريني لم يكن على وجه الدقة أكثر الأشياء حكمةً في العالم، وهو أيضاً قاد المرء الى مناطق مجهولة ومحفوفة بالمخاطر. هكذا إذاً كان بمستطاعنا أن نتحدث عن إحساس هانز كاستورب بالقرابة مع الطاقة الوحشية لمرتفعات الشتاء، فإنها بهذا المعنى، ذلك انه على الرغم من رهبته الورعة شعر ان هذه المشاهد كونها مسرحاً مناسباً لمسألة أفكاره المشوشة، خشبة مسرح ملائمة كي يصنعها المرء الذي، نادراً ما يعرف كيف، وجد انها تحولت إليه كي يقيّم نفسه، في ما يتعلق بمرتبة وحالة الـ Homo Dei.

لم يكن أحد هنا كي ينفخ تحذيراً للإنسان المتهور ـ ما لم يكن، ذلك الرجل هو السيد سيتيمبريني بصيحته التوديعية لظهر هانز كاستورب المتلاشي

عن الأنظار. غير ان رغبةً باسلة إستحوذت عليه، شابنا لم يُعرْ الصيحة إهتماماً ـ أعارها إنتباهاً قليلاً كما فعل مع وقع الأقدام التي خلفه في ليلةٍ من ليالي الكرنفال. «إيه، أيها المهندس، إعطه قليلاً من الحق» «نعم، نعم، أيها الشيطان التعليمي بـ [عقلك] و[تمردك]» فكّر هو. «غير انني مولع نوعاً بك. ليكن في علمك، أنت مدعٍ وعازف أرغن يدوي. لكنك تعني جيداً، تعني بصورة أفضل بكثير، تعنيّ أكثر بالنسبة لعقلي، من ذلك اليسوعي ضئيل البدن الحاد كحافة السكين و(الإرهابي)، المدافع عن محكمة التفتيش والسوط، بنظارتيه المدورتين ـ مع انه تقريباً محق دوماً حين يصادف أن تتنازع أنت وهو على روحي التافهة، كـ (الله) و(الشيطان) في أساطير القرون الوسطى.»

شق هو، ذات يوم، مكسواً بذرور الثلج حتى الخصر، طريقه بجهد صاعداً سلسلة من الدكات المحجبة بالثلج، رويداً رويداً، من دون أن يعرف الى أين. لا مكان، أغلب الظن؛ هذه المناطق المرتفعة إتحدت مع سماء بيضاء ـ سديمية ليس أقل منها، وأين إلتقى الإثنان معاً، يشق علينا أن نقول. ما من قمة، من سلسلة جبال واضحة للعيان، كان سديماً ولا شيء غير السديم، الذي كافح نحو هانز كاستورب؛ بينما وراءه العالم، الوادي المأهول، إرتد بسرعة من المشهد، وما من صوت إرتفع الى أذنيه. في طرفة عين أمسى هو منعزلاً، كان ضائعاً كما يهوى القلب، كانت وحدته عميقة بدرجة كافية كي توقظ الخوف الذي هو المرحلة الأولى للشجاعة «Praterit figura huius mundi» خاطب نفسه، مقتبساً قول نافته بلاتينية لا تكاد تملك روحاً إنسانية. توقف ونظر في ما حوله. في الجوانب كلها ليس ثمة ما يمكن رؤيته، وراء رقاقات الثلج الوحيدة الصغيرة التي تأتي من سماء بيضاء وتغوص لتستقر فوق الأرض البيضاء. الصمت المحيط به رفض أن يتكلم لروحه البتة. كانت نظراته ضائعة في الفراغ الأعمى الأبيض، شعر بنبض قلبه من خلال مجهود الصعود ـ ذلك العضو العضلي الذي شاهد شكله الحيواني وحركته الإنقباضية، بشعور تدنيس المقدسات، في مختبر الأشعة السينية. مهابة ساذجة ملأته بسبب ذلك العضو خاصته، بسبب قلبه الإنساني النابض، هنا

في الأعالي وحيداً في الفراغ الجليدي، وحيداً بسؤاله ولغزه.

تابع سيره؛ أعلى فأعلى صوب السماء. ماشياً، دفع نهاية عصاه في الثلج وشاهد الضوء الأزرق يتبعها وهي تخرج من الثقب الذي صنعته. أحب ذلك؛ ووقف طويلاً في كل مرة ليختبر الظاهرة البصرية الصغيرة. كان لوناً غريباً، لطيفاً، هذا الأزرق ـ المخضر؛ لون المرتفعات والمحيطات، نقياً كالجليد، بأية حال يحمل ظلاً في أعماقه، فاتناً بصورة مبهمة. ذكره بلون بعض العيون، التي رسم شكلها ونظراتها مصيره؛ عيون بازدراء أشار إليها السيد سيتيمبريني من علوّه الإنساني كونها «شقوقاً تتارية» و«عيون الذئب» ـ عيون شاهدها من زمن بعيد جداً ووجدها ثانية، عيون بريبسلاف هيبه وكلاوديا شوشا. «مع بالغ سروري»، قال بصوتٍ عالٍ، في الصمت العميق. «لكن لا تكسره ـ ضع هذا في حسبانك». وروحه سمعت وراءه كلمات التحذير بلغة منسابة برقة.

غابةٌ لاحت بصورة جلية، بعيدة الى ناحية اليمين. إستدار الى تلك الجهة، لاح له هدف معين أمام عينيه، بدلاً من مجرد السمو الأبيض؛ وسار إليه باندفاع، من دون أن يلاحظ انخفاضاً متخللاً للأرض. لم يكن قد شاهده، الواقع؛ أن كل شيء سبح أمامه في السديم الأبيض، طامساً كل الخطوط المحيطية للأشياء. حين أدركه، أسلم نفسه للمنحدر، غير قادر على أن يقيس شدة إنحداره بعينيه.

البستان الذي جذبه يقع في الجهة الثانية من الأخدود الذي إنقاد إليه بصورة غير مقصودة. كان المجرى، مكسواً بالثلج الزغب، قد وقع في الجهة الملاصقة للجبال، كما لاحظ هو حين تعقبه مسافةً قصيرةً. كان يتجه نحو سفح التلة، الجوانب شديدة الإنحدار أمست أعلى، هذه الطية من سطح الأرض بدت أشبه بممر ضيق يؤدي الى الجبال. ثم إستدارت الحافات الناتئة لزحلوقتيه الى الأعلى ثانيةً، هناك بدأ منحدر، في الحال لم تعد هناك جدران جانبية؛ مسار هانز كاستورب غير المطروق إنطلق مرة أخرى صُعداً على إمتداد جانب الجبل.

رأى بستان الصنوبر وراءه وأدناه، الى يمينه، إتجه إليه من جديد، وبهبوط سريع وصل الأشجار المحملة؛ كانت منتصبةً في مجموعة شبيهة بالإسفين، طليعة إندفعت الى الخارج من الغابات المحجبة بالسديم في الأعلى. إستراح تحت أغصانها الرئيسة، ودخن سيجارةً. السكون غير الطبيعي، العزلة الرهيبة، ما يزالان يُحزنان روحه؛ على أية حال شعر انه فخور كونه إستطاع أن يتغلب عليهما، وانه رائع في زهو كونه قد قيس الى علو بيئةٍ كهذه.

كان الوقت الثالثة عصراً. كان قد بدأ غب الغداء بالتفكير في التغيب عن مدة الإستراحة ـ العلاج الطويلة، والشاي أيضاً، كي يستطيع العودة قبل حلول الظلام. كان قد جلب بعض الشوكولاته في جيب سرواله، ودورق خمر صغيراً؛ وأخبر نفسه بجذل انه كانت ما تزال أمامه ساعات عدة كي يعربد في هذه العظمة كلها.

كان يشق تعيين موقع الشمس، ذلك انها كانت محجبة بالضباب الخفيف. خلفه، عند حلق الوادي، فوق ذلك الجزء من الجبال الذي كان منفصلاً عن المشهد، السُحب والسديم ظهر انهما يثخنان ويتحركان للأمام. ظهرا كأنهما ثلج ـ مزيد من الثلج ـ كما لو انه كانت ثمة حاجة مُلحة إليه! ظهرا كأنهما شبيهان بعاصفة قاسية جداً. الواقع، الرقاقات الصغيرة عديمة الصوت كانت تنزل أسرع فأسرع بينما كان هو واقفاً هناك.

مدَّ هانز كاستورب ذراعه وجعل بعضها تأتي لتستقر على كمه؛ نظر إليها بالعين العارفة لعاشق الطبيعة. بدت هي مجرد كسر عديمة الشكل؛ لكنه رأى غير مرة شبيهاً لها تحت عدسته الجيدة، وكان يعي الدقة الرائعة للشكل التي تظهرها هذه الجواهر الصغيرة، هذه الشارات، الأنظمة، أبازيم الثياب الزينية (البروشات) ـ ما من صائغ مجوهرات، مهما كان ماهراً، يمكنه أن يصنع أجمل من هذه الجواهر وأكثر منها دقة. نعم، فكّر، ثمة إختلاف، على أية حال، بين هذا المسحوق الأبيض، الناعم، الخفيف، الذي كان يدوسه بزحلوقتيه، الذي كان يُثقل الأشجار، ويغطي المديات المفتوحة، إختلاف بينه وبين الرمل على الشواطئ في بلده، الذي شبهه به. ذلك ان هذا

المسحوق لم يكن يتألف من الحبيبات شديدة الصغر من الحجر؛ بل من قطرات ماء صغيرة جداً لا تُعد ولا تُحصى، التي خلال الإنجماد إندفعت معاً كالسهام باختلافاتٍ متناسقة ـ هي، إذاً، أجزاء، من المادة غير العضوية ذاتها التي كانت منشأ البروتوبلازم، منشأ الحياة النباتية، منشأ جسم الإنسان. وبين هذا العدد الضخم من النجيمات الساحرة، ببهائها المخفي الذي كان صغيراً جداً كي تراه عين الإنسان المجردة، ما من واحدة تشبه الأخرى؛ إبتكارية لا نهائية حكمت التطور والتميز غير الوارد للمشروع الرئيس نفسه، السداسي متساوي الأضلاع، متساوي الزوايا. على أية حال كل واحدة، بنفسها ـ هذه هي الصفة الشاذة، اللاعضوية، الناكرة للحياة لها كلها ـ كل واحدة منها كانت متماثلة تماماً، نظامية الشكل ببرود شديد. كانت نظامية جداً، كمادة متكيفة مع الحياة لم تكن تكيفت الى هذه الدرجة ـ القاعدة الحية ارتجفت لدى هذه الدقة التامة، وجدتها مميتة، وجدتها نخاع الموت ـ هانز كاستورب شعر انه فهم الآن السبب الذي جعل بناة العصور القديمة يُدخلون بصورة مقصودة وسرية اختلافاً دقيقاً عن التماثل التام في أبنيتهم العمودية.

شق طريقه من جديد، جاراً قدميه عبر الثلج العميق فوق دحروجتيه المرنتين، على طول حافة الغابة، نازلاً المنحدر، صاعداً ثانيةً بصورة عشوائية، على وفق مشيئة قلبه، على مقربة من وداخل هذه الأرض عديمة الحياة. مدياتها الخالية، الممهدة، نموها المجفف من أشجار تنوب وحيدة شديدة الصغر برزت عبر الثلج، تحمل شبهاً لافتاً مع مشهد على كثبان الرمل. هانز كاستورب نكس رأسه حين وقف وثبّت الشبه في ذهنه. حتى وجهه المتوهج، أطرافه المرتجفة، الأحاسيس الخاصة الممتزجة نصف السكرانة المتعلقة بالإهتياج والإعياء كانت مُرضية، ذكرته بذلك الإحساس المألوف الذي حفزه هواء البحر، الذي كان بوسعه أن يلسع المرء كالسياط، ومع ذلك كان محملاً جداً بعطور منوِّمة. إبتهج بحريته في الحركة، قدماه كانتا أشبه بجناحين. لم يكن مقيداً الى دربٍ ما، ما من درب يقع وراءه كي يعيده الى الوراء من حيث أتى. في البداية كانت هناك أعمدة، ساريات نُصبت كي تكون أدلةً عبر الثلج ـ لكنه كان قد تحرر تواً من وصايتها، التي

ذكرته بحارس الشاطئ ببوقه، وبدا متعارضاً مع الموقف الذي إتخذه نحو البرية.

تابع مسيره، إستدار يميناً وشمالاً بين التلال الصخرية، المكسوة بالجليد، ووصل وراءها الى منحدرٍ، ثم الى بقعة مستوية، بعدها الى الجبال نفسها ـ كم تبدو مغريةً وسهلة المنال ممراتها الضيقة وشِعابها التي أُجتيزت بتؤدة! دمه وثب لدى الإغراء القوي للمسافة والإرتفاع، العزلة الأعمق أبداً. خشية العودة المتأخرة تابع مسيره، أكثر عمقاً في الصمت الوحشي، الرهيب والخطير، على الرغم من تلك العتمة النامية التي كانت تهبط فوق المنطقة كالحجاب، ومصعدةً خوفه الباطني الى أن تحوّل الآن الى خوف حقيقي. ان خوفه هذا هو الذي جعله أولاً واعياً انه بتعمدٍ بدأ يضيع طريقه والإتجاه الذي يقع فيه الوادي والقرية الصغيرة ـ وكان ناجحاً بالقدر الذي يشتهيه القلب. على أية حال كان هو يعرف انه إذا قُيض له أن ينعطف ويدخل مساراته ويهبط التلة، فسوف يصل أسفل الوادي ـ حتى ولو بعض المسافة عن بيرغهوف ـ وذلك أسرع مما كان يخطط له. سوف يصل البيت مبكراً جداً، من دون أن يستخدم وقته إستخداماً كاملاً. من الناحية الثانية، إذا باغتته العاصفة على حين غرة، فربما على أية حال لن يجد طريقه صوب البيت. لكن مهما كان خوفه من عناصر الطبيعة أصيلاً، رفض أن يقوم بهربٍ قبل الأوان؛ نادراً ما إتخذ هو موقف الرياضي، الذي يتطفل على عناصر الطبيعة طالما هو نفسه يعرف سيدها، يتخذ الإحتياطات كلها، وبتعقلٍ يستسلم حين يتوجب عليه ذلك ـ بينما ما يجري في داخل روح هانز كاستورب يمكننا فقط أن نصفه بكلمة واحدة ألا وهي: التحدي، لعله كان موقفاً يستحق اللوم، وقحاً، وحتى متحداً مع رهبة، أصيلة جداً. على أية حال هذه الكمية واضحة، لأي إدراك إنساني: ذلك انه حين يحيا شاب طوال سنوات بالطريقة التي يفعلها هذا الشاب، شيء ما ربما يجتمع ـ ربما يتراكم، كما يحتمل أن يعبّر مهندسنا ـ في أعماق روحه، الى أن يحل يوم يطلق نفسه فجأة مع صيحة إشمئزاز بدائية، مع عبارة عقلية: «أوه، إذهب الى الشيطان» إنكار التحذيرات كلها مهما كانت، باختصار يطلق نفسه مع تحدٍ. وهكذا واصل سيره، بصندلي

الفراسخ السبعة خاصته، أنزلق نازلاً هذا المنحدر أيضاً وتابع سيره في المنحدر الأبعد منه، حيث يقوم كوخ خشب ربما كان كومة قش أو ملجأ راعٍ، سقفه مثقّل بصخور مسطحة. ماراً بمحاذاته الى أقرب قمة جبلية، تحفّها غابة، خلف ظهرها الذرى الضخمة إرتفعت الى الأعلى في السديم. الجدار الذي أمامه، المرصع بمجاميع منفردة من الأشجار، كان شديد الإنحدار، لكن بدا كما لو أن المرء ربما ينعطف يميناً ويلتف حوله من خلال تسلق طريق صغير في أعالي المنحدر. وما ان أصبح في الجانب الآخر، حتى أمسى قادراً على رؤية ما يقع وراءه. على هذا الوفق هانز كاستورب شرع في رحلة البحث هذه، التي بدأت بالنزول من المرج ذي الكوخ الى أخدود آخر عميق نوعاً كان ينحدر من اليمين الى الشمال.

ما إن بدأ يصعد ثانيةً حتى وقع ما كان متوقعاً، وانفجرت العاصفة، العاصفة التي توعدت زمناً طويلاً جداً. أم ينبغي أن يقول المرء «أنذرت» بنشاط القوى العمياء غير الواعية التي لم تكن تهدف الى تدميرنا ـ سيكون هذا مشجعاً من خلال المقارنة ـ لكنها كانت لا مبالية بصورة مرعبة بمصيرنا إذا ما تورطنا معها؟ «مرحباً!» فكّر هانز كاستورب، ووقف بلا حراك، عندما دوّمت العصفة الأولى للريح عبر الثلج الهاطل بكثافة وأدركته. «ذاك النسيم العليل ـ يخبرك بما هو آتٍ.» وحقيقةً كانت هذه الريح وحشية. كان الهواء في الواقع بارداً بصورة مخيفة، لعله يقل عن الصفر بدرجاتٍ عدة؛ لكن طوال مدة بقائه جافاً وساكناً ينبغي للمرء أن يجده تقريباً معتدلاً. حين أقبلت الريح بدأ البرد يخترق اللحم؛ وفي ريح كالتي هبت الآن، والتي كانت عصفتها الأولى البشيرة، ثياب الفراء لم يتم شراؤها كي تستطيع حماية الأطراف من تيبساتها الجليدية. هانز كاستورب لم يلبس شيئاً من الفراء، بل فقط صدرة صوفية، وجدها كافيةً تماماً، أو حتى، بأقل وميض من أشعة الشمس، عبثاً. غير ان الريح كانت في ظهره، جانبية تقريباً؛ كان هناك باعث صغير على الإستدارة واستقبالها بالوجه؛ وهكذا الشاب الأحمق، جاعلاً تلك الحقيقة تقوّي التحدي الجوهري لموقفه، تابع مسيره بين جذوع الأشجار الوحيدة، وحاول أن يتفادى الجبل الذي كان هاجمه.

لم يكن مزاحاً. لم يكن يُرى شيء تقريباً بسبب رقاقات الثلج السابحة، التي بدت من دون هطول تملأ الهواء الى حد الإختناق برقصها المدوِّم. العصفات الباردة الى حد بعيد جعلت أذنيه تشتعلان بنحوٍ موجع، شعر بأن أطرافه نصف مشلولة، كانت يداه مخدرتين جداً بحيث نادراً ما كان يعرف ما إذا كانتا تمسكان العصا. الثلج طار مع الريح وتغلغل الى داخل ياقته وذاب نازلاً على ظهره. إنجرف على كتفيه وجانبه الأيمن؛ فكّر انه سوف يتجمد بينما هو واقف متحولاً الى إنسان ثلجي(١٣١)، وعصاه متيبسة في يديه. وهذا كله تم في ظروف مؤاتية نسبياً؛ فإذا ما سمحت له بأن يدير وجهه الى العاصفة فسيكون موقفه أكثر سوءاً. ان الرجوع الى البيت لن يكون مهمةً هينةً ـ سيكون أصعب، كلما أرجأه مدةً أطول.

في الختام توقف، هز كتفيه غاضباً، وأدار زحلوقتيه الى الناحية الأخرى. بعدها الريح التي واجهها أخذت نَفَسه في الحال، وهكذا كان مجبراً على أن يقوم بالعملية الخرقاء في الإستدارة من جديد كي يجعلها في ظهره، وإستجمع عزمه كي يواجه أسنان عدوّه عديم الشفقة. برأسٍ محني وتنفس حذر إستطاع أن ينطلق بعد توقف؛ لكن حتى مع كونه مستعداً هكذا، بطء تقدمه وصعوبة الرؤية والتنفس أفزعاه. كلما مرت عدة دقائق، توجب عليه الوقوف، أولاً كي يأخذ نَفَسه في ملاذ الريح، وبعدها لأنه لم يرَ شيئاً تقريباً في البياض غير الواضح، ومتحركاً برأسٍ محني، توجب عليه أن يحاذر كي لا يصطدم بالأشجار، أو أن يكون مندفعاً بتهور بسبب عدم إستواء الأرض. حشد من الرقاقات طارت بفعل الريح وهمت على وجهه، ذابت هناك وأحس بكربٍ شديد بسبب برودتها. طارت وسقطت في فمه، واضمحلت تاركةً طعماً مائياً ضعيفاً؛ طارت الى أجفانه بحيث انه طرف، وغمرت عينيه وجعلت الرؤية عسيرة كما هي عليه الآن مستحيلة تقريباً لأسباب أخرى: التأثير الباهر لذلك البياض كله، حجب مجال رؤيته، بحيث ان حاسة النظر خاصته كانت قد تعطلت تقريباً. انه العدم، العدم الأبيض،

(١٣١) إنسان ثلجي snowman: ثلج يُشكل على هيئة إنسان ـ المترجم.

المدوَّم، الذي كان يحدّق فيه حين أرغم نفسه على فعل ذلك. فقط عند فترات فاصلة لاحت أمامه بصورة غير واضحة أشكال ذات مظاهر شبحية من عالم الواقع: شجرة تنوب متقزمة، مجموعة من أشجار الصنوبر، وحتى صورة ظلية شاحبة لكوخ القش الذي تجاوزه مؤخراً.

تركه وراءه، وفتش عن طريق عودته على المنحدر الذي قام عليه الكوخ. إنما لم يكن ثمة درب كي يحافظ على الإتجاه المؤدي، إذا ما تحدثنا بشكل نسبي، الى واديه سيكون مسألة حظ أكثر بكثير مما هو عليه مسألة تدبير؛ فبينما كان قادراً على رؤية يده أمام وجهه، لم يكن بوسعه رؤية أطراف زحلوقتيه. وحتى بوضوح أفضل، جمهرة الصعوبات لا بد انها توحدت كي تعيق تقدمه: الثلج في وجهه، عدوه العاصفة، التي كبحت تنفسه، جعلته يحارب الإثنين كي يأخذ نَفَساً ويزفره، وباستمرار أجبراه على أن يدير رأسه جانباً كي يلهث. كيف يستطيع أي فرد ـ إما هانز كاستورب أو غيره وأقوى منه بكثير ـ أن يتقدم برغم المقاومة؟ توقف هو، طرف بأهداب عينيه كي يزيل عن عينيه قطرات الماء، تخلص من الثلج الذي كان كطبقة من الدرع يكسو جسده من الأمام ـ وقد سحره ان التقدم في ظل هذه الظروف، كان أكثر مما يتوقعه أي فرد.

وعلى أية حال تقدم هانز كاستورب. أي، تحرك الى الأمام. لكن سواء في الإتجاه الصحيح، سواء إذا ما كان الأفضل له أن يتوقف في مكانه، بقي كي تتم رؤيته. نظرياً كانت الفرص ضده؛ وعملياً بدأ حالاً يتوقع ان شيئاً ما كان مغلوطاً. هذه ليست أرضاً أليفةً أسفل قدميه، ولا المنحدر السهل الذي وصل إليه بصعودٍ شاقٍ جداً من الوهد، الذي كان يجب بطبيعة الحال اجتيازه ثانيةً. كانت المسافة المستوية قصيرةً جداً، كان قد بدأ الصعود من جديد. كان جلياً ان العاصفة، الآتية من جهة الجنوب ـ الغربي، من حلق الوادي، كانت قد ساقته بعنفها عن مساره. كان قد أرهق نفسه، طوال هذا الوقت كله، ببداية كاذبة. بصورةٍ عمياء، مغلفاً بليلٍ أبيض، مدوّم، جرى بجهد أعمق فأعمق في هذا العالم الكئيب والصلب.

«لا، أنت لا تفعل»، قال، فجأةً، بين أسنانه، وتوقف عن المسير. لم

تكن الكلمات عاطفية، على أية حال شعر على مدى ثانية كما لو ان يداً باردةً الى حد بعيد أمسكت فؤاده؛ جفل قلبه وشرع يضرب بسرعة على أضلاعه، كما في تلك المرة التي عثر فيها رادامانثوس على التجويف الرطب. العنصر المثير للشفقة في السلوك الرفيع لم يكن في الموضع الصحيح، عرف، في شخص إختار التحدي دوراً له، وكان مديناً لنفسه فقط بكل مأزقه الحالي. «لا بأس»، قال، واكتشف ان عضلات وجهه لم تكن له كي يقودها، ولم يكن قادراً على أن يعبر في سحنته عما كان يعتلج في روحه من عواطف وخلجات، ذلك انه كان متيبساً بالبرد. «ماذا بعد؟ أسفل هذا المنحدر؛ إتبع أنفك صوب البيت، على ما أعتقد، وإبقِ وجهك في مواجهة الريح ـ مع أن قول ذلك أسهل بكثير من القيام به»، واصل مسيره، لاهثاً خلال بذل جهوده هذه، على أية حال كان يتكلم حقيقةً بصوت نصف مرتفع، حين حاول أن يتحرك قُدماً من جديد: «لكن شيئاً ما ينبغي أن يحدث، لا أستطيع الجلوس والإنتظار، سوف أُدفن ببساطة في تماثلٍ بلوري سداسي الأضلاع، وسيتيمبريني، حين يأتي ببوقه الصغير للعثور عليّ، سيجدني مقعياً هنا وقبعة الثلج تغطي أذناً واحدة مني.» كان يعرف حق المعرفة انه كان يخاطب نفسه، وليس بحساسية شديدة ـ من أجل أن يوبخ نفسه، وبعدها إستمر عمداً، مع ان شفتيه كانتا متيبستين جداً، بحيث انه لم يستطع أن يصوغ الحروف الشفاهية، وهكذا فعل من دونها، ، كما فعل من قبل في حادثة معينة أخرى خطرت بباله. «إهدأ، واخرج من هذا المكان»، عاتب نفسه، مضيفاً: «انك تبدو غافلاً، وعقلك غير سليم، ويبدو هذا شيئاً سيئاً بالنسبة لك.»

لكنه قال هذا فقط في عقله ـ الى حدٍ ما منفصلاً عن بقية أجزاء جسمه، مع انه على أية حال ذو صلة قريبة به. بالنسبة لدوره الطبيعي، شعر انه ميال كثيراً جداً للإستسلام، للتشوش الذي سيطر عليه مع إعيائه المتنامي. وحتى لاحظ هذا الميل واهتم بأن يعلّق عليه. «هنا»، قال، «لدينا رد الفعل النموذجي لرجلٍ أضاع نفسه في الجبال في عاصفة ثلجية ولن يجد طريق عودته الى مسكنه.» لفظ لاهثاً شظايا من الفكرة ذاتها بينما هو يمضي، مع انه رفض أن يمنحها تعبيراً أكثر خصوصية. «أيّ امرىء سيسمع عنها في ما بعد،

سيتخيلها مرعبةً جداً؛ لكنه نسي ذلك المرض ـ والحالة التي أنا فيها، إذا جاز الكلام، المرض ـ يكيف إنسانه بحيث انه (أي المرض) وهو (أي الإنسان) بوسعهما أن يتوصلا الى تفاهم؛ هناك اشباعات حسية، دوائر قصيرة، تخدير رحيم ـ نعم، نعم، نعم. لكن يتعين على المرء أن يكافح ضدها، على أية حال، لأنها ذات وجهين، انها ملتبسة الى أقصى حد، كل شيء يعتمد على وجهه النظر. إذا لم تكن تقصد الوصول الى المسكن، فهي إحسان، هي رحيمة؛ أما إذا كنت تقصد الوصول الى البيت، تغدو هي شريرة. أحسب انني ما زلت أقصد الوصول. يقيناً أنا لا أنوي ـ بقلبي هذا الذي ينبض نبضاً عاصفاً جداً لا يروق لي البتة ـ أن أكون عرضة للثلج الهاطل بوساطة عملية التبلور المتناسقة بصورة بلهاء.

الحقيقة، كان هو قد تأثر قبل الآن، ونضاله ضد التشوش الحسي الوشيك كان محموماً وشاذاً. لا بد انه كان مرعوباً أكثر لدى إكتشافه انه كان قبل الآن قد انجرف عن المسار المنبسط ـ هذه المرة بصورة جلية على المنحدر الآخر. فقد دُفع بوساطة الريح الآتية إليه بصورة مائلة، التي كانت طائشة، مع انها كانت ملائمةً حالياً. «لا يهم»، فكّر، «سوف أجد إتجاهي ثانيةً هناك في الأسفل». وهو ما فعله، أو ظن انه فعله ـ أو، والحق يقال، نادراً ما ظن هذا؛ والأنكى من ذلك، بدأ يكون لا مبالياً سواء فعل أم لا. هكذا كان تأثير الهجوم الثنائي الماكر، الذي صارعه لكن بضعف. الإرهاق والتهيج المجتمعان كانا حالةً عادية بالنسبة لشابنا ـ الذي كان إعتياده، كما نعرف، ما زال يتكون من إعتياد عدم الإعتياد؛ وكلاهما الإرهاق والتهيج كانا حاضرين في قوة شديدة بحيث يجعلها مستحيلة أيَّ فكرةٍ تتعلق بتوكيد عقله ضدها. شعر كما شعر كثيراً بعد حوار مع سيتيمبريني ونافته، فقط بدرجة أعظم بكثير، بأنه: دائخ ومترنح سكراً، مصاب بالدوار، مرتعش بالتهيج. لعل هذا هو السبب الذي جعله يلوّن احتياجه الى مقاومة الخدر السارق بمراجعات نصف ثملة لآخر ما عُرض على الملأ من النظريات كلها. على الرغم من الإنكار المحتقِر للفكرة القائلة انه ربما يستلقي ويُغطى بالتماثل مسدس الشكل، شيء ما هذى بداخله، معنى أو لا معنى: أخبره ان الشعور

بالواجب الذي دعاه الى مقاومة الاشباعات الحسية الماكرة كان رد فعل أخلاقياً بكل معنى الكلمة، يمثل وجهة نظر بورجوازية قذرة لـ الحياة، الزندقة، المادية؛ بينما الرغبة، كلا، التوق الشديد، للإستلقاء والإستراحة، همس له بهيئة اختلاف بين هذه العاصفة وعاصفة رملية في الصحراء، التي أمامها يطرح العربي نفسه ويسحب برنسه فوق رأسه. فقط إفتقاره الى برنس، لا معقولية سحب صدرته الصوفية فوق رأسه، منعه من أن يحذو حذو العربي ـ هذا على الرغم من انه لم يعد طفلاً، ويعي جيداً جداً الحالات التي في ظلها يتجمد المرء حتى الموت.

كان هناك منحدر حاد نوعاً، ثم أرض مستوية، بعدها ثانيةً مرتقى، من النوع الشاق. هذا لم يكن خاطئاً بالضرورة؛ يتعين على المرء بطبيعة الحال، في طريقه الى الوادي، أن يقطع أرضاً مرتفعةً من حين الى آخر. الريح دارت الى الناحية الثانية بصورة نزوية، فقد أمست الآن في ظهر هانز كاستورب، هذا، إذا ما أخذناه بحد ذاته، كان بركة. على وفق، ربما، العاصفة، أو البياض الناعم للمنحدر الواقع أمامه، المعتم في الهواء المدوّم، الذي يسحبه إليه، كان ينحني بينما هو يمشي. فقط أبعد بمسافةٍ قليلة ـ إذا ما إفترضنا ان المرء يستسلم للغواية، وغوايته كانت عظيمةً؛ كانت قوية جداً بحيث انها عملت تماماً وفق الأوصاف الكثيرة التي قرأها عن «حالة الخطر النموذجية». دافعت عن حقها، رفضت أن تُصنف مع النظام العام للأشياء، أصرت على أن تكون إستثناءً، ضرورتها تحدت المقارنة ـ على أية حال في الوقت نفسه لم تتنكر لمنشئها أو هالتها، لم تنكر انها كانت، إذا صح التعبير، مكسوةً بالسواد الإسباني، بطوق رقبة مكشكش محزز، ثلجي البياض، ومثلت أفكاراً ومفاهيماً رئيسة كانت بصورة مميزة متشائمة، يسوعية بقوة ومناوئة للإنسانية، مثلت نظام المخلعة والسوط الذي كان شيئاً مرعباً بصورة خاصة بالنسبة للسيد سيتيمبريني، مع انه لم يعارضه من دون أن يجعل من نفسه مضحكاً، كعازف أرغن يدوي يطحن الى الأبد «الإدراك» باللحن القديم ذاته.

وعلى أية حال هانز كاستورب احتفظ بنفسه في وضع عمودي وقاوم

توقه الشديد للإستلقاء. لم يكن بميسوره رؤية شيء، إلا انه كافح، تقدم الى الأمام. سواء لغرض ما أو لا، لم يكن بوسعه أن يقول؛ لكنه قام بدوره، وتحرك على الرغم من العبء الذي ألقاه البرد أكثر فأكثر فوق أطرافه. كان المنحدر الحالي حاداً جداً كي يصعده مباشرة، لذا إنحرف قليلاً، وواصل مسيره هكذا مدةً وجيزةً من دون اهتمام كبير الى أين. حتى أن يرفع جفنيه المتيبسين كي يحدق أمامه كان مجهوداً كبيراً جداً وتقريباً عديم الفائدة كي يمنحه حافزاً صغيراً. كان قد أخذ فقط نظرات خاطفة: هنا مجموعة من أشجار الصنوبر إتحدت معاً؛ هناك قناة للري أو جدول، خط أسود مُعلَّم بين أكوام ناتئة من الثلج. الآن، من أجل تغيير ما، كان يهبط التلة، والريح في وجهه، حينما، عند مسافة معينة أمامه، وبادياً انه متدلٍ في الريح العاتية والسديم، شاهد الخط المحيطي الباهت لمسكن بشري.

آ، مشهد حلو وسعيد! يقيناً كان هو قد أحسن صنعاً، أن يسير بجرأة على الرغم من المعوقات كلها، الى أن ظهرت الآن المساكن البشرية، دالة على أن الوادي المأهول كان في متناول اليد. أغلب الظن كان هناك حتى بشر، ربما يدخل وينتظر نهاية العاصفة تحت ملجأ ما، ثم يفهم الإتجاهات، أو يحصل على دليل إذا حل الظلام. واصل تقدمه صوب هذا الهدف الوهمي، ذلك الهدف الذي كان تلاشى عادةً تماماً عن الأنظار في السديم، وشرع يقوم بصعود مرهق عكس الريح قبل أن يصل إليه؛ في الختام إقترب تدريجياً وبإطراد منه ـ كي يكتشف، بأي ذهول ورعب مربكين قد يتصورهما المرء، فقد كان هو مجرد كوخ القش ذي السقف المثقَّل، الذي إليه، بعد كفاحه هذا كله، من خلال دروبه الملتوية، عاد.

كان ذاك الشيطان بعينه. هانز كاستورب نفّس عن لعناتٍ عدة استشعرها في فؤاده لم تستطع شفتاه النطق بها لأنها كانت جد متيبسة كي تلفظ حروفها الشفاهية. تفحص الكوخ، كي يجد طريقه، وتوصل الى استنتاج مفاده انه إقترب منه من الجهة نفسها كالسابق ـ أي، من المؤخرة؛ وهكذا، ان ما أنجزه على مدى الساعة المنصرمة ـ كما ظنه ـ كان مجرد هدر للوقت والجهد. لكن هو ذا من جديد، كما تقول الكتب. أنت ماضٍ في حلقة،

خلقتَ لنفسكَ مشكلةً ما لا نهاية لها، تحت وهم انك أنجزت شيئاً ما، وطوال الوقت كنتَ ببساطة ترسم قوساً كبيراً سخيفاً يعود الى النقطة التي كان قد بدأ منها، كالسنة المحيرة ذاتها. أنت تتيه هنا وهناك، من دون أن تصل البيت. هانز كاستورب ميز الظاهرة التقليدية بقناعة مروّعة ـ وحتى صفع فخذه بدهشة عند هذا النظام العام الدقيق الذي يكمل نفسه في حالته الخاصة.

كان الكوخ المهجور مسدوداً، الباب محكم الإغلاق، الدخول غير ممكن. إلا ان هانز كاستورب قرر أن يتوقف حالياً. السقف البارز أوهم انه ملجأ، والكوخ نفسه، في الجانب المتجه صوب الجبال، قدّم، وجد هو، بعض الحماية القليلة من العاصفة. أمال كتفه على دعامة الخشب الكبيرة المُنجزة بصورة غير ملساء المستخدمة في بناء الكوخ، بما ان زحلوقتيه الطويلتين منعتاه من إمالة ظهره. وهكذا وقف هو، مستنداً بصورة مائلة الى جدار الكوخ، غارزاً عصاه في الثلج؛ يداه في جيبيه، ياقته مرفوعة الى أعلى ما يمكن، مثبتاً نفسه على ساقه الواقعة الى الخارج، ومُسنداً رأسه الدائخ على الخشب، عيناه مغمضتان، إلا انه كان يفتحهما بين الفينة والفينة كي ينظر الى أسفل كتفه وعبر الأخدود الى حيث كان جدار الجبل الشاهق يظهر بصورة باهتةٍ ويتوارى عن الأنظار وسط الضباب الخفيف.

كان وضعه مريحاً نسبياً. «يمكنني أن أبقى هكذا الليل كله، إذا توجّب عليّ فعل ذلك»، فكّر، «إذا غيّرتُ الساقين من حينٍ الى حين، أستلقي على الجانب الآخر، إذا صح الكلام، وأتحرك قليلاً بين مدة وأخرى، كما ينبغي لي طبعاً فعل ذلك. أنا متيبس نوعاً ما، وهذا شيء طبيعي، غير ان الجهد الذي بذلته كان قد جمّع بعض الدفء الداخلي لذا فهو على أية حال، لم يكن عديم النفع كلياً، كوني أفقتُ طوال هذه الفرصة. يفيق من الإغماءة ـ لا يفيق من الإغماءة ـ هذا هو التعبير الإعتيادي الذي يستخدمونه، في ما يتعلق بالناس الغرقى أو الذين تجمدوا حتى الموت. ـ أعتقد انني إستخدمته لأن بالي لم يكن صافياً جداً، ربما. لكنه شيء جيد انني قادر على أن أمكث هنا؛ ذلك ان هذا الأذى المسعور لعاصفة ثلجية يمكن أن يستمر حتى الصباح من دون وخز ضمير، وإذا ما إستمرت العاصفة حتى حلول الظلام فستكون سيئة

بدرجةٍ كافية، ذلك انه في العتمة يكون خطر الدوران المستمر وليس الاستفاقة: كبيراً كما هو عليه خلال عاصفة. لا بد ان الوقت الآن قرابة المساء، نحو الساعة السادسة، ينبغي لي القول، بعد كل الوقت الذي هدرته في جولتي الدائرية. لنرَ، كم تأخرت؟» تلمس ساعته اليدوية، أصابعه المخدرة نادراً ما كانت قادرةً على العثور عليها وسحبها من جيبه. هي ذي، ساعة الصيد الذهبية خاصته، مع مونوغرامه على الغطاء، تتكتك باخلاص في هذا القفر المهجور، كقلب هانز كاستورب نفسه، ذلك القلب الإنساني المؤثِر الذي ينبض في الدفء العضوي لشخصه الداخلي.

كان الوقت الرابعة والنصف. لكن ليأخذه الشيطان، كان الوقت تقريباً بذلك المقدار قبل ان تنفجر العاصفة. هل من الممكن ان دورته المرتبكة كلها نادراً ما إستمرت ربع ساعة من الزمن؟ «[الإستفاقة من الإغماءة] تجعل الزمن يبدو طويلاً» لاحظ هو. «وعندما لا [تفيق من إغماءتك] ـ هل يبدو الزمن أطول؟ إلا ان الحقيقة تبقى انه في الساعة الخامسة أو في الخامسة والنصف سيكون قد حل الظلام الإعتيادي. هل ستتوقف العاصفة في الوقت المناسب كي تمنعني من الجري في دوائر كرةً أخرى؟ إفترض انني آخذ رشفةً من البورت ـ ربما يقويني.»

كان قد جلب معه قنينة من ذلك المشروب غير المتقن جداً، ببساطة لأنه يكون جاهزاً في قنان مسطحة في مصح بيرغهوف، للنزهات ـ مع انها، بالطبع، نزهات ليست كهذا الفرار المحرَّم. لم تكن معدةً خصيصاً لأناسٍ مضوا في الثلج وضلوا السبيل وكبّلهم الليل في الجبال. هل كان وعيه مشدوهاً أقل، لا بد انه خاطب نفسه إذا كان يعقد العزم على الوصول الى البيت، فهو تقريباً أسوأ ما يمكن أن يفعله. قال هو هذا، بعد أن إحتسى جرعات عدة، ذلك انها أثرت في الحال، وكان التأثير أشبه بكثير بتأثير بيرة (كولمباخر) التي شربها مساء وصوله مصح بيرغهوف، حين غاظ سيتيمبريني بثرثرته التي لا سبيل الى ضبطها حول صلصات السمك وما شاكل ـ السيد لودوفيكو، المعلّم، نفسه الذي جعل المجانين يتصرفون بصورة معقولة حين يطلقون العنان لأنفسهم. هانز كاستورب سمع عبر الهواء الخفيف الصوت

المعسول لبوقه، الخطيب والمدرس كان قد دنا منه بخطواتٍ إجبارية، كي ينقذ غرسته المزعجة، ابن الحياة الرقيق، من مروره اليائس الحالي ويقوده صوب البيت. ـ كان هذا كله بالطبع محض هراء، بسبب بيرة (كولمباخر) التي كان شربها بحماقة. ذلك ان السيد سيتيمبريني لم يكن بالطبع يملك بوقاً، كيف يقدر أن يحصل على بوق؟ كان له أرغن يدوي، تسنده ساق خشب من نوع خاص على الرصيف، وحين كان يعزف لحناً مرحاً، يرفع عينيه الإنسانيتين الى الناس في المنازل. فضلاً عن ذلك لم يكن يعرف أي شيء مما حدث، طالما انه لم يعد يسكن مؤسسة بيرغهوف، بل مع لوكاشيك، الخياط، في حجرته الصغيرة الواقعة في العلّية ذات قنينة الماء، فوق صومعة نافته الحريرية. فضلاً عن ذلك، لم يكن له الحق ولا العقل كي يتدخل في شؤون الآخرين ـ ليس ثمة ما هو أكثر مما حصل في ليلة الكرنفال التي وجد فيها هانز كاستورب نفسه في وضع مجنون وسيء تماماً كما هو عليه الآن، حين أعاد لـ كلاوديا شوشا المتوعكة قلمها الرصاص، قلمه، قلم بريبسلاف هيبه، الرصاص. أي وضع كان ذاك؟ أي وضع يمكن أن يكون هذا غير الوضع الأفقي، حرفياً وليس مجازياً وضع كل طويلي الأجل هنا في الأعالي؟ أليس هو نفسه مَنْ إعتاد الإستلقاء ساعات طويلة خارج المبنى، في الثلج والصقيع، في الليل والنهار على حدٍ سواء؟ وكان مستعداً لأن ينهار حين تستولي عليه الفكرة، تأخذه إذا صح التعبير من الياقة وتسحبه الى الأعلى وتجعله يقف، ذلك ان كل هذا الهراء الذي أطلقه ما زالت تلهمه بيرة (كولمباخر) والرغبة الشديدة اللاشخصية، النموذجية تماماً والتقليدية للإستلقاء والنوم، التي سمع عنها دوماً، التي بوساطة المراوغة والسفسطة تخدعه الآن.

«ذاك هو الطريق الخاطئ للذهاب الى العمل»، إعترف لنفسه.

«البورت لم يكن أبداً الشيء المناسب؛ فقط الرشفات القليلة منه جعلت رأسي جد ثقيل بحيث إنني لم أعد قادراً على حمله الى الأعلى، وأفكاري كلها مشوشة تماماً، مماحكة حمقاء مع الكلمات. لا أستطيع الإعتماد عليها ـ ليس فقط الفكرة الأولى التي تخطر في بالي، بل حتى الفكرة الثانية،

التصحيح الذي يحاول عقلي أن يجريه على الفكرة الأولى ـ وهذا شيء أكثر من مؤسف. [son crayon!]، ذلك يعني قلمها الرصاص، ليس قلمه الرصاص، في هذه الحالة؛ انك تقول فقط son لأن crayon مذكر. البقية لعب ضعيف جداً على الكلمات. تصور الكف عن الكلام عن ذلك حين تكون هناك حقيقة جوهرية أكثر؛ أي، ان ساقي اليسرى التي استخدمها كإسناد تذكرني بالساق الخشب فوق أرغن سيتيمبريني اليدوي، ذلك انه دأب على أن ينتخع فوق الرصيف بركبته، كي ينتصب قريباً من النافذة ويرفع قبعته المخمل للفتاة هناك في الأعلى كي ترمي فيها شيئاً ما. وفي الوقت نفسه، يبدو لي انني جُررتُ، كما لو بوساطة يدين، كي أستلقي في الثلج. الشيء الوحيد الذي ينبغي القيام به هو المشي. لابد لي أن أدفع ثمن (الكولمباخر) وأرشّق ساقي الخشب.»

دفع نفسه بعيداً عن الجدار مستخدما كتفه. وما هي إلا خطوة واحدة للأمام، حتى شرّحته الريح كالمنجل، وساقته الى الوراء الى ملجأ الجدار. انه لا ريب الوضع الدال على الوقت؛ ربما يغيّره بأن يدير كتفه اليسرى الى الجدار ويسند نفسه على ساقه اليمنى، مع اهتزازات متعددة للساق اليسرى، كي يحيي الدورة الدموية قدر الإمكان. «مَنْ يغادر المصح في جوٍ كهذا؟» قال. «ان نشاطاً معتدلاً أمر حسن؛ لكن ليس توقاً شديداً للمغامرة، ليس سلوكاً خجولاً مع عروس الريح. هدوء، هدوء ـ حين يكون الرأس ثقيلاً، دعه ينخفض. الجدار جيد، ودفء معين يبدو آتياً من جذوع الأشجار ـ أغلب الظن هذا الإحساس ذاتي تماماً ـ آه، الأشجار، الأشجار! أوه، المناخ الفعال لـ. .الحي ـ كم هي حلوة رائحته!»

كان ذلك متنزه. كان يقع أسفل الدكة التي يبدو انه واقف فوقها ـ متنزه ممتد ذو أشجار ظلية خضر خصبة، دردار، دلب، زان، بتولا، سنديان، كلها في الضوء والظل المرقشين لأوراقها الطازجة، الممتلئة، الوامضة، ورؤوسها المخشخشة بلطف. كانت تنفث عبيراً بلسمياً، ندياً بصورة فاتنة في الهواء. وابل دافئ من المطر مرَّ فوقها، إلا ان المطر كان مُناراً بضوء الشمس. بوسع المرء أن يرى عالياً في السماء ان الهواء كله مليء بالتموج

الساطع لقطرات المطر. كم كان محبباً الى القلب! أوه، عبير الوطن، أوه، شذا ووفرة السهل، الذي فُقد من زمن طويل! كان الهواء حافلاً بأغنية الطير ـ لذيذة، حلوة، لحن فلوت سعيد، نغم مزمار، سقسقة، هديل، ارتعاشات غناء، شدو، مع انه ما من مخلوق صغير واحد يمكن رؤيته. إبتسم هانز كاستورب مستنشقاً العرفان بالجميل. لكن هناك المزيد من الأشياء الجميلة التي تتهيأ الآن. القوس قزح قذف بقوة قوسه مائلاً عبر المشهد، ساطعاً جداً وكاملاً جداً، بهجة مطلقة، ألوانه صارخة لامعة، شريطية تومض برطوبة في الخضرة السميكة، اللماعة. كان أشبه بالموسيقى، أشبه بصوت قيثارات يمتزج مع صوت فلوتات وكمانات. اللون الأزرق والأرجواني كانا فائقين. وقد هبطا والتحما بصورة ساحرة، تحوّلا وتجليا للعيان من جديد بصورة محببة أكثر من ذي قبل. ذات مرة، قبل سنوات عدة خلت، شابنا هانز كاستورب نال إمتياز سماع مغنٍ إيطالي مشهور عالمياً ذي صوت صادح، إنساب من حنجرته جدول رائع كي يسحر العالم بفنٍ فاتن. أخذ المغني نوتةً موسيقيةً راقيةً، بصورة رائعة؛ ثم احتفظ بها؛ بينما كان التناغم العميق يتضخم، يتجلى، يتوهج من لحظة الى لحظة ببهاء جديد. خِمارات غير مشكوك فيها سقطت من أمامه الواحد تلو الآخر، الخِمار الأخير سقط تماماً، كاشفاً ما كان يقيناً نقاءً نغمياً مطلقاً ـ على أية حال لا، فقد سقط خمار آخر، ومن ثم سقط خمار ثالث وأخير لا يُصدق تقريباً، راجاً في الهواء تبذيراً من إشراق متلألئ كالدموع، شوش تمتمات الإحتجاج المنبعثة من الجمهور، كما لو انهم لم يعودوا قادرين على تحمل المزيد؛ وصديقنا الشاب وجد انه كان ينشج. ـ هكذا الآن مع المشهد الذي أمامه، الذي يتحول باستمرار ويتغير شكله الخارجي بنحوٍ متواصل أمام عينيه. الخِمار اللماع، الممطر سقط؛ وراءه إمتد البحر، بحر جنوبي بزرقة عميقة بل بأعمق زرقة تتخللها أضواء فضية، وذو خليج جميل، في أحد الجانبين مفتوح بطريقةٍ سديمية، وفي الجانب الآخر مطوّق بجبالٍ خطوطها المحيطية بهتت في المدى الأزرق. في الرقعة المنبسطة الوسطية تقع جزر، حيث إرتفعت أشجار النخيل طويلةً ومنازل صغيرة بيض ومضت بين بساتين السرو. آه، كانت هذه كلها كثيرةً

جداً، مُسعدة للأموات الآثمين، تلك الهالة من الضوء، ذلك الصفاء العميق للسماء، ذلك النقاء المشمس على الماء! مشهد كهذا لم يره هانز كاستورب من قبل، ولم يرَ مثيلاً له. في عطله نادراً ما كان يرتشف عند الجنوب، البحر بالنسبة له كان يعني المياه الشمالية، عديمة اللون، العاصفة، التي كان ملتصقاً بها بحبٍ طفولي يتعذر التعبير عنه بالكلام. هو لا يعرف شيئاً عن البحر المتوسط، نابولي، صقلية. وعلى أية حال ـ تذكّر هو. نعم، وهذا كافٍ بصورة غريبة، كان ذاك إدراك أثار مشاعره كثيراً، «نعم، نعم، انها الصورة ذاتها»، كان يصرخ هو، كما لو انه في قلبه كان قد أعز دوماً صورةً لهذه الجنة الواسعة، المشمسة. دوماً ـ وهذه الـ دوماً مضت بعيداً، بعيداً الى الوراء بصورة لا تُصدق، الى حيث البحر المفتوح هناك الى اليسار حيث يصل الى السماء الأرجوانية المنحنية من أجل اللقاء به.

كان الأفق عالياً، الرقعة المنبسطة بدت معدة لرؤية هانز كاستورب، الذي كان يخفض بصره من مرتفعه ناظراً الى الخليج الممتد في الأسفل. كانت الجبال تمسك به مطوّقاً، تلالها السفحية المكسوة بالشجر راكضة الى البحر؛ وصلته في نصف دائرة من منتصف الرقعة المنبسطة الى تلك النقطة حيث جلس، وما وراءها. تلك هي منطقة ساحلية جبلية، في نقطة ما منها كان قد جثم فوق دكةٍ حجرية مدفأة بالشمس، بينما أمامه الأرض، هابطة بين الفروة التحتية، بوساطة درجات حجرية مغطاة بالطحالب، نازلةً الى ساحل مستوٍ، حيث كونت الحصباء كثيرة القصب خلجاناً صغيرة ذات صبغة زرقاء، أرخبيلات ومرافئ شديدة الصغر. وكل المنطقة المشمسة، هذه المرتفعات الساحلية المفتوحة والأحواض الصخرية الضاحكة، كذلك البحر نفسه حتى الجزر، حيث كانت الزوارق تذرعه ذهاباً وإياباً، كانت مأهولة بالناس في كل موضع. في كل مكان بشر، أبناء الشمس والبحر، كانوا يتحركون حركاتٍ ضئيلةً أو يجلسون. مخلوقات بشرية جميلة في مقتبل العمر، جد سعيدة، جد وسيمة ومرحة، تُسر الناظر ـ لدى رؤيتها إنفتح فؤاد هانز كاستورب كله في حبٍ سريع الإستجابة، شديد تقريباً الى درجة الوجع.

كان ثمة شبان منشغلون مع الخيول، يمررون اليد على الرسن على

إمتداد ودائعهم الصاهلة، هازةً رؤوسها؛ ساحبين العنيدة منها في عنان طويل، أو بطريقة أخرى، منتصبين على أفراسٍ غير مسرجة، ضاربين حاضرات أفراسهم بأعقاب أقدامهم العارية، كي يسوقوها الى البحر. كانت عضلات ظهور الفرسان تتحرك بحرية تحت الجلد الذي صيّرته الشمس برونزياً، وكانت أصواتهم فاتنة لا تُضاهى بينما كانوا يصيحون على أحدهم الآخر أو على جيادهم. خليج صغير يتغلغل عميقاً في خط الساحل، عاكساً صورة الساحل كما تفعل بحيرة جبلٍ ما؛ حوله كانت الفتيات يرقصن. إحدى الفتيات كانت جالسةً وظهرها نحوه، بحيث ان عنقها، والشعر المسحوب الى عقدة فوقه سحراه بجمالهما. كانت جالسةً وقدماها في منخفض للصخر، تعزف على مزمار راعٍ، كانت عيناها تطوفان فوق أصابعها التي وضعتها فوق ثقوب المزمار الى صُويحباتها، بثيابٍ طويلة، عريضة، باسمات، يرقصن بأذرعٍ ممدودة، وحيدات أو في أزواجٍ يتمايلن برفق نحو إحداهن الأخرى، كن يَتحركن خلال خطوات الرقص. وراء عازفة الفلوت ـ هي أيضاً كانت مكسوةً بالبياض، وكان ظهرها طويلاً ورشيقاً، يبدو جانبياً ممتلئاً لدى حركة ذراعيها ـ كانت هناك فتيات أُخريات جالسات، أو واقفات مجدولات كي يشاهدن الرقص، ويتحدثن بهدوء. ووراءهن، كان ثمة شبان يتدربون على الرمي بالسهام. شيء محبب الى القلب وسار أن يشاهد المرء الأكبر سناً وهم يُرون الأصغر سناً، المبتدئين ذوي خصلات الشعر المجعدة، كيف يجسرون القوس ويسددون؛ يسحبون معهم، وضاحكين يسندونهم وهم يترنحون الى الوراء بسبب دفعة السهم وهو يثب من القوس. آخرون كانوا يصطادون السمك، يرقدون منبطحين على نتوءٍ من الصخر، هازين ساقاً واحدة في الهواء، حاملين الصنارة فوق الماء، مقربين رؤوسهم خلال الكلام. والبعض كانوا جالسين ماطين أنفسهم الى الأمام كي يقذفوا الطُعم الى أبعد ما يمكن. ثمة سفينة ذات صاري وعوارض الأشرعة[١٣٢]، ترقد عالياً خارج المد

---

(١٣٢) عوارض الأشرعة yards: عارضة الشراع: خشبة اسطوانية مستعرضة تُشد الى الصاري بغية تثبيت الأشرعة ـ المترجم.

والجزر، كانت أُريحت، دُفعت، وثبتت في البحر. كان ثمة أطفال يلعبون ويتهللون بين الأمواج المتكسرة. أنثى يافعة، ترقد ممددة، تسحب بيدٍ واحدة رداءها المزهر عالياً بين نهديها، مادةً الأخرى في الهواء نحو غصنٍ يحمل ثمرة وورقاً، كانت تحتفظ به لنفسها بهزل، مخلوقةٌ ثانية رشيقة الوركين، منتصبة عند رأس الأولى. الشبان والشابات كانوا جالسين في زوايا الصخور، أو يترددون على حافة الماء، بأذرع متصالبة تمسك أياً من الكتفين، بينما كانوا يختبرون البرودة المعتدلة بأصابع أقدامهم. أزواج من الشبيبة يتنزهون على طول الساحل، متكتمين وحسني الظن بالناس، شفاه الشبان عند آذان العذراوات. ماعز خشن الوبر تقفز من سلسلة صخر الى سلسلة صخر أخرى، بينما كان راعي الماعز الشاب، مرتدياً قبعةً صغيرةً جاثمةً على خصلات شعره البنية ذات حافة مرفوعة للأعلى، وقف يتطلع إليهم من مرتفع، يد واحدة على وركه، الثانية تحمل العصا الطويلة التي كان يستند إليها.

«أوه، محببون الى النفس، محببون الى النفس»، همس هانز كاستورب. «كم يبدون فرحين وساحرين، كم يبدون مفعمين بالنشاط وأصحاء، سعداء وأذكياء! لم يكن ذاك المظهر الخارجي وحده، هم يبدون حكماء ووديعين بكل ما في الكلمة من معنى. هذا هو الذي جعلني أُغرم بهم، المزاج النفسي الذي يعبّر عنهم بحرية، الإحساس، يمكنني تقريباً أن أقول، الذي كانوا يحيون به ويلعبون معاً.» الأمر الذي كان يقصده هو الود، الاحترام الدمث المتبادَل الذي يُبديه أبناء الشمس هؤلاء نحو أحدهم الآخر، اجلال هادئ، متبادَل محجوب بالبسمات، التي أُظهرت بصورة غير مُدرَكة بالحس، وعلى أية حال إمتلكوها كلها بفعل قوة الإحساس المرافق والمثل الأعلى المتأصل.

ثمة جلال، وحتى رزانة كانت محمولة، إذا صح التعبير، في محلول في مزاجهم المبتهج جداً، المحسوس فقط كتأثير روحي يفوق الوصف، جدية عالية من دون تزمت، طيبة معقولة تتحكم بكل فعل. هذا كله، الواقع، لم يكن يخلو من جانبه الإحتفالي. أم شابة، برداء بني محلول عند الكتف،

كانت جالسةً على حجر مستدير مكسو بالأشنات وترضع طفلها، حياها كل الذين مروا بإيماءة خاصة بدت وكأنها تدرك كل ما كان يربض ضمنياً في وضعهم العام. الشبان، حين كانوا يقتربون، برفقٍ وبصورة شكلية يشبكون أذرعهم على صدورهم، وينحنون باسمين؛ العذراوات إتخذن مسحة إنحناءة احترام، كما يفعل العابد حين يجتاز المذبح الرفيع، في الوقت نفسه يومئن برؤوسهن مراراً، بمرح وود. هذا المزيج من الإجلال الشكلي مع الود النابض بالحيوية، والطلعة المتوانية، المعتدلة للأم كذلك، حيث كانت تجلس ضاغطةً على ثديها بسبابتها كي تسهل تدفق الحليب الى طفلها، رافعة بصرها عن الطفل كي تعبّر عن شكرها باسمةً للإجلال الذي ضمروه لها ـ هذا المشهد هزَّ فؤاد هانز كاستورب بشيء ما مماثل جداً للنشوة. لم يكن يأخذ كفايته من النظر، على أية حال سأل نفسه بقلق ما إذا كان له الحق، ما إذا لم يكن ذاك في الأرجح عُرضة للعقاب، بالنسبة له، كونه غريباً، كي يكون مشاركاً في إبتهاج وجمال كل هؤلاء الناس السعداء. شعر انه مطرود بصورة مبتذلة وخرقاء. بدا ذلك مجرداً من المبادئ الأخلاقية.

غلام محبوب، شعره الكامل مسحوب جانبياً عبر جبينه ومتهدل على صدغيه، جلس تحته مباشرة، منفصلاً عن رفاقه، ذراعاه مطويتان على صدره ـ ليس حزيناً، ليس ردئ الطبع، ساكن تماماً في ناحية ما. هذا الصبي رفع بصره، حوّل عينيه الى الأعلى ونظر إليه، هانز كاستورب، وعيناه توسطا بين المُشاهد والمَشاهد التي فوق الشاطئ، شاهد مشاهَدته، ذهاباً وإياباً. لكنه بغتةً نظر مروراً بـ هانز كاستورب الى المدى، وتلك البسمة، المألوفة لهم جميعاً، التي تنم عن الإحترام الأخوي والمؤدب، تلاشت في لحظة من طلعته المحبوبة، المفصلة تفصيلاً تاماً، نصف الطفولية. حاجباه لم يكتئبا، إنما في نظره لاح وقار بدا كما لو انه منحوت من الحجر، خلو من المعنى، لا يسبر غوره، تكتم مميت، منح هانز كاستورب الذي نادراً ما أُعيدت طمأنته رعباً تاماً، يلازمه إدراك غامض لمعناه.

هو أيضاً نظر في الاتجاه نفسه. خلفه إرتفعت أعمدة شاهقة، مشيدة من

كتل حجرية (بلوكات) اسطوانية من دون قواعد، في مناطق إتصالاتها نما الطحلب. كونت هي واجهة بوابة معبد، على أساساتها كان يجلس هو، على قمة مجموعتين متواصلتين من درجات سلّم مع فراغ بينهما. مُجهد القلب نهض هو، ومرَّ عبر البوابة العالية في الأسفل نازلاً السلّم الى أحد الجانبين، وعلى امتداد شارعٍ من الحجر اللوحي، الذي أتى به حالاً أمام مداخل فخمة. اجتاز هذه أيضاً، وها هو ذا الآن يقف مواجهاً المعبد الذي يقع أمامه، ضخماً، مغيَّر اللون بسبب التعرض للعوامل الجوية الى الرمادي ـ الأخضر، على قاعدةٍ يتم الوصول إليها بوساطة مجموعة متواصلة من درجات سلّم شديدة الإنحدار. الجبين العريض للمعبد إستند على تيجان أعمدة قوية، متقزمة تقريباً، ضيقة من الأعلى ـ في بعض الأحيان كتلة حجرية محززة دُفعت بقوة خارج الصف ونتأت قليلاً في صورة جانبية. بصورةٍ مؤلمة، مساعداً نفسه معتمداً على يديه، ومتنهداً بسبب الغَم المتنامي الذي هيمن على قلبه، هانز كاستورب، صعد الدرجات العالية وبلغ بستان الأعمدة. كان معقداً جداً، تحرك فيه كما لو كان وسط جذوع الشجر في غابة زان عند البحر الشمالي الباهت. بصورة مقصودة تحاشى المركز، على أية حال بسبب ذلك كله مال الى الوراء ثانية، وحالياً وقف أمام مجموعة من التماثيل؛ شخصيتان أنثويتان منحوتتان بالحجر، على قاعدة عالية: أمّ وابنتها، كما لاحتا له، إحداهما جالسة، أكبر سناً من الأخرى، أكثر جلالاً، أشبه بمعبودة ملائمة ولطيفة، على أية حال كانت ذات حاجبين حزينين فوق محجري العينين الخاليين عديمي الضوء، مكسوة بـ تُنك[١٣٣] هفهاف ومعطف ذي طيات عديدة، جبينها الوقور مع أمواج شعرها مغطاة بخِمار. الشخصية الأخرى واقفة في عناق وحماية الأولى، ذات وجه مستدير، نضر، وذراعين ويدين ملفوفتين ومخفيتين في طيات المعطف.

وقف هانز كاستورب يتطلع الى مجموعة التماثيل، ولسبب غامض أمسى قلبه المحمّل أكثر ثقلاً، ومغتماً أكثر بعبء فزعه وكربه. نادراً ما كان

(١٣٣) تُنك tunic: رداء أغريقي أو روماني طويل يُشد بحزام حول الخصر ـ المترجم.

يجرؤ على المغامرة، بل تبع حافزاً داخلياً لا سبيل الى مقاومته، مضى خلف مجموعة التماثيل، وعبر صفي الأعمدة الأبعد منها. الباب البرونزي للحَرَم كان مفتوحاً، وركبتا الإنسان المسكين لم تكونا تقويان على شيء سوى الإنهيار تحته بسبب المشهد الذي في الداخل. إمرأتان هرمتان رماديتا اللون، أشبه بساحرتين، بأثداء متدلية وحلمات أثداء بطول الأصابع، كنَّ مشغولات هناك، بين مَجمَرات متوهجة، بصورة مفزعة. كنَّ يقطعن أوصال طفل. بصمت مرعب كنَّ يمزقنه إرباً إرباً بأيديهن المجردة ـ هانز كاستورب رأى الشعر اللامع الملطخ بالدم ـ ويسحقن العظام الطرية بين فكوكهن، شفاههن المرعبة تقطر دماً. إستولت عليه برودة جليدية. كان يلزمه أن يغطي عينيه ويلوذ بالفرار، لكنه لم يقدر. هنَّ في عملهن الملطخ بالدم كنَّ قد رأينه قبل الآن، هززن قبضاتهن المضرجة بالدم وأطلقن الشتائم ـ بلا صوت، بنحو خسيس جداً، بآخر قذارة، وباللهجة العامية لموطن هانز كاستورب هامبورغ. ذاك أورثه الغثيان، غثياناً لم يشعر بمثله من قبل. حاول بصورة يائسة أن يهرب؛ اصطدمت كتفه بعمود ـ وألفى نفسه، مع صوت ذلك الهدير المرعب الهامس ما يزال يرن في أذنيه، ما زال ملفوفاً بالرعب البارد له، مستلقياً عند كوخه، في الثلج، مستنداً على ذراع واحدة، ورأسه فوقها، ساقاه في زحلوقتيهما ممدودتان أمامه.

لم تكن تلك يقظة حقيقية. نظر بلا مبالاة الى إرتياحه كونه قد تحرر من تلك الساحرات المقيتات، بيد انه لم يكن متأكداً تماماً، ولا حتى مهتماً كثيراً، ما إذا كان هذا كوخ قش، أم عمود معبد، الذي كان قد تمدد عليه؛ وعلى وفق نمط ما إستمر يحلم، لم يعد يحلم بصور، بل بأفكار لا تقل تشوشاً وروعة.

«أحسستُ انه حلم، طوال الوقت»، تحدث بصورة غير مترابطة. «حلم محبوب ومرعب. كنتُ أعرف طوال الوقت انني كنت أصنعه بنفسي ـ المتنزه ذو الأشجار، الرطوبة اللذيذة في الهواء، والبقية كلها، مروِّعة وعزيزة معاً. بنحوٍ ما، كنت أعرفه كله مسبقاً. لكن كيف يستطيع أمرؤ ما أن يعرف هذا كله ويعيده الى الذاكرة كي يجلب له منتهى السعادة والرعب كليهما حالاً؟

أين أحصل على الخليج الجميل ذي الجزر، أين هو فناء المعبد، أين هما عينا ذاك الصبي الفاتن اللتان سددتا نظراتهما إليّ، بينما كان واقفاً وحده هناك؟ الآن أعرف اننا لا نحلم تعبيراً عن نفوسنا المستقلة. نحن نحلم مجهولي الأسماء ومشاعياً، إن لم يحلم كل منا على وفق نمطه. النفس الكبيرة التي نحن جزء منها ربما تحلم من خلالنا، بطريقتنا في الحلم، أحلامها السرية الخاصة، المتعلقة بشبابها، أملها، سعادتها وطمأنينتها ـ وتضحيتها بالدم. هنا أرقد عند عمودي وما أزال أشعر في جسدي البقية الواقعية لحلمي ـ الرعب الجليدي للتضحية الإنسانية، لكن أيضاً الغبطة التي ملأت قلبي حتى أعمق أعماقه، وُلدت بالسعادة والوقفة الجريئة لتلك المخلوقات الإنسانية المكسوة بالبياض. انه شيء ملائم ومناسب، ها أنذا أعلن أن لي حق مألوف كي أستلقي هنا وأحلم هذه الأحلام. ذلك انه في حياتي هنا في الأعالي عرفت العقل والتهور. تجولتُ ضائعاً مع سيتيمبريني ونافته في أمكنة راقية ومميتة. عرفتُ كل شيء عن الإنسان. عرفت الطبيعة البشرية للإنسان. أرجعتُ الى كلاوديا شوشا قلم بريبيسلاف هيبه الرصاص. لكن مَنْ يعرف الجسد، الحياة، يعرف الموت. وهذا ليس كل شيء؛ انها، إذا ما تحدثنا من الناحية التعليمية، البداية فقط. ينبغي للمرء أن يحصل على النصف الآخر من القصة، الجانب الآخر. ذلك ان الولع الشديد بالمرض والموت هو فقط تعبير آخر عن الولع بالحياة، كما يُبرهن على ذلك من خلال القدرة الإنسانية للطب، الذي يخاطب الحياة وأمراضها دوماً بأدبٍ جم باللاتينية، وهو فقط جزء من الشأن الكبير والملح الذي، بعاطفةٍ تامة، أسميه الآن بإسمه: الإنسان، ابن الحياة رقيق الصحة، الإنسان، حالته ومنزلته في الكون. أفهم عنه الشيء الكثير. فهمتُ الكثير من «أولئك المقيمين هنا في الأعالي»، كنتُ دُفعت الى هنا من الوادي بحيث أن النَفَس تقريباً غادر جسدي المسكين. على أية حال الآن من قاعدة عمودي ليس لي أدنى فكرة. حلمتُ بحالة الإنسان، بحالته الاجتماعية الدمثة والمنوَّرة؛ التي وراءها، في المعبد، إكتملتْ بالتضحية المرعبة بالدم. هل كانوا، أبناء الشمس أولئك، اللطيفين بصورة حلوة جداً مع أحدهم الآخر، يدركون بصمتٍ ذلك الرعب؟

كان إستنتاجاً دقيقاً وصحيحاً ذلك الذي إستنتجوه. سألازمهم، في روحي، سأظل لصيقاً بهم وليس بـ نافته، ولا بـ سيتيمبريني. كلاهما ثرثار؛ أحدهما مترف وحاقد، الآخر ينفخ الى الأبد في مزماره الصغير الخاص بالعقل، عبثاً يتخيل ان بوسعه أن يعيد المجانين الى رشدهم. انها مادية تامة ودرس أخلاقي، وبصورة أكيدة أكثر هي مجدّفة. ولست حتى مع نافته ضئيل البدن، أو دينه، انه مجرد مزيج من الله والشيطان، الخير والشر، بقصد أن الروح الفردية تغطس فيه الرأس أولاً، من أجل الغوص الزهدي في الكون. كلاهما معلم! نزاعاتهما وفرضياتهما المتعاكستان هما مجرد مزيج أيضاً، وضجيج مشوش لمعركة، لا تحتاج الى أن تزعج أحداً يحتفظ برأس صافٍ وقلب ورع. مشكلتهم الأرستقراطية! المرض، الصحة! الروح، الطبيعة! هل تلك تناقضات؟ اني أسأل، هل هي مشاكل؟ كلا، هي ليست بالمشاكل، ولا هي مشكلة ارستقراطيتهما. ان طيش الموت يكمن في الحياة. لن تكون حياةً من دونه ـ وفي المركز يوجد موقع الـ Homo Dei، بين الطيش والعقل، كحالته بين المجتمع الزاهد والفردانية الطنانة، أنا، من عمودي، أدرك هذا كله. في هذه الحالة يجب عليه أن يحيا بنبل، يتحد بمهابة ودية مع نفسه، ذلك لأنه أرستقراطي، والفرضيات المتضادة ليست كذلك البتة. الإنسان هو ربّ الفرضيات المتضادة، يمكنها أن تتخلله فقط، وهكذا فهو أرستقراطي أكثر منها. أكثر أيضاً من الموت، أرستقراطي جداً بالنسبة للموت ـ تلك هي حرية عقله. أرستقراطي أكثر من الحياة، أرستقراطي بالنسبة للحياة، وتلك هي التقوى في قلبه. ثمة تقفية وعقل معاً في ما أقول. صنعتُ قصيدة حلم من الجنس البشري. سأظل لصيقاً بها. سأكون في حال جيدة. لن أدع الموت يفرض سيطرته على أفكاري. ذلك انه في ذلك المكان تكمن الطيبة ومحبة البشر، ولا وجود لها في أي موضع آخر. الموت قوة كبيرة. المرء يخلع قبعته أمامه، ويمضي مترنحاً على رؤوس أصابعه. انه يرتدي طوق الرقبة المكشكش الجليل للإنسان الراحل ونحن نجلله بالسواد الحزين. العقل يقف تافهاً أمامه، لأن العقل مجرد فضيلة، بينما الموت هو إعتاق، إتساع، إنغماس في الملذات، رغبة. رغبة، يقول حلمي. شبق، وليس حباً، الموت

والحب ـ لا، لا أستطيع أن أصنع قصيدة منهما، إنهما غير منسجمين. الحب يقف معارضاً للموت. انه الحب، وليس العقل، أقوى من الموت. الحب وحده، وليس العقل، هو الذي يهب أفكاراً حلوة. ومن الحب والحلاوة وحدهما يمكن للشكل أن يأتي: الشكل والحضارة، بودٍ، نوّرا، الإتصال الإنساني الجميل ـ دوماً بإدراك صامت للتضحية بالدم. آه، نعم، حُلِمَ به بصورة جيدة وواقعية. قيّمتُ الأشياء. سأتذكر. سوف أبقى مخلصاً للموت في قلبي، على أية حال سأتذكر جيداً ان الاخلاص للموت والميت شرير، معادٍ للجنس البشري، عاجل جداً طالما اننا نمنحه سلطةً على الفكر والفعل. «من أجل الخير والمحبة، لن يدع الإنسانُ الموت يفرض سيادته على أفكاره» ـ ومع هذه ـ إستيقظتُ ـ ذلك انني حلمت به حتى النهاية، بلغتُ هدفي. طويلاً، طويلاً فتشتُ عن هذه الكلمة، في المكان الذي ظهر فيه هيبه لي، في شرفتي، في كل مكان. عميقاً في جبال الثلج قادني تفتيشي. الآن نلته سريعاً. حلمي أعطاني إياه، بوضوح تام، وأن بوسعي أن أعرفه الى الأبد. نعم، أنا في نشوات بسيطة، بدني دافئ، قلبي ينبض بصوتٍ عالٍ ويعرف سبب ذلك. انه لا ينبض بدوافع جسدية حسب، كما تنمو أظافر الأصابع على جثة؛ بل بصورة إنسانية، بل بدوافع مزاجي النفسي السعيد. كلمة الحلم خاصتي كانت جرعة، أفضل من البورت أو المزر(١٣٤)، انها تجري في عروقي كالحب والحياة، إنتزعتُ نفسي من حلمي ونومي، عارفاً، بصورة جيدة تماماً، انهما خطيران جداً على حياتي اليافعة. انهض، انهض! افتح عينيك! هذه هي أطرافك، ساقاك هنا في الثلج! استجمع قوتك، وانهض! أنظر ـ مناخ جميل!»

القيود التي قبضت بإحكام هي التي جعلت أطرافه ملتوية. كافح كفاحاً عسيراً كي يحرر نفسه ـ إلا ان الدافع الداخلي برهن على كونه أقوى. بهزةٍ رفع نفسه على مرفقيه، برشاقةٍ سحب ركبتيه الى الأعلى، دفع بقوة، تدحرج، كافح كي يقف على قدميه؛ داس بقوة بزحلوقتيه في الثلج، دفع

---

(١٣٤) المزر ale: شراب من نوع الجعة ـ المترجم.

ذراعيه بقوة حول أضلاعه وأعمل كتفيه بعنف، خلال ذلك كله ألقى نظرات متوترة، يقظة حوله وفوقه، حيث كانت سماء زرقاء باهتة تظهر نفسها الآن بين السُحب الرمادية ـ المزرقة، وهذه الغيوم إبتعدت تدريجياً وبإطراد كي يكتشف منجلاً نحيفاً للقمر. هيمن شفق مبكر: ما من هطول ثلج، ما من عاصفة. جدار الجبل المقابل بقمته خشنة السطح، المكسوة بالشجر إمتد أمامه واضحاً وهادئاً. سقط الظل على نصف إرتفاعه، غير ان النصف الأعلى كان يستحم في ضوء وردي باهت جداً. كيف كانت الأمور في العالم؟ أكان صباحاً؟ هل كان، على الرغم من مما قالته الكتب، راقداً طوال الليل في الثلج ولم يتجمد؟ ما من عضو في جسده آذاه الصقيع، لم يطقطق شيء حين داس بقوة، هز وأقحم نفسه، كما فعل بنشاط، طوال الوقت ساعياً الى ترسيخ حقائق وضعه. الأذنان، أصابع القدم، أطراف الأصابع كانت بالطبع خَدِرة، لكنها لم تكن خدرة أكثر مما كانت عليه دوماً في الليل في شرفته. بوسعه أن يأخذ ساعته من جيبه، هي ما تزال تعمل، هي لم تتوقف، كما تفعل إذا ما نسي أن يعبأها. هي لم تشر حتى الآن الى الخامسة ـ كانت في الواقع أبكر من ذلك بكثير، إثنتا عشرة، ثلاث عشرة دقيقة. انه شيء منافٍ للعقل! هل يحتمل انه رقد هنا في الثلج عشر دقائق لا غير أو نحو ذلك، بينما كل مشاهد الرعب والبهجة هذه وتلك الأفكار المتجرئة دوّمت نفسها في دماغه، الجلبة مسدسة الشكل تلاشت حالما وصلت؟ إذا كان ذلك حقيقياً، إذاً لا بد أن يكون شاكراً حظه السعيد؛ أي، من وجهة نظر الرجوع الآمن للبيت. مرتين إنعطافة كهذه أتت، في حلمه وخياله الجامح، طالما انها جعلته يجفل ـ مرة من الرعب، وثانية بسبب النشوة. بدا، الواقع، ان الحياة عنت شيئاً جيداً بالنسبة لإبنها رقيق الصحة المتجول وحيداً.

كونه ذلك كله ربما، وسواء كان الوقت صباحاً أو عصراً ـ الواقع لا ريب أن الوقت ما يزال في ساعة متقدمة من العصر ـ على أية حال، ليس ثمة شيء في الظروف أو في حالته الخاصة كي يحول دون ذهابه الى البيت، الأمر الذي فعله على وفق ذلك: هابطاً في حركة منحرفة جيدة، بأقصر الطرق؛ الى الوادي، حيث كانت الأضواء ظاهرة، حين وصله، مع ان دربه كان مضاءً

بصورة كافية من خلال الإنعكاس الآتي من الثلج. ترجل من (البريمينبول)، على إمتداد حافة الغابة، وكان في الدورف عند الساعة الخامسة والنصف. ترك زحلوقتيه عند حانوت البقال، إستراح قليلاً في صومعة السيد سيتيمبريني الواقعة في العلّية، وأخبره كيف باغتته العاصفة في الجبال. الإنساني المروَّع وبخه كثيراً، وفي الحال أشعل إبريقه الكحولي كي يغلي القهوة للشخص المنهَك ـ قوتها لم تمنع هانز كاستورب من أن يغط في النوم حالما جلس.

بعد مرور ساعة، عانقه الجو بالغ التحضر لمصح بيرغهوف. أكل كميةً هائلة من الطعام عند العشاء. ما حلم به كان قد إضمحل قبل الآن من باله. ما فكر به ـ حتى ذلك المساء نفسه لم يعد واضحاً جيداً كما كان في البداية.

جنـدي، وشجاعـة

كان هانز كاستورب قد تلقى أنباءً متكررةً من ابن خالته، رسائل قصيرة، في البدء كانت حافلةً بالأخبار الجيدة والبهجة، ثم تضاءلت هذه، بعدها وصلت أخيراً رسائل خطية حاولت أن تخفي شيئاً يبعث سماعه على الحزن. السلسلة المتوالية من البطاقات البريدية بدأت بالابلاغ المفرح ان يواكيم كان مع القوات المسلحة، وبوصف للمراسم المتعصبة التي فيها، كما صاغها هانز كاستورب بصورة ساخرة في رده، اختار أن ينذر نفسه لـ الفقر، العفة، والطاعة. المرة تلو المرة مرَّ يواكيم بيسر عبر مراحل مهنته المختارة، التي كانت صعوباتها قد مُهدت بوساطة إهتمام الأعلى منه مرتبة وحبه العميق للخدمة. هذا كله وصفه لابن خالته في رسائله الموجزة. كان قد أُعفي من واجب الذهاب الى الأكاديمية العسكرية، طالما انه درس قبل الآن بعض الفصول الدراسية، ومن مهنة البوّاق. بحلول السنة الجديدة سوف يرقى الى ملازم أول ـ وأرسل صورة فوتوغرافية لنفسه في بزة عسكرية لضابط. ان إخلاصه التام لروح السلطة التي خدمها، تلك السلطة المحترمة بصورة صارمة، قيود نظامها كانت كالحديد، التي على أية حال بطريقتها الهزلية المبهمة عرفت كيف تهب شيئاً ما لضعف الجسد، كانت جلية في كل حقل

نشاط متعجل. روى حكايات موضحاً الموقف المعقد بنحو غريب نحو الرقيب الأول سيء الطبع، المتعصب الذي سيكونه قريباً، المرؤوس الشاب المتخبط، الذي تخيل فيه، مع ذلك، الأعلى مرتبة والمأمور الذي سيكونه في الغد، والذي كان له الآن الحق في دخول كازينو الضباط. ذلك كله رائع جداً ومضحك. بعدها أخبره عن السماح له بالتهيؤ لامتحان الضباط. في مطلع نيسان (ابريل) كان ملازماً.

واضح انه لم يكن ثمة إنسان أسعد منه، ما من أحد يبزه في تكريسه المخلص لكينونته كلها للمهنة المختارة. بنوع من الغبطة الخجولة قال انه مرَّ من أمام الـ (راتهاوس) أول مرة، ببزة عسكرية كاملة، كيف أدى الخفير التحية العسكرية، وأومأ هو له برأسه من مسافة معينة. تحدث عن الاغاظات الصغيرة للخدمة ومكافآتها، عن الاخلاص الأبله لـ (بورش) خاصته، عن حوادث مضحكة على أرض الاستعراض العسكري وأثناء التدريس، عن التفتيش الرسمي، عن ولائم المحبة[١٣٥]. كما ذكر هو غالباً قضايا اجتماعية، زيارات، وجبات عشاء، حفلات راقصة. لم يذكر حتى كلمة واحدة عن صحته.

حتى قرب حلول الصيف. ثم كتب انه كان في الفراش، في إجازة مرضية، نزلة، مسألة أيام قلائل. عند بداية حزيران (يونيو) عاد للعمل ثانيةً. لكن في منتصف الشهر إنهار صحياً من جديد، وعانى بمرارة من سوء الحظ. ما كان بمستطاعه أن يخفي قلقه مخافة أن تفوته مناورات آب (اغسطس) العسكرية العامة التي كان يتطلع إليها الآن بلهفة. هراء! في تموز (يوليو) كان سليماً كالتوت، على مدى أسابيع عدة. لكن بعدها ظهر الفحص، الذي أُستحسن إجراؤه بسبب التقلبات الكريهة لحرارته، فجأةً في الأفق. في ما يتعلق بنتيجة هذا الفحص، هانز كاستورب على مدى أسابيع طوال لم يسمع عنها شيئاً البتة؛ وحين سمع، أغلب الظن تعبيراً عن الشعور

(١٣٥) وليمة المحبة love feast: وليمة تقام لاصلاح ذات البين أو لتوكيد عرى المودة ـ المترجم.

بالخزي، ربما بسبب حالته الجسدية، لم يكن يواكيم هو الذي كتب. أمه، لويزا زيمسين، هي التي أرسلت برقية. ذكرت ان الأطباء يظنون ان من الضروري لـ يواكيم أن يذهب في إجازة مرضية على مدى أسابيع: «الذهاب الى الجبال العالية ضرورة ملحة. الرحيل الفوري أمر مستحسن. إحجز غرفتين. الرد أجرته مدفوعاً سلفاً»، موقعة الخالة لويزا[١٣٦].

كان ذلك في نهاية تموز (يوليو) عندما ألقى هانز كاستورب، مستلقياً في شرفته، نظرة خاطفة على هذه البرقية، ثم قرأها، وقرأها ثانيةً. أومأ حين فعل ذلك، ليس برأسه بل بجذعه كله، وقال بين أسنانه: «نعم، نعم، نعم»، مثل سيتيمبريني. «يواكيم يعود» اجتاحته كأنباء سارة جداً. لكنه أمسى مكبوتاً في الحال، لدى تفكيره «هِمْ، هذه أنباء سيئة! ربما يسميها المرء ورطة. تباً! حدث هذا سريعاً. الوقت الآن ملائم لـ (البيت) ثانيةً. الأم تجيء معه.» هانز كاستورب قال الأم، ولم يقل الخالة لويزا. إحساسه بأسرته ذوى كثيراً بصورة غير واعية. «هذا شيء خطير. ومباشرة قبل المناورات العسكرية التي كان يتحرق شوقاً للذهاب إليها. هِمْ، هي يقيناً لعبةٌ قوامها «النصب» والإحتيال، انها تُلعب بنحوٍ حقير على يواكيم المسكين، انها النقيض التام للمثل الأعلى. الأمر الذي أعني به ان الجسد ينتصر، انه يريد شيئاً مختلفاً عن الروح، ويعبّر عنه من خلال ـ صفعة على وجه كل أولئك الناس ذوي العقول النبيلة الذين يلقنون ان الجسد تابع للروح. يبدو لي انهم لا يعرفون عن أي شيء يتحدثون، لأنهم لو كانوا محقين، فان حالة كهذه تضع الروح في ضوء مشبوه. اللبيب تكفيه الاشارة. ـ أعرف ما أعنيه. المسألة التي أثيرها هي الى أي مدى هم محقون حين يضعون الإثنين أعلاه أحدهما ضد الآخر؛ وما إذا لم يكونوا نوعاً ما في تواطؤ، يلعبون اللعبة ذاتها. هذا شيء لن يحدث أبداً لجماعة العقول النبيلة. أنا لم أقل ولا لحظة شيئاً ضد يواكيم و«عناده». انه روح الشرف ـ لكن ما هو الشرف، هذا ما أود معرفته، حين يعمل الجسد والروح معاً؟ هل من الجائز انك لم تكن قادراً على نسيان عطر

(١٣٦) في الفقرة الأخيرة تقصد المؤلف حذف علامات التنقيط، كما هو شائع في البرقيات، وحذونا في ترجمتنا حذو المؤلف ـ المترجم.

منعش معين، رغبة في القهقهة، صدر إمرأة منتفخ، كلها تنتظرك عند مائدة السيدة شتور؟ ـ «انه عائد!» عاد الى الفكرة بالإحساس السعيد نفسه. «انه آتٍ بشكل سيء، هذا شيء حقيقي، لكننا سنكون معاً من جديد، لن أحيا بعد الآن وحيداً هنا في الأعالي. وهذا شيء جيد. لن يكون الأمر مثلما كان من قبل بالضبط، غرفته أُخذت. السيدة مكدونالد تجلس هناك وتسعل؛ تسعل سعالاً عديم الصوت، وتواصل التحديق في صورة ابنها الصغير، على طاولتها أو في يدها. لكنها في المرحلة الأخيرة. لو لم يشغلها شخص آخر، يا سلام ـ لكن حالياً، لا بد أن يكون هناك شخص آخر. ثمانية وعشرون خالية، في حدود علمي. سأنزل الى المكتب ـ والى بيرنز أيضاً. هذه أنباء. من ناحية هي أخبار سيئة، ومن ناحية أخرى أنباء ممتازة ـ وعلى أية حال هي تغيير. مع ذلك أود أن أنتظر [الرفيق]، سيأتي حالاً، وأود أن أسأله إن كان ما زال على رأيه، في حالةٍ كهذه، ان الجسدي يُعد ثانوياً.

ذهب الى المكتب قبل الشاي. الحجرة التي كانت في باله، في الممر نفسه الذي تقع فيه حجرته، كانت خالية، وسيكون هناك مكان للسيدة زيمسين. أسرع الى بيرنز، ووجده في «المختبر»، سيجار في إحدى يديه، وفي اليد الأخرى أنبوبة إختبار تحوي سائلاً معتم اللون.

«سيد هوفرات، ما رأيك؟» بادره بالحديث.

«هنالك دوماً بلاء عظيم»، أجاب إختصاصي الرئة. «هنا عندنا روزنهايم من أوتريخت»، قال هو، وأشار بسيجاره الى أنبوبة الاختبار. «غافكي عشرة. وشميتز الصانع برز وقال لي انه بصق على الرصيف ـ بـ غافكي عشرة، إذا سمحت. كان يفترض بي أن أوبخه. طيب، إذا وبخته، سيؤدي ذلك الى شجار عنيف وما الى ذلك، لأنه سريع الغضب. كذبِ متقرّح الرأس، وهو وعائلته يشغلون ثلاث حجرات في المؤسسة. إن عنفته، الإدارة تعنفني على حدٍ سواء ـ شعرتُ بالضيق وان الكيل قد طفح. أرأيتَ أي نوع من المشاكل أصادفه كل دقيقة ـ وأنا توّاق جداً لمواصلة طريقي الخاص البسيط، غير ملوَّث من قبل العالم.»

«[شغلة] سخيفة»، قال هانز كاستورب، بفهم جاهز للساكن القديم.

«أعرفهما كليهما. شميتز إنسان لائق وطموح بصورة ممتازة، وروزنهايم ملوَّث كثيراً. لكن ربما توجد هناك بقع متقرّحة، فضلاً عن البقع الصحية. كلاهما ودي مع السيدة بيريز من برشلونة، الجالسة الى مائدة كليفيلد. تلك هي المشكلة الجوهرية، على ما أعتقد. لو كنتُ في مكانك سوف أُلفت النظر الى القاعدة عموماً، وبعدها أُغمض عيني في ما يتعلق بالبقعة.»

«ألم أفعل هذا؟ أُصبتُ بتشنج جفن العين الوظيفي الآن لأنني لم أفعل شيئاً آخر. لكن ما سبب نزولك الى هنا؟»

أبلغه هانز كاستورب بالأنباء الحزينة التي كانت مع ذلك مثيرة. لم يندهش هوفرات، وما كان ليندهش بأية حال. لكنه أُخبر أيضاً بترقية يواكيم؛ هانز كاستورب أخبره، سواء سأل هو أو لم يسأل، وعرف ان يواكيم رقد في الفراش في ايار (مايو).

«أها»، قال. «وماذا أخبرتك؟ ماذا أخبرتكما معاً، ليس مرةً واحدة بل مئات المرات، بكلمات كثيرة جداً؟ الآن إذاً حدث ما حدث. تسعة شهور لبى خلالها رغبة قلبه، وعاش في سعادةٍ وهمية. حسن، لم تكن هي جنة خالية من الأفاعي ـ كانت ملوثة بالجراثيم، وهذا ما يدعو للأسف. لكنه لم يصدق ما أخبره به الصغير هوفرات، وهكذا فقد كان حظه سيئاً، شأنه شأن البقية، حين لا يصدقون ما يقوله لهم عمهم الصغير هوفرات، ويثوبون الى رشدهم في وقت متأخر. كان قد رُقي الى أن أصبح برتبة ملازم، على أية حال، هذا ما ينبغي قوله. لكن ما نفع ذلك؟ الباري عز وجل يرى قلبك، وليس الشريط الزيني المجدول في سترتك، أمام جلالته كلنا في بذلات عيد ميلادنا، جنرالات وأناس إعتياديون على قدم المساواة...» تحدث بنحوٍ غير مترابط، دعك عينيه بيديه الضخمتين، هو ما يزال يحمل السيجار بين إصبعيه؛ ثم قال انه ينبغي لـ هانز كاستورب أن يعذره هذه المرة. بطبيعة الحال سيكون هناك مضجع لـ يواكيم، حين يأتي إبن خالته يلزمه أن يبقيه في الفراش، من دون إبطاء. بقدر تعلق الأمر به هو، بيرنز، انه لا يضمر حقداً لأحد من الناس، سيكون جاهزاً الآن ليرحب في بيته بالشخص المبذر ومثل أبٍ حنون يذبح العجل المسمَّن.

بعث هانز كاستورب برقيةً. أذاع انباء عودة إبن خالته، وكل من كان صديقاً للشاب حزن وشعر بالأسف؛ وشعروا بهذين الشعورين باخلاص تام؛ ذلك ان شخصيته المهذبة والشهمة كانت مُستحسنة من قبل الجميع، وثمة إحساس من نوع الأحاسيس التي لم يقلها أحد ان يواكيم كان أفضل الجميع هنا في الأعالي. لم نذكر أحداً بصورة خاصة؛ لكننا نميل الى الاعتقاد انه في مكانٍ ما ثمة قناعة تم الإحساس بها من خلال معرفة انه يتوجب على يواكيم أن يتخلى عن مهنة الجندية ويعود الى الحياة الأفقية، وانه في كل نقائه أضحى واحداً منهم هنا في الأعالي ثانيةً. السيدة شتور، بالطبع، كانت لها أفكارها طوال الوقت، الزمن الآن برر التلميحات المتهورة نوعاً التي أطلقتها حين ذهب يواكيم الى الأسفل، وانها لم تكن أسمى من المثل الذي ذكرته لك. «فاسدة أخلاقياً الى حدٍ ما»، أسمتها. كانت تعرفها هكذا منذ البداية، وكانت تأمل فقط ان زيمسين بعناده لا يجعلها فاسدة. كان اختيارها الكلمات مشروطاً بفظاظة فطرية تامة. كم سيكون الأفضل أن يقف المرء عند موقعه، كما فعلت، هي أيضاً، كانت لها حياتها هناك في الأسفل، في كانشتات، زوجان وإبنان، إلا إنها كانت قادرةً على أن تكبح عواطفها... لم يأتِ رد على البرقية. بقي هانز كاستورب في جهل تام في ما يتعلق بساعة أو يوم مجيء ابن خالته، وهكذا لم يكن قادراً على إستقباله في المحطة، بعد ثلاثة أيام، هو وأمه وصلا ببساطة. الملازم يواكيم، ضاحكاً ومستثاراً، برز للعيان فجأةً أمام ابن خالته خلال استراحة ـ علاج المساء.

كانت قد بدأت منذ لحظات. القطار نفسه جلبهما كما جلب هانز كاستورب، عندما، قبل سنوات خلت، سنوات لم تكن بالطويلة ولا القصيرة، بل سرمديةً، زاخرةً بالأحداث مع انها [زبدة لا شيء]، جاء أول مرة الى هذا المكان. كان زمن السنة نفسه أيضاً ـ أحد الأيام الأوُل من آب (أغسطس). يواكيم، كما أسلفنا، دخل بمرح حجرة هانز كاستورب، أو بالأحرى خارجها حيث شرفته، بخطواتٍ سريعة، وضاحكاً، لاهثاً، مضطرباً، حيّا ابن خالته. ترك كل ذلك الطريق الطويل وراءه، تلك الأميال من الأرض وتلك البحيرة التي كانت أشبه ببحر، ومن ثم شق طريقه مجتازاً

الممرات العالية الضيقة المتجمعة ـ وهو ذا يقف هنا، كما لو انه لم يرحل. ابن خالته إستيقظ فجأةً من وضعه الأفقي ورحب به بصيحةٍ و«حسن، حسن، حسن!» كان لونه طازجاً، شكراً لحياته، حياة الهواء الطلق، أو ربما لتورد السفر. أسرع مباشرة الى حجرة إبن خالته من دون أن يذهب أولاً الى حجرته، كي يحيي زميله، زميل الزمن الماضي، بينما كانت أمه ترتب نفسها في غرفة النوم المخصصة لها. كان عليهما أن يتناولا طعامهما في غضون عشر دقائق، بطبيعة الحال في المطعم. مؤكد أنه يتعين على هانز كاستورب أن يتناول شيئاً قليلاً إضافياً معهما، أو على الأقل أن يحتسي كأس خمر. ويواكيم جرّه الى رقم ثمانية وعشرين، حيث المشهد يُذكِّر بذلك المساء البعيد جداً حين وصل هانز كاستورب. الآن انه يواكيم، الذي، يتكلم بطريقةٍ محمومة، إغتسل عند حوض غسل اليدين اللامع، بينما كان هانز كاستورب يتطلع إليه، مندهشاً وبطريقة ما مخيَّب الرجاء كونه رأى إبن خالته في اللباس المدني. كان قد تصوره دوماً ضابطاً؛ لكنه هنا في «بذلة»رمادية اللون أشبه بأي شخص آخر. يواكيم ضحك، وقال انه إنسان بسيط. ترك بزته العسكرية في البيت، بالطبع. مسألة البزة العسكرية ليست بالبسيطة جداً ـ إذ لا يمكنك أن ترتديها في أي مكان. «أوه، شكراً جزيلاً»، قال هانز كاستورب. إلا ان يواكيم بدا غافلاً عن أي إساءة في ملاحظته هو واستمر، يسأل عن قضايا وأشياء في بيرغهوف، لا تخلو من أدنى لمسةٍ بالتلطف، بل حتى أثارها نوعاً ما المجيء الى البيت. ثم ظهرت السيدة زيمسين عبر الباب الذي يصل بين حجرتيهما، وحيّت إبن أختها بالطريقة التي يفعلها بعض الناس في هذه المناسبات؛ أي، كما لو انها اندهشت برضا لوجوده هنا. تكلمت بسوداوية مخفَفة، جزئياً بسبب الارهاق، وجزئياً بخصوص حالة يواكيم ـ وهبطوا لغرض تناول العشاء.

كانت لـ لويزا زيمسين نفس العينين الداكنتين والوديعتين والجميلتين اللتين يمتلكهما يواكيم. شعرها الذي كان أسود تماماً، لكنه إمتزج الآن بخطوط عديدة من الشيب، كان مقيداً بوساطة شبكة غير مرئية تقريباً؛ وهو نظام خاص بالهدوء المعتدل والمدروس لشخصيتها، التي كانت بسيطة، وفي

الوقت نفسه كانت جليلة ومُرضية. لم يشعر هانز كاستورب بالدهشة وهو يراها مرتبكة، وحتى منزعجة قليلاً، من حيوية يواكيم، تنفسه السريع وكلامه الطائش، الذي كان أغلب الظن غريباً على سلوكه سواء في البيت أو خلال الرحلة، فضلاً عن تكذيبه لحالته الحقيقية. كان حزن هذه العودة قد ترك فيها أثراً بالغاً، ووجدت أن إتخاذ وضع مخفَف شيء مناسب أكثر. كيف يمكنها أن تلج عواطف يواكيم الهائجة، وهذا يعزى جزئياً الى إحساسه انه عائد الى البيت، هذا الإحساس حالياً تفوق على كل ما عداه، وجزئياً الى حافز الهواء الخفيف بصورة لا تُضاهى، الخالي، ومع ذلك المهيج الذي يتنفسه الآن مرة أخرى؟ ذلك كله كانت تجهله تماماً. «غلامي المسكين»، فكرت، وهي تراه وابن خالته وقد إستسلما للمرح، كل منهما يخبر الآخر بمائة حكاية، كل منهما يسأل الآخر مائة سؤالاً، يتكئان في كرسييهما مع رنين الضحكات. «يا أولاد، يا أولاد!» احتجت أكثر من مرة؛ وفي الختام وجهت إليه توبيخاً معتدلاً بسلوكٍ ربما أسعد قلبها: «ياه، يواكيم، لم أرك في مثل هذه الحال من زمن طويل. يبدو كما لو انك كنت بحاجة للعودة الى هنا كي تكون كما في يوم ترقيتك.» لم تكن هناك حاجة أكثر لإخماد مزاج يواكيم الحيوي. أصبح كاملاً تماماً، لزم الصمت ولم يأكل شيئاً من الحلوى، مع انها كانت لذيذة جداً، نفيخة(١٣٧) الشوكولاته مع (الكريم) المخفوق. هانز كاستورب فعل ما إستطاع فعله بدلاً من إبن خالته، مع ان عشاءه الكافي كان قبل ساعة مضت. يواكيم لم يعد ينظر الى الأعلى ـ واضح لأن عينيه كانتا مخضلتين بالدمع.

إن نتيجةً كهذه كانت أبعد ما تكون عن نية السيدة زيمسين. كان ذلك حقيقةً من أجل اللياقة كونها حاولت أن تدخل قليلاً من الرزانة الى مزاج إبنها، من دون أن تدرك ان السلوك الوسط على وجه الدقة، الوسط الذهبي، كان مستحيلاً هنا في الأعالي، وان إختيار الإجراءات المتطرفة وحده الذي

(١٣٧) النفيخة Souffle (بالفرنسية): كل طعام يُخبز على نحو منفوخ أو مزبد ويدخل في صنعه البيض المخفوق، ومثال عليه: العوّامات ـ المترجم.

يُقدّم للمرء. حين شاهدته منسحقاً، بدت هي نفسها على شفير البكاء، وكانت شاكرةً جداً لابن شقيقتها على جهوده النبيلة في تقويم توازن الوضع. نعم، قال، يواكيم سيجد هنا تغييرات في سكان مصح بيرغهوف، ثمة أناس جدد، ولكن من الجانب الآخر، بعض الذين غادروا رجعوا من جديد. في سبيل المثال، خالة الأم وودائعها جلست مرةً أخرى الى مائدة السيدة شتور، وماروسيا ما تزال تضحك كثيراً كما في أي وقتٍ مضى.

يواكيم لم ينبس ببنت شفة. غير ان السيدة زيمسين ذُكِّرت هكذا بأنه حدث انهما إلتقيا شخصاً أرسل تحاياه، التي يجدر بها أن توصلها الى أصحابها طالما انها فكرت بها. حصل ذلك في مطعم بـ ميونيخ، حيث أمضيا نهاراً بين سفرتين ليليتين. إمرأة ـ ليست شخصاً غَير عاطفي، مع انها لا يصاحبها أحد، وبحاجبين مستويين جداً تقريباً ـ أقبلت الى مائدتهما كي تحيي يواكيم. كانت مريضة هنا في الأعالي، يواكيم يعرف ـ

«السيدة شوشا»، قال يواكيم، بصوت خفيض. كانت تمضي بعض الوقت في مشفى (ألغاو)، وكانت تروم الذهاب الى إسبانيا خلال فصل الشتاء. بعثت تحياتها.

لم يكن هانز كاستورب شاباً قليل التجربة، كانت له سيطرة على الأعصاب التي ربما تجعل الدم يندفع الى الوجه أو يغيب عنه. قال: «أوه، هي إذاً ظهرت من وراء القوقاز ثانية، أليس كذلك؟ وهي ذاهبة الى اسبانيا؟»

ذكرت المرأة موضعاً في الـ (بيرينيه). إمرأة جميلة، أو في الأقل جذابة. صوت لطيف، إيماءات جميلة. إلا ان سلوكها حر، رخوة، هكذا ظنت السيدة زيمسين. «كانت تتحدث إلينا كما لو كنا أصدقاءً قدامى، حكت عن نفسها، وجهت أسئلةً، مع ان يواكيم بدا كما لو انه لم يكن يعرفها حقيقةً. في إعتقادي انها غريبة الأطوار بعض الشيء.»

«هذا هو الشرف ـ والمرض»، أجاب هانز كاستورب. «يجدر بالمرء أن لا يحاول أن يقيسها بحسب المعايير الإنسانية.» إعتقد انه تذكر انها كانت تنوي القيام برحلة الى إسبانيا. هِممم، إسبانيا. ذلك البلد أيضاً يقع بعيداً عن

المتوسط الإنساني، مع انه الى جانب الصرامة أكثر منه الى جانب الرقة. هناك لا يتم الحصول على نقص بل على زيادة في الشكل؛ الموت نفسه كان في زي الشكل، ليس الإنحلال ـ السواد، منقى، متعطش للدم، محكمة التفتيش، طوق رقبة مكشكش صلب، لويولا، الإسكوريال، الخ ـ هِمهم، نعم، كان ذلك ممتعاً؛ ساءل نفسه ما الذي ستقوله السيدة شوشا الى اسبانيا. لعلها قطعت عادة صفق الأبواب ـ وربما مزج الحدين الأقصيين سيقربانها أكثر الى الوسط الإنساني. مع ذلك، فإن شيئا مرعبا، وإرهابيا الى حدٍ ما، ربما يحدث إذا ما ذهب الشرق الى إسبانيا...

لا، هو لم يشرح ولم يتورد؛ غير ان الإنطباع الذي تركته فيه الأنباء كشف عن خططه الحقيقية مع ذلك؛ في حديث كهذا لا شيء يمكن أن يسود غير الصمت المرتبك. يواكيم، بالطبع، كان أُخذ على حين غرة أقل من أمه، كونه تعرّف من وقتٍ سابق على سرعة التأثر العقلي لإبن خالته هنا في الأعالي. إلا ان قلقاً كبيراً لاح في عينيّ السيدة زيمسين، كما لو ان ابن شقيقتها كان تلفظ بملاحظةٍ غير لائقة وغير مهذبة؛ وبعد توقف موجع وضعت حداً لإلتئام الشمل بأن نهضت من المائدة، بتعبير موجز أو ما الى ذلك قاصدة تمويه الموقف. قبل ان ينفصلوا، أخبرهما هانز كاستورب أن أمر بيرنز يقضي بأن يلازم الفراش حتى الغد، أو الى أن يأتي لفحصه. أما الشيء المتبقي فسوف يتم إقراره لاحقاً. في الحال الأقرباء الثلاثة اضطجع كل منهم في حجرته، والباب مفتوح لطراوة ليلة الصيف في هذا العلو، وكل منهم إختلى مع أفكاره: كانت أفكار هانز كاستورب تتعلق بشكل رئيس برجوع السيدة شوشا، المتوقع حصوله في بحر ستة شهور.

هكذا كان مجيء يواكيم الى البيت ـ من أجل نقاهةٍ قصيرة الأمد. هذا التعبير كان أُطلق بصورة جلية هناك في الأسفل، وأمسى رائجاً هنا أيضاً، حتى هوفرات بيرنز تبناه، مع ان أول شيء فعله هو أن عاقب يواكيم بأربعة أسابيع في «المطبخ الكائن على ظهر السفينة» كطريقةٍ لإصلاح الضرر الواضح جداً، مؤقلماً إياه من جديد، ومنظماً منزله على قدر تعلق الأمر بدرجة

الحرارة. كان حذراً بحيث تجنب وضع أي حد لمدة «النقاهة». السيدة زيمسين، حساسة، بصيرة، لم تكن متفائلةً جداً إلا عند بقائها الى جانب سرير يواكيم، فقد ذكرت ان الخريف، لعله تشرين الأول (أكتوبر)، سيكون نهاية هذه النقاهة، وبيرنز أذعن، في الأقل الى درجة قوله انهما مع ذلك سيكونان الى حدٍ أبعد أكثر تفاؤلاً آنذاك مما هما عليه الآن. السيدة زيمسين أحبته حباً جماً. كان سلوكه معها لطيفاً كيّساً؛ كان يسميها «سيدتي العزيزة جداً»، بمراعاة لرغباتها ينظر إليها بعينيه المحتقنتين بالدم؛ وتحدث بتلك اللغة الإصطلاحية الخاصة بطالب جامعة ألمانية انها على الرغم من الكآبة ينبغي لها أن تضحك دوماً. «أعرف انه وقع في أفضل الأيدي»، قالت؛ وبعد مكوث دام اسبوعاً عادت الى هامبورغ، طالما ان يواكيم لم يعد بحاجة الى رعاية، وان ابن خالته كان معه دوماً.

«أرحْ قلبك»، قال هانز كاستورب لـ يواكيم، جالساً عند سريره في رقم ثمانية وعشرين. «سوف ترحل بحلول الخريف، الألماني كبير السن تعهد تقريباً بهذه المدة. يمكنك أن تتطلع إليه كونه نهايةً ـ تشرين الأول. في ذلك الشهر بعض الناس يذهبون الى إسبانيا، ويمكنك أن تعود الى [العَلَم] خاصتك، كي تميز بنفسك التنفيل[(١٣٨)] السابق...»

أمست مهمته اليومية أن يواسي إبن خالته بسبب شعوره بخيبة الأمل كون المناورات العسكرية فاتته، فهي تبدأ في هذه الأيام من آب (أغسطس). لم يكن بمستطاع يواكيم أن يفكر في شيء آخر، وعبّر عن أعظم إزدراء للذات عند هذا التراخي الكريه الذي أصابه في الدقيقة الأخيرة.

«تمرد الجسد»، قال هانز كاستورب. «ما الذي تستطيع أن تفعله بشأنه؟ أشجع الضباط لا يقدر أن يفعل شيئاً ـ حتى القديس أنطوني كانت له تجاربه الصغيرة معه. أستغفر الله، ألا تأتي المناورات العسكرية سنوياً ـ ويقيناً انك تعرف كيف يطير الزمن هنا في الأعالي. انك لم تذهب زمناً طويلاً بحيث

---

(١٣٨) التنفيل Supererogation: اداء عمل زائد على ما هو مفروض أو مطلوب ـ المترجم.

انك لن ترجع الى المشية بسهولة تامة، وقبل أن يرتد إليك طرفك تكون مدة نقاهتك الصغيرة قد إنتهت.»

غير ان إنعاش إحساسه بالزمن، الذي سبّبه بقاء يواكيم في الوادي، كان كبيراً جداً بحيث انه لم يتمالك نفسه من التطلع بفزع الى الأسابيع الأربعة القامة. الحقيقة أن كل امرىء، بذل قصارى جهوده كي يخفف من وطأة الزمن عليه؛ التعاطف تم الإحساس به في كل مكان ذلك ان الشخصية المهذبة للضابط الشاب عبّرت عن نفسها في زيارات كثيرة قام بها الآخرون، جاء سيتيمبريني، كان مشبوب العاطفة وفاتناً، وأسمى يواكيم Capitano[١٣٩]، بدلاً من ملازم كالسابق. نافته كذلك زاره، وكل المعارف القدامى في المصح إستفادوا من ربع ساعة للجلوس عند سريره، أعادوا التعبير الموجز المتعلق بالنقاهة قصيرة الأمد، وسمعوا أخباره. السيدات كن: شتور، ليوي، إلتيس وكليفيلد، النبلاء فيرجه، فيسال وآخرون. جلبوا له حتى باقات أزاهير. حين إنتهت الأسابيع الأربعة غادر فراشه، كانت حرارته قد أصبحت تحت السيطرة بدرجة ما بحيث انه لن يصاب بأذى إذا ما تحرك هنا وهناك. بدأ يتناول وجبات غذائه في حجرة الطعام، عند مائدة ابن خالته، جالساً بينه وبين زوجة صانع البيرة، السيدة ماغنوس، قبالة السيد ماغنوس، المكان الذي شغله مرةً الخال جيمس، وعلى مدى أيام قلائل السيدة زيمسين أيضاً.

هكذا شرع الشابان يعيشان مرة أخرى جنباً الى جنب. أجل، بل حتى أكثر من قبل، السيدة ماكدونالد لفظت آخر أنفاسها، وصورة إبنها الصغير في يدها، وحجرتها، المجاورة لحجرة ابن خالته، أُعيدت الى يواكيم، بعد أن أُخليت بكل معنى الكلمة، من البكتريا بوساطة H_2CO. في الواقع وبنحو أكثر دقة، ينبغي القول ان يواكيم الآن سكن الغرفة الملاصقة لغرفة هانز كاستورب، بدلاً من أن نقول العكس: الأخير الآن هو الساكن القديم، ابن خالته شاركه حياته فقط مؤقتاً ووقتياً. يواكيم تشبث بقوة بالنهاية الأكتوبرية ـ

(١٣٩) Capitano (بالإيطالية): نقيب، أو قبطان ـ المترجم.

مع ان جهازه العصبي رفض أن يعير نفسه للمبدأ الإنساني، ورفض إشعاعاً معادلاً من الحرارة.

ابنا الخالتين إستأنفا زياراتهما الى سيتيمبريني ونافته ومسيراتهما الراجلة مع الخصمين المخلصين. حين إنضم إليهم أي. كي. فيرجه وفيسال، وهذا ما حدث كثيراً، كوّنوا مجموعة مؤلفة من ستة أشخاص، وأمام هذا الجمهور الجدير بالاعتبار، فإن الشخصين المتضادين واصلا نزاعاً لا نهاية له، لا نستطيع أن ننسخه بأي غنى من دون أن نضيّع أنفسنا، كما يحدث ذلك يومياً، في كمية لا متناهية من القنوط. هانز كاستورب إختار أن يعد نفسه المسكينة موضوعاً لمنافستهما الجدلية. عرف من نافته ان سيتيمبريني كان ماسونياً، هذه الحقيقة أثرت فيه بالقدر نفسه الذي فعلته ملاحظة سيتيمبريني المبكرة ان نافته كان يسوعياً. كان مندهشاً بصورة لا معقولة تماماً لسماع انه ما تزال هناك أشياء كالماسونيين؛ وبإتقان أمطر الإرهابي بوابلٍ من الأسئلة عن منشأ ومغزى هذه الجماعة الغريبة، التي ستحتفل في غضون سنوات قلائل بعيد ميلادها المائتين. حين تكلم سيتيمبريني وراء ظهره عن نافته وميوله الفكرية، فقد جرى ذلك دوماً بملحوظة محببة من التحذير، مع تلميح بأن الموضوع كان له سمة شيطانية ليست بالقليلة. لكن حين فعل نافته الشيء نفسه، سخر من العالم الذي مثّله الآخر، ودفع هانز كاستورب الى أن يفهم الأشياء التي ناضل سيتيمبريني من أجلها كانت كلها مواضيع ميتة؛ الفكر الحر والتنوير البورجوازي كانا وهمين مثيرين للشفقة من الأمس، مع انهما ميالان الى خداع الذات الأمر الذي يجعلهما إضحوكة: أي، انهما ما يزالان مليئين بالحياة الثورية. قال نافته: «ياه، جدهُ كان Carbonaro ـ أي بمعنى ما، وقاد فحم نباتي. منه إكتسب إيمان وقاد الفحم النباتي في العقل، الحرية، التقدم البشري، العلبة الكاملة للحيل العائدة لأيديولوجية الفضيلة الكلاسيكية ـ الإنسانية. كما تعرف، ان ما يحيّر العالم هو التفاوت بين خفة حركة الشخص، واللاعملية الهائلة للمادة، بطؤها، كسلها وبقاؤها. يجدر بنا أن نعترف ان هذا التفاوت سيكون كافياً لأن نتغاضى عن قلة ولع الشخص بالواقع، ذلك ان القاعدة هي انه (أي الواقع) مرض قبل الإهتياجات بوقتٍ

طويل، الإهتياجات التي جلبت الثورة في قطارها. الحق الحق، النفس الميتة بغيضة بالنسبة للإنسان الحي أكثر من المادة الميتة، أكثر من الجرانيت في سبيل المثال، الذي لن يطالب بأن يكون حياً. هذا الجرانيت، تذكار لواقعٍ موغل في القِدم تركه وراءه الشخص الذي يرفض بعد الآن أن يرافق معهَ مفهوم الواقع، يواصل وجوداً بطيئاً، وباستمراره البسيط والبليد يمنع العبث من أن يغدو واعياً انه عبثي. أنا أتحدث بمصطلحات عمومية، غير انك تعرف كيف تخصص كلماتي لذلك الفكر الحر الإنساني الذي يتصدر نفسه كونه ما يزال في وضع بطولي من مقاومة السلطة والهيمنة. آه، والكوارث، بفضلها يعتقد هو انها تثبت حيويته، الإنتصارات المثيرة المتأخرة أبداً التي عندها يكون مستعداً للحضور، ويفكر أن يحتفل بها ذات يوم! الشخص الحي يموت من السأم الناجم عن التفكير الصريح في هذه، هذا الشخص ألم يكن يعلم انه من هذه الكوارث هو وحده يستطيع أن ينبثق ظافراً، يُلحم عناصر القديم والجديد كي ينتج الثورة الحقيقية - كيف هو ابن خالتك اليوم، هانز كاستورب؟ أنت تعرف أي عاطفةٍ عميقة أضمرها له.»

«شكراً، سيد نافته. يبدو ان الجميع يحسون الإحساس ذاته نحوه هو، كونه غلاماً طيباً. حتى السيد سيتيمبريني أذِن له بالدخول عن طيب خاطر، على الرغم من كرهه لذلك النوع من الإرهاب في مهنة يواكيم. والآن أسمع ان السيد سيتيمبريني ماسوني! تصوّر! ينبغي لي القول ان هذا دفعني الى التفكير. هذا الأمر وضع شخصيته في ضوء جديد، وأوضح أشياءَ معينة لي. هل يطوف هو واضعاً قدمه بزاوية قائمة ويصافح بقبضةٍ إستثنائية؟ لم أرَ شيئاً -»

«صديقنا الكفء من الدرجة الثالثة ربما كسب أبعد من هذه الصبيانية»، فكر نافته. «أتصور ان المحافل الماسونية قلصت شعائرها الدينية كثيراً، إستجابة للمادية الفاشلة القاحلة لزمننا. انهم أغلب الظن يحمرون خجلاً بسبب طقسية الحقب الزمنية السابقة كونها شعائر سخيفة متهورة، وهي لا تخلو من العقل، ذلك انه شيء سخيف أن نقدم جمهوريانيتهم[١٤٠] الإلحادية

(١٤٠) الجمهوريانية republicanism: التمسك بالنظام الجمهوري - المترجم.

في هيئة لغز. لا أعرف بأي ضربٍ من الرعب اختبروا ولاء السيد ستيمبريني؛ لعلهم قادوه معصوب العينين عبر ممرات معتمة وجعلوه ينتظر في سراديب مظلمة قبل صالون الإجتماع السري، المليء بالأضواء المنعكسة، التي برزت لعينيه فجأةً. ربما إستجوبوه بوقار، عرّضوا صدره العاري للخطر بوساطة السيوف بمصاحبة الجمجمة البشرية رمزاً للموت وثلاثة أشياء مستدقة الطرف. يلزمك أن تسأله بنفسك؛ لكنني أخشى أنك ستنال قناعة صغيرة، ذلك انه حتى إذا كانت الإجراءات مروّضة أكثر من هذه، على أية حال كان لا بد له أن يحلف بالصمت.»

«يحلف؟ بالصمت؟ هُم، إذاً، يفعلون ذلك أيضاً؟»

«أكيد. الصمت والطاعة.»

«الطاعة أيضاً. لكن إصغِ، بروفيسور، يبدو لي إذاً، انه لم تكن له فرصة كي يتوقف عند الإرهابية في مهنة إبن خالتي. الصمت، والطاعة! ما كنتُ أعتقد ان ملحداً مثل السيد ستيمبريني سيخضع لحالاتٍ إسبانية صريحة جداً وتعهدات. أفهم ان الماسونية تنطوي حقاً على شيء عسكري ويسوعي.»

«ملاحظتك صائبة تماماً»، أجاب نافته. «عصا قيادتك تنتفض وتقرع. ان فكرة الجمعية متجذرة في، ومرتبطة بصورةٍ يتعذر فصلها مع: [المطلق]. بالنتيجة، تكون هي إرهابية؛ أي بمعنى مناوئة للفكر التحرري. انها ترفع العبء عن الضمير الفردي وتكرّس بإسم [المطلق] كل الوسائل حتى إراقة الدم، حتى الجريمة. ثمة بعض الدعم لوجهة النظر التي مفادها ان تعهدات الأخوة كانت ذات مرة مختومة رمزياً بالدم. الأخوة لن تكون تأملية النزعة بصورة خالصة. بطبيعتها الخاصة لا بد لها أن تكون تنفيذية، لا بد لها أن تنظم. لعلك لا تعرف ان مؤسس [الطبقة المستنيرة]، وهي جمعية كانت قد تم مطابقتها تقريباً على مدى زمن طويل مع الماسونية، كان عضواً سابقاً في الجمعية اليسوعية؟»

«بلى، هذا يقيناً شيء جديد بالنسبة لي.»

«آدم فيشويت كوّن نظامه الخيري السري بكل معنى الكلمة على نموذج

الجمعية اليسوعية. هو نفسه كان ماسونياً وكان أحسن أعضاء المحفل الماسوني سمعةً لذلك الزمن هم [الطبقة المستنيرة]. أنا أتكلم عن النصف الثاني من القرن الثامن عشر، الذي لا يتردد سيتيمبريني في أن يصفه كونه فترة إنحطاط جمعيته. الواقع كانت تلك فترة إزدهارها القصوى، من بين الجمعيات السرية كلها عموماً، وهو زمن بلغت فيه الماسونية حياةً أسمى، والتي «طُهرت» لاحقاً بوساطة رجال من طابع صديق البشرية خاصتنا هنا. في ذلك الزمن كان يقيناً ينتمي الى أولئك الذين وبخوها باليسوعية والظلامية[١٤١].»

«هل هناك دوافع لهذا التوبيخ؟»

«أجل ـ إذا فضلت أن تطلق عليه هذه التسمية. ان التفكير الحر السطحي لتلك الحقبة كان يتبنى ذلك الرأي. كانت تلك الحقبة الزمنية عندما حاول [آباء] ديننا أن ينشطوا الجمعية وذلك بأن ينفخوا فيها الأفكار الكاثوليكية ـ الكهنوتية ـ في ذلك الزمن، كان هناك محفل يسوعي للماسونية في كليرمون، بفرنسا. وكان ذلك الزمن الذي دخلت فيه الروزيكروشية[١٤٢] المحافل الماسونية، تلك الأخوة اللافتة، التي، سوف تلاحظ، كانت إتحاداً خاصاً للأفكار المنطقية الخالصة المتعلقة بالتقدم السياسي والإجتماعي والبرنامج الألفي، هي ذات عناصر شرقية من دون ريب، الفلسفة الهندية والعربية والمعرفة السحرية للجوهر. ان إصلاح وتنقيح المحافل الماسونية الذي جرى وقتذاك كان في إتجاه نظام صارم بمعنى لا منطقي بنحو واضح وصوفي سحري، خيميائي، الذي يدين له [الطقس الإسكتلندي] بوجوده. هذه درجات من الفروسية أُضيفت الى الرتب العسكرية القديمة لـ الغلام الممهن، العامل المياوم، والأستاذ؛ الرتب العليا التي نشأت في الكهنوتية، والتي كانت زاخرة بالتصوف الروزيكروشي. هناك نشأ ضربٌ من التقولب مع بعض

(١٤١) الظلامية obscurnatism: نزعة الى إعاقة التقدم وانتشار المعرفة ـ المترجم.

(١٤٢) الروزيكروشية Rosicrucianism: مذهب تزعم جمعياته السرية انها تملك معرفة سرية للطبيعة والدين. اشتهرت في القرنين السابع عشر والثامن عشر ـ المترجم.

الأخويات الروحية والفروسية التي كانت موجودةً في القرون الوسطى، في سبيل المثال، [فرسان الهيكل]، كما تعرف، الذين نذروا أنفسهم للفقر، للعفة، والطاعة أمام بطريرك القدس. حتى اليوم ثمة درجة عالية في الماسونية تحمل عنوان [غراندوق القدس].»

«كل هذه جديدة بالنسبة لي، سيد نافته. لكنني أخذت أعرف حيل السيد سيتيمبريني. [غراندوق القدس] ـ ذلك لا بأس به، لا بأس به على الاطلاق. يلزمك أن تسميه هكذا أحياناً، من باب المزاح. ذات يوم أسماك هو [الطبيب الملائكي]، لِمَ لا تثأر منه؟»

«أوه، ثمة حشد أكبر من هذه العناوين في المراكز المهمة العليا من [فرسان الهيكل]. هناك [سيد الماضي الكبير]، [فارس الشرق]، [الكاهن ـ الأعلى الكبير] ـ الدرجة الحادية والثلاثين تُدعى [الأمير النبيل للطقوس الدينية السرية الملكية]. كما تلاحظ، هذه الأسماء كلها لها صلة بالتصوف الشرقي. ان ظهور [فرسان الهيكل] من جديد، الواقع، لا يعني شيئاً سوى دخول مثل هذه المفاهيم، وجود الخمائر اللاعقلانية في عالم إستسلم للأفكار العقلانية ـ المنفعية للتقدم الإجتماعي. هذه هي التي أعارت الماسونية تألقاً جديداً وفتنةً، وفسرت العدد الكبير من الأعضاء الجدد الذين تطوّعوا إليها في خلال تلك الحقبة الزمنية من تاريخها. كانت هي قد سحبت الى نفسها كل العناصر التي كانت سئمت من ثرثرة المذهب العقلي للقرن، والتعطش الى جرعة أقوى من الحياة. كان نجاح الأخوية بدرجة بحيث ان المادي عانى منها كونها أبعدت الرجال عن السعادة العائلية وحطمت تبجيلهم للنساء.»

«إذاً هو شيء لا يثير الدهشة ان السيد سيتيمبريني لا يحب أن يذكّره أحدٌ بالعصر الذهبي لأخويته.»

«لا، هو لا يحب أن يُذكّر بأنه كان هناك زمن حين سحبت فوق رأسها كل الضغينة التي شعر بها أحرار الفكر، الملحدون، والموسوعيون نحو الكل المركب المؤلف من الكنيسة، الكاثوليكية، الراهب، العصر الوسيط ـ سمعتُ ان الماسونيين أُتهموا بالظلامية ـ»

«لماذا؟ سأكون غايةً في السرور إذا سمعتُ السبب، بنحو أدق.»

«سأخبرك. ان النظام الصارم الذي يخضع له أعضاء أخوية دينية عنى توسيع وتعميق تقاليد الأخوية؛ عنى إحالة أصلها التاريخي الى العالم القبلاني[١٤٣]، ما أُصطلح على تسميته ظلام العصر الوسيط. الدرجات الأعلى للماسونية كانوا المدخلين في عضوية جمعية [الطبيعة والنسك]، ممثلي علم طبيعي سحري، كانوا الخيميائيين الكبار الرئيسين.»

«يلزمني أن أرتدي قبعة التفكير خاصتي وأحاول أن أتذكر ما هي الخيمياء ـ أعني، إذا ما تكلمنا بصورة عامة. الخيمياء: تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب، حجر الفلاسفة، aurum potabile.»

«بحسب الرأي الشائع، نعم. إذا ما أعطيناها جوهراً، هي تطهير، تنقية، مسح، تحول، الى حالةً أعلى، بالطبع، حجر الفلاسفة، نتاج الذكر ـ الأنثى للكبريت والزئبق، المسألة الثنائية، المادة الأولية ثنائية الجنس، لم تكن أكثر، ولا أقل، من مبدأ السباحة في الهواء، مبدأ الحافز الأعلى بسبب عمل التأثيرات من الخارج. درسٌ في السحر، إن شئت.»

كان هانز كاستورب صامتاً. حدّق بصورة منحرفة الى الأعلى، وطرف بعينيه.

«الرمز الأولي للتحول الخيميائي»، قال نافته، «وكان رقم واحد القبر.»

«الضريح؟»

«نعم، مكان التعفن. هو يشمل كل ما هو مُحكم السد (hermetics)، الخيمياء كلها، انه لا شيء غير الوعاء، انه المعوّجة البلورية المصونة جيداً التي فيها تتكثف المادة الى تحولها وتنقيتها النهائيين.»

«hermetics ـ يا لها من كلمة محبوبة، سيد نافته! أحببتُ دوماً كلمة hermetic. انها تبدو أشبه بصنع السحر، ولها كل أنواع الإتحادات الغامضة والممتدة مع أشياء كثيرة. عليك أن تعذر كلامي عن شيء كهذا، لكنه

---

(١٤٣) القبلاني cabalistic: نسبة الى القبلانية. وهي فلسفة دينية سرية عند أحبار اليهود وبعض نصارى العصر الوسيط، مبنية على تفسير الكتاب المقدس تفسيراً صوفياً ـ المترجم.

يذكرني بجرار الحفظ التي تحفظ فيها مدبرة منزلنا في هامبورغ ـ شالين، نسميها هكذا، من دون آنسة أو سيدة ـ اللحوم والأطعمة الخاصة بها. كانت لها صفوف منها على رفوفها، زجاجات محكمة السد مليئة بالفواكه واللحم وكل أنواع الأشياء. تبقى هناك ربما عاماً بأكمله ـ تفتحها أنت عندما تحتاجها ومحتوياتها تكون طازجةً كما كانت عليه يوم حفظها، بوسعك أن تأكلها كما هي. للعلم، ذلك ليس خيمياءً أو تنقيةً، انه حفظ بسيط، من هنا جاءت كلمة يحفظ. الجزء السحري منه يكمن في الحقيقة القائلة ان المادة التي تُحفظ تنصرف عن تأثيرات الزمن، انها مغلقة بصورة محكمة السد عن الزمن. الزمن يغفلها، انها تقف هناك على رفها بعيدةً عن الزمن. حسن، هذا يكفي عن جرار الحفظ. إذ انها ليست وثيقة الصلة بالموضوع الذي نحن بصدده. معذرةً، كنت تسعى الى تنويري أبعد من ذلك.»

«فقط إذا أردتني أن أفعل ذلك. الطالب المبتدئ يجب أن يكون ذا شجاعة باسلة ومتعطشاً للمعرفة، إذا ما تحدثنا بإسلوب موضوعنا. الضريح، القبر، كان دوماً شعار دخول شخص ما في عضوية الجمعية. ان الدخول المشتهى للمبتدئ في الرهبة الى الطقوس الدينية السرية ينبغي له دوماً أن يحفظ الشجاعة الباسلة على الرغم من أشيائها المروِّعة؛ انه هدف [الأخوية] الذي ينبغي له أن يختبره فيها، يفضي إليها ويبدأ بالتردد بينها، وفي الختام تجلبه منها يد [راهب] مجهول. لهذا السبب، وجدت الممرات المتمعجة، السراديب المظلمة، التي يبدأ المبتدئ بالرهبنة في التجول فيها؛ القماش الأسود الذي تتزين به [ردهة النظام الصارم الذي يخضع له أعضاء الأخوية الدينية]، عبادة التابوت الحجري، التي لعبت دوراً جوهرياً جداً في طقوس الاجتماعات وادخال الأشخاص في عضوية جمعية. ان درب الطقوس الدينية السرية والتطهير كان محفوفاً بالمخاطر، تقدّم غيره عبر وخزات الموت، عبر مملكة الإنحلال؛ والطالب المبتدئ، المبتدئ في الرهبنة، هو الشباب بعينه، متعطشاً لأعاجيب الحياة، مطالباً بصخب بالإسراع نحو قدرة شيطانية للتجربة، وتتقدمه أنماط محجوبة عن النظر هي التنبؤ الوشيك بالطقس الديني السري.»

«شكراً جزيلاً، بروفيسور نافته. هذا رائع. هذا يشبه تعاليم الكيمياء القديمة، إذاً؛ لا يضيرني أن أسمع شيئاً ما عنها أيضاً.»

«القليل منها بحيث يكون دليلاً الى الشيء النهائي؛ الى الإدراك المطلق لما هو متجاوز الحد، وبذلك يكون دليلاً الى غايتنا وهدفنا، الطقس الخيميائي للمحافل الماسونية، في القرون المتأخرة، قاد أشخاصاً كثيرين بارزين وسائلين الى تلك الغاية ـ التي لا أريد أن أهبها إسماً، ذلك انه لا يغيب عن بالك ان الدرجات المتعاقبة لـ [الطقس الإسكتلندي] كانت مجرد بديل عن هيئة كهنوت منظمة في مراتب متسلسلة، ذلك ان التعاليم الخيميائية لـ [الزعيم الماسوني] تكمل نفسها في سرٍ من أسرار النصرانية ألا وهو سر الإستحالة[١٤٤]، وان الهداية المخفية التي تلطف بها المحفل الماسوني لتلامذته لها نموذجها الأصلي بنحوٍ واضح في وسيلة صلاة المائدة، طالما ان الشعائر المرائية الرمزية لطقس المحفل الماسوني لها نموذجها الأصلي في الرمزية الطقسية والمعمارية لـ كنيستنا الكاثوليكية المقدسة.»

«آ، حقاً!»

«لكن حتى ذلك ليس كل شيء. كنتُ قد أوحيتُ قبل الآن الى أن منشأ المحفل الماسوني من تلك الطائفة الماسونية الحِرفية والجديرة بالاحترام هو مجرد إمتداد تاريخي. ان النظام الصارم الذي يخضع له أعضاء الأخوية الدينية غلّفه بأساسٍ إنساني أعمق بكثير. ان أسرار المحفل الماسوني لها أشياء مشتركة مع بعض أسرار كنيستنا، الإرتباط الواضح جداً مع الأسرار الطقسية والإنغماسات الشعائرية للإنسان البدائي. اني أشير، بقدر تعلق الأمر بالكنيسة، الى مأدبة المحبة، المتعة الخاصة بسرٍ من الأسرار المقدسة للجسد والدم؛ طالما ان المحفل الماسوني ـ»

«لحظة واحدة. لحظة واحدة من أجل ملاحظة هامشية. حتى في الطائفة الصارمة التي ينتمي إليها ابن خالتي، كانت لهما ما أُصطلح على تسميته

---

(١٤٤) الإستحالة transubatantiation: استحالة خبز القربان وخمره الى جسد المسيح ودمه (بحسب العقيدة المسيحية) ـ المترجم.

بـ مآدب محبة. كتب لي كثيراً عنها. في اعتقادي انها مسائل محترمة جداً ـ عدا انهم، ربما يسكرون قليلاً، لكن لا شيء يضاهي ما يجري في رابطة طلاب جامعية ألمانية ـ»

«في ما يتعلق بالمحفل الماسوني، على أية حال، أنا أفكر في عبادة القبر، التي لفتُ نظركَ إليها من قبل. في كلتا الحالتين ثمة علاقة مع رمزية المطلق، مع عناصر الدين الإبتدائي المتسم بالقصف والعربدة، مع طقوس قربانية وحشية عند الليل، من أجل شرف الخمود والتحول، الموت، المسخ، البعث. سوف تتذكر الطقوس السرية لـ إيسيز(١٤٥)، الطقوس الإليوزية(١٤٦) أيضاً، كانت تُقدم عند الليل، وفي كهوف كبيرة. في الماسونية يوجد حشدٌ من البقاءات(١٤٧) المصرية، وهناك بين الجمعيات السرية، مَنْ تسمي نفسها إليوزية. ثمة محافل ماسونية كانت تقيم مآدب للطقوس الإليوزية السرية والشعائر الأفروديتية(١٤٨) التي أدخلت أخيراً العنصر الأنثوي، مآدب ورود، التي يُشار إليها من خلال الوردات الزرق الثلاث في المئزر الماسوني، والتي كثيراً ما تُخل في نطاق ما هو [باخوسي](١٤٩).»

«ما هذا، ما هذا الذي أسمعه، بروفيسور نافته؟ كل هذه ماسونية؟ ويلزمني أن أوفق بينها وبين أفكاري كلها عن صاحبنا المنوَّر السيد سيتيمبريني؟»

«إنك تظلمه ظلماً كبيراً إذا ما تصورت انه كان يعرف أي شيءٍ عنها. قلتُ لك انه طهّرَ، أو أن رغبته طهرتْ، المحفل الماسوني من كل عناصر

---

(١٤٥) إيسيز Isis: ربة الطبيعة المصرية وأخت وزوجة أوزيريس ـ المترجم.

(١٤٦) الإليوزية Eleusinian: نسبة الى مدينة إليوزيس Eleusis القديمة الواقعة ١٢ ميلاً شمال شرقي أثينا، كانوا يقيمون فيها الحفلات الدينية لتكريم دميتر إله الزراعة ـ المترجم.

(١٤٧) البقاءات Survivals: جمع البقاء أي بقاء المرء أو الشيء بعد زوال غيره ـ المترجم.

(١٤٨) الأفروديتية aphrodistic: نسبة الى أفروديت إلهة الحب والجمال عند الاغريق ـ المترجم.

(١٤٩) باخوسي bachantic: نسبة الى باخوس إله الخمر عند الرومان. وتعني أيضاً شخص منغمس في مرح صاخب ـ المترجم.

الحياة الأرفع. هم هذبوه، حذّثوه. تباً! أنقذوه من الآلهة المزيفين وأعادوه الى النفع، والعقل والتقدم، لشن الحروب على الأمراء والقساوسة، باختصار من أجل التحسين الإجتماعي. ناقشوا فيه مرة أخرى الجوهر، الفضيلة، الإعتدال في السياسة والدين، ووطن الأسلاف. بإيجاز، انه طبقة البورجوازية المنبوذة من قبل الباري، بهيئة نادٍ.»

«يا له من شيء يدعو للأسف! شيء سيء جداً في ما يتعلق بـ مآدب الورود! أقصد انني سأسأل سيتيميريني ما إذا يسمع شيئاً ما عنها هذه الأيام.»

«الفارس النبيل للمسطرة التائية!» سخر نافته. «عليك أن تتذكر انها لم تكن مسألة هينة بالنسبة له أن يُفسح له المجال في دخول بوابات معبد البشرية. انه فقير كفأر كنيسة، وانهم لا يطالبون فقط بالثقافة الأرفع، الإنسانية ـ تباً ـ ولكن ينبغي للمرء أيضاً أن ينتمي للطبقات المالكة، كي يكون قادراً على تحمل الواجبات ورسوم الدخول. الثقافة والممتلكات ـ هي ذي الطبقة البورجوازية لك! هي ذي لك أعمدة جمهورية العالم التحررية.»

«على أية حال»، قهقه هانز كاستورب. «نحن نملكها من دون ريب أمام أعيننا.»

«ومع ذلك»، أضاف نافته، بعد مدة توقف قصير، «أنصحك أن لا تأخذ هذا الرجل وما يناضل من أجله كمسألة مضحكة بكل معنى الكلمة؛ بما اننا قد تطرقنا الى الموضوع، دعني أحذرك بأن تكون متيقظاً. غير الممتع ليس مترادفاً مع عديم الضرر. الحماقة ليست بالضرورة خالية من الشك. هؤلاء القوم أضافوا الماء الى خمرهم، الذي كان مرة شراباً نارياً، إلا ان فكرة الأخوية نفسها تبقى قويةً بدرجة كافية كي تتحمل كمية كبيرة من الماء. انها تحفظ بقية طقس ديني مثمر، وثمة شك قليل في مسألة كون المحفل الماسوني يمتزج مع السياسة، طالما انه يمكننا أن نرى في السيد سيتيمبريني اللطيف خاصتنا أكثر مما نراه فقط في نفسه البسيطة، وتلك القوى التي تقف وراءه، التي كان هو ممثلاً ومبعوثاً لها.»

«مبعوثاً؟»

«أي، مهتدٍ حديثاً، باحثاً عن الأرواح.»

«وأي نوع من المبعوثين أنت، إذا جاز لي أن أسأل؟»، فكّر هانز كاستورب. بصوتٍ عالٍ قال: «شكراً لك، بروفيسور نافته. أنا أشكرك شكراً حقيقياً على نصيحتك وتحذيرك. ماذا تعتقد؟ إفترض انني أسكن طبقةً أعلى ـ إذا ما تسنى للمرء أن يتكلم عن طبقةٍ ما ـ وأتصلُ بصاحبنا راهب المحفل الماسوني المتنكر، قليلاً؟ الطالب المبتدئ ينبغي أن تكون له شجاعة باسلة، متعطشاً للمعرفة. إنما حذراً أيضاً، بطبيعة الحال. انه شيء جيد أن يتخذ المرء الحيطة حين يتعامل مع المبعوثين.»

لعله كان ينشد بحصانةٍ معرفةً إضافية من السيد سيتيمبريني، لأن ذلك النبيل لم يستطع لوم نافته على أي نقص في التحفظ والحذر؛ الواقع، انه لم يجعل من عضويته في عصبة الرهبان المتناغمة أي سر من الأسرار. مجلة [الماسونية] ترقد مفتوحة على طاولته، هانز كاستورب ببساطة لم يلحظها. منوّراً من قبل نافته، حوّل وجهة المناقشة الى موضوع «الفن الملكي»، كما لو ان إرتباط سيتيمبريني معه لم يكن مسألة شك، ولاقى تكتماً قليلاً جداً. حقيقة، ثمة نقاط سكت عنها الأديب. عندما يلمح إليها كان يغلق شفتيه بتباهٍ، كونه مقيداً بصورة جلية بتلك التعهدات الإرهابية التي تحدث عنها نافته؛ حصل هذا حين تعدى هانز كاستورب على على أسرار المهنة، إذا صح التعبير، على الأشكال الخارجية للمنظمة، وموقعه الخاص فيها. لكنه بطريقة أخرى كان صريحاً جداً تقريباً؛ وألقى خطبةً في الختام، معطياً الباحث عن المعرفة صورة هامة عن حجم الجمعية، التي كانت منتشرة تقريباً في أرجاء العالم كلها، ذات عشرين ألف محفل ماسوني ومائة وخمسين محفل ماسوني رئيس، بأرقام معبّر عنها بالعشرات أو المئات أو الألوف أو نحوها، واخترقت حضارات مثل هاييتي وجمهورية ليبريا الزنجية. كذلك كان لديه الكثير عن الأسماء الكبيرة التي كان حاملوها ماسونيين. فولتير، لافاييت(١٥٠)، ونابليون، فرانكلين(١٥١)،

---

(١٥٠) لافاييت Lafayette (١٧٥٧ ـ ١٨٣٤م): جنرال وسياسي فرنسي ـ المترجم.

(١٥١) فرانكلين Franklin (١٧٠٦ ـ ١٧٩٠): سياسي وعالم أمريكي. قام بتجارب متعددة في مجال الكهرباء ـ المترجم.

وواشنطون[١٥٢]، ماتزيني[١٥٣]، وغاريبالدي؛ بين الأحياء ملك إنجلترا، وفضلاً عنه مجموعة كبيرة من الناس الذين في أيديهم تقع إدارة أمم أوروبا، أعضاء حكومات وبرلمانات.

هانز كاستورب عبّر عن الإحترام، إنما ليس الدهشة. الشيء ـ نفسه مع رابطة طلاب ـ جامعية ألمانية، قال. أعضاء هذه إتحدوا في الآخرة، واعتنوا بأناسهم عنايةً جيدة، لذا كان يشق الدخول الى أي هيئة كهنوت رسمية مهمة إذا لم تكن منتمياً الى رابطة الطلاب. لهذا أغلب الظن ليس شيئاً منطقياً جداً من السيد سيتيمبريني كي يناقش المسألة التي مفادها ان عضوية تلك الشخصيات البارزة في الجمعية كان اطراءً لها، بما انه من الناحية الثانية ربما يُعتقد أن تولي مناصب كثيرة جداً من قبل الماسونيين دلَّ على قوة الجمعية، التي كانت يقيناً ممتزجة بالسياسة، ربما أكثر مما كان السيد سيتيمبريني ينوي الإعتراف به.

إبتسم السيد سيتيمبريني، هوّى نفسه بالمجلة، التي كان ما يزال ممسكاً بها في يده. هل كان هانز كاستورب يقصد أن يطرح عليه مسألة ما؟ هل كان يخطر بباله انه يضلله في كلامٍ قليل الحذر حول الميزة السياسية، الطابع السياسي الجوهري للمحفل الماسوني؟ «مكر عديم النفع، أيها المهندس. نحن نعترف بأننا سياسيون، نقر بذلك صراحة، من دون تحفظ. نحن لا نبالي بوصمة العار المرتبطة بالكلمة في عيون بعض المغفلين ـ هم في بلدك، أيها المهندس، وتقريباً لا وجود لهم في مكان آخر. صديق البشرية لا يستطيع أن يميز الفرق بين ما هو سياسي وما هو غير سياسي. لا يوجد شيء غير سياسي. كل شيء هو سياسة.»

«هذا كلام صريح.»

---

(١٥٢) واشنطن Washington (١٧٣٢ ـ ١٧٩٩) أول رئيس للولايات المتحدة. (١٧٨٩ ـ ١٧٩٧) ـ المترجم.

(١٥٣) ماتزيني Mazzini (١٨٠٥ ـ ١٨٧٢): ثائر وبطل قومي إيطالي. عمل من أجل إيطاليا موحدة جمهورية النظام ـ المترجم.

«أعرف ان ثمة أناساً ممن يفكرون جيداً يشيرون الى الطبيعة السياسية في المقام الأول للفكر الماسوني. إلا ان هؤلاء القوم يتلاعبون بالكلمات، ويضعون الحدود التي مضى زمن طويل منذ أن أمست خيالية وعديمة الأهمية. في المقام الأول، المحافل الماسونية الإسبانية، في الأقل، كانت لها صفة سياسية مميزة من أول البداية.»

«أنا أيضاً أتخيل ذلك.»

«في مستطاعك أن تتخيل قليلاً جداً، أيها المهندس، لا يذهبن بك الظن انك تميل الى الفكر العميق؛ ان أفضل شيء بوسعك أن تفعله هو أن تكون متفتحاً وأن تفكر جدياً ـ أقول هذا لمصلحتك، ولمصلحة بلدك ولمصلحة أوروبا على حدٍ سواء ـ ما أريد أن أطبعه في ذهنك: أعني، في المقام الثاني، هو ان الفكر الماسوني لم يكن غير سياسي، في أي وقت من الأوقات ـ وليس بوسعه أن يكون كذلك. إذا ظن نفسه انه كان كذلك، فهو خاطئ حتى في ما يخص سماته الجوهرية الخاصة. ما نحن؟ بنّاؤون بارعون وبناؤون على بناية. هدف الكل واحد، خير الجميع هو العقيدة الرئيسة للأخوية. ما هذا الخير، ما هذه البناية؟ انها البنية الإجتماعية الحقيقية، تهذيب الجنس البشري، القدس الجديدة. لكن قل لي أيهما هي، السياسية أم غير السياسية؟ المسألة الإجتماعية، مسألة وجودنا المشترك، هو بحد ذاته سياسة، سياسة بكل ما في الكلمة من معنى، ولا شيء سوى السياسة. كل مَنْ يكرس نفسه للقضية ـ وهو لا يستحق إسم الإنسان مَنْ يمنع نفسه من ذلك التكريس ـ ينتمي الى السياسة، الأجنبية والمحلية؛ انه يدرك ان فن الماسوني هو فن الحكومة ـ»

«فن الـ ـ»

«ماسونية [الطبقة المستنيرة] تلك لها درجة القائم بالوصاية ـ»

«هذا رائع، سيد سيتيمبريني: فن الحكومة، درجة القائم بالوصاية ـ احب ذلك كله حباً جماً. لكن قل لي شيئاً: أأنتم مسيحيون، أيها الماسونيون؟»

«لماذا؟»

«أستميحك عذراً. سأطرح سؤالاً آخر؛ سأصوغه بصورة أبسط وأعم. هل تؤمن بوجود الله؟»

«سأجيبك. لكن لماذا تطرح عليّ هذا السؤال؟»

«أنا لا أحاول أن أُثيرك، الآن فقط. لكن ثمة قصة في [الكتاب المقدس] لـ [الفريسيين] يختبرون فيها ربنا بقطعة نقد رومانية، ويقول لهم الباري أن يَدَعوا لقيصر ما لقيصر، ولله ما لله. يبدو لي ان هذا الإختلاف هو الإختلاف بين السياسي وغير السياسي. إذا كان ثمة [إله]، إذاً يوجد هنالك أيضاً هذا الإختلاف. هل يؤمن الماسونيون بوجود [الله]؟»

«أنا أُلزم نفسي بأن أجيب. أنت تتكلم عن وحدة نسعى الى تحقيقها، لكنها وحدة، للأسف، لا وجود لها اليوم. إذا حدث ان وُجدتْ ـ وأكرر اننا نشتغل بمواظبة صامتة على هذه المهمة الكبيرة ـ إذاً الواقع العقيدة الدينية للماسوني ستكون إجماعية، وستكون [إسحق العار]!»

«هل ستكون تلك إجبارية؟ من العسير أن تكون مسامحة.»

«ان مسألة التسامح، عزيزي المهندس، مسألة كبيرة جداً كي تقوم أنت بمعالجتها. لا تنسَ ان التسامح يغدو جريمةً، إذا إمتد الى الشر.»

«الله سيكون الشر؟»

«ما وراء الطبيعة هو الشر. ذلك لا هدف له غير أن ندفع الى النوم الطاقة التي نريد أن نخصصها لبناء معبد الجمعية. مثال على ذلك يقدمه لنا نشاط [الشرق الكبير] من فرنسا قبل جيل مضى. شطب إسم الله من كتاباته. نحن الإيطاليون حذونا حذوه.»

«يا لكم من كاثوليكيين!»

«بأي معنى ـ»

«أعني انني أجده أمراً كاثوليكياً بصورة هائلة، أن يشطب الله.»

«ما تروم التعبير عنه هو ـ»

«لا شيء يستحق الإصغاء له، سيد سيتيمبريني. لا تُعر إهتماماً كبيراً جداً لثرثرتي. انه مجرد شيء سحرني ان الإلحاد ربما يكون كاثوليكياً بصورة

هائلة، وكما لو ان الشخص الذي يشطب الله الأفضل له حصراً أن يكون كاثوليكياً.»

سمح السيد سيتيمبريني لتوقفٍ مؤقت أن يتلو؛ إنما كان واضحاً انه فعل ذلك تعبيراً عن تروٍ تعليمي. أجاب بعد صمتٍ مدروس: «أيها المهندس، أنا أبعد ما أكون عن الرغبة في أن أجرح مشاعرك كونك شديد التعلق بالعقيدة البروتستانتية. كنا نتكلم عن التسامح؛ انه بالتأكيد شيء زائد بالنسبة لي أن أؤكد ذلك بعيداً عن مجرد سياسة التسامح الديني، ما أشعر به نحو البروتستانتية، كونها الخصم التاريخي لإستعباد المعرفة، هو الاعجاب العميق جداً. ان اختراع الطباعة وحركة الإصلاح الديني[١٥٤] كانتا وما تزالان الخدمتان البارزتان اللتان قدمتهما أوروبا الوسطى لقضية الجنس البشري. من دون شك. لكن بعد الذي قلتَه تواً لا أشك انك ستفهمني حين أرد قائلاً انه على أية حال جانب واحد فقط من المسألة، وثمة جانب آخر. البروتستانتية تخفي عنصرين ـ ان شخصية مصلحك أخفت عنصرين ـ أنا أفكر بعنصري الغبطة الهامدة، والتجريد المنوِّم اللذين لم يكونا أوروبيين، بل غريبين على نواميس الحياة التي تحكم قارتنا الناشطة. أنظر إليه، لوثر[١٥٥] هذا. لاحظ البورتريهات التي نملكها، في الحياة المبكرة والمتأخرة. أي نوع من التكوين القحفي هو ذاك، أي عظام وجنتين، أي موضع فريد للعين! صديقي تلك هي آسيا! سأكون مندهشاً ـ سأكون غاية في الدهشة إن لم تكن تلك العناصر وندية، سلافية، سرماتية، في النشاط هناك. وإذا لم يكن الشبح الجبار لهذا الرجل ـ فمَنْ ينكر انه كان جباراً؟ ـ قد زج رجحاناً مميتاً في واحدة من كفتي الميزان اللتين تكونان في بلدك متساويتين بنحوٍ خطير، في كفة ميزان الشرف، بحيث ان كفة الميزان الأخرى اليوم ما زالت هي الراجحة وتطير في الهواء ـ»

(١٥٤) حركة الإصلاح الديني Reformation: هي حركة الإصلاح البروتستانتي في القرن السادس عشر ـ المترجم.

(١٥٥) لوثر Luther (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦): مصلح ديني بروتستانتي ـ المترجم.

السيد سيتيمبريني سار من المكتب المصرّع الإنساني في النافذة الصغيرة، حيث كان واقفاً، الى الطاولة، الأقرب الى تلميذه، الذي كان جالساً على السرير الخفيف النقال بإزاء الجدار، مرفقاه على ركبتيه، وذقنه في يديه.

«عزيزي!» قال السيد سيتيمبريني. «أيها الصديق العزيز! ثمة قرارات لا بد من إتخاذها، قرارات ذات أهمية لا توصف من أجل سعادة ومستقبل أوروبا؛ الأمر متروك لبلادك كي تقرر، في روحها سيكون قد إكتمل القرار. كونها تقع بين الشرق والغرب، يلزمها أن تختار، عليها أن تقرر بصورة نهائية وواعية بين العالمين. أنت شاب، لك حصة في هذا القرار، انه واجبك أن تؤثر فيه. وهكذا دعنا نشكر الأقدار التي أتت بك هنا في الأعالي الى هذه المنطقة المرعبة، وهكذا منحتني الفرصة كي أؤثر في شبابك الطيّع بفصاحتي المتمرسة، غير المتناقضة تماماً، وأجعلك تشعر بالمسؤولية التي ـ التي يملكها بلدك بإزاء الحضارة ـ»

جلس هانز كاستورب، ذقنه في يده. تطلع عبر النافذة السندية، وفي عينيه الزرقاوين البسيطتين كان هناك بعض العناد. كان صامتاً.

«أنت صامت»، قال السيد سيتيمبريني، مستثاراً. «أنت ومسقط رأسك، أنت تحافظ على صمتٍ يبدو انه يغطي تحفظاً ـ لا يمنح المرء تلميحاً عما يجري في أعماقك. أنت لا تحب [الكلمة]، أو انك لا تملكها، أو حذِرٌ معها الى درجة العداء. العالم الواضح لا يعرف موقعها منك. صديقي، هذا شيء محفوف بالمخاطر. الكلام حضارة بعينها. الكلمة، حتى الكلمة المتناقضة جداً، تحفظ التماس ـ الصمت هو الذي يعزل. يكمن الشك في ما إذا ستسعى الى كسر صمتك بالأعمال. سوف تطلب من ابن خالتك جياكومو (لجأ سيتيمبريني الى تسمية يواكيم جياكومو، من أجل الملاءمة) أن يبتعد قليلاً أمام صمتك،

[وكثيراً من الضربات سدد هو، وكثيرةً هي لطماته
موت كبير، أمامه فرَّ أعداؤه. . .]»

شرع هانز كاستورب يضحك، والسيد سيتيمبريني إبتسم أيضاً، مقتنعاً حالياً بتأثير كلماته الطيّعة.

«جيد»، قال. «جيد جداً، دعنا نضحك، ستجدني دوماً مهيئاً لأن أفعل هذا. الضحك، يقول الأدب الكلاسيكي، شعاع من أشعة شمس الروح. كنا ضللنا عن النقطة، كنا إخترنا قضايا، أعترف، لها صلة كبيرة بالصعوبات التي صادفناها خلال جهودنا التمهيدية لتأسيس الإتحاد الماسوني الفدرالي العالمي.» شرع السيد سيتيمبريني يتحدث عن فكرة هذا الاتحاد الفدرالي العالمي، الذي نشأ في هنغاريا، الإدراك المرجو قُدر له أن يحقق السلطة العالمية للماسونية. من غير قصد عرض رسائل من حكام أجانب للجمعية: أحدهم من جانب [السيد الكبير السويسري]، الراهب كوارتيير لاتنتي[١٥٦]، من الدرجة الثالثة والثلاثين؛ وناقش إقتراح جعل [الإسبرانتو] اللغة الرسمية للجمعية. حماسته رفعته الى عالم السياسة؛ سدد نظراته الى هنا وهناك، ثمّن إمكانات الفكر الثوري في بلده، في إسبانيا، في البرتغال. كان في تماسٍ من خلال الرسائل، كما ظهر، مع أشخاصٍ، كانوا على رأس المحفل الماسوني البرتغالي، وهناك، من دون شك كبير، الأشياء نضجت الى حدث حاسم. هانز كاستورب فكر فيه عندما، قبل أن يمر وقت طويل، حين بلغ مرحلة الإضطراب في ذلك البلد. هانز كاستورب وعد أن يفعل هذا.

توجّب عليّ أن أقول ان هذه المؤثرات الماسونية بين الطالب والمعلمين الخاصين حدثت منفصلةً زمنياً، قبل عودة يواكيم. الحوار الآتي، على أية حال، جرى إبان إقامته الثانية هنا في الأعالي، وبوجوده، تسعة أسابيع بعد وصوله، في مطلع تشرين الأول (أكتوبر). هانز كاستورب احتفظ بذكرى واضحة عن هذا التجمع في الإشراق الخريفي، أمام الكورهاوس في البلاتز، حيث جلسوا يرتشفون المشروبات المنعشة؛ لأنه في ذلك الزمن تحديداً كان بدأ يشعر بقلق غامض حول يواكيم ـ مع ان دافعه لم يكن من النوع الذي يعتقد المرء انه مهم جداً، كونه حصراً تقرّح الحنجرة وبحة في الصوت، أمراض عديمة الأذى تماماً، ظهرت مع ذلك لـ هانز كاستورب في ضوءٍ خاص نوعاً ـ الضوء نفسه، قد يقول المرء، الذي رآه في أعماق

(١٥٦) الراهب كوارتيير لاتنتي Brother Quartier La Tente ـ المترجم.

عينيّ يواكيم. تلكما العينان كانتا دوماً، كما نعرف، كبيرتين ولطيفتين، أما اليوم، هذا اليوم على وجه التحديد، فبدتا كما لو انهما أمستا أكبر وأعمق، مع تعبير متأمل، نعم، وحتى ينبغي لنا القول مشؤوم، مع الضوء المذكور آنفاً. سيكون أمراً خاطئاً أن نقول ان هانز كاستورب لم يكن يحب نظرتهما؛ كان يحبهما، هذه النظرة أقلقته. وباختصار، لا يستطيع المرء، بطبيعتها الخاصة، أن يتكلم عن هذه الانطباعات بطريقةٍ أخرى غير الطريقة الغامضة والمشوشة. في ما يتعلق بالحوار ـ جدال، بطبيعة الحال، بين سيتيمبريني ونافته ـ كان قضيةً بحد ذاته، فقط مرتبط قليلاً بتلك التفوّهات الأبكر والخاصة حول موضوع الماسونية. فيرجه وفيسال كانا هناك، وكان الولع عاماً، مع ان الأطراف كلها لم تكن متساوية في الموقف. السيد فيرجه، مثلاً، لم يكن متساوياً بلا ريب، غير ان خلافاً نشب كما لو انها كانت مسألة حياة وموت، مع ذلك مع ان الأناقة الملمعة لمناظرة مستفيضة ـ كما كانت، حقيقةً، كل الإشتباكات بين سيتيمبريني ونافته ـ نزاع كهذا كان بحد ذاته شيئاً مسلياً جداً أن يسمعه المرء، حتى بالنسبة لأولئك الذين لا يفهمون إلا الشيء القليل منه أو من مغزاه. غرباء جالسون على مقربة منهم أصغوا بدهشة الى تبادل الكلمات وكانوا مكبلين الى البقعة بوساطة الإنفعال والذكاء البادِيين للعيان.

كل هذا جرى، كما أسلفنا، أمام الكورهاوس، بعد الشاي. النزلاء الأربعة من بيرغهوف التقوا سيتيمبريني هناك، وبالمصادفة إلتقوا نافته أيضاً. جلسوا معاً حول طاولة معدن صغيرة، مع مشروبات عديدة وصودا، أو يانسون وخمر الفيرموت. نافته، الذي كان يتناول بانتظام الشاي هنا، طلب خمراً وكعكاً، واضح كانت تلك ذكرى ماضية من أيام تلمذته. يواكيم رطب حنجرته التي كانت تؤلمه بعصير الليمون المحلى المصنوع من ثمار الليمون الطازج، كان قوياً جداً وحامضاً؛ كان له تأثير قابض للأنسجة الحية والذي خفف الألم. كان سيتيمبريني يشرب السكر والماء بوساطة إنبوبة ورقية، باستمتاع شديد جعله أندر الأشربة.

مزح: «ما الذي أسمعه، أيها المهندس؟ ما هذه الشائعات التي تطير هنا

وهناك؟ بياتريسك[١٥٧] عائدة؟ دليلك عبر كل دوائر [الجنة] التسع؟ يلزمني أن أطمح انك لن تزدري كلياً اليد الودية لـ [فيرجيل]ك. كاهننا هنا سوف يخبرك ان عالم العصر الوسيط ليس كاملاً حين لا يتوازن التصوف الفرنسيسكاني مع القطب المعاكس للمعرفة التومانية[١٥٨].»

ضحكوا على هذه النكات واسعة المعرفة، ونظروا الى هانز كاستورب، الذي ضحك بدوره، رافعاً كأسه الى «فيرجيل» خاصته. لكنه شيء لا يصدق أي نزاع أكاديمي لا نهاية له إنبثق في الساعة اللاحقة من تعليق السيد سيتيمبريني الطنان لكنه عديم الأذى. نافته، كونه تم تحديه الى حدٍ ما، شمَّر عن ساعديه تواً، هاجم الشاعر اللاتيني، حيث عُرف ان سيتيمبريني يكنّ له الإعجاب الى درجة الإعجاب الأعمى، وحتى يضعه هو في منزلةٍ أعلى من هوميروس، بينما عبّر نافته أكثر من مرة عن ازدرائه له ولكل الشعر اللاتيني ولم يكف عن إغتنام هذه الفرصة كي يفعل ذلك مرة أخرى. كان قصوراً لطيفاً من جانب دانتي العظيم، بسبب حقبته الزمنية، ذلك انه إختار بجدية تامة هذا النظّام (بتشديد الظاء) العادي وفي قصيدته نسب إليه دوراً سامياً ـ مع ان السيد لودوفيكو عز إليها معنىً ماسونياً شديداً نوعاً ما. لكن ماذا كان هناك لهذا اللطيف المكلل بالغار والمتملق للمؤسسة اليوليوسية[١٥٩]، هذا الأديب المديني والمادح، الذي كان بلا شرارةٍ من العبقرية الخلاقة، الذي كانت روحه، إن كانت له روح، ثانوية، والذي يقيناً لم يكن شاعراً، بل رجلاً فرنسياً في شَعر مستعار أغسطسي[١٦٠] الى الآخر!

لم يكن للسيد سيتيمبريني أدنى شك في ان المتكلم سيجد طرقاً ووسائل

---

(١٥٧) بياتريس Beatrice: المرأة التي خلدها دانتي في «الكوميديا الإلهية» و"Vita Nuova" ـ المترجم.

(١٥٨) التومانية Thomistic: نسبة الى توما الاكويني (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤) وهو راهب دومينيكاني. معلم الكنيسة وحجتها في اللاهوت والفلسفة المدرسية (سكولاستيك) ـ المترجم.

(١٥٩) اليوليوسية Julian: نسبة الى يوليوس قيصر ـ المترجم.

(١٦٠) أغسطسي Augustan: نسبة الى أغسطس قيصر أول امبراطور روماني ـ المترجم.

للتوفيق بين احتقاره لعصر روما الذهبي مع وظيفته معلماً للغة اللاتينية. مع ذلك، هو، سيتيمبريني، لم يستطع أن يتجنب لفت الإنتباه الى الصراع الجدي الذي شملت فيه قرارات كهذه السيد نافته مع قرونه الأثيرة الى نفسه، عندما لم يكن فيرجيل غير محتقر حسب، بل ان عظمته أُدركت بطريقةٍ ساذجة جداً؛ أعني، بطريقةٍ جعلت منه عرّافاً وساحراً.

كان ذلك شيئاً عظيماً، أجاب نافته، أن يستحضر السيد سيتيمبريني بساطة تلك الأزمان البدائية، العنصر الظافر الذي حفظ حيويته الخلاقة حتى خلال منحه ذلك الذي إنتصر عليه صفةً شيطانية. لكن في الحقيقة، آباء الكنيسة المبكرة لم يكونوا سئمين من أن يحذروا جماعة المؤمنين من أكاذيب الفلاسفة والشعراء القدامى، بالأخص يحذرونهم من أن تُفسدهم فصاحة فيرجيل الشهوانية؛ واليوم، في زمنٍ حيث يميل من جديد عصرٌ ما الى خريفه، ونرى الفجر الداني لصباح بروليتاري[١٦١] آخر، آن الأوان كي نشفق عليهم. في الختام، كي لا يُترك شيء من دون جواب، السيد لودوفيكو ربما يؤكد له انه هو، المتكلم، أدى واجبه من خلال المهمة المدنية التي كان السيد سيتيمبريني عطوفاً جداً كي يذكرها، مع التفكير المتحفظ المناسب جداً؛ مع انه كان هناك في الواقع بعض التهكم في تكيفه مع معايير نظام تربوي كلاسيكي ومنمق، لايستطيع أكثر الملاحظين تفاؤلاً أن يؤكد بقاءه أكثر من عقود قلائل.

«أنت درستهم»، صرخ سيتيمبريني، «أنت درستهم الى أن نزَّ العرق من مساماتك، أولئك الشعراء والفلاسفة القدامى؛ حاولتَ أن تجعل ميراثهم الذي لا يقدر بثمن ميراثك الخاص، بما انك إستخدمت أحجار بناء نصبهم التذكارية كي تعلّي كنائسك. ذلك انك تدرك جيداً ان روحك البروليتارية لا تستطيع بحكم قوتها الخاصة أن تلد نمطاً فنياً؛ وأنت تأمل أن تهزم العصور القديمة بأسلحتها الخاصة. وهكذا سيكون الأمر أبداً، التاريخ يعيد نفسه. ان

(١٦١) بروليتاري proletarian: نسبة الى البروليتاريا وهي الطبقة العاملة أو الشغيلة ـ المترجم.

عدم نضحجك الفج يجب أن يتدرب إستجابة للسلطة التي تروم أن تقنعها أنت نفسك وأن يحتقرها الآخرون؛ ذلك انه من دون إنضباط لا تقدر أن تبقى على مرأى من الإنسان، وليس ثمة غير نوع واحد، ذلك الذي تدعوه البورجوازي، لكنه في الواقع النوع الإنساني.» تابع سيتيمبريني. مسألة عقود من الزمن؟ غاية المبادئ الإنسانية للتربية؟ التهذيب وحده منعه من أن ينفجر ضاحكاً صادقاً وساخراً معاً. أوروبا التي عرفت كيف تحافظ على كنوزها الخالدة تستطيع بهدوء أن تهمل أي رؤيا نبوئية بروليتارية سُرَّ الناس هنا وهناك بأن يحلموا بـ وأن يستأنفوا برنامجها المنظم الخاص بسلطة العقل الكلاسيكي.

انه، أجاب نافته بنحوٍ لاذع، فقط هذا البرنامج المنظم الذي بدا أن السيد سيتيمبريني لم يكن حسنٍ الإطلاع عليه. الأمر الذي كان يعده صحيحاً هو على وجه الدقة ذاك الذي أبدي الإرتياب فيه: أعني، ما إذا كان الإرث المتوسطي، الكلاسيكي، الإنساني مرتبطاً بالجنس البشري وهكذا متعايشاً معه، أو ما إذا كان هو فقط الزي الفكري وملحق عصر تحرري بورجوازي، سيفنى معه. التاريخ سيقرر هذا؛ سوف ينصح السيد سيتيمبريني ألا يهدهد نفسه في النصر الآمن لمحافظته(١٦٢) اللاتينية.

كل مستمعيه، إنما بمرارةٍ خاصة من جانب السيد سيتيمبريني نفسه، أصغوا الى هذا الوصف الوقح من جانب نافته ضئيل البدن. هو، السيد سيتيمبريني، الخادم المعلَن للتقدم، رجل محافظ! فتل بعنف شاربيه المتهدلين، وحاول يسدد ضربةً جوابيةً إذا ما ترك للعدو وقتاً لهجوم ضارٍ إضافي على المثل الأعلى الكلاسيكي في التربية، الروح المنمقة والأدبية التي ميزت النظام التربوي الأوروبي برمته، وموالاته النكدة للشكلي والنحوي، التي لم تكن سوى شيء ثانوي بالنسبة لشؤون تفوق الطبقة البورجوازية، والذي كان من زمن طويل موضوعاً لسخرية الناس. لم تكن

(١٦٢) المحافظة conservation: النزوع الى الإبقاء على ما هو قائم، أو مقاومة التجديد أو التغير ـ المترجم.

لديهم أدنى فكرة عن الأضحوكة المطلقة التي شجعتها الدرجات العلمية، لأطبائنا والنظام بأكمله من خلال موظفينا التربويين الكبار، التي أمست في أذهان البروليتاريا؛ وكذلك نظام المدرسة الشعبية، الذي كان أداة هيمنة الطبقات الوسطى، تمت المحافظة عليه في الوهم بحيث ان الثقافة المبسطة خففت حصراً العِلم. ان نوع التدريب والتربية الذي يحتاج إليه الناس في كفاحهم ضد المملكة البورجوازية المنهارة عرفوا من زمن طويل كيف يمكنهم أن يجدوه في مكان آخر غير هذه المؤسسات الحكومية المخصصة للتدريب الإلزامي؛ ذات يوم العالم بأسره سوف يدرك ان نظامنا، الذي نشأ من مدرسة الدير في العصر الوسيط، كان بيروقراطية ومفارقة تاريخية مثيرتين للضحك، بحيث ان ما من أحد في العالم يدين بعد الآن بثقافته الى تعليمه، وان الدرس الحر والشعبي من خلال المحاضرات، معارض الفن التشكيلي، الفن السينمائي، وهلم جرا، تم تفضيله بشكل واسع على أي مقررات تعليمية.

قال السيد سيتيمبريني ان نافته قدم لجمهورهما مزيجاً من الثورة والظلامية، الذي فيه، على أية حال، العنصر الظلامي فاق العنصر الآخر أهميةً، الى درجةٍ كريهة. السيد سيتيمبريني سُرَّ برؤية حصته من أجل تنوير الناس، إلا ان سروره أُفسد بوساطة الخوف من ان ما حفز السيد نافته فعلاً هو الميل الغريزي نحو شمول الناس والعالم معاً في ظلام لا أبجدي.

إبتسم نافته. «ذلك الغول!» قال. السيد سيتيمبريني صدّق نفسه كونه أطلق كلمة رعب، كونه عرض رأس الغرغونة[١٦٣]، مقتنعاً تماماً ان الجميع سوف يشحبون حالاً بمجرد الإطلاع عليه. هو، نافته، تأسف لأنه خيّب أمل شريكه في الحوار، غير ان الحقيقة هي، ان منظر رعب الإنساني من الجهل ببساطة جعله يقهقه. من دون ريب، ينبغي للمرء أن يكون أديباً كلاسيكياً،

(١٦٣) الغرغونة gorgon: إحدى أخوات ثلاث في الميثولوجيا الأغريقية، مكسوات الرؤوس بالأفاعي بدلاً من الشعر، كان كل مَنْ ينظر إليهن يتحول الى حجر ـ المترجم.

متحذلقاً، عالِماً، مريمياً(١٦٤)، صاحب الصنائع السبع للنخبة المثقفة، كي يضم هذه القيمة التربوية المبالغ بها جداً الى معرفة كيفية الكتابة، بحيث يتصور انه عندما يكون هناك نقص في المعرفة لا بد أن يسود ليل الروح. هل يتذكر السيد سيتيمبريني ان أعظم شعراء العصر الوسيط، فولفرام فون إيشنباخ، لم يكن بمستطاعه القراءة أو الكتابة؟ كان يُعتقد انه شيء يستحق اللوم، في ألمانيا ذلك الزمن، أن يُرسل غلام الى المدرسة ما لم يصبح كاهناً؛ وهذا الازدراء الارستقراطي ـ الشائع للفنون الأدبية كان دوماً علامة النبل الجوهري للروح؛ الأديب، الابن الحقيقي للحركة الإنسانية والفكر البورجوازي، بوسعه دوماً، بالتأكيد، أن يقرأ ويكتب ـ بينما النبيل، الجندي، والناس لا يستطيعون، أو نادراً ما يستطيعون ـ لكنه لا يقدر أن يفعل أو يفهم شيئاً آخر في كل العالم الواسع، إن لم يكن شيئاً سوى متبجح باللاتينية، كانت له سطوة على اللغة، لكنه ترك الحياة للناس الذين كانوا مهيئين لها. وهو السبب الذي جعل السياسة تعد الأديب دوماً كيساً فارغاً من الهراء؛ أي، من علم البلاغة و«الأدب»، اللذين يُسميان في اللغة الإصطلاحية السياسية تطرفية (راديكالية) وديمقراطية ـ وهلم جرا وهلم جرا.

غير ان السيد سيتيمبريني وثب الآن الى داخل الثغرة. خصمه، صرخ، كان طائشاً في أن يظهر تفضيله للبربرية الشديدة لعهود معينة، وأن يسكب إزدراءه على حب الاسلوب الأدبي ـ الذي من دونه ما من طبيعة بشرية كانت ممكنة أو قابلة للتحقيق، لم تكن ولن تكون! النبل الجوهري؟ فقط بغض الجنس البشري إستطاع هكذا أن يميز غياب الثقافة، كونه مذهباً مادياً فظاً ومعقود اللسان. بالأحرى بوسعك فقط أن تميز بنحو صحيح ترفاً لوردياً معيناً، الكرم الذي أظهر نفسه بأن نسب الى إسلوب ما قيمةً إنسانيةً مستقلةً عن محتواه. الإعجاب بالكلام كونه فناً من أجل الفن، الموروث الذي سلّمته

(١٦٤) المريمي Marianist: كاهن أو أخ كاثوليكي فرنسي منصرف الى العمل في حقل التعليم ـ المترجم.

الثقافة الاغريقية ـ الرومانية، التي أحياها أدباء الحركة الإنسانية[١٦٥]، الـ umomini letterati، أحيوها في الأقل لأمم اللغات الرومانسية[١٦٦]، والتي (أي الثقافة) كانت مصدر أي مثالية مهمة متأخرة، حتى لو كانت سياسية. «نعم، سيدي العزيز! ذاك الذي تذمه كونه طلاقاً بين الأدب والحياة لم يكن شيئاً سوى إنسجام أسمى في تاج الوسيم؛ أنا لا أعرف ما يتعلق بالجانب الذي سيختاره الشباب مبتهج القلب للصراع، في كفاحٍ يكون فيه المعسكران المتضادان هما الأدب والبربرية.»

كان هانز كاستورب فقط نصف مصغٍ للحوار، كونه مشغولاً من قبل النبل الجوهري للنموذج البطولي الحاضر آنذاك ـ أو بالأحرى مشغولاً من قبل التعبير الجديد الغريب في عينيه. جفل قليلاً حين شعر بأن كلمات السيد سيتيمبريني الأخيرة تتحداه، وقطب وجهه طالما انه كان يملك الوقت حيث أجبره الإنساني بنحو جليل أن يختار بين الشرق والغرب: قطب وجهاً طافحاً بالتحفظ والعناد. لم يقل شيئاً. أجبرا كل شيء على أن يغدو نقطة خلاف، هذان الإثنان ـ كما ينبغي للمرء أن يكون، ربما، حين يُختلف معه في الرأي ـ تخاصما بمرارة حول الإجراءات المتطرفة، بينما بدا له هو، هانز كاستورب، كما لو انه في مكانٍ ما بين موقعين لا يطاقان، بين الحركة الإنسانية الطنانة والبربرية اللاأبجدية، لا بد أن يقع شيء ما ربما يدعوه المرء شخصياً الإنساني. لم يعبر عن فكرته، خشية أن يزعج أحدهما أو الآخر؛ لكن، ملفوفاً بتحفظه، أصغى الى أحدهما وهو ينخس الآخر بمهماز، كل منهما يقود الآخر من الطريقة المئوية الى الطريقة الألفية، وكل هذا بسبب النكتة الصغيرة الأصلية للسيد سيتيمبريني عن فيرجيل.

الإيطالي لم ييأس؛ لوّح بالكلمة مهدداً، جعلها تنتصر. رمى نفسه في المشاجرة مدافعاً عن العبقرية الأدبية، إحتفل بتاريخ الكلمة المكتوبة، من

(١٦٥) الحركة الإنسانية humanism: إحياء الآداب الكلاسيكية والروح الفردية والنقدية والتأكيد على الهموم الدنيوية (كما تجلى ذلك في عصر النهضة الأوروبية) ـ المترجم.
(١٦٦) اللغات الرومانسية Romance: الناشئة عن اللاتينية ـ المترجم.

اللحظة التي حفر فيها الإنسان، توّاقاً الى أن يهب معرفته أو عواطفه البقاء، رموز الكلمات على الحجر. تحدث عن الإله المصري توت[١٦٧]، المماثل لـ هرميز[١٦٨] في الحضارة الأغريقية المشهورة كثيراً؛ الذي عومل باحترام كونه مخترع الكتابة، حامي المكتبات، ومحرضاً لكل الجهود الأدبية. أحنى الركبة بصورة مجازية أمام ذاك التريسميجستوس، هرميز الإنساني، أستاذ معهد المصارعة عند الأغريق، الذي تدين له البشرية بالهبة العظيمة للكلمة الأدبية وفن الخطابة المتوتر ـ الأمر الذي حث هانز كاستورب على التعليق بأن هذه الشخصية المصرية كانت سياسية بنحو جليّ، لعبت بالإسلوب المهيب الدور نفسه الذي لعبه السيد برونيتو لاتيني الذي شحذ عقول الفلورنسيين، علّمهم فن اللغة وكيف يقودون دولتهم على وفق قواعد السياسة. أعلن نافته ان السيد سيتيمبريني كان ماكراً نسبياً: تصويره لـ توت ـ تريسمجستوس كان له قدر كبير من الحقيقة الملطفة. كان، في الواقع، قرداً، قمراً ومعبود الروح، طاووساً بقمر هلالي على رأسه، وفي مظهره الهرميزي، كونه إله الموت والموتى، مخضِع الروح والدليل الحارس للروح، الذي جعلت منه العصور القديمة الساحر الرئيس، وجعل منه العصر الوسيط القبلاني أب الخيمياء السحرية.

دماغ هانز كاستورب أُصيب بدوار. كان هنا موت بعباءة زرقاء متنكراً بهيئة خطيب إنساني؛ وحين يحاول المرء أن ينظر عن كثب الى هذا المعبود التعليمي والأدبي، الكريم مع الإنسان، يكتشف المرء هيئةً مقرفصةً ذات وجه قردي، مع علامة الليل والسحر على جبينها. لوّح لها بيدٍ واحدة، كان قد وضعها على عينيه. إنما في ذلك الظلام الذي بحث فيه عن ملاذٍ من الارتباك التام، إنبثق هناك صوت السيد سيتيمبريني مواصلاً التغني بمدائح الأدب. العظمة كلها، التأملية والفعالة معاً، قال، إرتبطت به طوال الوقت؛ وذكر

---

(١٦٧) توت Toth: إله العلوم والآداب والزمن ي مصر القديمة. رأى فيه الاغريق إلههم هرمز. كان مركز عبادته في هرموبوليس (الاشمونين) ـ المترجم.

(١٦٨) هرميز Hermes: رسول الآلهة عند الاغريق، وإله الطرق والتجارة والإختراع والفصاحة والمكر واللصوصية ـ المترجم.

الإسكندر، قيصر، نابوليون، أسمى البروسي فريدريك وأبطالاً آخرين، حتى لاسال(١٦٩) ومولتكه. لم يزعجه مثقال ذرة أن يلفت نافته إنتباهه الى الصين، حيث يوجد هناك حب أعمى معتوه للأبجدية السائدة كما لا يوجد مثيل له في أي بلد آخر، وربما يصبح المرء مشيراً (مارشالاً) إذا ما إستطاع أن يرسم رموز كلمات اللغة البالغ عددها أربعون ألفاً ـ عَلَم، قد يعتقد المرء، مباشرةً كما يحلو لقلب إنساني! ـ آه، نافته عرف جيداً ـ مع انه كان أضحوكةً جديرةً بالشفقة! ـ انها لم تكن مسألة رموز بل مسألة أدب كحافز بشري، مسألة روح الإنسان، التي كانت نفسها [الروح القدس]، الاتحاد الإعجازي للتحليل والإسلوب. هذا هو الذي أيقظ الفهم بأن الأشياء كلها إنسانية، الذي عمل على إضعاف وتبديد الآراء المسبقة والقناعات السخيفة، الذي أحدث تمدن، تهذيب، وتحسين الجنس البشري. بينما نمّى هو التحسس والتهذيب الأخلاقي البالغين، بعيداً عن كونه متعصباً، بشَّر بشكٍ نزيه، بالعدل، بالتسامح. التأثير المطهِر، الشافي للأدب، تبديد الانفعالات بوساطة المعرفة والكلمة المكتوبة، الأدب كونه الدرب الذي يفضي الى الفهم، الصفح، والمحبة، القدرة المخلِّصة للكلمة، الروح الأدبية كونها أنبل تجلٍ لروح الإنسان، الكاتب كونه طرازاً مثالياً، قديساً ـ بهذا الأسلوب إختار السيد سيتيمبريني أن يعتذر. لكن وا أسفاه، خصمه لم يكن مغفلاً مضروباً ـ على العكس، بدأ عاجلاً بنقدٍ خبيث، لامع الذكاء كي يقوّض إطراء الإنساني، أعلن تأييده لحزب التحفظ وحزب الحياة، وقاوم بعناد الروح المنحطة التي أخفت نفسها وراء كل تلك اللغة الساروفية(١٧٠).

الإتحاد العجائبي الذي أشار إليه السيد سيتيمبريني، بصوتٍ متهدج جداً بالعاطفة، كان لا شيء سوى خدعة وشعوذة، ذلك ان الإسلوب الذي فاخرت به الروح الأدبية نفسها من خلال الإتحاد مع مبدأ الفحص والتقسيم

---

(١٦٩) لاسال Lasalle (١٦٥١ ـ ١٧١٩): كاهن فرنسي. أنشأ رهبانية «الأخوة المسيحيين» العام ١٦٨١. مربي. القديس الشفيع للمعلمين ـ المترجم.

(١٧٠) الساروفي Seraphic: نسبة الى الساروف وهو أحد ملائكة الطبقة الأولى الحارسين عرش الله (في المعتقد اليهودي القديم) ـ المترجم.

كان مجرد اسلوب مرئي، كاذب، ليس اسلوباً حقيقياً، كافياً، طبيعياً، حيوياً. أولئك الذين أُصطلح على تسميتهم مصلحو البشرية تشدقوا بكلمتي التطهير والتقديس، غير ان ما عنوه وأرادوه حقيقةً هو إضعاف، شق وريد الحياة. أجل نظرتهم وشخصيتهم المتحركة كانتا في تدنيس الحياة؛ وان الشخص الذي يهشم العاطفة، ذلك الإنسان لم يرغب بشيء أقل من العدم الخالص ـ الخالص، في الأقل، بالمعنى الذي يكون فيه الخالص هي الصفة الوحيدة التي يمكن إستعمالها للعدم. هنا فقط أظهر السيد سيتيمبريني نفسه كما هي عليه: أعني، رجل التقدم، التحررية، وثورة الطبقة الوسطى. ذلك ان التقدم كان عدمية خالصة، المواطن التحرري كان على وجه الدقة المؤيد للعدم و[الشيطان]؛ نعم، رفض هو الإيمان بـ[الله]، بـ[المطلق] المحافظ على القديم، الأكيد، من خلال القَسَم لـ نقيض [المطلق] الشيطاني. ومع ذلك بسلاميته(١٧١) المميتة حسب نفسه ورعاً بنحو هائل. غير انه كان أي شيء آخر إلا ورعاً، كان خائناً للحياة، أمام محكمة التفتيش خاصتها (أي الخاصة بالحياة) محكمة فيم(١٧٢) استحق أن يتم إستجوابه وهلم جرا.

وهكذا شرع نافته بنحو ذكي يدير الأنشودة(١٧٣) الخاصة بالسيد سيتيمبريني في الإتجاه الخاطئ ويصوّر نفسه كونه تجسيداً للقسوة الباقية في الذهن للمحبة ـ وهكذا كان مستحيلاً ثانيةً التمييز أي الجانبين كان هو الصحيح، أين وقف [الله] وأين [الشيطان]، أين هو الموت وأين الحياة. قراؤنا سيصدقوننا إذا ما قلنا ان خصمه أصر على أن يعطيه فضةً على انها ذهب، دافعاً الأجر بأحدث قطعة نقد مسكوكة، متسلماً بدوره أخرى جيدة بالقدر نفسه؛ هكذا إستمر الحوار، بحسب الخطوط المرسومة. غير ان هانز كاستورب لم يعد يصغي بعد الآن. قال يواكيم انه يعتقد انه أُصيب ببردٍ مصحوب بالحمى، ولا يعرف على وجه اليقين ماذا يستطيع أن يفعل بشأنه،

---

(١٧١) السلامية Pacificism: معارضة الحرب أو العنف ورفض اللجوء إليهما في حل النزاعات ـ المترجم.

(١٧٢) محكمة فيم. بالألمانية Vehmgericht ـ المترجم.

(١٧٣) الأنشودة Paean (باللاتينية): أنشودة الشكر أو التسبيح أو النصر ـ المترجم.

طالما ان حالات البرد لا (تُؤخذ بالحسبان) هنا في الأعالي. المبارزان لم يباليا به، غير ان هانز كاستورب كما قلنا، كان قد أبقى عينه على إبن خالته، وهكذا نهض، وسط كلام ما، معوّلاً على فيرجه وفيسال أن يُظهرا عطشاً كافياً الى جدلٍ تعليمي إضافي.

في الطريق الى المصح هو ويواكيم إتفقا ان من الأفضل مناشدة القنوات الرسمية في مسائل مثل حالات البرد وتقرّحات الحناجر. سيطلبان من أستاذ الإستحمام أن يرى أوبرين، كي يتم القيام بشيء ما من شأنه أن يريح المعذَب. هذا تم القيام به بأفضل صورة. ذلك المساء بعينه، بعد العشاء مباشرةً، أدرياتيكا قرعت باب يواكيم، كان هانز كاستورب حاضراً، وسألت ما هي رغبات الضابط الشاب.

«تقرح الحنجرة؟ بحة في الصوت؟» كررت؛ «أي نوع من (الأنتيكات) هذان، أيها الألماني الشاب؟» وشرعت تخترقه بعينها. انها ليست غلطة يواكيم أن نظراتهما فشلتا في اللقاء، نظراتها إنحرفت جانباً. مع ذلك تستمر هي في المحاولة، مع ان التجربة لا بد أن علّمتها انها قد لا تنجح في مسعاها. بمساعدة نوعٍ من قرن معدني لتسهيل لبس الأحذية إستلته من جيبها، نظرت الى لوزتَي المريض، كان هانز كاستورب واقفاً على مقربة منهما مع المصباح. صاعدة على أطراف أصابع قدميها كي تحدق في حنجرة يواكيم، سألت قائلة: «قل لي أيها الألماني الشاب، هل تبلع بطريقة خاطئة؟»

ماذا عساه يجيب؟ حالياً، بينما كانت تحدق في حنجرته، لا شيء؛ لكن حتى بعد أن إنتهت من ذلك، كان متردداً. بطبيعة الحال، في أثناء مجرى حياته، حين كان يأكل ويشرب كان يبلع بصورة خاطئة؛ غير ان الجميع فعلوا الشيء ذاته، والأكيد أن هذا لن يكون ما عنته هي. سألها: لماذا؟ لم يكن قادراً على تذكّر آخر مرة.

هذا لا يهم، قالت هي. انه مجرد شيء خطر ببالها. كان قد أخذ برداً، أضافت، الأمر الذي أثار دهشة إبني الخالتين، ذلك ان حالات البرد بالطريقة الإعتيادية كانت شيئاً محرّماً. على أية حال، كان من الضروري امتلاك مرآة الحنجرة الخاصة بـ هوفرات من أجل فحص إضافي للحنجرة. تركت بعض

الفورمامنت[١٧٤]، وضمادةً مع غمد من الغوتابرشا[١٧٥]، كي تستخدم ككمادة رطبة خلال الليل. يواكيم إستفاد من الإثنين معاً، وجد انهما منحاه بعض الإرتياح. إستمر في إستخدامهما؛ غير ان بحة صوته إستمرت، وحتى أمست أسوأ في الأيام القليلة التالية، مع ان تقرّح الحنجرة تلاشى كثيراً.

ثبت ان حمّاه كانت متخيلة ـ في الأقل المحرار الطبي لم يعطِ أكثر من النتيجة الإعتيادية، التي، مع نتائج فحوصات هوفرات جعلت يواكيمنا الطموح يمضي هنا مدة نقاهته قصيرة الأمد، بدلاً من أن تجعله يعود الى قواته المسلحة. نهاية تشرين الأول (أكتوبر) مرت من دون أن يأتي على ذكرها أحد، لا هوفرات ولا إبني الخالتين بينهما. جعلوها تمر، في صمت، مسبلين أعينهم. من التشخيص الذي أملاه بيرنز عند الفحوصات الشهرية على مساعده الخبير النفسي الجالس الى طاولته، ومن النتائج المرئية لدى اللوح الفوتوغرافي، كان واضحاً تماماً انه مع انه كان ثمة رحيل مرةً، الذي أفضل ما يقال عنه انه كان خطيراً بنحو لا جدال فيه، هذه المرة ليس ثمة ما يقال عنه سوى كونه انضباطاً نفسياً حديدياً، حتى حلول يوم كهذا طالما أن مناعةً تامة ربما يتم اكتسابها، من أجل الايفاء بالقَسَم وخدمة الأرض المستوية.

هكذا كان القرار الذي تظاهروا بصمتٍ، بأنهم، كلهم، متفقون عليه. غير ان الحقيقة هي ان أياً من إبني الخالتين لم يكن متيقناً من ان الآخر قد صدّقه؛ إن لم تلتقِ عينا أحدهما مع عيني الآخر، بسبب الشك الذي حاولت عينا كل منهما أن تخفياه، ولأن العيون إلتقت من قبل. هذا، بالطبع، حدث كثيراً، بعد الحديث عن موضوع الأدب، الذي خلاله لاحظ هانز كاستورب أول مرة الضوء الجديد الغريب والتعبير المشؤوم في أعماق عينيّ ابن خالته. وحصل مرةً عند المائدة. يواكيم بغتةً إختنق بعنف، ونادراً ما كان قادراً على

---

(١٧٤) الفورمامنت formamint: ربما يقصد المؤلف مادة شبيهة بالفورمالين المستخدمة في الطب كونها مادة معقمة وحافظة ـ المترجم.

(١٧٥) الغوتابرشا guttapercha: مادة شبيهة بالمطاط تُستخرج من بعض الأشجار الماليزية، لها استخدامات طبية منها حشوات جذور الأسنان ـ المترجم.

إلتقاط نَفَسه. بينما كان يلهث خلف منديل المائدة خاصته، وجارته، السيدة ماغنوس، قامت بالخدمة المتمتعة بقداسة القِدم بأن صفعته على ظهره، إلتقت عيون إبني الخالتين، بصورةٍ مرعبة لـ هانز كاستورب أكثر من الحادثة نفسها، التي من الجائز أن تحدث لأي إنسان. بعدئذ أغمض يواكيم عينيه وغادر المائدة، وجهه مغطى بمنديل المائدة خاصته، كي يسعل في الحديقة.

بعد مضي عشر دقائق رجع، باسماً، إن لم يكن شاحباً نوعاً، مع الإعتذارات المرتسمة على شفتيه بسبب الإزعاج الذي سببه لزملاء مائدته. إستأنف تناول وجبة طعامه الكافية، وما من أحد فكرّ في ما بعد في إضاعة كلمة واحدة في حدثٍ تافه جداً كهذا. لكن بعد إنقضاء بضعة أيام، عند الفطور الثاني، حدث الشيء نفسه من جديد؛ هذه المرة لم يكن هناك لقاء عيون، على الأقل من جانب إبني الخالتين، لأن هانز كاستورب إنحنى فوق طبقه واستمر في الأكل من دون أن يبدو عليه انه لاحظ الحدث. لكن بعد وجبة الطعام تحدثا عنه، ويواكيم حرر ذهنه في موضوع تلك الأنثى اللعينة التي وضعت الشيء في رأسه بسؤالها السخيف وبصورةٍ أو بأخرى سحرته. نعم، كانت تلك حالة إيحاء، وافق هانز كاستورب، ومن هنا كانت مسليةً نوعاً، على الرغم من جانبها المزعج. ويواكيم، كونه قد أسماها، بدا قادراً على أن يُبطل السحر؛ كان حذراً عند المائدة، ولم يعد يختنق بعد الآن أكثر من أشخاص غير مسحورين. ليس قبل مرور تسعة أو عشرة أيام حين إختنق من جديد ـ حيث لم يكن هناك ببساطة شيء يستحق الكلام عنه.

إلا انه أُستدعي على وفق طلبه الى رادامانثوس. أوبرين هي التي رتبت الأمر هكذا، ربما بإحساس طيب؛ بما انه كانت هناك مرآة حنجرة في المتناول، كان شيئاً حسناً أن تتم الإفادة من ذلك الجهاز الصغير الذكي من أجل تخفيف بحة الصوت العنيدة أو حتى الفقدان التام للصوت التي/الذي عانى منها/منه على مدى ساعاتٍ في كل مرة، وتقرّح الحنجرة، الذي تكرر كلما أهمل الحفاظ على قنوات حنجرته لينة بوساطة الأدوية العديدة المسيلة للعاب. ناهيك عن القول، حقيقة، انه على الرغم من انه كان يغص كما

يغص الآخرون، وليس أكثر منهم في عدد المرات، فقد كان ذلك فقط بفضل الحذر الأكبر، الذي عاقه عند وجبات الطعام التي كان يتناولها، وجعله يتأخر في الإنتهاء منها.

هوفرات، إذاً، عكس صورة، حدق عميقاً في: حنجرة يواكيم، وحين فعل ذلك، مضى يواكيم مباشرةً الى شرفة ابن خالته كي يعطيه النتيجة. قال، نصف هامس، كما لو كانت تلك هي الساعة المخصصة لعلاج العصر، ان ذلك كان مزعجاً، ودغدغه كثيراً. تكلم بيرنز بصورةٍ غير مترابطة عن حالةٍ ملتهبة، وقال ان الحنجرة ينبغي أن تُدهن يومياً؛ عليهم أن يبدأوا غداً، طالما ان الدواء يجب أن يُهيأ. حالة ملتهبة، إذاً، ويجب أن تُدهن. هانز كاستورب، كان رأسه مليء بتداعيات الأفكار بعيدة المنال، التي لها صلة في سبيل المثال مع البواب الأعرج، وتلك السيدة التي طافت على مدى إسبوع قابضةً على أذنها، ما كان ينبغي لها أن تزعج نفسها. كان يتمنى أن يطرح مزيداً من الأسئلة. لكنه أحجم، عزم في قرارة نفسه على رؤية هوفرات بصورة شخصية، وقال لـ يواكيم انه كان مسروراً فالمشكلة تمت معالجتها، وان هوفرات أخذها شخصياً على عاتقه. كان ممتازاً في حقل نشاطه، سوف يصلح الأمر حالاً. أومأ يواكيم برأسه من دون أن يتطلع إليه، إستدار على عقبيه ومضى الى شرفته.

ما الذي أزعج يواكيمنا عاشق الشرف؟ في هذه الأيام الأخيرة أمست عيناه جد حذرتين، جد غامضتين في نظرتهما. جهود الآنسة فون ميليندونك باءت بالفشل فقط في ذلك اليوم بإزاء نظرته اللطيفة الداكنة؛ لكنها الآن حاولت، لعلها أفلحت في مسعاها. ذلك ان يواكيم تجنب ملاقاة عيون الناس؛ وحتى حين يلتقي بها، كما توجب عليه أن يفعل ومع ذلك، حيث ان ابن خالته نظر إليه كثيراً، هانز كاستورب لم يكن الأكثر حكمةً. جلس هو الآن في شرفته مثبط الهمة كثيراً، وجرّب أن يرى الرئيس في الحال، لكنه أحجم، فلا بد ان يواكيم سمعه وهو ينهض؛ من الأفضل له أن ينتظر، ويرى بيرنز لاحقاً في وقت العصر.

ثبت أن هذا مستحيل. بدا انه ببساطة لا يستطيع أن يلقي نظراته على

هوفرات؛ إما ذلك المساء، أو في مجرى اليومين التاليين. كان يشق منع يواكيم من الملاحظة؛ غير ان هذا لا يستطيع أن يعلل كثيراً الحقيقة القائلة ان رادامانثوس ما كان ينبغي له أن يجعل القرار مستحيلاً. هانز كاستورب فتش وسأل عنه في أرجاء المصح؛ أُرسل الى هنا أو هناك حيث كان من المؤكد أن يُعثر عليه، ووجد فقط انه غادر المكان. كان بيرنز حاضراً عند وجبة طعام، الواقع، لكنه جلس بعيداً عن هانز كاستورب، الى المائدة الروسية «السيئة»، واختفى عن الأنظار قبل الحلوى. مرةً أو مرتين، رآه واقفاً يتحدث مع كروكوفسكي، مع أوبرين، مع مريضٍ أو مريضة، على درجات السلّم أو في الممر. فكّر هانز كاستورب انه إستطاع أن يظفر به، وانه يحتاج فقط الى أن ينتظر. لكن حدث ان أدار عينيه دقيقةً، وعندما التفت وجد انه غاب عن الأنظار.

في اليوم الرابع حالفه الخظ. من شرفته رأى ضحيته في الأسفل، يعطي الإرشادات الى البستاني؛ إنسل من أغطيته ونزل مسرعاً الى الأسفل. شاهد ظهر هوفرات، بينما كان يمشي بخطى قصيرة مترنحة متجهاً صوب بيته الخاص، مما جعله يمشي بخطى سريعة وراءه، وحتى أن يأخذ حريته في المناداة عليه، إلا ان هوفرات لم يعره إهتماماً. في الختام، لحق بطريدته لاهثاً، وجعله يتوقف عن المسير.

«ما الذي تفعله هنا؟» سأل هوفرات، وأجحظ عينيه. «هل يلزمني أن أحصل على نسخة خصوصية إضافية من قواعد المصح مطبوعة من أجلك؟ يبدو لي ان هذه هي فترة الإستراحة. منحنيك وأشعتك السينية لا يسوّغان لك أن تلعب دور النبيل الحر في سلوكه، في حدود علمي. يلزمني أن أنصب فزاعة كي أخيف بها الناس الذين يملكون الوقاحة كي يهبطوا الى الأسفل ويتمشوا في الحديقة في هذه الساعة.»

«سيد هوفرات، ينبغي لي، ولا ريب في ذلك، أن أتحدث إليك لحظةً.»

«كنتُ أُلاحظ على مدى أيام قلائل انك تفكر بأن تفعل هذا. أنت تنصب الفخاخ لي، كما لو كنت أنثى تريد أن توقعها في غرامك. ماذا تريد؟»

«الأمر يتعلق بابن خالتي، سيد هوفرات. معذرةً ـ انه آتٍ إليك كي تدهن حنجرته ـ أشعر أن ذلك شيء حسَن ـ إنه شيء عديم الأذى تماماً، أليس كذلك، إذا سمحت لي أن أسأل؟»

«انك دوماً تجد الأشياء كلها عديمة الأذى، كاستورب ـ هذا هو طبعك. أنت تحب نوعاً أن تخلط الأشياء التي ليست عديمة الضرر، لكنك تتعامل معها كما لو انها عديمة الضرر وتفكر أن تجد الإستحسان في عينيّ الباري والإنسان. أنت منافق قليلاً، كاستورب، وجبان قليلاً؛ إبن خالتك صاغها بتعبير لطيف جداً حين دعاك مدنياً.»

«هذا كله صحيح، سيد هوفرات. ان مواطن الضعف في شخصيتي أشياء لا جدال فيها. غير ان هذا هو القصد ـ حالياً هي ليست المسألة التي نحن بصددها: ما حاولت أن أسألك عنه على مدى ثلاثة أيام هو ـ»

«انني سأغلف لك الجرعة. بمادة هلامية[١٧٦] ـ أليس هذا ما حاولتَ السؤال عنه؟ تريد أن تضايقني بنحو موصول بأن تغريني بنفاقك اللعين، كي تستطيع أن تنام قرير العين، بينما يتوجب على الآخرين أن يستيقظوا ويشاهدوا ويبتسموا إبتساماتٍ عريضة ويتحملوه.»

«لكن، سيد هوفرات، لماذا أنت شديد القسوة معي؟حقيقةً أريد أن ـ»

«أجل، أجل، القسوة ليست سلوكك، أعرف هذا. ابن خالتك طراز آخر، زوج مختلف من الأحذية. هو يعرف. هو يعرف. [هو يعرف] ـ ويلتزم الصمت. فاهم؟ انه لا يطوف هنا وهناك يتمسك بأذيال سترات الناس ليطلب منهم أن يساعدوه في أن يسحب شيئاً ما فوق عينيه! انه يعرف ما يفعله، وما هو الشيء الذي يعرّضه للخطر، هو من الصنف الذي يعضُّ عليه بأسنانه. هكذا ينبغي أن يكون الرجل، هذا هو الذي يستطيع أن يفعله الرجل: لسوء الحظ هذا ليس في نهج مخلوق ذي قدمين فاتن مثلك. لكنني أحذرك، كاستورب، إذا ما كنت تنوى الإستسلام لمشاعرك المدنية وإطلاق صيحة نباح، ببساطة سأريك باب الخروج. ما نحتاجه الآن هو [الرجل]. فاهم؟»

---

(١٧٦) الهلام jelly: حلوى رجراجة القوام، شيء كالهلام في قوامه أو كثافته ـ المترجم.

لزم هانز كاستورب الصمت. هذه الأيام هو أيضاً يغدو مرقشاً حين يحمر وجهه، كونه ذا لون نحاسي غامق لذا لن يغدو شاحباً فعلاً. في الختام، بشفتين راعشتين، قال: «شكراً، سيد هوفرات. أفهم الآن ـ في الأقل، أشعر انني متأكد من انك ما كنت لتتحدث معي بطريقة جد ـ جد وقورة لو لم يكن وضع يواكيم خطيراً. لكنني أكره ثورات الغضب كرهاً شديداً ـ أنت ظلمتني فيها. إذا كان الأمر يتطلب مَلَكة التمييز والتعقل، أعتقد انني أستطيع أن أعدك انني لن أكون ضعيفاً في هذا المجال.»

«أنت تعوّل كثيراً على ابن خالتك، يا هانز كاستورب؟» سأل هوفرات، وهو يقبض فجأة على ذراع الشاب، ونظر إليه بعينيه الزرقاوين، المحتقنتين بالدم، الجاحظتين، تحت أهدابها البيض.

«ماذا تنوي القول، سيد هوفرات؟ علاقة قرابة و ـ وصديقي الطيب ورفيقي الوحيد هنا في الأعالي؟ ـ» هانز كاستورب غصَّ وأدار إحدى قدميه على أصابعها حين وقف.

سارع هوفرات الى تحرير يده.

«حسن، إذاً كن طيباً معه قدر إستطاعتك، خلال هذه الأسابيع الستة أو الثمانية المقبلة»، قال. «فقط حرر نفسك واطلق العنان الى عدم ضررك الفطري. هذا سيساعده كثيراً. سأكون هنا أيضاً، كي أساعد في أن أجعل الأشياء مريحة، وتليق به هو الضابط والنبيل.»

«انها الحنجرة، أليس كذلك؟» سأل هانز كاستورب، محنياً رأسه خلال الجواب.

«Laryngea»، وافق بيرنز. «تتعطل سريعاً. الغشاء المخاطي للقصبة الهوائية يبدو في حالةٍ سيئة جداً. ربما السلطات الشاكية في القوات المسلحة شرعت بإقامة مكان ثانوي مقاوِم هناك. لكننا يجب أن نكون مستعدين دوماً لمثل هذه الانحرافات الصغيرة. ما من أمل كبير، يا غلامي؛ الواقع ما من أمل على الإطلاق، على ما أعتقد. بالطبع، سوف نحاول كل ما هو جيد ويكلّف المال.»

«الأم»، بدأ هانز كاستورب الكلام.

«لاحقاً، لاحقاً. لا تستعجل. إستخدم تعقلك، وستفهم انها تأتي في الصورة في الوقت المناسب. والآن إرجع الى حيث تنتمي. سوف يفتقدك ـ لن يكون شيئاً ساراً بالنسبة له أن يشعر هو نفسه اننا نتناقش حوله بعدم حضوره.»

كان يواكيم يمضي يومياً كي يُدهن، في المناخ الخريفي الجميل. بسروالٍ فلانيلة أبيض وسترة فضفاضة زرقاء اللون، يعود متأخراً من علاجه، رائعاً وعسكرياً؛ يدخل حجرة الطعام، ينحني إنحناءته الصغيرة، لطيفاً وهادئاً، معتذراً عن تأخره، ويجلس الى وجبة طعامه، التي كانت تُعد بنحوٍ خاص، ذلك انه لم يعد يأكل الطعام الإعتيادي، بسبب خطر الإختناق؛ تسلّم اللحم المفروم والحساءات الرقيقة. زملاء مائدته أدركوا سريعاً حال الأمور. ردوا على تحيته بدفء غير إعتيادي، وخاطبوه بـ ملازم. حينما لم يكن هناك سألوا هانز كاستورب عنه؛ وحتى الناس من الموائد الأخر أقبلوا كي يوجهوا الأسئلة. السيدة شتور لوت يديها المتشابكتين، وأرهقت نفسها بنواحات مألوفة. إلا ان هانز كاستورب رد فقط بكلماتٍ أحادية المقطع، معترفاً بخطورة الحالة، مع ذلك إستهان بها الى حدٍ ما، بمقصدٍ جدير بالإحترام ألا يفشي سر ابن خالته في وقتٍ غير ملائم.

يومياً يقومان بمسيرتهما الراجلة معاً، مرات كثيرة غطيا المسافة المفروضة، التي حددها هوفرات بصرامة لـ يواكيم، كي يوفر قوته. كان هانز كاستورب يسير الى يسار ابن خالته. إعتادا المشي كيفما شاءت المصادفة، لكنه الآن بقي يسير بثبات في ناحية الشمال. لم يتكلما كثيراً؛ أطلقا التعابير المناسبة للوتيرة اليومية، وشيئاً قليلاً آخر. في الموضوع الذي تطرقا إليه لم يكن ثمة ما يقال، بخاصةٍ بين شخصين يمتازان بتحفظ تقليدي، قلما كانا قادرين على أن يحملا نفسيهما على التلفظ بالإسم الأول لأحدهما الآخر. غالباً كان الإسم يعتمل بالحاح في صدرهانز كاستورب المدني، كما لو انه يجب أن ينبثق الى الخارج. لكنه لم يستطع: الشعور الموجع، المتمرد ضعف من جديد، وكان هو صامتاً.

برأسٍ محني سار يواكيم بجانبه. كان يتطلع نحو الأرض ـ كما لو انه

ينظر الى الأرض. يا له من شيء غريب! سارَ كما ينبغي، كدأبه؛ حيى الناس بكياسته المعهودة، عوّل، كما فعل ذلك كثيراً، على مظهره الخارجي ولياقته ـ وإنتمى هو الى الأرض. حسن، الى هناك ننتمي كلنا، عاجلاً أم آجلاً. أما أن ينتمي، يافعاً جداً، بحماسته الفرحة لقواته المسلحة المفضلة، فهو الشيء المُر. الشيء الأكثر مرارةً، الأصعب فهماً، بالنسبة له هو الذي عرف وسار بجانبه مقارنةً به هو الشخص المخلص نفسه، الذي كانت معرفته، مع انه عرف وإلتزم الصمت، أكاديمية بطبيعتها، كانت بنحو ما تعنيه أقل مما تعني رفيقه. انها حقيقة ان موت إنسان ما مسألة تخص الأحياء أكثر مما تخصه. سواء أدرك هو أم لا، يصوّر هو وثاقة صلة القول المأثور بالموضوع: ما دمنا نحن موجودين لن يكون الموت حاضراً؛ وعندما يكون الموت حاضراً، لا نكون نحن موجودين. بين الموت وبيننا ليس ثمة إلفة؛ انه أمرٌ لا نملك أن نفعل شيئاً بإزاءه ـ وفقط ثمة إلفة عرضية بيننا وبين العالم والطبيعة. ولهذا السبب الكائنات الحية كلها بوسعها أن تفكر فيه ملياً برباطة جأش، بعدم إكتراث، لا مبالاة، بلا مسؤولية أنانية. بهذه الحالة العقلية لاحظ هانز كاستورب أشياءً كثيرةً في إبن خالته، خلال هذه الأسابيع؛ وأدرك ان يواكيم، عارفاً، مع ذلك لم يكن يعرف؛ انه لم يكن بالشيء العسير له أن يحافظ على صمتٍ لائق في ما يتعلق بالموضوع، بسبب ان علاقته الداخلية معه كانت، إن صح التعبير، نظرية حصراً. الى أن أصبح في نطاق تفكيره العملي، كان منظماً بوساطة إحساس صحي بملاءمة الأشياء، الأمر الذي جعله يميل قليلاً الى مناقشته مثلما كان يتوجب عليه أن يتكلم عن بذاءات ما لعملية نعيها كلنا، كانت حياتنا مشروطةً بها، أما بشأن موضوعها فما نزال نحافظ على اللياقة.

هكذا سارا وحافظا على الصمت بينهما في ما يتعلق بكل هذه الشؤون الطبيعية غير الملائمة. حتى الشكاوى التي عبّر عنها في البداية يواكيم مراراً وبصوتٍ عالٍ عند إفتقاده المناورات العسكرية، وإهماله الخدمة عموماً، لم يعد يعبّر عنها. مع ذلك لماذا، على الرغم من كل تحمله غير الواعي، زحفت تلك النظرة الحزينة المنكمشة عائدة الى عينيه اللطيفتين؟ وتلك النظرة

المضطربة ـ التي حاولت عليها السيدة المديرة، وربما انتصرت الآن؟ هل كان ذلك لأنه رأى كم أصبح كبير العينين وغائر الخدين؟ ـ لأنه كان هكذا، في هذه الأسابيع القلائل، أكثر مما كان عليه إبان إقامته كلها هناك في الأسفل، وجلده البرونزي إنقلب من يوم الى آخر بنياً أكثر ومتيناً أكثر. كما لو ان الظروف التي لم تكن بالنسبة للسيد ألبين سوى فرصة للتمتع بالحسنات اللامحدودة للعار، كانت بالنسبة للضابط الشاب مصدراً للكدر وإزدراء الذات. أمام أي شيء، أمام مَنْ، تحاول نظرته التي كانت ذات مرة صريحة ومكشوفة أن تنحرف جانباً؟ كم هو غريب عار الكائن الحي هذا الذي ينسل ملتجئاً الى زاوية ما ليموت، مقتنعاً انه قد لا يتوقع من الطبيعة الخارجية أي إجلال أو إحترام لمعاناته وموته! مقتنعاً، وبحق: سرب من السنونوات في طيرانها الجذل لن تبالي برفيقٍ معطل، كلا، سوف تنقره بمناقيرها. هذا مجرد مثال من المنبسطات السفلى للطبيعة. قلب هانز كاستورب حقيقةً، قلبه المشفق والمحب بنحو إنساني، تورّمَ في صدره لدى رؤيته هذا العار العابس، الغريزي يستيقظ في عينيّ يواكيم. سار هو الى يساره بنحو معبّر؛ وعندما كانا يصلان مرتفعاً صغيراً يتوجب عليهما أن يتسلقاه، يساعد ابن خالته، الذي أصبح الآن، غير مستقر على قدميه؛ يضع ذراعه على كتفه؛ متغلباً على خجله، يتركها هناك برهةً من الوقت، الى أن يتخلص منها يواكيم بنكد، ويقول: «لا تفعل هذا، يبدو أمراً سخيفاً، كما لو اننا سكارى، ونحن نظهر بهذه الصورة.»

لكن أتت لحظة ما حين رأى هانز كاستورب الحزن في عيني يواكيم في ضوءٍ مختلف. كان ذلك حين تسلّم الأخير أملاً بملازمة سريره، في بداية تشرين الثاني (نوفمبر). كان الثلج هطل بإفراط. لكنه وقتذاك وجده أمراً عسيراً جداً أن يأكل حتى اللحم المفروم والثريد اللذين أعدوهما له، بما ان كل لقمة ثانية كانت تذهب في الطريق الخاطئ. التحوّل الى الغذاء السائل كان ضرورياً، وأرسله بيرنز الى الفراش، كي يستطيع الحفاظ على قوته. المساء الذي قبله، المساء الأخير الذي كان فيه خارج الفراش، هانز كاستورب رآه يتكلم الى ماروسيا، ماروسيا ذات الضحك الجاهز، ذات

المنديل المعطر بالبرتقال، ذات الصدر الذي يُسر عين الناظر. بعد العشاء، أثناء نصف الساعة المخصص للعلاقات الإجتماعية، خرج هانز كاستورب من حجرة الموسيقى كي يبحث عن ابن خالته، ورآه عند الموقد القرميدي، قرب كرسي ماروسيا الهزاز، الذي أمسكه يواكيم بمسٍ خفيف من ذراعه اليسرى بحيث كانت قادرةً على أن ترفع بصرها محدّقة في وجهه من وضعها نصف المستلقي، بعينيها المدورتين البنيتين، وكان مائلاً فوقها، يتحدث برقة وبنحو مفكك. كانت تبتسم بين حين وحين، وتهز كتفيها، بعصبيةٍ واستنكار.

سارع المتفرج الى الإنسحاب؛ مع انه رأى انه لم يكن الشخص الوحيد الذي كان ينظر الى المشهد الصغير، من دون أن يلاحظه يواكيم أو في الأقل لم يعره أدنى قدرٍ من الإهتمام. المشهد هزَّ كيان هانز كاستورب أكثر من أي علامةٍ من علامات القوة المتضائلة التي رآها طوال هذه الأسابيع في ابن خالته: يواكيم في حواره، غارقاً في حواره، مع ماروسيا، التي جلس الى مائدتها زمناً طويلاً جداً من دون أن يبادلها مقطعاً لفظياً واحداً، لكنه بعقلٍ وشرف كان يبقي عينيه مخفضتين، وبصرامةٍ رفض أن يكون واعياً بشخصها أو بوجودها، مع انه كان يغدو مرقشاً جداً كلما ذُكرت هي في حضوره، «آه، نعم، انه رجل يائس»، هكذا فكر هانز كاستورب، وجلس في كرسيّ في حجرة الموسيقى، كي يمنح يواكيم الوقت الكافي لهذا الإنغماس الذاتي[177] الوداعي.

من الآن فصاعداً، إستغرق يواكيم في الحياة الأفقية. هانز كاستورب جالساً في كرسيه الممتاز، كتب الى لويزا زيمسين. الى تقاريره المبكرة أضاف هو ان يواكيم الآن يلازم الفراش؛ وانه لم يقل شيئاً، إلا ان أمنية أن تكون أمه الى جنبه يمكن قراءتها في عينيه، وهوفرات بيرنز وافق قائلاً ان هذا سيكون أمراً حسناً. صاغ ذلك كله برقةٍ كبيرة. ولويزا زيمسين، وهو شيء لم يكن مُذهلاً، أخذت أبكر قطار ممكن وجاءت الى ابنها. ثلاثة أيام بعد ان

---

(١٧٧) الانغماس الذاتي indulgence: اطلاق المرء العنان لأهوائه ورغباته وشهواته ـ المترجم.

غادرت الرسالة التي صيغت بكلماتٍ إنسانية وصلت هي، واستأجر هانز كاستورب مركبة جليد وأتى بها من المحطة أثناء عاصفة ثلجية. حين اقترب القطار، حاذر أن يهدئ ملامحه، كي لا تصاب الأم بصدمة، وكي لا تهدهدها من الناحية الأخرى الآمال الكاذبة.

كم مرة حدثت مثل هذه اللقاءات على هذه الرصيف، كم مرة جرى مثل هذا الوصول السريع، هذا البحث عن الملامح والمصحوب بالكرب حينما يهبط المسافر من القطار! السيدة زيمسين أعطت إنطباعاً انها ركضت الطريق كله من هامبورغ الى هنا مشياً على الأقدام. محمرة الوجه، جرّت يد هانز كاستورب بين يديها الى صدرها، وتطلعت إليه كما لو انها كانت تخشى أن تسمع، صاغت أسئلتها العاجلة، الخجولة تقريباً. تجنب هو أسئلتها بأن شكرها على قدومها السريع جداً، قائلاً انه شيء رائع أن تكون هي هنا، وكم سيكون يواكيم مسروراً بحضورها. نعم، هو في السرير الآن؛ انه شيء سيء جداً، لكنه شيء لا بد منه، بسبب الغذاء السائل، الذي من الطبيعي أن يضعفه الى حدٍ ما. في حالة الضرورة، بالطبع، كانت هناك وسائل أخرى كالتغذية الاصطناعية، على سبيل المثال. لكنها سترى بنفسها.

رأت هي؛ وهانز كاستورب أيضاً رأى. حتى تلك اللحظة لم يكن واعياً تماماً بالتغيرات التي أحدثتها الأسابيع الأخيرة في يواكيم ـ الشاب لم يكن ينتبه كثيراً لمثل هذه الأشياء. لكنه الآن نظر بعيني الأم التي وصلت حديثاً، كما لو انه لم يرَ يواكيم من أسابيع عدة؛ وأدرك بصورة جلية وواضحة، وبنحوٍ لا ريب فيه أدركت هي أيضاً، ومن دون ريب يواكيم نفسه أدرك بجلاءٍ أكثر من جلاء الكل انه كان [محتضراً]. أخذ يد السيدة زيمسين وحملها ـ أما يده فكانت صفراء ومهزولة كوجهه. وأذناه، بسبب النحول، برزتا بصورة مشوهة تقريباً. مع ذلك على الرغم من هذا العيب، بلوى أيامه اليافعة، وعلى الرغم من التعبير الكالح الذي ألقاه المرض على ملامحه، فإن جمالها الرجولي بدا أكثر قوةً. الشفتان بدتا، تحت الشارب الأسود الصغير، أكثر إمتلاءً قليلا بالمقارنة مع الخد الغائر. طيتان طوليتان حفرتا نفسيهما في السطح الأصفر لجبينه؛ عيناه، عميقاً في محجريهما العظميين، كانتا أكبر

وأكثر جمالاً من أي وقت مضى، هانز كاستورب لم يحاول النظر إليهما. ذلك ان النظرة المحزونة المرتعشة إنتهت، يواكيم يرقد الآن في سريره؛ ثمة فقط ذلك الضوء الأبكر في أعماقهما الداكنة، الهادئة ـ نعم، كانت هناك النظرة «المشؤومة» أيضاً. لم يبتسم، أخذ يد أمه وهمس مرحباً بها. هو حتى لم يبتسم عند دخولها، وجمود سحنته هذا أفصح عن كل شيء.

كانت لويزا زيمسين امرأةً شجاعةً. هي لم تذب حزناً لدى رؤيتها ابنها العزيز. الشبكة غير المرئية تقريباً التي قيدت شعرها وحافظت عليه مرتباً كانت رمزاً لسلوكها الهادئ والمتمتع بضبط النفس. رابطة الجأش، نشيطة، مثل كل أولئك الساكنين فوق مرجها الوطني، تولت بنفسها مسؤولية رعاية يواكيم، مظهره حثها على أن تشغل كل قدراتها الأمومية في الكفاح، وكانت مقتنعةً انه إذا كان ثمة شيء قادر على إنقاذه، فلا بد أن يكون هذا الشيء هو رعايتها المؤرقة، والمخلصة. ليس من أجل أن توفر على نفسها، إنما فقط إنطلاقاً من إحساس بالموضة، وافقت هي على إستدعاء ممرضة. كانت تلك سستر بيرتا، ألفريدا شيلدكنيشت، التي أقبلت مع حقيبتها الصغيرة السوداء. حماسة السيدة زيمسين لم تترك للأخيرة سوى الشيء القليل لتفعله، سواء نهاراً أو ليلاً، وكان لها متسع من الوقت كي تقف في المجاز، مع شريط نظارتها خلف أذنيها، وأن تراقب كل ما يجري. كانت امرأة مبتذلة، هذه الممرضة البروتستانتية. ذات مرة، حين كانت وحدها في الحجرة مع هانز كاستورب والمريض، الذي لم يكن نائماً بل كان مستلقياً على ظهره بعينين مفتوحتين، قالت فعلاً: «مَنْ كان يحلم أن آتي لأرعى المرض الأخير لأي منكما؟»

هانز كاستورب، مروَّعاً، هز قبضته نحوها، لكنها نادراً ما فهمت ما عناه؛ كانت بعيدة عن أي تفكير بأن ترحم مشاعر يواكيم، وكان شيئاً واقعياً جداً أن تحلم بأن أي شخص، أصغر فرد من الأقارب، بوسعه أن يكون شخص وقضية هذا المرض. «هو ذا»، قالت، وحملت منديلاً مبللاً بالكولونيا الى أنف يواكيم، «إسترح قليلاً، أيها السيد الملازم، إفعل!» وعلى أية حال، كانت هي على صواب: ثمة معنى قليل، في هذه الساعة، في

الإبقاء على الإدعاء. انه في الأكثر من أجل التأثير المقوي ان السيدة زيمسين ما برحت تتكلم الى ابنها بصوت منعش، مشجع، عن تحسنه. ذلك انه كان هناك شيئان جليان: الأول، أن يواكيم كان يدنو من الموت بوعي تام، والثاني، انه كان راضياً بحالته، وكان في تناغم مع نفسه. فقط في الأسبوع الأخير ـ نهاية تشرين الثاني (نوفمبر) ـ أظهر ضعف القلب نفسه. كانت هناك ساعات أمسى فيها مضطرباً، لم يعد قادراً على معرفة حالته، وتحدث عن عودةٍ مبكرة الى القوات المسلحة، وتكلم كذلك عن مناورات الخريف العسكرية، التي خيّل إليه انها ما زالت مستمرة. بعدها كفَّ هوفرات بيرنز عن تقديم أي أمل، وأخبر الأقارب ان النهاية كانت مسألة ساعات.

الحالة إعتيادية ومحزنة على حدٍ سواء، خداع الذات هذا كثير النسيان، سريع التصديق، وهو الذي ينتاب حتى الذكور ساعة تقترب العملية المميتة من ذروتها. كونه موضوعياً، واقعي الطراز، مستقلاً عن وعي الفرد كالإغراء بالنوم الخفيف الذي يستحوذ على الإنسان الذي خدّره البرد، أو السير في دوائر بالنسبة لإمرىءٍ ضلَّ سبيله. حزن هانز كاستورب وقلقه لم يمنعاه من الملاحظة الموضوعية لهذه الظواهر، ولا من أن يُبدي ملاحظاته القاسية إن لم تكن المصوغة بصورة سيئة في حواره مع نافته وسيتيمبريني، حين أخبرهما بحالة ابن خالته. هو حتى جرَّ على نفسه توبيخاً من سيتيمبريني، لأنه قال انه إعتقد ان الإفتراض الحالي خاطئ، ذلك الذي ينص على ان السذاجة الفلسفية والإيمان بأن كل شيء سائر الى الأحسن هو علامة على الطبيعة السليمة، كما هما التشاؤم والتعبير الساخر علامتان على المَرضية. ذلك انه لو كان هذا صحيحاً، فلن تكون هي على وجه الدقة المرحلة الأخيرة الميئوس منها التي أظهرت التشاؤم وردياً بصورةٍ غير طبيعية بحيث جعلت الكآبة السابقة تبدو بالمقارنة إظهاراً صحياً تماماً للحياة. كان مسروراً في الوقت نفسه كونه قادراً على أن يخبر صديقيه انه مع ان رادامانثوس لم يمنحهم أملاً، مع ذلك فإن فقدان الأمل لم يكن ذا ميزة موجعة جداً، ذلك انه تنبأ بنهاية لطيفة عديمة الألم، على الرغم من شباب يواكيم الناضر.

«مسألة ـ رعوية للقلب، سيدتي العزيزة» ـ قال بيرنز، وأمسك يد لويزا

زيمسين بين يديه، اللتين كانتا بحجم مجرفتين، مخفضاً بصره ناظراً إليها بعينيه الجاحظتين، الدامعتين، المحتقنتين بالدم. «أنا مسرور غاية السرور ان المرض إتخذ هذا المسار السائغ، وانه لن يحتاج الى أن يتعرض الى وذمة[١٧٨] المزمار أو أي إهانة من هذا الطراز، سوف يوفر عليه ذلك مزيداً من [اللخبطة]. القلب إنهار بسرعة، وهذا من حسن حظه وحظنا، يمكننا أن نقوم بواجبنا وذلك بزرقه بحقن كافور وما شاكل، من دون أن تكون هناك فرصة كبيرة للإستمرار طويلاً. سوف ينام كثيراً في خاتمة المطاف، وستكون أحلامه سارة، أعتقد انني أستطيع أن أعدكما بذلك؛ حتى إن لم يلزمه أن يتقدم في نومه، مع ذلك سيكون عبوراً قصيراً، نادراً ما سيلاحظه، يمكنكم أن تعتمدوا عليه. هكذا يكون الحال في معظم الحالات، في الواقع ـ أنا أعرف ما هو الموت، أنا خادم قديم له؛ وصدقوني، انه نال تقديراً مبالغاً فيه. تقريباً هو لا شيء. بطبيعة الحال، كل أنواع القذارات يمكن أن تحدث سلفاً ـ لكن ليس من العدل أن نحصي تلك، انها حية كالحياة نفسها، ويمكن أن تمهد السبيل الى الشفاء. لكن ما يتعلق بالموت ـ ما من أحد رجع منه كي يخبرك بأي شيء عنه، لأننا لا ندرك كنهه. نحن نخرج من العتمة ونلج العتمة من جديد، وبين العتمتين تكمن تجاربنا الحياتية. أما البداية والنهاية، الولادة والموت، فنحن لا نجربهما؛ إنهما لا يملكان ميزةً ذاتيةً، انهما تقعان تماماً في صنف الأحداث الموضوعية، وهذا هو بيت القصيد.»

كانت تلك طريقة هوفرات في تقديم مواساته. ربما نأمل ان السيدة زيمسين العاقلة تكون قد إنتزعت الراحة من ذلك؛ توكيداته، في الأقل، بدرجة كبيرة جداً بررها الحدث. يواكيم، في هذه الأيام، نام ساعات كثيرة، بسبب ضعفه، وربما حلم بالأرض المنبسطة والقوات المسلحة وبكل شيء آخر من شأنه أن يكون ساراً له أن يحلم به. حين أفاق من نومه، وسألوه كيف يشعر، يجيب هو بصورة متفككة نوعاً، مع ذلك كان يشعر كثيراً بأنه

(١٧٨) الوذمة oedema: تسمى أيضاً الإستسقاء وهو تجمع السوائل في نسيج خلوي ـ المترجم.

في حال جيدة وانه سعيد. يقول هذا مع انه نادراً ما كان له أي نبض، وفي الختام لم يعد يشعر بإبرة تحت الجلد. جسده أمسى غير حساس، ربما بوسعك أن تحرق اللحم أو تقرصه، كان هو قد تجاوز الإحساس.

تغيرات جسدية كثيرة حدثت منذ مجي الأم. الحلاقة أضحت عبئاً عليه، طوال نحو ثمانية أو عشرة أيام لم يقم بها، وله الآن لحية نامية، أبرزت للعيان بإطار أسود وجهه الشمعي وعينيه اللطيفتين. كانت تلك لحية المحارب، لحية الجندي في الميدان؛ كلهم وجدوها رجالية ولائقة. ولكن بسبب هذه اللحية نما يواكيم فجأةً من غلام مراهق الى رجل ناضج ـ مع انه أغلب الظن ليس بسببها وحدها. كان يحيا حياةً سريعةً، حياته تدور دوراناً سريعاً كالآلات الميكانيكية للساعة؛ مرَّ عَدواً عبر مراحل لم تضمن له الوصول في الوقت المناسب؛ وفي الساعات الأربع ـ والعشرين الأخيرة صار رجلاً عجوزاً رمادي اللون. ضعف قلبه سبب إنتفاخ الوجه الذي أعطى مظهر التوتر، وترك إنطباعاً في هانز كاستورب ان الموت لا بد أن يكون في الأقل مجهوداً عظيماً، مع ان يواكيم، بالطبع، شكراً للتكيفات الحسية المختلفة والخدر الرحيم للجسم، لم يكن واعياً به. إنتفاخ قسمات الوجه كان في الأغلب حول الشفتين؛ داخل الفم بدا أيضاً جافاً ونصف مشلول، جاعلاً يواكيم يغمغم كرجلٍ عجوز ـ الأمر الذي أزعجه كثيراً. لو كان بوسعه فقط، قال بصوتٍ أجش، أن يتخلص منه سيكون عندئذ في أفضل حال، إنما كان ذلك أذىً لعيناً.

المعنى الذي قصده بـ«أفضل حال» لم يكن واضحاً ـ في حقيقة الأمر، ذلك انه أظهر الميل النموذجي الى الغموض، أدلى بأكثر من قولٍ ذي معنى مشكوك فيه أو مغزى مزدوج، بدا عليه انه كان يعرف ومع ذلك لم يكن هو كذلك، ما إن؛ حين كان جلياً جداً ان موجة الموت المقترب قد اخترقته، هزَّ رأسه وقال مشفقاً على نفسه انه يشعر انه في حال سيئة جداً، وانه لم يشعر بكونه في مثل هذه الحال السيئة من قبل.

بعدها أضحى قاتماً، كالحاً، وحتى فظاً؛ لم يعد يصغي الى أي خيال

مهدئ أو ذريعة مسكِنة، إنما تطلع أمامه ولم يحر جواباً. لويزا زيمسين بعثت في طلب كاهن شاب، يا لأسف هانز كاستورب، لم يظهر بطوق رقبة مكشكش منشى، بل لبس رباطاً بدلاً منه. بعد أن صلى مع يواكيم، المريض إتخذ نبرةً وهيئةً رسميةً، ونطق أمانيه بصورة أوامر قصيرة.

عند الساعة السادسة عصراً شرع يقوم بحركة غريبة مستمرة بيده اليمنى، مع سلسلة السوار في معصمه: مررها فوق غطاء السرير، عند الوركين، رافعاً إياه وهو يسحبه الى الوراء ونحوه، بحركةٍ أشبه بحركة المدمة(١٧٩)، كما لو كان يجمع شيئاً ما.

في الساعة السابعة مات؛ ألفريدا شيلدكنشت كانت في المجاز، الأم وابن الخالة كانا وحدهما معه. كان قد غاص في سريره، وبنحوٍ جاف أمرهما أن يسنداه الى الأعلى. ما إن حاولت السيدة زيمسين، بذراعها حول كتفيه، أن تفعل هذا، قال هو بعجل انه يتوجب عليه أن يكتب طلباً لغرض تمديد إجازته وأن يسلّم هذا الطلب في الحال؛ وحتى انه بينما كان يقول ذلك، حدث «العبور القصير»، كما أدرك هانز كاستورب، وهو ينظر بوقار في ضوء مصباح الطاولة ذي الظلة الحمراء، بسرعة. أمست نظرته خافته، التوتر غير الواعي لقسمات الوجه خفَّ، المظهر المتوتر والمنتفخ حول الشفتين تضاءل بصورة ملحوظة؛ جمال الرجولة المبكرة زار مرةً أخرى جبين يواكيمنا الهادئ، وانتهى كل شيء.

لويزا زيمسين راحت تبكي؛ هانز كاستورب هو الذي مال فوق الهيئة الجامدة، عديمة النَفَس، أغمض العينين بطرف إصبع خاتمه(١٨٠)، ووضع اليدين معاً فوق غطاء السرير. بعدها هو أيضاً وقف وشرع ينشج، الدموع

(١٧٩) المدمة rake: أداة ذات أسنان لجمع العشب أو لتقليب التربة أو تسويتها، تدعى بالعامية العراقية، خرماشة ـ المترجم.

(١٨٠) إصبع الخاتم ring finger: الإصبع التي يُلبس بها خاتم الزواج من اليد اليسرى ـ المترجم.

سالت على خديه، كتلك التي وخزت جلد الضابط الإنجليزي في سلك البحرية: تلك القطرات الصافية التي تنهمر بتلك الغزارة المُرة في ساعة من ساعات اليوم في كل أرجاء عالمنا الواسع، حتى اننا، بعدلٍ شاعري محض، أسمينا الأرض التي نسكن فيها بإسمها؛ إفرازات الغُدد الملحية، القلوية تلك، التي تعصرها أجسامنا بفعل التوتر العصبي الذي يسببه الوجع الشديد، سواء كان جسدياً أم عقلياً. هذه الإفرازات تحتوي، كما عرف هانز كاستورب، كميةً معينةً من المخاطين (الميوسين) والزلال أيضاً.

جاء هوفرات، إستدعته سستر بيرتا. كان هناك قبل نصف ساعة، وأعطى حقنة كافور؛ قلّما غاب أكثر من لحظة «العبور القصير». «آي»، قال ببساطة، «تركه وراءه الآن»، ورفع السماعة الطبية عن صدر يواكيم. وضغط على يديّ كل منهما، أومأ برأسه؛ وقف معهما برهةً عند السرير، وحدّق في محيا يواكيم عديم الحراك، بلحية المحارب. «شاب مجنون»، قال: هازاً رأسه هزاً عنيفاً نحو الهيئة الساكنة. «فتى مجنون. شق طريقه بالقوة، كما تعرفان ـ بالطبع، تلك هي طريقة القوات المسلحة هناك في الأسفل، قسر شديد، إكراه تام ـ التحق بالقوات المسلحة عندما كان محموماً، نال فرصة الحياة والموت. ميدان الشرف، كما تعرفان ـ إنسل منا، وها هو ذا الآن ميت في الميدان. شرفاً كان موته، والموت ـ حسن، لعلكما تعبّران عنه بصورة جد مختلفة أيضاً. على أية حال، غادر هو العالم ـ [كان له الشرف أن يستأذن بالانصراف]. رجل مجنون، فتى مخبول.» وغادر، طويل القامة، محني الظهر، عظم رقبته شديد البروز.

تم اتخاذ قرار بنقل جثمان يواكيم الى الوطن؛ وأخذ مصح بيرغهوف على عاتقه الترتيبات كلها، قام بكل ما هو ضروري، أو بكل ما يمكن أن يضفي الوقار أو الجلال على الحادث المؤلم. الأم وابن الخالة ما كانت بهما حاجة الى رفع إصبع. عند اليوم التالي كان يواكيم راقداً بثوب ـ قميص الحرير خاصته محاطاً بالأزاهير على غطاء السرير، بادياً، وسط هذا البياض كله، أكثر جمالاً مما كان عليه بعد الموت مباشرةً. تلاشت آثار التوتر كلها من على ملامح الوجوه، كانوا قد هدأوا أنفسهم، أصبحوا باردي الأعصاب،

في النقاء الصامت للهيئة البشرية. خصلات شعر داكنة متجعدة سقطت على الجبين المصفر، الذي بدا من مادة هشة رقيقة بين الشمع والرخام؛ عبر الشعر المتموج للحية بدت الشفتان ممتلئتين ومتجعدتين. خوذة قديمة تناسب هذا الرأس ـ كما قال عديد من النزلاء، الذين جاءوا كي يودعوا يواكيم الوداع الأخير.

السيدة شتور، حين نظرت، بكت بحماسة. «بطلاً، كان بطلاً»، صاحت هي وطلبت بأن تُعزف [الايروتيكا](١٨١) عند قبره.

«إهدئي»، هسهس سيتيمبريني، الواقف الى جنبها. كان هو ونافته معها في الحجرة. مستثاراً كثيراً، أشار بكلتا يديه للمتفرجين بالإقتراب من السرير واستدعاهم للندب معه. «فتى ظريف جداً، موقر جداً»، قال ذلك بالإيطالية مراراً.

ونافته، من دون أن يتطلع إليه، أو يخفف سلوكه المرتبك، ظاهرياً لم يكن بوسعه أن يتمالك نفسه من القول، بصوتٍ خفيض وبنحو لاذع: «أنا مسرور لرؤيتي انك على الرغم من حماستك للحرية والتقدم، لك بعض الإحساس نحو الأشياء الجادة.»

سيتيمبريني سكت على الإهانة. لعله شعر بأنه واعٍ، في ظل الظروف الحالية، بتفوق منزلة نافته على منزلته هو؛ وربما حاول أن يوازن هذا بالتعبير الحيّ لحزنه، بخاصةٍ حين إستغل ليو نافته أفضليته الى مدى أبعد، ما دام يملكها، وأضاف قائلاً بصورة مختصرة مفيدة: «الخطأ الذي ترتكبونه أنتم الأدباء هو الاعتقاد ان الروح خلقت فقط من أجل الفضيلة. هذا أقرب الى الحقيقة التي تقول انه عندما لا تكون هناك روح توجد فضيلة حقيقية.» «سبحان الله»، فكّر هانز كاستورب، «غير ان هذا تعليق بيثادي!(١٨٢) أن

---

(١٨١) ايروتيكا Erotika: هذه الكلمة في الأرجح نطقت خطأً كون السيدة شتور كثيرة الأخطاء، لعلها تقصد ايرويكا Eroica وهو الاسم الذي أطلقه بيتهوفن على سمفونيته الثالثة، ١٨٠٣ ـ ١٨٠٤م، وهي سمفونية بطولية للإحتفال بذكرى رجل عظيم مثل نابليون ـ المترجم.

(١٨٢) بيثادي Pythian: ذو علاقة بالإله الأغريقي أبولو أو بمعبد دلفي ـ المترجم.

تقول كلاماً أشبه بهذا بشفتين مطبقتين معاً في ما بعد، انه يصعق المرء تماماً ـ حالياً، هذا هو الأمر.»

عصراً وصل النعش المعدن. كان نقل يواكيم الى هذا الوعاء الجليل، المزين برؤوس الأسود والأطواق، الشأن الوحيد للرجل الذي جاء معه، موظف مكسو بالسواد لمؤسسة دفن الموتى، التي كانت الترتيبات كلها في متناولها. كان يرتدي نوعاً من رداء ـ سترة قصيرة، وخاتم الزواج في يده الخشنة نبت تقريباً في اللحم. يميل المرء الى الشعور انه كان يزفر رائحة الموت من ثيابه ـ انه بطبيعة الحال، تحامل خالص، ولا أساس له. هذا الإختصاصي جعل الآخرين يعرفون ان روحانياته كلها يجب أن تُجرى سراً، وأن المتوفى يجب تقديمه الى الأقارب الأحياء بمظهر مناسب، مظهر العرض العسكري. شعر هانز كاستورب بارتياب بعض الشيء نحو هذا الفرد وأعماله كلها. وافق على إنسحاب السيدة زيمسين، لكنه لم يعتزم أن ينسحب من المشهد هو نفسه. إستعد ومد يد العون، أمسك بالهيئة البشرية تحت الكتفين وساعد في حملها الى التابوت، الذي فوق شرشفه ووسائده المزينة بـ«شرّابات»، رقد يواكيم حالياً مخفياً بصورةٍ رفيعة ووقورة، بين شمعدانات زينية ذات شعب جُهزت من قبل المصح.

في اليوم التالي شيء واحد فقط بدا وكأنه ظاهرةً حملت هانز كاستورب على أن يودع داخلياً تلك الهيئة البشرية الهادئة، أن يخلي الميدان ويتركه للحارس المحترف للياقة: يواكيم، الذي كان تعبيره جد نبيل وجدي، شرع الآن يبتسم بلحيته، لحية المحارب. هانز كاستورب لم يحجب عن نفسه ان هذه البسمة تضم بداخلها بذور التعفن؛ كان يعرف في قرارة قلبه ان الزمن كان ملحاً. شيء حسن ان النعش يجب غلقه الآن، الغطاء ثُبت بالبراغي؛ وان ساعة رفع التابوت قد حانت. هانز كاستورب، منحياً جانباً تحفظه التقليدي، برفق لثم بشفتيه الجبهة الجليدية لذاك الذي كان ذات يوم يواكيم؛ ومع انه كان ما يزال يعي العواطف المرتابة نحو ذلك الرجل الذي وراء الكواليس، مع ذلك، مطيعاً، تبع لويزا زيمسين وهي تخرج من الغرفة.

لندع الستارة تنسدل، أخيراً، ومرة واحدة. بينما هي تحدث حفيفاً،

دعنا نتخذ موقفنا بنشاط مع هانز كاستورب في إرتفاعه المنعزل، ونخفض أبصارنا معه ناظرين الى المدفن الرطب في الأرض المنبسطة؛ نرى وميض سيف ما بينما هو يرتفع ويهبط، نسمع كلمة الأمر تنطلق فجأةً وبقوة، وثلاث صليات، ثلاث تحيات عسكرية متعصبة تدوّي فوق قبر يواكيم زيمسين المخترِق كالجذر.

الفصل السابع

عند محيط الزمن

هل يستطيع المرء أن يروي ـ الزمن، الزمن نفسه، هكذا، من أجله هو؟ سيكون هذا يقيناً مشروعاً أخرق. ان قصةً تشير الى: «الزمن مرَّ، إنقضى، الزمن جرى الى أمام» وهلم جرا ـ ما من أحد في وعيه يمكنه أن يعد ذلك سرداً. سيكون ذلك كما لو ان امرءاً ما إحتفظ بنغمةٍ موسيقية وحيدة أو نغمات متآلفة ساعةً بأكملها، وأسماها موسيقى. ذلك ان السرد يشبه الموسيقى في هذا الشأن، أي انه (يملأ) الزمن. أي ان السرد «يضيف إليه مختلف التفاصيل الضرورية» و«يضع حداً له»، بحيث «ثمة شيء يتعلق به»، «شيء ما مستمر» ـ إذا ما إقتبسنا بحق وبتقوى جِدادية، تلك التعابير الموجزة العرضية ليواكيمنا الراحل، التي زال صداها كله من زمن طويل جداً. زمن طويل جداً، الواقع، بحيث اننا نتساءل ما إذا كان القارئ متأكداً كم مضى على ذلك الزمن الطويل جداً. ذلك ان الزمن هو بيئة القص، كما هو بيئة الحياة. كلاهما مرتبط به بصورةٍ لا سبيل الى الخلاص منها، هما مرتبطان به كالأجسام في الفضاء. بنحوٍ مشابه، الزمن هو بيئة الموسيقى؛ الموسيقى نقسِّم، تقيس، تمفصل الزمن، وبوسعها أن تقصّره، مع ذلك تزيد قيمته، كلا الشيئين في وقتٍ واحد. وهكذا فإن الموسيقى والسرد متشابهان، ذلك انهما قادران فقط على أن يقدما نفسيهما كجريان، كتعاقب في الزمن، كشيء إثر آخر: وكلاهما يختلف عن الفنون التشكيلية، التي هي كاملة في الوقت

الحاضر، ولا علاقة لها بالزمن شأنها شأن الأجسام كلها، بينما السرد ـ كالموسيقى ـ حتى إذا ما حاول أن يكون حاضراً تماماً في أي لحظة معينة، يحتاج الى الزمن ليفعل ذلك.

اتضح الكثير. لكنه شيء واضح جداً اننا نملك أيضاً صفةً مميزةً كي نتعامل معها. ذلك ان عنصر الزمن في الموسيقى فريد. في جزءٍ من زمنٍ مميت تسكب الموسيقى نفسها، هكذا بصورةٍ تفوق الوصف تزيد قيمة وتعظم الشيء الذي تملؤه. إلا ان الحكاية ينبغي أن يكون لها نوعان من الزمن: الأول، زمنها هي، كالموسيقى، الزمن الحقيقي، تتحكم بتقديمه ومجراه؛ والثاني، زمن محتواها، الذي هو زمن نسبي، نسبي الى أبعد حد بحيث ان الزمن المتخيل للحكاية يستطيع إما أن يتطابق تقريباً أو كلياً مع الزمن الحقيقي، أو الزمن الموسيقي، أو أن يكون بعيداً عنه بُعداً شاسعاً. ان قطعة موسيقية تُدعى «فالس خمس دقائق» تستمر مدة خمس دقائق، وهذه هي علاقتها الفريدة مع عنصر الزمن. أما حكاية ما تشغل نفسها بوقائع خمس دقائق، ربما، بوساطة سرد حيّ الضمير بنحو إستثنائي، تستغرق ألف مرة خمس دقائق، وحتى مع ذلك يبدو السرد قصيراً جداً، مع انه يبدو طويلاً بالنسبة لزمنه المتخيَّل. من الناحية الأخرى، زمن المحتوى لقصةٍ من القصص بوسعه أن يقلص زمنها الحقيقي الى أبعد حد. نحن نعبّر بهذه الطريقة عمداً، كي نوحي بعنصر آخر، عنصر خادع، وحتى، إذا ما تكلمنا بجلاء، مميت، والذي بصورةٍ محددة تماماً هو عاملٌ في الموقف. أنا أتكلم عن حالات تمارس فيها القصة شعوذةً سحريةً، تشويهاً وقتياً للمنظر يذكّر المرء بتجارب معينة شاذة وغير طبيعية في الحياة الواقعية. بحوزتنا تسجيلات لأحلام الأفيون التي يكون فيها للحالم، خلان نوم قصير مخدَّر، تجارب تطول زمناً يزيد على عشرة، ثلاثين، ستين عاماً، أو حتى تتجاوز الحد الأقصى لقدرة الإنسان الوقتية على التجربة: أحلام يكون زمن محتواها أكبر بدرجة هائلة من زمنها الواقعي أو زمنها الموسيقى، وفيها يتم الحصول على تقصير لا يُصدق للوقائع؛ الصور تحث الواحدة الأخرى بتلك السرعة بحيث

تكون كما لو انها «شيء سُلِبَ، كالنابض من ساعة يد مكسورة» من دماغ النائم. هذا هو وصف آكل الحشيش.

هكذا، أو بنحوٍ ما كما في هذه الأحلام الشريرة، تستطيع الحكاية أن تنزع الى العمل مع الزمن؛ بطريقةٍ أشبه بهذه يمكن التعامل مع الزمن في حكايةٍ من الحكايات. وإذا كان الأمر هكذا، إذاً يكون جلياً ان الزمن، ما دام هو بيئة الحكاية، يستطيع أيضاً أن يغدو موضوعها. هكذا، إذا كان شيئاً مبالغاً به أن نقول ان بوسع شخص ما أن يروي حكاية [عن] الزمن، وهو البتة ليس شيئاً أقل واقعية ان الرغبة في سرد حكاية [عن] الزمن ليست فكرةً خرقاء جداً كما بدت لنا الآن. نحن نقر بصراحة، في تقديمنا لمسألة ما إذا كان يمكننا أم لا يمكننا أن نروي الزمن، فقد فعلنا ذلك لمجرد أن نعترف اننا نملك شيئاً ما أشبه بهذا في الرؤية في العمل الحالي. وإذا ما ألمعنا الى المسألة الإضافية، ما إذا كان قراؤنا متأكدين كم مضى من الزمن منذ أن أدخل يواكيم المستقيم أخلاقياً، الذي مات في المدة الفاصلة، في الحوار التعابير المقتبسة أعلاه المتعلقة بالموسيقى والزمن ـ أقوال تشير الى سمو خيميائي معين لطبيعته، التي، في طيبتها وبساطتها، كانت، وهذا ناجم من قدرتها الخاصة من دون مساعدة، غير قادرة على أيّ من هذه الأفكار ـ ينبغي لنا أن لا نيأس من أن نسمع انها لم تكن جلية. ولعلنا أيضاً كنا راضين، على أساسٍ واضح ان تعاطفاً شاملاً مع تجارب بطلنا على وجه الدقة هو الذي نروم أن نثيره، وهو، هانز كاستورب، كان نفسه غير متيقن من الهدف الكامن في المسألة، لا، ولم يكن متيقناً على مدى زمن طويل جداً ـ وهي حقيقة تحكمت بمغامراته الرومانسية هنا في الأعالي، الى الحد الذي جعل منها، في أكثر من معنى، «رومانس الزمن».

كم هي المدة التي عاشها يواكيم هنا مع ابن خالته، حتى وقت رحيله المشؤوم، أو إذا ما أخذناها الكل في الكل؛ ما هو تاريخ مغادرته، كم مضى على رحيله، عندما عاد الى المصح؛ كم هي المدة التي أمضاها هانز كاستورب نفسه هنا في الأعالي حين رجع ابن خالته وبعدها ودع الزمن، كم هي المدة ـ إذا ما إستثنينا يواكيم من حساباتنا ـ التي غابت فيها السيدة

شوشا؛ كم هي المدة، من أي تاريخ، التي إنصرمت منذ رجوعها (ذلك انها رجعت)؛ كم هو الزمن القاتل الذي أمضاه هانز كاستورب نفسه في مصح بيرغهوف عند زمن رجوعها؛ ما من أحد سأل نفسه هذه الأسئلة كلها، ولعله نفر من ان يطرحها على نفسه. إذا ما طُرحت عليه، فسوف يربت على جبهته بأطراف أصابعه، وبالتأكيد لن يكون عارفاً ـ وهي ظاهرة مقلقة كعدم القدرة على إجابة السنيد سيتيمبريني، حين سأله الأخير في ذلك المساء الأول من زمن طويل جداً كم يبلغ عمره.

التي كلها تبدو محالة؛ مع ذلك ثمة ظروف في ظلها ما من شيء يستطيع أن يحمينا من أن نخسر حساب مرور الزمن، نخسر حساب حتى عمرنا، مفتقدين، كما نحن فاعلون، أيَّ قدر ضئيل من عضو ـ الزمن الداخلي، ونكون بكل معنى الكلمة غير قادرين على تثبيته حتى إذا إتخذنا طريقاً نحو الدقة بأنفسنا، من دون نقاط ثابتة خارجية كأدلة. ثمة حالة تتعلق بفريق من عمال التعدين، دُفنوا وانقطعوا عن أي إمكانية معرفة انقضاء النهار أو الليل، الذين أخبروا منقذيهم انهم خمنوا الزمن الذي أمضوه في العتمة، مترددين بين الأمل والخوف، كونه نحو ثلاثة أيام. الواقع، كان عشرة أيام. ان حالة الشك البالغ التي استحوذت عليهم ربما، قد يظن المرء، جعلت الزمن يبدو أطول بالنسبة لهم مما كان عليه فعلاً، بينما تقلّص هو الى أقل من ثلث طوله الموضوعي. يبدو، إذاً، انه في ظروف الحيرة يميل المرء الى أن يبخس ـ بدلاً من أن يغالي في ـ تقدير الزمن.

لا ريب أن هانز كاستورب، كان بوسعه ودون أي مشكلة، أن يحسب أنه على يقين؛ كما يستطيع القارئ أن يفعل، خاصة، وأن كل هذا الغموض والتعقيد مُبغِضان لإحساسه الصحي. أغلب الظن أن بطلنا نفسه، لم يكن مرتاحاً تماماً أيضاً؛ مع انه رفض أن يسبب لنفسه أي مشكلة في أن يصارع متحرراً من الغموض والتعقيد ويصل الى اليقين المتعلق بالزمن الذي مضى فوق رأسه منذ مجيئه الى هنا في الأعالي. كان وسواسه ناجماً عن الضمير ـ مع ذلك فإنه، يقيناً، عيب في حيوية الضمير، العيب الأفظع من بين العيوب كلها أن لا يُعير إهتماماً للزمن!

لا ندري إذا ما كان شيئاً في صالحه، أن الظروف أفادت إفتقاره للميل، أو ربما ينبغي لنا القول، نفوره. حين رجعت السيدة شوشا ـ في ظل ظروف مختلفة تماماً عن تلك التي تخيلها هانز كاستورب، بل في ظل ظروف حلت محلها ـ حين رجعت كان قد حل ثانيةً موسم أيام الأحد الأربعة السابقة للميلاد، وأقصر يوم في السنة؛ بداية الشتاء، إذا ما تكلمنا من الناحية الفلكية، كانت وشيكة. ناهيك عن أجزاء الزمن الإعتباطية، وفي ما يتعلق بكمية الثلج والبرد، كان شتاءً الله وحده يدري كم طال، قاطعته، كما يحدث ذلك بصورةٍ موجزة جداً، أيامٌ صيفية حارة الى حد الإحتراق؛ بسماءٍ ذات عمق مبالغ فيه من الزرقة، تقريباً يميل لونها الى السواد؛ أيام صيف حقيقية، كتلك التي يعيشها المرء كثيراً حتى في الشتاء، بغض النظر عن الثلج ـ والثلج ربما يهطل أيضاً في الصيف! هذا التشوش في الفصول، كم مرة ناقشه هانز كاستورب مع الراحل يواكيم! انه يسرق السنة من تمفصلها، يجعلها موجزةً بصورةٍ مضجرة، أو مضجرة بصورة موجزة، كما يحلو للمرء أن يعبّر؛ أكد قولاً آخر من أقوال يواكيم المثيرة للإشمئزاز، الذي يشير الى حقيقة أن لا وجود للزمن هنا في الأعالي كي يتحدث عنه المرء، سواء طويلاً كان أم قصيراً. التشوش العظيم أحدث دماراً، الأنكى من ذلك، بمفاهيم عاطفية، أو حالات من الوعي مثل «ما يزال» و«ثانيةً»؛ وهذه كانت واحدة من الملامح الشنيعة جداً، المحيّرة، الغريبة للحالة. هانز كاستورب، في يومه الأول هنا في الأعالي، اكتشف في نفسه توقاً شديداً الى الاشتغال في ذلك الشأن الغريب، خلال وجبات الطعام الضخمة الخمس في حجرة الطعام المروسمة بنحوٍ بهيج؛ حين جعل أول دوار خفيف، ومع ذلك بنحوٍ بريء تماماً، نفسه محسوساً به.

من تلك الآونة، على أية حال، الخداع الذي مورس على حواسه وعقله إتخذ درجاتٍ أكثر بكثير. الزمن، مهما أمسى الإدراك الذاتي له ضعيفاً، فإن له واقع موضوعي في كونه يُحدث الأشياء. انها مسألة تخص المفكرين المحترفين ـ هانز كاستورب، في غطرسته الفتية، كان قد أُقتيد للتفكير فيها مرةً ـ ما إذا كان المربى المحكم السد فوق رفه هو خارج الزمن. نحن نعرف

ان الزمن يفعل فعله، حتى في أهل الكهف[1]. ذكر أحد الأطباء حالة فتاة في الثانية عشرة من العمر، شعرت بالنعاس ونامت ثلاثة عشر عاماً؛ لم تبقَ بذلك فتاةً في الثانية عشرة، بل أزهرت بأنوثة ناضجة خلال نومها. كيف يمكن أن يكون الأمر بطريقة أخرى؟ الرجل الميت ـ ميت؛ كان قد أغمض عينيه في الوقت المناسب. كان له متسع من الوقت، أو إذا ما تحدثنا بصورة شخصية، كان خالداً. الأمر الذي لم يمنع شعره وأظافره من النمو، أو، الكل في الكل ـ لكن لا، لا ينبغي لنا أن نعيد تلك التعابير الصريحة والبسيطة التي إستخدمها مرةً يواكيم، التي كان هانز كاستورب، الذي وصل حديثاً من الأرض المنبسطة، قد إعترض عليها. شعر هانز كاستورب وأظافره نمت أيضاً بصورة أسرع نسبياً. كان يجلس كثيراً في كرسي الحلاق في الشارع الرئيس لـ الدورف، ملتفاً بملاءة بيضاء، والحلاق، متكلماً من غير كلفة وبصورة متذللة خلال ذلك، يشتغل برشاقة على هدّابات شعره، النامية بصورة طويلة جداً خلف أذنيه. أول مرة، بعدها اشتغل الحلاقون على بطلنا. حين جلس هناك، أو حين وقف عند باب شرفته وقلّم أظافره وصقلها، بالملحقات التي أخذها من علبته الأنيقة المخمل، فجأةً يستبد به مزيج من الرعب والفرح التوّاق الذي جعله مصاباً بالدوار بكل معنى الكلمة. وهذا الدوار في معنيي الكلمة: لم يجعل بطلنا فقط دائخاً ومشوش الذهن، بل أحمقَ وطائشاً، غير قادر على التمييز بين «الآن» و«بعدئذ» ومیالاً الى أن يمزج هذين معاً في خلودٍ سرمدي.

كما قلنا مراراً، لا نريد أن نجعل منه أحسن ولا أسوأ مما هو عليه؛ على وفق ذلك يلزمنا أن نعلن انه كثيراً ما حاول أن يعوّض عن إنغماسه الذاتي الذي يستحق التوبيخ في نوبات التصوف، بأن كافح بنحوٍ طاهر ومثابر كي يُبطلها. كان يجلس وساعة يده مفتوحة في يده، ساعته الرقيقة الذهب

---

(١) ورد في النص تعبير النائمين السبعة Seven Sleepers، وقد آثرنا تعبير أهل الكهف، كون الزمن قد مرَّ عليهم وأحدث فيهم وفي العالم تغييرات كثيرة، كما ورد في القرآن الكريم ـ المترجم.

ذات الحروف الأوُل من إسمه المنقوشة على غطائها، متطلعاً الى الوجه الخزفي[٢] ذي الصفين من الأرقام العربية السود والحمر الدائرة حوله، العقربان الذهب المقوسان بصورة رقيقة ودقيقة يدوران باستمرار فوقه، وعقرب الثواني الصغير يتخذ مساره الناشط المتكتك حول دائرته الصغيرة. هانز كاستورب، متطلعاً الى عقرب الثواني، درّب أن يحمل الزمن من الذيل، كي يتمسك بالدقائق المنقضية ويطيلها. العقرب الصغير تعثر في طريقه، من دون أن يكترث بالأرقام التي وصلها، مرَّ فوقها، خلّفها وراءه، خلفها بعيداً جداً عنه، دنا منها، ووصل إليها من جديد. هو (أي العقرب الصغير) لا يشعر بحدود الزمن، بأجزائه، أو بقياسات الزمن. ألا يجدر به أن يقف عند الرقم ستين، أو يعطي علامةً صغيرةً ان هذه هي نهاية شيء واحد وبداية الشيء التالي؟ إلا ان الطريقة التي مرَّ بها فوق جرّات القلم المتخللة شديدة الصغر غير المعلّمة أظهرت ان كل الأرقام والأجزاء التي في دربه كانت ببساطة تحته، وانه يتقدم، ويتقدم. ـ هانز كاستورب دس نتاجه الخاص من كوخ الزجاج[٣] ثانيةً في جيب صدرته، وترك الزمن ليعتني بنفسه.

كيف نوضح للعقل الرزين الخاص بالأرض المنبسطة التغيرات التي تحدث في النظام الإقتصادي الداخلي لمغامرنا الشاب؟ المسألة المشوشة للذهن للوحدات نمت أضخم في مقياسها المدرج. إذا لم يكن يسيراً أن نميز ـ حتى بوداد لطيف ـ آن اليوم عن آن الأمس، آن اليوم الماضي أو اليوم الذي قبله، التي كانت كلها تشبه إحداها الأخرى كالعدد نفسه من حبات البازلاء، ألم يكن هو قادراً أيضاً على أن يكون مشوشاً بالآن الذي كان ساري المفعول منذ شهر أو عام خلى، ألم يكن أيضاً ميالاً الى أن يكون ممتزجاً ومتدحرجاً في مجرى ذلك الآخر، كي يدمجها الى [دائماً]؟ على أية حال ربما يستطيع المرء مع ذلك أن يميز بين الحالات الاعتيادية للوعي التي نلحقها بكلمات

(٢) الخزفي porcelain: المقصود هنا الخزف الصيني ـ المترجم.
(٣) كوخ الزجاج: بالألمانية في النص Glashutte ـ المترجم.

«ما يزال»، «من جديد»، «التالي»، كان هناك دوماً الإغراء بتوسيع أهمية كلمات وصفية مثل «غداً» و«أمس»، التي بوساطتها «اليوم» يصد «الماضي» و«المستقبل». لن يكون عسيراً أن نتخيل وجود المخلوقات، أغلب الظن على كواكب سيارة أصغر من كوكبنا، وهي تمارس تنظيماً زمنياً مصغراً، الذي في إمتداده الموجز المشية الخفيفة المتعثرة لعقرب الثواني خاصتنا يملك التنظيم المتماسك المكاني لعقربنا الذي يسجل الساعات. و، على العكس، بوسع المرء أن يتخيل عالماً واسعاً جداً بحيث ان نظامة الزمني أيضاً ذا مشية فخمة، والفروقات بين «ما يزال»، «في برهة صغيرة»، «أمس»، «غداً» هي، في تنظيمها، إمتلكت أهميةً موسعةً بشكل هائل. أي، نقول، لا تكون مفهومةً، بل، إذا ما نظرنا إليها بالروح الخاصة بـ نسبية متسامحة، وفي ضوء قول مأثور مقتبس قبل الآن، ربما تُعد شرعيةً، سليمةً، وحتى جديرة بالإحترام. مع ذلك ماذا بوسع المرء أن يقول عن ابنٍ للأرض، وعن زمننا فضلاً عن ذلك، الذي من أجله ينبغي لـ يوم ما، اسبوع، شهر، نصف سنة أن يلعب دوراً جوهرياً، ويأتي بتغييرات كثيرة جداً، بتقدم كبير جداً في قطاره، الذي يقع ذات يوم في العادة الشريرة ـ أو ربما ينبغي لنا أن نقول، يستسلم غالباً للرغبة ـ يقول «أمس» حين يعني قبل عام مضى، و«السنة القادمة» عندما يقصد غداً؟ يقيناً يجدر بنا أن نحسبه (أي ابن الأرض) ضائعاً ومهملاً، وهدف قلقنا المشروع.

ثمة حالة، في حياتنا البشرية، ثمة بيئة مشهدية معينة ـ إذا جاز لنا أن نستخدم هذا النعت لنَصف البيئة التي في بالنا ـ التي يكون فيها تشوش كهذا وإزالة للمسافات في الزمان والمكان مبررين الى حدٍ ما، وغوص مؤقت فيها، لنقل طوال مدة عطلة، لا يستحق التوبيخ. هانز كاستورب، من ناحيته، لا يستطيع من دون أعظم توق أن يفكر في نزهةٍ على طول حافة المحيط. نحن نعرف كيف أحب هو أن تذكّره الرقع مترامية الأطراف من الثلج بالمنظر الطبيعي لبلده حيث كثبان المحيط الواسعة؛ نأمل أن إستذكارات القارئ سوف تؤيدنا حين نتحدث عن مباهج هذا الشرود. أنت تمشي، وتمشي ـ لن تصل البيت في الزمن المناسب، لأنك من الزمن،

والزمن تلاشى. أيها المحيط، بعيداً عنك نجلس ونلفق قصتنا؛ نحن ندير نحوك أفكارنا، محبتنا، بصوتٍ عالٍ ومعبّر نناديك، ذلك انك ربما تكون موجوداً في القصة التي نلفقها، كما في السر أبداً كنت وستكون! عزلة مُغنية، تمتد فوقها سماءٌ رمادية شديدة الشحوب؛ مليئة برطوبة لاسعة تترك نكهةً ملحيةً على الشفتين. ـ نمشي على طول الأرض اللينة الرطبة، المكسوة بالطحلب البحري وأصداف بلح البحر شديدة الصغر. آذاننا مغلفة بوساطة الريح اللطيفة الوافرة، التي تأتي جارفة غير مقيدة بصورة لطيفة عبر الفضاء، وبرفقٍ تثلّم حواسنا. نتجول ـ مشاهدين ألسنة الزبد تلعق ممدودة للأعلى نحو أقدامنا وتهبط راجعةً من جديد. الأمواج المتكسرة مضطربة، موجة إثر موجة، ذات صوت عالٍ مكتوم، ترتفع عالياً، تثب، وتركض بخشخشة حريرية فوق الشاطئ المسطح: هنا واحدة، هناك واحدة، وأكثر في المكان الأبعد، هناك على الحاجز. الهدير غير الواضح، المنتشر، الطنان، يصم آذاننا دون أصوات العالم كله. أيها الرضا العميق، أيتها السعادة العنيدة للنسيان المحض! دعينا نغمض عيوننا، آمنين في الخلود! لا ـ ذلك انه في الفضاء الرمادي ـ الأخضر الذي يمتد بتقصير(٤) غريب كي يضيع نفسه في الأفق، أنظر، ثمة مركب شراعي. هناك؟ أين هناك؟ كم يبعد، كم يقرب؟ لا يمكنك أن تقول. بصورة ناشئةٍ عن الدوار يفلت من قياسك. بغية معرفة كم تبعد تلك السفينة عن الساحل، تحتاج أنت الى معرفة الحيز الذي تحتله، كجسم في مكان. هل هي كبيرة وبعيدة، أم انها صغيرة وقريبة؟ عينك تغدو ضعيفةً مع الشك، ذلك انك في باطنك لا تملك عضو الإحساس كي يساعدك في تقدير الزمان أو المكان. ـ نحن نمشي، نمشي. كم يستمر ذلك، الى أي مدى؟ مَنْ يدري؟ لم يتغير شيء خلال مشينا الهوينى، هناك هو نفسه هنا، ذات مرة نفسها الآن، أو بعدئذ؛ الزمن يغرق في رتابة المكان التي لا حد لها، الحركة من نقطة الى نقطة لم تعد

(٤) تقصير foreshortening: من يقصر: أي يرسم مقصراً الخطوط بغية إبراز الصورة للعين ـ المترجم

حركة، حيث يسود الإنتظام؛ وحيثما تكف الحركة عن كونها حركة، يكف الزمن عن كونه زمناً.

لاهوتيو القرون الوسطى كانوا يذهبون الى القَول ان الزمن وهم؛ وان جريانه في تتابع وسببية هو فقط نتيجة جهاز حسي، والوجود الحقيقي للأشياء في حاضر دائم. هل كان يتمشى عند البحر، الفيلسوف الذي أتت إليه هذه الفكرة أول مرة، يتمشى عند البحر، مع مرارة الخلود الضعيفة على شفتيه؟ يلزمنا أن نكرر، في ما يتعلق بنا، كنا نتكلم فقط عن الإذن القانوني لعطلةٍ ما، عن فانتازيات ولدت من وقت الفراغ، يملُ منها العقل المقاد بصورة جيدة بسرعة كما يمل رجل نشيط من الإستلقاء في الرمل الدافئ. ان نبدي إرتيابنا في وسائلنا وطاقاتنا البشرية في الفهم، أن نشك في صحتها، سيكون أمراً سخيفاً، مخزياً، إعتباطياً، إذا كان قد أُنجز في روح عدا تلك التي تضع حدوداً للعقل، التي ربما لن تتجاوز الحدود من دون أَن تجلب على نفسها التوبيخ بسبب إهمالها لمهمتها. يمكننا فقط أن نكون شاكرين لرجلٍ مثل السيد سيتيمبريني، الذي بجزمية (دوغماتية) تعليمية صوّر ما وراء الطبيعة كونها «مبدأ الشر»، للشاب الذي نحن مهتمين بمصيره، الذي أسماه هو بتهذيبٍ مرةً «ابن الحياة رقيق الصحة». الأفضل لنا أن نُجلّ ذكرى الشخص الذي رحل، الذي كان عزيزاً علينا، إذا قلنا بوضوح ان معنى، غاية وهدف المبدأ الحاسم يمكن وربما يكون شيئاً واحداً لا غير: فكرة الواجب، شريعة الحياة. نعم، حكمة إعطاء الشريعة، في وضع حدود العقل، مغروسة عند تلك الحدود على وجه الدقة راية الحياة، نادى به واجب الإنسان البطولي أن يخدم في ظل تلك الراية. هل يجدر بنا أن ندون على جانب الشرف من تقرير هانز كاستورب انه كان قُويًّ في تنظيمه الزمني الرديء، مقايضته المشؤومة مع الخلود، من خلال رؤيته ان حماسة ابن خالته كلها، المسماة عناداً من قبل شخص ما متبجح بالكآبة، كانت قد أدت به بمزيد من التوكيد الى نهاية قاتلة ولا شيء غير ذلك؟

مينهير بيبركورن

مينهير بيبركورن، عجوز هولندي، أمضى بعض الوقت في مصح بيرغهوف، هذه المؤسسة التي، في نشرتها التمهيدية، بصورةٍ صائبةٍ جداً وصفت نفسها كونها «عالمية». بيتر بيبركورن ـ هكذا كان إسمه، هكذا دعا نفسه، وفي سبيل المثال «بييتر بيبركورن سوف يختار لنفسه الجن الهولندي»[٥] ـ كان مستعمِراً هولندياً، رجلاً من جاوة، صاحب مزرعة قهوة. صفته القومية التي ضعفت قليلاً نادراً ما كانت دافعاً كافياً لإدخاله في هذا اليوم المتأخر الى قصتنا هذه. الله أعلم كانت لنا امتزاجات عِرقية عديدة في المصح الشهير الذي يُدار بتلك الفعالية عديدة الألسن من قبل السيد هوفرات بيرنز! كانت هناك الأميرة المصرية التي أعطت هوفرات ماكينة القهوة الإستثنائية وسيجار أبي الهول، وهي إمرأة حسية ذات شعر قصير وأصابع مزينة بالخواتم وصفر بسبب النيكوتين، والتي كانت تتجول ـ عدا وجبة الطعام الرئيسة في النهار التي من أجلها تبرجت تبرجاً باريسياً كاملاً ـ في سترةٍ قصيرةٍ فضفاضة وسروال مكوي جيداً؛ التي كانت تزدري عالم الرجال، كي تضرب حصاراً عنيفاً وشاقاً، مع انه منقطع، على يهودية رومانية ضئيلة البدن تافهة تدعى من دون زخرفة السيدة لانديور، بينما المحامي باراوانت من أجل عيونها الجميلة ذات السمو الملكي أهمل رياضياته وبكل معنى الكلمة لعب دور المغفل من أجل أن يكسب ودادها. هذه الأميرة، فضلاً عن شخصيتها النابضة بالحياة، كان لها بين جناحها الصغير خصي مغربي، رجل ضعيف وسقيم، كان أيضاً، على الرغم من نقصه الرئيس والبنيوي ـ الذي كانت كارولين شتور تحبذ الاسهاب فيه ـ يتشبث بالحياة بصورةٍ متسمة بتهور معتدل إن لم يكن بتهور شديد نابع من اليأس، وكان لا عزاء له على الاطلاق بسبب الاستنتاجات التي حصل عليها من خلال الصورة التي أخذوها لباطنه المعتم.

---

(٥) الجن الهولندي Holland's gin: شراب مسكر ـ المترجم.

مينهير بيبركورن، بعدئذ، إذا ما قورن بهذه الظواهر، ربما يبدو تقريباً غير ممتع. وانه شيء حقيقي ان هذا الجزء من قصتنا ربما، مثَّل فصلٍ أبكر، حمل العنوان: «قادم جديد». إلا ان القارئ ليس به حاجة الى أن يخشى ان فيه ثمة فرصة أخرى للكفاح التعليمي وصلت المشهد. لا، مينهير بيبركورن لم يكن الرجل الذي يمكن أن يكون حامل التشوش المنطقي. كان رجلاً مختلفاً تماماً، كما سنرى لاحقاً. مع ذلك جلب رعباً شديداً وحيرةً الى بطل حكايتنا، كما سيكون ذلك واضحاً جداً بعد وقت قصير.

مينهير بيبركورن وصل محطة الدورف بقطار المساء نفسه الذي وصلت فيه السيدة شوشا. إنتقلا في مركبة الجليد نفسها الى مصح بيرغهوف، وتعشيا معاً في المطعم. الوصول، بإيجاز، لم يكن متماكناً فقط بل متزامناً، واستمر في هذا الإتجاه، مينهير إتخذ موقعه الى جنب الضالة العائدة عند المائدة الروسية «الجيدة»، قبالة مقعد الطبيب ـ المكان الذي شغله بوبوف قبلاً، كم مرة قام بتصرفاته الغريبة المتهورة والمريبة. العِشرة أزعجت بطلنا الطيب هانز كاستورب ـ حيث إتضح ان عِشرةً كهذه لم تدخل عقله أبداً. هوفرات، كدأبه، أعلن يوم وساعة وصول كلاوديا. «حسن، كاستورب، أيها البلبل المتمرس»، قال، «هناك دوماً مكافأة للإنتظار المخلص. غداً الهريرة سوف تنسل عائدةً خلسةً ـ أتتني برقية منها.» لكنه لم يقل كلمةً واحدةً عن إحتمال كونها لا تأتي وحدها هذه المرة. لعله لم يكن يعرف انها وبيبركورن كانا مسافرين معاً؛ في الأقل أبدى دهشةً عندما هانز كاستورب، في اليوم الذي تلاه، عنّفه كثيراً.

«أنا نفسي لا أعرف من أين إلتقطته»، أعلن هو. «حسبتُ انهما إلتقيا لدى عودتهما من الـ بيرينيه، يالستريفون[٦] المسكين! تباً، غلامي، يلزمك ان تصبر على هذا، ما من فائدة من أن يبدو وجهك مكتئباً. هما على صداقة حميمة، كما يبدو، بل حتى أمتعتهما كانت مشتركة. الرجل محمّل بأكداسٍ من النقود، هذا ما سمعته. ملك بُن متقاعد، خادم خصوصي من الملايو،

(٦) ستريفون Strephon ـ المترجم.

بلوتوقراطي[٧] ليست هي الكلمة التي تناسبه. لكنه لم يأتِ الى هنا في الأعالي من أجل المزاح. حالة نَزَلية بسبب الإدمان على الكحول ومن خلال ما أستطيع أن أفهمه هو مهدد بحمى إستوائية، مهلكة، متقطعة، كما تعرف؛ متطاولة، عنيدة. يجدر بك أن تكون صبوراً معه.»

«لا تذكر هذا»، ردَّ هانز كاستورب بغطرسة. «وماذا عنك؟» قال لنفسه. «إني أتساءل ما هي مشاعرك، أنت لم تستطع أن تغدو معفىً من الضريبة أيضاً، أم ان حدسي خاطئ، أنت الأرمل ذو الوجه الذي يورث الكآبة، بإسلوبك في الرسم الزيتي. الكلب القديم في المعلف! لا حاجة بك لأن تخبرني: بقدر تعلق الأمر بـ بيبركورن، انني متيقن من كوننا رفيقين في الشقاء.» ـ «كائن طريف»، إستطرد قائلاً بصوتٍ عالٍ، وهز كتفيه بلا مبالاة. «هو أصيل، بالتأكيد. انه هزيل جداً ـ مع ذلك هو نشيط؛ هذا هو الإنطباع الذي يُظهره، في الأقل هذا هو الإنطباع الذي حصلتُ عليه عند وجبة الفطور. هزيل ونشيط، هاتان هما الصفتان، أعتقد، مع إنهما لا تُستخدمان معاً بصورةٍ مشتركة. هو يقيناً طويل وعريض، ويحبذ الوقوف بساقين متباعدتين ويداه في جيبي سرواله ـ اللتين، كما لاحظتُ، كانتا دائمتي الحركة صعوداً ونزولا، وليست مثل يديك ويديّ وأيدي معظم الناس من طبقتنا. وحين يقف هناك ويتكلم، بصوته الحلقي الهولندي، ثمة شيء نشيط بصورة واضحة فيه. لكنه ذا لحية خفيفة، يمكنك تقريباً أن تعد الشعيرات؛ وعيناه كانتا صغيرتين جداً وباهتتين، وتكادان لا تملكان لوناً على الإطلاق. كان يحاول باستمرار أن يفتحهما على وسعهما، وكان يصنع كثيراً من التجاعيد، غضون منتظمة، تبرز على الصدغين وتمتد مستقيمةً عبر جبهته، وجبهته عالية وحمراء، ذات خصلة طويلة من الشعر الأبيض. انه يرتدي صدرة اكليركية، إلا ان سترته الخطافية ذات مربعات. هذه هي الانطباعات التي حصلتُ عليها صباح هذا اليوم.»

أجاب بيرنز: «أفهم من هذا انك أخذت رقمه ـ أنت على صواب،

(٧) بلوتوقراطي Plutocratic: ذو نفوذ أو سلطان بسبب ثروته ـ المترجم.

أيضاً، لأنك يجب أن تتوصل الى تفاهم مع كونه هنا.»

«نعم، أتوقع أن نفعل هذا»، قال هانز كاستورب. تركنا له حرية وصف النزيل غير المتوقع، وانه لم يقم بواجبه بنحو سيء ـ لا نكاد نضيف شيئاً ضرورياً للصورة. كان له مرأى جيد؛ كان قد تحرك في غياب كلاوديا مقترباً من المائدة الروسية «الجيدة»؛ المكان الذي جلس فيه الآن انتصب موازياً لمكانها، فقط أبعد نوعاً عن باب الشرفة. كلاهما هو و بيبركورن كانا في الجانب الداخلي والضيق من المائدة الخاصة بكل منهما، وهكذا، بنحوٍ ما، كانا جارين، هانز كاستورب نسبياً في مؤخرة الهولندي، كان موضعه مؤاتياً جداً كي يلاحظ الأخير، وكذلك كي ينظر الى ثلاثة أرباع المرأى الذي كانت تقدمه الصورة الجانبية لوجه السيدة شوشا. لعلنا قادرون على أن نكمل وصف هانز كاستورب من خلال ملاحظات قليلة: مثل، أن أنف الهولندي كان كبيراً ولحمياً، الفم كبير أيضاً، وخالٍ من الشاربين، الشفتان بشكل غير منتظم، كما لو انهما متصدعتان، كانت يداه عريضتين بكل معنى الكلمة، بأظافر طويلة ومدببة؛ كان يستخدمهما بحرية حين يتكلم، وكان يتكلم تقريباً بنحوٍ متواصل، مع ان هانز كاستورب أخفق في أن يفهم مغزى كلامه. تلك الأوضاع الملائمة، المفروضة عليه، النظيفة لليدين ـ مختلفة جداً، مليئة بالفروقات الدقيقة ـ إمتلكت براعةً أشبه ببراعة قائد أوركسترا. كان يقوّس سبابته وإبهامه الى دائرة؛ يمد راحة اليد، التي كانت جد عريضة، مع الأظافر المدببة جداً، كي يهديء، كي يحذر، كي يفرض إنتباهاً ـ وبعدها، بوساطة وسائل معينة يمهد السبيل الى كلام عجيب، يخلق هبوطاً مفاجئاً من خلال قوله شيء ما لا يستطيع جمهوره أنّ يدركه تماماً. مع ان هذا، أغلب الظن، كان أقل كخيبة أمل مما هو كتحول للترقب الى الإنذهال النشوان؛ ذلك ان إيماءة الكلام كانت تعوّض عما لم يقله، وكانت بحد ذاتها مقنعةً ومسليةً بدرجة ضخمة. غالباً، الواقع، بعد ان يمهد لنا السبيل وصولاً الى ذروة حديثه، كان يتركه بكل معنى الكلمة. يضع يده بلطف على ذراع العالِم البلغاري الشاب الملاصق له، أو على ذراع السيدة شوشا في الجانب الآخر؛ من ثم يرفعها بصورةٍ مائلة من أجل الصمت، يخلق ترقباً لما يوشك أن

يقوله، مجعداً حاجبيه الى الأعلى، بحيث ان الخطوط الممتدة الى الأعلى من الزوايا الخارجية لعينيه تتعمق أشبه بخطوطٍ على قناع؛ يخفض بصره ناظراً الى قماش المائدة أمام مكان جاره، ومن شفتيه الغليظتين المشوهتين كلماتٌ ذوات مضمون رفيعٍ جداً بدت وكأنها توشك أن تنطلق ـ ثم، بعد مزيد من التوقف، يزفر نفَسَاً خارجياً، يتخلى عن الكفاح، يومئ برأسه، كما لو انه يقول: «كما كنتم»، ويعود مقيداً الى قهوته، التي كانت تُقدم له قويةً جداً، في ماكينته الخاصة.

بعد الجرعة يتابع هكذا، يخنق بيدٍ واحدة الحوار، مُحدِثاً السكوت من حوله، مثل قائد أوركسترا يهدئ الأصوات المشوِشة للآلات الموسيقية المدوزنة ويجمع فرقته الموسيقية كي تبدأ جزءاً من البرنامج؛ متضلعاً ساعة يشاء في أي موقف، فهل ثمة شيء قادر أن يقاوم ذلك الرأس الملكي، بهالته المكونة من الشعر الأبيض وعينيه الشاحبتين، الثنيات الكبيرة للحاجبين، شعرات اللحية المتناثرة والشفة العليا الفجة الحليقة؟ كانوا قد لزموا الصمت، تطلعوا إليه وابتسموا، إنتظروا، بتوقعٍ أومأوا برؤوسهم. تكلمَ.

بصوتٍ واطئ نسبياً قال: «سيداتي سادتي. حسن جداً. حسن جداً الواقع. جداً. ماشي. لكن هلاّ تذكرتم و ـ لا تفوتكم الحقيقة ـ حتى لحظة واحدة ـ ولا لحظة واحدة ـ لكن لا شيء أكثر. في ما يتعلق بهذه المسألة ليست ثمة كلمة أخرى. ما يلزمني قوله ليس بالكثير جداً ـ انه في المقام الأول ببساطة هذا: انه واجبنا ـ نحن نتمدد تحت. . وقور، [لا تنتهك حرمته] ـ لا! لا، سيداتي سادتي! الأمر ليس هكذا ـ ليس هكذا انني ـ كم هو خاطئ أن تتصوروا انني ـ صحيح تماماً، سيداتي سادتي! ما ـ شي. دعونا ننتهي من الموضوع. أشعر اننا نفهم أحدنا الآخر، والآن ـ الى النقطة!»

لم يقل هو شيئاً على الإطلاق. لكن أنظر، السلوك، والإيماءات كانت جد قاطعة، شديدة الحماسة، حافلة بالمعاني، بحيث ان الجميع، حتى هانز كاستورب، كانوا مقتنعين بأنهم سمعوا شيئاً ذا أهمية بالغة؛ أو، لو كانوا واعين بالنقص التام في الموضوع والتسلسل في الكلام، لما أغفلوه بالتأكيد. نحن نتساءل كيف يُحتمل أن يبدو كلامه هذا لإمرىءٍ أصم. أغلب الظن أن

التأثير العاطفي لما كان يراه يجعله يصل بكل معنى الكلمة الى إستنتاج خاطئ بشأن ما يُحتمل سمعه إنما بسبب سقمه ـ ويجعله يكابد على وفق ذلك. مثل هؤلاء القوم ينزعون الى سوء الظن والمرارة. من الناحية الثانية، رجل صيني في مقتبل العمر في الطرف الآخر من المائدة، كان يملك القليل جداً من مفردات اللغة كي يفهم ما قيل، لكنه أيضاً بمثابرةٍ أصغى ونظر، صفق بيديه وصرخ: «جيد جداً، جيد جداً.»

ومينهير بيبركورن وصل «الى النقطة». قوّم جذعه، نفخ صدره العريض، زرر سترته الطويلة جداً (الفراك) ذات المربعات فوق صدرته الكليركية؛ كان وضع رأسه الأبيض ملكياً. أومأ الى «فتاة حجرة الطعام» ـ كانت تلك القزمة ـ ومع انها كانت مشغولة جداً، لبت هي أوامره الثقيلة، ووقفت، إبريق الحليب وغلاية الشاي في يدها، عند كرسيه. هي أيضاً كانت منجذبة للنظر إليه ببسمة متملقة إرتسمت على وجهها الكبير والمسن؛ هي أيضاً كانت منتشية بالنظرة الشاحبة تحت الجبين ذي التجاعيد العميقة؛ باليد المرفوعة، التي كانت إبهامها وسبابتها قد إتحدتا في شكل O، بينما الأصابع الثلاث المتبقية، إنتصبت متيبسة بأظافر رمحية الشكل.

«طفلتي»، قال هو. «حسن جداً. حسن جداً الواقع ـ جداً. أنتِ صغيرة الحجم ـ ماذا يعني هذا بالنسبة لي؟ على العكس. أنا أجده شيئاً ملائماً ـ تماماً، أنا أشكر الباري، لأنكِ كما أنتِ عليه، أشكر الباري لأنك جد صغيرة الحجم وكاملة الخُلُق. ما أطلبه منك هو أيضاً صغيراً وكامل الخُلُق. إنما أولاً، ما اسمك؟»

قالت باسمةً ومتلعثمةً، ان اسمها كان إيميرنشيا.

«رائع»، هتف بيبركورن، رمى نفسه للوراء في كرسيه ومدَّ ذراعه نحوها. صرخ بنبرة مَنْ يود أن يقول: «مدهش! أليس كل شيء مدهشاً؟» ـ «طفلتي»، مضى يقول، بوجه جدي تماماً، تقريباً بصرامة، «أنتِ تجاوزتِ توقعاتي كلها. إيميرنشيا! أنت تلفظينه بنحوٍ لطيف جداً ـ مع ذلك، إذا ما أخذناه مع شخصك، انه يحمل إمكانات لا حد لها. جميل. انه يستحق

الاقامة، تناول العشاء الرباني في أعماق. . امرىء ما ـ من أجل ـ إفهميني، طفلتي: كتعبير عن التحبية ـ الإسم الدال على التحبب. ربما يكون رينشيا. مع ان إسم إيمشين يستطيع بالقدر نفسه أن يدفئ ويقوّي القلب ـ بإيجاز، حالياً، سوف أتقيد بـ إيمشين. إيمشين، إذاً، إيمشين طفلتي، إصغي إليّ. رغيف صغير من الخبز، حبيبتي. لكن مهلاً! كي لا يحصل سوء تفاهم بيننا ـ ذلك انه في وجهك الأكبر من المعتاد نوعاً ما يبدو لي انني أقرأ ـ خبز ـ رينزشين، خبز؛ مع ذلك ليس خبز خباز، الذي نملك في هذا المكان كفايتنا منه ونستطيع أن نستغني عنه، في كل الأشكال التي يمكن تصورها. ليست الذُرة تلك التي حُمصت، يا ملاكي، بل الذُرة التي أُحرقت ـ بكلمات أخرى، المركزة. خبز الله، خبز الإشراق، إسم التحبب الصغير؛ خبز من أجل غسل روح الإنسان السئمة. لكن ما زالت لي هواجس ـ سواء كان معنى هذه الكلمة ـ أنا حتى أفكر في التعويض عنها بأخرى، الكلمة الجميلة منعشة ـ إن لم نصادف هنا خطراً جديداً من الجائز أن تُفهم في المعنى الاعتيادي الطائش ـ من دون زيادة، رينشيا. ماشي. ما ـ شي، ومستحيل. الى حدٍ ما أنا، في ما يتعلق بدين الشرف أنا أعترف، بنحو منعش الى حدٍ بعيد، أنا أتمتع بصغرك المميز ـ جن، حبيبتي، وتعجلي. شيدامير، إميرنشيا. إجلبي لي واحدةً الى هنا.»

«زجاجة الجنيف»[٨]، كررت القزمة، ودارت حول نفسها ثلاث مرات، مفتشة عن مكانٍ لأباريقها، التي وضعتها أخيراً على مائدة هانز كاستورب، بالقربِ منه تماماً، واضح انها لم تشأ أن ترهق السيد بيبركورن بالشيء نفسه. ركبت أجنحةً لقدميها، وفي الحال تسّلم مراده. كانت الكأس الصغيرة ممتلئة تماماً بحيث ان «الخبز» طفح وبلل الطبق. تناول التقطير الحبيبي بين السبابة والوسطى، وحمله نحو الضوء. «بيبتر بيبركورن»، أعلن، «سوف يختار لنفسه كأساً من الجن الهولندي.» ظهر كأنه يمضغ السائل بعض الشيء، وبعدها إبتلعه. «والآن»، قال، «أتطلع إليكِ بأسرك بعينين جديرتين.» رفع يد

(٨) الجنيف geneva: شراب مُسكر ـ المترجم.

السيدة شوشا من قماش المائدة، رفعها الى شفتيه وأعادها الى موضعها السابق، وسمح ليده أن تستريح برهةً فوقها.

رجل غريب الأطوار، وذو نفوذ شخصي كبير، مع انه مشوَّش. كان سكان مصح بيرغهوف متحمسين عليه. روي انه تقاعد فقط مؤخراً من مصالحه الإستعمارية ونقلها الى القارة. قيل انه يملك مؤسسة هائلة عند الـ «هيغ»، وأخرى عند شفينينجين. السيدة شتور أسمته قرباً مالياً (المرأة التعيسة قصدت قطباً) وأشارت الى عقد اللآلئ الذي كانت السيدة شوشا ترتديه مساءً منذ عودتها الى بيرغهوف. هذه اللآلئ، فكّرت السيدة شتور، نادراً ما كانت رمزاً للعاطفة من الزوج ما وراء القفقاسي؛ انها على الأرجح جاءت من صندوق السفر المشترك المخصص للثياب. غمزت وهزت رأسها هزاً عنيفاً باتجاه هانز كاستورب، الذي حاكت خيبته في سبيل السخرية بأن جعلت فمها مسحوباً الى الأسفل ـ لا، المرض والأسى لم يكن لهما تأثير في تهذيب كارولين شتور؛ ملاحظاتها الساخرة على خيبة أمل الشاب تجاوزت الحدود بنحوٍ لا يقبل الجدل. حافظ هو على رباطة جأشه، وصحح خطأها الفاضح، ليس من دون براعة. كانت تقصد القول قطباً وليس قرباً، أخبرها. قطباً مالياً. إلا ان قرباً لا بأس بها على أية حال ـ يقيناً السيد بيبركورن كان له الشيء الكثير الذي يقرّب الناس إليه. مدرّسة الثانوية الآنسة إنجيلهارت، ببسمة ساخرة، مخضبة الوجه بصورةٍ غير واضحة، ودون أن تنظر إليه، سألته عن رأيه بالنزيل الجديد. أجاب، بهدوءٍ تام، انه وجد مينهير بيبركورن «شخصية ضبابية»؛ شخصية، هي ذي، من دون ريب، مع انها ضبابية. ان دقة الوصف أظهرت الموضوعية والإتزان؛ أزاحت مدرسة الثانوية من موقعها. فيردناند فيسال، أيضاً، أشار إشارةً غير مباشرة الى الظروف غير المتوقعة لعودة السيدة شوشا؛ ونال من هانز كاستورب برهاناً على أن نظرةً ما قد تكون تماماً معبّرة وجلية كالكلمة الملفوظة بوضوح. «أنت الخسيس الحقير»، نطقت النظرة التي قاس بها هانز كاستورب المانهايمي ـ قالتها من دون ظلٍ من الشك يغلف معناها. فيسال فهم تلك النظرة، وسكت عليها، وحتى أومأ برأسه وكشف عن أسنانه قبيحة المنظر؛ لكنه من ذلك الوقت

فصاعداً كفَّ عن حمل معطف هانز كاستورب، حين كانا يقومان بمسيرتهما الراجلة مع نافته، سيتيمبريني وفيرجه.

لكن يا سلام، هانز كاستورب بوسعه أن يحمل معطفه بنفسه، أليس قادراً ـ وكان يفضل كثيراً أن يفعل ذلك؛ كان فقط يسمح للمخلوق المسكين أن يأخذه بين الفينة والفينة تعبيراً عن الاحساس الطيب لا غير. على أية حال، لا ريب ان كل فرد من أفراد المجموعة كان يعرف ان هانز كاستورب كان قد أزعجه بشدة الظرف غير المتوقع تماماً، الذي أحبط الآمال كلها التي تعلق بها نحو عودة شريكته في الكرنفال. لعل من الأفضل أن نعبّر بنحوٍ أحسن قائلين ان كلاوديا جعلت آماله كلها لاغية؛ تلك، على وجه الدقة، كانت الحقيقة المخزية.

كانت خططه حذرة ودقيقة جداً، لم يكن يعني شيئاً غير بارع أو فظ. هو حتى لم يأتِ بها من المحطة ـ يا للنعمة، حقيقة، انه لم يفكر أن يفعل هذا! غير متيقن ما إذا امرأة ما ـ التي منحها مرضها تلك الدرجة من الحرية ـ غير متقين ما إذا كانت ستعترف بالمغامرات الرائعة لحلم حلمته ليلة الكرنفال، بلسان أجنبي فضلاً عن ذلك! ما إذا كانت حتى ترغب في المثل الأول أن تُذكر بها (أي بالمغامرات). كلا، ليس هناك ضرورة، ليس هناك إصرار غير ملائم من المتطلبات. معترفاً ان علاقاته مع المعذبة ذات العينين المائلتين تجاوزت الحدود المفروضة من قبل تقاليد الغرب؛ أقصى درجات شكلانية الحضارة، حتى بالنسبة للنسيان الواضح حالياً ـ كان يشار إليه كونه الإجراء المناسب. تحية دالة على الإحترام من مائدة الى مائدة ـ فقط هذه، حالياً، لا أكثر. إقتراب لطيف كما دلت الحادثة، إستفهام بسيط عن صحة المسافرة. اللقاء الحقيقي سوف يحدث لاحقاً في الوقت المناسب، كمكافأة على تحفظه الفروسي.

هذا الإحساس الجميل كله، الآن، أمسى باطلاً وعقيماً ـ سلوك هانز كاستورب، كونه محروماً من الاختيار، وبذلك من الأهلية. وجود مينهير بيبركورن المتخلص بصورة حقيقية من أي وسيلة (تكتيك) عدا التحفظ التام. مساء الوصول، كان هانز كاستورب قد رأى من مقصورته مركبة الجليد تجتاز

الطريق الخاص المتمعج. على الصندوق بعد الحوذي مباشرةً جلس الخادم الخصوصي من مالايو، رجل ضئيل البدن، أصفر، معطفه ذو ياقة من الفرو، ويعتمر قبعةً مستديرة سوداء. في الخلف، قبعته فوق حاجبيه، جلس الغريب، بجانب كلاوديا. تلك الليلة نام هانز كاستورب قليلاً في الصباح التالي سمع لدى سؤاله اسم الواصل الجديد الغامض؛ سمع فوق ذلك ان المسافرين شغلا جناحين متجاورين في الطبقة الأولى. كان قد جاء مبكراً الى الفطور، وجلس في مكانه منتصب القامة لكن شاحباً، منتظراً إغلاق الباب الزجاج بعنف. لم يحدث. كان دخول كلاوديا بلا ضوضاء؛ لأن مينهير بيبركورن أغلق الباب وراءها ـ طويلاً وعريضاً، شعره الأبيض يتوهج فوق جبينه العالي، تبع الوطء المنزلق المألوف لرفيقته، التي كانت تبرز رأسها أمامها قبل ان تنسل في كرسيها. أجل، لم تتغير. بصرف النظر عن برنامجه، هانز كاستورب افترسها بعينيه النعسانتين ـ المرهقتين. كان هناك الشعر الأحمر ـ الأشقر الذي لم يمشط بنحوٍ أكثر تعقيداً من الأيام الخوالي، ملتفاً في الضفيرة البسيطة نفسها حول رأسها، كانت هناك «عينا ذئب المرج»، العنق المدور، الشفتان اللتان تبدوان أكثر إكتنازاً مما هما عليه فعلاً، شكراً لعظام الوجنتين البارزة، التي منحت الخدين ذلك المنظر المسطح الفاتن أو المقعر نسبياً ـ كلاوديا! فكر وسرت في أوصاله رعشة. ثبت عينيه على النزيل غير المتوقع؛ ليس من دون رفعة رأس مفاجئة بسبب الانطباع الفاتن الشبيه بالقناع الذي تركه الفرد؛ ليس من دون أن يستجمع ملاحظةً ساخرةً على طموحات، مهما كانت مسوغة بوساطة ملكية الحاضر، كانت مبطلة بوساطة الماضي ـ بوساطة أحداث محددة جداً في الماضي ـ في سبيل المثال في حقل الرسم الهاوي. هانز كاستورب عرف، ألم تزره تلك الأحداث بغصات ممكن تبريرها؟ ـ حتى طريقتها في الإلتفات، قبل أن تجلس، كي تقدّم نفسها، إذا جاز التعبير، الى الحجرة، كما كانت تفعل في الأيام الخوالي. مينهير بيبركورن ساعد في الطقس الصغير، واقفاً خلفها بينما كانت تتخذ مجلسها، ومن ثم أجلس نفسه الى جانب كلاوديا.

في ما يتعلق بتلك التحية اللطيفة من مائدة الى مائدة ـ لم يسفر عنها

شيء. عينا كلاوديا، حين قدمت نفسها، مرتا على شخص هانز كاستورب والمنطقة المجاورة له كلها، وإستقرتا على الزاوية البعيدة للغرفة. عند وجبة الطعام التالية جرى الشيء نفسه. ومرت وجبات طعام أكثر من دون أي إستجابة لنظرته عدا هذا الإهمال الأجوف اللامبالي، أصبحت غير عملية أكثر خطة التحية اللطيفة. بعد العشاء رفيقا السفر جلسا في الصالون الصغير، على الكنبة معاً، محاطين بزملاء مائدتهما؛ أو بيبركورن، مظهره المهيب جداً يضيء إزاء البياض الوامض للشعر واللحية، كان قد شرب قنينة النبيذ الأحمر التي طلبها حين كان جالساً الى المائدة. في كل واحدةٍ من وجبات الطعام الرئيسة إحتسى واحدةً، أو إثنتين، أو قنينتين ونصف، إضافة الى «الخبز» الذي كان يتناوله حتى في الفطور المبكر. واضح ان نظام هذا الرجل الملكي كان قد بلغ مرحلةً أكثر من الحاجة الإعتيادية للترطيب. كان يتناول السائل هكذا بهيئة قهوة فوق ـ القوية، مرات عدة يومياً، يحتسيها من كوب كبير، حتى بعد وجبة الطعام الرئيسة ـ أو بالأحرى، يحتسيها خلال وجبة الطعام الرئيسة، مع النبيذ والقهوة، هانز كاستورب سمعه يقول، أليس كلاهما نافعاً للحمى ـ بصرف النظر عن خواصهما المنبهة والمسكرة والمنعشة ـ هما نافعان جداً للحمى الإستوائية المتقطعة التي جعلته يلازم الفراش ساعات عدة في اليوم الثاني بعد وصوله. هوفرات أسماها حمى الربع: تستولي على الرجل الهولندي في كل رابع يوم، في البداية مع قشعريرة، ثم مع حمى، ثم مع عرق غزير. قيل أيضاً أن له طحال ملتهب، يُعزى الى السبب نفسه.

واحد وعشرون[٩]

مرَّ بعض الوقت، نحو ثلاثة أو أربعة أسابيع ـ هذا بحسب تقديرنا، بما اننا لا نستطيع أن نعتمد على تقدير هانز كاستورب. لم يحدث أيَّ تغيير كبير. كان في تلك الأسابيع، سخرية دائمة من الظروف غير المتوقعة التي

(٩) واحد وعشرون Vingt et un (بالفرنسية): لعبة ورق تُعرف الآن باسم Pontoom ـ المترجم.

أبقت بطلنا في إغتراب لا يستحقه، وبخاصة، عن ذلك الظرف الذي يسمي نفسه بييتر بيبركورن، حين إختار لنفسه كأساً من الجن. لذلك الرجل الملكي، المشوش، وجود أزعج هانز كاستورب أكثر بكثير من وجود «عازف الأرغن اليدوي» في ماضيات الأيام. حاجباه إتخذا تجعيدين عموديين نكدين. يوميا ؟ كان يقلصهما خمس مرات عندما يجلس وينظر الى المسافرة العائدة ـ فرحاً على الرغم من نفسه أن يكون قادراً على النظر إليها ـ والى الحضرة الرفيعة والعظيمة الجالسة هناك جاهلةً تماماً أي ضوء شحيح ألقته أحداث الماضي على طموحاته الحالية.

ذات مساء، حدث أن كانت الساعة الإجتماعية أكثر حيويةً من الحالة الاعتيادية التي بدورها، ربما كانت سائدة في أي وقت ومن دون سبب خاص. طالب هنغاري عزف فالسات غجرية مفعمة بالحيوية على كمانه؛ وهوفرات بيرنز، الذي شاءت المصادفة أن يكون حاضراً على مدى ربع ساعة مع الدكتور كروكوفسكي، أقنع شخصاً ما كي يعزف لحن «كورس الحجاج» على أصابع الجهير من البيانو، بينما هو نفسه عزف بحركةٍ واثبة بفرشاةٍ على الـ تريبل، وحاكى في سبيل السخرية طباق[10] الكمان. قهقه الجميع؛ وهوفرات، أومأ برأسه بإستحسان كريم لإدائه المرح، إنسحب وسط التصفيق. الإبتهاج أطال نفسه، كان هناك المزيد من الموسيقى، الناس جالسون والمشروبات بجانبهم من أجل الدومينو ولعبة البريدج، بددوا الوقت مع الآلات البصرية، أو وقفوا في مجموعات يتكلمون. حتى المجموعة الروسية إختلطت مع الآخرين في الصالون وحجرة الموسيقى. مينهير بيبركورن كان من المفروض أن يُرى بينهم ـ أو بالأحرى، لا يستطيع المرء إلا ان يراه، أينما كان، رأسه الملكي يشمخ عالياً فوق أي مشهد، ويقزمه بمجرد ثقل وجلال شخصه. أولئك الواقفين حوله، جذبتهم أولاً الأقاويل حول ثروة الرجل، وفي الحال إستغرقوا في تأمل شخصه. مهملين كل شيء آخر، وقفوا يضحكون ويومئون برؤوسهم، مسحورين بالعين الشاحبة،

(١٠) طباق counterpoint: لحن يضاف الى آخر على سبيل المصاحبة ـ المترجم.

بطيات الجبين الهائلة، بإكراه الإيماءات التي كانت تؤديها يداه بأظافر طويلة. وعلى مدى لحظة واحدة، لم يكونوا واعين بأي نقص في ملاحظاته غير المترابطة، الرابسودية، التي لا طائل تحتها بكل معنى الكلمة.

إذا نظرنا حولنا بحثاً عن صديقنا هانز كاستورب، سنجده في حجرة القراءة والكتابة حيث مرةً (لكن هذه الـ «مرةً» مبهمة، لا راوي ولا قارئ هذه القصة، ولا حتى بطلها يكون واضحاً بعد الآن في درجة هذه الـ «مرة») ـ حيث مرةً تسلّم آراءً مهمة جداً تمس تاريخ التقدم البشري. هنا تماماً ـ شخصان فقط أو ثلاثة شاركوه معتزله. عند واحدةٍ من الموائد الثنائية، تحت الضوء الكهربائي، كان ثمة رجل يكتب؛ وسيدة مع زوجين من النظارات على أنفها جالسة عند رفوف الكتب، تقلّب مجلة مصورة. هانز كاستورب جلس قرب الباب المفتوح المؤدي الى حجرة الموسيقى، وظهره الى الأستار، على كرسي حدث أن كان هناك، كرسي مغطى بالبلش بطراز عصر النهضة الأوروبية، ذو ظهر عالٍ مستقيم، ومن دون مسندين. كان يحمل جريدةً كما لو انه ينوي مطالعتها، إلا انه بدلاً من ذلك كان يصغي ورأسه مائل الى أحد الجانبين الى نتف الموسيقى والحديث الآتي من الحجرة المتاخمة. كان حاجباه كئيبين، أفكاره لم تبدُ ميالة الى التآلفات، إنما بالأحرى كانت على الدرب الشائك لتحرره الحالي من الوهم. مُراً، مُراً كان قدر شابنا، الذي قد احتمل الانتظار الطويل لمجرد أن يُخدع في خاتمة المطاف. الواقع لم يبدُ بعيداً عن قرارٍ مفاجئ في ان يرمي صحيفته على الكرسي الذي جلس فيه، كي يفر عبر باب الصالون وأن يستبدل المباهج العقيمة بعزلة شرفته، وبرفقة مارياه.

«وابن خالتك، مسيو؟» بنحوٍ مفاجئ سأله صوت فوق وخلف كتفه. كان صوتاً ساحراً لأذنه؛ حواسه بدت وكأنها كانت تخطط بنحو معبّر كي تدرك قوته الحلوة والمُرة كونها أوج وذروة التآلفات الأرضية؛ انه الصوت الذي قال له مرةً: «أكيد. لكن كن حذراً كي لا تكسره» ـ صوت مُجبر، حاسم وإذا لم يخنه سمعه، سأله عن يواكيم.

ببطء جعل صحيفته تسقط، ورفع وجهه الى الأعلى بعض الشيء،

بحيث ان مؤخرة رأسه كانت على الظهر المستقيم لكرسيه. هو كذلك أغمض عينيه، لكنه فتحهما بسرعة، ونظر الى مكانٍ ما في الفراغ ـ التعبير الذي لاح على وجه الكائن المسكين كان تقريباً تعبير سائرٍ في نومه أو مُستبصر. ود أن تسأله من جديد، غير انها لم تفعل، ولم يكن حتى متأكداً من انها ما زالت واقفة وراءه، عندما، بعد ذلك التوقف القصير، بنحو متأخر جداً وبصوت لا يُكاد يُسمع أجاب قائلاً: «انه ميت. نزل الى هناك في الأسفل من أجل القوات المسلحة، ومات.»

أدرك ان هذه الـ«ميت» هي أول كلمة تقع بينهما؛ فوق ذلك، في الوقت نفسه، هي لم تكن متيقنة من أن تعبّر عن نفسها بلغته، واختارت تعابير بسيطة كي تواسيه. ما زالت واقفةً خلفه وفوقه، أردفت قائلة: «أوه، يا ويلتاه، وا أسفاه! هذا شيء سيء جداً! ميت تماماً ومدفون؟ منذ متى؟»

«منذ بعض الوقت. جاءت أمه وأخذته معها. كان قد نمى لحيةً، لحية جندي. أطلقوا ثلاث صليات فوق لحده.»

«كان يستحقها. كان شاباً طيباً جداً. أفضل بكثير من معظم الناس الآخرين ـ من بعض الآخرين الذين يعرفهم المرء.»

«أجل، كان طيباً وشجاعاً. رادامانثوس تكلم دائماً عن عناده. أما بدنه فكان بخلاف ذلك. اليسوعيون يسمونه تمرد الجسد. كان دوماً يعوّل على جسده ـ بكل معنى الكلمة. على أية حال، كان جسده يفكر بطريقة مختلفة، وكان يفرقع بأصابعه للعناد. لكنه شيء أخلاقي أكثر أن تفقد حياتك من أن تحفظها.»

«المسيو لم يزل الكسول المتفلسف، على ما أفهم. أما رادامانثوس؟ مَنْ يكون؟»

«بيرنز. هو الإسم الذي أطلقه سيتيمبريني عليه.»

«آ، سيتيمبريني. أعرفه. ذلك الإيطالي الذي ـ الذي لا أحبه. هو ليس إنسا ـ نياً ـ عنده ـ غطرسة.» الصوت أقام مؤقتاً على كلمة [إنسانياً] ـ بنحوٍ حالمٍ، متعصب؛ وأكد كلمة غطرسة في المقطع الأخير.

«هو لم يعد هنا؟ وأنا جد غبية، لا أعرف ما هو رادامانثوس.»

«تلميح إنساني. سيتيمبريني إنتقل من هنا. كنا نتفلسف كثيراً في المدة الأخيرة، هو وأنا ونافته.»

«مَنْ هو نافته؟»

«خصمه.»

«إذا كان كذلك، إذاً يسعدني أن أتعرف إليه ـ ألم أقل لك ان ابن خالتك سوف يموت إذا ما ذهب الى الأسفل كي يكون جندياً؟»

وهانز كاستورب أجاب بينما كان يعلن ويحلم: «هل كنتِ تعرفين يومذاك»، قال.

«ما الذي تفكر فيه؟» سألته.

حلت مدة توقف طويلة. لم ينكر، إنتظر، ومؤخرة رأسه تضغط على ظهر الكرسي، ونظرته نصف منتشية، في أن يسمع صوتها من جديد؛ ومن جيد لم يكن متيقناً من انها ما زالت هناك، من جديد كان يخشى ان الموسيقى الموهنة ربما حجبت خطاها المغادرة. في الأخير جاء صوتها من جديد:

«والمسيو لم ينزل الى الأسفل ليحضر مأتم ابن خالته؟»

رد قائلاً: «لا، ألقيتُ عليه تحية الوداعِ هنا في الأعالي، قبل أن يغلقوا عليه، حين بدأ يبتسم بلحيته. كان جبينه بارداً. أنتِ تعرفين كيف تغدو جبهته باردة كجباه الأموات؟»

«ثانيةً! يا لها من طريقة في مخاطبة امرأةٍ لا يكاد يعرفها المرء!»

«هل ينبغي لي أن لا أتكلم بطريقة بشرية، بل بطريقة الفلسفة الإنسانية؟[(١١)]»

« يا لها من مزحة! كنت هنا طوال الوقت؟»

«نعم. انتظرت.»

«انتظرت ـ ماذا؟»

---

(١١) الفلسفة الإنسانية: فلسفة تؤكد على قيمة الإنسان وقدرته على تحقيق الذات عن طريق العقل، وكثيراً ما ترفض الإيمان بأية قوة خارقة للطبيعة ـ المترجم.

«انتظرتكِ!»

ضحكة جاءت من أعلاه، كلمة بدت أشبه بـ «معتوه!» ـ «تنتظرني؟ كم هو شيء مضحك ـ انهم لم يسمحوا لك بالسفر.»

«أوه، نعم، يبرنز فعل ذلك، في مرةٍ من المرات ـ كان غاضباً. لكنها كانت حماقة. ليس لي إلا الندوب القديمة التي حدثت إبان أيام التلمذة، غير ان الأمكنة الجديدة هي التي سببت لي حماي.»

«ما زلتَ محموماً؟»

«بلى، ما أزال، محموماً قليلاً ـ أو تقريباً دوماً. بصورةٍ متقطعة. لكنها ليست حمى متقطعة.»

«أهذه تلميحات؟»

لزم الصمت. كان ما يزال ينظر بنحوٍ مُسرنَم، إلا ان حاجبيه كان مجموعين. بعد برهةٍ سأل هو: «وأنتِ أين كـ ـ نـ ـ تِ؟»

يدٌ ضربت مؤخرة الكرسي. «انك تخاطبني دوماً بصيغة المفرد! يا لها من همجية! أين كنتُ؟ في كل مكان. في موسكو» ـ الصوت لفظها ميوسكو ـ «في باكو ـ في بعض المواضع الألمانية ذوات الينابيع المعدنية، في إسبانيا.»

«أوه، في اسبانيا. هل أحببتِ هذا البلد؟»

«بين بين. السفر شيء سيء. الناس هناك نصف مغربيين. قشتالة جرداء مقفرة. الكرملين أجمل من ذلك القصر أو الدير، أو مهما يكن، عند أسفل الجبال ـ»

«نعم، الإسكوريال[(١٢)]».

«نعم، قصر فيليب مكان غير إنساني. آثرتُ الرقص الشعبي في كاتالونيا، يرقصون السارادانا على أنغام مزمار القربة. أنا، أنا أيضاً رقصتُ

---

(١٢) إسكوريال Escurial: بلدة في إسبانيا قرب مدريد. بنى فيها فيليب الثاني قصراً وديراً العام ١٥٦٣ ـ ١٥٨٤ أصبحا مدفن ملوك إسبانيا وفيه مكتبة غنية تحوي عدداً من المخطوطات العربية ـ المترجم.

معهم! يمسكون بأيدي بعضهم البعض ويرقصون في حلقة ـ الساحة كلها مليئة بالراقصين والراقصات. هذا ساحر. هذا إنسا ـ ني. إشتريتُ قبعةً صغيرةً زرقاء، كتلك التي يعتمرها الرجال والأولاد الإسبان هناك، تشبه كثيراً الطربوش ـ هم يسمونه الـ boina. سوف ألبسها في الإستراحة ـ العلاج، وأمكنة أخرى، ربما. المسيو سوف يحكم ما إذا تناسبني.»

«أي مسيو؟»

«الجالس هنا في هذا الكرسي.»

«ليس هو مينهير بيبركورن؟»

«كان قبل الآن قد أطلق حكمه ـ هو يقول انني أبدو فاتنة بها.»

«هو قال هذا ـ كله؟ هل أكمل الجملة حقاً، بحيث كانت مفهومة؟»

«آ! يبدو ان المسيو مغتاظ؟ المسيو حاقد وساخط؟ يضحك على أناسٍ أعظم وأفضل بكثير و ـ أكثر ـ إنسانية منه ومن ـ صديقه الثرثار من المتوسط، معلمه كثير الثرثرة ـ إذا ما جمعناهما معاً. لكنني لا أستطيع أن أصغي ـ»

«أبحوزتك البورتريه السيني خاصتي؟» قاطعها، مخيَّب الأمل.

ضحكتْ، «يجدر بي أن أفتش عنه.»

«أنا أحمل خاصتك هنا. وعلى الطاولة المجاورة لسريري عندي حامل لوحة صغير ـ»

لم يفرغ من كلامه. أمامه وقف بيبركورن. كان يفتش عن رفيقة سفره، دخل عبر الأستار، ووقف أمام كرسي هانز كاستورب، رآها تتكلم وراءه؛ وقف كبرج، قريباً جداً الى هانز كاستورب كما لو انه يريد أن يوقظ الأخير من نشوته، ويجعله يفهم أن عليه أن ينهض وأن يكون مهذباً. لكنهما كانا قريبين جداً بحيث لم يستطع هو أن ينزلق جانباً من مقعده، وبعدها وقف الثلاثة في مثلث، كان الكرسي مركزه.

السيدة شوشا إستجابت لمتطلبات الغرب المتحضر، بأن قدمت النبيلين أحدهما الى الآخر، قدمت هانز كاستورب الى بيبركورن كونه «أحد معارف مدة إقامة سابقة». كان شيئاً غير ضروري أن تفسر ذلك للسيد بيبركورن.

ذكرت إسمه، والهولندي خفض بصره ناظراً الى الشاب، من عينيه الشاحبتين، تحت الزخرفة العربية المدهشة للتجاعيد التي جعلت وجهه كثير الشبه بوجه وثن قديم؛ تطلع إليه، ومدَّ يده، التي كانت منمشةً في ظاهرها، والتي كانت أشبه بيد ربان سفينة، فكر هانز كاستورب، عدا أظافر الأصابع الرمحية. أول مرة، وقف تحت التأثير المباشر لشخصية بيبركورن المؤثرة (الشخصية هي الكلمة التي تخطر ببال المرء في ما يتعلق بهذا الرجل، المرء يعرف فوراً ان هذه شخصية؛ وكلما يرى المرء منه الأكثر يكون مقتنعاً أكثر ان شخصيةً ما يجب ألا تظهر بخلاف التي هو عليها) وشبابه غير المستقر شعر بثقل هذا الرجل عريض المنكبين، أحمر الوجه، في الستينيات من عمره، بهالة الشعر الأبيض خاصته، بشفتيه المتشققتين ولحية الذقن التي تاهت طويلة وهزيلة فوق الصدرة الإكليركية. كان سلوك بيبركورن الكياسة بعينها.

«سيدي العزيز»، قال، «ببالغ السرور. لا تذكره. أنا بكل معنى الكلمة مرؤوسك. في التعرف إليك، أنا بنحوٍ جلي أشعر ـ كونك شاباً، انك ألهمتني الثقة بنفسي. أنا أحبك. أنا ـ لا تذكره. ماشي، سيد، ماشي. أنت تناسبني.»

ماذا يستطيع هانز كاستورب أن يفعل؟ كانت إيماءات بيبركورن حاسمةً، قاطعةً. أحب هو هانز كاستورب. كان ذلك «ماشياً».

قناعته منحت بيبركورن فكرةً، أوحى بها بوساطة إيماءة الكلام. رفيقته الشقراء، آتية لإنقاذه، أتقنتها وجعلتها معبِّرةً.

«طفلتي»، قال. «جيد جداً الواقع. جداً. لكن كيف سيكون ذلك؟ ـ أرجوكِ إفهميني. حياتنا هنا ما هي إلا موجزةً. ان قدرتنا على أن ننصفها ما هي إلا ـ هذه حقائق، يا طفلتي. قوانين. متـ ـ صلـ ـ ـبة. بإختصار، طفلتي، بإختصار وبإيجاز ـ» توقف عن الكلام، بوضع مؤثر، أوحى بأنه سوف يذعن الى حكم آخر لكنه يتنصل من المسؤولية إذا، على الرغم من تحذيره، ما أُرتكب خطأً ما.

كانت السيدة شوشا بصورة جلية بارعةً في تفسير أمنياته نصف الملفوظة. قالت: «لِمَ لا؟ يمكننا أن نبقى مدة أطول قليلاً، نقيم حفلة أنس

وسمر، أغلب الظن، ونحتسي زجاجة نبيذ معاً.» إلتفتت الى هانز كاستورب. «إسرع! لماذا تنتظر؟ علينا أن نكوّن مجموعة، نحن الثلاثة لا نكفي. مَنْ الذي ما يزال في الصالون؟ أطلب من أي فرد هناك، إجلب بعض أصدقائك الى الأسفل من شرفاتهم. سوف نطلب من الدكتور تينج ـ فو زميل مائدتنا أن ينضم إلينا.»

بيبركورن دعك يديه.

«جيد جداً»، قال. «بكل ما في الكلمة من معنى. ممتاز. إفعل ما تؤمر به، أيها الشاب، عجّل! دعنا نكوّن مجموعة صغيرة، نلهو، ونأكل ونشرب. دعنا نشعر اننا ـ ماشي، أيها الشاب. بكل ما في الكلمة من معنى.»

هانز كاستورب أخذ المصعد الى الطبقة الثانية. قرع باب فيرجه، الذي بدوره جلب فيسال والسيد ألبين من كرسييهما في ردهة الإسترحة الرئيسة في الأسفل. المحامي باراوانت والسيد ماغنوس وزوجته كانوا ما يزالون في الردهة، السيدة شتور والآنسة كليفيلد كانتا في الصالون. مائدةٌ كبيرةٌ صُفتْ تحت الثريا الوسطية، كراسٍ وموائد غُيرتْ إتجاهاتها. مينهير بكياسةٍ حيّا كل نزيل من النزلاء خالما ظهر، بنظرةٍ من عينيه الشاحبتين ورفع للحاجبين الشبيهين بحاجبي قناع. جلسوا، إثنا عشر فرداً معاً، هانز كاستورب بين مضيفه الملكي وكلاوديا شوشا. أوراق اللعب ونُضد (كاونترات) أُخرجت، قرروا أن يلعبوا عدداً من جولات لعبة الواحد والعشرين. بيبركورن إستدعى القزمة وبإسلوبه المؤثر طلب خمراً ـ شبليه[13] أبيض لعام ١٩٠٦، ثلاث زجاجات كبداية ـ وعُقبة، أي كعكات دسمة وفواكه مجففة كانت متوفرة. دعك يديه ببالغ المرح حين جيء بالأشياء الطيبة، وأفشى عواطفه بمقاطع مكسرة كانت مع ذلك ناجحةً تماماً في الأقل باتجاه تأسيس «شخصيته». وضع كلتا يديه على ذراع جاره، ثم رفع سبابته الطويلة ذات الإظفر المدبب، وطالب وتسلّم الإعجاب من لدن الجالسين الى المائدة بسبب اللون الذهبي الرائع للخمر المقدم في أقداح كبيرة، بسبب السكر الذي نزَّ من أعناب

(١٣) شبليه chablis (بالفرنسية): ضرب من الخمر الفرنسية ـ المترجم.

مالقة[١٤]، بسبب نوعٍ معين من البسكويتة القاسية لها شكل عقدة مملحة قليلاً[١٥] ببذور الخشخاش. هذه، أعلن، كانت سماويةً، وبإيماءةٍ متعجرفة قضى في المهد على أي إحتجاج ممكن ضد قوة نعته. تولى أمر العناية بلعبة القمار في بادئ الأمر، لكنه حوّلها حالاً الى السيد ألبين وكان مدركاً كي يقول أن مهمتها أعاقت متعته المتحررة من الأغلال.

كانت المقامرة بالنسبة له بنحوٍ جلي شيئاً ذا أهمية ثانوية. كانت الرهانات ضئيلة جداً، شيئاً تافهاً لا غير في رأيه، مع ان المزايدة، باقتراح منه، بدأت بخمسين ربين[١٦]، وهو مبلغ محترم لمعظم أولئك الجالسين. المحامي باراوانت والسيدة شتور أصبحا شاحبين جداً وحمراً بالتناوب؛ الأخيرة عانت من غصات التردد حين طلب منها أن تقرر ما إذا كان غالياً جداً بالنسبة لها كي تشتري بثمانية عشر. أطلقت صرخة عالية حين سدد إليها السيد ألبين بروتين فاتر ورقةً حاسمة جداً بحيث دُحضت أمانيها المرة تلو المرة. قهقه بيبركورن من أعماق قلبه.

«إصرخي، مدام، إصرخي»، قال. «صرختك تبدو حادةً ونابضةً بالحياة، انها تنبجس من الأعماق ـ إشربي، مدام، إشربي، وانعشي نفسك من أجل مساعٍ جديدةٍ.» ملأ كأسها، وكذلك كأس جاره وكأسه، طلب ثلاث زجاجات إضافية، وقرع كأسه مع كأسي فيسال والسيدة ماغنوس الخربة باطنياً؛ كلاهما لاحا وكأنهما كانا في أمس الحاجة الى الحيوية والعنفوان. الوجوه تخضبت بالإحمرار أكثر فأكثر، جراء تأثيرات الخمر العجيب حقاً ـ فقط وجه الدكتور تينج ـ فو بقي شاحباً من دون تغيير، بالعينين اللوزيتين من الكهرمان الأسود. راهن بمبلغ عالٍ جداً، بقهقهته الصغيرة المكبوتة، وكان محظوظاً بصورة وقحة. المحامي باراوانت، نظرته سابحة، تحدى القدر بأن راهن بعشر فرنكات على ورقة إفتتاح مشجعة بصورة معتدلة، إشترى الى أن

(١٤) مالقه Malga: مرفأ في جنوب إسبانيا على البحر المتوسط. مركز تجاري ـ المترجم.
(١٥) البسكويت القاسي Petzel (بالألمانية): يسمى العقدية ـ المترجم.
(١٦) ربين Rappen: سنتيماً سويسرياً. والسنتيم هو واحد من مائة من الفرنك.ـ المترجم.

غدا وجهه شاحباً، وبعدها ربح ضعف المبلغ الذي خسره؛ ذلك ان السيد ألبين ضاعف بصورةٍ طائشة قوة آس كان قد تسلمه. ليس فقط الأشخاص المشتركين الذين أحسوا بصدمة هذه الأحداث؛ المجموعة كلها تقاسمت التأثير المحطم للأعصاب. حتى السيد ألبين، الذي كانت رباطة جأشه قد تغلبت على مدراء الألعاب[17] في مونت كارلو، حيث، بحسب قوله، كان مرتاداً قديماً لها، الآن نادراً ما قهر تهيجه. هانز كاستورب لعب بجد، وكذلك فعلت السيدة شتور وكليفيلد، والسيدة شوشا أيضاً. إنتقل اللعب من شخص لآخر: لعبوا البكراه[18]، «عمتي وعمتك»، و[الفارق] المحفوفة بالمخاطر. كانت هناك هتافات إبتهاج ويأس، إنفجارات غضب، نوبات ضحك هستيري ـ كلها ناجمة عن رد فعل هذه السعادة المحرّمة على أعصابهم؛ والتي كانت خطيرة وأصيلة بكل معنى الكلمة. فرص وتغيرات الحياة نفسها لم توقظ في دواخلهم غير رد الفعل هذا.

غير ان اللعب والخمر لم يكونا وحدهما ـ أو حتى بصورةٍ رئيسة ـ اللذين جعلا المجموعة الصغيرة متوترةً جداً، اللذين خضبا وجناتهم بالإحمرار وفتحا عيونهم على وسعها، أو أثارا مثل هذا الإهتياج الحابس للأنفاس، مثل هذا التركيز الموجع تقريباً على عمل اللحظة. كان ذلك بالأحرى تأثير طبيعة آمرة وسطهم، «شخصية»؛ انه مينهير بيبركورن الذي أمسك بالحشد في جوف كفه المومئة المتحركة، وقوّاها، بوساطة نظارة محياه، بوساطة عينه الشاحبة تحت التجاعيد البارزة لجبينه، بوساطة كلماته، و بانتومايم[19] المفروض بالقوة، كي تتخذ مزاج الساعة. مهما قال هو، كان مبهماً بدرجة كبيرة، وكلما كان حديثه مبهماً أكثر شرب هو مزيداً من الخمر. مع ذلك تعلقوا بشفتيه، لم يستطيعوا أن يحولوا أنظارهم عن الدائرة الصغيرة التي صنعها بإصبعه وإبهامه، مع الأظافر المدببة منتصبة بتيبس جنبها (أي الدائرة)؛ أو عن الوجه الملكي،

---

(١٧) مدراء الألعاب croupiers: مفردها مدير اللعبة وهو موظف في نادٍ للقمار يجمع الأموال على المائدة الخضراء ويدفع الى الرابحين أنصبتهم ـ المترجم.

(١٨) البكراه chemin de fer (بالفرنسية): نوع من لعبة الورق ـ المترجم.

(١٩) البانتومايم Pantomime: فن التميل الإيمائي ـ المترجم.

الناطق: إستسلموا إستسلاماً كلياً للمشاعر التي من أجل انكار الذات والقوة تجاوزت كثيراً سلّم النغم لهؤلاء القوم. الإجلال الذي ضمروه كان كبيراً جداً بالنسبة لبعضهم ـ السيدة ماغنوس، في الأقل، شعرت بأنها متوعكة جداً؛ مهددة بأن تفقد وعيها، لكنها بعناد رفضت أن تنسحب، وأقنعت نفسها بالكرسي الطويل، حيث إستلقت برهةً بمنديل مائدة ندي فوق جبينها، ومن ثم إنضمت من جديد الى المجموعة الجالسة الى المائدة.

بيبركورن نسب مأزقها الى نقص التغذية. عبّر عن نفسه في هذا المعنى، بتفكك مؤثر، سبابته الى الأعلى. يجب على الناس أن يُغذوا أنفسهم بصورة جيدة، جعلهم يفهمون، كي ينصفوا المتطلبات العديدة للحياة. وطلب قوتاً للمجموعة: أطباق كبيرة من اللحم البارد، لحم مشوي؛ لسان، بط، فخذ الخنزير، نقانق، صحون من كل ما لذ وطاب؛ مزينة كلها بالأفجال الصغيرة، كرات الزبد، والبقدونس، مبهجة كالمزاهر. لقوا ترحيباً، على الرغم من العشاء المستهلَك في وقت متأخر، لم يكن يفتقر الى الحماسة، وهو أمر ليس من الضروري أن نخبر القارئ به. غير ان مينهير بيبركورن، بعد لُقم قلائل، نبذ الأطعمة كلها كونها «أشياء تافهة» ـ نبذها بسخريةٍ أعطت دليلاً مفزعاً على المزاج المتقلّب لهذا الرجل (اللوردي). نعم، أصبح غاضباً، إلتفت الى أحد أعضاء المجموعة الذي حاول أن يدافع عن وجبة الطعام الخفيفة. تعاظم حنقه، ضرب الطاولة بقبضته، ولعن الطعام كونه نفايةً، ملائمة لصندوق قمامة. هذا أجبر المدافِع على إلتزام الصمت، إذ يقيناً ان بيبركورن، كونه مضيفاً وموزع الطعام والشراب اللذيذين، ربما يجد عيباً في ما يتعلق بنوعيهما إذا ما شاء.

إلا أن غيظه، مهما كان غير متجانس، لاءمه بصورةٍ كبيرة، هانز كاستورب رأى ذلك. الغضب لم يُعطِ فكرةً خاطئةً عنه أو جعله ضيق الأفق: إنتزع تشوشه، الذي لم يكن لأي فردٍ في المجموعة الشجاعة كي يربطه مع مزيج الخمر الذي إحتساه، الى درجةٍ ملكية جداً بحيث انهم كلهم بالاجماع وافقوا، لم يأكلوا لقمةً أخرى من الأطعمة المؤذية. السيدة شوشا بدأت العمل بنشاط كي تلطف مزاج رفيقها. لطمتْ كفه الضخمة الشبيهة بيد ربان

سفينة، حيث إستقرت على غطاء المائدة بعد الضربة التي سددها الى سطح الطاولة، وقالت بتملق انهما ربما يستطيعان أن يطلبا شيئاً آخر، طبقاً ساخناً، أغلب الظن، إذا وفق الطاهي الى ذلك. «جيد جداً، طفلتي»، قال بيبركورن، ملطَفاً. وتحول، من دون أن يقلل من وقاره، من سيل الغضب الى حالةٍ من الإسترضاء، حين تناول يد كلاوديا وقبلها. طلب له ولمجموعته، لكل فرد: طبقاً جيداً وكبيراً من الأومليت بالأعشاب العطرية ليساعدهم في إنصاف احتياجات الحياة التي تمليها عليهم. وصاحب الأمر مع ورقة مالية فئة مائة فرنك كمُحلية[٢٠] للعمال.

كانت رباطة جأشه قد أُعيدتْ كلياً بظهور الأطباق التي تُصدر بخاراً، مع حملها المنشور الأصفر كالكناري مع الخضار، الذي نشر أريجاً لطيفاً دافئاً للبيض والزبد في الهواء. شرعوا يتناولون مع بيبركورن، الذي أكل وأشرف على المتعة، بكلمات مكسّرة وبإيماءةٍ مُكرهة أمركل فرد من أفراد المجموعة أن يقدر تقديراً حماسياً هذه الهبات الإلهية. طلب جناً للجميع كي يرافق أطباق الأومليت؛ المشروب أطلق رائحة قمح قوية، ممتزجة مع نفحةٍ ضعيفةٍ جداً من العرعر ـ و بيبركورن فرض عليهم جميعاً أن يجرعوه بتبجيل.

هانز كاستورب دخن، وكذلك فعلت السيدة شوشا؛ التي دخنت سجائر روسية مع جزءٍ يوضع في الفم، من علبةٍ مصقولة مع ترويكه[٢١] تمضي بأقصى سرعة على الغطاء، وُضعت في متناول يدها على المائدة أمامها. بيبركورن لم يعترضْ على إستمتاع جاريه، أما هو نفسه فلم يكن يدخنْ ـ لم يفعل ذلك من قبل على الإطلاق. إذا كانا قد فهماه فهماً صحيحاً، كان يعد إستخدام التبغ واحدةً من المتع المهذبة جداً زراعته سلبت من جلالهم الملذات الحسية الأبسط للحياة ـ تلك الهبات والمتطلبات التي كانت قدرتنا على الاحساس نحوها في أفضل الأحوال متساوية بصعوبة. «أيها الشاب»، خاطب هو هانز كاستورب، أمسك به بقوة عينه الشاحبة

---

(٢٠) مُحلية Troika: المقصود هنا بقشيش للعمال ـ المترجم.

(٢١) ترويكه Troika (بالروسية): عربة روسية يجرها ثلاثة جياد متراصة ـ المترجم.

وإيماءته المتكشفة: «أيها الشاب ـ البسيط ـ المقدس. جيد ـ فهمتني. زجاجة خمر، طبق يصدر بخاراً من البيض، كحول حنطة خالصة ـ دعنا نمتص مثل هذه الأشياء، نفزعها كلياً، نرضي متطلباتها، قبل أن ـ بصورةٍ واقعية، سيد. لا كلمة. عرفتُ رجالاً ونساءً، آكلي الكوكايين، مدخني الحشيش، متعاطي المورفين ـ صديقي العزيز، جيد جداً. جيد جداً الواقع. جداً دعهم. لا نستطيع أن نحكم أو ندين. إلا ان هبات الله البسيطة، الكبيرة، البدائية ـ بالنسبة لهم هي غير متساوية في المقام الأول. ماشي، صديقي. مُدانة، مرفوضة. لم يكن بوسعهم أن يستجيبوا ـ اسمك، أيها الشاب؟ جيد. أعرفه، لكنني نسيته. ليس في الكوكايين، ليس في المورفين، ليس في رذيلةٍ كهذه يكمن الفساد الأخلاقي. الخطيئة ـ التي لا يمكن إغتفارها ـ لا يمكن إغتفارها ـ»

توقف عن الكلام. طويلاً وعريضاً، مال نحو جاره؛ كفَّ عن الحديث؛ لزم صمتاً معبّراً بصورةٍ مدهشة. كانت سبابته مرفوعة، فمه خطاً مكسوراً تحت الشفة العليا الحمراء، العارية، التي كانت نيئة بعض الشيء بسبب شفرة الحلاقة، الثنيات الأفقية لجبينه الأصلع إرتفعت كي تلاقي الهالة البيضاء لشعره؛ العينان الشاحبتان الصغيرتان كانتا تنظران مفتوحتين على وسعهما، وهانز كاستورب بدا انه قرأ فيهما بصيص رعب من الجريمة، الإثم الكبير، الخطيئة التي لا تُغتفر، التي حاولت أن تفسر انه واقف هناك الآن، ساحراً الصمت بكل قوة الشخصية الآمرة مع كونها مفككة. هانز كاستورب حسبه رعباً لا مبالياً، فوق ذلك مع شيء ذي صفة شخصية جداً، شيء ما مسَّ الكائن الملكي عن كثب: لعله خوف، لكنه ليس من النوع العادي أو البخيل؛ كان ذلك شديد الشبه بالرعب الذي يترجرج في أية لحظة في الحدقتين. هانز كاستورب على الرغم من الدوافع التي كان يملكها نحو سوء الفهم العدائي لصديق السيدة شوشا الملكي ـ كان بطبعه متسماً جداً بالإحترام كي لا يشعر بكونه مصدوماً بالإلهام.

خفض عينيه، وأومأ برأسه، كي يمنح جاره القناعة بكونه فهم الموضوع.

«أنتَ على صواب تام»، قال. «من اليسير أن تكون خطيئةً ـ وعلامةً للعُقم ـ كي تنغمس في تحسينات الحياة، في الوقت نفسه كونها غير كافية لهباتها الكبيرة، البسيطة، المقدسة. إذا فهمتُكَ فهماً صحيحاً، سيد بيبركورن، هذا هو ما عنيتَه. ومع انني لم أفكر بها في ذلك الضوء، يمكنني أن أقول انني أتفق معك، الآن وقد ذكرتها. أغلب الظن انها تحدث بصورةٍ نادرة بنحوٍ كافٍ ذلك ان هذه الهبات السليمة والبسيطة للحياة العدالة الحقيقية هي التي أنجزتها. ان معظم البشر هم مهملون جداً، مترهلون جداً، فاسدون أخلاقياً، مرهقون جداً من الداخل كي نمنحهم حقهم، أشعر انني متأكد من ذلك.»

الرجل الضخم سُرَّ سروراً عظيماً. «أيها الشاب»، قال، «بصورةٍ واقعية. هلاّ سمحت لي ـ لا كلمة. أتوسل إليك أن تشرب معي. لا ثمالات. يداً بيد. إني، في هذه اللحظة، لا أقترح عليك أنت الأخوي، كنتُ أوشك أن أفعل هذا؛ لكن من دون ريب سيكون عاجلاً. نوعاً ما. في المستقبل القريب، على أية حال. إعتمد عليه. أو، إذا ألححتَ على. . . الحالي ـ»

تردد هانز كاستورب.

«ممتاز، أيها الشاب. [العُقم] ـ جيد جداً. جداً. يمنح المرء الإرتعاشات. [الفساد الأخلاقي] ـ جيد جداً أيضاً. [الهبات] ـ ليست جيدة جداً ـ [المتطلبات] أفضل ـ المتطلبات الأنثوية المقدسة التي تمليها الحياة على الشرف والقوة الرجُلية ـ»

هانز كاستورب أُكره بنحو مفاجئ على الإدراك ان بيبركورن كان قد ثمل تماماً. مع ذلك، سكره لم يكن من النوع الذي يحط من القدر، ليس ثمة فقدان للوقار، بالأحرى إمتزج مع نبل طبيعته كي يُحدث تأثيراً عميقاً وملهِماً الرعب. باخوس[٢٢] نفسه، فكّر هانز كاستورب، من دون أذى لألوهيته، مال كي يستند على أكتاف جماعته. كل شيء اعتمد على [مَنْ] الذي سكر ـ إن شخصيةً مخمورةً كانت بعيدةً عن كونها نفس النكرة السكران. حاذر هو

---

(٢٢) باخوس Bacchus: إله الخمر عند الرومان ـ المترجم.

أن لا ينُقص، حتى داخلياً، إحترامه لهذا الشخص الساحق، الذي كانت إيماءاته قد أصبحت غامضة، وأمسى لسانه متلعثماً.

«أيها الأخ»، قال بيبركورن. جذعه الكبير تراخى بسُكر حر وملكي على كرسيه. ذراعه تمددت على طول القماش وربت على الطاولة بقبضةٍ مطبقة برفق. «أيها الأخ ـ في السلالة ـ المنظور. في المستقبل القريب ـ بعد مدةٍ فاصلة مناسبة للتفكير ـ جيد جداً. ما ـ شي. الحياة، أيها الشاب، أنثى. أنثى تبسط ذراعيها وقدميها، ذات ثديين منتفخين، كل منهما قريب من الآخر، ذات بطن لين كبير بين وركيها، ذراعين رشيقتين، فخذين بارزين، عينين نصف مغمضتين. هي تهزأ بنا. هي تتحدانا كي ننفق رجولتنا من أجل إتساعها الأقصى، كي نصمد أو ننهار أمامها. كي نصمد أو ننهار. أن [ننهار]، أيها الشاب ـ أتعرف ماذا يعني هذا؟ إيقاع الهزيمة بالمشاعر، سقوطها حين تجابهها الحياة ـ هذا هو العجز الجنسي. بالنسبة لها ليس ثمة رأفة، انها مُدانة بصورةٍ عديمة الرحمة، ومتهكمة. ـ لا كلمة، أيها الشاب! تم تقيؤها من الفم. العار والخزي كلمتان ضعيفتان بالنسبة للدمار والإفلاس، العار الرهيب. انها نهاية كل شيء، القنوط الجهنمي، يوم الحساب...»

الهولندي طرح جذعه الضخم الى الوراء أكثر فأكثر، رأسه الملكي غاص أكثر في صدره، بدا كما لو انه ينام نوماً عميقاً بينما كان يتكلم. إنما مع الكلمة الأخيرة رفع قبضته التي كانت مسترخية على الطاولة، وأنزلها مع ضجيج، جعل شابنا الهزيل هانز كاستورب، الذي كان مجهداً مع الخمر واللعب، وتفرد المشهد كله، يقفز، وبرعب مجفِّل نظر الى الشخص الضخم. «يوم الحساب!» كم لاءم هذا التعبير الموجز الرجل! هانز كاستورب لا يتذكر أبداً انه سمعه ملفوظاً، عدا ربما عند التعليم الشفاهي. ولا عجب، خاطب نفسه. مَنْ سواه فكّر بأن يستخدمه هكذا ـ أو، بصورةٍ أصح، مَنْ ذا الذي كان عظيماً بدرجةٍ كافية كي يضم الصاعقة في فمه؟ نافته، ربما، حين تكلم هراءه الإنتقامي ـ لكنها ستكون وقاحة منه. بينما تفوّه بيبركورن بدا كما لو انه حمل صوت البوق الأخير، البوق المهيب، الكتابي. «أستغفر الله، يا لها من شخصية!» شعر للمرة المائة. «أخيراً ألتقي بشخصية

حقيقية ـ وشاءت المصادفة أن يكون رفيق كلاوديا. ـ» هو نفسه لم يكن صافي الذهن تماماً، أدار كأس خمرته على المائدة، إحدى يديه في جيب سرواله، إحدى عينيه مغمضة بإحكام من دخان السيجارة التي كان يمسك بها في زاوية فمه. يقيناً كان الأحسن له أن يلتزم الصمت. ماذا كان صوته الضعيف، بعد الرعد المتدفق لـ جوبيتر[٢٣]؟ إلا ان معلميه الخاصين الديمقراطيين كانا درباه على النقاش ـ لأنهما كليهما كانا ديمقراطيين، مع ان أحدهما كافح ضدها ـ والسلوك ضلله كي يقول واحداً من تعليقاته الساذجة.

«ملاحظاتك، مينهير بيبركورن»، (يا له من تعبير! هل يدلي المرء بـ«ملاحظاته» حول [يوم الحساب]؟ «تعيد الى ذهني ما قلتَه سابقاً حول الرذيلة: ذلك انها تتألف من إهانة للهبات البسيطة، التي أسميتَها المقدسة، أو، ربما أدعوها الكلاسيكية، الهبات التي منحتها إيانا الحياة؛ الهبات الأكبر، مقارنةً مع تلك الهبات المتأخرة و[المحروثة]، التحسينات، التي [تنغمس فيها]، كما صاغها واحد منا، بينما الإنسان [يكرس نفسه] للهبات العظيمة ويضمر لها التقدير. لكن هنا فقط، يبدو لي، يكمن العُذر للرذيلة (عليك أن تسمح لي، لكني بطبيعتي أميل للأعذار، مع انه ليس ثمة شيء [واسع] يتعلق بها ـ أنا واضح تماماً في هذه النقطة) طالما انه نتيجة العجز الجنسي. في ما يتعلق برعوب (جمع رعب) العجز الجنسي قلتَ أشياءً ذات أهمية كبيرة بحيث انني مشوش تماماً، كما تراني جالساً هنا. لكن في نظري، ان إنساناً فاسداً أخلاقياً لا يبدو على الإطلاق غافلاً عن رعوبك؛ بل على العكس انه ينصفها الإنصاف كله، طالما انها التنازل عن مشاعره أمام هبات الحياة الكلاسيكية التي أجبرته على الرذيلة. هكذا نحن لا نحتاج لنرى في الرذيلة أيَّ إهانةٍ للحياة، انها أيضاً يمكن عدها تقديراً لها؛ من الناحية، طالما ان التحسينات تمثل stimulantia[٢٤] كما يقولون ـ وسائل التهيج أو السُكر ـ طالما انها تقوي أو تزيد القدرة على الاحساس، إذاً

(٢٣) جوبيتر Jove: كبير آلهة الرومان ـ المترجم.
(٢٤) stimulantia (بالإيطالية): حوافز ـ المترجم.

الحياة هي هدفها ومغزاها، الرغبة في الإحساس، السعي العقيم وراء الإحساس ـ أعني ـ»

عماذا كان يتكلم؟ ألم يكن ديمقراطياً ووقحاً بدرجة كافية بحيث قال هو [كما صاغها واحد منا] ـ وهكذا قرِن نفسه مع شخصية مثل بيبركورن؟ هل منحته وقائع معينة في الماضي ـ التي ألقت ضوءاً مشكوكاً فيه على الطموحات الحالية ـ الشجاعة كي يطلق هذا الشيء الوقح؟ هل كان الأرباب تواقين الى تحطيمه، حين حملوه على أن يباشر العمل في هذا التحليل المتهور لـ«الرذيلة»؟ الآن دعه ينظر إليها كي يخلص نفسه؛ ذلك انه بصورةٍ مؤكدة كان أحدث زوبعة.

مينهير بيبركورن، في أثناء خطبة هانز كاستورب، كان قد جلس مرمياً الى الخلف في كرسيه، رأسه ما يزال يغوص في صدره. كان شيئاً حتى مشكوكاً فيه ما إذا كان يصغي. لكن الآن، ببطء، بينما أصبح كلام الشاب مشوَشاً أكثر، بدأ يقوّم نفسه واستعاد إرتفاع جلسته التام، الرأس الملكي إلتهب؛ نقش التجاعيد على جبينه توسع الى الأعلى، عيناه الصغيرتان إنفتحتا في تهديد شاحب. واضح ان عاصفة كانت تتشكل بجانبها بينما كان الآخر غيمةً عابرةً. شفة مينهير السفلى إنضغطت بنحو غاضب على العليا، زاويتا فمه سُحبتا الى الأسفل، الذقن برز الى الأمام. ببطء ذراعه اليمنى فوق رأسه؛ القبضة مطبقة بإحكام وظلت مرفرفةً عالياً، جاهزة لتنفيذ حكم إعدام عاجل بحق الثرثار الديمقراطي، الذي بدوره كان مذعوراً ـ مع ذلك ليس من دون إرتعاشه فرِح مشكوك فيه عند هذا المشهد اللافت ـ مشهد غيظ ملكي.

كبت ميلاً للفرار، وأسرع يقول، بنحوٍ ملطِف للنقمة: «بطبيعة الحال، أخفقتُ في التعبير عن معناي. الأمر كله ببساطة مسألة ميزان. إذا كان لشيء ما قياس لا يستطيع المرء أن يدعوه رذيلةً. الرذيلة حقيرة. على وفق طبيعتها، هكذا كانت التحسينات. لم تكن هي على المقياس الكبير. لكن منذ أكثر الأزمان بدائية توجب على الإنسان أن يكون لديه وسيلة في متناول يده، وسيلة للصعود الى ذرى الشعور، التي تنتمي الى الهبات الكلاسيكية للحياة: وسيلة، بسيطة، مقدسة، في المقياس الكبير، إذا ما قُيض لي أن

أعبّر عن نفسي هكذا. أعني أن العنب، الخمر، هبة الآلهة للإنسان، كما قيل لنا عن الزمن القديم. ان إلهاً ما إخترعها، ومع اختزانها بدأت الحضارة. ذلك انه قيل لنا ذلك، شكراً لفن زراعة الكرمة والمشي عليها، الإنسان إنبثق من حالته البربرية، وأنجز الزراعة؛ حتى اليوم حيث ينمو العنب، أولئك القوم عُدوا، أو عَدوا أنفسهم، مالكين زراعة أرفع من تلك التي يملكها السيميريون[٢٥]، وهي حقيقة تستحق إنتباهنا. ذلك انها تدل على ان الحضارة ليست شيئاً من أشياء العقل، ليست شيئاً يخص كون المرء عاقلاً وواضحاً، انها تملك أشياءً أكثر بكثير تتعلق بالإلهام والجنون المؤقت، مباهج كأس الخمر ـ إذا تسنى لي أن أغدو جريئاً جداً لأسأل، ألم أصف موقفك في المسألة؟»

كلب ماكر هانز كاستورب، هذا. أو، كما صاغها السيد سيتيمبريني باحساس أدبي، «مُضحِكاً»[٢٦]. كي يندفع في الجدل مع الشخصيات، ويكون كذلك أول المتكلمين ـ لكنه يعرف بعدئذ كيف يخلّص نفسه حين تكون ثمة حاجة الى ذلك، وأذيال سترته، إذا صح التعبير، كلها على النار! في المقام الأول، كان قد منحهم شيئاً مرتجلاً إنما دفاعاً كلامياً محترماً تماماً عن الشرب، الذي فيه، مصادفةً، مرر إشارةً الى «الحضارة» ـ التي منها كان ثمة أثر ضئيل في موقف مينهير بيبركورن البدائي والمهدِد؛ وأخيراً، خدعه، وجعله يبدو وكأنه هو المخطئ، بأن سأله، ببساطة تامة، سؤالاً نادراً ما يستطيع المرء الإجابة عنه واحتفظ بالوضع المهدِد أو القبضة المرفوعة. وعلى وفق ذلك الهولندي استرخى من غضبه الخاص بالعصر الحجري الحديث، ببطء غاصت ذراعه من جديد الى أن استراحت على المائدة، وجهه فقد مظهره المنتفخ، العاصفة مرت من دون أثر عدا الدمدمة الأخيرة للرعد، بل حتى بدا وكأنه يضيف فكرة الكؤوس المقرقعة ثانيةً، والآن السيدة شوشا

---

(٢٥) السيميريون Cimmerions: شعب خرافي ذكر هوميروس انه يحيا في ظلام سرمدي ـ المترجم.

(٢٦) مضحِّكاً: الشخص الذي يضحك الآخرين. هذه الكلمة ترد هنا كاسم وليست كصفة ـ المترجم.

جاءت لنجدة الموقف، بأن لفتت إنتباه رفيقها الى التحطم التدريجي لحفلة الأنس والسمر.

«صديقي»، قالت له، بالفرنسية، «انك تهمل ضيوفك الآخرين. انك تكرس نفسك على وجه الحصر لهذا النبيل ـ مع ان حديثك معه كان مهماً ـ والآخرون توقفوا عن لعب الورق، أخشى أن يكونوا قد أُرهقوا ـ هل نقول طابت ليلتكم؟»

حوّل بيبركورن إنتباهه الى المجموعة. كان ذلك شيئاً حقيقاً: كانت معنوياتهم قد أُضعفتْ. الكسل والضجر جلسا على كل جبين، النزلاء كانوا خارجين عن اشراف المسؤول عنهم، مثل صف مدرسي مُهمَل. العديد منهم كانوا على وشك النوم. بيبركورن قبض بإحكام على العنان الذي تركه يسقط من يده. «سيداتي سادتي!» إستدعاهم، بسبابةٍ مرفوعةٍ ـ وتلك الإصبع المدببة كانت أشبه براية مرفرفة أو وميض سيف أُستل من غمده، بينما كانت كلماته أشبه بصرخة القائد التي تلم الشمل، التي تُكره الاضطراب المهدَد على التوقف. كان لها تأثيرها في لمح البصر. رفعوا أنفسهم، استردوا رباطة جأشهم، تطلعوا من جديد باسمين في عينيّ مضيفهم الشاحبتين تحت حاجبيه الشبيهين بحاجبي قناع. أمسكهم كلهم، أكرههم كرةً أخرى على أن يكونوا في خدمة شخصيته، خفض طرف سبابته الى أن لاقى طرف إبهامه، ورفع الأصابع الثلاث المتبقية، مستقيمةً ومتيبسةً بأظافرها الطويلة. بسط كفه، كف ربان السفينة، وبخهم، حذرهم، والكلمات إنطلقت من شفتيه المتشققتين ـ كلمات بكل معنى الكلمة لا علاقة لها بالموضوع وغير واضحة، مع ذلك مارست على نفوسهم نفوذاً لا يقاوَم، شكراً لتكتمات الشخصية خلفها.

«سيداتي سادتي. جيد جداً، جيد جداً الواقع. جداً. الجسد، سيداتي سادتي ـ ليس كلمةً أخرى. لا، إسمحوا لي أن أقول ـ ضعيف، هكذا وصفه الكتاب المقدس. ضعيف. مال الى أن يكون غير كافٍ للمتطلبات ـ لكنني أتوسل ـ باختصار، سيداتي سادتي، باختصار وبايجاز، أتو ـ سل! ستقولون لي: [النوم]. جيد جداً، سيداتي سادتي، جيد جداً، جداً. أنا أحب وأجلّ

النوم. أنا أبجل السعادة العميقة، الحلوة، المنعشة الناجمة عنه. النوم واحد من ـ ماذا أسميتها، أيها الشاب؟ ـ واحد من الهبات الكلاسيكية للحياة ـ في المقام الأول، في المقام الأول بعينه، الأعلى، سيداتي سادتي. لكنكم سوف تعود بكم الذاكرة، سوف تتذكرون الجثمانية[٢٧]. [وأخذ معه بطرس الرسول[٢٨] وإبني زبدي[٢٩]. . وبعدها قال لهم: . . . أمكثوا هنا وراقبوا معي.] هل تذكرتم؟ [وجاء الى الحواريين ووجدهم نائمين، وقال لـ بطرس الرسول: ياه، ألا تستطيع أن تراقب معي ساعةً واحدة؟] ممتاز، أصدقائي وصديقاتي. شيء يحز القلب، مثير للمشاعر الى النهاية ـ جداً. [وجاء ووجدهم نائمين ثانيةً، ذلك ان عيونهم كانت مثقلةً بالنعاس. وقال لهم: ناموا الآن، وخذوا راحتكم، لاحظوا ان الساعة وشيكة.] سيداتي سادتي، هذا يحز القلب، انه يسفع ـ»

الحقيقة، كانوا كلهم قد جُرحوا في الصميم، مُحقوا. كان قد طوى يديه على صدره، على لحيته الهزيلة، وأمال رأسه الى أحد الجانبين. عيناه أمستا كليلتين مع الإحساس بينما كانت الكلمات معبّرة عن الكرب المتوحد للموت والتي هوتْ من شفتيه المتشققتين. السيدة شتور بكت. السيدة ماغنوس أطلقت تنهدةً مثقلةً بالهم. المحامي باراوانت رأى انه شيء إلزامي عليه أن يتمثل ذهنياً معنى اللقاء. بصوتٍ مخفض بوقار، أكد لمضيفهم المبجل ان المجموعة مجموعته كي يتولى قيادتها. السيد بيبركورن أساء فهمهم. ها هم أولاء، سعداء كالفجر، مبتهجين كغلمان الرمل[٣٠]، مستعدين لأي شيء. هذه، قال، أمسية لا تُقدر بثمن، مهرجانيةً جداً، إستثنائية جداً. هكذا كان

---

(٢٧) الجثمانية Gethsemane: الحديقة التي أُعتقل فيها المسيح خارج القدس، وتعني أيضاً عذاب (أو موطن عذلب) ـ المترجم.

(٢٨) بطرس الرسول Peter: أحد تلامذة المسيح (ع) الإثنى عشر ـ المترجم.

(٢٩) زبدي Zebdee: والد الرسولين يعقوب الأكبر ويوحنا. كان صياد سمك في بحيرة الجليل ـ المترجم.

(٣٠) غلمان الرمل Sand boys: جمع غلام الرمل وهي حشرة من حشرات كثيرة قفازة. (كبرغوث الرمل) تكثر في الشواطئ الرملية ـ المترجم.

شعورهم، وما من أحد منهم له فكرة حالية في إفادة نفسه من الهبة الطيبة للحياة في النوم. مينهير بيبركورن بوسعه أن يتكل عليهم، كافةً.

«رائع، ممتاز»، هتف بيبركورن، واستوى منتصباً من جديد. أرخى قبضته وبسطها مفتوحتين على وسعهما وعاليتين أمامه، الراحتان الى الخارج ـ كان ذلك أشبه بصلاة وثنية. أساريره الملكية، لكنها الآن بُصمتْ بكربٍ قوطي، أزهرت مرةً أخرى بابتهاج صاخب وثني. كذلك ظهرت في خده غمازة مترفة. «الساعة وشيكة»، قال، وبعث في طلب بطاقة الخمور. لبس نظارةً أنفيةً ذات إطار قرني، الجزء الأنفي منها إرتفع الى جبينه، وطلب شمبانيا، ثلاث زجاجات من موم وشركائه، الشريط الأحمر[٣١]، غير حلو بنحو خاص مع البتي فور[٣٢]، أطعمة صغيرة لذيذة مخروطية الشكل بزخارف قليلة، مغطاة بزركشة ملونة ومملوءة بالشوكولاته وقشدة الفستق. السيدة شتور لعقت أصابعها في إثرها. السيد ألبين بصورةٍ لا مبالية رفع السلك عن الزجاجة الأولى، وجعل الفلينة الشبيهة بالفطر تنفجر الى السقف؛ بنحوٍ أنيق عمل على وفق الطقس، حاملاً عنق الزجاجة ملفوفاً في منديل المائدة بينما هو يسكب الشمبانيا. الرغوة الممتازة بللت القماش. رنت الكؤوس كلها حينما حيّا الضيوف، بعدها شربوا الكأس الأولى في جرعةٍ واحدةٍ، مكهربين أعضاءهم الهضمية بالسائل البارد كالجليد، الواخز، المعَّطر. كل عين من عيون الضيوف أطلقت شرراً. اللعبة بلغت نهايتها، ما من أحد أزعج نفسه في أن يأخذ الورق أو الأرباح من المائدة. أسلموا أنفسهم الى كسل سعيد، أُفعموا بالبهجة بوساطة نُبذ حوار، تعبيراً عن الجذل الصرف، لم يتخلف فيه أي واحد منهم. أطلقوا أفكاراً بدت في التفكير طازجةً بنحو بدائي وجميلة، إنما في القول تحولت نوعاً ما الى خليط غير متجانس، أعرج، متعثر، طائش، مُعدٍ كي يثير إزدراء أي مشاهد متزن.

---

(٣١) الشريط الأحمر: ورد هذا النوع من الخمر بالفرنسية cordon rouge ـ المترجم.

(٣٢) البتي فور Petits fours: كعك أو بسكويت صغير مزين يتناول بعد الوجبة مع القهوة أو المشروب المسكر ـ المترجم.

الجمهور، على أية حال، لم يُصب بالاستياء، الجميع كانوا في الحالة اللامسؤولة نفسها. حتى أُذني السيدة ماغنوس كانتا حمراوين، واعترفت هي انها شعرت «كما لو ان الحياة تركض خلالها» ـ الأمر الذي يبدو ان السيد ماغنوس لم يسره أن يسمعه. هرمينه كليفيلد مالت على كتف السيد ألبين بينما كانت تحمل كأسها كي تُملأ بالخمر. بيبركورن قاد الطقس الخاص بعيد باخوس بإيماءاته ذوات الأصابع الطويلة، وطلب تجهيزات إضافية: قهوة أعقبت الشمبانيا، «مخاوي[٣٣] ثنائي» مع جرعات طازجة من «الخبز» ومشروبات مسكرة معطرة لاذعة: براندي المشمش، الشرتروزيه[٣٤]، قشدة الفانيلا، المرسكين[٣٥]. بعدها ظهرت هناك شرائح سمك منقوعة في الماء المالح أو الخل، وبيرة، وأخيراً الشاي، الصيني والبابونجي معاً، لأولئك الذين إكتفوا بالشمبانيا والمشروبات المسكرة المعطرة ولم يكترثوا بأن يعودوا الى خمر سليم، كما فعل مينهير نفسه؛ هو، السيدة شوشا، وهانز كاستورب عادوا من جديد بعد منتصف الليل الى الخمر السويسري الأحمر. مينهير بيبركورن، ظمآناً بنحو حقيقي، عبَّ كأساً بعد كأس من المشروب البسيط الفوار.

المجموعة توحدت على مدى ساعة أخرى، جزئياً لأنهم جميعاً كانوا ثقيلي الأقدام ومربكين كي يستطيعوا أن ينهضوا، جزئياً لأن هذه الطريقة في قضاء ساعات الليل راقتهم بجدتها، جزئياً بسبب ثقل شخصية بيبركورن، والمثال المدمر لـ بطرس الرسول وأشقائه، الذين كانوا خجلين جداً كي يستسلموا لها. إذا ما تحدثنا عموماً، القسم الأنثوي بدا أقل ميلاً للتوفيق من الذكوري. ذلك ان الرجال، محمرين أو شاحبين، جلسوا وسيقانهم ممدودة أمامهم، ينفخون خدودهم. بين الفينة والفينة كانوا يقومون بجهد نصف ميكانيكي كي يرفعوا الكأس، إلا ان ميولهم لم تعد فيها. النساء كن مغامرات

---

(٣٣) مخاوي Mocha: بُن يمني ـ المترجم.

(٣٤) الشروترزيه chertreuse (بالفرنسية): شراب مُسكر أخضر اللون أو أصفر ـ المترجم.

(٣٥) المرسكين maraschino (بالإيطالية): شراب مُسكر يصنع من عصير الكرز البري المر المخمّر ـ المترجم.

أكثر. هرمينه كليفيلد، عارية المرفقين على المائدة، أبرزت رأسها الى الأعلى، خداها في يديها، وأظهرت لـ تينج ـ فو المقهقه كل مينا أسنانها الأمامية. السيدة شتور، ذقنها وكتفاها يلتقيان بغنج، حاولت أن توقظ من جديد المحامي باراوانت من أجل الرغبة. كانت حالة السيدة ماغنوس بحيث انها أجلست نفسها في حضن السيد ألبين، وكانت تسحب كلتا أذنيه من شحمتيهما ـ وهو مشهد بدا ان السيد ماغنوس وجد فيه الإرتياح. المجموعة حثت أنطون كارلوفيتش فيرجه على أن يمتعهم بقصة صدمة غشاء الجنب؛ إلا ان كلامه كان غير واضح، لم يستطع أن يتحكم به، وبنحو جدير بالإحترام جاهر بعدم قدرته، الأمر الذي قوبل بالترحيب من المجموعة كفرصة لمشروب آخر. فيسال فجأةً بدأ يبكي بمرارة، من عمقٍ لم يُسبر غوره للتعاسة. جلبوا له جرعةً من القهوة والكونياك؛ إلا ان الحادثة أثارت اهتمام بيبركورن النابض بالحيوية، الذي نظر الى ذقنه المرتجف، الذي كانت تقطر منه الدموع، وبسبابةٍ مرفوعة وبحاجبين شبيهين بحاجبي قناع مرفوعين إسترعى إنتباه المجموعة الى الظاهرة.

«هذا ـ» قال. «آه ـ عن إذنكم، هذا ـ شيء مقدس. جففي ذقنه، طفلتي، خذي منديل المائدة خاصتي ـ أو، الأحسن، دعيه يقطر. هو نفسه فعل ذلك. شيء مقدس، أصدقائي. بالمعاني كلها. مسيحي ووثني. ظاهرة بدائية، من. . . الأول ـ الأول بعينه ـ لا. لا، أي بمعنى آخر ـ»

هذا التعبير الموجز المكرر عادةً عيّن المفتاح لكل التعليق المتكرر باستمرار الذي رافق به نتاجه من الإيماءة ـ إيماءة هي الآن، على وجه التأكيد، أصبحت أكثر من محاكاة ساخرة صغيرة. كان له اسلوب خاص في رفع تلك الدائرة الصغيرة المتكوّنة من الإبهام والسبابة الى توازن أعلى أذنه، وبحياء برم رأسه بعيداً عنها ـ المرء يشاهده كما لو كان يشاهد كاهناً طاعناً في السن من طائفة دينية شرقية، مع حافات ردائه منتزعة الى الأعلى، يقوم برقصةٍ أمام مذبح قرباني. من جديد، رمى نفسه الى الوراء باسترخاء أولمبي، مع ذراعٍ مبسوطةٍ على ظهر كرسي جاره، ضللهم كلهم ويا لتشوشهم، بأن رسم مشهداً حياً ولا سبيل الى مقاومته لصباح شتائي داكن، صقيعي، حين

يكشف الوميض الأصفر لمصباح الليل شبكة الأغصان الرئيسة الجرداء خارج النوافذ، صلبة في الضباب الجاف والنافذ للفجر المبكر. وهكذا معبرة جداً كانت الصورة، شاملةً جداً فتنتها ـ الواقع، كلهم قاطبةً إرتجفوا؛ بخاصةٍ حين راح يتحدث عن الشروق في فجرٍ كهذا، وعصر اسفنجةً كبيرةً مملوءة بماء بارد كالجليد فوق عنقه وكتفيه. الاحساس المؤثر وصفه بكونه «مقدساً». إلا ان هذا كله كان إستطراداً، كلاماً قيل على إنفراد كي يصوّر تقبل الحياة؛ إرتجال رائع، أُسقط حصراً كي يجدد ويؤكد الدافع الذي لا يقاوم كله لوجوده وأحاسيسه في مشهد عربدة الليل الخليعة. غازل كل كائن أنثوي في متناول اليد، من دون تمييز أو احترام لشخص هذا الكائن؛ رقق هذه العروض للقزمة بحيث ان الوجه الكبير المسن للمخلوقة المعوقة تكلل بالبسمات. تملق للسيدة شتور بحيث جعل المخلوقة المبتذلة تشمخ بأنفها بصورةٍ متهورة أكثر من أي وقت مضى، وتصبح تقريباً فاقدة الوعي مع التكلف. تضرع ـ وتسلّم ـ قبلةً من الآنسة كليفيلد، على شفتيه الغليظتين، المتشققتين. هو كذلك تغنج مع السيدة ماغنوس البائسة ـ وهذا كله من دون أن يلحقَ أذىً بالتقدير الرقيق الذي كان يضمره لرفيقته، التي كان يحمل يدها، بين الحين والحين، بتودد، الى شفتيه. «خمر ـ» قال، «أيتها النساء؛ انها ـ هي ذي ـ أعذرنني ـ الجثمانية ـ يوم الحساب. . . »

نحو الساعة الثانية طارت شائعة تفيد بأن «الرجل العجوز» هوفرات بيرنز ـ كان يدنو بخطوات إجبارية. ساد الرعب بين المجموعة الواهنة. إنقلبت كراسٍ ودلاء ثلج. هربوا عبر المكتبة. إغتاظ بيبركورن من الإنقطاع المفاجئ للإبتهاجات، بغضب ملكي ضرب المائدة بقبضته وصاح وراء المنسحبين «عبيد جبناء» ـ لكنه سمح للسيدة شوشا وهانز كاستورب أن يهدئاه باعتبار ان المأدبة كانت قد إستمرت حتى الآن نحو ست ساعات، وانها بأية حال يجب أن تنتهي. أعار أذناً صاغيةً حين تمتما شيئاً عن عطية النوم «المقدسة»، واستسلم لجهودهما كي يأخذاه الى الفراش.

«دعيني أتكئ عليك، طفلتي! وأنتَ، أيها الشاب، في ناحيتي الثانية»، قال. ساعداه في أن يرفع جسده صعب المأخذ (لثقله) من المائدة، جعلاه

يستند الى ذراعيهما، وسار بخطواتٍ واسعة بينهما نحو الفراش، رأسه الضخمة غاصت في كتفه المرفوعة. أولاً أحد مساعديه ومن ثم المساعد الآخر مال الى أحد الجانبين بسبب خطواته المتمايلة. جائز انه كان حصراً أشبع نفسه في الترف الملكي كونه يُسند ويُقاد هكذا؛ فمن المفروض ان يذهب بمفرده. لكنه سخر من المجهود. إذا كانا قاما بذلك حصراً من أجل الغرض التافه لإخفاء حالته، والتي لم يكن خجلاً منها، عدم خجل ملكي، يجد متعةً بالغةً في مزاجٍ جعل رفيقيه يترنحان معه من جانب الى جانب. قال كذلك، خلال الطريق: «أطفال ـ هراء. بطبيعة الحال لستُ ـ في هذه اللحظة. يلزمكما أن تريا ـ شيء سخيف ـ»

«سخيف بالطبع»، أيده هانز كاستورب. «هو يقيناً كذلك. نحن نمنح الهبات الكلاسيكية للحياة حقوقها، نتهادى في شرفها، بنحوٍ جاد، من ناحيةٍ ثانية: أنا أيضاً كان لي نصيبي، إلا ان أي شيء أُصطلح على تسميته سُكر هو على العكس، أنا أميز بصورةٍ كاملة شرف إعانة شخصية هائلة كهذه بأخذها الى الفراش؛ لستُ ثملاً جداً بحيث انني في مسألة القياس لا أحمل شمعةً ـ»

«هلمَّ، هلمَّ، أيها الثرثار»، قال بيبركورن، وتحركا بصورةٍ إيقاعية نحو درجات السلّم، ساحبين السيدة شوشا معهما.

كان خبر اقتراب هوفرات بُعبعاً. ربما كانت النادلة ضئيلة البدن المرهقة هي المسؤولة عن ذيوع تلك الشائعة، وهي التي كانت تفكر في ما يتصل بذلك من وضع حدٍ لحفلة الأنس والسمر. كان بيبركورن قد إستشعر الإنذار المزيف، وأراد أن يرجع ليطلب مشروباً آخر. إلا انهما كليهما عملا على أن يصرف هذه الفكرة عن باله، واستمرا في مسيرتهما.

الخادم المالاوي، بربطة عنق بيضاء وصندلين أسودين من الحرير، انتظر سيده في المجاز أمام غرفتيهما. انحنى كثيراً، واضعاً يده على صدره.

«ليقبّل أحدكما الآخر»، أمر بيبركورن. «أيها الشاب، قبّل المرأة المحبوبة على جبينها متمنياً لها ليلةً هانئة»، قال لـ هانز كاستورب. «هي لن تمانع في استقبال واستجابة ـ إفعل ذلك من أجل صحتي، مع بركتي.» إلا ان هانز كاستورب رفض.

«لا، جلالتك»، قال. «أستميحك عذراً. هذا غير مناسب.»

بيبركورن بين ذراعي خادمه، رسم زخرفاته العربية وطالب بمعرفة السبب.

«لأنني ورفيقتك لا نستطيع أن نتبادل القبلات على الجبين»، أجاب هانز كاستورب. «أتمنى أن تنام نوماً هانئاً. لا، لا، هذا هراء تام، كيفما نظرت إليه.»

السيدة شوشا، بدورها، كانت تتحرك نحو بابها؛ بيبركورن إستسلم، وسمح للرجل المعارض لطلب يد المرأة أن يذهب، مع انه تطلع إليه برهةً فوق كتفيه وكتفي المالاوي، حاجباه المتجعدان انسحبا عالياً بدهشةٍ إزاء عصيان نادراً ما نوشد طبعه الملكي كي يتحمله.

مينهير بيبركورن (تتمة)

مكث مينهير بيبركورن في مؤسسة بيرغهوف الشتاء كله ـ ما الذي بقي منه ـ وحتى جزءاً من الربيع؛ وهناك حدثتْ، بين نزهات أُخريات، نزهة بارزة (إنضم إليها سيتيمبريني ونافته) الى وادي فلويلا، كي يشاهدوا الشلال. حدث هذا في نهاية مدة مكوثه. في نهاية؟ إذاً، هو لم يعد هناك؟ كلا. رحل هو؟ لا ـ ونعم. كيف نعم ولا؟ أرجوك لا تجعلنا نتفحص بتطفل في الأسرار ـ في اكتمال الزمن سوف نعرف. نحن نعي أن الملازم زيمسين أمسى في عداد الأموات، ناهيك عن الحديث عن المؤدين الآخرين الأقل روعةً منه لرقصة الموت. إذاً حمى بيبركورن الاستوائية المهلكة هي سبب وفاته؟ لا، ليس هكذا ـ لكن، لماذا أنت نافد الصبر؟ لا تجعلنا ننسى حالة الحياة وكذلك حالة السرد: ذلك اننا لا نقدر أن نرى الصورة كلها حالاً ـ ما لم نعتزم أن نرمي جانباً كل أشكال المعرفة الانسانية التي حددها الباري. دعنا في الأقل نضمر قدراً معيناً من الإحترام للزمن طالما ان طبيعة قصتنا تسمح بذلك ـ احتراماً قليلاً كافياً، يقيناً؛ ذلك انه (أي الزمن) بدأ يندفع مسرعاً وشذراً مذراً؛ أو، إذا ما أوحت الكلمات ضجة وتشوشاً كبيرين جداً، هل

يسعنا القول انه يذهب كالريح؟ العقرب الصغير على ساعة الزمن يبدأ الرحلة كما لو انه يقيس الثواني؛ إلا ان الله يعرف كم من الزمن يغطيه هو حين يتحرك برشاقة مهملاً الأقسام التي يتجاوزها هذا شيء مؤكد جداً، ذلك اننا هنا في الأعالي من سنوات. أدمغتنا تصاب بدوار، يقيناً هذا حلم شرير، مع انه لم يُحلم به مع الحشيش أو الأفيون؛ الرقيب الأخلاقي يوبخنا عليه. مع ذلك كم هو مقدار الوضوح المنطقي، كم هو مقدار الضوء النقي للعقل الذي قاومنا به الغموض السارق؟ ليس مصادفة، يمكننا أن نقول، اننا عاشرنا منارات فكرية مثل نافته وسيتيمبريني، بدلاً من أن نحيط أنفسنا بـ بيبركورنات[٣٦] مشوشين! وهذا يقودنا الى مقارنةٍ ما، التي في نواحٍ كثيرةٍ، الجديرة بالذكر تلك المتعلقة بالقياس، لا بد أن تسفر عن نتيجة في صالح آخر واصل الى المشهد. فعلتْ هكذا في ذهن هانز كاستورب. رقد هو، مفكراً في هذه المسائل، في مقصورته، ومعترفاً لنفسه ان معلميه الخاصين كثيري الكلام، حارسي روحه اللذين إختارهما بنفسه، كانا يصغران بجانب بيتر بيبركورن في كؤوسه الملكية عليه هو، هانز كاستورب ـ ثرثارين. كان مسروراً أيما سرور ان علم أصول التدريس (البيداغوجيا) السحري منحه هذا أيضاً: التماس مع شخصية مائة بالمائة.

حقيقي، هذه الشخصية كانت رفيقة أسفار كلاوديا شوشا، وهكذا فهي عنصر مزعج كثيراً. إلا ان هذه مسألة أخرى، والتي لا يسمح هانز كاستورب أن يُجحف بها حكمه. بقي في تعاطفه المخلص والمتسم بالاحترام لهذا الرجل من القياس الكبير، بصرف النظر عن مشاركته لصناديق سفر المرأة التي منها مرةً، في ليلة كرنفال، إستعار هانز كاستورب قلم رصاص. كان ذلك أسلوبه؛ مع اننا نعرف بعض الأفراد، ذكوراً وإناثاً، لن يفقهوا مثل هذا النقص في رقة الشعور، يفضلون ان بطلنا ينبغي له أن يكره بيبركورن، يتجنبه، يسميه عجوزاً خرفاً، سكيراً متصابياً. بدلاً من ذلك نراه بجانب سرير بيبركورن في نوبات الحمى التي ألمت به ـ يثرثر له (الكلمة تنطبق على

---

(٣٦) جمعنا بيبركورن على بيبركورنات ـ المترجم.

حصته في الحوار، و ليس على حصة بيبركورن الملكي)، ومع تقبّل الشباب المتسائل في أثناء أسفاره، سامحاً لنفسه أن يُستغل بوساطة قوة الشخصية. هذا كله فعله هانز كاستورب، وهذا كله رويناه عنه، غير مبالين بالخطر ان شخصاً ما في ما يتصل بذلك ربما يُذكرَ بـ فردناند فيسال، الذي كان ذات مرة متعوداً على حمل معطف هانز كاستورب. المقارنة ليست وثيقة الصلة بالموضوع ـ ذلك ان بطلنا ليس فيسال. ان إذلال الذات أيما إذلال ليس خطه. لكنه ليس حتى «بطلاً»: أي بمعنى، انه لم يسمح أن تكون علاقته مع الذكوري محددة من قبل الأنثوي. حقيقي مبدؤنا في أن لا نجعل منه أحسن ولا أسوأ مما هو عليه فعلاً، نؤكد انه ببساطة رفض ـ ليس بصورة معبّرة وواعية، بل بسذاجة تامة، رفض أن يسمح لحكمه على جنسه هو أن يُفسد لاعتبارات رومانسية. ولا إحساسه نحو ما كان تقويمياً في التجربة. جنس الأنثى ربما يجد هذا كريهاً؛ نحن نعتقد ان السيدة شوشا تشعر ببعض الغم اللا إرادي نحو هذه الحقيقة ـ ملاحظة لاذعة أو ما شاكل أفلتت منها، سنشير إليها لاحقاً. لكن بالتأكيد هذه الميزة له بعينها هي التي جعلته موضوعاً لا يقاوَم للتنافس البيداغوجي.

بيتر بيبركورن رقد عليلاً بنحوٍ موجع، في اليوم الذي أعقب أمسية الورق والشمبانيا تلك التي وصفناها آنفاً ـ ولا عجب. تقريباً كل المشاركين في تلك المنافسات الطويلة ـ المتطاولة المرهقِة كانوا في الحال ذاتها. هانز كاستورب لم يكن إستثناءً، رأسه آلمه وكاد يتصدع؛ الأمر الذي لم يمنعه من أن يقوم بزيارةٍ الى سرير مضيفه، مضيف الليلة الماضية. طلب السماح له من خلال المالاوي، الذي إلتقاه في المجاز؛ وفي الحال وافق على طلبه.

دخل حجرة نوم الهولندي الثنائية عبر الصالون الذي كان يفصلها عن غرفة السيدة شوشا. كانت أوسع ومؤثثة بترف أكثر من أغلب حجرات بيرغهوف، ذات كراسٍ بمساند منجدة بالساتان وطاولات مقوسة السيقان. سجادة سميكة، ناعمة غطت البلاط، والسريران ـ لم يكونا هما من أسرّة الموت الصحية العائدة للمؤسسة، إنما جليلان جداً الواقع، من خشب الكرز

المصقول بسناد من النحاس الأصفر، وفوقهما تتدلى ظُلة صغيرة من دون ستائر، أشبه بمظلة واحدة تقي كلا السريرين.

بييتر بيبركورن رقد في أحدهما؛ غطاؤه الساتان الأحمر مكسو بالصحف، الكتب، والرسائل، وكان يطالع الـ [تلغراف]، من خلال نظارته الأنفية قرنية الإطار ذات الجزء الأنفي العالي. ماكينة البن إنتصبت على كرسي جنب السرير، وزجاجة نصف فارغة من الخمر الأحمر الفوار البسيط نفسه كانت على طاولة الليل، بين قوارير الأدوية. كان هانز كاستورب قد تسمّر نوعاً لدى رؤيته الهولندي لا يرتدي قميص الليل الأبيض بل صُدرة صوف طويلة الكمين، مزررة عند الرسغين وعديمة الياقة، ذات فصال مدوّر في العنق، وتلتصق بـ الجذع الحيوي للرجل العجوز، كتفيه العريضتين وصدره. هذا الملبس العادي وفر ارتياحاً أعظم للإنسانية الرائعة لرأسه على الوسادة؛ فيه بدا أبعد من أي وقت آخر عن الطبقة الوسطى والتقليدية، موحياً من ناحية بكونه واحداً من الشعب، ومن الناحية الأخرى تمثالاً نصفياً.

«مهما كلف الأمر، أيها الشاب»، قال نازعاً عويناته القرنية بوساطة الجزء الأنفي. «أدخل. لا تذكرها ـ على العكس.» هانز كاستورب جلس عند السرير، وأخفى دهشته ـ ذلك ان ما شعر به كان غير الاعجاب، مهما كان متعاطفاً ـ في ظل إنفجار ثرثرة ودية ونابضة بالحيوية، والتي عززها بيبركورن بأجزاء عظيمة من أعمال أدبية متفرقة وبنشاط كبير من الإيماءة. بدا «متوعكاً» جداً، أصفر وفي محنةٍ واضحةٍ؛ كان قد تأثر كثيراً بنوبة الحمى التي داهمته قرب الصباح، والإرهاق اللاحق ـ جزئياً بنحوٍ لا يرقى إليه الشك نتيجة مباراة ليلته الأخيرة.

«كنا لطيفين ـ ليلة أمس، كما تعرف ـ أنجزناها بصورة لطيفة جداً»، قال. «لكنك ـ جيد. معك لم يكن هناك شيء إضافي ـ لكن عمري، والحالة التي أنا فيها ـ طفلتي»، إلتفتَ بقسوة معتدلة، لكنها كانت محسوسة تماماً الى السيدة شوشا، التي دخلت الحجرة تواً من الصالون، «حسناً جداً، حسناً جداً الواقع. لكنني أكرر ـ كان يجب منعها.» شيء ما أشبه باقتراب نوبة غضب ملكية خاصة به حدث في الوجه والصوت. الظُلم، جنون التوبيخ كانا

واضحين لأي فرد حاول أن يتصور العاصفة التي هبت على رأس امرئٍ يفكر جدياً في أن يزعجه في شربه. لكن هكذا كانت أمزجة العظيم. السيدة شوشا تحركت جيئة وذهاباً في الحجرة، بعد أن حيت هانز كاستورب، الذي نهض من مكانه حينما دخلت، من دون مصافحةٍ، إنما مع بسمةٍ وإيماءة رأس، و«أرجوك لا تزعج نفسك» ـ وجهاً لوجه معه، أي، مع مينهير. أشغلت نفسها في أنحاء الغرفة، طلبت من المالاوي أن يأخذ ماكينة البن، ثم انسحبت برهةً، ولدى عودتها، خفيفة الخطى، شاركت واقفةً في كلام الآخرين. هانز كاستورب حصل على انطباع مفاده انها كانت هناك بوضع الحراسة. كان شيئاً حسناً جداً لها أن تعود الى بيرغهوف صحبة شخصية. لكن عندما استأذن العاشق الذي عانى طويلاً كي يبدي احترامه للشخصية كما يُظهره رجل لرجل، عندئذ أظهرت الاضطراب في تعابير حادة مثل «أرجوك لا تزعج نفسك» وما شاكل. هذه التعابير كلفت هانز كاستورب ابتسامةً، أحنى رأسه كي يخفيها، مع انه متوهج داخلياً. بيبركورن صبَّ له كأساً من الخمر من زجاجة على طاولة الليل. في هذه الظروف أفضل شيء، في رأي الهولندي، هو أن يبدأ المرء من حيث تُرك، وذلك الخمر غير المؤذي، الفوار كان له نفس تأثير ماء الصودا. لامسا كأسيهما. هانز كاستورب، حينما جرع، نظر الى الكف المنمشة، كف ربان السفينة، ذات الأظافر المدببة، الشريط الصوف المزرر حول الرسغ. أخذت الكأس، حملتها الى الشفتين الغليظتين المتشققتين؛ الحنجرة أشبه بحنجرة تمثال ومع ذلك شبيهة نوعاً بحنجرة عامل نهاري، تتحرك صعوداً ونزولاً بينما كان يبلع الخمر. بيبركورن أشار الى قنينة الدواء على الطاولة، سائل بني اللون، تناول ملء ملعقة منه من يد السيدة شوشا. كان خافضاً للحرارة، مكوناً بشكل رئيس من الكينين، قال هو. جعل ضيفه يجرب طعمه المُر واللاذع بصورةٍ مميزة؛ وكان له الكثير ليقوله في إطراء الصفات المثيرة للدهشة، القاتلة للجراثيم التي يمتاز بها الدواء، صفته المقوية، تأثيره الصحي في تنظيم حرارة الجسم. كان يبطئ عملية الأيض الهدمي للبروتين، يعزز التمثيل، باختصار كان هبةً للجنس البشري، هو شراب مدهش، مقوّ ومنبه ـ ومسكر فضلاً عن ذلك، ذلك ان

المرء بوسعه أن يغدو مترنحاً سكراً عليه، قال، قام بإيماءة ليلة أمس الموحية، إيماءة الأصابع والرأس ككاهن وثني في رقصته الطقسية.

نعم، مادة عجيبة، الكينا. لم تمر ثلثمائة سنة منذ ان تعرف إليها علم الأدوية الأوروبي؛ لم يمضِ قرن منذ أن عُزل المركب شبه القلوي الذي كان عنصرها المميز؛ عُزل، والى حدٍ ما، حُلل، ذلك انها ستكون مبالغة إذا ما قلنا ان الكيمياء عرفت كل ما يتعلق به، أو انه كان في وضع بحيث يتم إستخراجه صناعياً. علم الأدوية خاصتنا لا يحتاج الى أن يكون متكبراً على علمها؛ ذلك ان حالة معرفته في موضوع الكينين كانت قدوة واضحة للبقية. كانت له حقائق متنوعة حول فعالية هذا الدواء أو ذاك؛ لكنه كان محرجاً في أوقاتٍ كثيرةٍ جداً في ما يتعلق بمعرفة أسباب التأثير الناتج. إذا قيض لشابنا أن يعاين حقل معرفتنا المتعلق بعلم السموم، سيجد انه ما من أحد يقدر أن يقول أيَّ شيء عن الصفات الأولية التي تحدد تأثيرات ما يسمى بالسموم. في سبيل المثال، خذ سم الأفاعي، كل ما هو معروف عن هذه المواد الحيوانية هو انها تعود الى مجموعة شبه الزلالي، وتتكون من بروتيدات متنوعة، لا أحد منها أحدث تأثيراً قاسياً، سوى في هذا المزيج الموثوق ـ وغير الموثوق جداً. أُدخل في الدورة الدموية، كان التأثير مدهشاً الواقع، في ما يتعلق بكم نحن بعيدين عن كوننا معتادين التفكير في الزلال كسُم. بيبركورن، ورفع رأسه عن الوسادة، رفع الزخارف العربية على جبينه، وأعطى خاصية لملاحظاته بوساطة الدائرة الصغيرة وأطراف الأصابع المنتصبة، وقال بأن الحقيقة هي، في عالم المادة، ان المواد كلها أداة نقل الحياة والموت معاً، كلها دوائية وكلها سامة جداً، الواقع ان علم المداواة وعلم السموم هما شيء واحد والشيء نفسه، الإنسان يمكن معالجته بوساطة السُم، وان المواد التي عُرفت بكونها حاملة الحياة بوسعها أن تقتل في طعنة، في ثانية واحدة من الزمن.

تحدث بصورة مؤثرة، وبتماسك نادر، عن الأدوية والسموم، وهانز كاستورب، أصغى وأومأ برأسه؛ مهتماً بمضمون كلامه أقل ـ بدا كما لو أن الموضوع كان في أعماق قلبه ـ من اهتمامه بالسير الصامت لأغوار هذه الشخصية غير الإعتيادية، التي في النهاية بقيت متعذرة التفسير كفعالية سم

الأفعى التي كان يناقشها. في عالم المادة، قال بيبركورن، كل شيء يعتمد على علم الديناميك، الأشياء الأخرى كلها تكون افتراضية تماماً. الكينين هو أحد السموم الطبية، واحد من أقواها. أربع غرامات منه بوسعها أن تجعل المرء أصماً ودائخاً وغير مترابط؛ انها تفعل فعل الأتروبين[٣٧] على الأعضاء البصرية، انها سامة كالكحول؛ العاملون في مصانع الكينين لهم عيون ملتهبة وشفاه متورمة ويعانون من أمراضٍ جلدية. بيبركورن وصف الكينا، شجرة الكينين في الغابات البدائية لـ الكورديليراس[٣٨] ثلاثة آلاف قدماً فوق مستوى سطح البحر. لحاؤها، يدعى اللحاء البيروفي أو لحاء اليسوعيين، أتت متأخرة الى إسبانيا، بعد ان عرفت أمم أمريكا الجنوبية إستعمالها. تكلم عن مصانع الكينين الهائلة التي تملكها الحكومة الهولندية في جاوه، بينما سنوياً عدة ملايين من الأرطال الإنجليزية من لفات اللحاء الضارب الى الحمرة، بلون القرفة (الدارسين)، تُشحن بالباخرة الى أمستردام ولندن. الواقع، قال بيبركورن، اللحاء، نسيج الخشب نفسه، من القشرة الى القُلب[٣٩]، يحتوي، دوماً، مزيةً ديناميكية إستثنائية، لأجل الخير أو الشر. ان معرفة الأدوية التي إمتلكتها الأجناس الملونة تتفوق كثيراً على معرفتنا. في جزر معينة شرقي غينيا الجديدة الهولندية، الشبان والعذارى يحضّرون سحر الحب من لحاء شجرةٍ ما ـ كانت سامة في الأرجح، كشجرة المنزانيللا، أو الأنتيأرستوكسكاريا، شجرة الأوباس[٤٠] المميتة من جاوه، التي بوسعها أن تسمم الهواء المحيط بها ببخارها وتخبل بنحوٍ قاتل الإنسان والحيوان. هذا اللحاء يحولونه الى مسحوق ويمزجونه مع رقاقات جوز الهند، يمهدون المزيج الى لوح ويحمصونه، ثم ينثرونه شراباً مخمراً في

---

(٣٧) الأتروبين atropine: مادة شبه قلوية سامة، تُستخرج من حشيشة «ست الحسن» وتُستخدم لتوسيع الحدقة وفي معالجة التشنج ـ المترجم.

(٣٨) الكورديليراس Cordileras: سلسلة جبلية في غرب أمريكا الجنوبية ـ المترجم.

(٣٩) القُلب Cambium: طبقة من نسيج خلوي لين واقعة بين لحاء الشجرة وخشبها. ـ المترجم

(٤٠) الأوباس Upas: شجرة يُتخذ من نسغها سُم السهام ـ المترجم.

وجه الإنسان الكاره، شاباً كان أم فتاة، الذي يغدو (أو تغدو) متيماً (أو متيمةً) في الحال بحب الإنسان الذي نثر الشراب. في بعض الأحيان لحاء الجذر هو الذي يحتوي على العنصر المميِّز، كما هو الحال مع نبات زاحف ينمو في أرخبيل الملايو يدعى strychnos tieute، الذي منه حضّر أبناء البلد الـ upas-radsha، بإضافة سم الأفعى. هذا الدواء يسبب الموت الفوري حين يدخل الى الدورة الدموية ـ كما يحصل في سبيل المثال بوساطة سهم ـ إلا انه ما من أحد يستطيع أن يفسر كيف يعمل. كل ما يبدو واضحاً هو أن الأوباس لها علاقة ديناميكية مع الستركنين. . . . بيبركورن، في هذا الوقت، كان يجلس منتصباً في سريره؛ بين الفينة والفينة، بيدٍ مرتعشةٍ قليلاً، يحمل كأس الخمر الى شفتيه المتشققتين، كي يأخذ جرعات كبيرة. جعل يتحدث عن شجرة «عين الغربان» التي تنبت في ساحل كوروماندیل، من ثمارها اللبية البرتقالية ـ الصفراء ـ عيون الغربان ـ يتم إستخلاص المادة شبه القلوية الأكثر فاعلية من الكل، الستركنين. غاص صوته وتحول الى الهمس، والثنيات الكبيرة لجبينه ارتفعت الى الأعلى، بينما كان يصف لـ هانز كاستورب الأغصان الرئيسة الرمادية، الأوراق اللامعة بصورةٍ مذهلةٍ والأزاهير الصفر ـ الخضر؛ صورة هذه الشجرة التي أُستحضرت في عين عقل الشاب كانت مبهرجةً بصورةٍ متوهجةٍ، تقريباً بصورة هستيرية ـ جعلته يرتعد.

لكن هنا السيدة شوشا تدخلت، قائلةً انه شيء ليس بالجيد لـ مينهير بيبركورن أن يتكلم المزيد، فالكلام يتعبه كثيراً. كانت تمقت المقاطعة، إلا ان هانز كاستورب يغفر لها إذا ما إقترحت ان هذا يكفي حالياً. الشاب على وفق ذلك إستأذن بالإنصراف. لكن عادةً، في الشهور التي تلت، كان هانز كاستورب يجلس في فراش ذلك الرجل الملكي، حين لازمه بعد نوبة الحمى، السيدة شوشا تكون على مسمع منه، بينما هي تتحرك في أرجاء الحجرتين، وغالباً تشارك في قول كلمات قلائل. أمضيا وقتاً كثيراً معاً. حين فارقت الحمى بيبركورن؛ ذلك ان الهولندي في أيام سرائه، نادراً ما أخفق في أن يلم حوله مجموعةً منتخبةً، كي يلهوا ويشربوا وبطريقة أخرى يسلون

أنفسهم ويبهجون الرجل ذا السلطة. إجتماعات الشمل هذه حصلت إما في الصالون، كما في أول مرة، أو في المطعم؛ وهانز كاستورب كان له مكان معتاد بين الرجل العظيم ورفيقته الضعيفة. بل حتى ذهبوا معاً الى خارج المصح، تمشوا مع السيد فيرجه وفيسال، نافته وسيتيمبريني، هذين الرجلين المتناقضين، اللذين قلما إنقطعوا عن اللقاء بهما. هانز كاستورب عدَّ نفسه وافر الحظ في أن يقدمهما الى بيبركورن، وحتى، في النهاية، الى كلاوديا شوشا. لم يكن يقلق على الاطلاق في ما إذا كان هذان المعلمان ميالين الى هذا التعارف أم لا. مؤكد إنهما يحتاجان الى شجرة كي يشحذا فيها أنيابهما التعليمية، اعتمد على تعارفهما حتى مع رفقة غير سارة، كي يستمر في إستمتاعه.

ولم يكن مخطئاً في ظنه ان أعضاء هذه المجموعة المتنافرة في الأقل سوف يعتادون عدم إعتياد أحدهم الآخر. ثمة فتور، توتر، وحتى عداوة مكبوتة كافية بطبيعة الحال بينهم؛ انه يقيناً شيء لافت نوعاً أن شخصيةً غير مهمة نسبياً بوسعها أن تجمعهم معاً. كونه فعل ذلك لا بد أن هذا يرجع الى عبقرية داهية معينة فطرية فيه، والتي تجد كل شيء يأتي الى شبكته سمكةً، هو لم يجعل القوم بشتى الأهواء والشخصيات مرتبطين به حسب، بل فرض نفوذاً كافياً كي يجعل أحدهم يرتبط بالآخر.

ثانيةً، كم هي متشابكة العلاقات بين الأعضاء المختلفين لمجموعتنا هذه! دعنا نفحصهم قليلاً، كما فعل هانز كاستورب نفسه، بعين داهية، وودية مع ذلك، بينما هم ماضون في طرقهم معاً. كان هناك فيسال الحزين، الذي أفنته عاطفته المكفهرة نحو السيدة شوشا؛ الذي كان يتذلل أمام بيبركورن وهانز كاستورب، يتذلل لأحدهما بسبب الماضي، للآخر من أجل الحاضر المفروض بالقوة. وهناك كلاوديا شوشا نفسها، المريضة الفاتنة، خفيفة الخطو، مُلك بيبركورن ـ يقيناً بالاختيار والقناعة، مع ذلك هي إمرأة صعبة وحادة اللسان وهي ترى فارس كرنفالها على علاقة طيبة مع مولاها المستقل. ربما كان السخط من نوع السخط الذي لوّن إحساسها نحو السيد سيتيمبريني، الإنساني والخطيب، الذي لا تستطيع أن تتحمله، مسميةً إياه

متغطرساً، لا «إنسانياً». كثيراً ودت أن تسأل هذا المعلم الخاص لـ هانز كاستورب، عن معنى بعض الكلمات بلسانه المتوسطي، التي، مع انها بنحو أقل إزدراءً، كانت جاهلةً بها كما كان يجهل هو كلماتها: الكلمات التي قذفها وراء شابة ألمانية جميلة بكل ما في الكلمة من معنى؛ لائقة تماماً ومن عائلة طيبة، في ليلة الكرنفال تلك حين إستجمع شجاعته أخيراً كي يدنو منها. ـ كان هانز كاستورب نفسه متيماً بالعشق حتى أُذنيه، هذا شيء حقيقي تماماً، ليس بالمعنى السعيد المقبول، إنما كما يعشق المرء حين تكون الحالة بعيدةً كل البُعد عن العقل، ولا يمكن الإحتفال بها في أي أغنية لطيفة بسيطة صغيرة من أغاني الأرض المنبسطة التي نعرفها تمام المعرفة. كان متيماً بصورةٍ سيئةٍ، مستعبداً تماماً، تحمل الوخزات المألوفة كلها؛ مع ذلك كان الرجل الذي يحتفظ، حتى في عبوديته، بإحساسٍ معين بالتناسب، الذي أخبره أن حبه الشديد كان يستأهل شيئاً بالنسبة للشقراء ذات العينين المغوليتين؛ لم يكن أعمى تماماً في إذلاله كي يقيس قيمتها بوساطة موقف سيتيمبريني نحوها. كان الإيطالي غير ودي بقدر ما تسمح به أوامر الكياسة الإنسانية؛ بينما كانت هي مستاءةً بنحو جلي تماماً من سلوكه. أما الوضع الذي يتعلق بـ ليو نافته فنادراً ما كان أكثر إيجابية ـ أو، من وجهة نظر هانز كاستورب، نادراً ما كان أقل إيجابية ـ حقيقي، هنا ليس ثمة تناقض جوهري مثل ذلك الذي يضع كينونة السيد لودوفيكو ضد كينتونتها وكل نتائجها. كذلك، صعوبة اللعبة كانت أقل، وكانا يتنزهان أحياناً ويتحدثان على إنفراد، كلاوديا والرجل٧أرجاء الحجرتين، وغالباً تشارك في قول كلمات قلائل. أمضيا وقتاً كثيراً معاً حين فارقت الحمى ضئيل البدن الحاد كحافة السكين؛ ناقشا الكتب، ومسائل الفلسفة السياسية، التي كان للإثنين فيها وجهات نظر متطرفة. هانز كاستورب، في بساطته، كان يساهم في بعض الأحيان. مع ذلك السيدة شوشا لم يكن بوسعها إلا أن تعي تحفظاً متغطرساً معيناً في سلوك نافته. كان مصدره حذر مُحدَث النعمة، شعور بعدم الأمان في هذه الرفقة غير المألوفة.. إنما في الحقيقة إرهابه الإسباني كانت له شراكة قليلة مع تجوالها، ضربها الباب بعنف، إنسانيتها الإنسانية جداً. وهناك فضلاً عن

ذلك العداء الحاذق، المحسوس بصعوبة الذي شعر به المعلمان معاً نحو عنصر الأنثى المزعج هذا الذي حل بينهما وبين فرخهما، وجمعهم في عداوة بدائية لا توصف، في الأقل فعالة جداً كنزاعهما طويل الأمد مع أحدهما الآخر. إذا كان هانز كاستورب واعياً بهذه العواطف فإنها نادراً ما غابت عن الحدس الأنثوي لساحرته.

هل كان ثمة شيء من الكره نفسه في موقف الجدليين نحو بييتر بيبركورن؟ في الأقل، هانز كاستورب ظن انه ميز هذا، مع انه أغلب الظن مضى ليلتقي به، ونال سعادةً خبيثةً في مشاهدة الجلالة معقودة اللسان في تماس مع «مستمعيه» الإثنين، كما، بشأن فعالياته الخاصة بجرد البضائع، كما كان يدعوها بصورةٍ ساخرةٍ ـ مع انه يشعر بنحو جلي ان هذه الكلمات لم تكن سوى تعريف بنحو معاكس لما هو متوقع! مينهير، في العراء، لم يكن مؤثراً جداً كما هو في المؤسسة. كان يعتمر قبعةً ناعمةً من اللباد مسحوبةً الى الأسفل على حاجبيه، تغطي لمعان الشعر الأبيض وطيات الجبين الإستثنائية، مصغِرةً، إذا صح التعبير، قياس ملامحه، حتى الأنف الكبير الأحمر المسيطر. بدا خلال وقوفه أحسن مما هو خلال مشيه؛ ذلك انه كان يخطو خطوات صغيرة، ومع كل واحدةٍ منها ينقل الوزن الكامل لجسمه الى الساق التي قدّمها ـ كانت تلك المشية المريحة لرجلٍ عجوز، بيد انها لم تكن ملكيةً. كان يحني ظهره قليلاً أيضاً، أو بالأحرى، كان ينكمش؛ مع انه على الرغم من ذلك كان يشرف على السيد لودوفيكو، وكان أطول من نافته ضئيل البدن بطول رأس كامل. لكن ليس طوله وحده الذي جعل وجوده ثقيل الوطأة ـ أو، ثقيل الوطأة تماماً كما توقع هانز كاستورب! ـ للسياسيين الإثنين.

نعم، عانوا من المقارنة ـ كانت مقارنةً محسوسةً بدرجة كبيرة ليس فقط لعين الخبير اليقظة، لكن جائزة جداً لأحاسيس أولئك المعنيين بالأمر، العملاق معقود اللسان فضلاً عن الإثنين قليلي الأهمية وواضحي الكلام أكثر من اللازم. بيبركورن عامل الاثنين بإهتمام مميز، باحترام كان من الجائز أن يسميه هانز كاستورب احتراماً ساخراً لو لم يكن يعرف أن السخرية ليست

على المقياس المهيب. الملوك غير ساخرين ـ ولا حتى في معنى الأسلوب المباشر والكلاسيكي لفن الخطابة، من دون أن نقول شيئاً عن أي نوع آخر. كان سلوك الهولندي مع صديقيّ هانز كاستورب مقلِداً نوعاً أكثر من كونه ساخراً، كان قد هزأ منهما بنحو جميل، إما علانيةً أو بصورة مبطنةٍ باحترام مبالَغ به. «أوه، نعم، نعم»، يقول، وإصبعه تهدد بإتجاههما، ينحي رأسهُ وشفتيه الباسمتين. «هذا هو ـ هذه هي، سيداتي سادتي، أسترعي إنتباهكم ـ مخ، مخي، فهمتم! لا، لا. بنحوٍ واقعي. إستثنائي ـ يصوّر. . كبير ـ» بانتقام، نظرا الى أحدهما الآخر، مثّلا اليأس إيمائياً، إحتالا كي يحصلا على نظرةٍ عجلى من هانز كاستورب؛ لكنه رفض أن يُسحب.

سيتيمبريني على أية حال هاجم هانز كاستورب مباشرةً، واعترف إستجابةً لهم تعليمي. «يا إلهي، أي عجوز أبله هذا الذي تملكه هنا، أيها المهندس»، قال. «ما الذي تراه فيه؟ ما هو الخير الذي يمكن أن يقوم به لكَ؟ أنا متحير. يمكنني أن أفهم ـ مع انني نادراً ما أوافق ـ ان تحملك عشرته هو من أجل أن تتمتع بعشرة خليلته. غير انه واضح انك مولع به أكثر من ولعك بها، تعال الى إسعاف فهمي، أتوسل إليك.»

قهقه هانز كاستورب. «مهما كلف الأمر»، قال. «بكل ما في الكلمة من معنى. أي. جيد جداً. جيد جداً الواقع.» حاول أن يقلد إيماءات بيبركورن. «نعم، نعم»، استطرد، ضاحكاً، «انك تجده أبلهاً، سيد سيتيمبريني، وأنا أقر انه غير واضح، الأمر الذي أجده في عينيك حتى أسوأ من ذلك. أبله ـ طيب، هناك أنواع كثيرة جداً من البلاهة، والذكاء هو واحد من أسوأ الأنواع. ها أنذا أصنع أبيغراماً[٤١] ـ ملاحظة ظريفة! ما رأيك فيها؟»

«جيدة جداً. أنا أتطلع بلهفة الى مجموعتك من الأقوال المأثورة. أغلب الظن ما يزال هناك الوقت لأناشدك كي لا تنسى تعليقاً ما أطلقناه مرةً على الطبيعة المناوئة للمجتمع للعبارة الموهمة للتناقض.»

---

(٤١) الأبيغرام epigram: حكمة معبّرة عن فكرةٍ ما بطريقة ما أو موهمة للتناقض ـ المترجم.

«لن أنسى الواقع، سيد سيتيمبريني. مؤكد انني لن أنساه. كلا، ملاحظتي لا تملك طبيعة العبارة الموهمة للتناقض، اطمئنك. عنيتُ فقط أن أشير الى الصعوبة التي وجدتها في التمييز بين البلاهة والذكاء. من العسير جداً أن نرسم خطاً فاصلاً ـ أحدهما يدخل في الآخر ـ أعرف إنك تبغض كل ذلك الخليط الغامض؛ انك مؤيد تماماً للقيم، الحكم، حكم القيم؛ وأنا على ثقة بأنك محق. لكن هذا الأمر المتعلق بالبلاهة و ـ بشرفي، إنه لغز تام؛ وعلى الرغم من كل شيء، انه من المسموح به أن يفكر المرء في الألغاز، أليس كذلك، طالما ان المرء عاكف بشرف على الوصول الى أعماقها؟ لكنني أسألك. هل يمكنك أن تنكر انه يضعنا كلنا في جيبه؟ ربما هذا يصف الأمر بنحو فظ، ربما ـ لكن، بقدر ما أستطيع أن أراه، انك لا تستطيع أن تنكره. انه يضعنا جميعاً في جيبه؛ بصورةٍ أو بأخرى، له الحق أن يضحك علينا كلنا ـ لكن من أين يحصل على ذلك؟ من أين يأتي هذا؟ كيف يستطيع أن يفعل هذا؟ مؤكد هذا لا يرجع الى كونه ذكياً جداً. أقر انك لا تستطيع أن تتكلم عن ذكائه. إنه عاجز عن التعبير عن آرائه أو مشاعره ـ تعتمل في داخله احاسيس كثيرة، الإحساس هو علامته الفارقة، إذا سامحتني على لغتي هذه. لا، كما قلتُ، هو ليس أمراً نابعاً من الذكاء، ولا يستند الى الأساسات الفكرية على الاطلاق، كونه يستطيع أن يفعل ما يشاء معنا. لك الحق في أن تنكر هذا الأمر. ليست هذه هي المسألة. لكن الأمر لا يعزى حتى الى الأساس الجسدي. لا يُعزى الى الكتفين الضخمتين، أو قوة العضلة ذات الرأسين في أعلى كل ذراعٍ من ذراعيه؛ وليس لأنه قادر على أن يصرعنا إذا ما شاء ذلك. هو لا يعي قوّته؛ إذا ما إتخذ فكرةً شخصية، يمكنه بسهولة أن يتخلى عنها بكلمتين مهذبتين. ـ إذاً ليس الجسدي. ومع ذلك الجسدي له علاقة به؛ ليس بالمعنى العضلي ـ انه شيء مختلف تماماً، باطني؛ لأنه طالما أن لا علاقة للجسدي به، يصبح هو باطنياً، الجسدي تحوّل الى الروحي، وحدث الشيء المعاكس، ولا يمكنك أن تذكرهما منفصلين، ولا يمكنك أن تذكر الذكاء والبلاهة منفصلين أيضاً. إلا ان النتيجة هي ما نراه، التأثير الديناميكي ـ هو يضعنا في جيبه. بحوزتنا كلمة واحدة فقط تفسر هذا ـ

الشخصية. نحن نستخدمها بمعنى آخر، متناسق أكثر أيضاً، نكون فيه كلنا شخصيات ـ من الناحية الأخلاقية، الشرعية، ومن نواحٍ مختلفة كذلك. لكن هذا ليس المعنى الذي أستخدمها فيه الآن. أنا أتكلم عن غموض الشخصية، شيء ما فوق إما الذكاء أو البلاهة، وشيء ما ينبغي لنا كلنا أن نأخذه بالحسبان: جزئياً كي نحاول أن نفهمه؛ جزئياً فقط، حيثما لا يكون ذلك ممكناً، كي ننوّر بوساطته. انك مؤيد تماماً للقيم، لكن أليست الشخصية قيمة أيضاً؟ هكذا تبدو لي، أكثر من الذكاء أو البلاهة، انها تبدو واقعيةً ومطلقةً، كالحياة ـ باختصار، شيئاً ما جديراً بالاهتمام تماماً، ومدروساً كي يجعلنا نقلق بشأنه. هذا ما وددتُ أن أقوله جواباً على ما ذكرته عن البلاهة.»

في هذه الأيام، حين يفرِّج هانز كاستورب عن ذهنه، لم يكن يتردد أو يتلعثم في الكلام، يغدو متورطاً ويتشبث في الوسط. يقول رأيه حتى النهاية كرجل، يتم مدته، يجعل صوته ينخفض ويمضي في حال سبيله؛ مع انه ما يزال يحمّر، وفي أعماق قلبه لم يزل يخاف الصمت الذي كان يعرف انه سيحدث لاحقاً حين يمسك عن الكلام، كي يمنحه الوقت للإحساس بأنه مجروح المشاعر نحو ما ما كان قد عبّر عنه.

السيد سيتيمبريني سمح لكلامه أن يفرض سيطرته الكاملة قبل أن يقول: «انك تنكر كونك تصطاد العبارات الموهمة للتناقض؛ إنما في الوقت نفسه أنت تعرف جيداً انني أحبها كحبي الشديد للألغاز. في جعلك من الشخصية لغزاً، أنت تخاطر في عبادة الوثن. إنك تضمر التبجيل لقناع كاذب. إنك ترى في الغموض لغزاً، في واحدٍ من تلك الأشياء المزيفة التي بها أحياناً يحب عفريت خبيث ذو شكل جسدي أن يهزأ بنا. هل حدث أن ترددت على الأوساط المسرحية؟ أنت تعرف تلك الوجوه التي تتحد فيها ملامح يوليوس قيصر، بيتهوفن، غوته ـ المالك السعيد لها لا ينبغي له سوى أن يفتح فمه كي يثبت نفسه كونه المغفل الجدير بالشفقة على أرض الله؟»

«جيد جداً، فلتة الطبيعة»، قال هانز كاستورب. «ولكن ليس فلتة وحيدة للطبيعة، ببساطة ليس خدعة. فما دام هؤلاء القوم ممثلين، لا بد انهم يملكون الموهبة، والموهبة ذاتها وراء الذكاء والبلاهة، إنها على الرغم من

كل شيء قيمة. مينهير بيبركورن له موهبة، قل ما شئت؛ وهكذا انه هو مَنْ يستطيع ان يدسنا جميعاً في جيبه. ضعْ السيد نافته في إحدى زوايا الغرفة، ودعه يعطي محاضرةً في غريغوري الكبير و[مدينة الله] ـ ستكون جد جديرةٍ بالإصغاء ـ وضعْ مينهير بيبركورن في الزاوية الأخرى، بفمه غير الاعتيادي والتجاعيد على جبينه، ولا تدعه يقول كلمةً عدا [مهما كلف الأمر ـ ممتاز ـ ماشي، سيداتي سادتي!] ستجد ان الجميع يحتشدون حول بيبركورن، والسيد نافته سيكون جالساً وحده هناك مع ذكائه و[مدينة الله] خاصته، مع انه ربما يطلق حكمةً ثاقبةً جداً بحيث انها تنفذ خلال النخاع والخيار، كما يقول بيرنز ـ»

«انك تخزي نفسك بانحنائك للشخص الناجح»، ناشده السيد سيتيمبريني. «Mundus vult decipi. أنا لا أطالب بأن يحتشد الناس حول السيد نافته. انه مليء جداً بالنفاق بالنسبة لذوقي. لكنني أميل الى أن أَصُفَّ نفسي الى جانبه، في المشهد المتخيل الذي استحضرته في ذهنك مع نكهةٍ لذيذة جداً. هل تحتقر المنطق، الدقة، الحصافة؟ هل تزدريها، لصالح بعض الإيحاء ـ الهراء والشعوذة العاطفية؟ إذا فعلتَ ذلك، عندئذ يكون الشيطان قد وضعك في... خاصته ـ»

«لكنه يستطيع عادة أن يتكلم بنحوٍ متماسك كما تشاء»، قال هانز كاستورب، «عندما يكون مولعاً في الموضوع. ذات يوم روى لي عن الأدوية الديناميكية وأشجار السم الآسيوية؛ كان ذلك أمراً ممتعاً جداً، كان تقريباً غريباً ـ الأشياء الممتعة تكون دوماً غريبة بعض الشيء ـ إنما الولع لم يكن كبيراً جداً في ما قاله إذا ما أخذناه في صلته مع شخصيته، التي جعلت كلامه ممتعاً وغريباً في الوقت نفسه.»

«آ، نعم، ان ضعفك حيال آسيا شيء معروف جداً بالنسبة لي. حقيقي، لا أستطيع أن أشارك في أعاجيب كهذه»، قال الإيطالي، بمرارة شديدة بحيث ان هانز كاستورب سارع الى طمأنته كم كان كان يقدّر حواره ودرسه من زاوية مختلفة تماماً، وانه لم يحصل له من قبل ان عقد مقارنات يمكن أن تكون غير عادلة لكلا الطرفين. السيد سيتيمبريني لم يكترث، ازدرى التهذيب، واستطرد

قائلاً: «على أية حال، أيها المهندس، يلزمك ان تسمح لي بان أبدي إعجابي بموضوعيتك الجليلة. . انها أقرب الى أن تكون غريبة، سوف تعترف بذلك. هكذا تقف الأمور: هذا المغفل سلب منك بياتريسك، ومع ذلك أنت ـ انه شيء لم يُسمع عنه.»

«هذه اختلافات مزاجية، سيد سيتيمبريني. لنا وجهات نظر مختلفة في ما يتعلق بما هو فروسي وسريع الانفعال. أنت، كونك جنوبياً، تنصح باستعمال السم والخنجر، في الأقل انك تفهم المسألة في جانبها الاجتماعي والعاطفي، وتريد مني أن أتصرف مثل ديك المصارعة. سيكون هذا بطبيعة الحال ذكورياً وشهماً، بالمعنى الاجتماعي. أما بالنسبة لي فالأمر مختلف. أنا لستُ ذكورياً على الإطلاق بالمعنى الذي أرى في الرجل الآخر مجرد ذكر منافس ولا شيء غير ذلك. أغلب الظن لستُ ذكورياً البتة ـ يقيناً لستُ كذلك بالمعنى الذي أميل الى تسميته بـ «الاجتماعي»، لا أعرف السبب على وجه الدقة. ما أفعله هو إنني أسأل قلبي الحزين ما إذا كان لي أي دافع للتذمر ضد الرجل. هل أهانني هو حقاً؟ لكن الإهانة، أي إهانة، لا بد أن تكون ذات قصد معين، وإلا لن تكون إهانة. أما إذا كان قد «فعل شيئاً» لي، في تلك المسألة يلزمني أن «أكون مخصصاً لها» ـ وليس لي الحق أن أفعل هذا، يقيناً ليس في ما يتعلق بـ بيبركورن ذلك انه شخصية إستثنائية تماماً، وهذا بالذات شيء ما بالنسبة للنساء، وبعدئذ هو نادراً ما يكون متحضراً، مثلي، انه عسكري من نوعٍ ما، يشبه الى حدٍ ما ابن خالتي المسكين، في كونه يملك [نقطة شرف]، بقعة موجعة، إذا جاز التعبير، وهي الاحساس، الحياة ـ أعرف انني أطلق كلاماً لا معنى له، لكنني نوعاً ما سأستمر في التحدث بنحو غير مترابط، أعبّر جزئياً عن شيء أجد انه من العسير التعبير عنه، مما لو انني أواصل نقل التفاهات الكاملة. لا بد انها ميزة عسكرية في شخصيتي، على الرغم من كل شيء، إذا جاز لي أن أقول ذلك ـ»

«جاز لكَ أن تقول ذلك»، أذعن سيتيمبريني. «ميزة في الأقل جديرة بالمدح. الشجاعة في التمييز والتعبير تلك هي الصفة التي تجعل الأدب ـ تلك هي الإنسانية.»

هكذا افترقا وهما على علاقات طيبة، السيد سيتيمبريني منح الحوار هذه الانعطافة السمحة. كان ذلك هو المسار الأكثر حكمةً؛ لم يكن موقعه قوياً جداً بحيث يتحمل أن يدفع المناقشة الى درجاتها القصوى. إن نقاشاً يتعلق بالغيرة كان نوعاً ما أرضاً زلقةً بالنسبة له؛ في نقطة واحدة كان بوسعه أن يكون مرغماً على الاعتراف بأن موقعه ـ بصفته معلماً ـ نادراً ما كان ذكورياً بالمعنى الإجتماعي وبمعنى مصارعة الديكة، وإلا لماذا يتعين على بيبركورن المتفوق أن يعكر هدوءه، كما فعلا بالطريقة ذاتها نافته والسيدة شوشا؟ أخيراً، لم يكن بمستطاع الإيطالي أن يأمل بمناقشة طالبه بدافع الولع في شخصيةٍ كان تفوقه الفطري وتفوق شريكه في الجمناستك المخي عليها مرغمين، طوعاً أو كرهاً، على الانحناء لها.

كانا على أرضٍ أكثر أمناً حين كان بوسعهما أن يُبقيا المناقشة في العوالم الفكرية، وأن يحتفظا بانتباه جمهورهما بوساطة واحدة من مناظراتهما الأنيقة ومشبوبة العاطفة، الأكاديمية، مع ذلك تصرف هو كما لو ان المسألة التي ناقشها كانت أكثر المسائل سخونةً في الزمن الحاضر، أو في الأزمان كلها. كانا بطبيعة الحال تقريباً الدعامة الوحيدة لهذه المناقشات؛ وبينما طالت هي، قاما الى حدٍ ما، بابطال تأثير الـ«ضخامة» المموّنة من قبل عضو معين من أعضاء مجموعتهم، الذي كان بمستطاعه فقط أن يرافقهم من خلال حركة رشيقة مستمرة للتجاعيد، الإيماءات ونتف الهزء. لكن حتى هذا كان كافياً كي يلقي ظلاً، وكي يسلب من فعاليتهما الذكية بعض بريقها، بخصيها، إن صح القول، يجعل الاتجاه المعاكس ممكن الإدراك من قبلهم كلهم، مع ان بيبركورن نفسه بقي لا واعياً، أو واعياً بدرجةٍ يصعب عليهم تخمينها. ان أياً من الطرفين غير قادر على الحصول على أفضلية ما، كلاهما كان مرتبكاً، ودمغة اللاجدوى وسمت نقاشهما. يمكننا أن نعبّر عنها هكذا: ان نزاع الحياة والموت خاصتهما المتعلق بسلامة العقل حدث أن واصل نشاطه دوماً بإشارة غامضة سرية الى «الضخامة» السائرة بجنبهم، وحدث أن انحرف عن مداره بفعل المغناطيسية التي مارستها «الضخامة». لا يستطيع المرء أن يميز بطريقة أخرى هذه الأحجية، ذلك ان المجادلين الإثنين كانا

قد جُنا، وهي حالة مثيرة للجدل العام. فقط يستطيع المرء أن يضيف انه لو لم يكن هناك بيتر بيبركورن، فإن الشعور الحزبي كان يمكن أن يستمر بنحو أعلى في كلا الطرفين، كما حدث حين دافع ليو نافته عن الطبيعة الثورية الرئيسة للكنيسة ضد التوكيد الجازم لـ سيتيمبريني بأن القوة التاريخية الكبيرة يجب النظر إليها حصراً كونها الواقية من القوى الشريرة للرجعية؛ في حين كل القوى التي عملت من أجل الحياة والمستقبل، وبدت غير مفزوعة عند التغيير والثورة، طالب هو بمبادئ التنوير، العلم والتقدم، التي حققت صعودها في عصرٍ من الميول المتعارضة تماماً، القرن الشهير الذي شهد إعادة ولادة الثقافة الكلاسيكية. قاد الى البيت قناعاته بلعبٍ رشيق بالكلمة والإيماءة. في حين ان نافته، بحدةٍ فاترة، شرع يكشف ـ وكشف أيضاً، بوضوحٍ مدمِر ـ ان الكنيسة كونها تجسيداً للمثل الأعلى الديني والصوفي، كانت بعيدةً الواقع عن التظاهر بكونها بطلة النظام القائم ودعامته، بمعنى آخر، بطلة الثقافة الدنيوية والقانون المدني ودعامتهما ـ بالأحرى كانت هي من البداية قد نقشت على شعارها الجذري برنامج اقتلاعها جذراً وغصناً؛ وأن الأشياء كلها على الاطلاق المحبوبة من قبل والعزيزة على الطبقة البورجوازية، المحافِظة، الجبانة، والعقيمة ـ الدولة، الحياة العائلية، الفن الدنيوي والعلم ـ كانت بصورةٍ واعيةٍ أو لا واعيةٍ عدائية للفكرة الدينية، للكنيسة، التي كان ميلها الداخلي وهدفها الدائم إنهاء الأنظمة الدنيوية القائمة كلها، وإعادة إنشاء المجتمع على وفق طراز المثل الأعلى، [مدينة الله] الشيوعية.

بعدها، وقف سيتيمبريني خطيباً في المناظرة ـ وكان يعرف جيداً كيف يفيد نفسه من ذلك. انه شيء جدير بالرثاء، قال ـ هذه الفوضى من التعاليم الثورية بنحو مثير ذات عصيان مسلح عام لكل قوى البشر. ان حب الكنيسة للتجديد كان قد أظهر نفسه على مدى قرون عدة بأن طرحت (أي الكنيسة) على التصويت فكرة العيش، إينما وجدتها؛ خنقتها، خمدتها في دخانٍ عند الخازوق؛ اليوم تعلن هي من خلال مبعوثيها انها تتمتع بالثورة، ان هدفها هو أن تستأصل من الجذور: الحرية، الثقافة، والديمقراطية، التي تنوي أن

تستبدلها ببربرية وديكتاتورية الرعاع. نعم، حقاً، خليط مخيف من التناغم المتناقض، والتناقض المتناغم. . .

خصمه، نافته رد رداً حاسماً، لم يظهر نقصاً في الصفات نفسها. بحسب تفسيره، كان هو ديمقراطياً، مع ذلك كلماته لم تبدُ ديمقراطية ولا مساواتية[٤٢]؛ بالأحرى أظهرت ارستقراطية مستحقة التوبيخ ومتغطرسة، كما حدث حين ألمح الى الدكتاتورية المفوَّضة للشغيلة كونها حكم الرعاع! على أية حال، أينما كانت الكنيسة مطروحة على التصويت، يقيناً كان يظهر نفسه كونه ديمقراطياً؛ ذلك أن الكنيسة بنحوٍ لا يمكن إنكاره، القوة الأكثر ارستقراطية في تاريخ الجنس البشري؛ ارستقراطية بالمعنى الأخير والأرفع، أي أرستقراطية الروح. ذلك ان الروح الزهدية ـ إذا سمح له الحشو في الكلام ـ الروح التي تنكر وتدمر العالم، هي الأرستقراطية نفسها، ثقافة نقية للمبدأ الأرستقراطي. لن يكون بوسعها أن تغدو شعبيةً؛ والكنيسة، على وفق ذلك، كانت على مدى الأزمان كلها غير شعبية. ان بحثاً صغيراً في التاريخ الثقافي للعصر الوسيط سوف يقنع السيد سيتيمبريني بالمقاومة العنيدة التي عارض بها الناس ـ بالمعنى الأوسع للكلمة ـ أشياء الكنيسة. كانت هناك في سبيل المثال تماثيل الرهبان، إكتشاف الخيال الجامح الشعبي، الذي، تماماً في روح لوثر، وضع الخمر، النساء، والأغنية في تناقض مع الفكرة الزهدية. كل غرائز البطولة الدنيوية، كل الروح الحربية، كل شعر الغزل، وضعت نفسها في نزاع صريح تقريباً مع الفكرة الدينية والأساقفة. فذلك كله هو «العالم»، كل أولئك هم «الناس العاديون» إذا ما قورن وقورنوا مع ارستقراطية الروح ممثلةً بالكنيسة.

شكره السيد سيتيمبريني على إثارته ذاكرته. ان شخصية الراهب (إلسان) في «حديقة الورود» وجده الواقع منعشاً مقارنةً مع ارستقراطية القبر الممجدة كثيراً. هو، المتكلم، لم يكن صديقاً للإصلاح الديني الألماني؛ لكنهم سيجدونه جاهزاً أبداً للدفاع عن أي فردانية ديمقراطية مهما كانت في تعاليمه

---

(٤٢) مساواتية egalitarian: أي انها تدعو للمساواة بين البشر ـ المترجم.

(أي تعاليم الإصلاح)، ضد أي وكل رغبة ملحة اكليركية وإقطاعية من أجل السيطرة على الفرد.

«أها»، صاح نافته. إذاً السيد سيتيمبريني يدين الكنيسة بسبب نقص الديمقراطية، كونها غائبة بالمعنى المتعلق بقيمة الشخصية البشرية؟ لكن ماذا بشأن التحرر البشري من التحيز الذي أظهره بوضوح القانون الكنسي؟ فبينما جعل القانون الروماني إمتلاك الحقوق الشرعية معتمداً على المواطنة، وجعلها القانون الألماني معتمدة على الحرية الفردية والعضوية في القبيلة؛ فإن القانون الكنسي، الأرثوذوكسي، هو الوحيد الذي يفصل الحقوق الشرعية عن الإعتبارات القومية أو الإجتماعية، ويؤكد ان العبيد، الأقنان، أسرى الحرب قادرون جميعاً على تحقيق رغباتهم ووراثة الملكية.

أشار سيتيمبريني بنحو لاذع انه ربما يذكر، كونه شيئاً غير وثيق الصلة تماماً في هذا الصدد، ما يسمى بـ«حصة الإرث الكنسية»، التي استقطعت مبلغاً ضخماً من كل إرث بوصية. وتطرق الى الغوغائية الكهنوتية، التي بدأت تروي ظمأها للسلطة بقلقٍ مبالغ به نحو ضحية الظلم، عندما لا يشعر المتمتع بالسلطة العليا بأي قلق نحو هذه الضحية على الإطلاق. الكنيسة، شدد على القول، تهتم بكمية الأرواح التي تفوز بها أكثر من اهتمامها بنوعها ـ الأمر الذي ينعكس بنحو مؤكد في مطالباتها بالتهذيب الروحي.

إذاً الكنيسة ينقصها التهذيب؟ إنتباه السيد سيتيمبريني كان مدعواً الى الارستقراطية العنيدة التي كانت تبطن فكرةً مفادها ان العار يمكن أن يورث: مرور الإثم الى ـ إذا ما نظرنا إليه من الناحية الديمقراطية ـ الأسلال (جمع سليل) الأبرياء، في سبيل المثال، إنجاب الأولاد غير الشرعيين والتدنيس المستمر مدى الحياة للأطفال الطبيعيين. إلا أن الإيطالي أمره بالتزام الصمت: في المقام الأول، لأن مشاعره الإنسانية ارتفعت في ذراعين ضد كلمات نافته، وفي الثاني، لأنه كان يملك كفايته من هذه المماحكات، ورأى في مكائد علم الدفاع عن العقائد المسيحية الخاص بخصمه فقط نفس الاعجاب القديم سيء السمعة والشرير بالعدمية، التي كانت تروم أن تُدعى

[الروح القدس]، ووجدها شرعيةً جداً، مقدسةً الى أبعد حد الضغينة الموجودة بنحوٍ لا يمكن إنكاره للمبدأ الزهدي.

إنما هنا توسل نافته أن يُغفر له لأنه ضحك ضحكاً صريحاً. عدمية الكنيسة! عدمية أكثر الأنظمة الحكومية في تاريخ العالم واقعيةً! السيد سيتيمبريني، بعدها، لم يُمسْ بنَفَس من قبل تلك البشرية الساخرة التي قامت بتنازل مستمر للعالم والجسد، حجبت بذكاء المعرفة وجعلت الروح تحكم من دون أن تفرض إكراهاً شديداً على الطبيعة؟ لم يكن قد سمع البتة عن المفهوم الكنسي للإنغماس الذاتي، الذي دونه صُنف واحدٌ من الأسرار المقدسة للكنيسة ـ أي، الزواج، ليس هو نفسه خير مطلق، كالأسرار المقدسة الأُخر، بل فقط لكونه وقايةً من الخطيئة، تم تشجيعه كي يضع حدوداً للرغبة الحسية؛ الذي ربما أيده المبدأ الزهدي، المثل الأعلى للعفة التامة، من دون، في الوقت نفسه، أن يعارض الخشونة غير السياسية مع الجسد؟

السيد سيتيمبريني، بالطبع، لم يستطع أن يحجم عن الاحتجاج ضد هذا المفهوم الشائن لـ«السياسة»؛ ضد إيماءة كياسة لاذعة وشريرة، قام بها [الروح القدس] ـ أو مَنْ أسمى نفسه هكذا ـ ضد الإثم المتخيل لنقيضه، الذي تجرأ بأن يتعامل في معنى «سياسي»، لكنه في الحقيقة وقف من دون حاجة الى الإنغماس الذاتي المهلك الذي قدمه؛ ضد الثنائية البغيضة لمفهوم سحَرَ الكون ـ أي، الحياة، فضلاً عن النقيض القاتم للحياة، [الروح القدس]، فإذا كانت الحياة شريرة، [الروح القدس] كونها عدماً خالصاً، لا بد أن يكون كذلك أيضاً. وكسر رمحاً في دفاعه عن براءة الإشباع الحسي ـ هانز كاستورب، لدى سماعه هذا، لم يستطع سوى أن يفكر في الحجرة الإنسانية تحت السقف، التي إنتصبَ فيها المكتب، الكراسي ذوات المقاعد الأسلية، وقنينة الماء. أكد نافته أن الإشباع الحسي ليس بريئاً ـ الطبيعة، قال، لها ضمير سيء في ما يتعلق بالروحي. السياسة الكنسية للإنغماس الذاتي التي مارستها [الروح القدس] أسماها هو بـ [الحب] ـ هذا كي يفند عدمية المبدأ

الزهدي. شعر هانز كاستورب كم بدت غريبةً جداً الواقع الكلمة في فم نافته الحاد، الهزيل جداً، ضئيل البدن.

هكذا استمر النزاع ـ نحن نعرف قبل الآن كيف استمر النزاع، وكذلك عرف هانز كاستورب. كنا أصغينا، كما فعل هو، برهةً صغيرةً، كي نفهم كيف تصير إليه حال قتال متجول كهذا، بأية طريقةٍ تعاظم هو، بوجود شخصية ما. بدا كما لو انه نبض سري ينتقد إنتقاداً قاسياً وجود بيبركورن الذي أخمد الومضة القافزة للذكاء، واستدعى ذلك الإحساس الكئيب بسلب الحيوية الذي يستحوذ علينا حين يخفق إرتباط كهربائي في أن يربط. نعم، هكذا كان الأمر. ما من شرارة قفزت برشاقة من قطب الى قطب، ما من ومضة برق، ما من تيار. العقل الذي توجّب عليه في رأيه هو أن يبطل الوجود أُبطل من قبله ـ كما أدرك، منذهلاً ومحباً للإستطلاع، هانز كاستورب.

الثورة، المحافظة على القديم ـ تطلع هو الى بيبركورن، رآه يتمشى ببطء، ليس ملكياً بنحوٍ خاص على قدميه، بمشيته المسترخية، قبعته مسحوبة فوق حاجبيه؛ رأى شفتيه الغليظتين بخطهما المكسور، سمعه يقول، هازاً رأسه باتجاه المتجادلين: «نعم، نعم ـ مخ، مخي بدرجة كبيرة، فاهم. جداً؛ أي ـ انه يكشف» ـ ولاحظْ، بلمح البصر، انقطع التيار! ميتاً. كمسمار باب. جربا مسلكاً آخر، أحدثا سحراً أقوى، أتيا على «المسألة الارستقراطية»، على الشعبية والمقصورية. ما من ومضة. على الرغم من ذلك، ما قالاه بدا شخصياً. هانز كاستورب شاهد رفيق سفر كلاوديا بينما كان راقداً تحت غطائه الساتان الأحمر، قميصه الصوف عديم الياقة، [صانع] نصف قديم جداً، نصف تمثال نصفي ملكي. وعصب الجدال ارتعش ومات. حاولا أن ينبهاه بصدمة كهربائية كي يعود الى الحياة. العدم، الاعجاب بالعدمية من ناحية، وفي الناحية الأخرى الإصرار المؤاتي للحياة، وميل الفؤاد الى الغرام. لكن أين هي الومضة، أين التيار، مباشرةً نظر أحدهما الى مينهير، كما فعل أحدهما، كما لو انه مسحور؟ هما ببساطة لم يكونا هناك ـ الأمر الذي بقي، إذا ما إستخدما تعبير هانز كاستورب، ليس أكثر أو أقل من لغز.

انتبه هو، الى مجموعة أقواله المأثورة، فأما يصف أحدها لغزاً بأبسط الكلمات، أو يتركه من غير وصف. أما أن نصف هذا، فبوسع المرء فقط أن يقول صراحةً ان بيتر بيبركورن، بقناعه الملكي، وفمه المُر، غير الاعتيادي، كان كلاهما، تارةً هذه الصفة، وطوراً تلك؛ كلتاهما لاحتا مناسبتين له وتبطل إحداهما الأخرى حين ينظر إليه المرء ـ كلاهما هذه وتلك، الأولى والأخرى. أجل، هذا الرجل العجوز الأبله، هذا الصفر الآمر! هو لم يشلْ التناقض بأهداف مضادة وبتشوش، كـ نافته، لم يكن مثله مريباً، أو كان كذلك بطريقةٍ مختلفةٍ تماماً، بنحوٍ إيجابي، هذا اللغز المربك، الذي بسذاجة شديدة استخف ليس فقط بالذكاء والبلاهة، بل استخف بطريقةٍ أخرى وبالقدر نفسه بوجهات النظر المتناقضة التي استشهد بها سيتيمبريني ونافته، كي يثيرا الاهتمام، الى غاياتهما التعليمية. الشخصية، ظهر، لم تكن ميالةً الى البيداغوجيا ـ مع ذلك يا لها من لُقية، يا لها من جائزة، للشباب المتسائل في أسفاره! كان شيئاً فاتناً أن تراقب الملكية الملغِزة حين تحول النقاش الى الزواج والخطيئة، الانغماسات الذاتية، ذنب أو براءة الملذات الحسية! رأسه يغوص في كتفه أو صدره، الشفتان الفاجعتان تنفرجان حين إسترخى الفم الى منحدرات محزنة، المنخران يتوسعان كما في الألم، الطيات على الجبين ارتفعت الى أن ثبتت العينان في نظرةٍ واسعةٍ، معذبةٍ. ـ كانت صورةً للمرارة والمحنة. ويلاحظ، حين ينظر أحدهم، طلعة هذا الشهيد أزهرت بالبهجة والمرح. كان الرأس مائلاً بنحو متشرد الى أحد الجانبين، الشفتان اللتان ما تزالان مفتوحتين مكللتين ببسماتٍ موحيةٍ بصورةٍ شريرةٍ، الغمازة الصغيرة المترفة لاحت في أحد الخدين ـ كان من جديد الكاهن الراقص، وهز رأسه كما في السابق، باتجاه ذلك التفكير الكثير جداً، بينما كانوا يسمعونه وهو يقول: «آ، نعم، نعم، مطلقاً! لكن ألا توجد هناك ـ هل هي غير موجودة ـ الأسرار المقدسة للسعادة ـ فهمتم ـ»

مع ذلك، كما أسلفنا، فإن صديقَيْ ومعلمَيْ هانز كاستورب اللذين ضعفت قيمتهما كانا دوماً يُخدمان جيداً حين يكون بمستطاعهما أن يتخاصما. كانا في المحيط الملائم لهما، أما الشخصية فلا. مع ان المرء ربما تكون له

وجهتا نظر عن الدور الذي لعبه حين كان الخصام الحالة السائدة. ولكن من الناحية الأخرى، حين تبدّل المشهد من عالم الفكري الى الدنيوي والعملي الكاملين، وتعامل مع مسائل، وفي نطاق حقول، حيث تثبت القوى الباطنية المسيطرة استحقاقها - عندئذ لن توجد هناك وجهتا نظر ممكنتان. ذلك انه حينذاك كان الآخرون مهمَلين، ثم انهم كانوا قد أُلقوا في الظل، ثم انهم سحبوا قرونهم الى الداخل، وبرز بيبركورن، ممسكاً بالصولجان، منظماً، مقرراً، «ماشياً». هل ثمة أي عجب، عندئذ، كونه تصرف هكذا كي يحدث حالة الأشياء تلك، كونه حاول أن يلغي النزاع على الألفاظ؟ عانى هو، بينما كان مستمراً في الحكم، أو إذا إستمر في الحكم زمناً طويلاً. ولكن ليس في زهوه. هانز كاستورب شعر انه كان قد طُمئن بخصوص هذا الأمر. ذلك ان الغرور لن يكون على المقياس الكبير، والعظمة ليست مختالةً. لا، ان حاجة بيبركورن الى الواقع لها دوافع مختلفة. انبثقت هي، إذا ما تحدثنا بصراحةٍ شديدةٍ، من الخوف: من ضعف متميز للعقول على المقياس الكبير، من [نقطة شرف] باقية في الذهن بصورةٍ حساسةٍ وعميقةٍ كافح هانز كاستورب كي يفسرها للسيد سيتيمبريني، واصفاً إياها كما لو كانت صفةً عسكريةً بمعنىً من المعاني.

«سيداتي سادتي»، قال الهولندي، ورفع يده الشبيهة بيد ربان السفينة، ذات الأظافر التي تضاهي أطراف الرماح، بتضرّع وتحذير. «سيداتي سادتي. جيد جداً. جداً. الزهد. الإنغماسات الذاتية. شهوة الجسد مهما كلف الأمر. مهمٌ جداً. قابل جداً للمناقشة. لكن هل يسعني - أود أن أخشى أن نرتكب خطأً خطيراً. هل أهملنا بنحو لا مسؤول - واحداً من أرفع -» سحب نفساً عميقاً. «سيداتي سادتي. هذا الجو - هذا الجو الدافئ بنحو خاص بحيث يذيب الثلوج، ذو النسيم المضعِف، المليء بذكريات ووعود الربيع - ينبغي لنا ألا نستنشقه كي نزفره في - حقاً. - يلزمني أن أناشدكم. ينبغي لنا ألا. هي إهانةً. ينبغي أن نزفره فقط بهيئة مديح - ذي... كامل ومطلق - بدرجة كافية، سيداتي سادتي. قاطعتُ نفسي - إجلالاً لـ -» بتوقفٍ تام، الواقع، إنحنى الى الوراء، مظللاً حاجبيه بقبعته. تابعوا نظرة عينيه. «هل

يسعني»، قال، «هل يسعني أن ألفت إنتباهكم الى الأعلى ـ عالياً في السماء، الى تلك النقطة الداكنة، التي تدور بإزاء السماء، عميقة الزرقة، لونها يتدرج الى السواد ـ ذلك هو طير جارح. انه، إذا لم أكن مخطئاً ـ أنظروا، سيداتي سادتي، أنظري، طفلتي. انه عقاب. بصورة مؤكدة جداً. أسترعي إنتباهكِ ـ أنظري، هو ليس حواماً، ولا نسراً، انه عقاب. إذا كنت بعيدة النظر مثلي أنا في عمري المتقدم ـ أجل، طفلتي، المتقدم ـ شعري أبيض. بوسعك أن تري بوضوح كما أفعل، القوادم غير الحادة ـ انه عقاب ذهبي. انه يدور مباشرة فوق الرأس، انه يرفرف، ما من خفقة جناح واحدة ـ عند ارتفاع هائل في السماء، وبعينيه القويتين بعيدتي النظر تحت البنية العظمية البارزة لحاجبيه يحدق نحو الأرض. العقاب، سيداتي سادتي، طائر جوبيتر، ملك نوعه، ليث الجو الأعلى. له جرموقان[٤٣] مكسوان بالريش، ومنقار من حديد، مع كلاّب مفاجئ في النهاية؛ المخالب تتمتع بقوة هائلة، براثنها مقوسة الى الداخل، الأمامية منها متداخلة من قبل البرثن الخلفي الطويل في قبضة حديدية. أنظروا!» وحاول أن يجعل أصابعه الطويلة في وضع مخلب العقاب. «يا شيخ، علامَ تدور وتتجسس علينا هناك في الأعالي؟» رفع رأسه الى الأعلى من جديد. «اضرب! إضرب الى الأسفل، بمنقارك الحديد داخل الرأس، والعينين، مزّق بطن المخلوق الذي منحك إياه الله ـ رائع! رائع! بكل معنى الكلمة! ادفن براثنك في أحشائه، دع منقارك يقطر بدمه ـ»

كان قد أثار نفسه الى درجة. كل الولع بتناقضات سيتيمبريني ونافته تلاشى تماماً. إلا ان رؤية العقاب بقيت ـ مع انهم كفوا عن التكلم عنه، وكرسوا أنفسهم للبرنامج الذي كانوا ينجزونه تحت قيادة مينهير. توقفوا عند حانةٍ ليأكلوا ويشربوا ـ تماماً خارج المواعيد، لكن بشهيةٍ شحذتها الذكريات الصامتة للعقاب. تناولوا هناك أطايب الأطعمة وشربوا الخمور، كما حدث كثيراً عندما كان مينهير في دورف أو بلاتز، أو في حاناتٍ عند غلاريس وكلوسترز، حيث كانوا مسافرين في القطار الصغير. تحت نفوذه، تذوقوا

(٤٣) الجرموق gaiter: حذاء نصفي (مطاط الجانبين) لا يتجاوز أعلى الكاحل ـ المترجم.

الهبات «الكلاسيكية» للحياة: القهوة والقشدة مع الخبز الطازج، الجبن الندي والزبد الألبي العَطِر، الطعم السماوي لثمار الكستناء الحارة المحمصة. إحتسوا (الفلتلنير) الأحمر، كي يرضوا أفئدتهم. بيبركورن صاحب وجبة الطعام المرتجلة مع سلسلةٍ من الهتافات، أو حث أنطون كارلوفيتش فيرجه على الحديث، ذلك المعذب طيب القلب، الذي مقت بشدة كل الأفكار السامية، إنما بوسعه أن يلقي خطبةً بنحو مقبول جداً في موضوع صناعة الأحذية المطاطية في روسيا. وصف كيف تتم معاملة الكتلة المطاط مع الكبريت والمواد المتبقية، والمنتوج الصقيل، المفروغ منه يُعرَّض الى حرارةٍ تزيد على مائتي درجة كي «يُفلكن»(٤٤) تحدث عن الدائرة القطبية، ذلك ان رحلات عمله أخذته أكثر من مرة الى هناك، عن شمس منتصف الليل، والشتاء السرمدي في الرأس(٤٥) الشمالي - هذا كله قاله عبر حلقه الضامر، من تحت شاربيه الكثين. هناك في الأعالي، قال، البواخر، تبدو شديدة الصغر، جنبها المنحدرات الصخرية الشاهقة، فوق السطح الرمادي كالفولاذ للبحر. وانتشر شعاع أصفر فوق الأصقاع الكبيرة للسماء - الأضواء الشمالية. الشيء كله بدا شبحياً بالنسبة له، أنطون كارلوفتش: المنظر ونفسه فضلاً عن ذلك.

هكذا السيد فيرجه، الغريب تماماً عن الجماعة، العضو الوحيد الذي وقف منفصلاً عن علاقاتها المعقدة. لكننا الآن نتكلم عن هذه، سيكون شيئاً حسناً أن نروي حوارين، حوارين لا يقدران بثمن بين إثنين، كانا لبطلنا غير البطولي، الأول مع كلاوديا شوشا، الثاني مع الرفيق الحالي لأسفارها؛ أحدهما في الرواق، في مساءٍ كان فيه العنصر المزعج راقداً في الأعلى مصاباً بالحمى؛ الآخر في عصر يومٍ ما بجانب سرير مينهير.

كان الرواق نصف معتم. والفعاليات الإجتماعية موجزةً وكسولةً،

---

(٤٤) يفلكن vulcanize: يقسي المطاط. هذا الفعل أُشتق من كلمة فلكان vulcan إله النار وصنع الأدوات المعدنية عند الرومان - المترجم.

(٤٥) الرأس cape: أرض داخلة في البحر - المترجم.

انسحب النزلاء مبكراً الى علاجهم المسائي أو بطريقةٍ أخرى اتخذوا طريقهم العنيد الى وسط المدينة، كي يرقصوا ويلعبوا القمار. كان ثمة مصباح وحيد مشتعل في سقف الرواق ـ وفي الصالونات الملاصقة كان يسود إظلام. غير ان هانز كاستورب كان يعرف ان السيدة شوشا، التي كانت قد تناولت عشاءها من دون حاميها، لم تذهب الى الأعلى بعد الوجبة، بل كانت ما تزال تتوانى في غرفة الكتابة، لذا فعل هو الشيء ذاته. جلس عند الموقد القرميدي، في الجزء الخلفي من الرواق، الذي كان مرتفعاً بدرجة واحدة عن بقية الأجزاء، ومنفصلاً عنها بوساطة أقواس مستندة على عمودين؛ في كرسي هزاز كذلك الذي إتكأت فيه ماروسيا ذات مرة، في المساء الذي تكلم فيه يواكيم إليها أول وآخر مرة. كان هو، بصورة مسموح بها في هذه الساعة يدخن سيجارة.

أقبلتْ، سمع خطواتها المقتربة وحفيف ثوبها النسائي؛ تهوّي برسالةٍ كانت تحملها من إحدى زواياها، وقائلةً بصوتها، صوت بريبيسلاف: «البواب ذهب. هلاّ أعطيتني طابعاً بريدياً.»

كانت ترتدي فستاناً حريرياً داكناً خفيفاً ذلك المساء، ذا فصال مدور عند الرقبة، ذا كمين شفافين ينتهيان بطرفين مزررين عند الرسغين. كان ذاك الفصال الذي أُغرم به. كانت تلبس اللآلىء، التي ومضت بنحو ضعيف في نصف الضوء. رفع بصره محدقاً في عينيها القرغيزيتين.

«طابع؟» كرر، «لا يوجد بحوزتي طابع واحد.»

«لا يوجد؟ بئس ما فعلتَ. ألستَ مستعداً لأن تعمل معروفاً لامرأة؟» تجهمت وهزت كتفيها إستخفافاً. «أنا مخيبة الأمل. يلزمك أن تكون دقيقاً وجديراً بالثقة. تصوّرتُ انك تملك قسماً خاصاً في محفظة جيبك، صفحات صغيرة جميلة نظيفة من الفئات كلها؟»

«لماذا يلزمني؟ أنا لا أكتب رسالةً. لمَنْ أكتب رسالة؟ نادراً ما أفعل ذلك، وحتى بطاقة بريدية، وتلك تكون ذات طابع أصلاً. ليس لي أحد أكتب إليه. ليس لي إتصال مع الأرض المنبسطة، علاقتي بها تلاشت. عندنا أغنية شعبية تقول: [أنا ضائع بالنسبة للعالم] ـ هكذا هي الحال معي.»

«حسن، إذاً، أيها الشخص الضائع، في الأقل أعطني لفافة تبغ»، قالت، وجلست قبالته على مصطبة ذات تنجيد كتان، لفت ساقاً على ساق. مدت يدها. «أنت، في الأقل، مزوَّد بهذه.» تناولت سيجارة، بإهمال، من العلبة الفضية التي قدمها لها، وأفادت نفسها من أداة الجيب الصغيرة خاصته، التي أضاء لهبها وجهها. جملة «ناولني سيجارة» الدالة على الكسل، أخذها من دون شكر، كعلامة على الأنثى المفسَدة، المترفة؛ لكن مع ذلك دلاّ أكثر على رفقةٍ إنسانيةٍ و«ممتلكات» مشتركة، وأخذ وعطاء غير ملفوظ كانا معاً مثيرين و لطيفين لإحساسه المحروم من الحب.

أردف قائلاً: «أجل، أنا أملكها دوماً. أنا أتزود بها دائماً، ينبغي للمرء أن يتزود بها. كيف يتسنى لي أن أحيا من دونها؟ لي، كما يقولون، ولع بها. كي أقول الحقيقة، على أية حال، أنا نادراً ما أكون رجلاً مشبوب العاطفة، مع ان لي عواطفي، وهي من النوع البارد.»

«أنا مرتاحة بصورة إستثنائية»، قالتْ، نافثةً، بينما كانت تتكلم، الدخان الذي استنشقته، «لسماعي انك لست رجلاً مشبوب العاطفة. لكن كيف يلزمك أن تكون هكذا؟ لا بد انك تدهورت. مشبوب العاطفة ـ ذلك يعني أن تحيا من أجل العيش. إنما يدرك الإنسان إنكم جميعاً تحيون من أجل التجربة. الحب هو نكران الذات. بيد ان كل ما تريدونه هو إغناء الذات. ها هو ذا. انك لا تفهم كم هي أنانية مقززة للنفس، وانها يوماً ما سوف تجعل منك عدواً للجنس البشري؟»

«حسن، حسن، حسن! عدواً للجنس البشري! كلاوديا، كيف يمكنك أن تطلقي تصريحاً عمومياً كهذا؟ هل لكِ شيء محدد وشخصي في بالك، عندما قلتِ اننا لا نحيا من أجل الحياة ذاتها، بل من أجل إغناء أنفسنا؟ النساء عادةً لا يعبّرن عن خواطرهن في المسائل الأخلاقية هكذا، بصورةٍ تجريديةٍ جداً. أوه، الفضيلة، وتلك! انها موضوع يصلح لـ نافته وسيتيمبريني كي يتخاصما عليه. انها تنتمي الى عالم [الفوضى الكبيرة]. سواء يعيش المرء من أجل نفسه، أو من أجل الحياة ـ المرء لا يعرف نفسه، لا أحد يستطيع أن يعرف ذلك على وجه الدقة وبصورة مؤكدة. أعني، الحدود مرنة. هناك

إخلاص أناني، وهناك أنانية مخلصة. أعتقد، إجمالاً، ان ذلك يشبه ما هو عليه في الحب. بطبيعة الحال، انه أغلب الظن شيء لا أخلاقي مني انني لا أستطيع أن أُعنى جيداً جداً بما قلتِه لي عن الفضيلة كوني سعيداً جداً اننا نجلس هنا كما فعلنا ذلك مرةً، ولم يحدث ذلك مرةً أخرى منذ تلك الآونة، حتى منذ عودتك. وربما يسعني القول انه ليس ثمة شيء محبب الى القلب كتلك الطريقة التي لاءم فيها طرفا الكمين معصميك، والحرير الناعم الهفهاف الذي... ذراعك ـ ذراعك التي أعرفها جيداً جداً ـ»

«أنا ذاهبة.»

«أوه، أرجوكِ، أرجوكِ لا تفعلي، أعدكِ أن أكن تقديراً مناسباً للظروف والـ ـ شخصيات.»

«كما يتوقع المرء من رجلٍ خالٍ من العاطفة!»

«أجل، أترين ـ أنتِ تهزئين بي عندما أنا ـ وعندئذ، عندما أنا ـ قلتِ إنكِ سوف تتركينني ـ»

«أرجوك تكلم بنحو مترابط أكثر قليلاً، إن أردتَ مني أن أفهمك.»

«إذاً لن أستفيد أبداً من كل ممارستك في تخمين معاني الجمل غير المترابطة؟ هل هذا منصف، أسأل ـ أم إنني أستفيد إذا لم أعرف إنها ليست مسألة إنصاف على الإطلاق ـ»

«لا، الإنصاف عاطفة باردة. مقارنةً مع الغيرة ـ حين يكون الناس الباردون غيورين فإنهم يجعلون من أنفسهم مضحكين.»

«هو ذا ـ مضحكين. إذاً امنحيني هدوئي. أكرر، كيف أستطيع أن أتصرف من دونه؟ مثلاً، كيف كان بوسعي بخلاف ذلك أن أتحمل الانتظار مدةً طويلة جداً؟»

«عفواً؟»

«انها مدة طويلة بالنسبة لك.»

«لنرَ، يا صديقي. لن أقول المزيد عن شكل الخطاب الذي تصر عليه، في حماقتك. سوف تتعب منه ـ وبعدئذ، أنا لستُ مفرِطة الاحتشام، لستُ ربة بيت مهانة من الطبقة الوسطى ـ»

«لا، لأنكِ عليلة. مرضك يمنحك الحرية. انه يجعلك ـ انتظري، ينبغي لي أن أفتش عن الكلمة ـ انه يجعلك ـ مرهفة!»

«ستتكلم عن ذلك في وقتٍ آخر. عنيتُ شيئاً آخر. ثمة شيء ما أحتاج الى سماعه. يلزمك ألا تتظاهر بأن لي شيئاً ما له صلة بانتظاركَ ـ إذا انتظرتَ فعلاً ـ أي انني شجعتك عليه، أو حتى سمحتُ به. يلزمك أن تعترف بصراحة بأن العكس هو الواقع ـ»

«يقيناً، كلاوديا، بكل سرور. إنكِ لم تطلبي مني أن أنتظر، بل فعلتُ ذلك من تلقاء نفسي. بوسعي أن أفقه تماماً تأكيدكِ على المسألة ـ»

«حتى حين تدلي بالاعترافات، نجد فيها دوماً شيئاً من الوقاحة. أنت وقح بطبيعتك، ليس معي فقط، بل عموماً ـ الله وحده يعرف السبب. إعجابك، تواضعك الشديد، وقاحة. لا تحسب انني لا أستطيع أن أفهمها. يجب عليّ ألا أبادلك الحديث على الإطلاق، ويقيناً يجدر بي ألا أتكلم معك حين تجرؤ على الكلام عن انتظاري. انه شيء يتعذر تبريره انك ما تزال هنا. كان يجدر بكَ أن تكون من زمن طويل جداً في عملك، في حوض السفن، أو مهما كان.»

«كلامكِ هذا، كلاوديا، ليس مرهفاً ـ انه حتى يبدو تقليدياً. إنكِ تحدثتِ به تواً. لا يمكنك أن تقصدي ذلك بالمعنى السيتيمبريني ـ وماذا بعد هذا، إذاً؟ لا يمكنني أن آخذ الأمر على محمل الجد. لن أرحل من دون سماح، مثل ابن خالتي المسكين، الذي، كما تنبأتِ، مات لأنه حاول أن يخدم هناك في الأسفل، والذي عرف هو نفسه، على ما أعتقد، انه سوف يموت، لكنه آثر الموت على إداء الخدمة هنا في الأعالي زمناً أطول. حسن، انه لذلك السبب كان جندياً. أما أنا فلا. أنا مدني، لو قيض لي أن أفعل ما فعله لفررتُ من القوات المسلحة، وذهبتُ وخدمتُ قضية التقدم هناك في الأسفل في الأرض المنبسطة، على الرغم مما يقوله بيرنز. سيكون ذلك أعظم خيانة وأكبر جحود للمرض، وصفته المرهفة، وحبي لكِ، الذي أحمل له ندوباً قديمةً وجديدة معاً ـ وحبي لذراعيك اللتين أعرفهما أيما معرفة، لا بل أعترف انني في حلم، في حلم مرهف بدرجة كبيرة بحيث أدركتُ إنني

عرفتهما، وانكِ لستِ مسؤولةً عن حلمي، وانك غير مرتبطة به، ولا حريتك التي تنتهك ـ»

قهقهت، السيجارة في فمها، بحيث أن العينين المغوليتين صارتا شقين ضيقين؛ اتكأت على الألواح الخشبية، يداها استراحتا على المصطبة في كلا الجانبين، لافةً ساقاً على ساق، ومؤرجحةً قدمها المكسوة بحذاء من الجلد اللماع.

«يا له من كرم! صعلوك صغير! هكذا، هكذا حقاً ـ بالضبط هكذا تصورتُ دوماً رجل العبقرية!»

«لا، كلاوديا. لستُ رجل العبقرية. لأني صغير فلن أكون شخصيةً بارزةً. يا إلهي، لا. إنما المصادفة ـ سميها المصادفة ـ هي التي أتت بي الى هنا في الأعالي الى هذه الذرى الروحية ـ أنتِ، بالطبع، لا تعرفين إنه ثمة شيء مثل البيداغوجيا الخيميائية ـ السحرية، التحوّل، من الأدنى الى الأعلى، الدرجات الصاعدة، إذا فهمتِ ما أعنيه. لكن بالطبع ان قضيةً ما قادرةً على أن تأخذ تلك الدرجات الصاعدة بوساطة الضغط الخارجي لا بد أن تملك شيئاً صغيراً بداخلها كي تبدأ به. وما كنت أملكه في داخلي، كما أعرف بجلاء تام، كان من وقت طويل جداً، حتى من عهد الصبا، هو انني كنتُ ذا علاقة حميمة مع المرض والموت، وكنت على الرغم من الفطرة السليمة كلها استعرت قلم رصاص منكِ، كما فعلت مرةً ثانيةً في ليلة كرنفالية. إلا ان الحب المفرِط مرهف؛ ذلك أن الموت هو المبدأ المرهف[٤٦]، المسألة الثنائية، حجر الفلسفة، والمبدأ البيداغوجي أيضاً، ذلك أن حب الموت يفضي الى حب الحياة وحب البشرية. هكذا، بينما كنتُ مستلقياً في مقصورتي، تكشف لي ذلك، وأنا مفتون لأني قادر على أن أحكي لكِ كل ما يتعلق به. ثمة طريقان للحياة: أحدهما الطريق الإعتيادي، المباشر، النزيه. الآخر هو الطريق السيء، انه يمر عبر الموت ـ ذاك هو الطريق المرهف.»

---

(٤٦) في هذه الصفحة والصفحات التي سبقتها استخدم المؤلف كلمة spirituel الفرنسية وآثرنا ترجمتها بـ مرهف ـ المترجم.

«أنت فيلسوف غريب»، قالت، «لن أؤكد قائلةً إنني فهمت أفكارك الألمانية المشوشة كلها؛ لكن حديثك يبدو إنسانياً وجيداً، وانك طيب، شاب طيب. انك في الحقيقة تصرفتَ كفيلسوف، ينبغي للمرء أن يقول لك هذا ـ»

«كفيلسوف أكثر مما ينبغي بالنسبة لذوقك، ايه، كلاوديا؟»

«لا مزيد من الوقاحات. انها تغدو مضجرة. تلك المتعلقة بانتظاركَ لي كانت سخيفة ـ لا مبرر لها. لكنكَ لستَ غاضباً، لأنك انتظرتَ بلا جدوى؟»

«انه شيء عسير، كلاوديا، حتى على رجل بارد العواطف. عسير عليَّ وعسير منكِ أن تؤوبي معه هكذا ـ لأنكِ بطبيعة الحال كنت تعرفين من خلال بيرنز كنت هنا وانني انتظرتك. لكنني أخبرتك انني أعدّه حلماً، ما كان بيننا، وأعترف انك حرة. وان انتظاري لكِ على أية حال لم يكن عقيماً تماماً، فها أنتِ ذي هنا، وها نحن نجلس معاً كما فعلنا ذلك ذات مرة، يمكنني أن أسمع الحلاوة النافذة لصوتك، المعروف لأذني من زمن طويل جداً؛ وتحت هذا الحرير الهفهاف ذراعاك، ذراعاك اللتان أعرفهما ـ مع إنه هناك في الأعلى يرقد حاميك، محموماً، بيبركورن العظيم، الذي تلبسين لآلئه ـ»

«والذي معه، من أجل منفعتكَ وغناكَ، عقدتَ تلكَ الصداقة القوية.»

«لا تضنين بها عليّ، كلاوديا، سيتيمبريني وبخني عليها أيضاً. غير ان هذا تحيز تقليدي. الرجل نعمة ـ إكراماً للباري، أليس هو شخصية؟ هو كبير السن قبل الآن ـ نعم؛ لكن حتى مع ذلك، يمكنني أن أفهم جيداً كيف انك بصفتك امرأة كان بوسعك أن تغرمي به بجنون. ألا تحبينه حباً جنونياً؟»

«كل التقدير لفلسفتك، يا صغيري الألماني هانشين[٤٧]»، قالت، وضربت شعره برفق. «لكنني لا أجده شيئاً من طبيعتي أن أتحدث إليكَ عن حبي له. لن يكون ذلك إنسا ـ نياً.»[٤٨]

«آ، لِمَ لا، كلاوديا؟ في إعتقادي ان حب البشرية يبدأ من النقطة التي

---

(٤٧) هانشين Hanschen: اسم مشتق (ربما) من (هانز) دال على التحبب ـ المترجم.

(٤٨) إنساني human، وقد تعني أيضاً إنسان ـ المترجم.

يظن الناس الحزينون انه غادرها. بوسعنا أن نتكلم عنه بهدوء تام. أتحبينه حباً عميقاً؟»

إنحنتْ كي تنفض طرف سيجارتها في الموقد، وبعدها جلست مطوية الذراعين.

«هو يحبني»، قالت، «وحبه يجعلني فخورةً وشاكرةً، ومخلصةً له. يمكنك أن تفهم هذا. أم انكَ بخلاف ذلك لستَ أهلاً للصداقة التي يضمرها لك. شعوره أرغمني على أن أطاوعه وأخدمه. ماذا يمكنني أن أفعل غير هذا؟ بوسعكَ أن تحكم. هل يجوز للإنسان، أي إنسان، أن يتجاهل محبوبه؟»

«غير ممكن»، أكد هانز كاستورب. «لا، بالطبع، انه شيء غير وارد. كيف تقدر امرأة ما أن تقنع نفسها بأن تتجاهل إحساسه، وهو يعاني كرباً بسبب ذلك الإحساس ـ وأن تهجره، إذا جاز التعبير، في الجثمانية خاصته ـ»

«لم تعد غبياً»، قالت، عيناها المائلتان ثبتتا في حلم يقظة. «أنت تفهم الأشياء. [يعاني كرباً بسبب الإحساس] ـ»

«لا يحتاج المرء الى فهم كبير كي يعرف انه توجب عليكِ أن تجاريه ـ مع ذلك، أو بالأحرى لأنه، كانت هناك حتماً كثير من الأمور المعكرة في حبه.»

«هو ذا بالضبط. معكرة. ثمة حذر كبير في التعامل معه، كما تعرف، صعوبات كثيرة.» تناولت يده وداعبت بشرود ذهن أصابعه ـ لكنها بغتةً عقدت حاجبيها، رفعت نظرها إليه وقالت: «لكن ـ قل لي: أليس هذا شيئاً عادياً نوعاً، إذا تحدثنا عنه، بهذا الشكل؟»

«كلا، كلاوديا. يقيناً لا. انه بعيد عن ذلك. مؤكد انه ليس أكثر من إنسان. أنت تحبين هذه الكلمة human، وأنا أحب أن أسمعكِ تقولينها، بتلفظك الغريب. ابن خالتي يواكيم لا يهواها ـ إستناداً الى دوافع عسكرية. كان يعتقد انها تعني فسقاً عاماً وترهلاً؛ وبذلك المغزى، كخليط غير محدد من الإنغماس الذاتي، أعترف أن لي شكوكي بشأنها. إنما بمعنى الحرية، الطيبة، المرح، عندئذ هي عظيمة، يمكننا أن نستخدمها بحرية في حديثنا عن

بيبركورن والقلق والألم اللذين سببهما لكِ. بطبيعة الحال، انهما ناتجان عن بقعته الموجعة ـ فزعه من أن ترفض أحاسيسه، التي تجعله يحب حباً جماً ما يسميه هو الهبات الكلاسيكية للحياة، نعمة باخوس، السوائل المنعشة، بوسعنا أن نتحدث عن ذلك بكل مهابة، فهو حتى في ذلك الضعف قياسه ملكي وإننا لن نذله ولن نذل أنفسنا إذا ما تحدثنا في هذا الشأن.»

«هي ليست مسألة نحن»، قالت. طوت ذراعيها ثانيةً. «لن تكون الواحدة امرأة إن لم تكن راغبة في تحمل الاذلال من أجل رجل مثله، على المقياس الكبير، حين تكون الواحدة موضع شعوره ومعاناته من هذا الشعور.»

«بكل ما في الكلمة من معنى، كلاوديا. أحسنتِ قولاً. ذلك انه حينذاك حتى الاذلال يكون على المقياس الكبير، ومن علوّه تستطيع المرأة أن تخفض بصرها ناظرةً الى المخلوقات المسكينة المشيدة على مستويات صغيرة، وأن تتحدث إليها بازدراء كالإزدراء الذي لاح في صوتكِ حين قلتِ عن الطوابع البريدية: [يلزمك أن تكون دقيقاً وجديراً بالثقة أكثر!]»

«هل جرحتكَ؟ لا ينبغي لك أن تعدها إساءةً. دعنا نرمِ تلك الأحاسيس جانباً. لنرسلها الى أريحا. هل توافق؟ أنا أيضاً جُرحتُ في بعض الأحيان ـ سأعترف بذلك، بما اننا جالسان معاً هكذا. كنتُ غاضبةً مع برودك، وكونك تقيم صداقةً قويةً معه، على الرغم من توقك الأناني الشديد للتجربة. أجل كنتُ مسرورةً أيضاً، وشاكرةً للإحترام الذي تكنه له. كنتَ مخلصاً؛ لو كنتَ وقحاً قليلاً أيضاً، على أية حال يمكنني أن أسمح بذلك.»

«هذا لطف كبير منك.»

تطلعت إليه. «أنتَ رجل عنيد، على ما يبدو. ويقيناً لا أستطيع أن أقول بالضبط كم لديك من المرح ـ لكنك ماكر، شاب ماكر. طيب، جيد جداً، يستطيع المرء أن يتحمل هذا المكر، وتربطهما صداقة. هل سنكون صديقين، هل سنكوّن عصبةً ـ ليس ضده إنما معه؟ هل تعطيني إمضاءك عليها؟ أشعر بالخوف في كثير من الأحيان ـ غالباً أشعر بالخوف من العُزلة معه ـ العُزلة الداخلية، أنت تعرف ـ هو رجل مرعب؛ أحياناً أخشى من

حدوث شيء ما له ـ هذا يجعلني أرتعش. ـ سأكون سعيدةً حين أشعر ان إنساناً ما الى جانبي. أخيراً ـ إذا أردتَ أن تعرف ـ لهذا السبب عدت معه ـ إليكَ.»

جلسا ركبةً الى ركبة، هو بكرسيه الهزاز مائل نحوها، هي على مصطبتها. كلماتها الأخيرة نُطقت قريبةً الى وجهه، وضغطت على يده بينما كانت تتكلم. قال: «إليّ؟ أوه، كلاوديا! هذا جميل بنحوٍ تعجز عن وصفه الكلمات! عدتِ إليّ معه؟ ومع ذلك أنت تقولين ان انتظاري سخيف وخاطئ وغير مثمر؟ سيكون شيئاً سخيفاً تماماً مني أن أرفض، من دون أن أعرف كم أقيّم صداقتكِ، الصداقة لي من أجله ـ»

طبعت قبلةً على فمه. كانت تلك قبلةً روسيةً، ذلك النوع من القُبل التي يتم تبادلها في تلك البلاد الواسعة، العاطفية، في الأعياد الدينية البهيجة، كعهد للحب. لكن حين يتبادلها شاب «ماكر» بنحو سيء السمعة وسيدة ما تزال في ريعان الشباب، وذات سحر متملق، نتذكر لا إرادياً طريقة الدكتور كروكوفسكي الصريحة إن لم نقل غير البغيضة تماماً في معالجة موضوع الحب، بذلك المعنى المتقلب نسبياً، بحيث أن ما من أحد كان متيقناً تماماً ما إذا كان دنيوياً أم سماوياً، روحياً أم جسدياً ذلك الحب الذي كان في باله. هل نحن هكذا نتعامل معه، أم هل كان الاثنان كلاوديا شوشا وهانز كاستورب قد تعاملا معه هكذا، حين تبادلا قبلتهما الروسية؟ لكن ماذا سيقول القارئ إذا ما رفضنا ببساطة أن ندخل الى الموضوع؟ إذا حاولنا أن نحدد فرقاً واضحاً بين الشهواني والعاطفي ـ سيكون هذا، لا ريب، خاصاً بالتحليل النفسي. لكننا نشعر ان ذلك سيكون أيضاً سخيفاً ـ إذا ما إستعرنا كلمة هانز كاستورب المفيدة ـ وبالتأكيد ليس [عبقرياً] البتة. علامَ يكون الفرق [واضحاً]؟ الموضوع ملتبس جداً، الحدود متقلبة جداً، متذبذبة جداً. سنكون جريئين إذا ما ضحكنا على الفكرة. أليس هو شيء أُحسن صنعه ان لغتنا لا تحوي سوى كلمة واحدة لصنوف الحب كلها، من النوع المقدس جداً الى النوع الشهواني الجسدي جداً؟ الالتباس كله في تلك المسألة حُلَّ: الحب لا يمكن أن يكون إلا جسدياً، في أقصى مدى من قدسيته؛ ولا

يستطيع أن يكون غير ورع، في أقصى حدٍ من شهوانيته. هو دوماً نفسه، في علو «العبقرية» اللاذعة، كما في عمق الرغبة الجنسية؛ هو عاطفة عضوية، حاسة اللمس ـ العناق لذلك الذي حُكم عليه بالتعفن. في الحب العنيف جداً كما في الموقر جداً، لا بد أن يكون هناك Caritas[٤٩]. معنى الكلمة يختلف؟ باسم الله، إذاً، دعه يختلف. كونه هكذا يجعله حياً، يجعله إنسانياً؛ سيكون افتقاراً الى «العمق» يؤسف له إذا ما قلقنا بشأن التفكير في هذه الحقيقة.

إذاً بينما تلتقي هذه الشفاه الفتية في قبلتها الروسية، دعنا نعتّم خشبتنا الصغيرة ونغيّر المشهد. ذلك انه الآن، بدلاً من إظلام الرواق بحوزتنا الضوء الكئيب نوعاً لنهارٍ ربيعي في سبيله الى الزوال في موسم ذوبان الثلوج؛ وبطلنا جالس في مكانه المألوف الى جانب سرير مينهير بيبركورن، في حديث ودي ومتسم بالاحترام مع ذلك الرجل العظيم. السيدة شوشا، بعد ساعة الشاي، التي ظهرت عندها وحيدةً، كشأنها عند وجبات الطعام الثلاث السابقة، كانت قد ذهبت للتسوق في البلاتز، وهانز كاستورب أعلن عن نفسه من خلال زيارته المعتادة للهولندي. أولاً كي يُبدي اهتمامه به ويجعله يزجي الوقت؛ لكن أيضاً كي ينوِّر بحوافز شخصية الرجل العظيم. باختصار، تعبيراً عن البواعث «المتغيرة» تغير الحياة ذاتها. بيبركورن طرح جانباً الـ«تلغراف»، وقذف فوقها العوينات ذات الإطار القرني. مدَّ لزائره يداً عريضةً، يد ربان السفينة، وشفتاه الغليظتان المتشققتان، اللتان علاهما تعبير محزون، تحركتا بنحو غامض. الخمر الأحمر والقهوة كانا كالعادة الى جانبه؛ أشياء القهوة انتصبت على كرسي، تلوث بلطخة بنية ناجمة عن استخدام حديث العهد ـ كان مينهير قد تناول مشروبه المألوف، مشروب العصر، حاراً وقوياً، مع السكر والقشدة، وكان في حالة تعرّق. وجهه مع هدابه من الشعر الأبيض كان محمراً، وحبيبات من العرق لاحت على جبينه وشفته العليا.

---

(٤٩) Caritas (باللاتينية): حب الله والجار ـ المترجم.

«أنا أنزُّ عرقاً نوعاً ما»، قال. «أدخل، أيها الشاب، أدخل. على العكس. أجلس. إنها علامة ضعف حين يتناول المرء شراباً حاراً وينضح عرقاً بعده. هلاً ـ صحيح تماماً ـ منديلاً ـ شكراً.»

تبدد الاحمرار حالاً وفسح المجال للشحوب المصفر الذي كان لون طلعة مينهير بعد نوبة سيئة. كانت الحمى شديدة هذا الصباح، وفي المراحل الثلاث كلها، الباردة، الحارة، الندية؛ بدت عينا بيبركورن الصغيرتان مرهقتين تحت الجبين المخطط، الشبيه بجبين قناع. قال: «انه ـ مهما كلف الأمر، أيها الشاب. أود أن أعبّر عن ـ الكلمة هي ـ بنحو واقعي. قادر الشيء حق قدره ـ لطف كبير منك أن تزور رجلاً عجوزاً عليلاً ـ»

«لا أبداً، مينهير بيبركورن، أنا الذي أشكرك، على السماح لي بالجلوس هنا قليلاً؛ أنال نصيباً أكبر مما تناله أنتَ ـ أؤكد لك ان دوافعي ليست مُحبة للغير[٥٠]. لكن أي نوع من الصفات هذا الذي أطلقته على نفسك ـ أنتَ الرجل العجوز العليل؟ لم يحدث أبداً أن أطلق عليكَ شخص ما هذه التسمية. انها تعطي صورةً خاطئةً كلياً.»

«جيد جداً»، أجاب مينهير. أغمض عينيه على مدى ثانية أو نحو ذلك، مُسنداً رأسه الملكي على الوسائد، الذقن مرفوع، الأصابع بأظافرها الطويلة مطويةٌ على صدره الملكي، الذي كانت عضلاته تتراءى تحت القميص (التريكو).

«أنت مصيب، أيها الشاب، أو، بالأحرى، عنيتَه بشكل صحيح. أنا متأكد. كان الأمر مُرضياً أمس ـ عصر أمس، في تلك البقعة حسنة الضيافة ـ اسمها نسيته الآن ـ حيث تناولنا السجق الممتاز والبيض المخفوق وذلك النبيذ المحلي السليم ـ»

«كان رائعاً»، أكد هانز كاستورب. «يقيناً شبعنا تماماً ـ رئيس طهاة بيرغهوف ما كان ليُسر لو انه رآنا نقذفه في ـ كلنا قاطبةً؛ كان سيشعر

---

(٥٠) مُحبة للغير altruitic: يقصد المؤلف هنا ان هانز كاستورب لا يأتي بدافع حبه للسيدة شوشا ـ المترجم.

بالاهانة. كان ذاك سجقاً أصيلاً، حقيقياً؛ السيد سيتيمبريني أكله والدموع في عينيه. انه رجل وطني، يلزمك أن تعرف هذا، وطني ديمقراطي. كرس رمح المواطن خاصته على مذبح البشرية، بحيث ان السجق ربما يُفرض ضريبةً عند تخم البرينر.»

«هذا لا يهم»، أوضح بيبركورن. «انه رجل شهم جداً وكيّس ودمث جداً في الحوار ـ رجل نبيل أنيق، مع انه بشكل واضح غير قادر على أن يبدل ملابسه باستمرار.»

«لا أبداً»، قال هانز كاستورب، «لا أبداً! أنا أعرفه جيداً، كنتُ صديقاً له زمناً طويلاً؛ كان لطيفاً معي بدرجة كافية بحيث كان قادراً على مصادرتي، لأنه وجد انني [طفل الحياة رقيق الصحة]. هذا التعبير استخدمناه بيننا، معناه غير جلي من دون السياق. بذل هو جهوداً كبيرة كي يؤثر بي من أجل منفعتي. لكن لا، شتاءً أم صيفاً، لم أره يرتدي شيئاً غير ذلك السروال ذا المربعات وتلك السترة البالية مزدوجة الصدر. انه يلبس الأشياء القديمة بوقار كبير، ثمة شيء أنيق فيه، أنا أؤيدك في ذلك. الأسلوب الذي يتخذه إنتصارٌ على الفقر ـ أحب أن أرى أناقته أكثر من رؤيتي لأناقة نافته ضئيل البدن، التي تبدو دوماً مشكوكاً فيها ـ عملاً من الأعمال السرية، إذا جاز القول، وهو ينال المال من أجلها بأسلوب مشبوه، كما فهمتُ.»

«رجل نبيل شهم ودمث»، كرر بيبركورن متجاوزاً ملاحظات هانز كاستورب عن نافته ضئيل البدن. «لكنه أيضاً ـ سامحني على تحفظي ـ ليس متحرراً من الرأي المسبق. المدام، رفيقتي، ليس لها فكرة كبيرة عنه ـ ربما رأيتَ ذلك. هي تشعر بتعاطف قليل ـ لا ريب لأنها تدرك ان الرأي المسبق نفسه موجه إليها. ولا كلمة، أيها الشاب. أنا بعيد عن ـ التعليق على السيد سيتيمبريني ومشاعرك الودية نحوه ـ لا أكثر! ما كنتُ لأفكر أن أقول هذا في أي قصد ـ فشلَ هو في أي نقطة بكياسة فروسية. صديقي العزيز ـ لا عيب فيه، جداً. لكن ثمة ـ خط مرسوم، . . معين ـ إنسحاب ـ جعل ـ مدام شوشا ممكن الفهم ـ»

«الشعور ضده. شيء طبيعي تماماً. مبرر كلياً. اعذرني، مينهير

بيبركورن، لأخذي الكلمات من فمكَ. غامرتُ بأن أفعل هذا باحتراس بحيث لا تسيء فهمي. حين يفكر المرء كيف تُغوى النساء (أنتَ تبتسم، لسماعكَ شخص في شبابي وقلة خبرتي يدلي بملاحظات عامة في هذا الموضوع) ـ كيف يعتمد شعور المرأة نحو رجل ما على شعوره نحوها ـ هذا ليس مدهشاً. النساء، إذا سمحتَ لي أن أعبّر عن نفسي، لسن كائنات للفعل بل لرد الفعل؛ انهن لا يبادرن، انهن غير نشيطات بمعنى انهن خاملات. هل لي، حتى مع خطر شعوري بالارهاق، أن أحاول المتابعة أكثر؟ المرأة، بقدر ما إستطعتُ ملاحظته، تعد نفسها، في العلاقة الغرامية، هدفاً. انها تجعلها تأتي؛ هي لا تختار اختياراً حر الإرادة، هي فقط تختار على الأساس الذي اختاره الرجل، وحتى حينذاك، حتى حينذاك، يلزمني أن أكرر، اختيارها شك، هو منحاز استناداً الى حقيقة كونها أُختيرتْ ـ شريطة، بالطبع، ان الرجل ليس نموذجاً هزيلاً جداً وحتى هذا ـ يا ستار، ما هذا الهراء المحض الذي أتكلمه! لكن حين يكون المرء يافعاً، كل شيء يبدو جديداً ومدهشاً. تسأل امرأةً ما: [أتحبينه] فتقول لك: [هو يحبني حباً جماً!] وتدير مقلتيها الى الأعلى، أو بطريقة أخرى الى الأسفل. تخيل جواباً كهذا من واحدٍ منا ـ إذا سمحتَ لي أن نضع أنفسنا في الصنف نفسه. أغلب الظن ثمة رجال سيجيبون هذا الجواب، لكنهم مخلوقات غير جريئة ـ نساؤهم يلبسن السراويل، إذا سامحتني على هذا التعبير. أود أن أعرف أيَّ ضربٍ من تقييم الذات في قاع الجواب الأنثوي. هل تعتقد المرأة انها تضمر للرجل إخلاصاً لا حد له حصراً لأنه منح إمتياز إختياره لمخلوق متواضع جداً؟ أم إنها ترى في حب الرجل علامةً ناجحةً على تفوقها الشخصي؟ كثيراً ما طرحتُ هذه الأسئلة على نفسي، عندما كنتُ أفكر بهدوء في خلوتي.»

«ألغاز عتيقة الطراز ـ تقليدية تلك التي تطرقتَ إليها، أيها الشاب، إستعملت تعابيرك الصغيرة المرتجلة للحالات المقدسة لوجودنا»، أجاب بيبركورن. «الرجل ثملٌ بشهوته الجنسية، المرأة تحتاج وتتوقع أن تكون ثملةً بها. من هنا يأتي واجبنا المقدس في الشعور، من هنا يأتي العار في عدم الشعور، في العجز عن تحفيز المرأة نحو الشهوة الجنسية. هل تشرب كأساً

من النبيذ الأحمر معي؟ سأشرب، لأنني ظمآن. نضحتُ مقداراً كبيراً من الماء اليوم.»

«شكراً، مينهير بيبركورن. أنا عادةً لا أحتسي شيئاً في هذه الساعة من النهار؛ لكنني مستعد لأن أشرب ملء الفم أو نحو ذلك في صحتك.»

«إذاً خذ كأس الخمر. ثمة كأس واحدة فقط، سأستعمل كأس الماء. لن أهين هذا الخمر البسيط إذا ما جرعته من قدح عادي ـ» صبَّ الخمر، بمساعدة هانز كاستورب، طالما ان يده إرتعشت قَليلاً، وشرب بعطش، كما لو كان ماءً.

«هذا منعش»، قال. «ألا تريد أكثر؟ لا؟ إسمح لي أن أملأ قدحي» ـ ثاني مرة، سفح شيئاً من الخمر؛ ملاءة السرير المقلوبة إصطبغت ببقع حمر داكنة.

«أكرر»، قال، باصبع واحدة أشبه بالرمح مرفوعة للأعلى، «أكرر، في ذلك الشيء يكمن واجبنا، واجبنا المقدس في أن نشعر. الشعور، أنتَ تفهم، هو القوة الذكورية التي توقِظ الحياة. الحياة تنام نوماً خفيفاً. انها تحتاج الى أن تُحرَّض، أن توقَظ الى زواج مخمور مع الشعور الإلهي. ذلك أن الشعور، أيها الشاب، إلهي. الإنسان إلهي، لكونه يشعر. انه شعور الله. الله خلقه كي يشعر من خلاله. الإنسان لا شيء سوى العضو الذي من خلاله يحقق الله زواجه مع الحياة المحرَّضة والثملة. إذا أخفق المرء في الشعور، فهذا تجديف؛ انه استسلام لذكوريته، كارثة كونية، رعب متناقض ـ» جرع قدحه.

«إسمح لي أن أريحك من كأسك»، قال هانز كاستورب. «أجد أن قطار فكرك منوِّر بدرجة كبيرة، مينهير بيبركورن. انك تنشيء نظريةً لاهوتية هناك، تنسب فيها الى الإنسان وظيفةً بالغة الإحترام، إذا لم نقل انها ربما وظيفة دينية متميزة الى حدٍ ما. ثمة، إذا جاز لي أن أقول هذا، نوع من التزمت في مفهومك، له جانب مرعب. معذرةً. التزمت الديني كله هو بصورة طبيعية مُرعب بعض الشيء للناس المشيدين على خطوط معتدلة. لا أفكر بأن أنتقد المفهوم، بل أود ببساطة أن أرجع الى ملاحظتك حول بعض الآراء المسبقة،

التي بحسب ملاحظاتك، كان يملكها السيد سيتيمبريني في موضوع المدام. عرفتُ السيد سيتيمبريني على مدى زمن معين، أكثر من سنة، على مدى سنوات، الواقع. ويمكنني أن أطمئنك إن آراءه المسبقة هذه، طالما هي موجودة، ليست ذات طبيعة ضيقة الأفق أو بورجوازية. إنه شيء سخيف أن نفكر هكذا. هي تستطيع فقط أن تكون مسألة رأي مسبق في معنى عام، موضوعي، يتصل بمبادئ بيداغوجية معينة، التي، في شخصيتي بصفتي طفل الحياة رقيق الصحة، السيد سيتيمبريني كان في حالة مخاض كي ـ إلا ان هذا سيأخذنا بعيداً جداً. انه موضوع معقد جداً، لا أستطيع فيه أن ـ»

«وأنت تحب المدام؟» سأل مينهير بغتةً. أدار الى زائره تلك الملامح الملكية، ذات الفم المتقرّح، المتمعج والعينين الصغيرتين الشاحبتين تحت الزخرفة العربية للخطوط الكائنة في الجبين.

جفل هانز كاستورب. تلعثم قائلاً: «أنا ـ أي ـ أكن احتراماً كبيراً للسيدة شوشا، يقيناً، هي بشخصها كونها ـ»

«أرجوك!»، قال بيبركورن، ماداً يده بتلك الإيماءة التي كبحت تدفق الكلمات. هكذا فسح مجالاً حراً لما كان يوشك أن يقوله، «دعني»، استطرد قائلاً، «دعني أكرر، انني بعيد عن توبيخ هذا النبيل الإيطالي بوساطة أي إساءة حقيقية مناوئة لقواعد الفروسية. لم أوجه هذا التوبيخ ضد أحد ـ ضد أحد. لكن يحدث لي ـ افهمني، أيها الشاب، أنا مسرور، جداً. وجودك يُبهج فؤادي. في الوقت نفسه، أقول لنفسي: ان تعرّفك الى السيدة أقدم من تعارفنا أنا وهي. كنتَ رفيقاً لإقامتها الأبكر هنا في الأعالي. وهي امرأة ذات سحر نادر جداً، وأنا مجرد رجل عجوز عليل. كيف حدث هذا ـ اليوم، طالما كنتُ غير قادر على مرافقتها، ذهبتْ من دون أن يصاحبها أحد الى القرية من أجل التبضع ـ ليس ثمة ضرر في ذلك، ما من ضير على الاطلاق. لكن ما من ريب ـ هل يمكنني عندئذ أن أعزو ذلك ـ ما الذي قلتَه؟ ـ المبادئ البيداغوجية للسينيور سيتيمبريني التي أنتَ ـ أتوسل إليكَ ألا تسيء فهمي ـ»

«لا أبداً، مينهير بيبركورن. لا بكل ما في الكلمة من معنى. البتة. تصرفتُ بشكل مستقل. على العكس، السيد سيتيمبريني إغتنم الفرصة كي

ـ أنا آسف لأنني أرى انك سفحتَ النبيذ على ملاءات سريرك، مينهير بيبركورن. هل أمتنع عن ـ نحن نضع عادةً الملح على البقع بينما هي طازجة ـ»

«لا يهم»، قال بيبركورن، مثبتاً نظراته على ضيفه.

إمتقع لون هانز كاستورب. قال، ببسمة كاذبة: «كل شيء هنا في الأعالي غير إعتيادي. روح المكان، إذا قيض لي أن أقول هذا، ليست تقليدية. المعذب، رجلاً كان أم امرأة، متمتع بامتياز. ان قوانين الفروسية بالتالي تُدفع نوعاً ما بعيداً عن الأنظار. أنتَ حالياً متوعك الصحة، مينهير بيبركورن، انه توعك شديد. رفيقتك بحالة صحية جيدة نسبياً. أعتقد انني أفعل ما ترغب به المدام بأن أمثلها هنا الى جانبك، في غيابها ـ إذا كان ثمة كلام ما عن تمثيل لها، هاها! ـ بدلاً من أن أمثلك معها وأتقدم الى مرافقتها في ذهابها الى القرية. كيف أستطيع في الواقع أن ألعب دور الفارس مع المدام؟ لا أملك حقاً شرعياً للمركز الإجتماعي الرفيع، لا أملك تفويضاً، وعندي، ينبغي لي أن أعترف، إحساس قوي خاص بي وبك. الخلاصة، أجد أن وضعي صحيح، على الرغم من الوضع العام، وكذلك المشاعر الأصلية جداً التي أضمرها لك، مينهير بيبركورن. سألتني، أعتقد، سؤالاً، وأحسب إن ما قلته سيكون جواباً مقنعاً له.»

«جواب لطيف جداً»، رد بيبركورن. «استمعتُ بسعادة لا إرادية، أيها الشاب، الى تعابيرك الصغيرة السلسة. لسانك ينطلق بحرية، يقفز فوق الجذل والحجر، وينعطف حول الزوايا الحادة. أما مقنع ـ فلا، جوابك لم يقنعني تماماً ـ يلزمك أن تعذرني إذا خيبتُ أملك. متزمت، يا صديقي العزيز ـ إستخدمتَ الكلمة مع إشارة الى بعض ملاحظاتي الآن. لكن في ملاحظاتك أيضاً يبدو أنني ألاحظ صرامةً معينةً، تبدو قاسيةً وقسريةً، وليست منسجمة مع طبيعتك، مع انني تعرفتُ الى الظاهرة من خلال سلوكك في ناحيةٍ واحدة لذلك ميزتها الآن. أعني السلوك الرسمي الذي إتخذته نحو المدام ـ وليس نحو أي شخص آخر في مجموعتنا الصغيرة، في مسيراتنا الراجلة ونزهاتنا. وأنت مدينٌ بتفسيره لي بذلك. انه واجب، إلتزام. لستُ مخطئاً. أكدتُ

ملاحظتي مراتٍ كثيرةً جداً، وانه شيء مستبعد ألا يكون قد لوحظ من قبل الآخرين على حدٍ سواء ـ مع الفرق أن هؤلاء الآخرين ربما ـ أو حتى في الأرجح ـ يملكون مفتاحاً لا أملكه أنا.»

تكلم مينهير بدقةٍ ووضوحٍ غير مألوفين عصر هذا اليوم، على الرغم من الاعياء الذي رافق حماه. نادراً ما كان هناك أثر لإسلوبه الرابسودي المألوف. كان نصف جالس في فراشه، كتفاه القويتان ورأسه البهي إستدارا نحو ضيفه؛ إحدى ذراعيه كانت مبسوطة على غطاء السرير، مع يد رُبان السفينة المنمشة منتصبة عند نهاية الكُم الصوفي، مكوّنةً حلقة الدقة. الأصابع رمحية الأطراف كانت عالياً. وشفتاه شكلتا الكلمات، بدقة، بـ«طواعية» كما كان يتمنى السيد سيتيمبريني نفسه، ودحرج حرف (الراء) في حلقه في كلماتٍ مثل «ربما» و«صرامة».

«أنت تبتسم»، مضى يقول. «يبدو انك منشغل بتفتيش ألواح ذاكرتك وتجدها خاليةً من الكتابة. لكن ليس ثمة شك انك تعرف ما أعنيه. لا أقصد انك غالباً لا تخاطب المدام، أو انك لا تجيبها، كما يحدث ذلك في بعض المرات. بل أعيد، انك تفعل هذا بإكراه، بتملص محدد، والحقيقة، باجتناب اسلوب معين. ينال المرء الإنطباع انه كان هناك رهان من طرفٍ واحد؛ كما لو أنكَ تناولتَ طبقاً فلبينياً مع المدام، واتخذت قراراً انك لن تخاطبها بالأسلوب المألوف للمخاطبة. بإيجاز، انك لم تستخدم الشخص الثالث جمعاً. انك لم تقل Sie للمدام.»

«لكن مينهير بيبركورن ـ يا له من شيء مضحك ـ ما هذا الطبق الفلبيني الذي تحدثتَ عنه؟»

«هل يسعني أن أذكر الظرف ـ أنت يقيناً مطلع عليه بنفسك ـ بحيث انك غدوتَ شاحباً أيما شحوب؟»

هانز كاستورب لم يرفع بصره. إنحنى وشغل نفسه بالبقع الحمر على ملاءة السرير. «كان لا بد أن تصل المسألة الى ذلك، على ما أعتقد»، فكر. «لا بد أن تتبدى للعيان. ـ وأحسب إنني حتى ساعدتُ في أن أجعلها تظهر عليّ. يمكنني أن أرى ذلك الآن. أحقيقةً غدوتُ شاحباً؟ ربما. ذلك اننا

الآن وصلنا يقيناً الى النزاع الجدي. ماذا سيحدث؟ هل ينبغي لي أن أستمر في الكذب؟ يمكنني أن أواصل الكذب ـ لكنني لن أفعل. سوف أبقى يقظاً دقائق قلائل وأنظر الى لطخات الدم ـ أقصد لطخات النبيذ ـ على ملاءة السرير.»

كان كلاهما صامتاً. السكون طال نحو دقيقتين أو ثلاث ـ وأعطى دليلاً عن الوقت، الذي يمكن فيه أن تتمدد وحدات الزمن الصغيرة، في ظل هذه الظروف.

كان بيتر بيبركورن هو الذي تكلم أولاً. «في المساء الذي سررتُ فيه أول مرة بالتعرف إليك»، قال، بادئاً حديثه بنبرة رتيبةٍ، وجعل صوته ينخفض في النهاية، كما لو انه شرع في إلقاء ملحون[٥١] طويل، «كان لنا إحتفال صغير، جلسنا متأخرين جداً نأكل ونشرب ونمرح، وبعدها، بمزاجٍ رفيع، بروحٍ طليقةٍ وعفوية، ذراعاً بذراع فتشنا عن أسرتنا. افترقنا، هنا عند بابي، خطرَت ببالي فكرة أن أطلب منك أن تسلّم على المدام بأن تطبع قبلةً على جبينها، بصفتك صديقاً طيباً من زيارتها السابقة الى هنا في الأعالي. رفضتَ بنحو غير فظ، رفضتَ الفكرة على أساس ان هذا شيء مُحال. انك لن تنكر ان التعبير نفسه كان يحتاج الى تفسير ـ تفسير ما زلتَ حتى الآن مديناً به إليّ. هل أنت راغب بأن تحل نفسك من تبعته؟»

«آ، إذاً لاحظ هو ذلك أيضاً»، فكر هانز كاستورب، وانحنى أكثر فوق بقع النبيذ، إحدى هذه اللطخات كشطها بوسطاه. «الواقع أحسب انني وددتُ منه أن يلاحظها، وإلا ما كان ينبغي لي أن أقولها. لكن ما الذي يجدر بي أن أقوله الآن؟ قلبي يقرع. هل سيكون هناك إظهار للغيظ الملكي؟ أغلب الظن الأفضل لي أن أثبت بصري على قبضته، لعله يرفعها عليّ الآن. يقيناً انني في وضع دقيق ـ بين الشيطان والبحر الأزرق العميق، إذا صح التعبير.»

وعلى حين غرة شعر ان معصمه الأيمن قد أمسكت به يد بيبتر

---

(٥١) إلقاء ملحون recitative: موسيقى صوتية بين الكلام والغناء، تصطنع في تأدية المقاطع القصصية أو الحوارية من المغناة (الأوبرا) ـ المترجم.

بيبركورن. «هالو!» فكر. «لماذا أجلس هنا وذيلي بين ساقيّ؟ هل سببتُ له أذىً؟ البتة. دعه يتحدث الى الرجل في داغستان قبل أن يفعل ذلك معي. وبعدها شخص آخر، وهلم جرا. وبعدها أنا. وما الذي يشكو منه بسببي؟ لا شيء، حتى الآن. إذاً لماذا يتوجب على قلبي أن يضرب بعنف هكذا؟ انه زمن حرج أن أجلس وأتطلع في عينيه ـ مع كل التقدير المناسب لشخصيته، بطبيعة الحال.»

فعل ذلك. كان وجه الرجل العظيم أصفر، العينان شاحبتين تحت طيات الجبين الوافرة، تعبير مُر لاح على الشفتين الجريحتين. كل منهما حدّق في عينيّ الآخر، الرجل العجوز الرائع والشاب قليل الأهمية، واستمر بيبركورن يقبض على رسغ هانز كاستورب. في الختام قال، بتؤدة: «كنتَ حبيب كلاوديا حين كانت هنا قبلاً.»

هانز كاستورب نكس رأسه مرةً أخرى لكنه رفعه من جديد حالاً، أخذ نفساً عميقاً، وشرع يقول: «مينهير بيبركورن! انه شيء كريه جداً بالنسبة لي أن أكذب عليك. أنا أفتش عن وسيلةٍ لتجنبه، إلا ان هذا ليس بالأمر اليسير. سأكون متفاخراً إذا ما قلتُ نعم أنا حبيبها السابق، وسأكون كاذباً إن قلتُ لا. دعني أشرح في أي معنى ينبغي أن يؤخذ هذا الأمر. عشتُ زمناً طويلاً، أوه، زمناً طويلاً جداً في هذه الدار مع كلاوديا ـ معذرةً مع الرفيقة الحالية لأسفارك ـ قبل أن تتعرف إليها. علاقاتنا ـ أو، بالأحرى، علاقتي بها ـ لم تكن البتة من طراز العلاقات الإجتماعية؛ بوسعي أن أقول فقط عنها ان بداياتها كان يلفها الغموض. في أفكاري لم أسمِّ كلاوديا إلا بـ [أنتِ] ـ ولم أنادها بإسمها حتى في الواقع. إذ انني في ذلك المساء، ومتخلصاً من بعض القيود البيداغوجية التي كنا نتكلم عنها، تجرأتُ على الإقتراب منها، تحت ذريعةٍ تزودتُ بها من الماضي السحيق، كان كرنفالاً. كان مساء الأقنعة والحرية، ساعة لا مسؤولة، حين كانت الـ [أنتِ] سارية المفعول، وبفعل قوة السحر والأحلام، نوعاً ما كانت لها ـ سيطرة كاملة ـ و ـ كان ذلك المساء أيضاً عشية رحيل كلاوديا.»

«سيطرة كاملة» كرر بيبركورن. «صغتَ ذلك بنحو جيد ـ جداً ـ جداً ـ»

حرّر يد هانز كاستورب، وشرع بكلتا يديه الضخمتين يدلك جانبي وجهه، عينيه، خديه، وذقنه. ثم لفَّ الملاءة الملطخة بالنبيذ على يديه، وأراح رأسه على الكتف اليسرى، الكتف القريبة من ضيفه، بمعنى ان وجهه كان مُشاحاً قليلاً الى الجانب.

«أعطيتك أفضل جوابٍ قدرتُ عليه، مينهير بيبركورن»، قال هانز كاستورب. «حاولتُ أن لا أقول الكثير جداً ولا القليل جداً. كنتُ معنياً بأن أجعلك تفهم انه كان بطريقةٍ ما شيئاً مُباحاً لنا أن نقدّر ذلك المساء ـ حين كانت الـ [أنتِ] ذات سيطرة كاملة، وكان عشية رحيل كلاوديا ـ أو أن لا نقدّره. كانت تلك فرصةً إستثنائيةً، تقريباً خارج التقويم، مقحمةً فيه، إذا صح التعبير، اليوم التاسع والعشرين من شباط. ستكون نصف كذبة إذا ما أنكرتُ ببساطة حقيقة ما قلتَه.»

بيبركورن لم يحر جواباً.

«آثرتُ»، شرع هانز كاستورب يقول ثانيةً، بعد مدة توقف قصيرة، «ان أخبرك الحقيقة، بدلاً من أن أخاطر بفقدان معروفك، الذي، أعترف صراحةً، سيكون فقداناً كبيراً بالنسبة لي، يسعني أن أقول انه سيكون لطمةً، لطمةً حقيقةً، مقارنةً مع تلك التي تلقيتُها حين عادت السيدة شوشا الى هنا بصفتها رفيقة أسفارك. خاطرتُ بأن سمحتُ لهذا أن يحدث، لأنني من زمن طويل وددتُ وتمنيتُ أن يكون ثمة فهم بيني وبين الرجل الذي ضمرت له مشاعر الإحترام والتبجيل الإستثنائيين جداً. بدا لي هذا أجمل، [إنسانياً] أكثر بالنسبة لي ـ أنت تعرف ان هذه هي كلمة كلاوديا الأثيرة، وكيف كانت تلفظها، بذلك التشدق الساحر الأجش ـ من الصمت والخداع؛ وبذلك المعنى رُفع عبء ما من قلبي حين صغتَ سؤالكَ.»

لا جواب.

«ثمة شيء آخر، مينهير بيبركورن»، استطرد هانز كاستورب. «ثمة شيء آخر جعلني أود أن أعترف به لكَ: وذاك هو التجربة الشخصية التي كانت لي مع التأثير المغضِب للشك، كوني خُدعتُ لأن الشكوك ليس بالمستطاع توكيدها ولا صرف النظر عنها. أنت تعرف الآن مَنْ كان ذلك الشخص ـ قبل

أن تترسخ هذه العلاقة الحالية والذي سيكون سلوكاً مضحكاً مني إن لم أحترمها ـ الذي أمضت معه كلاوديا ـ أو جربت، أو إقترفت ـ ذلك اليوم التاسع والعشرين من فبراير. الأمر واضح لك الآن. لكن من ناحيتي لم أكن قادراً على أن أعرف ـ مع انني بالطبع أدركتُ ان أيَّ امرئٍ في وضعي عليه أن يحسب حساب الماضي ـ الأمر الذي أعني به فعلاً الأشخاص السابقين ـ ومع انني أدركتُ أيضاً ان هوفرات بيرنز رسام بورتريهات هاوٍ، وكان، في غضون جلساتٍ كثيرة، قد رسم بورتريهاً ممتازاً لها، مع معالجة لجلدها حيويةٍ جداً وواقعيةٍ جداً بحيث ـ بيني وبينك ـ ان هذا الأمر دفعني بنحو جدي جداً الى التفكير. عذبتُ نفسي بصورةٍ لا حد لها مع ذلك اللغز، وما زلتُ أفعل.»

«أما تزال تحبها؟» إستفهم مينهير بيبركورن، من دون أن يغيّر وضعه، وجهه لم يزل مُنحى جانباً. الحجرة الكبيرة هوت شيئاً فشيئاً في الشفق.

«سوف تغفر لي، مينهير بيبركورن»، رد هانز كاستورب، «إلا أن شعوري نحوك، وهو من طراز الإحترام والإعجاب البالغين جداً، لا يسمح لي أن أتحدث عن إحساسي نحو الرفيقة الحالية لأسفارك.»

«أما تزال هي» ـ سأل بيبركورن بصوتٍ خفيض، «أما تزال هي تبادلك إحساسك؟»

«لا أقول»، رد هانز كاستورب، «لا أقول انها بادلتني إحساسي في أي وقت مضى. هذا لا يُكاد يُصدق. كنا قد تطرقنا الى هذا الموضوع في وقتٍ أبكر من عصر هذا اليوم، عندما تكلمنا عن الطبيعة المستجيبة للنساء. ليس ثمة شيء كثير فيَّ كي تُغرم بي النساء. لست مبنياً على مقياس كبير، كما بوسعك أن ترى. ان إحتمالية الـ ـ اليوم التاسع والعشرين من شباط يمكن أن تعزى فقط الى التقبل الأنثوي على أساس اختيار الرجل الذي قام به في ذلك الحين. ينبغي لي القول انه حين أشير الى نفسي كوني رجلاً، يبدو لي هذا نوعاً من الإعلان عن الذات، وذوقاً سيئاً ـ لكن على أية حال، كلاوديا امرأة.»

«كانت مستجيبةً لشعورك»، تمتم بيبركورن، بشفتين مزوَّيتين.

«مثلما هي مستجيبة أكثر لشعورك»، قال هانز كاستورب. «وعلى الأرجح لمشاعر أشخاص كثيرين. ينبغي للمرء أن يواجه ذلك، عندما ـ»

«قف!» قال بيبركورن، ما يزال ملتفتاً الى الجانب، لكن مع إيماءة لراحة اليد نحو محاوِره. «أليس هو نوعاً ما شيئاً ـ مبتذلاً ـ منا أن نتكلم عنها؟»

«لا أشعر انه كذلك، مينهير بيبركورن. في اعتقادي انني قادر على أن أريح بالك في ما يتعلق بتلك النقطة. هذه مواضيع إنسانية التي نعالجها الآن، إنسانية بمعنى انها ذات صلة بالحرية وبما هو مرهف العقل Spirituel ـ يلزمك أن تعذرني إذا ما استخدمتُ مصطلحات غامضة نوعاً ما، لكنني احتجتُ الى هذا التعبير مؤخراً[٥٢]، وجعلته ملكاً لي.»

«جيد جداً، إستمر»، قال بيبركورن بصوت خفيض.

تكلم هانز كاستورب بصوتٍ واطئ، أيضاً، وجلس على حافة كرسيه القريب من السرير، إنحنى الى الأمام نحو الرجل العجوز الملكي، يداه بين ركبتيه.

«ذلك انها يقيناً كائن مرهف جداً»، قال، «والزوج المقيم في ما وراء القفقاس ـ أنت تعرف، بطبيعة الحال، ان لها زوجاً في ما وراء القفقاس ـ وهبها حريتها، لا أعرف ما إذا كان ذلك إنطلاقاً من بلاهته أم من ذكائه، فأنا لا أعرف الرجل. لكنه شيء جيد ذاك الذي يفعله، إذ ان مرضها منحها تلك الحرية ـ وان أي امرئٍ يصبح في وضعنا سيحسن صنعاً عندما يحذو حذو قدوته، ولا يتشكى سواء من الماضي، أو من المستقبل.»

«أنت لا تتشكى؟» سأل بيبركورن، وأدار وجهه. بدا هذا رمادياً في الشفق، العينان الشاحبتان، المرهقتان حدّقتا تحت الطيات الكبيرة للجبين، الشفتان الكبيرتان المتشققتان كانتا نصف مفتوحتين، كفم قناع مأساوي.

«نادراً ما فكرتُ انها قضية تخصني»، رد هانز كاستورب بتواضع. «اما

---

(٥٢) يقصد المؤلف هنا مصطلح مرهف ـ Spirituel (بالفرنسية) ـ المترجم.

عنيته هو انه يلزمك أن لا تتشكى، وأن لا تحرمني من صداقتك بسبب وقائع الماضي. هذا هو الذي يعنيني في هذه الساعة.»

«لكن فضلاً عن ذلك»، قال بيبركورن. «لا بد انني بصورةٍ لا إرادية كنتُ سبب معاناةٍ كبيرة لكَ.»

«إذا طرحتَ السؤال»، رد هانز كاستورب، «وإذا أجبتكَ بـ نعم، فجوابي هذا يجب أن لا يؤخذ بمعنى انني لم أعرف كيف أقيّم الإمتياز الهائل بالتعرف إليك؛ ذلك ان هذا الإمتياز مرتبط ارتباطاً لا فكاك منه مع المعاناة.»

«أشكرك، أيها الشاب، أشكرك. أنا أثمن كياسة تعابيرك الصغيرة. لكن ناهيكَ عن تعارفنا ـ»

«انه شيء عسير»، قال هانز كاستورب، «أن نفصل بين الإثنين؛ والفكرة لا تودعني نفسها انه يتوجب عليّ أن أفصل بينهما كي أكون حراً في أن أرد رداً إيجابياً على سؤالك. ان الحقيقة بعينها هي أن شخصيةً مثلك التي بصحبتها عادت كلاوديا وحدها التي يمكن أن تجعل عودتها مع أي شخص مهما كان مقلقةً ومشوشةً أكثر. منحتَني ربع ساعة من الزمن، أطمئنك، وما تزال تفعل، هذا شيء لا أنكره؛ ذلك انني بنحو مقصود إلتزمتُ قدر ما إستطعت بالعنصر الإيجابي، ذلك هو شعوري المخلص الخاص بالتقدير والتبجيل لك، مينهير بيبركورن ـ الذي إمتزج فيه أحد توابل الحقد على خليلتك؛ ذلك ان النساء لن يشعرن بالراحة أبداً عندما يتوصل عشاقهن الى الوفاق.»

«هذا شيء حقيقي بدرجةٍ كافية»، قال بيبركورن، ومرر يده على فمه وذقنه كي يخفي بسمةً، كما لو كان خائفاً من أن المدام شوشا ربما تراها. هانز كاستورب أيضاً تبسم بتحفظ ـ وبعدها كلاهما أومآ برأسيهما بتفاهم مشترك.

«هذا الثأر الصغير»، قال هانز كاستورب، «خُوّل لي في النهاية، لأنه، بقدر تعلق الأمر بي شخصياً، كان لي شجار على الرغم من كل شيء، ليس مع كلاوديا، ليس معكَ أنتَ، مينهير بيبركورن، بل مع نصيبي عموماً، مع

قدري. سأحاول أن أحكي لك عنه، بقدر ما أستطيع، الآن أنا آمن مطمئن في كنف شرف ثقتكَ بي، وفي ساعة الشفق النادرة والإستثنائية بكل ما في الكلمة من معنى هذه.»

«أرجوك إفعل هذا»، قال بيبركورن، بكياسةٍ، وهانز كاستورب تابع كلامه.

«أمضيتُ هنا في الأعالي زمناً طويلاً، مينهير بيبركورن، سنوات. كم إستمر ذلك أنا نفسي لا أكاد أعرف، غير انها كانت سنوات من حياتي. ابن خالتي، الذي أتيت لزيارته، في المرحلة الأولى، كان جندياً، شخصاً مستقيم الأخلاق وجديراً بالإحترام، إلا ان هذا ما كان لينفعه مثقال ذرة ـ مات هو، وتركني، وبقيت هنا وحيداً. لم أكن جندياً، بل مدنياً، لي مهنة، لعلكَ سمعتَ ذلك، مهنة جيدة، قوية، التي من المفروض أن تقوم بنصيبها في أن تجذب أمم الأرض الى بعضها ـ لكنها بنحوٍ ما لم تجذبني. أنا أعترف بهذا صراحةً؛ إلا انني لا أستطيع أن أصف أسباب هذا بطريقة أخرى غير قولي انها كانت محجوبةً بالغموض، الغموض نفسه الذي غلّف منشأ شعوري نحو المدام خليلتك ـ أُسميها هكذا بجلاء كي أُريك انني لا أفكر في تشويه الوضع طالما هو قائم ـ شعوري نحو كلاوديا شوشا، وإحساسي العميق بكينونتها، الذي أحسستُ به من أول لحظة لاقت فيها عيناها عينيَّ وخلبت لبي، سحرتني، أنت تفهم، بصورة تجاوزت فيها حدود العقل. ذلك ان حبها، من غير إعتبار للسيد سيتيمبريني، أعلنه بنفسي كونه قاعدة الجنون، القاعدة الرقيقة للمرض، الذي تحت درعه كنت الآن، الواقع، لبثتُ زمناً طويلاً، وبقيتُ هنا في الأعالي، لم أعد أعرف على وجه الدقة كم طال مكوثي. نسيتُ، انقطعتْ علاقتي بكل شيء، أقاربي، مهنتي، كل آرائي في الحياة. حين رحلت كلاوديا، انتظرتُ عودتها، بحيث انني الآن ضائع تماماً بالنسبة للحياة هناك في الأسفل، وميتٌ في نظر أصدقائي. هذا هو ما عنيته حين تكلمتُ عن قدري، وقلتُ انه ربما يكون هناك بعض الإنصاف في أي شكوى تخص وضعي الحالي. كنتُ طالعتُ قصةً ـ لا، شاهدتها في المسرح: شاب

طيب القلب، جندي مثل ابن خالتي، شاءت المصادفات أن يتعرف الى غجرية ساحرة. ساحرةً كانت هي، تضع زهرةً خلف أذنها، كائن وحشي وقاتل هي، وفتنته هكذا بحيث فقد صوابه بكل ما في الكلمة من معنى، ضحى بكل شيء من أجلها، هجر القوات المسلحة، إلتحق بالمهربين، لوث سمعته بشتى الوسائل. حسن، حين مضى شوطاً بعيداً جداً، هي بدورها كانت قد نالت كفايتها منه، عاشرت مصارع ثيران، شخصية قوية ذات صوت جهير أول رائع. وفي الخاتمة، طعن الجندي الصغير، خليلته بسكينه أمام السيرك. كان أبيض كملاءة السرير، وقميصه مفتوح عند الحنجرة ـ هذه النهاية، على أية حال، هي التي جلبتها على نفسها. هي قصة تافهة على الرغم من كل شيء: كيف حصل أن طرأت على بالي؟»

مينهير بيبركورن، لدى ذكر السكين، غيّر وضعه في السرير، بحركةٍ سريعة الى أحد الجانبين، أدار وجهه نحو ضيفه وحدّق بنظراتٍ ثاقبة في عينيه. الآن جرَّ نفسه الى وضع مريح أكثر، مسنداً نفسه على أحد مرفقيه وقال: «حسن، أيها الشاب، استمعتُ إليكَ، وإتضحت لي الصورة بالكامل. من جانبي، دعني أقدم لك تصريحاً جديراً يالإحترام. لو ان شعري لم يكن ابيض، وأطرافي ليست مرهقةً بالحمى، لكنتَ رأيتني مستعداً لأن أعطيك تعويضاً، رجلاً لرجل، سلاحاً لسلاح، ذلك ان الأذى الذي سببته لكَ بنحو غير مقصود، وذاك الذي أضافته إليه رفيقتي، الذي بالطريقة نفسها يعوّض عنه الأذى خاصتي. بنحو واقعي، صديقي ـ ستراني في خدمتك. لكن بينما تحظى هذه المسائل بالقبول، يلزمك أن تجعلني أقدّم إقتراحاً مختلفاً. انه هذا: أتذكر لحظةً معلاّة، حين تعارفنا مبكراً فتياً جداً، حين شعرتُ أنا نفسي بتأثري بصورة مُرضية بموهبتك الفطرية، وكنتُ متأهباً لأن أقدم لك الـ [أنتِ] أخوياً؛ لكنني بعدها أدركت ان اللحظة كانت آتيةً قبل أوانها. جيد جداً. أقف ثانية اليوم عند تلك اللحظة، أعود إليها، أُعلن ان مدة الإختبار قد بلغت نهايتها. أيها الشاب، أنا وأنت شقيقان. ان تعبيرك بأن الـ [أنتِ] كانت لها سيطرة كاملة ـ جيد جداً، لنملك نحن الإثنين بالطريقة نفسها سيطرة كاملة،

دعنا نطلق العنان للشعور الأخوي. التعويض الذي يمنعني العمر والعجز من منحه لكَ، أعطيه إليك بهيئةٍ أخرى، بهيئة زواج أخوي، مثل ذاك الذي يكوّنه المرء ضد طرف ثالث، ضد العالم، ضد كل شيء بلا إستثناء؛ دعنا نقسم به لأحدنا الآخر بإسم شعورنا نحو امرئٍ ما. خذ كأس نبيذك، أيها الشاب، سأستعمل قدح الماء ثانيةً، هذا لن يخزي النبيذ الخام الجديد ـ»

بيده الراعشة ملأ الكأسين، سارع هانز كاستورب الى مساعدته. «خذها»، كرر بيبركورن، «خذ ذراعي، دعنا نشرب هكذا، دعنا نشربه ـ بصورة حقيقية، أيها الشاب. هي ذي. هل أنت راضٍ؟»

«هذه لا تحتاج الى كلام، بالطبع، مينهير بيبركورن»، قال هانز كاستورب. لم يجده شيئاً يسيراً أن يحتسي الكأس المملوءة في جرعة؛ سفح قليلاً وجفف ركبته بمنديله. «لعل من الأحسن أن أقول انني سعيد سعادةً هائلةً، ولا أكاد أفهم كيف حدث هذا كله، انه يبدو كالحلم. يا له من شرف كبير لي! كيف إستحققته لا أكاد أعرف، يقيناً بمعنى غير فعال. هو شيء غير مدهش انه في بادئ الأمر يبدو جريئاً جداً بكل ما في الكلمة من معنى، وأنا أشك في ما سأكون قادراً على إظهاره ـ بخاصةٍ في حضور كلاوديا، التي ليس من المرجح تماماً أن تكون مسرورة بالإتفاق الجديد، فجأةً.»

«دع هذا الأمر لي»، أجاب بيبركورن؛ «البقية مسألة تمرين وعادة. اذهب، الآن، أيها الشاب. إتركني، يا بني. هبط الليل، محبوبتنا قد تعود بين لحظة وأخرى، وان لقاءً بينكما الآن لن يكون حكيماً تماماً.»

«وداعاً، مينهير بيبركورن»، قال هانز كاستورب، ونهض. «أجل، إظلمتْ الدنيا. يمكنني أن أتخيل السيد سيتيمبريني يدخل على حين غرة ويشعل الضياء، كي يجعل العقل و العُرف يسودان ـ ذلك نابع من ضعفه. مع السلامة حتى يوم غد. أتركك، فخوراً جداً، فرحاً جداً، بصورةٍ لم أستطع أن أحلم أن يكون بمستطاعي أن أكونها. والآن سوف يكون لك في الأقل ثلاثة أيام كاملة، وخاليةً من الحمى، وهذا يبهجني كثيراً كما لو كانت أيامي. طابت ليلتك، أيها الأخ!»

مينهير بيبركورن (خاتمة)

الشلال يكون دوماً هدفاً جذاباً لأي نزهة. لا نكاد نعرف كيف نفسر لماذا هانز كاستورب، بكل حبه الفطري للماء المتساقط، لم يزر الشلال الصغير الرائع في وادي الفليولا. الإحساس القوي بالواجب نحو القوات المسلحة الذي كان يستحوذ على ابن خالته ربما هو الذي منعه، خلال مدة وجود يواكيم؛ موقف الأخير ذو المعنى نزع الى جعل فعالياتهما مقتصرةً على المنطقة القريبة من بيرغهوف. لكن حتى من ذلك الوقت ـ إذا ما إستثنينا النزهات الشتائية على الزلاجات ـ علاقات هانز كاستورب مع المنظر الجبلي الجميل كانت متحفظة جداً؛ إن لم نقل رتيبةً. ألفى الشاب سعادةً غريبةً في المقارنة بين تحديدات عالمه الجسدي والمدى الواسع لفعالياته العقلية. على أية حال، حين تم الإقتراح ان هذه المجموعة الصغيرة المؤلفة من سبعة أفراد تقوم بنزهةٍ في مركبةٍ الى الشلال، وافق حالاً.

كان ذاك شهر أيار (مايو) السعيد، الذي يُحتفى به عادةً في الأغاني الصغيرة السارة للأرض المنبسطة. هنا في الأعالي كان الهواء منعشاً، الحرارة، تكاد تكون مُرضيةً؛ لكن في الأقل راح الثلج. ربما، يهطل الثلج، من جديد؛ خلال الأيام القلائل الماضية كانت هناك تساقطات من رقائق الثلج الضخمة على مدى فتراتٍ قصيرة الأمد، لكن هذه الرقاقات لم تضطجع، بل فقط بللت. ركامات الثلج الشتائية التي تذروها الرياح قرب سطح الأرض ضعفت، راحت، عدا آثار هنا وهناك؛ والمنحدرات الخضر، الدروب المكشوفة، أغوت المرء بالتجوال.

كانت المجموعة أقل إنشغالاً من الناحية الإجتماعية في الأسابيع الأخيرة بسبب مرض قائدها، المسيطر بيتر بيبركورن. حماه رفضت الإستسلام للعمل المفيد للمناخ أو للخدمة الماهرة لطبيب ممتاز جداً مثل هوفرات بيرنز. كان مجبراً على أن يقضي زمناً كبيراً في الفراش، ليس فقط في الأيام التي سيطرت فيها الحمى الربعية، بل في باقي الأيام أيضاً. كانت هناك مشكلة في كبده وطحاله، بيرنز أخبر أولئك الذين تولّوا رعايته؛ أن الهضم لم

يكن على ما يرام ـ خلاصة القول، لم يهمل هو الإشارة الى ان الحالة الصحية بدت وكأنها تدل على خطر الوهن المزمن، وهذا ما لا ينبغي تجاهله.

كان مينهير بيبركورن قد ترأس فقط ابتهاجاً مسائياً واحداً إبان هذه الأسابيع كلها؛ والمجموعة قامت فقط بمسيرة راجلة قصيرة واحدة. كان هانز كاستورب يشعر بالارتياح نوعاً أكثر من أي شيء آخر في هذا الحال من الأمور؛ ذلك ان النخب الذي شربه مع حامي كلاوديا شوشا جلب له المصاعب، إذا ما تحدثنا عموماً، من نوع الصعوبات نفسها التي توجب عليه أن يتعامل معها في حالة السيدة شوشا نفسها، أي تجنب الإسلوب الرسمي في التخاطب ـ كما لو انهما، كما قال بيبركورن، تناولا طبقاً فلبينياً معاً. كان خصيباً في الحيل كي يلتف عليه أو ببساطة يتركه؛ مع ذلك، الإمتياز الذي قدمه له بيبركورن ضاعف معضلته الحالية.

أما الآن فالنزهة الى الشلال كانت هي الحالة السائدة، بيبركورن نفسه رتبها، وشعر انها ملائمة للمجهود. كان ذاك هو اليوم الثالث بعد النوبة المألوفة، وأعلن هو انه كان يود أن يغتنم فرصته. لم يظهرْ، الواقع، في وجبات الطعام المبكرة لذلك اليوم، بل تناولها برفقة المدام شوشا، في صالونهما، كما دأبا على فعل ذلك مؤخراً. إلا ان هانز كاستورب تسلّم كلمةً، من خلال البواب الأعرجِ، أن يتهيأ لرحلةٍ بالمركبة بعد وجبة منتصف النهار بساعةٍ واحدة، وفضلاً عن ذلك، أن يتصل بـ فيرجه وفيسال، سيتيمبريني ونافته، وأن يستأجر لندويتين(٥٣) مدة ثلاث ساعات.

على وفق ذلك، عند هذه الساعة تجمعوا أمام مدخل مصح بيرغهوف ـ هانز كاستورب، فيرجه وفيسال، وانتظروا الثنائي من [الشقتين الممتازتين]؛ يزجون الوقت بحمل قطع السكر على راحات أياديهم، كي تقرضها الجياد بشفاه سود غليظة، رطبة. رفيقاهم ظهرا من دون تأخير كبير على العتبة؛

---

(٥٣) اللندوية landau: عربة بأربع عجلات، ذات غطاء مقسوم الى قسمين بحيث يُستطاع طيه أو إزالته ـ المترجم.

رأس بيبركورن الملكي بدا أضيق؛ رفع قبعته بينما هو واقف بمعطفٍ ايرلندي فضفاض وطويل، بالٍ بعض الشيء، بجانب السيدة شوشا، وشفتاه وجهتا شكلاً غامضاً من التحية الى أفراد المجموعة عموماً. ثم هبط وصافح النبلاء الثلاثة، الذين إلتقوا به أسفل الدرجات. وضع يده اليسرى على كتف هانز كاستورب، قائلاً: «حسن، أيها الشاب، كيف هو الشعور، بني؟»

«ممتاز، شكراً، أتمنى أن يكون متبادلاً»، رد الشاب.

أشرقت الشمس، كان النهار جميلاً وساطعاً. بيد انهم أحسنوا صنعاً حين ارتدوا المعاطف، ذلك ان السفر بالمركبتين سيكون معتدل البرودة. المدام شوشا كذلك لبست عباءةً مدفِئةً مطوَّقةً بحزام، من قماش صوفي معين ذي نقش من المربعات الكبيرة، وفروةً صغيرةً حول كتفيها. كانت حافة قبعتها اللباد مطويةً في جانب واحد بوساطة الوشاح الأخضر ـ الزيتوني الذي كانت تلبسه مربوطاً تحت ذقنها؛ كان مظهرها ساحراً جداً بحيث كان أسىً حقيقياً لمعظم المشاهدين ـ كان فيرجه الرجل الوحيد هناك الذي لم يكن مغرماً بها. يرجع سبب ذلك الى حالته اللامبالية وهي ربما ميزة مؤقتة تمتع بها حالياً، حيث أُختير للجلوس قبالة مينهير والمدام في اللندوية الأولى، بينما ركب هانز كاستورب مع فيسال في الثانية، لامحاً بينما كان يفعل ذلك ابتسامةً ساخرة زارت محيا السيدة شوشا لحظةً. الآخران سيتم إستدعاءهما من مقري سكنهما. الخادم المالاوي إلتحق بالمجموعة مع سلةٍ واسعة، من أعلاها برز عنقا زجاجتي نبيذ. أودعهما تحت المقعد الخلفي للاندوية الأولى، اتخذ مجلسه جنب الحوذي على الصندوق وطوى ذراعيه، الجياد إنطلقت، والعربتان، مع الكوابح على دواليبها، إندفعتا نازلتين الطريق الخاصة.

فيسال رأى بسمة السيدة شوشا، عبّر عن رأيه في الموضوع لرفيقه، كاشفاً عن أسنانه الرديئة بينما كان يتكلم.

«هل رأيتَ»، سأل، «كيف كانت تضحك عليك كونك ركبتِ وحيداً معي؟ نعم، نعم، ان رجلاً مثلي هو دوماً صيد مناسب. هل تجد الجلوس لصقي شيئاً مثيراً للقرف بدرجة كبيرة؟»

«إستردْ رباطة جأشك، فيسال، وكف عن التكلم بذلك الإسلوب عديم

الحيوية.» عاتبه هانز كاستورب. «النساء يضحكن أبداً، على أي شيء، من أجل الضحك نفسه؛ لا معنى لإيلاء هذا الأمر عنايتنا. لماذا أنت دوماً تنتقص من قدر نفسك؟ لك حسناتك وسيئاتك، كأي فردٍ منا. في سبيل المثال، يمكنك أن تعزف [حلم ليلة منتصف صيف]، ولا يقدر كل شخص أن يفعل ذلك. هل ستعزف لنا ثانيةً في الحال؟»

«أجل، أنت تظن انك قادر على أن تتحدث إليّ بتلطّف، هكذا»، رد الشخص البائس، «وأنت لا تعرف أي وقاحةٍ هي في مواساتك وكيف انها تذلني أكثر. أنتَ تملك الحق في أن تفعل، مع ذلك. أنت تضحك من الزاوية الخاطئة لفمك الآن؛ لكن ما إن تكون في السماء السابعة، وتشعر ان ذراعيها حول عنقك ـ أوه، يا إلهي، أحس بحرقةٍ في تجويف معدتي حين أفكر في هذا. وأنتَ تعي كل ما إمتلكتَه، حين تخفض بصرك ناظراً إليّ والى عذاباتي وتفكر أيَّ بائسٍ مُعدم أنا.»

«أنت لا تملك أسلوباً حسناً للتعبير عن نفسك، فيسال. لا أحتاج الى أن أخفي فكرتي عنه، طالما انك وبختني على كوني وقحاً: انه شيء كريه جداً وفي الأرجح مقصود من جانبك؛ أنت تخطط لأن تجعل من نفسك مثيراً للإشمئزاز وتُذل نفسك طوال الوقت. هل أنت حقاً متيمٌ بها بدرجة كبيرةٍ جداً؟»

«بدرجة مخيفة»، رد فيسال، بهزة رأس. «الكلمات غير قادرة على التعبير عما يتوجب عليّ أن أتحمله من توقي الشديد إليها. أود أن أجرؤ على القول انه سيكون موتي ـ لكن المشكلة هي، ان المرء لا يستطيع أن يموت أو يحيا. كان الوضع أفضل قليلاً حينما كانت بعيدة، كنتُ قد بدأت شيئاً فشيئاً بنسيانها. لكن منذ عودتها، أراها يومياً قبالتي، تُصيبني النوبات ـ أعضُّ يدي وأضرب ما حولي وأنا خارج عن طوري. هذه الأمور يجب أن لا تحصل؛ مع ذلك لا يستطيع المرء أن لا يرغب بعدم حدوثها. أي شخص في تلك الحالة لا يستطيع أن لا يرغب في عدم حصولها، سيكون ذلك أشبه بعدم الرغبة في الحياة، لأنها ربطت نفسها مع الحياة. كم سيكون ملائماً أن يموت الإنسان؟ في ما بعد ـ في ما بعد، نعم، بسرور. الموت

بين ذراعيها سيكون النعيم بعينه. لكن قبل ـ كلا؛ سيكون ذلك مُحالاً، لأن الحياة هي التوق، والتوق هو الحياة ـ هي لا تستطيع أن تسير ضد نفسها، هذا هو الجزء اللعين في اللعبة. حتى حين أقول اللعين فإنه مجرد إسلوب في الكلام، كما لو انني كنتُ شخصاً آخر، ذلك انني في قرارة نفسي لا أستطيع أن أشعر به هكذا. ثمة أنواع كثيرة من العذاب، كاستورب، وأي واحد منها تكون تحت طائلته، فإن رغبتك وتوقك الوحيدان هو أن تتحرر من أسره. إلا ان عذاب الرغبة الجسدية هو النوع الوحيد الذي لا يمكنك أن ترغب في التحرر منه، إلا من خلال الإشباع. أبداً، أبداً، لا يمكنك أن تتحرر منه بأي طريقة أخرى، لا يمكنك، مهما كلف الثمن. هكذا هو الأمر؛ الإنسان الذي لا يعاني منه لا يمعن النظر فيه؛ غير ان المرء الذي يعاني منه يتعلم معرفة [ربنا يسوع المسيح]، ودموعه تنهمر. يا ربنا الكريم في السماء، أي شيء هذا، الجسد يستطيع أن يتوق الى الجسد هكذا، ببساطة لأنه ليس جسده هو، بل يعود الى شخص آخر ـ يا له من شيء غريب؛ ومع ذلك حين تمعن النظر في الموضوع، كم هو متواضع، كم هو ودي، كم هو تبريري تقريباً! قد يقول المرء، تقريباً، إذا كان هذا هو كل ما يبتغيه، بإسم الله دعه يناله! ما الذي أريده، كاستورب؟ هل أريد أن أقتلها؟ هل أرغب بأن أُريق دمها؟ أريد فقط أن ألاطفها. يا كاستورب العزيز، الطيب، لا تحتقرني لأنني أنتحب هكذا ـ لكن على الرغم من كل شيء، ألا تستطيع هي ان تجعلني أنال ما أريد؟ سيكون ثمة شيء أسمى فيه، كاستورب؛ لستُ بهيمة الحقل، بطريقتي الخاصة أنا إنسان أيضاً. الرغبة الجسدية الخالصة تبحث، هنا، هناك، وفي الأمكنة كلها؛ هي ليست مقيدة، ليست ثابتة، ولهذا نسميها حيوانية. لكنها حين تكون مثبتة على مخلوقة ما، ذات وجه بشري، عندئذ نبدأ بالحديث عن الحب. لستُ أتوق فقط الى جانبها الجسدي، كي أتمتع به كما لو كانت دميةً من لحم ودم؛ إذا كان هناك مجرد شيء صغير واحد في الأقل مختلف في وجهها، فربما ما كنتُ لأتوق إليها على الإطلاق ـ الأمر الذي يُظهر انني أحب روحها وأحبها بروحي. ذلك ان حب الوجه هو حب الروح ـ»

«ياه، فيسال، ماذا دهاك؟ أنت فاقد لصوابك، أنت لا تعرف كيف تسير ـ»

«غير ان هذا هو الحال»، تابع البائس الحزين، «ذلك ان لها روحاً، ذلك انها كائن خُلِقَ من روح وجسد. وان روحها ليس لها البتة أي صلةٍ بروحي، وجسدها أيضاً لا علاقة له بجسدي، من هنا تأتي، أوه، رباه، العذابات التي أكابدها، وهكذا فإن رغبتي حُكم عليها بالعار، وجسدي ينبغي له أن يُميت نفسه الى الأبد. لماذا لا تعرف شيئاً عني، كاستورب، لا الجسد ولا الروح، ولماذا تكون رغبتي شيئاً مرعباً لها؟ ألستُ رجلاً؟ حتى إذا كنت مثيراً للاشمئزاز؟ أحلف لك انني كذلك، وانني سأهبها أكثر من كل الآخرين الراقدين هناك، ما إن تفتح لي جنة عناقها، نعيم ذراعيها، الجميلتين لأن روحها كذلك. كاستورب، لن تكون هناك سعادة جسدية لن أهبها لها، ليتها كانت فقط مسألة الجسد، وليست مسألة الوجه، ليتها لم تكن روحها الملعونة التي تنال شيئاً مني، التي من دونها لن يكون لي إشتياق الى جسدها ـ هذا هو طاحون الدوس(٥٤) الخاص بالشيطان الذي أدور وأدور فيه طوال الأبدية كلها.»

«صه، فيسال، صه، الحوذي يستطيع أن يفهمك. وهو لم يدرْ رأسه، عمداً، لكنني أستطيع أن أرى من خلال تعبير ظهره انه يصغي إلينا.»

«أجل، أنت مُحق، انه يستمع إلينا، وهو يفهم كلامنا. هو ذا ثانيةً الشيء الذي أتكلم عنه، ويمكنك أن ترى أي نوعٍ هو. او كنتُ تكلمتُ عن ـ عن التناسخ، أو الهيدروستاتيكا(٥٥)، لما كان يفهم، وما كان ليصيخ السمع، هو لا يملك أدنى فكرة عنه، ولا يبالي بأن يملك. ليس هناك فهم ميسَّر لتلك الأشياء. بيد ان [شغلة] الجسد والروح هذه، القضية الأخيرة والأسمى والخصوصية والمروِّعة جداً في العالم، هي أيضاً أكثر المسائل كونيةً ـ كل

---

(٥٤) طاحون الدوس tread mill جهاز لإحداث الحركة الدائرية بالدوس على مواطئ للأقدام في دولاب أو نحوه (لتعذيب المجرمين) ـ المترجم.

(٥٥) الهيدروستاتيكا hydrostatics: علم توازن الموائع وضغط ـ المترجم.

امرىءٍ قادر على أن يدركها ويضحك على أي فردٍ يعاني منها، نهاراته لوعة الرغبة ولياليه عذاب الجحيم. كاستورب، كاستورب العزيز، دعني أنوح نواحي الصغير لك ـ أنتَ لا تعرف أي ليالٍ تلك التي أحياها. كل ليلةٍ أراها في حلمي، آه، ماذا لو اني لم أحلم بها، هذا يجعلني أشتعل من الداخل حتى لو مجرد التفكير فيه! والأحلام كلها تنتهي بالطريقة نفسها: تلكمني هي على أذني، تصفعني على وجهي، في بعض الأحيان تبصق عليَّ، وجهها مشوه بكل معنى الكلمة بسبب الإشمئزاز البادي عليه، وبعدها أفيق من نومي مكسواً بالعرق وغارقاً في العار والرغبة ـ»

«هذا يكفي، فيسال. سوف نجلس هادئين الآن، ونقرر أن نمسك لساننا الى أن نصل كوخ البقال ويأتي أحدهما معنا. هذه هي أمنيتي. لا أريد أن أجرحك، وأقر ان حالتك العقلية وضع فريد تماماً وفوضى إستثنائية. لكنك تعرف قصة العذراء التي عوقبت لسببٍ من الأسباب، التي كانت لها ثعابين وضفادع الطين تقفز من فمها، ثعبان أو علجوم يقفز مع كل كلمةٍ تقولها. الكتاب لا يقول ماذا فعلت هي بشأن ذلك، لكنني أعتقد انها أخيراً توجّب عليها أن تبقي فمها مغلقاً.»

«إلا ان أي إنسان يحتاج الى أن يعبّر عما يجيش في صدره»، قال فيسال بتذمر، «كي يريح نفسه، عزيزي كاستورب، حين يكون هو في الحالة التي أنا فيها!»

«وكل امرىءٍ له الحق في فعلِ ذلك، وكذلك أنتَ، إن شئتَ. لكن عزيزي فيسال، يبدو لي ان ثمة حقوقاً معينةً الإنسان ببساطة لا يدافع عنها.»

بعدها، بحسب مشيئة هانز كاستورب، لزما الصمت. الأكثر من ذلك، كانوا قد وصلوا الآن الى كوخ البقال المكسو بالنبات المعترش، حيث لم تكن بهم حاجة الى أن يتوانوا مطلقاً، ذلك ان نافته وسيتيمبريني كانا يقفان منتظرين في الشارع؛ أحدهما بمعطفه الفراء الرث، الثاني بمعطفه الربيعي الأبيض ـ المصفر، المرتق بوفرة، ويبدو تقريباً مسرفاً في الأناقة. إنحنوا جميعاً وتبادلوا التحايا، ونافته إتخذ مجلسه بجنب فيرجه في اللندوية الأولى، التي أصبحت الآن تضم أربعة أفراد، بينما السيد سيتيمبريني أضاف نفسه الى

الشخصين الآخرين في العربة الثانية. فيسال تخلى عن موضعه في المقعد الخلفي والإيطالي تراخى هناك بأناقة، كما لو انه يسترخي في كورسيكا بوطنه، بأفضل مزاج له، ومزبداً بـ[مرح].

تحدث عن سعادة النزهة في مركبة، فتنة الجلوس بهدوء وفي الوقت نفسه تتحرك بك العربة وسط مشهد متغيّر؛ أبدى اهتماماً أبوياً بـ هانز كاستورب، وحتى ربت على خد فيسال البائس وأمره أن ينسى أناه غير العاطفية هو في الإعجاب بالعالم الخارجي السعيد، الأمر الذي أشار إليه الإيطالي بإيماءةٍ مترفة من يده بقفازها الجلد الملبوس.

كانت نزهة مبهجة. الجياد، أربعتها بهائم قوية، لامعة، حسنة التغذية، مع غُرّة على جبين كل واحد منها، إجتازت الطريق الممتاز بخطوات ثابتة. لم يكن ثمة غبار. كان يحف الطريق هنا وهناك صخر مفتت مزوّد بخصلٍ من النجيل والأزاهير. كانت أعمدة التلغراف تنطلق بعيداً. كان طريقهم يلتف على طول الغابات الجبلية في منحنيات سارة إستدعت الاهتمام وأغرته؛ في البُعد المشمس ومضت المرتفعات الجبلية التي كانت ما تزال مكسوةً جزئياً بالثلج. خلّفوا وراءهم واديهم الذي إعتادوا عليه، وتغيّر المشهد أنعش أرواحهم. عند حافة الغابة توقفوا، كونهم قرروا أن يجتازوا على الأقدام المسافة المتبقية الى الهدف الذي في بالهم ـ وهو هدف كانوا قد وعوا به على مدى وقتٍ معين، بسبب الصوت الذي تناهى الى مسامعهم، بالكاد كان مسموعاً في البدء، إلا أن حجمه كان يزداد بثبات. كلهم قاطبةً سمعوا، مباشرة ترجلوا، ذلك الهدير البعيد، الصفيري، الرنان، تلك الدمدمة البعيدة للماء، التي كانت حتى الآن ضعيفةً جداً بحيث انهم أضاعوا الصوت بغتةً وتوقفوا قليلاً كي يرهفوا السمع من جديد.

«انه معتدل بدرجة كافية الآن»، قال سيتيمبريني. كان قد أتى الى هنا كثيراً. «لكنك حين تدنو، يكون وحشياً، في هذا الوقت من السنة. لن يكون بمستطاعك أن تسمع نفسك تفكر ـ انتبه الى كلماتي.»

هكذا دخلوا الغابات، على طول دربٍ مكسو بأبر الصنوبر الندية: بيتر بيبركورن أولاً، مستنداً الى ذراع المدام شوشا، كانت قبعته السوداء مسحوبة

الى الأسفل فوق حاجبيه، يمشي مشيته المسترخية؛ خلفهما هانز كاستورب حاسر الرأس، كالنبلاء الآخرين، يداه في جيبيه، رأسه مائل الى أحد الجانبين، يصفّر بهدوء بينما هو يتطلع حواليه؛ ثم نافته وسيتيمبريني، ثم فيرجه وفيسال، أخيراً المالاوي مع سلة الشاي على ذراعه. كانوا كلهم يتحدثون عن الغابة.

ذلك ان الغابة لم تكن من النوع المألوف تماماً، كانت لها خصوصية تجعلها رائعةً، غريبةً، وحتى خارقة للطبيعة. كانت تزخر بطحلب معلّق، كسى وكلل وغلّف الأشجار: النسيج المتلبد لهذا النبات الطفيلي تعلق وتدلى في لحى طويلة، شاحبة من الأغصان؛ بحيث نادراً ما كانت هناك أي أبر صنوبر مرئية بسبب الوشاح المكفِن. إستحالة تامة، غريبة، مشهد مسحور ومروِّع. ذلك ان الأشجار كانت مريضةً بسبب هذا النمو الوفير، كان هذا يهددها بالخنق حتى الموت ـ هكذا شعر الزائرون كلهم، حين إلتف الموكب الصغير على طول الدرب متجهاً صوب الصوت، والهسيس والرش تضخم ببطء الى جلبةٍ عظيمة بررت نبوءة سيتيمبريني.

ثمة إنعطافة في الدرب أظهرت الجسر والوهد الصخري الذي كان السيل ينسكب بغزارة أسفله. لحظة رأته عيونهم، آذانهم بدت وكأنها حُييت بأقوى صوت ـ ذلك ان (جهنمي) هي الكلمة المناسبة الوحيدة له. كانت كتلة الماء تسقط عموديةً في شلال صغير وحيد، أغلب الظن على إرتفاع تسعة أو عشرة أقدام، وذي نَفَس معتبر، ويزبد رشاشاً أبيض فوق الصخور. الضجيج المسعور لسقوطه بدا انه مزج كل شدات وأنواع الصوت الممكنة ـ الهسيس، الرعد، الدوي، الهدير، الزعيق، الهمس، صوت التهشم. الفرقعة، الأزيز، الرنين ـ الواقع كان كافياً لأن يجعل المرء يفقد وعيه. إقترب الزائرون كثيراً، على الصخور الزلقِة عند أسفل الهوة، ووقفوا ينظرون، ملوَّثين برشاشه الموحل، مغلفين بسديمه، آذانهم سُدت بوساطة صخبه البربري. تبادلوا النظرات وهزات الرأس والإبتسامات المرعبة تقريباً بينما كانوا واقفين ينظرون الى هذا المشهد اللافت، هذه الكارثة الطويلة المؤلفة من زَبَد وضراوة، هديرها المحال أصابهم بالصمم، أخافهم، أربك حواس النظر والسمع

الخاصة بهم، بحيث انهم تصوروا انهم سمعوا أعلاهم، أدناهم، وفي كل الجوانب المحيطة بهم، صيحات تحذير، نداءات مدوية، أصوات إنسانية خشنة.

احتشدوا في مجموعة صغيرة خلف مينهير بيبركورن، السيدة شوشا محاطة بالنبلاء الخمسة، وقفوا ونظروا في المياه المصطخبة. الآخرون لم يكن بميسورهم رؤية وجه الهولندي، إلا انهم شاهدوه يخلع قبعته، ويستنشق الطراوة بصدر متسع. كانوا يتصلون بعضهم ببعض بوساطة النظرات والإشارات، ذلك ان الكلمات كانت عديمة النفع، وحتى انهم صرخوا مباشرةً في أذن أحدهم الآخر، بإزاء ذلك الدوي العنيف. شفاههم شكلت تعابير عديمة الصوت تنم عن العجب والدهشة. هانز كاستورب، سيتيمبريني، وفيرجه إقترحوا بوساطة إيماءات الرؤوس والإشارات أن يتسلقوا جانب الوهد الذي كانوا واقفين فيه، وأن يخفضوا أبصارهم ناظرين الى الماء من الأعلى. لم يكن ذلك عسيراً: ثمة سلسلة من الدرجات الضيقة مقطوعة في الصخر تؤدي الى الطبقة العليا، إذا صح القول، للغابة. صعدوها، الواحد تلو الآخر، وصلوا الجسر الذي إمتد فوق الماء في المكان الذي تقوس فيه كي ينسكب الى الأسفل، ومالوا على الحاجز (الدرابزون)، لوّحوا للفئة التي في الأسفل. ثم إجتازوه ونزلوا بمشقةٍ في الجانب الآخر من التيار، حيث إنضموا من جديد الى أصحابهم عند جسرٍ ثانٍ فوق السيل المنطلق بسرعة.

شرب الشاي صار الآن ضرورياً؛ وأكثر من واحد منهم قال انه ربما سيكون شيئاً حسناً أن ينسحبوا قليلاً عن الجلبة كي يتمتعوا بتلك الطراوة براحة؛ قبل أن يصبحوا بُكماً تماماً، صُماً كلياً، ودائخين. لكنهم فهموا ان بيبركورن كان يفكر بطريقةٍ مختلفةٍ تماماً. هز رأسه، وأشار مرات عدة بعنف الى الأرض. شفتاه المشوهتان إنفتلتا الى الخلف مع توكيد الـ«هنا.» الذي شكلتاه. ما الذي يستطيع أن يفعله الآخرون؟ في مسائل كهذه كان قد إعتاد أن يأمر، وثقل شخصيته كان دوماً حاسماً، حتى إذا لم يكن، إذا صح القول، رئيس ومحرّك البعثة. الضخامة نفسها إستبدادية، أوتوقراطية؛ هكذا

كانت هي على الدوام، هكذا ستبقى هي. ودَّ مينهير أن يأكل على مرأى من، على مسمع من الشلال الراعد، كانت هذه إرادته العظيمة. مَنْ لا يريد أن يجوع عليه أن يذعن. شعر معظمهم بعدم الرضا. السيد سيتيمبريني رأى بأن أي فرصة بكل في الكلمة من معنى للحوار، للتبادل الإنساني للآراء، ستكون أمراً مستحيلاً، وقذف يده بإيماءة يأسٍ تم الإستسلام له. المالاوي أسرع الى تنفيذ مشيئة سيده. (ستولا) مخيم نُصبا على الصخور للمسيو والمدام، وعند أقدامهما فوق قطعة قماش بسطَ محتويات السلة: جهاز القهوة والكؤوس، قناني (الترمس)، الكعك والخمر. الآخرون وجدوا أمكنةً لهم على جلاميد الصخر، أو على درابزون جسر السابلة، حاملين أكواب قهوتهم الحارة في أياديهم، صحونهم على رُكبهم، أكلوا بصمتٍ، وسط الجلبة.

بيبركورن جلس بياقة معطفه مرفوعة الى الأعلى وقبعته على الأرض بجنبه، محتسياً خمر البورت من كوب فضةٍ عُلِّم بالمونوغرام، الذي أفرغه مراتٍ عدة. وفجأةً شرع يتكلم. رجل إستثنائي! كان يتعذر عليه أن يسمع صوته هو، ويتعذر أكثر للآخرين أن يلتقطوا مقطعاً لفظياً لما سمح أن يرتشح من فمه في أقل إرتشاح. لكن مع كوب الخمر بيده اليمنى، رفع سبابته، مدَّ راحة ذراعه اليسرى الى الخارج نحو الماء. شاهدوا قسماته الملكية، تتحرك في كلام ما، الفم يشكل الكلمات، التي كانت صامتة كما لو انها قيلت في مكانٍ فارغ، خالٍ من الأثير. ما من أحد حلم انه سيتابع الكلام، بابتسامات مُربَكة شاهدوا هذه الفعالية العقيمة، معتقدين كل دقيقةٍ انها سوف تتوقف. لكنه تابع حديثه، بإيماءةٍ متوترة، مفروضة بالقوة، كي يخطب وسط الضجيج الذي إبتلع كلماته؛ موجهاً الى هذا الشخص أو ذاك من المجموعة بالتوالي نظرة عينيه الصغيرتين الشاحبتين المرهقتين، الممتدتين مسافةً واسعة أسفل طيات جبينه المرفوعة؛ وأي واحد منهم شعر انه هو المخاطب كان مجبراً على أن يومئ برأسه بالمقابل من جديد، مفتوح العينين، فاغر الفم، يده على أذنه، كما لو ان أي نوعٍ من المجهود الذي يبذله كي يسمع كان بوسعه أن يُحسِّن الموقف الميئوس منه تماماً. هو حتى نهض على قدميه! هو ذا، بمعطفه الايرلندي الفضفاض المجعد، الذي وصل تقريباً الى كعبي قدميه،

الياقة مرفوعة للأعلى؛ حاسر الرأس، الكوب في يده، الجبين العالي مغضن بطيات أشبه بجبين وثن معين في مقام ما، ومتوجاً بهالةٍ من الشعر الأبيض الشبيه بألسنة لهب خافقة؛ هو ذا وقفَ عند الصخور وتكلم، حاملاً دائرة الإبهام والسبابة، وباقي الأصابع شبيهة بالرماح فوقها، أمام وجهه، وخاتماً شرب نخبه الأخرس والمبهم بتلك الإشارة المفروضة بالقوة للدقة. كلمات كهذه إعتادوا سماعها منه، كان بوسعهم أن يقرأوها على شفتيه أو يحرزوها من إيماءاته: «ماشي» و«بكل ما في الكلمة من معنى» ـ غير ان هذا كان كل شيء. رأوا رأسه يغوص جانباً، المرارة المكسرة لشفتيه، شاهدوا رجل الأحزان في زيه. لكن بعدها بنحو مفاجئ تماماً توهجت الغمازة، النقرة المترفة، الرداء إرتفع بطريقة الرقص، قلة الإحتشام الطقسية للكاهن الوثني. رفع كأسه الكبيرة، لوّح بها نصف دائرة أمام النزلاء المجتمعين، وشربها في ثلاث جرعات، بحيث أصبح عاليها سافلها. ثم سلّمها بذراع ممدودة الى المالاوي الذي تناولها بإنحناءة احترام، وأعطى إشارةً بأن الوليمةَ إنتهت.

كلهم انحنوا له وشكروه بينما كانوا يسرعون لتنفيذ أمره. أولئك المقرفصين على الأرض وثبوا، الآخرون قفزوا الى الأسفل من الدرابزون. الجاوي الصغير بقبعته الصلدة وياقته المقلوبة للأعلى جمع فتات وجبة الطعام. رجعوا على طول الدرب بالنظام نفسه الذي جاءوا فيه، عبر البستان المكسو، الغريب، الى الطريق العام والعربتين المنتظرتين.

هذه المرة هانز كاستورب ركب مع مينهير والمدام، وجلس قبالة الثنائي مع فيرجه الذليل، الذي كانت بالنسبة له كل الأفكار السامية عقيمة. نادراً ما قيلت كلمة واحدة في أثناء الطريق الى المصح. مينهير جلس وفكه متدلٍ وراحتا يديه الى الأعلى فوق دثار العربة المنشور على ركبتيه وركبتي المدام. سيتيميريني ونافته ترجلا وإستأذنا بالإنصراف قبل أن تجتاز العربتان خط السكة الحديد والمجرى المائي، وفيسال ظل وحيداً حتى مدخل بيرغهوف، حيث إنفضَّ أفراد المجموعة كلٌ الى حال سبيله.

هل صُيِّر نوم هانز كاستورب هذه الليلة خفيفاً ومتقطعاً بفعل الأعاجيب التي لم تكن روحه تعرف عنها شيئاً ـ بحيث ان أقل تغيير في السلام الليلي

المألوف لمصح بيرغهوف، أدنى إهتياج، صوت الركض الذي لا يُكاد يُسمع، كان كافياً لأن يؤتى به يقظاً تماماً، ويجعله يجلس في فراشه؟ كان هو، حقيقة، مستيقظاً على مدى وقتٍ معين قبل أن تكون هناك ضربة عنيفة على بابه، كالتي حدثت بعد الساعة الثانية بقليل. أجاب في الحال، رابط الجأش، يقظاً ونشيطاً، وسمع صوت واحدة من الممرضات في الدار، تقول بنبراتٍ عاليةٍ مترددةٍ أن السيدة شوشا ستكون سعيدةً إذا ما جاء حالاً الى الطبقة الأولى. استجاب بنشاط وخفة، وثب وخطف بعض الملابس، مرر أصابعه على شعره، ونزل؛ لم يكن بطيئاً، ولا سريعاً، لكنه كان مرتاباً حول معنى هذا الإستدعاء.

كان الباب المؤدي الى صالون بيبركورن مفتوحاً، وكذا المفضي الى غرفة نومه، حيث كانت الأنوار كلها مُشعلة. الطبيبان، المديرة، المدام شوشا، والمالاوي كانوا في الداخل، ذو الإسم الأخير لم يكن يلبس ثياباً كالتي إعتاد لبسها، بل كان في زي قومي، برداء مخطط أشبه بالقميص، بكمين واسعين وطويلين جداً، وتنورة ذات لون بهيج، يعتمر قبعةً غريبةً، مخروطية الشكل من قماش أصفر. كان يلبس حليةً من التمائم على صدره، ويقف بيدين مطويتين عند رأس السرير، حيث بيتر بيبركورن يرقد على ظهره، ذراعاه مبسوطتان أمامه. هانز كاستورب، مبهوتا؛ فهم المشهد. كانت السيدة شوشا جالسة وظهرها نحوه في كرسي واطئ عند قدم السرير. مرفقاها استراحا على الغطاء، ذقنها في يديها، اللتين كانت أصابعهما مدفونةً في شفتها العليا، وتحدّق في وجه حاميها.

«مساء الخير، يا بني»، قال بيرنز، الذي كان يتكلم بنبراتٍ واطئةٍ مع كروكوفسكي وأوبرين، وأومأ برأسه بأسف الى هانز كاستورب، وشفته العليا مسحوبةٌ الى الوراء. كان يرتدي معطف الجراح خاصته، برزت من جيبه سماعة طبية، ينتعل خفين مزينين ومن دون ياقة. «إنتهى كل شيء بالنسبة له»، أضاف بهمس. «انه هالك. تعال وإلقِ نظرةً عليه ـ مرر عينك المتمرسة عليه ـ ستوافق أن ليس ثمة شيء يمكننا أن نفعله.»

هانز كاستورب دنا من السرير على أطراف أصابعه. المالاوي من دون

أن يدير رأسه تابع الحركة، الى أن أظهرت كرتا عينيه البياض. الشاب طمأن نفسه من خلال نظرة جانبية ان السيدة شوشا لم تكن تعير إهتماماً؛ ثم وقف عند السرير بوضعه المألوف، ثقله على ساقٍ واحدة، رأسه مائل الى أحد الجانبين، يداه مطويتان على معدته، ناظراً بوقار، بتأمل. كان بيتر بيبركورن راقداً تحت الغطاء الساتان الأحمر، بقميصه (التريكو)، كما إعتاد هانز كاستورب أن يراه. كانت يداه معرّقتين بأوردة سود مزرقة، وبطريقةٍ مماثلةٍ أجزاء من وجهه كانت هكذا؛ حدث تشوه كبير، مع ان الملامح الملكية ظلت من دون تغيير. تحت الهالة البيضاء لشعره الطيات الشبيهة بطيات قناع، نحتتها الإيماءة المألوفة لزمن الحياة، في صفٍ مؤلف من أربع أو خمس، مستقيمةً عبر الجبين وبعدها في زاوية قائمة تهبط فوق الصدغين؛ كانت مدهشةً أكثر من أي وقت مضى، بالمقارنة مع الجفنين المسبلين وهدوء الملامح. الشفتان المتشققتان كانتا منفرجتين قليلاً. الأزرقاق دلَّ على توقف مفاجئ، عنيف، سكتي[٥٦] للوظائف الحيوية.

هانز كاستورب وقف برهةً، بوقار، ملاحظاً هذا كله؛ يتردد ما إذا يتحرك أم لا؛ يتوقع ان تخاطبه «الأرملة». طالما انه لم يتحرك، ولم يستطع أن يكره نفسه على إقلاقها، إلتفت الى المجموعة الصغيرة المؤلفة من الأشخاص الآخرين الحاضرين. بيرنز رج رأسه باتجاه الصالون، وهانز كاستورب تبعه الى هناك.

«إنتحار؟» سأل، ملطفاً، لكن مهذباً.

«نوعاً ما»، قال هوفرات، مع هزةٍ من كتفيه، وأضاف: «تماماً. الى أقصى قوة. هل سبق وأن رأيت لعبةً كهذه من قبل؟» مضى يقول، وسحب من جيب سمقه علبةً ذات شكل غير منتظم، أخذ منها شيئاً صغيراً وقدّمه لملاحظة الشاب. «ولا أنا. لكنه شيء يستحق الرؤية. نحن نحيا ونتعلم. انها أداة صغيرة رائعة، وصريحة. أخذتها من يده. حذارِ، إذا قطرت على جلدك فسوف يتقرح.»

---

(٥٦) سكتي apoplectic: ذو علاقة بداء السكتة ـ المترجم.

هانز كاستورب قلّب الشيء الصغير المحير في يديه. كان مصنوعاً من الفولاذ، الذهب، العاج، والمطاط، رؤيته شيء مدهش. كان هناك طرفان مستدقان مقوسان من الفولاذ اللامع، حادا الطرف بإفراط؛ ذو جزء وسطي حلزوني قليلاً من العاج المرصع بالذهب، الذي كان فيه الطرفان المستدقان متحركين بعض الشيء ويمكنهما أن يغوصا الى نقطةٍ ما؛ وشيء بصلي الشكل من مطاط أسود نصف صلب. كان الشيء كله لا يتجاوز طوله الإنشين.

«ما هو هذا الشيء؟» سأل هانز كاستورب.

«هذه»، أجاب بيرنز، «محقنة منظمة للزرق تحت الجلد. أو، إذا شئتَ، نسخةً من تقنية لسعة الكوبرا. فاهم؟ لا تبدو فاهماً»، استطرد يقول، بينما واصل هانز كاستورب النظر الى الآلة الصغيرة العجيبة. «هي ذي الأسنان. هي ليست صلدة تماماً، ثمة قنال في الداخل، بسمك شعرة؛ يمكنك أن ترى مخرجها بوضوح تام، هنا فوق الحافة بالضبط. هي أيضاً مفتوحة عند القاعدة، بالطبع، وتتصل مع القناة الإفرازية للشيء بصلي الشكل، الذي يمتد في الجزء الوسطي العاجي. حين تعض الأسنان، تغوص قليلاً، والضغط على المستودع يفرِّغ المحتويات في داخل القنوات، بحيث ان السُم يلج الدورة الدموية لحظة تتغلغل الأنياب في الجسد. انها بسيطة تماماً، حين تراها هكذا؛ عليك أن تفهم الفكرة. لعلها صُنعت على وفق تصميمه.»

«يقيناً»، قال هانز كاستورب.

«لا بد ان الكمية كانت صغيرة جداً»، واصل هوفرات. «ما أُفتقد في الكمية يُعوّض في ـ»

«الفعالية»، هانز كاستورب أكمل جملته.

«حسن، نعم. ماذا كانت هذه المادة سنكتشف ذلك حالاً. انها شيء يستأهل أن نعرفه، لها شيء غريب يعلمنا. هل ينبغي لنا أن نراهن ان ابن البلد في الواجب، هناك، الذي كسا نفسه بثيابٍ أشبه بثياب العمل الليلي، يمكنه أن يخبرنا كلنا بما نريد معرفته؟ أنا أشك انه مزيج من السم الحيواني

والسم النباتي، أقوى سم معروف، لا بد انه كان له فعل البرق. كل شيء يشير الى انه أخذ نَفَسه، شلَّ تنفسه، كما تعرف، إختناق سريع، أغلب الظن سهل وخالٍ من الألم.»

«الله أعطاه إياه»، قال هانز كاستورب بورعٍ، أعاد اللعبة الغريبة الى هوفرات وعاد الى حجرة النوم.

المدام شوشا والمالاوي كانا هناك وحدهما. وهذه المرة كلاوديا رفعت وجهها الى الشاب حين اقترب من السرير.

«كان لك الحق بأن يتم إستدعائك»، قالت.

«كان هذا لطف منكِ»، أجاب، «وأنتم محقون.» أفاد نفسه من جمع الشخص الثالث كما يستخدمه أناس الغرب المتحضر. «كنا شقيقين. أشعر بالخجل في أعماق روحي بحيث انني حاولتُ إخفاء صلتي به، واستخدمت المواربات أمام الناس الآخرين. هل كنتِ معه عند النهاية؟»

«الخادم استدعاني حين إنتهى كل شيء»، ردت قائلةً.

«هو مبني على قياس كبير جداً»، بدأ هانز كاستورب الكلام ثانيةً، «هو يعتبره تجديفاً، كارثة كونية، ان يوجد المرء من دون إحساس. إذ ينبغي لكِ أن تعرفي، انه عدَّ نفسه أداةً لزواج الرب. كان هذا جزءاً من الحماقة الملكية ـ حين يكون المرء مستشاراً يكون بوسعه أن يقول أشياءَ تبدو حمقاء وغير متسمة بالإحترام، لكنها على الرغم من كل شيء وقورة أكثر من الصيغ الدينية التقليدية.»

«هذا تنازل»، قالت. «هل عرف هو عن حماقتنا؟»

«لم يكن بمستطاعي أن أمنع معرفته، كلاوديا. خمَّنَ هو، حين رفضتُ أن أطبع قبلةً على جبينك، بحضوره. في هذه اللحظة، حضوره رمزي نوعاً أكثر من كونه واقعياً ـ لكن هل تسمحين لي أن أفعلها الآن؟»

حركت رأسها نحوه، بإيماءةٍ صغيرة، عيناها مغمضتان. طبع قبلةً على جبينها. عينا الخادم المالاي البنيتان الشبيهتان بعيني كلب راقبتا المشهد، دارتا جانباً، الى أن ظهر بياضهما.

الإله العظيم إنقباض

مرةً أخرى نسمع صوت السيد هوفرات بيرنز ـ دعنا نصغي إليه. ذلك اننا أغلب الظن نسمعه آخرة مر. ذات يوم حتى القصة نفسها سوف تبلغ نهايتها. طويلاً دامت هي؛ أو بالأحرى سرعة سير زمنها المضموني كانت قد إزدادت كثيراً بحيث لم يعد هناك إيقاف له، حتى زمنها الموسيقي إنتهى. أغلب الظن لن تكون لنا فرصة أخرى لسماع الإيقاعات الحيوية للسان الرادامانثي. قال هوفرات لـ هانز كاستورب: « كاستورب، أيها الديك القديم، أنت ضجر. مكتئباً، أرى هذا يومياً، الإشمئزاز والسأم مكتوبين على جبينك. أنت منكمش مثل إطار عجلة مثقوب ـ إن لم تأتِ إثارة من الدرجة الأولى كل يوم، تبدو مكتئباً ولسان حالك يقول [هِمم، في التل بطاطات صغيرات وقليلات!] ألستُ مصيباً أم لا؟»

هانز كاستورب لم يقل كلمة ـ كانت تلك إشارة أكيدة ان إنسانه الباطني كان يعمه الغمّ.

«مُصيب إذاً، بالطبع، كما أنا دوماً» أجاب بيرنز نفسه. «حسن، لا أستطيع أن أجعلك تنشر سمَّ إستيائك في جاليتي كلها، أنتَ المواطن الساخط، أنتَ. يلزمني أن أقنعك انك غير منسي بالنسبة للباري والإنسان، وان السلطات في الأعلى تنظر إليك بثبات واستمرار، وتفكر ملياً وبلا انقطاع في رفاهيتك. العجوز بيرنز لم يهجرك بعد، يا غلامي. طيب، إذا ما نحينا المزاح جانباً، كنتُ أفكر في حالتك الصحية، وفي سهر الليالي يجري لي شيء ما. يمكنني تقريباً أن أتكلم عن إلهام ما ـ بإيجاز، أعد بأشياء عظيمة من فكرتي الجديدة، ليست أكثر أو أقل منّ شفائك التام وتقدمك المنتصر نحو الأرض المنبسطة، في لمح البصر.»

«أجل»، مضى يقول، بعد توقف قصير للتأثير في الآخر، «يلزمك أن تفتح عينيك جيداً» ـ هانز كاستورب لم يفعل شيئاً من ذلك القبيل، فقط طرف بعينيه ناظراً إليه نعساناً نوعاً وذاهلاً ـ «بطبيعة الحال، ليس لك أي فكرة كيف يستطيع العجوز بيرنز أن يقول شيئاً كهذا. طيب، الأمر أشبه بهذا: ما

كان بالوسع أن يفلت من إدراكك الحاد انه ثمة شيء ما يتعلق بحالتك الصحية لا يصمد للتحليل. ان أعراض العدوى لم تستجبْ على مدى زمن طويل للحالة الموضعية، التي تحسنت كثيراً جداً بنحو لا ريب فيه. لم أبدأ التفكير بها منذ الأمس فقط. هي ذي آخر صورة فوتوغرافية لك، خذها وارفعها الى الضياء. أنظر هنا! ان أكثر المتشائمين والمعترضين اعتراضاً تافهاً غرابةً ـ كما يقول قيصر ـ لا يستطيع أن يرى كثيراً جداً فيها كي يعثر على العيب. بعض البؤر أُمتصت، المنطقة أصغر ومحددة بنحو أكثر جلاءً، وأنت تعرف، كونك مجرِباً بصورة كافية، انها علامة من علامات الشفاء. لا شيء هنا كي يفسر اللا عِوَل[٥٧] الذي يتسم به سخانك الداخلي، يا رجلي. الطبيب يجد نفسه مضطراً للبحث عن سبب آخر.» إنحناءة هانز كاستورب نقلت على الأكثر ولعاً متحضراً.

«أنت تفكر بأن العجوز بيرنز ينبغي أن يعترف بأنه أخطأ في العلاج؟ طيب، إذا فعلت هذا، فانك ثانيةً تخفق إخفاقاً واضحاً، تقدّر الشيء تقديراً خاطئاً، وكذلك العجوز بيرنز. العلاج لم يكن مغلوطاً، لكنه في الأرجح كان أحادي الجانب. الإحتمال حدث لي بحيث أن أعراضك ليس من الضروري أن يُشار إليها كونها تدرناً رئوياً حسب ـ لأنه شيء غير وارد أن نعزوها إليه بعد الآن. لا بد ان هناك سبباً آخر للمشكلة في رأيي، عندك مكوّرات[٥٨]».

«نعم»، كرر بمزيدٍ من التوكيد، وبشكرٍ للإنحناءة التي تقبل هانز كاستورب تصريحه، «قناعتي الكبيرة أن عندك مكورات عِقدية[٥٩] ـ وهي، بالطبع، ليست مرعبةً بالضرورة.»

عن الرعب لن يكون هناك أي كلام: وجه هانز كاستورب عبّر على الأكثر عن نوعٍ من الإدراك الساخر، إما يُعزى الى قسوة رفيقه، أو الى الجلال الجديد الذي طوّقه به هوفرات بنحوٍ افتراضي.

---

(٥٧) اللا عِوَل unreliability: أي كون الشيء غير جدير بأن يعوّل عليه ـ المترجم.

(٥٨) مكوّرات cocci: البكتريا المكورة ـ المترجم.

(٥٩) مكوّرات عِقدية streps: المقصود streptococci: وهي مكورات بكتيرية متصلة بمكورات أُخر في سلسلة ـ المترجم.

«ما من ضرورة الرعب»، بدّل موضوعه. «الجميع عندهم مكورات بكتيرية. وكل أحمق لديه مكورات عِقدية. لا حاجة بك لأن تعجب. لم تمضِ مدة طويلة جداً منذ أن عرفنا ان المرء بميسوره أن يملك مكورات عقدية في الدم من دون أن يُظهر أي عرضٍ من أعراض الخمج. وكثير من زملائي هم غير مطلعين حتى الآن على الموقف الذي يجابهنا؛ أي، ان المرء يمكن أن يكون لديه عصية سُلية في دمه من دون أن يتردى حاله بسببها. نحن لا نبعد سوى قاب قوسين عن المفهوم القائل ان التدرن الرئوي مرض من أمراض الدم.»

هانز كاستورب بأدبٍ وجد ذلك أمراً لافتاً حقيقةً.

«حينما أقول مكورات عقدية»، شرع بيرنز يتحدث من جديد، «ينبغي لك ألا تتصور مرضاً معروفاً أو مرضاً من نوع شديد. لو ان هذه الصغيرة استقرت فعلاً وتصرفت في داخل جسمك كما لو انها في بيتها، فإن فحص الدم البكتريولوجي هو الذي سيظهرها. لكن ما إذا كانت هي حقيقةً سبب الحمى ـ على إفتراض انها موجودة ـ هذا يمكننا أن نعلنه فقط من خلال تأثير علاج لقاح المكورات العقدية. هذه، صديقي العزيز، هي التقنية، وأعد نفسي جاهلاً بنتائجها. التدرن الرئوي هو أكثر الأشياء طولاً في النَفَس في العالم؛ إلا ان أمراضاً من هذا النوع يمكن معالجتها بسرعة كبيرة اليوم، إذا إستجبتَ للتلقيحات، ستكون سليماً كجرس في غضون ستة أسابيع. حسن، ما رأيك في هذا؟ ذلك العم الصغير بيرنز له رأسه فوق كتفيه، ماذا؟»

«هي مجرد فرضية للحظة الحاضرة، أليس كذلك؟» قال هانز كاستورب بكسل.

«غير انها فرضية يمكن إثباتها! فرضية مثمرة بكل ما في الكلمة من معنى!» رد هوفرات. «سترى كم هي مثمرة، حين تبدأ المكورات البكتيرية النمو في وسطنا الزرعي. غداً عصراً سوف نختارك؛ سوف نجعل دمك على وفق الطقوس المقدسة لحلاق القرية. انها مسلية بحد ذاتها، وربما تكون ذات نتائج إعجازية.»

هانز كاستورب أظهر نفسه مستعداً للتحول، وشكر هوفرات بنحو

مناسب على جهوده التي بذلها لمصلحته. أمال رأسه الى أحد الجانبين وراقب بيرنز وهو يمشي بخطى قصيرة مترنحة. كان هذا شيئاً حقيقياً: التداخل الجراحي وصل الى لحظةٍ حرجة، رادامانثوس لم يمضِ بعيداً في الوصف الذي قدمه عن وجه هانز كاستورب، ومزاجه النفسي. المشروع الجديد أُنتج ـ بصراحةٍ تامة، لم تكن ثمة محاولة لإخفائه ـ كي يساعده على التغلب على الأزمة التي هو فيها، التي كشف خططها الحقيقية بمظهرٍ شبيه جداً بمظهر الراحل يواكيم، حين أعمل فكره متوصلاً الى قرار يائس.

وفضلاً عن ذلك. بدا لـ هانز كاستورب انه ليس هو وحده مَنْ وصل الى هذه النقطة، بل العالم كله، «العرض كله»، كما قال، وصل الى هناك معه؛ وجده هو أمراً شاقاً أن يميز حالته الخاصة عن الحالة العامة. كان قد جرّب الإنتهاء المتهور لعلاقته بشخصية ما. عمت الفوضى في الدار. كان هناك وداع بين كلاوديا شوشا وبينه، العنصر الحي لأخوة ممزقة؛ وداع، تم التلفظ به في ظل نكران زهدي تراجيدي للذات، وأعقبه رحيل ثانٍ لها عن بيرغهوف. الآن هذه الأحداث كلها وضعت الشاب في حالةٍ نفسية كي يجد الحياة ذاتها ليست جميلةً على وجه الدقة. الأشياء كلها لاحت وكأنها غدت منحرفةً بصورة دائمة ومتزايدة، كما لو ان قوةً شيطانيةً ـ أعطت في الواقع على مدى زمن طويل إشارات خفية لتأثيرها المؤذي ـ فجأةً سيطرت، بطريقة ما كي تُحدث رعباً غامضاً، وتقريباً أفكاراً بالهروب. اسم الشيطان كان: إنقباض.

القارئ سيتهم الكاتب بكونه أسرف في اللوم حين يجمع فكرتين مثل هاتين، ويعزو الى مجرد الابتذال ميزةً زهديةً وخارقةً للطبيعة. لكننا لن ننغمس في تحليقات الخيال. نحن نلتزم بنحو كامل بالتجربة الشخصية لبطلنا الساذج، التي بطريقةٍ ما تتحدى تعريفاً دقيقاً أُتيح لنا أن نعرفه، والتي تدل على انه حين تصبح كل ضرورات هذا العالم بصورة مشتركة سطحية، تافهة، وعديمة الجدوى، فانها في الواقع تستحوذ عليها ميزة شيطانية قادرة على أن تبعث المشاعر التي وصفناها آنفاً. هانز كاستورب نظر في ما حواليه. رأى في كل حدب وصوب الغريب والمؤذي، وعرف ما هذا الشيء الذي رآه:

حياةً من دون زمن، حياةً من دون قلق أو أمل، حياةً كالفسوق، ركوداً مجتهداً؛ حياةً شبيهة بالموت.

مع ذلك كانت مشغولةً أيضاً، كانت لها فعاليات من أنواع شتى، تتابعها في الوقت نفسه؛ المرة تلو المرة واحدة من هذه الفعاليات تتخذ تناسبات جنون، وتُخضع كل شيء لها. المقيمون القدامى خبروا الإنبعاث الدوري لأكثر من واحدة من هذه الهوايات. هكذا في سبيل المثال التصوير الفوتوغرافي الهاوي، الذي يلعب دوماً دوراً جوهرياً في دار بيرغهوف، يصبح مرتين هوساً تاماً، يستمر أسابيعَ وشهوراً من غير إنقطاع. في الأمكنة كلها يرى المرء أناساً منحنين باستغراق فوق الكاميرات المسندة في تجاويف بطونهم، يعدّلون مصراع الكاميرا ويفرقعونها؛ وفيضانات من اللقطات الفوتوغرافية سُلمتْ من يد الى يد عند المائدة. أصبحت ميزة شرف أن يقوم المرء بنفسه بتحميض الفيلم الفوتوغرافي. كان تجهيز الغرف الداكنة في المؤسسة غير كافٍ، نوافذ حجرات النوم والأبواب كانت تُكسى بقماش أسود، والقوم شغلوا أنفسهم بأضواء حمر باهتة فوق أحواض كيمياوية، الى أن شبت النار في شيء ما، الطالب البلغاري عند المائدة الروسية «الجيدة» كان قد تحول تقريباً الى رماد، وأُذيع مرسوم بالمنع من الإدارة بعدها سئموا من التصوير الفوتوغرافي العادي، الموضة تبدلت الى الصور الومضية والتصوير الفوتوغرافي الملون على وفق لوميير[٦٠]. كانوا متحمسين لمجاميع من الناس بعيون محدقة، مروَّعة في وجوه شاحبة بهرها نور المغنيسيوم، يشبهون جثث المقتولين عمداً المصفوفة بوضع عمودي. هانز كاستورب كان بحوزته صورة فوتوغرافية موجبة مؤطرة، تظهره بطلعة نحاسية اللون، زهر الحوذان بلون النحاس الأصفر في عروة سترته، واقفاً بين أزهار عشب الحوذان في مرج أخضر سام، مع السيدة شتور عند أحد جانبيه ببلوزة زرقاء سماوية، والآنسة ليوي عند الجانب الآخر بكنزة صوفية سميكة حمراء دموية.

(٦٠) لوميير Lumiere: صناعيان فرنسيان. اخترعا السينما وعملا في تقدم التصوير الملون. ـ المترجم.

بعدها كان هناك جمع الطوابع البريدية، إهتمام جدير بالإعتبار في الأزمان كلها، إلا انه يرتفع دورياً الى هاجس. الجميع ألصقوا، قطعوا بخشونة، تبادلوا بإطراد مجلاتٍ خاصةً بجمع الطوابع، دبروا رسائل متبادلة مع باعة خاصين، أجانب ومحليين، مع جمعياتٍ ومالكين خصوصيين؛ مبالغ مدهشة أُنفقتْ على عينات نادرة، حتى من قبل أشخاص كانت مواردهم المالية لا تكاد تكفي لتكاليفهم في بيرغهوف.

الطوابع البريدية كان لها يومها، وتفسح المجال للحماقة التالية في اللائحة، التي ربما يكون التكديس والمضغ اللانهائي لكل العلامات التجارية المتيسرة للشوكولاته. أفواه الجميع اصطبغت بلون بني، ومطبخ بيرغهوف قدّم أكثر أطعمته الشهية إتقاناً الى المتناولين العيابين واللامبالين الذين فقدوا شهياتهم الى (جوزة الملكا)، الشوكولاته بالقشدة والجوز، الماركيز النابليوني، وألسنة قطط منقطة بالذهب.

رسم الخنزير، تسلية أُدخلت من قبل السلطة العليا في أمسية كرنفالية بعيدة جداً، كان له يومه الصغير، وأدى الى مشكلات هندسية عسيرة على مدى زمن معين إستنفدت كل القدرات الفكرية لعالم بيرغهوف، وحتى آخر أفكار وطاقات الهالكين. على مدى أسابيع بلا إنقطاع كانت الدار تحت تأثير سحر شكل هندسي معقد يتألف من دوائر لا يقل عددها عن الثمانية، كبيرة وصغيرة، ومثلثات عديدة متعشقة، الدوائر والمثلثات كلها ينبغي رسمها يدوياً من دون رفع القلم ـ أو كتنقيح إضافي، يجب أن يرسمها المرء وهو معصوب العينين. المحامي باراوانت، فنان هذا النوع من التركيز الفكري، أخيراً نجح في إنجاز العمل الفذ، أغلب الظن مع فقدان طفيف للتناظر؛ غير انه كان الوحيد الذي أفلح.

نحن نعرف استناداً الى هوفرات ان المحامي باراوانت درس الرياضيات؛ كذلك نعرف الدوافع التأديبية لحبه الشديد لهذا الفرع من الدراسة، وفضله في تهدئة وتبليد الحد الماضي للرغبات الجسدية. إذا كان نزلاء دار بيرغهوف بنحو عمومي أكثر خصصوا أنفسهم للدراسة ذاتها، فإن الحاجة الى أحكام

حديثة معينة كان سيتم تحاشيها في الأرجح. رئيس هؤلاء تعامل مع الممر عبر الشرفات، عند نهاية حواجز الزجاج الأبيض التي لا تصل تماماً الى الدرابزون. هذه مُدت الآن بوساطة أبواب صغيرة، تولى مسؤولية إغلاقها كل ليلة أستاذ الإستحمام ـ وفعل هذا، مع مرافقةٍ عامة من الإبتسامات المتكلفة والضحكات نصف المكبوتة. منذ ذلك الوقت، حجرات النوم في الدور الأول أضحت ميّسرةً، لأنها قدّمت ممراً عبر سقف الشرفة ما وراء الدرابزون. إلا ان هذا السفر التأديبي لم يُدخلْ بسبب المحامي باراوانت. كان قد مضى زمن طويل منذ أن تغلب على النوبة الشديدة التي سببها حضور فاطمة المصرية، وكانت هي الأخيرة التي تحدت إنسانه الطبيعي. منذ زمنها كان قد زج نفسه بقناعة مضاعفة بين ذراعي المرأة الفاتنة حادة البصر، التي تحدث هوفرات بيرنز حديثاً أخلاقياً حول قدراتها المسكِنة. كانت هناك مسألة واحدة كرّس لها ليلاً ونهاراً كل قدراته الفكرية، كل العناد الرياضي الذي كان مرةً ـ قبل بداية هذه العطلة المطوّلة والمفروضة بالقوة، بحيث انها هددت في أوقات معينة بأن تنتهي بهدوء تام ـ قد مضى الى إدانة المجرمين. كانت تلك هي ـ محاولة عمل المستحيل.

في أثناء دراساته، هذا الموظف المتقاعد أقنع نفسه بأن الحجج التي بنى عليها العلم إستحالة المسألة كانت متعذرة الدفاع عنها؛ وان تدبيراً مهيمناً كان قد نقله، هو باراوانت، من عالم الأحياء، وأتى به هنا، كونه أُختير كي ينقل المسألة من عوالم الخارق للطبيعة الى عوالم الدنيوي والدقيق. ليلاً ونهاراً قاس وأحصى؛ غطى كمياتٍ هائلةً من الورق بالأرقام، الحروف، الحسابات، الرموز الجبرية: وجهه، الذي كان وجه رجل سليم وقوي ظاهرياً، حمل النظرة المحدقة الكئيبة والحالمة لشخص مصاب بالمس الأحادي؛ بينما حواره، برتابةٍ متماسكةٍ ومخيفةٍ، تعامل مع الرقم المتناسب (ط)[61]، ذلك الكسر المهجور الذي حسبته العبقرية التي قُلل من شأنها

(٦١) ط: هو النسبة الثابتة ٢٢\٧ أو ٣,١٤ ـ المترجم.

لعالم رياضيات يُدعى زاجاريا ديز[٦٢] إثنين بالمائة في المنزلة العِشرية ـ بنحوٍ واضح من أجل إبتهاجها وكعملٍ من أعمال التنفيل[٦٣]، إذ انه لو حسبها إثنين بالألف، النتيجة، مقارنةً بالدقة الرياضية التي يتعذر تحقيقها، لن تتبدل عملياً. الجميع تجنبوا باراوانت الذي كرس نفسه للرياضيات كما لو كان طاعوناً؛ فأياً كان هذا الشخص أفلح هو في أن يكرهه على الإستماع إليه، ذلك البائس الحزين توجب عليه أن يصغي الى سيلٍ من خطبةٍ ملتهبة حماسةً، بينما كافح المحامي ليوقظ مشاريعه الأكثر إنسانيةً نحو العار الذي يكمن في تشويه عقل الإنسان بوساطة اللاعقلانية الميؤوس منها لهذه العلاقة الغامضة. ان العقم الأبدي لضرب قطر الدائرة في النسبة الثابتة لإيجاد محيطها، ضرب مربع نصف قطرها في النسبة الثابتة لإيجاد مساحتها، جعل المحامي باراوانت يُزار من قبل شك دوري ما إذا لم تكن المسألة معقدة بصورة غير ضرورية، من عهد أرخميدس؛ ما إذا لم يكن الحل، الواقع، مسألة طفل بسبب بساطتها. لماذا لا يستطيع المرء أن يعين طول المحيط، لماذا لا يستطيع الإنسان أيضاً أن يحوّل كل خط مستقيم الى دائرة؟ المحامي باراوانت شعر بنفسه، في أوقاتٍ معينة، قريباً من إلهامٍ ما. كان يُرى عادةً، في ساعةٍ متأخرة من المساء، جالساً الى مائدته في حجرة الطعام المهجورة والمضاءة بنور ضعيف، مع قطعةٍ من الخيط منشورة أمامه، نظمها بعناية بشكل دائري؛ وبعدها فجأةً، بإيماءةٍ فظةٍ، مدّه بصورةٍ مستقيمة؛ فقط كي يهوي إثرها، مستنداً على مرفقيه، في إكتئاب مُر. هوفرات في بعض الأحيان يمد له يد العون في الرياضة الحزينة، ويشجعه عموماً في نزوته. والمعذب لجأ الى هانز كاستورب أيضاً، ثانيةً وفضلاً عن ذلك ثانيةً، بشكواه الباقية في الذهن، واجداً في الشاب فهماً ودياً كثيراً واهتماماً عاطفياً في أحجية الدائرة. صوّر يأسه المفضل للشاب من خلال رسم دقيق، نُفذ بجهودٍ كبيرةٍ، مظهراً دائرةً بين مضلعين، في أحدهما رُسمت دائرة مماسة، حول الآخر رُسمت

(٦٢) زاجاريا ديز Zachariah Dase ـ المترجم.

(٦٣) التنفيل Superergation: اداء عمل زائد على ما هو مفروض أو مطلوب ـ المترجم.

دائرة، كل مضلع ذو عدد لا نهائي من الأضلاع الصغيرة جداً، حتى آخر إمكانية بشرية من التقارب نحو الدائرة. البقية، التقوس المحيط، الذي بطريقةٍ أثيرية، غير عادية رفض أن يكون عقلانياً بوساطة الخطوط المحيطة الممكن إحصاؤها، تلك، قال المحامي باراوانت، بفكٍ راعشٍ، هي النسبة الثابتة. هانز كاستورب، بسبب تفتحه العقلي، أظهر نفسه أقل حساسية للنسبة الثابتة مقارنةً مع محاوره. قال انه هراء تام، ونصح باراوانت ألا يحمّي نفسه أكثر مما ينبغي مع مهد الهر؛ تحدث عن سلسلة من نقاط عديمة الأبعاد تكونت منها الدائرة، من بدايتها ـ غير الموجودة ـ الى نهايتها ـ غير الموجودة أيضاً؛ عن الكآبة الطاغية الكامنة في الخلود، الى الأبد تدور حول نفسها من دون ثبات في الإتجاه في أي لحظة معينة ـ تكلم بتكيف هادئ جداً كي يمارس على المحامي باراوانت تأثيراً وقتياً مفيداً.

كانت نتيجة منطقية لطبيعة هانز كاستورب أن أكثر من واحد من زملائه المرضى جعلوا منه صديقاً حميماً؛ العديد منهم يمتلكون فكرةً ثابتةً معينة أو غيرها ويعانون لأنهم لا يستطيعون أن يحصلوا على فرصةٍ للإدلاء بوجهات نظرهم من الأغلبية قاسية الفؤاد. كان هناك رجل مسن من مكان ما في البلوكات الخلفية في النمسا، كان نحاتاً في مرةٍ من المرات، بشاربين أبيضين، أنف معقوف وعينين زرقاوين؛ تصور مشروعاً، مالياً وسياسياً في مداه، ورسمه بدقة شديدة بيد حسنة الخط، ملوناً النقاط المهمة بحبر السبيدج البني الداكن. الميزة الرئيسة للمشروع هو ان كل مشترك في الجريدة يتعهد بأن يساهم بكميةٍ يوميةٍ من أربعين غراماً من صحيفة قديمة، تجمع في الأول من كل شهر، وفي عامٍ كامل ليس أقل من ١٤٤٠٠ غرام وفي عشرين عاماً ليس أقل من ٢٨٨ كيلوغرام. إذا حسبنا ان كل كيلو بعشرين فنغ، فان هذا يكون بثمن ٥٧ مارك وستين فنغ. خمسة ملايين مشترك، تم إحصاؤهم، سوف يعطون في غضون عشرين عاماً كميةً من الصحف القديمة تصل الى ٢٨٨ مليون مارك؛ ثلثا هذا المبلغ ربما تُحسب للإشتراكات الجديدة، التي تدفع هكذا عن نفسها، الثلث الأخير، الذي يصل الى مائة مليون مارك

تقريباً، تبقى كي تخصص للمشاريع الإنسانية، مثل تمويل المؤسسات المجانية لمرضى التدرن الرئوي، تشجيع موهبة النضال، وهلم جرا. الخطة أُتقنت حتى لتخطيط سعر السنتيمتر من العمود الصحفي، الذي منه المنظمة المسؤولة عن جمع الصحف القديمة يمكنها أن تدرس كل شهر قيمة الصحف التي جُمعتْ، وتستخدم إستمارة مختومة كإيصال عوضاً عن الدفع. انها خطة ممتازة من وجهات النظر كلها. النفاية المفرطة وإتلاف ورق الصحف، التي ترمى أو تُحرق من قبل غير المنوَّرين، هي خيانة لغاباتنا واقتصادنا السياسي. كي ننقذ الورق ونحافظ عليه يعني أن ننقذ السليولوز (cellulose)، يعني المحافظة على غاباتنا، حماية المادة الإنسانية التي أُستخدمت في صناعة السليولوز والورق ـ المادة الإنسانية ورأس المال. فضلاً عن ذلك بما ان الجريدة من السهولة أن تصل الى أربعة أضعاف قيمة ورق التغليف والورق المقوى، ستكون عاملاً اقتصادياً ذا أهمية معتبرة، وقاعدة لتخمينات حكومية ومشاعية مثمرة، وهكذا تخفف عن قارئ الصحيفة عبء الضريبة. باختصار، كانت الخطة جيدة، انها لا تقبل الجدل من النواحي كلها. ان الطبيعة الغريبة للعبث، أو حتى لنوعٍ من الجنون الفاسد، الذي يتسكع حوله كانت تُعزى الى التعصب المشوش الذي بوساطته الفنان السابق تابع وأسند فكرةً إقتصادية، التي كان بشأنها بصورة واضحة قليل الجدية حقيقةً بحيث انه لم يبذل أقل جهد كي يضعها موضع التنفيذ. هانز كاستورب، مومئاً، برأسٍ مائل الى أحد الجانبين، أصغى للرجل، كما لو انه بفصاحةٍ محمومة عمل دعايةً لفكرته؛ ملاحظاً في الوقت نفسه في ذاته الإزدراء والإشمئزاز اللذين قللا تحزبه للمخترع حيال لامبالاة العالَم عديم التفكير.

بعض المرضى درسوا الإسبرانتو(٦٤)، وعرفوا منها كلماتٍ كافيةً كي يتحدثوا قليلاً بتلك اللغة الهجينة الإصطناعية عند تناولهم وجبات الطعام. هانز كاستورب إستمع عابس الوجه، لكنه اعترف لنفسه انه توجد أشياء حتى

---

(٦٤) الإسبرانتو Esperanto: لغة دولية مبتكرة بُنيت على أساسٍ من الكلمات المشتركة في اللغات الأوروبية الرئيسة ـ المترجم.

أسوأ منها. مجموعة من الإنجليز كانوا هنا من زمن قصير، أدخلوا لعبة ردهة تألفت من السؤال الذي يوجهه اللاعب الأول: «هل سبق لك أن رأيت الشيطان الذي يعتمر قلنسوة النوم؟» الذي يجب أن يجيب عنه الشخص الذي طُرح عليه السؤال: «لا، لم أرَ أبداً الشيطان الذي يعتمر قلنسوة النوم»، وبعدها يكرر السؤال بدوره لجاره، وهلم جرا. هذا لا يطاق. عن ذلك هانز كاستورب وجد لاعبي الصبر[٦٥] حتى أسوأ. كانوا يُرون في أرجاء الدار، في كل ساعةٍ من ساعات النهار، يطرحون أوراقهم، الولع بتلك الهواية إتخذ تناسبات معينة في دار بيرغهوف بحيث حوّل المكان الى وكرٍ للرذيلة. هانز كاستورب كان له سبب أكبر للرعب، لكونه هو نفسه وقع فريسةً وقتية للطاعون ـ كانت تلك، في الواقع، واحدة من أقسى الحالات. كانت لعبة الصبر التي تُدعى «أحد عشرات» هي التي برهنت على خرابه، اللعبة التي كان ينشر فيها الورق في ثلاثة صفوف من ثلاث طبقات، وان أي ورقتين تكوّنان معاً أحد عشر تحجبان من جديد حين تجيئان أولاً، فضلاً عن أوراق الملك أو الملكة أو الولد، الى أن بالحظ السعيد توزع المجموعة الكاملة من ورق اللعب. يبدو هذا شيئاً لا يُصدق ان وسيلةً بسيطةً كهذه يمكنها أن تثبت انها فاتنة الى درجة السحر ـ مع ذلك كانت هي كذلك. هانز كاستورب، شأنه شان العديدين، جربها بحاجبين مسحوبين ومقطبين، ذلك ان هذا الشكل الخاص من الفسوق لم يكن من النوع المرح. كان قد إستسلم لنزوات عفاريت الورق، وقع في شرك الإمتياز التشنجي المتقلّب للحظ، الذي سمح احياناً لأوراق الملك أو الملكة أو الولد وأوراق الأحد عشرات أن تتكدس بحيث تنتهي اللعبة قبل أن تنشر الطبقة الثالثة، حينما يحفز النصر الزائل الأعصاب من أجل بذل جهود جديدة. لكن في المرة التالية أغلب الظن، الورقة التاسعة والأخيرة تسقط من دون أي إحتمال بحجب أي شيء، أو بطريقة أخرى اللعبة، كونها أيقظت آمالاً تشبع غرور المرء، تتوقف بعناد عند اللحظة الأخيرة. في الأمكنة كلها، عند ساعات النهار كلها، لَعِبَ الصبر ـ

---

(٦٥) الصبر Patience: من ألعاب الورق يلعبها شخص واحد عادةً ـ المترجم

وعند الليل تحت النجوم، وفي الصباح بمنامته؛ لعب جالساً الى الطاولة، لعب تقريباً في نومه. إرتعد، لكنه لعب. هكذا ذات يوم وجده السيد سيتيمبريني ـ وأقلقه، حيث كانت رسالته من البداية أن يقلق راحته.

«Accedente!» قال. «ياه، أيها المهندس، أنت تلعب الورق؟»

«لا ألعب الورق بالضبط»، أخبره هانز كاستورب. «أنا أنشرها فقط، كي يكون لي مشادة مع المصادفة المجردة. الحيل التي تلعبها تأسرني، انها متقلبة كالريح. انها تتودد لك، وبعدها بغتةً تعمل بجد ولن تتزحزح. هذا الصباح، ما إن نهضت من فراشي، حتى جاءت تركض ثلاث مرات، مرةً في كل صفين، وهذا رقم قياسي. لكن هل تصدق، انها المرة الثالثة والثلاثين التي ألعبها من دون أن أصل مرةً حتى الى نصف عدد الأوراق؟»

السيد سيتيمبريني تطلع إليه، كما تطلع إليه عادةً إبان السنوات الماضيات، بعينيه السوداوين الحزينتين.

«على أية حال، أنتَ مشغول البال»، قال، «يبدو انني لا أجد هنا سلوى لما أفتش عنه، ولا بلسماً لجرحي الداخلي.»

«جرح؟» كرر هانز كاستورب، وهو ينشر ورقةً جديدةً.

«الوضع العالمي يحيّرني»، تنهد الماسوني. «الإتحاد البلقاني سوف يجتاز التجربة، أيها المهندس، كل المعلومات التي تسلمتها تدل على ذلك. روسيا تعمل بصورةٍ محمومة من أجل ذلك. والتوحيد كان يهدف الى الوقوف ضد الدولة الملكية النمساوية ـ الهنغارية، التي يجب أن تنهار قبل أن يُفهم أي جزء من البيان الروسي. أنت تفهم وساوسي. النمسا، كما تعي أنت بالطبع، أكرهها كرهاً شديداً. لكن هل يمكنني، لذلك السبب، أن أسند وأشجع في روحي الطغيان السارماتياني(٦٦)، الذي يكاد يضرم النار في كافة أرجاء قارتنا ذات المدنية الرفيعة؟ مع ذلك من الناحية الثانية، التعاون الدبلوماسي، مهما كان صغير الحجم، بين بلدي والنمسا، أعدّه شائناً. وساوس حية الضمير التي ـ»

(٦٦) السارماتيانيون Sarmatians: قبائل بدو لهم أواصر مع السكيثيين من سهوب آسيا الوسطى الذين ظهروا في جنوب روسيا في القرن الرابع ق.م ـ المترجم.

«سبعة وأربعة»، قال هانز كاستورب. «ثمانية وثلاثة. ولد، ملكة، ملك. تجلى الأمر. جلبتَ لي الحظ، سيد سيتيمبريني.»

لزم الإيطالي الصمت. شعر هانز كاستورب ان العينين السوداوين، عيني العقل والفضيلة مخفضتان بحزن عليه. تابع اللعب برهةً من الزمن؛ ثم، أراح خده في يده، رفع بصره الى معلمه الخاص بالسيماء البريئة، السادرة لإبن سيء السلوك.

«عيناك»، قال الأستاذ، «تحاولان عبثاً أن تخفيا حقيقة كونك تعي حالتك.»

"placet experiri"، هانز كاستورب كان وقحاً جداً كي يرد عليه. السيد سيتيمبريني غادر؛ والشخص المهجور ظل جالساً، الى طاولته، وسط حجرته البيضاء، ذقنه مُسند على يده، وأطال التفكير؛ مرتعداً من صميمه، على التناقضات التي دخل فيها كل شيء في العالم، على البسمات العريضة وتكشيرات الشياطين والآلهة برؤوس القردة التي وقع العالم في أيديها، على هيمنتها مطلقة العنان، التي كان اسمها «الإله العظيم إنقباض».

اسم رؤيوي، شرير، قُصد أن يسبب مخاوفاً غامضة. هانز كاستورب جلس ودعك جبينه وقلبه براحة يده. كان خائفاً. بدت له «كل هذه» لن تسفر عن شيء نافع، ان كارثةً ما كانت تتوعد، ان الطبيعة التي عانت طويلاً سوف تتمرد، تثور في عاصفةٍ وزوبعة وتكسر الآصرة العظيمة التي تُبقي العالم في عبودية، تنتزع حياةً وراء «النقطة الميتة» وتضع نهايةً لـ«البطاطات الصغيرات» في [يوم أخير] رهيب. تاق للفرار ـ كما رأينا قبل الآن. كان شيئاً محظوظاً، إذاً، ان الأفراد كانوا يثبتون عيونهم عليه، ذلك انهم عرفوا كيف يقرأون طلعته، وكانوا مستعدين كي ينقلوه بالمد والجزر فوق الموضع الصعب بوساطة التسليات الجديدة والمثمرة.

أعلنوا، الأفراد، في نبرات طالب جامعة ألمانية، انهم كانوا يعون الأسباب الواقعية لعدم إستقرار تنظيم الحرارة الخاص بـ هانز كاستورب. وتلك الأسباب، بحسب قرارهم العلمي، كان سهلاً جداً الوصول إليها بحيث ان الشفاء الصحيح والإنصراف المشروع الى الأرض المنبسطة قد قفز الى

الطليعة. قلب الشاب خفق بصورة عاصفة بعواطف متنوعة، حين مدَّ ذراعه لإراقة الدم. أمسى شاحباً بعض الشيء، وطرف بعينيه، عبّر عن إعجابه باللون الياقوتي الرائع لدم حياته، حين جُمع في وعاء زجاج. هوفرات نفسه، ساعده الدكتور كروكوفسكي وسستر من سسترات الرحمة، أنجز العملية السطحية لكن العجيبة. ثم مرت أيام عدة، شغلت بال هانز كاستورب مسألة مفادها كيف يتصرف دمه، ذلك الجزء من كيانه، من دون سيطرته وتحت العين الفاحصة للعلم.

في بادئ الأمر، قال هوفرات ان المرء لا يستطيع أن يتوقع من الدم أن ينمو حالاً. في ما بعد، قال انه لسوء الحظ لم ينمُ شيء منه، حتى الآن. لكن جاء يوم حين دنا من هانز كاستورب عند الفطور، حيث جلس عند النهاية العليا من المائدة الروسية «الجيدة»، في الموقع الذي إحتله ذات مرة أخوه الكبير في الدم، وهنأه بصورة نزوية على حقيقة ان المكورة البكتيرية كانت قد أُثبتت بنحو واضح في أحد الأوساط الزرعية التي جهزوها. كانت هي الآن مسألة إحتمالات: ما إذا كانت أعراض الخمج تُعزى الى الكمية غير المهمة لعصية السل، أو الى المكورات العقدية، التي هي أيضاً، كانت موجودة في كمية صغيرة. هو، بيرنز، ينبغي أن يفكر في الموضوع. لم يكونوا قد فرغوا من الأوساط الزرعية بعد. أظهرها لـ هانز كاستورب في «المختبر»: دم أحمر، متخثر، فيه كانت ثمة نقاط رمادية صغيرة جداً مرئية. تلك هي المكورات البكتيرية. لكن أي أحمق يمكن أن يكون لديه مكورات بكتيرية، وعصيات السل كذلك. لولا وجود أعراض الخمج ما كانت لتستحق الملاحظة.

خارج جسمه، تحت عيون العلم، دم هانز كاستورب مضى يحمل شهادةً. أقبل الصباح حين أعلن هوفرات بلغته المميزة المفعمة بالحيوية والنشاط انه ليس فقط في الوسط الزرعي الأول، بل في الأوساط الزرعية الأخرى أيضاً، المكورات البكتيرية نمت في ما بعد، بكميات كبيرة. لم يتم التؤكد حتى الآن ما إذا كانت كلها مكورات عِقدية، لكنه شيء أكثر من محتمل انها كانت سبب الخمج الموجود حالياً ـ أو ذاك الجزء منه الذي لم

يكن يُعزى الى الخمج الموجود سابقاً وأغلب الظن الى الخمج السُلّي الذي لم يتم التغلب عليه تماماً. والقرار الذي توصل إليه هوفرات كان ـ لقاح المكورة العِقدية! التكهن بما يحتمل أن يحدث كان مؤاتياً بصورة إستثنائية، لم يكن هناك أدنى خطورة في ما يتعلق بالإجراء، وهكذا بأية حال لن يكون هناك أي ضرر في أن يُجرب. بما ان المصل حُضِّر من دم هانز كاستورب، اللقاح مع المصل يمكن أن يُدخل الى جسمه دون أي عائق. في أسوأ الأحوال، ستكون للتجربة نتيجة سالبة ـ التي من الصعب أن تُسمى غير مؤاتية، بما انه حتى من دونها ينبغي للمريض أن يبقى أكثر بأي حالٍ من الأحوال!

هانز كاستورب لم يستطع أن يذهب الى ذلك الحد البعيد. خضع للمعالجة، مع انه وجدها سخيفةً، جديرةً بالإزدراء. هذا التلقيح له مع جزء من جسمه بدا إجراءً حزيناً بصورة فريدة، شيئاً بغيضاً متهماً بسفاح القربى، نفساً لنفس لن تكون له سوى نتيجة غير مثمرة، ميئوس منها. هكذا كان حكمه الجاهل والناشئ عن وسواس المرض، صحيح فقط في ما يتعلق بعقم النتيجة، لكن هو ذا كلياً. التحول دام أسابيع. في بعض الأحيان بدا مؤذياً ـ بالطبع لم يكن هو الحقيقة الواقعة ـ وفي أحيان أخرى جيداً، الذي، عقب ذلك، لا بد انه بالقدر نفسه لم يكن هو الحقيقة الواقعة. النتيجة كانت سالبةً ـ من دون أن تكون بصراحة قد سُميتْ وأُعلنتْ هكذا. المشروع برمته مات موتاً طبيعياً، هانز كاستورب استمر يلعب الصبر ـ ويحدّق في عين الشيطان، الذي كانت سيطرته مطلقة العنان تنبئ انها سوف تصل الى نهاية مرعبة.

الحد الأقصى من تآلف الألحان

أي شيء مكتسب جديد من قبل مصح بيرغهوف هذا الذي أخيراً حرر صديقنا الذي صمد طويلاً من هوس لعب الصبر، وقذف به في ذراعي ولع اخر، أكثر نبلاً، مع انه في الواقع أقل غرابةً؟ نحن بصدد أن نروي، كوننا نحن أنفسنا مفتونين بالشيء الغامض، ومتلهفين لإفشاء حماستنا.

الإدارة الممتازة، في إهتمامها القلِق بسعادة نزلائها، فكرت ملياً في المسائل، هناك في أحشاء الأرض، قررتْ، ونفذتْ. حصلتْ، بكلفة معينة ليست بنا حاجة الى التطرق إليها، لكنها يقيناً كانت معتبرة، على جهاز جديد من أجل تسلية المرضى، واضافته الى تلك الأجهزة التي نُصبت قبل الآن في أكبر حجرات الإستقبال في دار بيرغهوف. هل كان هذا أداة بارعة، من نفس طبيعة الاستيريوبتيكون[٦٧]، المشكال، أو الاسطوانة السينمائية؟ نعم ـ وفضلاً عن ذلك، ثانيةً، لا، بعيداً عن هذه. لم تكن هي لعبة بصرية تلك التي اكتشفها النزلاء ذات مساء في البهو، ورحبوا بها باستحسان، بعضهم رفعوا أيديهم فوق رؤوسهم، آخرون إنحنوا فوقها وصفقوا في أحضانهم. كانت آلة صوتية. فضلاً عن ذلك، الأجهزة البسيطة المذكورة آنفاً لا يمكن مقارنتها معها، فهي ـ أي هذه الآلة ـ تبزها، تفوقها بهاءً. هذه لم تكن صندوق الدنيا الطفولي، كتلك الصناديق التي سئم وإشمأز منها نزلاء المصح كلهم، ولم يعد يلتفت إليها أحد بعد الأسابيع القلائل الأوُل من جلبها. كانت قرن خصب[٦٨] طافحاً ذا متعة فنية، تتراوح بين الوقورة الى الخليعة. كانت جهازاً موسيقياً. كانت فونوغرافاً.

نحن مهتمون بصورة جادة مخافة أن يُفهم المصطلح في معنى تافه، مبتذل من كثرة الإستعمال، والأفكار التي تتصل به الملائمة للشكل الأولي للآلة التي في بالنا، وليس النتاج الأنيق المنبعث بوساطة إستعمال متواصل للوسائل التقنية على وفق الغايات الخاصة بالموزيات[٦٩]. أصدقائي الأعزاء، نحن نناشدكم أن تفهموا ان الآلة التي وصفناها لم تكن ذاك الصندوق التافه ذو المقبض، قرص وعمود الإدارة في الأعلى وقمع بشع من النحاس الأصفر متصل به، الذي جرت العادة أن ينصب على الطاولة خارج حانات الريف، كي يُسر آذان المتوحشين بنهيقه الأنفي. هذه كانت علبة صُقلت بلون أسود

---

(٦٧) الاستيريوبتيكون Stereopticon: (باللاتينية): ضرب من الفانوس السحري ـ المترجم.

(٦٨) قرن خصب cornucopia: يرمز هذا القرن (في الميثولوجيا) للوفرة ـ المترجم.

(٦٩) الموزيات جمع موزية Muses: عرائس الفن ـ تسع ربات أغريقيات ـ المترجم.

باهت، عمقها أكثر من عرضها، تتصل بحبل الى نقطة كهرباء في الجدار، وتنتصب بصورةٍ بسيطة فوق طاولتها الخاصة. بالآلية البدائية الموصوفة أعلاه، ليس لها أي صفة مشتركة. أنتَ ترفع الغطاء ذا الحافة المائلة الى حدٍ ما، الذي كان مُسنداً أوتوماتيكياً بقضيب من النحاس الأصفر متصل مع الداخل، وهناك فوق سطح منخفض نسبياً كان القرص، مغطى بقماش أخضر، ذو إطار مطلي بالنيكل، وإسفين مطلي بالنيكل الذي فوقه يلائم المرء الثقب في وسط الاسطوانة الفونوغرافية المصنوعة من المطاط الصلب. الى اليمين، في الأمام، ثمة جهاز لتنظيم الزمن، ذو قرص مدرج وأرقام أشبه بساعة اليد؛ الى اليسار، العتلة المسؤولة عن إستمرار الآلية أو إيقافها؛ وفي الخلف، الى اليسار أيضاً، الذراع المجوفة، المقوسة، الشبيهة بالخيزرانة، المطلية بالنيكل، ذات المفاصل المرنة، تحمل في طرفها الصندوق المصوّت المسطح الرشيق، ذا مكان تُثبت فيه الابرة بوساطة برغي. إذا فتحتَ البابين المزدوجين في الجزء الأمامي من العلبة، ترى مجموعةً من الرفوف المائلة، أشبه بستارة، مطلية بلون أسود كالعلبة ـ وهذا كل شيء.

«أحدث طراز»، قال هوفرات. «آخر نصر للمهارة، أولادي. درجة ممتازة، قاعدة من النحاس، Superfinissimo، ما من أفضل منها في السوق في هذا الخط من البضائع» ـ أفلح في أن يعطي كلماته نكهة بائع متجول جاهل ومتحمس. «هذه ليست مجرد ماكنة»، استطرد قائلاً، آخذاً ابرةً من أحد الصناديق الصغيرة المعدن البهيجة المصطفة فوق الطاولة، وثبتها في الحامل. «انها من صنع ستراديفاريوس[٧٠]، غوارنيري[٧١]، ذات رنين، ذبذبة ـ dernier rafinemang، مصانة من قبل الموزية، أنظروا هنا في داخل الغطاء. صنع ألماني، كما تعرفون، نحن نصنعها أفضل كثيراً من أي شخص آخر. هي آلة موسيقية حقيقية، بشكل آلي حديث، أحدث نموذج ألماني.

(٧٠) ستراديفاريوس Stradivarious: أسماء إيطالية (مأخوذة من اللاتينية) لعائلة من صناع الكمانات الإيطالية في كريمونا ـ المترجم.

(٧١) غوارنيري Guarnari: عائلة إيطالية في القرن السابع عشر والثامن عشر اختصت بصنع الكمانات ـ الخ ـ المترجم.

وهو ذا نص الأوبرا»، قال، وأومأ برأسه الى علبة صغيرة على الجدار، مملوءة بألبومات عريضة الظهر. «أنا أسلمها كلها لكم، هي ملككم. لكن إعتنوا بها، أنا أودعها للعناية المفرطة من قبل الجمهور. هل نديرها مرةً، لمجرد اللهو؟»

توسل إليه المرضى أن يفعل هذا. سحب بيرنز مجلداً سحرياً سميكاً، قلّب الصفحات الثخينة، واختار مظروفاً ورقياً، أظهر عنواناً ملوناً من خلال ثقب مدور في الأمام. وضع الإسطوانة على القرص، شغلها، إنتظر الى أن أصبحت تسير بأعلى سرعة، وبعدها بعناية وضع الأداة الفولاذ الدقيقة على حافة الطبق. كان هناك صوت خفيض، منبه. سمح للغطاء أن يغوص، وفي اللحظة ذاتها، من البابين المفتوحين في الأمام، من بين شرائح الستارة، أو، بالأحرى، من الصندوق ككل، جاء إنفجار موسيقي؛ مع ضجيج من الآلات الموسيقية، لحن حي، نشيط ومهتاج، لافت: الفواصل الموسيقية المعُدية الأوُل لاستهلال[٧٢] أوفينباخ[٧٣].

أرهفوا السمع، إنفرجت شفاههم عن بسمات. ما كادوا يصدقون آذانهم على النقاء والنتاج المخلص لحيوية آلات النفخ الموسيقية. كمان منفرد يعزف مقدمةً موسيقية بصورة نزوية، السحق؛ الـ pizzicato[٧٤] الإنزلاق الحلو من موضع الى آخر، كانت كلها مسموعة بصورة جلية. عزف لحن الفالس «آه، فقدتُها»؛ التناغم الأوركسترالي حمل بخفة المزاج الذي يشبع غرور المرء ـ كان شيئاً فاتناً أن تسمعه مأخوذاً من قبل المجموعة ومعاداً كـ tutti[٧٥] رنان. بطبيعة الحال، كانت نادراً ما تشبه أوركسترا حقيقية تُعزف في الحجرة. كان حجم الصوت، مع انه لم يُشوه بأي قدر، قد عانى من نقصان في الرسم

(٧٢) الإستهلال overture: مقطوعة موسيقية تعزفها الموسيقى كمقدمة للأوبرا ـ المترجم.

(٧٣) أوفينباخ Offenbach (١٨١٩ ـ ١٨٨٠): قائد موسيقي فرنسي، ولد في ألمانيا. له حوالي تسعين أوبريتاً فرنسياً بضمنها «أورفيوس في العالم السفلي» ـ المترجم.

(٧٤) الـ pizzicato (بالإيطالية): معزوف بنقر أوتار الآلة الموسيقية بالاصبع بدلاً من استعمال القوس ـ المترجم.

(٧٥) tutti (بالإيطالية): جميع الأصوات والآلات معاً ـ المترجم.

المنظوري. إذا قيض لنا أن نرسم تشبيهاً من الحقل البصري، فذلك كما لو ان المرء ينظر الى رسمٍ ما عبر النهاية الخاطئة لمنظار الأوبرا، يراه بعيداً وشديد الصغر، مع انه حافظ على كل الدقة الواضحة للرسم واللون. القطعة الموسيقية الحية، شديدة البراعة أُنتجت بكل غنى خيالها المبدع الجذل. اللمسات الأخيرة كانت حماسة بحد ذاتها. غُلب(٧٦) ببداية مترددة بصورة مضحكة، رقصة الكنكان(٧٧) المخزية التي أعادت الى الذاكرة خيال القبعات الرسمية يُلوّح بها في الهواء، التنورات الطائرة والركب المهتزة، وبدت كما لو انها لن تصل نهاية إبتهاجها الصاخب المنتصر. لكن في الختام توقفت الآلة أوتوماتيكياً. إنتهت الاسطوانة. كان هناك تصفيق حار.

طالبوا بالمزيد، ونالوه. صوت بشري إنبجس من عُليبة الجواهر، صوت ذكوري في وقت واحد ناعم وقوي، مع مصاحبة أوركسترالية. كان صوتاً باريتونياً(٧٨) إيطالياً ذائع الصيت، العضو العجيب إرتفع الى الحد الأقصى لقدرته الصوتية الطبيعية. لن يكون هناك أي كلام هنا عن نقصان أو حجب للصوت. إذا جلس امرؤ في حجرةٍ متاخمة ولم يرَ الآلة، يبدو له ـ ليس غير ـ كما لو ان الفنان واقف في البهو بشخصه هو، النوطات الموسيقية بيده، ويغني. غنى aria di bravura(٧٩) بلغته. إيه، أيها البربري!

«!Di qualita, di qualita! Figaro qua, Figaro la, Figaro Figaro»

المستمعون تقريباً ماتوا من الضحك بسبب إلقائه كلمات الأغنية من دون غنائها، إلقائه بصوتٍ إصطناعي عالي الطبقة، فهقهوا على الفارق بين الصوت العميق والبراعة شاطرةً اللسان التي تُصيّر بها الكلمات. الموسيقيون حذوا حذوه وأُعجبوا ببراعة إسلوبه في التعبير، طريقته في الإستراحة

---

(٧٦) الغُلب galop: رقصة مرحة أو موسيقاها ـ المترجم.

(٧٧) الكنكان cancan (بالفرنسية): رقصة غير محتشمة (فرنسية الأصل) ـ المترجم.

(٧٨) الباريتون baritone (الجهير الأول): صوت رجالي أعلى من الجهير وأدنى من الصادح ـ المترجم.

(٧٩) aria di bravura (بالإيطالية): أغنية تغنى بإسلوب يتطلب براعة فائقة وشجاعة كبيرة ـ المترجم.

القصيرة. كان أستاذاً بلا منازع، فنان المدرسة da capo الإيطالية؛ لا بد انه جاء للأمام الى أضواء مقدّم خشبة المسرح ورفع ذراعه للأعلى، بينما احتفظ بالنبرة الأخيرة قبل الختام القراري، بحيث ان الجمهور بنحو لا إرادي إنفجر بصيحات الإستحسان قبل أن يتوقف عن الغناء. كان شيئاً تعجز عن وصفه الكلمات.

تبع ذلك بوق فرنسي، يعزف بتردد رقيق، تنويعاتٍ على أغنية شعبية. صوت سوبرانو، بأكثر طراوة ودقة محببتين الى القلب، تقطع رائع جداً، غنى بصوت راعش منشداً لحناً من [النساء الضالات][٨٠]. حيوية عازف الكمان ذي الصيت العالمي عزفت كما لو انها وراء ستائر رومانسياً من تأليف روبنشتاين[٨١]، على وفق مصاحبة من البيانو التي بدا صوتها ضعيفاً وبارداً، أشبه بالسبينت[٨٢]. الصندوق العجائبي بدا كما لو انه يغلي: سَفَح قرع الأجراس، إنزلاق القيثار، صخب الأبواق، قرع الطبول طويل الأمد. أخيراً، وُضعت الإسطوانات الفونوغرافية الخاصة بالرقص. كانت هناك عينات من رقصة جديدة مستوردة، التانغو[٨٣]، بنكهة الغطس بجانب الماء، قُصدت أن تجعل فالساً فيينياً يبدو رزيناً وسلفياً مقارنةً بها. ثنائيان أظهرا المشيات الأنيقة، بيرنز الآن إنسحب مع التحذير بأن الإبرة يجب ألا تُستعمل أكثر من مرة واحدة، والآلة يجب أن تُستخدم «كما لو انها مصنوعة من البيض». هانز كاستورب حل محله كمشغِل لها.

لكن لماذا هانز كاستورب تحديداً؟ كان حكيماً في إجرائه هذا. بتوقٍ مكبوت عارض أولئك الذين فكروا بأن يضطلعوا بالمسؤولية، في غياب

---

(٨٠) النساء الضالات La Traviata (باللاتينية): أوبرا لـ فيردي أُخرجت في البندقية العام ١٨٥٣. نصّ الأوبرا إستند الى رواية دوماس الابن «فتاة الكاميليا» ـ البطلة محظية تضحي بذاتها من أجل الآخرين ـ المترجم.

(٨١) روبنشتاين Rubinstein: اسم لثلاثة عازفين على البيانو. اثنان منهما روسيان هما انطوان ونيكوي غريغوريفتش (شقيقان). والثالث هو آرثر روبنشتاين. ولد في بولندا وأقام بشكل رئيس في الولايات المتحدة الأمريكية ـ المترجم.

(٨٢) السبينت spinet: آلة موسيقية تشبه البيان ـ المترجم

(٨٣) التانغو tango: رقصة أمريكية ذات أصل اسباني ـ المترجم

هوفرات، أي تبديل الطبق والأبرة، إيصال وقطع التيار الكهربائي. «دعوني أفعلها»، قال لهم، برفقٍ نحاهم جانباً، واستسلموا، أولاً لأنه كان يتخذ سيماء مَنْ عرف كل شيء عن الآلة على مدى سنوات عدة، ثانياً لأنهم كانوا يهتمون قليلاً بأن ينالوا مسراتهم بنشاط، بدلاً من أن يجلسوا وتُقدم لهم المتعة بالقدر والنوع اللذين كانوا يتلقونها بارتياح ومن دون ضجر.

هانز كاستورب لم يكن من هذا الطراز. حين قدّم هوفرات لعبته الجديدة للنزلاء، مكث الشاب في الخلفية، لم يضحك أو يصفق، لكنه تابع الطريقة التي تعمل بها الآلة باهتمامٍ متوتر، دعكَ حاجباً بحركة دائرية بإصبعين، كما يفعل ذلك بين الفينة والفَينة. مراتٍ عدة بقلقٍ غيّر موضعه، لا بل حتى مضى الى حجرة القراءة كي يرهف السمع من هناك؛ ثم إتخذ موقعه قريباً من بيرنز، ويداه خلف ظهره، وعلى وجهه يلوح تعبير مُبهم، مثبتاً عينيه على علبة الجواهر، ولاحظ طريقة عملها البسيطة. إنما في قرارة نفسه كان ثمة شيء يقول: «قف! هذا حين من الدهر. هذا الشيء أُرسل لي!» كان مملوءاً بالمعرفة المسبقة الأكيدة جداً بولعٍ جديد، بسحرٍ جديد، بعبء حب جديد. الشاب في الأرض المنبسطة، منَ أول نظرة الى عذراء يعجب حين يجد ان سهم الحب الشائك قد اخترق كيانه الى القلب، يشعر ان وضعه لا يختلف كثيراً عن ذلك الشاب. الغيرة التي أعقبت ذلك كانت ثقيلة الوطء عليه. ملكية عامة، هل هي فعلاً كذلك؟ هل يملك ذلك الفضول الضعيف الحق،، أو القوة، كي يمتلك كل شيء؟ «دعوني أفعلها»، قال بين أسنانه، وكانوا قانعين انه يجب أن يكون الأمر كذلك. رقصوا أكثر قليلاً، إستجابةً للمقطوعات الموسيقية المرحة التي أدارها؛ طلبوا حلقةً صوتية أخرى، لحناً ثنائياً أوبرياً، البركارول[٨٤] من [حكايات هوفمان][٨٥]، بدت محببةً الى

(٨٤) البركارول barcarole: أغنية ينشدها بحارة البندقية، أو لحن موسيقي مستوحى منها ـ المترجم.

(٨٥) حكايات هوفمان Contes d'Hofmann: أوبرا من تأليف أوفنباخ أُخرجت في باريس العام ١٨٨١ بعد موت قائد الفرقة الموسيقية. هذه الأوبرا (حكايات هوفمان) مستقاة من ثلاث قصص للروائي الألماني آرنست هوفمان ـ المترجم.

القلب بصورة كافية. حين أغلق الغطاء تفرقوا كلهم، متكلمين من غير كلفة بسعادتهم سريعة الزوال على اللعبة الجديدة، بعضهم مضى الى الإستراحة - العلاج المسائي، بعضهم الآخر ذهبوا الى الفراش. كان ينتظر منهم أن ينصرفوا. تركوا كل شيء على حاله، علب الابر مفتوحة، الأطباق والالبومات منثورة هنا وهناك. هذه عادتهم. أراد أن يحذوا حذوهم، لكنه بعدئذ تركهم على درجات السلّم، عاد الى البهو، سد الأبواب كلها، وأمضى هناك نصف الليل، منهمكاً كنحلة.

عرَّف نفسه على الملكية الجديدة، وانشغل بمتعةٍ غير مشوشة بمحتويات الألبومات الثقيلة. كان هناك إثنا عشر، بحجمين، بإثنتي عشرة إسطوانة في كل ألبوم؛ العديد من الأقراص المسطحة، المدورة، السود كُتب عليها في الجانبين، ليس فقط مع تتمة القطعة الموسيقية، لكن أيضاً بسبب ان العديد من الصحون كان يحمل تسجيلين مختلفين. هنا ثمة عالم ينبغي قهره، هو واسع بدرجة كافية بحيث حتى إلقاء نظرة عامة عليه مهمة شاقة في بادئ الأمر، ومحيّرة؛ مع ذلك هو عالم حافل بالإمكانات الجميلة. شغّل نحو عشرين أو ثلاثين اسطوانة فونوغرافية؛ مستخدماً ابرة من نوعٍ يتحرك بنعومة فوق الطبق وخفض الصوت، كي لا يؤذي نشاطه سكونَ الليل. إلا ان عشرين أو ثلاثين نادراً ما كانت تشكل ثُمن الثروة التي ما إنفكت تطالب بأن يتم الإستمتاع بها. لا بد أن يكون هو راضياً الليلة بفحصه العنوانات، فقط يختار عنواناً واحداً بين الحين والحين كي يضع القرص ويعطيه الصوت. بدت لعينه الواحدة تشبه الأخرى، عدا الرقعة الملونة التي كتب عليها المحتوى في وسط كل شريحةٍ من شرائح المطاط الصلب، كل واحدة منها وكلها مغطاة الى المركز أو تقريباً كذلك بدوائر متحدة المركز؛ غير ان هذه الخطوط الدقيقة هي التي إحتفظت بكل الموسيقى التي يمكن تخيلها، بأكثر الإيحاءات سعادةً من كل أقاليم الفن، بإنتاج أُختير بعناية فائقة.

كانت هناك استهلالات كثيرة، وحركات سيمفونية وحيدة، عزفتها فرق موسيقية شهيرة، أسماء قادتها مذكورة على الإسطوانة الفونوغرافية. كانت هناك لائحة طويلة من الأغاني الألمانية، أُنشدت بمصاحبة البيانو من قبل

مغنيات شهيرات؛ بعض هذه الأغاني كانت بمثابة الإبداع الرفيع والواعي لفنانات ذوات شخصيات متميزة، بعضها الآخر أغانٍ شعبية بسيطة، وثمة فئة ثالثة بين بين، بمعنى انها كانت نتاجات براعة فكرية، وفي الوقت نفسه إنبثقت من كل ما كان الأكثر عمقاً والأكثر تبجيلاً في شعور وعبقرية شعبٍ من الشعوب ـ أغانٍ شعبية مصطنعة، ربما يدعوها المرء هكذا، إذا لم تكن ثمة حاجة لأن تؤخذ كلمة (مصطنعة) كي تلقي وصمة عار على صدق إلهامها. إحدى هذه الأغاني عرفها هانز كاستورب من الطفولة؛ لكن من الآن فصاعداً أخذ يضمر لها حباً خاصاً ويكسوها بتداعيات كثيرة، كما سيُرى بعد الآن. ماذا كان هناك غير هذا ـ أو، ببساطة ـ ما هو الشيء غير الموجود هناك؟ الأوبرات كثيرة. فرقة عالمية من فنانين شهيرين، ذكوراً وإناثاً، عرضوا موهبتهم عالية التدريب، الممنوحة من قبل الباري في الألحان، الألحان التي يؤديها عازفان على بيانين، مجاميع من المغنين والموسيقيين يمثلون فترات ومواقع مختلفة في تاريخ الأوبرا ـ على وفق المصاحبة الحذرة للأوركسترا. أوبرا الجنوب، طرب جذل، بهيج، الفنانون الألمان، النشيطون، النزويون، الغوليون؛ والأوبرا الرفيعة والهزلية معاً بالإسلوب الفرنسي. لكن هل كان هذا كل شيء؟ أوه، لا. سلسلة من موسيقى قاعة الإستقبال تبعث ذلك، رباعيات[(٨٦)] وثلاثيات[(٨٧)]، حلقات فردية مُلحنة لآلة الكمان، الفيلونسيل، الفلوت؛ حلقات حفلة موسيقية مع لحن مصاحب من الكمان أو الفلوت، ألحان بيانو فردية، ومن ثم كانت هناك التسليات الخفيفة، «الثنائيات»، الحلقات المحلية والشعبية، عُزفت في المرحلة الأولى بوساطة أوركسترا صغيرة معينة أو غيرها، وكانت تحتاج الى أبرة خشنة كي تجعلها (أي الحلقات) مناسبة.

هانز كاستورب، ناشطاً ومنعزلاً، نخلها وصنفها كلها، وجرّب جزءاً منها على الآلة. في ساعةٍ متأخرة كمناسبة الإحتفال المخمور مع بيبركورن

---

(٨٦) الرباعية quartet: مقطوعة موسيقية معدة لأربع آلات ـ المترجم.

(٨٧) الثلاثية trio: مقطوعة موسيقية لثلاث آلات ـ المترجم.

ذي الذاكرة الملكية، مضى محمراً من الخجل بسبب وقاحته الى السرير، وهناك من الثانية حتى السابعة حلم بصندوق العجائب. رأى في منامه القرص يدورحول الإسفين، بسرعةٍ شديدة جعلته تقريباً غير مرئي وصامتاً تماماً. حركته لم تكن دائرية فقط، لكن أيضاً متموجة تموجاً جانبياً فريداً، الذي أوصل نفسه الى الذراع التي تحمل الأبرة، ومنح هذه أيضاً ذبذبةً مرنةً، تقريباً أشبه بالتنفس، والتي لا بد انها كانت تُعزى كثيراً الى التذبذب والإنتقال في أصوات الآلات الوترية وأصوات المغنين. مع ذلك بقي هذا شيئاً غير واضح، نوماً كاليقظة، كيف يمكن للمتابعة المجردة لحد الشعر فوق تجويف سمعي، مع المساعدة المنفردة للغشاء المتذبذب لصندوق الصوت، أن تنتج ثروة وحجم مثل صوت ذاك الصوت الذي ملأ أذن هانز كاستورب الحالمة.

عند الصباح التالي جاء مبكراً الى الصالة، حتى قبل الفطور؛ وبارتياح جلس بيدين مطويتين، أرهف السمع الى صوتٍ باريتوني رائع، يغني بمصاحبة قيثارة: "umber in diesem elden kreise". القيثارة بدت طبيعية تماماً، لم يكن هناك تشوّه أو تقليل للصوت الذي إنسكب من العلبية مرافقاً الصوت البشري الرنان، المتنفس، الملفوظ بوضوح ـ كان ببساطة مُذهلاً! ولن يكون على سطح البسيطة شيء ألطف من الحلقة التالية التي إختارها: لحن ثنائي من أوبرا إيطالية حديثة، مزاوجة بسيطة، نابعة من القلب لعاطفة بين كائنين، أحد الدورين قام به صوت صادح مشهور عالمياً، مُثل تمثيلاً جيداً في الألبومات، الثاني قام به صوت سوبرانو صغير حلو صافٍ كالبلور، لا شيء محبباً الى النفس أكثر من قوله: "Da mi il braccio, mia piccina" والمقطع البسيط، الحلو، البليغ، اللحني قليلاً الذي ترد به هي.

جفل هانز كاستورب حين فُتح الباب وراءه. كان ذاك هوفرات، متطلعاً إليه؛ بمعطفه السريري، السماعة الطبية تظهر للعيان في جيب صدره، وقف هناك لحظةً، ويده على مقبض الباب، وأومأ برأسه لمقطِع الأصوات الحلوة. هانز كاستورب، من فوق كتفه، رد على إيماءة الرأس، وطلعة الرئيس زرقاء الخدين، بشاربها وحيد الجانب، إختفت حين سحب الباب الى وراءه. هانز كاستورب عاد الى عاشقيه الشجيين، غير المرئيين.

في وقت لاحق نهاراً، بعد وجبتي الظهر والمساء، كان له جمهور متغير لفعاليته ـ ما لم ينبغي للمرء أن يعده مع الجمهور، بدلاً من كونه موزعاً للتسلية. شخصياً كان يميل الى الرأي الأخير. وسكان بيرغهوف وافقوا عليه، الى درجة انهم من أول ليلة بصمتٍ قبلوا بوصايته التي حددها بنفسه على الآلة. هؤلاء القوم، لم يكترثوا. ناهيك عن إعجابهم الأعمى سريع الزوال بصوته الصادح، المتوالد في التألق الذائب لصوته هو، جاعلاً هذه الهبة للجنس البشري تنبثق منه في إنسجامات لحنية أشبه بالأغاني وأعمال في براعة فنية فائقة، على الرغم من حماستهم المعلنة بصوتٍ عال، كانوا من دون حب حقيقي للآلة، وقانعين أن أي فرد يلزمه أن يشغلها إذا كان راغباً أن يتجشم العناء. كان هانز كاستورب مَنْ قام بترتيب الإسطوانات الفونوغرافية، كتب محتويات كل ألبوم من الألبومات في داخل كل غطاء، بحيث أن أي مقطوعة موسيقية يمكن العثور عليها حالاً حين تُطلب، و«تُدار» الآلة. عاجلاً يفعل هو ذلك براحةٍ وحذق. الآخرون كانوا سيتلفون الشرائح باستخدامهم أبراً مستهلكة، وكانوا سيتركونها مطروحةً هنا وهناك على الكراسي، وكانوا سيجربون كل ضروب الحيل البلهاء، يطلقون العنان لبعض المقطوعات الموسيقية النبيلة والجليلة بسرعة وذروة خطيرتين الى أبعد حد، أو يضعون المؤشر عند درجة الصفر، بحيث لا يأتي من الآلة سوى إرتعاش هستيري أو أنين خامد. جربوا كل ذلك قبل الآن. بطبيعة الحال، كانوا أفظاظاً، بيد انهم كانوا أيضاً غير بارعين الى حدٍ ما. بعد برهةٍ من الزمن، أخذ هانز كاستورب مفتاح الخزانة الصغيرة التي تحفظ فيها الأبر والألبومات، واحتفظ به في جيبه، بحيث يجب أن يطلب أي فرد السماح له إذا أراد أن يدير اسطوانةً من الإسطوانات.

مساءً، بعد ربع الساعة الإجتماعي، حين إنصرف النزلاء، كان ذاك وقته الأفضل. بقي في الصالة، أو عاد خلسةً الى هناك، وتلهى حتى ساعةٍ متأخرة من الليل. وجد ان ثمة خطراً أقل مما خشي من إقلاق الراحة الليلية للدار؛ ذلك ان القدرة الإنتقالية لهذه الموسيقى الشبحية برهنت على كونها صغيرة نسبياً. الذبذبات، القوية بنحو مدهش في المنطقة القريبة من الصندوق، حالاً

إستنزفت نفسها، أمست ضعيفةً وخفيةً مع البُعد، كالسحر تماماً. هانز كاستورب كان وحيداً بين أربعة جدران مع صندوق الأعاجيب خاصته؛ مع الإنجاز المنمق لهذا النعش الصغير المقطوع من خشب الكمان، هذا الهيكل الصغير الأسود المعتم، أمام بابيه المزدوجين المفتوحين جلس ويداه مطويتان في حضنه، رأسه مائل الى أحد الجانبين، فمه مفتوح، وجعل الأنغام تغمره.

هؤلاء المغنون ذكوراً وإناثاً الذين سمعهم، ما كان بوسعه أن يراهم؛ جزؤهم الجسدي سكن في أمريكا، في ميلانو، فيينا، سانت بطرسبورغ. لكن دعهم يقيمون أينما شاؤوا، إمتلك هو أفضل جزءٍ فيهم، أصواتهم، ولعله يتمتع بعملية التنقية والتلخيص التي تتخلص من مساوئ الاتصال الشخصي الأقرب، مع ذلك تركهم يحتكمون كفايةً الى الإدراك، كي يسمح لبعض السيطرة على شخصياتهم، بخاصةٍ في حالة الفنانين الألمان. كان بميسوره أن يميز اللغة الدارجة، التلفظ، المنشأ المحلي لهذه؛ ميزة الصوت دللت على شيء من روح ـ مكانة الأفراد ومستوى ذكائهم يمكن تخمينه من خلال المدى الذي بسببه كانوا قد أهملوا فرصتهم أو اغتنموها. هانز كاستورب تلوى ألماً حين أخفقوا. عضَّ شفتيه في كدر حين كان النتاج ذا عيوب تقنية؛ كان على أحر من الجمر حين أُطلقتْ أول نوطة موسيقية لأسطوانة فونوغرافية مستعملة كثيراً صيحةً حادة أو صوت خدش ـ الأمر الذي حصل بنحوٍ أخص مع الصوت الانثوي العسير. مع ذلك، حين حدثت هذه الأشياء، أصغى إليها بأناة، فالحب يجعلنا متدرعين بالصبر. غالباً ينحني فوق الآلية المدوِّمة، الخافقة كما لو كان ينحني فوق غصن ليلك، سابحاً في غيمةٍ من الصوت الحلو؛ أو يقف أمام العلبة المفتوحة، متذوقاً السعادة المبتهجة بالنصر لقائد الفرقة الموسيقية الذي بيدٍ مرفوعة يأتي بالأبواق في مكانها بالضبط في اللحظة المناسبة. وكانت له أشياء مفضلة في بيت ـ الكنز خاصته، حلقات أصوات بشرية وملحنة لآلاتٍ موسيقية لم يمل من سماعها.

مجموعة واحدة من الإسطوانات الفونوغرافية إحتوت المشاهد الختامية لأوبرا لامعة، تفيض بالعبقرية اللحنية من تأليف مواطن عظيم للسيد سيتيمبريني، سيد الموسيقى الدرامية في الجنوب، كتبها بتكليف من أمير

شرقي، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كي يُحتفى بإكمال إنجاز تقني كبير يوحّد شعوب الأرض معاً[(٨٩)]. هانز كاستورب فهم شيئاً ما من حبكة الأوبرا، عرف الخطوط الرئيسة للمصير المأساوي لـ راداميس، وأمنيريس وعايدة؛ وحين سمعها من علبية الجواهر خاصته كان بميسوره أن يفهم بدرجة كافية ما كانوا يقولونه. الصادح الذي لا يُضاهى، الألتو[(٩٠)] الملكية ذات العاطفية المدهشة في قدرتها الصوتية، والسوبرانو الفضي ـ أغلب الظن لم يفهم هو كل كلمةٍ قيلت، لكنه فهم كفايةً، مع معرفته بالوضع، وتعاطفه عموماً مع هذه المواقف، وكان يشعر شعور إنسان عادي يتزايد في كل مرة يصغي الى هذه المجموعة من الإسطوانات، الى أن بلغ شعوره هذا حد الإفتتان.

في البدء جاء مشهد النقاش بين راداميس وأمنيريس: ابنة الملك جيء بالأسير أمامها، كانت مغرمة به، وكان يسرها أن تحافظ عليه لأجلها هي، لكنه كان قد نبذ كل شيء من أجل جارية متوحشة ـ وطن الأسلاف والشرف وكل شيء. مع انه كان يصر على القول انه في أعماق روحه الشرف يبقى غير ملطخ. إلا ان عدم الائتلاف الداخلي هذا لم ينفعه إلا قليلاً، تحت ثقل كل ذينك الإثم والجريمة غير القابلين للجدال، ذلك انه أمسى رهناً للقوة الروحية، التي كانت متصلبةً إزاء الضعف البشري، وهي بالتأكيد سوف تقلل من شأنه إذا لم، عند اللحظة الأخيرة، ينبذ الجارية، ويرمي نفسه بين الذراعين الملكيتين لمغنية أخفض الأصوات ذات العاطفية في قدرتها الصوتية ـ التي، بقدر تعلق الأمر بصوتها، كانت تستحقه بغنى. أمنيريس تتصارع بحماسة مع الصادح المعسول مع انه محجوب ومفتون بصورةٍ مأساوية، الصادح الذي لم يكن ينشد شيئاً سوى «عبثاً» و«لا أستطيع» حين كانت

---

(٨٩) كلف الخديوي اسماعيل في مصر فيردي العام ١٨٦٩ في كتابة أوبرا لتعرض في احتفالات تدشين قناة السويس. أُخرجت أوبرا (عايدة) أول مرة على مسرح دار الأوبرا المصرية العام ١٨٧١ وحصل عليها فيردي شهرةً عالمية واسعة النطاق لم يسبق لها مثيل في عالم الأوبرا ـ المترجم.

(٩٠) الألتو alto: المغنية بأخفض الأصوات ـ المترجم.

تخاطبه بتوسلاتٍ يائسة كي يتبرأ من الجارية، ذلك ان حياته هو في الميزان. «لا أستطيع». . . «مرةً أخرى، تبرأ منها». . . «لا جدوى من توسلاتك» - والعناد المميت والحب المصاب بكرب يمتزجان معاً في ثنائي مؤلف من القوة والجمال الإستثنائيين، لكن بكل معنى الكلمة ما من أمل البتة. ثم يأتي التكرار المروِّع للصيغ الكهنوتية للإدانة، بمصاحبة قنوط أمنيريس، الصيغ بدت مكتومة من الأسفل، ومن ثم راداميس لا يرد عليها مطلقاً.

«راداميس، راداميس»، يغني الكاهن الأكبر بصورةٍ نهائية، ويشير الى الخيانة العظمى التي إقترفها.

«برئ نفسك من الإثم»، الكهان كلهم، في كورس، يطلبون منه.

الكاهن الأكبر يلفت الإنتباه الى صمته، وكلهم بكل ما في الكلمة من معنى يصرّحون انه مذنب.

«راداميس، راداميس»، يغني الكاهن الأكبر ثانيةً. «غادرتَ معسكركَ قبل المعركة.»

ومن جديد: «برئ نفسك من الإثم.» «عجباً، انه صامت»، أعلن الموظف المشرف المتحيز بشدة مرةً أخرى؛ والكهان كلهم صرّحوا بالاجماع ثانيةً انه مذنب.

«راداميس، راداميس»، جاء ثالثةً الصوت العنيد. «الوطن الأسلاف، للشرف ولملكك، فسختَ يمينكَ» - «برئ نفسك من الإثم»، دوّت من جديد. وأخيراً، ثالث مرة، «خيانة»، الكورس الكهنوتي صرّح بعد أن لاحظوا ان راداميس مرةً أخرى بقي صامتاً بكل ما في الكلمة من معنى. ومن ثم كان شيئاً لا بد منه: الكورس يبلّغ الشرير بالحكم، يصرّح ان حكمه القضائي قد أُقر، انه يجب أن يموت ميتة الهارب من الجندية ويُدفن حياً تحت هيكل الألوهية المتهكة.

المشاعر المستثارة لـ أمنيريس عند هذه القسوة الكهنوتية يجب تخيلها، ذلك ان الإسطوانة فجأةً توقفت هنا. هانز كاستورب أبدل الطبق، بأقل عدد ممكن من الحركات، عيناه مخفضتان الى الأسفل. حين أجلس نفسه ثانيةً، كان ذلك ليصغي للمشهد الأخير من الميلودراما، الثنائي الختامي لـ راداميس

وعايدة، تم غناؤه في سراديب تحت الأرض، بينما فوق رأسيهما في الهيكل الكهان القساة المتعصبون يقوم بخدمة دينهم، ينشرون أذرعهم الى الأعلى، يطلقون صوتاً مغمغماً غير واضح. «أنتِ ـ في هذا الضريح؟» يأتي الصوت المثير للمشاعر بنحو لا يمكن وصفه، الصوت الحلو وفي الوقت نفسه البطولي لـ راداميس، في رعب ممتزج مع النشوة. أجل، وجدت طريقها إليه، المحبوبة التي من أجلها خسر حياته وشرفه، كانت تنتظره هنا، كي تموت معه، والأغنية المتبادلة بين الإثنين، كانت تنقطع غالباً بسبب الصوت المكبوت للإحتفالات الجارية فوقهما، أو تندمج وتنسجم معها، إخترقت روح بطلنا المنعزل ساهر الليل حتى أعمق أعماقها، بسبب الظروف التي كانا فيها وبالقدر نفسه بسبب التعبير اللحني لها. تحدّثا عن النعيم بقالبٍ شعري؛ لكن حقيقةً الأشعار المغناة كانت مبهجة، وحلواً بنحو مبهج كان غناؤهما. الخط اللحني سافر من دون مقاومة بوساطة الصوتين، المنفردين والمنسجمين لـ راداميس وعايدة؛ ذلك الصعود البسيط، المنتشي، الناطق من القرار الى النغمة الخامسة من السلّم الموسيقي، بينما هو يرتفع من النغمة الأساسية الى النغمة المدعمة نصف نغمة قبل الجواب، ثم يعود ثانيةً الى النغمة الخامسة ـ بدا للمستمع أكثر الأصوات التي سمعها طوال حياته نقاءً، والأثر إنتشاءً. لكنه سيكون أقل سحراً من بين الأصوات، لو ان الموقف الذي أحدثها لم يهيء روحه كي تستسلم لحلاوة الموسيقى. كان ذاك جميلاً جداً، حيث توجب على عايدة أن تجد طريقها الى المدان راداميس، كي تشاركه مصيره الى الأبد! المدان إحتج، بصورةٍ مناسبة تماماً، ضد التضحية بالحياة النفيسة؛ لكن في جملته الرقيقة، اليائسة «لا، لا، troppo sei bella» كان تسمم الإتحاد النهائي معها هي التي لم يفكر يوماً أن يراها ثانيةً. ما من حاجة الى بذل جهد من قبل المخيلة كي يستطيع هانز كاستورب أن يشعر مع راداميس كل هذا التسمم، كل هذا العرفان بالجميل. وما، أخيراً، شعر به، فهمه، وتمتع به، جالساً هناك بيدين مطويتين، محدقاً في الشرائح السود للنوافذ ذات الحصران التي تدفقت منها الأصوات والألحان كلها، هو المثالية المنتصرة للموسيقى، للفن، للروح الإنسانية؛ القدرة الرفيعة والتي يتعذر

إنكارها التي تمتلكها في تغطية الرعب المألوف للواقع بحجاب الجمال. ما هذا، إذا ما فكرنا بعين العقل، الذي يحدث هنا؟ إنسانان دُفنا حيين، رئاتهما مليئة بغاز القبر، سوف يستسلمان هنا معاً ـ أو، بنحو أكثر رعباً، الواحد تلو الآخر ـ لوخزات الجوع، وبعد ذلك ان عملية التفسخ سوف تفعل فعلها الذي لا يوصف، الى أن يبقى الهيكلان العظميان، كل واحد منهما لا يكترث تماماً ولا يحس كلياً بوجود أو غياب الهيكل العظمي الآخر. هذا هو الواقع الحقيقي، الموضوعي ـ لكن فضلاً عن ذلك، هو حالة واضحة جداً، لا تملك المثالية والعاطفة شيئاً منها، والتي بنحو منتصر وُضعت في الظل بوساطة الموسيقى وجمال الموضوع. الموقف كما أُتخذ لم يوجد لـ راداميس الأوبري أو عايدة الأوبرية. صوتاهما إرتفعا متحدين الى النغمة المدعمة السعيدة مفضيةً الى الجواب، بينما كانا يطمئنان أحدهما الآخر ان الفردوس الآن مفتوح، وان ضوء خلوده يتدفق قُدُماً أمام أعينهما التواقة. القوة المواسية لهذا التلطيف الجمالي أفاد المستمع، ومضى بعيداً كي يفسر الحب الخاص الذي حمله لهذا الجزء من برنامجه.

كان ميالاً لأن يرتاح من هذه الأهوال والنشوات في جزء آخر، مختصر، مع ذلك يملك طاقةً مركزة من السحر؛ جزء سلمي، بالمقارنة مع الجزء الآخر، لحن رعوي[٩١]، مع ذلك هو نقي، تشكل وتغيّر مع كل اللطف والتنظيم اللذين يمتاز بهما الفن الحديث جداً. كانت قطعة أوركسترية، ذات أصل فرنسي، بنحو خالص معزوفة على آلات موسيقية، إستهلال سيمفوني، أُنجز بآلات صغيرة نسبياً بالنسبة لزماننا، مع ذلك كل معدات التقنية الحديثة وبنحو عنيف قُصد أن يجعل الإنسان حالماً.

هو ذا الحلم الذي حلمه هانز كاستورب: إضطجع على ظهره في مرج مُشمس، مرصع بالأزاهير، ورأسه على هضبة صغيرة مدورة، إحدى ساقيه مسحوبة للأعلى، الثانية مندفعة فوقها ـ وتلك كانت سيقان معزى مرت هناك أمامه. أصابعه مست ثقوب مزمار خشب صغير، كان يعزف عليه من أجل

(٩١) اللحن الرعوي idyll: قطعة موسيقية ذات طابع رعوي أو رومانسي ـ المترجم.

السعادة الخالصة المنبعثة منه، عزلته في المرج تامة. كان يحمله الى شفتيه، مزماراً من القصب أو كلارنيت صغيراً، وكان ينتزع منه بالملاطفة والتملق أنغاماً رأسية مهدئة، نغماً إثر آخر، حالما تأتي، مع ذلك بتعاقب سار. أنغام المزمار السعيدة إرتفعت الى السماء عميقة الزرقة، وتحت السماء إنتشرت الفروع، أغصان رئيسة تقاذفتها الريح لأشجار دردار وحيدة وأشجار بتولا كانت أوراقها تتلألأ في الشمس. إلا ان مزماره العقيم، الحالم نهاراً، نصف الشجي كان بعيداً عن كونه الصوت الوحيد في العزلة. طنين الحشرات في الهواء الذي دفأته الشمس فوق النجيل الطويل، شروق الشمس نفسه، الريح المعتدلة، قمم الأشجار المتمايلة، الأوراق المتلألئة ـ كل هذه الإرتعاشات الرقيقة للسِلم منتصف الصيفي قرّبت نفسها من عزفه البسيط كي تمنحه مغزىً متغيراً، متناغماً تم إختياره بعناية مدهشة. في بعض الأحيان المصاحبة السمفونية تضمحل وتُنسى. بعدها هانز بساقي المعزى ينفخ بقوة، والوتيرية الساذجة لعزفه تغوي سحر (الطبيعة) الملون بصورةٍ لطيفة، متناسق الأجزاء؛ الى أن أخيراً، بعد مدة استراحة متكررة، وافقت بصورة حلوة. أدوات أكثر وأرقى جاءت بسرعة، الواحدة تلو الأخرى، الى أن كل الغنى والحجم الناقصين سابقاً تم الوصول إليهما وإبقاؤهما في لحظةٍ هاربة واحدة إحتفظت مع ذلك بالأبدية كلها في جنتها الكاملة. فون[٩٢] الشاب كان فرحاً في مرجه الصيفي. ما من «برئ نفسك من الإثم»، هنا؛ ليس ثمة تحدٍ، ليس ثمة مجلس عسكري كهنوتي على امرئٍ ضلَّ ونسيه الشرف. الإهمال فرض سيطرته، سكون مقدّس، براءة تلك الأمكنة حيث لم يكن الزمن كذلك؛ «تراخٍ» مع أفضل ضمير في العالم، تمجيد رفض العالَم الغربي وحماسة العالَم الوحشية تلك نحو «العمل». التأثير المهدئ لهذه كلها على بطلنا صانع الموسيقى السائر في نومه منح هذه الإسطوانة الفونوغرافية قيمةً خاصةً في رأيه.

كانت هناك ثالثة. أو بالأحرى كانت هناك كثيرات، مجموعة متعاقبة

(٩٢) فون faun: أحد آلهة الحقول والقطعان عند الرومان ـ المترجم.

مؤلفة من ثلاث أو أربع، أغنية صادحة وحيدة شغلت تقريباً نصف حيز القرص المطاط الأسود كله. ثانيةً كانت موسيقى فرنسية، أوبرا كان هانز كاستورب يعرفها معرفةً جيدة، شاهدها وسمعها مراتٍ متكررة. مرةً، في فترةٍ حرجة أمست الآن ماضياً، كان قد جعل من نشاطها يخدمه كمجاز. الاسطوانة الفونوغرافية إختارت المسرحية عند المشهد الثاني، في الخان الإسباني، بفن عمارة مغربي غير متقن، قبو رحب مكسو بالشال كأرض مخزنٍ للحبوب. يسمع المرء صوت كارمن، فظاً قليلاً، مع ذلك هو دافئ ومُعدٍ جداً في صفته الشعبية، قائلةً انها سترقص أمام الرقيب؛ يسمع المرء خشخشة الصنوج. لكن في اللحظة ذاتها، من مسافةٍ معينة، إزداد دوي الأبواق، بوّاقون يعطون إشارةً عسكرية، بإزاء هذا الصوت يجفل الرقيب الصغير. «لحظة واحدة، توقفي!» يصيح هو، ويتلع أذنيه كالحصان. لماذا؟ ماذا هناك؟ سألت كارمن؛ وهو: «ألا تسمعين؟» مندهشاً من ان الإشارة لم تدخل روحها كما دخلت روحه. «كارمن، انها العودة الى الثكنة!» انها الأبواق من الحامية، تدعونا. «الساعة تقترب من عودتنا»، يقول هو، بلغة أوبرية. إلا ان الفتاة الغجرية ما كانت قادرةً على الفهم، ولا راغبة في أن تفهم. هذا حسن، تقول، بصورةٍ نصف حمقاء، نصف وقحة؛ لم تعد تحتاج الصنوج، فهنا الموسيقى هبطت من السماء. موسيقى كي يرقص عليها المرء، ترا ـ لا، ترا ـ لا! كان خارجاً عن طوره. خيبة أمله تراجعت أمام حاجته الى أن يوضح لها الأمور، وكيف ان ما من علاقة غرامية يمكنها أن تحول دون طاعة هذه الدعوة. كيف لا تستطيع هي أن تفهم شيئاً ثابتاً جداً، جوهرياً جداً؟ «ينبغي لي الذهاب، الإشارة تدعوني، الى المأوى!» يصيح، بيأس بسبب نقص الفهم الذي يضاعف العبء الجاثم على قلبه الكئيب. والآن، اسمع كارمن! انها غاضبة. مُهانة حتى أعمق أعماق روحها، صوتها هو صوت الحب المخدوع والمظلوم ـ أو هي التي جعلته يبدو هكذا. «الى المأوى؟ الإشارة؟» وفؤادها؟ فؤادها العاشق، المخلص، حينذاك فقط، في ضعفه، نعم، إعترفت هي، في ضعفه، يريد أن يزجي ساعةً معه في الرقص والغناء؟ «تان ـ تا ـ را!» وفي ضراوةٍ من السخرية وضعت يدها المعقوفة على

شفتيها وقلّدت الأبواق: «تاران ـ تارا!» وكان هذا كافياً كي يجعل الأحمق يقفز، متلهفاً للذهاب! طيب، إذاً، دعيه يرحل، ليغرب عن وجهكِ! هي ذي الخوذة، السيف الضالع[٩٣]، وعروة حمالة السيف ـ ليغرب، ليغرب عن وجهك، دعيه يذهب، دعيه يرحل، يرحل الى الثكنة! انه يلتمس الرأفة. لكنها تستمر، تلدغه بسخريتها، تهزأ منه، تحل محله وتُظهر بتعبير إيمائي كيف انه لدى سماعه صوت البوق فقد أدنى إحساس له. تان ـ تارا! إشارة! أيتها السماء! سوف يأتي متأخراً جداً! دعيه يذهب، دعيه يرحل، لأن الدعوة أطلقت صوتها، وهو، كالمغفل، يقرر الذهاب، في اللحظة ذاتها التي سترقص فيها له. من هذه المرة، هي إذاً سوف تقيّم حبه!

هو يتعذب عذاباً شديداً. هي لا تستطيع أن تفهم. المرأة، الفتاة الغجرية، لن تقدر، وسوف لن تفهم. هي لن ـ ذلك ان في غضبها الشديد وسخريتها ينطق شيء أكثر وأكبر من هذه المرحلة ومن ما هو شخصي: ضغينة، عداوة بدائية ضد ذلك المبدأ، الذي في نبرات هذه الأبواق الإسبانية ـ أو الأبواق الفرنسية ـ إستدعى الجندي الصغير المحروم من الحب. على ذلك المبدأ كان طموحها الأعمق، الفطري، الأكثر من الطموح الشخصي أن تنتصر. وكانت تملك وسيلةً بسيطةً جداً: تقول هي انه ذاهب إذاً هو لا يحبها ـ هذا بالضبط هو الشيء الذي لا يطيق خوزيه سماعه. يتضرع إليها أن تسمح له بالتكلم. هي لن تفعل. ثم يجبرها ـ هي لحظة خطيرة الى حدٍ بعيد، نوطات غير رنانة للمصيبة ترتفع من الأوركسترا، حافز كئيب، مشؤوم، تكرر، كما عرف هانز كاستورب، خلال الأوبرا، الى ذروتها القاتلة، وكوّنت أيضاً المقطع اللفظي الأول لـ أغنية الجندي، في الطبق التالي، الذي يجب إدخاله الآن. «انظري هنا زهرتك مدّخرةً جيداً» ـ يا للروعة التي أنشد بها خوزيه ذلك! أدار هانز كاستورب هذه الاسطوانة الفونوغرافية الوحيدة المرة تلو المرة، واستمع بأعمق مشاركة. بقدر تعلق الأمر بمحتوياتها، هي لم تأتِ بالفعل الى مدى أبعد، إلا ان عاطفتها المتوسلة كانت مؤثرةً أيما

(٩٣) السيف الضالع sabre: سيف وحيد الحد أعقف قليلاً يستعمله الفرسان ـ المترجم.

تأثير. الجندي الصغير غنى عن الزهرة التي ناولتها له كارمن في بداية تعارفهما، التي (أي الزهرة) كانت تعني كل شيء بالنسبة له، في الإعتقال الذي عانى منه بسبب حبه لها. يعترف هو: «في بعض الأحيان لعنتُ الساعة التي إلتقيتكِ فيها، حاولتُ عبثاً أن أنساكِ» ـ لمجرد أن يندم في اللحظة التالية على كفره، ويصلي راكعاً على ركبتيه ليراها مرةً أخرى. وبينما كان يصلي ـ عازفاً النوطة العنيفة نفسها كما في السابق حين قال «كي أراكِ، كارمن»، إلا ان تأليف الألحان الموسيقية للأوركسترا الآن أعار كل ثروات سحرها كي يلون الكرب، اللهفة، الرقة اليائسة، القنوط الحلو، في قلب الجندي الصغير ـ آه، هي ذي واقفة أمام عينيه، بكل فتنتها القاتلة؛ وبصورةٍ جلية، بيّنة، أحس انه مُهمَل، ضائع الى الأبد ـ مع كلمة (مُهمَل) جاءت نوطة زينية بنغمة كاملة باكية الى المقطع اللفظي الأول ـ ضائع ومهمل الى الأبد. «عندئذ هل يستطيع الوجد أن يباغتني»، بيأسٍ أعلن مقسماً بلحنٍ متواتر كررته الأوركسترا بنحوٍ باكٍ، مرتفعةً نغمتين عن القرار ومن هنا عائدة بحماسة الى النغمة الخامسة: «كارمن، حياتي»، يكرر، برقةٍ لا متناهية إنما بإسهاب عديم الذوق، يرتقي السلّم الموسيقي قُدُماً الى السادسة، كي يضيف قائلاً: «الخاصة، وروحي تنتميان لكِ» ـ بعدها يسمح لصوته أن يهبط عشر نغمات كاملة وفي أعمق عاطفة يصرّح قائلاً: «كارمن، أنا مغرم بك!» جاعلاً الكلمات ترتجف بكرب من نوطةٍ بقيت فوق تناغمات متغيرة، حتى الـ«كِ»[٩٤]، مع المقطع اللفظي قبل أن تنحل في الإنسجام التام.

«نعم، آ، نعم»، قال هانز كاستورب برضا حِدادي، ووضع الحلقة الأخيرة: حيث كانوا كلهم يهنئون الشاب خوزيه لأن اللقاء بالضابط قضى على عودته الى الثكنة، والآن فقط بقي له الخيار أن يفر من الجندية، كما قالت له كارمن من قبل، ويا لرعبه، والآن يتطلب منه القيام بذلك.

« بعيداً عن الجبال، بعيداً، بعيداً،

---

(٩٤) كِ thee ضمير المخاطَب في حالتي النصب والجر ـ هنا المخاطَب (أو المخاطبة) هو كارمن ـ المترجم.

قاسمنا حياتنا، المرحة، الخالية من الهم»،

أنشدوا في كورس ـ في مستطاع المرء أن يفهم الكلمات بصورةٍ جيدة جداً:

«أحراراً في التجوّل، العالم بيتنا
شيء مفرح أن تمر على اليابسة والبحر،
وتتمتع، الأشياء الأُخر ممتازة،
الحرية الحلوة!»[٩٥]

«نعم، نعم»، قال، كالسابق؛ ومضى الى اسطوانة فونوغرافية رابعة، وهي شيء عزيز وجيد جداً.

انها ليست غلطتنا أن تكون فرنسية أيضاً، ولسنا مسؤولين عن كونها مرةً أخرى تعزف النوطة العسكرية. كانت لحناً فاصلاً[٩٦]، حلقة لصوت منفرد، الصلاة من فاوست غونود[٩٧]. المغني، شخصية بدت أثيرةً حميمةً الى فؤاد شابنا، كان يدعى في الأوبرا فالنتين؛ إلا ان هانز كاستورب كان يسميه بإسم آخر مألوف الى حد بعيد، اسم مثير للشجن، كان يحمله يوماً ما امرؤ استطاع بنحو كبير أن يميزه بالشخصية الأوبرية والذي جعله صندوق العجائب ذا

---

(٩٥) أوبرا كارمن من تأليف الفرنسي جورج بيزيه (١٨٣٨ ـ ١٨٧٥). موضوعها من قصة مشهورة للكاتب الفرنسي بروبسبير مارميه، وهي دراما غرامية إنسانية. تدور أحداث الأوبرا في إسبانيا العام ١٨٢٠ عن فتاة غجرية دُعيت بالغجرية كارمن الفاتنة الماجنة من خلال عملها بمعمل السجاير، يقع في غرامها ضابط إسباني هو دون خوزيه المشمول بحراسة المعمل وبأمر كابتن البوليس يُحجز عليها وتعتقل. ومن خلال إغرائها بجمالها يفك قيدها.. فتهرب.. ويترك واجبه باحثاً عنها.. يُضحك على الضابط الشاب المغرم ويضطر في النهاية الى اغتيالها قبل ذهابها لمشاهدة مصارعة الثيران (حيث عشيقها) وينتحر هو أيضاً ـ المترجم.

(٩٦) اللحن الفاصل intermezzo (بالإيطالية): لحن قصير يُعزف بين أجزاء أثر موسيقي كبير ـ المترجم.

(٩٧) غونود Gounod: مؤلف موسيقي وقائد فرقة موسيقية فرنسي (١٨١٨ ـ ١٨٩٣). كان يرغب مرةً أن يغدو كاهناً. حقق نجاحاً كبيراً في أوبرا (فاوست) العام ١٨٥٧ ـ المترجم.

صوت ـ مع ان الأخير للعلم كان له صوت أجمل بكثير، صوت جهير أول دافئ وقوي. كانت أغنيته في ثلاثة أجزاء: الجزء الأول يتألف من استروفيتين[٩٨] «ركنيتين» قريبتين جداً من بعضهما، دينيتي الطابع، تقريباً بإسلوب الترتيلة البروتستانتية، واستروفية وسطية، جريئة، وفروسية، حربية، جذلة، مع ذلك كانت تخشى الله أيضاً، وبشكل جوهري فرنسية وعسكرية. الشخصية غير المرئية أنشدت:

«الآن حانت ساعة الفراق

عليّ أن أغادر بيتي المحبوب»

والتفت تحت هذه الظروف الى الباري، متوسلاً إليه أن يشمل شقيقته المحبوبة برعايته الخاصة ويحميها. كان ذاهباً الى الحروب: الإيقاع تغير، أضحى فوّاراً وحيوياً؛ قلق غير واضح وحزن من إحتمال شنقه! هو، المغني غير المرئي، كان يتوق لأن يكون في ميدان القتال، في أشد معمعان النزاع، حيث كان الخطر ضارياً، ويقذف نفسه على العدو ـ أنيقاً، خائفاً من الباري، فرنسياً بكل ما في الكلمة من معنى. لكن إذا، غنى هو، دعاه الله اليه، سوف يخفض الباري بصره ناظراً بحماية إليـ«كِ» ـ أي شقيقة المغني، كما عرف هانز كاستورب تماماً، مع ذلك الضمير[٩٩] هزه هزاً عميقاً، وعاطفته أطالت نفسها بينما كان البطل يغني، على وفق مصاحبة من كورس ضخم:

يا رب السماء، إسمع توسلي!

إحمِ مارغريت في كنف رعايتك!

هناك توقفت الاسطوانة الفونوغرافية. كنا قد أنعمنا النظر فيها بسبب ولع هانز كاستورب الخاص؛ لكن أيضاً لأنها لعبتْ دوراً معيناً في حادثة لاحقة غريبة أيما غرابة. والآن نعود الى الجزء الخامس والأخير في مجموعته المؤلفة من الأشياء المفضلة كثيراً: هذه المرة ليس فرنسياً، بل شيئاً ألمانياً

---

(٩٨) استروفية strophe (باليونانية): ذلك الجزء من القصيدة الاغريقية القديمة الذي تنشده المجموعة وهي تتنقل من اليمين الى اليسار ـ المترجم.

(٩٩) المقصود هنا الضمير المتصل (كِ) ـ في النص كلمة thee ـ المترجم.

بصورة خاصة ونموذجية؛ وهو ليس أوبرا أيضاً، بل أغنية ألمانية (ليدة)، واحدة من تلك التي تُعد أغانٍ شعبية وتحفاً، ومن المزج اكتسبت طابعها الفريد بوصفها أمثلة روحية. لماذا يلزمنا أن نحوم حول الموضوع؟ كانت تلك أغنية «شجرة الزيزفون» لـ شوبرت[100]، لم تكن شيئاً أكثر من الأغنية القديمة، القديمة الأثيرة «عند البئر أمام البوابة»[101].

كانت تُنشد على وفق مصاحبة من البيانو من قبل صوت صادح؛ وكان المغني فتىً ذا موهبة وفطنة، عرف كيف يؤدي بمهارة كبيرة، بإحساس موسيقي رقيق وبراعة في الإلقاء الملحون موضوعه البسيط مع ذلك الكامل. نحن كلنا نعرف ان الأغنية الألمانية النبيلة تبدو نوعاً ما مختلفة حين تُقدم كحلقةٍ من حلقات حفلة موسيقية من خلال إدائها بالفم الطفولي أو الشعبي بشكله المبسط اللحن يُنشد متصلاً؛ بينما في فن ـ اللحن الأصلي، المقام الموسيقي يتغير الى الثانوي في البيت الثاني من المقطوعات الشعرية ذات الأبيات الثمانية، يتغير ثانيةً بتأثير جميل الى السلّم الكبير في البيت الخامس؛ المقام الموسيقي ينحل بنحو مثير في «الهَبات المُرة» التالية و«يواجه العاصفة»؛ ويعود ثانيةً مع الأبيات الأخيرة للمقطوعة الثالثة، التي كُررت كي ينهي اللحن. التبدل المجبر حقيقةً في اللحن يحدث ثلاث مرات، في نصفه الثاني الذي تغير فيه المقام الموسيقي، المرة الثالثة في تكرار النصف ـ إستروفية الأخيرة «نعم، دائماً، الى الأمام، أبداً الى الأمام». التبدل الفاتن، الذي لن نلمسه بنحو وثيق جداً في الكلمات الواضحة، يأتي في التعابير الموجزة «فوق أغصانها اللطيفة»، «رسالة في أذني»، «ما يزال أبداً في صدري»؛ وفي كل مرةٍ الصادح أداها، بصوته النقي، الدافئ، بطريقة تلفظه الممتازة، مع إيحاءٍ ببكاء، وإدراك حساس جداً، محب للجمال، المستمع يحس بقلبه يُمسك به بإحكام وتشبث في نمطٍ لم يُحلم به، بمعنى ان المغني

---

(١٠٠) شوبرت Shubert: مؤلف موسيقي نمساوي (١٧٩٧ ـ ١٨٢٨)، ولد ومات في فيينا، ونادراً ما غادرها. لحن أكثر من (٦٠) أغنية راقية ولطيفة جداً، أسهم في تأسيس نوع أغنية القرن التاسع عشر الألمانية المدعوة ليدة Lied ـ المترجم.

(١٠١) عند البئر أمام البوابة: وردت بالألمانية Am Brunnen vor dem Tore ـ المترجم.

عرف كيف يضاعفْ بوساطة نبرات رأسية الحماسة الإستثنائية في الأبيات «وجدتُ عزائي هناك»، «لأن الراحة والسلم هنا». في أعادة البيت الأخير «هنا يلزمك أن تجد الراحة»، غنى «يلزمك» أول مرة بحنين، بأقصى قوة، لكن ثاني مرة بأرق نغمات الفلوت.

هذا كثير جداً في ما يتعلق بالأغنية، وادائها. في ما يخص الاختيارات الأبكر يمكننا أن نشبع غرورنا، أغلب الظن، لأننا كنا قادرين على أن ننقل الى القارئ بعض الفهم، الدقيق تقريباً، عن مشاركة هانز كاستورب العاطفية الحميمة في الحلقات المختارة لبرنامجه الليلي. لكن بغية توضيح ماذا كانت هذه الحلقة الأخيرة، «شجرة الزيزفون» القديمة، تعني بالنسبة له، الواقع هذا مسعى حساس؛ يتطلب دقةً كبيرةً في التوكيد إذا لم نرد أن نحصل على ضرر أكثر من الفائدة من المشروع.

دعنا نصغها هكذا: ثمة مفهوم يتعلق بالروح، وهكذا فهو مهم، وهو هكذا لأنه يصل الى ما وراء نفسه كي يغدو وصفاً لمفهوم أكبر وأُساً له، عالم كامل من الإحساس والوجدان، الذي، بصورةٍ تامة زادت أم قلت، إنعكست صورته في الأول، وفي هذه الطريقة، وعلى وفق ذلك، تم قياس درجة أهميته. فضلاً عن ذلك، الحب المحسوس به نحو إبداع كهذا هو بحد ذاته «مهم»: يُنم عن شيء ما عن الشخص الذي يُعزه، واصفاً خصائص علاقته مع العالم الأرحب الذي يجسده المفهوم ـ الذي، بصورة واعية أو لا واعية، يحبه مع وفي الشيء نفسه.

هل يسعنا أن نقبل ان بطلنا البسيط، بعد سنوات عديدة من الإنضباط السحري ـ التعليمي، من الصعود من مرحلة كينونة معينة الى أخرى، وصل الآن نقطةً حيث أصبح واعياً بـ«مغزى» حبه وهدفه؟ نؤكد، نسجل، انه وصل. بالنسبة له عنت الأغنية عالماً كاملاً، عالماً لا بد أن يُغرم به، وإلا ما كان ليستطيع أن يحب بصورةٍ يائسة جداً ذلك الذي كانت تمثله وترمز إليه. نحن نعرف ما نقول حين نضيف ـ أغلب الظن بصورة خفية[١٠٢] ـ انه ربما

---

(١٠٢) أي: كانت تمثله ونرمز إليه بصورة خفية ـ المترجم.

سيكون له مصير مختلف لو ان مزاجه الخاص كان منفتحاً أقل لسحر دنيا الشعور، الوضع العام للعقل، الذي لخصته (الليدة) بصورة عميقة جداً، بصورة غامضة جداً. كانت الحقيقة ان قدره هو كان مُعلِّماً بواسطة مراحل، مغامرات، تبصرات، وهذه كلها زجت في دماغه موضوعاتٍ مناسبةٍ لـ«تقييمه» فعالياته، وهذه، بدورها، أنضجته الى ناقد حدسي لهذه الدنيا، لصورتها البهية بكل معنى الكلمة، وحبه لها. الى درجة انه كان قادراً تماماً على أن يقدم الثلاثة كلها كونها موضوعات لوساوسه حية الضمير!

المرء الجاهل تماماً بالهيام الرقيق فقط سوف يظن ان وساوس كهذه يمكنها أن تنتقص من موضوع الحب. على العكس، انها لا تمنحه إلا أحد التوابل. انها هي (أي الوساوس) التي تعير الحب مهماز الرغبة الجنسية، بحيث ان المرء أغلب الظن تقريباً يعرّف الرغبة الجنسية كونها هاجس الحب. لكن في أي شيء يكمن هاجس هانز كاستورب حي الضمير، هاجس التقييم، في ما يتعلق بالموافقة النهائية لحبه للأغنية الألمانية الفاتنة والعالم الذي كانت هي صورته؟ ماذا كان العالم وراء الأغنية، الذي جعلته حوافز وعيه يبدو عالماً للحب المحظور؟

كان موتاً.

يا له من جنون مطلق وواضح! تلك الأغنية الرائعة! لا تقبل الجدل، إنبثقت من أعمق وأقدس أعماق الشعور العِرقي، ملكية نفيسة، الطراز البدئي للجمال الأصيل المجسَّد. يا له من إنتقاص حقير من السمعة!

نعم. آ، نعم. هذا كله جميل جداً. هكذا ينبغي أن يتكلم كل إنسان مستقيم أخلاقياً. لكن في ما يتعلق بكل ذلك، خلف هذا الإنتاج الفني المحبب جداً والسار جداً هناك ـ الموت. كانت له مع الموت علاقات معينة، ربما يحبها المرء، مع ذلك ليس من دون أن يدرك، وبإحساس «التقييم»، بنحو واعٍ عنصراً محظوراً معيناً في حبه. أغلب الظن النتاج بشكله الأصيل لم يكن تعاطفاً مع الموت؛ لعله شيء ما أقوى من الناس ومن الحياة اللاذعة؛ غير ان التعاطف الروحي مع النتاج كان على الرغم من ذلك تعاطفاً

مع الموت. في الوهلة الأولى لائق وتقي بدرجة كافية، بصورة لا تقبل الجدل. إلا ان عواقبه كانت شريرة.

ما هذا كله الذي كان يفكر فيه؟ هو ما كان ليصغي إليه لو انه صدر عن أي واحد منكم. عواقب شريرة. أفكار غريبة الأطوار، أفكار زاوية مظلمة، مبغضة للبشر، أفكار حجرة التعذيب، الأسود الإسباني وطوق الرقبة المكشكش، شبقاً وليس حباً ـ وهذه هي عواقب الجمال صافي العينين!

ثقة كاملة بالنفس، عرفها هانز كاستورب، لم يكن قد وضعها في السيد سيتيمبريني. لكنه تذكر الآن تحذيراً قدمه له المعلم الخاص المنوَّر في زمنٍ ماضٍ، في بداية مسيرته السحرية، في موضوع «الإرتداد الروحي» الى العصور الأكثر ظلمة. أغلب الظن سيكون أمراً حسناً أن ينفذ تلك الحكمة تنفيذاً محترساً على الحالة الحاضرة. كان ذاك هو الإرتداد عن الطريق القويم الذي ميزه السيد سيتيمبريني كونه «مرضاً»، الخلاصة نفسها، الجانب الروحي الذي يرتد عنه الإنسان ـ هذا أيضاً يروق عقله البيداغوجي كونه «سقيماً»؟ وحتى مع ذلك؟ أنشودة هانز كاستورب المحبوبة المتسمة بالحنين الى الوطن، ودنيا الشعور الذي إنتمت إليه ـ رهيبة؟ لا شيء من هذا القبيل. كانا هذين الأكثر معقوليةً، الأكثر بساطةً في العالم بأسره. ومع ذلك ـ كانت هذه ثمرة، سليمة ورائعة بدرجة كافية لهذه اللحظة أو نحوها، مع ذلك هي ميالة بنحو إستثنائي الى التعفن؛ أنقى إنعاش للروح، إذا تم التمتع به في اللحظة المناسبة، لكن في اللحظة التالية، قادر على نشر التعفن والفساد بين الناس. كانت تلك ثمرة الحياة، المفكرة بالموت، الحبلى بالإنحلال؛ كانت تلك إعجوبة الروح، أغلب الظن الأكثر سمواً، في النظر ومختومة بنعمة الجمال عديم الضمير؛ لكن على أساسات مقنعة يُنظر إليها بإرتياب بعين العبقرية الداهية كونها «تقييماً» لها بصورة مُطيعة في حبها للعضوي؛ انه موضوع لإخضاع الذات على وفق الوصية المحددة للضمير.

نعم، إخضاع الذات ـ ربما يكون هذا جوهر الإنتصار على هذا الحب، هذا الإفتتان الروحي الذي حمل مثل هذه الثمرة الشريرة! أفكار هانز كاستورب، أو بالأحرى أنصاف أفكاره النبوئية حلّقت عالياً، بينما كان جالساً

هناك في الليل والصمت أمام تابوته الحجري المقطوع الخاص بالموسيقى. حلقت أعلى من فهمه، كانت مزينةً بصورةٍ سرية، آ، يا للقوة التي يملكها إفتتان الروح هذا! نحن كلنا أبناؤه، وبوسعنا أن ننجز أشياءً هائلةً على البسيطة، طالما نحن قادرونَ على خدمته. ما من حاجة بالمرء الى عبقرية أكثر، بل الى موهبة أكثر، من مؤلف «شجرة الزيزفون»، كي يغدو فناناً لإفتتان الروح فذلك من شأنه أن يمنح الأغنية حجماً ضخماً يلزمها بوساطته أن تستعبد العالم. ممالكُ ربما تُؤسس فوقه، ممالك دنيوية، ممالك دنيوية بكل معنى الكلمة، وطيدة، «تقدمية»، لا تتسم على الإطلاق بالحنين الى الماضي ـ تتدهور فيها الأغنية الى قطعة من موسيقى الفونوغراف يعزفها التيار الكهربائي. إلا ان ابنها المخلص ربما ما يزال هو الذي إستنزف حياته في إخضاع الذات، ومات، على شفتيه الكلمة الجديدة للحب التي لم يعرف حتى الآن كيف ينطقها. آ، انها شيء يستأهل أن يموت المرء من أجله، (الليدة) المسحورة! أما هو الذي مات من أجلها، الواقع لم يعد يموت من أجلها؛ كان بطلاً فقط لأنه مات من أجل الكلمة، الكلمة الجديدة والمستقبل الذي همس في فؤاده.

هذه كلها، إذاً، كانت الاسطوانات الفونوغرافية المفضلة لدى هانز كاستورب.

مشكوك فيه بدرجة شديدة

محاضرات إيدين كروكوفسكي كانت قد إتخذت في المرور السريع للأعوام إنعطافةً غير متوقعة. بحوثه، التي تعاملتْ مع التحليل النفسي وحياة ـ الحلم البشرية، كانت لها دوماً صفة تحت أرضية، إن لم نقل صفة مقبرة تحت أرضية؛ لكن الآن، بوساطة إنتقال تدريجي جداً نادراً ما لاحظه المرء، تحولت الى خارقة للطبيعة بنحو صريح، ومحاضراته التي يلقيها كل اسبوعين في حجرة الطعام ـ الفتنة الرئيسة للدار؛ مفخرة النشرة التمهيدية، أُعطيت بصوتٍ غريب متشدق، بسترة طويلة تبلغ حد الركبتين وصندلين من وراء

طاولة صغيرة مغطاة، لجمهور مستمعي بيرغهوف المستغرقين، الجامدين ـ هذه المحاضرات لم تعد تعالج الأنشطة المثيرة للقرف للحب والتحول من جديد للمرض الى عاطفة واعية. بل تطرقت الى الظواهر الإستثنائية للتنويم المغناطيسي والسرنمة، التخاطر[١٠٣]، «الحلم بشكل حقيقي»، والاستبصار[١٠٤]؛ أعاجيب الهستيريا، تفسيرها وسّع الأفق الفلسفي الى درجةٍ ما بحيث بغتةً أمام عيني المستمع تتبدى بصورة غامضة ألغاز مثل اللغز المتصل بعلاقة المادة بما هو نفسي، نعم، حتى لغز الحياة نفسها، الذي، ظهر، كان الإقتراب منه بوساطة طرق خارقة للطبيعة، وحتى مرضية، أسهل من الاقتراب منه بوساطة طريق الصحة.

نحن نقول هذا لأننا نعتقد انه واجبنا أن نفند إدعاءات أولئك الأشخاص الثرثارين الذين أعلنوا ان الدكتور كروكوفسكي كان قد لجأ الى التعمية من أجل أن يحرر محاضراته من الرتابة الباعثة على اليأس؛ بكلمات أخرى، واضعاً في باله غايات عاطفية خالصة. هكذا تكلمت الألسن المشوّهة للسمعة التي تجدها في كل حدب وصوب. حقيقةً، النبلاء عند محاضرات الاثنين نقروا آذانهم أقوى من أي وقت مضى كي يجعلوها تسمع، الآنسة ليوي، بدت، إذا كان هذا ممكناً، أشبه بشخصية شمع أُديرت بوساطة الآلات. بيد ان هذه التأثيرات كانت حقيقيةً كسلسلة الفكر التي لاحقها عقل النبيل المتعلم، ولهذا السبب ربما يدّعي انها لم تكن فقط متناغمةً مع نفسها بل حتى محتومة. حقل دراسته كان دوماً تلك الأصقاع الواسعة، الداكنة من الروح البشرية، التي إعتاد المرء أن يسميها ما دون الوعي، مع انها ربما من الأحسن أن تُدعى الوعي المغالى فيه، طالما ان منها (أي الأصقاع) في بعض الأحيان تنبثق معرفة يكون الفكر الواعي مؤهلاً لأي شيء خارج نطاقها، وتكون باعثةً على الفرضية القائلة انه ربما توجد روابط واتحادات بين المناطق

(١٠٣) التخاطر telepathy: إتصال عقل بآخر بطريقة ما خارجه عن نطاق العادي أو السوي ـ يسمى أيضاً: التحاسس عن بُعد ـ المترجم.

(١٠٤) الاستبصار second sight: بُعد نظر يمكن المرء من معرفة الأحداث او الأحوال قبل وقوعها.ـ المترجم.

الأدنى والأقل إنارةً من الروح الفردية و[الروح الكلية] العارفة تماماً. ان دنيا ما دون الشعور، «الخفية» في المعنى الضيق للكلمة، عاجلاً جداً تُبدي نفسها كونها خفيةً في المعنى الأضيق أيضاً، وتكوّن أحد المصادر الذي منه تنشأ الظواهر التي وافقنا هكذا على تمييزها. إلا ان هذا ليس كل شيء. كل مَنْ يميز عرضاً من أعراض مرض عضوي كتأثير لحياة الروح الواعية للعواطف المحظورة و(المتهسترة)، يميز القوة الخلاقة للنفسي داخل المادي ـ قوة يميل المرء لأن يدّعي كونها مصدراً ثانياً للظواهر السحرية. ان الشخص المثالي لما هو مرضي، ولا نقول المثالي المرضي، يرى نفسه عند نقطة الإنطلاق لسلاسل معينة من التفكير التي سوف تنتهي قريباً في مسألة الوجود، أي في مسألة العلاقة بين الروح والمادة. ان الإنسان المادي، ابن فلسفة القوة الحيوانية تماماً، لا يستطيع أن يثنيه أحد عن تفسير الروح كونها مجرد نتاج متفسفر للمادة؛ في حين ان الإنسان المثالي، منبثقاً من مبدأ الهستيريا الخلاقة، يميل، ويقرر حالاً، ان يحل مسألة الأولية في المعنى المعاكس تماماً. خذها الكل في الكل، هنا ليس ثمة شيء أقل من النزاع القديم حول مَنْ كان الأول، الفرخ أم البيضة ـ نزاع ينتحل تعقيده الإستثنائي من الحقيقة القائلة ان ما من بيضة ممكن تخيلها عدا تلك التي وضعتها دجاجة ما، وما من دجاجة لم تزحف خارجةً من بيضة مفترضة سابقاً.

طيب إذاً، كانت مسائل كهذه تلك التي ناقشها الدكتور كروكوفسكي في محاضراته. كان قد تناولها بصورةٍ منظمة، منطقية، حقيقية ـ تلك الحقيقة لا يمكن المغالاة في توكيدها. ذلك انه بوسعنا حتى أن نضيف انه كان قد بدأ سابقاً بمعالجتها قبل وصول إيلين براند الى موقع الحدث، وتقدم القضايا الى مرحلة إختبارية وتجريبية.

مَنْ هي إيلين براند؟ كدنا ننسى ان قراءنا لا يعرفونها، ذلك ان اسمها مألوف جداً بالنسبة لنا. مَنْ كانت؟ تكاد تكون لا أحد من أول نظرة. شابة حلوة في التاسعة عشرة، دانمركية ذات شعر كتاني(١٠٥)، لم تكن من

(١٠٥) كتاني flaxen: اللون التبني الشاحب ـ المترجم.

كوبنهاغن بل من أودينسه ـ الواقعة على ـ فونين، حيث كان والدها يعمل في الزبد. هي نفسها كانت قد بدأت الحياة التجارية منذ عامين أو نحو ذلك، بحامي ردن على ذراع الكتابة خاصتها كانت تجلس على كتب ثقيلة، جثمت على (ستول) دوّار في فرع قروي لمصرف ما ـ وأظهرت حمى. كانت تلك حالة مرضية تافهة، هي في الأرجح مشكوك فيها أكثر من كونها حقيقية، مع ان ايلي كانت في واقع الأمر ضعيفةً، ضعيفةً ومصابةً بفقر الدم بنحو واضح(١٠٦) ـ هي بشكل جلي عاطفية أيضاً، تجعل المرء يشفق عليها بأن يضع يده على رأسها الكتاني ـ كما كان هوفرات يفعل بانتظام، حين يتحدث إليها في حجرة الطعام. طراوة شمالية إنبعثت منها، طوّقها جو طاهر وزجاجي، طاهر عُذري، كانت محببةً بكل ما في الكلمة من معنى، ذات نظرة صافية صريحة من عينيها الزرقاوين الطفوليتين، وكلام ألماني رفيع، واضح، جميل، (مكسّر) قليلاً، مع أخطاء لفظية صغيرة نموذجية. في ما يتعلق بملامح وجهها ليس ثمة شيء غير إعتيادي. كان ذقنها قصيراً جداً. كانت تجلس الى مائدةٍ مع كليفيلد التي إعتنت بها عناية الأم بأولادها.

الآن هذه الآنسة براند ضئيلة البدن، هذه الـ إيلي ضئيلة البدن، هذه الدنماركية قصيرة القامة، ذات الطبيعة الودية، راكبة الدراجة ومحدودبة الكتفين وثابة النضد الشابة، كانت لها أشياء تتعلق بها، ما كان ليحلم بها امرؤ ما، لدى النظرة الأولى الى شخصها الضئيل الشفاف، لكنها (أي الأشياء) بدأت تكشف عن نفسها بعد مضي أسابيع قلائل؛ وهذه أضحت مسألة الدكتور كروكوفسكي كي يعريها في كل إستثنائيتها.

الرجل المتعلم نال أول تلميح خاص به في أثناء محاورة مسائية عامة. كانت ثمة ألعاب تخمينية متنوعة يلعبها النزلاء؛ أشياء مخفية يتم العثور عليها بمساعدة ألحان من البيانو، كانت ترتفع حين يقترب المرء من البقعة

(١٠٦) في النص chlorotic: الـ chlorosis هو فقر دم يصيب الفتيات المراهقات ـ المترجم.

الصحيحة، وتخمد حين يضل الباحث في خط أثر خاطئ. بعدها يذهب امرؤ الى الخارج وينتظر ريثما يتم الإقرار أي مهمة ينبغي له أن ينجزها؛ مثل إستبدال خاتمي شخصين يتم إختيارهما؛ دعوة امرأة ما الى الرقص بأن ينحني أمامها ثلاث مرات؛ تناول كتاب معين من الرفوف وتقديمه الى هذا الفرد أو ذاك ـ والمزيد من هذا النوع. انه شيء يستحق الملاحظة ان ألعاباً كهذه لم تكن قد مورست بين نزلاء مصح بيرغهوف. مَنْ الذي أدخلها لم يكن بعدئذ الأمر الذي يسهل إقراره؛ يقيناً لم تدخلها إيلي براند، مع ذلك بدأت منذ وصولها.

كان المشاركون هم تقريباً كل أصدقائنا القدامى، بينهم هانز كاستورب. أظهروا أنفسهم جديرين بدرجة ما كبرت أم صغرت ـ كان بعضهم غير مؤهلين بكل ما في الكلمة من معنى. أما موهبة إيلي براند فقد شوهدت حالاً كونها فائقةً، لافتةً، غير مناسبة. قدرتها على إيجاد الأشياء المخفية كان يتم التغاضي عنها بالتصفيق وضحك الإعجاب. لكن حين يصل الأمر الى سلسلة مدبرة من الأفعال، كانوا يصابون بالخرس. كانت تفعل كل ما يتفقون على أن تفعله، كانت تفعله حال دخولها الحجرة، ببسمة لطيفة، من دون تردد، من دون مساعدة الموسيقى. جلبت قبضةً من الملح من حجرة الطعام، نثرتها على رأس المحامي باراوانت، أخذته من يده، قادته الى البيانو وعزفت مطلع أغنية للأطفال بسبابته؛ ثم أرجعته من جديد الى مقعده، إنحنت له إنحناءة احترام، جلبتْ مسند قدمين وختاماً أجلست نفسها عند قدميه، هذا كله هو بالضبط ما قدحته زنادات أفكارهم كي يعيّنوا لها مهمةً ما.

كانت تسترق السمع.

تخضبت بالإحمرار. بإحساس من الإرتياح لدى شعورها بالحرج شرعوا كلهم معاً في آنٍ واحد من توبيخها؛ لكنها طمأنتهم انها لم تحمر بذلك المعنى. لم تسترق السمع، لا في الخارج، ليس في الباب، الحق، الحق لم تكن ترهف السمع!

لا في الخارج، ليس في الباب؟

«أوه، لا»، إعتذرت لهم. أصاخت السمع بعد أن رجعت، في الحجرة، لم تكن قادرةً على أن تحول دون ذلك.

كيف لا تستطيع أن تحول دون ذلك؟

شيء ما همس لها، قالت. همس وأخبرها ماذا ينبغي لها أن تفعل، بصوتٍ ضعيف، لكن واضح وجلي تماماً.

واضح كان هذا اعترافاً. بمعنىً ما كانت مدركة، إعترفت هي، انها خَدعتْ. كان يلزمها أن تقول سلفاً انها غير مؤهلة لأن تلعب لعبةً كهذه، لو إمتلكت ميزة أن يُهمس لها. التنافس، أي تنافس، يفقد معناه كله إذا كان لأحد المتنافسين أفضليات غير طبيعية على الآخرين. بمعنىً رياضي، كانت هي قد حُرمتْ عاجلاً من حق الاشتراك في المباراة لمخالفتها القوانين ـ إنما حُرمت بطريقةٍ جعلت القشعريرة تسري في ظهورهم صعوداً ونزولاً. بصوتٍ واحد استدعوا الدكتور كروكوفسكي، هرعوا ليأتوا به، وجاء هو. وفي الحال إطلع أتم الإطلاع على الموقف، ووقف هناك، قوياً، باسماً بكل معنى الكلمة، بروحه التي تستدعي الثقة. لاهثين أخبروه ان لديهم شيئاً ما غريب تماماً له، ثمة كائن كلي العلم، فتاة ذات أصوات. نعم. نعم، فقط دعهم يهدأوا، يلزمهم أن يروا. هذا هو مرجه الطبيعي، أرض رخوة، غير واثقة كفايةً للبقية، مع ذلك تحرك فوقها بخطوة واثقة. طرح أسئلةً، وأخبروه. آ، هي ذي ـ تعالي، إبنتي، هل هو صحيح ما يخبرونني به؟ ووضع يده على رأسها، كما نادراً ما يستطيع المرء أن يمنع نفسه من فعل ذلك. هنا ثمة حافز كبير للإهتمام، ولا يوجد أي باعث على الإطلاق للذعر. أقحم نظرة عينيه البنيتين الغريبتين في عينيّ إيلين براند الزرقاوين، ومرر يده على كتفها وذراعها، مربتاً عليها برفق. ردت على نظرته بإمتثال متزايد، رأسها مال ببطء نحو كتفها وصدرها. عيناها كانتا قد راحتا فعلاً تنصقلان، حين قام الأستاذ بحركة خارجية لا مبالية بيده أمام وجهها. غب ذلك مباشرةً عبّر عن رأيه قائلاً ان كل شيء كان في نظام تام، وأرسل المجموعة المستثارة الى حد بعيد الى علاج المساء، عدا إيليّ براند، التي معها، قال، يريد أن (يدردش) قليلاً.

يدردش قليلاً. هو ذاك بالضبط. إلا انه ما من أحد شعر بالإرتياح لهذه الكلمة، كانت تلك هي ذاك النوع من الكلمة التي يفضل كروكوفسكي الرفيق الفرح أن يستخدمها، وجعلتهم يرتجفون إرتجافات برد. هانز كاستورب، بينما كان يفتش عن كرسي الإستلقاء المتأخر خاصته، تذكّر الإحساس الذي به رأى الإنجازات المحظورة لـ إيلي وسمع تفسيرها الخجول؛ كما لو ان الأرض إنخسفت تحت قدميه، ومنحته إحساساً موسوساً نوعاً ما، دوار بحر طفيفاً؛ لم يسبق له أن شهد زلزالاً؛ لكنه حدّث نفسه انه ينبغي للمرء أن يجرب إحساساً مشابهاً ناجماً عن ذعر تام. بيد انه شعر أيضاً بفضولٍ كبير نحو هذه الهبات المقدّرة التي تملكها إيلين براند؛ المقترنة، هذا صحيح، مع المعرفة ان حقلها كان بصعوبة منفتحاً على الفرد، والشك في ما إذا لم يكن قاحلاً، أو حتى آثماً، بقدر تعلق الأمر به ـ هذه كلها لم تمنع إحساسه من أن يكون ما كان عليه فعلاً؛ فضولاً. شأنه شأن أي فرد آخر، هانز كاستورب كان، في هذا الزمن من الحياة، سمع هذا وذاك عن أسرار الطبيعة، أو عن ما هو خارق للطبيعة. كنا قد ذكرنا خالة الأم المستبصرة، التي منها تحدّر تقليد الكآبة. إلا ان عالم ما فوق الطبيعة، مع انه نظرياً وموضوعياً ميز وجوده، غير انه لم يقترب منه (أي من العالم)، لم تكن له أي تجربة عملية عليه. ونفوره منه، مسألة ذوق، إشمئزاز جمالي، رد فعل للزهو البشري ـ إذا ما قيض لنا أن نستخدم مثل هذه الكلمات الكبيرة في ما يتصل ببطلنا المتواضع ـ الذي كان تقريباً كبيراً كفضوله. شعر سلفاً، بصورةٍ جلية تماماً، ان مثل هذه التجارب، مهما كان مجراها، لن تكون أيَّ شيء سوى تجارب سيئة الذوق، غامضة، وعديمة القيمة إنسانياً. ومع ذلك كان متلهفاً ليقوم بها. كان يعي ان بديله عن «القاحل» أو بخلاف ذلك «الآثم»، سيء بدرجة كافية بحد ذاته، لم يكن في الواقع بديلاً البتة، طالما ان الفكرتين سقطتا معاً، ودعوة شيء غير متوفر روحياً كانت طريقة لا أخلاقية في وصف خاصيته المحظورة. إلا ان الـ "placet experiri" المزروع في عقل هانز كاستورب من قبل شخص كان يقيناً وبنحوٍ لا لبس فيه سيشجب أي تجريب بأية حال في هذا الحقل، كان مزروعاً بصورة قوية بنحو كافٍ. شيئاً فشيئاً فضيلته وفضوله تقاربا وتداخلا،

أو في الأرجح فعلا ذلك دوماً، الفضول الخالص للشباب المتسائل في رحلاته، الذي كان سابقاً قد قربه الى حدٍ ما من الحقل المحظور، متى تذوّق غموض الشخصية، التي من أجلها حتى إدعى المبرر القائل انها أيضاً تقريباً عسكرية بطبيعتها، وذلك من خلال كونها لا تتجنب بصورةٍ ضعيفة المحظور، حين قدمت نفسها. هانز كاستورب توصل الى القرار النهائي أن لا يتجنب، بل أن يقاوم دافعه إذا ما وصل الى تطورات أكثر في حالة إيلين براند.

الدكتور كروكوفسكي أصدر حظراً صارماً ضد أي تجريب إضافي من قبل سواد الناس على المواهب الغامضة للآنسة براند. كان قد إستولى على الطفلة من أجل غرضه العلمي، عقد جلسات معها في زنزانة التحليل النفسي خاصته، نوّمها، رُوي، في مسعى لإيقاظ وتدريب قابلياتها النائمة نوماً خفيفاً، وعمل بحوثاً في حياتها النفسية الماضية. هرمينه كليفيلد، التي رعت الطفلة رعاية الأم لأولادها وتفضلت عليها، حاولت أن تفعل الشيء نفسه؛ وتحت الغطاء المحكم للسرية كان هناك عدد معين من الحقائق تم التحقق منها، التي تحت الغطاء المحكم نشرتها في أرجاء المصح، حتى في كوخ الحمال. فهمت هي، في سبيل المثال، ان ذلك العاقل ـ أو غير العاقل ـ الذي همس الأجوبة في أذن الكائن ضئيل البدن في المباريات كان يُدعى هولغر. هولغر هذا هو الروح الراحلة والأثيرية لشابٍ، شيء ما أشبه بالملاك الحارس لـ إيلي قصيرة القامة. إذاً هو الذي أخبرها بكل ما يتعلق بقبضة الملح واللحن الذي عُزف بسبابة المحامي باراوانت؟ نعم، شفتا تلك الروح اللتان كانتا قريبتين جداً من أذنها بحيث كان قربهما أشبه بعناق، ودغدغاها قليلاً، جعلاها تبتسم، همستا ما ينبغي لها أن تفعله. لا بد ان الأمر كان جميلاً جداً حين كانت طالبةً في المدرسة ولم تحضر درسها كي تطلب منه أن يخبرها بالأجوبة. في ما يتعلق بهذه النقطة سكتت إيلي. في ما بعد قالت انها ظنت انه لم يكن مسموحاً له بفعل ذلك. سيكون ممنوعاً عليه أن يزج نفسه في هكذا مسائل جدية ـ والأكثر من ذلك، لعله لم يكن هو نفسه يعرف الحلول.

عُرفَ، فضلاً عن ذلك، ان إيلين منذ طفولتها فصاعداً كانت لها أطياف، مع ان ذلك يحدث في فترات زمنية متباعدة كثيراً؛ أطياف، مرئية وغير مرئية. ما نوع هذه، الآن ـ أطياف غير مرئية؟ حسن، في سبيل المثال: حين كانت فتاةً في السادسة عشرة، كانت جالسةً ذات يوم وحيدةً في حجرة المعيشة بمنزل أهلها، تخيط عند طاولةٍ مستديرة، وكلبة والدها (فريا) تضطجع قربها على السجادة. كانت الطاولة مغطاة بشال تركي، من نوع الشالات التي تلبسها النساء العجائز بثلاث زوايا على أكتافهن. الشال غطى الطاولة بشكل منحرف، وحافاته كانت متدليةً نوعاً ما. بغتةً رأت إيلين الزاوية الأقرب إليها تنقلب ببطء الى الأعلى. بصمت، بحذر، وبانتظام قلب الشال نفسه الى الأعلى، مسافةً جيدةً نحو مركز الطاولة، بحيث ان اللفة الناتجة كانت طويلةً نوعاً؛ وبينما كان هذا يحدث، الكلبة فريا جفلت بصورة متوحشة، وترتْ قائمتيها الأماميتين، إنتصب الشَعر فوق جسدها. وقفت على قائمتيها الخلفيتين، ثم هرولت نابحةً الى الحجرة المتاخمة ولاذت تحت كنبةٍ ما هناك. على مدى عامٍ كامل بعد ذلك لم يكن بالمستطاع إقناعها أن تضع قدماً في حجرة المعيشة.

هل كان ذاك هولغر، سألت الآنسة كليفيلد، الذي ثنى القماش؟ براند ضئيلة البدن لا تعرف. وماذا كان رأيها في المسألة؟ لكن طالما هو شيء مستحيل تماماً أن تفكر بأي شيء يتعلق بالمسألة، إيلي قصيرة القامة لم تفكر بأي شيء البتة. هل أخبرت والديها؟ لا. كان هذا شيئاً غريب الأطوار. مع انها كانت متيقنةً تماماً من انها لم تفكر به، إيلي كان لها إنطباع واضح المعالم، في هذا وذاك من الحالات المشابهة، انه يجدر بها أن تحفظه لنفسها، تجعل منه سراً دفيناً وخجولاً. هل فكرت جدياً فيه؟ لا، ليس بشكل واضح. ماذا كان هناك في إنثناء القماش الى الأعلى كي تفكر جدياً فيه؟ ثمة أشياء فكرت فيها بجد ـ مثلاً الحادثة الآتية:

قبل سنة، في مسكن أبويها في أودينسه، إستيقظت، كدأبها، في البرد المعتدل للصباح المبكر، وغادرت حجرتها في الطبقة الأرضية، كي تصعد الى حجرة الفطور، لإعداد قهوة الصباح قبل أن يستيقظ الوالدين. كانت قد

وصلت تقريباً الى منبسط السلّم، حيث إنعطفت الدرجات، حين شاهدت واقفةً قريباً منها عند الدرجات شقيقتها الأكبر منها سناً صوفيا، التي تزوجت وسافرت الى أمريكا كي تحيا هناك. هناك كانت هي، بوجودها الجسدي، بثوبها النسائي الأبيض، مع، بصورةٍ لافتةٍ، إكليل من زنابق الماء الندية على رأسها، يداها مطويتان على كتف واحدة، وأومأت برأسها لأختها. إيلين، الثابتة في مكانها، نصف فرحة، نصف مروّعة، صاحت قائلةً: «أوه، صوفيا، أهذه أنت؟» صوفيا أومأت برأسها ثانيةً، وتلاشت عن الأنظار. أمست شفافةً تدريجياً، في الحال كانت فقط مرئية كتيارٍ متصاعد من الهواء الحار، بعدها غير مرئية البتة، بحيث كان مسار إيلين واضحاً. لاحقاً، إتضح ان شقيقتها صوفيا ماتت بسبب مشكلة قلبية في نيوجرسي، في تلك الساعة ذاتها.

هانز كاستورب، حين روت له الآنسة كليفيلد هذه الواقعة، عبّر عن رأيه قائلاً ان في الحكاية ثمة معنى ما: الشبح هنا، الموت هناك ـ على أي حال، هما يشكلان وحدةً متماسكة. ووافق أن يحضر جلسةً روحانية، لعبة إمالة طاولة، تحريك الكأس اللتين قرروا أن يقوموا بهما مع إيلين براند، من وراء ظهر الدكتور كروكوفسكي، ومن غير إعتبار لتحريمه الحذر.

شلة صغيرة ومنتخبة تجمعت لهذا الغرض، مسرحهم كان حجرة الآنسة كليفيلد. فضلاً عن المضيفة، الآنسة براند، وهانز كاستورب، كانت هناك فقط السيدة شتور، الآنسة ليوي، السيد ألبين، فينزل التشيكي، والدكتور تنج ـ فو. مساءً، عندما دقت الساعة معلنةً العاشرة، تجمعوا سراً، وبالهمسات إحتشدوا حول الجهاز الذي وفّرته هرمينه، المؤلف من طاولة مستديرة متوسطة الحجم من دون قماش، وُضعتْ في وسط الغرفة، مع كأس خمر مقلوبة فوقها، قاعدتها في الهواء. حول حافة المنضدة، عند مسافات منتظمة، وضعت ست وعشرون فيشة عاج صغيرة، كل واحدة منها تحمل حرفاً من حروف الأبجدية مكتوب فوقها بقلم الحبر. الآنسة كليفيلد قدّمت الشاي، الذي أُستقبل بابتهاج، طالما ان السيدة شتور والآنسة ليوي، على الرغم من عدم أذى المشروع، شكتا من القدمين الباردتين والخفقانات. مبتهجين بوساطة الشاي، إتخذوا مواضعهم حول الطاولة، في الشفق الوردي

الذي نشره مصباح الطاولة ذو الظلة الوردية، حيث كانت الآنسة كليفيلد، إذعاناً لمزاج التجمع، قد أطفأت ضوء السقف؛ وكل واحد منهم وضع سبابة يده اليمنى بخفةٍ على قاعدة كأس الخمر. كانت هذه التقنية الموصوفة. إنتظروا ريثما تتحرك الكأس.

كان لا بد أن يحدث هذا بسهولة. كان سطح الطاولة ناعماً، إطار الكأس راسخ الأساس، ضغط الأصابع المرتجفة، مهما كان مفروضاً بخفة، يقيناً غير متساوٍ، بعض الضغوط سُلطت عمودياً، بعضها الآخر جانبياً نوعاً، وفي الأرجح بقوة كافية بحيث ان الكأس في الختام تحركت من موقعها في مركز الطاولة. على حافة حقلها تأتي في تماسٍ مع الفيش المعلّمة؛ وإذا ما جمعت الحروف في هذه الفيش، معاً، تتكون كلمات تحمل معنىً ما، الظاهرة الناتجة ستكون معقدةً وملوثةً، نتاجاً خليطاً من العناصر الواعية، نصف الواعية، وغير الواعية؛ الرغبة الحقيقية وإلحاح بعضهم، الذين كانت الرغبة بالنسبة لهم مصدر الفعل، سواء كانوا مدركين لما فعلوه أم لم يكونوا؛ والإذعان السري لطبقةٍ مظلمة معينة في روح الأغلبية، مجهود عادي ولو انه سري من أجل التجارب الغريبة في الظاهر، تكون فيه الذات المكبوتة للفرد مشموله تقريباً، بنحو هامٍ جداً، بالطبع، الذات المكبوتة لـ إيلي ضئيلة البدن. هذا كانوا كلهم يعرفونه سلفاً ـ هانز كاستورب حتى أفشى من غير تفكير شيئاً من هذا القبيل، على وفق نمطه، بينما كانوا جالسين ينتظرون. خفقانات المرأتين وأطرافهما الباردة، المرح الصاخب المجبَر للرجال، إنبثق من معرفتهم انهم كانوا قد أتوا معاً في الليل كي يباشروا تجارةً غير نظيفة بطبيعاتهم الخاصة، تفحصاً فضولياً مخيفاً في مناطق غير مألوفة من نفوسهم، حيث كانوا ينتظرون ظهور تلك الحقائق الموهِمة أو أنصاف الحقائق التي ندعوها سحراً. كان ذلك تقريباً بكل معنى الكلمة من أجل الشكل، وحدث بصورةٍ مألوفةٍ تماماً، انهم طلبوا من أشباح الراحلين أن تتحدث إليهم من خلال حركة الكأس. السيد ألبين أبدى إستعداده لأن يكون الناطق بلسان الجماعة ويتعامل مع هكذا أشباح حين تظهر نفسها ـ إذ كانت له سابقاً تجربة صغيرة في جلسات تحضير الأرواح.

مرت عشرون دقيقة أو أكثر. الهمسات نضبت، التوتر الأول خفَّ. أسندوا أذرعهم اليمنى عند المرفق بأيديهم اليسرى. كان التشيكي فينزل قد غلبه النعاس تقريباً. إيلين براند أراحت إصبعها بخفة على الكأس ووجهت نظرتها الصافية، الطفولية بعيداً الى الضوء الوردي المنبعث من المصباح المنضدي.

الكأس مالت بغتةً، قرعت، وفرّت من تحت أيديهم. شقَّ عليهم أن يبقوا أصابعهم فوقها. إندفعت الى حافة الطاولة. تحركت على طولها مسافةً معينةً، ثم مالت الى الوراء تقريباً الى المنتصف؛ نقرت من جديد، وظلت هادئة.

جفلوا كلهم؛ بصورةٍ مؤاتية، مع بعض الذعُر. السيدة شتور تذمرت قائلةً انها تود أن تتوقف عن العمل، لكنهم أخبروها انه كان لزاماً عليها أن تفكر في ذلك قبلاً، يجدر بها فقط أن تلتزم الهدوء الآن. الأشياء بدت منتظمةً. إشترطوا، كي تجيب بـ نعم أو لا، الكأس لا تحتاج الى أن تمضي الى الحروف، بل ربما تقدم قرعةً أو قرعتين بدلاً من ذلك.

«هل ثمة ملاك آخر؟» سأل السيد ألبين، بصرامةٍ وجّه نظرته من فوق رؤوسهم الى الفراغ. بعد تردد قليل، مالت الكأس وقالت نعم.

«ما إسمكَ؟» سأل السيد ألبين، تقريباً بفظاظة، وأكد كلامه الحيوي بأن هز رأسه.

الكأس انطلقت. تحركت بتصميم من نقطة الى أخرى، راسمةً خطاً متعرجاً بأن رجعت كل مرةٍ مسافةً قليلةً نحو مركز الطاولة. زارت هي حروف الـ(هـ)، (و)، و(ل)، ثم بدت مرهقةً؛ لكنها إستجمعت رباطة جأشها ثانيةً وفتشت عن حرفي (غ) و(ر). بالضبط مثلما ظنوا كان ذاك هولغر شخصياً، الشبح هولغر، الذي فهم هكذا مسائل مثل قبضة الملح وما الى ذلك، وعرف أكثر من أن يتورط في الدروس بالمدرسة. كان هناك، عائماً في الهواء، فوق رؤوس أفراد الثلة الصغيرة. ماذا يلزمهم أن يفعلوا معه؟ تملكهم شيء من عدم الثقة بأنفسهم، كانت المشورة وراء متناولهم، ماذا يتوجب عليهم أن يسألوه. السيد ألبين قرر أن يسأله عن مقره ومهنته في الحياة، وفعل

كالسابق، بفظاظة، بحاجبين مقطبين: كما لو كان محامياً يستجوب شاهد الخصم إبتغاء دحض شهادته.

الكأس سكنت برهةً. ثم مضت مترنحةً الى حرف (ش)، سارت في خطٍ متعرّج وعادت الى حرف (أ). ترقب كبير. الدكتور تنج ـ فو قهقه وقال لا بد ان هولغر شاعر. السيدة شتور راحت تضحك بنحو هستيري؛ الأمر الذي أساء الكأس على ما يبدو، ذلك انها بعد أن أشارت الى حرف (ع)، توقفت ولم تتحرك أبعد من ذلك. على أية حال، بدا بنحو واضح بكل معنى الكلمة ان الدكتور تنج ـ فو كان على صواب.

يا للشيطان، هولغر إذاً شاعر؟ الكأس عادت الى الحياة، وبنحو غير ضروري، بتباهٍ جلي، قالت فجأة نعم. شاعر غنائي، سألت الآنسة كليفيلد؟ قالت غنا ـ ئي، كما لاحظ هانز كاستورب بصورةٍ لا إرادية. هولغر لم يكن ميالاً الى أن يخصص. لم يُدلِ بجوابٍ جديد، بل فقط تهجى ثانيةً، هذه المرة بسرعة ومن دون تردد، كلمة (شاعر)، مضيفاً الـ (ر) الذي تركه قبلاً.

طيب، إذاً، شاعر. تفاقم الارتباك. كان ارتباكاً في الواقع له صلة بتجليات من جانب مناطق مجهولة من ذواتهم الباطنية، لكنها، بسبب الحالات الموهِمة، نصف الحقيقية لهذه التجليات، عزتْ نفسها الى ما هو موضوعي وخارجي. هل يشعر هولغر انه في بيته، وراضٍ، بحالته الحاضرة؟ بصورة حالمة تهجت الكأس كلمة (ساكن). آ، ساكن. لم تكن تلك كلمة يكتشفها المرء بالمصادفة، لكن بعد أن تهجأتها الكأس، وجدوا انها كلمة أحسن إختيارها ومحتملة. وكم هو طول المدة التي كان فيها هولغر في هذه الحالة الساكنة؟ جواب هذا كان من جديد شيئاً لم يخطر على بال إنسان، وبنحوٍ حالم رد قائلاً: «برهة معجّلة». جيد جداً. كقطعة من الشِعر المتكلم من بطنه(١٠٧) من [الماوراء]، هانز كاستورب، بالأخص، وجده شيئاً ممتازاً. ان «برهةً معجّلة» هي الوحدة الزمنية التي عاش فيها هولغر: وبطبيعة الحال

---

(١٠٧) التكلم البطني ventriloquism: طريقة إطلاق الأصوات بحيث تبدو وكأنها آتية من مصدر غيرالمتكلم ـ المترجم.

توجب عليه أن يجيب إذا صح التعبير بالأمثال الرمزية ذوات المغزى الأخلاقي، ذلك انه في الأرجح نسي كيف يستخدم المصطلحات والمعايير الأرضية الخاصة بالقياسات المضبوطة. الآنسة ليوي إعترفت بفضولها في معرفة كيف يبدو هو، أو كيف بدا، تقريباً. هل كان شاباً وسيماً؟ السيد ألبين قال ان بوسعها أن تسأله بنفسها، فقد وجد الطلب أدنى من وقاره. هكذا سألت هي ما إذا كان للشبح شعر أشقر.

«عقصات جميلة، بنية، بنية» أجابت الكأس، بتعمدٍ تهجت كلمة (بنية) مرتين. كان هناك مرح كثير على هذا الجواب. السيدات قلن انهن مغرمات به. قبّلن أيديهن عند القفا. الدكتور تنج ـ فو، مقهقهاً، قال ان السيد هولغر لا بد أن يكون مزهواً بعض الشيء.

آ، يا للعنف البالغ الذي وقعت فيه الكأس! إنطلقت كالمجنونة هنا وهناك على الطاولة، بصورةٍ عشوائية تماماً، مهتزةً بالغيظ، سقطت وتدحرجت الى حضن السيدة شتور، التي فردت ذراعيها وخفضت بصرها ناظرةً إليها شاحبةً خائفةً. باعتذار أعادوها الى موضعها، ووبخوا الصيني. كيف تجرأ أن يقول شيئاً كهذا ـ هل رأى إلامَ أفضت حماقته؟ إفترض ان هولغر بلغ أقصى درجةٍ في غضبه، ورفض أن يقول كلمةً أخرى! هم أنفسهم خاطبوا الكأس بأقصى درجات الكياسة، ألا ينظم لهم هولغر بعض الأشعار؟ قال انه كان شاعراً، قبل أن يمضي ليرفرف في البرهة المعجِّلة. آ، يا لمبلغ لهفتهم كلهم لسماعه وهو يروي شعراً! هم يحبون أن يفعل هذا!

وعجباً، الكأس الطيبة لبثْ الطلب وقالت نعم! الحقيقة كان هناك شيء سمح وودي في الطريقة التي قرعت بها. وبعدها هولغر الشبح بدأ ينظم الشعر، وواصل ذلك من دون إنقطاع، بغزارة، بتفضيل، من غير أن يتوقف قليلاً للتفكير، على مدىً لا يعرفه إلا العزيز. بدا مستحيلاً أن يوقفه أحد. ويا لها من قصيدة مدهشة كانت، هذا المجهود المتكلم من بطنه، أُلقيت استجابةً لإعجاب الشلة ـ مادة من السحر، وبلا شاطئ كالبحر الذي تطرقت إليه بشكل واسع. طحلب بحري بأكوام وأشرطة على طول الشاطئ الضيق للخليج الفسيح؛ ساحل معزول، مطوّق بحزام بوساطة كثبان رملية شديدة

الإنحدار، شاهقة. آ، أنظر الى البُعد الأخضر الفاتح يبهت ويموت في الأبدية، بينما أسفل حُجُب السديم العريضة بلون قرمزي معتم وتألق حليبي شمس الصيف تتوانى كي تغوص! ما من كلمة تستطيع أن تعبّر عن كيف ومتى تحولت المرآة المائية من اللون الفضي الى تلاعب ـ لوني لا محدود متغير على نحو متواصل، الى ساطع أو شاحب، الى ومضات منتشرة اوبالانية[١٠٨] ولها صلة بحجر القمر[١٠٩] ـ أو كيف، عندما حدث بنحو مبهم، السحر الأبكم إضمحل. البحر نام نوماً خفيفاً. مع ذلك الآثار الأخيرة للغروب تخلفت في الأعلى والوراء. حتى ساعة متأخرة من الليل لم تغدُ معتمةً. شفق شبحي ساد في غابات الصنوبر فوق التلال، مُقصِراً الرمل الى أن أصبح شبيهاً بالثلج. غابة شتائية كاذبة ساكنة تماماً، عدا حيثما يصدر جناحا بوم حفيفاً خلال الطيران. دعنا نتيه هنا في هذه الساعة ـ ناعمٌ جداً هو الرمل تحت وطء أقدامنا، مهيب جداً، لطيف جداً هو الليل! بعيداً أسفلنا البحر يتنفس ببطء، ويغمغم همساً طويلاً في حلمه. ألا تتوق أنتَ لرؤيته ثانيةً؟ إمشِ قُدُماً الى الجروف الشاحبة، كنهر الجليد، جروف الكثبان الرملية، وتسلق صُعُداً الى داخل النعومة، التي تتغلغل بهدوء الى داخل الأحذية. اليابسة تنحدر بصورةٍ قاسية وكثيفة وحادة الى الشاطئ المفروش بالحصى، ولم تزلْ بقايا النهار المغادرة الأخيرة تلازم حافة السماء المتلاشية عن الأنظار. استلقِ هنا في الرمل! كم هو بارد كالموت، كم هو ناعم كالحرير، كالدقيق هو! هو يسيل بتيار خفيف، عديم اللون من كفك ويكوّن هضبةً صغيرةً لذيذة بجنبك. ألا تميزه، هذا التدفق شديد الصغر؟ هو الجريان الصامت، شديد الصغر عبر الساعة الرملية، تلك اللعبة المهيبة، الهشة التي تزين كوخ الناسك. كتاب مفتوح، جمجمة، وفي إطارها الرفيع الكأس الثنائية، تحمل قليلاً من الرمل، مأخوذاً من الأبدية، كي يطيل هنا، كالوقت، جوهره المقلق، الجليل، المبهم. . .

---

(١٠٨) اوبالانية opaline: هذه الكلمة مشتقة من الأوبال، وهو حجر كريم تتغير ألوانه تغيراً جميلاً ـ المترجم.

(١٠٩) حجر القمر moonstone: فلسبار شفاف لؤلؤي تتخذ منه الحلي ـ المترجم.

هكذا أبحر الشبح هولغر وارتجاله الغنائي، بأسرابٍ غريبةٍ من التفكير من شاطئ البحر المألوف الى زنزانة ناسك وأدوات تأمله الصوفي. وكان هناك المزيد؛ المزيد، مما هو إنساني ومقدس، تم تضمينها في المصطلحات الجريئة والغامضة ـ التي إحتار بها أعضاء المجموعة الصغيرة بنحوٍ لا حد له بينما كانوا يتهجؤونها؛ لا يكادون يجدون الوقت للتصفيق المستعجل مع انه جذل، بسرعةٍ شديدة الكأس تحركت بخط متعرج الى الأمام والخلف، بسرعة شديدة الكلمات تدفقت وتدفقت. لم يكن ثمة توقع جلي لمدة معينة، حتى بعد مرور ساعة من الزمن. الكأس ارتجلت بنحوٍ لا ينضب متكلمةً عن آلام الولادة المفاجئة اللاذعة والقبلة الأولى للحبيبين؛ تاج الأحزان، الصلاح الأبوي للباري؛ غاصت في أسرار الابداع، أضاعت نفسها في أزمان وأراضٍ أخرى، في مكانٍ يقع بين النجوم؛ حتى أتت على ذكر الكلدانيين ودائرة البروج؛ ويقيناً كانت ستستمر طوال الليل كله، لو ان المتآمرين لم يسحبوا أصابعم من الكأس، وعبّروا عن إمتنانهم لـ هولغر، أخبروه ان ذلك حتماً يكفيهم للوقت الحاضر، كان شيئاً مدهشاً فاق أحلامهم الجامحة جداً، كان ذاك أسف أبدي إذ ما من أحد قريب كي يدوّنها، ذلك انها الآن حتماً نُسيتْ، نعم، وا أسفاه، كانوا قد نسوا معظمها، شكراً لخاصيتها، التي يصعب الإحتفاظ بها، كما الأحلام. المرة القادمة ينبغي لهم أن يعيّنوا ناسخاً كي يدوّنها، ويرون كيف تبدو بالأسود والأبيض، ويقرأونها بنحوٍ مترابط. الآن، على أية حال، وقبل أن ينسحب هولغر الى سكون برهته المعجّلة، سيكون من الأفضل، ويقيناً شيئاً لطيفاً جداً منه، إذا ما وافق على الإجابة عن القليل من الأسئلة العملية. نادراً ما كانوا يعرفون ما هي، لكن هل سيكون هو في الأقل من حيث المبدأ ميالاً الى أن يفعل ذلك، في لطفه الكبير؟

كان الجواب نعم. بيد انهم إكتشفوا الآن حيرةً كبرى ـ ماذا يلزمهم أن يسألوا؟ كان ذاك أشبه بما حدث في قصة الجان، حين يمنح الجان أو القزم سؤالاً واحداً، وثمة خطورة في جعل الميزة الثمينة تفلت من بين الأصابع. ثمة أشياء كثيرة في العالم، كثيرة في المستقبل، ويبدو انها تستحق المعرفة، مع ذلك كان شيئاً عسيراً جداً أن يختار المرء أياً منها. في الختام، بما انه ما

من أحد غيره بدا قادراً على أن يقرر، هانز كاستورب، بإصبعه على الكأس، سانداً خده على قبضته، قال انه يود أن يعرف الطول الحقيقي لإقامته هنا في الأعالي، بدلاً من الأسابيع الثلاثة التي تم تحديدها أصلاً.

حسن جداً، وطالما انهم لم يفكروا بشيءٍ أفضل، دع الشبح إنطلاقاً من إمتلاء معرفته يُجب عن سؤال المصادفة هذا. الكأس ترددت، ثم اندفعتْ. تهجت شيئاً غريباً إيما غرابة، لم يفلح أي منهم أن يسبر غوره، رسمت الكلمة، أو المقطع اللفظي (اذهب)، وبعدها كلمة (مائلاً) وبعدها كلمة عن حجرة هانز كاستورب. بدا ذلك كله توجيهاً بأن يذهب مائلاً عبر حجرة هانز كاستورب، أي، عبر أربعة وثلاثين. ما معنى هذا؟ بينما كانوا جالسين حائرين وهازي رؤوسهم، فجأةً جاء هناك الإصبع الثقيل لقبضةٍ على الباب.

وثبوا كلهم. هل كانت تلك مباغتة؟ هل كان الدكتور كروكوفسكي واقفاً خارج الغرفة، جاء كي يضع حداً للجلسة المحظورة؟ رفعوا أبصارهم بإثم، متوقعين دخول الرجل المخدوع. لكن بعدها جاءت ضربة ساحقة على منتصف الطاولة، كما لو كي يتم الإثبات ان الضربة العنيفة الأولى جاءت من الداخل وليس من خارج الغرفة.

اتهموا السيد ألبين بارتكاب هذه الدعابة التافهة جداً نوعاً، لكنه أنكرها مقسماً بشرفه؛ وحتى من دون قوله شعروا بأنهم متأكدين الى حدٍ ما، أن أحدا من الشلة لم يكن مذنباً. هل كان ذاك هولغر، إذاً؟ تطلعوا الى إيلي، على حين غرة صُدموا بصمتها. كانت مائلة الى الوراء في كرسيها، برسغين متهدلين وأطراف أصابع موضوعة على حافة الطاولة، رأسها مائل على إحدى الكتفين، حاجباها مرفوعان، فمها الصغير مسحوب الى الأسفل بحيث بدا أصغر من حجمه، مع بسمةٍ صغيرة جداً كانت تنطوي على شيء سخيف وماكر معاً، وتحدّق في المدى بعينين زرقاوين طفوليتين، خاليتين من التعبير. نادوها، لكنها لم تُبدِ علامةً من علامات الوعي. وبغتةً انطفأ ضوء طاولة الليل.

انطفأ؟ السيدة شتور، خارجة عن طورها، أطلقت صرخةً كبيرةً، ذلك انها سمعت نقطة الكهرباء وهي تُغير. الضوء، إذاً، لم ينطفئ من تلقاء نفسه

بل أطفأته يد ـ يد يبالغ المرء إذا ما صوّرها بكونها يداً «غريبة». هل كانت تلك يد هولغر؟ حتى ذلك الحين كان معتدلاً جداً، طيعاً جداً، شاعرياً جداً ـ لكن الآن بدا كما لو انه ينحط الى دعابات عملية بهلوانية. مَنْ الذي يعرف ما إذا كانت يدٌ ما قادرة على ضرب الأبواب والمناضد بقسوة شديدة محدثةً صوتاً مكتوماً، وتطفئ الأنوار بمكر، لن تمسك لاحقاً بحنجرة امرئٍ ما؟ طلبوا عيدان ثقاب، بطاريات جيب. الآنسة ليوي زعقت قائلةً ان شخصاً ما جرَّ ناصيتها. السيدة شتور لم تجد حرجاً في أن تسأل الباري بصوتٍ عالٍ في محنتها: «اللهم، اغفر لي هذه المرة!» ناحت، وأنَّتْ طالبةً الرحمة بدلاً من العدالة، مدركةً جيداً انها جربت الجحيم. كان الدكتور تنج ـ فو هو الذي إكتشف بالمصادفة الفكرة السليمة بإشعال ضوء السقف؛ الحجرة أُنيرت بنحوٍ ساطع فوراً. برهنوا الآن على ان المصباح فوق الطاولة لم ينطفئ بالمصادفة، بل أطفأه شخص ما، وفقط يستلزم إعادة نقطة الطهرباء كي يشتعل ثانيةً. لكن بينما كان يحدث هذا، إكتشف هانز كاستورب لحسابه إكتشافاً فريداً جداً، الذي ربما يُعد إهتماماً شخصياً من قبل القوى الشريرة هنا مظهرةً نفسها بذلك العناد الطفولي. ثمة شيء خفيف في حجره، إكتشف انه الـ«تذكار» الذي مرةً أدهش خاله حين رفعه من طاولة ابن خالته: الصورة الفوتوغرافية الموجبة الزجاجية لبورتريه كلاوديا شوشا السيني. بنحوٍ لا جدال فيه هو، هانز كاستورب، لم يحملها الى داخل الحجرة.

وضعها في جيبه، بطريقةٍ لم يلحظها أحد. كان الآخرون منشغلين بـ إيلين براند، التي بقيت جالسةً في مكانها في الحالة نفسها، تحدّق بنظراتٍ ساهمة، بذلك التعبير الفضولي الذي يتكلف الإبتسام. السيد ألبين نفخ في وجهها وقلّد الحركة الجارفة الى الأعلى للدكتور كروكوفسكي، التي أفاقت عندها، وبنحوٍ غير مكبوح بكت قليلاً. عانقوها وواسوها، طبعوا قبلةً على جبينها وأرسلوها الى الفراش. الآنسة ليوي قالت انها كانت راغبة بأن تنام مع السيدة شتور، ذلك ان المخلوقة إعترفت انها كانت خائفة جداً من الذهاب الى السرير وحدها. هانز كاستورب، بملكيته المسترجعة في جيب صدره، لم يكن عنده مانع في أن يختتم المساء بكأس كونياك في غرفة السيد ألبين.

إكتشف، الواقع، ان هذا الشراب لن يؤثر في القلب ولا المزاج العقلي مثل تأثيره في أعصاب المعدة ـ تأثيراً إرتجاعياً، مثل دوار البحر، الذي يزعج المسافر غالباً بأحاسيس غثيان مفاجئة ساعات بعد أن يضع قدمه على الشاطئ.

كان حب استطلاعه قد أُخمد الآن. قصيدة هولغر كانت لا بأس بها؛ لكن العبث والفظاظة السابقان لغيرهما الخاصان بالمشهد ككل كانا واضحين جداً بحيث شعر هو انه راغب جداً بأن يبددهما بوساطة هذه الشرارات التائهة القلائل لنار ـ الجحيم. السيد سيتيمبريني الذي روى له تجاربه، قوّى هذه القناعة بكل ما أوتي من قوة. «هذا»، صرخ، «هو ما كان يعوزنا. أوه، يا للبؤس، يا للبؤس!» وبنحوٍ سريع صرف النظر عن إيلي ضئيلة البدن كونها دجالة تامة التدريب.

تلميذه لم يقل نعم ولا كلا رداً على ذلك. هزَّ كتفيه، وعبّر عن الرأي القائل يبدو اننا غير متأكدين تماماً من أي شيء تتألف الحقيقة، ولا فضلاً عن ذلك كنتيجة، من أي شيء يتشكل الدجل. أغلب الظن الحد الفاصل لم يكن ثابتاً. في الأرجح كانت ثمة مراحل إنتقالية بين الإثنين، درجات من الحقيقة في حدود الطبيعة، الطبيعة كونها كدأبها، خرساء، غير قابلة للتقييم، وبالتالي تحدي الإختلافات التي في أي حال، بدت له، كانت لها نكهة قوية في إضفاء صفة أخلاقية على نفسها. ماذا يعتقد السيد سيتيمبريني بشأن «الأوهام»؛ التي كانت مزيجاً من الحقيقة والحلم، لعلها أقل غرابةً في طبيعتها من عمليات تفكيرنا اليومية، الفجة؟ ان غموض الحياة حرفياً غير محدود. أي عجب، إذاً، إذا ما نشأت في بعض الأحيان الأوهام ـ وهلم جرا وهكذا دواليك، في الإسلوب العبقري، حسن الظن بالناس، المحلول والمتدفق لبطلنا.

السيد سيتيمبريني كما ينبغي أعطاه توبيخاً، وأحدث رد فعل مؤقتاً للضمير، بل حتى شيئاً ما أشبه بالوعد كي يبتعد في المستقبل عن هذه الأشياء البغيضة. «إحترم»، ناشده، إنسانيتك، أيها المهندس! ثق بقدرتك التي منحها لك الباري في التفكير «الواضح، واكبح باشمئزاز [تخلّعات] الدماغ هذه،

التأثيرات الضارة للروح هذه! أوهام؟ غموض الحياة؟ عزيزي! حين تنحط الجرأة الأخلاقية لإتخاذ القرارات والتمييزات بين الحقيقة والخداع الى تلك النقطة، عندئذ تحل نهاية الحياة، نهاية ملكة التمييز، العمل الخلاق: تبدأ عملية التعفن، الشكوكية الخُلُقية، وتفعل فعلها المميت.» الإنسان، استطرد يقول، هو قياس الأشياء كلها. حقه في أن يدرك ويميز بين الخير والشر، بين الحقيقة والشيء الزائف، هو أمر غير قابل للإلغاء، ويلٌ لهم أولئك الذين تجرأوا على أن يضللوه في إيمانه بهذا الحق الخلاق. الأحسن لهم أن يُعلّق حجر الرحى حول رقابهم ويتم اغراقهم في أعماق البحر.

هانز كاستورب أومأ برأسه موافقاً ـ وفي الواقع كان قد إبتعد بعض الوقت عن هذه المشاريع كلها. سمع ان الدكتور كروكوفسكي كان قد بدأ بعقد جلسات تحضير الأرواح مع إيلين براند في حجرته السرية الصغيرة، التي يُدعى إليها بعض النزلاء الذين يتم إختيارهم. لكنه بصورةٍ لا مبالية نحى جانباً الدعوة للإنضمام إليهم ـ بالطبع ليس من دون أن يسمع منهم أو من الدكتور كروكوفسكي نفسه عن النجاح الذي حققوه. بدا انه كانت هناك ظهورات وحشية ووقتية للقوة، كتلك التي ظهرت في حجرة الآنسة كليفيلد: ضربات عنيفة على الجدران والمنضدة، وإطفاء المصباح، وهذه فضلاً عن تجليات إضافية أحدثت وبُحثت بصورة منظمة، مع كل وقاية ممكنة لأصالتها، بعد ان مارس الرفيق كروكوفسكي الإسلوب الموافق عليه وجعل إيلي صغيرة الحجم تنام نومها المغناطيسي. إكتشفوا ان العملية يُسِّرتْ بوساطة الموسيقى؛ وفي هذه الأمسيات الفونوغراف يتم الإستيلاء عليه من قبل المجموعة ويُنقل الى الدور التحتاني. إلا ان التشيكي فينزل الذي كان يشغّله هناك لم يكن رجلاً غير مولع بالموسيقى، ويقيناً هو لن يؤذي الآلة أو يسيء إستخدامها؛ هانز كاستورب يمكنه أن يسلمه إياه من دون هاجس. بل حتى إختار ألبوماً مناسباً من الإسطوانات الفونوغرافية، تحتوي على موسيقى خفيفة، رقصات، إستهلالات صغيرة وما الى ذلك من هذه الأشياء التافهة المتناغمة. إيلي صغيرة الحجم لم تطالب بفنْ أرقى، وهم خدموا الهدف بنحوٍ رائع.

على وفق مصاحبتها، عرف هانز كاستورب، ان منديلاً رُفع من الأرض، من تلقاء نفسه، أو، بالأحرى، من قبل «يد خفية» في طياته. سلة مهملات الطبيب صعدت الى السقف؛ بندول ساعة جدارية توقف بكل معنى الكلمة وبدأ يتحرك ثانيةً «من دون أن يمسه أحد»، جرس طاولة «أُميت» ثم شرع يرن من جديد ـ هذه وظواهر كثيرة أخرى مشوشة وعديمة المعنى. استاذ الطقوس الفاهم كان في وضع مفرح كونه قادراً على وصفها بوساطة كلمة يونانية، علمية جداً ومؤثرة. كانت، هكذا شرح في محاضراته وفي الحوارات الخاصة، ظواهر «حركية عن بُعد»، حالات الحركة من مسافة معينة؛ ضمها مع صنفٍ من التجليات التي سُميت علمياً كونها استحضارات في أشكال جسدية، والتي إليها إتجهت خططه ومحاولاته مع إيلي براند.

تحدث إليهم عن البروزات النفسية ـ الحيوية لعُقد ما تحت الوعي الى ما هو موضوعي؛ عن التعاملات التي يعد التكوين الوسيطي(١١٠) والحالة المسرنمة مصدراً لها؛ بوسع المرء أن يتكلم عنها كونها مفاهيم حلم مُموضعة طالما انها عززت خاصيةً فكريةً مبدعةً للطبيعة؛ قوة، تحت ظروف معينة إختصت بالفكر، يتكلم عن جذبها المادة إليها، وتغليفها لنفسها بحقيقة وقتية. هذه المادة تدفقت من الجزء المركزي للوسيط، وتطورت بنحو عرضي الى أعضاء داخلية حية، بيولوجية، ذلك ان هذه هي القوى التي نفذت الأعمال الفذة الإستثنائية مع انها عديمة المعنى التي شهدوها في مختبر الدكتور كروكوفسكي. تحت ظروف معينة هذه القوى ربما يمكن رؤيتها أو لمسها، الأطراف تركت طبعاتها في الشمع أو الجبس. لكن غالباً المادة لا تستريح لتجسيد كهذا. تحت ظروف معينة، الرؤوس، الوجوه البشرية، أشباح بالحجم الطبيعي أظهرت نفسها أمام عيون المجربين، حتى في نطاق حدود معينة دخلت في تماس معها. وهنا بدأت تعاليم الدكتور كروكوفسكي، إذا صح التعبير، كي ينظر بعينين حولاوين، كي ينظر في إتجاهين في وقت

---

(١١٠) الوسيط medium: شخص يزعم انه صلة وصل بين العالم الأرضي وعالم الأرواح ـ المترجم.

واحد. إتخذت تعاليمه خاصيةً متغيرةً ومتقلبةً، كطريقة العلاج التي تبناها في شرحه لطبيعة الحب. لم يعد إبحاراً هيناً، العلاج العلمي للمضمون الذاتي الذي عكست صورته موضوعياً والعائد للوسيط واحتياطياتها الكامنة(١١١). كان مزجاً في اللعبة، في الأقل غالباً، في الأقل النصف والنصف، مزجاً لكينونات من الخارج والماوراء. تعاملت ـ في الأقل ربما، إذا لم يكن تماماً بصورةٍ لا يمكن إنكارها ـ مع غير الحية، مع الكائنات التي استفادت من فرصة حساسة، مؤاتية بنحو غامض وفي أية لحظة كي تعود الى المادية وتظهر نفسها للذين استدعوها ـ بإيجاز، تعاملتْ مع الابتهال الروحي للراحل.

هذه التجليات، هي التي كافح الرفيق كروكوفسكي، مع مساعدة مريديه، كافح جانبياً كي يحدثها؛ بثبات، مع بسمته السارة، متحدياً ثقتهم العميقة بالنفس، كما لو كان في بيته تماماً، ذلك انه بشخصه، في هذا الشرك المشكوك فيه لمَنْ هم أدنى من البشر، وكونه قائداً بالفطرة للجبان والمثير للندم في المناطق التي إنتقلوا إليها الآن. كان قد آلى على نفسه أن يطور ويدرب القدرات غير الإعتيادية لـ إيلين براند و، من خلال ما إستطاع هانز أن يسمعه، إبتسم الحظ لمساعيه. بعض أفراد الشلة شعروا بلمسة يدين متجسدتين. المحامي باراوانت تلقى تعبيراً عن السمو صفعةً رنانةً على الخد، وقاوم بخفةٍ علمية، نعم، وحتى بإصرار أدار الخد الآخر، غافلاً ميزته كونه إنساناً نبيلاً، محامياً، وذات مرة عضواً في فرقة مبارزة، هذه كلها أجبرته على إتخاذ خط سلوك مختلف تماماً لو كانت الصفعة أرضية المنشأ. أي. كي. فيرجه، ذلك المعذب طيب القلب، الذي كان كل الفكر «رفيع الثقافة» غريباً بالنسبة له، ذات يوم أبقى يد شبح كهذا في يده، وأثبت بحاسة اللمس انها كانت سليمةً وحسنة الشكل. كانت مَسكتُهُ قلبيةً الى حدود الإحترام؛ لكنها بنمطٍ لا يوصف أفلتت منه. مرت مدة معتبرة، نحو شهرين ونصف من الجلسات التي تجري مرتين اسبوعياً، قبل أن تأتي يد من منشأ غيبي، يد شاب، على ما يبدو، تأتي ماشيةً على أصابعها فوق الطاولة، في الوهج

---

(١١١) الهاء في [احتياطياتها] تشير الى الآنسة إيلي براند، لأنها هي الوسيط ـ المترجم.

الأحمر للمصباح ذي الظلة الورقية، و، بنحو واضح لعيون كل أفراد المجموعة، تاركةً بصماتها في حوض آنية خزفية مليء بالطحين. وبعد مضي ثمانية أيام فرقة من عمال كروكوفسكي، السيد ألبين، السيد شتور، ماغنوس وزوجته، اندفعوا داخلين الى هانز كاستورب، حيث كان جالساً دائخاً نحو منتصف الليل في البرد القارص لشرفته، وبكل علامةٍ من علامات البهجة الذاهلة والمحمومة، كلماتهم تدفقت بسرعة الواحدة تلو الأخرى، أعلنوا انهم شاهدوا هولغر إيلي ـ أظهر هو رأسه فوق كتف وسيطه ضئيل البدن، وكان له حقاً «عقصات جميلة، بنية، بنية». إبتسم بتلك الكآبة الرقيقة، التي لا تُنسى حين غاب عن الأنظار!

هانز كاستورب وجد هذه الكآبة الرفيعة نادراً ما تنسجم مع مزحات هولغر، حيله الشيطانية، الساذجة، لا شيء سوى الكآبة الرقيقة توافقت مع الصفعة التي أعطاها للمحامي باراوانت والتي سكت عليها الأخير. كان واضحاً انه ينبغي للمرء أن لا يطالب باتساق السلوك. أغلب الظن انهم كانوا يتعاملون مع مزاج أشبه بمزاج الرجل الأحدب في أغنية دار حضانة الأطفال، بفظاعته المثيرة للشفقة وتوقه الشديد للتشفع. معجبو هولغر لم يفكروا بهذه الأشياء كلها. ما قرروا أن يفعلوه هو أن يقنعوا هانز كاستورب بأن يلغي قراره؛ بصورةٍ واقعية، الآن حيث كان كل شيء منتظماً بنحو ر ائع جداً، عليه أن يحضر جلسة تحضير الأرواح القادمة. إيلي، بدت، في نشوتها وعدت أن تجسد روح أي شخص راحل يختاره أفراد المجموعة.

أي راحل يختاره أفراد المجموعة؟ هانز كاستورب ما يزال يبدي نفوره. لكن تلك المسألة المتعلقة بأي شخص يختارونه شغلت باله الى درجةٍ بحيث انه في الأيام الثلاثة التالية توصّل الى إستنتاج مختلف. إذا ما تحدثنا بدقة لم تكن ثلاثة أيام، بل كانت أشبه بدقائق معدودات، تلك التي أحدثت التغيير. ذات مساء، في ساعة معزولة في غرفة الموسيقى، أدار ثانيةً الإسطوانة الفونوغرافية التي حملت بصمة شخصية فالنتين، التي كانت مؤثرةً جداً بالنسبة له. جلس هناك يصغي للتوسل الباسل للبطل المغادر الى ميدان الشرف:

«لو دعاني الباري بعيداً
أنتِ التي سأراقبك وأحرسك دوماً
يا مرغريت!»

و، كشأنه دوماً، هانز كاستورب امتلأ بعاطفةٍ جياشة لدى سماعه الصوت، عاطفة في ظروف هذه المرة تعاظمت وإذا جاز التعبير تكثفت الى رغبةٍ شديدة؛ فكّر هو: «عقيماً وآثماً أو لا، سيكون شيئاً عجيباً، مغامرةً عزيزةً! وهو، كما أعرفه، لو كانت له أي علاقة بالأمر، ما كان ليكترث». تذكّر تلكما الـ«يقيناً، بالطبع» الهادئتين والمتسامحتين، اللتين سمعهما في عتمة مختبر الأشعة السينية، حين سأل يواكيم ما إذا من المحتمل أن يرتكب أعمالاً طائشة بصرية.

الصباح التالي أعرب عن رغبته في المشاركة في جلسة تحضير الأرواح المسائية؛ ونصف ساعة بعد العشاء إنضم الى مجموعة حسني الإطلاع على ما هو خارق للطبيعة، الذين، (مدردشين) بلا مبالاة، إتخذوا سبيلهم نازلين الى الدور التحتاني. كانوا كلهم مقيمين قدامى، أقدم القدامى، أو، في الأقل أطول المستقرين في المجموعة، مثل التشيكي فينزل والدكتور تنج ـ فو؛ فيرجه و فيسال، المحامي باراوانت، المرأتان كليفيلد وليوي، و، فضلاً عن، أولئك الأشخاص الذين أقبلوا الى شرفته كي يعلنوا ظهور رأس هولغر، وبطبيعة الحال، الوسيط، إيلي براند.

طفلة الشمال تلك كانت سابقاً في مسؤولية الطبيب حين مرَّ هانز كاستورب عبر الباب مع بطاقة الزيارة: الطبيب في معطفه الأسود، يده موضوعة بنحو أبوي على كتفها، وقف أسفل السلّم المؤدي من الدور التحتاني ورحب بالنزلاء، وهي معه. كل شخص حيى الآخر، بمرحٍ مدهش ورحابة صدر ـ بدا ان الهدف المشترك هو أن يجعلوا اللقاء في اسلوب مميز متحرر من كل وقار أو إكراه. تكلموا بأصواتٍ عاليةٍ، مرحةٍ، نخس كل واحد منهم الآخر في أضلاعه، أظهروا بكل السُبل كيف أنهم كانوا مرتاحين راحةً تامةً. أسنان الدكتور كروكوفسكي الصفر إستمرت تومض في لحيته بكل بسمة ودية، داعية للثقة؛ كرر «مر ـ حباً» خاصته لكل واصل، بحماسةٍ خاصة

في حالة هانز كاستورب ـ الذي، بدوره، لم يقل شيئاً على الإطلاق، وكان تصرفه متردداً. إيماءة رأس كروكوفسكي النشيطة والمضياف لاحت كما لو انها تقول «الشجاعة، يا رفيق»، حين صافح يد الشاب مصافحةً قاسيةً تقريباً. ما من حاجة هنا الى شنق الرأس، فهنا ليس ثمة رياء ولا نفاق، لا شيء سوى الروح المرحة والقوية للبحث النزيه. بيد ان هانز كاستورب لم يشعر بنحو أفضل بإزاء كل هذا التمثيل الإيمائي. جمع القرار الذي تكوّن من خلال ذكريات حجيرة الأشعة السينية؛ إلا ان تسلسل التفكير نادراً ما إنسجم مع إطاره الحالي؛ بالأحرى ذُكِر بالمزيج الخاص والذي لا يُنسى للمشاعر ـ العصبية، التكبر، الفضول، الإشمئزاز، والرعب ـ التي معها، من سنوات خلت، ذهب مع عددٍ من زملائه الطلاب، مترنحاً سكراً بعض الشيء، الى ماخور في سانكت ـ باولي.

طالما ان الجميع حاضرون الآن، الدكتور كروكوفسكي إختار إثنتين للقيادة ـ كانتا، لهذا المساء، السيدة ماغنوس وليوي العاجية ـ كي تشرفا على الفحص الجسدي للوسيط، وانسحبوا الى الحجرة المتاحة. هانز كاستورب والأشخاص التسعة الباقين إنتظروا في حجرة الإستشارة نتيجة الإجراء العلمي الصارم ـ الذي كان بنحو ثابت من دون أي نتيجة مهما كانت. كانت الحجرة مألوفةً له من الساعات التي أمضاها هنا، من وراء ظهر يواكيم، في حوار مع المحلل النفساني. كانت لها طاولة كتابة، كرسي بمسندين وكرسي مريح للمرضى يقعان الى اليسار، من جهة النافذة؛ مكتبة من كتب المصادر على رفوف يمين ويسار الباب الجانبي، وفي الزاوية اليمنى الأبعد كرسي طويل[١١٢]، مغطى بقماش زيتي، مفصول عن الطاولة والكراسي بوساطة حجاب (بارافان) قابل للطي. صندوق أدوات الطبيب الزجاجي كان هناك في تلك الزاوية، في زاوية أخرى كان هناك تمثال نصفي لـ أبقراط[١١٣]، بينما

---

(١١٢) الكرسي الطويل chaise-longue (الشيزولنغ): يدعى بالعامية العراقية: الكرسي الشطح .ـ المترجم.

(١١٣) ابقراط Hippocrates (٤٦٠؟ ـ ٣٧٧؟ق.م): طبيب يوناني. يعد أبا الطب ـ المترجم.

ثمة حفر لـ«درس التشريح» لـ رامبرانت(١١٤) معلق فوق الموقد الغازي على الجدار الجانبي الأيمن. كانت حجرة إستشارة عادية، كآلاف الحجرات مثلها؛ غير انها ذات ترتيبات خاصة وقتية معينة. الطاولة المستديرة من خشب الماهوغاني(١١٥) التي كان موضعها وسط الحجرة، تحت الثريا الكهربائية، فوق السجادة الحمراء التي غطت معظم البلاط، دُفعتْ للأمام بإزاء الحائط الأيسر، تحت التمثال النصفي الجبس؛ في حين كانت ثمة طاولة أصغر، مغطاة بقماش وحملت مصباحاً أحمر الشكل، وضعت بصورة منحرفة قرب موقد الغاز، الذي كان مشتعلاً ويبعث حرارةً جافةً. بصلة كهربائية أخرى، مغطاة بحجاب شاش أحمر وآخر أسود، معلقة فوق الطاولة. على هذه الطاولة ثمة أشياء معينة سيئة السمعة: جرسا طاولة، بنمطين مختلفين، أحدهما يُهز والآخر يُضغط عليه، الطبق بالطحين، وسلة المهملات. زهاء دزينة من الكراسي بأشكال وأحجام مختلفة أحاطت الطاولة بهيئة نصف دائرة، أحد طرفيها تكوّن من قدم الكرسي الطويل، النهاية الأخرى قرب منتصف الغرفة، تحت ضياء السقف. هنا، جوار الكرسي الأخير، وتقريباً منتصف المسافة بينه وبين الباب، كان الفونوغراف؛ ألبوم التوافه الخفيفة موضوع على كرسي مجاور له. هكذا كانت الترتيبات. المصباحان الأحمران لم يُضاءا حتى الآن، ضوء السقف كان يصب سطوعاً كما لو كان سطوع نهار إعتيادي، ذلك ان الشباك، فوق الطرف الضيق لطاولة الكتابة، كان محجوباً بغطاء داكن، بستارته المخرّمة، كريمية اللون تتدلى للأسفل أمامه(١١٦).

بعد تصرّم عشر دقائق رجع الطبيب بصحبة السيدات الثلاث. مظهر إيلي الخارجي كان قد تغيّر. لم تكن تلبس ثيابها الإعتيادية، بل كساءً أشبه بقميص

---

(١١٤) رامبرانت Rembrandt (١٦٠٦ ـ ١٦٦٩): رسام هولندي، يعد واحداً من أساتذة الفن الكبار في العالم كله ـ المترجم.

(١١٥) الماهوغاني mahogany: خشب صلب بني ضارب الى الحمرة يُصنع منه الأثاث الفاخر ـ المترجم.

(١١٦) من خلال العبارة الأخيرة نفهم ان الشباك كان مغطى ببطانة داكنة وستارة من الدانتيلا، كما هو شائع في بعض المنازل عندنا ـ المترجم.

نوم نسائي من (الكريب) الأبيض، يطوق خصرها بوساطة حبل، تاركاً ذراعيها الرشيقتين عاريتين. نهداها العُذريان أظهرا نفسيهما طريين وغير مقيدين تحت هذا الرداء، بدا انها كانت ترتدي شيئاً صغيراً آخر.

كلهم حيوها بابتهاج. «هالو، إيلي! كم تبدو محبوبة من جديد! رقيقة تماماً كالجنية! آية في الحُسن، ملاكي!» تبسمت لدى سماعها إطراءاتهم لملابسها، في الأرجح أدركت جيداً انها (أي الملابس) كانت تناسبها. «الفحص الإبتدائي سالب»، أعلن كروكوفسكي. «دعونا نباشر العمل، إذاً، رفيقاتي رفاقي»، قال. هانز كاستورب، واعياً انه تأثر بنحو كريه بإسلوب الطبيب في المخاطبة، كاد يحذو حذو الآخرين، الذين، صائحين، مدردشين، صافعين أحدهم الآخر على الأكتاف، أجلسوا أنفسهم في دائرة الكراسي، حين خاطبه الطبيب شخصياً.

«صديقي»، قال، «أنت ضيف، لعلك مبتدئ، بيننا، ومن هنا أود، هذا المساء، أن أؤدي لك شرفاً خاصاً. أئتمنك قيادة الوسيط. ممارستنا كما يلي.» قاد الشاب الى نهاية الدائرة جنب الكرسي الطويل والبارافان، حيث أجلست إيلي على كرسي خيزران عادي ووجهها ملتفت نحو باب الدخول أكثر مما هو الى وسط الحجرة. هو نفسه جلس قربها وأمامها في كرسي آخر من النوع ذاته، قبض على يديها في الوقت نفسه، وأمسك هو بركبتيها بقوة بين ركبتيه. «بهذه الطريقة»، قال، وأفسح مكانه لـ هانز كاستورب، الذي اتخذ الوضع ذاته. «ستوافق ان الكبح تام. لكننا سوف نقدم لك المساعدة أيضاً. آنسة كليفيلد، هل يسعني أن أناشدك أن تسدي لنا العون؟» والمرأة التي تم التوسل إليها بصورةٍ دمثة وغريبة جداً جاءت وجلست، قبضت على رسغي إيلي الرقيقين، كل معصم بيد.

شيء لا مفر منه أن يتفرس هانز كاستورب في وجه الشابة المعجزة، ثابتةً كما كانت أمام وجهه مباشرةً. عيونهم إلتقت ـ إلا ان عينيّ إيلي إنزلقتا جانباً وحدقتا بوعي طبيعي بالذات في حضنها. كانت تبتسم بسمةً خفيفةً بتأثر، وكانت شفتاها مزمومتين قليلاً، ورأسها مائل الى أحد الجانبين، كما فعلتْ عند جلسة كأس الخمر الخاصة بتحضير الأرواح. وهانز كاستورب

ذُكِر، حينما رآها، بشيء آخر: النظرة في وجه كارين كارنشتات، بسمةً كهذه البسمة تماماً، حين وقفت مع يواكيم وهو نفسه ونظرت الى القبر المحطم في مقبرة الدروف.

أفراد المجموعة جلسوا. كانوا ثلاثة عشر شخصاً، عدا التشيكي فينزل، الذي كانت وظيفته أن يقوم بدور موزية الأغنية المقدسة[١١٧]، على وفق ذلك، بعد أن جهز آلته الموسيقية، قرفص مع قيثاره خلف الشلة. الدكتور كروكوفسكي جلس تحت الثريا، عند الطرف الآخر من الطابور، بعد أن أشعل المصباحين الأحمرين كليهما بنقطة كهرباء واحدة، وأطفأ الضوء الوسطي. عتمة، متقدة برفق، رانت على الحجرة، الزوايا والأبعاد حُجبتْ. فقط سطح الطاولة الصغيرة وجوارها المباشر أُنيرا بوساطة ضوء وردي شاحب. خلال الدقائق القلائل التالية لم يكد الفرد يرى جاره؛ ثم شيئاً فشيئاً عوّدت عيونهم نفسها على الظلام واستفادت أقصى فائدة من الضوء الذي كانت تملكه ـ الذي عُزز بوساطة ألسنة اللهب الصغيرة الراقصة من رف الموقد.

الطبيب كرّس كلماتٍ قلائل لمسألة الإنارة، واعتذر عن نقائصها من وجهة النظر العلمية. عليهم أن يحاذروا أن لا يفسرها بقصد الإرباك المدروس ونصب مشهد. مع أحسن إرادة في العالم لم يستطيعوا، لسوء الحظ، أن يحصلوا على ضوء أكثر حالياً. ان طبيعة القدرات التي كانوا بصدد دراستها ما كانت لتسمح أن يكونوا مظهّرين بضوءٍ أبيض، ولهذا لم يكن بالمستطاع إحداث الظروف المرغوبة. هذا كان شرطاً ضرورياً ثابتاً، ينبغي لهم حالياً أن يفكروا به. هانز كاستورب، بدوره، كان مقتنعاً أيما قناعة. أحب العتمة، فهي لطفتْ غرابة الوضع. وفي تبريرها إستذكر عتمة حجرة الأشعة السينية، وكيف حافظوا على رباطة جأشهم، و«غسلوا عيونهم» فيها، قبل أن «يروا».

الوسيط، الدكتور كروكوفسكي واصل، بوضوح موجهاً كلماته الى هانز كاستورب بخاصة، لم تكن بها حاجة بعد الآن لأن توضع في النشوة من قبل

---

(١١٧) موزية الأغنية المقدسة: Polyhymnia في النص الإنجليزي ـ المترجم.

الطبيب. وقعت فيها بنفسها، كما سيرى الكابح، وما إن فعلت ذلك، حارسها الشبح هولغر، هو الذي تكلم بصوتها، عليهم أن يخاطبوه هو، وليس هي. الأكثر من ذلك، كان خطأً، ربما سيؤدي الى فشل، أن نعتقد ان المرء ينبغي أن يخضع العقل أو الإرادة عند الظواهر المتوقعة. على العكس، إهتمام مسهب قليلاً، مع الحوار، كان مطلوباً. وهانز كاستورب حُذر، مهما فعل أي شيء آخر، أن لا يفقد السيطرة على أطراف الوسيط.

«الآن سوف نكوّن السلسلة»، إنتهى الدكتور كروكوفسكي؛ وفعلوا هذا، ضاحكين حين لم يستطيعوا العثور على أيدي أحدهم الآخر في الظلام. الدكتور تنج ـ فو، جالساً جنب هرمينه كليفيلد، وضع يده اليمنى على كتفها ومد يسراه الى السيد فيسال، الذي كان لصقه. أبعد منه كان السيد والسيدة ماغنوس، ثم أي. كي. فيرجه، الذي، إن لم يخطئ هانز كاستورب، أمسك بيد العاجية ليوي الجالسة الى يمينه ـ وهلم جرا. «موسيقى!» أمر الطبيب ووراءه جاره التشيكي جعل الآلة تدور ووضع الإبرة على القرص. «تكلموا!» أمرهم كروكوفسكي، وما ان سُمعت الفواصل الموسيقية الأوُل لإستهلال من تأليف ميلوكر(١١٨) حتى حرضوا بإذعان أنفسهم على التحاور، حول لا شيء على الإطلاق: هطول ثلج الشتاء، لون الطعام الأخير في وجبة العشاء، مريض وصل حديثاً، عن رحيلٍ، «طائش» أو غير ذلك ـ مواضيع أُطيلت بصورة متكلفة، حُجبت بوساطة الموسيقى، ومنقطعة بين الفينة والفينة. هكذا مرت بضع دقائق.

لم تكن الاسطوانة قد انتهت قبل أن ترتعد إيلي بعنف. إرتعاش سرى عبر أوصالها، تنهدت، الجزء العلوي من بدنها غاص الى الأمام بحيث ان جبينها استقر على جبين هانز كاستورب، وذراعاها، مع أذرع حارسيها، شرعت تتحرك حركات إستثنائية مرتفعة ومنخفضة كمقبض المضخة جيئةً وذهاباً.

---

(١١٨) ميلوكر Karl Millocker (١٨٤٢ ـ ١٨٩٩): مؤلف موسيقي نمساوي لـ «الطالب المتسول» وأوبريتات عديدة غيرها، وكذلك لمقطوعات بيانو. الخ ـ المترجم.

«نشوة» أعلنت كليفيلد. توقفت الموسيقى، وكذلك الحوار. في الصمت المفاجئ سمعوا التشدق الباريتوني للطبيب. «هولغر موجود؟».

إيلي ارتجفت من جديد. ترنحت في كرسيها. بعدها هانز كاستورب شعر بها تضغط على يديه بضغط سريع، قوي.

«هي ضغطت على يديّ»، أخبرهم.

«هو»، صحح الطبيب قوله. «ضغطَ على يديك. هو موجود. مر ـ حباً، هولغر»، مضى يقول بحماسةٍ زائفة. «مر ـ حباً، أيها الصديق، والرفيق الزميل، باخلاص، باخلاص مر ـ حباً. وتذكر، متى كنتَ معنا آخر مرة»، إستطرد قائلاً، هانز كاستورب لاحظ انه لم يستخدم صيغة التخاطب المألوفة للغرب المتحضر ـ «وعدتَ أن تظهر لعيوننا البشرية بعض الراحلين الأعزاء، سواء روح أخ أو روح أخت، الذي ينبغي أن يُعطى اسمه أو اسمها من قبل أحد أعضاء شلتنا. هل أنت مستعد؟ هل تشعر انك قادر على إنجاز ما وعدتنا به؟»

ثانيةً إرتعشت إيلي. تنهدت وارتجفت حين جاء الجواب. رويداً رويداً حملت يديها وأيدي حارسيها الى جبينها، حيث جعلتها ترتاح. ثم قرب أذن هانز كاستورب همست: «نعم».

النَفَس الدافئ فوراً عند أذنه. أحدث في صديقنا تلك الظاهرة الخاصة بالبشرة المسماة شعبياً بـ القشعريرة، التي وصف هوفرات طبيعتها له ذات مرة. نذكر هذا كي نميز بين النفسي والجسدي الخالص. لا يكاد يكون هناك كلام عن الخوف، ذلك ان بطلنا الواقع كان يفكر: «حسن، هي يقيناً تعض أكثر مما تستطيع أن تمضغ!» لكنه بعدها مباشرة سيطر عليه مزيج من التعاطف والرعب منبعث من الظرف المشوِش والمضلِل عقلياً ذلك ان مخلوقةً ذات طبيعة شابة، كانت يداها في يديه، همست تواً كلمة (نعم) في أذنه.

«قال هو نعم» أخبره، وشعر بارتباك.

«حسن جداً، إذاً، هولغر»، تكلم الدكتور كروكوفسكي. «سوف نعتمد على كلامك. نحن واثقون انك سوف تؤدي دورك. اسم العزيز الراحل

سوف تبلَّغ به بعد وقت قصير. رفاق»، إلتفت الى الحشد، «كفاكم كلاماً، الآن! مَنْ بحوزته أمنية؟ مَنْ الذي يجب أن يظهره لنا الصديق هولغر؟»

تلا ذلك صمت. كل واحد منهم إنتظر الآخر كي يتكلم. كل بمفرده، ربما سألوا كلهم أنفسهم، في هذه الأيام القلائل الأخيرة؛ عرفوا الى أين اتجهت أفكارهم. غير ان استعادة الموتى، أو رغبة إسترجاعهم، كانت مسألةً حساسةً، على أي حال. في الواقع، إذا إعترفنا بشجاعة، الرغبة لم تكن موجودةً؛ انه سوء فهم بالضبط مستحيل كالشيء نفسه، كما سنرى لاحقاً إذا سمحت الطبيعة أن يحدث ذلك مرةً. ما نسميه حداداً على موتانا هو في الأرجح حزن غير شديد ناجم عن كوننا غير قادرين على إستدعائهم من جديد كحزننا الناجم عن كوننا غير قادرين على أن نتمنى فعل ذلك.

هذا هو الذي شعروا به كلهم بنحو غامض؛ وبما انها هنا ببساطة مسألة عودة غير واقعية، بل هي حصراً إخراج مسرحي لإمرىءٍ ما، فيه ينبغي لهم فقط رؤية الراحل، لا أكثر، بدا الشيء إنسانياً غير وارد؛ كانوا يخشون من التطلع في وجه الرجل (أو المرأة) الذي (أو التي) فكروا به (أو بها)، وكل واحد منهم عن طيب خاطر تخلى عن حقه في الإختيار الى الجالس جنبه. هانز كاستورب أيضاً، مع انه كان هناك صدى في أذنيه تلك الـ«طبعاً، طبعاً» كبيرة القلب الآتية من الماضي، تمهل، وعند اللحظة الأخيرة كان ميالاً نوعاً ما الى أن يتجاوز الإختيار. إلا ان مدة التوقف كانت طويلة جداً؛ أدار رأسه نحو قائدهم، وقال بصوت أجش: «أتمنى رؤية ابن خالتي الراحل، يواكيم زيمسين».

ذلك القول أراحهم قاطبةً. من بين أولئك الحاضرين، كلهم باستثناء الدكتور تنج ـ فو، فينزل، والوسيط كانوا يعرفون الشخص الذي طُلب. الآخرون، فيرجه، فيسال، السيد ألبين، باراوانت، السيد والسيدة ماغنوس، السيدة شتور، الآنسة ليوي، وكليفيلد، بصوتٍ عالٍ أعربوا عن قناعتهم بالإختيار. كروكوفسكي نفسه أومأ برأسه برضا، مع ان علاقاته مع يواكيم كانت فاترةً الى حدٍ ما، بسبب نفور الأخير من مسألة التحليل النفسي.

«جيد جداً الواقع»، قال الطبيب. «هولغر، أسمعتَ؟ الشخص المسمى

هو شخص غريب بالنسبة لك في الحياة. هل تعرفه في [الماوراء]، وهل أنتَ مستعد لأن ترشده الى هنا؟»

حيرة عميقة. النائمة تأرجحتْ، تنهدتْ، وارتجفتْ. بدا كما لو انها كانت تفتش، تكافح، وقعت على هذه الناحية أو تلك، هامسةً تارةً لـ هانز كاستورب، طوراً لـ كليفيلد، شيئاً ما لم تستطع آذانهم إلتقاطه. في الختام تسلَّم من يديها الضغط الذي عنى (أجل). أعلن انه هو نفسه الذي فعل ذلك و ـ

«حسناً جداً، إذاً»، صرخ الدكتور كروكوفسكي. «الى العمل، هولغر! موسيقى»، صرخ. «حوار!» وكرر النصيحة ان تركيز الإنتباه، الحدس المتوتر أمران غير مناسبين، التوقع غير القسري والمرفرف هو وحده الشيء الذي في محله.

والآن أعقبت أكثر الساعات إستثنائيةً في الحياة الشابة لبطلنا. نعم، مع 'ن مصيره اللاحق غير واضح، مع انه في لحظةٍ معينة من قدره سوف يغيب عن عيوننا، بوسعنا أن نفترض انها أكثر الساعات التي أمضاها طوال عمره إستثنائيةً.

كانت ساعات ـ أكثر من ساعتين، كي نكون واضحين، إذا ما حسبنا الإستراحة الموجزة في الجهود المبذولة من قبل هولغر والتي بدأت الآن، أو بالأحرى من قبل الفتاة إيلي ـ من العمل العسير جداً والمطوّل جداً بحيث انهم كلهم قرب النهاية مالوا الى أن يكونوا جبناء ويائسين من أي نتيجة، تعبيراً عن الأسف الخالص، أيضاً، جرّبوا أن يتخلوا عن أي محاولة بدت شاقةً بصورةٍ عديمة الرحمة، وما وراء القوة الرقيقة لها التي كانت ملقاةً عليها. نحن الرجال، إن لم نتهرب من إنسانيتنا، مطلعون على ساعةٍ من الحياة حين نعرف هذه الشفقة التي لا تطاق تقريباً، التي، كافيةً بصورة مضحكة، ما من أحد قادر على الإحساس بها، هذه الـ «كافٍ، لا أكثر» المتمردة التي أُنتزعتْ منا، مع انها لم تكن كافيةً، ولا يمكن ولن تكون كافية، ما لم تصل بطريقةٍ ما أو بغيرها الى غايتها المحددة. القارئ يعرف اننا نتكلم عن زيجتنا ـ وأبوتنا، عن فعل الولادة، الذي شابه بنحو جلي جداً

كفاح إيلي بحيث لا بد انه ميزه، هو الذي لم يمر بهذه التجربة، وحتى شابنا هانز كاستورب؛ الذي، لم يتهرب من الحياة، الآن تسنى له أن يعرف، في مظهرٍ كهذا، هذا الفعل، المليء جداً بالغموض العضوي. في أي مظهر! لأية غاية! تحت أي ظروف! لا يستطيع أن يعدّها المرء أي شيء أقل من مخزية المشاهد والأصوات في حجرة الوضع المضاءة بنور أحمر هذه، الشكل العذري للحامل، عارية الذراعين، بقميص ليل هفهاف؛ وبعدها بالمقارنة موسيقى الفونوغراف غير المنقطعة والفارغة، الحوار القسري الذي استمرت عليه المجموعة بحسب الأمر، صرخات التشجيع التي أبداً وحالاً وجهّوها الى المرأة المكافحة: «هاللو، هولغر! الشجاعة، يا رجل! انه آتٍ، فقط حافظي عليه، دعيه يأتي، تلك هي الطريقة» ولا نستثني شخصية ووضع «الزوج» ـ إذا ما نظرنا في ذلك الضوء الى صديقنا الشاب، الذي كان الواقع قد صاغ أمنيةً كهذه ـ جالساً هناك، مع ركبتي «الأم» الصغيرة بين ركبتيه، ممسكاً بين يديه يديها، اللتين كانتا نديتين كما كانتا يوماً ما يدي ليلى الصغيرة، بحيث تعين عليه باستمرار أن يجدد مسكته من دون أن يجعلهما تفلتان منه.

لأن موقد الغاز في مؤخرة المجموعة شعَّ حرارةً كبيرة.

صوفياً، مقدساً؟ آ، لا، كان كله ضاجاً نوعاً ما ومبتذلاً، هناك في الوهج الأحمر، الذي عودوا عيونهم عليه جداً بحيث كان بمستطاعهم رؤية، الحجرة كلها جيداً بكل ما في الكلمة من معنى. الموسيقى والصياح كانا شديدي الشبه بالطرائق الإحيائية(١١٩) لـ جيش الخلاص(١٢٠)، بل حتى جعلا هانز كاستوَرب يفكر في المقارنة، ولو انه لم يحضر احتفالاً مُقاماً من قبل هؤلاء المتحمسين المبتهجين. لم يؤثر المشهد بإحساس خفي أو شبحي في الشخص العاطفي كونه صوفياً أو غامضاً، كونه مفضياً الى الوقار؛ كان طبيعياً

---

(١١٩) الإحيائية revivalistic: ما يمت بصلة الى إحياء الروح الدينية في النفوس ـ المترجم.

(١٢٠) جيش الخلاص Salvation Army: شبه منظمة عسكرية لنشر الدين ومساعدة الفقراء، أنشأها في إنكلترا وليم بوث العام ١٨٦٥ ـ المترجم.

نوعاً، عضوياً ـ بفضل الإتحاد الحميم الذي أشرنا إليه سابقاً. ممارسات إيلي جاءت في أمواج، بعد فتراتٍ من الراحة، تدلت خلالها جانبياً من كرسيها بوضع مسترخٍ كلياً ومتعذر بلوغه، وصفه الدكتور كروكوفسكي كونه «نشوةً عميقة». من هذا الوضع كانت تستيقظ فجأةً بنواحٍ، ترمي نفسها هنا وهناك، تشد وتتصارع مع آسريها، تهمس كلماتٍ محمومةً، غير مترابطة، تبدو كما لو انها تحاول، بحركاتٍ جانبية، مهتزة، أن تطرح شيئاً ما، تصر بأسنانها، حتى انها مرةً أطبقتها بإحكام في ردن هانز كاستورب.

إستمر هذا طوال أكثر من ساعة حين وجد القائد انه خير لكل ذوي العلاقة أن ينالوا قسطاً من الراحة. التشيكي فينزل، الذي أدخل تنوعاً مفعماً بالنشاط بأن أغلق الفونوغراف وعزف بمهارة كبيرة على قيثاره، طرح تلك الآلة جانباً. كلهم تنفسوا الصعداء وفسخوا الحلقة. الدكتور كروكوفسكي مشى بخطواتٍ واسعة الى الحائط وأضاء مصباح السقف؛ ومض الضوء بصورة ساطعة، جاعلاً إياهم كلهم يطرفون بعيونهم. إيلي، منحنية للأمام، وجهها تقريباً في حضنها، نامت نوماً خفيفاً. كانت منهمكة أيضاً، مستغرقةً في أكبر الفعاليات غرابةً، وجدها الآخرون عاديةً، إلا ان هانز كاستورب تأملها بعجب يقظ. على مدى بضع دقائق مجتمعةً حركت تجويف يدها جيئةً وذهاباً في منطقة وركيها: حركت اليد بعيداً عن جسدها وبعدها بحركة مجرفة، مدمة (خرماشة) سحبتها إليها، كما لو انها جمعت شيئاً ما وجرته إليها. ثم مع سلسلةٍ من النوبات، ثابت الى رشدها، طرفت بدورها لدى رؤيتها الضوء بعينين يبّسهما النوم وابتسمت.

ابتسمت بتأثر، بصورةٍ منعزلة نوعاً. الحقيقة، بدا قلقهم مضيّعاً سدىً؛ لم تكن تبدو مُنهكة بالجهود التي بذلتها. لعلها لم تحتفظ بذكرى واحدة عنها. جلست في الكرسي المخصص للمرضى، عند طاولة الكتابة قرب النافذة بين الطاولة والبرافان قرب الكرسي الطويل؛ أدارت الكرسي كي تستطيع أن تسند مرفقها على الطاولة وحدّقت في الحجرة؛ ولبثت هكذا، تتلقى نظراتهم الودية وإيماءات رؤوسهم المشجعة، صامتةً خلال مدة الاستراحة كلها، التي دامت خمس عشرة دقيقة.

كان توقفاً مؤقتاً مفيداً، استرخوا، وامتلأوا بقناعةٍ سلمية في ما يتعلق بالعمل الذي أُنجز قبل الآن. أغطية علب السجائر فرقعت، الرجال دخنوا بارتياح، واقفين بهيئة مجموعات ناقشوا احتمالات جلسة تحضير الأرواح. كانوا بعيدين كل البُعد عن اليأس أو أن يتوقعوا نتيجةً سلبيةً لجهودهم. كانت هناك علامات كافية كي تثبت ان شكاً كهذا لا مبرر له. أولئك الجالسين قرب الطبيب، عند النهاية البعيدة من الرتل، إتفقوا على الرأي القائل انهم مرات عدة شعروا، بصورةٍ جلية، ان تياراً من الهواء معتدل البرودة تدفق بصورة منتظمة، كلما كانت التجليات جارية، في إتجاه محدد من شخص الوسيط. آخرون شاهدوا ظواهر ضوئيةً، بقعاً بيضاء، مكورات متحركة من القوى تظهر نفسها عند فترات فاصلة على البرافان. بإيجاز، ما من جبن! ما من نظر الى الوراء إذ انهم كانوا قد شرعوا يحرثون. هولغر أعطى كلمته، لا مبرر لأن يشكوا في مسألة حفاظه عليها.

الدكتور كروكوفسكي أومأ بإستئناف الجلسة. أعاد إيلي الى عذابها وأجلسها، مربتاً على شعرها. الآخرون أغلقوا الدائرة. كل شيء جرى كالسابق. هانز كاستورب إقترح أن يُحرر من وظيفته كونه الكابح الأول، إلا ان الدكتور كروكوفسكي رفض. قال انه علق أهميةً كبرى على صد، من خلال الإتصال المباشر، أي إمكانية تلاعب خادع من قبل الوسيط. هكذا إتخذ هانز كاستورب ثانيةً موقعه الغريب قبالة إيلي؛ الضوء الأبيض أفسح المجال لشفق وردي، الموسيقى بدأت من جديد، وكذلك حركات الإرتفاع والإنخفاض كمقبض المضخة؛ هذه المرة كان هانز كاستورب الذي أعلن «نشوة». الوضع[١٢١] المخزي تواصل بنحو مطّرد.

بأي صعوبة موجعة! بدا غير راغب بأن يتخذ سبيله ـ كيف يستطيع؟ جنون! أي أمومة هذه، أي ولادة، من أي شيء ينبغي إنقاذها[١٢٢] «مساعدة! مساعدة!» أنّتْ الطفلة، وتشنجاتها بدت وكأنها توشك أن تشق طريقها الى

---

(١٢١) الوضع lying-in: هنا بمعنى الولادة ـ المترجم.

(١٢٢) كلمة (ولادة) و(إنقاذ) في الإنجليزية كلمة واحدة: delivery ـ المترجم.

تلك المرحلة الخطيرة، غير المجدية التي يسميها الأطباء المولِدون[١٢٣]: تشنج الوضع. نادت على الطبيب في فتراتٍ فاصلة، انه ينبغي له أن يضع يديه عليها. فعل ما طلبتْ، تحدث إليها مشجعاً. التأثير المغناطيسي، إذا كان هو كذلك، قوّاها للقيام بجهود إضافية.

هكذا مرَّت الساعة الثانية، بينما كانت أوتار القيثار تُداعَب بطريقة مرتجلة أو بينما كان الفونوغراف يطلق محتويات ألبوم الموسيقى الخفيفة في الشفق الذي عوّدوا عيونهم عليه ثانيةً. ثم أتت حادثة، أُدخلتْ من قبل هانز كاستورب. وفر حافزاً بأن عبّر عن فكرة، أمنية؛ أعزها من البداية، ولعله عبّر عنها بصورةٍ مفيدةٍ قبل الآن. كانت ايلي مستلقية ووجهها على أيديهما المتحدة، في «نشوة عميقة». كان السيد فينزل يبدل أو يقلب الاسطوانة الفونوغرافية حين عقد صديقنا عزمه وأردف قائلاً انه بصدد أن يقدم إقتراحاً، ليس له أهمية كبرى، مع ذلك أغلب الظن ـ ربما ـ تكون له بعض الفائدة. كان هو ـ أي، المصح يملك بين مجلداته من الاسطوانات الفونوغرافية ـ أغنية معينة، من أوبرا «فاوست» لـ غونود، صلاة فالنتين، صوت جهير أول (باريتون)، مع مصاحبة من فرقة موسيقية، فاتنة. هو، المتكلم، أعتقد انه ربما يتوجب عليهم أن يجربوا الاسطوانة.

«لماذا تلك الاسطوانة خصيصاً؟» سأل الطبيب من العتمة.

«مسألة ذوق. قضية شعور»، رد الشاب. مزاج المقطوعة الموسيقية التي نحن بصددها كان ملكاً لها، خصوصياً جداً ـ إقترح هو انه يجب أن يجربوا سماعها. شيء ممكن تماماً، ليس مستحيلاً، ان مزاجها وجوّها ربما يقصران جهودهم الجسدية.

«هل الاسطوانة هنا؟» إستفهم الطبيب.

لا، غير ان بوسع هانز كاستورب أن يجلبها حالاً.

«ما هذا الذي تفكر به؟» كروكوفسكي رفض الفكرة فوراً. ماذا؟ هانز

---

(١٢٣) الأطباء المولِدون obstetricians: هذه الكلمة تعني أيضاً الطبيبات المولدات ـ المترجم.

كاستورب فكّر انه ربما يذهب ويعود من جديد ويستأنف عمله الذي كان قد تركه؟ هناك تكلم صوت الغرارة(١٢٤) المطلقة. أوه، لا، هذا شيء مستحيل. سوف (يلخبط) كل شيء، إذ يلزمهم أن يبدأوا من جديد. الدقة العلمية منعتهم من التفكير في أي دخول وخروج مؤقت. كان الباب مقفلاً. هو، الطبيب، إحتفظ بالمفتاح في جيبه. الخلاصة، إن لم تكن الاسطوانة موجودة الآن في الحجرة ـ

كان ما يزال يتكلم عندما إنبرى التشيكي قائلاً، من الغرامفون: «الاسطوانة هنا.»

«هنا؟» سأل هانز كاستورب.

«أجل، هي ذي [فاوست]، صلاة فالنتين.» كانت قد حُشرت بطريق الخطأ في ألبوم الموسيقى الخفيفة، وليس في الألبوم الأخضر لـ «الموشحات الدينية»(١٢٥)، حيث تنتمي هي؛ بمحض المصادفة ـ سوء تدبير أو إهمال، على أي حال لحسن الحظ ـ سادت فوضى عامة، وهي ذي، تحتاج فقط الى أن يضعها المرء في الفونوغراف.

ماذا توجب على هانز كاستورب أن يقول بإزاء هذا؟ لا شيء. كان الطبيب الذي علّق قائلاً: «هذا شيء حسن»، وعدد من الأشخاص الآخرين قاطعوه أثناء كلامه. الإبرة صرّتْ، الغطاء أُنزل. الصوت الذكوري بدأ على وفق مصاحبة الكورال: «الآن حانت ساعة الفراق».

لم ينبس أحد ببنت شفة. أرهفوا السمع. إيلي، بينما إستأنفت الموسيقى، جددت جهودها. جفلت بصورةٍ متشنجة، حركت يديها كمقبض المضخة، حملت يديها النزاعتين الى الإفلات الى جبينها. الاسطوانة إستمرت، وصلت الى الجزء الأوسط، بإيقاع واثب، ذلك الجزء المتعلق بالحرب والخطر، الجزء الأنيق، الذي يخشَى الباري، الفرنسي. بعده الخاتمة، بجهارة صوت قصوى، لازمة البداية المدعمة أوركسترياً.

---

(١٢٤) الغَرارة inexperience: قلة الخبرة أو التمرس ـ المترجم.

(١٢٥) الموشحات الدينية: بالإيطالية في النص arias ـ المترجم.

«يا رب السماء، إسمعني أصلي. . .»

هانز كاستورب عمل مع إيلي. رفعت نفسها، سحبت نفساً تائهاً، أرسلت تنهدةً خارجيةً، طويلةً، طويلةً، غاصتْ وسكنتْ. إنحنى فوقها بقلق، وبينما كان يفعل ذلك، سمع السيدة شتور تقول، بصوتٍ عالٍ منتحب: «زيمـ ـ سين!»

لم يرفع بصره. أحس بطعم المرارة في فمه. سمع صوتاً آخر، صوتاً بارداً، عميقاً، يقول: «رأيته من زمن طويل.»

الاسطوانة الفونوغرافية توقفتْ، مع إئتلاف أخير للأبواق. إلا ان أحداً لم يوقف الآلة. الإبرة إستمرت تكشط في الصمت، بينما كان القرص يدور. بعدئذ رفع هانز كاستورب رأسه، وعيناه مضتا، من دون بحث، في الإتجاه الصحيح.

كان هناك شخص آخر في الحجرة. هناك في الخلفية، حيث أضاءت الأشعة الحمراء نفسها في الظلام، بحيث ان العين لم تكد تصل الى هنَاك، بين طاولة الكتابة والحجاب (البرافان)، في كرسي إستشارة الطبيب، حيث كانت إيلي جالسة خلال مدة الإستراحة، جلس يواكيم. كان يواكيم الأيام الأواخر من عمره، بخدين غائرين، قاتمين، لحية المحارب وشفتين ممتلئتين، مبرومتين. كان يجلس مستنداً للوراء، لافاً إحدى ساقيه على الأخرى. على وجهه المهزول، مظللاً مع ذلك غطاء رأسه، كان مرئياً بوضوح: طابع المعاناة، تعبير الرزانة والصرامة الذي جمّله. طيتان كانتا هناك على جبينه، بين العينين، اللتين غاصتا عميقاً في تجويفيهما العظميين؛ غير انه لم يكن ثمة تبدل في وداعة العينين الكبيرتين الداكنتين، اللتين كانت نظرتهما الهادئة، الودية تفتش عن هانز كاستورب، ولا أحد سواه. ذلك الضيم الموغل في القدم للأذنين البارزتين ما برح يُرى تحت غطاء الرأس، غطاء رأسه الإستثنائي، الذي لم يكن بوسعهم أن يميزوه. ابن الخالة يواكيم لم يكن باللباس المدني. سيفه الضالع بدا مستنداً على ساقه، كان يمسك بالمقبض، يظن المرء انه يميز شيئاً ما أشبه بغلاف مسدس في حزامه. لكن تلك لم تكن بدلة نظامية مناسبة التي كان يلبسها. لا لون، لا أوسمة، كانت

لها ياقة أشبه بسترة litewka، وجيوب جانبية. في موضع منخفض على الصدر كان ثمة صليب. قدماه بدتا كبيرتين، ساقاه شديدتا النحافة، بدتا مكبلتين أو مجروحتين، كما لو بسبب [شغلة] الرياضة أكثر مما هو بسبب الحرب. وماذا كان، غطاء الرأس هذا؟ بدا كما لو ان يواكيم قلب قدر طبخ الجيش رأساً على عقب فوق رأسه، وربطه تحت ذقنه بوساطة شريط. مع ذلك بدا مولعاً بالحرب، أشبه بجندي من المشاة عتيق الطراز، ربما.

هانز كاستورب شعر بنَفَس إيلين براند على يديه. وبقربه أنفاس كليفيلد السريعة. ليس ثمة صوت آخر، عدا الكشط المستمر للإبرة على الاسطوانة المرهقة، الدائرة، التي لم يوقفها أحد. لم يتطلع الى أيٍّ من أفراد مجموعته، لم يكن يسمع أو يرى شيئاً منهم؛ لكن فوق الأيدي والرأس الذي على ركبته مال كثيراً الى الأمام ونظر خلال العتمة الحمراء الى الضيف الجالس في الكرسي. بدا خلال لحظة واحدة كما لو ان معدته توشك أن تنقلب في داخله. تقلّصت حنجرته وكابد بكاءً بأربعة أو خمسة أضعاف بكل ما في الكلمة من معنى. «سامحني!»، همس؛ ثم فاضت عيناه بالدمع، ولم يعد يرى شيئاً البتة.

سمع أصواتاً لاهثة: «تحدث إليه!» سمع صوت الجهير الأول (الباريتون) للدكتور كروكوفسكي يحثه، بصورة رسمية؛ بابتهاج، وكرر الطلب. بدلاً من الإذعان له، جرَّ يديه بعيداً من تحت وجه إيلي، وهبَّ واقفاً.

الدكتور كروكوفسكي تلا إسمه ثانيةً! هذه المرة بنبراتٍ مُحذِرة. لكن بخطوتين واسعتين كان هانز كاستورب قد أصبح عند الدرجة الواقعة في باب الدخول وبحركةٍ سريعة واحدة أشعل الضوء الأبيض.

الآنسة براند إنهارت. كانت ترتعش بصورةٍ متشنجة في ذراعي كليفيلد. الكرسي الكائن هناك كان خالياً.

هانز كاستورب مضى الى كروكوفسكي المحتج، مقترباً منه. جرَّب أن يتكلم، إنما لم تنطلق الكلمات. مدَّ يده، بإيماءة فظة، آمرة. متسلماً المفتاح، أومأ برأسه مراتٍ عدة، بتهديد، عن كثب وبوجه الآخر، إستدار على عقبيه، وغادر الحجرة.

عاطفة هستيرية

مع السنوات المتبدلة سريعاً، أخذت روح ما تمشي في دار بيرغهوف: روح من نسب مباشر، أو هكذا ظن هانز كاستورب، من تلك الروح الحارسة الأخرى التي كنا تكلمنا عن اسمها المشؤوم. بفضول الشباب الواثق من نفسه، المتسائل في أسفاره، درس هذه الروح الحارسة الجديدة، أجل، حتى إكتشف في نفسه جدارةً مرعبةً، على غرار بقية العالَم هنا في الأعالي، كي يضمر له تقديراً واسعاً. هذه الروح الحارسة الشريرة الجديدة كانت، كالأخرى، موجودة دوماً، إذا صح التعبير، في الجرثومة، لكنها الآن بدأت تنشر نفسها؛ هانز كاستورب بطبيعته لم يكن له ميل كبير ليغدو عبدها، مع ذلك بشيء أشبه بالرعب لاحظ انه حتى هو، حين يطلق العنان لعواطفه أقل ما يمكن، يقع ضحيةً لمرض مُعدٍ شائع جداً، بحيث نادراً ما يفلت منه أحد من المجموعة.

ماذا كان هذا، إذاً، ذاك الذي في الجو؟ إنفعال متصاعد. نزق حاد. حقد متعذر وصفه. ميل شامل لتبادل مُسمَّم للكلمات، ميل لهيجانات الغيظ ـ نعم، حتى ميل للتلاكمات. جدالات منغِصة، نوبات من الزعيق المتعذر ضبطه، بهيئة أزواج وجماعات، كانت تحدث يومياً؛ والشيء الجوهري ان المتفرجين، بدلاً من أن يكونوا مشمئزين من المشاركين فيها، أو يسعون الى أن يكونوا بينهم، الحقيقة أنهم تعاطفوا مع أحد الجانبين أو الآخر الى درجة انهم أنفسهم تورطوا في النزاع. كانوا يشحبون ويرتعشون، عيونهم تتألق بنحو إستفزازي، أفواههم يلوح عليها الإنفعال. يحسدون أولئك الذين شاركوا بنشاط في الحادثة، تبرير الزعيق؛ رغبة مزعجة في أن يفعلوا شيئاً على طريقة العقل والجسد الممسوسين، وذاك الذي لم يستطع أن يستجمع شجاعته كي يفر جانباً، يكون حالاً شاء أم أبى وسط الشجار. الخلافات العقيمة، الإتهامات المضادة المشتركة، بوجه السلطات المصممة على توفير أسباب الراحة لكنها نفسها تقع بسهولة مرعبة فريسةً للميل العام لأن تتشاجر ـ هذه أمست حوادث مألوفة في دار بيرغهوف. مريض ما ربما يخرج من

المصح بهدوء مقبول ولا يدري على الإطلاق بأي مزاج سيعود. أحد أعضاء المائدة الروسية «الجيدة»، امرأة متزوجة أنيقة من المقاطعات، من منسك، ما تزال شابة، وحالة مرضية خفيفة، وُصفت لها ثلاثة شهور فقط كمدة للعلاج، لجأت ذات يوم الى القرية كي تتبضع من حانوت الملابس الداخلية الفرنسية؛ وقعت هناك في شجار مع خياط الملابس النسائية على وفق الزي الحديث، كان النزاع قد بلغ درجاتٍ بحيث عادت هي في حالةٍ من الإهتياج العنيف، عانت من نزف، ومن ذلك الحين فصاعداً أمسى عضالاً. أُستدعي زوجها، وأُبلغ ان بقاءها هنا في الأعالي سوف ينتهي فقط مع حياتها.

حالتها تصوّر بنحو مناسب المزاج العام. ولو اننا ببعض النفور، ننوه بأشخاص آخرين. قراؤنا ربما يتذكرون تلميذ المدرسة النهم بالعوينات المدورة، الذي جلس الى مائدة السيدة سالومون وكانت له عادة أن يحول الطعام كله في طبقه الى نوعٍ من الفوضى، ويزدرده، بين الفينة والفينة يمسح عينيه بمنديل المائدة خاصتة خلف عدسات العوينات السميكة. كان يجلس هنا، ما يزال تلميذ مدرسة، أو بالأحرى ما يزال تلميذ مدرسة سابق، طوال هذا الوقت، يلتهم ويمسح، من دون أن يخطف لشخصه أكثر من الإنتباه السطحي جداً. لكن الآن، ذات صباح عند الفطور المبكر، من سماء زرقاء، كان قد إستبدت به خفة إضطراب من نوعٍ ما بحيث ان نصف حجرة الطعام جفلت على الضجيج الآتي من جهته. كانَ يجلس هناك شاحباً تماماً وزاعقاً، وكانت النادلة القزمة واقفة بالقرب منه وعليها كان يزعق هو. «أنتِ تكذبين»، صاح، إنبثق صوته. «انه مثلوج، هذا الشاي الذي جلبتِه لي مثلوج، أقول لكِ. جربيه أنتِ بنفسكِ قبل أن تكذبي عليّ ثانيةً بشأنه - انه ماء غسيل فاتر، جربيه، إن لم يكن كذلك، لا يليق بشخص محترم أن يشربه! كيف تجرأتِ مجرد التفكير بأن تجلبي شاياً بارداً جداً وتضعينه أمامي وتقنعين نفسك حقيقةً بأنه يلزمني أن أحتسي نفاية المطابخ هذه؟ لن أشربه! لن أفعل!» صرخ، وشرع يضرب بعنف بقبضتيه على المائدة، الى أن دوت الأطباق. «سأنال شاياً حاراً - حاراً يغلي - هذا حقي أمام الله والإنسان - حاراً يغلي؛ أفضل أن أموت في الحال على أن أشرب قطرةً من هذا - أنتِ أيتها القزمة المقيتة،

أنتِ!»، جأر بكل ما في الكلمة من معنى، ومع الكلمات بدا كما لو أن البقية الأخيرة من التحفظ إندفعت خارجاً وأمسى هو معتوهاً تماماً، هازاً قبضته بوجه إيمرنشيا، حرفياً كاشفاً لها أسنانه المزبدة. إستمر، ضارباً بأخمص قدمه، قارعاً بعنف بقبضة يده، صائحاً «سوف أفعل» و«لن أفعل»؛ بينما حجرة الطعام عرضت المشهد المألوف الآن. كانت هناك مشاركة متوترة ومرعبة في هذيان تلميذ المدرسة. بعض النزلاء حتى وثبوا من مقاعدهم وحملقوا مغضبين، أكفهم مقبّضة، أسنانهم مطبقة؛ آخرون جلسوا شاحبين مرتعشين، عيونهم مخفضة الى الأسفل. وكانوا ما يزالون يحملقون مغضبين أو يرتعشون، وقتاً طويلاً بعد أن أنهك تلميذ المدرسة نفسه، وجلس منهاراً أمام شايه الطازج، من دون أن يرتشف.

ماذا كان هذا كله؟

بين مجتمع بيرغهوف كان ثمة رجل أعمال سابق، في نحو الثلاثين من العمر. كانت حالته الصحية طويلة الأمد، تجول على مدى سنواتٍ من مصح الى مصح. هذا الرجل كان معادياً مثبتاً لليهود، تعبيراً عن الإيمان الراسخ وموهبة الرياضة. كان يكرس إستقامةً بهيجةً للعب، والتبشير بهذه الرسالة السلبية كان فخر ومضمون حياته. رجل أعمال كان هو، هكذا لم يكن هو أكثر من ذلك، لم يكن شيئاً أكثر من ذلك في العالم، بيد انه ما يزال معادياً لليهود. كان مرضه خطيراً، كان عنده سعال ثقيل، وكان مصحوباً بصوتٍ كما لو كان يعطس برئته، صوت قصير، ذو طبقة عالية، وغريب. لكنه لم يكن يهودياً، وكانت تلك ميزته الايجابية الوحيدة. كان اسمه فايديمان، إسم مسيحي، لم يكن اسماً يهودياً قذراً. كان يتلقى بإطراد صحيفةً تُدعى «الشمس الآريوسية»[(١٢٦)]، وكان يتحدث بهذه الطريقة: «وصلت مصح ـ أ في ب ـ. حين مضيتُ لأجلس في كرسيي في ردهة الإستراحة، مَنْ الذي وجدته الى يميني؟ السيد هيرش. ومَنْ الذي وجدته الى يساري؟ السيد فولف! بالطبع، أغادر.» وهلم جراً.

---

(١٢٦) الآريوسية Arian: منسوبة الى آريوس، وهو كاهن، اسكندري [تولد العام ٣٣٦م] قال بأن الابن [المسيح] غير مساوٍ للأب [الله] في الجوهر ـ المترجم.

فايديمان له نظرة نزقة مهددة. بالضبط كما لو كانت كرة الملاكمة تتدلى قريبة أمام أنفه، وكان ينظر إليها شزراً، من دون أن يرى أي شيءٍ وراءها. الهوى الذي كان يلازمه تحوّل الى حكة، هوس المضايقة الدائم، الذي قاده الى أن يستشم القذارة المخفية أو المتنكرة في منطقته ويحوّلها الى موضع إحتقار. أينما يذهب، كان يشك، كان يهزأ بـ، كان ينفس عن كآبته؛ الخلاصة كانت أيامه زاخرة بمطاردة وتعقب زملائه كلهم الذين يملكون تلك الحسنة النفيسة جداً التي كانت الحسنة الوحيدة التي يملكها.

المزاج السائد في دار بيرغهوف، الذي كنا قد بيناه، فاقم شكوى فايديمان الى درجة غير طبيعية. بالطبع، لم يخفق هو هنا كي يكون في تماس مع أشخاصٍ يعانون من العجز الجسدي الذي كان متحرراً منه؛ وهكذا وصل الأمر الى مشهد، كان هانز كاستورب حاضراً فيه، وهو ما سيخدمنا بصفته توضيحاً إضافياً لموضوعنا.

فقد كان هناك رجل آخر. ليس ثمة إمكانية في إخفاء مَنْ كان هذا، فالمسألة واضحة. اسم الرجل كان سونينشاين، لم يستطع أن يحمل أقذر من هذا الاسم؛ وهكذا أمسى بالنسبة لـ فايديمان كرة الملاكمة المعلقة أمام أنفه، التي كان ينظر إليها شزراً بحملقة مهدِّدة، التي ضربها، ليس كثيراً جداً كي يقصيها بل كي يجعلها تتحرك ذلك انها قد تثير أعصابه أكثر.

سونينشاين، كالآخر، كان رجل أعمال بالولادة والتنشئة. هو أيضاً كان عليلاً بصورةٍ خطيرة، ومرضه جعله حساساً. رجل ودي، لم يكن غبياً البتة، كان بطبيعته هازلاً نوعاً ما، كره فايديمان بسبب إستهزءاته وطعناته مثلما كان يبغضه فايديمان؛ وعصر يوم ما بلغت الأمور أوجها في الردهة، هجم كل منهما على الآخر كحيوانين.

كان مشهداً مروِّعاً. تشاجرا كغلامين صغيرين، لكن بشراسة رجال بالغين حين وصلت الأمور الى درجة كهذه. كل منهما خدش وجه الآخر بأظافره، أمسك بحنجرته أو أنفه، كل منهما تشبث بالآخر، تحرر منه وتدحرجا معاً على البلاط، بصقا، رفسا، عضا، وفاهاهما علاهما الزَبَد. «الإدارة» جاءت راكضةً وبقوة بدنية جرتهما مباعدةً أحدهما عن الآخر،

مخدوشين ومعضوضين. السيد فايديمان، نازفاً ومزبداً، محياه وحشي بسبب الغضب الشديد، عرض ظاهرةً لم يرَها هانز كاستورب قبلاً وحَسِبها دوماً إستعارةً كلامية: شعره إنتصب حتى الآخر. جعل يترنح. السيد سونينشاين، بعين واحدة سوداء، وفجوة نازفة في خصلات شعر سود متجعدة حول جبينه، أُقتيد الى المكتب، حيث جلس هو، دفن وجهه في يديه وبكى بمرارة.

هكذا هما فايديمان وسونينشاين. كل أولئك الذين شاهدوا المناوشة إرتعشوا ساعات بعدها. دعنا نتحول منها الى قضية شرف حقيقية، والتي بالمقارنة كانت بخزي كهذا ستبدو منعشةً تقريباً. قضية الشرف هذه وقعت تقريباً في المدة نفسها، و، بسبب الرسمية المهيبة التي تم التصرف بها، إستحقت الإسم، حتى الى درجة السخف. هانز كاستورب لم يحضر شخصياً الوقائع اللاحقة، بل أُخبر بمجراها المتشابك والمثير بواسطة وثائق معينة، بروتوكولات[١٢٧] وبيانات رسمية، تتعلق بالقضية، لم تنتشر فقط في المصح وخارجه، ليس فقط في القرية، والإقليم (الكانتون)، والبلد بأسره، بل حتى خارجه وفي أمريكا؛ وقدمت لأخذ آراء أشخاص حتماً لم يكونوا يولون هذه الشؤون أدنى قدرٍ من الإهتمام.

كانت قضية بولندية، «وجع في الشرف»، كان لها موضع في قلب المجموعة البولندية التي إجتمعت مؤخراً في بيرغهوف، جالية صغيرة، إستولت على المائدة الروسية «الجيدة» ـ هانز كاستورب، والشيء بالشيء يُذكر، لم يعد يجلس هناك، إنتقل هكذا الى مائدة كليفيلد، ثم الى مائدة السيدة سولومون، وأخيراً الى مائدة الآنسة ليوي. العلاقات الإجتماعية في المجموعة البولندية كانت جد أنيقة، جد كيّسة، جد مهذبة، بحيث لا يقدر المرء سوى أن يرفع حاجبيه ويكون مستعداً لأي شيء. كان هناك اثنان متزوجان، وانثى شابة غير متزوجة كانت لها علاقات ودية مع أحد النبلاء؛

(١٢٧) بروتوكولات Protocol: المسوّدة الأصلية: مسودة تُصاغ على أساسها وثيقة أو معاهدة ـ المترجم.

البقية كانوا ذكوراً، كانت لهم أسماء مثل فون زوتافسكي، سيزينسكي، فون روزينسكي، ميخائيل لوديجوفسكي، ليون فون أزارابتيان، وآخرون. الآن حدث أن أحدهم، رجل يُدعى يابول، يشرب الشمبانيا في المطعم صحبة إثنين من المجموعة، أدلى، بحضورهما بملاحظات ذات طبيعة معينة عن زوجة السيد فون زوتافسكي، وعن امرأةٍ شابة، تدعى كريلوف، التي كانت صديقة حميمة للسيد لوديجوفسكي. ومن هذه الحادثة نشبت كل الحوادث، الفصول المسرحية، الرسميات، التي كانت موضوعاً لمقالةٍ ذاعت بشكل واسع. هانز كاستورب قرأ:

«بيان، مترجم عن البولندية، اللغة الأصلية: في السابع والعشرين من آذار (مارس)، ألف وتسعمائة و ـ السيد ستانيسلاف فون زوتافسكي تقدم الى السيدين انطون سيزنيسكي وسطيفان فون روزينسكي بطلب يلزمهما فيه أن يذهبا الى السيد كاسيمير يابول وبإسمه يطالبان بتعويض عن ضرر بالإسلوب المألوف بسبب [إفتراء وانتقاص من السمعة] قيل ان السيد كاسيمير يابول كان متهماً بهما بإزاء زوجة السيد ستانيسلاف فون زوتافسكي، السيدة يادويغا فون زوتافسكا، بحضور وأثناء حوار مع السيدين يانوز تيوفيل لينارت وليون فون أزارابتيان.

«حين وصل الحوار المذكور آنفاً، الذي جرى في نهاية تشرين الثاني (نوفمبر)، بصورةٍ غير مباشرة الى معرفة السيد فون زوتافسكي، إتخذ خطواتٍ فورية ليقنع نفسه بحقيقة وملابسات الإفتراء والحط من السمعة. في الأمس، المصادف السابع والعشرين من آذار (مارس)، ألف وتسعمائة و ـ، كان قادراً على أن يُثبت حقيقة الإفتراء والحط من السمعة المزعومين من خلال فم شاهدٍ مباشر للحوار الذي أُطلقت فيه الكلمات والتلميحات المهينة. وهكذا السيد ستانيسلاف فون زوتافسكي كان مجبراً على أن يقدم طلباً من دون تأخير الى الموقعين أدناه وأن يفوضهم أن يقيموا دعوى قضائية مشرفة على ما يسمى السيد كاسيمير يابول.

«الموقعان أدناه أدليا بالبيان الآتي:

١ ـ إستناداً الى مسودة أصلية في التاسع من نيسان (ابريل)، ألف

وتسعمائة و ـ، محررة بطلب من طرف واحد، مكتوبة عند ليمبرغ من قبل السيد زدزيستاف زيجولسكي وتاديوز كادي في قضية السيد لاديسلاف غوديوليزني ضد السيد كاسيمير يابول؛ وفضلاً عن ذلك، إستناداً الى بيان محكمة الشرف في الثامن عشر من حزيران (يونيو)، ألف وتسعمائة و ـ، المحرر في ليمبرغ في ما يتعلق بالقضية ذاتها، كلتا الوثيقتين تتفقان على التوكيد ان السيد كاسيمير يابول، [بسبب السلوك المتكرر الذي لا يتوافق مع مبادئ الشرف، لا يمكن أن يُعد رجلاً نبيلاً]،

٢ ـ الموقعان أدناه، مشيرين الى النتائج المهمة التي إستنتجاها مما سبق، يؤكدان ويشددان على الإستحالة المطلقة أن يكون السيد كاسيمير يابول قادراً على تقديم تعويض عن ضرر،

٣ ـ والموقعان أدناه، بشخصيهما، يعدانه شيئاً غير معقول، بشأن رجل يقف خارج نطاق الشرف، أن يقوما بدوريهما كعضوين رئيسين أو ثانويين في أي قضية شرف.

٤ ـ بشأن هذه الحالة، الموقعان أدناه يخبران السيد ستانيسلاف فون زوتافسكي بأنه سيكون أمراً عقيماً أن يقيم دعوى على السيد كاسيمير يابول على وفق الطريقة المعلنة في قضايا الشرف؛ وينصحانه عوضاً عن ذلك بأن يلجأ الى المحكمة الجنائية، كي يمنع المزيد من الأذى من قبل شخص هو خلاف ذلك عاجز عن إعطاء تعويض عن ضرر. ـ مؤرخ وموقع من قبل: الدكتور أنطون سيزنيسكي. سطيفان فون روزينسكي.»

وفضلاً عن ذلك، طالع هانز كاستورب:

«مسودة أصلية

عن شهادات القضية بين السيد ستانيسلاف فون روتافسكي، السيد ميخائيل لوديجوفسكي،

«والسيدين كاسيمير يابول ويانوز تيوفيل لينارت في حانة الكورهاوس في ك ـ وفي الثاني من نيسان (ابريل)، ألف وتسعمائة و ـ، بين السابعة والنصف والثامنة إلا ربعاً.

«بما ان السيد ستانيسلاف فون زوتافسكي، بشأن مزاعم صديقيه،

السيدين الدكتور أنطون سيزينسكي وسطيفان فون روزينسكي، في ما يتعلق بحوادث السابع والعشرين من آذار (مارس)، ألف وتسعمائة و.، كان قد توصل بعد تفكير مدروس الى نتيجة مفادها ان اتخاذ خطوات قضائية نصحا بها ضد السيد كاسيمير يابول بسبب الإفتراء والحط من السمعة بحق زوجته يادفيغا لن يعطيه أي تعويض عن ضرر أياً كان هذا التعويض، طالما ان:

١ ـ ثمة شك ممكن تبريره ان السيد كاسيمير يابول لن يظهر أمام المحكمة، وطالما، كونه أحد رعايا النمسا، فإن دعوات قضائية إضافية ستكون عسيرةً إن لم تكن مستحيلةً،

٢ ـ وطالما فضلاً عن ذلك، ان عقاباً شرعياً للسيد كاسيمير يابول لن يكفر عن الإهانة التي حاول من خلالها أن يجرح ويشوه سمعة إسم وعائلة السيد ستانيسلاف فون زوتافسكي،

٣ ـ الآن وبناءً على ذلك، السيد ستانيسلاف فون زوتافسكي إتخذ ما بدا له أقصر، أشمل، وفي ضوء الظروف الحالية أنسب سبيل، بعد أن تحقق بصورة غير مباشرة من ان السيد كاسيمير يابول صمم على مغادرة المكان في اليوم التالي،

«وفي الثاني من نيسان (ابريل)، ألف وتسعمائة و ـ، بين السابعة والنصف والثامنة إلا ربعاً مساءً، بحضور زوجته يادفيغا والسيدين ميخائيل لوديجوفسكي وأغناز فون ميلين، سدد لكمات عديدة على أذن السيد كاسيمير يابول، الذي كان جالساً برفقة السيد يانوز تيوفيل لينارت وامرأتين شابتين مجهولتين، في الحانة الأمريكية لـ الكورهاوس، يحتسي المشروبات الكحولية.

«غب ذلك مباشرةً، السيد ميخائيل لوديجوفسكي، لَكَمَ أُذني السيد كاسيمير يابول، قائلاً انه فعل ذلك رداً على الإهانة التي وُجهت الى الآنسة كريلوف وإليه هو شخصياً؛

«وغب ذلك مباشرةً، السيد ميخائيل لوديجوفسكي، لَكَمَ يانوز تيوفيل لينارت، رداً على الأذى غير القابل للعد الذي وُجه الى السيد والسيدة فون زوتافسكي، والى ذلك،

«من دون إضاعة لحظة من الوقت، السيد ستانيسلاف فون زوتافسكي بطريقة مماثلة، وبنحوٍ متكرر لَكَمَ أُذني يانوز تيوفيل لينارت بسبب التشويه الإفترائي لسمعة زوجته فضلاً عن سمعة الآنسة كريلوف. «السيدان كاسيمير ويانوز تيوفيل بقيا مستسلمين تماماً خلال كل الحوادث المذكورة أعلاه. مؤرخ وموقع من قبل: ميخائيل لوديجوفسكي، أغن. في. ميلين.»

الإنفعال السائد لم يسمح لـ هانز كاستورب أن يضحك، كما كان سيفعل يقيناً في حالةً من نوعٍ آخر، على هذه النار السريعة اللكمات على الأذن. عوضاً عن ذلك، إرتعَد بينما كان يقرأ. السلوك الذي لا عيب فيه لأحد الطرفين، الخسة والفقدان التام لإحترام الذات للطرف الآخر كلاهما كانا واضحين في الوثيقة، التي كانت على الرغم من موضوعيتها فاترة العاطفة، مؤثرةً جداً بحيث حركت مشاعره بصورة عميقة. هكذا كان الحال معهم جميعاً. «قضية الشرف» البولندية دُرستْ كثيراً وبشكل واسع، ونوقشت خلال أسنان مطبقة بإحكام. هجوم عنيف مقابل من جانب السيد كاسيمير يابول أخفق نوعاً ما. كان موضوعه أن زوتافسكي كان يعي بشكل جيد تماماً انه هو، يابول، قد صرّح انه غير قادر على تقديم تعويض عن ضرر من خلال أحمق مغرور في ليمبرغ، في وقتٍ ما، وان أحاديثه كلها كانت ذريعةً، بما انه كان يعرف أيما معرفة انها لن تنتهي الى نزاع. فضلاً عن ذلك، السبب المنفرد والوحيد الذي جعل زوتافسكي يرفض إقامة دعوى قضائية هو ان العالم كله، بضمنهم هو، يعرف أن زوجته يادفيغا جهزته بتشكيلةٍ كاملةٍ من القرون[١٢٨]، واستناداً الى هذه الحقيقة، الواقع يابول لم يجد ما هو أسهل من أن يعطي دليلاً، وانه أخيراً ظهور كريلوف أمام محكمة ما سيكون شيئاً قليل التهذيب لأي فردٍ معني بالقضية. على أي حال، شرفه الخاص وحده الذي كان قد جُرِح، وليس شريكه في الحوار الشهير، فون زوتافسكي حصّن

(١٢٨) في اللهجة العراقية إستعارة كلامية مشابهة، عندما تكون الزوجة ذات علاقات غير نظيفة مع رجالٍ آخرين، مسيئةً بذلك الى سمعة الزوج ـ المترجم.

نفسه وراء الحقيقة كي لا يورّط نفسه في أي خطر. بخصوص الدور الذي لعبه السيد فون أزارابتيان في القضية بأسرها، آثر هو ألا يتطرق إليها، لكن فيما يتعلق باللقاء غير المتوقع في حانة الكورهاوس، هو، يابول، مع انه كان مستعداً لساناً وعقلاً، كان باعتراف الجميع جد واهن القوة؛ كان في وضع جسدي غير مؤاتٍ مع زوتافسكي وأصدقائه وزوتافسكا النشيطة بصورةٍ غير إعتيادية؛ المرأتان الشابتان اللتان في رفقته ورفقة لينارت كانتا مخلوقين نابضين بالحيوية بدرجة كافية، إلا انهما جبانتان كأرنبتين. في ظل هذه الظروف، وكي يتفادى عراكاً صريحاً وفضيحةً علنية، أرغم لينارت، الذي كان ينبغي له أن يضع نفسه في الجانب الدفاعي، أن يلتزم الصمت، وأن يعاني بإسم الله الإتصال الإجتماعي المؤقت مع السيدين فون زوتافسكي ولوديجوفسكي، الذي لم يضرها البتة، والذي نُظر إليه على ضوء مزاحٍ ما من قبل المتفرجين.

هكذا كان يابول، الذي لا يقدر أحد بطبيعة الحال أن يقول له الكثير. دفاعه لم يبطل كثيراً التباين الأنيق للشرف مع الجبن المقدم بوساطة الوثيقة من الناحية الأخرى؛ في الأقل لأنه لم يكن يملك التسهيلات المتنوعة الموزعة بطريقة نظامية من قبل خصومه، وكان قادراً فقط على توزيع عدد قليل من النسخ المطبوعة لرده. المسودة الأصلية، على العكس، تلقاها الجميع، حتى أكثرهم عدم ولع. نافته وسيتيمبريني، مثلاً، كانت لهما نسختان أُرسلتا لهما، اللتين رآهما هانز كاستورب في أيديهما، ولاحظ، ويا لدهشته، انهما هما أيضاً قرءا النسختين بتركيز مُر. بالنسبة له كان الإنفعال الحاكم لـ بيرغهوف شيئاً مبالغاً به ـ كان عاجزاً عن تبديد مزاج المصح بانفجار من الضحك السعيد والمطهِر، لكن هذا كان قد توقع بثقةٍ سماعه من السيد سيتيمبريني. وا أسفاه، لا، حتى العين غير المغشاة لـ [الماسوني] كانت قد أصبحت معتمةً بوساطة الحقد السائد؛ كان له عبء ثقيل على روحه، أخمد مرحه؛ جعله عرضةً للإثارة المزعجة لحكاية لكم الأذن. فضلاً عن ذلك هو، نصير قضية [الحياة] الفعال، كان يعاني روحياً من حالته الصحية. ببطء، بندم، بفتراتٍ فاصلة خادعة من أملٍ أكثر إشراقاً، أمست

أسوأ. إحتقرها، سخر منها، ومن نفسه، لكنه وصل النقطة التي أجبرته، كل بضعة أيام، على اللجوء الى الفراش.

زميله في البيت وخصمه لم يكن في حالٍ أفضل. المرض العضوي الذي كان سبباً ـ أم ينبغي لنا أن نقول ذريعةً ـ للنهاية المبكرة لفعالياته بحسب نظامه، حقق تقدماً سريعاً؛ حتى الظروف الراقية والرفيعة للحياة هنا في الأعالي لم يكن بمستطاعها أن تمنحه توقفاً مؤقتاً. نافته هو الآخر أمسى حبيس سريره؛ البحة في صوته أمست أكثر بحةً من أي وقتٍ مضى حين كان يتكلم؛ وحماه ترتفع حين يسهب في حديثه، وبصورةٍ مؤذية أكثر من أي وقتٍ مضى. تلك المقاومة المثالية لقوى المرض والموت، استسلامها القسري أمام القوة الرفيعة للطبيعة المُذلة وهبتْ السيد سيتيمبريني وجعاً شديداً، والذي كان غريباً بالنسبة لـ نافته ضئيل البدن. اسلوبه في تحمل تدهور جزئه الجسدي لم يكن مصحوباً بالحزن أو الكره، بل بنوعٍ من الطيش الساخر، توق شديد غير طبيعي الى النزاع، هوس الشك الفكريّ، الإنكار، الإضطراب العقلي، كان هذا مهيجاً مؤلماً لكآبة الآخر، ويومياً نغص أكثر الخلاف الفكري بينهما. هانز كاستورب، بطبيعة الحال، يستطيع فقط أن يتكلم عن تلك [الخلافات] التي كان حاضراً خلالها؛ لكنه شعر انه متأكد بنحو مقبول انه لم يغفل أياً منها؛ ذلك ان حضوره، حضور عظم الجدال التعليمي (البيداغوجي)، كان ضرورياً، ليسبب جدالاً ما بأي مقدار. ومع انه لم يوفر على السيد سيتيمبريني ألم إيجاده تعابير نافته جديرةً بالإستماع، توجب عليه أن يعترف ان هذه [أي التعابير] كانت من عهد قريب تتجاوز الحدود كلها وعادةً تتخطى بصورةٍ كافية الخط الفاصل للسلامة العقلية.

ذلك ان هذا المعذب لا يملك القوة البدنية ولا الإرادة الجيدة كي يسمو فوق مرضه؛ بل بالأحرى رأى العالم كله في سمته(١٢٩) وصورته. بحضور الغيظ المرتجف للسيد سيتيمبريني، الذي توجب عليه عاجلاً أن يبعد رضيعه عن الحجرة أو حتى يسد أذنيه، أعلن نافته ان المسألة كانت مادةً سيئةً جداً

---

(١٢٩) المقصود هنا سمة المرض ـ المترجم.

بحيث لم يكن بالمستطاع تمييز الشخص بداخلها. ان أي مجهود في ذلك الإتجاه سيكون محض عمل غير مربح؛ لا شيء يمكن أن يأتي منه سوى التشويه والحماقة. ماذا كانت النتيجة النهائية لـ[الثورة الفرنسية] المفعمة بالغرور ـ ماذا كانت غير [الدولة] البورجوازية الرأسمالية؟ نتيجة رائعة، فعلاً! وواحدة كان يؤمل منها أن تقوم بإدخال التحسينات، حقاً، بأن يتم جعل الرعب شاملاً! جمهورية العالم! تلك ستجلب السعادة، ما من ريب. التقدم؟ انها صرخة المريض الذي يغير موضعه باستمرار ظاناً ان كل موضع جديد سوف يجلب له الارتياح. الرغبة بالحرب غير المعترف بها لكن سراً العمومية تماماً كانت مظهراً آخر للحالة نفسها. سوف تأتي هذه الحرب، وستكون شيئاً جيداً، مع ان نتائجها لن تكون تلك التي توقعها خالقوها. نافته سخر من طمأنينة [الدولة] البورجوازية. اغتنم فرصةً كي ينتقدها إنتقاداً قاسياً ذات يوم من أيام الخريف بينما كانوا يسيرون في الشارع الرئيس. عقب ذلك هطل المطر، وبغتةً، كما لو ان ذلك كان إستجابةً لكلمة أمر، العالم بأسره رفع مظلاته. الأمر الذي خدم نافته كرمز للجبن والرقة المبتذلة التي أنشأتها الحياة المدنية. حادثة غرق [تايتانيك][(١٣٠)] كانت أشبه بالكتابة على الجدار: أعادت الناس بقوة الى أحوال ومخاوف بدائية، وهكذا كانت مفيدةً. في ما بعد، بالطبع، جاء الإحتجاج العنيف الهائل ان وسيلة المواصلات يجب أن تكون مصانة. دوماً يأتي أعظم احتجاج كلما تعرضت الطمأنينة الى التهديد. كانت مثيرةً للشفقة، وحب الخير الضعيف خاصتها يمضي يداً بيد مع الوحشية الذئبية ودناءة الصراع الإقتصادي في نطاق [الدولة] البورجوازية. الحرب، الحرب! من جانبه، كان معها؛ التوق الشديد العام بدا له مشرّفاً نسبياً.

---

(١٣٠) تايتانيك Titanic: في الرابع عشر ـ الخامس عشر من نيسان [ابريل] العام ١٩١٢ حدثت واحدة من أكبر الكوارث في التاريخ البحري. حيث إصطدمت سفينة New Star liner [تايتانيك] ـ زنة ٤٦٠٠٠ طن ـ بجبل جليدي وغاصت مع فقدان أرواح ١٥١٣ فرداً ـ المترجم.

السيد سيتيمبريني أدخل كلمة [العدالة] الى النقاش، وحاول أن يستخدم هذا المبدأ الرفيع كمعيار وقائي ضد الفواجع السياسية الأجنبية والمحلية معاً. لكنه ما ان فعل ذلك، نافته، الذي كان قد وجد منذ لحظات حسب ان الروحي أسمى من أي وقت مضى كي ينجح في إظهار نفسه بالشكل المادي، الآن شرع يعمل بأن يلقي الشكوك على، ينتقص من قدر، ذلك الروحي تحديداً. العدالة! ألا تستحق هي، بصفتها مفهوماً، العبادة؟ هل هي ممتازة؟ أهي ذات منشأ إلهي؟ الله والطبيعة ليسا عادلين، تلاعبا بالأشياء المفضلة، مارسا حق الإختيار، شرفا أحد الأفراد بتفوق خطير، ومنحا الآخر نصيباً سهلاً عادياً. أما بالنسبة لرجل الفعالية[١٣١] ـ العدالة بالنسبة له ضعف يسبب الشلل، يشك في نفسه، من ناحية، ومن الناحية الأخرى دعوة بوق للقيام بالأعمال عديمة الضمير. وبما انه كي يبقى في نطاق الدستور الأخلاقي، رجل كهذا يتوجب عليه دوماً أن يصحح «العدالة» في المعنى الثاني بوساطة «العدالة» في المعنى الأول، أين ستكون عندئذ [الحقيقة المطلقة]، الجذرية، في المفهوم؟ الأكثر من ذلك، يكون المرء «منصفاً» بحسب مقياسٍ ما أو بحسب المقياس الآخر. البقية كلها تكون تحررية (ليبرالية) ـ لا أحد يقيمها هذه الأيام. العدالة، باختصار، قشرة ـ ثمرة خالية، مخزون فن النثر البورجوازي؛ كي يركز المرء التفكير في العمل، ينبغي له دوماً أن يعرف أيَّ عدالة تلك التي يتعامل معها: تلك التي تهب الإنسان ما له، أم تلك التي تخص الجميع بحصة متساوية.

من تيار كلماته عديم الشاطئ هذا، إكتشفنا هذه في توضيح الطريقة التي كان يسعى فيها الى دحض العقل. لكن الطريقة التي تكلم بها عن العِلم ـ الذي لم يكن يؤمن به، كانت أسوأ. لم يكن يؤمن، قال هو، به، لأنه شيء مباح أن يمارس الإختيار، سواء آمن به أم لا. كان إعتقاداً، كأي إعتقاد آخر،

(١٣١) رجل الفعالية: أي الرجل الذي قام بالفعالية، وهي إدخال كلمة [العدالة] الى النقاش ـ أي السيد سيتيمبريني ـ المترجم.

هو فقط أسوأ، أكثر بلاهة من سواه؛ كلمة (عِلم) كانت تعبيراً عن الواقعية[١٣٢] الأكثر بلاهةً، التي لن تستحي أن تأخذ المعنى الظاهري للانعكاسات الأكثر من ملتبسة لمواضيع في العقل الإنساني؛ كي تمررها بشكل عابر وكي تشكل منها (أي الإنعكاسات) عقيدةً هي أكثر العقائد المفروضة على البشرية تفاهةً، وتبزها كلها في فقدان الحيوية والنشاط. أليست فكرة العالم المادي هي التي أوجدتْ من قبلها ولأجلها أكثر التناقضات الذاتية كلها إثارةً للضحك؟ إلا ان العلوم الطبيعية الحديثة، كونها عقيدة، إستندت الى الفرضية الميتافيزيقية القائلة ان الزمن، المكان، والسببية، أشكال الإدراك التي فيها تحدث الظواهر كلها، هي حالات واقعية، موجودة بصورة مستقلة عن معرفتنا بها. هذا الافتراض الأحدي[١٣٣] هو إهانة للفرد. المكان، الزمان، والسببية ـ باللغة الأحدية، النمو: هنا يكمن المبدأ الرئيس لعقيدة التفكير الحر، الإلحادي، العقيدة الزائفة، التي بفضلها فكر المرء أن يُبطل الكتاب الأول للنبي موسى، ويقارن نور المعرفة النقي مع خرافةٍ مسفِهة ـ كما لو ان هيكل[١٣٤] كان حاضراً عند خلق العالم! تجريبية! الأثير الكوني ـ إستند الى معرفة دقيقة، طبعاً؟ الذرة، تلك المزحة الرياضية الظريفة لأصغر جُسيم غير قابل للإنقسام من المادة ـ وجودها تمت البرهنة عليه، من غير شك؟ ان مبدأ لا محدودية الزمان والمكان كان، يقيناً، قد إستند الى التجربة؟ الواقع، ان أي امرىءٍ بقليلٍ جداً من المنطق يمكنه أن يسخر من نظرية لا نهائية وواقعية المكان والزمان؛ وبوسعه أن يصل الى نتيجة الـ ـ لا شيء: أي بمعنى، عند الدراسة يصل الى نتيجةٍ مفادها ان الواقعية هي عدميتك الحقيقية. كيف؟ ببساطة تامة، بما ان الصلة باللاتناهي

---

(١٣٢) الواقعية realism: نظرية تقول بأن للمادة وجوداً حقيقياً مستقلاً عن إدراكنا العقلي لها ـ المترجم.

(١٣٣) الأحدي monistic: الأحدية هي القول بأن ثمة مبدأ غائياً واحداً، كالعقل أو المادة ـ المترجم.

(١٣٤) هيكل Haeckel: ارنست هاينريش (١٨٣٤ ـ ١٩١٩): بيولوجي ألماني. كان من أكبر أنصار الداروينية في عصره ـ المترجم.

من أي قياس تريد أنت أن تفترضه هي بمنزلة الصفر. ليس ثمة قياس للانهائي؛ في الأبدية ليس ثمة أمد ولا تبدل. في اللانهائي المكاني، بما ان كل مسافة هي، رياضياً، بمنزلة الصفر، لن تكون هناك حتى نقطتان قريبتان من إحداهما الأخرى، ناهيك عن الحديث عن جسمين، أو عن حركة من هذا النوع. هو، نافته، قال هذا، كي يقاوم غطرسة العِلم المادي، الذي أعطى للمعرفة المطلقة شعوذته الفلكية، ثرثرته المتبطلة حول الكون. البشرية الجديرة بالشفقة، التي بوساطة تحشيد عقيم لأرقام لا معنى لها جعلت نفسها مُساقةً الى إستنتاج تفاهتها (أي تفاهة الأرقام)، مُساقةً الى تدمير أي توكيد حول أهميتها! لعله شيء مقبول أن العقل والمعرفة الإنسانيين ينبغي لهما أن يقصرا نفسيهما على ما هو أرضي، وفي نطاق هذا الميدان يعدّانها واقعيةً تجربتهما مع الشيء الوهمي. لكن دعهم يمضون أبعد من ذلك، دعهم يحاولون مرةً واحدةً أن يتشبثوا بلغز الأبدية، وأن يخترعوا ما يسمى بـ علوم الكونيات ونظريات نشأة الكون، وهذا يتجاوز المزحة؛ وقاحتها بلغت الذروة. يا له من هراءٍ مجدِّف، أن نقدّر «بُعد» أي نجمٍ عن الأرض بمصطلحات تريليونات[١٣٥] الكيلومترات، أو بالسنين الضوئية، وكي نتخيل ذلك بموكب كهذا من الأرقام الشخصية البشرية تكسب تبصراً في جوهر اللاتناهي والأبدية ـ بينما اللاتناهي لا صلة له على الإطلاق بالقياس، ولا حتى الأبدية تملك شيئاً ذا صلة بالأمد أو البُعد الزمني؛ كلاهما لا يملك شيئاً مشتركاً مع العلم الطبيعي؛ كونهما، كدأبهما، إلغاءً لتلك التي أسميناها: الطبيعة! من غير ريب، ان بساطة طفلٍ ما، يحسب ان النجوم ثقوب في خيمة السماء، التي من خلالها يشرق السطوع السرمدي، هي ألف مرة أكبر بالنسبة لعقله من كل الهراء الفارغ، المحال، المفرط، للعلم الأحدي في موضوع «الكون».

سأله سيتيمبريني ما إذا كان ذلك الأمر المتعلق بالنجوم مثَّل رأيه

---

(١٣٥) التريليون trillion: رقم مؤلف من واحد الى يمينه ١٨ صفراً في بريطانيا وألمانيا. ـ المترجم.

الشخصي. رد قائلاً انه في ما يخص هذه المسألة إحتفظ لنفسه بحرية، وتواضع عقل، الشك. من هذا ثانيةً ربما يُدرك ما الذي فهمه من الحرية، والى أين يمكن أن يؤدي مفهومها. ليت السيد سيتيمبريني لم يقدم مبرراً للخوف من أن هانز كاستورب وجد هذا كله جديراً بالإستماع إليه!

يكمن ذكاء نافته الماكر في أن يهاجم من مكمن، في أن يتجسس على مواطن ضعف قوى التقدم التي فرضتها الطبيعة، وأن يدين حاملي رايته وروّاد الإرتدادات الإنسانية الى ما هو لا منطقي. الملاحون الجويون، رجال الطيران، قال، كانوا في الأعم الأغلب نوعاً سيئاً من الأشخاص غير جديرين بالثقة، مؤمنين بالخرافات الى أبعد حد. حملوا معهم على متن طائراتهم أشياء أو حيوانات ظنوا انها جالبة للحظ، خنازيراً وغرباناً سوداً وما الى ذلك، بصقوا ثلاث مرات في إتجاهات شتى، إرتدوا قفازات طيارين موفوري الحظ. كيف يمكن لجنون بدائي كهذا أن يتوافق مع مفهوم الكون الذي يبطن مهنتهم؟ التناقض سرّه، ألقى خطبةً مسهبةً فيه. غير ان أمثالاً كهذه موضحة لضغينة نافته لا تعد ولا تحصى - دعنا نتفاداها من أجل الحكاية وثيقة الصلة بالموضوع بكل ما في الكلمة من معنى التي ينبغي لنا سردها.

في عصر يومٍ ما من شباط (فبراير)، رتب النبلاء رحلةً قصيرةً الى مونشتاين، على مبعدة نحو ساعة ونصف عن القرية بوساطة مركبة جليد. تألف الفريق من نافته وسيتيمبريني، هانز كاستورب، فيرجه و فيسال. في عربتي جليد يجر كل واحدة منهما جواد واحد، هانز كاستورب مع الإنساني، نافته مع فيرجه و فيسال، صاحب الاسم الأخير جلس مع الحوذي، تركوا حانوت البقال زهاء الساعة الثالثة بعد الظهر، ومكسوين بملابس مُدفئة انتقلا بوساطة العربتين مستجيبين للموسيقى الودية للأجراس، التي بدت سارةً جداً عبر الهواء الثلجي، الساكن. سلكوا الطريق الأيمن، مروراً بـ فراونكيرخ وغلاريس، متجهين جنوباً. سحب المطر إندفعتْ مسرعةً من ذلك الإتجاه، وفي الحال الشريط الوحيد من الزرقة في السماء وقع خلفهم، فوق الرتيكون. كان البرد شديداً، الجبال سديمية. الطريق، رف صخري ضيق من دون درابزون بين جدار الجبل وهاوية، ارتفع بصورةٍ حادةٍ الى غابات

التنوب. مضوا بهيئة رتل. فرق هابطةً انطلقت نازلةً التلة متجهةً نحوهم، وتوجّب عليهم أن يترجلوا حين إلتقوا. غالباً من وراء منعطف في الطريق يأتي الصوت الصافي والحذر لأجراسٍ أخرى، مركبات جليد كل واحدة منها يسحبها جوادان أحدهما أمام الآخر تظهر مقتربةً وبعض المهارة تكون مطلوبة كي يسهل مرورها في الطريق الضيق. قرب مكانهم المقصود كان هناك منظر جميل لإمتداد صخري لـ زوجينشتراسه[١٣٦]. فكوا أنفسهم من دثاراتها وترجلوا أمام فندق مونشتاين الصغير، الذي أسمى نفسه كورهاوس، وساروا على أقدامهم خطواتٍ قلائل كي يجعلوا المنظر في الجنوب ـ الغربي متجهاً نحو شتولسيرغرات. الجدار الهائل، بارتفاع ثلاثة آلاف متر، كان مكفناً بالأبخرة. سن جبلية مثلمة واحدة فقط رفعت نفسها عالياً ناحية السماء خارج السديم ـ دنيويةً بإفراط فالهالية[١٣٧]، بعيدة وباهتة وبصورةٍ مرعبة متعذر بلوغها. هانز كاستورب أُعجب بها إعجاباً كبيراً، ودعا الآخرين ليحذوا حذوه. انه هو الذي بتقدير مناسب منحها صفة [متعذر بلوغها] ـ وقدّم للسيد سيتيمبريني الفرصة ليقول ان هذه الصخرة بعينها يتم التردد عليها بكثرة. و، عموماً، ثمة بقع قليلة لم تطأها قدم إنسان ما. كان ذلك بالأحرى كلاماً طويلاً، أجاب نافته؛ وذكر [جبل أيفرست]، الذي حتى الآن رفض ببرود شديد أن يستسلم لإلحاح الإنسان، ويبدو انه مستمر في فعلته هذه. الإنساني شعر بالضيق. عادوا الى الكورهاوس، الذي وقفت أمامه عدد من مركبات الجليد التي نُزعت العدة عن جيادها بجانب مركبتيهما.

بوسع المرء أن يبيت هنا؛ في الطبقة العلوية حيث الحجرات المرقمة، وفي الطبقة نفسها حجرة الطعام، مؤثثةً بأسلوب ريفي، وحسنة التدفئة. طلبوا طعاماً من صاحبة الفندق التي تفضلت عليهم بخدمة: قهوة، عسل، خبز أبيض و«خبز الإجاص»، وهو نوع من المربى، العلامة المميزة للفندق؛ نبيذ

---

(١٣٦) شتراسه strasse: (بالألمانية): شارع ـ في السياق أعلاه: شارع زوجين ـ المترجم.
(١٣٧) فالهالية Valhallan نسبة الى فالهالا Valhalla وهي مثوى الشهداء في الميثولوجيا السكندنافية ـ المترجم.

أحمر أُرسل الى الحوذي في الخارج. الى الموائد الأُخر جلس زائرون هولنديون وسويسريون.

يسعدنا أن نقول ان أصدقاءنا، كونهم تدفأوا وابتهجوا بالقهوة الحارة والممتازة، شرعوا يتحدثون حديثاً منعشاً. إلا ان هذا القول سيكون غير دقيق. لأن الحوار، بعد الكلمات القلائل الأُول، إتخذ صيغة مونولوج(١٣٨) من قبل نافته، لا بل مونولوج مُدار بإسلوب كريه بصورة فريدة، كريه من الناحية الإجتماعية؛ اليسوعي السابق أدار ظهره تماماً الى السيد سيتيمبريني، متجاهلاً كلياً النبيلين الآخرين، وكرس نفسه الى هانز كاستورب، الذي ألقى عليه خطبةً بدماثة واضحة.

يشق علينا أن نهب اسماً لموضوع هذا الحوار، الذي أصغى إليه هانز كاستورب، مومئاً برأسه من حين الى حين كما لو ان ذلك ينم عن موافقة جزئية. لعلنا نفترض انه نادراً ما كان نقاشاً مترابطاً، لكنه نوعاً ما تحرك بحريةٍ في عوالم ما هو فكري، بصورةٍ عامة مشيراً الى، بتعليق مرافق يمكننا أن نميزه كونه كئيباً، الطبيعة المريبة للظواهر الروحية للحياة، النواحي المتغيرة وعدم الفائدة المثيرة للنزاع للمفاهيم المجردة الكبيرة التي إستند إليها الإنسان، مبيناً بأي كساء ملون بقوس القزح تظهر [الحقيقة المطلقة] على هذه الأرض.

على أية حال، لعلنا نأخذها كونها نواة محاضرته مسألة الحرية، التي تطرق إليها بمعنى التشوش. تكلم، من بين قضايا عدة، عن الحركة [الرومانسية]، في مطلع القرن التاسع عشر، ومغزاها الثنائي الفاتن؛ لافتاً النظر كيف أن مفهومي الرجعية والثورة هُزما أمامها، بما انهما لم يندمجا في مفهومٍ جديد وأرقى. ذلك انه بطبيعة الحال شيء مضحك بكل ما في الكلمة من معَنى أن نحاول توحيد مفهوم الثورة مع التقدم والتنوير المتقدم بظفر.

---

(١٣٨) مونولوج monologue: حديث طويل يحتكر فيه شخص واحد الكلام أثناء المحادثة ـ المترجم.

الحركة الرومانسية في أوروبا كانت فوق كل شيء حركة تحرير: مضادة لما هو كلاسيكي، مضادة لما هو أكاديمي، موجهة ضد الكلاسيكية الفرنسية، المدرسة القديمة للفكر، التي سخرت من المدافعين عنها كونهم «شعوراً مستعارة مكسوةً بالمسحوق»(١٣٩).

ونافته شن حروباً على التحرير، تحدث عن حماسات فيخته(١٤٠)، عن إنتفاضة شعبية مسعورة، مغنية ضد ذلك الطغيان الذي لا يحتمل، الذي، لسوء الحظ ـ ضحك ضحكاً مكبوتاً ـ إتخذته الحرية أي بمعنى الفكرة الثورية، شكلاً لها. مضحكاً جداً كان ذلك: الغناء بصوتٍ عالٍ، أخذ الناس يهشمون الطغيان الثوري لمصلحة السلطة الرجعية الأميرية ـ وفعلوا هذا بإسم الحرية.

المستمع اليافع يدرك الفارق، وحتى التضاد، بين الحرية الأجنبية والمحلية؛ وكذلك يلاحظ المسألة الدقيقة، أي لا حرية كانت هي الأبكر ـ هِيء هِيء! ـ أيها الأقل إنسجاماً مع شرف أمةٍ من الأمم.

الحرية، الواقع، مفهوم رومانسي نوعاً أكثر من كونه منوِّراً. كالرومانسية، حددتْ هي بصورةٍ محتومة الدافع الإنساني نحو الإتساع؛ والفردانية مشبوبة العاطفة في داخليهما معاً كانت لها نتائج قمعية مشابهة. التعطش الفرداني الى الحرية أحدثَ الإعجاب (الذي يقارب العبادة) التاريخي والرومانسي بالوعي القومي، الذي كان ذا ميزةٍ مولعة بالحرب، وكان يُدعى شريراً من قبل الليبرالية الإنسانية، مع ان الأخيرة بشرت أيضاً بالفردانية، فقط بطريقة معاكسة. الفردانية رومانسية ـ قروسطية، في إيمانها الراسخ بالأهمية اللامتناهية، الشاملة للإنسان الفرد، التي منها استنتج مذهب خلود الشخص، المذهب المركزي ـ أرضي، وعلم التنجيم. لكن من الناحية الثانية، الفردانية هي مظهر من مظاهر الإنسانية المتحررة، التي مالت الى الفوضى والتي بأي

---

(١٣٩) المقصود هنا ان الحركة الرومانسية سخرت من المدافعين عن المدرسة القديمة للفكر. ـ المترجم.

(١٤٠) فيخته Fichte يوهان غوتليب (١٧٦٤ ـ ١٨١٤): فيلسوف ألماني طوّر مثالية كنت ـ المترجم.

حال تحمي الفرد مفرط التأنق من أن يُقدِّم قرباناً على مذبح المبدأ العام. هكذا هي الفردانية بوجهيها الإثنين ـ الأشياء كلها للناس جميعاً.

ينبغي للمرء أن يعترف ان العنصر المثير للشفقة في الحرية قد صنع أكثر أعداء الحرية ذكاءً، أكثر الفرسان المطوِّفين[١٤١] ذكاءً ممن لهم تقليد في الحرب مع التقدم غير المتسم بالإحترام، والمهلِك. نافقه ذكر آرنت[١٤٢]، الذي لعن الصناعية[١٤٣] ومجّد النبالة، وغوريس[١٤٤]، موجد التصوف المسيحي. أغلب الظن مستمعه سوف يستفهم ما علاقة التصوف بالتقدم؟ ألم يكن هو (أي التصوف) معارضاً للسكولاستية[١٤٥]، معارضاً للدوغماتية[١٤٦]، معارضاً لما هو كهنوتي؟ يكون المرء، الواقع، مرغماً على أن يميز في [الأساقفة] قوةً تعملِ من أجل الحرية: ألم تضع هي حدوداً للمزاعم التي لا حصر لها للمَلَكِّية؟ بيد ان تصوف نهاية القرون الوسطى أظهر صفته التحررية كونها بشيرةً لـ [حركة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر] ـ هِيء هِيء! ـ التي بدورها كانت نسيجاً معقداً، ومتشابكاً، لُحمة[١٤٧] من الحرية، مع سُداة[١٤٨] من القروسطية[١٤٩].

أوه، نعم، ما إمتلكه لوثر هو جدارة وصفه بصورة جافة ومفعمة

---

(١٤١) الفارس المطوِّف knight-errent: فارس يطوف في الأرض بحثاً عن مغامرات يظهر فيها براعته العسكرية وشجاعته وسخاءه ـ المترجم.

(١٤٢) آرنت Arndt آرنست (١٧٦٩ ـ ١٨٦٠): شاعر ألماني له قصائد حربية ساهمت في بعث الثورة على نابليون الأول في ألمانيا العام ١٨١٣ ـ المترجم.

(١٤٣) الصناعية industrialism: تنظيم اقتصادي للمجتمع يعتمد في المقام الأول على الصناعة الآلية (لا على الزراعة أو التجارة أو الحرف اليدوية) ـ المترجم.

(١٤٤) غوريس Gorres.

(١٤٥) السكولاستية scholasticism: التمسك الشديد بالتعاليم والأساليب التقليدية الخاصة بمذهب أوفرقة. ـ المترجم.

(١٤٦) الدوغماتية dogmaticisim: توكيد الراي أو القطع به وبخاصة بغطرسة ـ المترجم.

(١٤٧) اللُحمة weft: ما نسج عرضاً ـ المترجم.

(١٤٨) سُداة warp ما نُسج طولاً ـ المترجم.

(١٤٩) القروسطية medivalism: الإخلاص لمؤسسات القرون الوسطى ـ المترجم.

بالحيوية لـ: الميزة المشكوك فيها للمأثرة نفسها، المأثرة بصورةٍ عامة. هل كان مستمع نافته يعرف ما هي المأثرة؟ المأثرة هي، في سبيل المثال، قتل عضو المجلس كوتزيبوي[١٥٠] من قبل صاند، طالب اللاهوت وعضو (الصِبا)[١٥٠]. ما الذي، إذا تحدثنا بلغة علم الجريمة، وضع السلاح في يد صاند الشاب؟ الحماسة للحرية، بطبيعة الحال. لكن إذا نظرنا الى المسألة عن كثب، كان ذاك بالأحرى تعصباً أخلاقياً. وبغضاً للأساليب الرقيقة الأجنبية. كان كوتزيبوي في خدمة روسيا، في خدمة [الحلف المقدس]، وهكذا من الجائز أن تكون رصاصة صاند قد أُطلقت من أجل الحرية؛ هذا الأمر ثانيةً مال الى اللا إحتمالية بفضل حقيقة انه كان هناك يسوعيون عديدون بين أقرب أصدقائه. الخلاصة، مهما كانت «المأثرة»، هي بأي حالٍ من الأحوال طريقة بائسة في جعل قصد امرىءٍ ما واضحاً، وبالمثل ساهمت قليلاً في إتجاه توضيح المسائل الفكرية.

«إذا قُيض لي أن أنال حرية الإستفسار هل ستنهي سفاهاتك هذه عاجلاً؟»

السيد سيتيمبريني صاغ السؤال بنبراتٍ صاعقة. كان ينقر إيقاعاً على الطاولة، ويبرم شاربيه. أما الآن فقد نفد صبره. كان ذلك شيئاً مبالغاً به. جلس باستقامة، وأكثر من إستقامة، جلس إذا صح القول، على أطراف أصابعه، ذلك ان ساقيه فقط هما اللتان لامستا الكرسي؛ وبعينين سوداوين ساطعتين واجه العدو، الذي إستدار إليه بدهشة كاذبة.

«ما هو، إذا تسنى لي أن أسأل، التعبير الذي سُررتَ باستخدامه؟» رد عليه.

«سُررتُ بأن أقول»، قال الإيطالي، وهو يبلع ريقه. «سُررتُ أن أقول، انني مصمم على أن أمنعك من الإستمرار في إزعاج شاب بلا حماية بإلتباساتك.»

---

(١٥٠) كوتزيبوي Kotzcbue: مؤلف مسرحي ألماني عاش وعمل سنوات كثيرة في روسيا ـ المترجم.

(١٥٠) الصِبا: وردت بالألمانية Burschenschaft ـ المترجم.

«أدعوك، يا سيد، أن تنتبه الى كلماتك.»

«التذكير، سيد، غير ضروري. أعتدتُ أن أنتبه الى كلماتي. سيكون على وجه الدقة ملائماً للحقيقة إذا ما قلتُ أن طريقتك في تضليل الشاب المتردد، في تبديد وإتلاف قدراته الأخلاقية والفكرية [شائنة]، ولا يمكنها أن تنال تأديباً أقوى مما تستحقه.»

مع كلمة [شائنة]، سيتيمبريني ضرب الطاولة بسطح يده، ودافعاً كرسيه الى الخلف، هب واقفاً. كانت تلك إشارة للبقية كي يحذوا حذوه. الناس نظروا من وراء الموائد الأخرى ـ أو، بالأحرى، من وراء مائدة واحدة، بما ان النزلاء السويسريين كانوا قد غادروا، والهولنديون وحدهم بقوا، يستمعون بذهول.

عند مائدتنا وقفوا كلهم هناك متيبسين: هانز كاستورب والخصمان، مع فيرجه و فيسال قبالتهما. الخمسة كلهم كانوا شاحبين ومشدوهين، بشفاه مختلجة. أليس من الجائز ان المتفرجين الثلاثة بذلوا مجهوداً من أجل تهدئة المياه المضطربة، تلطيف الجو بمزحة، أو إيصال المسائل الى نتيجة سلمية بنوعٍ معين من المناشدة الإنسانية؟ لم يحاولوا هذا. الإنفعال الزائد منعهم من ذلكَ. وقفوا، كلهم يرتجفون، بأيدٍ أُطبقت بصورة لا إرادية بهيئة قبضات. حتى أي. كي. فيرجه، الذي بالنسبة له كل الأفكار السامية كانت غريبة، الذي تنازل من البداية عن أي قدرة على قياس جدية الجدال ـ حتى هو كان مقتنعاً ان هذا كان شجاراً الى آخر مدى، وليس في مستطاع المرء أن يفعل حياله شيئاً سوى أن يدعه يأخذ مجراه. شارباه البهيجان تحركا بعنف صعوداً ونزولاً.

حل صمت، كان يمكن فيه سماع صرير أسنان نافته. بالنسبة لـ هانز كاستورب، كانت هذه تجربة كتلك التي حصلت لشعر فايديمان. كان قد ظنها صورةً كلاميةً، شيئاً لا يحدث حقيقةً. مع ذلك كان نافته هنا، وفي الصمت كان بالمستطاع سماع أسنانه وهي تصرّ؛ صوت غير مسموع بصورةٍ مروِّعة، وحشي، لا يُصدق، والذي (أي نافته) مع ذلك أظهر بوضوح ضبطاً للنفس مخيفاً على حدٍ سواء، لأنه لم يغضب، بل قال بصوت خفيض تماماً،

مع انه فعل ذلك بنوع من نصف ضحكة مفرقعة: «شائنة؟ تأديباً؟ آ، إذاً الخروف الثاغي لجأ الى النطح؟ هل دفعنا شرطة المدنية بعيداً جداً بحيث انهم استلوا أسلحتهم؟ ذلك نصر، فازوا هم بالمناسبة، ينبغي لي القول، مفكراً أي إستفزاز معتدل كان كافياً كي يدعو حراس فضيلتنا الى السلاح! في ما يتعلق بالبقية، سيد، سوف تعقبه في إتجاه مناسب. التأديب أيضاً. آمل أن مبادئك المتحضرة لن تمنعك من معرفة ما تدين به إليّ ـ بخلاف ذلك سأكون مرغماً على أن أُخضع هذه المبادئ الى إختبارٍ ما بحيث ـ»

السيد سيتيمبريني سحب نفسه الى الأعلى؛ كانت الحركة جد معبّرة بحيث استطرد نافته قائلاً: «آ، فهمت، سيكون هذا ضرورياً. أنا في طريقك، وأنت في طريقي ـ جيد. سوف ننقل مستعمرة اختلافاتنا الى مكان مناسب. حالياً فقط هذا: قلقك الوجداني على التفسير السكولاستي لـ [الثورة اليعقوبية][١٥٢] يتخيل جريمةً بيداغوجية في طريقتي في إقتياد الشاب الى الشك، في رميي المقولات[١٥٣] الى الرياح، في تجريد المفاهيم من وقارها الأكاديمي. وقلقك مُبرر؛ فهو يحدث بسبب إنسانيتك، كن متيقناً من ذلك ـ يحدث وقد تم فعلاً. ذلك ان إنسانيتك هي اليوم لا شيء سوى نهاية، بقاء كلاسيكي مبتذل، سأم روحي؛ انها تفغر رأسها، في حين ان [الثورة] الجديدة، [ثورتنا]، سيدي العزيز، آتية بسرعة كي تمنحها ضربتها القاضية. نحن، حين نزرع بذور الشك أعمق من أكثر الأفكار الحرة عصريةً وانسجاماً مع الزي الحديث التي يمكن أن نحلم بفعلها، سوف نعرف جيداً أين نحن. فقط من الشك الجذري، من الهيولات الأخلاقية، يمكن أن تنبثق [الحقيقة المطلقة]، [إرهابها] المجلود هو الذي يحتاج إليه الزمن. هذا لدرسك، وهو تبريري. من أجل البقية علينا أن نطوي الصفحة. سوف تسمع مني.»

---

(١٥٢) اليعقوبي Jacobin: نسبة الى اليعاقبة وهم جماعة سياسية متطرفة عُرفت بنشاطها الإرهابي خلال الثورة الفرنسية ـ المترجم.

(١٥٣) المقولات categories: مقولات أرسطو العشر ـ المترجم.

«وستجدني مصغياً إليك، سيد»، سيتيمبريني صاح وراءه، بينما غادر اليسوعي مكانه وأسرع الى مشجب القبعات كي يفتش في معطفه الفضفاض. بعدئذ تراجع الماسوني جالساً على كرسيه الصلد بصوت مكتوم، وضغط بكلتا يديه على قلبه.

«محطِم! غاضب جداً! بحاجة الى القتل!» إنفجرت هذه الكلمات منه، بلهاث.

الآخرون ما برحوا واقفين عند الطاولة. شاربا فيرجه ما زالا يهتزان صعوداً ونزولاً. فك فيسال تصلب بانحراف. هانز كاستورب كان يقلّد وضع جده الشهير، ذلك ان عنقه كله كان يرتعش بكل ما في الكلمة من معنى. كانوا يفكرون كيف انهم توقعوا قليلاً حصيلةً كهذه لرحلتهم القصيرة. وكلهم، حتى السيد سيتيمبريني، شعر كيف حالفهم الحظ بحيث انهم جاءوا في مركبتي جليد. هذا الأمر سهَّل الرجوع. لكن في ما بعد؟

«هو تحداك»، قال هانز كاستورب، بجد.

«بلا شك»، أجاب السيد سيتيمبريني، ورفع بصره ناظراً الى جاره، لمجرد أن يشيح بصره ثانيةً في الحال ويسند رأسه على يده.

«هل ستستأنف النزاع؟» فيسال أراد أن يعرف.

«أيمكنك أن تسأل؟» أجاب سيتيمبريني، ونظر لحظةً إليه هو أيضاً. «أيها النبلاء»، قال بعدئذ، ونهض، وقد استعاد السيطرة التامة على نفسه، «أنا آسف على نتيجة نزهة مسرتنا؛ إنما في الحياة ينبغي للمرء أن يكون مستعداً لأن يحسب حساب أحداث كهذه. نظرياً أنا أستنكر المبارزة، أنا بطبعي مطيع للقانون. عملياً، على أي حال، المسألة مختلفة. ثمة أوضاع حيث ـ تلك هي الخصومات ـ باختصار، أكون في خدمة هذا الرجل. شيء جيد انني تبارزتُ قليلاً في شبابي. ان تمريناً أمده بضع ساعات سوف يجعل رسغي مطواعاً من جديد. هل نذهب؟ لا بد من تحديد موعد المبارزة. أؤكد. أنا متيقن من أن نبيلنا لا بد أن أمرهم قبل الآن بأن يربطا المركبتين الى الجوادين.»

هانز كاستورب كانت له لحظات، خلال طريق العودة الى المصح، وفي

ما بعد، حيث أصبح دائخاً في التفكير العميق بما سينتظرهم. كان ما يزال هناك المزيد، حين ظهر في ما بعد ان نافته لم يسمع بالجرح والطعن، بل أصر على المبارزة بالمسدسات. وهو، كونه الطرف الجريح، كان له خيار الأسلحة. كانت ثمة لحظات، نقول، حين كان هانز كاستورب قادراً، بدرجة معينة، كي يحرر نفسه من التورط مع الإنفعال السائد ويخبر نفسه أن هذا كله محض جنون، ولا بد من منع حدوثه.

«حتى لو كان هناك جرح حقيقي»، صرخ، في نقاش مع السيد سيتيمبريني، فيرجه و فيسال ـ نافته، في الطريق الى الدار، دعا الأخير كي يكون شاهده[١٥٤]، وأن يقوم بدور الوسيط بين الزمرتين. «ان إهانةً كهذه، متحضرة وإجتماعية بنحو خالص! إذا سحب أحدهما الإسم الكريم للآخر في القذارة، إذا كانت قضية امرأة، أو أي شيء خطير فعلاً، ذلك يمكنك أن تمسك به، بحيث انك تشعر أن ليس ثمة إمكانية لتسوية الخلاف! في مثل هذه الحالات تكون المبارزة هي الملاذ الأخير؛ وحين يتم دفع تعويض عن الشرف والقضية تموت مع تصديق الأطراف كلها والأعداء يفترقون أصدقاءً، كما يقولون، يا سلام، عندئذ يبدو هو تنظيماً جيداً جداً، نافعاً كلياً وعملياً، أيضاً، في الحالات المعقدة. لكن ما الذي فعله هو؟ لا أقصد انني أناصره، أنا فقط أسأل في أي شيء كمنت الإهانة. رمى المقولات الى الرياح، كما تقول، وجرّد المفاهيم من وقارها الأكاديمي. وأنت شعرت بكونك مهاناً في ما يتصل بذلك ـ بنحوٍ ممكن تبريره، دعنا نفترض ـ»

«نفترض؟» كرر السيد سيتيمبريني، وتطلع إليه.

«أوه بنحو ممكن تبريره، ممكن تبريره تماماً! تحداك هو. لكنه لم يهينك. ثمة اختلاف بين الإثنين. إسمح لي أن أقول هذا. انها مسألة تعابير تجريدية، خلاف فكري. في المواضيع الفكرية هو قادر على أن يتحداك، أغلب الظن، إنما لا يهينك. هذا شيء بديهي، أي محكمة من محاكم الشرف سوف تقول لك الشيء ذاته، أقسم لله انهم سيفعلون ذلك. وحتى

---

(١٥٤) شاهد second: أي شاهد المبارز ـ المترجم.

ردك عليه، حول العمل الشائن والتأديب، لم يكن هو الآخر إهانةً؛ لأنه كان بالمعنى الفكري، القضية كلها كانت في نطاق الميدان الفكري، وليس لها صلة بما هو شخصي، والإهانة لا يمكن أن تكون إلا شخصية. الفكري لا يمكن أن يكون شخصياً، هذه هي نتيجة وتفسير البديهة، وهكذا ـ»

«أنت تخطئ، يا صاحبي»، أجاب سيتيمبريني، بعينين مغمضتين. «أنت تخطئ أولاً في الإعتقاد بأن الفكري لا يمكن أن يتخذ صفةً شخصيةً. لا يلزمك أن تظن ذلك»، قال، وابتسم بسمةً جميلةً وموجعةً بطريقة غريبة. «المسألة التي تخطئ فيها تكمن في تقديرك للأشياء العقلية، عموماً. أنت تعتقد بنحو جلي انها جد ضعيفة كي تسبب خلافات وانفعالات مشابهة للصرامة التي تأتي بها الحياة الواقعية، النتيجة الوحيدة لها هي الإحتكام الى القوة. مصادفة بكل ما في الكلمة من معنى! التجريدي، الذي أُدخلتْ عليه التحسينات، المثالي، هو في الوقت نفسه [الحقيقة المطلقة] ـ انها الصرامة ذاتها، انها تضم بداخلها إمكانات من البغض العميق والجذري، من العداء غير المتحفظ واللدود، أكثر مما تقدر عليه أي علاقة من علاقات الحياة الإجتماعية. انه شيء يذهلك أن تسمع انها تؤدي، بصورةٍ مباشرة وعنيدة أكثر بكثير من هذه (أي العلاقات)، الى الألفة المتطرفة، الى القبضات، الى المبارزة والصراع الجسدي الحقيقي؟ المبارزة، يا صاح، ليست [نظاماً] كأي نظام آخر. انها الذروة، العودة الى حالة من حالات الطبيعة، ملطَفةً قليلاً بوساطة تنظيمات ذات ميزة فروسية، إلا انها سطحية جداً. الطبيعة الجوهرية للشيء تبقى الصراع البدائي، الجسدي؛ ومهما كان الإنسان متحضراً، من واجبه أن يكون مستعداً لإحتمال كهذا، الذي ربما ينشأ في أي يوم من الأيام. كل امرىءٍ لن يكون قادراً على تقديم شخصه، ذراعه، دمه، لخَدمة المثل الأعلى، لن يكون جديراً به؛ مهما كان [معقلناً]، من واجب الإنسان أن يبقى إنساناً.»

هكذا وضع هانز كاستورب في مكانه. بماذا ينبغي له أن يجيب؟ حافظ على صمتٍ حزين ومكتئب. السيد سيتيمبريني تكلم برباطة جأش، بصورةٍ

منطقية. بيد أن كلماته بدت غريبةً في فمه. أفكاره لم تكن أفكاره الشخصية، فكرة المبارزة لن يستطيع العثور عليها من تلقاء نفسه. كان قد أخذها حسب من الإرهابي نافته ضئيل البدن. وما قاله لم يكن سوى تعبير عن قوة ذلك الإنفعال السائد، الذي أصبح فهم السيد سيتيمبريني الدقيق أداته وتابعه. ماذا؟ الفكري، ببساطة لأنه صارم جداً، لا بد أن يؤدي بصورةٍ عديمة الشفقة الى الحيواني، الى قضية النزاع الجسدي؟ هانز كاستورب وضع نفسه ضده ـ أو في ألأقل حاول هو، فقط ليكتشف، بذُعر، انه حتى هو كان عاجزاً عن فعل ذلك. بداخله أيضاً الإنفعال السائد كان قوياً، لم يكن هو الرجل الذي يفوز مجاناً. كانت هناك منطقة من مناطق مخه حيث الذاكرة أرته فايديمان وسونينشاين اللذين تصارعا كحيوانين ؛ وبرعبٍ فهم انه في نهاية الأشياء كلها الجسدي وحده الذي يبقى، فقط الأسنان والأظافر. أجل، لا بد لهما أن يتقاتلا ؛ هكذا فقط يتم التأكد حتى من ذلك التلطيف الصغير للشخص البسيط بوساطة قواعد الفروسية. هانز كاستورب أبدى إستعداده لأن يكون شاهد السيد سيتيمبريني.

رُفض العرض. كلا، هو غير مناسب، انه لن يليق، هكذا قيل له: رُفض أولاً من قبل السيد سيتيمبريني نفسه، بتلك البسمة الجميلة، الكئيبة؛ ثم، بعد تفكير موجز، من قبل فيرجه و فيسال، الذي هو أيضاً، من دون سبب محدد، وجد انه لن يكون مناسباً لـ هانز كاستورب أن يساعد عند مناوشةٍ في هذا الصنف. بصفته طرفاً حيادياً، أغلب الظن ـ ان وجود شخص هو جزء من التلطيفات الفروسية المفروضة ـ لعله يكون حاضراً. حتى نافته، من خلال شاهده، جعل الآخرين يعرفون ان هذا رأيه، وهانز كاستورب إقتنع. بصفته شاهداً، أو طرفاً حيادياً، في أي الحالتين كان بمستطاعه أن يمارس تأثيره على تفاصيل الإجراء الذي يجب مناقشته والاتفاق عليه الآن ـ تأثيراً برهن على كونه ضرورياً حقاً.

ذلك ان مقترحات نافته تجاوزت الحدود كلها. طالب بمسافةٍ من خمس خطوات، و، إذا كان ضرورياً، ثلاث تبادلات للنيران. هذه الشروط

الجنونية، بعثها بوساطة فيسال مساء يوم الخصام بعينه؛ فيسال أفلح في مطابقة نفسه كلياً مع آراء نافته الجنونية، وجزئياً بصفته ممثلاً، لكن يقيناً أيضاً على وفق ذائقته الشخصية، بعنادٍ أصر عليها (أي آراء نافته). سيتيمبريني، بالطبع، لم يجد فيها ما يمكن رفضه. إلا ان فيرجه، كونه شاهداً، وهانز كاستورب الحيادي، كانا خارجين عن طورهما، والأخير إنهال على فيسال البائس بتوبيخ قاسٍ. ألم يخجل من أن يأتي بآراء مسعورة ولا إنسانية كهذه كي تلاقي حالةً حيث كان الجرح تجريدياً بصورةٍ خالصة، وليس محسوساً مطلقاً؟ كما لو ان المسدسات لم تكن سيئة بدرجة كافية، كي يضيفوا هذه الشروط القاتلة! من أين يدخل التلطيف الفروسي؟ لعله يقترح أيضاً إطلاق النيران من خلال منديل! هو، فيسال، سوف تُطلق عليه النار على مبعدة خمس خطوات ـ انه شيء هيّن عليه أن يكون متعطشاً للدم! وهلم جرا. فيسال هز كتفيه، قدر ما يقول على وجه الدقة ان الحالة المتطرفة كانت حادثة غير متوقعة؛ هكذا مجبراً هانز كاستورب على الصمت، فالأخير كان ميالاً الى نسيان الحقيقة. لكنه نجح، خلال مفاوضات اليوم التالي، في تحديد عدد العيارات النارية بواحدة بدلاً من ثلاث، وفي التعامل مع مسألة المسافة بحيث تتخذ الترتيبات الضرورية ان المقاتلين يجب وضعهما على مبعدة خمس عشرة خطوة، ولهما الحق أن يتقدما خمساً قبل إطلاق النار. لكن عوضاً عن هذه الإمتيازات، عليه أن يتعهد بأن لا تُبذل أي محاولة في مصالحة الطرفين. ـ أُكتشف أن لا أحد منهما يملك مسدساً.

السيد ألبين بحوزته فضلاً عن المسدس الصغير اللامع الذي به كان يحب ترويع السيدات، كان له زوج من مسدسات ضابط بلجيكية الصنع في علبة مخمل: آليان ضاربان الى السمرة، بعقبين بنيين خشبيين يحملان محتويات المخزنين، آلات من الفولاذ المزرق، وماسورتين صقيلتين، مع مِهدافين صغيرين هشين في الأعلى. هانز كاستورب كان قد رآهما في حجرة السيدة ألبين، وضد قناعاته الخاصة، تعبيراً عن الإكراه المحض من الإنفعال السائد، اقترح أن يستعيرهما. لم يُخفِ هو الغرض الذي من المؤمل أن يخدمانه، لكنه ناشد شرف المتبجح الشاب، الذي أقسم له قبل الآن أن يُبقي

الأمر طي الكتمان. السيد ألبين علّمه كيف يعبئ المسدسين، واختبرا كلا السلاحين باطلاق خرطوشات خلبية(١٥٥) في العراء.

هذا كله استغرق زمناً: يومين وثلاث ليالٍ تراوحت بين النزاع واللقاء. كان المكان من إختيار هانز كاستورب: ذلك المسرح الفاتن ذو الأزاهير الزرق لمعتزله وفعاليات تقييمه. فوق هذه البقعة يجب أن تجري المسألة، في الصباح الثالث، حالما يكون هناك ضوء كافٍ للرؤية. المساء الذي قبله، في وقت متأخر نوعاً، خطر ببال هانز كاستورب، الذي كان قد أصبح في هذه الآونة منفعلاً كلياً، بأنه ينبغي أن يكون هناك طبيب.

تِشاور حالاً مع فيرجه، الذي توقع صعوبةً كبرى. رادامانثوس نفسه كان عضواً قديماً في رابطة طلاب جامعية ألمانية؛ لكن من غير الممكن أن يُطلب من رئيس المؤسسة أن يقوم بمهمةٍ ما في قضية غير شرعية، وبين المرضى فضلاً عن ذلك. انه شيء مرجح قليلاً أن نجد طبيباً يكون راغباً بأن يمد يد العون في مبارزة بالمسدس بين حالتين مرضيتين شديدتين. أما بالنسبة لـ كروكوفسكي، بالنسبة لعقله كله، كانت مسألة ما إذا ستكون طريقة معالجة الجرح ميزته القوية.

فيسال، الذي كان حاضراً، أعلن قائلاً ان نافته قبل الآن عبّر عن رأيه بمعنى انه لا يريد طبيباً. انه لا يذهب الى مكان اللقاء كي يُنقذ أو يُضمَد، بل كي يقاتل بضراوة، ويفعل هذا بجد شرس. بدا هذا تصريحاً منحوساً بدرجة كافية؛ إلا ان هانز كاستورب حاول أن يفسره بمعنى ان نافته كان يشعر ان ما من حاجة الى طبيب. فيرجه أيضاً عاد برسالةٍ من السيد سيتيمبريني، مفادها انهما ربما يتخلصان من المسألة، هذا لم يثر إنتباهه. وهكذا لم يكن شيئاً غير عقلاني أن نأمل ان الخصمين كليهما وطدا العزم ألا يصل الأمر الى إراقة الدم. ليلتان مرتا على الخصام، وستكون هناك فضلاً عنها ثالثة. الزمن يبرِّد، الزمن يروِّق، ما من مزاج يبقى من دون تغيير مع مرّ الساعات. في الفجر

---

(١٥٥) خرطوشة خلبية blank: خرطوشة تحتوي على بارود فقط من غير رصاصة ـ المترجم.

المبكر، السلاح غير المستخدم في اليد، أيٌّ من المقاتلين لم يكن الرجل نفسه كما في مساء الخصام. سيقومان به، بصورةٍ آلية، إذعاناً لمتطلبات الشرف، لا، كما فعلا في البداية، إمتثالاً لإرادتهما الحرة، لرغبتهما، وقناعتهما الخاصة؛ وان هكذا إنكار لذاتيهما الحقيقيتين في صالح ذاتيهما السابقتين، يجب، نوعاً ما، أن يكون بالمستطاع منعه.

أفكار هانز كاستورب برهنت في الحادثة على انها ليست بعيدةً عن كونها مبررة، لكنها مبررة بطريقة غير مشابهة لأي شيء كان بمستطاعه أن يحلم به. بقدر تعلق الأمر بالسيد سيتيمبريني، كان محقاً تماماً. لكنه إرتاب في أي إتجاه ليو نافته غيّر نياته سلفاً، أو عند اللحظة الحاسمة، ولا حتى الإنفعال السائد، الذي كانت هذه كلها نتيجته، سوف يقوده كي يجعل القضية تتواصل.

في الساعة السابعة صباح اليوم التالي، الشمس لم تُبدِ علامةً لظهورها فوق الجبال؛ مع ذلك كان النهار قد طلع، بصعوبةٍ، في رائحةٍ قوية من السديم، حين غادر هانز كاستورب، بعد ليلةٍ أرقة، بيرغهوف لغرض الذهاب الى الموعد. الخادمات اللواتي ينظفن الردهة لاحقنه بنظراتٍ تنم عن الدهشة. باب الدار، على أي حال، لم يكن مُغلقاً بالرتاج؛ فيرجه و فيسال، فرادى أو معاً، لا ريب إجتازا تلك العتبة، أحدهما كي يرافق سيتيمبريني، الآخر نافته، الى ميدان القتال. هو، هانز، مضى بمفرده، صفته الحيادية لم تسمح له أن يلحق نفسه بأيٍّ من الفريقين.

إنتقل آلياً، تحت إكراه الشرف، تحت الضغط المتأتي من الإنفعال السائد. كان ضرورياً بالنسبة له أن يكون حاضراً عند الصدام ـ هذا لا يحتاج الى كلام. غير ممكن أن يتخلف وينتظر الحادثة في فراشه، في المقام الأول لأن ـ لكنه لم يكمل دوره الأول، لكنه عجّل في القيام بدوره الثاني، وهو ان المرء لا يستطيع أن يترك الحبل على الغارب. حتى الآن، حمداً لله، لم يقع شيء مروِّع؛ وما من حاجة لحدوث شيء مروِّع، الواقع كان شيئاً غير محتمل أن يحدث أي شيء. كان لزاماً عليهم أن ينهضوا من النوم ويرتدوا ثيابهم على الضوء الإصطناعي، ومن دون فطور، في الصقيع المُر، يلجؤون الى البقعة

المحددة. لكن ما إن وصل الى هناك، تحت تأثيره، أي وجود هانز كاستورب، الشيء كله يقيناً إستدار جانباً، عمل بنجاح نحو الأفضل ـ بطريقةٍ ما لم يتم التنبؤ بها على أية حال، ومن الأحسن تركها من دون حدس، بما ان التجربة كشفت انه حتى أبسط الوقائع حدثت دوماً بنحوٍ مختلف عما كان المرء قد فكّر به سلفاً.

على الرغم من هذه كلها، كان هذا أكثر الصباحات بُغضاً في ذاكرته. شعر انه مُجهد ومتوعِك الصحة، أسنانه مالت الى الإصطكاك؛ في عمق كيانه كان ميالاً الى أن يرتاب في قدراته الخاصة في السيطرة على الذات. كانت هذه أوقاتٌ فريدة جداً. السيدة التي من منسك، التي هشمت صحتها مسألة خصام مع صانع مشداتها، تلميذ المدرسة الهائج، فايديمان وسونينشاين، اللكمات البولندية على الأذن ـ هذه كلها فكّر بها بحزن. ببساطة لم يستطع أن يتصور إنسانين، أمام عينيه، بحضوره، يقفان كي يطلقا النار على أحدهما الآخر، ويريقا دم أحدهما الآخر. لكنه حين إستذكر ما آلت إليه الأمور، ما رآه فعلاً، في حالة فايديمان وسونينشاين، عندئذ إرتاب في نفسه، إرتاب في العالم كله، وارتجف في سترته الفرو؛ مع انه في الوقت نفسه شعور بالإستثنائية، بشذوذ هذا كله، ضاعفها نوع هواء الصباح المبكر، الذي أخذ الآن بصورةٍ مدهشة ينعشه ويثيره.

في العتمة الجزئية لذلك الفجر المشرق ببطء، تحرك بدافع هذه الأمنيات والأحاسيس المختلطة والمتقلبة، صعد الدرب الضيق على طوال المنحدر، سالكاً طريق الزلاجات من طرفه القريب من القرية؛ وصل الى الغابات المذروة بشدة، عَبَرَ الجسر الخشب الصغير فوق المجرى، وتبع درباً بين جذوع الشجر وطأته الأقدام في الثلج الذي لم تنظفه أي مجرفة. غذَّ الخطى مسرعاً، وعاجلاً جداً أدرك سيتيمبريني وفيرجه، الأخير كان يحمل علبة المسدسين بيد واحدة تحت معطفه الفضفاض. هانز كاستورب لم يتردد في الإنضمام إليهما، و، واصلاً الى جنبهما، أدرك ان نافته و فيسال، كانا على مبعدة خطوات قلائل الى الأمام.

«صباح بارد؛ في الأقل ثماني عشرة درجة من الصقيع»، قال، بصفاء

سريرته، لكنه جفل من تفاهة ملاحظته، وأضاف: «أيها النبيلان أنا مقتنع ـ»

الآخران كانا صامتين. شارب فيرجه المبتهج اهتز صعوداً ونزولاً. بعد برهةٍ كان سيتيمبريني قد انتهى الى فاصلة، أخذ يد هانز كاستورب، وضع يده عليها، وشرع يتكلم.

«صديقي، لن أقتل. لن أفعل. سأقدم نفسي لطلقه الناري، هذا هو كل ما يتطلبه الشرف. لكنني لن أقتل، عليكَ أن تثق بي.»

حرَّر يد الشاب وتابع المسير. هانز كاستورب تأثر بشدة. بعد خطواتٍ قلائل قال: «هذا شيء رائع منك، سيد سيتيمبريني. الآن ـ من الناحية الثانية ـ إذا هو بدوره ـ»

بيد ان السيد سيتيمبريني هز رأسه. هانز كاستورب فكّر إذا لم يطلق أحد الطرفين النار، الطرف الآخر يقيناً لن يكون قادراً على أن يجبر نفسه على فعل ذلك؛ وفؤاده خفَّ بصورة محسوسة. كل شيء كان يسير سيراً حسناً، توقعاته بدت وكأنها على وشك أن تثبت صحتها.

اجتازوا جسر المشاة فوق الكتلة التي تسد المجرى، حيث كان الشلال ثابتاً وصامتاً. نافته و فيسال كانا يتمشيان جيئةً وذهاباً أمام المصطبة المنجدة الآن بوسائد سميكة بيض من الثلج: المصطبة التي فوقها هانز كاستورب، مستلقياً في إنتظار إنتهاء نزف أنفه، جرّب تلك الذكريات الحيوية الآتية من الماضي البعيد. نافته كان يدخن سيجارةً، وهانز كاستورب سأل نفسه ما إذا يلزمه أن يحذو حذوه، لكنه وجد انه لا يملك أدنى رغبة في فعل ذلك. بدا له هذا تأثراً بالآخر. بالمسرة التي شعر بها دوماً في هذه البيئة، تطلع إليها في حالتها الجليدية ووجد انها لا تقل جمالاً عما هي عليه في زمن تفتحها الأزرق. شجرة التنوب التي نتأت بجرأة شديدة في الصورة جذعها وأغصانها كانت محملةً بالثلج.

«صباح الخير»، قال بمرح، تراوده فكرة أن يضفي على المشهد سمةً طبيعية، ستساعد في تبديد مغزاه[١٥٦] الشرير ـ ولكن لم يحالفه الحظ، ذلك

---

(١٥٦) الهاء في [مغزاه] تخص المشهد ـ المترجم.

ان أحداً لم يرد عليه. التحايا إقتصرت على إنحناءات صامتة، ثابتة جداً بحيث كانت تقريباً غير محسوسة. على أي حال، عزم هو على أن يحوِّل الطاقة التي حصل عليها من المشي، الدفء الرائع الذي ولدته الحركة السريعة في الجو البارد، وفي الحال ومن دون إبطاء الى هدف جيد، وهكذا راح يقول: «أيها النبيلان، أنا مقتنع ـ»

«سوف تكشف قناعاتك في وقت آخر»، نافته قاطعه ببرود: «السلاجان، إذا سمحت»، أضاف قائلاً، بالنبرة المتعجرفة ذاتها. هانز كاستورب، هكذا لُطِمَ على حلقه، توجب عليه أن ينظر بينما كان فيرجه يخرج العلبة الصغيرة المزخرفة[١٥٧] القاتلة من تحت عباءته، وسلّم مسدساً الى فيسال كي يمرره الى نافته. سيتيمبريني تناول الآخر من يد فيرجه. الأخير في تمتمةٍ طلب منهم أن يفسحوا مجالاً له، وشرع يقيس الأرض. علّم الحدود الخارجية بوساطة خطوط حفرها بعقبه في الثلج، الداخلية بوساطة خيزرانتين، إحداهما خيزرانته، والأخرى عائدة لـ سيتيمبريني.

معذبنا طلق المحيا، ماذا كان هذا العمل بالنسبة له؟ هانز كاستورب لم يكن قادراً على تصديق عينيه. فيرجه كان طويل الساقين، خطا خطوات واسعة مناسبة، الخطوات الخمس عشرة، في الأقل، كانت مسافة كبيرة ـ غير ان الخيزرانتين البغيضتين، واحسرتاه، لم تكونا متباعدتين كثيراً البتة. يقيناً، كان هو يعمل بإجلالٍ تام؛ لكن بأي قبضة أمسك الإنفعال السائد به، بحيث يفرض بالقوة عليه إجراءً رهيباً في دلالته.

نافته رمى بعجل عباءته الفراء على الأرض، بحيث ظهرت بطانتها المنك. تحرك، المسدس بيده، الى أحد الحاجزين الخارجيين بعد أن عُيِّن مباشرةً، وبينما كان فيرجه ما يزال يعلّم الآخر. حين تم تثبيت ذلك، إتخذ سيتيمبريني موضعه، معطفه الفرو البالي مفتوح من الأمام. هانز كاستورب إنتزع نفسه من شلل مباغت، ومدَّ ثانيةً يد المساعدة الى الرجلين اللذين أحدق بهما الخطر.

---

(١٥٧) وردت في النص كلمة etui الفرنسية التي تعني علبة صغيرة مزخرفة (لأدوات الزينة الخ) ـ المترجم.

«أيها النبيلان»، قال، منفعلاً الى درجة شعوره بالإختناق، «لا تستعجلا. انه واجبي، على أية حال ـ»

«سكوت!» صرخ نافته بحدة. «إعط الإشارة.»

غير ان لا أحد أعطى الإشارة. إذ لم تتخذ الترتيبات الضرورية لذلك. شخص ما، بطبيعة الحال، يجب أن يقول: «أطلق النار!» إنما لم يتم الإدراك ان وظيفة الطرف الحيادي هي إعطاء الإشارة المميتة ـ في الأقل، هي لم تُذكر. هانز كاستورب لبث صامتاً، ولم يتكلم أحد بدلاً عنه.

«سوق نبدأ»، أوضح نافته. «تعالَ الى الأمام، سيد، واطلق النار»، نادى خصمه من جانب الى جانب، وراح هو نفسه يتقدم، حاملاً المسدس على طول ذراعه، موجهاً إياه الى سيتيمبريني ـ مشهد لا يُصدق. سيتيمبريني حذا حذوه. عند الخطوة الثالثة ـ الآخر، من دون أن يطلق النار، كان قد وصل الحاجز قبل الآن ـ الإيطالي رفع المسدس عالياً جداً، وأطلق النار. العيار الناري أيقظ أصداءً متكررةً، الجبال أرجعت بقوة الصوت والصدى، الوادي تجاوب مع الهزة، الى ان بدا لـ هانز كاستورب أن الناس حتماً سوف يهرعون الى المكان.

«أطلقت الرصاصة في الهواء»، نافته خاطب سيتيمبريني برباطة جأشٍ، وجعل سلاحه هو يهبط.

أجاب سيتيمبريني: «أطلقتُ النار حيثما راقني أن أفعل.»

«سوف تطلق النار ثانيةً.»

«ليست لي نية كهذه. جاء دورك.» سيتيمبريني، رافعاً وجهه ناحية السماء، أدار نفسه جانبياً بعض الشيء جهة خصمه. كان شيئاً مؤثراً أن نعرف انه سمع ان على المرء أن لا يقدّم صدره بكامل سطحه الى نار عدوٍ ما؛ وانه كان يعمل على وفق الأنظمة.

«جبان!» صرخ نافته؛ ومع هذه الصرخة البشرية معترفاً ان اطلاق النار يتطلب جرأةً أكثر مما يتطلبه إطلاق النار عليه، رفع مسدسه بطريقةٍ لا صلة لها بالمبارزة، وأطلق النار على رأسه.

مشهد يُرثى له، لا يُنسى! تهادى، أو ترنح هو، بينما الجبال لعبت

كرة[١٥٨] مع صوت طلقه الناري، خطواتٍ قلائل الى الوراء، رفس ساقيه باهتزاز عنيف؛ قام باستدارةٍ كاملة ببدنه كله، وهوى على وجهه في الثلج.

وقفوا كلهم لحظة متيبسين. سيتيمبريني، قاذفاً سلاحه بعنف بعيداً عنه، كان أول مَنْ وصل الى جنب نافته.

«تعيس!» صرخ. «ماذا تستطيع أن تفعل بحب الخالق؟»

هانز كاستورب ساعده في قلب الجثمان. شاهدوا الثقب الأحمر المسوّد في الصدغ. تفرسوا في وجهٍ سيحسن المرء صنعاً إذا ما غطاه بالمنديل الحرير، الذي كانت إحدى زواياه تتدلى من جيب صدر نافته.

الصاعقة

سبع سنواتٍ مكث هانز كاستورب بين أولئك الذين هنا في الأعالي. أنصار النظام العَشري ربما يفضلون رقماً مدوراً، مع ان (سبعة) رقم جيد ملائم للإستعمال بطريقته الخاصة، فاتن، ذو نكهة اسطورية؛ بوسع المرء حتى أن يقول انه يشبع الروح أكثر من [نصف دزينة] الأكاديمي الممل. بطلنا جلس الى كل الموائد السبع في حجرة الطعام، الى كل مائدة ما يربو على العام، كانت الأخيرة المائدة الروسية «السيئة»، وكانت جماعته هناك تتألف من: أرمينيين، فنلنديين، واحد من بخارى، وكردي[١٥٩]. جلس الى المائدة الروسية «السيئة»، بلحية صغيرة شقراء حديثة، ذات طراز مبهم نوعاً، نميل الى الآن أن نعدّها علامةً من علامات اللامبالاة الفلسفية نحو مظهره الخارجي. أجل، سوف نمضي حتى شوطاً أبعد، ونعزو عدم إكتراثه بشخصه الى عدم إكتراث بقية العالم به. السلطات كفت عن توريثه وسائل اللهو بوصية. كان هناك سؤال الصباح، المتعلق بـ ما إذا نام جيداً، هذا الإستفسار

---

(١٥٨) في اللهجة العراقية تعبير مشابه، إذ يقال عندنا: لعبتْ طوبة، والطوبة في العراق هي الكرة ـ والمعنى: ان الجبال لعبت بالصوت كيفما شاءت ـ المترجم.

(١٥٩) كردي Kurd: شخص من الكُرد (أو كما كان يقال سابقاً الأكراد) ـ المترجم.

نفسه متكلّف وموجز بكل معنى الكلمة؛ وإذا ما إستثنينا هذا، هوفرات لم يكن يخاطبه بأي خصوصية؛ بينما أدرياتيكا فون ميليندونك ـ كان عندها، في الوقت الذي نكتب عنه، [جنيجل] ناضج تماماً في جفنها ـ كانت تفعل ذلك نادراً، الواقع نادراً جداً. تركوه وشأنه، كان أشبه بالتلميذ في الحالة السعيدة بنحو خاص لـ: كونه لا «يُسأل» بعد الآن؛ كونه لا يملك أي واجب، كونه تُرِك كي يجلس، طالما ان حقيقة بقائه ترسخت، وما من أحد يقلق عليه بعد الآن ـ ضرب من الحرية متسم بالقصف والعربدة، لكننا نسائل أنفسنا ما إذا، حقيقةً، الحرية هي أبداً، أو بوسعها أن تكون، من نوع آخر. على أي حال، هنا كان ثمة فرد لم تعد السلطات تحتاج الى أن تراقبه بعناية، كونها متيقنة من انه لم تنضج في صدره أي قرارات جامحة أو جريئة. كان «مستقراً»، راسخاً. من زمن طويل كف عن معرفة الى أي مكان آخر ينبغي له الذهاب، من زمن طويل كف عن أن يكون قادراً على إتخاذ قرار بالرجوع الى الأرض المنبسطة. أليست حقيقة جلوسه الى المائدة الروسية «السيئة» تشهد على تهتك معين؟ نحن لا نقصد بهذه الملاحظة أدنى تعليق غير مناسب بشأن المائدة المذكورة آنفاً! بين الموائد السبع، ليس ثمة واحدة فقط يمكننا أن نقول عنها انها تملك حسنات أو سيئات واضحةً ملموسةً. نجرؤ على القول انه هنا توجد ديمقراطية الموائد، وكلها جديرة بالإحترام على حدٍ سواء. نفس وجبات الطعام الهائلة تُقدم هنا، كما تُقدم هناك؛ رادامانثوس نفسه غالباً يطوي يديه الضخمتين أمام موقع الطبيب عند رأس المائدة، والقوميات التي كانت تأكل هناك هم الأعضاء المحترمون للجنس البشري، مع انهم لم يتباهوا باللغة اللاتينية، ولم يكونوا صعبي الإرضاء بنحو مبالغ به في ما يتعلق بتغذيتهم.

الزمن ـ على أية حال ليس الزمن الذي تخبرنا به ساعة المحطة المركزية بهزةٍ خمس دقائق في كل مرة، بل بالأحرى زمن ساعةٍ شديدة الصغر، ليس بوسع المرء أن يرى عقربها يتحرك، أو الزمن الذي يكتمه العشب حين ينمو، بصورةٍ غير ملحوظةٍ أبداً بحيث يستطيع المرء أن يقول انه لا ينمو مطلقاً، الى أن ذات صباح تكون الحقيقة ساطعةً بنحوٍ لا يُنكر ـ الزمن، خط يتألف من سلسلةٍ من النقاط التي لا حجم لها (والآن نحن متيقنون من ان نافته الميت

الحزين سوف يقاطعنا قائلاً كيف تكوّن نقاطٌ لا حجم لها، مهما كان عددها، خطاً)، الزمن، نقول، تواصل، بطريقته المختلَسة، غير الملحوظة، المقتدرة، مُحدِثاً التغييرات. في سبيل المثال، الغلام تيدي إكتشف، يوماً ما ـ ليس يوماً واحداً حسب، بالطبع، بل فقط بالأحرى بنحوٍ غير محدد من ذلك اليوم ـ انه لم يعد غلاماً. لن تأخذه النساء في أحضانهن بعد الآن، حينما، في مناسبةٍ ما، غادر سريره، أبدل منامته بسرواله(١٦٠)، وهبط الى الأسفل. بنحوٍ غير محسوس قُلبتْ تلك الصفحة. الآن، في مناسبات كهذه لبسه كبديلٍ لها، وكلا الجانبين كان جيداً، أو حتى سُرَّ بهما بصورةٍ أفضل. صار هو شاباً؛ لا نكاد نقول انه أزهر شاباً بنحوٍ غير متوقع، لكنه نضج. هانز كاستورب لم يلاحظ هذا يحدث؛ وثم، فجأةً، فعل ذلك. النضج، على أي حال، لم يناسبْ الغلام تيدي؛ المؤقت لم يلائمه. في سنته الحادية والعشرين فارق هذه الحياة؛ ميتاً بالمرض الذي بُرهن على انه (أي تيدي) تقبّله بسرعة، ونظفوا ودخنوا وراءه. الواقع لا يطالب إلا بقليل من عواطفنا، كان التغيير طفيفاً جداً بين حالته السابقة والتي تلتها.

إنما كانت هناك وفيات أخرى، وأكثر أهميةً؛ وفيات هناك في الأرض المنبسطة، التي مستْ، أو التي كانت قد مست ذات مرة بطلنا بنحو وثيق أكثر. نحن نفكر بالوفاة الحديثة للعجوز القنصل تاينابيل، خال أم هانز ووالده بالتنشئة، الذي ذوت ذكراه. كان قد تحاشى بعناية الحالات غير المؤاتية للضغط الجوي، وتركها للخال جيمس كي يسفه نفسه؛ مع ذلك السكتة الدماغية قضت عليه على أي حال؛ وبرقية، مصاغة بكلمات موجزة إنما مشفِقة ـ مشفِقة على الميت أكثر من إشفاقها على متسلم البرقية ـ جيء بها ذات يوم الى هانز كاستورب حيث كان مستلقياً في كرسيه الممتاز. نال هو ورقةً معينةً من ورق الرسائل مؤطرة بالسواد، وكتب الى أقاربه: هو، الميتم مرتين، الآن، إذا جاز التعبير، أمسى ثلاث مرات، وصف نفسه كونه

(١٦٠) في الأصل Knicker bockers وهو سروال قصير وواسع مرموم عند الركبة ـ المترجم.

المكروب الأكثر على الأنباء المحزنة، ذلك ان الظروف تحول دون قطع إقامته المؤقتة الحالية حتى ليقدم الى خال أمه إحتراماته الأخيرة.

أن نتحدث عن الحزن سيكون أمراً مخادعاً. مع ذلك في هذه الأيام عينا هانز كاستورب حملتا تعبيراً متأملاً أكثر من كونه عادياً. هذه الميتة، التي كان بوسعها في غفلةٍ من الزمن أن تثيره كثيراً، وبعد إنسلاخ هذه الأعوام كلها ما كان بمستطاعها أن تثيره البتة، عنتْ (أي الميتة) قطعاً لآصرةٍ أخرى مع الحياة في الأسفل؛ منحت ما أسماه هو بنحوٍ صائب الختم الأخير لحريته. في الوقت الذي نتحدث عنه، كل إتصال بينه وبين الأرض المنبسطة إنقطع تماماً. لم يبعث رسائل الى هناك، ولم يتسلم أي خطاب من هناك. لم يعد يطلب ماريا مانسيني، كونه وجد علامةً تجاريةً هنا في الأعالي تناسب ذوقه، والتي أضحى الآن مخلصاً لها كما كان مرةً وفياً لساحرة الأيام الماضيات: علامة تجارية لا بد انها جعلت حتى مستكشفاً قطبياً يقوم بتجارب موجَعة جداً وقاسية جداً، متسلحاً بها، وليس بأي سلوى أخرى، هانز كاستورب كان بمستطاعه أن يستلقي ويحملها بصورةٍ غير دقيقة، كما يفعل المرء عند شاطئ البحر. كانت علامة ذات معالجة جيدة بنحو خاص، مع أفضل غلاف ورقي لسيجارها[١٦١]، تُدعى «نور آسيا»؛ نوعاً ما مكتنزة أكثر من ماريا، رمادية اللون كالفأر ذات طوق أزرق، طيعة جداً ولطيفة، وتُتلف بالاحتراق بنحوٍ متساوٍ متحولةً الى رماد ثلجي البياض، بحيث تحافظ على شكلها ولم تزل تظهر آثاراً من التعرّق على ورق التغليف؛ وهكذا بهدوء وانتظام ربما تخدم المدخن كساعةٍ رملية، وفعلتْ هي ذلك، عند الضرورة، ذلك انه لم يعد يحمل ساعةً. ساعته سقطت من منضدته الليلية، لم تعد تعمل، وأهمل هو مسألة إعادة تنظيمها، ربما للدوافع نفسها التي جعلته يتخلى من زمن طويل عن إستخدام تقويم سنوي، سواء كي يحافظ على تسلسل أحداث النهار أو كي يتطلع الى عيد ديني قريب: الدوافع، أعني، تلك الخاصة بـ«حريته». هكذا عامل هو باحترام بقاءه ـ الأبدي، مشيه بجانب محيط

---

(١٦١) يُغلف السيجار، عادةً، بورق التبغ ـ المترجم.

الزمن، الإفتتان الخيميائي الذي برهن على انه معرّض له بصورةٍ جد إستثنائية بحيث أمسى (أي الإفتتان) المغامرة الرئيسة في حياته، التي فيها كل العمليات الخيميائية لجوهره البسيط وجدت نشاطها التام.

هكذا بقي، وهكذا، في الصيف البهيج، دارت السنة مرةً أخرى، السنة السابعة، مع انه لم يكن يعرف، لإقامته المؤقتة هنا في الأعالي.

بعدئذ، كهزيم الرعد ـ

إلا ان الباري يحرِّم علينا والحياء يمنعنا من: الكلام أكثر مما ينبغي عما حمل إلينا قصف الرعد موجته الصوتية! هنا التفاخر ليس في محله. بالأحرى دعنا نخفض صوتنا لنقول انه عندئذ أقبل قصف الرعد الذي نعرفه كلنا أيما معرفة، ذلك الانفجار الذي يصم الآذان لمحتويات المخزن[١٦٢] المتجمعة طويلاً المؤلفة من الغضب الشديد والحقد. هزيم الرعد التاريخي ذاك، الذي نتحدث عنه بنَفَس محبوس، جعل أساسات الأرض ترتج، لكن بالنسبة لنا كان الصدمة التي فجرّت المنجم تحت الجبل السحري، وأعتقت بطريقة غير لطيفة نائمنا خارج البوابات. دائخاً يجلس هو في النجيل الطويل ويدعك عينيه ـ رجل، على الرغم من التحذيرات العديدة، أهمل قراءة الصحف.

صديقه ومعلّمه الخاص المتوسطي حاول دائماً أن يحثه؛ كان يشعر انه لزام عليه أن يرشد رضيعه، موضوع قلقه، ليطلع على ما يدور هناك في الأسفل؛ إلا ان تلميذه لم يعره أذناً صاغيةً. كان الشاب، بطريقة تقييم، قد شغل نفسه بهذا أو ذاك وسط الظلال الوهمية للأشياء؛ إلا ان الأشياء نفسها لم يبالِ بها البتة، كونه ذا ميل مقصود في أن يحسب الظل جوهراً، وفي الجوهر لا يرى إلا الظل. في ما يتعلق بهذا، على أية حال، يلزمنا أن لا نحكم عليه بقسوةٍ، طالما ان العلاقة بين الجوهر والظل لم تحسم نهائياً حتى الآن.

من زمن طويل السيد سيتيمبريني هو الذي جلب الإنارة المفاجئة الى داخل الحجرة، جلس بجنب هانز الأفقي وجاهد أن يؤثر فيه ويرشده في مسائل الحياة والموت. أما الآن فالتلميذ، هو الذي، أُجلس ويداه بين

---

(١٦٢) المقصود هنا بـ محتويات مخزن: الذخيرة الحربية، مخزن البندقية ـ المترجم.

ركبتيه، بجنب سرير الإنساني، أو قرب سريره في غرفة المكتب الصغيرة والدافئة والمريحة والمنعزلة ذات السقف السندي، ذات كراسي الـ carbonaro وقنينة الماء، صَاحَبه وأصغى بكياسةٍ الى تعابيره عن دولة أوربا ـ ذلك انه في هذه الأيام السيد لودوفيكو كان قلّما يقف على ساقيه. النهاية القاسية لـ نافته، العمل الإرهابي لذلك الخصم المتهور بسبب اليأس، سددا الى طبيعته الحساسة ضربةً نادراً ما كان بمستطاعه أن يبل منها؛ الضعف والوهن أصبح منذ تلك الآونة قدره. لم يعد بوسعه العمل في «علم الأمراض السوسيولوجي»؛ [العصبة] إنتظرتْ بلا طائل ذلك القاموس الخاص بكل التحف الأدبية التي كانت المعاناة الأدبية موضوعها المركزي. السيد لودوفيكو كان بحكم الظروف قد قصر على المجهود الشفوي إسهامه في منظمة التقدم؛ وحتى مع هذا لا بد انه كان سيضيع فرصة نشر تعاليمه لو ان زيارات هانز كاستورب لم تمنحه تلك الفرصة.

كان صوته ضعيفاً، لكنه تحدث بقناعة، أخيراً وبصورةٍ جميلةٍ، في التهذيب الذاتي للروح البشرية من خلال الإصلاح الإجتماعي. برقةٍ، كما لو فوق أجنحة اليمام، جاءت كلمات السيد لودوفيكو. مع ذلك، حين إستطاع أن يتكلم عن توحيد الشعوب المتحررة ورفاهيتها الشاملة، اختلط هناك صوت ـ لم يكن يعرف ما هو ولا أراد أن يعرف، بالطبع ـ أشبه بصوت القوادم المندفعة للنسور. كان هذا هو المفتاح السياسي، الإرث السلفي الذي إتحد في داخله مع الموهبة الإنسانية للأب، كي يصنعا الأديب ـ على وجه الدقة مثلما إتحدت الإنسانية والسياسة في المثل الأعلى النبيل للحضارة، المثل الأعلى الذي إندمجت فيه وداعة الحمام وجرأة النسور. ذلك المثل الأعلى كان ينتظر فقط فرصته المناسبة، الى أن طلع النهار، [نهار الشعب]، عندما يتوجب قتل المبدأ الرجعي، و[الحلف المقدس](١٦٣) للديمقراطيات المدنية يحل محله. نعم، هنا بدا كما لو يتردد صوتان، بقصدين مختلفين. ذلك ان

(١٦٣) الحلف المقدس Holly Alliance: وقعته روسيا والنمسا وبروسيا العام ١٨١٥ وغايته مقاومة الحركات القومية والتحررية التي بدأت تظهر في إيطاليا وألمانيا وأوروبا الوسطى، تحت تأثير الثورة الفرنسية ـ المترجم.

السيد سيتيمبريني كان محباً للخير العام و الإصلاح الإجتماعي، مع ذلك في الوقت نفسه، بنحوٍ نصف واضح، كان محباً للحرب كذلك. في المبارزة مع نافته الشنيع ضئيل البدن صمد صمود الرجال. لكن عموماً ما يزل غامضاً نوعاً ماذا يجب أن يكون موقفه، عندما البشرية في تفجر الحماسة وحدت نفسها مع السياسة تأييداً للتحضير العالمي المنتصر والمسيطر، ورمح المواطن كُرِّس على مذبح الإنسانية. كان هناك بعض الشك ما إذا سوف يسحب عندئذ يده عن إراقة الدم. نعم، بدا ان الإنفعال السائد فرض سيطرته أكثر فأكثر في عقل الإيطالي ورؤيته، جرأة النسر كانت تتغلب رويداً رويداً على وداعة الحمامة.

ليس بصورة غير نظامية موقفه تجاه الأنظمة السياسية الكبيرة الموجودة كان منشطراً، مرتبكاً، مشوشاً بوساطة الوساوس. المصالحة الدبلوماسية بين بلده والنمسا، تعاونهما في ألبانيا، عكست نفسها في حواره: تعاون رفع معنوياته ذلك انه كان موجهاً ضد نصف آسيا غير اللاتينية ـ السوط، Schlusselburg، وما الى ذلك ـ مع ذلك عذبها لأنه كان إتحاداً غير شرعي مع العدو الوراثي، مع المبدأ الرجعي والشعوب المستعبدة. الخريف الماضي، فرنسا العظمى أقرضت روسيا، من أجل بناء شبكةً من خطوط السكة الحديد في بولندا، أيقظت في نفسه هواجس مماثلة. ذلك ان السيد سيتيمبريني إنتمى للحزب المحب لفرنسا في بلده، والذي لم يكن بالأمر المدهش عندما يستذكر المرء ان جده قارن الأيام الستة لثورة تموز (يوليو) مع الأيام الستة للخليقة، ورأى انها كانت جيدةً مثلها. إلا ان التفاهم بين الجمهورية المنوّرة وسكيثيا البيزنطية كان شيئاً مبالغاً به بالنسبة له، أخمد صدره، وفي الوقت ذاته جعله يتنفس أسرع بسبب الأمل والسعادة لدى فكرة المعنى الستراتيجي لشبكة خطوط السكة الحديد تلك. ثم جاءت جريمة قتل سيراييفو، كانت بالنسبة للجميع عدا [النائمين السبعة الألمان] إشارة خطر عاصفة ما، حاسمة بالنسبة لأولئك المبلَّغين بها، بوسعنا أن نحسب السيد سيتيمبريني بينهم. هانز كاستورب شاهده يرتجف كمواطنٍ ليس له عمل عام عند وقوع الصنع المرعب، بينما في اللحظة ذاتها إرتفع صدره مع المعرفة ان هذا كان عملاً من أعمال التحرير الشعبي موجهاً ضد حصن إشمئزازه. من

الناحية الأخرى، ألم يكن ذلك أيضاً ثمرة النشاط الموسكوفي، وهكذا يكون باعثاً على تفحصاتٍ قلبية عظمى؟ الأمر الذي لم يُعقه، بعد ثلاثة أسابيع، من تمييز المتطلبات القصوى للدولة الملكية على صربيا كونها جريمةً بشعةً وإهانةً للكرامة الإنسانية، نتائجها كان بمستطاعه أن يعرفها جيداً بنحوٍ كافٍ، وينتظرها باهتياجٍ لاهث.

الخلاصة، أحاسيس السيد سيتيمبريني كانت معقدةً كالقضاء والقدر الذي رآه يصل مسرعاً، الذي بوساطته كان يسعى من خلال التلميحات وأنصاف الكلمات أن يهيء تلميذه، ضرب من الكياسة القومية ووخز الضمير يمنعانه من الإفصاح. وفي الأيام الأوُل للتعبئة، الإعلان الأول للحرب، كانت له طريقة في مد يديه كلتيهما الى زائره، آخذاً يديّ هانز كاستورب وضاغطاً عليهما، بحيث كانت تفضي بكل معنى الكلمة الى فؤاد مغفلنا الشاب، إن لم نقل على وجه الدقة الى رأسه. «صديقي»، يقول الإيطالي، «البارود، الآلة الطابعة، نعم، يقيناً، أعطيتمونا هذا كله. لكن لو فكرت اننا نستطيع أن نسير الى [الثورة] ـ صديقي! . . .»

إبان أيام التنبؤ الخانق تلك، حينما كانت أعصاب أوروبا في ألم شديد، هانز كاستورب لم يرَ السيد سيتيمبريني. الصحف بمضامينها المتهورة، الهيولية شقت طريقها من الأعماق الى شرفته بعينها، هي (أي مضامين الصحف) أفسدت نظام الدار، ملأت حجرة الطعام بنَفَسها الجحيمي، الخانق، وحتى نفذت الى غرف نوم المرضى الهالكين. كانت هذه اللحظات عندما «النائم السابع» غير عارفٍ بما جرى، كان يحرك نفسه حركاتٍ بطيئةً في النجيل، قبل أن ينهض، دعك عينيه ـ نعم، لننقل الصورة حتى النهاية، كي ننصف نشاط عقل بطلنا: سحب ساقيه، نهض على قدميه، تطلع في ما حوله. رأى نفسه معتقاً، متحرراً من الإفتتان ـ ليس بحافزه الخاص، كان ضعيفاً كي يعترف بذلك، لكن بفعل قوى خارجية، والتي بالنسبة لأنشطتها كان تحرره الخاص حادثة ثانوية حقيقةً! فضلاً عن ذلك مع ان قدره بالغ الصغر بهت الى لا شيء بإزاء القدر القادم، ألم يكن هناك تلميح ما برأفةٍ ورحمة شخصية به، تجلٍّ للطيبة والعدالة الإلهيتين؟ هل ستسقبل الحياة ثانيةً

ابنها الضال و«رقيق الصحة» ـ ليس بوساطة رجوع عادي بسيط الى ذراعيها، بل بطريقةٍ صارمة، رزينة، تائبة ـ أغلب الظن ليس حتى بين الأحياء، لكن فقط مع ثلاث صليات تُطلق فوق قبره كونه آثماً؟ قد يعود هكذا. خرَّ على ركبتيه، رافعاً وجهه ويديه الى السماء التي مهما كانت داكنة وجهنمية لم تعد الغار المظلم لحالته الآثمة.

وفي هذا الموقف السيد سيتيمبريني وجده ـ إذا ما تحدثنا بصورةٍ مجازية ومجازية جداً، ذلك اننا نعرف تمام المعرفة ان التحفظ التقليدي لبطلنا سوف يجعل تمثيلاً مسرحياً كهذا مستحيلاً. السيد سيتيمبريني، الواقع، وجده يحزم صندوق ثيابه. فمن لحظة إستيقاظه المباغت، هانز كاستورب تم إدراكه وهو في الإندفاع المضطرب للرحيل «المتهور»، الذي أحدثه قصف الرعد. «البيت» ـ بيرغهوف ـ كان صورةً لكثيب النمل في الذعر المفاجئ الذي لا مبرر له: سكانه القليلون كانوا يقذفون أنفسهم بقوة، رأساً على عقب، خمسة آلاف قدم الى الأسفل الى الأرض المنبسطة المبتلاة بالكارثة. إقتحموا القطارات الصغيرة، ملأوها حتى مواطئ عرباتها ـ من دون أمتعة، إذا دعت الضرورة، وأكوام الأمتعة تكدست عالياً فوق رصيف المحطة، الرصيف المضطرب، حتى أعلاه النَفَس اللاذع الآتي من الأرض المنبسطة بدا كما لو انه يعتلي ـ وهانز كاستورب إقتحم معهم. في قلب الجلبة عانقه لودوفيكو، بكل معنى الكلمة، طوّقه بذراعيه وقبّله، كجنوبي ـ إنما كروسي أيضاً ـ في كلا خديه؛ وهذا، على الرغم من عاطفته الخاصة، لم يجعل مسافرنا المتهور يتراجع قليلاً. لكنه فقد اتزانه تقريباً، عندما، في آخر المطاف، السيد سيتيمبريني دعاه «فتىً»، وتاركاً صيغة التخاطب المألوفة لـ[الغرب] المتحضر، خاطبه بـ[أنتَ]! «وهكذا في الأسفل»، قال. «هكذا تنضم الى الأسفل أخيراً ـ مع السلامة يا فتاي! فكرتُ أن أراك تذهب بصورة مختلفة تماماً. إنما ليكن الأمر هكذا، شاء الباري أن يكون هكذا وليس خلاف ذلك. تمنيتُ أن أطلق سراحك كي تنزل الى عملك، وها أنت ذا الآن ذاهبٌ كي تحارب وسط أبناء شعبك. إلهي هذا مُنحَ لك وليس لإبن خالتك، مُلازمنا! أيَّ حيلٍ تلعبها الحياة! إذهب، إذاً، انه دمك الذي ينادي، إذهب وحارب بشجاعة. لا

يستطيع المرء أن يفعل أكثر من هذا. لكن سامحني إذا ما كرستُ بقية قدراتي كي أحث بلدي على أن يحارب حيث [الروح القدس] والأنانية المقدسة تشيران الى الطريق. في أمان الله!»

هانز كاستورب أبرز رأسه بين عشرةٍ آخرين مالئاً إطار النافذة الصغيرة المفتوحة. لوّح. ورد السيد سيتيمبريني على تلويحته، بيده اليمنى، بينما بإصبع خاتم يسراه مسَّ زاوية عينه برفقٍ.

ما هذا؟ أين نحن؟ الى أين إختطفنا الحلم؟ شفق، مطر، بذاءة. وهج ناري للسماء المظلمة، دوي متواصل لرعدٍ عالٍ وعميق؛ الجو الرطب إستأجره عواءٌ حاد مغني، نباح هائج، طنان كما لو كان منبعثاً من كلبٍ في الجحيم، الذي ينهي مجراه بانشطار، تشظٍ ونثر، طقطقة، وميض، إستأجرته تأوهات وصرخات، أبواق مُصفِرة مناسبة للإنفجار، نقرة طبل تأتي أسرع، أسرع ـ ثمة غابة، تطلق سراح حشودٍ فاتحة السمرة، تتقدم، تسقط، تثب من جديد، تتقدم. ـ في الوراء، ثمة خط من التلال يبرز إزاء السماء النارية، التي يتبدل وهجها بين الفينة والفينة الى توهجات منوِّرة. حولنا أرض ممهدة محروثة، الجميع تنفسوا الصعداء وساروا في الطين؛ عبرها (أي الأرض) طريق عام ملوث بالوحل، مخفي بأغصان مكسورة ومنها ثانيةً درب ميدان عميق الأخاديد، سبخ، يفضي بمنعطفات نحو التلال البعيدة. جذوع أشجار عارية، عديمة الأغصان تواجه العين، يهطل مطر بارد. آ، مَعلَم! لا جدوى، مع ذلك، للإستفسار منه، حتى على الرغم من نصف العتمة، ذلك انه مهشم، غير مقروء. شرقاً، غرباً؟ انها الأرض المنبسطة، انها الحرب. ونحن ظلال منكمشة عند جانب الطريق، خجلون من أمن بقائنا في الظل، ولا نبالي البتة بأن ننغمس في أي تفاخر فارغ؛ حصراً إهتدينا الى هنا بفعل روح قصتنا، حصراً كي نرى ثانيةً، بين أولئك الرفاق الرماديين، الراكضين، المتعثرين، المحتشدين على صوت الطبل الذين إندفعوا بأعداد كبيرة من الغابة التي هناك، ثمة شخص نعرفه، حصراً كي ننظر مرةً أخرى في الوجه البسيط الذي كان زميلنا ذات مرة على مدى سنواتٍ عدة، الآثم اللطيف الذي نعرف صوته جيداً جداً، قبل آن يغيب عن أنظارنا.

كانوا قد جيء بهم الى الأمام، هؤلاء الرفاق، من أجل هجوم عسكري نهائي في قتال إستمر قبل الآن طوال اليوم كله، كان هدفه إسترداد موقع التل والقرى المحترقة وراءه، أضاعوا يومين حتى الآن مع العدو. انه فوج المتطوعين، دم شاب طازج وغالبيتهم من الطلبة الجامعيين، لم يمضِ عليهم وقت طويل في الميدان. أوقظوا في الليل، جيء بهم بالقطارات الى أن طلع الصباح، ثم ساروا أرتالاً في المطر في طرقٍ سيئةٍ ـ في لا طرق البتة، ذلك ان الطرق كانت مسدودة، وقاموا برحلةٍ في مستنقع وأرضٍ محروثة بعدّةٍ كاملةٍ على مدى سبع ساعات، معاطفهم مبللة. لم تكن تلك نزهة متعة. إذا لم يبالِ المرء بفقدان جزمتيه، ينحني بين خطوة وخطوة، يقبض بأصابعه بإحكام على أربطة الجزمتين ويسحبها خارج الوحل المترجرج. استغرقوا ساعةً كاملةً كي يغطوا مرجاً واحداً. إلا انهم أخيراً وصلوا البقعة المحددة، مرهقين، منفعلين، مع ذلك القوة الإحتياطية لأجسادهم الفتية أبقتهم مشدودين، لم يكونوا يتلهفون لا الى النوم ولا الطعام اللذين حُرما منهما. وجوههم الندية، الملوثة بالطين، مؤطرة بين الرباط والخوذة الرمادية المصونة، كانت مخضبة بالإجهاد ـ ربما أيضاً بمشهد الخسائر التي عانوا منها خلال مشيهم عبر الغابة السبخة. ذلك ان العدو، عارفاً بتقدمهم، حشّد حاجزاً من قذائف الشظايا والرمانات كبيرة العيار على الطريق الذي لا بد انهم يأتون منه؛ تهشم بينهم في الغابة، ونابحاً، متوهجاً، متناثراً، ضَربَ بالسياط الأرض الرحبة المحروثة.

لا بد لهم أن يصلوا، هؤلاء الشبان المتحمسين الثلاثة آلاف؛ لا بد لهم أن يعززوا بحرابهم الهجوم على القرى المحترقة، والخنادق أمام ووراء خط التلال، لا به لهم أن يساعدوا كي يقدموا قواتهم المسلحة الى نقطة موضحةٍ في البرقية التي يحملها قائدهم في جيبه. كانوا ثلاثة آلاف، ربما سيكونون ألفين حين يتم الوصول الى التلال، القرى؛ هذا هو مغزى عددهم. هم مجموعة من الجند عُدّوا كافين، حتى بعد خسائر كبيرة، كي يهاجموا ويستولوا على موقع ويحيوا إنتصاراتهم بهتافات ينطق بها ألفٌ ـ عدا أولئك التائهين الذين تنحوا عن الرتل في أثناء الطريق. كثيرون تنحوا في المسيرة

الاجبارية، التي ثبت كونه جدّ يافعٍ وضعيفٍ بإزائها؛ أمسى أكثر شحوباً، ترنح، أطبق أسنانه، أكره نفسه علىّ التقدم ـ وعلى الرغم من كل شيء كان بوسعه أن يتنحى عن الطابور مع ذلك. هنيهةً جرَّ نفسه في مؤخرة الرتل الماشي، أدركته وتجاوزته مجموعة إثر مجموعة؛ في الختام بقي على الأرض، مستلقياً حيث كان الإستلقاء أمراً غير مستحسن. ثم جاءت الغابة المحطمة. إنما كان هناك الكثيرون منهم، يحتشدون ـ بمستطاعهم أن ينجوا من إراقة الدم وما يزالون يأتون في حشود. كانوا قبل الآن قد أغرقوا السهل، الأرض المضروبة بسياط المطر؛ الطريق العام، طريق الميدان، الأرض السبخة المحروثة؛ نحن الظلال نقف وسطها وبينها. عند حافة الغابة ثبتوا حرابهم، بالمسكات المتمرسة، الأبواق قوّتهم، الطبول قرعت أعمق جهير، والى الأمام مشوا باضطراب، أفضل ما إستطاعوا إليه سبيلاً، مع صرخات حادة؛ بنحوٍ كابوسي، ذلك ان كتل الطين علقت بجزماتهم الثقيلة وقيّدتهم.

طرحوا أنفسهم الى الأسفل أمام القذائف التي جاءت عاويةً، بعدها راحوا يثبون مجدداً ويسرعون الى الأمام؛ كانوا يتهللون، بأصواتهم الفتية، التي كانت تضعف بينما كانوا يركضون، كي يكتشفوا انهم لم يُضربوا بعد. أو انهم ضُربوا، يسقطون أرضاً، يقاتلون الهواء بأذرعهم، العيار الناري أصاب الجبهة، القلب، البطن. انهم يرقدون، وجوههم في الوحل، وهم من دون حراك. انهم يرقدون، ظهورهم مرتفعة بفعل حقائب الظهر(١٦٤)، أعالي رؤوسهم مغروزة في الطين، وقبضاتهم وأصابعهم في الهواء. غير ان الغابة تطلق أفواجاً جديدةً، يرمون أنفسهم أرضاً، ينبجسون الى الأعلى، زاعقين أو صامتين، يتخبطون متقدمين الى الأمام فوق طريحي الأرض.

آه، هذه السلالة الفتية، بحقائب الظهر والحراب خاصتها، بالجزمات والملابس الملوثة بالطين! نحن نتطلع إليها، عيننا الإنسانية ـ الجمالية تتخيلها بين مشاهد مختلفة تماماً عن هذه: نحن نرى هؤلاء الشبان يروون الجياد

(١٦٤) حقيبة الظهر knapsack: حقيبة من جلد أو خيش توضع فيها الملابس الخ ويشدها الجندي الى ظهره ـ المترجم.

بالماء على لسان البحر المشمس الداخل في البر، يطوفون مع محبوباتهم على طول الشاطئ، شفتا العاشق قريبتان من أذن العروس المستسلمة؛ في أسعد المنافسات يحني القوس. واحسرتاه، لا، هنا يرقدون، أنوفهم في القذارة النارية. هم مسرورون لكونهم هنا ـ ولو بكربٍ لا حد له، بحنين مرضي لا يوصف الى البيت والأهل؛ وهذا، بحد ذاته، شيء نبيل ومُخجل ـ لكنه سبب غير جيد كي يأتي بهم الى موضع كهذا.

هو ذا صديقنا، هو ذا هانز كاستورب! نحن نميزه عند مسافة ما، من خلال اللحية الصغيرة التي إتخذها أثناء جلوسه الى المائدة الروسية «السيئة». أسوة بالآخرين، كان مبللاً تماماً ومتورداً. هو يركض، قدماه ثقيلتان مع القالب[١٦٥]، الحربة تتأرجح في يده. أنظر! انه يدوس على يد رفيق سقط صريعاً؛ بجزمته ذات المسامير القصيرة الغليظة سحق على اليد عميقاً في التربة الموحلة، المكسوة بالأغصان. لكنه هو. ماذا، يغني؟ كما يغني المرء، لا شعورياً، محدّقاً الى الأمام بكل ما في الكلمة من معنى، أجل، هكذا هو يبدو نَفَسه المسرع، كي ينشد بطريقةٍ نصف صامتة:

«وكلماتٍ رقيقةً نقشتُها
على غصونها الجميلة ـ»

يمشي باضطراب، كلا، يطرح نفسه أرضاً، كلب من كلاب الجحيم يأتي نابحاً، قذيفة مدفع ضخمة متفجرة، كتلة من السكر مخروطية الشكل مثيرة للقرف من المناطق الجهنمية. يرقد هو ووجهه في المستنقع معتدل البرودة، ساقاه ممدودتان في غير إتساق، قدماه ملتويتان، عُقباه الى الأسفل. نتاج عِلم شرير، محمّل بالموت؛ يغوص في الأرض ثلاثين خطوة أمامه ويدفن أنفه في الأرض، ينفجر في الداخل هناك، بإنفاق شنيع للطاقة، ويرفع نافورةً عاليةً كمبنى، من الطين، من النار، الحديد، المعدن المصهور، أشلاءً متناثرةً من البشر. حيث سقط، رقد شابان، صديقان في حالة الضرورة طرحا نفسيهما معاً أرضاً ـ الآن هما مبعثران، امتزجا معاً وماتا.

---

(١٦٥) القالب mould: هو كتلة الطين العالقة بالجزمة والتي إتخذت هيئة قالب ـ المترجم.

عار من أمان الظل خاصتنا! مضى بعيداً! لم يعد هنا! ـ لكن صديقنا؟ هل ضُربَ؟ ظن ذلك، لحظةً. كتلة كبيرة من الطين ضربته في قصبة الساق، آذته، لكنه إبتسم لها. عالياً نهض، وترنح، أخذ يعرج على قدمه المكبلة بالأرض، منشداً بنحوٍ غير واعٍ:

«غصـونـها المتموجّة هـ ـ مستْ
رسـا ـ لـة فـي أذنــي ـ»

وهكذا في الجلبة، في المطر، في الغسق، توارى عن أنظارنا.

وداعاً، هانز كاستورب الشريف، وداعاً، ابن الحياة رقيق الصحة! حكايتك رُويتْ. رويناها حتى النهاية، وهي ليست بالقصيرة ولا بالطويلة، بل كانت سحريةً. حكيناها من أجلها هي، وليس من أجلك، ذلك انك إنسان بسيط. لكن على الرغم من كل شيء، كانت قصتك، هي حدثت لك، لا بد انك تملك في داخلك أكثر مما حسبنا؛ سوف لن نتنصل من الضعف البيداغوجي الذي تخيلناه لكَ في السرد، والذي حتى بوسعه أن يقودنا الى أن نضغط إصبعاً برفق على عينينا اعتقاداً منا اننا لن نراك مرةً أخرى، لن نسمعك مرةً أخرى الى الأبد.

وداعاً ـ وإذا كنتَ حياً أم ميتاً! دلائل نجاحك فقيرة. الرقصة المتهورة، التي بها أُصيبت مصائرك، سوف تستمر مع ذلك بضع سنوات شريرات؛ نحن لا نكترث بأن نراهن على حياتك في الوقت الذي تنتهي فيه. لا بل حتى نعترف قائلين اننا من دون إهتمام كبير نترك المسألة مفتوحة. مغامرات الجسد ومغامرات بالروح، بينما تعزز بساطتك، تخولك حق المعرفة بالروح ما إستطعتَ بشق النفس أن تحققه بالجسد. كانت ثمة لحظات، عندما أقبل إليك هناك، من الموت، وتمرد الجسد، كما لو انك تقيّم نفسك، حُلم غرامٍ ما. من هذا العيد الشامل للموت، من هذه الدرجات القصوى من الحمى، مضيئاً سماء المساء المغسولة بالمطر محولاً إياها الى وهج ناري، هل يحتمل ان يعتليها الحب يوماً ما؟

ـ إنتهت ـ

معلومات أُخر وتفاصيل

* برنارد كليرفو Bernard of Clairvaux (١٠٩٠ ـ ١١٥٣): عالم لاهوت ومصلح كنسي فرنسي. تدرب كراهب بندكتي، أسس في العام ١١١٥ ديراً في كليرفو في شمالي شرق فرنسا، بقي رئيساً له طوال ما تبقى من سنوات حياته. عمل الكثير لنشر النظام البندكتي في غرب أوروبا. وفرض تأثيراً مسيطراً على قضايا الكنيسة.

* السكيثيون Scythians: قوم بدو من أصل هندي ـ أوروبي، إستوطنوا في سكيثيا قبل القرن السابع قبل الميلاد، وهذه المنطقة تقع في جنوب شرق أوروبا وآسيا، ومركزها شمال البحر الأسود على نهري الدون الأسفل والدانوب.

* البارثيون Parthyians: سكان بارثيا وهي بلد موغل في القدم يقع في الشمال الشرقي من إيران. كانت جزءاً لا يتجزأ من إمبراطورية آشور، بلاد فارس، مقدونيا، وسوريا قبل أن يتمردوا في ظل الإمبراطورية الآرساسيدية Arsacid (٢٥٠ق.م ـ ٢٢٦ب. م) ليكونوا الإمبراطورية البارثية، التي إمتدت (في القرن الأول للميلاد) من باكتريا وبحر قزوين Caspian الى الفرات والهند.

* جيوسو كاردوتشي Giouse Carducci (١٨٢٥ ـ ١٩٠٧): شاعر وناثر إيطالي. نال نوبل جائزة للآداب العام ١٩٠٦.. من أهم دواوينه الشعرية «أغنيات وإيقاعات» العام ١٨٩٩، و«قصائد متوحشة»، المنشور في العام ١٨٧٧. في سنة ١٨٦٠ عينه وزير التعليم الوطني مدرساً للأدب

الإيطالي في جامعة بولون (في بلده إيطاليا). يُعد واحداً من ثلاثة أدباء صنعوا مجد الشعر الإيطالي الحديث.. أما الآخران فهما جيوفاني باسكولي (١٨٥٥ ـ ١٩١٢) وغابرييل دانونتسيو (١٨٦٣ ـ ١٩٣٨). شغف كاردوتشي بالتاريخ فجعله ميداناً لقصائده الوطنية التي أصبحت إحداها نشيداً قومياً لإيطاليا على مدى ردح من الزمن ـ وأقصد هنا نشيد (سان مارينو).. وظف كاردوتشي التاريخ الأغريقي كثيراً في قصائده.. مُني بفواجع عائلية وشخصية خلال سنوات حياته. نشر ديوانه «ترنيمة الى الشيطان» العام ١٨٦٥.

* تانهاوزر Tannhauser: شاعر قروسطي تمزق بين الحب (المقدس) والحب (الدنس). أخرج فاجنر أوبرا تحمل عنوان «تانهاوزر والصراع الغنائي عند وارتبورغ.» قُدمت هذه الأوبرا في دريسدن العام ١٨٤٥. تتكون من ثلاثة فصول مسرحية مأخوذة من الأساطير القديمة وكتبها الفنان الصحافي (هوفمان) والبروفيسور (لوكاس) والاخوان غريم Grimm. كما قُدمت الأوبرا ثانيةً في باريس العام ١٨٦١ وتدعى النسخة الباريسية.. لحن فاجنر موسيقى الأوبرا وأغانيها بلا صعوبة. ذلك ان النص الشعري للأوبرا شبيه بأوبرا (لوهنغرين).

* الليلة الفولبورغية Walpurgis-night: هي ليلة الثلاثين من نيسان (ابريل)/ الأول من أيار (مايو)، حيث قيل ان فترة راحة العرافات تحدث خلالها (بخاصة في قمة بروكين في جبال هارز). القديسة فولبورغا ارتبطت بالمصادفة مع هذه الخرافة الموغلة في القدم (أشلاؤها نقلت من ديرها الى إيشتات Eichstadt في ألمانيا في الأول من أيار (مايو). تزعم الأسطورة الجرمانية ان العرافات يأخذن فيها بأسباب القصف والعربدة ويراقصن الشيطان.

* رقصة الموت أو رقصة مقابرية: بالإنجليزية dance of death وبالفرنسية dans macabre.. هذا التعبير أُستخدم في العصور الوسطى بتمثيل الموت المجسد في شخص وهو يقود البشرية في رقصة الى القبر. يُستعمل التعبير الآن لوصف أية طقوس غريبة. كلمة macabre مأخوذة عن «مقابر» العربية.

* برونيتو لاتيني Brunetto Latini (١٢٢٠ ـ ١٢٩٤م): عالم فلورنسي (إيطالي)، مؤلف العمل الموسوعي [Li Livrea dou tresor] (١٢٩٥م) بـ langue d'oll.

* توما الأكويني Thomas Aquninos (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤م): راهب دومينيكاني. ولد في إيطاليا وعلّم في جامعة باريس. معلّم الكنيسة وحجتها في اللاهوت والفلسفة المدرسية (سكولاستيك). إطلع على آراء ابن سينا والغزالي وابن رشد عن طريق الترجمات اللاتينية وانتقدها.

* بونافنتورا Bonaventura (١٢٢١؟ ـ ١٢٧٤م): راهب فرنسيسكاني إيطالي. فيلسوف ولاهوتي. لقب بالمعلّم الساروفيمي. مثّل النزعة الأوغسطينية في الفلسفة المدرسية. كان لمؤلفاته الروحية وقع بليغ في التصوف المسيحي. معلم الكنيسة.

* الكاساندرية: نسبة الى كاساندرا Cassandra وهي ابنة بريام وهيكوبا، كسبت حب أبولو لفرط جمالها فأعطاها ملكةً للتنبؤ عندما قبلتْ أن يخطبها، ولكنها حنثت بوعدها وعاقبها الإله بأن جعل نبوءاتها باطلة ولا يوثق بها.

* منشوريا Manchuria: منطقة تاريخية في الشمال الشرقي من الصين (مساحتها ٥٨٥٠٠٠ ميلاً مربعاً). أرغمت روسيا الصين على التخلي عن أجزاءٍ من منشوريا التي تم النزاع عليها (١٨٩٥-١٩٠٥) بين روسيا واليابان. أُحتلت (١٩٣٢-١٩٤٥) من قبل اليابان، إلا انها أُعيدت (العام ١٩٤٥) الى الصين.

* تخم البرينر Brener: هو الحد بين النمسا وإيطاليا.

* آريتينو Pietro Aretino (١٤٩٢-١٥٥٦): كاتب إيطالي ألّف مسرحيات وأشعاراً هجائية وفاسقة.

* هاديس Hades: إله العالم التحتي عند اليونان ويسمى بلوتو أيضاً. يقابله ديس Dis عند الرومان. كذلك يعني العالم التحتي نفسه.

* بادوا Padua (بالإيطالية بادوفا Padova): مدينة مسوّرة تقع في

منطقة فنتو بإيطاليا، تبعد ٢٢ ميلاً غربي فينيسيا (البندقية). توجد فيها مصانع، وهي أيضاً سوق زراعية.

* الغائية teleology: الإعتقاد بأن كل شيء في الطبيعة مقصود به تحقيق غاية معينة.

* اليسوعيون Jesuits: رهبانية أسسها القديس اغناطيوس دي لويولا العام ١٥٤٠م. ينصرف أعضاؤها الى الوعظ والتعليم وأعمال الرسالة.

* تيليمارك Telemark: منطقة في جنوب النرويج.

* أوتريخت Utrecht: مقاطعة في وسط هولندا. تُلفظ أيضاً أوتريشت.

* البيرينيه the Pyrenees: سلسلة جبلية تفصل بين فرنسا وإسبانيا. تمتد على طول ٤٣٥ كيلومتراً بين الأطلسي والمتوسط.

* القديس انطوني Saint Anthony (البادواني) (١١٩٥ـ ١٢٣١): ولد في لشبونة (البرتغال). راهب فرانسيسكاني، إشتهر بفضائله وعجائبه. علّم في فرنسا وإيطاليا. يتوسل إليه الناس الذين يريدون إسترجاع ثرواتهم.

* حجر الفلاسفة Philosopher's stone: حجر (أو مادة أو مستحضر كيمياوي) خيالي، إعتقد أصحاب الكيمياء القديمة انه قادر على تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب أو فضة وعلى إطالة الحياة.

* تريسمجستوس Teismegistus: مؤلف اسطوري لأعمال تجسد التعاليم التنجيمية والخيميائية السحرية.

* هيغ The Hague (أو غريفينهيغ): مدينة تقع على بحر الشمال في جنوب هولندا.

* ساحل كوروманديل the Coromandel Coast: المنطقة الساحلية الجنوبشرقية من الهند والواقعة عند جون البنغال.

* كوتزيبوي Kotzebue: أوجست فريدريش فرديناند فون (١٧٦١-١٨١٩): مؤلف مسرحي ألماني عاش وعمل سنوات كثيرة في روسيا. كان غزير الإنتاج وألّف في الأجناس المختلفة وكانت مسرحياته رائجةً جداً. من مسرحياته (الإسبان في بيرو) (١٧٩٦م)، (العبيد الزنوج) (١٧٩٥)، (بغض

البشر والندم) (١٧٣٩) و(طفل الحب) (١٧٩١). على الرغم من سمعته المعاصرة الواسعة ومهارته الفنية العظيمة إلا انه لم يبقَ من مسرحياته سوى القليل مما يعرض على المسرح حالياً. قُتل على يد طالب ألماني مخبول.

* سيرسي Circe: ربة السحر في «أوديسة» هوميروس التي سحرت ضحاياها ومن ثم حولتهم الى خنازير.

* Carbonar (بالإيطالية): المعنى الحرفي لها وقّاد فحم نباتي. أما المعنى الذي قصده المؤلف توماس مان فهو: أحد أتباع الجمعية السرية الإيطالية المطالبة بالوحدة والإستقلال.

* افلوطين Plotinus (٢٠٥؟ -٢٧٠م): فيلسوف روماني يُعد أبرز ممثلي «الإفلاطونية المحدثة Neo Platonism» - المترجم.

* فولتير Voltaire (١٦٩٤ - ١٧٧٨): فيلسوف فرنسي. يُعد أحد أكبر رجال الفكر في القرن الثامن عشر.

* مؤتمرا الهيغ the Hague Conferences: مؤتمران دعا إليهما قيصر روسيا نيقولا الثاني، عُقد كلاهما في مدينة الهيغ Hague في هولندا، الأول عقد العام ١٨٩٩ وحضره ممثلو (٢٤) دولة، والثاني عقد العام ١٩٠٧ وحضره ممثلو (٤٤) بلداً بضمنها بلدان أمريكا اللاتينية قاطبة. كلا المؤتمرين العالميين عنيا بوضع شروط للنزاع الحربي واستندا الى إتفاقية جنيف للعام ١٨٦٨ وأسفرا عن إنبثاق محكمة تحكيم دائمة دُعيت بالمحكمة الدائمة للعدالة العالمية، والتي تأسست العام ١٩٢٠ - أنظر: New Webester's Dictionary، طبعة ١٩٧٢ - الصفحة ٤٣٣، وكذلك أنظر «موسوعة التاريخ الحديث»، ج١ - دار المأمون - بغداد، ١٩٩٢، ص ٣٥١-٣٥٢.

* الفرنسيسكان Franciscains: رهبانية أسسها القديس فرنسيس الأسيزي العام ١٢١٠م وجعل الفقر أساساً لحياتها. فهي تعيش من التسول. إنصرف رهبانها الى التعليم والتبشير في المدن حيث نشطوا حياة العلمانيين الروحية. رهبانها في الشرق هم «حراس الأراضي المقدسة». حطوا في القدس الأعوام ١٢٢٩-١٢٤٤م ودمياط العام ١٢٤٩، والقاهرة ١٣٢٠ . . . الخ.

* بنديكتس Benedict of Nursia (٤٨٠؟ ـ ٥٤٧): راهب إيطالي. أحد منظمي الحياة النسكية في الغرب ومؤسس رهبانية البنديكتيين في جبل كاسينو العام ٥٢٩م. وضع دستوراً للحياة الرهبانية لا يزال متبعاً حتى اليوم في الكثير من الرهبانيات الغربية.

* عايدة Aida: بحسب الأسطورة المصرية هي أميرة حبشية وقعت في أسر الجيش المصري، وأصبحت جارية عند ابنة ملك مصر الأميرة «أمنيريس». تتنافس الأميرتان على الظفر بقلب قائد الجيش المصري «راداميس».. يقرر الملك أن يزوج إبنته لـ راداميس.. في نهاية الأوبرا تذوق عايدة طعم الإنتصار عندما تختار الموت مع حبيبها دفناً تحت الأرض وهما حيان.

المحتويات

هذا الكتاب

«إنها قمة لم يصل إليها أحد من قبل في تاريخ الأدب والفكر والثقافة بألمانيا. وذلك ما تكلم به الكثيرون هنا وهناك في العالم. فقد نجح مان فعلاً في أن يجعل هذه الحقيقة تذيع في العالم لتصل إلى بلده من جديد».